بول روزن

فرويد وأتباعه

ترجمة:
يوسف الصمعان

بول روزن

فرويد وأتباعه







فرويد وأتباعه

PAUL ROAZEN

FREUD
AND HIS
FOLLOWERS

Roazen, Paul, 1936-
Freud and his Followers / by Paul Roazen. 1st Da Capo Press pbk. ed.
Orginally publisged: New York: Knopf, 1975.

بول روزن

فرويد وأتباعه

ترجمة:
يوسف الصمعان

Jadawel جداول

الكتاب: **فرويد وأتباعه**
المؤلف: **بول روزن**
ترجمة: **يوسف الصمعان**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 ـ فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558ـ13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

طُبع على نفقة مؤسسة
ريم وعمر الثقافية

الطبعة الأولى
تشرين الأول/أكتوبر 2019
ISBN 978-614-418-188-1

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L
Caracas Str. - Al-Baraka Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2019 Beirut

المحتويات

مقدمة المترجم

اجتناب مقدمة طويلة، يستحقها هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي اليوم، يُعبِّر عن قصدية اختارها المترجم تجنبًا للسجال المحموم حول «المتن الفرويدي» بين أنصاره ومجايليه ونقّاده، لا سيما خارج الأطروحات الأكاديمية. هذه القصدية تستلهم أيضًا من جهة ثانية، روح المؤلف الذي حاول جاهدًا الوقوف على الحياد عبر أرضية صلبة تمثَّلت في التخصص بدراسة ثم كتابة سيرة فرويد وتاريخ التحليل النفسي لما يقرب من نصف قرن، بمنهجية غير مؤدلجة لا تسعى إلى اتخاذ مواقف بقدر ما أنها تنهمك في تتبّع المصادر، وتكدح في استقطاب كل شاردة وواردة عبر اللقاءات الشفاهية، والمقابلات المسجلة من معارف وأقارب وشخصيات كانت قريبة من فرويد، كما هو الحال مع مَن تبقّى من مرضاه وهم يروون التفاصيل في السنوات الأخيرة من حياتهم، وأغلبهم معمّرون قدّموا إفادات من شأنها إعادة إنتاج سردية (Narrative) فرويد بعيدًا عن الاستقطاب أو الاحتراب حولها، بقدر ما أنها تبعث المزيد من التساؤل ومحاولة الفهم، وهو ما نحاول مقاربته بالكفّ عن التقديم للكتاب والانحياز إلى أي من الأطراف المتنازعة في سعيها إلى امتلاك «المتن الفرويدي» الشخصية الملغزة والسجالية حتى الآن.

والحال أن سيغموند فرويد هو أحد أكثر الشخصيات المؤثرة في التاريخ الإنساني التي تحوَّل متنها المعرفي إلى متون وهوامش إضافية، من خلال سجالات وصراعات طويلة، تحاول جاهدة امتلاكها، سواء من داخل تيارات ومدارس التحليل النفسي أو من خارجها، وهم الأغلب في إذكاء تلك المعركة الشرسة حول المتن الفرويدي.

يحاول المؤلف جاهدًا، متسلحًا بمنهجيته الأكاديمية، المشي على حبل رفيع لإعادة كتابة المتن الفرويدي بعيدًا عن مزالق الاستقطاب والسجالات التي ظلت تصدر عن فرويد منذ وفاته، وشاءت الأقدار أن تُتاح له الفرصة لبعث الحياة إلى «المتن الفرويدي» عبر نصوص موازية لمدونة فرويد الأساسية تمثلت في المقابلات التي استند إليها ووثّقها، وشملت أسرة فرويد وتلاميذه والعاملين معه بالإضافة إلى عدد من مرضاه الذين ظلوا

على قيد الحياة، وساهمت تلك النصوص، الشفاهية منها والموثَّقة، في منح الجِدَّة للمتن الفرويدي وفتح زوايا جديدة وأسئلة لا حصر لها ستساهم في إثراء المكتبة العربية حول شخصية جدلية، حظيت وما زالت بالكثير من الاهتمام.

يوسف الصمعان

تمهيد

لماذا كتاب آخر عن فرويد وأتباعه؟ إن الخطوط العريضة لأعمال فرويد قد تأصَّلت على ما يبدو بشكل آمن، وإنجازاته في تأسيس التحليل النفسي أصبحت الآن جزءًا من التاريخ. وممّا لا شك فيه أن فرويد ما زال يُلام لوقوفه وراء انتشار عديدٍ من المآسي في حياتنا المعاصرة. يُعتبر البابا بولس السادس آخر الشخصيات البارزة ممن وجَّهوا إليه انتقادًا لاذعًا حتى أنه اعتبره المصدر الرئيس للتحرّر الجنسي في العصر الحديث. وخلال هذا القرن شهدت المواقف تجاه الجنس ثورة حقيقية، يمكن رصد معالمها بشكل جليّ من خلال مقارنة حالة من حالات فرويد العارضة بطريقة لباس المرأة في أيامنا هذه: «لنفترض... أن امرأة هستيريَّة، تعيش حالة إغواء خيالية، فإنها إذا جلست في الحديقة للقراءة تسحب تنورتها إلى الأعلى قليلًا حتى تبرز مفاتن قدميها...»[1]. ولكن المجلدات الثلاثة الضخمة التي كتبها إرنست جونز عن سيرة فرويد، والتي نُشرت بين عامي 1953 و1957، ينبغي أن تكون قد وَضعت حدًّا للتصوّرات الخاطئة حول مدى مساهمة فرويد في العلم والحياة الفكرية. أنهى جونز حياته المهنية الطويلة كأحد أشهر المحللين البريطانيين من خلال سبع سنوات قضاها في سبيل الكشف عن عبقرية فرويد. وقد وجد تعاونًا كاملًا من أسرة فرويد، وخصوصًا آنا فرويد، ابنته الوحيدة التي اقتفت أثر أبيها وهي الآن تلميذته الرائدة. كما اعتمد جونز أيضًا على المساعدات التي قدّمها له العديد من المحللين النفسيين الآخرين الذين أرسلوا له مذكّراتهم عن معلمهم وأقرضوه نسخًا من مراسلات فرويد وتعليقاته على المسودّات الأولى لمخطوطاته. وبذلك استطاعت كُتب جونز أن تحقق نجاحًا باهرًا، ليس فقط لأنها تجاوزت جميع الكتابات السابقة عن حياة فرويد، ولكن أيضًا لأنها قدَّمت تاريخ حركة التحليل النفسي بصورة أفضل.

يمكن القول، قَطعًا إن المنظور الذي أعطاه جونز لحياة فرويد وما أثاره من جدل حافظ في جزء كبير منه على منظور فرويد نفسه. لقد كان جونز وفيًّا لمهمته الأساسية كمؤرِّخ سيرة فرويد المفوَّض. وقد عمل على معالجة كل ما استقبله من مواضيع حقيقية حتى أعطى بعدًا

آخر للتصوّر عن إنجازات فرويد. وكما هو الحال في السِّيَر الذاتية الأخرى البارزة والموثوق بها، قدَّم جونز عن فرويد الكثير من الوثائق أكثر ممّا قد يُتاح للمؤرخين في المستقبل.

إنَّ الحديث عن فرويد ضمن تصنيفاته هو أحد سبل بداية التصالح معه؛ والنهج الفعّال لتقييم مفكر عظيم هو العمل أولًا داخل الإطار الخاص به. إنَّ ما انتهيت إليه من فهم واستنتاجات مستمدٌّ أيضًا في معظمه من أعمال فرويد، وبالمناسبة أودُّ أن أُثني على رجاحة ذهنه لأنه، بعيدًا عن التَّمحيص في النوايا، من الصعب جدًّا أن نفكِّر في بدايات التحليل النفسي بمفاهيم أخرى غير مفاهيم فرويد. فكلما عظم شأن كاتب ما، كلما اختلفت التأويلات في شأن عمله، فمن الضروري أن تكون وجهة نظر أيّ شخص عن حياته الخاصة، على أقل تقدير، محدودة.

لقد بدأت في خريف عام 1964 عقد مقابلات شخصية ولقاءات مع أكبر عدد ممكن من مرضى فرويد وتلاميذه، الذين تعرَّفت إليهم من أجل الحصول على منظور جديد بالقياس إلى ما ظهر حتى الآن عمّا كُتِبَ حول فرويد. ولم يكن هدفي من البداية التثُّبت من مدى حياد جونز، وإنما على خلاف ذلك، لأني لست متأكدًا من قدرتي على فهم فرويد باعتبار بُعدي عن تلك الأحداث التي تعود إلى ماضٍ بعيد، خشيت من عدم تقدير الفروق الدقيقة التي أحاطت بالكتابات المختلفة عن فرويدَ وعالمه. وبعد الاتصال بأكبر عدد ممكن من المحلِّلين النفسيين الأوائل، كنت آمل أن أفهم السياق الإنساني الذي ظهرت فيه أفكار فرويد ونُشرت لأول مرة. ولقد تمكنت في الفترة بين عام 1964 وعام 1967 من مقابلة أكثر من سبعين شخصًا من الذين عرفوا فرويد شخصيًّا، بالإضافة إلى أربعين شخصًا آخرين، أو نحو ذلك، من أولئك الذين كانوا إمّا مهتمِّين بحكم مهنتهم بتاريخ التحليل النفسي، أو كانوا مشاركين بدورهم في حركة التحليل النفسي في وقت سابق. ونجحت في نهاية المطاف في لقاء خمسة وعشرين من المرضى الذين خضعوا لتحليل فرويد النفسي، وبأخت له غير شقيقة، وبابنتين لزوجته، فضلًا عن مقابلة ثلاثة من أبنائه. وللأسف فإن أكثر من ثلاثة وأربعين من هؤلاء الأشخاص كانوا قد تُوفّوا في وقت سابق. وقد أدرجت أسماء جميع الذين قابلتهم في الملحق، وأريد أن أعترف هنا بأنني مدين لهم لصبرهم عليّ، ولحسن ضيافتهم، وتحفيزهم لي، رغم أنّي أتوقع أن عددًا قليلًا منهم فقط قد يتفقون مع العديد من تأويلاتي.

من المؤكد أن رحلاتي في البحث عن مرضى فرويد وتلاميذه ساهمت في تقديري

لفكر التحليل النفسي. فقد بدأت في وقت سابق، في عام 1963، بتحرير كتاب عن الآثار الأخلاقية والفلسفية لأفكار فرويد (نُشر في ما بعد بعنوان: «فرويد: الفكر السياسي والاجتماعي»[2]). وباعتباري من حيث التأهيل الأكاديمي مختصٌّ بالنظريات السياسية ومهتمٌّ بتاريخ الأفكار، شعرت أن أعمال فرويد الثورية لم تصبح بعد جزءًا من الخطاب المتداوَل بين زملائي من المتخصِّصين. ومنذ ذلك الحين، تابعتُ إجراء المقابلات وواصلت أبحاثي، عسى أن يتمّ في المستقبل استخدام علم النفس الحديث في فهم الحْياة السياسية والاجتماعية. وكان ذلك أهمّ ما يشغل ذهني بدرجة كبيرة.

مثَّل الحصولُ على أوراق إرنست جونز في صيف عام 1965 منعطفًا حاسمًا في بحثي. وكان جونز قد مات بعد وقت قصير من نشر المجلد الأخير من مؤلفه حول سيرة فرويد (وقبل أن يتم كتابة سيرته الذاتية الخاصة). لم يكن لأحد أن يتفحص بنظرة ثاقبة (أو فرض رقابة) على جميع المواد الخام التي شكّلت عماد السيرة الذاتية التي كتبها جونز. ولم يبدِ المحلل النفسي المسؤول عن أرشيف جونز في معهد لندن للتحليل النفسي أيَّ اهتمام بي، عندما طلبت منه تلك الوثائق، لأنه هو نفسه لم يمرّ عليها. لقد تحوَّل هذا الأرشيف إلى مخزنٍ رائع من الرسائل والمذكرات غير الرسمية. وتناثرت عشرات الرسائل الأصلية الخاصة بفرويدَ والتي لم تُعَدْ لعائلته إلى أن قُمتُ بتجميعها[3].

ساعدني أرشيف جونز ليس فقط على تأليف كتابي الأول، ولكن أيضًا كتابي الحيوان الشقيق: قصة فرويد وتوسك[4]. تُعيق الأفكار المسبقة، على ما أعتقد، رؤية الجميع تقريبًا لتاريخ التحليل النفسي. وألتقي مع فيكتور توسك وهو شخصية مهمَلة ولكنها مهمّة في الاعتقاد بأنه قد يكون من السهل إقناع الناس بإعادة النظر في مواقفهم بشأن فرويد. ومنذ بدت لي قصة فرويد ـ توسك بما هي حكاية متحوّلة في حدِّ ذاتها صحيحةً، قرَّرت أن أنشرها منفردة بمعزل عن هذه الدراسة واسعة النطاق عن فرويد ودائرته. ولكي أتجنب التكرار، رأيت من الضروري استبعاد الكثير من تفاصيل كتاب الحيوان الشقيق من هذا الكتاب.

إنَّ ما سأعرض له في ما سيأتي حول فرويد وعالمه يولي اهتمامًا كبيرًا لمآسي الإنسان كما جاءت في النظريات التي طوَّرها كل من ساهم في حركة التحليل النفسي. ولن أحاول القيام بفحص معمَّق لكل الأفكار التي قام تلاميذ فرويد المناهضون له ببلورتها مؤخرًا، ولكن سأكتفي بمناقشة مفاهيمهم في سعي مباشر لفهم علاقتهم بمعلِّمهم الأول. ثمّة

قدر كبير من التقارب في الآونة الأخيرة بين كل مدارس علم النفس العميقة قياسًا لما كان عليه الوضع في بداياته حيث أثارت اختلافات النظرية حساسيات حول أيها يكون الأعمق. ودون قدر من المعرفة حول فهم ذات وشخصيات المحللين الأوائل، لا يمكن للمرء أن يقدِّر بشكل كامل أفكارهم وما تعني لهم التزاماتهم الفكرية. لم يكن ممكنًا بالنسبة لي مناقشة كل أعضاء حلقة فرويد، ولا كل الذين من الممكن أن يكونوا تعلّموا من لقاءاتهم مع فرويد، إلا أني حاولت دراسة حياة وعمل أكثر الناس أهمية في مسيرة فرويد المهنية. وفي هذا الصدد أودّ أن أعبِّر عن امتناني الكبير للمستشفيات والعيادات والجمعيات المهنية التي دعتني لكي أتحدث عن فرويد. كنت في كل مرة أتحدث عنه أجدني مضطرًا لأن أسأل نفسي من جديد: «الآن، بالنسبة إلى أولئك الذين لا يعرفون حقًا فرويد كإنسان، ما عسى أن نذكر عنه حتى نتعرف عليه عن كثب؟». لقد كان لفرويد العديد من الوجوه: المغامر والجريء والثوري في علم النفس، ورجل العلم الحذر والمطوِّر لأسلوبه، والفيلسوف الاجتماعي والنبي الحديث والمعلِّم والمعالج المجتهد وزعيم حركة في تطوّر مطرد، والبورجوازي النبيل المثقَل كاهلُه بكثرة أعباء حياته اليومية، الذي لا يتوقف عن تدخين السيجار، والمحاور البارع وهو أبرع من يروي الطُرَف اليهودية. كما أن له جانب شيطاني، إذ يتصرّف تارة بشكل غير عقلاني وطورًا بشكل فائق العقلانية. أنا مدين لما تعلمته عبر ما أجريته من لقاءات وما تم فيها من أخذ وعطاء لمستشفى بيت إسرائيل في بوسطن ومستشفى ولاية بوسطن وجمعية التحليل النفسي الكندي (أونتاريو) وكلية الطب بجامعة سينسيناتي ومعهد كلارك للطب النفسي في تورونتو ومركز الخدمات الصحية بجامعة هارفارد ومركز ماساتشوستس للصحة العقلية ومستشفى ماكلين في بلمونت بولاية ماساتشوستس وقسم الطب النفسي في جامعة ماكماستر والمعهد الوطني للصحة العقلية والمركز الطبي في إنكلترا الجديدة ومستشفى روزفلت في نيويورك ومستشفى سانت مايكل في تورونتو وجمعية التحليل النفسي بواشنطن.

أمّا بالنسبة إلى المساعدة المالية، فأنا ممتنٌّ لصندوق الأصول لبحوث الطب النفسي ولجنة المنح بكلية البحوث ومجلس بحوث العلوم الاجتماعية والمعهد الوطني للصحة العقلية وجمعية التحليل النفسي في بوسطن ومؤسسة بحوث التحليل النفسي وصندوقَي كندي وميلتون بجامعة هارفارد.

ولتحرير هذا الكتاب، أعتبر نفسي مرة أخرى، محظوظًا لما لقيته من مساعدة من

زوجتي الموهوبة، ديبوره هيلر روزن، ومن الناشر آشل غرين أيضًا الذي لم يتوانَ لحظة عن معاونتي.

الهوامش

(1) «Some General Remarks on Hysterical Attacks», The Standard Edition of the complete psychological Works of Sigmund Freud, ed. James Strachey (London: Hogarth; 1953-1974), Vol. 9, p. 231.

سيُشار من الآن فصاعدا إلى هذه النسخة من أعمال فرويد بـ Standard Edition ببساطة.

(2) New York: Knopf; 1968. London: Hogarth; 1969. New York: Vintage; 1970.

(3) نُشر الآن بعض من هذه،

Cf. «Some early Unpublished letters of Freud», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 50, Part 4 (1969), pp. 419-27.

(4) New York: Knopf; 1969. London: Penguin; 1970. New York: Vintage; 1971. London: Pelican; 1973.

من أجل نقاش إضافي عن توسك،

Cf. Paul Roazen, «Reflections on Ethos and Authenticity in Psychoanalysis», The Human Context, Vol. 4, No. 3 (Autumn 1972), pp. 577-87. This article was written as a reply to Kurt Eissler's attack.

مقدمة

مقابلة مرضى فرويد وتلاميذه

ما الذي يُميّز فرويد حقًّا؟ ذلك هو السؤال المركزي الذي سعيت للردّ عليه منذ أن شرعت في مقابلة مرضاه وتلاميذه ممن ما زالوا على قيد الحياة. وقطعًا كنت أدرك تمامًا أن هؤلاء الذين شهدوا تلك الثورة التي حدثت في تاريخ الفكر البشري هم في سنواتهم الأخيرة. لكل مهنة تقاليدها وقصصها وطرق التفكير الخاصة بالماضي التي تُنقل شفاهية، ولا نعثر عليها في الكتب المدرسية التي تقدّم للطلاب، وتشكّل المشاركة في هذه الأقوال والتعاليم جزءًا من هويّة كلّ محلّل نفسي.

في ما يتعلق بتقليد منظومة علم النفس الخاصة بفرويد، وأثناء التحدّث إلى من تبقّى من أتباعه على قيد الحياة، كنت أنصت باهتمام شديد لكل ما له علاقة بتجاربهم. وقد حدث أن اضطرّني أحد المحلّلين المسنّين إلى التخلي عن كل تلك الآمال التي تكوّنت لدي في شبابي حول إمكانية فهم التحليل النفسي في بداياته بقوله: «كيف يمكنك الكتابة عن واقع التحليل النفسي آنذاك؟ هل شهدت ذلك؟!». لقد تبادل كل من ساهم في هذا الحدث التاريخي تهنئة أنفسهم بدرجة مقبولة. وحتى ذلك الحين، أيقنت أنّ أتباع فرويد هؤلاء لن يبدأوا بطرح بعض المسائل الأساسية عن فرويد أو عن مساهمتهم الخاصة في حركته.

بدت العديد من الاستفسارات، على وضوحها غريبةً بالنسبة لأولئك الذين عاصروا مرحلة تبلور نظرية التحليل النفسي. فقد كان من الصعب عليهم الجزم بصحة ما نُشر في السابق وتأكيده، لأنهم اطّلعوا على تلك الكتب وقد خزنت أذهانهم بذكرياتهم الخاصة. وإذا حدث، مثلًا، أن أهمل جونز شخصية معيّنة في سيرة فرويد الذاتية، فقد لا يبدو ذلك على الفور بالنسبة لمن يرى في حضور تلك الشخصية أمرًا مفروغًا منه.

ويمكن أن نتبيّن ميزة غريبة لمثل هذه المقابلات من خلال ما يحدث في العلاج الطبي

النفسي الحديث. فقد يظفر أي ملاحظ ببعض الأفكار حتى وإن لم يساهم في هذه المادة. فما قد يبدو للمشاركين أمرًا تافهًا يمكن أن يمثِّل بالنسبة لغيرهم من الملاحظين أمرًا مهمًّا ولكنه غير معلن في شأن ذلك الموضوع.

حاولت على مدى عامين تقريبًا، لقاء جميع الأعضاء الذي شهدوا انطلاقة حركة التحليل النفسي أول مرة ممن ما زالوا على قيد الحياة وبعض أفراد عائلة فرويد المقرَّبين منه. وعادة ما كنت أقضي بضع ساعات مع كل شخص منهم أتحاور معه (ها) حول علاقته (ها) مع فرويد، وقد توفرت لي فرصة لقاء إحدى المحلِّلات، مثلًا، لما يقرب من مائتي ساعة. وفي حالات أخرى قليلة استمرت مقابلاتي لأكثر من عشرين ساعة. وعلى الرغم من أنه لم تتوفر لي فرصة رؤية بعض الأفراد إلا مرة واحدة فقط من حين لآخر، إلا أني عادة ما كنت أرتِّب زيارات جديدة لتوسيع انطباعاتي أو تصحيحها. وفي بعض الأحيان قد يكون تبادل الرسائل كافيًا، وفي بعض الحالات تكون مشفوعة بمراسلات مطوّلة حول فرويد. وكنت أحاول دائمًا التحقُّق من المعلومات التي أجمعها (فقد تبيّن لي خطأ هؤلاء الأشخاص في شأن بعض الحقائق مثل التواريخ وتسلسل أحداث؛ من ذلك مثلًا أن عددًا لا بأس به من المحلِّلين الطَّاعنين في السن يعتقدون أن إصابة فرويد بالسرطان سبقت نظريته حول غريزة الموت). وبصفة عامة، أحاول أن أستفيد مما أظفر به في مقابلة معيّنة في المقابلة التي تليها.

تميَّزت المقابلات بالمصارحة ودون تحفظ إلى أبعد حد ممكن وبدون تركيب. ولأنه لم يحدث في أي وقت مضى أنْ تحدَّثَ أحد إلى كل هؤلاء الناس واضعًا نصب عينيه الأهداف نفسها التي رسمتها لنفسي في مقابلاتي معهم، فلم أكن متأكدًا في البداية من طبيعة الأسئلة التي يتعين عليَّ طرحها[1]. ولكن أصبحت، بمرور الوقت، أكثر ثقة بشأن ما ينبغي لي أن أستفسر عنه بحيث صمَّمت استفساراتي بدقة كبيرة من أجل الحفاظ على التدفُّق المستمر للذكريات عسى أنْ أغنمَ في النهاية بإجابات عن مسائل دقيقة. وعندما تظهر علامات الإعياء على مَن أستجوبه أو يلوح عليه عدم الاهتمام، أبادره بسؤال أو اثنين لكي استفز أفكاره من جديد.

من المؤكَّد أنِّي تعلَّمتُ الكثيرَ من هذه المقابلات وإنْ بنسبٍ متفاوتة. ثمَّ ما لبثَتْ أن تطوَّرت خبرتي بما فيه الكفاية حتى أصبحت قادرًا على إيجاد صيغة موحَّدة ونموذجية لأسئلتي، وهو ما لم يتسنَّ لي قبل ذلك، إذ لم تتبلور لدي بعد رؤية متكاملة حول ما أنا

بصدده بشكل كبير، ناهيك أنَّ أسئلتي كانت تتغيّر باستمرار، فثمَّة تباين كبير بين بداياتي في إجراء هذا الصنف من المقابلات ونهاية السنة الأولى أو نحو ذلك من عملي.

في بداية السنة الثانية استقرَّت أسئلتي بما فيه الكفاية، ويمكن أن أضرب على ذلك مثلًا ما جاء في الورقة التي أدوِّن عليها ملاحظاتي. لقد التقيت طبيبة أميركية، كان عمرها حينها نحو سبعين سنة (وهي الآن متوفية)، تعيش في مدينة نيويورك، قالت إنها مارست التحليل مع كل من ك. جي. يونغ (في 1925) وفرويد (في 1930)، وهو أمر زاد في فضولي للتعرّف عليها أكثر بوصفها شخصية مهمَّة تستحق هذا اللقاء بصفة خاصة. كما قالت أيضًا إنها مارست التحليل النفسي من قبل في بوسطن، ولكنها كانت عند لقائي بها قد تقاعدت منذ عدة سنوات. وعلى خلاف معظم معاصريها من الأوروبيين، لم يكن لديها، صور أو رسومات أو أي تذكارات أخرى عن فرويد على جدران شقتها.

هذه معلومات أساسية تقريبية، ربما تساعد في تفسير بعض أسئلتي. وبالإضافة إلى ذلك سأقدِّم الكثير من الأمثلة المختصرة من إجاباتها مشفوعةً أحيانًا بتعليقاتي عليها حتى لا يبدو اللقاء وكأنه من طرف واحد، ولأعطي فكرة تقريبية عن كيفية تفاعلنا في ما بيننا. ولن أحاول، مع ذلك، أن أذكر كل شيء في أدق تفاصيله عن إجاباتها طوال المقابلة.

سألتها متى ظهر لديها الاهتمام بأفكار التحليل النفسي؟ كطالبة بكلية طب جونز هوبكنز في عام 1917. **كيف رُتّب التحليل مع فرويد؟** من خلال صديق قديم، كان يجري التحليل النفسي مع فرويد سابقًا. **وكيف رُتّب التحليل مع يونغ؟ هل سألها يونغ أي شيء عن فرويد؟** على الرغم من أن يونغ ظلّ لوقت طويل ينتقد فرويد في عام 1925، فإن هذا الأخير (فرويد) لم يكن يعبأ كثيرًا بما يقوله يونغ حتى حلول 1930. وإذا كانت لم تنعدم وشائج ودّ فرويد تجاه يونغ، إلا أن الأمر لم يكن يحظى باهتمامه كثيرًا. **هل تناقشَ فرويد معها في أي شيء يتعلَّق بتاريخ التحليل النفسي؟ هل كان يعرف أيًا من الأطباء النفسيين في بوسطن؟ مَن كان أحبُّ تلاميذه المقرّبين إليه عندما عرفته؟ مَن هم الأشخاص الذين كان يحبّهم فرويد بدرجة أقل؟** (هذا السؤال الأخير وجَّهه لي أحد الذين استجوبتهم سابقًا وقال ما أسهل الإجابة عنه، على الرغم من أنه أكثر أهمية من السؤال السابق).

هل كانت تعرف أيّ من مرضى فرويد الآخرين في ذلك الوقت؟ أو أيّ شخص آخر خضع للتحليل في أي وقت مضى عن طريق فرويد؟ وكيف وجدت فرويد كمحلل

نفسي؟ هل كان يتحدث الإنكليزية بطلاقة؟ لقد كان مُلمًّا باللغة الإنكليزية بشكل رائع حتى أنه كان يُجيد عاميَّتها، ولكنته تعطيك انطباعًا وكأن الرجل عاش في إنكلترا ردحًا من الزمن. فقد كان كلامه مثل عقله يشمل كل شيء؛ ولم يحدث أنْ وجد صعوبة في التعبير عن أيّ شيء.

هل كان فرويد مهتمًّا جدًّا بها؟ لقد كان يقظًا جدًّا، ليس لشخصها، بل لأنها قد تكون أولى مرضاه. وعندما عادت إلى أميركا عبَّرَتْ عن رغبتها لأن تفعل شيئًا ما لأجله واعترافًا له بالجميل. فبالإضافة إلى ممارستها للتحليل النفسي، قامت بأشياء أخرى عديدة، مثل زيارة أسر مرضاه السابقين، وجمع المال لتمويل دار نشره، ومتابعة ظروف استقبال تلاميذه في الولايات المتحدة باهتمام كبير من أجل حسن وفادتهم. وكان زوجها ابن شقيق أحد مؤيدي التحليل النفسي السابقين، وقد كان لهذا النوع من الترابط أهميته لفرويد. قالت بأنها هي نفسها تحمل صورة إيجابية جدًّا عن فرويد، وإنها أعجبت برجاحة عقله وانفتاحه ورغبته في الاكتشاف والبحث عن أشياء جديدة. (عرفتُ في وقت لاحق، ومن مصادر أخرى، أنَّ فرويد بعدما أجرى عليها التحليل النفسي وجَّه لها في أميركا رسائل يمدحها ويثني عليها. فضلًا عن أسباب أخرى عديدة متَّنتْ علاقاتهما. فقد كانت ذكيَّة جدًّا ومثقفة ومستقيمة، وتعمل بضمير، وغنيّة وذات مكانة اجتماعية مرموقة، وكانت أيضًا امرأة مستقلة في تفكيرها، نذرت نفسها لخدمة فرويد وتحليله النفسي).

كم كانت تدفع له؟ خمسة وعشرين دولارًا للساعة (في حين كان تلاميذه في فيينا يحصلون على حوالى عشرة دولارات للساعة من المرضى الأميركيين). **مَن كان يساعدها أكثر، يونغ أم فرويد، وبأي الطرق؟** وإذا كان لا يمكن أن يكون هناك شخصان أكثر اختلافًا من فرويد ويونغ، فإنه سيكون من الصعب علينا، على الأقل، أن نصدِّق أنّ شخصين في المجال نفسه يمكن أن يكونا متباينين أيَّما تباين. لقد ساعدها بالتأكيد تحليل فرويد لتكون على المسار الذي مكَّنَها من أن تتعلَّم الكثير عن نفسها، وقد توقَّع منها أن تتحمّل مسؤولية كل شيء في حياتها. **هل تعرف شيئًا عن فيكتور توسك؟ سيغفريد بيرنفيلد؟ فيلهالم رايش؟ هيربرت سيلبيرر؟ ماذا تعرف عن زوجة فرويد؟ أو أخت زوجته مينا؟** (أعتبر أن السؤال عن علاقة فرويد مع مينا يحظى بأهمية قصوى حتى قبل ما نُشر حول إمكانية اتصال فرويد جنسيًّا بأخت زوجته). **ماذا تعرف عن آنا فرويد؟ أو أخوات فرويد؟ هل تعتقد أن فرويد يتناقش مع زوجته في شأن مرضاه؟ أو أي شخص آخر؟ مَن مِنْ بين**

أفراد أسرته قرأ كتبه؟ هل كانت بينهما سجالات عن بُعد أو عبر الإبراق؟ هل كانت بينهما سجالات حول التحليل النفسي للأطفال؟ هل كان فرويد حسّاسًا تجاه الأولويات؟ أو عن الانتحال؟ وكيف كان يتعامل مع الذهان؟ وإلى أي نوع من المشخِّصين ينتمي؟

وسألتها كذلك عمَّا إذا كانت لاحظت عليه علامات العُصاب في وقت سابق؟ لم تلاحظ عليه ذلك البتة رغم أنها كانت تهتم بالأمر (ومهما كان يدور بخَلَد فرويد، فقد كان يتحكَّم بنفسه بشكل كبير جدًّا حتى لا تظهر عليه تلك العلامات). ما هو أفضل كتاب عنه؟ وماذا عن موقفها من كتب جونز؟ لم يكن يتحدث عن الرجل الذي عرفته. هل شهدَتْ فرويد في أكثر حالات غضبه؟ أو أكثر حالات اكتئابه؟ أو أكثرها سعادة؟ وهل كان يناقش معها حالة أتو رانك أو حالة ساندور فينيزي؟ وهل كان مرضه البدني باديًا للعيان؟ على أيّ نحو تعتبر نظريات فرويد السيكولوجية امتدادًا لشخصيته؟ وهل كانت تحليلاته النفسية انعكاسًا لخصوصياته الشخصية؟ على أيّ نحو يعكس التحليل النفسي أسلوبه الخاص؟ يفترض أن يكون الأمر كذلك، وهو ما لا يمكن نفيه كلما كان المرء معنيًّا بذلك، رغم أنها لم تشعر بانعدام الموضوعية في تحليله. كيف كانت علاقاته مع أبنائه؟ كيف كانت خصومات إسدور سادغر وساندور رادو مع فرويد؟ وهل عالجت أيًّا من مرضى فرويد السابقين؟ ما هي الحالات التي يشعر في معالجَتِها بالارتياح أكثرَ من غيرها؟ ما مدى تأثير غياب «الأرثوذوكسية» في تقنية العلاج النفسي؟ أتراها ساعدته أم عرقلته كمعالج؟ تحدث فرويد عن كل شيء بوضوح تام عمومًا، فضلًا عن أنه أخضعها هي أيضًا للتحليل النفسي. ولأجل ذلك لم تجد صعوبة في اعتماد طريقة التحليل النفسي عند عودتها إلى وطنها. لم يحاول تصنُّعَ ما يفعله أبدًا، بل كان كل شيء يحدث بشكل طبيعي. وقد جرى التركيز في التحليل النفسي على الموضوع ذاته في أدق تفاصيله دون اعتبار لما هو اجتماعي. ثم واصلْتُ استفساري سائلًا محدِّثتي قائلًا: أيّ الجنسيات أحب إليه؟ وهل شهدت أعراضًا عاطفية على علاقة بأنماط ثقافية معينة؟ ما كان شعور فرويد تجاه حلقة التحليل النفسي بفيينا؟ وهل أعطاها صورًا؟ هل حدث أن ضرب بشدة على الأريكة؟ هل أسرّ لها بروايات معينة؟ وهل كان ينصحها بشأن طفلها؟ ما كان موقفه من الاستمناء؟ هل كان يجادل في القضايا السياسيَّة؟ هل كان يفصل بين حياته العائلية وممارسته الطبية؟ هل كانت تعرف أيًّا من أصدقاء الأسرة؟ هل كانت تثير ديانتُه اليهوديَّة حفيظَتها؟ وهل كان من بين أبناء أصدقائها من يحمل اسم أفراد عائلته تيمُّنًا بها؟ ماذا يعني الناس عندما يشيرون إلى «عدم

تسامح» فرويد؟ لقد كان فرويد، من جهة، يسألها ما الذي سيبقى من التحليل النفسي إذ يظل فرويد أفضل ناقد لذاته. ولكن، في الآن نفسه، لا يتسامح مع كل من يقترح عليه ما يدمِّر أفكاره. «وإني لأشعر، اليوم، بقوة أن الأمور على هذا الحال دون أن تكون كذلك»ـ وقد كانت تلك طريقته.

ومن ثمّ سألتها عما إذا كانت ميلاني كلاين أقرب إلى يونغ وألفريد أدلر أكثر منها إلى **فرويد؟ هل ما زالت تحتفظ ببعض رسائله؟ هل كانت تعرف أن فرويد قام بتحليل ابنته آنا بنفسه؟ نعم، وإلا كيف يكون المرء غير أورثوذوكسي! ما كان موقفه من المِثْليَّة الجنسية؟ مَنْ كان تلميذه المفضّل من بين تلاميذه في أميركا؟ هل كان ينظر إلى التحليل النفسي على أنه إمبراطورية؟ هل كان المال أهم ما يشغل تفكيره؟ إلى أي حدٍّ كان سخيًّا؟ ما هو شعوره حيال النساء اللاتي يمارسن الجنس قبل الزواج؟ هل كان حصيفًا؟ هل يمكنها أن تقترح عليّ أيّ شخص لملاقاته؟ هل أغفلت شيئًا ما يستحق السؤال عنه؟**

إنه، بالطبع، لمن الصعب عليّ أن أنقل طبيعة لقاء من هذا القبيل في كل تفاصيله، فضلًا عمّا تعلَّمتُه منه. فأسئلتي لم تخرج، في مجملها عمَّا أعددته سلفًا، وقد تخيَّرتُ بعض الأجوبة حرصًا منّي على عدم استفزازها. ولكن هذا الشرح التفصيلي لا يشمل بالضرورة معظم ما دار بيننا من سجالات على امتداد ليالٍ طويلة حيث كنّا نحتسي مشروب الكرز اللّذيذ. لقد كان بإمكاني طرح عديد الاستفسارات الأخرى بحرية على أساس ما كانت تقدِّمُه لي من معطيات. وكانت أفضل أنواع الأسئلة تلك التي لا تفاجئُها تمامًا لأنها لها علاقة بأشياء قريبة منها ولو بشكل جزئي، وليس بما كانت تعرفه تمام المعرفة ولديها أجوبة جاهزة عنها. كان الأمر مثاليًّا بالنسبة لي أن ألاحظ أن تفكيرها منصبٌّ على محاولة إيجاد البدائل. واعتمدت على قائمة من الأسئلة المعدَّة، تعلَّقَ أكثرُها بالجزء الأخير من المقابلة، والذي بدأت تجفُّ فيه ذكرياتُها عن الماضي.

ربما كان السبب الرئيس لإعداد بعض الأسئلة سلفًا، أن أحافظ على سير المقابلة واستمرارها دون أن ينفَدَ صبرها. وقد اخترت هذه المجموعة من الأسئلة كمثال لأن هذه المقابلة تمَّت وفقًا لخطَّة، وانتقلت فيها من نقطة إلى نقطة، كما يبدو أنها حقَّقَت ما هو متوقَّع منها. وعلى الرغم من أن هذه القائمة تعتبر مثالًا تقريبيًّا، فإنه في غضون شهر أو نحو ذلك بدت لي بعض القضايا كما لو أنني لن أسأل عنها مرَّة أخرى. ولكن أستطيع أن أتذكَّر بعضها أثناء عملية البحث عن تلك الأسئلة في مناسبات عديدة كلَّما همَمت

بإعداد مقابلات أخرى. وكلما أصبَحَت بعضُ المواضيع عناوين رئيسةً للمحادثة، مكّنني ذلك من أن أقيِّم، من زوايا مختلفة، مدى تأثير شخصية وخبرة الشخص الذي أجريت معه المقابلة على وجهة نظره.

كنت أنظم مقابلتي معها على نحو غير عادي بحيث أهيِّئ نفسي جيّدًا تمهيدًا لذلك وأعمل على التركيز على بعض المشاكل التي أرى أنَّها تستحق الاهتمام وأنها مؤهَّلة بشكل خاص لمناقشتها.

لم تكن تهمّني فقط الإجابة الحَرفيَّة على السؤال، بل كانت تشغلني أيضًا نبرة صوتها، وإيماءاتها، وقَسَمات وجهها وتعبيرات عينيها. (أتذكّر كيف كان ردّها معبِّرًا وعيناها تتراقصان، حيث ردَّتْ مستغربة من فرويد «يا إلهي، وكيف كان يمكن أن يكره!؟»). لقد كانت غايتي معرفة الحقيقة، ولكني أردت قبل كل شيء الفهم. لذلك كان هدفي التقصّي عمّا يتخفّى وراءَ تداعياتها الحرَّة. وتحتاج مراجعة مجريات المقابلة حرفيًّا الاستعانة بجهاز تسجيل، بيد أنَّ الأمر يسبّب لي إزعاجًا كلَّما تعلَّق الأمر بمواد بشرية حميميَّة إلى حدّ ما، وهو ما يجعلني متحفِّظًا (وبدلًا من استخدام جهاز تسجيل، كان عليّ القيام بتدوين الملاحظات ثم أعيد صياغة المقابلة بعد ذلك، ولكن لم يكن تدوين الملاحظات ممكنًا بالنسبة إلى كثير من الناس، وكذلك بعض الموضوعات، ولم أكن قادرًا على تدوين ما يقولون على الفور، بل كان عليّ أن أنتظر انتهاء المحادثات).

يجب على أي عالم، مهما يكن غير متحيِّز، أن يمتلك القدرة على التقييم لكي يعرف ما يستحق أن يدوّنه في تقاريره، لذلك استنَدْتُ في أسئلتي إلى ما كنت تعلَّمتُه حتى ذلك الحين، وصمَّمت عليه للاستعانة به في أبحاثي المستقبليَّة. وتحقيقًا لهذا الغرض فكل تعبير، وكل وقفة أو ضحكة، كانت تُسجَّل في ذهني كجزء من الإجابة. وكنت أريد أن أتعلَّم كل ما يمكنني تعلّمه في مساحة زمنيَّة محدودة، تطلب ذلك نحو ثلاث ساعات من بعد الظهر.

وكلَّما تقدَّمتُ في مقابلاتي كلَّما بدأت أفهم فرويد أكثر مما لو اكتفيت بقراءة كتبه فقط. بعد فترة من المقابلات الموسَّعة وجدْتُنِي أتجاوبُ مع التعليقات التي نقلت عنه من قبل قائلًا في نفسي: «لقد صرَّح بذلك فعلًا». ومن ثمَّ أصبح بإمكاني التفكير في فرويد كشخص بشكل متصاعد.

حتى لو كان عليّ الآن إعداد السجل الكامل الذي احتفظت فيه بهذه المقابلة، سيكون أقلّ حيوية ممّا أتذكّره. ومن المؤكد أن ما تعلَّمْتُه من تلك السيدة المتعاونة في ظهيرة يوم

واحد مهم للغاية. ولكنه كان قيّمًا جدًّا بالنسبة لي في ما يتعلق بموقفي من شخصيتها ككلّ وكيف مكّنني ذلك من دمج معلوماتها مع ما قيل لي في مقابلاتي الأخرى. (ويعود ما أحرزْتُه من تقدّم في عملي إلى أني كنت دائمًا بعد المقابلة أتواصل معها من جديد حتَّى أقطَع الشكَّ باليقين في الأمور التي يخامرُ ذِهْنيَ الشكُّ فيها، وأشكرها. كانت تجيبُ عن استفساري وأفادَتْني بأنّها كتبَت إلى إحدى صديقاتها القديمات تُوصِيْها بأنْ تتعاونَ معي) ولم أكن، في البداية، أتوقع تعاون جميع من التقيتهم في نهاية المطاف. فقد كان المحلِّلون يعلمون حقَّ العلم في ما بينهم أنهم متحفظون بشكل خارق تجاه الغرباء. فأية حركة تبدو ظاهريًّا متجانسة، يمكن أن تكشف باطنيًّا عن كل الضغوط والتوترات ووجهات النظر المتناقضة والتطلعات المتنافسة. ومع ذلك، ما زال أولئك الذين خاضوا معركة الدفاع عن فرويد والتحليل النفسي في بداياته تساورهم بعض الشكوك حول ما إذا كان فرويد قد وضع موطئ قدم له في التاريخ بشكل نهائي، والحفاظ على تماسك المجموعة التي ستتصدى بقوة لأي شخص تسوِّل له نفسه خيانة تلك القضية. (كان المرضى الأوائل والمحلِّلون المتقاعدون بصورة أو بأخرى معفيِّين من هذه القيود، فضلًا عن ضغوط المصلحة الاقتصادية الذاتية، لأن ليس لديهم دخل من التحليل النفسيَ قد يخشون عليه من خلال الإفصاح عمّا يجول في خاطرهم).

ومع ذلك، كان هؤلاء الناس متحمسين للتحدث معي بحرية. وقد شعر الكثير منهم، أحيانًا بشكل صريح، أنهم إذ يفعلون ذلك إنما يرُدُّون له الجميل. ولم يستغرق الأمر الكثير من الجهد لإقناعهم بأن ذكرياتهم تعتبر مصادر تاريخية قيِّمة. وعلاوة على ذلك، فإنه من طبيعة البشر أن يسعدوا كلما شعروا أنَّ لهم أهمية خاصة وأنهم محلّ تقدير. وأتفهم جيدًا تعاون العديد منهم لأن في ذلك إطراء لغرورهم المشروع المترتب عن القيام بذلك.

لقد منحت محادثاتي مع هؤلاء الناس فرصة للتعبير عن بعض مشاعرهم المتناقضة، الواعية وغير الواعية، حول علاقتهم بفرويد. يمكنهم أن ينفّسوا لغريب عن المظالم التي أحكمت سنوات من الطاعة قبضتها عليها. وبحسب اعتراف فرويد لاحقًا، فقد كان مترددًا في تحليل ردود الفعل السلبية لمرضاه الأوائل[3]. ولم يثبت تاريخيًا إطراء فرويد البتة. ولأنه كان واثقًا من مكانته المتميزة في تاريخ الفكر، فقد كان يعزو ما حظي به من إخلاص وتقدير كبيرين لعظمته التي لا سبيل لإنكارها.

لقد كانت وجهة نظر فرويد مفهومة، ولكن أسيء فهمه ولم تُقدَّر عبقريَّته حقَّ قدرها،

ولأنه كان معالجًا مجتهدًا ومتفانيًا في عمله، فقد كان يراوده شعور بأنه يستحق اعترافًا بقيمته من قبل جميع مرضاه. وقد عرفت علاقته بتلاميذه عداوة متنامية ومن ثمَّ تحوّلت ضد العالم الخارجي حتى أصبح عدوه عموم الناس الذين لم يُقَدِّروا مساهماته حقَّ قدرِها. إنَّ ما فشل فرويد في تحليله حوَّلَهُ ضدَّ الآخرين وتطوَّرَت بموجب ذلك تلك المشاعر التي لم يستطع الإفصاحَ عنها إلى افتراضات هائلة تبعث على الفزع. يمكن أن نعثر هنا عمَّا يبرِّر نزوعَ تلامذة فرويد المبالغ فيه لحماية حياته الخاصَّة، إذ استطاعوا أن يحوِّلوا عدائيَّتهم تجاهه إلى مشاعر مفعمة بالاستياء ضد العالم الخارجي، متجاوزين بذلك تضارب مشاعرهم، لذا كان من السهل تقدير مدى استعداد الغرباء لتحرّي أيّ من نقاط ضعف فرويد الإنسان.

لقد كان التحدث إليّ بالنسبة للبعض ممن حاورتهم بمثابة رخصة للتعبير، وإن كان بطرق غير مباشرة، عن مشاعر الاستياء التي يشعرون بها حيال تورطهم مع المعلم وحلقته. وقد استغرقني التحقُّق من ذلك بعض الوقت. لقد تملكني إحساس شديد بالرهبة في البداية عندما شرعت في البحث في شأن فرويد على اعتبار أني لم أكن أدرك أنّ بعض تلاميذه كانوا يريدون أن نلتقي ثانية لمزيد من الحديث. كلما زاد توقيرهم لفرويد زادت الموانع بالنسبة لي. وبمجرد أن أتيحت لي فرصة مناقشة بعض الجوانب الأقل أهمية في علاقاتهم بفرويد، كنت أحاول مساعدة الرواة ليصبحوا أقل تحفّظًا، وفي الوقت نفسه بدأ خجلي من سبر أغوار حياة فرويد يتبدَّد واستطعت أن أسلك في ذلك مسارًا أكثر موضوعية.

لقد أدركوا منذ الوهلة الأولى أنهم يتحدثون مع شخص يكن احترامًا عميقًا لمكانة فرويد. لقد كان في إمكان تلاميذه انتقاد فرويد وتحليلَه النفسي لأنهم شعروا أني أقدِّر تمامًا عبقريته، وبالتالي لن أسيء فهمهم. وقد امتد إعجابي بفرويد إلى إعجابي بهم أيضًا، وقد أحسوا باحترامي لحياتهم ولعملهم.

شعرت في بعض الأحيان بالقلق لدفعي هؤلاء الناس لاستحضار ماضيهم. ولكن من أكثر الجوانب التي تدفعهم لمساعدتي شعورهم بأنهم كانوا يساهمون في كتابة التاريخ. إذا كان سرد تلك الأحداث البعيدة يساعد في إرشاد أحد الشباب، ومن خلاله يتمّ إرشاد أولئك الذين لم يُجْرُوا أي اتصال شخصي مع فرويد، فإن ما بذلوه من الجهد والوقت جديرٌ بالاهتمام. كان معظمهم طاعن في السن وقد تقاعد العديد منهم جزئيًا وكانوا جميعهم تقريبًا في السبعينيات والثمانينيات من العمر.

لم تكن هذه المقابلات ممنوعة لأنها كانت أشبه ما تكون بالأحداث الاجتماعية. ومن أجل تبيّن مدى معرفتي، وتجاوز الصيغ المختلفة للحديث عن فرويد، كنت في كثير من الأحيان استحضر، في بداية كل مقابلة أجريها مع شخص من بين هؤلاء، بعض المعلومات الجديدة التي أُخبرت بها قبل ذلك من شخص غيره.

وكلما وثق أتباع فرويد بي أكثر، كان من السهل عليّ ضمان مقابلة أخرى في المستقبل أحصل فيها على معلومات أكثر. أبديت استعدادًا كبيرًا لتعلُّم كل ما كان عليهم تعليمي، دون القيود التي يفرضها أولئك الذين شاركوا في النزاعات الماضية.

على الرغم من أن بعض المقابلات كانت سطحية، إلا أنها كانت على العموم تعكس بشكل ملحوظ تبادلات مكثفة. وقد كانت بالنسبة لي، بمثابة مغامرة فكرية مثيرة. وأما بالنسبة إلى موضوعاتي، فقد كان للقضايا المثارة معنىً حقيقيًا. امتلكت تلك المقابلات أثرًا عميقًا في نفوسهم، من ذلك مثلًا أن اثنين من بينهم أخبراني بعد ذلك أنهما لم يتمكّنا من النوم بعد لقائي بهما ذات ليلة. وحتى الآن وفي كلا الحالتين يبدو أنهما لا يشعران بالاستياء لما كنت قد أثرته فيهما. كنا نتبادل الأدوار أثناء تلك المقابلات؛ حيث استفاد الكثير ممن حاورتهم من المعلومات والاستفسارات التي كنت أنقلها إليهم بقدر استفادتي منهم.

والحقيقة أن تلك المقابلات لم تخلُ هي أيضًا من صعوبات. ففي البداية كنت أشرع في إجراء مقابلاتي دون أن يكون لدي أدنى فكرة واضحة عمّا يمكن أن أفعله بما قد أحصل عليه في النهاية. ولو كنت قد عرفت الأسئلة الحاسمة منذ البداية، لما كان هناك جدوى من القيام بهذا العمل البتة. وقد مثَّلتْ معرفة الأسئلة الصحيحة، سواء في مجال المعرفة أو في الحياة، دائمًا أصعب مشكلة. فما لبث العمل أن أصبح عبئًا ثقيلًا أكثر ممَّا كان عليه في البداية، فضلًا عما تضمَّنَه من مشاكل أصلًا.

كنت لا أركِّزُ كثيرًا في مقابلتي على كل ما لا جدوى ترجى منه في سياق اهتماماتي. وقد تعمَّد كثيرٌ منهم التحفُّظَ على بعض البيانات الشخصية والخبرات الخاصة عديمة الأهمية بالنسبة إلى المؤرخ. ولكن كان من الصعب في كثير من الأحيان تخطّي هذا اللبس حول ما انتهيت إليه بعد المقابلة، لأنني أنا نفسي لم أكن متأكدًا من ذلك تمامًا. كان عليّ تجنب الفضيحة، لأنه على الرغم من أنه كان مهمًّا بالنسبة لي أن أكون على بيِّنة من بعض المواد

التي قد تفجّر خلافات حادة بشأنها، فلم يكن ضروريًّا نشر مختلف المصائب والكوارث البشرية.

وغالبًا ما لا يرغب أحدهم في مناقشته البتة، يجهر به غيره بكل حرية. وكلما تقدّمت في مقابلاتي ازداد تعاطفي مع أولئك الذين على علم ببعض المسائل المعيَّنة. ومع تطوّر مهاراتي، أصبح بإمكاني أن أوجّه المحادثة في اتجاه مختلف، حتى أثناء المقابلة، حتى أبلغ بها مستوى أكثر جدوى. وإذا ما تمنَّعَ أحدُهم في الحديث ضمن سياق معين، يمكن تحفيزه للحديث ضمن سياق آخر.

على الرغم من بعض الإشكالات الخصوصية التي واجهتها في كل مقابلة إلا أنه يمكن استخلاص بعض النتائج العامة حول تلك الصعوبات. ولأسباب معيّنة يعتبر غير الموالين أفضل مصدر للمعلومات، وهذا يتفق مع مبدأ معروف جدًّا في العمل الاجتماعي أو الأنثروبولوجي الميداني. فعادةً ما يكون أولئك الذين يشعرون بأنهم عوملوا معاملة مجحفة على استعداد للخوض في مواضيع يعتبرها آخرون سمجة، بل مستعدّون لأن يقدِّموا تفسيرات يعتبرها الأكثر ولاءً مثيرة للفتنة. ومع ذلك قد يكون المتذمِّرون اليوم بعيدين في الماضي وربما تكون وجهة نظرهم على حساب الألفة الحميمة.

ليس عسيرًا البتَّة على مَن لا يعرف إلا النزر اليسير عن فرويد وحلقته تنظيم أفكاره بحسب ما يستمع إليه من شهادات من قبل هؤلاء الأشخاص الذين أجريت معهم مختلف المقابلات في شأن ذلك. ولكن تبقى إحدى أهم الصعوبات التي واجَهَتني في كل ذلك، استعداد الأفراد للحديث بإطناب دون توقف. ولذلك كنت أعمد في مستهل حديثي إلى التذكير بما أعرفه قبل ذلك تجنّبًا لتضييع الكثير من الوقت. والشيء الغريب أنهم غالبًا ما ينظرون إليّ بوصفي شخصًا جديرًا بالتحدث معه، وذلك ما شجّعهم على التحدُّث عن تجاربهم الخاصة خلافًا لما تقتضيه الحكمة التقليدية.

وفيما كان يشعر بعظمة مطالبي أولئك الذين يعلمون الكثير عن تاريخ التحليل النفسي. فإنه كان شاقًا عليهم، في المقابل، عرض تجاربهم على شخص غريب، حفاظًا منهم على ما تحمله ذكرياتهم الشخصية من معنى بالنسبة إليهم. لقد وجدوا صعوبة في تقبُّل تفسيرات بسيطة للأحداث الماضية، واضطروا إلى إعادة التفكير في ما يعرفونه في ضوء ما قدَّمْتُه لهم. كان من الصعب عليهم مراجعة أفكارهم في بعض الموضوعات، فقد كانوا تقريبًا

وبدون استثناء مستعدين لتصديق كل شيء في ما يتعلق بمختلف المحطات التاريخية التي عرفها التحليل النفسي، بينما كانوا صارمين وكتومين في كل ما يتعلق بما تعلّموه هم أنفسهم. تميّز معظمهم بالقدرة على التكيّف مع ما يتعلق بأفكاره الخاصة، على عكس ما كنّا نتوقع في التزاماتهم العامة. ليس من المستغرب أنه كلما كانوا أكثر دراية بفرويد شخصيًّا، كانوا أكثر انفتاحًا على أي اقتراحات جديدة تتعلق بالتفسيرات الممكنة.

استغرقت استراتيجية مقابلاتي قدرًا هائلًا من الوقت. وكان المبدأ الرئيس الذي قامت عليه هو أنه كلما تعرضت لهؤلاء الناس أكثر، كلما زادت قيمة الأفكار التي تطفو على السطح في نهاية المطاف. كان عليّ أن أتنقل لمسافات بعيدة جدًّا، ومن غريب ما جرى أني قطعت آلاف الأميال لمقابلة شخص فقط من أجل استئناف المناقشة نفسها من حيث انتهيت مع شخص آخر. كان تأثير فرويد على مرضاه وتلاميذه شبيه بالتنويم، كان بعضهم يعيشون في أماكن متباعدة، وكانوا يرغبون في مناقشة الموضوع نفسه بالكلمات نفسها تمامًا، ولم يكن يُخفى على أحد أنهم كانوا يستخدمون عبارات فرويد نفسه. وقد أثقلت كاهلهم رغم كرم الضيافة. وعلى الرغم من أنّ طرق تقبُّلهم لأسئلتي كانت متنوعة، فقد كنت أكثر صراحة في ما يتعلق ببعضهم بعضًا. كانوا إجمالًا متعاونين ومنفتحين وكرماء بشكل لافت. ورغم اختلاف مقدار ذكائهم وحسِّهم العاطفي، فإن مقابلاتي معهم دونما استثناء تقريبًا، أثلجت صدري. ومع ذلك، على المرء أن يعترف بأنّ أهالي فيينا – على وجه الخصوص – خبراء في استخدام جاذبيتهم، حتى وإن كانوا متحفّظين جدًّا.

تُعدّ سنة 1923 محطة مفصلية هي الأهم في تقدير كل من عرف فرويد شخصيًّا، ففي تلك السنة أصيب بالسرطان الذي سلبه الستة عشر عامًا الأخيرة من حياته وأجبره تدريجيًّا على الانسحاب من العالم. لقد رأى أولئك الذين التقوا فرويد بعد مرضه أقلّ مما رآه أولئك الذين عرفوه قبل ذلك، فقد كان فرويد بعد مرضه مختلفًا بجميع المقاييس. ومع ذلك، ما زال المحللون النفسيّون الذين ترأسوا الحركة في بلدانهم، أو الذين لعبوا دورًا استراتيجيًّا في مراكز الطب النفسي، أو الذين قبلوا بالتحليل الشخصي مع فرويد – حتى وإن كان ظهورهم مؤخّرًا على الساحة محدودًا – يمثّلون مصادر ممتازة للمعلومات لا غنى عنها.

إلى أولئك الذين عرفوا فرويد، وارتبطوا به ارتباطًا وثيقًا بحيث استطاعوا أن يدخلوا في حياة وفكر هذا الرجل المتحفّظ، أقول لهم إنّ كثيرًا مما أثَرْتُه في ما يتعلق بهذا الأمر

يظل قابلًا للنقاش. فللحياة ثرثرتُها التافهة، ما يجعل إمكانية تزييف بعض الحقائق واردة، وعليه يصبح وضعها موضع شك أمرًا مبرَّرًا. ومن ثمّ يتعيَّن على المعايير ذات الصلة بالنظر في حياة فرويد أو أيّ موضوع آخر له أهميته التاريخية أن تحيط بأكثر ما يمكن من وجوهه. (اشتكى فرويد نفسه ذات مرَّة من حجب معلومة شفوية عن دوستويفسكي، فقد كتب: «لا يمكن لكُتّابِ السِّيَر والعاملين بالبحث العلمي أنْ يشعروا بالامتنان لهذا التقدير»[4]). وبمعرفة الكمّ الذي حُذف عمدًا من السجلات المكتوبة عن فرويد، وكيف حُجبت الشهادات الشفوية لأولئك الذين عايشوا تلك الأحداث وعدم تدوينها، فإنه يتعيّن علينا أن نستنتج أنَّ التقدير المفرط للأدلة التي نشرت كان في غير محله.

وفي هذا الصدد ارتأيت أن أكون على أهبة الاستعداد ضد كل تضليل قد يطرأ نتيجة تقلّبات الذاكرة البشرية في شأن أحداث الماضي. ولكن طالما كان بإمكاني التحقق أكثر من مرة من الذكريات الانتقائية التي لا مفرّ من ذكرها، فقد كان عليّ استيعاب الفروق الدقيقة في اتصالي بأولئك الذين تواصلوا بشكل مباشر مع فرويد. فقد كان بإمكانهم سرد أشياء كثيرة جديدة عن الفترات التي عايشوها. فمثل هذا البحث قد يضل طريقه إلى حدٍّ ما كلما تعلّق الأمر ببعض الأطوار الغريبة. ولن يتسنى لنا التصريح بأن تاريخ التحليل النفسي «جدير بالاحترام» إلا حين لا يبقى أحد حيًّا ممن يمكن أن ينقض أي شيء مما ذكر بشكل موثوق.

ومع أن التحليل النفسي كاللُّغم الذي يُهدّد حياة الناس الخصوصية، فإن البعض لا يترددون في مناقشة الأعراض الجنسية التي كانت تزعجهم قبل تحليلها من قبل فرويد، كما كان كثير من الناس يتحدث بحرية عن أنواع القضايا التي كانوا يطرحونها مع فرويد أثناء علاجهم. ولم أسمح لنفسي بالإسهاب في البحث في أدق تفاصيل أسرار المحللين الأوائل، لأن هدفي يتعلق أساسًا بمعرفة ما لم يدوّن في الكتب أو التفاصيل التي لم يكلّف أحد نفسه مشقة الحصول عليها، أو أي شيء من شأنه أن يضطرنا إلى أن نعيد النظر في تلك البديهيات المسلَّم بها، أو تلك التي كان يُنظر إليها على أنها لا تستحق أن تذكر أو أن تؤرّخ. وعلى الرغم من ذلك وبطريقة ما، كان البحث عن الأمور التي لم يسبق التحدُّث عنها يسير بالتوازي مع السعي للكشف عن الأمور غير المعلن عنها عمدًا. وسرعان ما أصبح واضحًا أن الكثير من المعلومات لم يتمّ ذكرها في الكتب، لأن بعض الناس لم يكن يريد لها أن توضع هناك.

لقد فشلت في مقابلة بعض تلامذة فرويد لسبب أو لآخر، وخاصة لعدم تناسب مواعيد مقابلاتهم مع ما تسمح به ظروفي الخاصة. وقد كانت كل مقابلاتي مثمرة وإنْ بدرجات مختلفة، وهنا لا بد أن أذكر مقابلة مع أحدهم، كان أشدّهم حرصًا على لقائي، كنت فيها أشبه بمن يحاول تخطّي جدار صلب، مضت هذه المقابلة التي أجريتها مع أحد محللي فيينا القدامى بمسار كارثي. فقد كان الرجل ورعًا جدًّا حتى أنه أحضر معه باقة من الزهور الجديدة، وضعها على منقوشة تجسّد فرويد في غرفة الانتظار. ولأجل ذلك كان عليّ أن آخذ في عين الاعتبار عند الشروع في استجوابه ألا أضايقه أبدًا ما استطعت إلى ذلك سبيلًا: «متى انضممت إلى جمعية فيينا؟»، فأجاب بأنه لا شأن لي بذلك وامتنع عن الإجابة. وعمومًا كانت بقية المقابلة مثمرةً تقريبًا. وفي الأثناء استدرك قائلًا في تعجّب «أجئت تتقصّى أسرارنا»! بدا الأمر غريبًا بالنسبة لي، لأنه على الرغم من هذا الجفاء، إلا أنه وافق على رؤيتي. ولكن بفضل إصراري وتدخُّل أحد الضيوف من أصدقائه القدامى التقيت معه مرة ثانية، ونجحت هذه المرة في الحصول على إجابات على أسئلة ملحّة. وعلى الرغم من أنّ لقائي مع هذا الرجل كان استثنائيًا، فقد كان يغلب عليه عدم الارتياح، وهو السمة الغالبة في معظم مقابلاتي، حتى أني كثيرًا ما كنت أتساءل بيني وبين نفسي: «ماذا تعلمتَ؟».

وأعتقد، بكل بساطة، أن أهم ما في الأمر هو تعرُّفي على هؤلاء الناس الذين استجوبْتُهم. فلقد كانوا جزءًا من تاريخ له قيمته ودلالاته الإنسانية بالنسبة لكل ما نشر في هذا الشأن. لقد وفَّرَت مقابلتي معهم نماذج في ذهني ساعدتني على فهم ما حدث في الماضي. وبدأت تتكوّن لدي تدريجيًّا صورة أشد قربًا من الواقع استطاعت أن تحلّ محل ما كان يبدو لي سطحيًّا في الكتب.

لقد كان لقيمة هؤلاء الأشخاص التاريخية، وأهمية مقابلاتي معهم، الأثر البالغ في تطوير معارفي على نطاق واسع. اعتبر البعض أنّ كل شيء يتعلق بمعارفهم الشخصية هو من قبيل الأشياء «الخاصة» التي لا ينبغي أن تظهر في الكتب. في حين استخدم الجميع تقريبًا عبارة «شخصي» التي تفرض التوقف عند حدّ معيّن لا ينبغي تخطيه كلما اقتربنا ممّا نريد حذفه، فقد كانت بعض النفوس اللطيفة تريد أن يظهر كل شيء على أتمّ وجه.

لقد تبيّن، وعلى خلاف المتوقع، أن العديد منهم يجهل مختلف المنشورات حول هذا الأمر: فمنهم من اكتفى بقراءة بضع صفحات من السيرة التي كتبها جونز، والبعض الآخر

اطّلع على مجلد من بين ثلاثة مجلدات فقط. ومن ناحية أخرى، كانت المرأة التي عرضت جزءًا من مقابلتها مجتهدة جدًّا بحيث استطاعت أن تقرأ كتابًا توقعت أن أسألها عنه. كان بعضهم يعي جيدًا أن روايتهم الشخصية لما حدث هي كل ما يمكن التعويل عليه. وبالنسبة إلى الآخرين، أضفى بُعد المسافة الزمنية والتغيّرات التي طرأت على مسارات التفكير في ميدان الطب النفسي قدرًا من الموضوعية على تأويلاتهم للماضي. وضّحت ذلك إحدى المحللات عندما قالت إنها كانت تنظر إلى ماضيها من خلال نافذتين: تعود الأولى إلى زمن انضمامها إلى حلقة فرويد، والثانية، إلى الزمن الحاضر حيث اعتزلت كل شيء. وفي معظم الحالات تقريبًا، ثمة ما يساعد على استجلاء قيمة تاريخية ما في شأن التحليل النفسي تصل بيننا على قاعدة ما بلغه تاريخه من تطوّر.

عندما اعتبر فرويد في عام 1890 أن المشاعر المكبوتة وخاصة الجنسية منها هي أصل العُصاب، شعر بأنه لم يأتِ بشيء جديد أساسًا. وعندما أظهرت مقولات أحد أساتذته أن هناك من عرف في السابق دور الإحباط الجنسي، قال فرويد: «حسنًا، إذا كان يعلم ذلك، لماذا لم يفصح عنه؟»[5]. كان التزام فرويد العلمي يقضي أنه ينبغي إتاحة جميع أنواع المعرفة واستخدامها. وقد كان هناك قدر كبير يعرفه تلامذة فرويد عن أوجه القصور وكذلك نقاط القوة في منهجه، ومع ذلك لم يُتح جزء كبير من هذه المعلومات إلى عامة الناس. لقد صار فرويد بمثابة بطل لا يريد العديد من الناس مناقشة المصادر الإنسانية والشخصية لمساهماته التاريخية. هذا ويُعدّ فرويد نفسه ثوريًّا في عالم الأفكار وعدوًّا عنيدًا للأكاذيب والنفاق. ومن هذا المنطلق حاولت المضي قدمًا في عملي.

لقد حاولت أن أنشر أكثر ما يمكن من المواد التي جمعتها عن فرويد وحلقته. وحاولت أيضًا أن أتجنب في سردي هذا أكثر ما يمكن من التأويلات. وآمل أن يحفّز ما كشف عنه بحثي من المعلومات الآخرين على التفكير في قضايا أساسية جديدة من شأنها أن تنتهي إلى استنتاجات تختلف عمّا انتهيت إليه. ولم تكن غايتي العثور على «سرّ» عبقرية فرويد، بقدر ما أردت أن أسرد قصة علاقته بأتباعه. فنحن جميعًا تلامذة فرويد. وإذا ما تخلّينا عن روايتنا غير الواقعية عن الماضي، أمكن لنا العيش بأكثر ثقة في إمكانيتنا في الزمن الحاضر.

الهوامش

(1) قبل سنوات عدة من مشروعي، قام كرت إيسلر بمقابلات مسجلة مع أوائل المحللين والمرضى الذين كانوا على قيد الحياة نيابة عن أرشيف فرويد. وفي محاولة لإقناعهم بالتعاون معه وعدهم بأن ما سجلوه سيحفظ في مكتبة الكونغرس ما بين خمسين إلى مائة سنة دون أن يُفتح. كنتيجة، فإن ما لا يضر والخاص جدًّا غير متاح. زعم بعض من قابلتهم أنهم لا يعلمون عن هذا التقييد على موادهم، ولم يعترض بعضهم على أن تُتاح للعمل البحثي. أرسل إيسلر لإرنست جونز نسخًا من هذه المقابلات مع بول كليمبرير وألبرت هيرست (أرشيفات جونز). من أجل مثال على آلية إيسلر في المقابلات:

cf. Reich Speaks of Freud, ed. Mary Higgins and Chester M. Raphael (New York: Farrar, Straus & Giroux; 1967), pp. 3-128.

اطلعت على بعض من مقابلات إيسلر الأخرى (احتفظ البعض بنسخ وأرسلها إليّ)، وخلصت إلى أن توجهي كمحاور أكثر تدخلًا من تلك. كما أن هناك مشروعًا في الطريق عن التحليل النفسي في وحدة التاريخ الشفهي بجامعة كولومبيا.

(2) حاولت مع شخص واحد تسجيل المقابلة، بما أنها ومن نفسها اقترحت بأن نفعل ذلك. اشتريت المسجّل في التو، غير أن من قابلتها بعدها رفضت تشغيله. إني مقتنع بأن القدماء يرون في المسجل الصوتي ما يوحي بأنه أداة نازية. كما حصلت لي مشاكل عديدة مع مقابلتي اليتيمة المسجلة؛ علاوة على أن الأمر كان على حساب الكتابة المحترفة، كتبت الأسماء بإملاء مغلوط لا محالة، كما أنتجت المقابلة المطوّلة نصًا دسمًا صعُب عليّ إيجاد فيه التفاصيل المحددة.

(3) «Analysis Terminable and Interminable», Standard Edition, Vol. 23, pp. 221-22. Cf. also James Strachey, «The Nature of the Therapeutic Action of Psychoanalysis», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 150, parts 2-3 (Apr.-July 1934), p. 130.

من المثير أن نجد تيودور رايك يقول في آخر حياته: «الانتقال الإيجابي الذي لا تفسره أبدًا إلا حين ينقلب سلبيًّا. الانتقال الإيجابي هو الشلال الذي يحرّك الطاحونة. لم عليك أن تفسر هذا؟».
Erika Freeman, Insights: Conversations with Theodor Reik (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall; 1971), p. 52.

(4) «Dostoevsky and parricide», Standard Edition, Vol. 21, p. 182.

(5) «On the history of the psychoanalytic Movement», Standard Edition, Vol. 14 (cited hereafter as «on the history»), p. 14.

الفصل الأول

التقليد الشفوي في التحليل النفسي

1 - أسطورة فرويد

يُعدُّ سيغموند فرويد واحدًا من أعظم المحللين النفسيين في التاريخ، فقد أحدث ثورة في طريقة تفكيرنا عن أنفسنا. وتغلغلت أفكاره في حياتنا بصيغ مختلفة في أدق تفاصيلها، ظاهرها وباطنها، إلا أن الاعتراف بأهميته ظل محتشمًا. لقد كان لنظريته أثرٌ بالغٌ، خاصة في الولايات المتحدة حيث أعلى الرأي العام في العقود القليلة الماضية من شأن أبنائه بشكل لافت، كما جاء في مختصرات د. سبوك.

وبطبيعة الحال لا تزال أعمال فرويد تثير جدلًا. بينما أضفى نقاده طابعًا شخصيًا على نظرياته، أو بعبارة أدق صنَّفوها كذلك، إلا أن قسمًا هامًّا من نظام تفكيره لاقى قبولًا واسعَ النِّطاق إلى حد الإجماع تقريبًا[1]. وقد تمثَّلت أهم إسهاماته العلمية في الكشف عن المعنى الدقيق للحلم، وبذلك كشف عن الآليات التي نعتمدها عادةً في خداع أنفسنا. غيّر فرويد تصورنا عن الإنسان عبر شبكة من المفاهيم حول حياتنا اللاواعية، مثل التحويل والجنسية الطفلية والعدوان والدفاع والتماهي والنكوص وعن طريق تقنية التداعي الحرّ. ومهما أبدينا من الاحترازات حول أهميته كشخص محافظ جدًّا، ومهما تطلبت أخطاؤه من وقت لتصويبها، فإن لا أحد في مقدروه أن ينكر قيمته كمفكر بارز في تاريخ الفكر البشري.

قد يشكك البعض في أمر النجاح المذهل الذي حققه التحليل النفسي على المستوى العالمي. فقد كان المحللون النفسيون في أميركا روّادًا في مهنة الطب النفسي، وكانوا يفرضون رسومًا باهظة، مما يساعدهم على استقطاب المعالجين النفسيين الأكثر طموحًا. لكن الرجال والنساء الشغوفين بالحياة الخاصة للمحللين النفسيين، وليس فقط بالظافرين بالموروث الشعبي والطب النفسي، عرفوا خيبات أمل متنوعة. ولذلك انخرط العديد من

المبدعين في التحليل النفسي في بداياته وكأنه حركة فكرية بأهداف طموحة، حتى بدا للبعض التحرّر من الوهم أمرًا مقضيًّا.

انطلق التحليل النفسي بأمل جريء في تحريرنا من الاضطرابات العقلية. إلا أن تاريخه، شهد سلسلة من الإخفاقات في ادِّعاءاته في ما يتعلق بجدوى العلاج رغم ذلك. سعى فرويد في الأصل إلى تطبيق مبادئ علم النفس على العلوم الإنسانية كافة. بيد أن المحللين النفسيين اليوم تقيَّدوا بمجال تخصصهم الطبي حصرًا. وإذا كانت توقعات فرويد وأتباعه الأوائل ووعودهم راديكالية، إذ اعتبروا أنفسهم مختلفين عن غيرهم من عامة الناس، فإن النجاح لم يحالف جماعات شديدة التباين من المحللين النفسيين.

وللمفارقة ففي موطن التحليل النفسي الأصلي «فيينا القديمة»، لم يتمتَّع المحلَّلون النفسيون بمداخيل مُرضِية، ولا بمنزلة اجتماعية مرموقة. وفي الواقع، دفع البعض من تلاميذ فرويد ثمنًا باهظًا في سبيل مسيرتهم الأكاديمية الطبية النفسية ومن أجل معتقداتهم الجديدة. ومنبع فخرهم تقييمهم الجريء لأهمية تعاليم أستاذهم. وفي أميركا حيث يعيش غالبية المحلِّلين النفسيّين، تُصَنَّف مهنة التحليل النفسي وممارسوها، ماليًّا واجتماعيًّا، في أعلى الطبقات المتوسطة. ليس غريبًا إذن أن تجد المنخرطين في التحليل النفسي في أميركا محافظين في تفكيرهم المهني ويفتقرون إلى الجرأة التي ألهمت أجدادهم.

من المغري أن تستحضر بدايات التحليل النفسي التي كانت بمثابة العصر الذهبي الذي شهد ملحمة هذا الكشف العظيم. وبصرف النظر عما كان عليه التحليل النفسي في ما مضى من رومنسية، بوصفه ميدانًا قائمًا بذاته، فإنه اليوم لم يعد قادرًا على استقطاب الناس كما كان عليه الحال في بداياته، أي لم يعد منتسبو هذا الميدان منضبطين كما كان أسلافهم منذ أكثر من نصف قرن. ويكفي أن نلقي نظرة على تركيبات أعضاء جمعيات التحليل النفسي في فيينا وبرلين في بداياته حتى نتبيّن ما حظي به التحليل النفسي آنذاك من مكانة متميزة[*]. حينما وصل هتلر إلى السلطة، بادر المحللون النفسيون القاريّون بالفرار طلبًا للأمان حتى استقرَّ المقام بمعظمهم في أميركا نهاية المطاف. وظل مَن بقي منهم في أوروبا ينشطون

(*) ويمكن أن نذكر على سبيل المثال، قائمة أعضاء جمعية فيينا في بدايات الثلاثينيات حيث ضمت: أوغست أيشهورن، لاو أندرياس-سالومي، إدوارد ببرنغ، هيلين دويتش، إريك إريكسون، بول فيدرن، هاينس هارتمان، إرنست كريس، هيرمان ننبرغ، ويلهالم رايش، تيودور رايك، وبول شيلدر. وضمت جمعية برلين حوالي عام 1930: فرانز ألكسندر، أوتو فينشال، إريك فروم، فريدة فروم-رايشمان، جورج جروداك، كارن هورني، ميلاني كلاين، ساندور رادو، هانز ساكس، وروني سبيتز.

في إطار حركة سرِّية، منبوذين من الطب النفسي الأكاديمي ومحرومين من تقلُّد المناصب الجامعية، في حين حظي غيرهم في أميركا بمكانة عَلِيَّة في ميدان الطب النفسي وكانت أفكارهم محلّ حفاوة واحترام.

لقد كانت الولايات المتحدة وجهة مفضلة لهجرة المحللين النفسيين الأوروبيين. وقد وجدت أفكار فرويد صدىً كبيرًا في أوساط الطب النفسي ولدى عامة الناس. وقد تبوَّأ الأوروبيون مكانة متقدمة في الطب النفسي في أميركا بفضل تفوُّق مهاراتهم النظرية وخبراتهم العلاجية الخارقة، فضلًا عن ارتباط كل ذلك بإحساسهم العميق بضرورة تكريس جهودهم في سبيل قضية مشتركة. إن الأمر في عالم الطب النفسي أشبه بإرسال ضبَّاط نابليون إلى الحكم في مختلف المواقع عبر أنحاء البلاد كافة.

لقد أصبح مَن كان من المحللين النفسيين في فيينا أو برلين من المغمورين رُوَّادًا في أقسام الطب النفسي في المستشفيات الأميركية. وذاع صيت مؤلفين ممن كانوا مهمَّشين في ميدان الطب النفسي لدى الأميركيين الذين أشادوا بأعمالهم وأقبلوا عليها. ففي مراكز التكوين في التحليل النفسي ذاتها وجد الأميركيون ضالَّتهم في الجماعة الأوروبية من حلقة فرويد الضيِّقة والمقرَّبة، حيث أغناهم ذلك عن مشقَّة السفر لأوروبا للتكوين هناك.

وقد ساعدت كل هذه العوامل على نجاح التحليل النفسي في أميركا. فمن المعروف عن ميّزات الشخصية الأميركية على سبيل المثال التفاؤل والاعتقاد بالفردانية، وهذا من شأنه أن يساهم في قبول العلاج النفسي المبني على أساس الأمل الذي يكون لدى لناس في تغيير أنفسهم اعتمادًا على مجهوداتهم الذاتية. تمركزت ثقافة الأطفال على الاستجابة بحماسة لفكرة النماذج الطفلية التي تؤثر في سلوك البالغين والميل إلى جعل كل الأمور الطفلية مثالية تلقائيًا في مواجهة إكراهات الحضارة. ولقد ساعدت رفاهية العيش وأسباب الترفيه في أميركا فضلًا عن انعدام تجانس الثقافة القومية على انتشار التحليل النفسي، لأن مجتمعًا فقيرًا أو مجتمعًا تسود فيه مؤسسات تعليمية صارمة، لا يكون منفتحًا بشكل كبير على الأفكار الجديدة على غرار تلك التي جاء بها فرويد. وبقدر ما اعتبرت أميركا أمة المهاجرين، بقدر ما كان على أي أميركي أن يقطع مع جذوره الأجنبية حتى يتسنّى له بناء تاريخه الفردي كي يتخطى عدم يقينه إزاء تاريخه الجماعي. في النهاية لم يعرف الأميركيون، خلافًا للفرنسيين والسويسريين، تقليدًا مزدهرًا خاصًا بهم في الطب النفسي. ولا يعني ذلك أبدًا التغاضي عن القدرات الفعلية لأتباع فرويد التي ساعدتهم في تأمين نجاحهم الباهر.

وبما أن تلاميذ فرويد هم من ساعدوا على نشر تعاليمه التي ساهمت في تنوُّع الأفكار عن سيكولوجية الإنسان والتي كان لها أثر بالغ على الحياة الثقافية في القرن العشرين وعلى علم الطب النفسي الحديث، أصبح الأمر الأكثر تشويقًا محاولة فهم ماذا يعني أن تكون من المقرَّبين من المعلِّم بالنسبة إليهم. وبالنظر إلى ما تقدّم من الأمثلة التاريخية بشأن العلاقات بين المعلِّم والتلميذ، يبدو من الصعب العثور على نموذج يمكن تعميمه على جميع الحالات، ففي السنوات القريبة، كان لدى لودفيغ فيتغنشتاين مجموعة من التابعين المخلصين. وفي ما مضى كان لدى كارل ماركس وجيرمي بنثام حلقاتهم الخاصة من التلاميذ، وفي الأزمنة القديمة كان أفلاطون وأرسطو محاطين بأتباعهم(*). وحتى في الحياة الأكاديمية اليوم نجد أن المعلِّم المؤسِّس يميل إلى جذب الأتباع. فالعلاقة بين المعلِّم والتلميذ، والطرق التي من خلالها يتعلم هذا الأخير وينمو، وكذلك الإحباط وخنق الموهبة، أشياء غير معروفة جدًّا، ولا هي محلُّ اتِّفاق بحيث يمكن لها أن توفر لنا ما به نفهم فرويد وتلاميذه على نحو يسير.

لقد كان فرويد معلِّمًا ملهمًا، على غرار نموذج الفيلسوف الإغريقي أو الحاخام اليهودي العظيم. فقد جذبت إليه كتاباته ومحاضراته وطريقته العلاجية بالإضافة إلى سحره وقوة شخصيته تابعين مخلصين، لا إبان فترة حياته فحسب بل وأيضًا لأكثر من ثلاثين عامًا بعد وفاته. وعلى الرغم من أوجه الشبه بين علاقة فرويد وتلاميذه تاريخيًّا مع نماذج أخرى من العلاقات بين المعلِّم وتلاميذه، ورغم أن تَبيُّنَ حقيقتها على وجه الدقة يظل عصيًّا في نهاية المطاف، لما يكتنفها من غموض من حيث هي تعكس تجربة فريدة، فإنها تذكرنا بأن التلمذة تظل جزءًا من عملية التعلُّم ضمن شروطها العادية، وهي لا تنفكُّ تتكرر كلما كان هناك إبداع.

من الجليّ أن علاقة فرويد بتلاميذه وتجربته كتلميذ كانت مهمة بالنسبة له، إذ ناقشها تكرارًا. ففي مقالاته وكتبه عن تطور التحليل النفسي، استذكر كيف توصل إلى اكتشافاته وذكر المعلمين الذين كان وجودهم حاسمًا لعمله. وقد أخبر مرارًا وتكرارًا عن قصة تلاميذه المنشَقِّين الَّذين أثبتوا أنهم لا يستحقون أن يكونوا حلفاء ومؤيدين.

لقد كان لفرويد روايته الخاصة لما جاء في كتب التاريخ عن أشكال النضال المختلفة،

(*) وفي سياق حديثه عن مؤلفات فرويد، كتب فريتز فيتال: «ندرك جميعًا أهميتها، ونحن فخورون بأننا تلاميذ أرسطو في هذه الأيام قبل أن تشتهر أعمال هذا الفيلسوف على نطاق واسع»[2].

ولم يسبقْهُ في تبيّن أهميتها أحد. فقد أدرك سطوة الأسطورة. ولأجل ذلك كان يروي لمرضاه الذين جاءوا إليه بغرض العلاج، وليس فقط لأولئك الذين يتعهّدهم بالتكوين، ملحمةَ البدايات والنضالات التي شهدتها أفكاره إبان ظهورها أول مرة[3]. ومن بين الأسباب التي حوَّلَتْ فرويد إلى أسطورة حيّة في حياته هي مساهمتُه شخصيًا في ما حيك حوله من قصص.

لقد عمل فرويد جاهدًا، في الوقت نفسه، ليميّز بين شخصيّته والعلم الذي اكتشفه. فقد كتب وتحدَّث عن بداية مسيرته، لا من أجل مجد ذاتي عابر، ولكن من أجل هدف أعظم هو ابتكار طريقة في التحليل النفسي قادرة على الانتشار عبر العالم. وقد اعتقد فرويد بحق بأنه يتعين علينا استيعاب مفاهيم التحليل النفسي في سياق تطورها التاريخي. ولأجل ذلك أراد أن يتذكر الناس أغلاط «تلاميذه المنشقّين» خشية أن تتكرر أخطاؤهم. ولكن حياكة الأساطير والخرافات قد تكون غير منصفة ومضللة، ولا سيَّما أنَّ مشاكل فرويد لم تكن علمية فقط، بل كانت مزاجية أيضًا. ورغم أن فرويد قدّم مسيرته على أنها علمية خالصة إلا أن تاريخ أفكاره ظل في الواقع مصبوغًا بعوامل شخصية إلى أبعد حد.

وفي هذا الاتجاه كان فرويد صريحًا في ما يتعلق بمفاهيمه وتجربته الشخصية. ويعد كتابه تفسير الأحلام واحدًا من أعظم السير الذاتية في تاريخ البشرية، إذ إنه رسم فيه بكل حرية تجربة لحياته الداخلية، وبذل في ذلك جهدًا من أجل إنشاء النظام السيكولوجي المناسب لنا جميعًا، ومع ذلك ما فتئ في الوقت نفسه يحاول رسم خطٍ واضح بين عمله وشخصيَّته. فالتحليل النفسي كان إبداعًا ذاتيًا. لقد حرص على أنْ يبلّغنا أن نضالاته التي تزامنت مع ظهور التحليل النفسي لم تكن تتعلق بسيرة ذاتية، بقدر ما كانت تتعلق بكتابة تاريخ لعلم جديد واستحداث له. ولأجل ذلك سخَّر جهودًا كبيرة لوضع حدود التأمل المتعلق بالسيرة الذاتية حول مسيرته الشخصية كما جاء في رسالة له عام 1923 «يبدو بأن الرأي العام لا يعبأ بشخصيتي، ولا يستطيع أن يعلم شيئًا عنها»[4]. وفي عام 1935، قبل أربعة أعوام من وفاته، عبَّر عن امتعاضه الشديد للاعتداءات على حياته الشخصية:

> **«ليس للرأي العام أن يزعم بأن لديه الحق في أن يعلم الكثير عن شؤوني الخاصة. فقد كنت منفتحًا وصريحًا إلى أبعد حد في بعض كتاباتي... وأحيانًا أكثر من أولئك الذين تعوّدوا أن يبالغوا في التحدث عن حياتهم لمعاصريهم أو لمن جاء بعدهم. ولعله لأجل ذلك انحسر ثناء الناس عليّ. لا أستطيع عبر تجربتي أن أوصي أي شخص بأن يحذو حذوي»[5].**

ثمّة مجالات قليلة ظهر فيها عقل واحد بشكل كبير، وأقل منها تلك التي لعبت فيها الشخصية المميزة للمؤسس دورًا حاسمًا. وليس استثناءً أن يُعنى أحد أتباع فرويد رسميًا بكتابة سيرة هذا الأخير الذاتية. وهو ما أقدم عليه إرنست جونز الذي بذل في سبيل ذلك سنوات عديدة من عمره[6]. كما اضطرت عائلة فرويد في النهاية إلى القبول بتدوين سيرته الذاتية على مضض بسبب تراكم الدراسات غير المصرَّح بها التي قدَّمته في صورة اعترض عليها أتباعه واعتبروها مضلِّلة ومجانبة للصواب[7]. ورغم احترازات فرويد ضد كتابة سيرته الذاتية، فقد علّمنا أن نحترم الماضي لأنه كلما تحكّمنا به أكثر تحكّمنا بالمستقبل أكثر. إن الثقافات تتغذى من خلال الأساطير التي تُحاك حول مآثرها التاريخية، وقد فهم فرويد حاجة الإنسان للاستجابة للتجربة بما تقتضيه الرموز المنشأة. وقد استخدم جونز ببراعة سلطته لإعادة بناء تاريخ فرويد مستفيدًا في ذلك من التعاون الكبير الذي حظي به من عائلة فرويد.

لا ينكر أحد من المهتمين بحياة فرويد أو تاريخ التحليل النفسي نجاح جونز في مهمَّته على الرغم من أن جزءًا مما أنجزه تنقصه الدقة والمتانة. نجح جونز في كتبه بتقديم صورة ساحرة على الدَّوام عن حياة فرويد ونضالاته، وما أنجزه يمكن أن يدرَّسَ في كتابة التاريخ بوجه عام. ومثل آخرين من كتّاب السيرة الذاتية الرَّسمية، رأى جونز أن أجزاء من مراسلات فرويد لن يتحقَّق منها لعقود قادمة (لأسباب يتعلق بعضها باللباقة وبعضها الآخر بالرقابة). وقد ضمّن جونز في سيرة فرويد الذاتية عديد التفاصيل الدقيقة والقيّمة. لقد كان دقيقًا وأمينًا في عمله بحيث أصبح من المستحيل على غيره أن يكتب في سيرة فرويد ما كتبه، فأحد معايير جنس كتابة السيرة الذاتية يتعلق بالمدة الزمنية التي تستغرقها في البحث أو حجم المجهود المبذول في سبيل تخطي ما تفترضه من تأويلات.

ورغم ذلك لعمل جونز حدوده ونقائصه. وخلافًا لما قد يذهب في ظن قارئ سيرة فرويد، لم تكن علاقة هذا الأخير بجونز حميميّة. ولعل أهم أسباب ذلك على الإطلاق أن جونز لم يكن يهوديًا، بينما كان فرويد شديد الارتياب إزاء غير اليهود (كان يغالي في تأييدهم وذلك ليس إلا الوجه الآخر للعملة)، وعلاوة على ذلك كان جونز يقيم في لندن وبالتالي فإنه لم يشهد حقبة فيينا. ولكن جونز قريبٌ من فرويد في ما يتعلق بسياسات حركة التحليل النفسي دون أن يكون مميزًا في موهبته الحدسية السيكولوجية مقارنة مع أولئك الذين أحبَّهم وأعزّهم فرويد من أجل مستقبل التحليل النفسي. فمن بين مجموعة تضمّ ستة

من الذين انتخبهم فرويد خلال الحرب العالمية الأولى للنهوض بقضية التحليل النفسي (جونز، ساندور فرينشيزي، أوتو رانك، كارل أبراهام، هانز ساكس، وماكس إيتنغون)، لم يكن جونز يحظى بمنزلة متقدمة ومتميزة من حيث أصالة إسهاماته في التحليل النفسي. فموهبته الخاصة تقتصر على تبسيط أفكار فرويد وجعلها في متناول الجميع، وفي مساعدة حركة التحليل النفسي في عملها التنظيمي والمؤسّسي.

لقد لعبت الصدفة دورها في كتابة هذا التاريخ؛ ذلك أن جونز كان الأطول عمرًا من بين هؤلاء الستة، ولأنه آخر من تبقّى منهم فقد كانت له الكلمة الأخيرة. كان قلمُه لا يكلّ، كما تمتع بقدرة عجيبة على الكراهية. لقد كان جونز وثوقيًا في مقاربته لحياة فرويد إذ أراد أن يقنعنا بأنه أحاط بجميع التعقيدات المتعلقة بشخص مثل فرويد، وإن بدا موضوعيًا إلى حد ما أحيانًا؛ «حاولت أن أعرض بحيادية قدر الإمكان مواطن القوة والضعف في شخصية فرويد وكذلك في الأشخاص الذين تعامل معهم. وأيًا كانت الانتقادات التي وُجِّهَت لعلاقة فرويد بالآخرين، فلا يتعلق الأمر هنا سوى بالحقيقة كاملة، ضارِّها ونافعها، وتلك كانت مهمّتي»[8]. إلا أن تلك المهمّة في الحقيقة أغوت جونز فظنَّ أن ما من أحد بعده قادر على أن يكتب سيرة نهائية حول حياة فرويد. ولأنه نشر مقتطفات كثيرة من رسائل فرويد، فقد أمِلَ جونز أن يمنع أيّ محاولات لنشر تلك الرسائل كاملة[9].

ومن الغريب في الأمر أن سيرة فرويد الذاتية التي كتبها جونز لم تكن ثاقبة ومتطورة من زاوية نظر علم النفس. من ذلك مثلًا، رغم أن كل شيء يوحي بذلك، وإنْ بدرجات متفاوتة بحيث قد لا يمتلك شخص ما وجهة نظره الخاصة لفهم ذاته، قَبِلَ جونز بصدرٍ رحِبٍ أفكار فرويد الشخصية عن طفولته وعلاقته بأبوَيه. وقدَّرَ جونز دائمًا نضال فرويد مع تلاميذه من وجهة نظر الأستاذ، حتّى أنه تجاهل في موضع آخر وجهة نظر التلاميذ الذين كانوا يحاولون تحقيق ذاتهم. كتب جونز سيرة فرويد في ظل مجموعة من المحظورات اللاشعورية؛ إذْ لو تعلّق الأمر بحياة شخص آخر لربما كان أكثر حرية في التعامل مع وجهات النظر التي أورثنا إياها فرويد. (فعن أيّ كائن بشري آخر سيُعلن جونز بأنه في الخامسة والأربعين من عمره بلغ «مرحلة النضج الكاملة»[10] بما تحمله الكلمة من معنى؟).

أشار جونز إلى أن حياة فرويد تخلّلتها نزعات عصبية متنوعة، لم يكن الكثير منها معروفًا قبلًا. أما الآن فتتوفر معطيات كثيفة وبيانات دقيقة عن فرويد لم يسبق أن جمّعت حول غيره من قبل ويمكن النفاذ إليها[11]. ولكن رغم ما عثر عليه جونز حول العصاب فقد

نأى بنفسه عن علاقات فرويد مع غيره من الناس. فعلى سبيل المثال لم يعتبر جونز نقاط ضعف فرويد البشرية ذات شأن قياسًا لمشاكل تلاميذه العاطفية المستعصية. وقد أصابت آخرين في حلقة فرويد نفس الغمامات التي ابتُلِيَ بها جونز ظنًّا منهم أنَّ فرويد هو الأستاذ الذي سينقذهم من الصراعات التي قد تعكّر صفو حياتهم الشخصية.

قد يذهب البعض في ظنونهم إلى حدّ اعتبار أنه كان على تلاميذ فرويد أن يدوِّنوا كل شيء تقريبًا مما قيل حول التحليل النفسي في بداياته. وأنه كان هناك بالفعل كمٌّ هائل من المعطيات عن تاريخ التحليل النفسي يتدفّق، في حين أنَّ نفرًا قليلًا فقط من تلاميذ فرويد كتبوا عن علاقاتهم به. تقتضي الحكمة عند دراسة هذا التاريخ التذكير بأنَّ منهم مَنْ كتب، ومنهم مَنْ آثر الصمت.

أما الذين كتبوا فكانوا إمَّا من المهمَّشين أو من غير المقرّبين من أستاذهم شخصيًّا، ويبدو أن البعد عن فرويد بحسب الزمان أو المكان من العوامل المساعدة على ذلك، على غرار «الانشقاق» عن صفوف التحليل النفسي الفرويدي. وأما الذين لزموا الصمت فهم في أغلب الأحيان ممن كانوا مقرَّبين من فرويد. وعليه، ليس غريبًا أن يجد هؤلاء بصفة خاصة صعوبة بالغة في أن يكتبوا عن تجاربهم الشعورية العميقة التي عاشوها خلال حياتهم؛ فقد أصبح فرويد يمثل جزءًا هامًّا من حياتهم، بل إنه الجزء الأكثر قداسة، وإنَّ أيّ محاولة لتحويل العلاقة المشحونة عاطفيًّا إلى مجرد موضوع يدوَّنُ في دراسات قد يؤدي إلى تحنيط الحياة خارج الذكريات نفسها.

ثمة عوائق أخرى منعت تلاميذه من الكتابة عنه كشخصٍ من قبيل التعبير عن وفائهم واحترامهم لرغبته الخاصة. ثم كان لزامًا على المحللين من باب احترام وتقدير زملائهم أن يزدادوا تحوّطًا كلَّما عنَّ لهم الكتابة في شأن علاقتهم مع فرويد. ولا غرابة أن يُحجِم بعضُ تلاميذ فرويد عن كتابة أيِّ تأويلات يعتبرونها بغيضة. وأكثر من ذلك، ربما يكمن العمل الأساسي في أن البعض من المؤلفين المحتمَلين إنما أحجموا عن الكتابة عن قصد، لعلمِهم بأن تدوين تلك الحقبة سيمتد بالضرورة إلى حياتهم الخاصة فتُكشَف على الملأ وتصبح أسرارُها متاحة للجميع. وبحسب تاريخ التحليل النفسي فإنه يبدو، من الناحيتين العلمية والشخصية وما بينهما من تداخل صارخ، أنَّ من الصعب الحديث عن شخص دون الدخول في جدل حول شخص آخر.

ولعل أهم ما يلاحظ في هذا الصدد هو أن كل مَن كتب عن فرويد منذ وفاته ممن كان في موقف جيد مع حركة التحليل النفسي، كان مضطرًا إلى أن ينسجم مع ابنته الأصغر «آنا» في التفكير. لقد تفحَّصَتْ آنا كتابات جونز عن والدها سطرًا تلو الآخر، لأنه دون مساعدتها وتعاونها ما كان ليتقدَّم في مهمّته خطوةً واحدة إلى الأمام. ولكن عائلات العظماء كثيرًا ما تطلَّعَت إلى أن يُهتمَّ بهم وفق طريقتين متلازمتين: أنَّ بطلهم يستحقّ مكانته في التاريخ، وأن يُحافَظَ على خصوصيَّته ضمن حدود عائلته. غير أنَّ أمرًا كهذا يكاد يكون مستحيلًا.

ولم يكن فرويد يعبأ بمثل هذه الأوهام. فعندما اقترح أرنولد زويغ أن يكتب سيرة فرويد الذاتية (وهو ما اقتضى ضرورة فتح المناقشة من جديد حول الخلافات العامَّة المشهورة حول مسيرة فرويد)، أثار حفيظة فرويد فردَّ فزعًا:

«يا من تدَّعي أنه بإمكانك فعل أمور عديدة هامة وجذابة، يا من تُنصِّب نفسك وصيًّا على تعيين الملوك ومسح الحماقة المتوحشة للجنس البشري من أعلى برج الساعة، اعلم أني أبعد ما يكون عن الولع بك حتى أسمح لمثل هذا الأمر أن يحدث. إن كل من تسوِّل له نفسه كتابة السيرة الذاتية سيضطر إلى الكذب والإخفاء والتمويه والنفاق والتملُّق، بل سيُضطرُّ علاوةً على ذلك إلى التستُّر على عجزه عن الفهم، فبالنسبة للسيرة الذاتية لا يمكن الحصول على الحقيقة، وحتى إن حصلنا عليها فيصعب الاستفادة منها أو تطويعها. ألا إنَّ الحقيقة صعبةُ المنال وإنَّ الإنسانية ليست أهلًا لها ولا تستحقّها، وبين قوسين ألَمْ يكن الأمير هاملت على صواب عندما تساءل عمَّا إذا كان لأي شخص أن ينجو من الجَلْد بمجرَّد أن ينال ما يستحقُّه؟»[12].

قد لا يمكن لفرويد أن يتوقَّع البتة ما قد تؤول إليه الدراسات حول سيرته الذاتية، ولكنه كان يدرك تمامًا ما معنى أن يَكتب التاريخَ أحدُ مناصريه. وكما كتب ذات مرّة عن بدايات تشكّل وعي الجماعة: «لا مفرّ من الاعتقاد بأن هذا التاريخ في الأصل ليس سوى تعبير عن اعتقاداتنا الحالية، وتطلعاتنا المستقبلية، أكثر منه صورة حقيقية عن الماضي. فثمَّة أشياء كثيرة تسقط... من الذاكرة، وأخرى تُشوَّه، وبعض ما تبقى من الماضي يُحرَّف عن مواضعه حتى يتناسب مع الأفكار المعاصرة. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما يحفّز الناس على كتابة التاريخ ليس حبَّ اطلاع موضوعي، ولكنها الرغبة في التأثير على أفكار معاصريهم لتشجيعهم وإلهامهم، أو ليجعلوا منه مرآة عاكسة لمن سبقهم»[13].

وعند تفسير الروايات المكتوبة حول فرويد، لا بد من الأخذ في عين الاعتبار تأثير

تبعية واعتمادية الشهود ومواقفهم والموانع اللاشعورية التي تسيطر على تفكيرهم فضلًا عن إمكانية تحيّز مقاصدهم. وبالإضافة إلى ذلك، فقد استفادت آنا (لأسباب مفهومة) من حماية والدها، ويعكس تشبُّثها بالاحتفاظ بمخطوطاته تخوُّفَها من استغلالها، فضلًا عن الرغبة في تكريس وقتها للمستقبل العِلمي للتحليل النفسي. كما شارك جيمس ستراتشي تقديسَ آنا فرويد لمذكرات والدها، حتّى أنه لم يطّلعْ على المخطوطات التي كانت بحوزتها إلا في بعض الاستثناءات المحدودة جدًّا، عندما استند في نشر كتاباته على طبعته الأصلية المتينة لأعمال فرويد [14]. وقد كان تلاميذٌ آخرون لأبيها يقدِّمُون لها بشكل روتيني نسخًا من مخطوطاتهم الخاصَّة قبل نشرها. وسُحِبَت بعضُ الدارسات حولَ والدِها وفقًا لرغباتها [15]. لقد ترسَّخَت مكانة آنا فرويد في الطب النفسي الحديث، سواء كمنظرة أو كطبيبة، مع مرور الوقت حتى أصبحت تقريبًا رائدة الطب النفسي للأطفال في العالم اليوم. لكنها رغم كرَمِها ولباقتها تظلُّ ذاتَ حساسيَّة مفرطة إزاء سوء استغلال تاريخ أبيها وإمكانية تحريفه وتزييفه.

وما أن تَبيَّن لآنا أنَّ رسالةَ فرويد التي كتبها بالإنكليزية إلى جونز رديئة، إذ تضمنت العديد من الأخطاء النحوية، حتى ارتأت أنه من المناسب تصويب أكثر الأخطاء إرباكًا [16]. ورغم أنَّ آنا هي مَن اقترحت ذلك إلا أن ستراشي صبَّ جامَ غضبه على جونز لأنَّه متى شرَّعَ هذا الباب فإن لديه الكثير ليقترح تعديله [17]. لا يُذكر أن آنا وضعت معايير خاصة لحماية رسائل والدها إلا في مناسبات قليلة. فعلى سبيل المثال، اتفقت آنا مع جونز ومن أجل مصلحة حركة التحليل النفسي، على عدم نشر ملاحظات والدها المناوئة لأميركا [18]. بيد أن هذا ليس إلا دَجَلًا، إذ مِن الصعب عدم التشكيك في زعم جونز بأنه يهدف إلى الحصول على الحقيقة كاملة. ومع أن جونز كان قادرًا على أن يكون وفيًّا بشكل استثنائي في كتابة سيرة فرويد الذاتية إلا أنه في النهاية لم يستطع أن يفلت من الوقوع في مطبَّات التضليل والمغالطة التي توقَّعها فرويد نفسه.

ومن ناحية أخرى، وكما بدا الآن كانت أسرة فرويد، على رأسها آنا، جريئة في تشجيعها بُعَيد وفاته بقليل. ولكن ما من شك أن فرويد نفسه، على سبيل المثال، لم يُرِدْ لرسائله الحميميَّة مع صديقه فيلهالم فليس أنْ تظهر. ومع هذا فإن العائلة تعاونت في نشرها. بل أكثر من ذلك ساعدت حتى على نشر رسائل الحب لشريكة حياته قبل الزواج في السيرة الذاتية، رغم تبرُّمِه الذي عبَّر عنه في مناسبات عديدة من مثل هذه السِّيَر. ولكن إذا كان في

الأمر تحدٍّ لرغبات فرويد فمعنى ذلك أن عائلته فقدت صوابها. لقد هُذّبت رسائل فرويد إلى فيلهالم فليس عبر حذف بعض النوادر، ذلك أنه لم يكن مسموحًا له حتى بالتندُّر على شخصه[19]. وخلال رسائل فرويد المنشورة(*) لا تبدو مواضعُ النقص واضحةً دائمًا، ولا توجد علامات تدلُّ على الحذف، ولكن بإمكان المرء أن يتبيَّن من حيث المبدأ ما في الأمر من عدم الانسجام، كما هو الشأن بالنسبة للسلطة التقديرية في المجال الطبِّي[20].

في أواخر عام 1920 اتفق فرويد مع السفير ويليام بوليت على تأليف كتاب جدالي صريح عن الرئيس وودرو ويلسون. وعندما ظهرت المخطوطة في النهاية في عام 1965م، كان الهمُّ الأول لعائلة فرويد الحصول على نسخة من الكتاب قبل أن يُنشر وحتى قبل أن يُدرِك صيغته النهائيَّة حتى الآن. وإذ كان السفير بوليت على صواب عندما رفض أيَّ عبثٍ بالنص أو التلاعب به، لأنه يتعلق بشخصٍ متوفًّى، رأى أتباع فرويد المخلصين أنَّ أفضلَ طريقة للتعبير عن إخلاصهم لأستاذهم تتمثَّل في فصله من الجزء الخاص به في الكتاب. لقد كان فرويد مثالًا للأمانة والصدق، فالتحليل النفسي بمثابة علاج يقوم على الاقتناع بأن معرفة الحقيقة من شأنها تحرير البشر. ووحده الموقف الذي يدافع عن فرويد وأعماله يكشف عن نقصٍ في الثقة في قدرته على مقاومة التدقيق التاريخي.

وإذا كان قصدنا أن نبرهن عن جدارة فرويد في أن يكون أسطورة زماننا هذا، لا بد أن نتخلى عن فكرة اعتباره قدوة. وكما عبَّر فرويد ذات مرة عن أسفه على أنه «بفضل سلطة كُتَّاب السِّيرة الذاتية التقديرية وعدم مصداقيَّتهم، أمكنَ لنا أن نتعلم قليلًا عن الحياة الحميميَّة للعظماء الذين نعتبرهم قدوةً لنا»[21]. ولسوء الحظ عرض لنا جونز نسخة عقلانية لنضالات فرويد جعلتنا لا نبصر الكثير من عمقه. ومع هذا فإن التقليل من شأن ما استطاع فرويد التغلُّبَ عليه يحدُّ من قيمة إنجازاته. ثم أن نجعل من فرويد أسطوريًّا بوصفه شخصًا قادرًا على التحكم بشكل تام في عواطفه من شأنه أن يحرمنا فرصة الاقتداء به كمناضل مبدع.

لعلَّ ما يثير الدهشة ليس استحضار فرويد في الطب النفسي المعاصر، وإنما الطريقة التي استُحضر بها لتبرير ما يجري راهنًا. فلا أحد، على ما يبدو، يتلهَّف شوقًا إلى التماهي مع فرويد الذي تجاهل كلَّ ما قيل أو كُتب من ذي قبل، وتجرَّأ على محاولة فهم ما اعتبر

(*) في هذا المجلد حول مراسلات فرويد-يونغ، عرضت رسائل فرويد على ما هي عليه لأول مرة.

سابقًا لا معنى له إطلاقًا. لقد فكر فرويد وكتب عن أشياء صادمة. إن فرويد التاريخي، رغم كثرة أخطائه وكذلك انتصاراته الفكرية العظيمة، شخصيةٌ أكثر أهمية من فرويد الأسطوري، ذلك أنَّ مذكَّراته ركَّزت على ما يتمتع به من شجاعة وعبقرية أكثرَ من أيّ شيءٍ آخر عن حياته، إذ سكتت عن كثيرٍ من تفاصيلها حتى لا يقلَّ شأنُه في أعيننا.

2 - اكتشاف فرويد الإنسان

عندما يسعى أيّ مؤرخ إلى فهم فرويد الإنسان لا بد أن يبدأ بحقيقة أن فرويد أدرك في الأربعينيات من عمره قبل أن يُقدم على اكتشافاته العظيمة التي سبقتها سنوات طويلة من البحث والاجتهاد. وإذا كان أولُ من قابلْتُ من مرضى فرويد تلقَّى العلاجَ عنده عام 1908 حيث كانت أفكارُه عندها قد تطوَّرت على نحو جيّد، كان معنى ذلك أن فرويد الذي وُلد عام 1856 قد بلغ الخمسين من عمره تقريبًا، وهو عمر كان يُنظر إليه قبل نصف قرن من الآن على أنه متقدِّمٌ جدًّا قياسًا لما هو عليه الحال في أيامنا هذه، قبل أن يتعرف عليه أيٌّ من أتباعه. وما كان عليه فرويد في فترة إبداعه العريق مثلًا يمكن استنتاجه من مصادر غير مباشرة.

يحتاج فهم ما كان عليه فرويد حتى ستين سنة خلت ضرورةَ طفرةٍ خيالية. لقد تطلَّب ما شهدَه العالمُ الغربي من تغيّر جذري مجهودًا خاصًا من أجل استعادة ذلك المناخ الذي نشط فيه فرويد في فترة متأخِّرَة نسبيًّا من مسيرته. ورغم أن فرويد كتب بلا تحفّظ عن دور الجنسانية في الصراعات الفكرية، إلا أنه ظلَّ وفيًّا لعديد المواقف التي تعود إلى العصر الفيكتوري. من ذلك مثلًا أنه لما اشتكى إليه أحد أبنائه المراهقين من الاستمناء، حذَّر فرويد ابنه من مثل هذا الصنيع. وقد أزعج ذلك الأمر الابن ومنعه، كما قال، من أن يكون مقربًا لأبيه كما أخيه الأكبر[1]. ويُفترض أن فرويد قد اعتبر الاستمناء عرَضًا ونتاجًا للصراعات اللاشعورية، حتى لو لم يكن سلوكًا معيبًا. وعندما واجه فرويد المشكلة نفسها بحيادية كبيرة بدا فرويد متحرِّرًا من مظاهر التقوى التقليدية: مشكلة الاستمناء، كما صرح بذلك تكمن في الكيفية التي ينبغي أن يتّم وفقها[2].

كان بإمكان فرويد، يقينًا، التندر، لأن الطرافة انعكاس لتمتُّعه بالحياة. فقد قضى وقتًا كبيرًا من مسيرته وهو يكافح من أجل دفع الناس إلى القبول بأفكاره حتى أفقده ذلك الرغبة في الدعابة. فقد شارك السخرية اللاذعة مع أفضل الكتّاب التهكّميين في فيينا. فعلى سبيل

المثال، طلب منه النازيُّون قبلَ أن يسمحوا له بمغادرة فيينا عام 1938 أن يكتب بيانًا يوقِّعُ عليه يفيد بأنه عومل معاملة حسنة، وهو ما أقدم عليه فعلًا، ولكنه ذيّله بحاشية لا تخلو من نبرة التحدّي والتهكم جاء فيها «أتمنى من كل قلبي لكل شخص أن ينزل ضيفًا على الغستابو (البوليس السري النازي)»[3].

وبالنسبة لكل القواعد التقنية الجافَّة المعتمدة في سبر أغوار المريض التي وضعها مسبقًا للآخرين، كانت ممارسة فرويد للتحليل النفسي مفعمةً بكثير من التوضيحات الساخرة الرائعة. وتُقدِّمُ الأمثلة التي استخدمها في كتابة النوادر وعلاقتها باللاشعور لمحةً عن هذا الوجه في تفكيره. (لقد عبَّر المحلِّلُ اليهودي ألفييني هانز ساكس أثناء رحلته إلى أميركا عند علاجه لكثير من المرضى غير اليهود الذين كان عددهم يفوق من عالجهم في أوروبا عن قلقه بشأن استمراره في تحليل المرضى نفسيًّا دون استحضار القصص اليهودية. فوجد الحلّ في الاستعاضة بالقسّ عن الحاخام في تلك القصص: «عمّدت القصص») فما زال المرضى يستعيدون بشراهة كيف استطاع فرويد توضيح معضلات الجنس البشري بواسطة النوادر اليهودية.

تجرأ قلة من المقرّبين على النظر إليه بموضوعية وحيادية. وبحسب أتباعه الذين عاصروه وللأجيال المتعاقبة من المحللين النفسيين، إنما أراد فرويد أن يتخلَّص مما علق بالجنس البشري من شوائب[4]. وفي ذلك الوقت تستَّر تلاميذُه الذين عرفوه على ما لاحظوه عليه من علامات العُصاب. ومع أن نشر الكثير من رسائل فرويد في السنوات الأخيرة نبَّه إلى أنه كان يعاني من بعض الصراعات الداخلية، مثل القلق إزاء الموت، والحاجة إلى الاعتقاد في شخصية تعلم كل الإجابات عن مختلف الأسئلة الممكنة. ينبغي أن يتفق أي ملاحظ غير متحيّز على أن الهدف المحوري من البحث في حياة فرويد يتعلق بتحديد بأي مدى أو بأي طرق اصطبغت تعاليم التحليل النفسي بمشاكل فرويد الشَّخصية. وعلى الرغم من ذلك فإن العديد ممن قابلتُهم أعلنوا أنهم يعتقدون جازمين بأن لا أثر لشخصية فرويد في نظرياته السيكولوجية.

كان فرويد يُعرَف طوال حياته في حلقته على أنه «الأستاذ»، واليوم بعد أكثر من ثلاثين عامًا على وفاته، ما زال المقرّبون منه فضلًا عن بعض أقاربه، يتحدثون عنه بوصفه «الأستاذ» ويعتقدون في ذلك (فضلًا على أنه لا يستحضر هذه الكلمة إلا من كان على علاقة حميمة نسبيًّا بفرويد). ولا يمكن لأحد غريب أن يخمِّن مدى وقع تلك الكلمة على

المسامع قياسًا بغيرها من الكلمات، لما لها من فخامة وسلطة مهيبة كما تحدث تيودور رايك عن ذلك «قد تتخذ الكلمات التي يجري تداولُها في الحياة اليومية أهمية غير متوقعة بشكل مبطن. وقد تظل تتردد في أذهاننا بعض الملاحظات التي تكون عرضية أول أمرها ولسنوات عديدة بعد ذلك»[5]. ممّا لا شك فيه أنّ فرويد غيَّر نمط حياة هؤلاء الناس.

حظيت آنا فرويد في أيامنا هذه باحترام كبير. وإن سلسلة الأحداث المتعلقة بفرويد كافة هي التي أدت بتلاميذه إلى تنزيه أو قذف بعضهم البعض. في النهاية أصبحت ابنته الصغرى أعظم من وطَّد قواعد التحليل النفسي للمستقبل؛ فقد كان فرويد الأستاذ بما له من عبقرية هو الذي سهر على تنشئتها كطفلة حتى استطاعت أن تكون على رأس الحركة التي ورثتها عن أبيها. فآنا فرويد هي الآن «الآنسة فرويد». وقد استطاعت أن تملأ الفراغ الذي تركه أبوها بكل قوة وحذقت التواصل بنفس الكيفية التي نهج وفقها الأستاذ تمامًا.

تعرف آخرون على عناصر عقيدة التحليل النفسي، ولكن واجه الكتّاب المهتمين بفرويد، سواء أكانوا من مؤيديه أم معارضيه، صعوبة في تحقيق التوازن بين إعجابهم به ووجهة النظر النقدية التي لن تتوفر لهم إلا بقدر بُعدهم عنه. وقد يكون هؤلاء الذين انخرطوا في التحليل النفسي خضعوا إلى توجيه نفس البواعث الدينية التي توجِّه مختلف القنوات الأخرى في كثير من الطرق التقليدية، ولكن أيضًا كانت للمنشغلين بالتحليل النفسي إسهاماتٌ علميَّة حقيقية.

وسواء ذهبنا إلى عيادة آنا فرويد في لندن، أو إلى مراكز علاج الأطفال في نيويورك أو كليفلاند، لن نشعر البتة بأيّ تغيير يُذكَر. فالاتجاه التحليلي النفسي للأطفال هو نفسه، بل وحافظ على تماسكه ووحدته دائمًا وهذا يحسب لآنا فرويد لا فقط في ما تمنحه لتلاميذها من معاني التشارك في العواطف ولكن أيضًا في ما يتعلق بفهمها العميق والجوهري للصراعات العاطفية في فترة الطفولة. ومنذ البداية كان لدى التحليل النفسي هذا الوجه المزدوج من التحريف الذاتي والاكتشاف الموضوعي. وعليه ينبغي علينا أن نتعامل مع إنجاز فرويد بعناية كبيرة إذا أردنا اقتراح صيغ بديلة.

حتى يرتقي العلاج النفسي إلى مرتبة التجربة التربوية، يتعيّن علينا أن نطوِّر فهمَنا لنظرية العلاج النفسي آخذين في الاعتبار ما جاء في بحوث فرويد وتلاميذه. فقد لجأ فرويد نفسُه إلى المماثَلات التعليمية لشرح تقنياته العلاجية الجديدة. وكما قال في أكثر من مرة، إن

التحليل النفسي «بمثابة معلّم ثانٍ للبالغ، وبمثابة مصحح لتربية الطفل»[6].

كلّما تعرفنا على فرويد كمعلّم أكثر، كلما فهمنا نواياه كمعالج نفسي أفضل. فالمرضى بالنسبة إلى فرويد «تلاميذ»، والمحلّل بالنسبة إليهم «مرشد». حتى لكأنّ العملية التحليلية النفسية في حدّ ذاتها نشاطٌ تربوي. ألا إنَّ التحليل النفسي يسعى إلى تربية الأنا[7]. وخير دليل على ذلك أن بعض المرضى غير المتعلمين كانوا قليلًا ما يتوافقون مع اهتمام المحلل. ويعتقد فرويد بأن المرضى يراودهم الإحساس بأن المحلل النفسي هو بمثابة قدوة لهم في كافة محطات التحليل النفسي في حين لا يعدو أن يكون إلا معلّمًا في بعض المناسبات القليلة، ويكون ذلك عادة بشكل مباشر. ولكنه حذّر من التعليمات التمييزية وفي ذلك يقول: «ينبغي على المريض أن يكون متعلّمًا لكي يتحرر ويحقق طبيعته الخاصة، وليس ليشبهنا»[8].

كلما تعمّقنا في البحث في نظرية التحليل النفسي، تبيّن لنا أنه ليس ثمة ما يبرر المبالغة في أهمية تفسير شخصية فرويد. فرز فرويد، بعملية ما قبل شعورية، أعماله واجتبى إليه من كان يحق لهم الاتصال به شخصيًا، وعند قراءتهم كتابات فرويد أو مناقشة مفاهيمه، أخذوا في الاعتبار الفصل بين ما يستحق أن نتحدث عنه بوصفه ينتمي للعلم، وبين ما جادت به قريحته، وما كان ثمرة لجهوده الخاصة. ولكن عندما بدأ الجيل الأول من المحللين النفسيين يختفي تدريجيًا، أصبح من الصعب علينا أن نطعن بما هو ذاتي في منظومة فرويد، فلقد آوى تحت عباءته كل أتباعه من المحللين النفسيين الذين وجدوا أنفسهم متماهين معه عن وعي أو عن غير وعي. ومن أجل المرضى والأطباء النفسيين على حد سواء، ينبغي أن نتخلى عن أوهامنا قدر الإمكان.

نستطيع أن نفترض بكل ثقة بأنه سيكون لفهم فرويد شخصيًا تبعاته على نظرية علم النفس التحليلي والعلاج النفسي حتمًا. وقد يبدو غريبًا، خلافًا لذلك، أن يكون اهتمامنا مركّزًا في معظمه على شخصية فرويد. وبعد هذا ودونه، ألا ينبغي للعلم أن يكون مستقلًا عن شخصية مُنشئه؟ أليس في وصف رجل العلم بـ«العبقري» مصادرة للمطلوب؟ إذ يفترض الإبداع العلمي، خلافًا للأدب، أن اكتشافًا معيّنًا سيحدث إن عاجلًا أم آجلًا، إما على يد هذا العالم أو ذاك.

والثابت أن أعمال فرويد صنفت منذ البداية، في جزء منها، طبعًا، كإنجاز أدبي، ولا

سيَّما ذاك الذي يخصُّ حياته الشخصية الحميميَّة. وأن نقول بأن تفكيره كان إلهامًا ذاتيًا وثمرةَ فهمه الخاص لا ينتقص من قيمة إنجازه، وأن نقول بأن نظريته ذات أصول ذاتية لن ينال من قيمتها الموضوعية في شيء. تكمن قوة فرويد كمحلل نفسي في قدرته على استخدام وتوظيف معرفته الذاتية في كتاباته. فقد كتب بإحساس، من أجل علم لا شخصي (محايد)، عن بعض تجاربه الحميميَّة. وكما هو الشأن بالنسبة إلى غيره من الكتّاب العظماء، يتطلب ذلك ذاتًا سخيَّة بما يمكِّنُه من إبداعِ نظريَّته عن التجربة الإنسانية من جديد بمنأى عن سيرته الذاتية. لأنه ليس في مقدور أيِّ شخص غيره البتَّة أن يأتي باكتشافات كتلك التي توصَّل إليها هو.

وإذا سلَّمنا جدلًا بأنّ أعمال فرويد كانت، بأسوأ حالاتها، جزءًا من سيرته الذاتية، وبحثًا حول تاريخِ التحليل النفسي، فإنَّ ذلك يتطلب مقاربَتَها من زاوية نظر خاصَّة. ولا بدَّ أن نعترف، مثلًا، بالدَّور الذي لعبه تاريخ فرويد الشخصي في تطوِّر التحليل عندما كان لا يزال على قيد الحياة، حيث جاهد نفسه كثيرًا حتى يَفصلَ شخصيَّتَه عمَّا توصَّلَ إليه من كشف. وأثناء سرد أحد تلاميذه لإحدى الحكايات الطريفة، لاحظ أنه عندما اعتبر أن فرويد في فترة الثلاثينيات كان شخصًا عظيمًا، ردّ عليه فرويد قائلًا: «لا أدّعي أني شخص عظيم، ولكن ما توصلت إليه كشفٌ عظيم»[9]. ولم يكن فرويد منافقًا في تواضعه، لأنَّ النَّأي بنفسه عن علْمه مكَّنَه من أن يجعل من حياته الخاصة مصفوفةَ نظريَّته في علم النفس. وغني عن القول إنَّ فرويد يتعامل مع مرضى. وعليه فمن البديهي أن ينطلق من مشكلاتهم من أجلِ فهم حالاتهم والتخفيف من حدتها. ومن ثمَّ فإنه استطاع، من خلال مرضاه، أن يتحكَّم بنفسه بشكل أفضل حتى استطاع أن يتغلَّب على بعض من مقاومته الداخلية لمعرفته الذاتية عبر تحييد ما هو ذاتي وإضفاء صبغة موضوعية عليه.

وما فتئ فرويد يلحّ على ضرورة التميز بين شخصيته وأعماله، فهو لم يكن يريد أن يُنظَر إليه كشخصية أدبية منذ البداية. وإلا ما كانت أعماله لتستمرَّ بعد وفاته. وبالتالي، كما رأينا، فقد آمن بأن كتابة سيرته الذاتية لا طائل من ورائها. لقد أراد أن يثبت بأن شخصيته لم يكن لها أيّ تأثير على التحليل النفسي كعلم. وفي خطاب له في جمعية فيينا للتحليل النفسي في عام 1936، وبمناسبة عيد ميلاد فرويد الثمانين، أحضرت آنا فرويد رسالة لأبيها يوصي فيها تلاميذه بألا يُفكّروا في التحليل كما فكّر فيه هو، وإنما يتعيّن عليهم اعتباره ككيان مستقل من المعرفة[10].

ولقد تبيّن أن خشية فرويد من أن يرتبط التحليل النفسي بحياته الخاصة ارتباطًا وثيقًا لا أساس لها في الواقع، إضافة إلى أنَّ التدابير التي اتخذها لنفسه في تأسيس علم التحليل النفسي كانت في كثير منها مثيرة للجدل وغير مرغوب فيها وقد لامَه كثيرون عليها. لقد كان هناك دائمًا اهتمامٌ مبالغٌ فيه بحياة فرويد، حتى وإن لم توظَّف المعلوماتُ حول سيرته الذاتية بعد بشكلٍ منظّم في تبصير نظامه السيكولوجي. كان هذا شأن أعمال أيّ مفكر عظيم، فإنَّ ما يعنينا هو المفكِّرُ نفسُه وليس فقط مجموعة المجلَّدات التي كَتبها. فنحن نتحدث عن أفلاطون وأرسطو، ومفكِّرين آخرين أقلّ شأنًا، عندما نشير إلى كتاباتهم. وبغض النظر عن مدى صعوبة العثور على شخصية فرويد في أعماله من عدمها، فإن المرء يشعر دائمًا بالطابع المميَّز لتفكيره. ويعود ذلك، تخصيصًا، إلى أن نظام تفكيره يطغى عليه الجانب الشخصي كثيرًا، ورغم أن مثل هذا الأمر يشترك فيه مع غيره في الآن ذاته، إلا أنه استطاع أن يجذب إليه الكثير من الأتباع.

لقد كان ذلك عبئًا ثقيلًا على تلاميذه، فبقدر ما يُغري اعتبار اكتشافات فرويد خالدة، بقدر ما يثير من إحساس بالاغتراب باعتبار أن صاحبه ليس معصومًا من الخطأ. فبالنسبة للجيل الأول من المحللين النفسيين، فرويد يعني التحليل النفسي بحيث يستحيل استحضار هذا أو التفكير فيه دون ذاك. ويدور جدالنا هنا حول ما إذا كان فرويد محلِّلًا نفسيًا أم لا، إذ المسألة بالنسبة إلينا مسألة تعريف التحليل النفسي وليست مسألة معرفة كيفية ممارسة العلاج النفسي. فمن السهل جدًّا بالنسبة إليه الاعتقاد بأن الخلاف الشخصي يمثل اختلافًا علميًّا، بل وبأن الخلاف العلمي خيانة شخصية. فليس أشقّ على فرويد وعلى تلاميذه أيضًا من أن يحافظوا تواليًا على مفهوم العلم ومفهوم الإنسان.

تكمن قوة فرويد ككاتب وعالم نفس في قدرته على أن يدعو قلوب الناس كافة إلى روح واحدة. يقول فرويد: «إذا أردت أن تمتحن ذاتك فانظر في أعماقك، وستكتشف ما إذا كان ذلك صحيحًا، سواء بالنسبة إليّ أو بالنسبة إليك أيضًا». وقد تفاعَلَ العالمُ بأسره مع طريقة فرويد الشخصية في بثّ دعوته هذه. فقد أخبرني طبيب نفسي ممن قابلتهم أنه التقى فرويد لأول مرة في أوائل العشرينيات، وكان يقصد بذلك أنه قرأ لأول مرة كتابًا من تأليف فرويد. (وهذا أمر لافت جدًّا لأنه لم يقابل فرويد فعليًّا قبل عام 1936)، وحين يتحدث الناس عن خصوم فرويد إنما يقصدون أولئك الذين يختلفون معه علميًّا، وليس أعداءَه بصفته الشخصية. ويُعتبر فرويد بالنسبة لتلاميذه شخصية ذات دلالة عميقة جدًّا،

ولها وقعُها الكبير في نفوسهم، حتى أنهم كثيرًا ما يحتفظون في ذاكرتهم بتواريخ مهمة في حياته أفضل مما يفعل الأبناء مع آبائهم.

ولكن في نهاية المطاف أصبح التحليل النفسي شيئًا مختلفًا تمامًا عن شخصية فرويد. فكلّما زادت حركة التحليل النفسي في الانتشار، شهد التفكير التحليلي النفسي تغيُّرات جذرية، حتى أصبح يبدو غريبًا تمامًا عن فرويد نفسه. وعملًا بالطريقة التي علّمَهم إياها فرويد نفسه، راجَعَ الباحثون مؤخَّرًا معظمَ مواقفِه الأعزّ على قلبه. لقد حال الإعلاءُ من شأن قيمة وجهات نظر فرويد الشخصية إلى حد التماهي معها، وجملةُ الأحكام المسبقة بشأنها، دونَ إمكانية مراجعة نظرياته، وهي في الحقيقة إمكانيةٌ متأصلةٌ في أفكاره.

الهوامش

1 ـ أسطورة فرويد

(1) Cf. Hans Herma, Ernst Kris, and Joel Shor, «Freud's Theory of the Dream in American Textbooks», The journal of Abnormal and Social psychology, Vol. 38, No.3 (July 1943), pp. 328,331.

(2) Fritz Wittels, Sigmund Freud (New York: Dodd, Mead; 1924), pp. 130-31.

(3) أخبر مريضًا في 1909 على سبيل المثال عن زعمه بأسبقيته في اكتشاف استخدامات الكوكايين.
Interview with Albert Hirst, Jan.21, 1966.
وفي 1922، أخبر فرويد مريضًا آخر، شقيقة رائد في حركة التحليل النفسي، أن شابًّا أتى لرؤيته كان قبل سنوات موضوع حالة شهيرة «Little Hans».
Interview with Edoardo Weiss, June 25, 1966.
كان من الشائع أن يعلق فرويد على مراحل من عمله المبكر والذي قد يكون محل اهتمام للطلبة الذين يتدربون معه. أخبر جيمس ستارتشي عن ردة فعل جوزف بروير على «أنا أو».
Letter from James Strachey to Ernest Jones, Oct.24, 1951 (Jones archives).
ناقش فرويد إعجابه بجيمس جاكسون خلال جلسة تحليل.
Interview with Edith Jackson, Aug. 30, 1966.
كما تحدث فرويد عن اقتراح عرض بيرنهايم لما بعد التنويم خلال جلسة تحليل ورتس.
Joseph Wortis, Fragment of an analysis with Freud (New york: Charter; 1963), p. 159. Cf. also Smiley Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud (New York: Hawthorn; 1971), and Roy R. Grinker, «Reminiscences of a personal contract with Freud», American Journal of Orthopsychiatry, Vol. 10 (1940), p. 852.

(4) «Letter to Fritz, Wittels», Standard Edition, Vol. 19, p. 286.

(5) «An Autobiographical Study», Standard Edition, Vol. 20, p. 73.

(6) بدا جونز مترددًا في كتابه بأخذ الاعتبار «الأسباب التي لم استنتج الإيعاز الذي يجب أن اتخذه» مهمة توثيق السيرة. ولكن في رسالة واحدة على الأقل إلى الناشر (والتي احتفظ بها جونز سرًا، خاصة عن أعين المحللين الآخرين) فضحت الحماسة مؤهلاته ليكون كاتب سيرة فرويد. قارن التالي:
Ernest Jones, The Life and Work of Sigmund Freud (New York: Basic Books; 1953) (Cited hereafter as Sigmund Freud; the pagination differs in the American and English editions), Vol. I, P. xiii, with the letter from Jones to Mr. Bassett, Oct. 1, 1946 (Jones archives).

(7) Letter from Ernest Jones to E. Philp, Sept. 13, 1955 (Jones archives).

(8) «Letter to the Editor», American Journal of Psychotherapy, Vol. 10, No. 1 (Jan. 1956), p. 110.

(9) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, Mar. 10, 1954 (Jones archives).

(10) Jones, Sigmund Freud, Vol. II (New York: Basic Books; 1955), p. 3.

(11) أنا مدين في هذه النقطة إلى هنري أ. ميوري.

(12) S. Freud, letters, ed. Ernst Freud, translated by Tania and James Stern (New York: Basic Books; 1960) (cited hereafter as letters; the pagination differs in the American and English editions), p. 430.

(13) «Leonardo da Vinci», Standard Edition, Vol. 11, pp. 83-84.

(14) «General preface», Standard Edition, Vol. I, P. xv.

(15) Cf, Felix Deutsch, «Reflections on Freud's One Hundredth Birthday», Psychosomatic Medicine, Vol. 18, No. 4 (July- Aug, 1956), p. 279,
والذي يشير إلى ورقة عن مرض فرويد منعت من النشر «تأملات بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة فرويد»، والتي كان من المفترض أن تظهر في American Imago ولكن بسبب اعتراضات آنا فرويد لم تظهر إلا في أرشيفات جونز.
Letter from Felix Deutsch to Ernest Jones, Jan. 31, 1956.

(16) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Apr. 8, 1954 (Jones archives). Cf. also her letter to Jones, Apr. 4, 1954 (jones archives).

(17) Letter from James Strachey to Ernest Jones, May 13, 1954 (Jones archives).

(18) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Mar. 4, 1957 (Jones archives).

(19) أصلح ستراتشي جزءًا من الضرر في نسخته العادية،
Vol. I, p. 259. Max Schur undertook to publish additional portions of the Fliess correspondence. Cf. Freud: Living and Dying (New york: International Universities Press; 1972).

(20) على سبيل المثال، شمل جونز في مذكراته عن فرويد نقدًا لاذعًا من أرنولد زويغ عن وفاة ألفرد أدلر. بالرغم من أن بقية الرسالة نشرت في الكتاب عن مراسلات فرويد-زويغن غلا أن تلك الفقرة على الخصوص نقحت دون فائدة من القطع المنقوص.
Compare Jones, Sigmund Freud, Vol. III (New York: Basic Books; 1957), p. 208, with the letters of Sigmund Freud and Arnold Zweig, ed. Ernest Freud, translated by Elaine and William Robson-Scott (New York: Harcourt, Brace & World; 1970) (cited hereafter as letters of Freud and Zweig), pp. 131-33.

Cf. Paul Roazen, «Dear Father Freud», The Nation, Vol. 210, No. 20 (May 25, 1970), pp. 631-32.

(21) «Introductory Lectures on Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 16 (cited hereafter as «Introductory Lectures»), p. 260.
لعل القارئ يهتم في تأملات أخرى في ما يخص اهتمامنا بالسيرة الذاتية: «... الحاجة باكتساب علاقة فعالة مع رجال كهؤلاء، لإضافتهم على الآباء والمعلمين والقدوة الذين عرفناهم أو الذين خبرنا تأثيرهم مسبقًا، متوقعين أن شخصيتهم ستكون بجودة ومثار الإعجاب كأعمالهم الفنية التي يمتلكونها. وبهذا يمكننا أن نقر بأن ثمة دافع آخر للعمل من أجله.. صحيح أن كاتب السيرة لا يرغب أن يحط من بطله، إلا أنه يرغب بأن يجعله أقرب إلينا. أي تقصير المسافة التي تفصلنا عنه: بالرغم من أنها تميل نحو التفكيك. كما أنه لا مناص بأن في معرفتنا أكثر عن حياة رجل عظيم سنسمع أيضًا عن مناسبات لم يكن فيها أحسن منا، وأنه في الواقع أصبح قريبًا منّا كإنسان. مع هذا، أعتقد بأنه يمكننا التصريح بأن جهود السيرة الذاتية مشروعة».
«Address Delivered in the Goethe House at Frankfurt», Standard Edition, Vol. 21, pp.211-12.

2 ـ اكتشاف فرويد الإنسان

(1) Interview with Oliver Freud, Apr. 22, 1966.

(2) Letter from Edward Hitschmann to Ernest Jones, Mar.26, 1954 (Jones archives).

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, p. 226. Cf. letter from Franz Bienenfëld to Ernest Jones, Jan. 28, 1956 (Jones archives). Cf. also Martin Freud, Glory Reflected (London: Angus & Robertson; 1957), p. 217.

(4) على الرغم من أن أكثر تلامذة فرويد ولاء لم يحلموا قط بتحليل شخصية معلمهم، وجدت مرتين محللين مفتونين تمامًا بمريض لهم تشبه هيكلة شخصيته تلك لفرويد، ممثلة في رأيي انتقال اهتمامهم بفرويد نفسه.

Although Freud's most loyal pupils would at the time never have dreamed of analyzing the master's own personality, twice I found analysts absolutely fascinated with a patient of theirs whose character structure they thought resembled Freud's own, in my opinion representing a displacement of their interest in Freud.

(5) Theodor Reik, from Thirty Years with Freud (New York: Farrar & Rinehart; 1940), p. 27.

(6) «Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 20, p. 268.

(7) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 12, p. 117. «A difficulty in the Path of Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 17, p. 143.

(8) «Lines of Advance in psychoanalytic Therapy», Standard Edition, Vol. 17, p. 165.

(9) Quoted in Rudolf M. Loewenstein, Freud: Man and Scientist (New York: International Universities Press; 1951), p. 17.

(10) Interview with Edward Kronold, Sept. 19, 1966.

الفصل الثاني

الخلفية والشخصية

1 - كل التحديات وكل الانفعالات

غالبًا ما شعرْتُ كما لو أنني ورثت كل التحدي وكل المشاعر التي دافع من خلالها أجدادُنا عن معبدهم واستطاعوا بكل سرور أن يضحّوا بحياتهم من أجل لحظة عظيمة في التاريخ.

وقد اهتم فرويد كثيرًا في تأمّلاته بسيرته الذاتية وانضباطه التام في عملية التدقيق الذاتي بماضيه أكثر مما فعل غيرُه من أهمّ الشخصيّات التاريخية التي استفزّت خيالَ المؤرِّخين. وتفترض هذه الحقيقة – إذا ما أضفنا إليها إصرارَه على الأهمية المحورية للسنوات القليلة الأولى من حياته ولكل ما طرأ على شخصيَّتِه من تطوُّر لاحقًا – على الأقل نقطةَ انطلاقٍ لمقاربة سيرة فرويد الذاتية. ولكن رغم ذلك لا يزال لغز موهبته قائمًا، إذ ليس من السهلِ البتَّة تمييز حقيقة السيرة الذاتية من الرواية المتخيَّلة بإتقان وحبكة. وما كان في أغلبه ذاتيًّا محضًا، طوال حياته، أصبح تاريخيًّا.

وُلِدَ فرويد في عام 1856 من أبوين يهوديَّين كانا ينتميان إلى أقلية دينية صغيرة في فرايبورغ بمورافيا، وهي مقاطعة تسيطر عليها أغلبية ساحقة كاثوليكية من الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية، وهي جزء من تشيكوسلوفاكيا حاليًّا. وعلى ما يبدو لم يكن غريبًا ولا مجافيًا للمنطق أن ينشأ التحليل النفسي على يد يهودي، ذلك أنَّ وضعَ هذه الأقلِّية المضطهَدة سمح لها جيّدًا بفهم محنة الغرباء مثل الاضطرابات العصبية والوضع الاجتماعي المهمَّش، مما شجَّع اليهود على أن يبادروا قبل غيرهم بالمجازفة في اقتحام هذا الميدان الجديد الموسوم بالتحليل النفسي. ومن هنا نفهم كيف كان لليهود في السنوات الأخيرة النصيب الأكبر في حركة التحليل النفسي على نحو غير متناسب، حتى بدا وكأن لليهود

انجذابًا خاصًّا لعلم نفس فرويد. فمن غير الممكن المبالغة في التأكيد على يهودية فرويد كما لو كانت الجزء الوحيد الأكثر أهمية في خلفيته[1].

وقد كان فرويد في سنوات نضجه إلحاديًّا بشكل صريح، مع أنه ظلَّ حسَّاسًا تجاه هويَّته كيهودي، حتى أنه غالبًا ما أكد أهمّيتها بالنسبة إليه. ولم يفقد فرويد أبدًا اهتمامه بسيكولوجية الاعتقاد الديني، حتى أنَّه خصَّ ذلك بثلاثة كتب من بين مؤلَّفاته العديدة (وهي الطوطم والتابو في عام 1913، ومستقبل وهم عام 1927، والنبي موسى وعقيدة التوحيد عام 1938) من أجل توضيح حقيقة المشاعر الدينية[2]. وقد ركز في ذلك دائمًا على العنصر الطفولي الكامن وراء الدّين، مثبتًا أن الناس إنما يحتاجون إلى الإيمان بالله وممارسة الشعائر والطقوس بوصفها دعامة للعجز الإنساني، فقد اعتبر فرويد الدِّين بمثابة الأمل في الحصول على تعويض عن مظاهر العجز التي تطبع مرحلة الطفولة، والتي لا يمكن تخطِّيها البتَّة. وقد أدرك فرويد أن الدّين يستطيع أن يخفّف من وطأة الشعور بالذَّنْب، خاصة ذاك الذي يرتبط بالدوافع العدوانية، وأنه مؤهَّل لإيجاد الحل لمعضلة الموت. بيد أن ذلك، بالنسبة إلى فرويد، يبدو طريقة عصابية لمعالجة الصراعات التي تحكم الوجود البشري. وكان شجبُه الجريء للدِّين تعبيرًا عن آماله التي لا تلين في تحرير البشرية. ومن المؤكد أن وضع البشر اليوم سيكون أفضل مما كان عليه في الماضي لو أنهم فقط تحرروا من الخرافة والجهل والعُصاب.

ولا يخلو فهم فرويد للدافع الدِّيني من عدم الاتِّساق، ذلك أن الجوانب المرعبة والعدوانية في الاعتقاد الديني، وليس المحبة، هي التي طغت على تفكيره. على الرّغم من أن فرويد كان مضطرًا إلى مواجهة الدَّور المتسلط للدين في التاريخ الماضي والنتائج المعقدة للحياة الغربية لانهيار المعايير المعترف بها من قبل. ورغم ريبته، فقد شعر فرويد أثناء معالجته لبعض الحالات المرضية الفردية بأن الدين قد يكون بمثابة حلّ بنائي للصراعات الداخلية. وقد عبّر فرويد عن أسفه إزاء العجز المتزايد للإنسان الحديث عن الإيمان بالله، لأنه، في تقديره، مصدر الاضطراب العقلي واسع الانتشار.

تمثل أعمال فرويد تحديًا للفكر الديني التقليدي حيث يعتبر التحليل النفسي بمثابة طريقة علمية (ومنافسًا) بديلا عن الطرق الدينية السابقة القائمة على الشعوذة والسحر. وبما أن فرويد كان يهوديًّا، فقد اتخذ مسافة من القيم المسيحية التقليدية. فعلى سبيل المثال، استحضر في كتابه قلق في الحضارة القول المأثور: «ستحب جارك كحبّك

لنفسك» ليبيّن كيف أنه غير واقعي وغير مرغوب فيه من الناحية السيكولوجية، فقد كان فرويد يعارض إنكار حتميّة التمركز حول الذات وشرعية العدوان[3].

وفي ردِّه على اعتبار علاقة مفاهيمه بالثقافة محدودة جدًّا وأن الحياة الجنسية التي سادت في فيينا لا أثر لها في أي مكان آخر، قال فرويد إن «ثمة أشياء كثيرة يمكن أن نقرأها بين السطور، فنحن أهل فيينا لسنا فقط محتقرين بل أكثر من ذلك يهود»[4]. وقد كانت مفاهيم فرويد في بداية مسيرته في التحليل النفسي محل سخرية شديدة الأمر الذي زاد في ارتيابه إزاء الثقافة المسيحية. وفي ذلك كتب يقول إلى تابعه اليهودي كارل أبراهام، عندما حاول أن يقلل من شأن الصراع بين أتباعه المخلصين والسويسريين (والمحللين غير اليهود)، وكان من بينهم كارل يونغ:

«أعتقد أنه علينا كيهود إذا أردنا أن نتوحّد، أن نطوِّر قليلًا من المازوشية والاستعداد لتحمّل ألم المعاناة... فلو كان اسمي أوبر هوبر، للاقت إبداعاتي مقاومة أقل»[5].

ومهما كان نزوعه إلى المعارضة المبالغ فيها، فإن معاداة الساميَّة، على الرغم من أنها لم تكن تنوّعًا دمويًا، لعبت دورًا حقيقيًّا في حياة فرويد. فمن بين ذكرياته الحميمة وصف أبيه لردة فعله السلبية على إهانة له في الشارع:

«لقد كنت في سن العاشرة أو الثانية عشرة، عندما بدأ أبي يصحبني معه للتنزه حيث كان يحدثني عن وجهات نظره عن الأشياء الموجودة في العالم الذي نعيش فيه، وقد سرد عليّ في إحدى المناسبات قصة كشف من خلالها كم تحسَّنت أوضاع اليهود عمّا كانت عليه في أيامه: «لما كنت صغيرًا، بينما كنت أتجوّل ذات يوم سبت في شوارع مسقط رأسي حيث كنت أرتدي أحسن الثياب وأحمل قبعة جديدة من الفرو على رأسي، توجَّهَ نحوي أحد المسيحيين وضربني على رأسي فسقطت القبعة في الوحل وصاح في وجهي قائلًا: «أيها اليهودي تنحَّى جانبًا عن الرصيف»! فسألته: «وماذا فعلت؟» فأجابني بهدوء: «انتشلت قبعتي من الوحل وانصرفت». وقد صدمني هذا التصرف الجبان إذ صدر عن شخص ضخم وقوي البنية سوَّلَت له نفسه الدنيئة الاعتداء بالضرب على طفلٍ صغير. وقد قارنت هذا المشهد بمشهد آخر يتوافق مع مشاعري تمامًا: وهو المشهد الذي عاشه والد حنِّبعل حتى أقسم على أن يذبح كل من يعترض طريقه انتقامًا من الرومان. ومنذ ذلك الحين ظل حنِّبعل راسخًا في مخيّلتي على الدوام»[6].

شعر فرويد بخيبة أمل كبيرة من ردّة فعل أبيه إزاء اعتداء السبت هذا، ولم يبق شيء من هذه السلبية التي طبعت سلوك الوالد في ردود أفعال فرويد في مواجهة الضغط الاجتماعي عندما كبر. يذكر ابنه مارتن حادثة اتهم فيها فرويد بشجاعة حشدًا حاقدًا تعالت فيه الشتائم المعادية للسامية، وفي ذلك انقلاب غريب على سلوك والد فرويد[7]. وبقي فرويد حساسًا تجاه معاداة الساميَّة وحذرًا إزاء غير اليهود بلا استثناء. حتى أنه اعتقد بأنه لا يوجد شخص غير معادٍ للسامية أصلا[8].

لم يعطِ فرويد اهتمامًا كبيرًا في كتاباته لمسألة الشعور بالخجل، مع أنه عالج مشكلة الشعور بالذنب بإسهاب، إذ اعتقد بأنّ الخجل خاصية أنثوية. من السهل علينا الاعتقاد مع هذا بأنه حمل في أعماق ذاته بعضًا من القيم الدونية التي وضعها المجتمع على كونك يهوديًا. فأنْ تكون يهوديًا، فذلك يعني، من بين أشياء أخرى عديدة، أنْ تكون سلبيًّا وجبانًا وضعيفًا، وهي صفات لم يكن فرويد يرتاح لها، لأنها ليست من شِيَم البالغين في شيء. ويُذكَرُ أنَّه في عام 1935 كانت هناك طرفة قاسية تفيد بأن يهود برلين كانوا يجوبون شوارع المدينة وهم يرفعون لافتات كُتب عليها «ارموا بنا خارج المدينة». وقد أساء فرويد فهم سخرية اليهود الوحشية هذه من أنفسهم - من حيث هي سخرية تعكس إذعان اليهود المطلق للنازيين واستعدادهم لأن يفعلوا كل ما يطلب منهم دون قيد ولا شرط - كما لو كانت قصة واقعية تمامًا، وهو ما جعله يسخط على هذا الوضع بحسرة ونقمة، حتى أنه اعتبر اليهودية ضربًا من الاحتقار الذاتي وحطًّا من الكرامة[9].

لم تضع سيكولوجية فرويد حسابًا للشخصية القومية إلا قليلًا، ولا تخلو أيّة اختلافات بين الشعوب، بالنسبة إليه، من مضامين عنصرية. ورغم أن مثل هذه المضامين تتجلى بصفة خاصة في الدين حيث يقع التأكيد على الانفصال، فقد وجد فرويد صعوبة في تقدير هذا الأمر، مثل علماء الأنثروبولوجيا الثقافيين الذين لا يأخذون في عين الاعتبار التماثل السيكولوجي[10]. (كارل ماركس هو الآخر يهودي وقد قلّل من شأن الاعتبارات القومية في العالم الحديث).

وفي الوقت نفسه لم يكن فرويد يتردد كثيرًا في التأكيد على يهوديته رغم أنه لم يمارس طقوس وشعائر الديانة اليهودية ورغم محدودية ولائه لها. وبغض النظر عن شغفه بالقصص اليهودية، فقد عزا فرويد ذلك إلى تشدده وإلى فخره وحياديته لأنه كان يهوديًا - وقد كان بإمكانه أن يرمي عرض الحائط الآراء الشائعة، وأن يمضي قُدمًا في تفكيره بكل

استقلالية. وهذا ما أعلن عنه صراحة في مقال له نشر في عام 1926 على مستوى الفصل الذي حمل عنوانًا «منظمة بناي بريث»: لأنني كنت يهوديًا فقد وجدت نفسي متحررًا من كثير من الأحكام المسبقة التي قيّدت الآخرين في استخدامهم لتفكيرهم، وبوصفي يهوديًا فقد كنت مستعدًا للالتحاق بالمعارضة وللتصرف دون موافقة «الأغلبية المدمجة»[11].

لقد كان منتسبو منظمة بناي بريث في أوروبا الوسطى، في ذلك الوقت، من صفوة القوم ونخبتهم حيث كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية معتبرة. وكان فرويد يحضر اجتماعاتها بانتظام، حتى أنه سلم بعض الأوراق المتعلقة بعلم النفس التحليلي لهذه المجموعة. وقد أشاد فرويد بفضل أعضاء هذه الجماعة عليه وهو ما ذكره في المقال نفسه الصادر عام 1926 إذ يخاطبهم قائلًا: «لقد كنتم أول من ناصرني». وقد انتمى فرويد إلى هذه المنظمة على وجه الخصوص لأنه كان يهوديًا، وبذلك مثلت مشاركته تلك إعلانًا عن انتسابه المتواصل لليهودية.

وقد اتّبع فرويد في حياته بعض الممارسات والتقاليد اليهودية. فقد ترأس رسميًا عائلته بمختلف تفرعاتها: أبناء زوجته، وعماته، وأعمامه، وبنات أخواته، وأبناء أخواته، وأبناء عمّه المقربين منه. وقد أحبته عائلته بقدر عال، وكان يدعم أعضائها بالمال والنصيحة. (وقد كانت حركة التحليل النفسي امتدادًا لعائلة فرويد، وقد أحكم مهنته الجديدة بنفس الطريقة). ويُذكر أنّ لا أحد من أولاده تحوّل إلى المسيحية أو تزوج من معتنقيها، وأن ابنه إرنست كان صهيونيًا. وعلى الرغم من مشاعر زوجته تجاه هذه القضية، فإن فرويد لم يكن يعتقد في مراعاة ممارسة الشعائر اليهودية التقليدية. ولم يكن فرويد يحتفل بعيد الفصح رغم أنّ والدَي فرويد كانا يحتفلان به. (لم تكن تجيد الألمانية إلا أنها كانت تتكلم اللهجة الغاليكية اليديشية Galician Yiddish بطلاقة «وهي إحدى اللهجات الألمانية التي تكثر بها الألفاظ اليهودية وتُكتب باللغة العبرية وكان يتحدث بها اليهود في بلدان الاتحاد السوفياتي وأوروبا الوسطى»[12]).

ساند فرويد اليهود سياسيًا كذلك بوصفهم من أهل مِلّته. والثابت أن فرويد كان في بداية الحرب العالمية الأولى قوميًا متطرفًا في وقوفه إلى جانب ألمانيا وقوات المحور، فقد كتب في السادس والعشرين من تموز/ يوليو 1914، أنه «للمرة الأولى منذ ثلاثين عامًا شعرت بأني نمساويّ وأشعر بأني بحاجة إلى أن أمنح هذه الإمبراطورية التي لا تبعث على التفاؤل فرصة أخرى»[13]. أما بالنسبة إلى سكان فيينا، وإنكلترا، وفرنسا فقد كانوا

شركاء للقيصر، في حين كان النمساويون أكثر تحررًا من الروس، وينظرون إليهم باحتقار كما لو كانوا برابرة. وحتى عندما سأل فرويد مؤخرًا أحد تلاميذه الإيطاليين عمَّن كان في الجيش النمساوي - المجري، وما كان يُفكّر فيه حول الحرب برمتها، نأى الرجل في ردّه بنفسه عن الصراع معتذرًا: «آه، أستاذي، كما تعلم أنا يهودي»، وقد سرّ فرويد لردّه ذاك، ولعله للسبب ذاته نأى بنفسه هو أيضًا عن الجيوش المتناحرة(•)[14].

شهد فرويد في سن مبكرة من طفولته حدثًا دينيًا كان له وقعٌ شديدٌ في حياته، سرعان ما اكتسى لاحقًا أهمية بالغة بالنسبة إليه. فقد تعهَّدَتْ بتربيته عندما كان طفلًا صغيرًا، قبل أن يأتي إلى فيينا، مربيةٌ كاثوليكية، الأمر الذي ترك لديه انطباعًا قويًا، ذلك أنها، رغم دمامتها وشيخوختها، كانت ماهرة وبارعة حيث منحته «الوسائل الضرورية للبقاء والحياة»، وقد كتب فرويد نفسه مشيدًا بفضلها عليه قائلًا: «لقد كان لها موقفٌ مميزٌ من قدراتي الشخصية». فقد كانت تصحبه معها بانتظام إلى الكنيسة وتسرد عليه العديد من الأفكار حول الكاثوليكية. وقد تذكرت أمُّهُ لاحقًا بعضًا من خطاباته التي كان يلقيها على مسامع عائلته حول «الطريقة التي يدير بها الله شؤونه»[16].

وعندما بلغ فرويد سنَّ الثانية والنصف من عمره استقالت مربيته فجأة، والتي كان يكن لها شعورًا عظيمًا، لأنها ضُبطَتْ وهي تسرق العائلة. لقد كان يعطيها بعض من المال الذي يُهدى إليه، ولكنها أيضًا «شجَّعَتْه لكي يسرق لها الأموال»[17]. وقد سلّمت هذه المربية إلى الشرطة على يد أحد أكبر إخوة فرويد سنًّا وهو فيليب، وقضت عقوبة تسعة أشهر في السجن. بيد أن الطفل الصغير ظلَّ متعلقًا بها رغم كل ما قيل عنها، وبعد أن طُردت من حياته - وربما كان هذا أول ما كتبه فرويد وقد تكرر نتيجة خيبة أمله تجاه الناس - عانى كثيرًا من مشاعر العزلة أثناء نضاله من أجل قضية التحليل النفسي. فهل يعني ذلك أن فرويد أصيب بخيبة الأمل هذه منذ سن الحداثة، لما اكتشف أن الإله الكاثوليكي لمربيته غير الإله اليهودي؟ لقد لعبت مسألة السرقة التي أصبحت في صلب الاهتمامات العلمية، لا سيما السرقة الأدبية، دورًا هامًّا في علاقات فرويد العلمية لاحقًا.

(•) أثناء وجوده في باريس في عام 1886، ذكر فرويد عن أحدهم تبادل معه أطراف الحديث في خصوص الشأن السياسي توقعه بأن: «الحرب بين فرنسا وألمانيا ستكون طاحنة». «ذلك ما أردت بيانه بسرعة». وقد كتب فرويد آنذاك «أنا يهودي قبل أن أكون ألمانيًا أو نمساويًا» وأضاف «لكن مثل هذه المساجلات كانت تحرجني جدًّا دائمًا لأني أشعر بأن شيئًا ما في أعماق ذاتي يشدني لألمانيا لا ينفك يثيرني طالما عملت على كبته»[15].

غادرت أسرة فرويد فرايبورغ إلى لايبزغ في تشرين الأول/ أكتوبر 1859، وبعد شهور قليلة غادرت إلى فيينا. ولم تكن أسباب هذه التحوّلات واضحة تمامًا. وفي حين عرفت أسرة فرويد على مدى طويل تغيرات اقتصادية مزدهرة على إثر انتكاسات مالية كبيرة (فقد قام أخوا فرويد غير الشقيقين إيمانويل وفيليب باستثمارات عديدة مشبوهة في جنوب أفريقيا في مزارع لريش النعام)[18]، فإن تلك التغيّرات رغم ذلك كانت سببًا في خسارة تجارة والد فرويد يعقوب في مجال الصوف. وفي السنوات الأخيرة، حنّ فرويد إلى حياته في فرايبورغ لِما تميّزت به من أمن اقتصادي وعاطفي.

ولمّا كان هناك ثلاثة أشخاص في سن الخدمة العسكرية الإلزامية في أسرة فرويد، فقد حاولَتْ التهرب من الخدمة العسكرية من خلال كثرة تنقلاتها. حتى أن الأسرة غادرت المقاطعة النمساوية - المجرية، في اتجاه لايبزغ بعد اندلاع الحرب بين إيطاليا والنمسا، ومن ثمَّ انتقلت إلى النمسا (فيينا) على إثر إعلان السلام. ثم استقر أخوا فرويد غير الشقيقين في إنكلترا تهرُّبًا من التجنيد الإلزامي الذي كان شاقًّا جدًّا بالنسبة إلى اليهود في ذلك الوقت، فالجيش لم يكن يعني فقط معاملتهم بقسوة بصفة خاصة من الضبّاط، ولكن أيضًا لا يتوافق مع التقاليد اليهودية القديمة[19].

ورغم ما عانته أسرة فرويد من انتكاسات اقتصادية في تلك الفترة، فإن فيينا كانت في أوجها الثقافي، ذلك أنها شهدت منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى مقاومة ثقافية: في الموسيقى، والفلسفة، والأدب، والرياضيات، والاقتصاد، تجلّت في عديد الأعمال التاريخية. ففي هذا التطوّر الثقافي، والبحث عن الحقائق خلف واجهة الإمبراطورية، كان اليهود المثقفون والمتحررون في موقف مثالي لتمييز النفاق إذ لم يكن لديهم ما يكسبونه من خلال القبول بالرؤية الرسمية إلا قليلا[20].

لقد كانت النخبة المثقفة في فيينا كوسموبولتية بشكل كبير. في حين أن فرويد، مثلًا، وكثيرون آخرون ممن يمثلون ثقافة فيينا القديمة لم يولدوا هناك. ولأن فيينا كانت مركز إمبراطورية هابسبرغ القديمة مترامية الأطراف، فقد كانت قبلة للمواهب الطموحة. وقد كان الصراع الثقافي المحتدم بين الشرق والغرب بمثابة الإعصار لفيينا، وقد انعكس ذلك في محاربة فرويد للثقافة الليبرالية، واستخدامه السخرية لإماطة اللثام عن غموض المعتقدات القائمة في فكره اللاحق. وقد كان هذا الإحساس بالقهر، وبأن الحضارة تآكلت، سمةً غالبة لدى كثير من المؤلفين في تلك الفترة.

لقد أجبر اليهود، تاريخيًّا، على الرحيل من فيينا ثلاث مرَّات. ومع ظهور الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، عاد اليهود إلى فيينا. وفي الفترة بين عامي 1850 و1870م أصبح لهم شأنٌ عظيم، إذ رغم أن عددهم لم يتجاوز العشرة في المائة تقريبًا من سكان فيينا الذين قُدِّرَ عددهم بمليونين آنذاك، فقد سيطروا على كثير من البنوك والصحف. وتغلَّبوا على التمييز العقائدي، كما تبوَّأوا مناصب أكاديمية متقدِّمة في جامعة فيينا، واشتغلوا بالطب والمحاماة. ورغم تفاقم معاداة السامية بمرور الوقت، فإن اليهود ازدهروا، بسبب نجاحهم الباهر.

وقد كره الإمبراطور الأسبق فرانز جوزيف معاداة السامية: من ذلك مثلًا أنه لم يصادق على انتخاب كارل لوجر (أحد أذرع هتلر الأبطال) عمدةً للمدينة في ثلاث مرات بين عام 1895 وعام 1896. وأمام الموقف المشرِّف للإمبراطور في ذلك الوقت، فقد انغمس فرويد بإفراط في التدخين، والإدمان، من أجل التغلب على مِحَنِه. ولم يقبل «إمبراطور اليهود» فرانز جوزيف بتسمية لوجر في خطته إلا في 1897، عندما تعرض للاعتداء في الشوارع.

وفي ظل التضييق الذي نشأ فيه فرويد، كان من الضروري أن يجد اليهود مصاعب خاصة في ضبط عدوانيتهم. فلقد تنامت لدى فرويد حاجة ملحّة إلى الاستقلال، وهذا ما تؤكده أعماله الأخيرة التي تخلو من شجاعة وحماسة. فلقد كان فرويد «يعشق البغض، كما نشأ ثوريًّا، وكان يحب أن يلعب دور محامي الشيطان»[21]. وقد تعلّم فرويد قليلًا من رياء أهل فيينا الكيّس، عسى أن يتغلب على سلوكه الفظ والمتعجرف من أجل قضيته، حتى أصبح أكثر جاذبية ونفاقًا. وقد جاء في رسالة إلى خطيبته وصفٌ لطبيعة طموحاته في سياق نشأته الخاصة حيث يروي كيف استطاع أحبُّ أساتذته إلى قلبه (جوزيف بروير) أن «يكتشف أن وراء خجلي تكمن جرأة وجسارة. وذلك هو دأبي دائمًا ولم أَبُحْ به لأحد بتاتًا. فقد كنت أشعر دائمًا بكل التحديات وكل الانفعالات التي عاشها أسلافُنا دفاعًا عن هيكلهم، وإنه ليسرني أن أضحي بحياتي من أجل حدث عظيم في التاريخ[22].

ثمة العديد من القرائن في حياة فرويد تؤكد رغبته العميقة في أن يكون مقاتلًا جسورًا. وفي بدايات سن الأربعين حلم بنبوءاته الأولى عن نفسه. «فقد أخبَرَت عجوزٌ فلاحة أمي عند ولادتي بأنه سيكون لي شأن عظيم في هذا العالم». وتساءل فرويد في قرارة نفسه: «هل كان لي ذلك؟ أيكون ذلك هو سبب لهفتي للعظمة؟»[23]. ولمَّا كان صبيًّا في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وشاعرًا في المتنزه، تكهَّن بأنه قد يترأس مجلس الوزراء يومًا ما (كان هناك في ما بعد وزراء يهود) وإن لم تكن هذه التنبؤات بشأن فرويد الطفل

غير عادية، فقد كانت مثيرة، وظلت تحتل مكانة مميزة في حلم فرويد رغم مرور السنين.

وعلى امتداد الفترة التي كتب فيها تفسير الأحلام (1900) اعترف فرويد في لحظة من التهوّر «لست عالمًا حقًّا، ولا ملاحظًا، ولا مجرّبًا، ولا مفكّرًا. أنا لا شيء سوى باحث ومغامر، إذا ما أخذنا في عين الاعتبار ترجمة الكلمة عن اطلاع، ودراية، وتثبُّت بشأن هذا النوع من البشر»[24]. وعندما طرد النازيون فرويد من فيينا عام 1938، وهو في سن اثنين وثمانين عامًا، وهزيلًا ومريضًا، وحتى أثناء رحلته الليلية من باريس إلى لندن.فقد حَلُمَ بأنه يقيم في بفنسي. إذ وكما أخبر فرويد أحد أبنائه، بأن بفنسي هي الأرض التي أقام فيها ويليام الفاتح في العام 1066م[25].

ومن أهم الأبطال المنقوشين في ذاكرة فرويد، حنَّبعل ونابليون، وهما الأهم بالنسبة إليه في سياق خلفيته اليهودية. فقد كان حنَّبعل ساميًّا حتى أنه كان شديد الكره لروما ناهيك أنه سعى إلى تدميرها بالكامل، وقد كانت مشاعر فرويد تجاه روما غير واضحة وظلَّ لسنوات طويلة ينفر من زيارة المقر الكاثوليكي، حتى زاره مرة ثم تكررت زياراته له بانشراح أكبر.

أما نابليون الذي عبر جبال الألب كما فعل حنَّبعل، فقد كان بدوره قدوةَ فرويد ومثلَه الأعلى في الشجاعة والجسارة، ناهيك أنه لما كان صبيًّا، كان يضع ملصقات على ظهر الدُّمى تحمل أسماء قادة جيش نابليون، وقد كان الاسم المفضَّل لفرويد ماسّينا Mas-séna، حتى أنه اعتقد أنه من أصول يهودية. وعندما بلغ فرويد سن الرشد اقتدى في العديد من عباراته بأقوال بونابرت المأثورة. «يمكن للمرء أن يقول هنا» في إشارة إلى الحياة الجنسية، معدّدًا الأقوال المأثورة لنابليون العظيم: «التشريح قدر»[26]. فقد أشار فرويد في أكثر من مرة إلى «نابليون العظيم» الذي كان «شأنه شأن فرويد» «كثير النوم في ما يبدو...»[27]. شرح فرويد بأن في ما يخص المريض فإن المرء يحتاج ثلاثة أشياء، الشجاعة أولا، والشجاعة ثانيًا والشجاعة ثالثًا. (اعتقد فرويد بأن نابليون قال بأن ثلاثة أشياء مطلوبة لخوض حرب، المال ثم المال، ثم المال[28]، بينما يعتقد دنتون Danton أن المسألة مسألة جرأة، ثم جرأة، ثم جرأة). كتب فرويد عن إحدى رحلاته إلى أكروبوليس Acropolis مع أخيه الأصغر بأنه تذكر تعليقًا لنابليون إلى أخ له، من المحتمل (خمّن فرويد) أنه يوسف، والذي كان كنية لمفسر الأحلام في التوراة: «لذا وإن أمكنني مقارنة حدث صغير بآخر عظيم، وهو تعليق نابليون أثناء تنصيبه إمبراطورًا في نوتردام» ما يمكن أن يقوله السيد أبانا عن هذا لو كان بإمكانه أن يكون هنا اليوم؟»[29].

لقد بدا نابليون وكأنه بطل غير عادي بالنسبة لمن كانت حياتهم مستقرة، مثل فرويد. وممّا لا شك فيه أن اسم نابليون يترادف في بعض معانيه مع الأوتوقراطية. بيد أن نابليون بالنسبة لفرويد وآخرين كثيرين هو ابن الثورة الفرنسية، ومحرّر اليهود، ونموذج للرجل العصامي (ومن بين الأبطال الآخرين الذين افتتن بهم فرويد نذكر كروموِيل Cromwell، الذي بالإضافة إلى موقفه المؤيد للبرلمان والحريات البريطانية فقد سمح لليهود بالعودة إلى إنكلترا، حتى أن فرويد سمّى أحد أبنائه على اسم أوليفر Oliver). وقد أرغم نابليون الإمبراطور النمساوي على أن يزوّجه من ابنته، وكانت أي إهانة تلحق بأهل هابسبرغ، بالنسبة لفرويد، تنضاف إلى رصيد نابليون: وقد كان مثقفو فيينا آنذاك يشعرون بالإهانة الشديدة من تسميتهم وطنيين، وذلك لأن الوطنية كانت تعني النفاق، والخنوع إلى الملكية البغيضة، وغض الطرف عن شرورها. وقد كان نظام الحكم في النمسا ديكتاتوريًا مطلقًا يفتقد للكفاءة ويغلب عليه الإهمال.

وأما فرويد فقد آثر أن يكافح في مجال الفكر لأن أيّ إنجاز فكري عظيم (يفوق الإنجاز العسكري) لا يتفق فقط بشكل كبير جدًّا مع الثقافة اليهودية، ولكنه أيضًا كافٍ بذاته للإعلاء من شأن الفكر اليهودي مقارنة مع العالم المسيحي غير المستنير. وقد انعكس منهج فرويد العام في رسائله أثناء فترة خطوبته التي دامت طويلًا: «في ما تبقى من إقامتي في المستشفى ستكون حياتي أشبه بحياة الغوييم (غير اليهودي)، حيث أجد نفسي، بكل تواضع، أتعلم أشياء عادية دون أن أبذل أي جهد في سبيل ذلك بعد الاكتشافات أو التأويلات العميقة. وما نحتاجه من أجل استقلالنا يمكن أن يتحقق من خلال الصدق الراسخ في العمل دون أن نبذل في ذلك جهدًا عظيمًا»[30]. لقد أسس فرويد حركة عظيمة، سعى من خلالها، بمعنى ما، إلى تقويض القيم المسيحية. علينا ألا نشك بأنه حين استطاع فرويد أن يرى نفسه في صدر اكتشافات علمية عظيمة كهذه شأنه شأن داروين، وكوبرنيكوس، وكبلر، فإنه بهذا حقق حلمه أخيرًا في الحصول على «لحظة تاريخية عظيمة».

سيكون فرويد أول من يتفق بأن مزاجه العدائي يعود في أصوله إلى ظروف نشأته العائلية الأولى. لقد استفرد بعلاقة في طفولته ذات الصلة بما نحن بصدده، على الرغم من أنه يتعين علينا أن نتذكر، كما هو الحال مع ما رواه عن علاقته بمرضعته، بأن فرويد البالغ هو من كان يستحضر معاني الأحداث في طفولته. كان لدى فرويد ابن أخ يكبره بعام ويدعى جون من أخيه غير الشقيق إيمانويل. اعتقد فرويد بأن علاقته به كانت مصيرية في مستوى

مسيرة تكوّن شخصيته بالكامل. «لقد كان يلازمني حتى نهاية السنة الثالثة من عمري، وكنا متحابين وكان يدافع كل منا عن الآخر: وقد كان لعلاقة الطفولة هذه... تأثيرٌ مصيريٌّ على كل العلاقات اللاحقة مع معاصريّ». «كان لا بدَّ أن تكون هناك أوقات لذلك»، فقد شعر فرويد بالأمان «عندما عالج حالتي المتدهورة وكان عليّ أن أظهر شجاعة في مواجهة طاغيتي...» وتذكر فرويد «مشاهد الشجار» مع جون «في طفولته المبكرة جدًّا»[31]. وكان الأضعف؛ ولكن بثباته وخبرته في مواجهة الطغيان الخارجي استطاع أن يهيِّئ نفسَه للسنوات القادمة عندما بدأ في مواجهة ما سمَّاه سيكولوجية «الطاغية».

أكد فرويد أن ارتباطه المبكر بجون «مثَّل مصدرًا لكل علاقاته وحزازياته».

«لقد كان كل أصدقائي بمعنى ما مندمجين مع هذه الشخصية الأولى... فقد فرضت عليّ حياتي العاطفية دائمًا أن يكون لي صديق حميم وعدوٌّ لدود. وقد كنت قادرًا في كل مرة على إثبات ذاتي في علاقتي بكليهما من جديد، وليس مألوفًا أن يُعاد إنتاج الوضع المثالي للطفولة بشكل تام بحيث يحضر الصديق والعدو في الشخص ذاته في آن – ومع أن الأمر لم يكن كذلك، بالطبع، فقد أثَّر كليهما مرة أو بتذبذب دائم، في طفولتي المبكرة».

وجد فرويد لنفسه مصدرًا للاقتناع، إذ استطاع دائمًا أن يجد تعويضات متعاقبة لهذه الشخصية في طفولته. «فلا أحد» بالتالي «لا يمكن تعويضه»[32].

رغم انصراف اهتمام فرويد في كتابه تفسير الأحلام لهذه العلاقات الأسرية غير العادية، إلا أنه لم يكتب أي شيء عن معظم أقاربه الذين كان من بينهم خمس أو سبع فتيات. من المعروف أن فرويد كان يكره أخته آنا التي ولدت عندما كان عمره عامين ونصفًا، لقد تزامن اكتشاف سرقات مربيته مع نفاس أمه بآنا، وقد يكون حصل تداخل في ذاكرة فرويد بين وطأة رحيل مربيته وفقدانه الظرفي لوالدته، وبُعيد إقامة العائلة في لايبزغ ثم في فيينا، غادر جون ابن أخ فرويد مع والديه للعيش في إنكلترا. وقد تكون مشاعر الكراهية تولدت لديه نتيجة القلق النابع من مثل هذه الانفصالات، وهو ما قد يكون اضطر فرويد إلى أن يقنع نفسه بأنه لا يوجد شخص «لا يمكن تعويضه».

ولم يذكر فرويد أخويه الصغيرين وأهميتهما في حياته العاطفية. أحدهما، ويدعى يوليوس، ولد عندما كان فرويد في شهره الحادي عشر، ولم يعش أكثر من ثمانية شهور: كتب فرويد في رسالة يقول: «أرحب بأخي الذي يصغرني بعام واحد... لقد خلفت الأماني

السيئة والغيرة الطفولية الحقيقية... ووفاته في نفسي بذرة الشعور بالذنب»[33]. إلا أن فرويد استطاع أن يتحكم في عواطفه إلى حدٍّ كبير عندما أنجبت أمه طفلها الأخير حين كان فرويد في العاشرة من عمره؛ وسمي ألكسندر، بناء على رغبته، تيمُّنًا باسم ألكسندر الأكبر (ففي كتابه محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، أشار فرويد أخيرًا بشكل مستفيض إلى أنه «عندما انطلق ألكسندر الأكبر إلى الغزوات، اصطحب معه أشهر مفسري الأحلام»[34]). من الطبيعيّ أن تنشأ منافسة بين الأخوين: فعلى سبيل المثال كان أكثر ما يُقلق فرويد مَن يحصل على الأستاذية أولًا[35]. ولكن كان فرويد وأخوه (الذي وافته المنية في سن البلوغ في كندا) متناغمين، وكأيّ بالغين كانا غالبًا ما يسافران سويًّا. وعندما يستحضر فرويد ألكسندر، يشبِّه عائلته بالكتاب. «الذكور صفحتَي الغلاف، والفتيات الأوراق بينهما»[36]. وتتوافق هذه الشهامة الوقائية مع ما تبقّى من بنية عالم فرويد القديم.

وليس غريبًا، أن يتصرّف فرويد كأخ أكبر، فهو أكبر أخواته الخمس، من ذلك مثلًا أنه كان يقرر مكافأة خاصة للفتيات، في زمن لم يكن مألوفًا بالنسبة للآباء اليهود أن يظهروا محاباتهم وتحيُّزهم لأبنائهم. وقد كان فرويد في صغره تلميذًا مجتهدًا وشغوفًا بدروسه بجدّية، وقد كان يتمتع بذاكرة قوية ممَّا أهَّله لأن يكون الأول في قسمه. وقد أثارت دروس أخته آنا على البيانو في المنزل انزعاجه وشوَّشت على دروسه.

كان موقف فرويد من الموسيقى غريبًا، فقد كانت تضايقه ولكنه ما لبث أن أحبّ الأوبِّرا، بكلماتها واهتمامها الدرامي، وكان تذوقه للأوبِّرا متطورًا، فقد كان يَطرب لعروض أوبرا موزارت، إذ كانت «دون جيوفاني» و«زواج فيغارو» و«الفلوت السحري» من مفضلاته. ورغم احتقاره لريتشارد فاغنر، فقد أحب ميستنجر. ويمكن أن تشير أواخر العشرينيات إلى جوانب عدة منها تعثر فيها التعرف على مريض موسيقى واحد على الأقل[37].

أصبح فرويد أكثر اهتمامًا بسحر الكلمات على وسائل التواصل غير اللفظية. فمن بين كل الفنون كافة قد تكون الموسيقى الأكثر قربًا من اللهو، ودون توجيه من الجزء الأكثر عقلانية لفكره شعر فرويد بالضيق. لم يكن لفرويد أن يستمتع بالموسيقى لعجزه عن تحليل تأثيرها عليه؛ كان هذا الحجب أشبه بعجزه عن تقدير بعض الحالات الصوفية العقائدية. من غير المعتاد لساكن فيينا أن يكره الموسيقى، وقد أحاط فرويد الناس علمًا بعيبه هذا. وحتى يتخلَّص من دروس أخته آنا الموسيقية الصبيانية، فقد أخرج البيانو من الشقّة ولم يُسمَح لأحد من أبناء فرويد بممارسة الموسيقى في المنزل بعد ذلك.

ومن أجل سبر أغوار سنوات مراهقة فرويد علينا الاعتماد أساسًا على وجهات نظره الخاصة؛ غير أنه كان كتومًا جدًّا بحيث، كما جاء على لسانه، يصعب تكوين صورة صافية عنه. وليس ثمة ما يدلُّ على أن فرويد عانى من اضطراب عاصف خلال تلك السنوات. تحدَّثَ فرويد في رسالة إلى خطيبته، لاحقًا، عن «انغلاقه وفظاظته تجاه الغرباء»، حيث يقول: «أعتقد أن الناس لاحظوا فيَّ شيئًا ما غريبًا، والسبب الحقيقي وراء ذلك هو أني عندما كنت في سنّ الحداثة لم أعشْ طفولتي أبدًا، وحتى عند بلوغي سن النضج (الثلاثين)، لم أنضج بالشكل المناسب»[38]. لم يكن فرويد متناغمًا مع كثير من تجاربه طوال حياته بحسب «السنّ المناسب»، وعلى الرغم أن ذلك مثَّل مصدرَ ألمٍ بالنسبة إليه، إلا أنه ساهم أيضًا في نزوقه ونبوغه.

تعد الكتابة إحدى أعظم مواهب فرويد، وقد مارسها طوال حياته. وعلى الرغم من انتقاصه للموسيقى، فقد كان إحساسه بالإيقاع في الكتابة قويًّا، فهو كاتب موهوب منذ أن كان تلميذًا. قد يُعزى ذلك إلى شعوره بالوحدة، وما زالت بعض رسائله التي كتبها في سن المراهقة موجودة إلى الآن. ومهما كان الإحساس بالاغتراب عن العالم المحيط به، فقد كان الأستاذ يسرد ما لقيَه في حياته. ففي رسالة كتبها في سن السبعين وردت فقرة لا تُنسى، تكشف عن مواهب فرويد الفذة في الكتابة كما تعكس تألقه الخالد، إذ كتب إلى صديق له بعد الانتهاء من الاختبار الكتابي في الماتيورا (الاختبار المؤهل للالتحاق بالجامعة):

> **أخبرني أستاذي ـ وقد كان أول شخص يتجرَّأ على إخباري بذلك بأني امتلك ما وصفه هيردر بشكل لطيف (الأسلوب الغبي)، أي أسلوبًا صحيحًا ومميزًا من أول مرة. لقد أُعجبت بما يتوافق مع هذه الحقيقة المذهلة ولا أتردَّد في إذاعة هذا الخبر السعيد بوصفه الأول من نوعه وعلى أوسع نطاق ممكن ـ لك أنت مثلًا الذي لا تعي بأنك تتبادل الرسائل مع خطاط ألماني. أنصحك كصديق، وليس كطرف مهتم، أن تحفظها وتبقيها مصانة، لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحصل[39].**

2 ـ الطفولة والشباب

قرَّر فرويد في نهاية أيامه الدراسية أن يكون محاميًا عسى أن يحقق طموحه في أن يكون شخصية عامة. وجاء قراره «تحت التأثير القوي» كما أوضح في عام 1924، «لصداقة مدرسية مع فتى يكبرني ليصبح بعدها سياسيًّا مشهورًا، تطورت لدي الرغبة في

دراسة القانون مثله وأن أنخرط في الأنشطة الاجتماعية»[1]. وعندما توفي هذا الصديق الرسمي سنة 1927، كتبت أرملته إلى فرويد من أجل مساعدتها في إعداد مجلد يخلّد ذكراه، فرد عليها فرويد متذكرًا أنه تعرف على هنريك برون منذ السنة الأولى في قاعة الرياضة في اليوم الذي حصلا فيه على أول «تقرير مدرسي» ثم أصبحا صديقين لا يفترقان أبدًا. وأنه كان يقضي معه كل ساعات اليوم بعد انقضاء الدروس، وكثير منها في المنزل، خاصة بعدما غادرت عائلته فيينا ليعيش مع أخيه التالي الأكبر سنًّا الذي سهر على تربيته، والذي حاول التدخُّل في علاقة الصداقة بينهما. وقال بأنه على الرغم من علاقتهما الرائعة فإنه يجد صعوبة في تذكر متى كان كلاهما «مفتونًا» بالآخر، سواء في النقاشات التي دارت بينهما، أو في الأوقات التي جمعتهما، وما كان يحدث بينهما بشكل متكرر أثناء فترة الشباب. وأنّ ما فعلاه في تلك الأيام وما تحدَّثا عنه يصعب تخيّله بعد مضي سنين عديدة. وأنه يعتقد أنّ صديقه هذا هو الذي عزَّز كرهه للمدرسة ولِما تعلَّمه بين جدرانها، وأيقظ فيه نوازعه الثورية الكثيرة، إذ عزز كلٌّ منهما الآخر تقديره المفرط لنقده ولمعرفته المميزة. وأنه حوّل اهتمام فرويد بالكتب مثل كتاب تاريخ الحضارة لبوكل، ولعمل مشابه لليكي، الذي أعجب به كثيرًا. لقد كان فرويد يُعجب بما يتمتع به ذلك الصديق من: رباطة جأش وثقة بالنفس واستقلالية في القرارات. وقال إنه كان يُشبِّهُهُ، في ما بينه وبين نفسه، بأسد صغير، وكان على يقين بأنه سيتبوّأ في المستقبل القريب مكانة مرموقة في العالم. وأنه لم يكن مجرّد طالب، وهو لا يشك في ذلك، ومع أنه هو نفسه أصبح متفوقًا وحافظ على موقعه ذاك، ورغم المشاعر الغامضة في تلك السنوات، تيقن فرويد أنه يمتلك ما هو أثمن من النجاح في المدرسة، وهو ما تعوّد على تسميته منذ ذلك الحين بـ«الشخصيّة».

وذكر بأنه لم تكن تتوفر لهما الوسائل الضرورية لتحقيق أهدافهما وطموحاتهما. ومنذ ذلك الحين افترض أن أهدافه كانت سلبية جوهريًا. ولكن شيئًا واحدًا كان مؤكّدًا: كان يودُّ أن يعمل معه، ولن يتخلى عن «حزبه» البتّة.

قال بأن علاقتهما انقطعت أول مرة بعد الصف الدراسي الأخير - عندما ترك المدرسة، ولسوء الحظ لم يكن ذلك طوعًا وكانا معًا في السنة الأولى في الجامعة. ولكن فرويد درس الطب في حين درس صديقه القانون... وشيئًا فشيئًا شقَّ كل منهما طريقه بشكل مختلف: فقد كان صديقه دائمًا أكثر اتصالاً بالناس منه، بحيث كان يسيرًا بالنسبة إليه

تكوين علاقات جديدة في كثير من الأحيان. ولم يعودا يلتقيان إلا نادرًا جدًّا، حتى انقطعت علاقتهما بالكامل في السنوات الأخيرة للدراسة[2].

حتى بعد فترة طويلة من انحسار «هذا التأثير القوي» في حياة فرويد، كما حصل لاحقًا مع ظهور كتاب «تفسير الأحلام»، أظهر حلم فرويد أنه تمنى أن يكون برلمانيًا ناجحًا وتساءل لو يُفضّل أن يتبادل الأدوار مع رئيس الوزراء مع أن فرويد لم يدرس القانون. وقبل دخول الجامعة بقليل استمع إلى مقال عن الطبيعة - اعتقد حينها أن غوته هو من كتبه - قُرِئ بصوت عالٍ في محاضرة على الملأ. وقد بدا ذلك واضحًا في تردّده في اختيار المهنة، وقرّر «أن يهتمَّ بدراسة العلوم الطبيعية»[3]. وعندما كان فرويد في جامعة فيينا، «نذر حياته» لكُتبه: فقد تطورت لديه حاجة ملحّة لشرائها وتجميعها. لكن فرويد أنكر بعد ذلك هذا الشغف بالكتب، وادّعى أن «من عاداته الحسنة دراسة الأشياء في ذاتها قبل البحث عن المعلومات حولها في الكتب»[4]. لقد كان فرويد يجتهد ويجدّ كثيرًا في عمله وقد تجلّى ذلك في طريقة علاجه وفي تفانيه في كتاباته، كما كان مجتهدًا في دراساته.

لقد قضى فرويد في الجامعة ثمانية أعوام. وقد تكون اهتماماته الكثيرة منعته من المضي قدمًا وبالسرعة المطلوبة.

«لقد كانت السنوات الخمس التي قضيتها في الدراسات الطبية قليلة جدًّا بالنسبة لي فأنا استمرّيت هادئًا في عملي للعديد من السنوات، ويُنظَرُ إليَّ في دائرة معارفي على أني كسول، وقد شُكِّكَ في قدرتي على اجتياز الامتحانات الجامعية، ومع ذلك عزمت سريعًا على أن أجتاز امتحاناتي رغم التأجيل والتلكّؤ»[5].

لم يفقد فرويد فضوله واسع الأفق، ولكنه حاول أن يركّز تفكيرَه على مجالات بعينها، وهي الميزة التي أدّت لاحقًا إلى انزعاجه بشأن «انعزاله»[6]. وبحلول عام 1924 لاحظ أن تفكيرَه الفردي أثار انتباه الآخرين كذلك: «ورغم التناقض الكامل في طبيعة دراساتي خلال سنواتي الأولى في الجامعة، فقد تطوَّر لديّ ميل إلى الاهتمام حصرًا بموضوع أو إشكالٍ منفرد. وقد كان ذلك الميل سببًا في اتهامي بالانعزال»[7].

وفي تعقُّب فرويد لتطوُّر اهتماماته بتصويره لسيرته الذاتية التي كتبها عام 1924، بعد أن ذَكَر أنه «أهمل عن قصد دروسه في الطب»، استحضر فرويد النصيحة الحكيمة لمعلم كان معجبًا به (إرنست بروك) يحثه فيها في ضوء وضعه المالي الصعب على التخلي عن الدراسات النظرية والتوجه للممارسة التطبيقية كطبيب. وقد كان لهذه النصيحة الوقع

الطيِّب في نفس فرويد قياسًا لـ«انعدام عناية أبيه المبالغ فيه به»[8]. وبديهي أن يَعتبر فرويد أن أباه لم يساعده كثيرًا في توجيهه عمليًّا في مشواره المهني.

لا دليل على نقد فرويد الضمني لأبيه يعقوب إلا جزئيًّا، وجاء في مقالة مبكرة قوله «لقد سعى أبي الذي كان في التسعين من عمره، وأخي غير الشقيق إيمانويل، من أجل ثنيي عن دراساتي العصيَّة على الفهم، والاستعاضة عنها بأخرى تكون قيمتها العملية أكبر... ولا ريب في أن انغماسي في دروسي ونواياي قطع عليهما الطريق...»[9]. تضمنت خطتهما من أجل تحقيق مرادهما زواج فرويد من ابنة إيمانويل والاستقرار في بريطانيا. ولم يكن يعقوب فرويد، على طيبته ورقته وتأثُّره بنبوغ ابنه الموهوب، يسدي توجيهاته لابنه بالقدر الكافي، أو يحرص على أن يجتاز امتحاناته الجامعية في أسرع وقت ممكن. وقد أثَّرت تصرفات أبيه على مسألة اجتيازه لامتحاناته وفي معالجاته لمعاداة السامية؛ في حين كان ابن فرويد، أوليفر، ممتنًّا لأبيه إذ شجعه في أن يجتاز امتحانه النهائي دون تلكُّؤ[10].

لم يكن فرويد راضيًا عن وضعه في المنزل، ولا عن أسرته، حتى تزايدت قناعته بأن عليه أن يصنع نفسه اعتمادًا على موارده الذاتية. ولم يكن يستطيع قمع فكرةٍ طالما راودته: «لو كنت فقط من الجيل الثاني، ابن بروفسور أو نحوه، لاستطعت، يقينًا، أن أمضي قُدُمًا أسرع من هذا»[11]. لكن والد فرويد كان «تاجرًا» و«لم يُنهِ تعليمَه الثانوي...»[12]. وروى ابن أخت ليعقوب فرويد أن الشيخ قضى قدرًا كبيرًا من وقته يدرُس التلمود[13]. إلا أن فرويد كان يعتبر أباه عقبة أمام اهتماماته العلمية يتعين عليه تخطّيها.

اعتبر فرويد أنه لا سبيل لتحقيق طموحه إلا عبر الاستيلاء على ممتلكات أبيه. وقد كتب ذات مرة «جوهر النجاح، هو أن يمتلك المرء أكثر من أبيه... على أنَّ تفوق المرء على أبيه كان لا يزال شيئًا محرَّمًا»[14]. وتستحضر اثنان من ذكريات طفولة فرويد طموحَه وعلاقته بأبيه: «لمَّا كنت في الثانية من عمري كنت لا أزال أتبوَّل على فراشي من حين لآخر، وعندما كان يلومني أبي على هذا الفعل كنت أعزِّيهِ بأن أعده أن أشتري له سريرًا أحمرَ جديدًا من أي حجم أراد من ن (N)، وهي المدينة الأقرب إلينا». ولا يروي لنا فرويد هذه القصة لجاذبيتها، وإنما ليرينا حجم الإذلال الذي تتضمنه، والذي كان له وقعه المؤلم على تطلُّعاته المستقبليَّة:

«عندما كنت في السابعة أو الثامنة من العمر كان هناك مشهد آخر أستطيع تذكره بوضوح شديد؛ فذات مساء قبل أن أخلد إلى النوم تجاهلتُ قواعد الحياء واللَّباقة

ولبَّيتُ نداء الطبيعة في حجرة نوم والدي في حضورهما. فصرخ أبي في وجهي قائلًا: «هذا الطفل لن يكون أيَّ شيء». وقد كان لذلك وقعه الشديد على طموحاتي، فما فتئ هذا المشهد يتكرَّرُ في أحلامي ودائمًا ما ارتبط بإنجازاتي ونجاحاتي، وكأني أريد أن أقول له: «أترى، لقد أصبحت شيئًا ما»[15].

(حسب يونغ فإن التبول اللاإرادي أرّق فرويد كثيرًا في شيخوخته)[16].

وقد كان لمكانة والد فرويد أثر بالغ في تطوير شخصيَّته. وقد اعتقد في بداية حياته أنه ربما يقف آباء مزيفون وراء العُصابيَّات، حتى بعدما أصبح الآخرون يعتبرونها فكرة بالية لا تتوافق مع متطلبات العصر[17]. وليس هذا النقد الضمني للآباء إلا الوجهَ الآخر من تعظيم فرويد لهم. فها هو يكتب عام 1929 قائلًا: «ما من حاجة من حاجات الطفولة تُعادل في قوتها الحاجة للحماية الأبوية»[18]. كما أكَّد على مدى «خوف الأطفال الصغار من أن يلتهمهم آباؤهم أو يخصوهم». وكان يميل إلى تعظيم أهمِّية الأب، ويعزو ذلك الميل إلى الرغبة الكامنة في التخلص منه ليصبح الفرد أبًا لنفسه، ذلك أن الولد «يحمل دوافع عدائية نحو أبيه أكثر من أمّه، ولديه رغبةٌ أكثرَ حدَّة للتخلص منه أكثر من التخلص منها»[19]. ويعتقد فرويد أنَّ أي تحقير ظاهر للآباء إنما يُرَدُّ إلى تعظيمهم في سن الحداثة.

في الواقع، لم يكن أحد يتوقَّع أن يكون يعقوب فرويد أبًا لمكتشف عقدة أوديب، أو المثال القوي للأنا التي ربما كان فرويد يرغب يومًا ما أن يكوْنَه. ويحتمل أن تكون رغبة فرويد في أبٍ قوي هي التي لعبت دورًا ليس فقط في بلورة فرويد لعقدة أوديب، ولكن أيضًا في قبولها من قبل الكثيرين من منافسي فرويد، لقلقهم بشأن ماضيهم فضلًا عن خجلهم من إنكارها.

لم يكن يعقوب فرويد عائلًا لأسرته بالشكل المطلوب، فلم يكن وضع عائلته في ما يبدو على ما يرام في أيام طفولة فرويد، حتى أنّ عائلة أمّ فرويد كانت تساهم في نفقات العائلة. ولأنه من العسير الخوض في الأمور المادية لعائلة ما، فليس من الواضح علامَ كانت تعيش عائلة آل فرويد بعدما انتقلت من فرايبورغ إلى فيينا، فقد اضطرت ذات يوم إلى أن تنزل بفندق، وعلى ما يبدو تحصَّل يعقوب على مساعدة مادّية من أبنائه في إنكلترا، وهذا معناه أن فرويد كان فقيرًا في شبابه، ولكنه كان فخورًا رغم ذلك، وذلك كما كتب بعد عدة سنوات قائلًا:

«إن أي شخص تذوَّقَ بؤس الفقر في شبابه وعانى من لا مبالاة وصلَف ميسوري

الحال، ينبغي أن يكون في مأمن من الشك من عدم امتلاكه لفهم وإرادة جيدين تجاه جهود محاربة عدم المساواة في توزيع الثروة بين الناس وكلّ ما يؤدي إلى ذلك»[20].

وإذا كان فرويد سخيًّا في كهولته، فإنَّ حضور الصور التجارية في كتاباته تعكس فقره في شبابه وارتباط طبيعة مساعيه بالطبقات المتوسطة: فلا تخلو كتابات فرويد من عبارات مثل: «تضحيات» و«تعويضات» و«موازنات» نفسية و«استثمارات» و«نفقات» و«مضاربين» و«مضاربات» و«استهلاك الدين» و«خسارة» عقلانية ونحو ذلك. وحتى الإيجار تحدّث عنه لمدة ساعة تحليلية.

لقد خسر يعقوب تجارته في فرايبورغ جزئيًّا لأنه أنقذ ولديه الكبيرين، إيمانويل وفيليب، من فشلهما في تجارتهما، وهذا يتوافق مع ما نعرفه عنه من طيبة. حتى أن فرويد وصف أباه ذات مرة «كما لو كان ميكابير كثيرًا ما يتوقع ما نأمل حدوثه»[21].

عندما ولد فرويد كان أبوه قد جاوز الأربعين من عمره، أي أنه كان متقدمًا في السن نسبيًّا، وكان قد تزوَّج مرَّتين قبل ذلك؛ أولاهما في سن السابعة عشرة، ورزق منها ولدًا (هو إيمانويل) في العام الأول من زواجه وتلك علامة دالة على «قصر النظر» آنذاك. ولا يُعرف إلا القليل عن زوجته الثانية[22]. وعقد يعقوب زواجه الثالث من أماليا ناثانسون، أمّ فرويد، في 1855، بعد وفاة زوجته الأولى بثلاث سنوات.

لقد كان فرويد وفقًا للعادات اليهودية آنذاك ابنًا مطيعًا لأبيه بغض النظر عن نقاط قوة ونقاط ضعف والده. ويُحسب لفرويد شجاعته أن ينقل ويفسر حلمًا راوده بعد موت أبيه بليلة. ويعتقد فرويد أن موت الأب يحدث صدمة في النفس من نوع خاص. وقد كان فرويد في الأربعين من عمره عندما توفي أبوه عام 1896 عن عمر ناهز الواحد والثمانين، وظل فرويد يعتقد بأن ذلك الحدث «فجَّرَ ثورة» في نفسه[23]، فكان من نتائج ذلك أن استطاع أن يكتب تفسير الأحلام، وقد بيّن في ما بعد كيف أن وفاة الأب هو «الحدث الأكثر أهمية، والخسارة الأفظع، في حياة المرء»[24].

تذكَّر فرويد في سياق حلم أنَّ أباه «كان يشبه غاليباردي كثيرًا» «لما كان على فراش الموت». وهذا يعني حرفيًّا بالنسبة إلى إرنست جونز أنَّ يعقوب فرويد «كان يشبه غاليباردي»، وهذا مثال حي على أن كل ما يدور في ذهن فرويد من خيالات أو خواطر

يتجسّد في كتبه كحقيقة تاريخية(•)(25). ومن الراجح جدًّا أن هذه الذكرى عن فرويد تمثّل جانبًا ما من الصورة التي يحملها عن نفسه، أو بالأحرى الصورة التي كان يريد أن يكون عليها يعقوب. وعادة ما كان فرويد يولي أهمية كبيرة للتواريخ، فلما كان تاريخ ميلاد أبيه يوافق تاريخ ميلاد بسمارك (1815) فقد افتتن بهذا الأخير بشكل خاص(+). ويَرُدُّ فرويد سرَّ تفضيله لميسينا المارشال لدى نابليون قائلًا: «لقد ولدت في نفس اليوم الذي ولد فيه، بعد مائة عام تحديدًا»(28). وقد ذكر السفير بوليت، في إطار سعيه لتبرير تأليفه لكتاب عن الرئيس ويلسون بالاشتراك مع فرويد، أنَّ هذا الأخير «كان مهتمًّا بويلسون اهتمامًا شديدًا منذ عرف أنهما وُلدا سويًّا عام 1856»(29).

تمثّل أم فرويد لغزًا أكثر من أبيه، على الأقل في كتابات فرويد الأساسية. فقد كتب في دراسة السيرة الذاتية في أواخر الستينيات من عمره، أنه أهمل طفولته وشخصيتَي والديه ليمضي قدمًا مندفعًا في سرد تطور التحليل النفسي. وما تمت الإشارة إليه عن أماليا فرويد من ملاحظات في سِيَره الذاتية الأخرى العديدة أقل بكثير ممّا ذُكر عن يعقوب فرويد. وربما يعزى هذا الحذف إلى تحفُّظات القرن التاسع عشر على النساء. بيد أنه يظل هناك الكثير لنكتشفه في ما وراء تعليقات فرويد، بشأن أمه أكثر من أبيه، فقد تزوَّجَت من أبيه في سن التاسعة عشرة، وعاشت حتى الخامسة والتسعين من العمر حين توفِّيَت عام 1930، ولا يزال بيننا أشخاص على قيد الحياة ممّن يحملون ذكريات وانطباعات شخصية عنها، على الأقل في أواخر عمرها.

من البديهي أن أماليا فرويد، كانت ذاتْ نزعة أمومية حادة، فلقد أنجبت ثماني مرات في عشر سنوات، وكانت ترعى جميع أولادها بتفانٍ. ولنا أن نفكّر في وضع الابن البكر لهذه الأم الشابة أمام الظهور المنتظم للـ«دُخَلاء». وبما أن فرويد نشأ وترعرع في ظل منافسة قاسية فقد يكون من غير المستبعد أن يعزى بعض هذا الاتجاه إلى وجود كل هؤلاء الأشقّاء، حتى ولو كان معظمهم بناتًا، واللّاتي كنَّ في حاجة مُلِحّة للرعاية الأمومية (بالإضافة إلى زوج سخي أحبَّته). لا بدَّ أنَّ طموح فرويد عزَّزَتْه تلك الحياة الأسرية المبكرة، رغم أن

(•) حتى وإن قبل النقاد المتطورين أمثال ليونيل تريلينغ وستيفن ماركوس بدون تردد نسخة جونز في هذه المسألة في اختزالهم لسيرته الذاتية(26).

(+) أدرج فرويد في الطبعة المنقحة من تفسير الأحلام المقطع التالي من مقال هانز ساكس: «لم يكن بسمارك يجد عناءً في تشبيه نفسه بالحصان. وفي الواقع كان يفعل ذلك في مناسبات عديدة، من ذلك مثلًا، كما جاء في قوله المأثور: «يموت الحصان الجيد في التسخير»(27). وقد تبنى فرويد هذا القول كأكثر الأقوال المفضلة بالنسبة إليه.

وجود هؤلاء الأشقَّاء الأصغر سنًّا، هو وحده الذي هيَّأ المجال لميوله التنافسية. لقد بلغ ما بلغه من مكانة عند أمه على حساب أخيه الأصغر، ألكساندر، فهو وإنْ لم يكن الابن الوحيد فإنه يظل البكر. إنَّ الكثير من خط التفكير هذا حول فرويد وأشقائه الصغار أقل أهمية ما لم يتعلق بمخاوفه اللاحقة من أن ينجح الآخرون في أن يسلبوه ما هو خاص به حقًا من الناحية الفكرية.

لقد كانت علاقة فرويد بأمّه، كما يصفها، علاقة مفعمة بالأمان والثقة. فقد كان يعتبر نفسه ابنها المفضَّل، حتى أنه يجد في ذلك كما في يهوديته مصدرًا لثقته بنفسه. وفي ذلك كتب قائلًا «لقد اكتشفت أن الأشخاص الذين يعلمون أنَّ أمهاتهم يفضِّلنَهم أو يُبجِّلْنَهم يُبدون في حياتهم اعتمادًا مخصوصًا على أنفسهم، وتفاؤلًا لا يتزعزَع، غالبًا ما يتَّخذان شكل مساهمات بطولية ويجلبان النجاح الحقيقي لمن يتميز بهما»[30].

يعتبر فرويد مشاعر الأم نحو ابنها أمرًا مفروغًا منه (ويبدو ذلك أمرًا نبيلًا). «إن العلاقة بين... الأم وابنها... تقدِّم لنا أنقى الأمثلة عن العاطفة التي لا تتبدّل، ولا تفسد بفعل أية اعتبارات أنانية»[31]. لا شيء أغلى بالنسبة للأم من علاقتها بابنها فهي التي تحقق لها الرضا اللامحدود، إنها أكمل العلاقات الإنسانية كافة، وهي خالية من كل تضارب. تستطيع الأم أن تنقل لابنها الطموح الذي اضطرت إلى كبته في أعماق ذاتها؛ ويمكن لها أن تتوقع منه الرضا عن كل ما أُغفل أو تم التغاضي عنه في ما مضى بداخلها من عقدة الذكورة لديها[32].

لم يكن فرويد يهدأ له بال أبدًا كلما تقدمت به السن وتمكّن منه السرطان خشية أن يموت قبلها. فقد كتب منذ مطلع عام 1918، قبل مرضه، قائلًا: «أحيانًا أجدني تحررت قليلًا بعد وفاتها، لأني أعتقد أن نبأ وفاتي سينزل عليها مثل الصاعقة»[33]. كان فرويد يأمل في ألا تصاب أمُّه بأذى. إلَّا أنَّه يمكن تفسير تعليقه ذلك من ناحية أخرى على أنه شعور عميق بأنه إذا ما مات، فإن أمه ستلقى حتفها هي أيضًا حزنًا وكمدًا عليه بحكم ما ميَّزَ علاقاتهما من حميميَّة.

وقد انعكست هذه الرغبة، وقد لا يكون فرويد واعيًا بها بالضرورة، في عواطفه وسلوكه حين وفاتها سنة 1930. إذ كتب فرويد مطلع عام 1929 يقول: «لا تزال أمي التي ناهز عمرها الرابعة والتسعين في صحة جيدة رغم ما قد يثيره الإحساس بالتقدم في السن من صعوبة»[34]، ثم سرعان ما عانت من آلام شديدة في العام التالي. وفي ذلك كتب

فرويد إلى ساندور فرينشيزي:

لقد كان لأمرها ذاك وقعه الشديد في نفسي بشكل خاص بحيث ألمّ بي ألَـمٌ لا يوصف حزنًا عليها - تقدمها في السن، شفقتي على عجزها في مواجهة قدرها المحتوم. ولكن في الوقت نفسه انتابني إحساس بالتحرر والانعتاق أعتقد أني أفهمه أيضًا. ليس لي أن أختار أن أموت وهي على قيد الحياة، أما الآن فالأمر وارد. لقد تغيّرت قيم الحياة بشكل ملحوظ في مستوياتها العميقة[35].

وقد كتب فرويد إلى جونز في سياق مشابه، مضيفًا «لم أحضر الجنازة؛ وقد مثلتني ابنتي آنا في ذلك مرة أخرى لأني كنت حينها في فرانكفورت. إن قيمتها عندي لا يسعها الوصف»[36]. وكانت آنا قبل ذلك بشهر، قرأت خطابًا لفرويد في حفل تسليمه جائزة غوته للأدب في مدينة فرانكفورت. فلقد بلغ فرويد الرابعة والسبعين من عمره وقد اعتلّت صحَّتُه بحيث لم يعدْ يقوى على السفر. إنَّ جنازة أمه، تختلف عن مناسبة رسمية عامة، لأجل ذلك أُجريت مراسمها في فيينا؛ ورغم تمجيده للأمهات والأبناء، فقد اختار فرويد ألاّ يحضر جنازتها واعتبر أنه من المناسب أن يرسل ابنته «لتمثله».

كان فرويد يشدِّد في تناوله لرابطة الأم بابنها، وخاصة أمه هو، على ما تقوم به لأجله، رغم أنه وللتأكيد يمكن للابن أن يحقق، بشكل غير مباشر، طموح أمه. ويتفق شعور فرويد بالحرية الشخصية المتزايدة بعد وفاة أمه مع توجهه العام حول هذا الشأن، والذي كان، وبعيدًا عن كل مثالية، أكثر أنانية. لم يكن فرويد يخفي نرجسيته، بل على العكس من ذلك، كان يؤمن بأن «القدر الكبير من... حبّ الذات هو الوضع الطبيعي والأساسي بالنسبة للأشياء»[37]. وقال أيضًا «لا شيء أثمن من حبي لذاتي ومن العبث أن أتخلى عنه»[38]. وتعبّر نظريَّتُه حول الأحلام عن الاعتقاد بأنّ كل شخص يسعى إلى إشباع رغباته الأنانية. لقد كان متفرِّدًا في الشجاعة والأمانة مما مكّنه من التعرف على بعض تلك الدوافع الدنيئة. فحتى العاطفة، في اعتقاده، ذات أصول نرجسية[39]. لقد كان فرويد فظًا غليظ القلب، معتدًّا بنفسه، من ذلك أنه كتب أثناء الحرب العالمية الأولى قائلًا: «لقد أعطيت للعالم أكثر ممّا أعطاني»[40]. إنه لمِن الصعب تحديدُ ما إذا كان الجانب الفظُّ من شخصية فرويد والذي كان له دور كبير جدًّا في إبداعاته يشير إلى انغماس أمومي زائد عندما كان طفلًا، أم أنه يُعبّر عن حرمان مبهم.

يحمل فرويد في ذاكرته حلمًا مزعجًا عن موت أمه منذ أن كان في السابعة أو الثامنة من

عمره، وفي سياق متصل روت لنا هي بدورها أنها حلمت بموت ابنها. كانت عندئذٍ عجوزًا ليس الموت عنها ببعيد. وقد رأت في منامها أنها تمشي في جنازة سيغموند، وقد أحاط بنعشه لفيفٌ من كبار رجال الدولة من الدول الأوروبية الرئيسة[41]. ليس معقولًا أن ترى أم طاعنة في السن في المنام مثل هذا الحلم، وإن كانت يهودية، ناهيك أن تسمح لنفسها أن تنطق بلسانها بمثل هذه المصيبة، إذ إن هذا الحلم يصوّر ما حقّقه ابنها العزيز على قلبها من شهرة، ويكشف شيئًا ما عن طبيعة ما تصبو إليه كأنما تشبعه من خلال مسيرة ابنها المهنية.

يحقّ لأماليا أن تفخر بالنبوءات البطولية التي كانت تحكى عن فرويد في مقتبل عمره. يُعبِّر هذا الحلم، وبشكل أكثر خصوصية بالنسبة لها، على الأقل وفقًا لنظرية ابنها، عن معنى خفي من خلال قطبية موضوعية. فمن خلال تضاعف الصور الأبوية قد تكون ركّزت على عكس محتوى الحلم الظاهر ـ على أن فرويد كان في الحقيقة ابنها وحدها دون غيرها بما في ذلك أبوه. ولمّا كانت الأحلام تحتمل أكثر من مستوى، فإن هذا الحلم قد يكون محاولة للتعويض عن خسارة الأم لابنها، فربما افتقدته، ولكنها كانت على يقين أن العالم لم يفتقده.

ذكر جونز أن «فرويد لم يتّهِم في حياته قطّ أية امرأة بخيانته أو خداعه». وراح يتكهّن بشأن ماضي فرويد عندما كان في سن الحداثة مدعيا «أن شخصًا ما يعلم الأسرار ويزعم أنه أسرَّها إليه وحده»، وعليه ليس راجحًا أن تكون المرأة نموذجًا للمنافسة[42]. وقد واجه فرويد صعوبة كبيرة في إقناع نفسه بأنه لا يضمر أي عداء تجاه أمّه (ولا أية معاداة للنساء عمومًا أو حسد لهن). وإنْ كان فرويد يميل إلى القول بمثالية النساء تقليديًّا فإنه لا يتوانى في تشويه سمعتهن أيضًا. وما كتب أبدًا عن رغبة ابن في قتل أمّه. وكانت النساء تُعامَلْن في عهد فرويد كموضوعات، ونادرًا ما كُنَّ يُعامَلْنَ كذوات، ولكن دون أن يُعتبرن أمّهات بناتٍ سيّئات. وقد يكون في تبجيل فرويد لأمه بما هو مصدر ثقته بنفسه، خداعٌ لنفسه، وتعمية للمشاعر الإيجابية التي يدين بها لأبيه. كان فرويد يستطيع أن يُقرَّ صراحة بالكثير من خصاله السيئة، وإذا كان يستطيع أن يفصح عن دوافعه لقتل أبيه، فقد كان يعسر عليه مجرد الاعتراف بمشاعره المتناقضة نحو أمه، بما فيها تبعيّته.

ومن بين الأبطال الذين ألَّفَ فرويد في شأنهم كتابًا، ليوناردو دافنشي، وكانت أمه شابة هو أيضًا. ولقد كانت فكرة الرجل العظيم الذي يتربى ويكبر يَتِيم الأب تسحر فرويد، ناهيك أنَّ كلًّا من أوديب وموسى كما تقول الأسطورة تربّيًا، مثل ليوناردو، منفصلين عن

أبويهما الطبيعيين. وفي تلك الخرافات الفرويدية يتبيّن أن الأب الحقيقي رجل من طبقة راقية، كما في حالة أوديب الذي كان أبوه ملكًا، وينحدر موسى أيضًا، في تقدير فرويد من طبقة أرستقراطية. كما كان فرويد يعتقد بأن شكسبير لم يكن من أسرة متواضعة، وإنما كان دوق أوكسفورد. وقد ألهمت هذه النماذج فرويد في أعماله.

روى فرويد في تحليله لليوناردو، الأسطورة المصرية التي تقول بأن النسور كانت تحمل عبر الريح، وقد كان ليوناردو نسرًا صبيًّا في نشأته وطفولته المبكرة في ظل أمه لوحدها، ويُفترض أن هذا يتفق مع خرافة طفولية لليوناردو عن نسر علق ذيله في فمه. إلا أن فرويد قد ارتكب خطأً هاهنا؛ فلا وجود لعلاقة بين اتخاذ قدماء المصريين للنسر رمزًا للأمومة وظروف حياة ليوناردو، رغم ما يحملانه من معنى بالنسبة لفرويد. والاسم الصحيح لذلك الطائر والذي ورد في الكتب الألمانية التي ألفت حول ليوناردو هو هوبنرجاير ـKite Hubnergeier أي الحدأة ولكن يبدو أن فرويد لم يرَ إلا الجزء الأخير من الكلمة، جاير التي تعني النسر[43]. (وقد استخدمت بعض التراجم التي اعتمد عليها فرويد أيضًا كلمة، جاير، عن طريق الخطأ للكلمة الإيطالية الحدأة).

يمكن أن تكون المشاعر الأحادية الأوديبية وحب أحد الوالدين من الجنس المغاير ومعاداة أحدهما من الجنس نفسه، أساليب دفاعية تخفي وراءها مشاعر أخرى مختلفة جدًّا. وفي الحقيقة، يبدو أن فرويد خشي - بعد فوات الأوان وانطلاقًا من مفاهيمه الخاصة - تبعيَّته، وخاصة خضوعه للنساء. وإذا كان عسيرًا عليه أن يقبل بالأمومة في داخله، وحتى لو كان هناك قلبٌ أموميٌّ داخليٌّ لا مفر منه في فنّ العلاج النفسي، فإن فرويد كان يميل إلى التقليل من أهمية هذا الجانب في نشاطاته كمحلِّل نفسي. إن رابطة الأمومة لا فكاك منها بالنسبة للأطفال، وهنا أيضًا (كما في موقفه من الموسيقى) كان فرويد متحفِّظًا جدًّا. وفي أي علاقة إنسانية عميقة، ثمَّة خطر ابتلاعها، فليست علاقة الأم بابنها من جانب واحد بالعظمة التي يصوِّرُها لنا فرويد.

ثمَّة ما يدلُّ على أنّ أماليا فرويد كانت باستخدامها لصورة النسر لابنها في دراسته لليوناردو طائرًا كبيرًا كاسرًا. وقد نجحت على الرغم من ظروف تلك الفترة في التغلب على مرضها بالسلّ[44]. لقد كانت، على الأقل في أواخر عمرها، قوية الإرادة ونقيَّة، يعسر إرضاؤها، وإن كانت غير مبالية بملابسها، مستبدّة ببناتها كما كانت نموذج المرأة اليهودية التقليدية التي لديها اليد الطولى في المنزل. وَيذكر أحد أحفادها قائلًا «لم تكن الحياة معها

سهلة». لقد كانت أماليا «تنبض حيوية لا توصف وعجولة، متعطشة للحياة واستثنائية بكل المقاييس»[45]. كانت شغوفة ببيتها حتى أنها ظلّت تحتفظ بأثاث منزلها إلى حدود التسعين من عمرها. وتذكّرنا لهجة سخريتها بتهكّم فرويد. فعندما ظهرت صورة فوتوغرافية في مجلة أُخذت لها في عيد ميلادها الخامس والتسعين، اعترضت عليها لأنها لم ترُقْ لها قائلة: «إني أبدو فيها وكأني في المائة من عمري»[46].

قد تكون أمُّ فرويد نموذجًا للمرأة المنضبطة والمكتفية بذاتها التي تثير إعجاب فرويد في كهولته ويستطيع أن يفهمها. وقد مقتت واحدةٌ فقط من بين حفيداتها بشكل خاص استبدادَها وأنانيَّتَها، وإذ يتَّفقُ بقيّةُ أحفادِها على أنها كانت منضبطة، على الأقل بالنسبة إلى المقرَّبين منها، فإنَّ العديد من أفراد العائلة اشتكوا من شخصيَّتها المستبدَّة والمتسلِّطة[47]. ولم يُسمح، طبقًا لعرف العائلة، لابنتها الوسطى، دولفي، بأن تمارس حياتها الخاصة، فقد تخلّت أمُّها عن رعايتها تمامًا. فلقد كانت أمها تشبه «الإعصار» رغم بلوغها سن التسعين. وبالنسبة إلى دولفي، كما يروي لنا مارتن ابن فرويد «أدى الحضور المطلق لأماليا إلى قمع شخصيتها حتى آلَ بها الأمر إلى حالة من التبعية لم تستطع التعافي منها»[48]. (وقد كان فرويد يصف دولفي قائلًا «إنها أحلى وأفضل أخواتي... تتمتع بقدرة عظيمة على الإحساس العميق ولكن للأسف حساسيتها مرهفة جدًّا»[49]). وربما عمل فرويد وأخوه ألكسندر على مساعدة أمِّهما من خلال مشاركتها في تحمُّل أعباء العائلة، في حين لم تقبل أيٌّ من زوجتيهما برعايتها.

لا دليل مطلقًا على أنّ أماليا كانت ديكتاتورية بشكل صريح تجاه فرويد بل كانت مولعة بتذكّر جماله عندما كان شابًّا. ولكن كان لمثل هذه المرأة أن تفرض على فرويد ذلك النوع المطلق من العواطف التي سمَّاها لاحقًا المشاعر الأوديبية. وقد قيل بأنها كانت محاطة بحاشية، فلم تكن العائلة تأتي أيام الآحاد لرؤيتها فقط، بل كان فرويد يصطحب معه بعض من تلاميذه المقربين ليقدِّمهم لها. وقد كان عيد ميلاد فرويد السبعين عام 1926 مناسبة للاحتفال في بيت مفتوح في مسكنه وعلى شرفه. ورُوي عنه أنه كان يتنقل بين الضيوف، يسلِّم عليهم ويرحِّب بهم مرتديًا معطفه الصباحي، على ما في ذلك من علّة، حتى أنه ما لبث أن مرض آنذاك. وقد حضرت أمه يومها ومعها سلّة خوص مليئة بالبيض هدية عيد ميلاده، وكانت تلك حركة نبيلة بحقٍ وهدية مناسبة، مقارنة بهدايا غيرها، وقد أسرّت لأحد تلاميذ فرويد على الأقل قائلة «إنني أمّ»[50].

كان فرويد وألكسندر يساعدان أمهما ويزورانها بانتظام في صباح أيام الآحاد. وكانت

الاضطرابات التي تصيب معدة فرويد في تلك الزيارات مدعاة للدعابة. قد يكون كذلك سبب «نوبة عسر الهضم»، كما كان يسميها جونز[51]، الاضطرابات المزمنة التي كان فرويد يعاني منها، كما يذكر ذلك جونز في مواضع أخرى. وقد كان هو نفسه يعزو داءه المعوي الحسَّاس المتكرِّر إلى الإكثار من الطعام الذي كان يتناوله بانتظام من قبل أثناء العشاء في منزل صديق للعب الورق مساء أيام السبت. وربما اعتبر هذا الاضطراب من زاوية التحليل النفسي دون تحيُّز مؤشِّرًا على أن فرويد يحنُّ إلى طفولته الباكرة عندما كان في ظل أمه، واستحضاره لحنانها. وكانت أمه وأخواته يجتمعن في الآحاد مساءً لتناول الطعام في بيته.

لا تخلو فترة الطفولة والشباب لأي شخص من العديد من المتناقضات والمفاجآت، في ضوء ما نعرفه عن الشخص في سن البلوغ بشكل أساسي وهو ما نلاحظه أكثر من أي شيء آخر في ماضيه على الإطلاق. على كل حال لن نسعى كثيرًا إلى تحديد العوامل الحاسمة، سببًا ونتيجة، كما هو الحال بالنسبة إلى الأنماط والترتيبات والتشابهات أو حتى المتناقضات. ومن المفيد بالنسبة إلينا أن نسترشد في بحثنا فقط بما كان مهمًّا لفرويد لاحقًا. ولقد تساءل هو نفسه ذات مرَّة عمّا «إذا كان لدينا ذكريات من طفولتنا قد تكون هي كل ما نملكه. إن ذكريات طفولتنا توضح لنا سنواتنا المبكرة لا كما كانت، وإنما كما تظهر في فترات لاحقة عندما تُستثار فينا»[52].

رغم ذلك فمن الواضح أن بعض الإثباتات عن سنوات فرويد المبكرة يمكن تأييدها أكثر من غيرها، ومن حسن الحظ أنه مكَّننا من الكثير من ملاحظاته الذاتية، وأنه لا يزال هناك أعضاءٌ من عائلته على قيد الحياة ممن يمكن لهم أن يقدِّموا لنا شهاداتهم الخاصة عن الأشخاص المعنيِّين. إنَّ الطفل أبُ الرَّجُل، دون أن يكون كالرَّجُل. ولا يمكن فهم مختلف أوجه شخصية فرويد أكثر إلا إذا تعمَّقنا أكثر في حياته.

3 - الحب والزواج

يتركز معظم ما يمكننا معرفته عن الحب في حياة فرويد في علاقته بزوجته، مارتا. ولا بدَّ أن تكون أية دراسة لهذا الجانب من شخصية فرويد مثار شك للغاية. ورغم أن ما تبقى من رسائل فرويد أثناء خطبته لمارتا والتي دامت أربع سنوات يفوق التسعمائة رسالة، فإن جزءًا قليلا منها فقط هو الذي حُرر للنشر. ولكن لم يكن عصيًّا تبيّن مغازلته لها على الأقل. حين تقدم فرويد لخطبة مارتا، كان في السادسة والعشرين من عمره، ولا يزال يقيم في

منزل والديه، وكتب بعض رسائله إليها في مكتبة يعقوب فرويد الخاصة، رغم أن خطبته لها تمّت دون أن يستشير أبيه. ولم يعلن عن خطبته لمارتا بارنيز بشكل رسمي إلا عام 1882 بعد أن أمضى ثماني سنوات في الطب وعامًا من البحث.

حضرت مارتا، التي كانت تصغر فرويد بخمس سنوات، مع والدَيها إلى فيينا في سن مبكرة. وكانت تؤلف الدوائر اليهودية الفيينّية من أبناء الطبقة الوسطى عالمًا صغيرًا. فبعد أن تمّت الخطبة بستة أشهر، أعلن أخوها إيلي، الذي كان صديقًا لفرويد، أنه وآنا أخت فرويد خطّطا للزواج. ولكي تكتمل الصورة في ذلك المجتمع الصغير المنغلق، خُطبت الأخت الأصغر لمارتا إلى صديق فيينّي لفرويد.

لقد كانت عائلة مارتا من طبقة اجتماعية أرقى من طبقة عائلة فرويد بحسب التقاليد اليهودية والألمانية على حدٍّ سواء. ففضلًا عن الجانب المالي، فقد كان جدُّها رجلًا مثقفًا وصديقًا لهنريك هاين، حاخام هامبورغ الأكبر. وكان من بين أعمامها أستاذٌ جامعيٌّ للغات الحديثة في جامعة ميونيخ، وآخر يُدرِّس اليونانية واللاتينية في هايدلبرغ. وجاء في رواية لابنة أخ لمارتا، أنَّ عائلتها صُدِمَتْ لزواجها من فرويد، لأنه لم يكن صاحب ثروة، خاصة لأنه بلا مستقبل واعد، رغم أنه كان طبيبًا[1]. وعليه، كان يجب على مارتا أن تتحلّى بروح عالية.

كانت مارتا تبدو في سنوات عمرها الأخيرة (وذلك عندما تعرَّف عليها طلاب فرويد) ربَّة منزل رتيبة جدًّا ومتحذلقة، ودقيقة في أسلوبها وخطابها، وحينها كان حبُّها الأعظم قد فارق الحياة منذ فترة طويلة. ورغم ذلك كانت مارتا مثقفة ورقيقة وجميلة في شبابها. كما كانت كذلك ذات نزعة يهودية شديدة، ولم يستطع فرويد التغلب على تعلّقها بالمراسم اليهودية التقليدية إلا بعد جهد جهيد. (وقد كان أبوه هو أيضًا متحرر الفكر رغم أن أمَّه كانت تنظر بعين الاعتبار للعطلات اليهودية، المهمة منها، فقد كانت تفعل ذلك من قبيل التعوّد، حيث لم يكن ذلك يعني الكثير بالنسبة لها). وفي عام 1938 كان فرويد ومارتا لا يزالان يخوضان جدالًا تهكُّميًا مطوَّلا (إلا أنه كان جادًّا) حول مسألة إشعال الشموع مساء الجمعة، وفي حين كانت مارتا تطلق النكات على عناد فرويد الهمجي الذي كان يعوقها عن أداء تلك الطقوس، كان هو يؤمن بشدة بأن تلك الممارسات ليست سوى حماقات وبدعًا مستحدثة[2]. وقد استدعى أولادها في جنازتها عام 1951 حاخامًا ليصلي عليها (وهو ما لم يقوموا به في جنازة فرويد)، وربما كان ذلك ما أرادته أمُّهم.

لم يكن ممكنًا بالنسبة لمارتا المتحفظة والمعتدَّة بنفسها، أن تفصح عن الكثير من

مشاعرها علنًا. وقد علَّق فرويد نفسُه على حيائها وعفَّتها في كتاباته، حتى بعدما أصبحت امرأة ناضجة[3]. فلم تكن متسلّطة بحيث قد ينفر منها فرويد. وقد كان هذا الأخير يرى أنه «بالنسبة إلى أي شخص هناك متطلبات معينة، عادة ما تكون معروفة له، إذا ما توفرت تَحقَّق شرطُ الوقوع في الحب»[4]. وقد يكون طبع مارتا المناقض لطبع أمّه ساعد فرويد في فك قيده والتحرر من أسر أماليا.

لقد كان إعجاب فرويد بمارتا متفردًا وتملكيًّا، ولم يستمر كل هذه الفترة الطويلة جدًّا إلا بسبب فقر فرويد. ويمكن لنا تبيّن حب التملك الذي ميَّز طبع فرويد في رسائله الثورية إليها. لقد كان فرويد يتميّز بالدفء ككل شخص حَيّ. وقد كان غيورًا، حتى أنه يمقت بشيء من المغالاة تعلق مارتا بأمها، حيث كان تتشبث بكل العادات اليهودية التقليدية وقد سعى فرويد لأن يفرض على خطيبته تركها. لقد كان يثقل كاهلها بطلبات غير معقولة عسى أن تفك أسرها من عائلتها رغم أنها تعتمد عليها ماديًّا، في الوقت الذي لم يكن فيه فرويد مستعدًا لتحمُّل مسؤولية نفسه. وذات مرَّة بينما كانت تدبِّر النفقات المنزلية، فكرت في أمها قبل فرويد، قال لها:

> **«إذا كان الأمر كذلك، فأنتِ عدوّتي: ما لم نجتز تلك العقبة فعلينا أن نفترق. ليس أمامك سوى خيارين اثنين وهما: إما أنا أو أمك وعائلتك، فإن لم تستطيعي أن تعجبي بي بما يكفي لكي تتخلي من أجلي عن عائلتك، فستخسرينني حتمًا، وتحطّمي حياتي، ولن تبتعدي كثيرًا عن عائلتك»**[5].

وليس خفيًّا عن فرويد المطالب المتطرفة للذات الطفولية: «فحب الطفولة لا محدود، فهو يتطلب تملكًا حصريًّا، ولا يقنع بالقليل من أي شيء... فيكون مصيره المحتوم خيبة الأمل ويفسح المجال أمام النزوع العدواني»[6]. لقد ثبتت ادّعاءات فرويد بحب مارتا له. وفي ذلك الوقت، وُفِّقت في الوفاء بحاجاته مع المحافظة على علاقتها الجيدة بعائلتها، وبدوره اعترف فرويد بنزوعه إلى التسلط: «إن في طبيعتي نزعة استبدادية... لقد استعصى عليّ بكل فظاعة أن أتغلب على نفسي»[7]. وقد يكون فرويد اضطر إلى التسلط لكي يتغلب على مخاوفه من النساء عمومًا ومن مارتا على وجه الخصوص. ويحرص إريك فروم على اعتبار أن علاقة فرويد بمارتا انعكاس لـ«تبعية فرويد لأمّه»، والأمر سيّان في علاقاته بـ«الرجال المسنين أيضًا ومعاصريه وتلاميذه، الذين نقل إليهم الحاجة إلى الحب غير المشروطة والإثبات والإعجاب والحماية»[8].

لا يجب أن تحجب عنا هذه الفرضية أبدًا ما قدمه فرويد لمارتا في حياته. لقد كانت فصاحته في كتابة الرسائل مثيرة للاهتمام أيضًا، وقد كان يظهر في رسائله لمارتا موهبته العظيمة كمحلل نفسي بالفطرة. إذ تعطينا قراءة إحدى رسائله المطوّلة، عن انتحار أحد أصدقائه، الانطباع أنها قصة قصيرة لا تُمحى من الذاكرة ألّفها كاتب مبدع[9]. من البديهي أن مارتا مهمة جدًّا بالنسبة إلى فرويد حتى أنه كان يتلهف لمشاركتها أفكارها الجدّية وخبراتها الهامة.

ويكاد جونز أن يكون محقًّا تمامًا في وصف فرويد بالطُّهر والعفاف خلال فترة خطبته لمارتا. فقد كان فرويد يطلب منها أن تذهب للتزلج (رغم أنه هو نفسه لم يكن يفعل) على ألاّ يرافقها أحد. وقد أرادت مارتا عام 1885 أن تقيم مع صديقة قديمة لها تزوجت حديثًا [10]، إلا أن زواجها سبق زفافها، فمنعها فرويد من ذلك. ولاحقًا، في عام 1915، كتب فرويد «كانت حياتي الجنسية متحررة إلى أقصى حد، رغم أني لم أستفد من ذلك التحرر إلا قليلًا جدًّا». وقد أضاف لاحقًا لهذا الادّعاء إضافة غامضة قائلًا «إلى الحد الذي أعتبر فيه أني مخوَّل له» ممّا يستدعي منا حذرًا شديدًا في صياغة أية فرضية في تناول سيرة فرويد الذاتية[11].

لقد كانت جذوة حب فرويد في بداية علاقتهما جليّة رغم تحفُّظه أحيانًا وغيرته أحيانًا أخرى، وهذا ما تشهد عليه رسائله بشكل صريح. وقد نجازف دون تحفظ بالقول بأن حنان فرويد في بداية زواجهما عام 1886 صاحب عاطفته الجنسية بشكل كامل. وقد يكون فرويد عبَّر عن موقفه من تصوُّر مارتا للأشياء في مقالة كتبها عام 1917 عندما يقول:

> **«إن من يكون الأول في إشباع رغبة عذراء في الحب الذي طال واستعصى لأمد طويل، والذي بفعله يتغلب على المقاومة التي نمت بداخلها جراء محيطها وتنشئتها، هو الرجل ستتخذه في علاقة مستدامة، ولن تتاح هذه الفرصة لسواه من الرجال»**[12].

كان على فرويد أن يسلّط الضوء على خسارة الذات في علاقة الحب، الأمر الذي ينطبق يقينًا على علاقته بمارتا. فالمحبّون لا ذوات لهم. وفي الآن ذاته، يفترض الوقوع في الحب مسبقًا معنى منيعًا للذات. وقد كان فرويد يسلِّم بمثل تلك الذات المنيعة، في حين انصبَّ جهده على الخسارة، وربما تخبرنا وجهة النظر هذه شيئًا ما عن شخصيَّته.

إن تناول جونز زواج فرويد مثار فضول، فرغم أنه اعتبر العلاقة بين هذا الأخير ومارتا غاية في الكمال («فَرقّة مشاعر فرويد التي لا مثيل لها، وغير المسبوقة نحو زوجته لم تنتقص أبدًا طيلة الثلاثة والخمسين عامًا من حياتهما الزوجية»[13])، إلا أنه ذكر عرضًا:

«قد تكون جذوة الجانب الأكثر عاطفيةً من حياته الزوجية قد انطفأت لديه مبكرًا مقارنةً مع كثير من الرجال». ومن المفيد جدًّا استحضار هذه الفقرة كاملة:

«لقد كانت زوجة فرويد المرأة الوحيدة في حياته العاطفية يقينًا، ودائمًا ما كانت الأولى قياسًا لغيرها من البشر. بينما قد تكون جذوة الجانب الأكثر عاطفية في حياته قد انطفأت لديه مبكرًا مقارنة مع كثير من البشر وهذا ما نستشفه من شواهد كثيرة واستُبدلت بإخلاص لا يتزعزع وتفاهم غاية في التناغم»[14].

باتت براعة جونز تنازع أمانته. ففي رسالة من إيما يونغ إلى فرويد، في السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1911، استشهد به جونز في سياقه لكنه ورد فقط في رسالة، أشارت إلى أن فرويد أخبرها أن زواجه «انطفأت جذوته» منذ أمد طويل وأنه لم يتبق شيء سوى الموت. وكان جونز قد استنبط معنى مشابهًا من أجزاء أوردها فرويد في تسعينيات القرن التاسع عشر (1890ـ 1900)، وكان يعتقد شخصيًّا بشكل خاص أن فشلًا مبكرًا قد حدث في حياة فرويد الجنسية تعلَّقَ برعبه العصبي من الشيخوخة والموت[15].

في عام 1887، وبعد مرور عام بقليل على زواجهما، رزقا بمولودهما الأول، وكانت فتاة. أمّا ولدهما الأول فقد أنجباه في العام 1889، والثاني في العام 1891، والثالث في العام 1892، وأنجبا فتاة في العام 1893، والمولود الأخير في العام 1895 كانت آنا. وكتب فرويد عام 1898 يقول:

«سيكون أحد أعظم الانتصارات في تاريخ البشرية، وأحد أكثر أشكال التحرر المادية المحققة من ضغوط الطبيعة التي يتعرض لها الجنس البشري، إن استطعنا أن ننجح في أن نرتقي بالفعل المسؤول المتمثِّل في تنشئة الأطفال إلى مستوى النشاط المتروِّي والقصدي، وأن نحرره من تشابكه مع الإشباع الضروري للحاجة الطبيعية»[16].

في العام 1908 اعتبر فرويد أنه من سوء الحظ أن «كل ما اختُرِع حتى الآن من ابتكارات لمنع تصور يفسد المتعة الجنسية، يخدش الأحاسيس الرقيقة لكلا الشريكين، بل تسبّب المرض»[17].

وربما تكون قدرة فرويد قد تأثرت بكراهيته للطرق السائدة لمنع الحمل. ولما كانت مارتا تحمل بسهولة شديدة، فإن الفشل في السحب قد يؤدي إلى إنجاب أطفال، ولا شك أن ذلك الاحتمال يقلق الزوجين بشأن الجماع. وفي العام 1897 (عندما كان في الحادية

والأربعين من العمر) كتب فرويد إلى أكثر الأصدقاء قربًا إليه، وهو فيلهالم فليس «لم تعد الإثارة الجنسية تُجدي نفعًا بالنسبة لشخص مثلي»[18]. ومن البديهي أن مارتا توقّعت (أو كانت تأمل) قبل ذلك بعامين في التوقف عن الحمل رغم أنها كانت في منتصف الثلاثينيات من عمرها، لكنها سرعان ما حملت بآنا، ولكن على ما يبدو عرفت مارتا لاحقًا انقطاعًا للطمث سابقًا لأوانه بعد ذلك بوقت قصير[19].

يبدو أن فرويد لم يكن يهتم بالجنس، لا سيما في الفترة التي كان يجمع فيها تلاميذه حوله. ومن وجهة نظر معاصرة، يعتبر فرويد من الحيِّيِن. وقد تحدَّث ذات مرة عن «الضرر المترتب عن الجنس بصفة عامة، الجنس من حيث هو أخطر الأنشطة التي تهدِّد البشرية»[20]. وقد كتب في رسالة «إنَّ أي شخص يعد بتحرير البشرية من ضائقة الجنس، سنهلل به كما نهلل بالأبطال، وسيكون له مطلق الحرية في أن يقول ما يشاء مهما خلا من المعنى»[21]. ويعتبر فرويد في كتابه عن ليوناردو، الذي تضمَّن إشارات كثيرة أخرى حول السيرة الذاتية، البطل «ذلك الرجل الذي لا يهتم بالحاجة ولا بالنشاط الجنسيين بشكل استثنائي، كما لو أن طموحًا ساميًا تعالى به عن الحاجة الحيوانية المشتركة للبشر»[22].

استحضر فرويد في سياق محادثته مع إيما يونغ حول علاقة مشاعره تجاه الموت في علاقته بزواجه عام 1898 قصة «زميل» لمريض تساوت عنده حالة العجز والموت: «أيها السيد، لا بدَّ أن تعرف، أنه لو وصل ذلك الأمر إلى منتهاه فلن يكون للحياة أية قيمة». وهذه القصة ذاتها، كما كتب فرويد صراحة:

> **«ارتبطت بشكل وثيق بتسلسل الأفكار المكبوتة فيّ... ولدي أدلة كثيرة على أن هذا ينطبق بحق على فكرتي «الموت والجنس» ولن آتي على ذكرها الآن، وقد توصلت إليها من خلال تحقيقاتي الخاصة»[23].**

رغم أن فرويد قد يكون ميَّالًا، كما في تصويره لليوناردو، إلى اعتبار وجود تحويل ما للطاقة وراء موهبته، ومن ثم رابطة ما داخلية بين انحسار الجنس والعبقرية، فإنه يحتفظ بروحه المعنوية العالية من آن لآخر من الناحية الجنسية. وفي عام 1901 عندما بلغ فرويد الخامسة والأربعين من عمره، تذكَّر: «التقيت في منزل لبعض الأصدقاء... فتاة شابة كانت تقيم هنالك ضيفةً أثارت فيّ شعورًا بالسعادة لطالما اعتقدت طويلًا أن لا وجود له. ونتيجة لذلك كنت في حالة مزاجية غاية من المرح تصحبها ثرثرة»[24].

ومن ناحية أخرى، ثمَّة دليل في ما يتعلق بالمسألة يؤيِّد تواصل حياة فرويد الجنسية

لمدة طويلة. وقد علق فرويد عام 1908 في الجمعية الفيينيَّة للتحليل النفسي على بحث يقول «ناضلت من أجل سبر أغوار طبيعة الحب». «لقد كان حدسًا في محلّه»، وقد أشاد فرويد بفريتز ويتلز إذ «حاول ذلك عن طريق دراسة الانحرافات، رغم أن المشكلة حُلّت منذ زمن بعيد». وقد اهتم فرويد نفسه بذلك حيث يقول «لقد أنجزت بحثًا في هذا الشأن، ولكني احتفظت به لأسباب عملية حتى تنطفىء جذوة الجنس لدي»[25]. ولكن بعد ذلك بعامين نشر فرويد أولى محاولاته الثلاث التي عنونها مجتمعة لاحقًا «إسهامات في سيكولوجية الحب».

على فرويد أن يلتزم بجملة من المحرَّمات التي ما كان يعي بها مع التقصير النسبي في حياته الجنسية بعدما توقفت مارتا عن الإنجاب. وقد كتب أثناء الحرب العالمية الأولى يقول: «إننا... نصنّف النشاط الجنسي على أنه انحراف عندما يحيد عن هدفه وهو التكاثر إلى اتباع اللذة كهدف مستقل عنه»[26]. ويذكر لنا جونز «ميول فرويد الطهرية»[27] دون اعتبار التضمينات التي تنطوي عليها هذه التوجهات بالنسبة إلى نظريات فرويد. فعلى سبيل المثال، قاد التزام فرويد بعمله إلى اعتبار العلم متناقضًا إلى حد ما مع مبدأ اللذة. واعتقد وبقوة في أن «ما من شيء جدّي يناهض اللعب سوى ما هو واقعي»[28]، وقد اعتبر دائمًا أن اللعب أحد علامات النضج بوصفه شكلًا من أشكال هرج العقل.

لقد كان فرويد متشائمًا بما يتعلق بإمكانية تعظيم الجنس: «ثمة شيء ما في طبيعة الغريزة الجنسية ذاتها يحول دون بلوغ الرضا التام». وكان يعتقد بوجود «عقبة ما، قد تكون ضرورية من أجل إعلاء الليبيدو...»[29] حتى أنه كتب أن أحد أهداف العلاج التحليلي يتمثّل في جعل «العصاب يتحرر من قيود الجنس»[30]. وفي الآن ذاته كان فرويد يعلم جيدًا أن: «الشعور بالسعادة الناتج عن إشباع الدافع الفطري المتوحش الجامح من قبل الأنا، لا يضاهيه الشعور الناتج عن إشباع الغريزة المروضة»[31]. كما كتب كذلك:

«يعتبر الحب الجنسي، بلا شك، أحد الأشياء الأساسية في الحياة، وتوحّد الإشباع العقلي والجسدي في متعة الحب أقصى ما يمكن أن يدركه. وبعيدًا عن بعض أشكال التعصّب الغريبة، يعلم العالم بأسره هذا ويتصرّف في حياته طبقًا له، وحده العلم ما يزال يجد حرجًا في الاعتراف به»[32].

لقد كان فرويد جريئًا في تحديده للدور الذي قد تلعبه الرغبة الجنسية الطفولية في حياة البالغين؛ فقد اعتبر، على سبيل المثال، أن العادة السرية «إدمان أساسي» بالنسبة

للمتأخرين، مثلها مثل الإدمان على المورفين والمخدرات والتدخين. وغالبًا ما تتفق الأساطير الشعبية على أن «العادة السرية تضعف القدرة الجنسية»، ولم يستبعد فرويد هذه الإمكانية بحكم خبرته الطبية. ولكن موقفه من مزايا مثل هذا الضعف في القدرة الجنسية لا يخلو من فظاظة وتهكم:

«يُعزى ضعف القدرة الذكرية وما تنطوي عليه من عدوانية حسية، من وجهة النظر الحضارية الحديثة، إلى حدٍّ كبير إلى الغرض منها. إنها تسهل ممارسة الأشخاص المتحضرين لفضائل الاعتدال الجنسي وأحقية الثقة المنوطة بهم. وعادة ما نشعر أن الفضيلة المقترنة بالقدرة العالية مهمة صعبة»[33].

يعتقد فرويد أنه «مع تقدم الحضارة، فإن الحياة الجنسية هي التي تكون ضحية الكبت»[34]. وفي الوقت ذاته يشارك البشرية بؤسها الناتج عن قيود الحضارة.

وبغض النظر عما إذا كان هو نفسه يعاني من ضعف في القدرة الجنسية، فقد وفَّر لنا على الأقل تفسيرات عديدة ممكنة لهذه الحالة. فها هو يذكر لنا ذات مرة، على سبيل المثال «رجلًا كان يُعاني من عجز جنسي من حين لآخر سببه علاقته الحميمية مع أمه في صغره...»[35]، فالأم التي لا تشبع رغبتها الجنسية قد تتخذ «طفلها الصغير بديلًا للزوج، ومن خلال هذا النضج السابق عن أوانه للطفل... يفقد بعضًا من ذكورته»[36]. وفي الوقت نفسه كان فرويد يعتقد بأنه «لا يمكن تأمين الزواج ما لم تنجح الزوجة في جعل زوجها ابنًا لها وأن تتصرّف معه كأم»[37]، وتلك وصفة موضع تساؤل لعلاقة جنسية ناضجة. وفي الحقيقة عاملت مارتا فرويد كصبي وقد يكون ذلك وراء طفولية فرويد عندما صار كهلًا، كما لم يساعده هذا الأمر كأب، وربما كان لعدم نجاحه النسبي مع أبنائه علاقةٌ بمكانته في العالم حيث كانت عبئًا عليهم، وبانحسار دوره في البيت الذي حرمهم من نموذج ذكري قوي.

تصادف موت والد فرويد عام 1896 مع ما كان يكتبه آنذاك عن تراجع اهتمامه بالجنس. ذكر فرويد ذات مرة رجلًا «كان أكثر شخص ثورية يمكن تخيّله... ومن ناحية أخرى، وعلى مستوى أعمق لا يزال أكثر الأبناء خضوعًا، والذي حرم نفسه من كل متع النساء بعد موت أبيه من منطلق شعوره بالذنب»[38]. وقد جاءت نظرية فرويد الوقتية عن معنى حياة الأحلام خلال تلك الفترة نفسها من عام 1890. واعتُقد بعد اكتشافاته العظيمة أن الاهتمامات الليبيدية قد تكون مضت قدمًا آنذاك في اتجاه دفع قضيته وفقًا لنظريته عن تحوّل الطاقات البشرية.

4 - الحياة العائلية

يسهل على المؤرخ مراجعة حياة فرويد العائلية ما دام التحليل النفسي قائمًا. كان آل فرويد يقيمون في شقة بالطابق الثاني من بناية في برغاس، رقم 19؛ وكان جزارٌ يشغل الطابق الأرضي. وقد اختار فرويد شخصيًا هذه الشقة ليعيش فيها وذلك عام 1892، وأقام فيها صحبة مع عائلته حتى عام 1938. ومن عام 1892 وحتى عام 1908 اختار فرويد مكانًا آخر منفصلًا لممارسة عمله، وكان يتكوّن من ثلاث حجرات في الميزانين على بعد خطوات قليلة من الطابق الأرضي. وفي أواخر عام 1907 تركت أخته روزا سكنها في الطابق الثاني، الملحق بشقة آل فرويد، فاستفاد منه فرويد في مجال عمله وبالتالي أمكن له استغلال الطابق الثاني بأكمله.

واحتفظت مارتا عندما قدمت إلى بيت آل فرويد بطابع عائلتها المحافظ الذي تعارض مع أجواء البورجوازية الصغيرة لبيت أم فرويد. فقد كان لدى آل فرويد كثرة من الخدم: «طبّاخة لا تغادر المطبخ... وخادمة تنتظر أمام الطاولة كما تستقبل المرضى... ومربية للكبار، وأخريات كثر يعنين بالصغار بينما تهتم خادمة طوال النهار يوميًا بتنظيف المنزل وترتيبه»[1]. كانت مارتا ربّة بيت مثالية ذلك أنها أدارت شؤون هذه المؤسسة بإحكام من الناحية الاقتصادية وكذلك الأمر بالنسبة لشؤونها الخاصة. ورغم أن «سيدة البروفيسور»، كما أصبحت تُدعى في ما بعد، لم تكن تطهو الطعام إلا أنها كانت تهتم بشؤون المنزل بعناية فائقة ودائمًا ما كان يُحضر لها طعام شهيّ. وما أسرّه جونز عن فرويد على مائدة الطعام يُذكّر المرء إلى أي حدٍّ كان منشغلًا طوال الوقت بعمله.

كان غداء العائلة الساعة الواحدة، وهو الوقت الوحيد الذي تجتمع فيه العائلة عادة. أمّا وجبة العشاء فغالبًا ما كانت تتأخر جدًّا، حتى أن الصغار كانوا يذهبون إلى النوم دون أن يدركوها، وهي الوجبة الأساسية في اليوم... [كان فرويد] يستمتع بطعامه بتركيز عال حتى أنه لا يتكلم البتة أثناء الأكل، ممّا يثير أحيانًا قلق الضيوف الغرباء الذين يضطرون إلى التحدث مع العائلة دونه. ورغم ذلك لم يكن يفوت فرويد أيّة كلمة مما يدور من أحاديث داخل الأسرة ولا الأخبار اليومية... فكان يشير صامتًا إلى كرسي خال بسكّين أو شوكة أو يلتفت إلى زوجته على الطرف الآخر من المائدة مستفسرًا عن سبب ذلك فتخبره بأن طفلًا تخلّف عن موعد العشاء، أو أن شيئًا ما منعه، وما أن يشبع فرويد فضوله حتى يُومئ برأسه ويسترسل في أكله في صمت[2].

لم تكن مارتا «من الناحية الاجتماعية مضيافة تمامًا»[3]، ناهيك عن أنّ آل فرويد لم يقيموا حفلات البتة، لأن ذلك لم يكن يستهوي الزوجين[4] – على الرغم من أن ضيوفهم كثر حتى أنهم أفردوا غرفة خاصة للزائرين – إذ بدأ كرم الضيافة يتراجع بمرور السنين. فلم يكن فرويد اجتماعيًّا ولم تكن مارتا تحب إسعاد الآخرين، وكانت ربّة منزل صعبة المراس، فكثيرًا ما تراها تزيل بقعة من مكان ما بالمنزل ويزعجها رماد سيجار إذا تناثر على أرضية المنزل. وكانت تتوجس خيفة من الصحبة أكثر وأكثر.

لقد كانت مارتا تدعو رسميًّا زوجات أصدقاء فرويد المقرّبين له وطلابه الفيينيِّين مرة كل عام حيث يقدّم لهم الشاي. وربما كانت المضيفة أيضًا تُعدُّ بعض التطريز لتهديه لمارتا تقديرًا لزيارتها. وبينما كانت مارتا تعنى براحة الطلاب الغرباء في فيينا، خاصة النساء منهم، كانت ماتيلدا ابنة فرويد الكبرى تتكفل عادة بمساعدتهم حتى يجدوا مسكنًا يقيمون فيه (بل كانت توفِّر لهم تذاكر المسرح أو الحفلات الموسيقية). لقد أَلِفَت الحركةُ العائلةَ التي صارت هي بدورها جزءًا من الحركة.

ومنذ البداية كانت مارتا تقدِّر زوجها وتستمتع بشهرته. رأت فيه، مِثلها مثل أمه، رجلًا عظيمًا. وكثيرًا ما تساءلت لماذا لا يتبرع لهم أحد الأسخياء بسكن لقضاء العطلات الصيفية؟ (يقال إن فرويد كتب لها رسالة على سبيل التهكُّم يقدِّم فيها نفسه على أنه ذلك المتبرّع السَّخي)[5].

كانت مارتا تدبّر شؤون المنزل دون أن تُزعج زوجها. وتميّز سكنهما بالهدوء بشكل غير عادي، لا سيما إذا أخذنا في الاعتبار عدد الأشخاص الذين يقيمون فيه، وكانت حياة العائلة متوقفة على عمله. اعتنت مارتا بفرويد بشكل أكثر من المعتاد حتى في تلك الظروف. ويُعزى، على ما يبدو، قدر كبير من تأنق فرويد إلى اهتمام مارتا المتزايد به، فقد كانت ترتب ملابسه وتختار له كل شيء حتى مناديله، بل إنها كانت تضع له معجون الأسنان على فرشاته، وقد علّق أحد تلاميذه على ذلك قائلًا في سخرية: «لو كانت لي زوجة مثلها، لألفتّ كل تلك الكتب (التي كتبها فرويد)». ولكن لمّا كان كل شيء يُعمل لفرويد في المنزل وكانت مارتا حريصة عليه طالما أنه كذلك، فقد هيمنت النساء على كل شيء. وقد اضطرته عادة التدخين أن يكتب: «لم يكن هناك تناسب بين الأناقة التي اشتهرت بها وأشكال التسلط التي ميّزت بيتي...»[6].

ذكر فرويد ذات مرة أنه كان يحاول أن ينقل مبادئه النظرية من عمله إلى عائلته حيث

يقول: «كلما اشتكاني أحد أفراد عائلتي عضٍ لسانه أو أصاب إصبعه أو ما شابه، لم أكن أتعاطف معه بالقدر الذي كان يأمله، بل بدلًا من ذلك كنت أسأله: لماذا فعلت بنفسك ذلك؟»[7]. ورغم ذلك تشير الوقائع إلى انفصال ممارسته العملية وكتاباته عن حياته العائلية. ويعود هذا في جزء منه إلى رفض مارتا السماح للفكر التحليلي النفسي أن يغزو روضة أطفالها، رغم أنه قيل بأنها سمحت له باستخدام التحليل النفسي في تربية الأبناء الصغار أكثر منه مع الكبار. ووفقًا لما جاء على لسان كبرى بنات فرويد، وكذلك الأخريات، فإنه ما تناقش في أفكاره مع زوجته قط[8]. وهذا ما أشار إليه تيودور رايك:

> **لقد تكوّن لدي انطباع من خلال محادثاتي معها أثناء تجولنا في سيميرنغ Semmring بالقرب من فيينا، بأنها لم تكن تملك فكرة عن قيمة وأهمية التحليل النفسي فحسب، وإنما كانت لا تطيق بشدة طبيعة العمل التحليلي. وقد قالت ذات مرة «عادة ما تعاني النساء من مثل هذه المشاكل، ولكنهن لم يحتجن إلى تحليل نفسي. فبعد التوقف عن الحمل يصبحن أكثر هدوءًا واستقرارًا من ذي قبل»[9].**

ليست السيدة فرويد وحدها التي ترفض أن يطبّق فرويد التحليل النفسي في تربية أطفالها، بل رفض هو أيضًا أن يمارس سيكولوجيته العميقة في المنزل. ولم يكن فرويد ينفذ إلى الدوافع الإنسانية بعمق دائمًا كما لم يكن سيكولوجيًا على الإطلاق مع عائلته. كان يرسل أبناءه إلى طبيب العائلة لكي يبصرهم بوقائع الحياة. فعندما أشار أحد الطلاب بحماس ذات مرة إلى أنّ إحدى كلبات فرويد حلمت فعلًا، لاحظ: «أخبرتهم بأنهم يطعمونها كثيرًا، إلا أنهم لا يسمعون»[10]. وعندما فسَّر أحد ضيوف فرويد في العشرينيات بإسهاب زلة لسان على الملأ أثناء تأبين زميل، علّقت السيدة فرويد (بسخرية) على أهمية هذا التحليل قائلةً: «لم نسمع مثل هذه الأشياء قط»[11]. على الأرجح أنها كانت تفهم فحوى عمل زوجها أكثر ممّا كان يتطلع إليه تلاميذه.

وكلما تقدمت السنون، زاد فقدان مارتا لمكانتها داخل العائلة بالنسبة لزوجها ودائرته من ناحية، وبالنسبة لابنتها آنا من ناحية أخرى، وإن حافظت على تلك المكانة لدى بقية الأطفال. لقد أنهكتها تربية الأطفال الستة حتى هرمت مبكرًا وساعدتها ماتيلدا في تحمل أعباء الجانب الاجتماعي. كانت السيدة فرويد منغلقة على نفسها، لذا فإنه ليس من الواضح إذا ما كان كبرياؤها يمنعها من أن ترى أو ببساطة من أن تظهر أنها كانت ترى كيف دُفعت

إلى حياة فرويد. لقد حملت صفات الشخصية الغنية ولم تكن مجرد نتاج لتقييداتها. وقد كتب فرويد في العيد الذهبي لزواجهما إلى تلميذة من تلاميذه، وهي ماري بونابرت قائلًا: «لم يكن ذلك حقًا حلًا سيئًا لمشكلة الزواج، فما زالت إلى يومنا هذا تحافظ على رقّتها وصحتها وحيويتها»(12).

وأيًا كان ما يدور بينهما جسديًا وفكريًا، فقد ظلت مارتا، كما يشير إلى ذلك أحد أقارب فرويد، فرحة بشبابه. ولاحظ أحد المراقبين المهمين جدًا وهو مريض مقرّب من فرويد وعائلته، أن مارتا ظلت أمًا لأولاد فرويد وكانت علاقتها به جميلة وبسيطة حتى أنها تختزل بالنسبة له كل العائلة(13). وبحسب أحد أتباع فرويد أيضًا، لم يكن أيٌّ منهما خلال العطلات الصيفية (عندما كان فرويد كثير السفر) يطيق أن يبيت بعيدًا عن الآخر ولو لليلة واحدة حتى إن كانت الغرفة ضيّقة(14).

لا شيء يوحي بأن تلك المودّة تتعارض مع سخطه الواضح عليها. فكما جاء على لسان أحد طلبته «لقد ساد بينهما جو ملؤه التسامح، ساعد على استيعاب تحذلقها المتزايد»(15). وبمجرد أن حلّت آنا مكان مارتا تراجعت علاقة فرويد بها أكثر فأكثر. وقد ضاقت آنا ذرعًا بأمها لأنها لم تعد تقوى على تلبية حاجات زوجها. فمنذ أن أصابه سرطان الفك أصبحت آنا هي التي تعتني بحالته البدنية، ولقد اعتقدت أن فمه تم شفطه بشكل مناسب بعد استبدال الجزء المصاب بالسرطان بآخر اصطناعي بواسطة العمليات، لقد نشأت بين مارتا وابنتها الصغرى عداوة بسبب غيرتها منها. وفي عام 1939، عندما تزايدت معاناة فرويد إلى درجة لا تُطاق بحيث اتفق مع طبيبه على تدخل جراحي، طلب فرويد من طبيبه بأن «يُخبر آنا بذلك»(16) لا أمها.

لم تحتل آنا آنذاك مكان والدتها فقط، بل أخذت دور الخالة مينا كذلك وهي ليست شخصية بسيطة يمكن أن يستهان بها في حياة فرويد. فلقد قدمت مينا، الأخت الأصغر لمارتا، لتعيش مع أسرة آل فرويد عام 1896(17)، أي في الحادية والثلاثين من عمرها، وظلّت هنالك حتى وفاتها عام 1941، وقد ألّف ثلاثتهن، مارتا وآنا و«الخالة مينا» مثلثًا مثيرًا للاهتمام. كانت مينا بارنيز بدينة، تشبه أم فرويد المتسلطة أكثر من زوجته مارتا، وقد كانت تضع مثلها مثل أماليا فرويد طاقية صغيرة تقليدية على رأسها. وقد كانت بين مارتا ومينا علاقة حميمة جدًا كأختين. وعن هذه العلاقة يقول أحد الطلاب بأنهما كانتا، على الصعيد العاطفي «كزوج من التوائم السيامية». وقد برعتا في الحياكة، وكانتا (مثلهما

في ذلك مثل بقية آل فرويد الآخرين) تعانيان من الصداع النصفي والقيء[18]. ورغم أن فرويد لا يعتبر الصداع النصفي «مرضًا عضويًّا» وإنما عارض نفسي-عضوي[19]، فقد ركّز اهتمامه على الافتراضات التي تقول بأن عائلته تخلو من العصاب. وقد انتهت خطبة مينا في شبابها إلى موت خطيبها، ثم أصبحت بعد ذلك بالنسبة لطلبة فرويد بمثابة الأرملة النموذجية الأصيلة.

وبمجرد مجيئها لتعيش مع آل فرويد أصبحت عضوًا في بطانته التي كان يدعمها ماديًّا. وقد عملت من قبل مربية أطفال ووصيفة مرافقة للسيدات، وكانت لها مشاركة فاعلة في تربية أطفال فرويد. وقد جاء في رسالة له «زوجتي وأختها بمثابة أُمّين»[20]. وأيًّا كان ما اكتسبه الأطفال من وجود خالتهم مينا معهم في المنزل، فقد ضاقوا ذرعًا أيضًا من تلك السلطة الأمومية المزدوجة، فسواء اتفقتا أو اختلفتا (مارتا ومينا) في الرأي، فقد كان ذلك مدعاة للقلق ويجعل من مهمة إثبات ذواتهم مهمة شاقة. قيل إن الأطفال كانوا يغارون من الاهتمام المتبادل بين الأختين.

وبالإضافة إلى أن مينا كانت الأكثر سلاطة في اللسان من بين الأختين والأكثر حزمًا مع الأبناء كذلك. وقد امتعضت إحدى زوجات الأبناء منذ قدمت إلى العائلة عروسًا لفرويد (إستي زوجة مارتن) من الدور الذي كانت تؤديه الخالة مينا في حياة زوجها. ولم تكن مينا تبارك هذه الزيجة، فقد قالت عنه فور تحرّره من الأسر في الحرب العالمية الأولى: «لقد كان يلجأ من معتقل إلى آخر». ورغم حدة طبعها وسلاطة لسانها، إلا أن ذلك لم يزعج أختها مارتا البتة، ولما قدمت إستي (منفصلة عن زوجها حينها) لزيارة السيدة فرويد بعد وفاة مينا، اندهشت مارتا لعدم سؤالها عن أختها مينا وتألمت لذلك كثيرًا.

كانت مينا أوسع ثقافة بكثير من أختها مارتا، فقد كانت تحذق قراءة اللغات الأجنبية بسهولة، وكانت واسعة الاطلاع وسندًا حقيقيًّا لفرويد في عمله. وقد قال البعض إن مارتا، في بداية حياتها مع فرويد، كانت تكتفي بالإصغاء إلى قصص مرضاه دون أن تساعده في عمله أبدًا، أما مينا فكانت تفهم أفكاره حقًّا، وكان يفضّلها على مارتا في مناقشة حالات مرضاه معها. ووفقًا لما جاء في أسطورة العائلة، كان فرويد قد أملى إحدى ترجماته على مينا[21]. وتذكر فرويد في محادثة أنه في سنوات ذروة عزلته وإبداعه، في تسعينيات القرن التاسع عشر (1890)، كانت مينا وصديقه فليهالم فليس وحدهما اللذان يمنحانه الثقة بنفسه، فقد آمنا بإنجازه الفكري[22]. وقد أعفيت مينا من منافسات فرويد الفكرية مع

المثقفين، فلم تكن مجرد مصغية وشاشة موضوعية تنعكس عليها أفكاره، بل أكثر من ذلك، إذ كانت أشبه بالمساعِدة.

ولما كانت مينا شريكة فرويد المفضلة، فقد كانت كثيرًا ما تسافر معه أثناء عطلاته الصيفية. بينما كانت مارتا تذهب إلى منتجعها الصحي. (وإذا كان أفراد عائلة فرويد يخرجون في العطلة سويًّا، فإن فرويد «يجد راحته في السفر وحده»[23])، وكان فرويد كثير السفر في حين أن مارتا كانت نادرًا ما تسافر، ولكن هناك تفسيرات متباينة لسفر فرويد مع مينا أكثر من مارتا.

لم يكن فرويد يستمتع بالسفر وحده. وآية ذلك حسب بعض التفسيرات أنه يحب الجبال العالية في حين كانت مارتا تفزع منها[24]، وبطبيعة الحال كان فرويد يحب إيطاليا أيضًا إلا أن مارتا لم تصحبه إليها. وعزى جونز ذات مرة عجز مارتا عن مصاحبة زوجها في أسفاره إلى حاجتها إلى التعافي من مرض، وفسر جونز ذلك في عام آخر بأنها كانت مضطرة إلى الاعتناء بطفل مريض، وفي مناسبة أخرى ذكر جونز أن فرويد سافر إلى باد غاشتاين مصحوبًا بمينا لأنها «هي الأخرى كانت تحتاج إلى العلاج هناك»[25]، ومهما تكن الأسباب متضاربة في شأن ذلك، فمن المؤكد أن مينا وفرويد كانا يستمتعان بالسفر المنتظم سويًّا.

في عام 1969 ظهرت مقالة تؤكِد على أن يونغ زعم أن مينا عبَّرت له عن قلقها بشأن حبّ فرويد لها وحميميَّة علاقتهما[26]. وقد يكون من المثير للاهتمام أن نفكر في وجود عاطفة قوية متبادلة بين الطرفين. إذ كتب فرويد ذات مرة أنه، خلافًا لمارتا ولخطيب مينا، اللذين كانا شخصين لطيفين، في حين كان هو ومينا، كما جاء في حاشية من حواشي متن جونز «شخصين عاطفيين بشكل وحشي، ولم يكونا لطيفين كثيرًا»[27]. ويفترض أن فرويد إنما أراد من وراء ذلك أن يفسر أنه كان الزوج المناسب لمارتا، وكذلك مينا بالنسبة لخطيبها، في تناقض مع طباعهما. ولكن يمكن أن نتبنى تصورًا مختلفًا تمامًا (ومستبصرًا) بناءً على هذا التصوير لطباعهما.

ويمكن تفسير الدليل على الفشل المبكر لحياة فرويد الجنسية على نحو مغاير تمامًا؛ فبدلًا من إخماد جذوة حبه لمارتا، حوّل حاجاته الجسدية و/ أو العاطفية إلى امرأة أخرى، هي مينا. (ويعتقد أحد جيران آل فرويد القدامى أنّ مينا كانت أجمل من مارتا). وفي حالة

كهذه فإن كاتبًا غزير الإنتاج عصامي مثل فرويد، من المفيد جدًّا ألا يوجد أيّ دليل على علاقته الغرامية بمينا في موضع ما من رسائله غير المنشورة.

هناك علامات على جموح فرويد الجنسي، فقد ذكر مرة أنه لما كان في رحلة إلى إيطاليا ساقته قدماه رغمًا عنه إلى دور الخنى مرارًا وتكرارًا[28]. قد تكون نزعة فرويد الطهرية نشأت كرد فعل تكويني على عواطفه التي كانت ملتهبة بشكل مثير جدًّا. وإنه لمن الصعب أن نوفق بين الرجل المهتز الذي نعرفه من خلال أعماله ورسائله وبين ذلك الرجل الذي كان يتفاعل في تحليله لنفسه في تسعينيات القرن التاسع عشر مع فقدانه النسبي للمقدرة الجنسية.

ورغم ذلك، وللإنصاف، فإني كنت أميل، بروح عالية، إلى رفض تلك الفكرة التي تقول بأن ثمة علاقة جنسية بين فرويد ومينا. وقد تحدّثت بالفعل إلى يونغ عن تورّط فرويد معها، فاهتماماته كانت تقلقها. ولكن، بحسب يونغ، ما هو مثير للقلق ليست علاقة غرامية فعليّة بين فرويد ومينا، بقدر ما هو ميله لها[29].

ونادرًا ما كانت مينا تبدو ـ بالنسبة إلى طلاب فرويد ـ غير شهوانية ومحايدة. وقد أثار فرويد في مناسبة واحدة على الأقل مسألة علاقته بمينا في تحليل له حيث نجده يذمّ مريضه قائلًا «أنت تعتقد، إذن، بوجود علاقة غرامية بيني وبين مينا». ولكن عندما أقسم المريض بعكس ذلك، بدا فرويد رغم ذلك مستاءً قليلًا، كما شعر بأن في ذلك إهانة كبيرة لمينا وله أيضًا[30]. وكان فرويد يكره الفوضى، وربما جعل الشقاق الناتج عن الغيرة من الحياة في البرجاس (Berggasse) أمرًا مستحيلًا. قد تكون جذوة فرويد الجنسية قد انطفأت نتيجة ميله إلى مينا، وإن فقدان فرويد لتلك المقدرة قد كان ابتكارًا لا واعيًا حتى لا يخون مارتا.

الأهم من ذلك كله هو ما تعنيه مينا بالنسبة لفرويد، وسلطته عليها، وليست الخصوصيات المتعلقة باحتمال وجود علاقة بينهما. يبدو أن فرويد عانى من شرخ في حياته العاطفية، ويتمثّل ذلك في حفاظه على حياته الجنسية مع مارتا وتحوّل انشغاله الروحاني إلى مينا. وفيما يبدو، ما كانت علاقته بمارتا لتستمر على نحو ما هي عليه من متانة لولا وجود مينا في منزلهم. وكما نعلم، فقد كان فرويد يجد بعض الصعوبة في كبت رغبته الجنسية في علاقته بأتباعه من الإناث[31]. وإنه ليصعب علينا أن نعرف أيًّا من البدائل المتاحة كان

يمكن أن تكون الأفضل بالنسبة لفرويد كشخص، لأن استمراره في مضاجعة امرأة لا تهتم به إلا قليلًا مثل مارتا قد يكون أسوأ من أن يخون أو يفقد مقدرته الجنسية.

لقد استعيض عن مينا في سنوات فرويد الأخيرة بآنا، مثلها في ذلك مثل مارتا. وكائنًا ما كان الأمر، وكائنًا ما كانت مشاعر فرويد نحو مارتا، فإن مينا هي التي كانت تتابع بانتباه ما إذا كان فرويد قد تناول الدواء في موعده، وهي التي كانت تقدّم له كوبه الثاني من القهوة. فلقد كانت مينا معجبة جدًّا بصلابته في مواجهة مرض السرطان، وما كان لرجل «عادي» أن يتحمل ذلك وربما وضع نهاية لحياته قبل ذلك بكثير كما أشارت إلى ذلك ذات مرة[32]. وقد أرهقتها الدموع التي لا تكف أبدًا حرقة وألمًا على فرويد في أواخر عمره. يعتقد جونز أن من بين أقرب ثلاث نساء إلى فرويد ـ مارتا وآنا ومينا ـ كانت الصدمة أشد وقعًا على الأخيرة مما تسبب باعتلال صحتها[33].

الهوامش

1 ـ كل التحديات وكل الانفعالات

(1) Cf. Ernst Simon, «Sigmund Freud, the Jew», Yearbook II, ed. Robert Weltsch (London: Leo Baeck Institute; 1957), pp.270-305. Cf. also Karl Menninger, «The Genius of the Jew in Psychiatry», A Psychiatrist's World (New York: Viking; 1959), pp. 415-24.

(2) Cf. Roazen, Freud: Political and Social Thought, Ch.3.

(3) «Civilization and Its Discontents», Standard Edition, Vol. 21, p. 109.

(4) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 116.

(5) A Psychoanalytic Dialogue: Letters of Sigmund Freud and Karl Abraham, ed. Hilda Abraham and Ernest Freud, Translated by Bernard Marsh [pseudonym] and Hilda Abraham (New York: Basic Books; 1965) (cited hereafter as Letters of Freud and Abraham), p. 46.

(6) «The Interpretation of Dreams», Standard Edition, Vol. 4, p. 197.

(7) Martin Freud, Glory Reflected, pp.70-71.

(8) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP.163, 44, Vol. III, P. 185.

(9) Ibid., Vol. III, P. 198.

تتعلق الفقرات بحادثة حُجبت دون أي إشارات للحذف في نسخة مراسلات فرويد ذات العلاقة.

Cf. Letters of Freud and Zweig, pp. 107-08.

(10) Geoffrey Gorer, in Psychoanalysis Observed, ed. Charles Rycroft (London: Constable; 1966), p. 41.

(11) «Address to the Society of B'nai B'rith», Standard Edition, Vol. 20, p. 274.
يمكن في ماركس أيضًا سماع نبرة «عنصر من عرق احتُقر طويلًا»؛ «يبدو أن قرونًا من قمع المنبوذين هو ما كان يتحدث إليه».
«Sir Isaiah Berlin, «Benjamin Disraeli, Karl Marx, and the Search for Identity», Midstream (Aug.-Sept. 1970) p. 46.

(12) Freeman, Insights, p. 80.

(13) Letters of Freud and Abraham, p. 186.

(14) Interview with Edoardo Weiss, May 8, 1965.

(15) Letters, p. 203.
أشار فرويد في موضع آخر إلى «مرحلة قومية ألمانية مررت بها في شبابي لكن تجاوزتها منذ زمن».
«The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 323.

(16) S. Freud, The Origins of Psychoanalysis, ed. Marie Bonaparte, Translated by Eric Mosbacher and James Strachey (London: Imago; 1954) pp.219-21.

(17) Schur, Freud, p. 120.

(18) Interview with Edward Bernays, Nov. 28, 1965.

(19) Letter from Leslie Adams to Ernest Jones, Nov.29, 1953 (Jones archives).

(20) Cf. Roazen, Freud: Political and Social thought, pp.257-68.

(21) Wittels, Sigmund Freud, p. 35.

(22) Letters, p. 202.

(23) «The Interpretation of dreams», Vol. 4, p. 192.

(24) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 348.

(25) Ibid., Vol. III, p. 228.

(26) «On the Universal Tendency to Debasement in the Sphere of Love», Standard Edition, Vol. II, P. 189.

(27) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 233; Vol. 5, p. 554. «Psychoanalytic Notes on an Autobiographical account of a case of Paranoia (Dementia Paranoides)», Standard Edition Vol.12 p. 58.

(28) Interview with Edoardo Weiss, May 10, 1965.

(29) «A Disturbance of Memory on the Acropolis», Standard Edition, Vol. 22, p. 247. Cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 342, and Emil Ludwig, «A Visit», in Freud As We Knew Him, ed. By Hendrik Ruitenbeek (Detroit: Wayne State Univ. Press; 1973), pp. 214-15.

(30) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. I, p. 71. Cf. also Letters, p. 54.

(31) «The interpretation of dreams», Vol. 5, p. 424; Vol. 4, p. 231.

(32) Ibid., Vol. 5, pp.472, 483, 486.

(33) The Origins of psychoanalysis, p. 219.

(34) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 86.

(35) «The Psychopathology of Everyday Life», Standard Edition, Vol. 6, p. 270.

(36) Interview with Oliver Freud.

(37) Interview with Mark Brunswick, Jan.25, 1966.

(38) Letters, p. 202.

(39) Ibid., p. 4.

2 _ الطفولة والشباب

(1) «An Autobiographical Study», p. 8.

(2) Cf. Martin Grotjahn, «A letter by Sigmund Freud with Recollections of His Adolescence», Journal of the American psychoanalytic Association, Vol. IV, No.4 (Oct.1956), pp. 378-80.

(3) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 441.

(4) «On the history», p. 19.

(5) «The interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 450.

(6) Ibid., p. 444.

(7) «An Autobiographical Study», p. 11. Cf. Roazen, Freud: Political and Social Thought, pp.91-95.

(8) «An Autobiographical Study», p. 10.

(9) «Screen Memories», Standard Edition, Vol. 3, p. 314.

(10) Interview with Oliver Freud.

(11) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 438.

(12) «A Disturbance of Memory on the Acropolis», p. 247.

(13) Cf. Judith Bernays Heller, «Freud's Mother and Father», Commentary, Vol. 21, No.5 (May 1956), pp.418-21.

(14) «A Disturbance of Memory on the Acropolis», p. 247.

(15) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4. p. 216.

(16) Interview with Henry A. Murray, Nov. 10, 1965. John Bilinsky, «Jung and Freud», Andover Newton Quaterly, Vol. 10, No. 2 (Nov. 1969), p. 42. Cf. Below, p. 83. Schur mentions Freud's «Prostatic discomfort (frequency) while in the United States». Freud, p. 255. For references to urethral themes in Freud's writings, Cf. «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 469; «From the history of an Infantile Neurosis», Standard Edition. Vol. 17, p. 76. «Civilization and its Discontents», p. 90; «The Acquisition and Control of Fire», Standard Edition, Vol. 22, pp.187-93.

(17) Cf. «Fragment of an Analysis of a case of Hysteria», Standard Edition, Vol. 7, pp.20-21. Cf. also Kurt Eissler's interview with Albert Hirst, Mar. 16, 1952 (Jones archives). Cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. II, pp.291-92.; Vol. III, PP.307-08.

(18) «Civilization and its Discontents», p. 72.

(19) «Family Romances», Standard Edition, Vol. 9, p. 238.

(20) «Civilization and its Discontents», p. 113.

(21) Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 2.

(22) R. Gicklhorn and J. Sajner, «The Freiberg Period of the Freud Family», Journal of the History of Medicine, Vol. 24. (1969), pp.37-43.

(23) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 20.

(24) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. XXVI.

(25) Ibid., Vol. 5, p. 428. Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 2.

(26) Lionel Trilling and Stephen Marcus, eds., The Life and Work of Sigmund Freud, by Ernest Jones (New York: Basic Books; 1961), p. 4.

(27) «The interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 379. Cf. also Ernest Jones, «Book Review of Wittels's Freud», International journal of psychoanalysis, Vol. 5 (1924), p. 485.

(28) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 198. In reality Masséna was born in 1758.

(29) S. Freud and William C. Bullitt, Thomas Woodrow Wilson: A psychological study (Boston: Houghton Mifflin; 1967), p. vi.

(30) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 398. Cf. also «A Childhood Recollection from Dichtung und Wahrbeit», Standard Edition, Vol. 17, p. 156.

(31) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 206.

(32) «New Introductory Lectures on Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 22 (cited hereafter as «New Introductory Lectures»), p. 133. Cf. also «Group Psychology and the Analysis of the Ego», Standard Edition, Vol. 18, p. 101.

(33) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 196.

(34) Quoted in Ludwig Binswanger, Sigmund Freud: Reminiscences of a Friendship, translated by Norbert Guterman (New York: Grune& Stratton; 1957), pp.85-88.

(35) Letters, p. 400.

(36) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 152.

(37) «Two Encyclopedia Articles», Standard Edition, Vol. 18, p257.

(38) «Civilization and its Discontents», p. 109.

(39) «From the History of an Infatile Neurosis», p. 88.

(40) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 177.

(41) For Freud's dream, Cf. «The interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 583. For his mother's dream, cf. Lancelot Whyte, Focus and Diversions (New York: Braziller; 1963), pp. 110-11.
يصرح وايت في رسالة إلي (تشرين الأول/ أكتوبر 17، 1971) عن رأيه بأنه من المرجح أن أم فرويد حلمت حلمًا ليليًا وليس حلم يقظة كما أورد في كتابه.

(42) Jones, Sigmund Freud, Vòl. II, P. 434.

(43) Letter from Ernest Jones to James Strachey, Jan. 11, 1954. Cf. also letter from James Strachey to Ernest Jones, Jan. 20, 1954 (Jones archives). Cf. Meyer Schapiro, «Leonardo and Freud», Journal of the History of Ideas, Vol. 17 (1956), pp. 147-78.

(44) Cf. letter from Dorothy Burlingham to Ernest Jones, June 6, 1951 (Jones archives).

(45) Martin Freud, Glory Reflected, p. 11. Cf. also Martin Freud, «Who was Freud?», in Josef Fraenkel, ed., The Jews of Austria (London: Vallentine, Mitchell; 1967), p. 202.

(46) Jones, Sigmund Freud Vol. I, p. 3.

(47) Judith Bernays Heller, «Freud's Mother and Father». Interview with Edward Bernays, Dec. 2, 1965. Interview with HellaBernays, Apr. 3, 1967. Interview with Oliver Freud. Interview with Judith Bernays Heller, Dec. 23, 1965.

(48) Martin Freud, Glory Reflected, pp. 11, 16. Cf. also Martin Freud, «Who was Freud?», pp. 202-03.

(49) Letters, p. 58.

(50) Interview with Otto Isakower, Sept. 20, 1966.

(51) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 391.

(52) «Screen Memories», p. 322.

3 ـ الحب والزواج

(1) Interview with Esti Freud, Apr. 30, 1966.

(2) أنا مدين للسيد إشايا برلين على هذه القصة.
Cf. Jones, Sigmund Freud Vol. III, P. 228.

(3) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 228.

(4) Minutes of the Vienna psychoanalytic Society, ed. Herman Nunberg and Ernst Federn, Vol. II (New York: International Universities Press; 1967) (cited hereafter as Minutes), p. 237.

(5) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 130.

(6) «Female Sexuality «, Standard Edition, Vol. 21, p. 231.

(7) Letters, p. 52.

(8) Erich Fromm, Sigmund Freud's Mission (New York: Harper & Row,1959), p. 18.

(9) Letters, pp.58-66.

(10) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 128.

(11) Letters, p. 308.

(12) «The Taboo of Virginity», Standard Edition, Vol. II, P. 193.

(13) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 228.

(14) Ibid., Vol. II, P. 386.

(15) Cf. the Freud / Jung Letters, ed. William McGuire, translated by Ralph Manheim and R.F.C. Hull (Hereafter cited as Freud / Jung Letters) (Princeton: Princeton University Press, 1974), p. 456. Letter from Ernest Jones to Max Schur, Oct.6, 1955 (Jones archives).
يتردد صدى هذا الرابط لجونز في تعاليم فرويد نفسه إذ كتب فرويد على سبيل المثال «إن الإحجام عن النشاط الجنسي في مجتمع يرافقه ازدياد القلق على الحياة والخوف من الموت...».
«Civilized Sexual Morality and Modern Nervous Illness», Standard Edition, Vol. 9, p. 203.

(16) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», Standard Edition, Vol. 3, p. 277.

(17) «Civilized Sexual Morality and Modern Nervous Illness», p. 194.

(18) The Origins of Psychoanalysis, p. 277.
كتب فرويد عام 1894 أن «الليبدو كُبت لزمن طويل.»
Quoted in Schur, Freud, p. 48.

(19) Interviews with Esti Freud, Apr. 30 and Aug. 27, 1966. For confirmation of Freud's early celibacy, Cf. Freeman, Insights, p. 81.

(20) Minutes, Vol. II, P. 561.

(21) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 151.

(22) «Leonardo da Vinci», p. 101.

(23) «The Psychical Mechanism of Forgetfulness», Standard Edition, Vol. 3, pp.292-94. Cf. also «The Psychopathology of Everyday Life. P. 3.
أدين لمير سشيبارو لإشارته إلى اللوحات الجصية في أورفيتو والتي كانت جزءًا جوهريًا من حكاية فرويد، إذ لم تتعلق بالبعث والموت كذلك وإنما صورت أنماطا فحولية وذكورية استثنائية.

(24) «The Psychopathology of Everyday Life, p. 175.

(25) Minutes, Vol. II, P. 60-61.

(26) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 316.

(27) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 5.

(28) «Creative Writers and Day-Dreaming», Standard Edition, Vol. 9, p. 144.

(29) «On the Universal Tendency to Debasement in the Sphere of Love», pp. 188-89, 187.

(30) «Two Encyclopedia Articles», p. 252.

(31) «Civilization and Its Discontents», p. 79.

(32) «Observations on Transference – love», Standard Edition, Vol. 12, pp. 169-70.

(33) «Contributions to a Discussion on Masturbation», Standard Edition, Vol. 12, p. 252.

(34) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 325.

(35) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 214.

(36) «Leonardo da Vinci», p. 117.
(37) «New Introductory Lectures», pp.133-34.
(38) «Some Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality», Standard Edition, Vol. 18, p. 228.

4 ـ الحياة العائلية

(1) Martin Freud, Glory Reflected, p. 33.
(2) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 382.
(3) For this claim of Jones's cf. ibid., p. 387.
(4) Dictation from Ernest Freud to Ernest Jones, Nov.27, 1953 (Jones archives).
(5) Interview with Helene Deutsch, Sept. 18, 1965.
(6) «The interpretation of Dreams», Vol. 4 p. 239.
(7) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 180.
(8) Letter from Mathilda Freud Hollitscher to Ernest Jones, Mar.30, 1952 (Jones archives).
(9) Theodor Reik, «Years of Maturity», Psychoanalysis, Vol. 4 No.1 (1955), p. 72. Cf. also René Laforgue, «Personal Memories of Freud», in Freud As We Knew Him, ed. Ruitenbeek, p. 342.
(10) Interview with Mark Brunswick, Jan.25, 1966.
(11) Ibid., Cf. below, p. 331.
(12) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 209.
(13) Interview with Mark Brunswick, Jan.25, 1966.
(14) Interview with Eva Rosenfeld, Nov.3, 1966.
(15) Max Schur, «The Medical History of Sigmund Freud», p. 44.
(16) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 246.
(17) Ibid., Vol. I, P. 153,
لكن وفقًا لملاحظات جونز التي أخذها من مارتا فرويد، انتقلت مينا للعيش معهم في 1892.
(18) Judith Heller, «My Aunt, Minna Bernays» (Jones archives). Interviews with Esti Freud.
(19) Minutes, Vol. II, PP. 525, 527.
(20) Letters, p. 288.
(21) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Apr.24, 1952 (Jones archives).
(22) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 387. Cf. also letter of Marie Bonaparte to Ernest Jones, Dec. 10, 1953 (Jones archives).

(23) Martin Freud, Glory Reflected, p. 44.

(24) Interview with Kata Levy, July 20, 1965.

(25) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, pp.10, 25, 79.

(26) Bilinsky, «Freud and Jung», pp.39-43.

(27) Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 164.

(28) «The Uncanny», Standard Edition, Vol. 17, p. 237.

(29) Interview with Henry Murray, Nov. 10, 1965.

(30) Interview with Eva Rosenfeld, Nov.3, 1966.

(31) لاحظ هيتشمان مرة في بنطال فرويد انتصابًا بعد ساعة قضاها مع امرأة جميلة.
Letter from Edward Hitschmann to Ernest Jones, Mar.26, 1954 (Jones archives).

(32) Interview with Eva Rosenfeld, Sept. 1, 1965.

(33) Letter from Ernest Jones to Max Eitingon, Oct. 21, 1939 (Jones archives).

الفصل الثالث

علم الأحلام

1 - «الصراع من أجل الاعتراف»

إن لماضي الشخص أهمية خاصة بالنسبة لكاتب السير الذاتية والمحلل النفسي على السواء، إذ إن كليهما يشتركان في الاهتمام بإعادة صياغة التاريخ من أجل فهم أفضل للنفس البشرية. ورغم أن فرويد كان عادة ما يهتم بشكل كبير بكشف معاني حياته الأولى، إلا أنه من الخطأ التركيز فقط على استخلاص العناصر الذاتية في كل ما كتبه، لأنه بخلاف بحثه عن فهم النفس البشرية كان لديه التزام بالعلم إلى درجة الشغف. وقد اعتبر جان بول سارتر[1] أن اليهود بصفة خاصة قد تعلّموا ألا يصدِّقوا الحدس والتقمص العاطفي empathy بوصفهما ضربان من ضروب السحر والشعوذة التي لا مجال لها في النقاشات العقلانية، وبالتالي تضفي صفة الشرعية على التفرقة بين البشر، فهم يرون أنَّ الذكاء قدرة كونية متاحة بدرجات مختلفة للجميع.

لقد أعاق الفقر النسبي والرغبة في الزواج بمارتا مسيرة فرويد كعالم، مما دفع بعالم الفسيولوجيا إرنست بروك إلى توجيهه نحو الطب. (بعد سنوات تذكر فرويد اعتراض بروك على عدم التزامه بالمواعيد قائلًا: «لا أحد يستطيع أن يتذكر عيون ذاك الرجل العظيم التي احتفظت بجمالها الأخّاذ، حتى لمّا بلغ من العمر عتيًّا، ذلك الرجل الذي لم يكن يغضب البتة، وكان يجد صعوبة في تمثل انفعالاتي كفتى صغير مذنب»[2]. وفيما بعد، عُرف فرويد بين تلاميذه بالتزامه غير العادي بمواعيده، ولم تكن قدرته على الغضب ولا عيناه أقل إثارة للانتباه) لم يفكر يعقوب فرويد كثيرًا في مستقبل ابنه كطبيب، لأنه رغم تفوقه، كان يفزع من مشاهدة الدماء[3]. ويتذكر فرويد في سنة 1914 قائلًا: «أنا... لقد مارست مهنة الطب، ولم أكن أرغب في ذلك، إلا أني أشعر الآن بدافع قوي لمساعدة

أولئك الذين يعانون من الأمراض العصبية أو على الأقل لإيجاد تفسير لحالاتهم»[4].

بعد عقد من الزمن عقّب فرويد على اختياره لمهنة الطب، في دراسة حول سيرته الذاتية يقول: «لم أشعر قط لا في ذلك الوقت، ولا في أيّ وقت آخر من حياتي بميل خاص نحو مهنة الطب، بل دفعني إليها نوع من الفضول حيث كانت تستهويني الاهتمامات الإنسانية أكثر من الأشياء المادية»[5].

بعد سنوات من ذلك، تحدث فرويد مرة أخرى عن الدافع الذي يكمن وراء اختياره مهنة الطب، وكان، هذه المرة، دعم ممارسة التحليل النفسي من قبل محلِّلين غير طبيين: «بعد إحدى وأربعين سنة من ممارسة الطب تبيّن لي أنني لم أكن أبدًا طبيًا متمكّنا. فلم تكن تلك رغبتي منذ البداية، فلقد صرت طبيبًا مكرهًا، ويكمن أهم انتصار في حياتي في العودة إلى توجهي البدئي بعد رحلة طويلة وملتوية. لست أدري إن كان لي في طفولتي توقٌ لمساعدة البشرية المتألمة».

كان فرويد واعيًا تمامًا بتوازي المسارات رغم تناقضها. ويضيف، عند هذه النقطة بالذات، تفسيرًا لغياب أي «توق» في طفولته المبكرة «لمساعدة البشرية المتألمة» قائلًا: «لم يكن مزاجي السادي الفطري قوي جدًّا». وقد كتب، في هذا الصدد، كلمات لا بد أنها أدهشت القُرَّاء في سنة 1925:

> **«لذلك لم أكن مضطرًا لتنميته مما قد يقترن به من نوازع، فقد أحسست في شبابي برغبة جامحة لفهم طلاسم العالم الذي نعيش فيه، وربما المساهمة في تبديدها، لأجل ذلك سجلت في كلية الطب لأني كنت مقتنعًا أن الطب هو الأقدر على تحقيق تلك الغاية...»[6].**

تضمنت رسائله إلى مارتا خلال فترة الخطوبة في أيام بحثه الطبي الأولى دليلًا قاطعًا عما أسماه «النضالات من أجل الاعتراف»[7]. ولم يساهم اكتشافه العلمي المبكر في تطوير حياته المهنية فقط، ولكن سرّع في زواجه من مارتا أيضًا. فانتحب قائلًا: «من الصعب أن أجد مادة صالحة للنشر وما يحبطني أكثر أن أرى كيف يعمد الجميع مباشرة إلى الإرث غير المستغل من الأمراض العصبية»[8].

بدأ فرويد في سنة 1884 اختبار ما إذا كان الكوكايين – على نفسه وعلى مارتا وعلى أخواته وآخرين – يخفف من القلق والاكتئاب، وكتب «مقالًا يقترح فيه استخدام

الكوكايين في الطب»[9]. رغم عدم تسامحه مع المخدرات بشكل عام، إلا أن فرويد كان متحمسًا بشدة لهذا العمل حتى أنه لم يكن يعنيه كثيرًا الطابع الإدماني للكوكايين، وحينما اكتُشفت مخاطره الفعلية، لم يعزز استخدام فرويد السابق للكوكايين موقفه في الدوائر الطبية المتشددة في فيينا بل واجه بسبب ذلك كما جاء على لسانه، «انتقادات جدية»[10].

رغم أن فرويد هو من اكتشف استخدامات الكوكايين، إلا أنَّ من اشتهر بذلك لم يكن فرويد بل طبيب آخر، هو أحد أتباع فرويد من فيينا، ويدعى كارل كولار، إذ اكتشف أن الكوكايين يمكن أن يستخدم كمخدر موضعي في جراحة العيون. وبلا شك استفاد كارل من أبحاث فرويد السابقة حول الكوكايين، لكنه نال كل الشرف في اكتشاف أهمية الكوكايين في جراحة العيون، وهو مجال لم يخطر ببال فرويد. وإن اعتقد فرويد، آنذاك، أن إسهام كولار ليس إلا وجهًا من وجوه كثيرة محتملة لاستخدام الكوكايين، إلا أنه، في الواقع، أصبح الاستخدام العلاجي المحوري بالنسبة إليه[11].

رغم أن فرويد اعترف علنًا بفضل كولار، إلا أنه لا يمكن أن يلوم أحدًا عمَّا بدا له أنها فرصة ضائعة، وهذا مفهوم حتى وإن كانت فكرة خيالية. في الوقت الذي كان فيه فرويد مهتمًّا بالكوكايين، أراد أن يذهب لزيارة مارتا في برلين، فأتمَّ مقاله الأول حول الكوكايين بعجالة. ولكن جونز، في ما بعد ادعى أنه لم يتعجل الأمر[12]، معتبرًا أن فرويد أنهى مقاله بالتنبؤ بأنه يمكن استخدام الخاصية التخديرية للكوكايين في مجالات شتى. وكتب لاحقًا، في عام 1897 «إن التوقع الذي جاء في نهاية المقال، الذي يفيد بأن الكوكايين يصلح لإنتاج مخدر موضعي، سيعرف تطبيقات هامة وهو ما استطاع أن يثبته كولار Koller في تجاربه في تخدير القرنية»[13].

قام فرويد قبل أن يغادر في رحلة للقاء مارتا بتقديم اقتراح لليوبولد كوينشتاين Königstein، وهو طبيب عيون صديق، بأن يجرب تأثير الكوكايين على أمراض العيون، وقام كوينشتاين باستخدام محلول تجاري من بائع العقاقير يحتوي على نسبة عالية من الكحول، الشيء الذي حال دون بلوغ النتيجة المرجوة، بينما قام كولار بتركيب محلوله الخاص به وقد لاقى نجاحًا منقطع النظير، وأكسبه شهره عالمية[14]. كتب فرويد في عام 1899 قائلًا: «لقد أشرت إلى هذا المنتج شبه القلوي في مقالي الذي نُشر ولكني لم أكن دقيقًا بالشكل المطلوب في متابعة الموضوع»[15]. ذلك هو الأساس الذي دفع فرويد إلى أن يكتب سنة 1926 مستحضرًا ما مضى قائلًا: «لقد حالت خطيئتي دون شهرتي في

شبابي... ولكني لا أحمل أيّة ضغينة تجاهها بسبب ذلك»[16]. تُذكِّر هذه الواقعة بلوم فرويد لأبيه لـ«قصر نظره السخيّ» حينما لم ينصحه بجدِّية ضد التوجه إلى العلم حصرًا، إلا أن مارتا بالتحديد هي التي كانت سببًا في تفويت الفرصة عليه، لأنه اختار الطب فقط من أجل أن يتزوجها أساسًا.

غالبًا ما كان فرويد ينزعج من أن يستولي شخص آخر على إحدى اكتشافاته مبكرًا، فقد جاء عن ويتلز Wittels، مثلا، أنه حتى العام 1906 ظلت حادثة كولار عالقة في ذهن فرويد بقوة، حتى أن فرويد قال:

«لقد راودت كولار... فكرة إنجاز كشف غير مسبوق في ميدان طب العيون، وقد سعى لتطبيق كل ما يسمع ويقرأ في هذا المجال. وهذا ما يفسر شروع كولار، رغم أنه لا يملك أيّ قدرات تذكر، إلى تقطير بعض محلول الكوكايين في عينيه فور قراءة مقال فرويد... وبطريقة ميكانيكية جدًّا بدا لي تفسير الاكتشاف غير دقيق، ولم يصبح كولار طبيب عيون إلا بعد هذا الإنجاز، لأنه كان مهتمًّا قبل ذلك بدراسة الجراحة العامة...»[17].

في عام 1924 اعترض فرويد في رسالة إلى ويتلز على مقاربته لقصة الكوكايين قائلًا:

«سيتكوّن لدى القارئ انطباعٌ مختلفٌ عن موقفي مما قيل عنه أنه اكتشاف كولار، فما لا تعرفه حقًّا هو أن كوينشتاين (هو من عبَّر عن ندمه الشديد على عدم نيلي هذا الشرف وليس أنا) زعم أنه شارك في هذا الاكتشاف. إنَّ كلاهما حكَّماني أنا ويوليوس واغنر Julius Wagner في الأمر. وأعتقد أنه كان لنا الشرف إذ اتخذنا موقف الحريف المعارض. وفي حين صوَّت واغنر، كمندوب لكولار، لصالح ادعاء كوينشتاين، كنت على اقتناع تام بمنح الثقة لكولار فقط. لكني لا أذكر ما آل إليه الآمر»[18].

واستعاد هانز ساكس Hans Sachs مناقشة لفرويد حول موضوع الكوكايين، نسب فيها فرويد إلى كولار طريقة مشابهة لأسلوبه العقلي الفريد في هذا الاكتشاف حيث قال فرويد:

«كان من بين أصدقائي عندما كنت طبيبًا صغيرًا مقيمًا في المستشفى العام، وقد كان مهووسًا بفكرة إيجاد علاج جديد في طب العيون. وقد استولى الأمر على كل تفكيره حتى أن الأمر بات همّه الوحيد دائمًا كلما طُرحت مشكلة طبية للنقاش: هل

يمكن استخدامه في طب العيون؟ ولذلك أحيانًا ما يصاب بالهوس الأحادي. وذات يوم، بينما كنت واقفًا في الفناء مع مجموعة من الزملاء ومن بينهم هذا الشخص، مرّ بنا طبيب مقيم تبدو على محيّاه علامات الألم الشديد فاستوقفت قائلًا «أعتقد أنه بإمكاني مساعدتك». وذهبنا جمعيًا إلى غرفتي حيث أعطيته بعض قطرات دواء خففت ألمه على الفور. وشرحت لأصدقائي أن هذا العقار مستخرج من نبات ينمو في أميركا الجنوبية يسمى كوكا، وعلى ما يبدو يتميّز بمضادات قوية لتسكين الألم وأنا بصدد صياغة مقال عنه. لم يقل هذا الشخص الذي يهتم كثيرًا بطب العيون، والذي يدعى كولار أيّ شيء، ولكن بعدها بعدة أشهر علمت أنه أحدث ثورة في جراحة العيون باستخدام الكوكايين بإجراء عمليات بمنتهى السهولة كانت مستحيلة آنذاك. وعلى ما يبدو تتمثل الطريقة الوحيدة للقيام باكتشافات مهمة في تركيز التفكير حصريًّا على اهتمام واحد»[19].

في عام 1909 أو 1910، وقد يكون ذلك بمناسبة مقال صحفي حول اكتشاف كولار لاستخدامات الكوكايين في الجراحة، فسر فرويد لمريض تحليلي شاب كيف أن هذا الاكتشاف يعود إليه في الأصل وليس لكولار. وقد اعتبر فرويد، لاحقًا، قصة الكوكايين انتصارًا لا هزيمة، وأن الفضل في اكتشافه يعود إليه هو[20]. وقد أكد على أنه عندما نوّه بأهمية استخدام الكوكايين لكوينشتاين كان على وعي تام بعظمة الهدية التي قدّمها له. إلا أن كوينشتاين أفسد المسألة بكل بساطة[21]. ورغم أن كولار يستحق أن يُعترف له بهذا الاكتشاف، إلا أن فرويد زعم بأن الاكتشاف يعود إليه. وقد أصرَّ كولار، بدوره، على أنَّ عمل فرويد لم يؤثر على اكتشافه إطلاقًا[22].

بصرف النظر عن هذا السجال مع كولار، كان فرويد شديد الاعتراف بفضل أساتذته على تطور أفكاره. وحتى تكون أستاذًا رائعًا يجب أن تكون تلميذًا وفيًّا بشكل غير عادي، «فأن تُعلِّم أستاذًا قديمًا فذاك بالنسبة لفرويد، أقصى ما يتمنّاه المرء»[23]. ولطالما راود فرويد، حتى وهو في الأربعينيات من عمره، الحنين إلى الامتحانات القديمة في المعاهد، وقد تجلّى اعتراف فرويد بفضل أساتذته عليه في أن أطلق أسماءهم على أبنائه، وقال «قد أصررت أن أختار أسماءهم لا بحسب الأسماء الشائعة في ذلك العصر، ولكن إحياءً لذكرى أشخاص كنت معجبًا بهم. وتخليدًا لهم، وفوق كل ذلك أليس ذلك هو الطريق الوحيد لخلود أبنائي؟»[24]. إذ سمّى ابنه جين مارتن على اسم جين مارتن شاركو، وإرنست على اسم إرنست بروك، وماتيلدا على اسم زوجة جوزيف بروير، وآنا على اسم ابنة أستاذ

درّس في مدرسته قديمًا. وفي سنة 1920 سمّى أحد أحفاده على اسم تلميذ نجيب تألّم لوفاته، وكان زملاؤه يعترفون أيضًا بفضل أساتذتهم عليهم بإعطاء أسمائهم لأبنائهم.

فسّر جونز ببراعة ميل فرويد إلى عبادة البطل كإسقاط لإحساسه الباطني بالقدرة والتفوق على سلسلة من الأساتذة الذين كان بعضهم سببًا في رسوخ قدميه في العلم. وإزاء هذا الميل لإضفاء صفات الكمال على الناس، كان فرويد حسّاسًا بشأن تبعيّته أو «تقييد حريته... فالحرية والاستقلالية هما إكسير الحياة بالنسبة إليه»[25]. فما لا يمكن إنكاره هو أن فرويد كان حسّاسًا إزاء المعاونين، بقدر حاجته إليهم وخشيته من فقدهم. وقد ورد في فقرة أسقطت لاحقًا من كتاب علم الأمراض النفسية للحياة اليومية **Psychopathology of Everyday Life** قوله:

> **«ما من أفكار أشعر نحوها بعداء شديد مثل أن يكون المرء في حماية شخص آخر... دور الطفل المدلل لا يتناسب مع شخصيّتي كثيرًا، فدائمًا ما شعرت برغبة غير عادية في أن أكون رجلًا قويًّا مستقلًا بذاته».**

بيد أن فرويد كتب يقول أيضًا: «في شبابي كنت أتسلى بخيال إنقاذ نفسي» عن طريق شخص خيّر قوي. إلا أنه، في الآن ذاته، كما يقول: «كنت أشتاق إلى راعٍ أو حامٍ متسامح مع كبريائي... في حياتي الواعية كنت أقاوم بشدة فكرة التبعية إلى شخصٍ يحميني و... وجدت أنه من الصعب التسامح مع بعض الوضعيات الواقعية التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل»[26]. ومع خلفيته الأسرية تلك، أراد فرويد أن يخلق ذاته وأن يقوم مقام أبيه، وأن يكون محل رعاية، إلا أنه كان يرغب، في الوقت نفسه، أن يكون مستقلًا بذاته.

كان فرويد واضحًا في ما يخص الدور الهائل الذي لعبه بعض الأقارب في حياته. فعلى امتداد أربعة أشهر ونصف ما بين 1885 و1886، أثناء تكوينه في ميدان الطب العصبي، درس فرويد مع شاركو Charcot، ويتذكر ذلك قائلًا: «كنت دائمًا أجوب الشوارع، وحيدًا، تملأ كياني الأشواق، في حاجة شديدة لمن يعينني ويرعاني، حتى قابلت شاركو الرائع الذي اصطحبني معه إلى حلقته»[27]. في عام 1899، اعتبر فرويد نفسه «تلميذ بروك» و«تلميذ شاركو»[28]. ورغم ذلك من الصعب المغالاة في تقدير التماهي بين فرويد وشاركو. وكما كتب فرويد نفسه في تقرير لكلية الطب في جامعة فيينا بعد رحلته إلى باريس: «شاركو رجل عظيم»، كما قال أيضًا أنه غادر باريس وهو «يحدوه إعجاب لشاركو منقطع النظير»[29]. وكتب بعد ذلك بفترة يقول إنه ما يزال يحتفظ بـ«ذكرى صوت ونظرات الأستاذ»[30]. وظل

فرويد يحتفظ بصورة فوتوغرافية لهذا «الحكيم» (موقّعة ومهداة من شاركو بطلب من فرويد) على حائطه مكتوب عليها «لم يؤثر عليّ أحد قط بهذه الطريقة»[31].

كانت خصال شاركو تثير إعجاب فرويد، وهي الخصال ذاتها التي تتلاءم مع تصوره لذاته والتي طالما تطّلع إليها. لقد كان شاركو «يمتلك إحساس أولئك الذين يعتقدون أنهم يحملون عصا المشير في حقائب ظهورهم»[32]. لقد كان لقاء فرويد بشاركو «المكتشف ذائع الصيت» علامة فارقة في مسيرة فرويد المهنية. وفي مقال تعاطف فيه مع شاركو، اعتبر فرويد – وهو نفسه يوظف الصور التوضيحية – أن أشد ما يعجبه في أستاذه السابق هو «فصاحته وشفافيته ومرونة تعبيراته».

لم يكن شخصًا متأملًا أو مفكرًا: لقد كان فنانًا، وكان – كما يقول – «ثاقب النظر». كما كان شخصًا متبصرًا... وسُمع عنه يقول بأن أعظم رضا يمكن أن يبلغه المرء هو أن يكتشف شيئًا جديدًا – ذاك الذي نعترف به على أنه جديد...

تذكّر فرويد اعتراضه على أحد اختراعات شاركو العيادية قائلًا «هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا لأنه يناقض نظرية يونغ–هيلمهولتز»، بيد أن شاركو لم يرد عليه. «لا يهم بالنسبة للنظرية... أن الوقائع العيادية تأتي أولًا»، أو كلمات بهذا المعنى، لكن شاركو قال شيئًا كان له الوقع الطيّب في نفس فرويد الذي ظل يردده طوال حياته: «النظرية، مفيدة، ولكنها لا تمنع الأشياء من الحدوث»، فشاركو «لم يكلّ يومًا عن الدفاع عن حقوق العمل العيادي الخالص الذي يتمثل في النظر إلى الأشياء وترتيبها ضد تجاوزات الطب النظري»[33]. وقال فرويد أنه تعلم «الإحجام عن الميول التأملية، باتباع نصيحة أستاذي شاركو التي لا تنسى: أن ننظر إلى الأشياء نفسها مرارًا وتكرارًا حتى تفصح عن مكنونها»[34]، ووفقًا لفرويد، سُرَّ شاركو (مثل فرويد في أواخر سنوات حياته) «بأمانة بنجاحه الباهر واغتبط لذلك، واعتاد أن يستمتع بالحديث عن بداياته وعن الطريق الذي قطعه»[35].

كان شاركو «جذابًا بالمعنى الإيجابي للكلمة» (كما كان فرويد لاحقًا)، وقد ترك خلفه «جمهرة من التلاميذ». وكان شاركو يرحب بتلاميذه كأنهم أفراد عائلته، وظل «وفيًّا لهم طوال حياته». ومن خلال «ما يقدمه لتلاميذه من توضيحات مفصّلة لعمليات تفكيره، ومن خلال صراحته الشديدة بشأن شكوكه وتردده، كان يسعى إلى جَسر الهوة بين الأستاذ والتلميذ». ويوجد بينه وبين فرويد تشابه أيضًا يتمثّل في أن لشاركو «ابنة قدراتها فائقة، اقتفت أثر والدها...»[36].

تكمن أصالة شاركو في احترامه العلمي لأولئك الذين يشتكون من الأمراض العصبية. ففي أوروبا الوسطى، في ذلك الوقت، امتدت المعرَّة التي تلحق بالاضطرابات العصبية» لتشمل لا فقط المرضى ولكن المعالجين الذين يهتمون بالاضطرابات العصبية أيضًا»[37]. وكما كان شاركو معالجًا عظيمًا وصديقًا أيضًا، فإنه لم يكن كذلك متشائمًا في توقعاته بشأن آفاق العلاج»[38]. إذ أكد شاركو على دور الوراثة كسبب للاضطرابات العصبية مقلّلًا من أهمية العامل الذي اعتبره فرويد في ذلك الوقت سبب المرض - مرض الزهري لدى الآباء. إلا أنه، مع ذلك، حاول تشكيل ظواهر عيادية عقلانية قابلة للفهم ظلت مجهولة من قبل الآخرين حتى ذلك الوقت.

انتبه شاركو إلى أنه يمكن، عن طريق التنويم المغناطيسي، إثارة أعراض كانت تبدو في الأصل عضوية بشكل خالص. وقد عزى ذلك إلى «الانتظام والقانون... [في حين] ردّها آخرون إلى التمارض فقط أو عدم الالتزام الصارم بالقواعد»[39]. وحتم هذا استدعاء الجانب العلمي في فرويد، فقد بدأ في ترجمة أحد كتب شاركو للألمانية قبل أن يعترف لاحقًا «لقد انتهكت حقوق الطبع والنشر، حيث أضفت بعض الملاحظات إلى الكتب التي ترجمتها دون أن أستأذن في ذلك المؤلف. إلا أني، بعد سنوات، ساورني شك بأن هذا التصرف الذي أتيته من تلقاء نفسي لم يرق للمؤلف»[40].

لم يُلهم شاركو فرويد فقط ولكن مدرسة بكاملها من التلاميذ الفرنسيين. كان من أبرزهم بيير جانيه Pierre Janet[41]. فبينما انغمس شاركو في العمل العيادي في المستشفى الخاص به سالبتريار الشهير Salpêtrière، ركز جانيه على العمل المخبري أكثر من الاهتمامات العيادية. وفي حين كان عمل شاركو أشبه بـ«المطبخ المليء بالحركة والضوضاء والروائح والفرقعات والأشياء المثيرة مثله مثل سالبتريار ذاته، كان عمل جانيه أنيقًا ومرتبًا أشبه ما يكون بمخزن مجهز بشكل جيّد وكل شيء فيه معلّب»[42]. ومع ذلك كان لدى جانيه بُعد نظر حينما اتبع منهج شاركو في الفهم السيكولوجي للأعراض المرضية العقلية وخاصة حالات الانفصام («تعدد الشخصيات»). وبالفعل يبدو جانيه مُحدِثًا وبَعد - فرويدي، في تأكيده على الدور الذي قد يلعبه ضعف قدرات الاندماج العليا لدى الشخص في ردود أفعال أكثر بدائية وتدنيًا[43].

لكن رغم هذا التشديد على سيرورات الأنا، لم ينتبه جانيه إلى دور الصراع النفسي في المرض العقلي بالشكل المطلوب، كما فعل فرويد، ولا إلى الطريقة التي يمكن أن يكون

بها حتى العقل «السويّ» في تنافر دائم مع نفسه. ومع ذلك يمكن القول بأن عمل جانيه ظل قريبًا من عمل فرويد، حتى أنه في السنوات الأخيرة اللاحقة اشتدت المنافسة بينهما بحدّة أكثر. ومن أسباب تفضيل فرويد لمصطلح «اللاوعي» على مصطلح «اللاشعور» كان استخدام جانيه لهذا المصطلح. في العام 1917 أعلن فرويد احترامه له واعترف بأنه «أولى بالنشر»، وبالرغم من أن جانيه لم ينتهج مسلك فرويد، فقد تعذر على فرويد «فهم كتاباته» [44]. وفي عام 1911 بلغ فرويد أن جانيه قد «قام بمحاولة جدية لقراءة كتبه إلا أنه تعذر عليه ذلك» [45]. وفي عام 1920 أعلن جانيه صراحة بأن فرويد سرق أفكاره واكتفى فقط بتغيير المصطلحات. وكتب فرويد: «قرأت أني انتهزت زيارتي إلى باريس لأتعرف على نظريات بيير جانيه ثم هربت بالغنيمة» [46]. وقد استاء فرويد وعلق على ذلك قائلًا: «لقد اتهمني الكتّاب الفرنسيون وشهَّروا بي معتقدين بأنني سرقت أفكار جانيه بعدما استمعت لمحاضراته»[47]. فبحسب فرويد الأمر مختلف تمامًا حيث يقول: «لقد عاملت جانيه باحترام... ولكن... هذا الأخير أساء التصرف معي وأبدى تجاهلًا للوقائع واستخدم حججًا قبيحة»[48].

2 - الأستاذ القديم: جوزيف بروير

لم يكن لجانيه، من وجهة نظر فرويد، بخلاف أستاذهما شاركو، تأثيرٌ عليه فلقد صار، ببساطة، معارضًا للتحليل النفسي. لكن جوزيف بروير كان أستاذًا وصديقًا حميميًا لفرويد، وقد أثر على توجهه الفكري، كما أثر عليه شاركو إن لم يكن أكثر. ولعب بالتأكيد دورًا شخصيًا جدًا في حياته. وكان بروير طبيبًا، ذا خبرة هائلة في الطب الباطني، يعيش في فيينا، متمكنًا في علمه، اكتشف وظيفة متاهة الأذن والآلية التي تتحكم في التنفس الطبيعي (قانون بروير–هيرينغ)»[1].

أثناء معالجة مريض ما بين 1880 و1882 (قبل نشر الكتاب الأول لجانيه)، وكان مريضًا بارعًا، اكتشف بروير أن الأعراض المرضية لبعض المرضى العصبيين لم تكن فاقدة للمعنى بل على العكس تمامًا كانت ذات معنى. فقد طبّق بروير إجراء التحقق من تاريخ كل عرض حيث بدا ذلك عاملًا مساعدًا على التخفيف من معاناة السيدة التي كان يعالجها (بحسب حالتها التاريخية، اسمها آنا آو Anna O)، وكما قالها فرويد: «لقد تعلم بروير من أول مريض نفسي عاينه أن محاولة الكشف عن سبب الأعراض، هي، في الآن

ذاته، مهمة علاجية». ولم يبحث بروير في هذا التسلسل من الأفكار أكثر من ذلك، ولكنه قام بالاشتراك مع فرويد باستقصاء أوسع بحيث كما يقول: «نأخذ كل عرض منفصل ونتقصى عن الظروف التي ظهر فيها للمرة الأولى...»[2]. وبالتالي «ينضاف اكتشاف بروير إلى اكتشاف شاركو، أو ربما يمكن اعتباره يذهب في اتجاه معاكس لاكتشاف شاركو. فبينما بيّن شاركو ذلك عن طريق بث أفكار مناسبة تنتج عنها أعراض هستيرية، بيّن بروير أن الأعراض الهستيرية تختفي بمجرد إخراج الفكرة التي سببت المرض من اللاوعي»[3].

كان بروير مرشد فرويد وعضده الأكبر لمدة تزيد عن عشر سنوات، فقد كان يقرضه المال ويحيل إليه المرضى، وكان بشكل عام حريصًا على حياة ربيبه المهنية. وقد اعترف فرويد بأن الرجل العجوز كان شديد الاهتمام برفاهه، وعندما وجه فرويد اهتمامه لاكتشاف دور الجنس في أصول الأمراض العصبية، ذكر في رسالة «قد يتبادر إلى ذهن بروير أني آذيت نفسي كثيرًا»[4]. وحاول فرويد أن يرد الجميل لبروير بإقناعه أن ينشر أبحاثهما وأن يهدي رسالته حول فقدان القدرة على الكلام إلى أستاذه.

من الملاحظ أن فرويد تأخر في الاعتراف بالفرق الحقيقي بين وجهة نظر بروير ووجهة نظره، فقد اتضح أن فرويد كان مجازفًا ومترددًا كمكتشف علمي. في العام 1896 كتب فرويد في مقال له أنه يدين بـ«نتائجه لطريقة جديدة في التحليل النفسي، وهي إجراء بروير الاستكشافي...»[5]. وظل فرويد يعطي أولوية لبروير في التحليل النفسي بالرغم من أن بروير قد يكون نأى بنفسه عن نتائج ما أسماه فرويد «التحليل النفسي». وحتى بعد انفصالهما على المستوى الشخصي، كتب فرويد عن نفسه بصيغة الغائب في عام 1903 يقول: «كنتيجة لاقتراح شخصي من بروير، أحيا فرويد هذا الإجراء (الذي استخدمه مع آنا آو Anna O) واختبره على عدد لا يستهان به من المرضى»[6].

بدا عمل فرويد باهرًا جدًّا بالنسبة إليه حتى أنه آثر ألا يتولى مسؤولية كاملة، لفترة معينة، وظل يتخفى خلف اسم بروير حتى يحمي نفسه، وإلى حدود العام 1909، أطنب فرويد في محاضراته في جامعة كلارك في أميركا (حيث تسلم هناك درجته الفخرية) في اعترافه بفضل بروير عليه حيث قال: «لا شك أني أدين بهذا التكريم لارتباط اسمي بالتحليل النفسي... ولكن رغم أهمية هذا الاكتشاف، فإن الفضل في ذلك لا يعود لي»[7]. في عام 1914 بعد خسارته لتلاميذه أدلر Edler وستيكل Stekel ويونغ Young أحال فرويد بشكل مختلف على بروير في محاضرات جامعة كلارك كما جاء على لسانه: «أعرب لي بعض

أصدقائي من ذوي النوايا الحسنة عن انزعاجهم لمبالغتي في اعترافي بالجميل لبروير في تلك المناسبة»[8]. وفي عام 1914 شعر بذلك بأنه قادر على الاضطلاع «بمسؤولية علم النفس التحليلي بشكل كامل»[9]. إلا أنه، ومع ذلك، ظل يحترم بروير، وفي منتصف الحرب العالمية الأولى أعرب عن تشبثه ببروير قائلًا: «أوافق بروير في تأكيده على أنه في كل مره نواجه عرضًا، يمكن أن نستنتج أن هناك سيرورات محددة في اللاشعور الخاص بالمريض تنطوي على معنى العرض»[10].

دبَّت الاختلافات بين بروير وفرويد وتنامت بشكل كبير، فقد كان فرويد متشوقًا لأن يكتشف بشكل شامل أصل وفصل هذا النوع الجديد من التفكير، في حين ردَّ بروير وآخرون الدور الذي قد يلعبه العامل الجنسي، أحيانًا، في الأمراض العصبية، إلى فرويد حصرًا. واعترض فرويد لاحقًا على تلك الفكرة قائلًا: «لقد حمَّلوني المسؤولية رغم أنها لم تصدر عني البتة». ولكنه كشف بذلك عن اختلاف:

«فشيء أن نعبّر عن الفكرة مرة أو مرتين في شكل لمحة عابرة، وشيء آخر تمامًا أن نقولها بشكل جدّي - لنأخذها بشكل حرفي ونتبعها في مواجهة كل التفاصيل المتناقضة ولتكسب مكانة وسط الحقائق المقبولة»[11].

خلص فرويد إلى أن المرضى يصبحون مرضى عندما لا يتقبّلون بعض الوجوه من حياتهم الماضية، بينما عزى بروير سبب المرض لما أسماه «حالات التنويم المغناطيسي» (التي فيها تأخذ تجارب أخرى غير استثنائية أهمية خاصة)، فإن فرويد، رغم أنه كان عالم نفس متمكنًا، كان «يميل إلى الشك في وجود تفاعل بين القوى وعملية النوايا والمقاصد كتلك التي نلاحظها في الحياة العادية»[12]، إلا أنهما يتفقان حول الهدف العلاجي من تخفيف الذكريات التي يمكن إظهارها تحت تأثير التنويم المغناطيسي والتي إذا ما تم تذكّرها جيّدًا والاعتراف بها بطريقة صريحة (منهج «التنفيس» Catharsis) يكون لها أثر علاجي.

لا يبدو أي خلاف فكري بينهما كافيًا لتفسير «التصدّع» الأخير في العلاقة بين فرويد وبروير[13]. في العام 1914 تخلى فرويد عن طريقته في التعبير عن امتنانه لبروير إذ لم تعد بينهما خلافات حول أسبقية الاكتشاف العلمي. فعلى سبيل المثال، في مؤلفهما المشترك قُدم مصطلح «تحويل» كتعبير عن الأعراض النفسية بوصفها «تمثل توظيفًا غير طبيعي لكميات من المثيرات لم يتم تصريفها ...».

«عندما يشير بروير إلى عملية «التحويل»، في مساهماته النظرية، في دراسات عن

الهستيريا (1895) كان دائمًا يضيف اسمي بين قوسين بعدها، كما لو كنت سبّاقًا في المحاولة الأولى للتقييم النظري. أعتقد أن هذا التمييز بالفعل يتوقف فعلًا عند الاسم لا غير، وأن هذا التصور تأتّى لنا معًا في آن واحد»[14].

وفقًا لرأي محرر ومترجم فرويد جيمس ستراشي Strache: «هناك على ما يبدو خطأ هنا. فطيلة مسار مساهمة بروير استخدم مصطلح «التحويل» (أو أحد مشتقاته) خمس عشرة مرة على الأقل. غير أنه في مرة واحدة فقط (المرة الأولى التي استخدمه فيها) أضاف اسم فرويد بعدها بين قوسين»[15].

أيًا كانت مصادر الفجوة بينهما، ومهما كان الدور الذي قد تكون لعبته الأسباب العلمية التي أدت إلى القطيعة بين فرويد وبروير، فقد تحوّل إعجاب فرويد ببروير إلى بغض شديد (قدر كبير من هذه الشحناء لم يكن معروفًا للجمهور ولكن بعض المواد المتعلقة بهذا الموضوع أصبحت متاحة مؤخرًا)[16].

لقد كان موقف فرويد من بروير ومن مارتا عندما مرت خطبتهم ببعض المشكلات هو نفسه، ولأن بروير لم يوافق فرويد بشكل كلي في أبحاثه الجديدة، فقد أصبح عدوًّا لفرويد أو خصمًا له. وفي ظل تلك الظروف الجديدة أراد فرويد أن يرد المال الذي كان يدين به لبروير، إلا أن بروير رفض ذلك فاستاء فرويد أكثر من تبعيته لأستاذه في بداية حياته. وقد وردت في علم نفس الحياة اليومية، إشارة صغيرة مقنعة للتغيّر الذي طرأ على علاقته بأسرة بروير عندما تحدث فرويد عن «عائلة م» قائلًا:

«لقد أضحى التنائي بديلًا عن تدانينا وحميميته... حتى عوّدت نفسي على... تجنب الجيران والبيت أيضًا... كما لو كانت أرض محرمة... مَثّل المال أحد [«أعظم سبب» في بعض الطبعات] أسباب اعتزالي للعائلة التي تسكن المبنى»[17].

تساءل أوتو رانك Otto Rank عما إذا كان التأثير الدراماتيكي لموت أبيه في عام 1896 والماضي الذي أثاره، قد لا يكون تضليلا ذاتيًا ولو جزئيًا، ولكن كان تهربًا ارتكاسيًّا من صراع في الحاضر – إنكارًا لأهمية القطيعة بينه وبين بروير التي بدأت تطفو على السطح.

تحدَّث فرويد في ما بعد في نطاق علاقاته الخاصة بازدراء عن بروير بسبب جبنه المزعوم في مواجهة الاكتشافات الجديدة للتحليل النفسي[18]، بيد أن تلميذًا مثل فرويد ما كان له لينفصل بسهولة عن شخص مثالي مثل بروير تمامًا مثلما لم يكن على استعداد أن

يترك مجموعة خاصة من تلاميذه، ولم يتوقف فرويد في كتاباته أبدًا عن الاعتراف بفضل بروير عليه. من ذلك مثلًا قوله: «من الطبيعي أن أكون قد اكتسبت الشيء الكثير من هذه العلاقة إلا أن تطوير التحليل النفسي لاحقًا كلفني صداقته وذاك ثمن لم يكن يسيرًا علي دفعه. ولكن ما كان لي أن أتفاداه»[19]. لسوء الحظ لم يكن لبروير المسافة الكافية ليدرك «الطبيعة الكلية» للظواهر غير المتوقعة التي واجهها في حالة آنا آو، ومن الواضح أن هذه المريضة تطوّر لديها تعلق جنسي شديد ببروير الذي انزعج لمثل تلك التوقعات[20]، ومن ناحية أخرى أدرك فرويد بلطف أن بروير: «اصطدم بشيء لم يكن غائبًا البتة ألا وهو «تحويل» المريضة إلى طبيبها...»[21].

اكتشف فرويد أن كل مريض يأتي للعلاج النفسي يحمل في ذاته عالمًا داخليًا من العلاقات الماضية، والمحلل النفسي يثير في نفس المريض طوعًا أو كرهًا مشاعر في منتهى الشدة، ولكن يَفهم المريض شخصية الطبيب بناءً على ماضيه. وهذا ما اضطر بروير، حسب فرويد، إلى التملص من العلاج المتبقي لآنا آو، لأنه «لم يتبين الطبيعة غير الشخصية لعملية التحويل تلك» في العلاج، وبالتالي لم تكن آنا آو تستجيب لبروير تحديدًا بقدر ما كانت تستجيب لمن تراه في بروير من شخصيات أخرى مهمة في حياتها. وتتمثل استراتيجية فرويد العلاجية في تفسير التحويلات حتى يتحرر المريض من ماضيه.

عندما توفي بروير نعاه فرويد بحرارة، إذ كتب في تأبينه أنه كان «سخيًا جدًا مع الجميع»، ورغم أنه كان يكبره بأربعة عشر عامًا إلا أن فرويد اعتبره «خير صديق وخير سند». وأشار إلى أنه خلال فترة تعاونهما كان «بروير خاضعًا لتأثيره»[22]. وعن هذا التأبين قال فرويد ذات مرة لتلميذه كارل أبراهام «كانت بيني وبين عائلته رسائل ودية، ولأجل ذلك كانت نهاية علاقاتي المصيرية معه في كنف الاحترام»[23]، ولكن لا ينبغي أن تطغى سماحة فرويد على إحساسه بالخيانة. وتذكُر زوجة ابن بروير أنها لما كانت تساعد بروير على المشي، وهو رجل مسن، فجأة رأى فرويد يتجه صوبه مباشرة، وبتلقائية فتح ذراعيه ليحتضنه، إلا أن فرويد مرَّ به دون أن يعبأ به، متظاهرًا أنه لم يره، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق الأسى الذي خلَّفته القطيعة بين الرجلين في نفس فرويد[24].

عندما كان فرويد منسجمًا جدًا مع بروير، وقد تأثر بشدة بتقرير أستاذه حول حالة آنا آو، فقد شعر بأن من واجبه أن ينكر أفكار جانبه بغض النظر عن التشابه الكبير بين الرجلين في صياغة الأفكار، وسجلت طريقة المعالجة التي بدأ يطبقها فرويد في عمله مع بروير،

بداية جوانب متميزة في العلاج بالتحليل النفسي. وفي أوائل عام 1895 كان فرويد يتحدث عن «النظرية الفرويدية»، في حين أن مصطلح «التحليل النفسي» ظهر لأول مرة في مقال لفرويد عام 1896[25]، ولكن تغيّر ما تعنيه النظرية الفرويدية ومما يتكوَّن التحليل النفسي أيضًا بشكل كبير على مر السنين.

بدأ فرويد يعالج الاضطرابات الهستيرية التي لا تخضع لأي نمط تشريحي. فالتنويم المغناطيسي الذي اعتمده فرويد وبروير يقوم على اعتبار أن المشكلة الأصلية تتعلق بعاطفة أو مشاعر مكبوتة لم يكن يدركها العقل الواعي للمريض. ومن خلال الانتباه إلى سيرورة الأعراض يستطيع المحلل أن يحل المشكلة عن طريق الذكريات التي يوقظها، وبالرغم مما جاء في تعليقات فرويد في كبر سنه من اعتراف بفقده لـ«مزاجه الطبي الأصيل» بصفة جذرية، فإن المؤشرات في بداية حياته المهنية تؤكد على أنه كان يعنيه نجاح العلاج بدرجة كبيرة جدًّا، والثابت أنه ظل يستعمل مصطلحات مثل «ملاحظ» و«ملاحظات» بدلًا من «مساعد» و«شفاء»، طوال حياته المهنية، حتى أنه يهتم أكثر بالتفاصيل التي تتعلق بمسارات أعراض مرضاه على امتداد حياتهم الماضية، وقد عزّز هذا الاهتمام قدرًا من الفضول العلمي.

وجد فرويد في بداية الأمر أن التنويم المغناطيسي أفضل تقنية لمعالجة الأمراض العصابية، وبدا دور المنوِّم بالنسبة له دور ساحر:

> **أيّ شخص لديه خبرات شخصية في التنويم المغناطيسي سيتذكر الانطباع الذي يتركه التنويم المغناطيسي في نفسه عندما مارس أول مرة ما كان له حتى ذلك الحين تأثيرٌ غير متوقع على الحياة النفسية لشخص آخر، بحيث يصبح قادرًا على أن يُجرّب على العقل البشري ما لم يكن ممكنًا، بداهة، إلا على جسد حيوان[26].**

كتب فرويد عن العمل بالرغم من «اعتراضات» مرضاه إذ حاول كشف تضليلهم لذواتهم، وفي تقدير فرويد «لا يجب السماح للتناقض مهما كان» في التنويم المغناطيسي[27]، ومن خلال القوة الخاصة للإيحاء - «وهو إنكار قوي لما يشتكيه المريض من اضطرابات أو تأكيد على أنه يستطيع أن يقوم بشيء ما أو أنه ملزم بتأديته»[28] - يمكن تحقيق تحسن في العلاج. ومن وجهة نظر المحلّل «من خلال استرجاع علاجات كثيرة ناتجة عن التنويم المغناطيسي سوف يوصل سلوكه إلى مرضاه، وهي حقيقة لا يمكن أن تفشل في توقع نجاح آخر في العلاج في داخلهم أيضًا»[29]، وقد بدا التنويم المغناطيسي بالنسبة لفرويد في فترة ما نعمة، سواء في ميدان البحث العلمي أو العلاج العيادي.

مع بداية عام 1890 لم يعد فرويد متحمسًا للتنويم المغناطيسي بسبب شيء واحد وهو أن العنصر الإيحائي فيه – رغم أنه «أكثر جاذبية بشكل لا يقبل المقارنة من الممنوعات الإلزامية الرتيبة التي تستخدم في العلاج بالإيحاء البحت»[30] – غير مرغوب فيه أو يكاد من جهة البحث. وقد أدرك فرويد بالفعل أن الهدف العلاجي المثالي هو التغلب ليس فقط على الأعراض المؤلمة ولكن على السيرورات المرضية ذاتها. ويتطلب الاستخدام الناجح للتنويم المغناطيسي من وجهة نظر فرويد: «الحماس والصبر واليقين الشديد وزخم الحيل والإلهامات»[31]، ولكن لمّا أدرك فرويد أنه من الصعب الحفاظ على هذا المستوى من الالتزام بهذه التقنية، استنتج أن التنويم المغناطيسي «حليف يخضع للمزاج، وهو إن شئنا غامض»[32]. ومن ثم أصبح التنويم المغناطيسي «على المدى البعيد رتيبًا»[33]، بالإضافة إلى أنه يعمد إلى استبعاد شعور المريض بالاعتماد على نفسه.

يصف فرويد نفسه في هذه الفترة من الدفق الإبداعي بأنه «مدفوع للأمام بالضرورة العملية قبل أي شيء»[34]. وعندما يتصفح المرء سجلات الحالات التي عالجها في ذلك الوقت، يتبيّن على ما يبدو أنه أجرى تغيّرات فعلية مستفيدًا من تطور خبرته العيادية. وقد جاء تفسيره لتبنيه طريقة التداعي الحر، مثلًا، مؤثرًا في بساطته. ولما أبدت مريضة مقاومة شديدة لتدخل فرويد في تدفق المادة العيادية، قال: «أعتقد الآن أني لم استفد من هذه المقاطعة ولا أستطيع أن أتجنب الاستماع إلى قصصها في أدق تفاصيلها إلى النهاية». وفي موضع آخر قالت المريضة نفسها «بنبرة فيها تذمر، ما كان ينبغي عليّ أن أظل أسألها من أين لك هذا أو ذاك، بل كان عليّ أن أتركها تخبرني هي بما لديها». «وقد حدث هذا بالصدفة...» كما قال فرويد[35]. ومن ثم أدرك فرويد أنّ عليه أن يكون أكثر صبرًا في العلاج وبدلًا من أن يشرع في الضغط على الأعراض بهدف التخلص منها، عليه أن يترك المريض يختار موضوع التحليل. كانت الأريكة العنصر المفيد المتبقي من استخدام فرويد للتنويم المغناطيسي لأنها تسمح لكل من المحلل والمريض بأن يسترخي فتتداعى أفكاره بحرية في استبعاد (على الأقل بالنسبة لفرويد) العناء الذيّ تفترضه المواجهات المباشرة وجهًا لوجه.

تبدو تقنية فرويد الجديدة للوهلة الأولى أقل توجيهًا مقارنة مع معظم طرق المعالجة الأخرى. وإذا كان يتعيّن حتمًا التركيز على عناصر التلاعب المتخفية بسهولة جدًّا في الموقف التحليلي، فإن موقف فرويد يتمثل في استحضار القوى العقلية لمرضاه، وبذل

الجهد لتحرير طاقاتهم من أجل المستقبل من خلال فهم ماضيهم. وفيما كان العلاج عن طريق التنويم المغناطيسي يعمل على: «إخفاء شيء ما في الحياة العقلية والتستر عليه»، يسعى التحليل إلى «فضح شيء ما والتخلص منه»[36]، أي أن الأول بمثابة تجميل والثاني بمثابة جراحة. وابتكر فرويد، بوصفه عصاميًّا، طريقة للعلاج تقوم على قدرة الفرد على تخطي حدود عالمه الخاص بطريقة عقلانية، ومن خلال التعرف على الذات لفظيًّا حتى يتسنى له الانفصال عن عواطفه بما يسمح له بسيادة حقيقة على ذاته. ومهما كانت المواقف الخارجية التي يمكن أن نواجهها، يمكن لنا على الأقل أن نستفيد منها مزيدًا من السيطرة على انفعالاتنا الداخلية.

3 - التحليل النفسي الذاتي

ربما كانت سنوات 1890 الأكثر تعقيدًا في حياة فرويد فقد شهدت هذه الفترة، على الأقل، شهادات كثيرة عن استيائه ومخاوفه واكتئابه. ولم تكن الغاية من إنشاء فرويد لعلم النفس التحليلي معالجة المرضى فقط ولكن من أجل أن يحلِّل نفسه أيضًا. وقد كانت عملية تحليل فرويد لنفسه تتم في نفس الوقت الذي يحلل فيه مرضاه حيث استفاد مما يكتشفه فيهم، وبالمثل استخدم ما استفاد منه في الاستبطان لمساعدة مرضاه العصابيين. كانت نظرية علم النفس التحليلي وممارستها بالنسبة لفرويد بمثابة أداة لإخفاء الذات واكتشافها بنفس القدر. واستطاع الفنان الساكن داخله أن يستخدم جميع خبراته الهائلة كقاعدة للتواصل مع البشر بشكل أوسع. وليس من عادة فرويد أن يخجل من وصف الجحيم الذي ضاقت به روحه. ففي تسعينيات القرن التاسع عشر، بدا وكأنه يعيش معاناة شديدة في أعماق ذاته، ذلك أنه لاحقًا وفي أكثر سنواته استقرارًا، أشفق على التلاميذ المبدعين غير المنظمين نسبيًّا وربما أظهر كذلك تعاطفًا خاصًّا مع ذاته المغمورة سابقًا ولكنها بأمان الآن.

لم تكن حدود فرويد بيّنة بالشكل الكافي في حياته اليومية حيث أنه كان يعمل في 1890 كفرد ضمن أسرة كبيرة. وبالرغم من أن تلاميذه شعروا لاحقًا بدفء في التعامل معه إلا أنه كان يبدو شخصًا منضبطًا للغاية. ولم يكن فرويد متحفظًا ومهابًا ومنعزلًا فقط بل كان أيضًا صلبًا ومستقلًا وشجاعًا. ببساطة، لم يكن ابنه الأكبر يتخيّل أن يراه غير مرتب الثياب، أو حتى بدون ربطة عنق.

عانى فرويد في منتصف عمره من التهاب في المسالك البولية، وهو ما يفسر كثرة تبوُّله أو سلسه (قد يتعلق الأمر بمشاكل في البروستاتا)[1]، بالإضافة إلى تشنج القولون الذي يعرضه إلى حركات غير منتظمة للأمعاء. وما نعلمه عن هذه المشكلة أكثر مما نعلمه عن مشاكله الأخرى، لأنه تحدث عنها بوضوح في رسائله[2]. فوفقًا لرأي أحد أطباء فرويد، الذي أصبح في ما بعد محللًا متخصصًا في الطب النفسي العضوي (سيكوسوماتي)، ليست أعراض القناة المعدية والأمعاء التي كانت تظهر على فرويد سوى انعكاسات منتظمة لتوتر داخلي[3].

عانى فرويد أيضًا من نوبات صداع نصفي لازمته طوال حياته، ورغم أنه اعتبرها كما جاء في رواية مشهورة له «خفيفة»، إلا أن جونز اعتبرها «حادّة»[4]. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر (1890)، عندما كتب فرويد لاحقًا عن المشكلة أكثر[5]، ربط بشكل رئيس نوبات الصداع النصفي بالحرمان الجنسي، وتزامن ذلك مع إنجاب فرويد وزوجته آخر أربعة أطفال من أطفالهم الستة قبل أن يقررا لاحقًا التوقف عن الإنجاب تمامًا، فلقد بدت العلاقة بين حياة فرويد الشخصية وعمله العلمي افتراضية في تلك الفترة. ولكن في تسعينيات القرن التاسع عشر (1890) كان فرويد منشغلًا بالكتابة عن عواقب «الجماع الناقص» حيث اعتبره «أحد أهم أسباب قلق العصاب»[6].

وليس ذلك بجديد فخلال تسعينيات القرن التاسع عشر التي عانى فيها فرويد مما أطلق عليه «عصاب القلق»، كان يخشى بشكل خاص على قلبه(•) ويؤرقه الموت وكان يتوجس من المواعيد التي يمكن أن تكون خطرة عليه بصفة خاصة. وظهر تيار من الرومانسية في أدب أوروبا الوسطى ركز على مشكلة الموت، ولكن في حالة فرويد ثَمَّة دوافع شخصية إضافية؛ فقد كانت «فكرة الموت والخوف منه وتمنّيه باستمرار تشغل بال فرويد منذ أن سمعنا عنها»[8].

وكما أن النشوة الجنسية كانت تساوي الموت في الأدب كما في الحكايات الشعبية المشهورة على حد سواء، فقد تكون موانع فرويد الجنسية على علاقة بالقلق بشأن قلبه.

(•) افترض ماكس شور مؤخرًا أن النوبة القلبية التي تعرَّض لها فرويد في تسعينيات القرن التاسع عشر، خلافًا لما اعتبره فرويد (وجونز)، على أنه أعراض نوع من العصاب النفسي. لمّا كان شور واعيًا «بمدى صعوبة الحصول على تشخيص صالح مختلف بعد خمس وسبعين سنة من الأحداث»، فقد يبدو ضروريًّا توفر رأي طبي إضافي يحسم الأمر حول مدى مصداقية التفسير السائد[7].

فعندما كتب فرويد عن فكرة الموت والجنس وعن وجهة نظر مريض لدى زميل له مفادها أن حياة بلا جنس لا معنى لها، شرح فرويد كيف أن «القلب نفسه، كعضو جسدي مريض» لعب دورًا في تداعياته وأفكاره[9]. منذ زمن ليس ببعيد كان فرويد مقتنعًا بأن الخوف العصبي من الموت يفسر دائمًا على أنه شعور بالذنب. ولكن اللافت للنظر أنه بقدر خوفه وقلقه من الموت، بقدر ما كانت شجاعته في تحمُّل معاناته الحقيقية نتيجة إصابته بسرطان الفك، ذلك الموت الذي تحمَّله بداخله بشجاعة وصبر طيلة الستة عشر عامًا الأخيرة من حياته.

اتخذ عصاب القلق لدى فرويد في بداياته أشكالًا عديدة مثل فوبيا الأماكن المفتوحة (عادة ما يكون أكثر شيوعًا بين النساء). فذات مرة، أثناء عبور إحدى الساحات مع تيودور رايك تردد فرويد وأمسك بذراع رايك وقال: «أترى! إني لم أتخلص بعد من فوبيا الأماكن المفتوحة وقد أزعجتني جدًّا في صغري؟»[10]. وقال فرويد أيضًا: «ما من غرض لفوبيا الأماكن المفتوحة أحيانًا غير منع المريض من لقاء العاهرات»[11]. وقد ناقش فرويد أيضًا فوبيا الأماكن المفتوحة في علاقة بفوبيا التنقل من مكان لآخر، وبالفعل تحدَّث كثير من الأشخاص عن قلق فرويد من السفر، حتى أنه كان يصل إلى المحطة مبكرًا، وينشغل بإحصاء أغراضه وحقائبه (في توافق مع مبدأ فرويد الذي يقول باتفاق المتناقضات، فقد كان مغرمًا بالسفر بشكل مبالغ فيه)، وذات مرة قال فرويد نفسه بأن رحلة عبر القطار ترمز إلى الانقطاع النهائي؛ من الموت[12]. ويعدّ بروز هذه المخاوف المفاجىء من الظروف الخاصة جزءًا من عصاب القلق، «ولكل فوبيا» في تقدير فرويد «تمظهرها النفسي». وفي تسعينيات القرن التاسع عشر (1890) افترض فرويد أن «سبب عصاب القلق الخصوصي» هو «تراكم التوتر الجنسي...»[13]. وبالرغم من أن هذه المشاكل تمنعه بشكل أساسي من القيام بعمله فقد لازمت فرويد فوبيا الأماكن المفتوحة التي عانى منها في بداية حياته، حتى في سنوات نضجه عندما كان يعمل في مكتبه بهدوء.

كان فرويد، كذلك، يدخِّن كثيرًا، وقد يكون هذا الإدمان على التدخين هو الذي ساهم في تفاقم مرض السرطان الذي أصابه في ما بعد، وحينما حاول الإقلاع عن التدخين تبيّن له أن عمله لا يكون مثمرًا بدون سيجار حتى رغم اعترافه بأن شغفه بالسيجار تداخل مع استكشافه لمشاكل نفسية معينة[14]. ولكن نعرف معظم صعوباته الشخصية - البولية والمعوية والقلق والفوبيا - في أدق تفاصيلها لأنه وثّقها أو نقلها بأمانة فضلًا عما وفَّر لنا من مفاهيم من شأنها أن تساعدنا على تأويل مواد سيرته الذاتية.

إن الاعتراف بأن لفرويد مشاكله الإنسانية، وأنه عانى وكانت لديه مخاوفه الخاصة، ولم يكن سيّد جميع انفعالاته، ليس إلا إثباتًا لنظرياته في التحليل النفسي. ولكن فرويد لم يكن حصيلة مشاكله، ولكن ما حققه بمثابة مقياس لقدرته بالرغم من الصعوبات التي واجهها، أو بالأحرى نجح في تحويل عصاب القلق الذي يعاني منه إلى اتجاهات بنَّاءة. كتب فرويد ذات مرة أن الإنسان «السويّ» في حالته المثلى خليط من النرجسية والهوس والهستيريا أيضًا، ومما لا شك فيه أن فرويد يتحدث عن نفسه[15]. وأي تفسير لتجارب فرويد استنادًا إلى صعوباته الذاتية الأكثر عمقًا وخصوصية ينبغي أن يحذر من المغالاة في نقاء مفهوم «سويّ».

وبينما كان فرويد يحاول أن يتصالح مع نفسه خلال تلك السنوات، عرف فترة افتقد فيها التواصل الفكري المنتظم الذي كان يتمتع به من قبل. كلا، لم يكن فرويد نموذجًا للشخص الفييني المرح والاجتماعي. ومن «الواضح» بالنسبة لتلميذه هانز ساكس مثلًا أن «شخصية فرويد وطريقة تفكيره وعيشه كذلك تقوم على طرفي نقيض مع ما يرويه تمامًا... كما لو كان فيينيًا نموذجيًّا»[16]. فقد ارتأى فرويد (وجونز من بعده) أن يشدد على نبذ زملائه في فيينا له[17]، ويقينًا عرفت طموحات فرويد في بداياتها بعض التعثر، من ذلك وصفه عقار مثل الكوكايين أساء لسمعته وهزت ثقة الناس به. وعندما انتقل فرويد لمعالجة العصاب عبر التنويم المغناطيسي في البداية، ثم التداعي الحر، وعندما توصل إلى نظرية الأحلام واللاوعي كانت تقنياته كلها سابقة لعصرها جدًّا، ناهيك أن معاصريه في المجال الطبي لم يستسيغوها ولم يقدِّروها حق قدرها، حتى لكأن «ثمّة شيئًا ما يبعث على التندر في تقدير فرويد ـ حيال التنافر بين تقديره الشخصي وتقدير الآخرين لهذا الإنجاز»[18].

على رغم أنه عانى من وحدته، إلا أنه استمتع بعزلته أيضًا حيث تذكرها في عام 1914 قائلًا:

> **ليست عزلتي الرائعة خلوة من أيّ مزايا أو محاسن، فلم أكن مضطرًا لأن أقرأ ما ينشر أو استمع إلى خصوم حاقدين... فعلام التعجّل... إن أعمالي التي أنشرها بشيء من الصعوبة دائمًا ما كانت متأخرة عن معرفتي ويمكن أن تتأجل كما أريد، طالما لا وجود لـ«أولوية» أكيدة للدفاع عنها[19].**

ومع ذلك أنكر فرويد «الجفاء» الذي طوّق به نفسه[20]، حيث تذكّر في عام 1924 الممانعات التي أثارتها أفكاره:

«لقد افتقدت لمدة تزيد عن عشر سنوات بعد القطيعة بيني وبين بروير كل الأتباع. كنت في عزلة تامة. وتجنبت الناس إطلاقًا في فيينا. لم يسجل أحد أيّ ملاحظة في شأني ولم يُراجع كتابي تفسير الأحلام في المجلات العلمية إلا نادرًا... وبمجرد أن أيقنت أن ذلك هو قدري الذي عليّ أن أواجهه، تراجعت حساسيتي بشكل كبير»[21].

شعر فرويد أن العزلة التي عانى منها في تلك السنوات مردُّها حالة «النفور والاستنكار» التي أثارتها أفكاره غير المرحب بها، وكانت تلك ردة الفعل ذاتها تجاه شخصه[22]. ففي عام 1926 كتب: «لقد أعقب الإعلان عن اكتشافاتي غير السارة قطع جزء كبير من علاقاتي، حتى شعرت أنني محتقر ومنبوذ»[23].

ولا يمكن أن نقدِّر مدى إسقاط فرويد لذاته في أعماله:

«لقد باعدت أفكاري الجديدة في علم النفس بيني وبين المعاصرين، وبشكل خاص الأكبر سنًّا منهم، حيث لم أتقرّب من شخص أحترمه إلا ورفضني بسبب عدم فهمه لأفكاري حول ما تكون حياتي في تمامها بالنسبة لي»[24].

بالرغم من أن فرويد كان دائمًا مستكشفًا مقدامًا في مجال البحث والاكتشاف، فقد عاوده الحنين من جديد إلى فترة عزلته، لتعزيز وتبرير ضراوة استقلاله، حيث قال: «بالكاد كان متوقعًا... أنه خلال السنوات التي كنت فيها وحيدًا أمثّل علم النفس التحليلي أن يكون لي أيّ احترام خاص لرأي عام أو أي تحيّز للمهادنة الفكرية»[25].

ورغم اعتزاله العالم، استخدم فرويد ردود أفعاله كوسيلة لفهم ردود أفعال الآخرين:

«يُسيطر على أفكاري دائمًا دفقٌ من «المرجعية الشخصية»، لا أعرف شيئًا عنه عمومًا، ولكنه يفصح عن نفسه لا إراديًا... من ذلك مثلًا نسيان الأسماء ليبدو الأمر كما لو كنت مجبرًا على مقارنة كل ما أسمعه عن الآخرين مع نفسي، وكما لو أن اهتمام شخص آخر بي يستثير عقدي الشخصية. ولا يتوقف الأمر عليّ بصفة شخصية، وإنما يتعلق أساسًا بالطريقة التي نفهم من خلالها «شيئًا آخر غير ذواتنا» بشكل عام. وعليه ثمة ما يبرر بالنسبة لي الافتراض بأن بقية البشر يشبهونني تمامًا في هذا المضمار»[26].

وهكذا فإن النظام النفسي الذي يضعه فرويد يناسب تمامًا خصوصياته، ويدل ذلك على أن نشأة علم النفس التحليلي كانت بعيدة عن التقدم العلمي العادي الباهت. ولم تكن إعادة التفكير في الماضي بالنسبة لفرويد غير ممزوجة بحساسياته، فقد فجّر البحث خرافة تجاهل مراجعات الكتب لكتاب تفسير الأحلام[27].

وصف فرويد آليات الذين يعانون من جنون الارتياب الذين «لا يعتبرون أي شيء في الآخرين غير ذي أهمية»، بل إن هؤلاء شأنهم في ذلك شأن المحلل النفسي مع مرضاه «يعتمدون المؤشرات الدقيقة التي يقدمها الآخرون، الغرباء، ويستخدمونها في أوهامهم المرجعية. ويعني وهمهم المرجعي أنهم يتوقعون من كل الغرباء شيء مثل الحب». ويعتبر فرويد أن «العداوة التي يراها من يعاني جنون الارتياب في الآخرين» هي «انعكاس لكراهيتهم لهم»[28].

ومن حسن الحظ أن فرويد كان عظيمًا، ذلك أنه آمن بأن الآخرين يشبهونه، وعلى هذا الأساس أمكن له أن يساوي في المشاعر بين عموم الناس. وكلما تعمق فرويد في تحليل نفسه، كلما واجه صعوبة في فهم مرضاه. وقد علق فرويد في العام 1882 قائلًا «ينتابني شعور مخيف كلما فكرت بأن مشاعري ليست من جنس مشاعر الآخرين»[29]. لقد منح تحليل فرويد لنفسه إحساسًا خارقًا بالتعاطف والاعتراف حتى وإن لم يكن ذلك المعنى المثالي للحرية بالنسبة إليه. ولكن فرويد نذر حياته للتحليل النفسي، ولعله لم يُجانب الصواب عندما كتب «لقد كان انهمامًا شخصيًا أكثر منه علميًا»[30].

ويتمثل المثال الأكثر وضوحًا لتداخل تحليل فرويد لنفسه مع عمله العيادي، في قبوله لقصص مرضاه عن الإغواء، ويتمثل أحد أكبر أخطاء فرويد، الذي اعتبره في ما بعد «الخطأ الأول الأكبر»[31]، في الاعتقاد أن مصدر اضطرابات مرضاه ناجم عن صدمة جنسية تعرضوا لها في سن الحداثة سببها الوالدان.

وفي هذا المضمار، يعتقد فرويد أن والده أذنب لا في حقه هو شخصيًا، وإنما في حق أخوته[32]. ولم يعترف فرويد بخطئه ذاك علانية إلا بعد مضي سنوات عديدة، عندما تجاوز سوء السمعة الذي طارده في الوسط الطبي في فيينا[33].

يعتقد فرويد أن قصص الإغواء لا تعدو أن تكون في نهاية المطاف سوى خيالات، ناتجة عن رغبات زنا المحارم في الطفولة أكثر من كونها ناتجة عن وقائع فعلية. وقد استطاع فرويد في العام 1897 أن يعالج المسألة كجزء من العالم الداخلي لمرضاه، وهي السمة الغالبة المتعارف عليها للتحليل النفسي: يكمن هدف العلاج في كشف خيالات الطفولة الكامنة وراء الوجهات العصبية. ويُنظر إلى العالم الداخلي لمرضى فرويد على أنه المصدر الرئيس للاضطرابات العصابية أكثر من الأحداث الخارجية. ولا تكون «الصدمات» صدمات إلا

بقدر ما تضفيه على ما يعترضنا ذاتيًا من حوادث تبدو غير مؤلمة من طابع كارثي.

وبدلًا من أن يتمسك فرويد بأن هؤلاء الأطفال كانوا يتعرضون للإغراء الجنسي اكتشف أنهم يمكن أن يكونوا هم أنفسهم كائنات جنسية كما فصل فيها فرويد القول في ما بعد «لقد أسأنا تقدير قوى الأطفال وصنفناها على أنها متدنية جدًّا و... ولا أحد يعرف لماذا لا نمنحها المصداقية»[34]. وبذلك كانت قصص الإغواء التي كان يرويها مرضاه تعبّر عن رغبات في الطفولة لم يكونوا واعين بها. وقد كانت تلك الرغبات الجامحة تستغل في العلاج إذ إن المريض يقوم بتحويل مشاعره نحو المعالج كبديل عن صورة الأب. وقد عرفت هذه المشاعر الطفولية بعقدة أوديب.

4 - فيلهالم فليس

تجلّت التغيرات التي طرأت على تفكير فرويد في هذه الفترة وقبلها في رسائله إلى طبيب في برلين يدعى فيلهالم فليس، عرفه فرويد عندما كان يدرس في فيينا. وخلال تحليل فرويد لنفسه كانت تربطه صداقه متينة مع فليس رغم أنه قاطعه في نهاية المطاف، كما فعل مع بروير. كان فليس يصغر فرويد بعامين وكان صهرًا لأوسكار راي، وهو من معارف فرويد في فيينا. ومن الصعب جدًّا في كثير من رسائل فرويد إلى فليس أن نميّز بين المبالغة المقصودة والجدية الصارمة، فقد شهدت عاداته في التكلف تغيّرًا كبيرًا من ذلك الحين. ولكن يمكن القول بأن علاقة فرويد بفليس كانت حميمة إلى أقصى حدّ. فقد كانت لهذا الصديق أهمية كبرى في اكتشاف فرويد لنفسه ولمنهاجه العلمي. وقد وجد فيه في عزلته خير أنيس حيث كان يبث إليه همومه حتى أنه كتب إليه ذات مرة يقول: «أحتاج إلى التحدث إليك فأنت أفضل من يصغي إليّ»[1]. وقد عززت ثقة فرويد في فليس الثقة في بعض أفكاره، «كلما أتحدث إليك تتعزز ثقتي في نفسي...»[2].

تشارك الصديقان أعمالهما وحياتهما اليومية من خلال التراسل، غير أنهما نادرًا ما كانا يشيران إلى زوجاتهما، ولكن الثابت أن فرويد كان يكن كراهية شديدة لزوجة فليس[3]، وقد نحا فرويد باللائمة على بروير[*] الذي «زعم أني لم أعد أحتقره» لإفشائه عداوته لها.

(*) وقد عاب فرويد في رسائله إلى فليس على بروير أيضًا، كما اكتشف فرويد أنه أخطأ معه كطبيب. وكتب في 1894: «لقد عُولجت بشكل مستراب لا يخلو من تضليل وخيانة كما لو كنت مريضًا بدلًا من أن يخلد ذهني للراحة على اعتبار أني قلت كل شيء بشأن وضعية كهذه يُفترض أنها معروفة». ولما كان بروير طبيبًا متزمّتًا، فقد عاب على أحد مرضى فرويد خضوعه للتحليل النفسي لمدة خمس سنوات. ولما أوشكت ابنة بروير سنة 1900 أن تتزوج من أحد أقارب فليس، =

وقد كتب فرويد لفليس: «ما عسى زوجتك إلا أن تستجيب، تحت إكراه شديد، لما بثه بروير في روحها عندما هنأها بأني لن أقيم في برلين وبذلك لن أنغص عليها زواجها»[5]، وكان فرويد وفليس يعتبران لقاءاتهما من حين لآخر بفخر (واستفزاز) بمثابة «مؤتمرات»، ولو كانت آنا ابنة فرويد الصغرى ولدًا لسمَّاه «فليس»[6].

وعندما تمكن فرويد، لاحقًا، من أن يحقق أمنه واستقراره واستقلاليته أكثر، أصبح أكثر كتمانًا ولا يبوح بما يختلج في نفسه للآخرين إلا نادرًا. وربما احتفظ بالمشاعر الدافئة التي ميّزت فترة صداقته مع فليس دون أن يصرح بها شفويًّا أو يدوّنها على الورق على الأقل. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر بلغ فرويد ذروة تحليله لنفسه، وقد عمد لبعض الوقت إلى تجميع أحلام أشخاص ممن يعرفهم كجزء من فهمه لذاته، وكجزء من عمله العيادي، ورغم أن تحليل فرويد لنفسه كان سيستمر طوال حياته إلا أنه كان في هذه الفترة القصيرة نسبيًّا في حاجة ملحة لعمله كوسيلة لعلاج نفسه. وقد عبَّر عن ذلك في رسالة إلى فليس عندما قال: «لا أستطيع أن أحلل نفسي إلا انطلاقًا من معرفة مكتسبة موضوعيًّا (كما لو كنت غريبًا)، لأن تحليلي لنفسي يظل مستحيلًا فعليًّا، وإلا لما كان هناك مرض»[7].

رغم روح المنافسة التي تميّز بها فرويد ورفضه لكل أشكال الخضوع والهيمنة، لم تفسد أي منافسة لفترة التقارب بينه وبين فليس. ولكن رغم بعد المسافة التي تفصل بينهما، فقد دامت صداقتهما طوال تلك الفترة (ما يزيد عن العشر سنوات) وما كان ينبغي لها ذلك ربما لو كان فليس يقيم في فيينا؛ فمن ناحية، كان فرويد يحتاج إلى عزلته حتى وإن تذمر منها، ولكنه سعى أيضًا وراء شريك صامت كالشاشة البيضاء لا يفهمه مثل فليس. وكان فليس أيضًا آنا أخرى بالنسبة لفرويد، وأحيانًا بسبب عدم تقبله بسرعة لأفكار غيره كان يشجع فرويد على إثبات أفكاره بالحجج والبراهين[8].

ربما مثّلت أسرار فرويد عبئًا على فليس، لكنها كانت عبئًا خفيفًا، إذ بثّها كلها تقريبًا على الورق. وربما كان تعبير فرويد عن عواطفه آنذاك رصينًا وهادئًا وبأسلوب متبّصر وراقٍ. في ما بعد عندما تخلّى فرويد عن هذا النوع من التبعية - أو بالأحرى نقيضها، حيث كان الآخرون يعتمدون عليه - استعاض عن علاقته بفليس بحوار داخلي، حيث يستعيد في أكثر من مرة أسلوب سقراط في الكتابة عبر تقديم الاعتراضات على أفكاره على لسان

= شعر فرويد بأنه لم يعد مرحبًا به، وكتب لفليس يقول: «ما كنت أحسب أن تقطع صلتي بك وبعائلتك إلا أن يكون ذلك إعلان عن تبعية إلى بروير وشيكة...»[4].

ملاحظ، مبيّنًا أنه يمكن أن ننتهي إلى تنازلات، ودائمًا ما يكوَن في كتب فرويد تساؤلات ذاتية داخلية وتبادلات بحيث يبدو كما لو كان يخاطب متقبلًا.

خاطب فرويد ذات مرة فليس ودعاه «ساحر»، وكتب أيضًا ذات مرة يقول في شخصه: «ستظل بالنسبة لي أفضل معالج ومثالًا للرجل الذي يمكن أن يأتمنه الشخص على حياته وحياة عائلته بكل اطمئنان»[9]. وكان فليس أيضًا «أول قارئ وناقد»[10] لكتاب **تفسير الأحلام**، وكان فرويد يأخذ تعليقاته على محمل الجد. وتنبهنا هذه الرسائل لفليس إلى أن لفرويد أفكاره المميزة منذ أمد طويل ومع ذلك استغرقت سنوات قبل أن تظهر في أبحاث علمية كاملة[11]. وكان لعمل فليس، بدوره، أثر كبير على فرويد، من ذلك مثلًا ما جاء على لسان فرويد قائلًا: «لقد ذهلت لأول مرة لوجود شخص أرحب خيالًا مني، إنه صديقي فليس»[12]. غير أن هذه المثالية التي أحاط بها فرويد فليس ما لبثت أن باءت بخيبة أمل.

مع ذلك ظل فرويد مفتتنًا بمواهب فليس المتعددة. من ذلك مثلًا إبداعه لمفهوم «فترة الكمون»[13]، الذي أصبح لاحقًا جزءًا من نظرية التحليل النفسي (تستخدم لوصف مرحلة متطورة من الهدوء النسبي في الحياة الجنسية تأتي بين ذروة عقدة أوديب في الخامسة أو السادسة وبداية البلوغ)، فمن وجهة نظر فرويد، استحدث فليس «اكتشافًا بيولوجيًّا أساسيًّا»[14] في العلاقة الدورية (ثمانية وعشرون يوما للمرأة، وثلاثة وعشرون يومًا للرجال) في الحياة البشرية. ورغم شكوك فرويد في عام 1920 إزاء صحة افتراض فليس، إلا أنه ظل يشيد بجرأة المحاولة: وفقًا لتصور فيلهالم فليس في شموليته، ترتبط جمع ظواهر الحياة التي تكشف عنها الكائنات الحية - وبلا شك فناؤها - باكتمال دورات ثابتة، وهو ما يعبّر عن تبعية الكائن الحي في جنسيه (الذكر والأنثى) للسنة الشمسية[15].

يُفترض أن تحدد القوانين الدورية التي يقول بها فليس مدة حياة الشخص. واشترك فرويد في خيالات فليس التنجيمية التي بنى عليها بعض خرافاته في احتساب عدد السنين المتبقية لحياته (في عام 1909 أشار لتلك الاعتقادات بوصفها كما يقول: «انعكاس للطابع اليهودي الخاص لغموضي»[16]). وبذكاء فسّر جونز استعداد فرويد لتصديق أيّ شيء على أنه جزء من انفتاحه، وتلك ميزة العقل المستنير الذي يصاحب العبقرية[17].

ومن بين المفاهيم الأخرى التي اشترك فيها فرويد وفليس (ولكن ما لبثا أن تنافسا حولها) نذكر مفهوم الازدواجية الجنسية، وهو مفهوم ضارب في القدم. فقد تحدث

الفلاسفة، منذ أفلاطون على الأقل، عن خصال أنثوية للرجال وأخرى ذكورية لدى النساء. وبحسب افتراض فليس ليست هذه التحولات الجنسية موجودة ولها عواقب نفسية فحسب، بل هي أيضًا سبب الكثير من الاضطرابات العصابية.

استشهد فرويد لاحقًا في سياق تفسيره لـ«ميل الإنسانِ لنسيان كل ما هو منبوذ» بنسيانه في عام 1900 الاعتراف بفكرة فليس عن دور الازدواجية الجنسية المكبوتة في العصاب، حيث اعترف قائلًا «من المؤلم، على هذا النحو، أن يطلب من شخص أن يتخلى عن أصالته»[18]، وكان فرويد كثيرًا ما «يستعير أفكار الآخرين» طوال مسيرته المهنية. بالرغم من أن أصالته التي لا جدال فيها اليوم وبالرغم من فرادة إسهاماته الأصيلة في علم النفس، إلا أن فرويد كان دائمًا يتوجس خيفة من السرقة الفكرية – سواء تعلق الأمر بكتاباته الخاصة أو بكتابات معاونيه. وبعد هفوة ذاكرته في ما يتعلق بمفهوم الازدواجية الجنسية، زعم فرويد كما ورد على لسانه: «منذ ذلك الحين أصبحت أكثر تسامحًا عندما تعترضني أثناء اطلاعي على الأبحاث الطبية، فكرة من الأفكار القليلة التي قد ترتبط باسمي دون أن يذكر اسمي»[19].

اعترف فرويد دائمًا بأنه مدين لفليس، ففي عام 1905 كتب يقول: «من المنصف القول إنه هو من لفت انتباهي أول مرة إلى الحاجة إلى التوجه نحو معالجة الأمراض العصابية ضمن نطاق أكثر شمولية على إثر الانقلاب الذي أحدثه في هذا المجال، بعدما ناقشت وجودها في حالات فردية»[20]. ولكن في عام 1910 عندما بدأ شجارهما يظهر إلى العلن ضمن جدل أكبر، بدأ فرويد يتراجع عن الإشادة بفليس. كتب في عام 1905 في كتابه (**ثلاث مقالات حول نظرية الجنس**) يقول: «تعرفت عبر فليس على فكرة الازدواجية الجنسية». ولكن لم تمضِ خمس سنوات على ذلك (وفي كل الطبعات التي تلت هذه الطبعة من الكتاب نفسه) حتى استبعد فرويد عبارة «عبر فليس»[21] مع الاحتفاظ بباقي الجملة. وكما ذكر فرويد في موضع آخر من الكتاب أن «فليس (1906) زعم بعد ذلك أنه هو من أبدع فكرة الازدواجية الجنسية (في معنى ازدواجية الجنس «The sense of duality of sex»)[22]، وفي مقال له بتاريخ 1937 اعتقد فرويد أنه قد «صرَّح» في مقال في عام 1919 أن «فليس هو من أثار انتباهي إلى الطريقة التي يمكن عبرها أن يستسلم الجنس الآخر للكبت»، ولكن أشار ستراتشي في تصحيح لفرويد إلى أن: «اسم فليس لم يذكر في هذا المقال»[23].

لم يكن فرويد «يحافظ على أسرار الآخرين بالرغم من حفاظه على سرية أفكاره»[24]،

وهو ما أقر به جونز أيضًا. وقد طرح عليه انعدام قدرته على كتمان أسرار الآخرين مشكلة ناقشها في كتابه تفسير الأحلام[25]. وقد جاء على لسان فرويد، في علاقة بمسألة مهمة بالنسبة لفليس، قوله «لقد تلقيت تحذيرًا ألا أناقش الأمر مع أيّ شخص آخر. وقد أساءني ذلك لأنه لا يعدو أن يكون إلا انعكاسًا لعدم الثقة في قدرتي على الكتمان، لا طائل من ورائه»، وعلى الرغم من أن فرويد يعرف أن «هذه التعليمات لم تصدر عن صديقه وإنما كانت بسبب انعدام لياقة وسيط أو قلقه المبالغ فيه»، فقد ظل فرويد «يشعر بالسوء الشديد حيال اللوم المقنع لأنه لم يكن – في مجمله دون مبرر»[26].

كان فرويد خلال عمله كمحلل نفسي، وربما لم يكن ذلك أكثر مما كان عليه في تسعينيات القرن التاسع عشر، مفعمًا بالأفكار بحيث يصعب على الآخرين مجاراة رحابة أفق تطلعاته وسعة اطلاعه. فقد ناقش فرويد في رسائله إلى فليس صراحة «خطأه» في الاعتقاد بأن قصص الإغواء التي رواها مرضاه صحيحة تمامًا. واعترف فرويد لفليس بما يتعلق بحالته يقول: «لم يكن لأبي أيّ دور حيوي على الرغم من اعتقادي بوجود تشابه بيني وبينه بشكل مسقط...»[27]، وهذا معناه أن مشاعره تجاه أطفاله لعبت دورًا في «خطئه».

وقد أظهر فرويد، في وقت لاحق، شجاعة ومثابرة في متابعة هذه المسألة المضنية لما يشقها من صراعات حتى انتهى به المطاف إلى اعتبار خيالات الطفولة موطن العصاب. ولكن بالنسبة لمعاصريه – فليس مثلًا – بدا فرويد وكأنه يضلِّل مرضاه. ولما كان فليس يعلم حقد فرويد المتقلب على أبيه واعتقاده السابق بأن يعقوب قد أغوى أبناءه، فقد شكّك كثيرًا في موضوعية طرائق فرويد حتى أنه اعتبر طريقته في العلاج عبر الإصغاء لأفكار المريض ضربًا من السحر، ولا علاقة لها بالعلم. وقد جهر فرويد بفشل فليس في اقتفاء أثره في نهجه الجديد قائلًا: «تختلف معي وتخبرني أن قارئ الأفكار لا يفعل شيئًا آخر سوى قراءة أفكاره هو في الآخرين وفي ذلك تجريد لعملي من كل قيمته». وظل فرويد «وفيًّا لطرقه في قراءة الأفكار» كطريقة علمية للفهم وللعلاج أيضًا، وقد أنكر فكرة أن «قارئ الأفكار لا يتلقى شيئًا من صاحب الفكرة ولكن يُسقط أفكاره عليه فحسب...»[28]، ولو لم يعترف فرويد بالدور الذي قد يكون لعبه في افتراض ما أسماه روايات الإغواء لمرضاه، لأفِلَتْ صداقتهم وتراجعت تبادلاتهم تدريجيًا.

جاء في نسخة جونز (التي أعقبت تفسير فرويد) قوله: «لقد لفظه فليس غاضبًا... رغم محاولات فرويد للتصالح معه»[29]. ومفاد تأويل فرويد أن فليس كان يعاني من نوبة من

جنون الارتياب، وهو تأويل قاس لا محالة. فوفقًا لنظرية التحليل النفسي الحديثة فإن جنون الارتياب ينبع من الشذوذ الجنسي المكبوت، وقد قال فرويد في أكثر من مناسبة أن «سر» جنون الارتياب هو ما تكشف عنه تجربة فليس[30]، ولم يربط فرويد بين جنون الارتياب والشذوذ الجنسي إلا بعدما حصلت القطيعة بينه وبين فليس. ولكن يبدو أن الافتراض بأن فرويد آثر أن ينفصل عن فليس لأنه يعتبر «قراءة الأفكار» ضربًا من السحر، افتراض وجيه أيضًا.

احتاج فرويد في الآن ذاته إلى من يصغي إليه بدلًا من فليس، وكانت آخر مراسلة بينهما ودية، رغم طابعها الرسمي، عام 1902، العام الذي أسس فيه فرويد حركة التحليل النفسي. وحسب جونز، فإنه بالرغم من «اختفاء كل آثار هذه التبعية إلى الأبد، بعد القطيعة بينه وبين فليس»، يبدو أن جونز أعلى من شأن فرويد، ذلك أنه رغم أن هذا الأخير لم يعد يحتاج عرّابًا مثل بروير أو «ساحرًا» مثل فليس، فقد احتاج إلى آخرين يعتمدون عليه[31].

لقد وقع استثناء بعض المراسلات بين فرويد وفليس من مجلد الرسائل التي نشرت. في عام 1904 وجد فرويد نفسه في جدال عام حول الأولويات ذكرت بحقبة الكوكايين وأذنت أيضًا ببعض المعارك التي سيخوضها في حياته مستقبلًا. ناقش فرويد فكرة فليس الطريفة عن الأدوار المتعددة لازدواجية الجنس في حياة الإنسان (على سبيل المثال، كيف يجذب الرجال ذوي الميول الأنثوية النساء ذوات الميول الذكورية والعكس بالعكس) بمعية مريض أثناء العلاج. وبلّغ المريض، هيرمان سوبودا، الفكرة إلى صديقه أوتو فيننغر الذي كما قال فرويد «ضرب بيده على جبينه وأسرع إلى منزله وألّف كتابه». وقد اعتبر كتاب فيننغر بمثابة نجاح هائل، عندها قطع فليس الجفاء الذي بينه وبين فرويد مستفسرًا كيف تم «السطو» على فكرته[32].

حاول فرويد المراوغة في ما يتعلق بهذه المسألة بإشارته إلى كتّاب آخرين أكدوا له الفكرة ذاتها. ولكن فليس أجبر فرويد على الاعتراف بأنه لم يلعب فقط دورًا أكبر مما كان ينوي الاعتراف به من خلال الاستغناء عن مفهوم فليس، ولكن جعله يعترف أيضًا بأنه نسي نقاشًا سابقًا دار بينه وبين فليس حول الازدواجية الجنسية. وعزى فرويد سلوكه هذا إلى أنه حرّض على «سرقة أصالة» مفهوم فليس. وقد أكد فرويد ذلك قائلًا «لا تمتلك الأفكار براءة اختراع»، ولكن بإمكان الشخص «أن يستعيدها» وهذا «جيّد طالما تبيّن له قيمة أفضليتها»[33].

عندئذ شجع فليس أحد أصدقائه على التشهير بسوبودا وفيننغر بسبب «السرقة». وقد عمد هذا الصديق إلى نشر الرسائل التي تتعلق بهذا الموضوع دون إذن فرويد، وبدوره سوبودا أقام دعوة ضد فليس بسبب التشهير ونشر رسائل شخصية. وقد تعهد بالقضية الفييني الساخر كارل كراوس، ولكنه لم يكن على دراية كافية بقوانين التشهير الألمانية وإجراءات المحاكم فخسر سوبودا القضية[34]. وكما لخَّص فرويد الأمر في رسالة إلى كراوس، لم يستطع فيننغر (الذي أطلق على نفسه الرصاص عام 1903) أن «يتجنب اللوم على الفشل في البوح بمصدر هذه الفكرة، وبدلًا من ذلك ادَّعى أنها من إلهامه»[35].

سيكون من الخطأ اعتبار المنافسة بين العلماء كما لو كانت فقط تعبيرًا عن سذاجة العالم، ذلك أن «مؤسسة العلم تركّز أساسًا على الأصالة كقيمة قصوى وتبيّن هذه الأصالة يعني عمومًا أن نأخذ في عين الاعتبار منبع الفكرة... أولًا». وأما الشهرة في ميدان العلوم فهي «رمز مؤسسي ومكافأة للعالم لأداء مهمته بتفوّق»[36]. كان لودفيغ فيتغنشتاين، وهو فيلسوف فييني أيضًا، حساسًا بشكل غير عادي إزاء مسألة الأفضلية وفضل الآخرين عليه، ورغم أن أفكاره كانت من إبداعه هو إلا أنه أبدى «حساسية مفرطة إزاء مسألة السرقة الفكرية». وكان أشدّ ما يخشاه فيتغنشتاين «أحيانًا أن يذهب إلى ظن العالم المثقف، إذا اطلع على مؤلفاته التي ستنشر في آخر المطاف بعد وفاته، أنه أخذ أفكاره عن الفلاسفة الذين درَّسهم»[37].

يقينًا أزعجت مسألة الأفضلية والسرقة الفكرية شخصيات أخرى (أمثال داروين وسبنسر وديزرائيلي). ومع ذلك ما يثير الانتباه إنكار فرويد بسرعة، حتى في حالة «الإدانة الصريحة والصارخة»[38]، مجرد الافتراض بأنه لا يعدو أن يكون سوى مكررًا لأفكار غيره. وإذا كان فرويد يحتاج لأن تكون أفكاره أصيلة، وبالرغم من أنه استفاد أحيانًا من التأثيرات الخارجية، فإن تلك الأفكار المستفادة من غيره ما إن تندمج في أفكاره حتى تصبح ملكه.

وبالرغم من النهاية غير السعيدة لعلاقته بفليس إلا أن فرويد احتفظ ببورتريه لفليس معلق على حائط شقته[39]. وقد غيّر فرويد كثيرًا من الفقرات في كتاباته التي ورد فيها ذكر فليس، وكان كلما استحضر صداقته بفليس غيّر صيغة الأفعال إلى الزمن الماضي[40]. وفي السنوات التي أعقبت ذلك كان يناقش فرويد مع تلاميذه، كلما سنحت الفرصة، شخصية

فليس، فمثلًا كان كارل أبراهام يتعالج عند فليس من مشكلة طبية، ولأن أبراهام كان متحمسًا جدًّا لأفكار فليس فقد كان فرويد شديد الحذر منه(•)(41). وفي رسالة في عام 1910 إلى ساندور فرينشيزي، عبَّر فرويد عن تفهمه لجذور «شغف فليس بالمساعدة»:

> إن قناعته أن أبيه، الذي توفى بالحمرة بعد معاناته لمدة سنوات كثيرة من تقيُّح في الأنف، كان يمكن إنقاذه، هي ما حفَّزه إلى التوجه لدراسة الطب، والتخصص في أمراض الأنف. ووجد في قضاء الله وقدره وحتمية الموت في آجال مقدَّرة عزاءه في موت أخته الوحيدة المفاجئ بعد ذلك بعامين في اليوم الثاني من معاناتها من التهاب الرئة. فإذن لا مسؤولية للطبيب في ذلك، ولم يكن هذا التحليل مرحبًا به إطلاقًا بالنسبة إليه، ومثّل السبب الحقيقي للقطيعة بيننا، وقد استغله هو بهذه الطريقة المَرضية (جنون الارتياب)...(43).

فسّر فرويد، في وقت لاحق من ذلك العام، لفرينشيزي بعض التغيّرات التي طرأت عند نهاية علاقته مع فليس قائلًا «لم أعد في حاجة لأكتشف شخصيتي تمامًا... منذ قضية فليس... هذه الحاجة انطفأت. جزء من سبب الجنسية المثلية اختفى، واستغليت ذلك في تضخيم أناي. وقد نجحت حيث فشل المصاب بجنون الارتياب»(44).

تمثل مختلف أطوار علاقة فرويد بفليس وخطوات تحليل فرويد لنفسه خلفية لا غنى عنها لفهم نظريتيه عن اللاوعي والأحلام، وقد أصبحتا متاحتين لنا بسبب الاحتفاظ برسائل فرويد لفليس، ذلك أنه بعد موت فليس لم تكن أرملته ترغب في أن تُنقل هذه الرسائل مع أبحاث فليس لمكتبة برلين. ولكن عندما تولى النازيون الحكم وخططت عائلة فليس للهجرة، أصبح واضحًا أن تلك الرسائل يمكن حمايتها إذا ما بيعت لتاجر لقاء تدبّر أمر خروجها من ألمانيا(45). ولأن أرملة فليس لم تكن ترغب في بيعها لفرويد شخصيًا، فقد اشترتها إحدى تلميذات فرويد المخلصات، وتدعى ماري بونابرت، بسعر رمزي (100 جنيه). وعندما أخبرته أن الرسائل بحوزتها، عرض عليها أن يشتريها بنصف ثمنها، إلا أنها رفضت خشية أن يتلفها. ولم يفهم فرويد الخلفية السياسية لبيع رسائله وصبّ جام غضبه على أرملة فليس.

(•) وقيل إن فليس واصل قراءة كتب فرويد وإحالة المرضى على العلاج التحليلي النفسي حتى آخر حياته(42). ناهيك أن أحد أبنائه أصبح محللًا نفسيًا.

5 - اللاوعي

من أهم خصال فرويد في الكتابة أنه كان لا يدوّن أي شيء على الورق قبل أن تكتمل أفكاره. ولم يكن يتعجّل في طبع مؤلفاته حتى أنه أجّل طبع المخطوطة المنتهية (مخطوطة تفسير الأحلام) لأكثر من سنة حتى تغلّب أخيرًا على «نفوره» من الكتاب[1]. كان فرويد في عامه الثالث والأربعين عندما صار الكتاب المطبوع بين يديه وذلك في عام 1899.

والراجح أنه في الفترة التي شعر فيها «بالعزلة التامة» في أول ست سنوات من نشر كتابه **تفسير الأحلام**، باع 351 نسخة فقط[2]. هذا الكتاب واحد من اثنين عمد فرويد إلى تطويرهما، حيث شهدا طبعات عدة، أضاف خلالها موضوعات جديدة وعمّق فصول معينة، وأما الكتاب الآخر فهو «**ثلاث مقالات حول نظرية الجنس**». وفي عام 1929 قال فرويد في مراجعاته للمؤلف «للمرة الثانية أتعامل معه على أنه وثيقة تاريخية... ما أقوم به من تعديلات إنما الغاية منها فقط توضيح آرائي وتعميقها»[3]. وبعد ذلك بعامين اعتبر فرويد، في مقدمة لطبعة منقحة للكتاب، أن «الأكثر قيمة من بين اكتشافاتي هو أني ألّفته وهذا من حسن حظي ذلك أن استبصارًا كهذا لا يُتاح للفرد إلا مرة واحدة في العمر»[4]. ولم يتجاوز فرويد شكوكه بشأن العصاب إلا عندما أنهى **تفسير الأحلام**، ونظرًا لطابعه العدائي، فقد اعتبر ذلك كما يقول: «غريزة مؤكدة اضطرت الكثير من خصومي في المجال العلمي إلى الاعتراض عليّ خصوصًا في أبحاثي حول الأحلام»[5].

يعتبر تفسير الأحلام من وجهة نظر فرويد هو «الذي وضع التحليل النفسي للمرة الأولى في صراع مع العلم الرسمي إذ أصبح مصيره المحتوم»[6] لقد كان الموقف الشعبي القديم يعطي أهمية للأحلام حتى أن فرويد يذهب للاعتقاد بأن موقف العامة من الأحلام «أقرب إلى الحقيقة أكثر من حكم العلم الشائع...»[7]. وقد اعتبرت الأحلام عادة كإفراز لعسر الهضم[8]. وثمة تشبيه لم يكن فرويد غير المهتم بالموسيقى يميل إلى اقتباسه وهو أن «محتويات الحلم مثل الأصوات التي تصدر عندما يضع رجل لا يعرف شيئًا عن الموسيقى أصابعه العشرة على البيانو»[9].

اعتبر فرويد نفسه بمثابة واحد من أولئك الذين «أقضّوا مضجع العالم»، وقد وصف فرويد ليوناردو بما كتبه حوله بتشبيه جميل «كرجل استيقظ باكرًا جدًّا في الظلام بينما استرسل غيره في سباته»[10]. ويعبّر شعار كتاب **تفسير الأحلام**، «إن لم يكن باستطاعتي

ثني القوى الخارقة فباستطاعتي أن أحوّل مناطق الجحيم»، عن فخر فرويد بثوريته. فهو يعتبر نفسه هو الذي كشف النقاب عن «امتداد لدولة جديدة أعادت الاعتبار للإيمان الشعبي والتصوّف»[11]. ويعزو فرويد توصله إلى نظريته في الأحلام إلى «الحظ»[12] وحسن الطالع، ويرى نفسه بمثابة كولومبوس العقل.

لخص فرويد ما قاله في أن الحلم يمثل «محاولة» من قبل الحالم «لتحقيق أمنية»[13]، ولما كانت الأحلام مرئية في الشخصية أساسًا، فقد اعتبرها فرويد بمثابة ضرب من المتاهة معناها قابل للتحريف ولذلك رصد «تناقضًا بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن للحلم»[14]، وعندئذ لا شيء يمنع من وجود المشاعر والأفكار، مثلها في ذلك مثل الرغبات، ولكن يُحرّف «المعنى الخفي» لحلم ما بسبب «الصراع الداخلي، وبسبب نوع من انعدام الأمانة الداخلية»[15]، ومن وجهة نظر فرويد «إن للأحلام معاني سرية حقًّا» أوجب على نفسه تفسيرها حتى آخر سر منها[16]. وأعلن فرويد بلغة قاطعة لا مثيل لها في تاريخ الأفكار أن «كل حلم يخص الحالم ذاته، فالأحلام أنانية بشكل كامل»[17]، وبصفة أدق لما كان من بين دواعي الحلم اللاوعية وجود دوافع أنانية، فإنه يبدو بالإمكان التغلب عليها أثناء حياة اليقظة»[18]. وهكذا فإن فهم الحلم يتطلب التغلب على المقاومة الداخلية من أجل التعرف على الذات.

وفي السنوات التالية حاول فرويد أن يوسّع النظرية التي بدت في ذلك الوقت مسيئة لمعاصريه؛ من ذلك مثلًا أنه أقر في عام 1925 بأنه «يجب أن لا نسيء فهم القول بأن الأحلام ناتجة عن دوافع أنانية بشكل كامل... فالمسألة مفتوحة على إمكانية أخرى بنفس القدر»، ذلك أن فرويد يعتقد بوجود «دوافع غيرية» أيضًا[19]. وفي عام 1901 كتب فرويد: «أثبت التحليل أن معظم أحلام البالغين ناتجة عن رغبات جنسية»[20]، وفي عام 1909 كتب: «جلّ أحلام البالغين لها صلة بالجنس وتعبّر عن رغبات جنسية»[21]، وفي عام 1919 اعتبر فرويد بنزاهة «أنا لم أؤكد على أن كل الأحلام تتطلب تفسيرًا جنسيًّا، وهو الأمر الذي أثار دائمًا حفيظة النقاد، في أي موضع من كتاب **تفسير الأحلام**»[22]. ورغم توضيحات فرويد اللاحقة، إلا أن نظريته في الأحلام كثيرًا ما تأخذ في عين الاعتبار الدوافع الأنانية على حساب الدوافع الغيرية، وركزت بشكل رئيس على دور الدوافع الجنسية. كتب فرويد إبان الحرب العالمية الأولى يقول: «إن الرغبات الكامنة وراء الأحلام تجليات لأنانية جامحة ومندفعة... ويبدو أن تلك الرغبات المكبوتة ناشئة عن جحيم إيجابي...»[23].

اعتمد فرويد في فهم المعنى الخفي للأحلام على تقنية التداعي الحر، سواء تعلق الأمر بأحلامه هو أم بأحلام مرضاه، وقاعدته في ذلك «يتعلم المرء في التحليل النفسي أن تفسير التقارب في الزمن يماثل الترابط في المواضيع»[24]. يتكون المحتوى الظاهر للحلم من تجارب اليوم السابق، ويتعين على آليات تكون الحلم (مثل «التكثيف» أو «الإزاحة» أو «التمثيل») أن تأخذ بعين الاعتبار الماضي والحاضر كـ«وحدة»[25]. أكد فرويد، بوصفه معالجًا، أن دور الإيحاء محدود في تكوين المحتوى الظاهر للحلم؛ ذلك أنه: «قد يؤثر أحدهم على الحالم في ما يتعلق بمَا قد يحلم به، ولكن لا يمكن له أبدًا أن يؤثر على ما يحلم به فعلًا»[26].

لم ينزل فرويد الأحلام منزلة مَرَضية نفسية واضحة. فلما كانت الأحلام مفتاح فهم العصاب، من ناحية، فإن الخط الفاصل بين السويّ والعصابيّ، بالنسبة لفرويد لم يكن واضحًا بالشكل المطلوب، لأن المسألة تتعلق بتفاوت في الدرجة، ولأجل ذلك كتب فرويد أن «الأحلام ظواهر تحدث للناس الأسوياء، ربما لكل واحد وربما كل ليلة...»[27]، لكنه اعتقد أن الحدس العقلي الشعبي يطابق بين «الأحلام... والجنون منذ قديم الأزل»[28]. كما اعتبر فرويد الأحلام «أول عنصر من مجموعة الظواهر النفسية غير السويّة»[29] رغم إصراره أحيانًا على أن «الأحلام ليست ظواهر مرضية». وفي مناسبات أخرى اعتبر الحلم «نتاج مرضي». وفي إطار رفضه للخرافات الحدسية حول الأحلام، انطلق فرويد من مقدمة علمية تقول بأن الحلم بنية ذهنية ذات معنى، فبالنسبة له «لا شيء يتحدد في العقل اعتباطيًا»[30] وبالتالي «يفترض تفسير الأحلام قانونًا صارمًا بحيث يتعيّن عليه أن يغوص في كل التفاصيل»[31].

وما زال غير واضح كيف وجّه فرويد كثيرًا من اهتمامه إلى الأحلام، وهو ما صرَّح به بنفسه عام 1914 عندما قال «لم تكن رغبتي في المعرفة في البداية موجهة لفهم الأحلام، ولا أدري أي تأثير خارجي قادني إلى الاهتمام بها أو أيّة توقعات اضطرتني إلى ذلك وألهمتني»[32]. ولا يخلو موضع من كتاب فرويد من نوع شخصي جدًا من استكشاف الذات، من ذلك مثلًا ما جاء عن حلم يكشف في تداعياته الحرة عن أن «من الواضح أن فكرة السرقة الفكرية – أي تملّك أيّ كان لشيء ما وإن كان ملكًا لغيره – تؤدي إلى الجزء الثاني من الحلم الذي تم التعامل معي فيه وكأني لص امتهن لمدة سرقة المعاطف في قاعة المحاضرات»[33].

بقدر ما كان فرويد يسعى إلى الكشف عن «السر» الكامن وراء الأحلام، بقدر ما كان يعي جيّدًا حقيقة «الانتقاد الموجّه إليه لعدم قدرته على حفظ السر»[34]. واعتبر فرويد بأن تحقيق رغبة في حلم ما ربما «تكمن، كما جاء على لسانه، في أن أعرف أني رجل أمين... وبالتالي لا بد أن تحضر جميع المواد في أفكار الحلم التي تحتوي تناقضًا من هذا القبيل»[35].

ويعلم فرويد أن «تفسير ونقل حلم شخص آخر يتطلب درجة عالية من ضبط النفس بحيث يتحتم على المرء أن يظهر كأنه النذل الوحيد بين حشد من الشخصيات النبيلة التي تشاركه حياته»[36]. لم يكن نشر كتاب تفسير **الأحلام** هينًا على فرويد إذ اضطر إلى التنازل عن أوهامه الذاتية ومصارعة ذاته حتى أنه قال: «لقد كان عليّ من أجل ذلك أن أتخلى عن الكثير جدًّا من حيثيات حياتي الخاصة»[37]، ورغم ما ميّز فرويد من برود وجفاء، وأن علاقاته مع مرضاه نادرًا ما تكون متينة، إلا أنه من خلال هذا الكتاب كشف للعالم بأسره عن حيثيات خاصة جدًّا من حياته.

يعتبر كتاب فرويد مخزنًا كبيرًا لكل ما يتعلق بشخصيته حتى أن ظهوره أحدث منعطفًا في ذلك العصر؛ من ذلك مثلًا أنه استطاع في نظريته في العصاب الآخذة في التطور بشكل متسارع، وخصوصًا في دور الجنس في ذلك، «أن ينأى بنفسه عن الخوض في القذارة الإنسانية» [38]، كان مجبرًا على الاعتراف بعوالم في الشخصية كان معظم معاصريه يترددون في الاعتراف بها، ناهيك عن نشرها في كتاب. وقال فرويد «لا أجد مشكلة في كتمان الشكوى، ولكن لا أستطيع أن أنسى أدق التفاصيل في حادثة آلمتني»[39]. وتصديقًا لرؤيته العامة للعالم، انتاب فرويد شعور عبّر عنه بقوله «لقد أحسست دائمًا أني أدفع بسخاء لقاء أية استفادة يمكن أن أحصل عليها من الآخرين»[40]، لقد «تعلقت أفكار أحلامي بمستقبل عائلتي بعد موتي المبكر وعبرت عن تصورات مكفهرة لمستقبل مجهول وموحش»[41].

مع ذلك ظل سبب اهتمام فرويد بعملية تكون الحلم بهذه الجدية مستغلقًا على الفهم وإن كان بعض ما قاله ربما يشي بذلك كقوله: «إني أنام قرير العين، ولا أقبل أبدًا أن يُقضّ مضجعي... بحيث تحفزني الدوافع الجسدية بشكل واضح للحلم دون عناء»[42]. وقد افترض فرويد في البداية أنه «يمكن فك طلاسم السر الكامن وراء تكوّن الأحلام عن طريق البوح بمصدر إثارة جسدي يقيني»[43]. ورغم أن فرويد يعتقد أن أحلامه كانت بشكل عام «أقل ثراءً في ما يتعلق بالعناصر الحسية... مقارنة مع أحلام الآخرين»، إلا أن الخيال في

كتاباته اتخذ طابعًا تصويريًا دائمًا، ومن ثم فإن تصوّره حول أفكار الحلم «تحولت إلى لغة تصويرية» تنسجم مع طرائقه الشخصية في تفكيره[44].

يوحي وصف فرويد «لمكمن الحلم أو النقطة التي يتردى فيها إلى المجهول» بأن بعض مواطن اهتمامه العلمي تفلت من ضبط النفس[45]، فعادة ما يقارن اهتمامه بعلم المصريات القديم بمهمته في كشف النقاب عن الماضي اللاواعي، ففي كلا الحالتين يلعب الغموض والمجهول دورًا هامًا. وقد لاحظ فرويد ذات مرة قائلًا: «إن الغموض المحيّر الذي نخص به الأحلام لا يقارن بأي مستوى من مستويات الغموض الذي يحيط بالأشياء الحقيقية»[46]، ويعتبر فرويد أن «الحلم الواضح الذي لا شبهة فيه» حلمًا «مركّبًا بشكل متين»، وقد أشار ذات مرة إلى «الثغرات ومواطن الغموض والخلط التي قد تقطع استمرارية حتى أكثر الأحلام دقة ومتانة» - وهو ما يشي بوجود شيء ما مستحب في الحلم يناقض ما ظل «غريبًا» بالنسبة إليه[47]. ويبغض فرويد كل ما من شأنه أن يعكر صفوه حتى أنه اعتبر طائفة من الأحلام «بغيضة شأنها في ذلك شأن أحلام الامتحان، وهي ليست واضحة بتاتًا»[48]. وتتراتب الأحلام حسب فرويد بقدر حيويتها وانسجامها، ولأجل ذلك يفضل الأحلام التي تتجه نحو النور - أي الوضوح والفهم الكامل «أكثر من تلك التي تتجه نحو العتمة»[49].

وسواء كانت الدوافع التي قادت فرويد لدراسة الأحلام ذاتية أم عيادية فقد جاءت نظريته متطابقة تمامًا مع شخصيته. وبما أنه مشّاء لا يكل فقد دعا قارئ تفسير الأحلام ليصطحبه في رحلة خيالية. وأظهر فرويد في شرح معنى الأحلام عبقرية تلمودية دفعت بعض القراء إلى اعتبار أطروحته أبعد ما تكون عن الواقع. ورغم ذلك كانت لفرويد الجرأة لأن ينظر في مواد علم النفس التي تجاهلها غيره، وأن يبني انطلاقًا منها أفكارًا ثاقبة لم يسبقه إليها أحد من قبل. ولا يعني ذلك أنه لم يسبقه أحد في هذا المجال، وإنما بذل قصارى جهده بوعي وضمير في تفحص كل ما كتب حول الأحلام ثم ظل على الدوام يقتبس لاحقًا مواد تثبت ما ذهب إليه في نظريته، اكتشفها له تلاميذه.

وبعدما وجد فرويد «الحل» لمشكلة الأحلام، وقد استفاد في ذلك من عناده، سعى إلى استخلاص أكبر قدر من المعنى من نظريته في الأحلام بقدر استطاعته، حتى يضع أسس نظرية عامة في العقل. ولما كان الحلم تحقيقًا مكتومًا لرغبات مكبوتة، فقد أصبح في عقيدة فرويد بمثابة «حارس النوم وليس مقلقه»[50]. وبعد نصف قرن من ذلك أصبح

لدينا دليل مخبري يؤيد ذلك – التشويش بما هو سيكولوجيًّا حرمان الشخص من أحلامه رغم توفر القدر الكافي من النوم – ولكن فرويد استند في تفسيره إلى أساس عقلي هشّ إلى أبعد حد، لأنه من المنطقي بالنسبة إليه، إذا كان ما يتبقى من تجارب يومنا قد يزعج نومنا، فإن الأحلام تحرسه. وتمثل أفكار الحلم الخفية ماضي طفولة الشخص، واعتقد فرويد أنه بالنسبة إليه كما بالنسبة للآخرين «يظل تأثير الإهانة التي تعرضنا لها منذ ثلاثين عامًا خلت قائمًا تمامًا كما لو كنا نتعرّض لها لأول مرة طوال الثلاثين عامًا...»[51]. ورغم أن فرويد كان يأمل في أن يستعيض يومًا ما عن النظرية السيكولوجية بأخرى فسيولوجية، فقد اقتنع بأن الماضي الطفولي هو الوجه «الشيطاني» للحلم. وقد تكون نظريته «فظة» إلا أنها «على الأقل واضحة»[52]. وبعد ذلك بسنوات، أكد أن رؤيته للجهاز العقلي عادة ما تنقسم من الناحية المنطقية إلى جزأين. وألح على أن غايته «كشف النقاب... لا فقط عن رغبات الحلم الشريرة المراقبة، ولكن أيضًا عن الرقابة التي كبتتها وحالت دون إدراكها»[53].

ومن هذه الناحية يمكن القول بأنه لم يطرأ أبدًا أيّ تغيير جوهري في موقف فرويد خلال سنوات نضجه. وقد أكد فرويد في تلك الفترة، كما في سنواته الأخيرة، على الجوانب المتكاملة للشخصية بينما انشدّ في معظم حياته المهنية في التحليل النفسي إلى الجوانب المكبوتة والغريزية، وإذ ظل مجاله بصفة عامة متّحدًا بشكل واضح جدًّا وإن اكتسب بعض الأفكار الثاقبة وأحرز تقدمًا في الأسلوب فمن الواضح أنه كثيرًا ما كان يهتم في كتاباته بنفس الأفكار من جديد.

وما إن توصل فرويد إلى نظرية الأحلام حتى بادر بربطها مباشرة بباقي انهمامه العلاجي. فللأعراض العصابية معنى، شأنها في ذلك شأن الأحلام، وهي كذلك بمثابة تكوينات توفيقية بين الدوافع المكبوتة وعوامل مراقبة العقل. «تؤول النظرية التي تحكم جميع الأعراض العصابية النفسية إلى افتراض واحد يؤكد أيضًا على أنها ليست سوى تحقيقًا لرغبات اللاوعي»، أو «بمعنى أصح»، يضيف فرويد، «جزء من العرض يتطابق مع إشباع رغبات اللاوعي وآخر يتطابق مع بنية العقل يمنع الرغبة من التحقق»[54].

ما من انفعال فهمه فرويد حقًّا وظل يكتب حوله مرارًا وتكرارًا أكثر من القلق. ففي فترة **مُؤلَّفه تفسير الأحلام**، استنتج أن القلق العصابي ينشأ عن مصادر جنسية[55]. وظل متمسكًا باعتقاد ثابت في المعنى الحرفي لنظريته في الليبيدو (الليبيدو مصطلح يُعبِّر عن القوة التي

تظهر بواسطتها الغريزة الجنسية ذاتها)، وللعصاب أساس جسدي في لعن الرغبة الجنسية. وتتحوّل هذه الرغبة الجنسية بفعل الكبت (وهو ما يعرف في نظريته في الأحلام بالرقابة) إلى مصدر قلق. ورغم مراجعة فرويد لنظرية القلق هذه في عشرينيات القرن العشرين، حيث اعتبرها آنذاك أساسًا إشارة خطيرة للأنا، إلا أن وجهة نظره الأولى هي التي سادت في جُل عمله النظري وفي كل عمله العيادي تقريبًا.

ينسجم اعتبار الجنسانية كمصدر أساسيّ للقلق العصابي مع قصص الإغواء التي كان يرويها مرضى فرويد، حيث بدوا وكأنهم يحتفظون بخيالات من الإشباع الجنسي تعود إلى سن الطفولة المبكرة. وقد قادت هذه الملاحظة فرويد إلى «حقيقة الجنسانية الطفولية»، الفكرة التي تقول إن «الحياة الجنسية للإنسان لا تبدأ فقط مع فترة البلوغ كما قد تبدو خلال المعاينة الدقيقة»[56]. اكتشف فرويد عقدة أوديب: «أول تعلُّق للبنت يكون بأبيها وأولى رغبات الولد الطفولية تكون بأمه»[57]. كما كانت صراعات الآباء والأبناء نصب عينيّ فرويد دائمًا إذ يتذكر الخرافة الإغريقية أن «كرونوس التهم أطفاله... بينما خصى زيوس أباه ونصب نفسه حاكمًا مكانه»[58]. أصبحت عقدة أوديب عند فرويد أوسع نطاقًا «موقف عاطفي للشخص تجاه عائلته أو بمعنى أضيق تجاه أبيه وأمه...»[59].

اعتقد فرويد أن المرء مضطر إلى الاعتراف بالجنسانية كما هي ناهيك أنه هو ذاته لم ينكرها على نفسه تمامًا، إلا أن لديه إحساسًا على ما يبدو بأن الجنس شيء معيب ضمن بعض الوجوه كما كان يُنظر إليه في الفكر الفيكتوري النقي مشيرًا إلى «الحياة الجنسية» باستعمال اللغة اللاتينية[60]. ولكن مثّل توسيعه للفهم العادي للجنسانية في عصره استحداثًا جذريًّا حتى أنه اعتبر أن «رضاعة الطفل من صدر أمه صارت النموذج الأولي لكل علاقة حب. فاكتشاف شيء ليس في الحقيقة سوى إعادة اكتشاف له»[61]. وما حفز اهتمام فرويد عياديًّا بالجنسانية هو عدم أمانة مرضاه حيال الجنسانية، فيما اعتقد هو أنها السبب الرئيس لاضطراباتهم حيث قال «كلما تعلق الأمر بالجنسانية، لسنا جميعًا سوى منافقين سواء أكنا مرضى أم أسوياء»[62].

من بين ضمنيات نظرية فرويد عن الجنسانية الطفولية القول بأن للأطفال حياة عاطفية معقدة جدًّا ينبغي أن نأخذها بعين الاعتبار بشكل جدّي. وبطبيعة الحال، لم يكن فرويد يتعامل مع الأطفال بشكل مباشر ولا كان يلاحظ أطفاله المقربين جدًّا، ولكن بُلورت ملاحظاته في هذا الشأن انطلاقًا من ذكريات وتداعيات مرضاه البالغين. ولذلك يعدّ كما

يقول «نصرًا مبينًا عندما صار في الإمكان خلال السنوات اللاحقة تأكيد كل استنتاجاتي عن طريق الملاحظة المباشرة لأطفال صغار جدًا وتحليلهم...»[63]. ويدرك فرويد أن نمو الطفولة يحدث بسرعة جدًّا بحيث قد يتعذر علينا النجاح تمامًا في إحكام قبضتنا على صورها سريعة الزوال عن طريق الملاحظات المباشرة»[64]، غير أن فرويد اعترف أن خلل التحليل يكمن في عيب في دراسة الأطفال.

صَدَم فرويد الكثير من القراء عندما أشار إلى أن الطفل ليس فقط كائنًا جنسيًّا ولكن أيضًا: «شاذ متعدد مورفولوجيًّا» (وفي ما بعد استخدم أحد تلاميذه، ويدعى فيلهالم ستيكل، مصطلح أقل حدة وهو «مصاب بجنون الارتياب»)، وكان كثيرًا ما يناقش الجنسانية الطفولية وشذوذ البالغين في آن واحد حيث يقول «تكاد تكون النشاطات الجنسية للأطفال إلى حد الآن مهملة تمامًا ورغم أن نشاطات الشواذ حظيت إلى حد الآن بالاهتمام فإن ذلك عادة ما يكون بتحفظ أخلاقي ودون تفهم»[65]. ويعتقد فرويد بأن شذوذ البالغين ليس إلا مجرد نتيجة تطورية خاصة للفشل في دمج الدوافع المتنوعة التي تكوّن الطفولة ضمن اتجاه جنسي مغاير[66]. ويختلف العصابيون، بمعنى ما، عن الشواذ، فقلقهم مكبوت وليس فاعلًا. وقد اجتهد فرويد في استخلاص فهمه للشواذ (ويعني بهم، عمومًا، المثليين) من ماضيهم الطفولي حيث يقول «إذا... تبيّن لنا عمومًا استخلاص الشذوذ من عقدة أوديب فستتعزز أهميتها بالنسبة إلينا أكثر»[67].

ورغم بغضه الشخصي للشواذ وتردده في قبول معالجتهم بالتحليل النفسي (لأنه في تقديره يتناسب أكثر مع العصابيين)، فقد أصر فرويد دائمًا على «أنه من غير المناسب أبدًا استخدام لفظ شذوذ كمصطلح للتوبيخ»[68]، وكان اللغو السمة الغالبة في عصره وهو الأشد كرهًا بالنسبة إليه:

> **«على الرأي العام أن يستوعب مناقشة مشاكل الحياة الجنسية. لا بد أن يصبح التحدث عن هذه الأشياء متاحًا دون أن تتهم بأنك مثير للمشاكل أو أنك تعلّي من شأن الغرائز الدنيا. وقد نحتاج إلى بذل جهد كبير على امتداد القرن القادم - لكي تتصالح حضارتنا مع مطالبنا الجنسية»[69].**

لا يضمر هذا الانفتاح الفكري بالضرورة دفاعًا عن «الحب الحر»، فقد كان فرويد يعتقد على النقيض من ذلك بأن «التخلي المتقدم عن الغرائز الجسدية... يبدو أحد أسس تطوّر الحضارة الإنسانية»[70].

ليس تجنيًا أن يرتبط اسم فرويد بالجنسانية، فقد قال فرويد في عام 1898 إن «الأسباب الأكثر آنية والأكثر أهمية من أجل أغراض عملية، في كل حالة من حالات الأمراض العصابية، تجد جذورها في عوامل ناشئة عن الحياة الجنسية»[71]. وحين يشير فرويد إلى حياة المريض الجنسية يدور بخلده «حياته الجنسية الحالية» وكذلك «أهم الأحداث التي جرت في ماضيه»[72]. «ففي كل حالة من حالات العصاب يكون سبب المرض من طبيعة جنسية، ولكن في حالة النورستانيا (الوهن العصبي) يكون سبب المرض مقترنًا بالزمن الحاضر، بينما تكمن أسباب العصاب النفسي في عوامل تعود إلى فترة الطفولة»[73]. وقد أدرك فرويد أنه قد يكون مشينًا من الناحية العلمية اتباع هذا النهج الفكري، ولكنه ذهب أبعد من ذلك إلى حد اعتبار: «الاختلافات بين السويّ والمريض قد تكمن فقط في القوة النسبية للمكونات الفردية للغريزة الجنسية وفي استخدامها أثناء نموها»[74]. يفترض فرويد في الآن أحيانًا حدودًا للنظرية الجنسية حيث يقول:

«لم يحدث أبدًا أن استبدلتُ العامل الجنسي كسبب للعصاب بأي سبب آخر أو أكدتُ على أن سببًا آخر غير العامل الجنسي عديم الفاعلية. فهذا لا يعدو أن يكون إلا سوء فهم. أعتقد، بالأحرى، أنه بالإضافة إلى كل العوامل المسببة للمرض المألوفة التي نعرفها – وربما تكون صحيحة – بحسب الجهات المختصة، التي تؤدي إلى الوهن العصبي، ينبغي أن نأخذ في عين الاعتبار العوامل الجنسية التي لا تلقى ترحيبًا كبيرًا إلى حد الآن»[75].

وقال أيضًا:

«إن الحاجة الجنسية كما الحرمان ليسا سوى عاملين ضمن عوامل أخرى تساعد على تكون آلية العصاب. وإذا لم تكن هناك عوامل أخرى فإن الأمر لن يتعلق عندئذ بمرض وإنما بانهماك في الملذات والشهوات. وأما العامل الآخر، الذي لا يقل أهمية، ويسهل نسيانه بسرعة هو النفور العصابي من الجنس، وعدم قدرة الشخص على الحب، وتلك سمة العقل التي أسميها «الكبت»[76].

قامت جميع أعمال فرويد حول الأحلام والأعراض على افتراض محوري حول وظيفة ما اصطلح عليه «الجهاز العقلي» أي أن «نشاطنا العقلي برمته يستهدف تحقيق اللذة وتجنب الألم»[77].

«يتطابق الألم (أو انعدام اللذة) مع زيادة في كمية الإثارة، واللذة مع نقصانها...

يحاول الجهاز العقلي أن يحافظ على كمية الإثارة الموجودة فيه أقل ما يمكن، أو على الأقل يحافظ على ثباتها... يوجد في العقل ميل شديد نحو مبدأ اللذة»[78].

يعتبر فرويد أن مهمة العقل الرئيسة مهمة سالبة وتتمثل في التخلص من التوتر، وإذا كان التوتر يعني «انعدام اللذة»، فإن العقل يساعد عندئذ على التخلص من التوتر وتحقيق الراحة. ولمّا تقدم فرويد في السن اعتزل تدريجيًا العالم وصار أكثر اقتناعًا بأن «الوظيفة الأكثر أهمية تقريبًا بالنسبة للكائنات الحية ليست في استقبال المثيرات بل في الاحتماء منها»[79].

يعتقد فرويد في الآن ذاته بأن شيئًا ما أشبه بواحد من الشياطين السبعة الرئيسة يظهر في أعماق النفس البشرية حيث يشير مرارًا إلى نفسه كمستكشف أماط اللثام عن بقايا الكنز الأثري المدفون. وأثبت نيتشه إصرار فرويد على أن «أعلى الفضائل لدينا نمت كتفاعل من تكوين وإعلاء ناتجين عن أسوأ حالاتنا المزاجية»[80]، ونعرف جيّدًا كم تردد فرويد في تسمية العالم البشري الخفي. وإذ فضل جانيه Janet مصطلح «اللاشعور» حتى يميزه عن الدلالات الميتافيزيقية لمفهوم «اللاوعي» في الفكر الألماني[81]، فإن فرويد اختار «اللاوعي» كمصطلح إذ يؤكد على أن الانفعالات والعواطف ليست في المتناول فقط بل هي قبل كل شيء لا واعية. وكما صرح بذلك «نحن مجبرون على الافتراض الذي لا مفر منه بأن للناس أغراضًا قد تؤثر فيهم دون علمهم»[82].

ربما يظهر فرويد للكثيرين، بسبب طبيعة أفكاره في بداية عمره، كمجرد متخصص في علم الجنس مختلف، وإذا ما أخذنا في عين الاعتبار خطأه بشأن قصص الإغواء، فسيكون عندئذ غير موثوق به في هذا الصدد. ولكن تظل وجهة نظر فرويد الخاصة ها هنا وجهة نظر عالم نفس. فقد حاول استكناه خفايا الذاكرة وفقدانها والذكريات الكاذبة («خطل الذاكرة»). إن التكوينات التوفيقية التي يقوم بها العقل في بناء الذاكرة تشبه التكوينات التوفيقية في الأحلام وأيضًا في الأعراض العصابية الكامنة. لقد نظر فرويد إلى مشكلة الذاكرة من زاوية تصريف الطاقة النفسية، وفي ذلك تساءل مرة: «ماذا عن سعيي الدائم لتبرير تصريف الذاكرة؟»[83]، واستخدم سيكولوجيته في الذاكرة من أجل فهم كيف يمكن للماضي أن يستمر في الحاضر. كان فرويد على وعي تام بأن «أثر الذاكرة يتجاوز أثر الحدث نفسه» حتى أنه أكد أن «صدمات» (التي يمكن أن نسميها الآن «ضغوط») الطفولة «تعمل بطريقة مؤجلة كما لو كانت تجارب راهنة إلا أنها تفعل ذلك بطريقة لا واعية»[84]،

ويمكن للأعراض الهستيرية بصفة خاصة «أن تنشأ فقط بالتعاون مع الذكريات...»[85]، وخوَّل فرويد في ما بعد القوة التي عزاها إلى «الرجحان الذي نوليه لآثار الذاكرة في الحياة العقلية بالمقارنة مع الانطباعات الراهنة. ويستند هذا العامل بشكل واضح على التنشئة الثقافية ويزداد طرديًا مع تطور ثقافة الشخص»[86].

يعتبر فرويد التحليل النفسي استكشافًا للماضي. وقد جاء في سجل المرضى ما يلي: «ليس بوسع التحليل النفسي أن يفسر الحاضر دون استحضار الماضي... استحضار يسبر أغوار الطفولة الباكرة»[87]، وأكد فرويد في تفسير الأحلام على أنه «انقاد إلى افتراض أن الانطباعات التي تعود إلى السنة الثانية من العمر، وربما أحيانًا إلى السنة الأولى منه تترك أثرًا دائمًا في الحياة العاطفية لأولئك الذين يقعون في المرض لاحقًا»[88]. وقد صاغ فرويد، قبل الحرب العالمية الأولى، هذه المسألة بطريقة مختلفة إلى حد ما، ولكنها لم تكن بأي شكل كافية لتغيير وجهة نظره بحيث تصبح أقل تطرفًا حيث قال «عادة ما يكتمل المخلوق الصغير في الرابعة أو الخامسة من عمره، ثم بعد ذلك يطفو على السطح تدريجيًا ما كان استبطنه في أعماق ذاته في سن الحداثة»[89]. وطالما أننا نحتفظ جميعًا بالطفل في أعماق ذواتنا، فلا بد أن يكون لامتداد طور تبعية الطفل وعدم نضجه آثاره الدائمة في ذواتنا. ولما كانت أنانية اللاوعي الخاصة «تتصف بعدم الاستقرار وصلابتها التي لا تلين وانعدام القدرة على التفاعل مع الظروف الواقعية»[90]، بحسب فرويد نفسه، فإن هذا يتوافق مع تأكيده على استمرار أنماط ردود الفعل الطفولية حتى عند البلوغ.

لم يحول فرويد مجال انهمام علم النفس من الأحلام إلى العصاب فحسب، لكن تبين له أيضًا أن الذاكرة تساهم في زلات اللسان والقلم العادية، تلك التي لم يكن لها معنى من قبل وترد إلى المجهول، فالزلات في نظرية فرويد تنتج عن صراع داخلي وفي ذلك يقول:

لا أعتقد، أنه يمكن لأي شخص، فعلًا، أن يتصنَّع زلة لسان أمام من يستمع إليه بمحض إرادته، كما في البوح بالحب بجدية أو في الدفاع عن شرفه أو اسمه أمام هيئة المحلفين – وباختصار في كل المناسبات التي يكون فيها الشخص ملتزمًا بملء قلبه وروحه»[91].

واعتبارًا للاتفاق الموجود من قبل القراء، على الأقل، بشأن بعض الأمثلة التي قدمها، كان فرويد يأمل أن يكسب دعمًا أوسع لباقي نظرياته حيث يقول إن: «الناس يعطون زلات

لسان أخرى نفس التفسير الذي أعلنته في هذا الكتاب رغم أنهم لا يؤيدون وجهات نظري التي قدمتها سابقًا...»[92]. وقد تبيّن لفرويد أن تفسيره لزلات اللسان قاده إلى اكتشاف طريقة سرية أخرى للعقل.

عمّم فرويد أمثلته في صيغة المبدأ التالي: «انعدام اللذة أساس النسيان»[93]. ولذلك تتوافق نظرية الزلات تمامًا مع نظريات العصاب والأحلام. وبخلاف الأعراض العصابية، يزل لسان ما يسمى إنسانًا سويًّا كما يزل لسان غير «السويّ». ولكن رغم أنه ليس من عادة فرويد محاولة التغلب على مقاومات المريض أثناء محاولة فهم زلة لسان، إلا أن اختياره للمجازات يطغى عليه الطابع العقابي، ولنا في خطابه إلى متلقٍ خيالي خير دليل على ذلك:

«عندما يعترف شخص متهم بارتكاب جريمة أمام القاضي بجرمه، يصدق القاضي اعترافه، ولكن إذا ما أنكر فلن يصدقه... ألا تعتبر نفسك قاضيًا؟ ألا ترى أن الشخص الذي زل لسانه أمامك متهم؟ أليست زلة اللسان جريمة عندئذ؟ ليس لنا إذن إلا أن نستسيغ هذه المقارنة»[94].

6 - العلاج بواسطة الكلام

رغم توسّع نطاق علم النفس ورغم طموح أهدافه القصوى كما صاغها فرويد، إلا أنه ما فتئ يذكّر قراءه بأنه «لا بد ألا ننسى... أن التحليل النفسي لا يمكن أن يقدِّم صورة كاملة عن العالم»[1]، وأن «التحليل النفسي لا يعدو أن يكون إلا جزءًا من علم النفس... وليس كل علم النفس يقينًا، ولكنه بنيته التحتية، وربما حتى الأساس الذي يقوم عليه برمته»[2]. سعى فرويد من خلال دراسة باثولوجية إلى تمييز السويّ، ولو بشكل مبالغ فيه: «تنبهنا الباثولوجيا، عبر تضخيمها للأشياء وجعلها أكثر قسوة، إلى الظروف العادية التي لولاها لأفلتت منا»[3].

يقول «أفضّل معالجة الموضوع في صيغة شذرات مع التركيز على النقاط التي تبدو لي أساسية أكثر»[4]. اعترف فرويد في مناسبات عديدة بأنه «متحيّز» واعتقد أنه «لا بد للمرء أن يكون متحيزًا حتى يتبدّى له ما يخفيه الآخرون»[5]. دافع خاصة عن التحليل النفسي ضد اتهامه بالقصور:

«إن معارضة تديننا بالتحيّز في تقديرنا للغرائز الجنسية، لا تتسم بالذكاء... إن تحيّزنا كتحيّز الكيميائي، الذي يرد كل العناصر إلى قوة الجاذبية الكيميائية دون أن يعني

ذلك أنه ينكر قوة الجاذبية ولكنه يعتبرها شأن الفيزيائي»[6].

وبينما اختار كتّاب الاستيطيقا أن يركزوا على «المشاعر ذات الطبيعة الإيجابية» - في ما يتعلق «بما هو جميل، جذاب وجليل» - اهتم فرويد دائمًا بـ«المشاعر المضادة، مشاعر النفور والكدر»[7]. وفي الغالب لا يدفع المرضى لمن يعالجهم من أجل أن يتدبر أمر ما هو متجانس في شخصيتهم، وإنما بالأحرى من أجل التكفّل بالمشاكل المؤلمة وغير المرحب بها. وكمحلل ممارس استطاع فرويد أن يُبرِّر تركيزه على العوائق التي تعترض حياة الناس أكثر من نجاحاتهم.

ودون التقليل من أهمية الأنماط الأخرى من الدوافع، ركز فرويد على الطفولية منها بما أن «الدوافع الأخرى مألوفة»[8]، ولذلك زعم أن «الاشتغال على مسألة الاستعداد للانفعالات العصابية يفترض أيضًا العامل «الطفولي» إضافة إلى العوامل الجسدية والوراثية المكتشفة حتى الآن»[9]. ونظرًا للمساهمة الخاصة لأفكاره، استطاع فرويد أن يبرر خصوصية حركته حيث قال: «يجب ألا يتسلل للتحليل النفسي أي افتراض يكون غريبًا عنه سواء كان تشريحيًا أو كيميائيًا أو فسيولوجيًا ولا بد أن يستند إلى أفكار ذات معجمية سيكولوجية خالصة تمامًا...»[10]. وفي الآن ذاته لم يخفِ فرويد إحساسه كما جاء على لسانه: «بأن البنية النظرية للتحليل النفسي التي أنشأناها، هي، في الحقيقة، بنية فوقية ينبغي لها أن تعيّن في يوم من الأيام أساسه الجوهري»[11].

كان فرويد بحكم تخصصه العلمي حذرًا دائمًا بشأن طبيعة نتائجه؛ من ذلك أنه حذرنا قائلًا: «يجب ألا يضللنا الطابع الافتراضي لمعرفتنا وعدم وضوحها الكافي...»[12]، وقد استاء من خصومه إذ يعتبرون التحليل النفسي، كما يقول:

> **«ثمرة خيالي المتأمل حتى أنهم لا يتورعون عن انتقاص العمل المضني طيلة سنوات وما تطلبه من أناة وصبر وعدم تحيز - ذلك أن التحليل النفسي، في تقديرهم، لا علاقة له بالملاحظة أو التجربة، ولا حاجة لهم للتجربة لتبرير رفضه»**[13].

أشار فرويد مرارًا إلى «واقعية» نتائجه قائلًا: «لقد توصلنا إليها بفضل ما بذلناه في سبيل ذلك من جهود مضنية»[14]. وقد حاول مقاومة دافع «تعقب التشبيهات إلى حد التطرف الوسواسي» وعبّر عن استعداده «للإذعان إلى الدليل» متى توفر[15]. وجاء في عبارة بليغة له في شأن الصبر صارت مضرب الأمثال: «المستقبل كفيل بتأكيد نتائجي»[16].

شارك فرويد العلماء في موقفهم تجاه الماضي حيث يقول: «كان أجدادنا أجهل منا بكثير»[17] ولكنه اعتقد أن: «المعرفة المحدودة للأهمية العظمى للعوامل الجنسية في تكون العصاب (المعرفة التي أحاول أن أبث عبرها نفسًا جديدًا في العلم) لم تكن غائبة تمامًا في ما يبدو عن وعي الشخص العادي»[18]، وما إن «يتوقف إنكار صحة التحليل النفسي فلن يصعب علينا عندئذ مناقشة أصالته»[19].

«أعلم حق العلم أن الحديث عن أسباب جنسية للعصاب ليس جديدًا وأن هناك تيارات خفية في مجال الطب تأخذ هذه الحقائق في الاعتبار. وأعلم أيضًا أن الطب الأكاديمي الرسمي على وعي بها. ولكنه يتصرَّف وكأنه لا يعلم عنها شيئًا ولم يستغل معرفته تلك ولم يستخلص منها أيّ استدلالات»[20].

وعندما كتب فرويد عن أعراض زلات اللسان قال في نبرة لا تخلو من سخرية: «إذا تعلق الأمر بهذا الموضوع فلا يسعني إلا أن أعترف، بشكل استثنائي، بقيمة ما أنجز في شأنه سابقًا». ثم ما لبث أن قال: «كم تختلف كثيرًا تلكم المقاربات عن مقاربتي»[21].

بقدر ما تاق فرويد لأن يكون رائدًا في تقدم العلم، بقدر ما كان واعيًا بأنه «ما زال الكثير مما يتعيّن قوله في ما يتعلق بمسألة الأصالة العملية الظاهرية»، وقد جاء في قوله ما يفيد باعترافه بذلك: «إن أصالة الكثير من أفكاري الجديدة التي وظفتها في تفسير الأحلام وفي التحليل النفسي كان يمكن لها أن تتبخر»[22]. ويشيد فرويد باستمرار بالقدرات السيكولوجية للكتّاب من ذوي الخيال الواسع قائلًا:

«قد نتنفس الصعداء من الفكرة التي تقول بإمكانية إنقاذ أعمق الحقائق دون أدنى جهد من دوامة مشاعرنا رغم أن ذلك قد لا يكون متاحًا إلا للبعض، تلك الحقائق التي يجب أن يهتدي إليها الجميع عبر الشك مهما يكن مؤلمًا وعبر سعي دؤوب»[23].

ويسعى فرويد أحيانًا الذي يعلم أنه غالبًا ما تشغل باله مسألة «أسبقية الأسلاف اللامعين» حتى يدحض اتهام التحليل النفسي «بالاعتداء على كرامة الجنس البشري»[24].

لعل الأصعب والأهم في الآن ذاته بالنسبة للآخرين أمام فوضى الأفكار الأصيلة التي ارتبطت باسم فرويد، هو صيغة المعالجة الخاصة التي أوصى بها. فالتحليل النفسي بالإضافة إلى كونه نظرية في علم النفس وطريقة في الملاحظة، هو نوع جديد في مجال العلاج. وقد قضى فرويد معظم أيامه في جناح من الغرف يبدو شكلها خانق بجوار شقته.

وكان يشعر أحيانًا بعدم الراحة نتيجة نقص الضوابط العلمية في جلساته العيادية، ولكنه برَّر ذلك بأن «التجربة حتى في علم الفلك مع الأجسام السماوية صعبة إلى حد كبير. وإن كان لا بد للمرء أن يستأنس للملاحظة»[25].

يعتقد فرويد غالبًا أن: «المستقبل ربما سيولي أهمية أعظم للتحليل النفسي كعلم للاوعي أكثر منه إجراءً علاجيًا»[26]. وفى سنواته الأخيرة شعر بخيبة أمل إزاء بعض النتائج العلاجية السابقة مؤكدًا في مقابل ذلك بشكل متزايد على النواحي العلمية في إنجازاته حيث قال:

«بدأ التحليل النفسي كطريقة في العلاج، لكني لا أريد أن تدينوه لمصلحتكم كطريقة علاج، وإنما باعتبار ما يتضمنه من حقائق واعتبارًا لما يوفره لنا من معطيات بشأن ما يتعلق بالكائنات البشرية أولًا - طبيعتها - واعتبارًا لما يميط اللثام عنه من العلاقات بين أنشطتها الأكثر اختلافًا، كونه طريقة في العلاج هو غيض من فيض، إلا أنها يقينًا تظل الأولى من بينها جميعًا»[27].

رسم فرويد خطًا فاصلًا بين أعمال تلاميذه وأعمال «الأطباء الذين يهتمون حصرًا بالنتائج العلاجية ويوظفون الطرق التحليلية فقط إلى حدود نقطه معينة»[28].

لقد كان فرويد في أعماله الباكرة غير متحفظ كثيرًا، ومتفائلًا في إمكانية تحقيق نجاح علاجي. ففي حين أشار الآخرون إلى أهمية الوراثة، اعتقد فرويد أن «اكتشاف عنصر الوراثة لا يعفينا... من البحث عن عامل [نفسي] مخصوص. والذي مثل اكتشافه، على وجه الصدفة، أساسًا لاهتمامنا العلاجي برمته»[29].

لقد ذهب ظن فرويد في ذلك الوقت إلى أن مرض الزهري جسر بين المرض العضوي والنفسي فيقول: «نسبة عالية جدًا من المرضى الذين عالجتهم عن طريق التحليل النفسي عانى أباؤهم من السل أو الشلل العام... هناك علاقة وثيقة جدًا بين الزهري لدى الأب والمكوِّن المرضي للعصاب لدى الأبناء»[30]. وجاء في فقرة من كتابه (**ثلاث مقالات حول نظرية الجنس**) الذي كتب أول مرة في عام 1905، ولم يراجع في طبعات أخرى، على لسان فرويد قوله: «لقد استطعت أن أثبت بما لا يدع مجالًا للشك، في أكثر حالات الهستيريا الحادة، والعصاب الهوسي وما إلى ذلك من التي عالجتها سيكولوجيًا، أن والد المريض يعاني من الزهري...»[31]. ورغم أن فرويد هجر في نهاية الأمر فكرة الأب المصاب بالزهري، إلا أن نظريته استمرت بافتراض أن الآباء اقترفوا خطأً ما في حق أطفالهم، وهو

ما أثار إعجاب الشباب بها. وقد أكد فرويد على أن: «الآباء يلعبون دورًا رئيسًا في الحياة العقلية للأطفال الذين يعانون لاحقًا من أمراض نفسية عصابية»(32)، يبدو هذا الحديث بديهيًا اليوم، إن لم يكن حشوًا في الكلام. بيد أنه لم يكن كذلك على أيام نشر كتاب تفسير الأحلام، حيث تطلّب اعتبار الحياة الأسرية العادية أصل العصاب جرأة غير عادية.

كتب فرويد ذات مرة أن: «نظرية العصاب هي التحليل النفسي ذاته»(33)، ولكن ليس هيّنًا تحديد ما يعنيه بعصابي على وجه الدقة. قال إن «الحد الفاصل بين السويّ وغير السويّ في ما يتعلق بالمسائل العصبية ضئيل جدًّا... فكلنا عصابيون إلى حد ما...»(34). ولقد اعتبر هذا على الأقل أساسًا على أمل أن يثبت من خلاله صحة كلية نتائجه العيادية. ولكننا، في الآن ذاته، نجده رغم ذلك يكتب عن نفسه بطريقة ما قبل فرويدية تمامًا حيث يقول «بوصفي فردًا سويًّا لا يعاني من العصاب»(35). وفي موضع آخر يتحدث عن مذكرات شخص يقول إنه «لم يكن عصابيًّا تمامًا أو أنه يعاني من عصاب محدود جدًّا»(36)(•). وكطبيب ممارس اعتبر فرويد «المرض» مسألة ذات طابع عملي أساسًا تتعلق بالمعاناة بغض النظر عن حجمها. «ولكن إذا ما أخذنا في عين الاعتبار طابعها النظري وغضينا الطرف عن مسألة الكمّ، فعندئذ بإمكاننا أن نقول دون تناقض أننا كلنا مرضى، وإذن عصابيون...»(37).

يمكن اعتبار الأعراض، طبقًا لنظرية فرويد، «بشكل خاص بمثابة إشباع بديل لما فقد في الحياة»(38). ولنا أن نتعقب القوة «الشيطانية» الكامنة في العصاب في فشل المريض في التغلب على صدمة بدئية، ومن شأن المحاولات العاثرة في هذا الاتجاه أن تجعل الأمور أكثر سوءًا(39). وذات مرة عبّر ساندور فرينشيزي عن وجهة نظر المحلل النفسي قائلًا: «يعالج المريض في الواقع صراعاته العقلية عبر كبت واستبعاد أو تحويل العقد غير المرغوب فيها، وللأسف ما يكبته المريض يطفو على السطح من جديد عبر خلق تكوينات بديلة باهظة (فرويد). ولذلك ليس العصيان سوى محاولات علاج مجهضة (فرويد)....»(40). ولم يفترض فرويد أن غريزة مثل الجنس ينبغي أن تسيطر على حياة شخص، ولكن فقط لم يكن كبت مختلف مكوناتها عديم الجدوى، وعليه كما يقول «إننا نربط العصاب، هذا المصطلح الذي يفتقر للمتانة العلمية، بفكرة الكبت»(41).

مال فرويد في أيامه الأولى إلى التركيز على الأعراض بمعزل عن شخصية المريض

(•) يبدو من خلال هذا المقطع أن فرويد ينفي أن يكون له مذكراته، إلا أنه من البيّن أن الأمر يبدو وكأنه يتعلق ببعض التفاصيل التي تخص سيرة ذاتية.

(وحتى بمعزل عن خلفيته العائلية)، ولكن مع الوقت شعر أن علاج الأعراض المطوقة لم يكن بنفس قدر أهمية فهم العمليات التي يقوم عليها. قال: «بينما أعلنا في عام 1895 بتواضع بأنه يمكن أن نأخذ على عاتقنا إزالة أعراض الهستيريا فقط، وليس علاج الهستيريا ذاتها، فإن هذا التمييز بدا لي لا طائل من ورائه، ذلك أن الأمل يظل قائمًا في إمكانية علاج حقيقي للهستيريا والوساوس»[42].

أصبح هدف التحليل النفسي تخطي اضطرابات المريض السطحية الراهنة والتركيز على مصادرها الرئيسة. وخلال الحرب الأولى كتب فرويد «تستثني مهمة التحليل كما نؤديه اليوم إلى حد ما العلاج المنهجي لأي عرض قائم بذاته، ما لم نميّزه بشكل واضح تمامًا»[43]. وعندما بدأ يكرّس وقتًا أكثر لتدريب تلاميذه على التحليل، ووقت أقل لمعالجة المرض، أكثر ما كان عليه تحمله هو انفصاله عن نتائج العلاج، ففي سنواته الأولى، عندما كان يتعامل مع أناس صحتهم أضعف نسبيًّا، اضطر إلى التركيز أكثر على أصل أعراض معينة وعلاجها.

وفي عام 1904 كان اطلاع فرويد أكثر اتساعًا إلى الحد الذي يسمح له أن يكرِّس جهوده من أجل نجاح التحليل النفسي كتقنية علاجية، وأن يعلن أن «هناك طرقًا ووسائل كثيرة لممارسة العلاج النفسي. وتتمايز في ما بينها بمدى قدرتها على تحقيق الشفاء»[44]. غير أن في التحليل النفسي كانت ثمة أهداف خاصة جدًّا تدور في خلده. «إن الهدف العملي للعلاج هو إزالة كل الأعراض الممكنة واستبدالها بأفكار واعية، الأمر الذي كنا نعتبره هدفًا ثانويًّا ونظريًّا في ما يتعلق بتجاوز ما لحق الذاكرة من خسائر»[45]. ورغم أن فرويد صرح في موضع آخر بأن «تتمثل مهمة العلاج في تخطي فقدان الذاكرة تمامًا... يجب أن تُحل كل أشكال الكبت»، إلا أنه يعتقد أن: «الهدف من العلاج لن يكون أبدًا أي شيء غير الشفاء الفعلي للمريض، أي أن يستعيد قدرته على أن يعيش حياة فاعلة ويستعيد قدرته على الاستمتاع»[46].

لقد أعاق العصاب مرضى فرويد ومنع «تحرير قواهم العقلية من الانطواء»[47]. وقد بذل فرويد قصارى جهده ليؤكد أنه ليس للنصيحة ولا للتوجيه في شؤون الحياة أيّ دور جوهري في فاعلية التحليل:

«لقد تجنبنا أن نلعب دور المرشد على هذا النحو، فلا غرض لنا غير أن نجعل المريض يتخذ قراراته بنفسه... إلا أن يكون شخصًا غضًا أو عاجزًا أو أن يكونوا

أشخاصًا غير لائقين تعذر علينا أن نضع الحدود المناسبة لتدخلنا في شأنهم. فهؤلاء علينا أن نتعامل معهم كأطباء وكمربين في الآن ذاته، على أن نعي جيّدًا حدود مسؤوليتنا وأن نتصرّف بما يتطلبه ذلك من حذر»[48].

اعترف فرويد بأن التحليل الفعال المثالي بالنسبة إليه هو الذي يأخذ في عين الاعتبار في الغالب تغيّر متطلبات الوقائع العيادية:

«لا نستطيع أن نتجنب إخضاع بعض المرضى، العاجزين وغير القادرين على أن يعيشوا حياة طبيعية، للعلاج إذ يتطلب الأمر أن يجمع المعالج بين دور المحلل والمربي وما يقتضيه ذلك من فعالية، بل إنه في أغلب الحالات، يجد نفسه مضطرًا لأن يلعب دور الأستاذ أو المرشد على أن يكون شديد الحذر»[49].

لقد كان فرويد كمعالج براغماتيًا أكثر من بعض أتباعه اللاحقين (وغالبًا أكثر طموحًا في العلاج): «هناك حالات يتعيّن على الطبيب أيضًا أن يعترف بأنه إذا ما آل الصراع إلى عصاب فسيكون ذلك المآل أقل ضررًا ومقبولا اجتماعيًا...وليس من شأنه أن يتقيّد بأيّ موقف في الحياة وألا يتعصّب إلا للصحة». وبلغ الشك بفرويد في القيمة المطلقة للحالة الصحية أبعد من ذلك حتى اعتقد بأن «الضرورة قد تفرض على شخص التضحية بصحته...»[50]. وتتمثل مهمة «صيغة» التحليل النفسي التي يقول بها فرويد في «وعي كل الأشياء اللاواعية باثولوجيًا» أي سد «كل الثغرات في ذاكرة المريض، حتى يتخطى فقدان الذاكرة»[51]. بيد أن فرويد في عام 1937 كان أكثر وضوحًا في ما يتعلق بالحدود التي وضعها لأهداف التحليل:

«لن يكون هدفنا كشط كل الأشياء الغريبة الخاصة بشخصية الإنسان من أجل الحصول على تخطيط «سويّ»، ولا يطلب من الشخص الذي «يخضع لتحليل شامل» ألا يحس بأيّ عواطف وألا تتطوّر لديه أيّ صراعات داخلية. ولكن من شأن التحليل تأمين الظروف النفسية للأنا حتى يقوم بأدواره على أتمّ وجه، وذلك في علاقة المهمة المناطة بعهدته»[52].

بقدر ما كان فرويد يكره التبعية ولا يثق في طفولته بقدر ما كان يعتز باستقلاليته وبإحساسه بالحرية ويؤمن بتحقيق الذات كمثل أعلى. «يصبح الشخص العصابي بفضل العلاج إنسانًا آخر بالفعل، وبطبيعة الحال رغم أنه يظل كما هو، في العمق، فإنه يصبح، بمعنى ما، أحسن حالًا في ظل ظروف أفضل»[53]. وقد شارك فرويد نفس الأفكار الليبرالية لعصر التنوير في

القرن الثامن عشر بطرق شتى: «ليست حرية الشخص هبة الحضارة، فقد كانت أعظم هبة قبل أن توجد أيّ حضارة...»[54]. وبالرغم من تفهم فرويد لبعض العقبات العصبية جدًّا التي تمنع تحقيق استقلالية حقيقية، فقد آمن دائمًا بالمبدأ الليبرترياني (التحرري) الذي يقول بأن «على كل إنسان أن يتخيّر لنفسه الطريقة التي ينقذ بها نفسه»[55].

كان فرويد متزمّتًا ومقدامًا، وقد وضع نصب عينيه الكشف عن تضليل الذات كما كان مهووسًا بالتقصي مثله مثل بطله ليوناردو كما كان «متعصبًا للحقيقة» شأنه شأن إميل زولا حسب زعمه[56]. «يقوم العلاج بواسطة التحليل النفسي على المصداقية. وفي ذلك يكمن جزء كبير من فعاليته التربوية وقيمته الخلقية»[57]. ويميل فرويد إلى علاج قلق المريض الحالي باعتباره نوعًا من التملص من مشاكل عميقة مترسبة: «يكمن إلقاء الضوء فقط على المشاكل القديمة عندما يقودنا مسار التحليل إلى أبعد من الحاضر، ويجبرنا على أن نعرج إلى ما قبل فترة الطفولة»[58].

تبدو مقدمات جهود فرويد الأولية في التحليل النفسي اليوم عقلانية بشكل مبالغ فيه. وكتب فرويد: «حتى عندما تكون الصحة النفسية في أحسن أحوالها فإنه لا يمكن كبت اللاوعي بواسطة ما قبل الشعور تمامًا، ومقياس الكبت هو الذي يؤشر على درجة حالتنا النفسية السويّة»[59]. وبعد أن صار فرويد أكثر نضجًا لم يعد يتحدث عن الصحة التامة، بالتأكيد ليس في سياق مفهوم «الحالة السويّة» الغامض جدًّا ولكنه يعتقد أن «الأثر الجسدي والعاطفي للدافع الذي أصبحنا واعين به لا يمكن أن يكون أبدًا أقوى من ذاك الذي لا نعيه». حتى أنه لم يتجرّأ أبدًا على الادعاء «بأننا لا نتحكم في جميع دوافعنا إلا عن طريق تطبيق أسمى وظائفنا العقلية المرتبطة بالوعي»[60].

وفي عام 1913 اعترف فرويد كما جاء على لسانه «لقد اتخذنا في الأيام الأولى موقفًا من تقنية التحليل من وجهة نظر المثقف»[61]. ولكنه ظل مقتنعًا بأن «الأعراض لا تترتب البتة عن العمليات الواعية»، تمامًا مثل الاعتقاد المثالي بأنه «بمجرد أن تتحوّل عمليات اللاوعي المعنية إلى عمليات واعية يختفي العرض»[62]. يعتبر فرويد أن الذكاء هو الأعظم قدرة على التوحيد والملاذ الذهني الآمن الوحيد، «ما من وسيلة قادرة على التحكم في طبيعتنا الغريزية غير ذكائنا... المثل الأعلى السيكولوجي... هو أساس الذكاء»[63]. وعلى غرار سبينوزا من قبله، اعتبر فرويد المثقف أكثر الناس حرية طالما أن «القدر لا يمكن أن يفعل سوى القليل ضد المرء» عبر تصعيد الغرائز[64].

ومنذ أن تبنى فرويد فكرة (عبَّر عنها لاحقًا في عام 1932) أن «الفهم والعلاج يحدثان تقريبًا بشكل متزامن»[65]، اقتضى ذلك تدقيق النظر في ما إذا كان يمكن للمحلل أن يتقدم في مسار العلاج. وكما أشار فرويد إلى «المعنى الخفي للحلم»، فلكل عصابي «علاقة بسره-بعقدته...»[66]. وقد كان فرويد يقول للمريض بشكل صريح: «أرجع البصر إلى ذاتك وانظر إلى أعماقك وتعلَّم أولا أن تعرف نفسك! عندها ستدرك سبب مرضك، ومن ثمة قد تتجنّبه في المستقبل»[67].

ولما كان فرويد إكلينيكيًّا، فقد اعتقد أن قوى المريض على تضليل ذاته ستتحول تدريجيًّا خلال مسار العلاج ضد المحلل. بل إنه ذهب أبعد من ذلك ليؤكد «أن الوظيفة الأساسية للتحليل تتمثل في جعل المريض يتغلب على هذه المقاومات...»[68]. حتى أنه قدّم تعريفًا لـ«المقاومة» يفوق الوصف على «أنها كل ما يقطع تقدم التحليل...»[69]. وليس أدل على ذلك من «ما يبديه العصابي النمطي من مقاومة يبذل في سبيلها جهوده من أجل تحقيق استقلاليته الذاتية واستقلالية قراراته، وطموحه، تشبهًا بوالده أو أن يكون أفضل منه في المقام الأول، أو عدم استعداده في أن يتحمل وزر ردّ الجميل للمرة الثانية في حياته»[70].

قد تكون السمة المميزة في منهجية فرويد المفضلة في العلاج بواسطة التحليل الخالص هي تقصّي ردود أفعال المرضى التحويلية، إن لم يكن حشدها عمدًا، ثم تفسيرها من قبل المحلل. ويقصد فرويد من وراء ذلك «تحويل مشاعر (الماضي) إلى شخص الطبيب، بما أننا لا نعتقد أن الوضع العلاجي لا يبرر أي تطور لهذه المشاعر»[71]. ويستطيع المحلل عن طريق فهم هذا التحويل الولوج إلى لا وعي المريض، بينما لم تكن الطرق الإيحائية القديمة «تجد فتيلًا في ما يتعلق بكشف لا شعور المريض» [72]. ورغم أن فرويد حرص في عام 1912 على التمييز بين مشاعر المريض العاطفية الإيجابية وردود أفعاله السلبية غير العقلانية، فإن المعنى الحقيقي للتحويل، يتمثل في قدرة الوضع التحليلي على الكشف عن أنماط طفولية للمشاعر وذلك رغم ما يبدو عليه الشخص من تعقل. ذلك أن الدور الذي يلعبه ماضي الطفولة لا يتوقف عند أحلامنا بالليل. ومن هذه الناحية كان فرويد على صواب عندما قال «يظهر التحليل النفسي أسوأ ما في الشخص»[73]. وإلى هذا الحد كان الهدف من التحليل أن يستوعب في المقام الأول إثارة التحويل ومن ثم تجاوزها بطريقة عقلانية. كان كارل كراوس على صواب أيضًا عندما اعتقد أن التحليل هو المرض الذي يُفترض أنه علاجه.

وبقدر ما كان فرويد يبدو عقلانيًا ومثقفًا، بقدر ما كان أيضًا مهتمًا بأن يُظهر أن «ما يقلب الموازين» في «صراع» المريض العلاجي «ليس بصيرته الفكرية ـ التي لا هي قوية ولا هي حرة بما يكفي لهذا الإنجاز ـ ولكن ببساطة علاقته مع الطبيب ولا شيء غير ذلك»[74]. ما أراد فرويد من المحلل هو أن ينتظر المريض حتى يعرض المشاكل، مع التشديد فوق كل ذلك على أنه من وجهة نظر المحلل «لا بد أن يكون المرء دائمًا على وعي بما يفعل»[75].

الهوامش

1 ـ الصراع من أجل الاعتراف

(1) Jean-Paul Sartre, Anti-Semite and Jew, translated by George J. Becker, (New York: Grove Press; 1948), p. 114.

(2) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 422.

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 24.

(4) «On the History», p. 9.

(5) «An Autobiographical Study», p. 8.

(6) «The Question of Lay Analysis», p. 253.

(7) Letters, p. 98.

(8) Ibid., p. 89.

(9) «Autobiographical Note», Standard Edition, Vol. 3, p. 325.

(10) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 111.

(11) Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 88.

(12) Ibid., p. 79.

(13) «Abstracts of the Scientific Writings of Dr. Sigm. Freud», Standard Edition, Vol. 3, p. 233.

(14) تقول نسخة أخرى بأنه يمكن لكونغستين نفسه أن أضاف شيئًا ليجعل الحل أوضح، وبالتالي مخرِّبًا التجربة.

Cf. letter from Kurt Eissler to Ernest Jones, Nov.9, 1953 (Jones archives).

(15) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 170.

(16) «An Autobiographical Study», pp. 14-15.

(17) Wittels, Sigmund Freud, p. 25.

(18) Letters, p. 351.

(19) Sachs, Freud: Master and Friend (London: Imago; 1945), p. 69.

(20) Letter from Albert Hirst to Ernest Jones, Nov. 6, 1953, and letter from Ernest Jones to Albert Hirst, Nov. 10, 1953 (Jones archives). Interview with Albert Hirst.

(21) Letter from Albert Hirst to Anna Freud, Oct. 19, 1953, and letter from Kurt Eissler to Ernest Jones, Nov. 9, 1953 (Jones archives).

(22) Letter from Siegfried Bernfeld to Ernest Jones, Apr. 27, 1952 (Jones archives).

(23) Letters, p. 73.

(24) «The interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 487.

(25) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 3, 420.

(26) «The Psychopathology of Everyday Life», pp. 149-50.

(27) Ibid., p. 149.

(28) «Autobiographical Note», p. 325.

(29) «Report on My Studies in Paris and Berlin», Standard Edition, Vol. I, P. 10.

(30) «Preface and Footnotes to the translation of Charcot's Tuesday Lectures», Standard Edition, Vol. I, P. 135.

(31) Quoted in «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 3, p. 10.

(32) Wittels, Sigmund Freud, p. 28.

(33) «Charcot», Standard Edition, Vol. 3, pp. 17, 15, 12, 13.

(34) «On the History», p. 22.

(35) «Charcot», p. 11.

(36) Ibid., pp. 17, 15, 16, 18.

(37) Ibid., p. 19.

(38) Ibid., p. 17.

(39) «On the Psychical Mechanism of Hysterical Phenomena», Standard Edition, Vol. 3, p. 27.

(40) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 161.

(41) Henri F. Ellenberger, The Discovery of the Unconscious (New York: Basic Books; 1970), pp.331-417.

(42) Leston Havens, «Pierre Janet», The Journal of Nervous and Mental Disease, Vol. 143, No.5 (1966), p. 397.

(43) Ibid., p. 396.

(44) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 257.

(45) Quoted in James Jackson Putnam and Psychoanalysis, ed. Nathan Hale, Jr. (Cambridge: Harvard University Press; 1971),p.131.

(46) «An Autobiographical Study», p. 13.

(47) Quoted in E. A. Bennet, «The Freud Janet Controversy», British Medical Journal,

Jan. 2, 1965, pp. 52-53.

(48) «An Autobiographical Study», p. 31. Cf. Pierre Janet, Psychological Healing, Vol. I (New York: Macmillan 1925), pp.601-40.

2 ـ الأستاذ القديم: جوزيف بروير

(1) Alfred Schick, «The Vienna of Sigmund Freud», Psychoanalysis Review, Vol. 55, No.4 (Winter 1968-69), p. 543.

(2) «On the psychical Mechanism of Hysterical phenomena», pp. 35,30.

(3) Wittels, Sigmund Freud, p. 38.

(4 Quoted in «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 3,p.261.

(5) «Heredity and the Aetiology of the Neuroses», Standard Edition, Vol. 3, p. 151.

(6) «Freud's Psychoanalytic Procedure», Standard Edition, Vol. 7, p. 249.

(7) «Five Lectures on Psychoanalysis» Standard Edition, Vol. 11, p. 9.

(8) «On the History», p. 8.

(9) «Five Lectures on Psychoanalysis», p. 9.

(10) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 279.

(11) «On the History», pp.13-15.

(12) «An Autobiographical Study», p. 23.

(13) «On the History», p. 11.

(14) Ibid., pp. 8-9.

(15) Ibid., p. 9.

(16) Letter from Ernest Jones to James Strachey, Nov. 6, 1951 (Jones archives). Cf. Schur, Freud, pp.204, 216-17.

(17) «The Psychopathology of Everyday Life», pp. 137-38.

(18) Interview with Abraham Kardiner, Apr. 1, 1967.

(19) «An Autobiographical Study», p. 19.

(20) Ellenberger has done away with some myths. Cf. his «The Story of Anna O.», Journal of the History of the Behavioral Sciences, Vol. 8, No. 3 (July 1972), pp.267-79.

(21) «Josef Breuer», Standard Edition, Vol. 19, p. 280.

(22) «Josef Breuer», p. 280.

(23) Letters of Freud and Abraham, p. 386.

(24) Letter from Hannah Breuer to Ernest Jones, Apr. 21, 1954. (Jones archives).

(25) «A Reply to Criticisms of My Paper on Anxiety Neuroses», Standard Edition, Vol. 3, p. 131; «Heredity and the Aetiology of the Neuroses», p. 151.

(26) «Review of August Forel's Hypnotism», Standard Edition, Vol. 1, pp.98-99.

(27) «The Neuro-Psychoses of Defence», Standard Edition, Vol. 3, p. 57, «Hypnotism», Standard Edition, Vol. 1, p. 112.

(28) «Hypnotism», p. 111.

(29) Ibid., p. 105.

(30) «On the History», p. 9.

(31) «Review of August Forel's Hypnotism», p. 99.

(32) «Five Lectures on Psychoanalysis», p. 22.

(33) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 449.

(34) «Five Lectures on Psychoanalysis», p. 22.

(35) Josef Breuer and Sigmund Freud, «Studies on Hysteria», Standard Edition, Vol. 2, pp.61,63.

(36) «Introductory Lectures», Vol. 16, pp.450.

3 ـ التحليل النفسي الذاتي

(1) Letter from Ernest Jones to Max Schur, Oct. 6, 1955 (Jones archives).

(2) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 391. Cf. also letter from Ernest Jones to Anna Freud, Mar. 18, 1954 (Jones archives).

(3) Letter from Max Schur to Ernest Jones, Sept. 30, 1955 (Jones archives).
تصلح هذه الرسالة المطولة لتكون مقالة في الحقيقة، كما توضح اتصال سشور بفرويد.

(4) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 21, Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 392.

(5) The Origins of Psychoanalysis, pp.116-18. Cf. also «A Reply tp Criticisms of my paper on Anxiety Neurosis», p. 133.

(6) «On the Grounds for Detaching a particular Syndrome from Neurasthenia under the Description «Anxiety Neurosis», Standard Edition, Vol. 3, p. 107.

(7) Schur, Freud, p. 55.

(8) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 42.

(9) «The Psychical Mechanism of Forgetfulness», p. 296.

(10) Theodor Reik, Listening with the Third Ear (New York: Farrar, Straus; 1948), pp. 15-16.

(11) Minutes, II, PP.459, 371.

(12) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 153.

(13) «Obsessions and Phobias», Standard Edition, Vol. 3, p. 81.

(14) Letters of Freud and Abraham, p. 233.

(15) «Libidinal Types», Standard Edition, Vol. 21, p. 219.

(16) Sachs, Freud, p. 34.

(17) Jones, Free Associations (New York: Basic Books; 1959), p. 213.

(18) The Origins of Psychoanalysis, p. 84.

(19) «On the History», p. 22.

(20) Ibid., pp.12-13.

(21) «An Autobiographical Study», p. 48.

(22) «On the History», p. 12.

(23) «Address to the Society of B'nai B'rith», p. 273.

(24) «My Contact with Josef Popper-Lynkeus», Standard Edition, Vol. 22, p. 224.

(25) «On the History», p. 24.

(26) «The Psychopathology of Everyday Life», pp.24-25.

(27) IlseBry and Alfred Rifkin, «Freud and the History of Ideas», in psychoanalytic Education, ed. Jules Masserman (New York: Grune& Stratton; 1962), pp. 6-36.

(28) «Some Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality», p. 226, Cf. also «Introductory Lectures», Vol. 15, pp. 66-67.

(29) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 227.

(30) Letters, p. 402.

(31) Letters of Freud and Abraham, p. 2.

(32) Roazen, Freud: Political and Social Thought, p. 77.

(33) «Three Essays on the Theory of Sexuality», Standard Edition, Vol. 7, p. 190. Cf. Frank Cioffi, «Was Freud a Liar?», The Listener, Feb. 7, 1974, pp.172-74.

(34) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 103.

4 - فيلهالم فليس

(1) The Origins of Psychoanalysis, p. 275.

(2) Ibid., p. 60.

(3) Interview with Mrs. Karl Abraham, Nov. 4, 1966.

(4) Quoted in Schur, Freud, p. 52; Schur, Freud, p. 185; quoted in Schur, Freud, p. 204.

(5) Quoted in ibid., p. 216.

(6) The Origins of Psychoanalysis, pp.130, 132.

(7) Ibid., pp. 234-35.

(8) The analogy of a formal amalysis can be pushed too far. Cf. for example, Schur, Freud, p. 209.

(9) Max Schur, «Some Additional 'Day Residues' of 'The Specimen Dream of Psychoanalysis», Psychoanalysis: A General Psychology, ed. Rudolf M. Loewenstein, Lottie Newman, Max Schur, and Albert Solnit (New York: International Universities Press; 1966), p. 67; quoted in Schur, Freud, p. 83.

(10) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 297.

(11) على سبيل المثال ربط فرويد الحِدّاد بالميلانوكوليا.

The Origins of Psychoanalysis, pp. 103, 207.

(12) Ibid., p. 130.

(13) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 289.

(14) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 663.

(15) «Beyond the Pleasure Principale», Standard Edition, Vol. 18, p. 45.

(16) Quoted in Schur, Freud, p. 232. Freud/Jung Letters, p. 220. Cf. David Bakan, Sigmund Freud and the Jewish Mystical Tradition (Princeton, N.J.: Van Nostrand; 1958).

(17) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 429.

(18) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 144.

(19) Ibid.

(20) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 166.

(21) Ibid., p. 220.

(22) Ibid., p. 143.

(23) «Analysis Terminable and Interminable», p. 251.

(24) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 409.

(25) Schur, Freud, pp.82, 111.

(26) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 481, 421.

(27) The Origins of Psychoanalysis, p. 219.

(28) Ibid., pp.334, 337.

(29) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 365.

(30) Ibid., pp. 250, 268; Letters of Freud and Abraham, p. 103.

(31) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 44; Fromm, Sigmund Freud's Mission, pp. 46, 48.

(32) Cf. Richard Pfennig, Wilhelm Fliess (Berlin: Goldschmidt; 1906), pp. 26-29.

(33) Ibid., pp.30-31.

(34) Letter from Siegfried Bernfeld to Ernest Jones, May 26, 1952 (Jones archives).

(35) Letters, p. 250.

(36) Robert K. Merton, «Making It Scientifically», The New York Times Book Review,

Feb.25,1968, p. 42. Cf. Robert K. Merton, «Priorities in Scientific Discovery», American Sociological Review, Vol. 22, No.6 (Dec. 1957), pp. 635-59.

(37) Norman Malcolm, Ludwig Wittgenstein (London: Oxford University Press; 1958), pp. 58-59, 93.

(38) Marthe Robert, The Psychoanalytic Revolution, translated by Kenneth Morgan (New York: Harcourt, Brace and World; 1966), p. 154.

(39) Interview with Oliver Freud.

(40) Letter from Alan Tyson to Ernest Jones, Dec. 16, 1954 (Jones archives).

(41) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 112, 115-16.

(42) Schur, Freud, p. 70.

(43) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, pp.446-47.

(44) Quoted in Ibid., p. 83.

(45) Letter by Charles Fliess, London Sunday Observer, May 2, 1954.

5 ـ اللاوعي

(1) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 477.

(2) «On the History», p. 20, «Editor's Introduction», Standard Edition, Vol. 4, p. xx.

(3) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. xxxi.

(4) Ibid., p. xxxii.

(5) Ibid., p. xxvi.

(6) «The Claims of Psychoanalysis to Scientific Interest», Standard Edition, Vol. 13, p. 169.

(7) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 100.

(8) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 95.

(9) Ibid., p. 87.

(10) «On the History», p. 21, «Leonardo da Vinci», p. 122.

(11) «New Introductory Lectures», p. 7.

(12) «On The History», p. 22.

(13) «New Introductory Lectures», p. 29.

(14) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 135.

(15) Ibid., p. 96; «On the History», p. 20.

(16) «The Interpretation of Dreams». Vol. 4, pp. 146, 273.

(17) Ibid., p. 322.

(18) Ibid., p. 271.

(19) Ibid., p. 270.

(20) Ibid., Vol. 5, p. 682.

(21) Ibid., p. 396.

(22) Ibid., p. 397.

(23) «Introductory Lectures», Vol. 15, pp. 142-43.

(24) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 247.

(25) Ibid., p. 178.

(26) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 221.

(27) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 35.

(28) «Constructions in Analysis», Standard Edition, Vol. 23, p. 267.

(29) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. xxiii; «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 297; «New Introductory Lectures» p. 15.

(30) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 680.

(31) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 42.

(32) «On the History», p. 19.

(33) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 205.

(34) Ibid., Vol. 5, p. 482.

(35) Ibid., Vol. 4, pp. 336-37.

(36) Ibid., Vol. 5, p. 485.

(37) Ibid., p. 453.

(38) Ibid., p. 470.

(39) «The Psychopathology of Everyday Life», pp. 136-37.

(40) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 638-39.

(41) Ibid., pp. 465-66.

(42) Ibid., Vol. 4, p. 229.

(43) Ibid., p. 41.

(44) Ibid., Vol. 5, pp. 546, 340.

(45) Ibid., p. 525.

(46) Ibid., Vol. 4, p. 329.

(47) Ibid., p. 331, ibid., Vol. 5, p. 464; «New Introductory Lectures», p. 14.

(48) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 475.

(49) Ibid., p. 511.

(50) Ibid., Vol. 4, p. 233.

(51) Ibid., Vol. 4, p. 578.

(52) Ibid., p. 677.
(53) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 147.
(54) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 569.
(55) Ibid., p. 582.
(56) «An Autobiographical Study», p. 33; «Sexuality in the Aetiology of The Neuroses», p. 280.
(57) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 257.
(58) Ibid., p. 256.
(59) «Preface to Reik's Ritual», Standard Edition, Vol. 17, p. 261.
(60) «A Reply to Criticisms of My Paper on Anxiety Neurosis», p. 128.
(61) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 222.
(62) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 266.
(63) «On The History», p. 18.
(64) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 326. Cf. «From the history of an Infantile Neurosis», pp. 8-9.
(65) «An Autobiographical Study», p. 38.
(66) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 311.
(67) «A Child is being Beaten», Standard Edition, Vol. 17, p. 193.
(68) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 160.
(69) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 278.
(70) «Obsessive Acts and Religious Practices», Standard Edition, Vol. 9, p. 127.
(71) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 263.
(72) «Heredity and the Aetiology of the Neuroses» p. 149.
(73) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 268.
(74) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 205.
(75) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 270.
(76) «On Psychotherapy», Standard Edition, Vol. 7, p. 267.
(77) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 356.
(78) «Beyond the Pleasure Principle», pp. 8-9.
(79) Ibid., p. 27.
(80) «The Claims of Psychoanalysis to Scientific Interest», p. 190.
(81) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 413.
(82) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 74.
(83) «Screen Memories», p. 311.

(84) «Heredity and the Aetiology of the Neuroses», p. 154; «Further Remarks on the Neuro-Psychoses of Defence», p. 167.

(85) «The Aetiology of Hysteria», Standard Edition, Vol. 3, p. 197.

(86) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 242.

(87) «On the History», p. 10.

(88) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 451.

(89) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 356.

(90) «Leonardo da Vinci», p. 133.

(91) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 101.

(92) Ibid., p. 94.

(93) Ibid., p. 136.

(94) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 50.

6 ـ العلاج بواسطة الكلام

(1) «A short Account of Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 19, p. 209.

(2) «The Question of Layb Analysis», p. 252.

(3) «New Introductory Lectures», p. 58.

(4) «Contributions to a Discussion on Masturbation», p. 246.

(5) Letters, p. 307.

(6) «A difficulty in the Path of Psychoanalysis», p. 138.

(7) «The Uncanny», p. 219.

(8) Minutes, Vol. II, PP. 367-68.

(9) «On Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 12, p. 209.

(10) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 21.

(11) Ibid., Vol. 16, p. 389.

(12) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 179.

(13) «An Autobiographical Study», p. 50.

(14) «Introductory Lectures», Vol. 15, pp. 23-24.

(15) «Civilization and Its Discontents», p. 140; «Two Encyclopedia Articles», p. 243.

(16) «Introductory Lectures», Vol. 15, p.57; «Psychoanalytic Notes on an Autobiographical Account», p. 79.

(17) «The Future of an Illusion», Standard Edition, Vol. 21, p. 27.

(18) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 265.

(19) Ibid., p. 263.

(20) «A Reply to Criticisms of My Paper on Anxiety Neurosis», p. 124.

(21) «The Psychopathology of everyday Life», p. 53.

(22) «Josef Popper-Lynkeus and the Theory of Dreams», Standard Edition, Vol. 19, p. 261.

(23) «Civilization and Its Discontents», p. 133.

(24) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 107; «The Resistances to Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 19, p. 218.

(25) «New Introductory Lectures», p.22.

(26) «Psychoanalysis», p. 265.

(27) «New Introductory Lectures», pp. 156-57.

(28) «Some psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the Sexes», Standard Edition, Vol. 19, p. 248.

(29) «A Reply to Criticisms of My Paper on Anxiety Neurosis», p. 138.

(30) «Fragment of an Analysis of a case of Hysteria», Standard Edition, Vol. 7, p. 20-21.

(31) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 236. Cf. also interview of Kurt Eissler with Albert Hirst (Jones archives).

(32) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 260.

(33) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 379.

(34) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 278.

(35) Ibid., p. 152.

(36) «Screen memories», p. 309.

(37) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 358.

(38) Ibid., p. 300.

(39) «Beyond the Pleasure Principle», pp. 35-36; «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 185.

(40) Sandor Ferenczi, «Contributions to Psychoanalysis», in Sex in Psychoanalysis, authorized translation by Ernest Jones (New York: Dover; 1956), pp. 47-48.

(41) Letters of Freud and Abraham, p. 118.

(42) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 282.

(43) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 266.

(44) «On Psychotherapy», p. 259.

(45) «Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria», p. 18.

(46) «Freud's Psychoanalytic Procedure», p. 253.

(47) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 284.

(48) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 434.

(49) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 165.

(50) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 382.

(51) Ibid., Vol. 16, p. 282.

(52) «Analysis Terminable and interminable», p. 250.

(53) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 435.

(54) «Civilization and Its Discontents», p. 95.

(55) Ibid., p. 83.

(56) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 260.

(57) «Observations on transference-Love», p. 164.

(58) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 18.

(59) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 580-81.

(60) «On Psychotherapy», p. 266.

(61) «On Beginning the Treatment», Standard Edition, Vol. 12, p. 141.

(62) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 279.

(63) «The Future of an Illusion», p. 48.

(64) «Civilization and Its Discontents», p. 79.

(65) «New Introductory Lectures», p. 145.

(66) «Psychoanalysis and the Establishment of the facts in Legal Proceedings», Standard Edition, Vol. 9, pp. 109, 111.

(67) «A difficulty in the path of Psychoanalysis», p. 143.

(68) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 291.

(69) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 517.

(70) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 290.

(71) Ibid., p. 442.

(72) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», P. 118.

(73) «On the History», p. 39.

(74) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 445.

(75) «The Handling of Dream- Interpretation in Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 12, p. 94.

الفصل الرابع

فرويد بوصفه معالجًا

1 - تقنية الحياد

يتمثل أحد أسباب تأثير فرويد في أن إجراءه العلاجي كان أكثر انضباطًا ونظامًا لا مثيل له مما ابتكره غيره. لقد ظلّ فرويد عقلانيًا لدرجة كبيرة عندما توصّل إلى تقنيته. إذ كان مترددًا في كتابة منهَجِه الخاص إلى أن نشبت خلافاته مع أدلر، وستيكل ويونغ، عندما بدا من المستحسن أن يقوم بتمييز أسلوب العلاج الخاص به عن أي معالجين نفسيين آخرين. تميّز فرويد بحكمة فائقة جنّبته السقوط في الدغمائية في ما يتعلق بتقنية التحليل النفسي، علاوة على أنه أراد من تلاميذه أن يكونوا متفهمين جيّدًا، لعله كتب قليلًا جدًّا عن هذه التقنية حتى لا يضع قانونًا حازمًا جدًّا لأتباعِهِ.

عندما قام فرويد بنشر عدّة مقالات ذات طابع تقني عام 1914، قال بوضوح بأنه كان يقدم «توصيات» أكثر منها «قواعد»[1]. لقد استقر النهج العام لفرويد لبعض الوقت. فتفسير الأحلام وانزلاقات الأعراض، والتكشّف عن الأعراض من خلال استعادة الماضي، والكشف عن التحويلات، قد بقيت، من خلال كل التغييرات في وجهات نظر فرويد، محور العلاج عن طريق التحليل النفسي. لقد توقع فرويد أن يقوم محللون آخرون بتشجيع المرضى في جمعياتهم المجانية، التي استمرت بالنسبة لفرويد لتكون الأداة العلاجية الرئيسة للتحليل؛ وأطلق عليها «القاعدة الأساسية»، والتي تُناقض فكرة «التوصية».

اعتقد فرويد أن كل ما من شأنه أن يخفف من مقاومة المريض هو ذو قيمة، لكنه نصح بألا يتمادى المحلِّل كثيرًا في الكشف عن مشاعره وردود أفعاله، خشية أن يتداخِل مع المادة التحليلية للمريض. كما اعتقد من خلال وضع الخطوط العريضة للافتراضات الأساسية لتطبيقاته العلاجية للمحللين، أنه يؤسس لمبادئ توجيهية للمبتدئين، تكون

بمثابة «تحذير للمحللين»؛ لأنه «بالرغم من أنه قد يكون هناك أكثر من طريق جيد لاتباعه، فإنّه لا يزال هناك العديد والعديد من الطرق السيئة...»[2]. إذ تستهدف مناقشات فرويد حول تقنية التحليل النفسي مساعدة الآخرين حتى يتجنبوا بعض الأخطاء التي وقع فيها هو نفسه سابقًا لكنه لم يتوقع لتصريحاته عن هذه التقنية، أو طريقته في تطبيقها، أن يهتدي بها كل محلل. وفي هذا الصدد يُورد فرويد اقتباسًا يُفضله من أحد الشياطين السبعة الرئيسيين لغوته: «بعد كل هذا، فإن أفضل ما تعرفه لا يمكن أن يُقال للأولاد»[3].

أدرك أتباع فرويد خلال فترة حياته التمييز بين «الشخصية الحيّة والتعليم الشفوي لفرويد وبين تلك القواعد الصارمة المدونة»[4]، بالرغم من أن العديد يميلون إلى الالتزام بالأخيرة. وقد أصبح هذا التوجه، منذ وفاته، أكثر وضوحًا وصار المحللون أكثر ميلًا لاتباع توصياته المكتوبة بدلًا من تطبيقاته الفعلية. وفي عام 1928 كتب فرويد في رسالة إلى فرينشيزي Ferenczi، أن:

«التوصيات حول تقنية التحليل النفسي التي دوّنتها كتابيًّا منذ زمن طويل كانت ذات طبيعة سلبية بشكلٍ جوهري. فلقد اعتبرت أن أهم شيء هو التأكيد على ما يجب ألا يقوم به المحلِّل، الإشارة إلى إغراءات في اتجاهات مخالفة للتحليل. إن أهم شيء إيجابي تقريبًا ينبغي على المرء القيام به تركته لـ«براعة» المحلِّل، هو مناقشة ما تقدمه. غير أن المحلِّلين المُنصاعين لم يدركوا مرونة القواعد التي وضعتها، لأنها قدمت إليهم كما لو كانت من المحرمات. لا بدّ لنا من مراجعة ذلك كله أحيانًا، دون التملص من الالتزامات التي ذكرتها».

كما تذمّر فرويد من سلبية بعض من أتباعه، كان يشعر بالضيق من «تنازلات» فرينشيزي في الشؤون المتعلقة بالأسلوب:

«كل هؤلاء الذين لا يملكون أي براعة سيرون في ما تكتبه مبررات للتعسف، أي الموضوعية، بمعني تأثير تركيباتهم غير المتقنة. إن ما نواجهه في الواقع هو توازن رفيع... لرُدود الأفعال المتنوعة التي نتوقعها من التدخلات... ولا يستطيع الفرد بطبيعة الحال إعطاء قواعد لقياس ذلك، فالتجربة والحياة الطبيعية للمحلِّل لا بد أن تصنع قرارًا. وعندئذ لا بد للمرء من أن ينزع عن فكرة «براعة» طابعها الصوفي كلما تعلق الأمر بالمبتدئين»[5].

ظهرت تناقضات كثيرة بين ما كتبه فرويد عن تقنية التحليل النفسي وبين ما مارسه على أرض الواقع وربما لنا أن نتساءل حقًّا عما إذا كانت له طريقة، أو ببساطة طريقة مخصوصة

للتعامل مع الأشياء. لكنه كان في حاجة إلى بعض التعاليم الرسمية إذا كان سيؤسس اختصاصًا سيضطلع به آخرون. والطريقة الوحيدة للتوفيق بين التناقضات الظاهرة بين ما قاله فرويد وما كان عليه أن يقوله هي أن يكون «مرنًا» في التطبيق رغم صرامته في الالتزام بمبادئ الوضع التحليلي النفسي. لكن، بالنسبة إلى المؤرخ، قد تكون «المرونة»، بالنسبة لفرويد المبتدئ، أكثر تعقيدًا من «البراعة».

لقد أفنى فرويد حياته في سبيل تحقيق ما أسماه «تحليل نفسي صارم ومنتظم، لا يلين»[6]. وكان يعتقد أنه يجب على المحلّل أن يبدي موقفًا متحررًا تمامًا - سمّاه «انعدام انتباه غير متحيز»[7] - من المعلومات التي يفصح عنها المريض أثناء التحليل النفسي حتى أنه كان يرفض أن يدوّن المحلّل ملاحظاته، رغم أنه لم يكن يلتزم بذلك في بعض الأحيان. وفي هذا الصدد يقول «لم أكن أرغب في استخدام الكتابات التحليلية النفسية من أجل مساعدة مرضاي، لأني أرى أن عليهم أن يتعلموا من تجاربهم الشخصية، وأؤكد لهم بأنهم سيكتسبون معرفة أوسع وأثمنٍ من تلك التي يتعلمونها عن أدبيات التحليل النفسي برمتها»[8]. وفي حين يتعيّن على المحلّل أن يصغي للمريض بأناة، فإن عليه أيضًا كما يقول فرويد «أن يكون مرتابًا وحذرًا ضد ما يبديه المريض من المقاومة»[9].

رغم أن فرويد أوصى بأن يكونِ المحلّل غير متحيز ومحايد، فلم يخشَ أن يكون هو نفسه كذلك. ويعتبر أن «المحلّلين أُناس تعلّموا ممارسة فن معيّن، فضلًا عن كونهم بشرًا كغيرهم من بني البشر»[10]. وعلى سبيل المثال يعكس اختيار فرويد للكتب التي وضعها للمرضى في قاعة الانتظار ذوقه: كانت كتب الساخر فيلهالم بوش موجودة قبل الحرب العالمية الأولى. ولما أصبح غالبية مرضاه من الأميركيين عام 1928، مالت كتبه إلى ما يفضّله مرضاه بالدرجة الأولى حيث وفر لهم في قاعة الانتظار نسخًا من كتابيّ **«الأمة»** و**«الجمهورية الجديدة»**[11]. لقد خص فرويد تطبيقاته التحليلية بقدر كبير من الحرفية. فقد فصل في مكتبه بين باب للدخول وآخر للخروج حتى لا يلتقي المرضى مع بعضهم البعض رغم أنهم يصعدون للشقة من نفس السلم. وكان يقول لأصدقائه ومعارفه الذين أصبحوا من بين مرضاه، أن عليهم أن يضحوا باتصالهم بعائلته طيلة فترة علاجهم[12] - ما عدا بعض الاستثناءات.

وأوصى فرويد كذلك بأن يخضع المريض للعلاج عبر الامتناع عن ممارسة الجنس قائلًا:

«لا أعني الامتناع الجسدي وحده، ولا الحرمان من كل ما يرغب فيه المريض، لأنه على ما يبدو ليس بإمكان أيّ شخص غير مريض أن يقبل بذلك. ولكن بدلًا من ذلك، عليّ أن أعلن ذلك كمبدأ أساسي يأخذ في عين الاعتبار حاجة المريضة ونزوعها كقوتين تحضّانها على العمل والتغيير، وعليه يجب علينا أن نحترس من استرضاء هذين القوتين بوسائل بديلة»[13].

رغم أن فرويد لم يتوقع بشكل عام من مرضاه أن يقاطعوا حياتهم الجنسية من أجل التحليل النفسي، فقد قال عام 1920 لمريضة أن من المهم بالنسبة إليه ألا يسمح لمريضاته بأن يقمن علاقات جنسية لفترة معينة في بداية التحليل النفسي، وقد يكون طلبه ذاك في علاقة بإحدى مريضاته غير المتزوجات (ممن امتثلن له رغم استيائهن منه)، أو لأسباب أخرى.

لقد بدا فرويد لبعض المرضى أكثر الرجال صمتًا، ولكنه مقارنة مع محلّلين لاحقين أكثرهم ثرثرة[14]. وإذا كان فرويد قادرًا على أن يصمت بشكل مثير وألا ينطق ببنت شفة قط، فإنه بإمكانه التحدث إلى حدّ الثرثرة أيضًا. وبصفة عامة، لم يكن أكثر صمتًا من الفرويديين الأرثوذوكسيين اليوم. إذ ذكر أحد المرضى في جلسة تحليلية «تحدّث فرويد لمدة ساعة تقريبًا، أو على الأقل نصفها»[15]. وبطبيعة الحال، كانت مقاربة فرويد فردية إلى أبعد حد حتى أنه لم يكن يتعامل مع الجميع بالأسلوب نفسه، وبصفة عامة كانت طريقته في التحليل النفسي متحررة أكثر بكثير من المحلّلين في عصرنا هذا. ويُقال إنه كان منفتحًا مع تلاميذه أكثر من مدربي التحليل النفسي اليوم[16].

منعته إصابته بسرطان الفك السفلي من التحدث بيسر، مما اضطره إلى التعبير عن أفكاره بشكل مختصر جدًّا. ولما بلغ من العمر عتيًّا، لم يعد يصبر كثيرًا في جلساته التحليلية النفسية، من ذلك أنه حاول دائمًا الإيجاز في تعابيره حتى يسهل عليه تذكر ما قاله. وفي سنواته الأخيرة لم يكن يظفر مرضاه بإجابة عما يسألونه إلا نادرًا رغم أهمية أسئلتهم[17].

كثيرًا ما كان فرويد يلعب بخاتم في إصبعه (وهو ما اعتبره بعض المحللين نوعًا من التشنج اللاإرادي)، فلما كان المرضى في التحليل النفسي يسترخون على الأريكة وحيث يجلس فرويد خلفهم متواريًا عن أنظارهم، فلا ينتبهون أبدًا إلى أنه يلعب بسلسلة ساعته أو يصلصل بمفاتيحه. لكن فرويد لا يكشف عن نفسه لمرضاه كثيرًا من خلال خصوصياته الشخصية كما يفعل من خلال بنية الوضع التحليلي النفسي برمتها. ويتناسب التحليل

النفسي، من وجهة نظره، مع إصراره الشخصي على السرية وبغضه للعلنية: فقد نصح مرضاه بألا يخبروا أحدًا عن تحليلهم[18]. كان يصغي لمرضاه، آخذًا في عين الاعتبار كل عنصر من العناصر التي تتدفق في التداعيات الحرّة، كما كان يتحيّن اللحظة المناسبة ليكشف فيها عن أفكاره.

أثناء المهمة التحليلية النفسية للبحث عن الأفكار اللاواعية للآخرين ومع اعتبار أن لا شيء غير ذي معنى مما يقولون، أحيانًا دفع فرويد ثمن الاهتمام المتزايد بلا وعي الآخرين على حساب لا وعيه هو[19]. وإذا كانت ممارسة التحليل النفسي تمكن المحلّل من تبصر ذاته، فإنها أيضًا توفر وسائل جديدة لتضليل الذات للمريض وللمحلّل على حد سواء. وهو انتقاد كان فليس وجهه لفرويد في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر.

اعترف فرويد أحيانًا بشكل صريح بمحدودية جدوى التقنية التي أوصى بها. وبقدر ما كان فرويد دغمائيًا بشأن المسائل العلاجية، كان بعض أتباعه كذلك، وقد اعترف هو نفسه بذلك عندما يقول:

«مع ذلك يجب أن أوضّح أن ما أؤكد عليه هو أن هذه التقنية هي الوحيدة المناسبة لفرديتي، وليس مجازفة أن ننكر أن الطبيب الذي تشكل بطريقة مغايرة تمامًا قد يجد نفسه مدفوعًا لتبني موقفًا مغايرًا لمرضاه وللمهمة الملقاة على عاتقه»[20].

خلافًا لبعض الأطباء المعالجين، اختار فرويد أن يعتمد على أريكة في التحليل النفسي كي لا يراه أحد طوال اليوم ويفسّر ذلك بقوله:

«لا أستطيع تحمّل أن يراني الآخرين لمدة ثماني ساعات يوميًا (أو أكثر). ولما كنت، خلال استماعي للمريض، أولي اهتمامًا كبيرًا بتدفق أفكاري اللاواعية، كنت أخشى أن توحي تعبيرات وجهي للمريض بتأويلات معينة أو تؤثر عليه في ما يخبرني به. وعادةً ما يأخذ المريض في الاعتبار ما يتطلبه اتخاذه لهذا الموقف من مشقة ويتمرَّد عليه...».

لقد ثبت لدى فرويد أن «العديد من المحلّلين يعملون بشكل مغاير، لكني لا أعرف ما إذا كان هذا الانحراف يرجع بشكل كبير إلى شغف بذلك أو لمكاسب يغنمونها من وراء ذلك»[21]. ويمكن أن تكون للطقوس وظيفة إيجابية حتى أن فرويد أشاد باستخدام الأريكة «طقسيًا»[22]. لكن سرعان ما أصبح استخدام الأريكة حجر الزاوية في التحليل النفسي، وخشي المحلّلون أن ينتقص عدم استخدامهم لها من أصالتهم.

لم يتراجع فرويد أبدًا عن التزامه بالحياد كمنهج تحليلي أصيل. وبفضل استخدام الأريكة، شعر فرويد بأنه لن تكون علاقة المريض قوية بما يكفي لمواجهته، وبالتالي يواجه تداخلًا طفيفًا في تطوير تخيّلاته عن المحلّل: وبالتالي سيكون أكثر قدرة على التحويل. إن المسافة بين المحلّل ومرضاه لا تطوِّر فقط نظرة المحلِّل المتبصرة بيسر، وإن كانت أوضاعًا مشتركة كثيرة قد تساهم في تعطيلها، بل أيضًا كما يعتقد فرويد، توسع دائرة أصناف المرضى الذين يؤثر فيهم التحليل النفسي. وكتب فرويد يقول: «لقد ساعدتُ أناسًا ليس بيني وبينهم أي شيء مشترك - لا العرق، ولا الثقافة، ولا الوضع الاجتماعي ولا حتى وجهة النظر من الحياة بشكل عام - دون التأثير على فرديتهم»[23].

ومع ذلك، ليس واضحًا لماذا يشعر أي شخص بأنه مُراقَب طوال اليوم، إلا إذا كان حساسًا خصوصًا تجاه الفحص والمراقبة، أو أنه يخشى أن يُثير اعترافه بالذنب أو التعرُّض للنقد الاهتمام. وإذا خشي المحلل أن يكتشف المرضى نقاط ضعفهم ويشعروا بأن المراقبة عمل عدائي، فسيؤدي ذلك حتمًا إلى توتر الوضع العلاجي وجهًا لوجه. وقد يساعد استخدام الأريكة من قِبل المحلِّل كذلك على تجنب الألفة والمودّة العاطفية مع المرضى. ويجد المحلل المحدث نفسه مضطرًا لمخالفة توصيات فرويد كلما تعلق الأمر بالمرضى الذين يخشون التمدّد لأسباب متعددة بحيث يسمح لهم بالجلوس. لكن مهما تكن الحدود التي تفرضها الأريكة فلن تمنعها من أن تكون الطريقة الأسهل إذ تسمح للمريض بأن يسترخي وأن تتداعى أفكاره بكل حرية. ومن شأن الطابع غير الشخصي للمحلِّل أن يفتح الطريق أمام انكشاف خصوصية المريض في أدق تفاصيلها والإفصاح عمّا في أعماق ذاته دون عناء.

لم يكن فرويد أبدًا معالجًا تحليليًا نفسيًا تقليديًا وخير دليل على ذلك تحليله لابنته آنا. كما لم يكن يفرض تقنية التحليل النفسي على مرضى معينين أو حالات خاصة. لكنه كان يريد أن يتأكد ما إذا كانت لهذه المناورة أهمية فعلية للمريض وليس فقط لاستمتاع المحلِّل. وانزعجت ذات مرة تلميذة لفرويد بشأن ما قامت به تجاه مريضة حيث أعطت المُحلِّلة المريضة مالًا ووفّرت لها محاضراتها في كلية رادكليف وعززت مكانتها، وباختصار قامت بكل ما كان يُفترض أن يتجنبه المحلِّل الجيِّد فعليًا، حينها كان فرويد متعاطفًا تمامًا وكان يقول بأنه على المرء في بعض الأحيان أن يقوم مقام الأب والأم على السواء: «على المرء أن يفعل كل ما بوسعه»[24]. وكان فرويد مرنًا في استخدامه تقنيته: فقد حدث مرة أن شعرت مريضته بالخجل من طرح موضوع ما على فرويد ولم تكن ترغب

أن يشاهدها فرويد. نهض فرويد من كرسيه وتوجه أمام الأريكة ونظر إليها مباشرةً، قائلًا: ينبغي أن تكون لها الشجاعة لتواجهه ومن ثمة مواجهة مشكلتها[25].

ولقد استأثر فرويد لنفسه بامتيازات حُرم منها المحللون المبتدئون عديمي الخبرة وذلك لأنه يعتبر نفسه باحثًا خارقًا وأن عليه أن يختبر أي شيء تقريبًا ولو مرة واحدة. لقد كان يقوم بما يراه الأفضل حتى ولو اضطر إلى التخلي عن قواعده الخاصة. ومع ذلك كان بعض تلاميذه منصاعين ومنقادين بسهولة: ففي عام 1910 بدا أحد المحللين من برلين أرثوذوكسيًّا حتى أنه لم يكن يسمح لمرضاه بالتدخين، بينما كان فرويد يضع في كل مرة على الأقل وبانتظام السيجارة والكبريت على ذمة المريض قبل بداية الجلسة[26]. وقد ذكر ذات مرة أحد مرضى فرويد وتلميذه أن موقف الأستاذ: «تصرَّف كما أقول، لا كما أفعل»[27]، وقد تكون هذه الازدواجية أحد مصادر النزعة الأخلاقية لفرويد في شأن تقنيته. وفي هذا الصدد ردّد أتباع فرويد القول الروماني المأثور «ما هو مسموح به لجوبيتير ليس مسموحًا به لثور».

وفي بعض الأحيان يسمح فرويد لمرضاه بأن يتعرفوا على من يُفضّل منهم، وكان لسنوات يجمع مساهمات سنوية تدعم مريضه المفضّل، «الرجل الذئب»، وقد كان روسيًّا أرستقراطيًّا مفقرًا. وكان فرويد يطلب من مرضاه أحيانًا المساهمة في ذلك[28]. وفي صورة مناقضة للمحلِّل الحيادي غير المتحمس، كان فرويد يرحّب بوجهات نظر مرضاه عن الأشخاص الأصغر سنًّا في الحركة. وفي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين كان يستفسر بشكل مباشر عما إذا كانوا قد لاحظوا أيّ توترات في مجتمع فيينا[29].

وكمحلّل جريء وغير أرثوذوكسي قام فرويد في الآن ذاته بتحليل زوجين في مناسبتين على الأقل. في حالة جيمس وألكس ستراتشي، إذا تخلف أحدهما عن جلسة يمكن للثاني الاستفادة منها إضافة إلى جلسته بحيث يخضع للتحليل على امتداد ساعتين في ذلك اليوم. لقد قام فرويد بتحليل أشخاص عاشرهم اجتماعيًّا ومنهم أحيانًا من كانوا يعيشون معه في المنزل نفسه صيفًا وبعضهم، ممن فضّلهم على غيرهم، كانوا يترددون على منزل عائلته، ورغم أنّ هذا الأمر كان يمنع فرويد من أن يكون المثل الأعلى للمحلّل النزيه والمحايد، فقد كان يتدخل لصالح المريض حتى أنه في بعض الحالات وصف صيغة لمنع الحمل أكثر فاعلية من الواقِي الذكري.

وقد أعطى فرويد في أربع مناسبات على الأقل مرضاه مقالات تخصّه لترجمتها(•). ورغم أنه لا يستحسن قراءة المرضى للكتابات التحليلية النفسية، فإنه لا يهتم لما قد يقرأه بعض المرضى[31]. وصادف أن شجع مرّة مريضًا على قراءة سجلين من سجلات مرضاه، رغم اعتراض المريض نفسه[32]. ورغم أن فرويد يخشى أن يضيع المريض الكتب التي يُعيرها إياه بحكم القيمة العزيزة على قلب فرويد للكتب إلا أنه لا يتردد في ذلك[33]. وإذا ما أهداه مريض كتابًا، لا يكتفي فرويد بقبول الهدية بل يرد بأحسن منها بحيث يتخيّر له كتابًا من أفضل ما لديه. لقد كان فرويد يفتقد للصرامة التي اشتكى منها الكثيرون في محلّلين آخرين(±)، فقد كان يروي نكتًا، ويشيد بفستان مريضة، وكان إذا اضطر للتبوّل نهض وغادر الغرفة.

لمّا فكر فرويد أن التحليل النفسي سينقذ عبر إحداث تغييرات في حياة الفرد تدخل في حياة المريض. فكان يوصي أحيانًا باختيار زواج معيّن أو يدعم مريضًا في انتهاك رابطة الزواج. واعتبر فرويد بعض الأحلام إشارات معينة على استعادة الصحة، وقد يذهب إلى أبعد من ذلك بعد تفسير الحلم ليلاحظ: "أنت الآن في صحة جيدة". لقد تبين لفرويد أنه أقدر على التحكم في الوضع عندما يكون اثنان من المرضى في حصة تحليل واحدة، صديقين قديمين، يناقشان تحليلهما[35]. وكلما استعجل ردة فعل (وأيضًا ليمضي قدمًا في قضيته)، غالبًا ما كان فرويد يذكر اختلافات أدلر ويونغ، ورانك، ولم يكن يتمنع عن التحدث عن تلاميذه السابقين كلما طُلب منه ذلك. ولما كان يحب الأوبرا، مثل سمفونية موزارت، دون جيوفاني Don Giovanni، كان يذكرها كما لو كانت تعزف في المدينة.

وفي ما يتعلق بحالة الفتى الذي كتب بعض القصائد، فقد طلب منه فرويد أن يُطلعه عليها وقد أثارت دهشته مما جعله يقرّ بأنه لم يكن مريضًا، ولم يكن المريض شخصًا ضعيفًا كما اعتقد بل كان قويًّا جدًّا. لقد أشاد فرويد بشكل غير متوقع تمامًا، وأكد أنه يمتلك عقلًا مميزًا وهذا في حد ذاته أمر مهم جدًّا بالنسبة للمريض وهو ما حفّزه على تحقيق ذاته[36]. ولما بلغ فرويد من العمر عتيًّا كان عادة ما يتكئ على حافة الأريكة، إما

(•) مثلما ذكر جيمس ستراتشي قائلًا: «بعد أسابيع قليلة فقط من تحليلنا أنا وزوجتي ألكس، طلب منّا فجأة ترجمة مقالٍ كتبه حديثًا»[30] وهو ما قام به أيضًا كل من إيديث جاكسون وجوان ريفيير أثناء التحليل.

(±) مثلما لاحظ تيودور رايك قائلًا: «أنت لا تستطيع أن تحتفظ بسمكة باردة بالطريقة التي يقوم بها العديد من المحلّلين النفسيين المُدرّبين بواسطة التحليل النفسي في نيويورك. شيء لا يُصدّق. كانت ابنتي في تحليل فأهدت لمُحلّلها كتابًا بمناسبة الكريسماس فقال لها المحلّل: «لماذا أهديتني هذا الكتاب؟» ولم يقبله منها. هذا غير إنساني»[34].

لأنه لم يسمع جيّدًا ما يقوله المريض أو للتأكيد على نقطة محددة[37]. غالبًا ما كان يهدي صورته لأتباعه في التحليل النفسي، حتى دون أن يطلبوها.

كان فرويد يحب أن يقنع نفسه بأن مرضى التحليل النفسي يأتون للعلاج بإرادتهم التامة، وكشهادة على هذا الاختيار الحر يفرض عليهم بعض التضحيات. وافترض كمبدأ عام أن على المحلِّل أن «يمتنع عن العلاج مجانًا، وألا يستثني من ذلك زملائه أو أسرهم»[38]. لكنه لم يتحمّل المبدأ الذي وضعه للآخرين، وكان ذلك أحد أهم تناقضاته الداخلية يضاف إليه شح معين في نظريته أذهب عنها كرمه الحقيقي. ومع أنه تشبث بالرأي القائل بأن كل ما يعطى مجانًا يحتقره وينتقصه المتقبّل، فقد قام فرويد على الأقل في حالات عديدة بالتحليل النفسي مجانًا(•). ومن ناحية أخرى، وفّر بعض المرضى المساهمات المالية لحركة فرويد بل إنهم قدّموا هدايا لعائلته أيضًا. وفي الأوقات العصيبة في فيينا التي رافقت نهاية الحرب العالمية الأولى، أشار فرويد في رسالة إلى «الطريقة التي تزوّدنا بها بالقوت والمؤن في العام المنصرم أو حوله عن طريق المرضى والأتباع الودودين»[39].

أوصى فرويد تلميذًا له ذات مرة بأن المحلِّل إذا واجه مريضًا متحفظًا، عليه أن يُثير غيرته عبر الإشادة بمريض آخر في التحليل النفسي[40]. (وهي حيلة ناجعة). وفي عشرينيات القرن العشرين بدأ فرويد التحليل النفسي مع أميركي يتحدث الإنكليزية، لكنه ما لبث بعد شهر أن قرر استخدام الألمانية التي يفضلها مستفيدًا من معرفة المريض بهذه اللغة التي تعلمها في المدرسة الثانوية قبل أن يُتابع بعض الدروس الأخرى فيما اكتفى فرويد بمتابعته مرة في الأسبوع. وتساءل المريض عمّا إذا كان هذا الأمر لن يؤثر في تداعياته الحرة، بينما اعتبر فرويد، خلافًا لذلك، أن من شأن ذلك أن يساعده، وبعد وقت قصير أعد المريض قصاصة ورقية مميزة ما كان له أن يُعدّها بالإنكليزية[41]. (كتب فرويد في سنوات مبكرة «ليس باستطاعة أي شخص لا يتكلم لغته الأم أن يستغل براعته لإعداد قصاصات ورقية ذات أهمية كبيرة بلغة أجنبية إلا نادرًا»[42]). ولما تبادر إلى ذهن فرويد مرة أن مريضة أميركية تلجأ للغة الإنكليزية كآلية مقاومة، استعاضا عنها بالألمانية. غير أن فرويد ضاق ذرعًا من استخدامها المتعثر للألمانيّة، فاضطرا للعودة إلى الإنكليزية من جديد[43].

لم يعتبره أتباعه من السياسيين نموذجًا للمحلل النمطي: لقد تكتم جونز عن حادثة

(•) على سبيل المثال، عالج فرويد هاينز هارتمان وكاتا ليفي وإيفا روسنفيلد، و«الرجل الذئب» دون مقابل لفترة، ودون شك آخرين غيرهم.

رواها مريض سابق لدى فرويد، على ما وقع فعلًا أثناء التحليل النفسي لمّا كان المريض يُقيم في منزل فرويد الصيفي. لقد كان هؤلاء منافقين لأنهم عرفوا ممارسات فرويد وفي الآن ذاته انتقدوا مثل هذه الإجراءات حتى أنهم يعتبرونها ذات طابع «غير تحليلي» عندما يمارسها آخرون. يميل المحللون الأميركيون بشكل خاص إلى أن يكونوا أرثوذوكسيين أكثر من فرويد، في حين كان اتصال المحللين الأوروبيين به أكثر انتظامًا.

وبطبيعة الحال، كلما أخذنا في الاعتبار تخلّي فرويد عن أرثوذوكسيته في تقنيته لا بد أن نتذكر أن الطرف المتخفّي في العقد المبرم بين المريض وفرويد هو ذاك الشخص الذي لا نتوقع منه تحليلًا عاديًا وكمؤسس لأسلوب جديد في العلاج، شعر فرويد بأنه معني بأي تغييرات يراها ضرورية.

لقد خلق سؤال ما إذا كان فرويد فشل في الالتزام بقواعده في التحليل النفسي ضعفًا أم قوة جدلًا واسعًا لكن يجمع كثيرون على أن أيّ أسلوب للعلاج يبتكره فرويد سيكون ناجحًا شرط أن يستخدمه هو نفسه. إلا أن المشكلة نشأت، كما بيّن ذلك هاينز هارتمان، عن تشبيه فرويد ببسمارك: بمجرد طرد المستشار الألماني، تغيّرت طريقة الحكم كلها في ألمانيا (وقد نُسب هذا التشبيه إلى فرويد)[44].

لكن ما الذي قد يحدث للتحليل بدون مؤسسه؟ كتب جورج غروديك ذات مرة: «متى وُجد اثنان أو ثلاثة عازفي بيانو عظام، فعلى كل طالبة أو طالب الجلوس على آلة التعذيب. وإذا كان العزف السيئ للبيانو يؤذي الأذن فقط، فإن التلاعب بالتحليل النفسي سيمزّق قلوبًا لا حصر لها»[45]. كان لدى ستيفان زويغ في بداية عام 1930 شكوك شبيهة بشأن الاستخدامات المستقبلية لمنجز فرويد:

> **«لما كان من النادر أن يتوفر مثل هذا المزيج من الصفات المطلوبة في تكوين أستاذ حقيقي خبير بالصحة العقلية بواسطة منهجية التحليل النفسي، فليس للتحليل النفسي إلا أن يظل موهبة ومهمًا، وألا يصبح أبدًا (كما هو حاله في الغالب في أيامنا هذه للأسف) مجرّد وظيفة أو تجارة... يقشعر بدني عندما أفكر في ما قد يترتب من خطورة عن عملية استقصائية، تلك التي ابتكرها مُفكّر مُبدع مثل فرويد الذي بذل قصارى جهده حتى تكون على غاية من الدقة وبإحساس كامل مفعم بروح المسؤولية، إذا ما آلت إلى أيادٍ خرقاء. ولا شيء أساء إلى سمعة التحليل النفسي أكثر من عدم حصره في دائرة خبراء ضيّقة ومختارين نخبويًا، ولكن، رغم أن تدريسه لا يكون متاحًا للكثيرين، فقد دُرِّس في المدارس»[46].**

كتب فرويد حول هذه الشكوك يقول: «إذ اقتصرت ممارسة التحليل النفسي على عدد قليل من الناس... فسيترتب عن ذلك جهل بهذه التقنية من جديد»[47]، وقد قادت رغبته في تشبيه التحليل بالإجراءات المجهرية أو الجراحية إلى دعم التوقعات السحرية حول علمية منهجه. ولقد أصبح ما اعتبر مقاييس مؤقتة أو تخص فرويد وحده، بالنسبة لبعض الأتباع المخلصين، طقوسًا ثابتة. وما ابتدعه من مصطلحات تقنية أصبح يستخدم في تبرير كل شيء تقريبًا.

2 - أهداف البحث

للأسف، غذّت مصاريف علاج التحليل النفسي الآمال غير الواقعية للمرضى. ففي مستهل ممارسته كمحلل ومع محدودية كسبه نسبيًا، كتب فرويد عام 1913 يقول في شأن المحلِّل: «إن مهنته شاقة وليس له أن يكسب أبدًا مثلما يكسب أخصائي طبي آخر»[1]. وكان موقف فرويد من المقابل المالي للتحليل مشرفًا بشكل غير عادي، إذ قال في بدايات ممارسته الطبية: «بحكم عياداتي الكثيرة للمرضى، فقد كنت أنسى بصفة خاصة أولئك الذين لا يدفعون لي فضلًا عن زملائي»[2]. ولذلك عندما طوّر ترتيبات العلاج التحليلي النفسي، كان فرويد صريحًا تجاه المقابل المالي قياسًا إلى أشياء أخرى كثيرة حتى أنه اعتقد أن التضحية بهذا المقابل المالي من شأنها تحفيز المريض على التقدم في التحليل النفسي.

ورغم بعض الاستثناءات الملحوظة بالفعل، فقد كان فرويد يُحب أن يُدفع له لقاء خدماته. ولما أرسل إليه مريض سابق قصاصات الصحف التي تشيد بتنامي نجاح التحليل النفسي في العالم، رد فرويد بأن ذلك لم يكن إلا لفترة وجيزة فقط ودون إبداء أي اهتمام بحياة المريض الراهنة. (كان فرويد يحث المريض أيضًا على أن يتخلى عن تبعيته له)[3]. وكان يشجع تلاميذه على الاستقامة في التعاطي معه بالمال، وقد اندهش عام 1920 لما اكتشف أن أحد المحللين في فيينا توقع من محلل آخر أن يعطيه نسبة من عائداته من المرضى الذين يحوّلهم له. وبعد نقاش متشنج بدا واضحًا أن فرويد لم يُرحّب بهذا التصرّف[4](*).

(*) سوء تصرف أقدم عليه محلل في حق جماعة المحللين النفسيين بفيينا، وبعد نقاش كبير في الأصول النفسية لأخلاقيات المحلل، أنهى فرويد المسألة بالقول: «قد يكون هذا كله جيدًا جدًا، لكن سوء التصرف ليس الأفضل أخلاقيًا من أجل إرساء قواعد سيكولوجية متينة».

لقد تأثر فرويد بسخاء مريض ثري كان يدفع له فواتيره كما كان على استعداد لدعم الحركة برمتها ماديًّا. وفي العشرينيات من القرن العشرين أرسل الكاتب الأميركي توماس وولف لأحد أتباع فرويد يخبره بأنه عاجز عن دفع أتعاب فرويد مما اضطر هذا المحلِّل لتحويل وولف إلى محلِّل آخر. وفي الثلاثينيات من نفس القرن توقع فرويد أن يكون ثمن الساعة الواحدة خمسة وعشرون دولارًا، ورغم أن الكثيرين يتعالجون بتسعيرة أقل، فقد كان فرويد يرى أن كل المحللين ملتزمون بأن يعالجوا عددًا معينًا من المرضى مجانًا.

تعوّد فرويد على لقاء مرضاه ستة أيام في الأسبوع، في حين كان يوم الأحد يوم عطلة كما كان يخرج في عطلة لمدة شهر أو أكثر خلال الصيف. صار التحليل النفسي يستغرق خمسة أيام في الأسبوع في الولايات المتحدة في عام 1921. بيد أن تعهد فرويد بقبول ستة مرضى جدد في الوقت الذي لم يكن في وسعه تحليل سوى خمسة منهم فقط جعله يقترح على أن يحوّل من يرغب في ذلك إلى رانك، على أن يُقتطع جزء من أتعابه، لكنهم رفضوا ذلك جميعًا وهذا ما يذكره أبراهام كاردينر:

«لقد قضينا ليلة سيئة، لأننا لم نكن نعرف ماذا يدور بخلد فرويد. أكان ينوي أن يحتجز أحدنا فعلًا ويلقي بالبقية خارجًا، أم أنه سيتوصل إلى صيغة أكثر ودّية؟ عدنا جميعًا في اليوم التالي على الساعة الثالثة. فاجتمع بنا وأخبرنا بأنه انتهى إلى حل يرضي الجميع. وقال بأن ابنته آنا أثبتت نبوغها في الرياضيات، فلقد اكتشفت أن الخمس مناسبات في الست ثلاثين، وأن الست مناسبات في الخمس ثلاثين، فإذا تنازل كل واحد منّا عن ساعة واحدة في الأسبوع سيستقبل ستة منّا. وكانت تلك بداية الخمس ساعات في الأسبوع»[5].

كان إجمالي المرضى الذين يعالجهم فرويد تحليليًّا في عام 1921 تسعة، وكان من بين الستة مرضى الجدد خمسة أميركيين، مع ذلك لم يخفّض عدد مرضاه الآخرين من ستة إلى خمسة، وصار واضحًا للأميركيين أن فرويد يفضّل أن يقضي وقته مع الأوروبيين. وحتى عام 1930 كان فرويد يلتقي المرضى بحسب جدول الستة أيام، رغم أنه في سنواته الأخيرة كان يلتقي خمسة مرضى فقط يوميًا.

لقد كان فرويد «يكره الانتظار بشدة»[6]، حتى أنه فشل في الاعتناء بكل مرضاه باستثناء أولئك الذين لا يتخلّفون عن مواعيدهم. وقد روى عن نفسه أنه لم يترك مريضًا ينتظر أبدًا وأنه كان لا يتجاوز الـ«خمس وخمسين دقيقة بالضبط» في كل حصة[7]. اعتبر فرويد أنّ

التزام المريض بموعده مهم للغاية، وبقدر ما كان يوبِّخ كل مريض قد يتأخر عن موعده، بقدر ما كان يعتبر ذلك مؤشرًا دالًا على المقاومة. وأيًا كان الظرف، فإن المريض يتحمّل أعباء الوقت الضائع. سار أتباعه على نهجه هذا، ويُقال إن فيلهالم رايش هو أيضًا، على راديكاليته، لم يكن يتحمّل الانتظار[8]. فلقد كانت العلاقة التحليلية النفسية ذات طابع رسمي ولم تكن مجرّد علاقة عرضية أو حرّة وسهلة.

في البداية كان فرويد قادرًا على علاج المريض على الأريكة فقط مرة أو مرتين، ولا تتجاوز جلسات التحليل النفسي تسعة (مثل حالة ستيكل). وفي عام 1903 بدأ فرويد يقتنع بأن يدوم التحليل النفسي «مدة طويلة، ستة أشهر أو ثلاث سنوات، لكي يكون العلاج ناجحًا»، كان يأمل في منع ردود أفعال مرضاه العصابية المستقبلية[9]. وهو ما عمل فرويد في عام 1913 على توضيحه في قوله «يمتد التحليل النفسي دائمًا لفترات زمنية طويلة، وقد تصل مدته إلى نصف سنة أو سنة كاملة، ولمدة أطول مما يتوقع المريض»[10]. في عام 1930 قدّر أحد تلامذة فرويد «أن يكون معدل فترة العلاج التحليلي النفسي سنة واحدة»[11]. ولكن مع مرور الوقت، طالت المدة المتوقعة للتحليل كثيرًا، وفي عام 1932 لاحظ فرويد أن «هناك... العديد من المعاقين الذين ظلوا تحت إشراف تحليلي طيلة حياتهم حيث كانوا يترددون على التحليل النفسي من فترة لأخرى»[12].

من الصعب جدًّا تعميم المدة التي يخضع فيها مرضى فرويد للتحليل، فقد أشار فرويد في كتاب تفسير الأحلام إلى مريض في سنته الخامسة من العلاج، وفي عام 1915 كان أحد مرضاه قد خضع للتحليل النفسي لأربع سنوات. ومن المنصف أن نذكر أن فرويد في بداياته كان يلتقي مرضاه لفترات قصيرة نسبيًا، وكذلك في أواخر مسيرته المهنية، كان عادة ما يكتفي ببعض الأشهر للعلاج. وقد أشار فرويد ذات مرة إلى أن رايش Reich يعاني من عجز جنسي ولا يحتاج لعلاجه أكثر «من ثلاثة أشهر»[14].

وعلى كل، فقد كان فرويد يلتقي مرضاه في أواخر حياته فترة أطول قد تصل في بعض الأحيان إلى ست سنوات. ويعود ذلك في جزء منه إلى اعتلال صحته، فكلما تقدّم في السن تراجعت رغبته في لقاء أشخاص جُدد. حتى وإن كان في أسوأ حالته، لم يكن سهلًا عليه قطع التحليل النفسي. هذا بالإضافة إلى أن فرويد كان يائسًا بسبب نتائج بعض الحالات السابقة التي تبيّن نجاحها مع مرور الوقت، فقد تكون إطالة مدة التحليل أكثر فعالية. وتساءل مرة «عمّا إذا كان يمكن التمادي في التحليل النفسي إلى ما لا نهاية له أم أنه

يمكن أن يتوقف عند نهاية معينة. وبعد تردد قال بصوت خافت: أعتقد أنه لا نهاية له»[15].

في عام 1916 كتب فرويد معرّفًا التحليل النفسي يقول «تستغرق العلاجات التحليلية النفسية شهورًا أو حتى سنوات: فالسحر البطيء يفقد طابعه الإعجازي الخارق»[16]. لكن يحق لنا أن نتساءل عمّا إذا كان يمكن تبرير طول مدة التحاليل. فعلى سبيل المثال إذا استمر المريض في العلاج التحليلي لمدة ثماني أو عشر سنوات، يمكن أن تساور المرء بعض الشكوك حول ما إذا كان التحليل النفسي شكلًا مباشرًا من الدعم أكثر منه الحل الأفضل، إذا سلّمنا جدلًا أن المريض في حاجة فعلًا لهذه المساعدة المكثّفة؟ وقد يترتب عن طول مدة التحليل النفسي وقوع المريض في التبعية التي يصعب التغلب عليها. وأكثر من ذلك حينما يستثمر مريض ثروة صغيرة في التحليل النفسي فإنه لن يتوقع أن موقفًا موضوعيًّا هادفًا تجاه ما قد يغنمه من ذلك إلا نادرًا، لأنه إما أن يكون، فيما يبدو، مُذعنًا بشكل مفرط أو مُحبطًا بدون داعٍ. ولقد ساعدت تحاليل فرويد المختصرة المريض، على الأقل، في أن يُحافظ على استقلاَليته كأحد أهم أهداف التحليل النفسي في المقام الأول.

لكن التساؤلات حول مدى طول مدة التحليل النفسي لم تكن، في الواقع، ذات أهمية بالنسبة لفرويد. فما كان يعنيه بالدرجة الأولى هو تقدّم العلم حيث اعتقد أن المرض يمكن أن يكون طريقًا للمعرفة وقد ابتكر وسائل لتوظيف هذه المعرفة من أجل العلم. كان همّه الرئيس تعزيز فهم علم النفس الإنساني، ومن ثمة الطابع غير الشخصي الذي تميز به علاج التحليل النفسي. ومع ذلك ظلت تقنية فرويد تثير بعض القلق إذ لم يكن يبدي أيّ اهتمام مهني يذكر بمرضاه، كما لم يكن يتذكر الكثير عن حياتهم. ومن ثمة لا شيء يبعث على الدهشة أن يقول المرضى بأنهم لا يعلمون البتة إن كان فرويد يحبهم أم لا، فلقد أراد فرويد أن يحافظ على حياده تمامًا حتى أن أحد مرضاه استنتج أنه كان باردًا بشكل كبير[17].

في البداية كان لقاء فرويد مزعجًا للبعض، كان يملك جاذبية معينة إلا أنه حاد الطبع[18]. وكان في تقنيته إنسانيًّا إلى أقصى حد، ويشهد العديد من المرضى على كرم وفادته. كان يتحدث عن نفسه ببساطة، وكان لا يُلح في السؤال كثيرًا. وكان يثير اهتمامه وحماسه أيّ شيء. وهو ما أثار دهشة عديد المرضى السابقين بشأن تقنية المحللين في نيويورك مؤخرًا.

لقد منعت إنسانية فرويد أن يتعاطى مع المرضى كما لو كانوا مجرد موضوعات

للبحث العلمي. ولما كان اكتشاف أشياء كثيرة من خلال سبر أغوار الذات تثير ذهوله، فقد كان يستبعد العوامل الأخرى. جاء على لسان فرويد أن «العلاج والبحث مُتزامنَين أثناء التنفيذ...»[19]، حتى أنه يعلم أن الاهتمام العلمي يمكن أن يتداخل أيضًا مع العمل الإكلينيكي. كان التنافس بين البحث والعلاج في التحليل النفسي يثير قلقه[20]. ولمّا تقدّمت به السن انقلبت الموازين من الانهمام بالعلاج إلى الدفاع عن العلم: «فكل ما يعنيني هو الشعور بالثقة بأن العلاج لن يهدم العلم»[21]. في نهاية المطاف انتصر في فرويد المكتشف العلمي على فرويد الفنان.

لقد أكد مرارًا وتكرارًا على أن المحلل يجب أن يتميّز «برباطة الجأش حتى يُعلن عن أي طموح علاجي مهما يكن محدودا»[22]. وتدريجيًّا «أصبح البحث العلمي (كما في شبابه) شغلي الشاغل»[23]. كان ذلك بفضل «التطبيق واسع النطاق لعلاجنا»، وقد أدرك أن هذا «سيجبرنا على خلط سبائك الذهب الخالص للتحليل مع نحاس الإيحاء المباشر... لكن، مهما كان الشكل الذي سيأخذه هذا العلاج النفسي في المستقبل، فما سيُستعار دائمًا من التحليل النفسي الصارم غير المتحيّز، دون شك، مكوناته الأكثر أهمية وفعالية»[24].

اعتقد فرويد أن منهجه هو الأفضل للبحث، إن لم يكن للعلاج. وقد استنتج بعض مرضاه أن العلاج لم يكن يعنيه بالدرجة الأولى قياسًا لانهمامه بالاكتشافات. فليس العلاج بداية ولا نهاية الطب، ففرويد يعتقد أن كل المسائل المتعلقة بالوقاية والعلاج قد تجد طريقها للحل شريطة أن نفهم طبيعة المرض والقوى الفاعلة فيه بشكل كاف(*). وجاء في رسالة له في أوائل عام 1912 قوله: «يقينًا، ليست وجهة النظر العلاجيّة... وجهة النظر الوحيدة التي تفترضها متطلبات التحليل النفسي، ولا هي الأكثر أهمية. لذلك يمثل الخوض في الموضوع أمرًا ملحًّا حتى وإن لم يحتل العلاج صدارة اهتماماتنا»[26].

لمّا تقدّمت السن بفرويد تراجع اهتمامه بالعلاج، وتبنّى بعض تلاميذه الموقف نفسه المحايد تجاه المرضى. وفي هذا الشأن كتب روبرت وايلدر قائلًا: «يعتقد فرويد بأنه من حظ التحليل النفسي أن له قيمة علاجية ولأجل هذا وحده أتاح للأشخاص إمكانية تقديم أنفسهم للبحث التحليلي النفسي»[27].

(*) تقوم المقاربة الطبية في فيينّا، حسب ويليام م. جونستون، على اعتبار «المرض جزء من الحياة: ولا تتمثل مهمة الطبيب في القضاء عليه وإنما في فهمه فقط»[25].

لكن فرانز ألكسندر استنتج أن «التقنية الكلاسيكية وُظفت في الأصل لصالح البحث وليس العلاج... ولا يخلو هذا التوازي الواضح بين أهداف البحث وبين العلاج من مبالغة جسيمة»[28]. ومن جهة أخرى ادعى تلامذة آخرون لفرويد بأنهم لم يعرفوه كعالِم، واعتقدوا أن المُعالج هو الذي يتعيّن عليه أن يضمن راحة فورية للمريض. ولا يزال معظم أتباع فرويد يميلون إلى اعتبار أنفسهم «ملاحظين» لا «معالجين». وفي الواقع، لم يكن فرويد يهتم بالجدل المتعلق بالنتائج العلاجيّة لتلاميذه، بقدر اهتمامه بما اكتشفوه حقًّا.

اعتبر فرويد في مطلع عام 1912 المحلِّل بمثابة «جرّاح»، والتحليل النفسي بمثابة «عملية جراحية»، وأوصى المحلِّل أن يتحلى «ببرودة المشاعر».

«أنا لا أستطيع أن ألح على زملائي بأن يُشكّلوا نموذجًا موحّدًا لأنفسهم أثناء مسار علاج التحليل النفسي. فالجرّاح، هو الذي يضع جانبًا كل مشاعره، بما في ذلك عطفه الإنساني، ويركز قواه العقلية حصرًا على نجاح العملية الجراحية بأكبر قدر ممكن من المهارة»[29].

كان فرويد يقلل من أهمية الجوانب الإنسانية والأخلاقية في جلسة التحليل النفسي، ويعتبر معالجة الأرواح بمنزلة «عملية جراحية»[30]. ولقد أصر على اعتبار «لا تقل تقنية التحليل النفسي دقة ووضوحًا عن أي اختصاص آخر من الاختصاصات الطبية»، و«لا تقل هذه التقنية التحليلية النفسية يقينًا ودقة عن العملية الجراحية» [31] (*). كتب فرويد «رغم ما يبدو عليه الأمر من قسوة، يجب علينا أن نأخذ في عين الاعتبار ألم المريض، لدرجة أنه يتعذر عليه بلوغ النهاية قبل الأوان بطريقة ما أو تحت تأثير فعالية أخرى»[32].

قد يكون من السهل علينا أن نتفق مع فرويد لولا ما جاء على لسانه بصريح العبارة «لم أكن متحمسًا للعلاج قط»، «ينبغي ألا يكون موقفنا من الحياة متعصبًا للعلاج والصحة»[33]. ولم يتعاط فرويد مع حالاته بجدّية، وهذا يؤكده قوله: «ليس مفيدًا التعاطي مع حالة بشكل علمي أثناء العلاج...»[34]، لكنه يعلم أن ما يعنيه بالدرجة الأولى هو الاكتشافات السيكولوجية التي ستساعده في نهاية المطاف على أداء مهمته على أتمّ وجه. ولقد أدرك فرويد أن نتائج العلاج مصيرية بالنسبة للمريض، وكان يحتاجها بشكل ملح في نطاق عمله وعمل تلاميذه. وأدرك فرويد منذ البداية أنه لا يستطيع تقديم العلاج ما لم تكن إمكانية

(*) ارتبط هذا التشبيه بالاستفادة من أثر محفز قد يكون له أثره على تبعية المرضى بدلًا من النموذج التحليلي للاعتماد على الذات.

نجاحه واردة «فأيّ شخص يريد أن يكسب رزقه من علاج المرضى العصابيين لا بد أن يكون قادرًا على مساعدتهم بشكل لا لبس فيه»[35]. استاء من الحقيقة التي وضعها هو نفسه والتي تقول «إن العالِم لا يسمع شيئًا عن بعض أكثر العلاجات نجاحًا...»[36].

إنّه لمن الصعب الاعتقاد بأن تقنية التحليل النفسي في حد ذاتها يمكن أن تؤدي إلى نتائج علاج نفسي دائم. لم يشهد التحليل النفسي تطورات مقارنة بما حدث في الجراحة. ومع ذلك يقول فرويد:

«لا يتوقّف الجّراح عن الفحص والتركيز على المرض، لو كانت لديه نية اعتماد مقاييس مباشرة يعتقد أنها ستقوده إلى علاج دائم... فسيتطلب التحليل النفسي الإجراءات نفسها التي تتطلبها الجراحة: مهما يكن ألم المريض أثناء العلاج النفسي كبيرًا فإنه لا محالة يكون أقل بكثير من الألم المترتب عن الجراحة، وهذا لا يعني شيئًا البتة قياسًا لحدّة الداء الأساسي»[37].

قاد نضال فرويد من أجل أن يكون دقيقًا في أبحاثه فضلًا عن رغبته في الاستجابة لشروط المعرفة العلمية إلى تفضيل تحليل نفسي بسيط، إن تخفيف الألم جزء من المهنة الطبية للتشافي ولم يكن ذلك الغرض الرئيس لفرويد. دوّن فرويد ذات مرة ملاحظة بشأن حاله جاء فيها:

«يمكن نقض نسيج الخيال هذا خيطًا تلو الآخر؛ ويقف نجاح العلاج على وجه التحديد وراء ذلك... إن النتائج العلمية للتحليل النفسي حتى الآن هي فقط نتاج لأهدافه العلاجية، ولهذا السبب غالبًا ما تحدث معظم الاكتشافات بصفة خاصة في هذه الحالات التي يفشل فيها العلاج»[38].

وفي عام 1908 قال فرويد عن نفسه «لم أكن أبالي بمرضاي»، وفي عام 1925 تحدّث عن «بلوغ لا مبالاته أكبر قدر من العمومية» حتى شعر وكأنها «تكتسحه ببطء...»[39]، وعزز فرويد الوهم القائل بأنه بقدر ما تكون تقنية المحلل أكثر مثالية، بقدر ما تكون نتائج العلاج أحسن. وبطبيعة الحال يستطيع المحلِّل أن يؤسس حكمه على ما يراه فقط، لكن الواقع أن المادة الأكثر طبية تختلف باختلاف الناس.

في بداية عام 1896 أخبر فرويد فليس Fliess «إن الشيء الوحيد الذي كنت أشتاق إليه لما كنت شابًا، هو المعرفة الفلسفية، والآن وقد انتقلت من الطب إلى علم النفس فها أنا بصدد تحقيق ذلك. لقد أصبحت معالجًا رغمًا عني...»[40]. وفي عام 1926 كتب فرويد:

«نادرًا ما اعتقدت أن افتقادي للسجية الطبية العبقرية ألحق ضررًا كبيرًا بمرضاي. ولأجل ذلك لا مصلحة عظيمة تُرجى لمرضاي من معرفة ما إذا كان الاهتمام العلاجي لطبيبهم مفعم بالعواطف. وإنما ما يتعيّن عليهم معرفته هو ما إذا كان يؤدي مهمته ببرودة أعصاب مع التزام بالقواعد قدر المستطاع»[41].

كتب فرويد عام 1916 يقول: «افتقد ذلك الميل العاطفي للمساعدة وقد أدركت الآن السبب وراء ذلك: لم أفقد أبدًا شخصًا عزيزًا عليّ في بداية شبابي»[42]. كان فرويد مولعًا بالتناقض بين «وجهتي نظر الطب والتحليل النفسي من الأحلام»[43] وكان نموذجه المثالي العَالِم أكثر من الطبيب.

أكد فرويد دائمًا على أن نظرية التحليل النفسي «قائمة على الملاحظة»[44]، ولا شك أن جونز كان على حق لمّا اعتقد بأنه «كان حساسًا في ما يبدو تجاه تهمة واحدة: وهي على وجه التحديد الفكرة التي تقول بأن كل استنتاجاته تمخضت عن وعيه الباطني»[45]. واستمر بعض تلاميذ فرويد في احترام منجزه رغم تخليهم عن الإعجاب بشخصيته، في حين اعترف البعض الآخر بعبقريته بعدما أنكروا استنتاجاته. وقد ميّز فرويد نفسه بين ما أسماه «عظمة الإنجاز» و«عظمة الشخصية»[46].

إذا لم يكن فرويد مداويًا بالفعل، فقد لجأ بسهولة إلى التشبيهات التربوية ليشرح مساهمته الخاصة. «عمومًا قد يُفهم علاج التحليل النفسي... كإعادة تعليم المريض على التغلّب على المقاومة الداخلية»[47]. أراد فرويد أن يعطي المرضى الوسائل الضرورية لمعرفة الذات. لكن رغم أنه استخدم صراحة مجازًا تربويًا في الإشارة إلى «معايير المحللين للحياة الطبيعية التي يتمنّون أن يربوا عليها مرضاهم»[48]، فقد ميّز في الآن ذاته التعليم عن التحليل النفسي. وقد اعتبر فرويد أن «التعليم والعلاج يعضد كلاهما الآخر... فإذا كان التعليم علاجًا وقائيًا، فإن العلاج السيكولوجي يسعى إلى إبطال النتائج الأقل استقرارًا ويتعهد بما بعد التعليم»[49]. وبطبيعة الحال، لم يكن فرويد يحاضر لمرضاه، لكن وفقًا لافتراضه السقراطي، يعرف المريض كل شيء لكن ينقصه الوعي.

دافع فرويد عن نفسه ضد الاتهام القائل بأن نظريته في العلاج ضيّقة إلى حد كبير: «لماذا توجيه الاتهام فقط ضد التحليل النفسي، من حيث هو علم اللاشعور، مجاله محدد ومقيّد، ولا يوجه ضد الكيمياء»[50]. لقد توقع الوقت الذي ستُستخدم فيه الوسائل الكيميائية لتصحيح الحالات السيكولوجية، وتمنى لو أن تلاميذه استعجلوا أمرهم قبل

تواري المشاكل العصابية عن الأنظار، لأن «الإنسان العصابي يقدّم مادة مفيدة ومتاحة بشكل أكبر للأسوياء...»[51]. نصح فرويد أتباعه بأن يتركوا «الشخص الذي يُعالج بواسطة الحقنة» وراء أظهرهم، فحين تكون الاضطرابات العُصابية قابلة للعلاج بالوسائل المستحدثة، فلن يكون للمحللين فرصة لتربيتهم. لقد كان متخوفًا من «العملاق الأعمى، الرجل الهرموني، الذي سيرتكب فظاعة كبيرة إذا لم يُقدم عالم النفس القزم على اقتياده خارج المتجر الصيني»[*][52].

لقد شعر فرويد دائمًا بخطر الحماس المفرط للعلاج لدى المحلل النفسي. وقد كتب ذات مرة لتلميذ: «أنصحك بأن تترك جانبًا طموحاتك العلاجية وأن تحاول فهم ما يحدث. وعندها سيتكفل العلاج بما ينبغي له بنفسه»[54]. إن المعالج الذي يطمح إلى أبعد مما نصح به فرويد سينتهي به الأمر، في الواقع، إلى جعل المريض تابعًا أو مذنبًا بدرجة كبيرة، وهذا من شأنه أن يحفّز ردود الفعل الدفاعية، أو قد يرد المريض الفعل لاحقًا بطريقة سيئة تجعله يخسر المعالج الناشط. فمن المناسب للمعالج أن يعتني بشكل كبير بمرضاه وأن ينسجم معهم. لكن لم يكن الحسّ السليم جديرًا بالثقة دائمًا، وأن رغبة المعالج في مساعدة المريض يُفترض أنّ لا علاقة لها بشفائه.

كان غرض فرويد كمعالج نفسي في تسعينيات القرن التاسع عشر إنجاز شيء ما يكون له دور وقائي، لكنه بدأ يشكك بالأمر نهاية حياته[55]. وإذا لم يكن فرويد عظيمًا كمكتشف ومعالج، فقد عرف، على الأقل، بعض حدوده. إذ اعترف لكاردينر بأنه ارتكب ثلاثة أخطاء كمحلل نفسي يفتقد للصبر: أصبح يتعب بسرعة من لقاءاته بالناس وكان يحثهم على ألا يقضوا وقتًا طويلًا في التحليل النفسي، وقد ولى نظره أكثر للمسائل النظرية حتى أنها أصبحت هاجسه في كل لقاء مع مريض، ثم ما يلبث أن يقوم مقام الأب البطريركي[56].

لقد أصبح مألوفًا بين المحللين القدامى في السنوات الأخيرة القول بأن فرويد كان معالجًا فقيرًا. بيد أنه كان يأخذ أموال الناس مقابل وعدهم بمساعدتهم ولهذا كانت تعنيه النتائج. وكان يحب أن يخالف نهج تصوراته ذات الأصل الإكلينيكي على عكس بعض منافسيه، وفي ذلك يقول: «لم أنطلق، مثل جانيه، من التجارب المخبرية، ولكن من

(*) في ما يتعلق بهذه المسألة قال فرويد أيضًا: «لقد شعرت وكأني في ضباب وأسمع صوت خطوات أقدام من خلفي لا تنفك تقترب مني». وفي عام 1929 أو 1930 أشار إلى أنه مِثل شخص في القطب الشمالي يعلم أنه لم يعد أمامه كثيرًا من الوقت قبل أن تغمره الثلوج[53].

الأهداف العلاجية الماثلة في الذهن»[57]. وفي حين يتفق الجميع على أن فرويد لم يكن، بما روى عن نفسه، معالجًا، فقد شهد كثيرون على مدى اهتمامه الكبير بمرضاه. من ذلك شهادة بينسوانغر التي جاء فيها «رغم ما قاله بأن الغايات الطبية المتعلقة بالشفاء لا تعنيه في المقام الأول... لم أكن أصدقه البتة، لأنني أعلم جيدًا كم ضحى بنفسه من أجل مرضاه»[58].

3 - الشخصية والأعراض

افتتن فرويد في بداية عمله كمعالج نفسي بفاعليّة الإيحاء والتنويم المغناطيسي. لكن لاحقًا كما جاء على لسانه: «لم يعد التنويم المغناطيسي يستهويني»[1]. وكان ماثلًا في ذهن فرويد بعض الاعتراضات الأخلاقية حتى قيل إنه «امتعض من أخلاقيات طريقة الإيحاء ـ التضليل، الإكراه، التجاهل»[2]. لقد امتعض كثيرًا من استخدام التنويم المغناطيسي وطريقة الإيحاء لما فيهما من «اختراق بل إنهما يفتقدان للعلمية إذ يستعيدان السحر والتعويذات والخزعبلات»[3]. ومن خلال استبعاد الدفاعات اليومية، فإن طريقة التنويم المغناطيسي لا تسمح للمعالج بأن يكتشف تضليل المريض لنفسه.

لقد قاد فرويد «توجسًا داخليًا» إلى «التخلي عن التنويم المغناطيسي والاستعاضة عنه بالتداعي الحر»[4]. و«مع التخلي عن التنويم المغناطيسي أصبح العلاج متاحًا لعدد لا يُحصى من المرضى»؛ لأنه «لا يأخذ في عين الاعتبار إلا إمكانية تنويم المريض مغناطيسيًا من عدمها، دون اعتبار مهارة المعالج... مع ذلك لا يقبل عدد كبير من المرضى العصابيين تنويمهم بأي وسائل كانت....»[5] لكن يمكن أن ينخدع القارئ بادعاء فرويد في عام 1903 أنه بمجرد أن أوقع تبني التداعي الحر فُتح المجال أمام كل أصناف المرضى للخضوع للتحليل النفسي، ففي عام 1898 أعرب فرويد بدقة عن قناعته الثابتة بأن:

> **«علاج التحليل النفسي لا يُطبّق في الزمن الحاضر على جميع الحالات... فهو يتطلب أن يكون المريض على درجة معينة من النضج والفهم ولهذا ليس مناسبًا للشباب أو البالغين محدودي الذهن أو غير المتعلمين، كما يفشل مع الأشخاص المتقدمين جدًّا في السن وذلك بسبب تراكم موادهم، وهو ما يتطلب وقتًا أطول إلى حد تصبح فيه قيمة الحياة مع نهاية العلاج لا علاقة لها بالصحة العصبية. ومن ثم لا يكون العلاج مناسبًا إلا إذا كانت حالة المرضى النفسية طبيعية بحيث يمكن التحكم في المادة الباثولوجي. أما أثناء الاضطراب الهستيري، والهوس أو الاكتئاب، فلن تجد وسائل التحليل النفسي فتيلًا. ورغم ذلك يمكن علاج هذه الحالات عن طريق**

التحليل النفسي بعد إخماد نوبات العنف بواسطة الطرق المعتادة. وفي الوقت الراهن، تكون الطريقة ناجعة مع جميع حالات العصاب المزمنة أكثر من الحالات التي تتعرض لأزمات الحادة، حيث يتم التركيز بشكل كبير، وهذا طبيعي، على سرعة التعاطي مع الأزمة. ولهذا السبب فإن المجال المفضل لهذا العلاج الجديد هو الرهاب الهيستيري (الفوبيا) والأشكال المتعددة للعصاب الوسواسي»[6].

وفي عام 1904 سرد فرويد «مختلف المؤهلات التي يتعيّن أن تتوفر في الشخص الذي يريد أن يستفيد من التحليل النفسي. عليه في المقام الأول أن يكون في حالة طبيعية نفسيًا»، ويُبدي «قدرًا من الذكاء الطبيعي والتطوُّر الأخلاقي...». وليس مجديًا في تقدير فرويد بالنسبة للمحلل النفسي أن يساعد شخصًا «تافهًا»، لأنه إذا اضطر الطبيب لأن يتعامل مع شخص تافه، فسيفقد الاهتمام الضروري للتعمق في الحياة النفسية للمريض»[7].

لما كانت مواد فرويد الإكلينيكية «تتألف، في الواقع، من حالات مزمنة تنحدر من الطبقات الأكثر تعليمًا»[8]، فإن مرضاه قادرون على استخدام وسائل العلاج الشفوية التي يفضلها. وقد تساءل فرويد عن كيفية وصوله إلى تقنيته المخصوصة في العلاج كتقنية تشجع المريض على التعبير عن كل الأفكار التي تدور في ذهنه في أدق تفاصيلها. لقد اعتبر ذات مرة أن أحد كتب طفولته، وهو الكتاب الوحيد «الذي تبقى من فترة طفولته في عام 1920» الذي لمح لتصوره للتداعي الحر كطريقة ناجعة من شأنها مساعدة مرضاه ذلك أنّ «هذا التلميح يسلّط الضوء على الذكريات المخفية (القنوات الخفية للذاكرة) تلك التي يُشكك في تخفّيها في العديد من الحالات خلف الأصالة الظاهرة»[9].

رغم أن فرويد يعتقد أن طريقة التداعي الحرّ، على عكس التنويم المغناطيسي، ستكون طريقة لاكتشاف الذكريات المخفية دون سحر الإيحاء، فإنّ الوضع التحليلي النفسي لا يكفي لافتراض العناصر السحرية كلها. إن من شأن بقاء المحلِّل النفسي صامتًا وبعيدًا عن أعين المريض، وحتى في حال مواجهة إيحاءاته الأكثر اضطرابًا وحميمية، أن يفرض عليه ضغطًا معينًا. تتعلق طريقة المحلِّل النفسي في التواصل مع المريض ـ محدودة نسبيًا، يكتفي المحلِّل ببعض الملاحظات المنمقة، في حين يتكفل المريض بباقي الحديث ـ بتشجيعه على توقع شيء مميز. وكلما كان المحلِّل أكثر صمتًا، كلما فقدت تعليقاته قيمتها.

اعتقد فرويد أن يتخلص التحليل النفسي من المخاطر السيئة لطريقة الإيحاء، مثلما

حدث عندما شجّع مرضاه دون دراية أن يصدقوا قصص الإغواء الباكرة التي عاشوها في سن الطفولة. ورجّح فرويد أيضًا أن تكون إحدى مرضاه تخلت عن علاجها بسبب حياده، وقد عبّر عن استغرابه من ذلك متسائلًا:

«هل كان عليّ من أجل استمرار الفتاة في العلاج أن أترك الرياء جانبًا، أم كان عليّ أن أبالغ في التأكيد على أهمية أن تستمر معي، وأن أبدي لها اهتمامًا شخصيًّا مفعمًا بالحميمية...؟ لا أدري... لطالما تجنّبت الرياء، وأقنعت نفسي بممارسة تقنيات أكثر تواضعًا في علم النفس. وعلى الرغم من كل اهتماماتي النظرية ومساعيّ كطبيب لمساعدة الآخرين، فإني على يقين بضرورة وضع حدود للتأثير السيكولوجي، ومن أهم تلك الحدود التي يتعيّن عليّ احترامها إرادة المريض وتفكيره»[10].

ورغم محاولته التمييز في المستقبل بين «الذهب الخالص للتحليل» وبين «نحاس الإيحاء المباشر»، فإن ذلك لم يكن في الحقيقة بالأمر الهيّن [11].

ولا يزال السؤال قائمًا حول ما إذا كانت النتائج التي توصل إليها فرويد ثمرة مجهوداته الشخصية والتقنية التي اعتمدها. ولأن فرويد لم يدرك مدى إثارة شخصيته للإعجاب وإلى أي مدى يمكن للوضع التحليلي النفسي أن يكون قسريًا، فإنه لم يكن مقنعًا على ما يبدو في ما جاء على لسانه عام 1937:

«ويقينًا إن ما يترتب عن طريقة الإيحاء المضللة للمريض وعن إقناعه بقبول الأشياء التي نعتقد فيها نحن دون أن يكون معنيًّا بالاعتقاد فيها من خطورة تخطى كل الحدود، سيتعيَّن على المحلِّل أن يتصرَّف بشكل غير صحيح قبل أن يتعثر حظه، إضافة إلى أن عليه أن يلوم نفسه على عدم السماح لمرضاه بأن يكون لهم رأيهم الخاص».

لكن فرويد كان عقلانيًّا جدًّا عندما تجاهل الأسس الأكثر تضليلًا لتحليل المريض نفسيًّا عن طريق الإيحاء. ولم يساعده تشدده في أن يكون أكثر إقناعًا، وعن هذا الأمر يقول: «أستطيع أن أؤكد، ولا أدّعي في ذلك فخرًا، أني لم أسىء استخدام الإيحاء أبدًا في مهنتي»[12].

ورغم أن فرويد أصبح متحفظًا ومعتزلًا في كبر سنه، إلا أنه كان في ما مضى كطبيب نفسي يتدخل في مرضاه بشكل مكثف، تكشف محاضراته في جامعة كلارك التي كتبت

أواخر عام 1909 مثلًا عن مدى اهتمامه بالأعراض وتتبع كل عرض حتى النفاذ إلى ماضي المريض الطفولي. ورغم اهتمام فرويد في نهاية مسيرته المهنية بشكل رئيس بإعادة بناء ماضي المرضى، فقد كتب أن التحليل النفسي قد بدأ «بما هو كذلك، بكل ما يحتويه العقل، وبالأكثر غرابة عن الأنا_الأعراض»[13].

حاول فرويد في بداية نشاطه كمحلِّل أن يركز مباشرةً على مشكلة علاج الأعراض. واعتبر في بداية تعاونه مع بروير أن كل عرض له تاريخ وبنية حتى انتهى به الأمر إلى اعتقاد بأن المهمة الأساسية للتحليل النفسي تكمن في مساعدة المريض على فهم أسباب كبته وتراجعه، وحينها يمكن للأعراض أن تنتفي من تلقاء نفسها. لكن، كما رأينا، اعتبر فرويد لسنوات أعراض المريض أمرًا مهمًّا[14].

ومع مرور السنين، غيّر فرويد في مقاربته بحيث لم يعد هدفه الأساسي تفسير وعلاج الأعراض وإنما التغلب على الدفاعات والمقاومات. فقد أدرك أن الافتتان بعلم الأعراض قد يؤدي إلى الاهتمام بالإنسان، وهكذا أصبح العديد من المحللين النفسيين يهتمون، تحت تأثير مساهمات فيلهالم رايش جزئيًّا، بدراسة خصائص الشخصية. وتتمثل وجهة نظر فرويد في أن التحليل النفسي «لا يتخذ أعراض المرض غاية له ولكن يعمل على القضاء على أسبابها»[15]، وإلا فلن «يُعالج شيئًا غير الأعراض التي قد تظهر مرة أخرى»[16]. وفي عام 1922 اعتقد فرويد أن «القضاء على أعراض المرض لم يكن هدف التحليل النفسي بشكل خاص، لكن حُقّق، كما لو كان ذلك يمكن أن ينتج عن التحليل النفسي إذا ما استخدم على أتمّ وجه»[17].

يُستخدم مصطلح «العصاب» هذه الأيام للدلالة على عرض محدد، لكن عندما بدأ فرويد الكتابة لأول مرة، استخدم للدلالة على أيّ شيء ذي علاقة بمسألة الانتحار[18] بمجرد جرّة قلم. وعمومًا، كان فرويد يعني بالاضطرابات العصابية «أشكال البلوغ الطفولية، بمعنى حياة التبعية...»[19].

ولقد رأينا كيف أن تركيز فرويد على المصادر السيكولوجية للاضطرابات العقلية لم يمنع اعترافه بأهمية النزعات المزاجية (يقصد فرويد بـ«النزوع» كل ما ليس سيكولوجيًّا)[20]. وعلى كل تؤثر العوامل العضوية في العلاج النفسي «مكن التحليل النفسي علم النفس من حل النصف الأهم من مشاكل الطب النفسي. ومع ذلك نرتكب خطأً فادحًا إذا ما افترضنا

أن أهداف التحليل النفسي وأغراضه ذات طبيعة سيكولوجية خالصة... النصف الآخر من مشاكل الطب النفسي تتعلق بتأثير العوامل العضوية على الجهاز العقلي»[21].

رغم ما يُقال عن العلم آنذاك بأنه لم يكن يعرف إلا القليل عن عوامل الوراثة، ففي تقدير فرويد سيكون من الحماقة تجاهل المسارات السيكولوجية التي فتحها.

توصف حالات الاضطراب الحادة بالذهانية، وتستوجب عادة إقامة المريض في المستشفى لعلاجه لأسباب عملية حيث تعتبر اليوم العلاجات الكيميائية والفيزيولوجية العصبية (وحتى الجينية) بصفة عامة هي الأكثر فاعلية. ورغم رغبة فرويد في استبعاد الذهان عن العلاج عبر التحليل النفسي، فإنّه يعتبر أنه «لا يوجدُ اختلاف جوهري، إلا في ما يتعلق بالدرجة، بين الحياة العقلية للأسوياء والعصابيين والذهانيين»[22]. ويعتقد أنه: «مثلما هو الحال في علم الأحياء غالبًا، تكون الظروف العادية أو تلك التي تتعلق بالوضع العادي هي الأقل أهمية بالنسبة للبحث من الظروف الباثولوجية. وأتوقع أن ما سيظل غامضًا في شرح هذه الاضطرابات الخفيفة جدًا سيتوضح عن طريق شرح الاضطرابات الحادة»[23].

ففيمَ تتمثل «الاضطرابات الحادة» في تقدير فرويد؟ لقد زعم ذات مرة كما جاء على لسانه: «لما كانت طريقتي العلاجية في بدايتها، فإني لا آخذ في عين الاعتبار سوى الحالات الحادة التي خضعت للعلاج لسنوات دون أي تقدم يذكر في شفائها»[24]. خلافًا لما هو عليه واقع الحال اليوم، كان هناك في الأيام الأولى للتحليل النفسي، بالطبع، نوع مختلف من المرضى يعرضون أنفسهم على العلاج: وحديثًا تبيّن في جزء من الولايات المتحدة أن العَرض الرئيس الظاهر للمرضى الذين يعرضون أنفسهم على التحليل النفسي من قبل محلّلين متدربين يتمثّل في صعوبة استكمال تحرير رسائلهم في الدكتوراه. لكن التغييرات التاريخية منذ زمن فرويد قد تربكنا، ذلك أنه بسبب «الحالات الحادة» لم يكن فرويد ينوي أن يهتم بالحالات الذهانية. وإذا لم ينجز السويسريون شيئًا يُذكر في التمييز بين علم الأعصاب والطب النفسي، فإنّ الألمان حققوا الكثير. وقد أُعفي علماء الأعصاب مثل فرويد في فيينا من عيادة الحالات المقيمة في المستشفيات.

لم يكن في نية فرويد أو قصده أن يكتسب خبرة في الطب النفسي. فلقد اختار علم النفس، ورغم استيائه من طريقة الطب النفسي الرسمي في التعامل مع اكتشافاته، خاصة

في فيينا، فإنّ أفكار التحليل النفسي لم تبدأ في التأثير على فهم وعلاج الأمراض العقلية الخطيرة إلا لاحقًا مع مجيء يونغ وبعض تلاميذ فرويد من الأميركيين. ومع ذلك لم يكن فرويد يحب (أو لم يكن يريد) إجراء تشخيص طبي نفسي(*).

في أواخر عام 1908 علّق قائلًا إن هناك حالة معينة «لشخص يعاني من الزَوَر، وبالتالي... لا يستقيم معه التحليل النفسي»[26]. وفي عام 1926 رفض فرويد الكشف على مريض بالزَوَر أُوصيَ به إليه، رغم محاولة غيره من المحلِّلين معالجة مثل هذه الحالات آنذاك[27]. واعتبر فرويد «المرضى العقليين بناءات منكسرة، شأنهم في ذلك شأن الكريستالات المحطمة. حتى أننا لا نستطيع أن نحجب عنهم شيئًا من الرهبة التوقيرية التي شعر بها الناس في الماضي تجاه المجنون»[28]. وبدا موقف فرويد في إحدى رسائله ذو طابع شخصي أكثر حيث جاء فيها: «لا أحب هؤلاء المرضى... إنهم يزعجونني... أشعر بأنهم بعيدون جدًّا عني وعن كل ما هو بشريّ. هناك نوع غريب من عدم التسامح يمنعني بجدية من أن أكون طبيبًا نفسيًا»[29].

يعتقد فرويد، على ما يبدو، بأن بعض المرضى مثل أولئك الذين يعانون من الشيزوفرانيا قد يستفيدون من تقنية التحليل النفسي في المستقبل، لكن بالرغم من استعداده لأن يأخذ في عين الاعتبار ما سيتوصل إليه معالجون آخرون، فإنه لم يكن يريد المشاركة في هذا العمل بنفسه. فعلى المرء أن يكون متحفظًا كي لا ينغمس في هذه الاضطرابات المخيفة. لكن بعض المعالجين، مثل فريدا فروم-رايشمان، اخترقوا مرضاهم عن طريق الاهتمام الحميميّ بهم، بينما لجأ آخرون إلى تأويلات متضاربة وعميقة.

لم يكن فرويد مرنًا بما فيه الكفاية ليسمح بتكييف تقنيته مع علاج مرضى الذهان. فموقفه منهم يبدو دفاعيًّا، وكما لو كان ردة فعل تجاه خطر وتهديد داخلي. فعلى الفرد أن يكون، على الأقل في الظاهر، أكثر حميمية وأقل اعتزالًا حتى يتسنى له الاهتمام بمرضى الذهان. وبينما يعترف «بعدم إلمامه بالشيزوفرانيا»، كتب فرويد عام 1927 «عمومًا أشك في فاعلية التحليل النفسي في علاج مرضى الذهان...»[30]. حتى أنه لم يغيّر في مبدئه العام القاضي بأنّ معاناة المريض في التحليل النفسي لا بد ألا «تنتهي بشكل مبكر» ليستوعب الواقع الإكلينيكي للمشاكل الذهانية.

(*) وذات مرة أحال فرويد مريضًا التقاه مرة واحدة إلى تلميذ، أوعز له في رسالة أنه لم يعرف التشخيص، ولم يخبره بأي شيء إضافي عدا أن المرأة كانت «دجاجة مجنونة». بينما كانت تعاني، في الواقع، من نوبة هَوَس[25].

وبحكم التجربة نميّز بين العُصاب والذُهان على أساس أن هذا الأخير ينشأ حين يعجز الشخص عن التعامل مع الأول. لم توجد وسائل مجدية حقًا للتمييز نوعيًا بين المنطقتين. وفي أواخر عام 1923 أكد فرويد على أنه «لا يوجد خط فاصل بين العصاب والذهان بشكل مباشر وصارم»[31]. وقد استنكر فرويد ذات مرة، مبديًا عدم تسامحه الديني، «التعاليم الدينية الموجهة لحياة الأطفال الكاثوليك» حيث اعتبر أنها «تمثل أرضًا خصبة للذهان لدى الطفل على امتداد ذلك المسار!»[32]، ربما من رحابة أفق فرويد أنه فكّر بأن «الهلوسة قد تنتج أحيانًا عن الصحة»[33]. لكن في تصنيفه لحالات الذهان كاضطراب عصابي تشابه عليه الأمر حتى بدا العُصاب، الذي يُفترض أن التحليل النفسي يستطيع معالجته، هو الصنف الأكثر عمومية بحيث يكون الذهان مجرد حالة من حالاته[34].

لقد ناقش فرويد الذهان أحيانًا تحت يافطة «العُصاب النرجسي»، مع افتراض ضمني بأنه ليس من الضروري اعتباره صنفًا قائمًا بذاته، رغم محاولته لاحقًا تصنيفه كذلك. لكن كثيرًا ما اعتقد أن «المقاومة في حالات العُصاب النرجسي لا تُقهر...»[35]. وفي حالات العُصاب العادية تكون قدرة المريض على «تحويل» الحب والكره القديمين إلى المحلّل أساسًا لإمكانية بناء علاقة فاعلة، لكن «مرضى العُصاب النرجسيّ» يرفضون الطبيب، ليس بشكل عدائي ولكن باللامبالاة... إذ لا يُبدون أي تحويل ولهذا السبب يكون من الصعب أن نتواصل معهم بمجهوداتنا ولن يتسنى لنا علاجهم»[36]. لكن نعلم الآن أن «المريض النفسي أبعد ما يكون عن إقامة علاقة تحويل، مع أن التحويل متاح بشكل كبير، لكن المريض لا يستطيع الاحتفاظ بحقيقة العلاقة بينه وبين الطبيب»[37].

لم تتداخل صعوبات فرويد في تشخيص وعلاج الحالات الذهانية مع قدرته على شرح عمليات الذهان. لقد ساهم في تطور فهمنا لحالات الذهان بشكل أساسي، من ذلك مثلًا فكرة أن الكئيب - حدادًا على خيبة الأمل في الحب - يستوعب غيظه ذاتيًا دون وعي فيُوجهه إلى الداخل بدل الخارج[38]. ويعتقد فرويد أن دراسة حالات الذهان ستكون مثمرة خاصةً في مستوى عملية التعرّف على الأنا. لكن ما كان يدور في خلده أكثر ثقافة وأكثر سموًا من علاج الذهانيين، فقد طمح لأن يكون الأشخاص أسمى وأفضل.

منذ انطلاقته في العلاج النفسي، كان فرويد حساسًا من «موقف زملائه من تشخيصه للهستيريا حيث لم يكن يستبعدها كلما تعلق الأمر بالأشياء شديدة الخطورة»، بالرغم من

أنه كان يتحدث هاهنا عن معالجة حالة السركوما ـ ورم خبيث ـ في الغدد البطنية وحالة التصلب المضاعف كهستيريا[39]، وبالإضافة إلى خشيته من الغفلة عن بعض الاضطرابات العضوية[40]، إلا أنه واجه المشكلة ذاتها في علاقة بالذهان ذلك أن أعراض العُصاب قد تخفي الذُهان. وقد علق فرويد على حالة مريضة سابقة قائلًا: «لقد تحوّل عصابها في سنواتها الأخيرة إلى خرف مبتسر (شيزوفرانيا)»، وقد كتب إلى تلميذ ذات مرة: «لسوء حظك قابلت جنون ارتياب مستتر ولعلك أثناء تبرئته من العصاب أطلقت داء أشد»[41].

لم يكن فرويد الوحيد الذي انتهى إلى هذا الاستنتاج الإكلينيكي. لقد تحدث عما تثيره «هذه الحالات من إشكال عادة ما يتكرر وقد كان الاهتمام به محدودًا حيث اعتبر المرض لفترة طويلة بمثابة هستيريا حتى ظهر الخرف تدريجيًا أو... أن الأشخاص الذين يعانون من الهستيريا لسنين أصبحوا فجأة يعانون من الزَوَر...»[42].

وفي عام 1937 دافع فرويد عن التحليل النفسي ضد «تحذير بأن علينا ألا نوقظ الكلاب النائمة، وهو تحذير غالبًا ما نسمعه في علاقة بما نبذله من مجهودات لاكتشاف العالم النفسي الداخلي...». وقد رد فرويد على ذلك منطقيًا «لما كانت الغرائز تسبب الاضطرابات، فذلك دليل على أن الكلاب ليست نائمة، وإن كانت تبدو كذلك، فليس في وسعنا أن نوقظها»[43]. لكن فرويد يعتقد ذلك بصورة مختلفة كمعالج متمرس. ففي رسالة وجهها إلى زميل عام 1935 تُظهر أن كان له من العلم ما يكفيه للاهتمام بمشاكل مخصوصة حيث جاء فيها:

«لست مقتنعًا، مثلك تمامًا، بتشخيص الشيزوفرانيا في حالته. فلا بد أن أنقل إليك ما أشعر به وما أفهمه عن الآلية الذُهانية لمرضه. فهو يشتكي من العجز عن العمل تمامًا ومن نقص في الاهتمام بشؤونه المهنية والتجارية. ولقد كنت قادرًا على أن أعيده ليدير أعماله، لكنه لم يكن قادرًا على استعادة عمله النظري. ولم أجعله أبدًا عاديًا تمامًا. فالطريقة التي يعالج بها الرموز في ذهنه، والتماثلات الملتبسة، والذكريات المشوهة، وتقوقعه في خرافاته الوهمية حوّلته إلى ذهاني بشكل دائم، كان مزاجه مهووسًا باستمرار... مع ذلك سنحت لي الفرصة ذات يوم لمراقبته على نحو أكثر وضوحًا... وقد تأثرت لإحدى اعترافاته بشكل عميق. الأمر الذي أغراني لتحليله نفسيًا. كان يشعر حينها بأن شيئًا ما يؤرقه وأنه يشعر بالحرج بأن يسرّه في نفسه... مع ذلك شككت في جدوى حثه على الإعـراض عن إنكاره. تلك هي الطريقة الوحيدة المجدية في التعامل مع العصاب وهي الكفيلة بالقضاء على المرض، لكني

كنت على ما يبدو محقًّا في شكّي بشأن جدوى التحليل النفسي في علاج الذُهان. وحتى أبقي عليه في حالة وعي عليّ أن أحذر انهيارًا ذهانيًّا جديدًا لن يكون بوسعي مواجهته. ولذلك قررت أن أترك الموضوع وأن أقنع بالنجاح المؤقت على نقصه... مريضي كان عصابيًّا مجرمًا أي محتال مرهف الإحساس»[44].

لقد تزايد وعي فرويد بجدوى الدفاع ضد الذهانيين العاديين كمبرر جديد لامتناعه عن محاولة علاج كل عرض على حده. وكما قال دونالد فينّيكوت: «يجب على الفرد أن يكون قادرًا على ملاحظة الأعراض دون محاولة علاجها لأن لكل عرض قيمة بالنسبة للمريض، فعادة ما يكون المريض أحسن حالًا إذا تركته يواجه عرضه»[45]. ليست حالة العُصاب هي أسوأ ما يمكن أن يعاني منه الفرد. ففي مناقشة عن الشيزوفرانيا عام 1920 قيل إن فرويد أعطى «وزنًا خاصًا للحقيقة القائلة بأنّ إعادة بناء عقدة أوديب هي مكمن عملية العلاج»[46]. ورغم أن مواقفه بشأن حالات الذهان قد تعمقت على امتداد السنوات السابقة، فإن نفوره من علاجهم لم يتزحزح أبدًا، وقد يستفيد المعالج غير الفرويدي من مواقف فرويد النظرية من معالجة الذهان للتقرّب أكثر من المريض. لكن على الرغم من أهمية نظريات العلاج النفسي، تظل شخصية المعالج حاسمة في النهاية.

4 - الجدارة

يمكن أن يُبدي المحلل النفسي احترامه لكرامة المريض، من وجهة نظر فرويد، لا عن طريق دعمه ومساندته وإنما عن طريق الصدق: «بما أننا نطالب بالصدق الصارم من مرضانا، فإننا نخاطر بسلطتنا كاملة إن سمحنا أن يقبضوا علينا كمفارقين للصدق»[1]. كان فرويد يحب من بين مرضاه الصرحاء والصادقين مع أنفسهم، وكذلك أولئك الذين يعانون حقًّا، ولما كان فرويد قد ارتأى الحياد في أسلوبه، فإن مرضاه هم الذين أفصحوا عن مواقفه الشخصية هذه. التزم فرويد كمحلل بمعايير القرن التاسع عشر بنبل وهو ما يتعيّن على جيل المستقبل من المعالجين التقيّد به: «ينسى الرجل الشريف فعلًا الشؤون الخاصة للغرباء ولا تبدو له ذات أهمية»[2].

وبالنظر إلى ما كان عليه وضع فرويد، في عصر اعتبر العصاب مجرد هذيان خيالي أو ضرب من التمارض المتعمد، كان لا بد أن يُنظر إليه كمعالج متسامح، وما دام لا يتدخل في أيّ مشكلة بصفة شخصية فقد حافظ على هذا التسامح. وعلى الرغم من ذلك، كتب

عام 1903 أن «التشوّهات عميقة الجذور التي تصيب الشخصية، وسمات المزاج المنحط، لا تعدو أن تكون سوى مصادر للمقاومة التي يصعب التغلب عليها. وفي هذا الصدد يضع مزاج المريض حدًا عامًا للتأثيرات العلاجية النفسية». لكن فرويد يعتقد بأنه «رغم كل هذه الحدود، فإن عدد الأشخاص الذين يتلاءم معهم العلاج التحليلي النفسي متزايد بشكل غير عادي...»[3].

تحظى عبارة «انعدام الجدارة» بأهمية لدى فرويد. مال إلى التحليل النفسي - أكثر من الإجراء الطبي - كوسام شرف أخلاقي، وإن أولئك الذين يمكن مساعدتهم بواسطة التحليل النفسي هم الأشخاص المهمّين بالفعل. وضمن بعض الوجوه يمكن اعتبار العصابي هو أول من وضع معيارًا جديدًا لأخلاقيات التحليل النفسي، فقد أثبت شفاءه بواسطة التحليل النفسي بجدارة. ومن ناحية أخرى، كانت توقعات فرويد الأخلاقية من مرضاه محدودة بوجهة نظره القاسية عن الطبيعة البشرية: «عادة ما يثير فيّ عدم جدارة الإنسان، حتى وإن كان محللًا، انطباعًا عميقًا، لكن لماذا يتعيّن على الأشخاص الذين خضعوا للتحليل النفسي أن يكونوا أفضل من الآخرين بأتمّ معنى الكلمة؟»[4].

كتب فرويد في رسالة إلى القسيس البروتستانتي أوسكار بفيستر الذي شارك في التحليل النفسي:

«الأخلاق لا تعنيني... لا أرهق تفكيري كثيرًا بالخير والشر، فقد أدركت أن الخير محدود في البشر جميعًا وقد أثبتت لي التجربة أن معظمهم رعاع، فلا شأن لي بهم سواء أيدوا علنًا هذا المذهب الأخلاقي أو ذاك أو لم يؤيدوا أيّ مذهب على الإطلاق... إذا كان علينا أن نتكلم عن الأخلاق فإني أؤيد مثلًا أعلى لا ينطبق بكل أسف على معظم البشر الذين التقيتهم»[5].

بعد مرور سنوات كتب فرويد إلى لو أندرياس-سالومي يقول «إن أسوأ ما فيّ لا مبالاتي تجاه العالم... ولا يمكنني في أعماق ذاتي سوى الاقتناع بأن أتباعي الأعزاء، مع بعض الاستثناءات، خسيسون»[6]. وجاء في وصف هانز ساكس لفرويد قوله: «بقدر ما كان طيبًا لم يكن لطيفًا، وبقدر ما كان محبًا للخير لم يكن حنونًا»[7]. ولم تخلو مواقف فرويد من بعض الإيحاءات ذات الطابع النخبوي حيث كان يقصد بعبارة «الخير مقابل لا شيء» «الرعاع» أو «حثالة» المجتمع. ويبدو أن معاشرته الإكلينيكية لما يعتبره خسّة الحياة البشرية قد أعيته. ومع ذلك فإن الأمر الذي لا زال يثير الانتباه هو أنه لم يكن يعير اهتمامًا

يُذكر «بالشخص حتى وإن يكن من طبقة متوسطة»[8]. رغم أن ثقافتنا، في جزء مهم منها على الأقل، تتشدق بقدسية وقيمة النفس البشرية.

بالرغم من طبيعة عمله وقد يكون بسبب ذلك في جزء منه، يُقال إن فرويد كان «لا يحب الحالات الباثولوجية والتطرّف أيًا كان مأتاه»[9]. من ذلك أن كانت لديه شكوك حول دوستويفسكي Dostoevsky منافس فرويد في اكتشافه لأعماق الإنسان وقد كانت قصته «الإخوة كرامازوف» المفضلة لديه. وجاء في رسالة كتبها فرويد إلى تيودور رايك ما يلي:

«لدي اعتراض آخر عليه يتمثل في أن رؤيته مقيدة للحياة العقلية غير العادية فضلًا عن عجزه المذهل في مواجهة ظاهرة الحب. كل ما كان يعرفه فعلًا لا يعدو أن يكون إلا أمرًا بسيطًا يتعلق بالرغبة الغريزية، خضوع مازوشي وحب نابع من الشفقة. أنت على صواب... في شكك هذا، ورغم إعجابي بقوة حجة دوستويفسكي وتفوقه، فإني لا أحبه حقًا ولم أعد أطيق تحليل الحالات الباثولوجية. أنا أمقت تلك الحالات في الفن وفي الحياة».

يضيف فرويد، من أجل أتباعه، «تلك هي سماتي الشخصية ولا ألزم بها غيري»[10]. ومن هنا نفهم لماذا كان فرويد يفضل من يكتب قليلًا (على أن يكون بارعًا ومناهضًا للأكليروس) مثل أناتول فرانس[11].

اعتبر فرويد أن رفضه تحليل المرضى غير مقبول في جزء منه، وهو ما يعزز ادعائه بأن مساعدته لمرضاه لا تفترض ضرورة أن يحبّهم. كان فرويد يعتقد بأن عليه «أن يجتهد في مساعدة المريض قدر المستطاع وأن يتعاطف مع وضعه الخاص»[12]. وقد اعتبر فرويد، في عام 1890، قبل خيبات أمله العديدة، أن إجراءه «يتطلب اهتمامًا كبيرًا بالأحداث النفسية كما يتطلب أيضًا اهتمامًا بالمرضى. لا أستطيع تخيّل نفسي أخوض في آلية نفسية الهيستيريا مع أي أحد يتبجح بتفوقه ويتهمني بضيق الأفق، فهو لن يستطيع أن يثير التعاطف الإنساني، وإن يكن من أشد معارفي قربًا إليّ....»[13].

تسامح فرويد مع العمليات العصابية بخلاف معاصريه، ووفقًا لمعاييرنا الراهنة كان يتعيّن عليه قطعًا أن يكون متخلفًا. اختار مرضى بعينهم يفضلهم ليعمل معهم وكان غير متسامح مع المرضى غير الصادقين ولهذا تجده لا يهتم بأولئك الذين يشتكون من اضطرابات في الأنا مثل أولئك الذين نطلق على تسميتهم فئة الشواذ. (رغم ذلك، لم يمنع أوغست ايكورن،

وهو محلل نفسي من حلقة فرويد، إعداد دراسته حول الشذوذ، Wayward youth[14]). وجاء عن مريض أن فرويد قال لتلميذ ينصحه «يجب أن يكون واضحًا لديك أن وغدًا لا يستحق عناءك... ولا اهتمامك»[15]. ويتحدث فرويد عن الشواذ كما لو كانوا فاقدين للأنا، قال ذات مرة: «كلما غاب الأنا، أصبح التحليل النفسي باطلًا»[16].

كان فرويد يعرف، حينما يكتب، أن «الشذوذ الجنسي يواجه تحريمًا خاصًا جدًا، وهو ما مثل حجر عثرة أمام صياغة نظرية علمية في شأنه»[17]. وفي رسالة شهيرة لأم لوطي، كتب فرويد يطمئنها قائلًا:

«يقينًا ليس الشذوذ الجنسي امتيازًا، ولكن لا شيء يدعو للخجل أو الحرج، هو ليس رذيلة، ولا خزيًا، ولا يمكن تصنيفه كمرض، فنحن نعتبره بمثابة تنوّع في الوظيفة الجنسية، ناتج عن كبح معين لتطور جنسي. ولقد كان من العديد من بين الشخصيات التي تحظى باحترام كبير قديمًا وحديثًا شواذ كثر نذكر من بينهم بعض العظماء مثل أفلاطون ومايكل أنجلو وليوناردو دي فنشي وآخرون، وإنه لظلم كبير أن يُدان الشذوذ الجنسي كجريمة، وهي إدانة لا تخلو من قسوة أيضًا».

إذا كان ابن هذه السيدة «غير سعيد ويعاني من العصاب وتؤرقه الصراعات وغير مستقر في حياته الاجتماعية، فقد يساعده التحليل على تحقيق انسجام وصفاء ذهنه والتمتع بفاعلية متزايدة سواء ظل شاذًا أو تغيّر»[18].

كان فرويد يعتبر الشذوذ الجنسي لا يؤذي من كان ذا شخصية متينة. ولما كان المحلِّل يعرف أكثر من أم المثليّ الجنسيّ، تعيّن على فرويد أن يكون أكثر انفتاحًا في التعبير عن نفوره من هذه الظاهرة. ولم يكن فرويد أوفر حظًا من غيره، فقد فشل هو أيضًا في تحقيق مثال أعلى لا تشوبه شائبة بشأن أيّ شيء إنساني يكون غريبًا بالنسبة إليه. وقد ورد في كتابات فرويد عن الشذوذ الجنسي الذكوري، التعليق التالي: «في الحالات غير المرغوبة يمكن للمرء أن يُبحر بأناس كهؤلاء عبر المحيط، لقاء بعض المال، إلى أميركا الجنوبية مثلًا، ليواجهوا مصيرهم هناك»[19]. (ومهما اعتقد فرويد بمرض هؤلاء الناس فإنه لم يمضِ بالنصح بأن يُبحر المريض إلى أميركا الشمالية التي يكرهها).

أشار فرويد ذات مرة إلى ظاهرة إكلينيكية تتمثل في أن «لن تتحدث المرأة المتمكنة والقوية والواعية عن نفسها بعد أن تصيبها الكآبة بأفضل مما تتحدث به المرأة الخسيسة عن نفسها، من المرجح أن الأولى سقطت عليلة في المرض مقارنة بالثانية التي لا نملك

نحن أيضًا شيئًا حسنًا نقوله عنها»[20]. وفي مناسبة أخرى قال: «لا جدال في أن المريض الكئيب شخص مرموق يستحق المعالجة علاوة على ذلك...»[21]. وإجمالًا رغم أن فرويد ندم على أنه استنتج أن «قلة قليلة من المرضى يستحقون تحمّل عناءنا من أجلهم، لذلك لا يسمح لنا بأن نتخذ موقفًا علاجيًا، بل حريّ بنا أن نسعد بما نتعلمه من كل حالة؟»[22] بينما يفترض الاكتئاب معاتبة الذات بشكل متزايد وتناميًا في استبطان الصراعات، فإن الصعوبة التي واجهت فرويد كمحلل نفسي في ما يتعلق بالشذوذ الجنسي تمثلت في أن صراعات المريض لم تعد بين جوانب مختلفة من نفسيته وإنما بين غرائزه والمجتمع.

رغم اهتمام فرويد بالازدواجية الجنسية، فإنه كان يميل إلى اتخاذ موقف من المثلية الجنسية. ففي مناقشة تصوره لليوناردو، أشار فرويد إلى أن الهمود «من حيث هو ذو طبيعة مثلية جنسية»، ادعاء باطل، وتتجلى ميول ليوناردو الوجدانية «المثلية» في صورة رجل أحادية رسمها تحمل ملامح أخرى عديدة من شخصيته[23]. لقد كان لفرويد أفكارًا خاصة حول أصول المثلية الجنسية لدى الرجال. وربما من المثير للاستغراب أن نجده يقرّ دون مواربة أن «التأكيد على أن النشأة بين النساء لا تقود الرجل عادة إلى حب شديد للمرأة وإنما إلى المثلية الجنسية، صحيح»[24]، سيما حين نتذكر أنه نشأ بين خمسة أخوات وأم متغطرسة وأب طاعن في السن وأخ أصغر سنًا منه.

اعترض محللون آخرون في حلقة فرويد على مشاعره الشخصية تجاه عدم انتظام الحياة الجنسية. و«في حين صرح فرويد بأن الشذوذ هو الوجه السالب للعصاب، اعترض عليه كل من ستيكل وأدلر اللذين اعتبرا الشذوذ صنفًا آخر من العصاب»[25]. وفيما حاول فرويد إقصاء الشذوذ (حتى إذا كان مقترنًا بالتعاسة) من مجال التحليل النفسي، كان بعض أتباعه أكثر تحمسًا لتوسيع نطاق علاجهم إلى أقصى حد.

كان فرويد يشعر بالخطر من الذكر المثلي الجنسي، ولذلك لم يكن يرحب به. على سبيل المثال، أكد بول فيديرن ذات مرة على ما يثيره فيه المريض ذو «الشذوذ متعدد الأشكال» من «انطباع محبب»[26]. بينما يبدو الشخص ذاته بالنسبة لفرويد «حقيرًا إلى أبعد حد، وحالة طفولية ومثلية من الجنسانية المتضخمة، فثمة مكبوتات في أعماق ذواتنا كلما واجهتنا أحسسنا بالنفور»[27]. ومع ذلك حالة واحدة من المثلية الجنسية الأنثوية، على الأقل، اعتبرها فرويد قضيته الشخصية، وتعود هذه الحالة إلى امرأة تَملّكها الشعور بالذنب والاكتئاب بسبب إقامة علاقة سحاقية مع امرأة أخرى حتى أنها حاولت الانتحار،

وبعد أن خضعت للتحليل النفسي لسنه واحدة من قِبَل هيلين دويتش، تخلصت من قلقها في ما يخص مثليتها الجنسية الظاهرة، وقد وجد فرويد في ذلك مناسبة لإنهاء العلاج(*).

ورغم أن فرويد «كان يكره دائمًا قطع إجازته لأي نشاط مهني كان»، فقد أخبرنا جونز أنه «لم يكن في وسع فرويد أن يردّ رجلًا في قيمة ماهلير»، الملحن الكبير الذي قصده طلبًا في المساعدة. وبعد أن التقيا في فندق، أمضيا أربع ساعات يتجوّلان في المدينة كما كانا في لقاء تحليلي نفسي»[29].

كان فرويد يعتقد أن «الصحة»، مهما تكن أهميتها، يجب أن تتميز عن قيمة الإنسان. فهو يؤكد على أنه «يوجد أشخاص أصحاء كما يوجد آخرون غير أصحاء لا فائدة ترجى منهم في الحياة...»[30]. ويجب ألا تصدر عبارة «لا فائدة ترجى منه» عن محلل نفسي، وحسب زعم فرويد ليست هذه «هي الطريقة التي تُطبّق على الأشخاص الذين لا يسعون للعلاج بواسطة آلامهم...»[31].

ومن ناحية، ظل فرويد يعتقد أن «العلاج التحليل النفسي ابتُدع من خلال ومن أجل علاج المرضى الذين فشلوا في الانسجام مع الوجود بشكل دائم، ويتمثل نجاحه في أن جعل عددًا كبيرًا منهم أكثر انسجامًا مع الوجود عن قناعة بشكل دائم». وقد ألمح باقتضاب إلى أنه «يتعيّن رفض هؤلاء المرضى ذوي المستوى التعليمي المتدني والشخصية الاعتمادية نسبيًا وهذا لعمري تناقض بيّن من تناقضاته الكثيرة بشأن موقفه من العلاج». وقد اعتقد فرويد أنه «من الممتع أن يكون الأشخاص الأكثر تطورًا والأعلى شأنًا هم الذين يلائمهم» إجراؤه[32].

يتمثل الخط الفاصل الذي رسمه فرويد بين المرضى الذين يتلاءم معهم التحليل النفسي وأولئك الذين لا يتلاءم معهم، في قدرتهم على التحويل للمحلل. وقد توجَّب على فرويد أن يشعر بأن التحويلات التي يثيرها التحليل أقل قوة ويمكن التحكم فيها بشكل أكبر قياسًا لتلك التي واجهها خلال تجاربه السابقة عبر استخدام التنويم المغناطيسي. وبالرغم من أن ممارسة التحليل النفسي تساعد على إطلاق العنان لعواطف جيّاشة، فقد كتب أنه أثناء علاج «حالة أكثر مرضاي المذعنين» بالتنويم المغناطيسي، «استيقظت المريضة وألقت

(*) في تقريرها المنشور لناتج هذه الحالة، لم تذكر هيلين دويتش تخوفها الأولي عندما أعدت تقريرها حول نتيجة العلاج التي حققتها، ولم تضمن اقتناع فرويد بالحل الذي تم التوصل إليه. فقد كان فرويد هو الذي أرسل إليها الحالة، وهذا يعني أنهما تشاورا في أمرها[28].

بذراعيها حول رقبتي. وما كنّا لنتخلص من المناقشة المؤلمة لولا دخول أحد الخدم علينا فجأة، لكن منذ ذلك الحين أصبح هناك فهم ضمني بيننا بأن العلاج بالتنويم المغناطيسي لا بد أن يتوقف». وخلافًا لبروير، لم يندم فرويد على ما حدث ولم ينظر للأمر من زاوية شخصية البتة حيث يقول:

«لقد كنت متواضعًا حتى أني لم أعزُ الحدث لجاذبيتي الشخصية التي لا تقاوم، فلقد تمثلت طبيعة العنصر الغامض الذي يكمن وراء التنويم المغناطيسي. ومن أجل إقصائه، أو استبعاده نهائيًا، كان لا بد من التخلي عن التنويم المغناطيسي»[33].

كانت طريقة فرويد في العلاج تعتمد على قوة أنانية الإنسان، فلقد اعتبر أن تمركز المريض حول ذاته (أنانيته) هي التي تجعل من المحلِّل المحايد شخصية مهمة في أفكاره. ويهدف التحليل النفسي إلى تعديل طريقة نظر المريض للأشياء من جديد. وعندما كتب فرويد أن علاج التحليل النفسي «يتأثر بشكل أساسي بالحب»[34]، لم يُشِر إلى مشاعر المحلِّل تجاه مرضاه وإنما بالأحرى إلى قدرته على استثمار شخصية المحلِّل بطاقة عاطفية. ولقد اعتبرت التحويلات استعادة لوضعيات محبطة بشكل غير مقبول في ماضي المريض، وكانت نيّة فرويد أن تساعد عملية التحليل النفسي على استحضار هذه القضايا. وبالمحصلة «خلال تطور التحليل النفسي ليس المريض وحده من يستجمع قواه ولكن مرضه أيضًا...»[35].

وإذ أصر كل من ساندور فرينشيزي وأوتو رانك Otto Rank على أن كل شيء في العلاج هو بمثابة تحويل، فإن فرويد هو أول من اعتبر أن التحويل هو الذي مهّد الطريق لما يعتبره سابقًا وحقًّا:

«لا يتذكر المريض أي شيء مما نسيه، لكنه يستعيده. إنه يعيد إنتاجه لا كذاكرة وإنما كفعل، إنه يستعيده، بالطبع، دون أن يعلم أنه يستعيده... إن هذه الاستعادة هي بمثابة تحويل للماضي المنسي لا فقط للطبيب لكن أيضًا لكل أوجه الوضع الحالي الأخرى»[36].

في التحليل، «ينشأ التحويل كأكثر أشكال مقاومة العلاج قوّة»، «وتنشأ عن مختلف القوى، التي تسببت في نكوص الليبيدو، مقاومات ضد التحليل النفسي، من أجل الحفاظ على الأشياء في حالتها الجديدة»[37]. لقد استخلص فرويد نظرية الطفولة من تحليل تحويلات البالغين.

فضّل فرويد معالجة المريض عندما تكون «تجاربه المرضية تنتمي إلى الماضي، إذ بإمكان أناه (ذاته) أن تتخذ في مسافة منها»[38]. وأما بالنسبة لتلاميذه الأجانب بصفة خاصة ممن يتوافدون عليه، فيتناقض وقوف الماضي مع غربتهم في حاضرهم. حاول فرويد أن يأخذ في الحسبان نقد يونغ الذي شدَّد على «ميل المصابين بالعصاب للتعبير عن اهتماماتهم الحاضرة عبر استحضار ذكريات ورموز من الماضي البعيد»[39]. لكن لم يقدّر فرويد كم هو مناسب لبعض المرضى أن يسقطوا مشاكلهم على الماضي، ولذلك يمكن أن يغفل عن العديد من ميزات التحويل التي قد يكون انتبه إليها المحللون النفسيون في أيامنا. وبدلًا من تفسير التداخل بين المريض وذاته، غالبًا ما يلجأ الطرفان إلى الحل الأسهل وهو التحدث عن الماضي البعيد. مع ذلك، ظل فرويد يأخذ العديد من الحقائق الراهنة عن مرضاه في الحسبان، من ذلك مثلًا أنه اعترف عمومًا بالوسط الاجتماعي الذي تعمل فيه. ومع هذا لم يُسلِّط الضوء بشكل خاص على الاتصال الواقعي مع مرضاه.

وقد قيل في عام 1890 إن فرويد «سمح لنفسه بإقامة علاقة اجتماعية لا حدود لها مع مرضاه»[40]، وواصل ممارسة الحريات مع بعض المرضى كمعالج طيلة حياته بالرغم من أنه أوصى الآخرين بالتزام الحياد: «على الطبيب أن يكون مبهمًا بالنسبة لمريضه، وكالمرآة يراهم ولا يرونه»[41]. «يخلق البرود العاطفي في التحليل ظروفًا أكثر تميّزًا لكلا الطرفين....»[42]. وقد كان فرويد، على ما يبدو، يقدّم وجبة طعام للمريض، إلا أن مثل هذه التصرفات تظل بالنسبة إليه مستقلة، وهو ما يدعم موقفه من التحليل ذاته، فما فتئ يؤكد على أن التحليل لا بد أن يدعم المريض دون أن يدوّن شيئًا في ما يتعلق بهذا الجانب من تقنيته.

لم تناقش مسألة نزعة المحلل الفردية في مسار العلاج في مؤلفات فرويد حتى وقت متأخر جدًّا[43]. وللاعتراف بأهمية الشخصية الحقيقية للمحلِّل النفسي، كما هو مخالف لدوره المتخصص الذي أوصى به فرويد، كان لا بد من إعادة طرح المسألة القديمة المتعلقة بالإيحاء. كتب أحد المحللين النفسيين عام 1956: «لقد كان هناك تركيز متزايد وواسع النطاق على الدور الذي يمكن أن تلعبه شخصية المحلِّل النفسي في تحديد طبيعة التحويل الفردي الذي يفترض أيضًا اعترافًا باتجاهات إيحائية لا يمكن تفاديها أثناء عملية العلاج»[44].

لقد نصح فرويد المحلِّل النفسي بمتابعة مسار البرود العاطفي إذ تبقى المسؤولية ملقاة

على عاتق المريض المطالب بسرد، قصة من حياته، يشدّ من خلالها انتباه المحلّل النفسي ويفرض اهتمامه. ولقد نجح فرويد بنفسه في إثارة تحويلات هائلة مباشرة. ولقد ساعدته سمعته، في أن يفرض نفسه بقوة على المريض دون أن يبذل في ذلك أي جهد خاص. وفي غياب انشغال المحلّل النفسي بالمريض، فإنه عمله سيبدو غريبًا، وهو الذي يعتقد أن ما يقال في التحليل النفسي يتعلق به.

مع ذلك يمكن التغلب على الواقع عبر التحويل عندما يصبح المريض بل والمحلل الأقل موهبة أيضًا حسن النية. ومن المهم بالنسبة للمحلّل النفسي أن يأخذ في الاعتبار ما لم يخفِ فرويد تفاؤله بأن «الطبيب له من التواضع ما يسمح له بأن يزرع الثقة في نفس المريض بشأن قدرته على أن يبعث فيه الأمل ويوسّع أفق تفكيره بفضل ما يوفره العلاج من تنوير مذهل ومتحرر»[45].

ولا تزال للشاشة الفارغة لمقاربة التحليل النفسي مميزات واضحة، فضلًا عن مسألة التحويل هذه. وقد تضع حيادية التحليل حدًّا لعفوية المعالج، ولكنها أيضًا قد تحمي المريض من سادية المحلّل النفسي. يمكن لآلية التدخل الفاعل، إذا كانت مخالفة للحيادية، أن تمهد الطريق لأضرار كثيرة مقارنة بأي آلية أخرى. لكن توجد طرق تكون فيها سلبية المحلّل النفسي عدوانية وينطوي الوضع التحليلي النفسي الكلاسيكي على عناصر إيحائية خفيه يمكن التلاعب بها.

ويشهد مرضى فرويد على ما شعروا به من أمان أثناء فترة تحليلهم. كان فرويد يحسن معاملة المعجبين به ممن كانوا على بيّنة بأنهم في حضرة رجل عظيم. ولقد كان فرويد يبدو بالنسبة للبعض بمثابة المنقذ. وقد أوحى أحدهم بأنه لولا فرويد لفشل أو انتحر.

لكن التحاليل النفسية التي تطول مدتها لسنين قد تؤدي إلى نكوص المرضى. ولقد عبّر فرويد منذ البداية عن «الصعوبة التي تواجهها مهمة حل هذا التحويل واستعادة المريض لاستقلاليته من جديد». ومن وسائل تغلب تقييم المريض المبالغ فيه للمحلّل النفسي هي بالنسبة لهذا الأخير أن يكون طبيعيًا لكن رغم أن فرويد كان «ليّنًا ومتحررًا» كمحلّل نفسي فإنه لا يتوقع من غيره من المحلّلين النفسيين أن يكونوا كذلك. في عام 1930 اقترحت هيلين دويتش في اجتماع مصغّر بمنزل فرويد فكرة ادعت أنها مفيدة بالنسبة للمحلّل النفسي، وتتمثل في أن يبادر هذا الأخير في نهاية التحليل النفسي إلى اتخاذ خطوات فعلية

لحل مشكلة التحويل. فسألها فرويد: «كيف؟» فأجابت: «من خلال إظهار أنه ليس مثاليًا». لم يرحب فرويد بتلك الفكرة البتة، وقال غاضبًا: «ألا يعني ذلك أنك لا تظهرين فقط للمريض أنه حقير، ولكن لي أنا أيضًا؟»[47]. وذكرت مريضة أُعجب بها فرويد أن هذا الأخير انتقدها بشدة في مستوى معين من التحليل النفسي بسبب فقدانها لملكاتها النقدية، وهذا يدل على أنه لم يخضع لمخاطر طريقته في العلاج الإيحائية الأكثر وضوحًا.

5 - التحويل المضاد وقيمة التنوير

جاء على لسان فرويد في بدايات عام 1910 قوله: «لقد أصبحت على بيّنة بالتحويل المضاد» الذي ينشأ لدى المحلِّل النفسي «نتيجة تأثير المريض على مشاعره اللاوعية...» وكان فرويد «يميل في الغالب إلى التأكيد على أنه يتعيّن على المحلل النفسي أن يتعرّف على هذا التحويل المضاد في نفسه وأن يتغلّب عليه»[1]. اعتقد فرويد في ذلك الوقت أن تحليل المرء لذاته قد يتوافق مع التحكم في تحيزات المحلل النفسي، رغم أن التدريب على التحليل النفسي ضمن الأطر الرسمية لفائدة محلِّلي المستقبل أصبح منذ عشرينيات القرن العشرين هو القاعدة. ولبعض الوقت، على الأقل اعتقد فرويد أنه «لا يكفي للمحلِّل أن يكون هو نفسه شخصًا طبيعيًا تقريبًا. وقد يكون عليه، على الأرجح، أن يمر بالتحليل النفسي حتى يتطهّر....»[2]. لكن التوجه نحو التحويل المضاد، مهما يكن التدريب الذي تلقاه المحلل النفسي، لا يمكن القضاء عليه بشكل تام البتة، فالمحلِّل كما المريض، كأي كائنين بشريين، معرضان لأن يتفاعلا بطرق غير متوقعة وغير عقلانية.

كان أمل فرويد أن «تكون تأويلات المحلِّل النفسي مستقلة عن خصاله الشخصية وأن تبلغ غايتها». ويعلم فرويد أنه لا يمكن «التغاضي عن شخصية المحلِّل النفسي» وأن «العامل الشخصي سيلعب دائمًا دورًا أكبر في التحليل النفسي مقارنة مع أي مجال آخر». لكن تشبيهاته تلك ليست واقعية، فقد أشار إلى هذا «العامل الشخصي» كما لو كان شيئًا ما يشبه «المعادلة الشخصية» في الأرصاد الفلكية»[3]. وحتى عندما وضع قيودًا تحليلية بعينها فإنه يبدو أحيانًا وكأنه يبني ذاته انطلاقًا من قواعد طوباوية، ولقد تبيّن له أنه أثناء علاج المرضى قد تنشأ «أماكن تثير انزعاج المرء لارتباطها ببعض الاعتبارات الشخصية، من ذلك مثلًا حين يجد المرء نفسه بشكل جدّي دون معايير محلل مثالي»[4]. ومع ذلك لم يدرك فرويد، على الأقل، في نهاية حياته أن «الظروف الخاصة للتحليل النفسي تسبب

فعلًا دفاعات المحلل ضد التداخل مع تخمينه الصحيح لحالة الأشياء كما هي بالنسبة لمريضه والتفاعل معها بطريقة مناسبة»[5].

رغم أن فرويد لم ينفِ مشاعر التحويل المضاد، إلا أنه لم يطوّر هذه الفكرة. ربما لاعتباره أن المشاكل العاطفية الوحيدة الأكثر أهمية هي تلك التي تخص المريض لا تلك التي تخصه هو. وقد يكون الاهتمام بالتحويل المضاد في الزمن الحاضر مبالغًا فيه، وهذا ما تناقض مع موقف فرويد الذي اعتبر التحويل خطأ ويُفترض منطقيًا ألا يقع فيه المحلِّل. كما قال فرويد ذات مرة: «هذا التحويل المضاد لا بد على المحلِّل النفسي أن يتغلب عليه تمامًا، لأنه من خلال ذلك فقط يسيطر على وضع التحليل النفسي...»[6]. ولا ينبغي للتحليل النفسي اليوم أن يراهن على مثل هذا النجاح، لكن إذا خضع المحلِّل بشكل جدّي للتحويل المضاد، «فلن يكون مريضه موضوعًا حقيقيًا وإنما مجرد أداة عرضية لإيجاد حل لحالة الصراع» التي يعيشها المحلِّل النفسي. ومن ثمّ سيتم التدخل في «قدرة المحلِّل النفسي على فهم المريض والتعامل معه والتفاعل حتى يهتدي لتفسير على أحسن وجه»[7].

إن أكثر سجلات فرويد حدّة، رغم أنها تتضمن سجالاته مع أدلر ويونغ، تلقي الضوء ولو قليلًا على سياساته كطبيب. ولقد خضع الرجل الذئب، وهو الاسم الذي اشتهر به، للعلاج مع فرويد منذ عام 1910 إلى عام 1914، بعد محاولات يائسة لعلاجه بوسائل أخرى. ورغم أن الاسم الذي اختاره له فرويد يستحضر صورة رجل ينقلب إلى ذئب، فإن هذا المريض، في الواقع، عانى كثيرًا في صغره من الخوف المفرط من الذئاب. وإذا كان فرويد قد عالجه على أساس أنه يعاني من انعدام القدرة الشديد الذي يصيب البالغين، فإن سجلاته تؤكد أنه عومل باعتباره يعاني من فوبيا ترجع أصولها إلى سن الطفولة. وبهذه الطريقة سعى فرويد لإثبات أن أهمية الطفولة بشكل عام لا تمليها رغبة المريض العصابية في التهرب من الحقائق الحالية، وإنما بالأحرى يمكن لنا أن نفهم بنية العصاب الطفولي انطلاقًا من نظرية فرويد في الغرائز.

وأثناء خضوعه للتحليل النفسي، كان هذا المريض من أثرياء روسيا الإقطاعيين، إلا أنه أفلس في أعقاب الثورة الروسية. وعاد في عام 1919 إلى فيينا فنصحه فرويد بتحليل نفسي إضافي دام أشهرًا معدودة (مجانًا). وفي العشرينيات من القرن العشرين لام الرجل الذئب فرويد لأنه نصحه بألا يعود إلى روسيا لإنقاذ ثروته. (فقد اعتبر فرويد هذه الرغبة مقاومة

للتحليل الثاني) ومع ذلك لم يكن واضحًا ما إذا كان هناك مبرر لهذه المعاناة. وحتى يتكيّف مع وضعه المالي الجديد، التحق الرجل الذئب بوظيفة متواضعة في شركة تأمين في فيينا ومنذ ذلك الوقت ابتعد عن التحليل النفسي.

بعد أن خضع للتحليل في مناسبتين مع فرويد، خضع الرجل الذئب إلى التحليل في مناسبات أخرى مع روث ماك برونشفيك. وخضع للعلاج منذ الحرب العالمية الثانية لمحللين إضافيين في فيينا حيث يقيم، وكان على اتصال مع بعض المحللين الآخرين الذين اهتموا بأعمال فرويد في بداياتها، وعلى امتداد الخمس عشرة سنة الماضية كان يتردد عليه محلّل من أميركا كل صيف لإجراء جلسات يومية معه. وقد نشر مؤخرًا مجلدًا يحتوي على مقالات عن سيرته الذاتية وعن طفولته وأواخر حياته وعن ذكرياته مع فرويد، وعن أشهر سجلات فرويد الطبية، فضلًا عن ملحق حول منهج فرويد كتبته روث ماك برونشفيك ومقالات عن الرجل الذئب كتبتها موريال غاردينر[8].

يبقى سجل فرويد الطبي الثري والفاتن الأكثر أهمية من بين هذه المعطيات. لقد حلّل بشكل مميز اضطرابات الطفولة من خلال ذكريات الكبار البالغين، وأبدى اهتمامًا متزايدًا لتعقيدات صورة العالم في سن الطفولة. لقد كان تفسير الأحلام لفرويد، وكذلك إعادة تأهيل الرجل الذئب في السنوات الأولى، على أيامه على الأقل، من أكثر الأطروحات جرأة وإن لم تكن مقنعة. وكما قيل أيضًا، «إذا كان من شأن كتّاب متواضعين أن يجعلوا من قصة حقيقية تبدو مصطنعة، فإن من شأن الكاتب الكبير أن يجعل من قصة غير معقولة تبدو حقيقية»[9]. من الناحية النظرية، اعتبر فرويد أن الرجل الذئب يعاني من صراعات متضاربة مع والده ومع كل آبائه البدائل. واعتقد فرويد بأن خوف المريض من والده والرغبة المتزامنة في إشباع غريزته الجنسية، سيطرت على حياة الرجل الذئب. (مع ذلك تجاهل فرويد بغرابة ممارسات الرجل الذئب للجنس الشرجي)[10].

أفصح فرويد عن «التقرير النهائي» لأعراض الرجل الذئب في عام 1914، وقال لقد «تركته لأنه شفي»[11]. ومع ذلك اعترف فرويد، خلافًا لنظرية بعض أتباعه اللاحقين، بأنه «لا يمكن أن يحدث تغيّر فوري أو تطوّر ملحوظ بشكل مباشر في علاج مريض مضطرب مثل الرجل الذئب: فليس للتحليل النفسي إلا أن يزيل العقبات ويفتح الطريق أمام تأثيرات الحياة حتى يكون بمستطاعها تحقيق التطور المستمر على نحو أفضل»[12].

كانت السنوات الأربع الأولى لعلاج فرويد للرجل الذئب طويلة على غير العادة في تلك الأيام، وكان فرويد آنذاك يكتفي بدور الملاحظ والمدقق الصارم، كما لم يكن متسامحًا مع أي فكر غير عقلاني، ولم يعترف هذا المريض بفضله مدى الحياة. على الرغم من إلحاده وقناعته بأن الشعور المتناقض تجاه الأب الأساس الذي تقوم عليه كل الأديان، تبيّن لفرويد بشكل قطعي بأن الدين لم يكن فاعلًا بالنسبة للرجل الذئب في بداية حياته. (كتب فرويد ذات مرة لبفيستر يقول «من وجهة نظر علاجية ليس لي إلا أن أحسدك على تحقيقك الإعلاء في الدين»[13]). بالإضافة إلى ذكريات الرجل الذئب حول ما شعر به نتيجة انتحار أخته ـ فكّر في مبلغ المال الذي قد يرثه عن والديه ـ فسّر فرويد هذا الجشع كمقاومة ضد مشاعر أخرى قد لا يستطيع تحملها آنذاك.

كانت روث ماك برونشفيك أكثر تلامذة فرويد نبوغًا حتى أنه أحال إليها الرجل الذئب عام 1926 عندما كان يعاني من وهم الزَوَر بشأن أنفه. وكطبيبة نفسية مهتمة بالذهان، اعتبرت أن خضوع هذا الرجل للتحليل النفسي أولًا مع فرويد ربما «فوّت عليه الطرائق العصابية الاعتيادية للحل»[14]، عبر إخضاعه لأنواع أكثر بدائية من ردود الفعل. كما اعتبرت أن فقدان توازنه في منتصف العشرينيات من القرن العشرين بدأ مع تفاقم مرض فرويد بالسرطان مبيّنة أن الرجل الذئب، فضلًا عن أهداف التحليل النفسي، لم يستطع التخلص من أثر شخصية فرويد في نفسه.

جاء سجل الرجل الذئب الطبي الذي أعدته روث برونشفيك غنيًا بتفسيرات لأحلام مبتكرة ولكن يمكن للمرء أن يعجب في قت لاحق بمدى قدرتها على فهم مشاعرها تجاهه كأكثر الأشياء المثيرة للانتباه في اهتماماتها بماضي طفولة الرجل الذئب. ولقد كان واضحًا أن إحالة فرويد لحالته المشهورة إليها كانت هدية شخصية، وشهادة منه على منزلتها المتميزة عنده ودعوة لها لكتابة ملحق لمقاله الطويل. ففي التحليل النفسي تعمدت تقويض خيال الرجل الذئب بشأن مكانته كابن مفضّل لفرويد من خلال التركيز على غيابه من حياة فرويد الاجتماعية، وعلى موقف فرويد كطبيب تجاه هذا المريض السابق، وعدم معرفة الرجل الذئب بأسرة فرويد، وحقيقة أن فرويد عالج المرضى الآخرين لمدة أطول. وفضلًا عن أهدافها العقلانية، ولما كانت روث برونشفيك قد خضعت هي بدورها للعلاج لفترة طويلة مع فرويد، فقد تكون لديها مشاعر غيرة تجاه الرجل الذئب. لقد كانت مقرّبة جدًّا من فرويد لدرجة أنها وجدت صعوبة في معالجة هذا المريض.

من المدهش بالنسبة لفرويد وللتحليل النفسي ألا يناقش وألا يُؤَوّل الجانب الرومانسي في حياة الرجل الذئب. لقد كشفت ذكريات طفولة الرجل الذئب قوله: «لم أبذل أي جهد ولا أي عناء للتخلي عن ديني. والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما الذي ملأ الفراغ الذي أعقب ذلك؟»[15]، وهو أمر يبعث على الحيرة. قد يكون الرجل الذئب لجأ لملء هذا الفراغ إلى الأدب أو إلى الرسم بينما سكت عن انغماره في التحليل النفسي طوال حياته.

ألّف الرجل الذئب مقالات في الفلسفة والفن وقع تأولها من زاوية التحليل النفسي، وباع بعض لوحاته للمحللين النفسيين. وظل فرويد لسنوات يجمع المال لهذا المريض «الذي خدم نهايات التحليل النفسي النظرية جيّدًا»، كما أشارت إلى ذلك روث برونشفيك[16] (وقد يكون فرويد شعر بالذنب أيضًا لفقدانه لحالة الرجل الذئب). ساعد ذلك المال الرجل الذئب في دفع الفواتير الطبية وإيجاره كما ساعده أيضًا في رحلاته القصيرة. ورغم أن حياة الرجل الذئب لم تكن متناغمة مع تقدمه في السن، فإن كتاباته عن تجاربه مع فرويد أعطت لحياته معنى.

كتبت موريال غاردينر تقول «لقد أنقذ تحليل فرويد الرجل الذئب من حياة مشلولة وساعدته إعادة تحليله عن طريق الدكتورة برونشفيك على التغلب على أزمة حادة فكلاهما ساعداه على مواصلة حياته بشكل سويّ»[17]. ولما كان فرويد عالمًا بالأساس فقد ركز، خلافًا لبعض أتباعه، على فشل العلاج بقدر تركيزه على نجاحه، وكان مقتنعًا بأنه بقدر المزايا التي حققها الرجل الذئب بفضل التحليل النفسي، بقدر فشله في التغلب على عيوبه. ولقد تحسّنت حالة هذا المريض مع فرويد أحسن من أي معالج آخر في تلك الفترة، لكن للمرء أن يسأل في نهاية المطاف إن كان تبصّر التحليل النفسي هو الذي ساعده في ذلك، أم هو استمرار الدعم العاطفي من فرويد ومن حركة التحليل النفسي؟

ولما كان فرويد يحرص على الاستفادة من أخطائه، فقد أسهب في الكتابة عن مريضة تسمى دورا. وجاء على لسانه قوله: «لا أعرف ما نوع المساعدة التي كانت تريدها مني، لكني قطعت عهدًا على نفسي أن أصفح عنها حرماني من الرضا في منحها علاجًا راديكاليًا بجد لمشاكلها»[18].

منذ أن اختار فرويد تقديم حالتها «بشكل مجتزأ»، من أجل توضيح بعض المشاكل الخاصة التي عُني بها، أصبح من الصعب إعادة البناء انطلاقًا من سجلها الطبي المُعطى

ما يمكن أن يحدث إكلينيكيًا في مناقشة لتوارد الخواطر مثلًا، أشار فرويد مرتين إلى حالة تدخل فيها بشكل مباشر في اختيار زواج معين وهو أمر يبدو غريبًا هذه الأيام. وكتب فرويد يقول: «أتاني رجل شاب أثار فيّ الإحساس بالشفقة حتى أني فضّلته على الآخرين»[19]. كان لهذا هذا المريض علاقة دامت طويلًا مع زوجة أخيه (وصفها فرويد فقط في كتاباته المطبوعة «كامرأة متزوجة في حلقته الخاصة»). ووفقًا لتحليل نفسي مع فرويد أفاد أن الرجل الذي قطع علاقته الحالية مع فتاة من الطبقات الدنيا «استخدمت فقط ككبش فداء بدافع الانتقام والغيرة من سيدة أخرى»[20]، ثم ما لبث أن وقع المريض في غرام ابنة عشيقته السابقة. ولما قرر الرجل الزواج من الفتاة شجعه فرويد الذي تحرّر من قيم الطبقة المتوسطة، «طالما أن ذلك يساعده على تجاوز محنته رغم أنه مخالف»[21].

ومع ذلك قاومت الفتاة محاولات عمّها، وحينها أوصى فرويد أن تخضع لتحليل نفسي (حيث شرح فرويد أهمية وجوب خضوعها للتحليل النفسي). أخبر فرويد هيلين دويتش التي تكفلت بتحليل الفتاة نفسيًا بأن حالتها تنطوي على سر ينبغي عليها إبلاغه به حالما تكتشفه. وفي غضون أسبوع أو أكثر عادت هيلين ومعها أخبار أكثر من السر الذي ينتظر فرويد معرفته.

لقد كانت الفتاة الصغيرة فعلًا في حاجة إلى معرفة العلاقة القائمة بين عشيقها ووالدتها، وهذا ما كان فرويد يريد اكتشافه لكنه لم يعرف أن الفتاه خُيّل إليها أنها ثمرة العلاقة غير الشرعية بين عمّها ووالدتها وهو ما يفسر ترددها في إقامة علاقة جنسية معه. (كتب فرويد: «لم تكن الفتاة تعي تمامًا بالعلاقة بين والدتها وبين خطيبها وإنما كانت فقط متعلقة به تحت تأثير عقدة أوديب»[22]). وما أن علم فرويد بعالم الفتاة الداخلي، حتى تخلى فورًا عن فكرة الارتباط.

أراد فرويد من وراء نشر ما كتبه عن هذه الحالة، بلا شك، كبت العلاقات العائلية بين الشركاء في الاتحاد المفترض. لكن في نهاية سرده لقصة هذه الحالة، تراجع عما كتبه. فبالنسبة لفرويد، المريض هو من يختار في نهاية المطاف زوجته «فتاة محترمة من خارج دائرة العائلة...»[23]. وإلى حد النقطة في السرد، لم يشر فرويد إلى ما إذا كان أيّ من أحباء المريض من «دائرة العائلة»[24]. وفي ما يتعلق بما قاله بشأن توارد الخواطر ـ لو أن مريضه استشار خبيرًا في الكتابة ـ كانت قصته غير منقوصة أبدًا، لكنها كسجل طبي لا تعدو أن

تكون سوى ملخّص لها. ولقد تأكدت فاعلية فرويد كمعالج. فقد كتب ذات مرة أن ما يمكن للمريض «أن يحققه يعتمد على توليفة من الظروف الخارجية أيضًا، فهل علينا أن نتردد في تغيير هذه العلاقة من خلال التدخل على نحو مناسب؟»[25]. بيد أن كبت فرويد لتفاصيل العلاقات العائلية يحول دون فهم ما حصل.

في عام 1915 أعلن فرويد المبدأ الذي عجز هو نفسه عن اتباعه. «قبل أن أواصل هذه القصة»، كتب عن حالة أخرى بين قوسين:

«عليّ أن أعترف أني غيّرت الوسط لكي أحافظ على الأسماء المستعارة للأشخاص المعنيين، لكني لم أغيّر أي شيء آخر. وأعتبر ذلك خطأ، رغم أنه قد يكون مفيدًا جدًّا تغيير أي تفاصيل في عرض الحالة. فليس للمرء أبدًا أن يُخبر عن أيّ من الجوانب في الحالة يمكن أن يحكم عليه القارئ بشكل مستقل، أو ذاك الذي يمكن يضلّه»[26].

وفي عام 1924 أضاف فرويد حاشية لسجلاته الطبية الأولى تنكّر فيها لمعطياته جاء فيها: «كاثرينا لم تكن ابنة الأخ ولكن الابنة... فقد مرضت الفتاة نتيجة محاولات والدها الجنسية. ولقد تجنبت ذكر مثل هذه التشوّهات التي عرضتها بشأن هذه الحالة في السجل الطبي»[27].

وأيّا كان الضرر الذي يمكن أن تلحقه التشوهات الإكلينيكية بمستقبل التحليل النفسي العلمي، فستواجه حركة فرويد عقبات هائلة إذا ما بدا أن لتقنيته العلاجية نتائج سلبية. وقد أدرك فرويد شرعية السؤال عما إذا كان التحليل النفسي يمكن أن يكون مضرًا. «ما لم يكن السكين قاطعًا، فلا يمكن استخدامه في المعالجة أيضًا»[28]. لكن إذا كان نفع التحليل النفسي محدودًا، فإن ضرره محدود أيضًا حسب فرويد، فهو مثل العملية الجراحية مؤلمة ولكنها ضرورية غير أن فرويد يعتبر:

«أن فاعلية المحلل غير المتمرس ضررها أقل على مرضاه من الجراح غير الماهر... ففي تقديري لا داعي للخوف من تفاقم الحالة المرضية الخطير والمستمر حتى إذا ما استخدم التحليل النفسي بشكل غير ماهر. إن ردود الفعل غير المرحب بها تتوقف بعد فترة... وببساطة ليس ثمة ما يزعج المريض إن كانت ظروف غير مواتية للعلاج»[29].

كان فرويد مقتنعًا بأنه «ليس ثمّة ما يبعث في نفس المريض الخوف من أيّ عملية جراحية إذا ما تأكدت ضرورتها ضمن تطور علاجي معقول»[30]. ومع ذلك عرف

المحللون النفسيون مرضى كثرٌ تعكرت حالتهم أثناء العلاج، ويعتقد فرويد أن المرضى يتمتعون بدوافع مازوشية عظيمة قادرة على هزم الهدف التحليلي، ولتفادي سلوكهم هذا ابتدع صنفًا من «رد فعل العلاج السلبي»[31].

ومهما يكن كتالوغ شامل لأسباب العلاج النفسي منحرفًا لا يتناقض مع قابليته للاستخدام وإن بشكل محدود. وفي تقييمهم لما تثيره التقنية من إشكالات غالبًا ما يعتبر المحللون المبتدئون اليوم الصرامة في منهج المحلّل سببًا لمعظم المشاكل التحليلية النفسية. قد تتراكم التحويلات السلبية للتقنية كما يمكن لردود الأفعال العلاجية السلبية المقاومة أن تبدأ في الظهور، ومن ثم إذا كان المحلِّل سيفشل، فمن الأفضل ألا يكون مدافعًا عنها ويخبر المريض بصدق. وهنا بالذات تلعب شخصية المحلل النفسي ذات النزعة الفردية دورًا أساسيًّا، فالمحلل النفسي الذي لا يكون نرجسيًّا حتى النخاع قد يوصي بالعلاج مع غيره.

في بداياته كمحلِّل، لم يكن فرويد حذرًا بشكل كاف في التعامل مع إبداعه، حتى أن أخطاءه كانت غالبًا نتيجة حماسته. كان تأثير فرويد كمعالج عظيمًا. كان يدرك جيّدًا موطن قوته: «لقد اكتشفت في نفسي خصلة من الطراز الأول: شجاعة لا تتأثر بالاعتقادات»[32]. وسيظل مرضاه يذكرون تعليقاته أبد الدهر. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد ملاحظة مختصرة سجّلها في أعقاب تحليل استغرق ثلاثة أشهر قبل الحرب العالمية الأولى طبعت موقفه الإرشادي: كان يغازل المريضة ويقول بأن سبب استمتاعه بالعمل معها هو أنها بمجرد أن تفهم شيئًا تستفيد منه. وقد افترض فرويد أن مرضاه يتمتعون بعقول سليمة أساسًا، وأنهم مثله يتطورون بشكل جيّد من خلال النقد عندما يكون ضروريًّا. وجاء في رسالة لفرويد قوله «تتوفر الظروف المُثلى للتحليل النفسي حيثما لا نحتاجها، أي بين الأصحاء»[33].

رغم انغماسه التام في العالم الداخلي للاوعي، آمن فرويد بعقيدة التنوير تأثرًا بالفلاسفة: «ما من شيء مكلف جدًّا في الحياة مثل المرض والغباء»[34]. ولقد اعتبر فرويد أن مثله الأعلى في الحياة التحليلية شخص يرهق المحلل:

«ما يُعطى للمريض لا بد ألا يكون عفويًّا، وإنما يجب أن يكون عن وعي دائمًا، ثم يُضاعف وينقص بحسب الحاجة. وبين الحين والآخر يحدث أمر عظيم، لكن ليس نتاجًا للاوعي المرء. عليّ أن أعتبره بمثابة صيغة علاجية. وبلغة أخرى، يجب على

المرء أن يتعرّف دائمًا على التحويل المضاد ويتغلب عليه، حينها فقط يتحرّر منه»[35].

وقد بدأ فرويد اهتمامه بالحلم بفكرة أن «تفسير الأحلام بمثابة النافذة التي نطل من خلالها على الجهاز العقلي من الداخل»[36]. وعلى الرغم من مرور السنين وتغير مصطلحاته ومفهومه، فقد حافظ على متانة أساسه العقلاني لتفكيره. وكتب فرويد في تفسير الأحلام أن «العلاج النفسي يمكنه أن يتّخذ أي مسار آخر إلا أن يفرض هيمنة ما قبل الشعور على اللاشعور»[37]، وكما جاءت عبارته المشهورة في شيخوخته: «حيثما يكون الهو، يكون الأنا»[38].

إن «الأداة الأساسية» لعلاج التحليل النفسي هي «كلمات»[39]، فثمة مسافة عقلانية ينبغي على المريض أن يقطعها من أجل تحقيق سيادة الأنا. لقد عرض فرويد في نهاية المطاف، كما رأينا، إعادة تنظيم حياة المريض من الداخل بدلًا من أي مؤشر سلوكي على التغيير:

> **«قد يبدو العصاب نتيجة لنوع من التجاهل... ليست المعرفة هي المعرفة ذاتها دائمًا: هناك صنوف مختلفة من المعرفة هي أبعد ما يكون عن أي معرفة سيكولوجية، وهناك أكثر من نوع من التجاهل تضاف جميعها لاعتبار المعرفة [في التحليل النفسي] تتعلق وجوبًا بالتغيير الداخلي للمريض...»**[40].

عندما اهتم فرويد بمشكلات الفلسفة الاجتماعية، قال (انسجامًا مع عقيدته في القوة العلاجية للعقلانية) «تكمن الحالة المثالية للأشياء، طبعًا، في أن يُخضع المجتمع البشري حياته الغريزية لديكتاتورية العقل»[41].

لقد اعتبر فرويد التحليل النفسي في البداية بمثابة «فن التفسير»[42]. ومع مرور الوقت، صرف نظره تدريجيًا عن ذكريات مخصوصة للأحداث ليركز أكثر على مقاومة المريض. واعترف في تسعينيات القرن التاسع عشر يقول: «لقد كانت وجهة نظري في ذلك الوقت (رغم إدراكي لخطئها) أن مهمتي أنجزت عندما أفصحت لمريض عن المعنى الخفيّ لأعراضه ...»[43]. وقد استنتج فرويد أن «المريض لا يجني شيئًا من مواجهة الطبيب له مباشرة بتعقيداته...»[44]. وكما في أواخر عشرينيات القرن العشرين كان فرويد يعيد تأهيل المريض بشكل مذهل بحيث يتوقف عن العلاج: «قصة فرويد المسرفة عن حدث لم أتوقعه بالمرة (عن وعي على الأقل) تحوَّل إلى حقيقة... بالغ فرويد في تقديري. لعله كان يريد إخباري بشيء ما»[45].

، كان فرويد يريد أن يكون الناس في أفضل أحوالهم، وكانت نصيحته الضمنية دائمًا أن اعتنوا بأنفسكم بشكل أفضل وكونوا أفضل في المرة القادمة. اشترى مريض ذات مرة كتابًا جميلًا عن روما بأربعة عشر دولارًا وعرضه على فرويد وقد أُعجب به فرويد أيضًا وقال له إنه رائع و«إنك تستحقه!». برغم أخلاقيته كان فرويد براغماتيًّا، وقد استنتج فرويد مع المريض ذاته أن الخيالات الاستمنائية في الجماع جائزة متى أسهمت في العلاقة مع الجنس الآخر.

يعمل التحليل النفسي على تجاوز المشاكل. «ما يشغلني ليس وحدة هذا العالم التي تبدو لي شيئًا قابلًا للفهم في ذاته ولا يستحق الاهتمام، وإنما تبعثر وتشتّت مكوناته بينما كانت منذ البدء تتدفق خلافًا لذلك مجتمعة في عجينه واحدة»[46]. وخلافًا لهذا النوع من العلاج الذي كان يونغ يفضله، اعتبر فرويد أن «تقنية التحليل النفسي لا تفترض أيّ عمل تأليفي محدد، يتعين على الفرد أن يغنم منها بنفسه ما استطاع ذلك أكثر مما ينتظر منا»[47]. ولقد رأى فرويد أنه من الضروري الإجابة على أولئك الذين يعتبرون: «أن المريض يُمنح الكثير من التحليل والقليل من التأليف...» بالتأكيد على أن «التأليف السيكولوجي يتحقق... أثناء العلاج التحليلي آليًا وحتميًّا دون تدخلنا»[48].

يتضمن التحليل النفسي أخلاقياته الخاصة به. وفي هذا الصدد وضّح فرويد لمريض ذات مرة قائلًا: «الوعي هو الذات المتخلقة واللاوعي هو الذات الشريرة». (شرح فرويد لقرائه بأن هذا حقيقي جزئيًّا فقط)[49]. وقال في موضع آخر:

> **«إن غرضنا من العلاج تحرير الحياة الجنسية لا من أجل أن نجعل الفرد أسير حياته الجنسية. وإنما من أجل أن نجعل الكبت ممكنًا–رفض الغرائز تحت توجيه قوة أعلى... نحاول أن نستعيض عن العملية الباثولوجية بالرفض»**[50].

كان فرويد يعتبر الوضع التحليلي بمثابة «صراع بين الطبيب والمريض، بين الحياة الفكرية والحياة الغريزية، بين الفهم والسعي إلى الفعل...»[51].

6 - قوة الكلمات

أشار فرويد في سنواته الأخيرة إلى «موقف المريض العاطفي... التحويل الإيجابي... الذي يعتبر الدافع الأقوى للمريض للمشاركة في التحليل النفسي»[1]. وعلى العموم لا ينشغل المحللون الفرويديون كثيرًا عن التحويل الإيجابي في تطبيقاتهم قدر انشغالهم

بالجانب السلبي منه، حيث يحاولون التخلّص من مشاعر الاستياء والحقد حتى يذللوا كل العقبات أمام إشاعة الحب[2]. وقد ذهب فيلهالم رايش لأقصى حد عندما وضع برنامجًا علاجيًّا كاملًا لتفسير التحويلات السلبية. وتحت تأثير رايش، وإن يكن جزئيًّا، عرف «كبت العدوانية» اهتمامًا واسعًا بين المحللين في أواخر عشرينيات وبداية ثلاثينيات القرن العشرين.

كان فرويد يدرك أنه «ليس من السهل التلاعب بأداة العقل»[3]. فإذا تمكن مريض من اكتساب قدرة ثاقبة على التعبير في حياته العاطفية، فهل يعني ذلك أن يخسر كل شيء؟ ربما. وعندئذ قد ندفع ثمن ذلك غاليًا ويتمثل في وعي الذات بذاتها. وكما جاء في أنشودة قديمة من أوروبا الوسطى، لو سئلت أم الأربعة والأربعين كيف تعلم أي رجل تحركها بعد الأخرى فلن تقدر على المشي من جديد أبدًا. ورغم أن فرويد يدرك جدية مثل هذا الاحتراز على التحليل النفسي، فقد كان نظام علاجه سلبيًّا في جوهره. لما كان متحدثًا مترددًا يمكن أن ينظر في الصورة التي تظهر كم كانت عيناه خارقتين. وعلاوة على ذلك فقد وجّه فرويد اهتماماتنا نحو العقل وتناقضاته، على افتراض أن المرضى يعلمون جيّدًا كيف يرتبون أشياءهم ويعيشون حياتهم الخاصة. لقد طالب البشر بأن يتطوروا، وكان يتوقع منهم الكثير.

وحتى من الناحية الجمالية لم يكن رومانسيًّا. «الفن الحقيقي يبدأ بحجب اللاوعي»[4]. وقد كان فرويد معجبًا بالكاتب هنريش إبسن: «إبسن، على استقلاليته ووحدته وتبسيطه للمشاكل إلى جانب ما يتمتع به من فن التركيز والكتمان، شاعر عظيم، في حين كان هوبتمان عصابيًّا يتصوّر نفسه وحيدًا»[5]. ولقد كان فرويد متحضرًا، من ذلك مثلًا ما جاء في تعليق له على إحدى المسرحيات، «لم ير الجمال الشعري في الدراما، فالبطل كلب مجنون ينتمي لمأوى مجانين... فن الشعر لا يتمثل في البحث والتعامل مع المشاكل فذاك شأن علماء النفس. بل فن الشعر يتمثل في حماية التأثيرات الشعرية من مثل هذه المشاكل... يتمثل فن الشعر أساسًا في التستر»[6].

اعتقد فرويد أن «أساس الفن الشعري يكمن في تقنية التغلب على مشاعر الاشمئزاز الموصولة والكامنة فينا، ولا شك في ذلك، بالحواجز المتنامية بين الأنا والآخرين»[7]. ينبغي على الممثلين، مثل الشعراء، أن يتخذوا مسافة من موضوعاتهم وأن يخضعوا للرقابة: «ذاك واحد من الأوهام المعتادة التي يجب أن يتماهى معها الممثل في دوره.

وكلما تماهى أكثر مع تلك الأوهام في أدواره كان مآله الفشل. وبمعنى ما يتعين عليه أن يبقى فوق دوره»[8]. ولقد كانت لدى فرويد شكوك حول دوستويفسكي، حتى أنه أشار إلى «الحدود المقررة في توظيف الشخصيات غير الطبيعية على خشبة المسرح... فإذا واجهنا عصابي غير مألوف تمامًا، يجب أن نرسل في طلب الطبيب (كما نفعل في حياتنا الواقعية) ونعلن أن الشخصية لا تصلح للمسرح»[9].

لقد قادت فرويد عبقريته وعقلانيته بعيدًا حتى أنه حاول إيجاد «صيغًا لوصف الروح البشرية». لقد أشار إلى «الاتجاه الذي يتعيّن البحث فيه عن حل بسيط نوعًا ما لهذه الحالة»[10]، كما لو كان المريض لغزًا قابلًا للحل. ورغم اعتراض فرويد أحيانًا في تلك الأيام على صيغ معيّنة اعتبرها «مملة إلى حد ما»[11]، لم يرفض من حيث المبدأ استخدام تلك الصيغ. إنها مقاربة ميكانيكية إلى حد ما عارضها يونغ وقد ضللت بعض مرضى فرويد، الذين انتظروا بترقب حل صدماتهم النفسية في مرحلة الطفولة.

حث فرويد على تطوير المعطيات الإكلينيكية في شكل صيغ كجزء من هدفه العلاجي في إبعاد المريض عن ردود فعله العاطفية البدائية. ولقد كان مهتمًا بسحر الكلمات أكثر من الإيماءات. واعتمد على قدرة المريض ليعبّر عن مشاكله، حيث أجبر استخدام الأريكة المحلِّل على الاعتماد أكثر على التعبير الشفوي المتبصّر. كانت الكلمات في الأصل ساحرة واحتفظت حتى الآن بالشيء الكثير من قوة سحرها القديم. بالكلمات يستطيع الشخص أن يُسعد الآخر أو أن يزرع في نفسه اليأس، وبالكلمات يُبلغ المدرِّس معرفته لطلابه، وبالكلمات يوصل الخطيب صوته لجمهوره ويحدد أحكامهم وقراراتهم. الكلمات تؤثر وتعتبر عمومًا وسائل تبادل التأثير بين البشر. وهكذا لا يجب أن نقلل من قيمة استخدام الكلمات في العلاج النفسي ويجب أن نكون مسرورين إذا استطعنا أن نصغي للكلمات التي تدور بين المحلل ومريضه[12].

وعقب هذا التفسير الرائع قال فرويد: «أما الآن فعليّ بسيجارة!»، ومنذ وفاة فرويد شاع التواصل غير الشفوي في العلاج، لكن كان هدفه تعزيز قوة أنا المريض عن طريق تعزيز قدرته على التعبير عما يشعر به.

أدرك فرويد أن «العمل من خلال» مقاومة المريض «يمكن أن يتحوّل في الممارسة إلى مهمة شاقة بالنسبة للشخص الذي يخضع للتحليل واختبار في التحمّل بالنسبة للمحلّل»[13]،

ولم يكن مهتمًا بالخصوص بهذا الجانب من العلاج ولقد كان تركيزه منصبًا على إعادة تشكيل مشهد الطفولة المبكرة، كجزء من جعل اللاوعي واعيًا، أكثر من الاهتمام بتفاصيل تغلب المريض على مقاومته. ومثال ذلك أن فرويد لم يسمح لمريض كان يخاف الأقنعة بتجنب اختبار هذا الخوف، فلقد كان يريد أن يعرف لماذا تخيفه الأقنعة. رد المريض أن ما يخيفه هو ثبات التعبير، عندها أدرك فرويد أن الحل التحليلي سهل: لقد رأى المريض وهو في الثالثة من عمره وجه والدته المتوفاة. ورغم عدم تذكر المريض أنه بقي وحيدًا في الغرفة معها بعدما توفيت، أكدت أخته لاحقًا أن ذلك ما حصل فعلا[14]. وقد اغتبط فرويد لحله لأصل هذا الرهاب البسيط.

وحتى خلال عشرينيات القرن العشرين كان فرويد قادرًا على إنهاء التحليل بصورة مفاجئة، اعتبارًا لافتراض إجرائي مفاده أن على المريض فك رموز الأشياء بنفسه. ويمكن للمريض أن يستفيد من دعم المحلِّل وقدرته على التفسير المتبصّر. وفي هذا الصدد قال فرانز ألكسندر: «لم أفاجأ عندما سمعت من [فرويد] بناء على خبرته في معظم الحالات الناجحة أن أساس النجاح يكمن في استمرار إخلاص المريض للمحلّل حتى وإن لم يرَ طبيبه بتاتًا مرة أخرى»[15]. لقد أشاد مرضى فرويد بتشجيعه لهم أثناء العلاج، فضلًا عن أن طريقة التحليل النفسي ساهمت في تطوير معرفتهم بأنفسهم. ويمكن تعزيز أنا المريض عن طريق إثبات هويته بتبصّر المحلّل العقلاني، فالمريض يغنم ما يحتاجه من التحليل النفسي، ويوفر غياب توجيه المحلّل فرصة للمريض ليغنم ما يحتاج.

لقد تميزت ممارسات فرويد بطابع غريب امتد إلى محللين آخرين ويتمثل في توصيفه لأسلوب العلاج الذي اخترعه بشكل مبالغ فيه لا يخلو من إيحاءات بإرادة الهيمنة والسيطرة. وإذا كان التحليل «لا ينفع» مع كبار السن، «فإن قابلية الشباب دون سن المراهقة للتأثر به كبيرة جدًا»[16]، في تقدير فرويد. وقد استخدم مفهوم «الغزو» ليصف متانة العلاقة بين المحلِّل والمريض. وكتب ذات مرة استشارة لأحد أتباعه يقول فيها «لعلك كنت تبدي له كثيرًا من التعجّل والطموح العلاجي بدلًا من التركيز حصرًا على غزو شخصيته»[17].

كان فرويد صريحًا في تأكيده على أن «التحليل النفسي يفترض موافقة الشخص الذي سيخضع للتحليل والوضع الذي سيتم فيه»[18]. وتحدث فرويد عن مريض «غير مطيع»، وفي موضع آخر من مرحلة متأخرة من التحليل وصف فرويد الوضع قائلًا: «عندما ربحنا المعركة فعلًا...»[19] فقد كان كثيرًا ما يستعير مجاز الحرب. «لا تعني ساحة المعركة

بالضرورة واحدة من قلاع العذو الرئيسة»[20]. هل كانت المقاومة في التحليل بطريقة ما معارضة لفرويد؟ استشعر الأميركيون منذ البداية جوًّا من الاستبدادية في حلقة فرويد فيما اعتبرها مرضى فرويد من أوروبا الوسطى، أشبه بنظام ملكي مستنير. لم ينشأ فرويد على تصورات ديمقراطية عن إمكانية أن يكون رأي شخص ما مقبولًا كأي رأي شخص آخر.

كان كثير من المرضى على علم بنهج فرويد الاستبدادي، ورغم الوضع التحليلي يترك المريض وشأنه، إلا أن فرويد كان يلقي في نفسه الرعب. ومثال ذلك كان هناك مريض كثير الاستمناء بشكل لا يقاوم، قضى سبع سنوات في التحليل النفسي مع فرويد، قيل له في أول أو ثاني شهر أنه لن يُحرز أي تقدم في العلاج حتى يتوقف عن الاستمناء، فشعر المريض وكأن فرويد أفسد التحليل إذ تعامل معه كما يتعامل معه والديه. وبينما كان على فرويد أن يسلك الاتجاه المعاكس، افترض أن هناك أساسًا ماديًّا وجسديًّا للأشياء وأنه ما لم نمنع الليبيدو فسنقطع الطريق أمام الإعلاء. وقد بيّن فرويد أن إشباع رغبة الاستمناء يمنع الشخص من أن يحلم بالطريقة التي يريدها للتحليل النفسي (من بين خصال فرويد اعتباره أن الشخص يتخلى عن بعض المتعة مقابل استحضار المزيد من المعطيات النفسية). وإذا كان المريض يخاف النساء فعلًا، فإن هذه النصيحة التحليلية من شأنها فقط أن تعزز الكبت لديه.

لكن ربما من بين الخصوصيات الأكثر أهمية لأي تفسير تتمثل في أن التحليل النفسي أحادي في جوهره. ولما كان المريض هو الذي يبادر بالحديث بينما يبقى المحلّل محايدًا، فلا عجب أن يكون حديث فرويد على علاقة بما يقوله المرضى «الذين يخضعون» للتحليل. وقد يعتبر المريض تفسيرات المحلّل شكلًا من أشكال الانتقاد، إذ تفترض أن المريض لا يعلم عمّا يتحدث. ويعكس استخدام الأريكة ذاته حقيقة الخضوع إذ يتمدد المريض على الأريكة بينما يكون المحلل جالسًا. وهذا الترتيب لا يخلو من تسلط ضمني إذ يفرض على المريض ألا يتحفظ على أي شيء مهما يكن محرجًا، فالهدف من العلاج هو أن يتجاوز المريض نكوصه الآني في اتجاه اتخاذ قرار بنّاء. ورغم أن الأخذ والعطاء يفترض أن يكون المتشاركون على قدم المساواة، فإن مفهوم التحليل عند فرويد يعطل ذلك. لم يكن ساذجًا حول مواطن القوة، فهو على الأقل «لا يميل إلى اعتبار القياصرة مرضى عقليين. مناصبهم هي التي دفعتهم لتجاوزاتهم، يجب ألا نعطي الناس هذا الإحساس غير المحدود للقوة»[21]. كما تعلّم فرويد حول مهنته الخاصة، أنه «عندما يتمتع شخص بالقوة يصعب عليه ألا يسيء استخدامها»[22].

كان فرويد يفضل أن يكون طبيعيًا ومنفتحًا مع المرضى حتى عند ارتكاب الأخطاء. كما كتب، في ظروف معينة «يمكننا أن نكتشف بأننا ارتكبنا بعض الأخطاء وعلينا أن نعترف بها للمريض في الوقت المناسب دون أن نضحي بأيّ من سلطاتنا». ولقد نجح فرويد في كسب تأييد بعض المرضى الكامل لجميع نظرياته، وقد كان الأخذ والعطاء مع هؤلاء المرضى ممكنًا. لكن إذا ما دخل مريض ما في منافسة مع فرويد من البداية فسيكون ذلك خطرًا عليه. فالتحليل النفسي الذي يشهد معارضة لفرويد منذ البداية سرعان ما يفشل.

لمّا تقدّم فرويد في السن أصبح تعسفيًا، من ذلك مثلًا أن مريضًا ذهب في إحدى عطلات الكريسماس للتزحلق فأخذ فرويد مريضًا آخر، ولمّا عاد المريض من إجازته قيل له أن عليه أن ينتظر دوره. واعتبر فرويد أن ما فعله له ما يبرره، وأنه ليس من حق المريض أن يفرض عليه متى يعمل ومتى لا يعمل. لكن أوتو رانك اعتقد أن فرويد أراد أن يفرض على أتباعه نظام التبعية، وقد كان مفهوم فرويد عن المثلية الجنسية الكامنة بالأخص طريقة من طرق اضطهاد الناس. من ذلك أن واحدًا على الأقل من المرضى انتهى به التحليل النفسي إلى الاكتئاب بسبب مسألة المثلية الجنسية اللاواعية.

تتضاعف قوة المحلّل كلما تدرّب على التحليل، لأن من شأن المحلِّل النفسي أن يؤثر على مسيرة الشخص الذي يخضع لتحليل المهنية. ومن الصعب جدًّا أن نحكم إلى أي مدى نجح فرويد مع مرضاه، فقد قالت إحدى مريضاته أن حالتها تغيّرت تمامًا، وشعر الكثيرون بقليل من الاكتئاب لعجز في قدراتهم، ولم يتخلص آخرون من أعراضهم رغم خضوعهم للتحاليل النفسية، وانتهى الأمر بالبعض إلى مصحات الأمراض العقلية. لكن مثل تحليل الطلاب الذين جاءوا للتدريب على التحليل النفسي علامة مميزة في مسيراتهم المهنية.

ولم يكن في بداية العشرينيات من القرن العشرين ولا حتى في أواخرها شيء اسمه تحليلات «تحكمية»، قادها مرشحون للتدريب تحت إشراف محللين من ذوي الخبرة. وكلما استعصى أمر ما على أحدهم استشار فرويد، إلا أن هذا الأخير لم يكن يشجع على ذلك، فقد كان يريد أن يتعلّم طلابه بأنفسهم ويثقون بحكمهم[23]. وأحيانًا يستقدم بعض المحللين من الخارج مرضاهم ممن يصعب التحكم فيهم إلى فرويد عسى أن يكسر جمودهم.

ومع أواخر العشرينيات من القرن العشرين أصبحت جمعية فيينا للتحليل النفسي أكثر

تنظيمًا حيث شهدت حصصًا وإجراءات تدريبية قادها أعضاء آخرون غير فرويد، وبعد بضعة أشهر من التحليل النفسي، تكون بمثابة فترة اختبار، يدعى الطالب المتمرن لحضور بعض الاجتماعات. وبما أن الأجانب لا يستطيعون الإقامة في فيينا لفترة طويلة، يسمح لهم بحضور الاجتماعات أولًا. وتدريجيًّا أصبح الإشراف على المحللين المتمرنين يتخذ طابعًا رسميًّا أكثر، لكن كان التوجه العام في فيينا يعكس وجهة نظر فرويد، وهو أن تلك التحليلات التحكمية ليست مهمة لتطوير مهارة المرشحين الإبداعية. لم يشرف المحللون على التحليلات التي قادها مَن حللوهم نفسيًّا، لكن منع الطلاق الصارم بين التدريب والتحليل من تأبيد الأرثوذوكسية وقلّص من خنق المواهب.

اعتقد فرويد أن «التحليلات أثناء التدريب لا يمكن أن تُدار تمامًا كما تُدار التحليلات أثناء العلاج...»[24]، وقد اعتبر فرويد أن من حق الطلاب أن يقيموا معه علاقات اجتماعية وإن يكن ذلك غير مقبول من زاوية أخرى. إن الحياد التحليلي مع الطلاب موقف لا يزال يتلمّس خطواته في الواقع كموقف جديد. وفي عام 1926 كتب فرويد أن «مدة التدريب المقررة سنتان»[25]، وفي 1937 رأى فرويد أنه:

«لأسباب عملية يمكن أن يكون التدريب على التحليل مختصرًا ومحدودًا يكون غرضه الأساسي تمكين معلمه من إصدار حكم حول ما إذا كان يمكن قبول المرشح لتدريب أكثر. ويكون قادرًا على تحقيق غرضه إذا اقتنع المتعلم بشكل صارم بوجود اللاوعي، وإذا كان قادرًا، عندما تظهر معطيات مكبوتة، على أن يدرك في ذاته أشياء لا يُصدّقها إلا هو، وإذا أظهرت له أول عينة عن التقنية التي أثبتت أنها الشيء الوحيد الفعال في مجال التحليل النفسي»[26].

جاء في تقرير لفرويد نفسه، أنه «في سنواته الأخيرة» أصبح «منشغلًا بشكل رئيس بالتدريب على التحليل»[27]، وفي عام 1937 بدأ يقتنع تمامًا بالتحليل كعلاج، وكان معجبًا بالتركيز على المعطيات التحليلية، وقد أوصى بأن على «كل محلِّل أن يخضع للتحليل النفسي بشكل دوري - كل خمس سنوات أو نحو ذلك - مرة أو أكثر، دون أن يخجل من اتخاذ هذه الخطوة»[28]. وبطبيعة الحال تفترض توصيات فرويد أن التحليلات نفسها لا نهاية لها، ذلك أن اكتشاف الذات لا نهاية له، ولما كانت التدريبات على التحليل يمكن أن تطول على مدى سنين، اقترح فرويد ألا يتوقف التحليل أبدًا، وهذا معمول به في أيامنا في كل مكان.

تغري ممارسة التحليل للمحلّل أنه ليس من الصعب عليه أن يطرد الغرور الخاص بالتحليل نفسه. لو كانت التحاليل فقط أطول وأعمق، لكان من السهل علينا التفكير بأنها ستكون أكثر نجاحًا. ويستطيع المحلّل أن يعتقد في ذلك دون عناء، بما أن الوضع التحليلي وفّر له شيئًا استثنائيًا جدًّا، وليس فقط شخصيته. لكن ليس بوسع فرويد أن يتوقع كل مشاكل تدريب المحللين المستقبليين، إلا إذا تخلّى التحليل النفسي عن بيروقراطيته التي آل إليها لاحقًا خلافًا لما كان عليه وضعه على أيام فرويد.

ربما تكمن الصعوبة الرئيسة للتحليل النفسي في نزعته الكمالية، من ذلك مثلًا أن المثل الأعلى للمحلّل الذي حُلّل تمامًا، ويُفترض أنه تتطهر من كل آثار العصاب، في أسطورة نشأت عن انعدام يقين وانعدام طمأنينة المحللين الأوائل. ومن بين أهم الطقوس المحمودة استخدام الأريكة حتى اعتبر عدم استخدامها خيانة عظمى، وكذلك الشأن بالنسبة للفشل في تحليل التحويل السلبي (الخشية من أن يكون «مجرد» إيحاء أو علاجًا ظرفيًا). كان الانطباع بأن فرويد إله خال من العيوب يعادل تمامًا أسطورة المحلّل الذي حُلل بشكل كامل[29]. إن المحللين بشر، ولذلك فإن تحقيق الحياد في التقنية مستحيل. لكن مع تراجع حدة طبعه في أواخر حياته قدّم فرويد تنازلات حول ممارسة العلاج:

> **«من المعقول أن نتوقع من المحلّل أن يتمتع بخصال معتبرة كأن يكون سويًّا وسديدًا إلى أبعد حد، وأن يكون متفوّقًا فيتصرف ضمن أوضاع تحليلية معينة كمثل أعلى لمرضاه وللآخرين كأستاذ. وفي النهاية يجب ألا ننسى أن العلاقة التحليلية قوامها الثقة، والاعتراف بالواقع ومنع كل زيف أو خداع»**[30].

ساهمت كتابات فرويد في توقعات غير واقعية لبعض أنصاره. وفي عام 1913 قال متفائلًا «عمومًا سنعترف في وقت قريب بأنه لن يكون باستطاعتنا فهم ومعالجة أي صنف من أصناف العصاب دون اتباع منهج وتقنية التحليل النفسي»[31]. إن أعظم تقدير أبداه فرويد للتنوّع البشرى في ذلك العصر، هو أنه اعتبر الاحتفاظ بالمذكرات «سمة عصابية»[32]. ورغم تحرره من العديد من قيم الطبقة الوسطى، إلا أنه عندما تزوّج أحد أتباعه الأوائل في أوسط العمر، أثنى فرويد عليه قائلًا: «أنت الآن شخص طبيعي».

رغم حذر فرويد من حدود التقنية التحليلية وكل الموانع التي عرفها للتحليل التي أتى على ذكرها، فقد اهتم المحللون الأوائل بإخضاع الجميع تقريبًا للتحليل. ففي مصحّة سيميل بالقرب من برلين، التي استمرت لخمس سنوات قبل أن تُفلس، فُرض على كل

شخص بما في ذلك الممرضين والفرّاشين أن يخضعوا للتحليل متجاهلين بكل بساطة أن التحليل النفسي تقنية مخصوصة لمشاكل محددة. وكما ذكر الطبيب النفسي السويسري بينسوانغر، حول ما كتب عن فرويد، أنه قال في عام 1911 «لن أفتخر بأي نجاح ما لم يتحقق من خلال طريقة التحليل النفسي، ولن أقتنع بأي علاج ما لم يتم بواسطة التحليل النفسي». ثم قال بينسوانغر بعد ذلك: «ما زلت أؤمن بأنه يتعيّن على كل مريض تقريبًا أن يخضع للتحليل. لقد بذلت مجهودًا جبّارًا لمدة عشر سنين عرفت خلالها العديد من خيبات الأمل قبل أن أدرك أن عددًا معينًا فقط من الحالات في مؤسستنا يُناسبها التحليل النفسي»[33].

من الناحية العملية، أدرك فرويد أنه لا يمكن التمييز بشكل تام بين الصحة والمرض. وقد كتب فرويد لكارل أبراهام، وهو طالب كان معجبًا به، أن «ما من أحد منّا خال من العقد، وأنه علينا أن نحذر من أن نعتبر أن أي شخص عصابي»[34]. وكما كتب لساندور فرينشيزي، وهو أحد المقربين إليه: «ليس على المرء أن يحاول القضاء على عقد شخص ما، وإنما أن يتصالح معها؛ فهي القوى الشرعية التي توجّه سلوك الشخص في هذا العالم»[35]. هل يعالج الطبيب الجسد حقًا، أم أنه يساعده فقط على الشفاء؟ ذكر فرويد ذات مرة أنه «كان يتّخذ الجراح قديمًا من العبارة [أنا أضمّد الجراح، والربّ يشفيها] شعارًا له. وعلى المحلل النفسي أن يقتنع بشيء مماثل»[36].

اعترض فرويد على جوانب معينة من دراسة ويتلز التي قدّم لها الكاتب الفيينّي كارل كراوس جاء فيها: «يُفترض أن يجعل التحليل الشخص متسامحًا، وهو مثل تشريح الحيوانات الحيّة لا يمكن القبول به لأنه غير إنساني». وقد أخبر فرويد جمعيته يقول: «ليس لنا الحق بأن نضع العصابيين في الواجهة كلما تعلق الأمر بإنجاز كبير»[37]. لكن فرويد كان صارمًا جدًّا في التعاطي مع مقال عن هنريش فون كليست كتبه سادغر حيث يقول:

> **«لا يستطيع المرء ببساطة أن ينصف شخصًا ما إذا ركّز فقط على خواصه الجنسية غير السويّة دون أن يبذل مجهودًا في إقامة علاقات وثيقة مع القوى النفسية الفردية الأخرى... وينبغي أن يُلام سادغر أيضًا لميله الخاص للوحشية... ليست مهمتنا قول حقائق جديدة بشكل تعسفي، وإنما بالأحرى توضيح الطريقة التي تؤدّي إليها. لا بد أن يكون هناك حد معين من التسامح جنبًا إلى جنب مع فهم عميق... إذا كانت الحياة تستحق أن تُعاش».**

عبّر فرويد عن لومه على تلك الدراسة «المثيرة للاشمئزاز» بطريقة لبقة حيث قال: «لم

يكن سادغر قادرًا على هذا التسامح، أو على الأقل لم يكن قادرًا على التعبير عنه»[38]. ليس مفاجئًا أن تُضلّل دوامة الأفكار المتناقضة التي نشأت حول فرويد بعض الناس. أيّ معايير طبيعية يمكن أن نهتدي بها، مفاهيم فرويد التي بلورها وطوّرها أم حياته كما عاشها؟ قد يلتقي فرويد في أفضل حالاته مع هدف الفنان الكبير بابلو بيكاسو: «التوتر أكثر أهمية من التوازن المستقر للانسجام، وهذا لا يهمني... أريد أن أسحب العقل نحو وجهة لم يتعوّد عليها ومن شأنها أن توقظه»[39]. إن مفهوم فرويد عن الصحة، الذي لم يكن يثيره إلا نادرًا، ليس عديم الجدوى.

تنامى التحليل النفسي بسرعة كحركة روّجت لنفسها كعلاج، ويتحمل الأميركيون على وجه الخصوص وزر ذلك. لكن أكد آخرون، على غرار أتباع كلاين، على الصحة كحقيقة سيكولوجية شأنها في ذلك شأن المرض العقلي. ساعد انتهاج التحليل النفسي، بقيادة فرويد، حسب الفيينّيين، الناس على إيجاد حلول لاضطراباتهم. كما كان يونغ من الأوائل الذين اعتبروا أكثر من غيرهم، أن التحليل النفسي في ذاته لا يمكن أن يكون عملية نضوج، ولكن بمستطاعه أن يلغي بعض العراقيل التي قد تحول دون ذلك.

وفي عام 1904، قبل فترة طويلة من الصراعات المذهبية داخل حركة فرويد، وقد ذكر ذلك على نحو بسيط:

«لا يخلو التحليل النفسي من سمات عديدة تحول بينه وبين أن يكون مثلًا أعلى للعلاج يكون فيه المريض صدوقًا بشكل مثالي - آية في التضحية بأتم معنى الكلمة... أعتبره مبررًا للجوء إلى طرق أكثر ملاءمة للعلاج طالما أن هناك احتمالًا لتحقيق أي شيء من خلالها، وفوق ذلك كله، إنه الوحيد الذي يثير جدلًا»[40].

وكما جاء على لسان جونز، حذر فرويد من «الطموح المفرط، سواء كان ذا طابع علاجي أو من طبيعة ثقافية. ينبغي على المرء ألا يطلب أبدًا من المريض ما لا قبل له به»[41].

انتهى فرويد في أواخر حياته إلى أن نجاعة العلاج التحليلي مقيدة بعوامل تشكيلية. وفي محادثة بينه وبين فرويد عام 1936، يذكر بينسوانغر: «ما يثير دهشتي أن فرويد اختزل العبارة في قوله «التشكيل هو كل شيء»[42]. وكتب فرويد في 1937 ما يلي:

«لدينا انطباع بأنه ينبغي ألا نتفاجأ إذا تبيّن لنا في نهاية الأمر أنه لا يمكن أن نميّز بشكل تام الفرق بين سلوك شخصين أحدهما لم يخضع للتحليل والآخر بعدما خضع للتحليل كما كنا نروم ذلك أو نتوقعه أو نقر به»[43].

كان فرويد ينظر لمحنة الشخص بصبر وتحمّل، ومن بين الأقوال المأثورة بالنسبة له «على الشخص أن يتحمّل شيئًا من اللايقين»[44].

لقد كانت الإمكانيات العلاجية للتحليل النفسي، بالنسبة للحلقة المحيطة بفرويد، مغرية منظورًا إليها كاحتمالات لفهم أن أفكاره مبتكرة. بيد أن بعض خصال فرويد الذاتية التي كان لها بصمتها في تقنيته، شأنها في ذلك شأن نظرياته، يجب أن تمثل حافزًا بالنسبة للمعارضين في التحليل النفسي كي يجتهدوا في أن يكون لهم أسلوبهم الخاص بهم وأن يؤسسوا أفكارهم انطلاقًا من تجاربهم العلمية وتطوّر تصورهم الشخصي.

الهوامش

1 ـ تقنية الحياد

(1) «On Beginning the Treatment», p. 123.

(2) «The interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 517; «The Handling of Dream-interpretation in Psychoanalysis», p. 91.

(3) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 142, Vol. 5, p. 453.

(4) Walter Schmideberg, «To Further Freudian Psychoanalysis», The American Imago, Vol. 4, No. 3 (July 1947), p. 4.

(5) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 241.

(6) «Observations on Transference-Love», p. 171.

(7) «Two Encyclopedia Articles», p. 239.

(8) «Notes upon a case of Obsessional Neurosis», Standard Edition, Vol. 10, p. 159; «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», pp. 119-20.

(9) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 287.

(10) «Analysis Terminable and Interminable», p. 247.

(11) Letter from Marie H. Briehl to Ernest Jones, Apr. 28, 1956 (Jones archives).

(12) For Example, Kata Levy.

(13) «Observations on Transference-Love», p. 165.

(14) Interviews with Mark Brunswick, Jan. 25, 1966, and Nov. 22, 1967, and with Philip Sarasin, Nov. 30, 1966. Cf. Raymond de Saussure, «Sigmund Freud», in Freud As We Knew Him, ed. Ruitenbeek, p. 359.

(15) Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, pp. 34, 45,53.

(16) Interview with Heinz Hartmann, Oct.18, 1965.

(17) Interview with Smiley Blanton, Jan.25, 1966.

(18) Edoardo Weiss, Sigmund Freud as a Consultant (New York: Intercontinental Medical Book Corp.; 1970), p. 37.

(19) Freud mentions this sort of mechanism in «Some Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality», p. 226.

(20) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 111.

(21) «On Beginning the Treatment», p. 134.

(22) Ibid., p. 133.

(23) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 165.

(24) Interview with Irmarita Putnam, June 30, 1966.

(25) Interview with Edoardo Weiss, Jan.25, 1966.

(26) Interview with Sandor Rado, Jan. 29, 1966.

(27) Interview with David Brunswick, Dec.30, 1965.

(28) Interview with Roger Money-Kyrle, Nov. 7, 1966.

(29) Interviews with Irmarita Putnam and Philip Sarasin.

(30) «General Preface», Standard Edition, Vol. I, P. xxi.

(31) Interview with Albert Hirst.

(32) Interviews with Mark Brunswick.

(33) Interview with Smiley Blanton, and with Kara Levy, July 13, 1965.

(34) Freeman, Insights, p. 32.

(35) Interviews with Irmarita Putnam, and with Edith Jackson, Aug. 30, 1966.

(36) Interview with Albert Hirst.

(37) Interview with Edith Jackson and Smiley Blanton.

(38) «On Beginning the Treatment», p. 132.

(39) Letters of Freud and Abraham, p. 276.

(40) Interview with Theodor Reik, Oct. 26, 1965.

(41) Interview with Mark Brunswick, Jan. 25, 1966.

(42) «Psychopathology of Everyday Life», p. 87.

(43) Interview with Edith Jackson.

(44) Interview with Heinz Hartmann.

(45) Quoted in Carl and Sylvia Grossman, The Wild Analyst (New York: Braziller; 1965), p. 61.

(46) Stefan Zweig, Mental Healers (London: Cassell; 1933), pp. 324-25.

(47) Letters, p. 403.

2 _ أهداف البحث

(1) «On Beginning the Treatment», p. 132.

(2) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 157.

(3) Interview with Albert Hirst.

(4) Interview with Helene Deutsch, Oct. 7, 1967.

(5) Abram Kardiner, «Freud», in Freud and the Twentieth Century, ed. Benjamin Nelson (New York: Meridian Books; 1957), pp. 48-49.

(6) Sachs, Freud, p. 81.

(7) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 382.

(8) IlseOllendorff Reich, Wilhelm Reich (New York: St. Martin's; 1969), p. 52.

(9) «Freud's Psychoanalytic Procedure», p. 254.

(10) «On Beginning the Treatment», p. 156.

(11) Max Eitingon, in Ten Years of the Berlin Psychoanalytic Institute (Chicago Psychoanalytic Society Library), p. 13.

(12) «New Introductory Lectures», p. 156.

(13) «The interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 536; Binswanger, Freud, p. 59.

(14) Reich Speaks of Freud, p. 59.

(15) Viktor von Weizsaecker, «Reminiscences of Freud and Jung», in Freud and the Twentieth Century, p. 66.

(16) «The Question of Lay Analysis», p. 187.

(17) Cf. Eissler's interview with Hirst.

(18) Interview with Lionel Penrose, Aug. 31, 1965.

(19) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 114.

(20) Lou Andreas- Salome, The Freud Journal, Translated by Stanley Leavy, (New York: Basic Books; 1964), p. 130.

(21) «the Question of Lay Analysis», p. 254.

(22) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 10.

(23) «An Autobiographical Study», p. 18.

(24) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 168.

(25) William M. Johnston, The Austrian Mind (Berkeley: University of California Press; 1972), p. 228.

(26) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 125.

(27) Robert Waelder, «Historical Fiction», Journal of the American Psychoanalytic Association, Vol. 11, No.3 (July 1963), p. 635.

(28) Franz Alexander, «Sandor Rado», in Psychoanalytic Pioneers, ed. Franz Alexander, Samuel Eisenstein, and Martin Grotjahn (New York: Basic Books; 1966), pp. 247-48.

(29) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 115; «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 167.

(30) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 459.

(31) «A short Account of Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 19, p. 203; «Two Encyclopedia Articles», p. 249.

(32) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 163.

(33) «New Introductory Lectures», p. 151; «The Future Prospects of Psychoanalytic Therapy», Standard Edition, Vol. 11, p. 150.

(34) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 114.

(35) «An Autobiographical Study», p. 16.

(36) «On Beginning the Treatment», p. 137.

(37) «Five Lectures on Psychoanalysis», pp 52-53.

(38) «Notes upon a Case of Obsessional Neurosis», pp. 207-08.

(39) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 166; Letters, p. 360.

(40) The Origins of Psychoanalysis, p. 162.

(41) «The Question of Lay Analysis», p. 253.

(42) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 446.

(43) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 178.

(44) «A Child Is Being Beaten», p. 203.

(45) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 123.

(46) Letters, p. 287.

(47) «On Psychotherapy», p. 267.

(48) «Analysis Terminable and Interminable», p. 247.

(49) «Introduction to Pfister's the psychoanalytic Method», Standard Edition, Vol. 12, p. 330.

(50) «Two Encyclopedia Articles», p. 252.

(51) «The Question of Lay Analysis», p. 254.

(52) Interview with Richard Sterba, July 10, 1966.

(53) Ibid.

(54) Quoted in Fredrick Redlich, «The Concept of Schizophrenia and Its Implications for Therapy», in Eugene Brody and Fredrick Redlich, Psychotherapy with Schizophrenia (New York: International Universities Press; 1952), p. 35.

(55) The Origins of Psychoanalysis, p. 71; «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 23, p. 213. Cf. also «Lines of advance in psychoanalytic Therapy», p. 162.

(56) Interview with Abram Kardiner, Oct. 12, 1965.

(57) «Five Lectures on Psychoanalysis», p. 22.

(58) Binswanger, Freud, pp. 42-43.

3 ـ الشخصية والأعراض

(1) «Five Lectures on Psychoanalysis», p. 22.

(2) Thomas Szasz, «Behavior Therapy and Psychoanalysis», Medical Opinion and Review, June 1967, p. 27.

(3) «Introductory Lectures», Vol. 16. p. 449.

(4) «On the History», p. 19.

(5) «Freud's Psychoanalytic Procedure», p. 250.

(6) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», pp. 282-83.

(7) «Freud's Psychoanalytic Procedure», p. 254.

(8) «Sexuality in the Aetiology of the Neuroses», p. 283.

(9) «A Note on the Prehistory of the Technique of Analysis», Standard Edition, Vol. 18, p. 265.

(10) «Fragment of an analysis of a case of Hysteria», p. 109.

(11) «From the History of an Infantile Neurosis», pp. 89-90.

(12) «Constructions in Analysis», Standard Edition, Vol. 23, p. 262.

(13) «New Introductory Lectures», p. 57.

(14) Cf. Eissler's interview with Hirst.

(15) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 436.

(16) Minutes, Vol. II, PP. 318-19.

(17) «Two Encyclopedia Articles», p. 251.

(18) Letter from Alfred von Winterstein to Ernest Jones, Dec. 4, 1957 (Jones archives).

(19) Quoted in Binswanger, Freud, p. 94.

(20) Wortis, Fragment of an Analysis with Freud, p. 94.

(21) «The Claims of Psychoanalysis to Scientific Interest», p. 175.

(22) «On Psychoanalysis», p. 210. Cf. also Ernest Jones in James Jackson Putnam and Psychoanalysis, ed. Hale, p. 231.

(23) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 273.

(24) «Fragment of an analysis of a case of Hysteria», p. 21.

(25) Interview with Helene Deutsch, Sept. 30, 1967.

(26) Minutes, Vol. II, P. 74.

(27) Weiss, Sigmund Freud as a Consultant, p. 57.

(28) «New Introductory Lectures», p. 59.

(29) Quoted in Max Schur, The Id and the Regular Principle of Mental Functioning (London: Hogarth; 1967), p. 21.

(30) «Freud's Letters to Simmel», translated by David Brunswick and Frances Deri, Journal of the American Psychoanalytic Association, Vol. 12, No.1 (Jan. 1964), pp. 103, 106.

(31) «A Short Account of Psychoanalysis», p. 204.

(32) Minutes, Vol. II, PP. 285-86.

(33) «A Disturbance of Memory on the Acropolis», p. 244.

(34) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 303; «The Claims of Psychoanalysis to Scientific Interest», p. 174; «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 415.

(35) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 423.

(36) Ibid., p. 447.

(37) Daniel Yankelovich and William Barrett, Ego and Instinct (New York: Random House; 1970), p. 284.

(38) «Mourning and Melancholia», Standard Edition, Vol. 14, pp. 243-58.

(39) «The Psychopathology of Everyday Life», pp. 166, 146.

(40) «The interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 107.

(41) «Studies on Hysteria», p. 95; Weiss, Sigmund Freud as a Consultant, p. 50.

(42) Minutes, Vol. II, P. 268.

(43) «Analysis Terminable and Interminable», p. 231.

(44) Quoted in Psychiatry & Social Science Bookshelf, Vol. I, No. 1 (Sept. 15, 1966),pp. 12-13.

(45) Donald W Winnicott, Collected papers (London: Tavistock; 1958), p. 86.

(46) Herman Nunberg, Memoirs (New York: Psychoanalytic Research and Development Fund; 1969), p. 32. Cf. also Edoardo Weiss, Agoraphobia in the Light of Ego Psychology (New York: Grune & Stratton; 1964), p. 6.

4 ـ الجدارة

(1) «Observations on Transference-Love», p. 164.

(2) «On Beginning the Treatment», p. 135.

(3) «Freud's Psychoanalytic Procedure», p. 254.

(4) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 182.

(5) Psychoanalysis and Faith: The letters of Sigmund Freud and Oskar Pfister, ed. Heinrich Meng and Ernst Freud, translated by Eric Mosbacher (New York: Basic Books; 1963) (Cited hereafter as Letters of Freud and Pfister), pp. 61-62.

(6) Letters, p. 390.

(7) Sachs, Freud, p. 146.

(8) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 119.

(9) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 406.

(10) «Dostoevsky and Parricide», p. 196.

(11) Helen Walker Puner, Freud: His Life and His Mind (New York: Howell, Soskin; 1947), p. 279.

(12) «Studies on Hysteria», pp. 282-83.

(13) Ibid., p. 265.

(14) August Aichhorn, Wayward Youth (New York: Meridian Books; 1955).

(15) Quoted in Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 36.

(16) Interview with Edoardo Weiss, conducted by Kurt Eissler, Dec. 13, 1952.

(17) «Introductory Lectures», p. 321.

(18) Letters, pp. 423-24.

(19) Quoted in Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 28. Cf. also Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, p. 41.

(20) «Mourning and Melancholia», p. 247.

(21) Quoted in Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 35.

(22) Quoted in ibid., p. 37.

(23) «Leonardo da Vinci», p. 98.

(24) Minutes, Vol. II, P. 311.

(25) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 598.

(26) Minutes, Vol. II, PP. 297, 290.

(27) Ibid., p. 379.

(28) Helene Deutsch, The Psychology of Women, Vol. I, (New York: Grune & Stratton;1944), pp. 346 ff. Cf. Paul Roazen, «Psychoanalysis and Moral Values», Dissent, Feb. 1971, pp. 77-78; reprinted in Moral Values and the Superego Concept, ed. Seymour C. Post (New York: International Universities Press; 1972), pp. 197-204.

(29) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 80.

(30) «ON Psychotherapy», p. 263.

(31) Ibid., p. 263.

(32) Ibid., pp. 263-64.

(33) «An Autobiographical Study», p. 27.

(34) Freud/Jung Letters, pp. 12-13.

(35) «Notes upon a case of Obsessional Neurosis», p. 223.

(36) «Remembering, Repeating and working Through», Standard Edition, Vol. 12, pp. 150-51.

(37) «The Dynamics of Transference», Standard Edition, Vol. 12, pp. 101-02.

(38) «Analysis Terminable and Interminable», p. 232.

(39) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 49.

(40) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 228.

(41) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 118.

(42) Ibid., p. 115. Cf. also Elizabeth R. Zetzel, «The Analytic Situation», in Psychoanalysis in the Americas, ed. Robert E. Litman (New York: International Universities Press; 1966), p. 87.

(43) «Analysis Terminable and Interminable», pp. 247-48. Cf. also Grete Bibring-Lehner, «A Contribution to the Subject of Transference-Resistance», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 17, Part 2 (Apr. 1936), pp. 181-89..

(44) Elizabeth R Zetzel, «Current Concepts of Transference», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 37, parts 4-5 (July-Oct. 1956), p. 369-76.

(45) «Introductory Lectures», p. 440.

(46) Minutes, Vol. II, p. 359.

(47) Interview with Helene Deutsch, Aug. 13, 1966.

5 ـ التحويل المضاد وقيمة التنوير

(1) «The Future Prospects of Psychoanalytic Therapy», pp. 144-45.

(2) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 116.

(3) «The Question of Lay Analysis», pp. 219-20.

(4) «Recommendations to PhysisciansPractising Psychoanalysis», p. 113.

(5) «Analysis Terminable and Interminable», p. 248.

(6) Minutes, Vol. II, P. 447.

(7) Annie Reich, «On Counter-Transference», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 32, Part 1, (1951), pp. 28-29.

(8) The Wolf-Man, ed. Muriel Gardiner (New York: Basic Books; 1971).

(9) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 467.

(10) Ruth Mack Brunswick, «A Note on the Childish Theory of Coitus A Tergo», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 10, (1929), p. 93.

(11) «From the History of an Infantile Neurosis», pp. 84, 121.

(12) Ibid., p. 118.

(13) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 458.

(14) The Wolf-Man, p. 305.

(15) Ibid., p. 20.

(16) Ibid., p. 266.

(17) Ibid., p. 366.

(18) «Frangment of an Analysis of a case of Hysteria», p. 122.

(19) «Psychoanalysis and Telepathy», Standard Edition, Vol. 18, p. 191.

(20) Ibid.

(21) Ibid., p. 192. Cf. Roazen, «Psychoanalysis and Moral Values».

(22) «Psychoanalysis and Telepathy», p. 192.

(23) Ibid., pp. 192-93.

(24) Cf. also «New Introductory Lectures», pp. 45-47.

(25) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 162.

(26) «A Case of Paranoia Running Counter to the Psychoanalytic Theory of the Disease», Standard Edition, Vol. 14, p. 263.

(27) «Studies on Hysteria», p. 134.

(28) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 463.

(29) «The Question of Lay Analysis», p. 233.

(30) «On Psychotherapy», p. 265.

(31) «Analysis Terminable and Interminable», p. 243.

(32) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 183.

(33) Letters of Freud and Pfister, p. 15.

(34) «On Beginning the Treatment», p. 133.

(35) Quoted in Binswanger, Freud, p. 50.

(36) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 219.

(37) Ibid., Vol. 5, p. 578.

(38) «New Introductory Lectures», p. 80.

(39) «Psychical (or Menatl) Treatment», Standard Edition, Vol. 7, p. 283.

(40) «Introductory Lectures», Vol. 16, pp. 280-81.

(41) «Why War?», Standard Edition, Vol. 22, p. 213.

(42) «Beyond the pleasure principle», p. 18.

(43) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 108.

(44) Minutes, Vol. II, P. 35.

(45) MaryseChoisy, Sigmund Freud (New York: Citadel; 1963), pp. 6-7.

(46) Letters, p. 310.

(47) Letters of Freud and Pfister, p. 62.

(48) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», pp. 160-61.

(49) «Notes upon a case of Obsessional Neurosis», p. 177.

(50) Minutes, Vol. II, P. 89.

(51) «The Dynamics if Transference», p. 108.

6 ـ قوة الكلمات

(1) «Analysis Terminable and Interminable», p. 233.

(2) Edith Weigert, «Dissent in the Early History of Psychoanalysis», Psychiatry, Vol. 5, (1942), p. 353.

(3) «On Psychotherapy», p. 262.

(4) Minutes, Vol. II, P. 373.

(5) Ibid., p. 194.

(6) Ibid., p. 189.

(7) «Creative Writers and Day-Dreaming», p. 153.

(8) Minutes, Vol. II, P. 391.

(9) «Psychopathic Characters on the Stage», Standard Edition, Vol. 7, p. 310.

(10) Minutes, Vol. II, P. 300.

(11) Ibid., p. 256.

(12) «Introductory Lectures», Vol. 15. P. 17.

(13) «Remembering, Repeating and Working Through», p. 155.

(14) «Kardiner Reminisces», Bulletin of the Association for Psychoanalytic Medicine, May 1963, p. 63.

(15) Franz Alexander, «Reflections of Berggasse 19», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 9, No. 2 (1940), p. 202.

(16) «On Psychotherapy», p. 264.

(17) Quoted in Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 35.

(18) «On the History», p. 49.

(19) Minutes, Vol. II, P. 133.

(20) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 456; «The Dynamics of transference», p. 104.

(21) Minutes, Vol. II, P. 90.

(22) «Analysis Terminable and Interminable», p. 249.

(23) Cf. Siegfried Bernfeld, «On Psychoanalytic Training», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 31, No. 4 (1962), p. 463.

(24) Letters of Freud and Abraham, p. 346.

(25) «The Question of Lay Analysis», p. 228.

(26) «Analysis Terminable and Interminable», p. 248.

(27) Ibid., p. 224.

(28) Ibid., p. 249.

(29) Interview with Edward Glover, Sept.2, 1965.

(30) «Analysis Terminable and Interminable», p. 248.

(31) «Preface to Maxim Steiner's The Psychical Disorders of Male Potency», Standard Edition, Vol. II, P. 346.

(32) Minutes, Vol. II, P. 343.

(33) Binswanger, Freud, pp. 33, 29.

(34) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 454.

(35) Quoted in ibid., pp. 452, 166.

(36) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 115.

(37) Minutes, Vol. II, P. 391.

(38) Ibid., pp. 224-25.

(39) Quoted in FrançoiseGilot and Carlton Lake, Life with Picasso (London: Nelson; 1965), p. 52.

(40) «On Psychotherapy», pp. 259, 262; Cf. also «American Interview of Freud with A. Albrecht», Psychoanalytic Review, Vol. 55, No. 3, (1968), pp. 333-41.

(41) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 235.

(42) Binswanger, Freud, p. 21.

(43) «Analysis Terminable and Interminable», p. 228.

(44) Sachs, Freud, p. 145.

الفصل الخامس

فرويد ومؤيدوه
الخلافات العلنية: ألفريد أدلر وفيلهالم ستيكل

1 - التعاون

تمتع فرويد بأسعد فترات حياته خلال العقد الذي أعقب نشر كتابه «تفسير الأحلام» عام 1900. فقد تغلب على العقبات التي طالما عانى منها في حياته العائلية وذلك بابتكار حركة جديدة تألفت من أبنائه وبناته بالتبني. حينها أدرك فرويد أهمية ما اكتشفه في ميدان علم النفس وشكّل أسلوبًا استقصائيًا للمستقبل من خلال آلية التداعي الحر. وقد دوّن فرويد خلال العشر سنوات الأولى من القرن باكورة أفكاره موضحًا معتقداته عن الجنسانية الطفولية واللاشعور، وبذلك تبوّأ علم الأمراض النفسية للحياة اليومية مكانًا ضمن مملكته.

خرج فرويد من قوقعته خلال هذا العقد وأسس مدرسته. وإذا لم يكن التحليل النفسي موضع اضطهاد فإنه لم يكن مقبولًا بصفة عامة. ربما كان فرويد يجد متعة آنذاك في التهجم عليه. فلم يُنظر إلى حضور محاضرات فرويد في جامعة فيينا كضرب من الراديكالية رغم الخرافات التي حيكت ضد أولئك الذين عارضوا نظريات فرويد وتجاهلت مؤيديه[1]. كان فرويد، الذي طالما ارتجل، متحدثًا رائعًا حتى أثناء مرضه في سنواته الأخيرة: «كانت كلماته تنساب بشكل واضح وسلس ومنطقي»[2]. وبحلول عام 1906، ظهر تأثير فرويد الهائل على جيل الشباب من مفكري فيينا كما وصفه أحد الملاحظين هناك. وتزايدت شعبيته بين الشباب رغم إحجامه عن التواصل معهم شخصيًا إلا نادرًا[3].

مثّل فرويد في تلك الأيام شخصية ملهمة بانحناءة كتفي العلماء وبيديه المتشابكتين خلف ظهره. فتح فرويد كمعلّم عالمًا جديدًا للناشئين، إلا أن قلة قليلة فقط من المؤيدين

المخلصين اجتمعت حوله. كان فرويد غزير العطاء في دروسه وفي أفكاره ولم يكن بعد منغلقًا ومنعزلًا وشكّاكًا كما صار في شيخوخته. اعتاد الجلوس عقب اجتماعات التحليل النفسي التي تُعقد كل أربعاء في شقته عام 1902 في المقهى يخوض في كل المواضيع بلا استثناء، بما في ذلك توارد الخواطر والألوهية.

وحتى أثناء فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، حيث لم يزل التحليل النفسي معزولًا عن العالم بأسره كان فرويد حذرًا في استشهاده بتلاميذه. وللعلم ذكر فرويد أعمالهم في كتاباته، كما أنهم لعبوا دورًا رئيسًا بجهودهم لترسيخ اكتشافاته على أسس علمية متينة. وفي عام 1908، وقبل أن ينتشر التحليل النفسي على نطاق واسع، عظّم من شأن «ما يجب أن يعرفه كل طبيب يمارس التحليل النفسي...»[4]، وضمّن في طبعته الجديدة من كتاب تفسير الأحلام توضيحيات تلاميذه، كما كتب فقرة أضيفت للكتاب عام 1909 جاء فيها: «لقد تبنى أطباء إجراء التحليل النفسي العلاجي ونشروا وحلّلوا عددًا كبيرًا من الأحلام في اتفاق مع توجيهاتي التي دوّنتها في مقالاتي شأنهم في ذلك شأن مؤلفين آخرين». ولما بلغ فرويد هذا المستوى من الفقرة ذكر بين قوسين بعض الأسماء مثل كارل يونغ وفيلهالم ستيكل.

ومع ذلك ظل التحليل النفسي مملكة فرويد الشخصية. وبعد الاستشهاد بهؤلاء التلاميذ أكد فرويد أنه لا مجال لسوء فهم الأولويات: «فهذه المنشورات لم تُضف شيئًا غير تأكيد وجهة نظري»[5]. وأن مهمة تلاميذه هي تطبيق اكتشافاته الأصلية. احتاج طلاب الجامعة لإذن فرويد المسبق لحضور محاضراته باستثناء المشاركين بعيادة الطب النفسي حيث كان يتحدث، كان مطلبًا غير عادي آنذاك وهكذا لم يكن فرويد ليلقي بالًا لهؤلاء الذين يأتون دون غرض جدّي.

صَعُب على البعض إعادة النظر في الخلافات العلنية مع أدلر وستيكل ويونغ والتي حدثت مباشرة عقب هذا العقد السلمي السعيد من حياة فرويد. ولما كانت لكل عائلة روايتها لتاريخها الخاص، فقد كانت هذه الخلافات بالنسبة لهؤلاء الذين ترعرعوا في كنف فرويد مجرد خرافة. وقد ازدهرت كل وحدة اجتماعية بناء على تلك الأساطير، وقد تأكدت خرافة الخلافات التي ظهرت في بدايات فرويد بشكل يقيني لدى عامة الناس ليس فقط في التاريخ الشفوي للتحليل النفسي ولكن في الكتب أيضًا[6].

عمومًا، لن نخدم التاريخ بالتركيز على الأحداث الدرامية. فإذا ما ركّزنا أساسًا على الخلافات التي جدّت في بدايات التحليل النفسي، سنتبيّن مواضع الاتفاق غير المعلنة والتي ظهرت في السنوات الأخيرة في المدارس التي تنتهج العلاج النفسي. ومع ذلك كانت هذه الخلافات المعروفة الأساس الذي قامت عليه علاقة فرويد بتلاميذه وساهمت في تأثيره على حلقته، فقد أُعتبر التحليل النفسي مذهبًا متجانسًا جدًّا في كثير من الأحيان.

اشتهر ألفريد أدلر (1870 ـ 1937) بقيادته للحركة المضادة. فهو «المنشق» الذي أسّس ما يُسمى مدرسة علم النفس المنشقة التي قللت من أهمية دور الجنسانية. ولقد كان أدلر أحد أتباع فرويد المخلصين. ففي عام 1908 عندما كان يحضر أقل من ثلاثين شخصًا اجتماعات فرويد مساء كل أربعاء (حيث كان يتغيّب عنها نصفهم تقريبًا)، انتقد أدلر مقالًا لأوتو رانك على خلفية: «الحضور الباهت للجنسانية فيه». وفي الآن ذاته ادعى أدلر أن رانك بنى مقاله برمته على فكرة «الأستاذ»[7]. حاول أدلر وأصدقاؤه في السنوات اللاحقة إنكار تبعيتهم لفرويد زاعمًا أن فرويد يعامله كطالب عنده لا كنظير له[8]. ولا تدع محاضر جلسات جمعية التحليل النفسي بفيينا مجالًا للشك بشأن سيادة فرويد.

انضم أدلر لحلقة فرويد منذ إنشائها في عام 1902 وكان فرويد الابن قد بلغ أربعة عشر عامًا آنذاك، وفي عام 1897 عُيّن فرويد «أستاذًا خارقًا للعادة»، وهو ما أهّله لإلقاء محاضراته في جامعة فيينا غير أنه لم يتقاض لقاء ذلك راتبًا كما لم يكن حضوره في الكلية منتظمًا. وما أجّل تعيين فرويد لخمس سنوات ليس معاداة حلقات الجامعة العليا للسامية وإنما «استغراقه في تحليل نفسه المبالغ فيه إلى حد أهمل فيه مصالحه الخاصة»[9]. كان لا بد لفرويد من أن يمارس ضغطًا بنفسه وبمساعدة امرأتين لهما نفوذ – إحداهما مريضته والأخرى مريضة قديمة – حتى يرتقي إلى الرتبة التي رُشّح لها. «فالمرء يحتاج إلى دعم من «الأعلى» حتى يبلغ مكانة رفيعة في هذا المجتمع»[10]. لطالما ضايقت فرويد مكانته الاجتماعية المتدنية في الجامعة، فقد تأخر تعيينه في الخطة التي ارتقى إليها في آذار/ مارس عام 1902 وفي ذلك بخس لإنجازاته. بيد أن ذلك ساعده في حياته المهنية وفي انتشار أفكاره. ولاحقًا في العام ذاته أرسل بطاقات دعوة إلى أربعة أشخاص (ألفريد أدلر وفيلهالم ستيكل وماكس كاهين ورودلف ريتلر) ليتناقشوا في بيته بشأن عدد من القضايا المشتركة. كان واثقًا من أن النجاح سيكون حليفه في نهاية المطاف، وفي الأسلوب الذي سيتحقق من خلاله هذا النجاح، فقد كتب قبل ذلك بعام قائلًا:

«اكتشفت ذات يوم باندهاش أن رؤية الأحلام القريبة من الواقع ليست طبية بقدر ما هي شعبية، رغم أن نصفها لا يزال يُنظر إليه كخرافات». ثم ما لبثت أن لاقت تلك الأحلام في ظل التحليل النفسي قبولًا بين الباحثين كافة[11].

ذلك ما تمناه فرويد وجماعته حينذاك وليس ما حصل في الواقع. ولما أسيء فهمه وتقديره احتاج فرويد لتأييد أتباعه. وسُمّيت الجماعة في البداية «جمعية الأربعاء السيكولوجية»، وكانت تعقد لقاءاتها في غرفة الاستقبال في بيت فرويد. وعلى غرار «مكتبه الضيّق الصغير»[12]، اختار فرويد مجموعة الأعمال الفنية التي اصطفت مع كتبه وخزائن العصور القديمة في مكتبه على أساس تاريخي إنساني وليس لأسباب جمالية خالصة. وقد شاركه العديد من يهود أوروبا الوسطى من المثقفين الإعجاب السائد بالمثل الأعلى الوثني للعصور الكلاسيكية القديمة.

امتدت المناقشات في هذه اللقاءات على نطاق واسع على الرغم من أنها لم تخرج عن دائرة أفكار فرويد. كانت مقالات أعضاء الجمعية تراجع كتب حديثة وتدرس الشخصيات التاريخية وتعرض وثائق أو تناقش موضوعات نظرية. وكان أكثر ما يُستهلك في هذه الاجتماعات القهوة السوداء والسيجار. وفي عام 1908 سمّت الجماعة نفسها «جمعية فيينا للتحليل النفسي»، وأصبحت عام 1910 جزءًا من منظمة فرويد الجديدة المسماة «الجمعية العالمية للتحليل النفسي»، والتقت الجمعيتان في غرفة جمعية فيينا الطبية.

شعر فرويد بارتياح أكبر في هذه الجلسات مقارنة مع الجامعة، حتى أن أتباعه المخلصين لم يجدوا صعوبة في إحضار رفيقاتهم معهم. كما أنه لم يعد يخشى كثيرًا من سوء الفهم في مجموعته الصغيرة. لقد حرص فرويد في هذه اللقاءات على أن يتخلى الجميع عن «قراءة» المقالات وأن يتحدثوا دون ملاحظات ودون تحفظ. «آمن فرويد أن القراءة تشتّت انتباه المستمع، وتعيق تواصله مع المحاضر»[13]. «تميّز أسلوب فرويد بالجرأة ضمن هذه الحلقة من المقربين أكثر مما هو عليه حال محاضراته أمام العموم. وقد كان أولئك الذين اكتشفوا فرويد من خلال كتاباته على استعداد لمعارضته خلافًا لأولئك الذين استمعوا لسحر خطابه»[14]. لم تكن معارضة فرويد سهلة البتة، ولا يعود ذلك لتهجمه العنيف على الأفكار التي تخالفه وإنما، أهم من ذلك، لأن نبوغه وتميزه حالا دون فرض مقاربات بديلة. (وقد مثّل العديد من أعضاء هذه الجماعة الصغيرة جمهورًا وفيًا من المستمعين المخلصين لمحاضرات فرويد العلنية).

تعددت دوافع الاقتراب من فرويد في البداية، فقد كان البعض أطباء مثل أدلر، والبعض الآخر كتّابًا أو طلبة، وآخرون عصابيين. شارك أدلر كالبقية في المناقشات وكتب مقالات ودافع عن قضية التحليل النفسي. فلقد لعب المحللون الأوائل دور الوعاظ والمبشّرين. واعترافًا بمواهب أدلر الاستثنائية حوّل فرويد زوجة أخيه ألكسندر إلى أدلر لتحليلها نفسيًا[15]. وفي تبريره لتعيين أدلر رئيسًا لجمعية فيينا عام 1910 قال فرويد «لأنه الشخصية الوحيدة الموجودة هنا...»[16].

. لقد كان فرويد يختلف عن أدلر في عديد من الخصال. فقد اتسم فرويد بأسلوب متحفظ ورسمي وتفكير نسقي. كتب فرويد عن نفسه مستعملًا ضمير الغائب قبيل عام 1903[17] من باب الفخر والاعتزاز بالنفس وليس عن غرور شخصي. «بينما كان أدلر دائمًا خلافًا لفرويد(*) «الأنيق والمستقيم دائمًا»[18]، «رجلًا عاديًا جهمًا عبوسًا تقريبًا»[19]، ورغم أن أدلر كان الأكثر صخبًا من بين الاثنين، فقد كان الأكثر اجتماعية ومؤانسة، وفضلًا عن عشقه للموسيقى، كان موسيقيًا بارعًا أيضًا.

وإذا كان فرويد كاتبًا عظيمًا، فإن «أدلر المتحدث بالفطرة، لم يولي اهتمامًا للكتابة»[20]. تميّز فرويد بدقة وضبط نطقه للكلمات حيث كان يتحدث ببطء ووضوح حيث يكتفي بالتعبير فقط عما يريد بأن يقوله بنبرة لا تخلو من خشونة[21]. وكمحب للأدب شُغُف فرويد بالقضايا، التي رآها مَن هم أقل تثقيفًا، مجرد تلاعب بالألفاظ.

وفيما نحت فرويد اسمه في العالم، كان أدلر منهمكًا في اهتماماته ذات الأولوية وبالتحديد اهتمامه الخاص بالعوامل الاجتماعية والبيئية للمرض[22]. كان أدلر أول من اهتم بمشاكل التعليم في حلقة فرويد. ونظرًا لقصر قامته وما عاناه من طفولة غثة، شدد أدلر على دور التعويض عن معاناة سابقة من نقص ما في دراسة شهيرة بعنوان «النقص العضوي»، «في ظل ظروف مواتية تخلق المعاناة من نقص معين في سن الطفولة ميلًا لتفوّق عظيم»[23]. لم يهتم أدلر بالجنسانية الطفلية على نحو حصري إذ كان مشغولًا بآليات الأنا والدوافع العدوانية. وإلى جانب عمله في التحليل النفسي وممارسته للطب بوصفه طبيبًا باطنيًا، كان أدلر ناشطًا اشتراكيًا خلافًا لفرويد الذي لم يهتم بالسياسة، وكان يتوق لتطوير العالم من خلال التعليم والعلاج النفسي[24].

(*) إبان الحرب العالمية الأولى، كان فرويد يحضر إلى اجتماعات «جمعية فيينا للتحليل النفسي» في عربة أجرة صغيرة، مرتديًا معطفًا مبطنًا بالفراء وطوق من الفراء وقبعة حريرية وبيده عصًا مقبضها من العاج.

لما بلغ فرويد من العظمة ما بلغه وجد أتباعه أنفسهم مرغمين على أن يكافحوا حتى يكونوا في مستوى أصالته، ولهذا رفضوا أحيانًا كل ما له قيمة في فرويد. عندما عيّن فرويد أدلر رئيسًا لجمعية فيينا، شعر بعدم ارتياح هذا الأخير لأن يكون تابعًا له. غير أن فرويد أمل أن «هذا التعيين (في رتبة رئيس) قد يحمّله مسؤولية الالتزام بالدفاع عن خلفيتنا المشتركة»[25]. وبحسب فرويد، عبّر أدلر عن عدم رضاه عندما قال «أتعتقد أنه يسعدني أن أكون تحت ظلك طوال حياتي؟»، ولم يتفاعل فرويد بشكل مناسب مع ما أسماه «السعي... لموطئ قدم في الشمس»[26]. يبدو أن طموح كثير من الناس الفكري غير شرعي بطريقة أو بأخرى. فرغم الاعتراف باختيار لفظ «الظل» بذل أدلر ومؤيدوه جهودًا مضنية لتفسيره بطريقة مغايرة تمامًا[27]. ولو تجاهلنا مساهمة هؤلاء الأشخاص في سبر أغوار علم النفس، ولو تجاهلنا ما آلت إليه الخلافات الفكرية المشحونة عاطفيًا لبدا المحللون الأوائل ميالين لتوكيد ذواتهم وللتهجم على غيرهم.

اعتزل فرويد تلاميذه في هذه الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. ولو أراد أحدهم التحدّث إليه شخصيًا فعليه أن يأخذ موعدًا للقائه في مكتبه أو ينتظره حتى يظهر في أماكن معينة في الطرق التي تعوّد أن يتجوّل فيها. ولما تعرّف تيودور رايك على عادات فرويد انتظره حتى يمر عندما أراد التحدث إليه. بدت حياة فرويد اليومية منظمة بشكل غير عادي ومزدحمة بالعمل. كان يلتقي مرضاه من الثامنة أو التاسعة صباحًا حتى تمام الواحدة ظهرًا موعد الغداء، وهو الوجبة الرئيسة لأهل فيينا. ومن الثانية حتى الثالثة بعد الظهر عادة ما يترجّل فرويد خارج منزله مصحوبًا بأحد أطفاله في نزهته لغرض صحيّ أو لقضاء بعض الأغراض مثل شراء السيجار. وخصصت الساعة من الثالثة إلى الرابعة بعد الظهر في بعض المناسبات من الأسبوع للاستشارات، وفي مناسبات أخرى كان فرويد يلتقي مرضاه طوال فترة الظهيرة ويتناول عشاءه متأخرًا في المساء، ومن ثم يترجل خارج المنزل في نزهة جديدة. كان لا يعرف التعب في هذه النزهات، حتى أن البعض يصفون تنزهه أشبه بالسير العسكري في انتظامه. وقبل أن يأوي إلى فراشه يراجع فرويد مراسلاته ووثائقه المكتوبة. وكثيرًا ما كان يتسلّى بلعب الورق مع أخت زوجته مينا.

مكّن هذا الانتظام المُحكم الذي طبع حياة فرويد من القيام بما يجب عليه فعله، إذ لم يتخلّف أبدًا عن موعده في مقابلة المرضى، ولكن لمّا حَدَّ كبر سنّه ومرضه من التنزه في الفضاء الخارجي، كان يتنقّل جيئة وذهابًا داخل مكتب العائلة بين حصص التحليل

النفسي، وكان جدول عمله الأسبوعي منظّمًا أيضًا. كانت كل أمسيّة ثلاثاء تُخصّص للقاءات مع بناي بريث فيما كان يقضّي أمسيّة الأربعاء مع الفريق العامل معه، وكان يُلقي محاضراته بالجامعة في أمسيات الثلاثاء والسّبت، وكان يزور صباح السبت والدته، وبالإضافة إلى ذلك، كان فرويد يذهب ليلة السبت، بعد إلقاء المحاضرة بالجامعة، إلى منزل صديق له يُدعى الدكتور كوينشتاين للعب الورق، وكانت لعبته المفضّلة، هذا وكانت إجازات فرويد هي الأخرى تامة التنظيم، فكان يريد أن يقضّي عمله بالكامل في مكتبه أو أن يخلد تمامًا إلى الراحة، وكان يُخصّص شهرًا على الأقلّ مع نهاية الصيف للرحلات (مفضّلًا الوجهة إلى إيطاليا أو اليونان) أو الإقامة بالجبال (التي كانت دائمًا ما تتخلّلها نزهات لجمع الفطر).

وفي فيينا، حظي فرويد بمنزلة كبيرة بين أوساط الطبقة الوسطى، وكان التحليل النفسي يستمدّ قيمته من قيمة فرويد، كان ينظر إلى تلامذته على أنهم مجرّد مقلّدين، ونادرًا ما تحدّث عن أيّ واحد منهم بتحمّس خاص. وربما كان تلامذته يتّبعون حياته اليومية بعناية فائقة ويفسّرون كتاباته وأقواله بتفان متناه، إلا أنه في حياته اليومية لم يكن كثير الاختلاط بالآخرين، ولم يكن أيّ أحد من تلامذته، وكلّ من أصغر منه سنًّا، صديقًا مقرّبًا له، ونادرًا ما يُسرُّ لأحد عما يدور في خلده. كتب هانز ساكس عن آخر لقاء لهما بلندن قبل وفاة فرويد بمدّة قصيرة: «ظلّ بعيدًا كما عهدتُه منذ أن لقيْته أوّل مرّة في البهو المؤدّي إلى قاعة الدرس [منذ ثلاثين سنة خلت]»[28].

كان فرويد في مكتبه يتصرّف على طبيعته ودون تكلّف، ولكنّه لا يتسامح مع أي شكل من أشكال المعارضة لأفكاره سواء كانت قولًا أو كتابة، وفي وقت لاحق كتب ماكس غراف (أب المريض المشهور «هانز الصغير») - متحدّثًا عن تلك اللقاءات التي تُعقد في ليالي الأربعاء - قائلًا بأنّ «ثمّة فضاء لنشأة دين ما في تلك القاعة... كان تلامذة فرويد أتباعه... وبرغم أنه كان طيّب القلب وحازمًا في حياته الخاصّة، فإنّ فرويد كان قاسيًا ولا يلين في عرضه لأفكاره». وتابع تلميذه السابق موضحًا بأنه هو نفسه كان «غير قادر وغير مستعد لتقبّل «أوامر» فرويد و«نواهيه» - هذا ما كنتُ أختلف فيه معه -ولم يبق لي سوى انسحابي من حلقته»[29].

أكّد فرويد وسط مجموعته على الولاء المطلق، واعترف جونز بأنّ «فرويد كان الرجل المناسب بكلّ ما يعرفه عن المشكلات المعقّدة المتعلّقة بالعقل، في الوقت الذي تُطرح

فيه مشكلة الحكم الواعي لاتّخاذ موقف سلبي أو إيجابي تجاه طباع الشخص، واستوجب ذلك قدرًا كبيرًا من الجهد لتعديله»[30]. وقبل خلافه مع أدلر وعلى الرغم من أنّ الأمر قد لا يكون واضحًا، بعد ذلك علم تلامذته يقينًا أنّك لو خالفت رأي فرويد، لطردك غير مبال.

فضّل فرويد ألّا يجادل، ولكن لمّا يشعر أنه في حرج فإنه يصبح على أهبة الاستعداد، وبرغم أنه حبّذ الجدّة والبراعة في طرح الآراء، فإنّه لم يتسامح مع أيّ أحد يأخذ أفكاره، كما صرّح قائلًا: «ليس لي شأن بأفكار الآخرين لمّا تُعرض لي في غير محلّها»[31]. لهذا كان فرويد يحفّز تلاميذه النجباء بشكل مستمر، وكان فضباء العلم وهذا مؤكّد كفيل بأن يلطّف تلك السّجالات. كان فرويد نبيلًا لذلك فهو يمقت النفاق المنمّق الذي يطبع قيم التمدن حيث يقول: «يُعدّ التأدّب الذي أمارسه كل يوم ضربًا من التصنّع إلى أبعد الحدود...»[32].

يمكن لفرويد أن يبغض أيضًا، «كان رجلًا طيّبًا، خيّرًا، وسمحًا، ولكنّه كان طيّبًا بلا لين وخيّرًا بلا سخاء وسمحًا بلا رحمة»[33]. يعكس نظام تفكير فرويد نزعته القتالية، حيث كان يستعمل لغة القتال وصور الحرب من قبيل الهجوم والدفاع والكفاح والمقاومة والعتاد والنصر والغزو والقتال. قد تكون ردّة فعل لاإرادية من جونز لمّا كتب: «لا أعتقد أنه كان يتّخذ المعارضة مأخذ المنتقم»[34]. سعى فرويد بمعنى ما صراحة إلى العدوانية التي يثيرها، ولمّا استشهد «بالقول المأثور بأنه علينا أن نتعلّم من أعدائنا»، اعترف قائلًا أنّ: «ما كان لنا أن ننجح في ذلك البتّة»[35]. فضّل اقتباس قول هين: «يجب على المرء أن يصفح عن أعدائه، ولكن ليس قبل تلقينهم درسًا»[36]. ولقد أقرّ أنّ أنواع المقاومة التي لقيها التحليل النفسي «لا يمكن تصديقها في نظر العلماء اليوم»، وتابع قائلًا «ولكن لم يكن لي قطّ أن ألقي باللائمة على معارضي التحليل النفسي لمجرّد أنهم معارضين، إلى جانب قلّة من الأفراد الفاقدين للجدارة، والمغامرين والانتهازيين الذين يصطفون دومًا مع طرفيّ النزاع زمن الحرب»[37].

لو كان فرويد منفتحًا، لما ظلت أفكاره حبيسة النبوغ الفكري، فبسبب قضيته تخلّى تمامًا عن تحديه الذي هزّ العالم. تحولت قضاياه الشخصية بسرعة إلى نقاشات نظريّة واعتبر الاختلافات الفكرية بمثابة إهانات شخصيّة، فلم يفعل تلامذة فرويد شيئًا سوى تأزيم الموقف. ولمّا دفعتهم حاجتهم إلى سلطة قويّة وإلى تحويل رغبات فرويد إلى قوانين، كان عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم لأن يكونوا أكثر أصالة من المعلّم، وأكثر فرويدية من فرويد نفسه.

2 - إرادة القوّة

في عام 1910، عندما عُيّن فرويد أدلر رئيسًا لجمعية فيينا، أصبح التحليل النفسي ينظّم بشكل رسمي على مستوى عالمي، وقد عُيّن فرويد يونغ، وهو سويسري الأصل وغير يهودي، رئيسًا على الجمعية العالمية للتحليل النفسي الجديدة. تؤكّد حركة التحليل النفسي حتى يومنا هذا أساسها العابر للثقافات، وحسب رأي فرويد، لم تؤمّن الهيكلة المؤسّساتية لحركته استمرارية عمله في المستقبل فحسب ولكن منحته أيضًا فرصة الاهتمام بشيء بما هو خارج ذاته ويمكن أن يكرّس فيه كل جهوده، وبعرض ما يشوبه من عبث على التحليل النفسي بشكل عام، أصبح هو شخصيًا أقلّ عرضة للخسارة أو الهجوم.

قدّم الهنغاري ساندور فرينشيزي اقتراحًا، في لقاء عقده أتباع فرويد بنورمبرغ (سمّي «اجتماع نورمبرغ») في شهر آذار/ مارس من عام 1910، بموافقة مبدئية مطلقة من فرويد، يقضي بضرورة دعم الجمعية العالمية للمحلّلين النفسيين بجمعيات فرعية في مختلف البلدان، وقد عُيّن فرينشيزي، نزولًا عند رغبة فرويد مرة أخرى، رئيسًا على الهيكل الجديد ليصبح بمقتضى ذلك مركز الحركة ليس في فيينا بعد الآن وإنما في زيوريخ، وبلّغ فرينشيزي في خطابه مشاعر الرضا التي أبداها فرويد تجاه قيمة مجموعته في فيينا، واقترح أن تتطلّب المقالات والخطابات في المستقبل موافقة رئيس الجمعية العالمية.

أبدى المحلّلون النفسيون في فيينا عدم رضاهم على التغيّرات المقترحة إذ شعر أدلر والبقية بالاحتقار بسبب انحياز فرويد للسويسريين. كما اعتبر ساكس في ما بعد أنّ «المنافسة على نيل استحسان فرويد وموافقته كانت المصدر الأساسي للمشاحنات»[1]. وقد عبّر أدلر عن خشيته من أن تُخفي مقترحات فرينشيزي «رقابة وقيودًا على الحريّة العلمية»[2]. ودعا المحلّلون النفسيون في فيينا إلى عقد لقاء احتجاجي في غرفة فيلهالم ستيكل في النزل وذهب فرويد نفسه إلى هناك، وفرض بكلّ حزم على الجميع إعلان ولائهم، وركّز على العدائية المقيتة التي أحاطت بهم والحاجة إلى الدعم من الخارج للتصدّي لها، وبعدها صرّح قائلًا وهو يرمي معطفه: «يريد أعدائي أن يروني أعوزًا، إنّهم يريدون أن يخلعوا معطفي عن ظهري»[3](*).

(*) وفي رواية أخرى، قال فرويد: «إنهم يحسدونني على المعطف الذي أرتديه، لا أعلم إن كان بإمكاني مستقبلًا أن أكسب قوت يومي». وكانت الدموع تنهمر على وجنتيه[4].

لقد كان على فرويد أن يتصالح مع أتباعه بفيينا. وفي هذا الاتجاه وُضعت خطّة لإصدار مجلّة شهرية (المجلّة المركزية للتحليل النفسي) تولى أدلر وستيكل فيها دور المحرّرين وفرويد دور «المدير»، وكما وصفها فرويد لاحقًا «إن القصد من إصدارها المعارضة أساسًا من أجل استعادة هيمنة فيينا التي باتت مهددة على إثر انتخاب يونغ»[5]. كان يونغ أصلًا محرّر الحولية، المجلّة الأولى المخصّصة حصريًا للتحليل النفسي. وقد انسحب من رئاسة جمعية فيينا لتعزيز كفّة موازين القوى لصالح السويسريين، إلا أنه احتفظ بمنصب «رئيس اللجان العلمية» ولكن كان على الجمعية أن تختار موظّفيها وأن يكون لها كيان أكثر استقلالية، وتبعًا لذلك، لم يعد أعضاؤها ضيوف فرويد ولم تعد تنظّم اللقاءات في قاعة الانتظار التابعة لمكتبه. لقد انتُخب أدلر رئيسًا وستيكل نائبًا للرئيس، وقد توسّم فرويد خيرًا في هذه التركيبة الجديدة عسى أن تُجبر خواطر الفيينّيين.

لم تجعل رئاسة جمعية فيينا من أدلر أكثر انقيادية بل كانت فرصة، بدل ذلك، لتأكيد مساعيه لتحقيق الاستقلالية، ومثله مثل بقية الفيينّيين، كان أدلر يعتقد أن فرويد أخطأ في تعظيم يونغ، كما زعم فرويد بأنّ «اللعنة التي حلّت بالتحليل النفسي أدّت بمؤيّديه إلى التجمّع في ظلّ منظّمة عالميّة»، وحسب طريقة أدلر في التفكير فقد بالغ فرويد في تقدير «المخاطر» التي واجهها التحليل النفسي، وذلك بسبب شعور بالنقص هو في غنى عنه[6].

كانت الخلافات بين فرويد وأدلر نظرية وشخصية. اعتقد فرويد أنّ أدلر كان كثير الاهتمام بعلم نفس المظهر وبمفهوم الأنا، واعتبر فرويد أنّ هذا «المجال بعيد كل البعد عن التحليل النفسي»، وبدا له استعادة لطرائق التفكير القديمة، وأضاف قائلًا: «لن يفي أدلر المعطيات المتعلّقة بالتحليل النفسي حقها لأنّ اهتمامه منصب على الأنا والسيرورات الواعية، فيما يتناول التحليل النفسي تلك الموضوعات من زاوية اللاوعي والليبيدو باعتبارهما أصل العُصاب». أمّا بالنسبة لوجهة نظر أدلر، فقد مثّلت مفاهيمه امتدادًا لمجال علم نفس الأعماق، ويزعم أن «الشعور بالنقص ليس وعيًا لما هو عُصابي ولكنّه فعّال بدرجة ما...»[7].

قرّر فرويد في بداية عام 1911 أن يرفع بخلافاته مع أدلر إلى مستوى أرقى حيث عرض أدلر مقالين إلى الجمعية، الأوّل في الرابع من كانون الثاني/ يناير والثاني في الأوّل من فبراير، مقدّمًا فيهما آراءه، وردّ فرويد على ذلك بمقال في الأوّل من شباط/ فبراير والثاني

في الثاني والعشرين من الشهر ذاته. «كان فرويد قاسيًا في نقده»[8]. ولا يعدو أن يكون تصوّر فرويد للمنهج العلمي سوى تصوّر بدائي مقارنة بما هو عليه الحال في أيامنا هذه. وُجدت «الحقائق» وكانت قابلة للإثبات، يمكن تمييزها عن «التأويلات» الخاضعة لرأي شخصي، ويعتقد فرويد بأنه اكتشف في التحليل النفسي مجموعة من الحقائق الجديدة، وأنّ هذه الملاحظات كانت تشكّل زمرة من المعارف. وفي الاتجاه المقابل كان أدلر يهدّد برفض هذه الاستنتاجات وتعويضها بـ«تأمّلات» جديدة، واعتبر فرويد «أنّ التركيز على الآراء الشخصيّة الاعتباطيّة في القضايا العلمية سيئ»، «ومن الواضح أنها محاولة لانتقاص حق التحليل النفسي في أن يكون علمًا...»[9]. وفي هذا الصدد عبّر أحد أتباع فرويد آنذاك عن فهمه الخاص للعلم قائلًا: «العالم في مجال الطبيعة دغمائي، فهو يضع المبدأ ثم يعلن: هكذا يكون المبدأ»[10].

ليس الخلاف القائم بين فرويد وأدلر، على ما يبدو، مجرد خلاف علمي. فقد كان فرويد يوجه الاتّهامات جزافًا ضدّ أدلر على الملأ، وأثارت هذه اللقاءات نوعًا من الحساسية في أوساط النخب الأكاديمية في فيينا التي رغم طابعها المحلي تميّزت بانفتاحها على الثقافة الكونية، مثلها مثل بقية مراكز الحياة الفكرية الأخرى. اعتبر نقد فرويد لأدلر على الملأ بمثابة محاكمة بتهمة الهرطقة. (رغم أنّ ريتشارد فاغنر صوّت مع فرويد وبول كلامبر لصالح أدلر، فإنّ كل منهما اتّفق على أنّ اللقاءات كانت «محاكمة» غير أنهما اختلفا في آرائهما حول طبيعة هجوم فرويد)[11]. كما تذكّر ساكس الذي صوّت لصالح فرويد أنّ فرويد «لم يرحم خصمه ولم يكن يخشى استعمال كلمات مؤلمة وملاحظات جارحة...»[12]. لقد تمعّن فرويد في آراء أدلر مركّزًا على تلك المفاهيم التي ادّعى أدلر أنه مبتكرها، وقد اعتبر فرويد أنّ ما بدا منها مستحدثًا تافه وما تبقى مأخوذ عن فرويد دون اعتراف بذلك[13].

كانت العقوبة تشبه الحرمان الكنسي، فقد أعلن فرويد رفضه لأدلر والمتعاطفين معه، وكما شهد على ذلك غراف «طرد فرويد ـ باعتباره رئيس الكنيسة ـ أدلر، وأبعده من الكنيسة الرسمية، وفي غضون سنوات قليلة، عايشتُ التطوّر الكامل الذي عرفه تاريخ الكنيسة»[14]. ما مجيء فرويد إلا ليثمّن اكتشافاته أكثر من صداقاته الفرديّة، وبالإضافة إلى ذلك، كان فرويد شديد الحرص في ما يتعلق بتصوّراته، واعتبر عمل أدلر خيانة وانزياحًا عن الحقيقة التي لا غبار عليها، كما كان متهيّجًا في نهاية لقاءاته. إنّ فرويد هو المسؤول عن هذا الانقسام لا أتباعه. وتحيّزًا لغضب فرويد، اندفع الحارس الملكي لطرد الخونة، فهؤلاء

ليسوا فقط مجرّد معجبين بفرويد بل اعتقدوا أنّ علم النفس هذا هو علم نفس المستقبل.

لم يجمع أدلر حوله في الأخير العديد من الأتباع الحقيقيين ولكن مع نهاية المعركة، انقسمت الجمعية تقريبًا إلى شطريْن، فاستقال كل من أدلر من رئاسة الجمعية ونائبه ستيكل بعد أيّام قليلة من لقاء الثاني والعشرين من شباط/ فبراير الذي عرض فيه فرويد ملاحظاته، هذا وظلّ أدلر عضوًا بالجمعية حتى شهر أيار/ مايو عندما طالب فرويد باستقالته كمحّرر ثان للمجلّة المركزية للتحليل النفسي، وعندما غادر أدلر الجمعيّة ليُؤسّس جمعيّته الخاصّة، استطاع جلب ثلاثة أعضاء معه، وأطلق على الجمعيّة اسم جمعية التحليل النفسي الحر، وانتقدها فرويد بسخريّة لاذعة، حيث اعتبر «اسمها رنّانًا»، ولكن أكّد جونز بتصلُّب بعد سنوات أنّ فرويد كان يقصد عكس ذلك أي «لا معنى له»[15]. وربما كان أدلر نفسه قد شعر بذلك أيضًا، لأنه سرعان ما أطلق على جمعيته اسم «جمعية علم النفس الفردي».

سرعان ما أثيرت مسألة ما إذا كان يمكن لأي عضو من جمعيّة فرويد حضور لقاءات أدلر (تُعقد في أمسيات الخميس) واستمر الحال كذلك ردهًا من الزمن، وعلى عكس موقف أدلر، أصرّ فرويد على أن يختار كل عضو أحد الفريقين، وقد حُسمت المشكلة في النهاية تحت سقف جمعية فيينا للتحليل النفسي في خريف عام 1911 عبر التصويت بنتيجة أحد عشر صوتًا مقابل خمسة، كان واضحًا تحفّظ خمسة أعضاء عن التصويت على خيار اختيار أحد الفريقين لا كليهما، وبما أنّ أعضاء الجمعية اتخذوا مواقفهم تحت ضغط من فرويد، استقال ستّة أعضاء آخرين بشكل أو بآخر من جمعيته، وحسب ما جاء على لسان ساكس المخلص لفرويد، متحدثًا عن أولئك الذين انسحبوا:

> **«لم تتوافق الأغلبيّة مع آراء أدلر، فقد تأثّر قرارهم باعتقادهم أنّ العمليّة ككلّ خرقت «حريّة العلم»». قد يكون النقد الشديد واللاذع جرح ذوي المشاعر المرهفة وجعلهم يعتقدون أنّ تذمّر أدلر من المعاملة القاسية له ما يبرّره[16].**

بعد أن استقال أدلر من رئاسة الجمعية بفترة قصيرة، وقبل أن يغادر الجمعية، بعث فرويد لتلميذ له في سويسرا رسالة يروي له فيها قصّة الخلاف الذي حصل بينهما جاء فيها: «لقد انحرفت نظريات أدلر بعيدًا عن المسار الصحيح، وقد حان الوقت لاتّخاذ موقف منها... لقد خلق لنفسه نظامًا عالميًّا خاصًا به يخلو من مشاعر الحب، وأنا أحمّله تبعات غضب إله الليبيدو ونقمته»[17]. وقد فسّر فرويد لكارل أبراهام أنّ أدلر قد ضلّ لأنه «أنكر أهميّة الليبيدو، وعزى كل شيء إلى النزعة العدوانية»، ونتيجة للنقاشات المتعلّقة بآراء

أدلر، أشار فرويد إلى أنه ازداد «حدّةً، ويتخفّى وراء تفكيره المجرّد قدر كبير من الالتباس، فهو يتظاهر بمعارضة تجاوزت الحدود ويُظهر بعض السمات الدّالة على الشخصية الميّالة للشكّ»، ولمّا تمّت كل الاستقالات، شعر فرويد بالارتياح: «لقد أنتهيتُ من تطهير الجمعية وقمتُ بإرسال سبعة من أتباع أدلر لفرض الضغط والتعبئة، فالتراجع في العدد لا قيمة له من الناحية الكميّة إذ سيكون العمل أكثر سهولة...». أحسّ فرويد أنه قد «أجبر عصابة أدلر كلّها» على الاستقالة. ومع بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1910، كتب فرويد رسالة إلى يونغ معربًا فيها عن أمله في التخلّص من أدلر[18].

قطعت تلك المخاصمة صداقاتهما التي امتدت لزمن طويل، فلم يعد بين زوجتيْهما أيّ اتصال، وكره الزوجيْن الجلوس جنبًا إلى جنب في حفلات العشاء[19]، وعلى الرغم من أنّ بعض الأبناء استطاعوا أن يتغلّبوا على العاصفة وأن يظلّوا أصدقاء، فإنّ التحليل النفسي لم يكن له أن يعود مجدّدًا كما كان. كان فرويد رصينًا ولبقًا، ولكن طالما كانت نظرته الخاطفة وسلوكه المتسرّع والمندفع علامة على ما يكنّ بداخله من طاقات، وحسب رأي فريق قد أعجب بكلّ كلمة ينطق بها فرويد وله أفكار رائعة في ما يخصّ نوايا المعلّم، كان من المذهل أن يشهدوا مثل هذه الإرادة الحديدية. كتب فرويد بعد عقد من الزمن: «قد أغرت الجماعة كلمات ذات سحر يسلب العقول حقًا...».

> **«الجماعة زمرة طائعة لا يمكن لها أن تعيش دون سيّد يحكمها، متعطّشة لمثل هذه الطاعة وهي مهيّأة غريزيًا لأن تطيع أيّ شخص يعيّن نفسه سيّدًا عليها، وبهذا الشكل تُضمّن حاجيات الجماعة في إطار الاتّفاق مع القائد، ومع ذلك لا بدّ أن يتناغم القائد مع جماعته لما يتمتع به من خصال يتفرّد بها، ويجب أن يكون محلّ إعجاب لما له من إيمان قويّ (ضمن تصوّر معين) لكي يوقظ إيمان الجماعة ككلّ، كما يجب عليه أن يملك إرادة قويّة وفارضة يمكن للجماعة التي لا تملك ناصيتها بيدها القبول بها»[20].**

رغم طبيعة الصراع الذميمة، خاصّة بعد عقد ناجح، ثمة ما يبرّر قلق فرويد من أن يضيع مصدر استنتاجاته الأصيلة في خضمّ الميول التي أبداها أدلر. فقد انتهى فرويد إلى أنّ الجنسانية تتطوّر في مراحل منفصلة، ولا تبدأ مع بلوغ سنّ الرشد، حيث يكمن اكتشافه الرئيس في الإشارة إلى استمرار بقايا من المميّزات الطفولية في حياة الكهل، ومن وجهة نظر فرويد، كان اهتمام أدلر بسيرورات الأنا يُهدّد كل شيء انكبّ عليه فرويد. كما قال إريك إريكسون في دفاعه عن فرويد، «لا بدّ أن يُقيم دعائم شيء واحد في ذلك الوقت

وتمثل إسهامه العظيم في السيكولوجية الجنسانية، وإنّها لميزة رجل عظيم أن ينظر بكلّ غيرة إلى ما وصل إليه مجال اهتمامه من اتّساع، أثبت أنّ مبادئ معيّنة لا تتهاوى قبل أن تأتي أخرى وتحلّ محلّها»[21]، ويمكن القول أنّ أدلر قد غيّر مدار اهتمام جمعيّة فيينا بعيدًا عمّا كان يُعتبر الميزة الأبرز في عمل فرويد. لا شكّ أنّ هذه الأفكار التي طبعت منجز فرويد ستكون يومًا محلّ قبول بشكل واسع، هذا وقد تدفع مفاهيم أدلر في وقت لاحق بإصلاح ما منه بُدّ، وكان التحليل النفسي مقتصرًا على مثل هذه الجماعة التي خشي عليها فرويد أن تتفكك قبل أن يضع بصمته.

وفي ظلّ هذه الأوضاع، يبدو أن أيّ مرتدّ يمكن له أن يهدّد الحركة برمّتها، ليس في جمعيّة فيينا فحسب إذ كان من الصعب على فرويد أن يغفر «الخروقات»، ليس لأسباب شخصيّة فقط ولكن لأنه شعر كذلك أنّ المنظّمة التي تزعّمها لم تحقّق بعدُ نجاحًا كبيرًا لتتقبّل مثل هذا الزخم من المواقف، ولمّا تأسّس التحليل النفسي بضمّ الآلاف من المحلّلين الممارسين والتأثير في عدد لا حصر له من الناس، اتّسعت دائرة الخلاف حتى تجاوزت الحدّ، فحارب فرويد بشراسة كل المرتدّين أكثر من غيرهم من عامّة الناس خشية أن يلتبس التحليل النفسي وما يتضمّنه من قضايا كمنهج بالمناهج والنظريات الأخرى، ولا نشكّ في أنّ «فرويد وضع كل جهده وقوّته في الرد على أدلر ويونغ»[22].

لم يكن فرويد مكتشف علم النفس فحسب بل كان كذلك المعلّم العظيم لأدلر. ولا أحد يعلم أكثر من فرويد ما يعنيه بالنسبة لأتباعه غير المخلصين، واستيائه الشديد مما لحق بأدلر من سوء سمعة نتيجة الصراع معه، وبناء على ذلك، استشاط فرويد غضبًا من عزم أدلر على تحدّي تصوّراته، لقد ماهى بينه وبين التحليل النفسي مماهاة تامة، وفي عام 1914، عندما «استشاط غضبًا»[23]، كتب عن المشاكل التي وقعت بينه وبين أدلر (ثم عن صراعه مع يونغ)، في كتاب بعنوان: مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي. إنه لمن السابق لأوانه، رغم التنبّؤ به، أن يعتقد المرء آنذاك أنّ مثل ذلك التجمّع الصغير من الناس قد أسّس «حركة» صنعت «تاريخًا»، ولكن فرويد كان واثقًا جدًّا بمآلها في المستقبل، وفي ذلك كتب: «إنّ الرجال أقوياء طالما يُبدعون فكرة عظيمة بيد أنهم يُصبحون ضعفاء لمّا يعارضونها»[24]. فسّر فرويد في هذا المقال كيف أصبح غريبًا شيئًا فشيئًا عن جماعته بفيينا:

«كان هناك ظرفان نذيرا شؤم جعلاني غريبًا عن جماعتي من الداخل، حيث أنّني لم أفلح في تثبيت علاقات الودّ بين أعضائها التي يجب أن تسود بين الرجال المنكبّين

جميعهم على نفس العمل الصعب، ولم يكن بإمكاني كذلك أن أفكّ النزاعات حول أولوية عمل مفتوح على إمكانات عديدة لا تتوفر إلا في ظروف العمل المشترك»[25].

ركّز فرويد أساسًا على مسألة واحدة فقط، وهي تجنّب الخلط بين عمل أدلر والتحليل النفسي:

«لا أهتمّ بالحقيقة التي قد تجدها في النظريات التي رفضتُها، ولا أنوي محاولة لدحضها... إنما أريد فقط أن أبيّن أنّ هذه النظريات تناقض المبادئ الجوهريّة للتحليل... ولهذا السبب لا يمكن أن تعرف باسم التحليل»[26].

لم يكن هذا مجرّد نوع من التملّك، لأنه لو لم تكن مفاهيم فرويد أصيلة، لما ظلت مختلفة عن أيّ أفكار بديلة.

ذات مرّة، بينما كان فرويد في خضم خصومة علنية، تحمّل كامل المسؤولية عن منجزه: «أنا من أنشأ التحليل النفسي، ولمدّة عشر سنوات، كنتُ الشخص الوحيد الذي شغل نفسه به، وإلى يومنا هذا، لا أحد يمكنه أن يعرف أكثر منّي ما يعنيه التحليل النفسي...»[27]، وحتى في هذا ظل الجدل، يعلن فرويد عن موقف متسامح في بعض الأحيان: «ثمّة مجال كاف على الأرض وأيّ شخص يمكن أن يكون له الطريق الأمثل لكي يسعى فيها دون أن تعترض سبيله عوائق، وإنّ الأمر غير محبّذ لهؤلاء الذين امتنعوا عن فهم بعضهم بعضًا وازدادوا تنافرًا في ما بينهم وهو ما يحول دون البقاء تحت سقف واحد»[28]. لم يكن ممكنًا بالنسبة لفرويد محو صورة العائلة بسهولة، وكان يعتقد أنّ ابتكارات أدلر «يُراد منها إثبات أنّ التحليل النفسي خاطئ من جميع النواحي....»[29].

مهما كانت التبريرات في شأن ما كتبه فرويد علنًا، ظلّ فرويد في ذاته قاسيًا، من ذلك عبارته «لقد جعلتُ من القزم شيئًا عظيمًا» إحدى التعليقات التي وُجّهت لنا[30]. صرّح فرويد بأنّ لو أندرياس سالومي أرسلت له «تبادلًا للرسائل مع أدلر يُبيّن ما تتّسم به من بصيرة ووضوح في خفّة متناهية، وأبدت موقفًا ممّا بدا من أدلر من ضغينة وخساسة»[31]. وظهرت الروح الانتقامية لأدلر إلى درجة أنّ فرويد اعتبره «شخصًا بغيضًا»[32].

اتّخذ جونز موقفًا تصعيديًا من صراع فرويد مع أدلر. «سمعنا أنّ شخصًا يُدعى كذا وكذا غادر فرويد وفريقه لا ببساطة لسبب اختلاف في الرأي، ولكن لسبب شخصيّة فرويد الجائرة وإصراره الدغمائي على أن يقبل كل فرد من أتباعه نفس الآراء التي يتبنّاها تمامًا».

اعتبر جونز مثل هذا الخطاب «مجانبًا للصحّة بشكل ساخر»، وما يُعاب على أدلر هو أنه «كان يثير الضوضاء ليكون الصبّي المفضّل» الشيء الذي يعتبره جونز أنّ له دافعًا ماديًّا. كان أدلر من الأشخاص الذين «يدفعهم الأمر للإبقاء على ما عندهم من الاندفاع الصبياني والبحث عن أشخاص ليثور ضدّهم». كان أدلر تمامًا كما تصوَّره فرويد، حيث أنه كان «على ما يبدو طموحًا جدًّا غير أنه دائمًا ما يتشاجر مع الآخرين حول الأولويات التي يتضمّنها طرح أفكاره»[33]. قال جونز، محاولًا هزم أدلر، إنّ لفظ «عقدة النقص»، الذي كثيرًا ما أكّد عليه أدلر حتى يذيع صيته، «اقتُبس دون إذن مارسينوسكي...»[34]، وكان هذا اللفظ، حسب اعتقاد جونز، جزءًا من الجانب الأنثوي لفرويد مما جعله يُغالي في تقدير الرجال مثل أدلر.

كان ساكس ـ من تلامذة فرويد الملتزمين ـ الذي شهد صراع أدلر في فيينا (عندما كان جونز في تورنتو)، أفضل المتخصّصين في علم النفس. «لم يشطب فرويد في كتاباته خطأً، كان يحذف كل شيء ويبدأ الكتابة من جديد... وكان دائمًا ما يكره ترقيع الأمور سواء في فضاء الفكر أو الشعور». وفي حديثه عن الصراع مع أدلر، جاء على لسان ساكس قوله إن أدلر «كان في تنفيذ واجبه لا يكلّ ولا يملّ ولا يلين، كان عنيدًا وصلبًا كالحديد، وقد يدفعه بغضه إلى حد الانتقام». ومع ذلك، تحدّث ساكس أيضًا عن سنواته التي قضّاها مع فرويد قائلًا: «لم أسمعه قطّ يرفع صوته في غضب أو إثارة»[35].

إنّ الرجل الذي اعتقد أنه وُجب عليه أن «يُعمي» ذاته «صوريًّا لكي يسلّط الضوء بالكامل على جانب عاتم واحد...»[36]، والذي يوصي تلامذته ألّا يسرفوا في طاقاتهم الخلّاقة، اتّهم في نفس الوقت أدلر بالتعصب الفكري. أقرّ فرويد أنّ عمل أدلر كان تبسيطًا مخلًا وضربًا من الاختزال، فالمفاهيم الثانوية في التحليل النفسي، مثل الإفراط في تعويض الشعور بالنقص، دفع بها إلى مركز الاهتمام. وكانت أفكار أدلر بمثابة «تفسيرات مُبالغ فيها وتحريف للحقائق الخلافية المرتبطة بالتحليل...»، كما أظهر أدلر «أكثر الانطلاقات خطورة من مستوى الملاحظة العينية وكذلك التباسًا جوهريًّا في مفاهيمه».

> **يُختزل كل شيء في عمل الاحتجاج الذكوري وإثبات الذات وتضخيم الأنا، فالنظام كامل حيث يستوجب إنتاجه قدرًا كبيرًا من الاجتهاد لإعادة طرح التفسيرات في حين أنّ ذلك لا ينتج اكتشافًا جديدًا. وتنشأ رؤية الحياة الموجودة في نظام أدلر حصريًّا على مستوى الوازع العدائي حيث لا مجال فيه للحب[37].**

كتب فرويد لاحقًا «على مستوى القضايا العلمية، يولع الناس ولعًا شديدًا باختيار جزء واحد من الحقيقة آخذين هذا الجزء مكان الكلّ، وبعدها مناقشة ما تبقّى وهو ليس أقلّ أهميّة في إثبات الحقيقة، وكلّ ذلك لصالح هذا الجزء»[38].

كان أساس اتّهام فرويد لأدلر هو تأكيده على عدم ارتباط الجانب الجنسي بالتحليل النفسي، إلى درجة أنه يركّز على مفاهيم من قبيل الأنا أو إرادة القوّة، وعلى صعيد آخر، كان التحليل النفسي أكثر اهتمامًا لبيان أنّ «كلّ مسار مرتكز على الأنا يتضمّن عناصر مرتبطة بالليبيدو بيد أنّ نظرية أدلر تؤكّد عكس ذلك ألا وهو عنصر الأنا الموجود في الاندفاعات الغريزية الجنسية»[39]. وحسب رأي أدلر، ليس الليبيدو مكمن العُصاب، ويمكن للسلوك الجنسي كذلك أن تكون له معانٍ رمزيّة، وفي تلخيصه لمقاربة أدلر، قال فرويد: «تُعدّ الحياة الجنسية ببساطة إحدى الفضاءات التي يبحث فيها البشر عن ترجمة حاجتهم الدافعة لكسب القوّة والسيطرة إلى عمل فعلي»[40].

في نفس الوقت، وحسب رأي فرويد، كان لأدلر العوامل الجنسية غير الضرورية، على سبيل المثال لتفسير الأحلام والأعراض من ناحية ثنائي الجنس، «باعتبار ذلك كونه ملتقى مسارَيْن يُعتبران مسارًا ذكوريًّا وأنثويًّا في آن»[41]. اعتقد أدلر أنّ كل فرد يحاول أن يتخلّص من الأعراض الأنثوية للنمو ويُصارع باتّجاه «المسارات» الذكورية. وعلى عكس ذلك، يعتبر أدلر أنّ هذا هو جزء من النزعة البشرية للعيش بالأهداف التي لا يعيها البشر، وكما لخّص هنري ألنبيرغر مؤخّرًا موقف أدلر، «تتوقّف مؤسّساتنا العموميّة والخاصّة على الحكم المسبق بعلويّة الذات الذكوريّة»[42]. واعترض فرويد على استنتاج أدلر كما يلي: «إنّ (كلّ حلم يُظهر تقدّمًا من المسار الأنثويّ إلى المسار الذكوري) يبدو لي الذهاب بعيدًا وراء أيّ شيء يمكن أن يُحتفظ به لتفسير الأحلام»[43]، وعلاوة على ذلك، أكّد أدلر ضرورة الآليّة التي بها يؤدّي الخوف من الأنوثة إلى سلك تعويضي وهو ما يسمّيه «الاحتجاج الذكوري». اعتقد فرويد أنّ ما تقدّم مثّل صيغة ذات طابع جنسي لمفهوم الكبت الخاصّ بفرويد:

> **لا يجب أن نسيء فهم لفظ «الاحتجاج الذكوري» بالذهاب إلى الاعتقاد بأنّ ما ينكره الرجل هو موقفه السلبي... يظهر مثل هؤلاء الرجال موقفًا يعكس تلذّذًا بالألم – وهي حالة من الاستعباد – تجاه النساء، ما يستبعدونه هو السلبيّة بشكل عام، ولكن سلبيّة إزاء الذكر، وبعبارة أخرى، لا يعتبر «الاحتجاج الذكوري» في واقع الأمر شيئًا مخالفًا لما يُعرف بقلق الخصاء[44].**

3 - الأولويات

تواتر موضوع الانتحال في الصراع الذي دار بين فرويد وأدلر، إذ كان أصل العمل لفرويد وأخذ أدلر جزءًا منه. أصرّ فرويد بالقول على أنّ أدلر قد اقترح «تغييرًا على مستوى اللغة الاصطلاحية التي من خلالها نفتقر للوضوح»[1]، ولكن أحسّ أنّ وراء هذه الأسماء الجديدة تكمن استنتاجاته، فعلى سبيل المثال، كان تأكيد أدلر على الإيجابيات السيكولوجية في حالة المرض حقيقةً من التصوّرات الخاصّة بفرويد:

«على التحليل النفسي أن يقدّم العون لهذا المكوّن من مكوّنات نظريّة أدلر كما لو كان يقدّم عونًا لنفسه، وما ذلك في حقيقة الأمر سوى معرفة تتعلّق بالتحليل النفسي، تلك المعرفة التي يستنبطها الكاتب من المصادر المفتوحة أمام كل شخص خلال عشر سنوات من العمل المشترك، والتي يطلق عليها اسم كما لو كانت من خاصّته من خلال تغيير على مستوى اللغة الاصطلاحية»[2].

بما أنّ أدلر قد أرجع فكرة عقدة النقص لمشاعر متعلّقة بالطفل، أكّد فرويد أنه قد ابتكر «قناعًا يظهر تحته عامل الطفوليّة من جديد...»، لاحظ فرويد بتهكّم أنه «يجب على أدلر أن يلتزم بالأولوية في خلطه بين الأحلام وأفكار الأحلام الخفيّة...» يكون أيّ شخص قد تجاهل عوامل المقاومة والتحويل في العلاج عرضة لـ«سوء إحالة الملكية الفكرية لصاحبها عن طريق انتحال مقصود، إذا ما أصرّ على تسميّة نفسه محلّلًا نفسيًّا»[3]. أحال فرويد بشكل متواتر وبمعيّة تلامذته هذه الاتّهامات ضدّ التلاميذ المرتدّين، وغالبًا ما شبّه فرويد تلامذته «بالكلاب الذين يلتقطون عظمًا من الطاولة وينزوون به في ركن من الأركان ليمضغوه، ولكنّه عظمي!»[4].

سواء كان فرويد على صواب أم لا في قوله أنّ أدلر تملّكه «تعطّش لا يُحتمل للأولوية»[5]، فإن أدلر أخطأ في التمييز بين فرويد كرجل يمكن أن يخطئ أو يصيب لطبيعة بشريّته وبين التحليل النفسي باعتباره مجال معرفة، وعندما جاءت لو أندرياس سالومي إلى فيينا، التقت بكلّ من فرويد وأدلر. (أبدى فرويد موافقته للسماح لها لحضور لقاءات الجمعيّتين). تبيّن رسالة بعث بها إلى لو، عِلْم أدلر ببعض ما حدث:

«أوافق تقديرك للأهميّة العلمية التي يحظى بها فرويد إلى درجة أنّني أزداد موافقة مع ما يُبديه من مواقف، إنّ النموذج الذي توخّاه في البحث مهمّ ومفيد... ولكن بالإضافة إلى ذلك، تتّخذ مدرسة فرويد من الاصطلاحية الجنسية أساس المشكل،

من الممكن أنّ فرويد الرجل قد اتّخذ منّي موقفًا نقديًا، لا يمكنني تحمّل ذلك»[6].

شعر تلامذة فرويد أنهم قد سمحوا لأنفسهم أن ينجذبوا إلى طريقته في التفكير، وقاموا بردود أفعال غاضبة، ولكن أدلر عايش مشكلته مع فرويد بالتمرّد ثمّ بالهجر.

توافق أدلر كليًّا مع اهتمام فرويد بالأولويات، وأشارت لو أندرياس سالومي إلى أنّ أدلر ادّعى أنه اكتشف «التضارب» قبل بلولر[7]، وفي رسالة لها، كان أدلر صريحًا في الضيم الذي شعر به تجاه فرويد:

«إنّ موقفي من الاحترام الذي أكنّه لمدرسة فرويد لم يعد وللأسف يأخذ في عين الاعتبار حججها العلميّة، فما رأت عيني ولا أعين أصدقائي أيضًا مثل هذا الخطف والسرقة والخدع المدروسة... فلِماذا تحاول تلك المدرسة معاملة آرائنا كملكيّة عامّة بينما نؤكّد دائمًا على الأخطاء التي تميّز مواقفهم... قد تكون مواقفي خاطئة! ولكن هل هذا سبب كاف لانتحالها هي الأخرى؟»[8].

ادّعى بعض الزملاء أنّ أدلر، عندما كان لا يزال عضوًا في جمعية فرويد، لم يحظ بالاعتراف الذي كان يستحقّه، في حين أكد آخرون أنه كان فقط يستعيد آراء فرويد الخاصة بطريقة مغايرة دون أن يعترف بذلك صراحة لفرويد[9].

ليست مشكلة اقتباس الأفكار من مصادرها الأصلية قضية جديدة في حياة فرويد أو في حلقته، فعلى سبيل المثال، يستخدم فرويد مصطلح «الليبيدو» في نظريته في الغريزة «لوصف المظاهر الحيوية للجنسانية». ووفقًا لفرويد، كما جاء في بعض الكتابات في عام 1922، «لقد استخدم الليبيدو بالفعل من قِبل مول (1899) واعتمد في التحليل النفسي» من قِبل فرويد نفسه[10]. ويبدو أن فرويد يعي جيّدًا ما يقول هنا لأنه ذكر مصطلح «الليبيدو» في رسالة إلى فليس عام 1894، وفي مقال له في العام التالي. ألبرت مول، وهو طبيب برليني، نَشر كتابًا آخر بعنوان حياة الطفل الجنسية، في عام 1908، ولكنه كان قد شرع قبل ظهور الكتاب في الإعداد لبعث مجلة جديدة، وأقنع فرويد للمساهمة فيها ببعض المقالات. وتحمّس فرويد بحرص شديد لنشر مقال بعنوان «حول النظريات الجنسية للأطفال» حتى يسبق الصدور الوشيك لكتاب مول الجديد. الذي توقع له فرويد انتشارًا واسعًا[11].

وعندما صدر كتاب مول، أقامت جمعية فيينا أمسية لمناقشته. هاجم أتباع فرويد الكتاب

بضراوة لأنه يُوجِّه انتقادات أساسية عديدة لنظرية التحليل النفسي. ولقد كانت الكثير من تحفظات مول على فرويد متوازنة ووجيهة، ولكن مراعاته لمكانة فرويد في هذا المجال، على الرغم من رفضه العديد من استنتاجاته، بدت مُملة. وبدلًا من محاولة الاستفادة من كتاب مول أو مناقشة تلك الشذرات الصغيرة المأخوذة عن فرويد، أهدرت الجمعية الكثير من الوقت في قضية المنافسة العلمية، من ذلك مثلًا أن أحد المحللين اتهم مول «بالتدخل في شأن فرويد الشخصي وما كان لشخص غيره أن يحقق شيئًا في هذا المجال». واعتبر آخر «أن لا شيء أصليًا» في الكتاب، فهو ليس سوى «رد فعل» على مقالات فرويد الثلاثة حول النظرية الجنسانية (1905). كما اعتبره فرويد نفسه كتابًا غير لائق، وضيع، وفوق ذلك كله ... لم يكن أمينًا. ففرويد هو من اكتشف فعلًا الجنسانية الطفولية، ومع ذلك لا يوجد أي تلميح يُذكر عن تلك المؤلفات... لقد استقى مول أهمية الجنسية الطفولية من المقالات الثلاثة، ومن ثم شرع في تأليف كتابه. ولهذا السبب، نجد أن مول حاول على امتداد الكتاب إنكار تأثير فرويد.

ومن ناحية أخرى، كما قيل، كان يجب على مول أن يقرأ فرويد «بانتقاء» ذلك أن مول أغفل بعض المسائل الرئيسة في المناقشة. وقد أعرب فرويد عن استيائه من أن اسمه «ليس مذكورًا. كما لم يذكر مول الترابط بين الشذوذ والعصاب والجنسانية الطفولية. وقد يكون مول تعمّد هذا الإغفال عن قصد، فطبعه معروف جدًّا... فهو شخص تافه، ماكر ومتعصب». كما اعترض فرويد على فشل مول في استهداف ما هو جدير بالانتقاد في مقالاته الثلاثة. فقد علق فرويد على واحد من مفاهيم مول قائلًا «من سوء الحظ أن تكون لشخص يفتقر لأفكار أصلية، مثل مول، فكرة يكررها في كل مرة»[12].

وفي اليوم التالي لمناقشة كتاب حياة الطفل الجنسية في جمعية فيينا، كتب فرويد يقول بأن الكتاب «يستحق الرثاء لأنه لم يكن أمينًا» وبحلول 8 شباط/ فبراير 1909، كان فرويد لا يزال يمارس حقه كناقد ومنافس. وكتب إلى أبراهام بشأن مول يقول «لا أعتقد أن علاقاتنا معه ستكون ودية». وأن مراجعة كتاب واحد عن سجلات فرويد الطبية في مجلة مول قد تجعله «يظن أن مول يقصد معارضتنا في هذه المجلة، وبالتالي يبدى حيادًا كضرب من التشذيب يخفي وراءه طبعه الماكر. وقد نعثر على بعض الفقرات من حياة الطفل الجنسية تستحق تهمة التشهير حقًّا، ولكن من الأفضل الردّ عليها بالحكمة والصمت»[13].

وفي نيسان/ أبريل 1909، زار مول فرويد في فيينا، ولكن بحسب ما جاء على لسان

فرويد «انتهى اللقاء بشكل سيئ. حيث وصل إلى حد التجريح كما أن مول غادر فجأة كاظمًا في نفسه غلًا كبيرًا. فقد كان لديَّ انطباع تقريبًا بأنه يعتقد أنه ولي نعمتنا، وهذا ما جعلني أصرف ذهني قليلًا عن هذا الأمر»[14]. وقد وصف فرويد زيارة مول بالتفصيل في رسالة ليونغ:

«لنسمّي الأشياء بمسمياتها، لقد كان مول غاشمًا ولا يستحق أن يكون طبيبًا لكنه يملك فكرًا وأخلاقًا يصلحان لمحام يشتغل بالتوافه. لقد أدهشني أنه يرى نفسه عرّاب حركتنا. فليكن، ولكنني انتقدت بشدّة فقرة وردت في كتابه الشهير يقول فيها بأننا نؤلف سجلاتنا الطبية لدعم نظرياتنا بدلًا من أن نسلك طرقًا جانبية، وأنه لمن دواعي سروري أن أستمع لأعذاره الواهية: فهو لم يقصد في بيانه إهانة، فكل باحث يتأثر بأفكاره المسبقة... إلخ. ثم ادعى أنني أتمتع بشيء من الحساسية المفرطة، كان يجب عليّ تقبل الانتقادات الوجيهة وحين سألته إن كان قد قرأ «الصغير هانز»، تلوّى بشكل لولبي وازداد غلًا، وفي النهاية، اغتبطت كثيرًا إذ قفز وفرّ هاربًا. وعند الباب ابتسم ابتسامة عريضة في محاولة يائسة لاستعادة أنفاسه عبر سؤالي عن وقت قدومي إلى برلين. يمكنني أن أتخيل مدى حرصه على العودة لاستضافتي، ولكني في الآن ذاته لم أكن راضيًا تمامًا عن مغادرته. ولقد خلّف وراءه في الغرفة رائحة كريهة كما لو كان الشيطان نفسه، وبسبب نقص الخبرة ولأنه كان في ضيافتي لم أوبخه بما يليق به. وبطبيعة الحال يمكننا أن نتوقع منه كل أنواع الحيل القذرة ...»[15].

وبحلول عام 1914 استنتج فرويد بشكل غير راجح أن جمعية مول في برلين «أُنشئت للاعتراف بفليس». حيث يعتقد فرويد أنه «ينبغي علينا البقاء مستقلين والحفاظ على حقوقنا المتساوية مهما كان الثمن»، لكنه اعترف بأنه «في نهاية المطاف سنكون حتمًا جنبًا إلى جنب مع جميع العلوم الموازية»[16]. وبعد سنوات، في عام 1926، انسحب فرويد من عضوية اللجنة الدولية لإعداد مؤتمر حول البحوث الجنسية لأن المؤتمر سيكون تحت إشراف مول، وكتب فرويد، أن مول شخص ينبغي تجنبه. وأشار فرويد إلى أنه تم إخباره بأن الدكتور مول قدّم في المؤتمر الصحفي ملاحظات حول المحللين النفسيين «لا تخلو من وقاحة وتفتقد للوجاهة». كان فرويد يرغب في أن تكون لجنة التنظيم على بيّنة بدوافع قراره[17]. وقاطع مؤيدو فرويد المؤتمر أيضًا، ولكن أدلر حضر كأحد المتدخلين[18].

كيف لنا أن نفهم موقف فرويد من التناقض مع مول وبعض الصعوبات الأخرى في حياة فرويد؟ وباعتبار الصدام الحاصل لا محالة الذي يمكن أن يثيره ابتكار ولو كان

تافهًا ـ ناهيك عن ثورة في تاريخ الأفكار، لا زال ثمة ما يدعو للبحث في كيف حصل أن أوقَع فرويد بنفسه في العديد من المشاحنات. بادئ ذي بدء، كان فرويد حسّاسًا بشكل لا يوصف إزاء النقد، سواء صدر هذا النقد عمن يعتبره قليل الأهمية أو عن أولئك الذين يحظون بثقته، وفي هذا الصدد كتب ألنبيرغر في شأن يقول إنه حتى في تسعينيات القرن التاسع عشر: «لم يوجد أيّ دليل يثبت أن فرويد كان حقيقة منعزلًا وأنه كان يُعامل معاملة سيّئة من طرف زملائه خلال تلك السنوات، أضف إلى ذلك، لم يكن فرويد يتسامح أبدًا مع أيّ نوع من النقد... عندما نشر س. س. فروبند مقالًا حول الشلل النفسي، اعتبره فرويد «مقالًا منتحلًا أو يكاد»، رغم أنّ المقال تحدّث عن نظريّة مختلفة تمامًا عن نظرية فرويد الذي يذكره الكاتب في هذا الصدد»[19].

ربما لم يَلقَ فرويد التقدير اللازم في فيينا، خاصّة في سنواته الأولى، ولكن مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ذاع صيتُه على نطاق واسع. وتحدّث ماكس غراف عن العقد الأوّل من حياة حلقة فرويد قائلًا: «في تلك الأيّام إذا ذُكر اسم فرويد في اجتماع في فيينا، انقاد الجميع للضحك حتى لكأن الأمر يتعلق بسماع طُرفة»[20]. ظلّ فرويد في الحلقات الطبية النفسية في فيينا غريبًا. قال فرويد عام 1924 إنّه «نتيجة اللعنة الرسمية التي واجهها التحليل النفسي... بدأ المحلّلون النفسيون يقتربون من بعضهم بعضًا أكثر فأكثر»[21]. وإن موقفه ذاك ليشبه يهوديّته: «طالما لا يُعترف لليهود بحقهم في الانتماء إلى الحلقات غير اليهودية، فما لهم من خيار إلا أن يتّحدوا»[22].

ولقد بالغ فرويد في توصيف مدى وحدة معارضته ومهاجمة منجزه حتى أنه جعل من ذلك على الأرجح أخطر من الدور الذي لعبته معاداة السامية في حياته. ففي عام 1915، عندما تحصّل العالِم، الذي ادعى فرويد أنه «رفض أن يتخذه تلميذًا له منذ سنوات لأنه يبدو غير طبيعي تمامًا»، على جائزة نوبل، لاحظ فرويد قاصدًا نفسه «من السخافة أن نتوقع أن تمنح علامة تقدير لشخص يحسب أن سبعة أثمان العالم ضده»[23]. وفي الوقت نفسه الذي عُني فيه فرويد بما «يعلنه خصومه للعالم» وحظي بقدر كبير من اهتمامه كما جاء في قوله «إن ما يوحّدنا ضد العالم قناعتنا الراسخة بأهمية الليبيدو»، كان مقتنعًا أيضًا بأن «كل نظرية تضحّي بشيء ما، صارت أكثر شيوعًا»[24].

«بعد فترة طويلة حاز فيها منجزه على قدر واسع من الانتشار، ظل فرويد يتصرّف كرجل على خط النار يواجه العدو يوميًا»[25]. وفي عام 1936، عندما اقترب عيد ميلاده الثمانين، لم

يتطلع فرويد إلى الاحتفال به: «يا له من هراء أن نحاول التعويض عن كل سوء استخدام لحياة المرء من خلال الاحتفال بتاريخ ميلاد مشكوك فيه! كلا، أولى لنا أن نظل أعداءً»[26]. وبعد بضعة أشهر لاحظ فرويد أن باتر شميدت عدوه اللدود «مُنح وسام الشرف النمساوي للفنون والعلوم تقديرًا لورعه في مجال الأثنولوجيا. ومن الواضح أنه نال هذا الشرف عزاءً له إذ بلغ سن الثمانين بفضل العناية الإلهية. إن للقدر وسائله الخاصة في أن جعل شخصًا مُؤثرًا. وعندما تسلم أستاذي إرنست بروك الجائزة، انتابني ذهول عظيم وتملكتني رغبتي لا تُدانيها رغبة في تكريم مماثل ولو ليوم واحد. سُعدت اليوم إذ نال هذا الشرف شخص غيري ساهمت بطريقة غير مباشرة في الحصول عليه»[27].

ومثله مثل غيره يعتقد فرويد أن من شأن عمله العظيم أن يثير مثل هذا النقد، فالمعارضة، بالنسبة إليه، علامة اعتراف. ولا ندري أيّ الأمرين تقدم على الآخر، استفزاز فرويد الذي فاق الحدود أم ضراوة مهاجمته. «وكما اعترفت منذ فترة طويلة أن إثارة التناقض وإثارة الشعور بالمرارة مصير التحليل النفسي الذي لا مفرّ منه، ولقد تبين لي في نهاية المطاف أنه ينبغي أن أكون شخصيًا وراء كل سماته المخصوصة حقًّا[28].

لقد تغذّى فرويد من المعارضة ـ سواء تلك التي صدرت عن الأستاذة، أو المقاومة التي يُبديها المرضى، وانحراف التلاميذ، أو تلك التي صدرت عن العالم الخارجي ويقال إنه ذكر لمريض مقرّب أنه «من الأفضل أن نتجاهل المعارضة التي لا تنتهي، وحتى الإساءة، بالصمت»[29]. وقال أيضًا «إنه لشرف عظيم أن يكون لك الكثير من الأعداء». «إذن حان وقت «الاعتراف» يجب أن نقارنه مع الحاضر كبريق سحري ينبعث من الجحيم لا مع الضجر المبارك في الجنة. (أعني العكس بطبيعة الحال)»[30]. بينما يرى البعض أن وجود الأعداء مزعجًا إن لم يكن جحيمًا، يرى البعض الآخر في وجودهم مثل جنة. فأن تكون معرضًا للهجوم فذلك دليل من الناحية النفسية على أنك تملك شيئًا يستحق الدفاع عنه. فيمكن أن نستفيد من وجود الأعداء في حياتنا أيضًا على مستوى التعاطي مع نزعتنا العدوانية الذاتية، وقد يكون المرء قادرًا على أن يصبّ جام غضبه على موضوع خارجي، وفي الآن ذاته لا يمكن أن نشعره بالذنب ما دام الخصم يثير الغضب ولكن دون تجريحه. إن وجود الخصوم يمثل فرصة للتخلص من الضغوط الداخلية على ما في ذلك المفارقة.

تعلّق فرويد بعزلته، تعلقًا شديدًا حبًّا فيها، لأنه يُفضّل «عدم إطلاق» المفاهيم حتى تنضج وتكتمل. ولكن عند الإفصاح عنها قد يتخلى عن «مطالبته بالأولوية في ما يتعلق

بهذه الفكرة»[31]. وبقدر ما كان فرويد ينسى أنه عزز أفكار الآخرين، بقدر ما كان يجد صعوبة في تذكر مصادره الخاصة.

فبالنسبة لعالم نفساني يهتم بالذاكرة، تستحق الذكريات الكاذبة (أو «اختلال الذاكرة» كما يسميها)، حول مصادر الأفكار، المناقشة، ويعد وهم تذكر الأحداث مُكملًا لمرض فقدان الذاكرة. فالذكريات والتفاصيل الوهمية، التي يُشير إليها فرويد، مثلها مثل شعور الشخص بتذكر شيء سبق ذكره، تلك الانطباعات الغريبة المترتبة عن تجارب سابقة لشيء حدث من قبل، ويعتبر فرويد «اعترافًا كاذبًا»، شعور الشخص بتذكر شيء سبق ذكره... إلخ، ونسيج الخيالات التي نسعى من خلالها لقبول شيء ما على أنه ينتمي إلى «أنانا»[32]. ويعتقد فرويد أن الذكريات اللاشعورية والتخيّلات تكمن وراء تلك الأوهام. وقد وصف أدلر، قبل القطيعة مع فرويد، نوعًا مميزًا من الانتحال اللاشعوري على علاقة بالمأزق الذي يقع فيه المحللون النفسانيون في بداياتهم، بغض النظر عن نواياهم الحسنة قائلًا:

> **«يبدو أن الشيء الذي يعرفه المنتحل وكأنه غريب عنه... تعود بنا هذه الآلية مرة أخرى إلى الجذر ذاته: إلى الطموح الذي لم نحققه، إلى الشعور بالنقص، والشعور الذي يمكن أن نعبّر عنه بالطريقة التالية: لا أستطيع تحمّل ألا أكون أوّل مَن يتكلم»[33].**

حاول فرويد الحفاظ على علاقته الخاصة بأسلافه. فقد كان من سمات أسلوبه السردي لصياغة مقدمة كتاب أو مقالة الاستشهاد بالشخصيات السابقة ذات الشأن في الموضوع الذي يطرحه. لا تقدم هذه التقنية الإيضاحية معيارًا لإسهاماته فقط لكنها تُعتبر أيضًا بمنزلة وسيلة لتصنيف وجهات النظر المتنافسة داخل إطاره الناشئ الخاص به.

«لم يكن خطر إدانة - رجل محب للحقيقة كهذا الرجل - بالانتحال بالأمر الهيِّن. ولما بلغ من العمر عتيًا كتب: «لا يمكن لي أن أكون على يقين أبدًا»، «نظرًا لقراءاتي الواسعة في السنوات الأولى، ما كنت أحسبه ابتكارًا جديدًا قد يكون أحد تأثيرات الكريبتومنيسيا (قنوات خفية من الذاكرة)»[34]. وفي ما يتعلق بالسجلات الطبية للكاتب النمساوي المنسي، جوزيف بوبر-لينوكس، أسهب فرويد في بيان مدى توازي ما جاء فيها من تفسيرات مستقلة للحلم (في التوقيت والتصوّر)، وبهذه الطريقة، كشف فرويد أن «أصالة الأفكار الجديدة التي استخدمتها في تفسير الأحلام والتحليل النفسي تبخّرت...»[35].

أيضًا فقد اعترف فرويد صراحة بالفيلسوف آرثر شوبنهاور رائدًا للتحليل النفسي «ربما يدرك قلة قليلة من الناس الأهمية البالغة للعلم والحياة العلمية وتقدير العمليات الذهنية اللاشعورية». وبنبرات مماثلة لتلك التي عزاها إلى بروير في ما مضى، صرح فرويد أنه «لم يكن التحليل النفسي، ورغم ذلك، لنتوجه بسرعة نحو الإضافة، تلك الخطوة الأولى التي ينبغي اتخاذها».

«يوجد فلاسفة مشهورون يستشهد بهم كرواد - على رأسهم المفكر العظيم شوبنهاور - يعتبرون «الإرادة» اللاشعورية تضاهي الغرائز العقلية في التحليل النفسي. فشوبنهاور علاوة على ذلك هو المفكر ذاته الذي نبَّه البشرية في كلمات مؤثرة لا تُنسى إلى أهمية شهوتها الجنسية، وإن لم يقدرها حق قدرها بعد، وتلك ميزة انفرد بها التحليل النفسي دون سواه، فهو لم يؤكد على هاتين الفرضيتين الموجعتين للنرجسية - الأهمية النفسية للجنسانية وفقدان الوعي للحياة العقلية - على أساس مجرد، ولكن يشرح الموضوعات التي تمّس كل فرد شخصيًّا وإجباره على قبول بعض السلوكيات حيال تلك المشكلات. فقد وجد التحليل النفسي هذا السبب فقط، ومع ذلك، فإنه يبعث على النفور والمقاومة التي لا تزال تتراجع في رهبة أمام الاسم العظيم للفيلسوف»[36].

لم يكن فرويد الأول الذي يعترف بشوبنهاور رائدًا في التحليل النفسي، بل تابعه المُخلص أوتو رانك أيضًا وفي ذلك كتب فرويد:

«يقينًا أني اهتديت إلى نظرية الكبت في استقلال تام عن أي مصادر أخرى؛ ولا أعرف أي انطباع خارجي أوحى لي بها، ومنذ وقت طويل وأنا أتخيّل أنها مبتكرة تمامًا، حتى عرض علينا أوتو رانك (1911) فقرة من كتاب شوبنهاور العالم إرادة وتمثلًا، سعى فيها الفيلسوف إلى تفسير للجنون. فما قاله عن الصراع ضد قبول جزء مؤلم من الحقيقة يتوافق تمامًا مع مفهومي للكبت وبذلك أدين له مرة أخرى بمنحي فرصة التوصل إلى اكتشاف لم يقرأ جيّدًا في تقديري. ومع ذلك قرأ الكثيرون الفقرة ومرّوا عليها دون أن يتوصلوا إلى هذا الاكتشاف، وربما كان يمكن أن يحدث معي هذا في شبابي حيث كنت أقرأ المؤلفات الفلسفية بشغف ونهم».

ربما سبق نيتشه فرويد كعالم نفس الأعماق بكثير، واستطرد فرويد موضحًا:

«لقد أنكرت متعمدًا في السنوات الأخيرة المتعة الكبيرة التي كنت أشعر بها عند قراءة كتب نيتشه حتى لا أشوّش على الانطباعات الواردة في التحليل النفسي عبر

أي نوع من الأفكار المُسبقة. ولذلك كان يتعيّن عليّ أن أكون على استعداد ـ وقد كنت كذلك، وبكل سرور ـ للتنازل عن جميع المطالبات التي تحظى بالأولوية في كثير من الحالات التي يمكن فيها فقط تأكيد الحقائق التي يتوصل إليها الفيلسوف بالحدس عبر عمل استقصائي تحليلي نفسي مضنٍ[37].

تُلخّص أفكار الثاقبة نيتشه بإيجاز العديد من المفاهيم الكثيرة التي توصّل إليها فرويد بشق الأنفس: أفضل ما فينا ذواتنا البدائية حيث تتحوّل طبيعتنا العدوانية إلى منبع لتشكّل القيم الأخلاقية والوعي، وطريقة لكبت الذكريات التي تتعارض مع كبريائنا. وعادة ما يستحضر المرضى والتلاميذ[38] تلك الفقرات لإثارة اهتمام فرويد.

قدّم فرويد خلال لقاءين نظمتهما جمعية فيينا حول نيتشه عام 1908 طريقته الخاصّة في العمل. وفي هذا الإطار، جاء في محاضر الجلسات تلك اللقاءات قول فرويد بأنه أكدّ على: علاقته الخاصّة بالفلسفة، فطبيعتها المجرّدة لا تستهويه ولذلك انتقد دراسة الفلسفة. إنّه لم يطّلع على كتابات نيتشه، فقد أخمد فرط اهتمامه محاولاته العرضيّة لقراءته، وعلى الرغم من نقاط التشابه التي يلاحظها العديد من الأشخاص، يمكن له أن يُؤكّد لنا أنّ أفكار نيتشه لم يكن لها تأثير من أيّ نوع على عمله[39].

اعتقد فرويد أنّ «درجة الاستبطان التي حقّقها نيتشه لم يسبق وأن حقّقها شخص آخر، ولا بالإمكان أن يبلغها أحد مرّة أخرى». فلقد كان نيتشه، بطبيعة الحال، متخصّصًا في الأخلاق، وأخذ عنه فرويد وجهة نظره ولكنّه كمتخصّص في العلوم، ولكن كان فرويد يردّد أنه «لم يكن قادرًا على دراسة نيتشه بسبب وجه الشبه بين تصوّرات نيتشه الحدسيّة وبحوثنا الشاقّة، وبسبب غزارة الأفكار التي طالما منعت فرويد من تجاوز نصف صفحة لمّا يحاول أن يقرأ له»[40]. وفي عام 1924، اعتقد أنّ «المدى الكبير لتزامن التحليل النفسي مع فلسفة شوبنهاور لا يعود إلى معرفتي بتعاليمه، وقد قرأتُ لشوبنهاور في فترة متأخّرة من حياتي، وكنتُ كثيرًا ما أتجنّب نيتشه على أساس أنّ تخميناته وحدوسه تتوافق بشكل مذهل في غالب الأحيان مع ما توصّل إليه التحليل النفسي، هذا وكنتُ أقلّ اهتمامًا بمسألة الأولوية منها بالحفاظ على صفاء الذهن»[41].

قد يكون فرويد مدين جدًّا أحيانًا لعدد من المصادر. قال لمريض له عام 1930 أنه قد أخذ جميع أفكاره من الروائيين الرّوس خاصّة دوستويفسكي، حيث أنّ فرويد كان مستعدًّا ليسلّم بأنهم على علم بذلك كلّه[42]. ومع ذلك، كان يشعر بعدم الارتياح لكونه مجبرًا على

قراءة الأدب المرتبط أساسًا بتخصّصه، وفي فترة علاقته بفليس كتب فرويد يقول: «لا أرغب في القراءة لأنها تثير العديد من الأفكار وتقلّل من حجم الاقتناع بالاكتشاف»[43]. كما كتب لتلميذ له عام 1909 موضّحًا أنه «حقًا لم يكن يعلم شيئًا عن أسلافه، ولو قدّر لنا أن نلتقي، فسينعتونني بالوهن باعتباري منتحلًا لفكر السابقين، ولكن وضّح فرويد قائلًا: «ما من لذة تضاهي أن نحقّق في الشيء ذاته لا قراءة الأدبيات التي كتبت حوله»[44]. وقال فرويد أيضًا مازحًا: «ابتكرتُ التحليل النفسي لأنه لم تكن له أدبيّات»[45].

تُعتبر قضيّة الأصالة في البحث، ومن ثمّ قضيّة الأولويات، متأصّلة في نشاط أيّ جماعة علميّة. هل كان داروين أم والاس أوّل من اكتشف التطوّر عبر الانتقاء الطبيعي؟ والأدهى والأمرّ هو أن تكون الوسائل الممكنة للانتحال عن غير وعي، وإنّه لمن السهل أن يغيّر منشأ مصادر الأفكار دون أن يكون المرء غير وفيّ لأصل تلك الأفكار، لهذا يُعدّ علم نفس الأعماق مجال بحث يكون فيه إثبات شيء بصفة موضوعية نادرًا جدًّا، تكمن الابتكارات أساسًا في كيفية تفكيرنا في العمليات العقلية، وبالإضافة إلى ذلك، تهتمّ الصراعات في العلوم الطبيعية حول الأولويات على الأقلّ بالاكتشافات الأكثر موضوعيّة[46].

على صعيد آخر، كلّما كان السلف الذين يعتدّ بهم فرويد كمصادر مشهورة، كلما كانت استنتاجاته سديدة، وتوافقًا مع تطابق شخصيّته مع المحاربين العظام مثل نابليون وحنّبعل، يرى فرويد نفسه ضمن الرجال الكبار في تاريخ العلم مثل كبلر ونيوتن وكوبرنيكوس («شيئًا مماثلًا أكّده العلم الإسكندراني») وداروين[47]. ومع ذلك، شعر فرويد أنه اجتهد بمفرده اجتهادًا كبيرًا لا مثيل له خلافًا لغيره «من ذلك مثلًا، كما يقول، لقد استفاد أينشتاين من القدامى بدءًا من نيوتن إلى من جاء بعده، فيما كنتُ أسعى في طريقي بمفردي وسط أدغال متشابكة»[48]. وكان فرويد يعلم أنّ التاريخ لا ينصف مكتشفيه، كما قال: «لا يكون الاستحقاق بقدر النجاح، فلم يطلق اسم أميركا على كولومبوس».

لم تتداخل عظمة فرويد التاريخية مع تواضعه الشخصي الأصيل، ودائمًا ما كان ينظر إلى اكتشافه للتحليل النفسي كضرب من الحظّ: ظلّ رجلًا بسيطًا ولكن بفكر عظيم. كان يستخدم في إثباتاته عبارات تعكس حذره من قبيل: «إن لم أكن مخطئًا» أو «إن أثبته المستقبل»، وأحيانًا عندما يكون واثقًا من نفسه. يكافح من أجل الدافع الذي جعله يكافح لا من أجل نفسه، ولم يكن تواضع فرويد زائفًا وإلا ما كان لينكر فكرة أنه كان رجلًا عظيمًا:

«أشعر بالفخر بما اكتشفته وليس بنفسي، فالمكتشفون العظام ليسوا بالضرورة

رجالًا عظامًا. فمن الذي غيّر العالم أكثر من كولومبوس؟ من هو؟ إنّه مغامر. كان له ما يميزه، بالطبع، ولكن لم يكن رجلًا عظيمًا، إذن، قد يكتشف المرء أشياء عظيمة وليس معنى ذلك أنه رجل عظيم حقًا»[49].

لم يكن فرويد يتظاهر عندما قال أنه تجنّب قراءة نيتشه لكي يحافظ على «صفاء» ذهنه، فهو لم يكن فقط يتهرّب من مشكلة الأولويات، وأن تعقّب أسلافه قد يوهن ذهنه. وفي توافق مع التزاماته الفكرية الأوّلية في تسعينيات القرن التاسع عشر، قضى فرويد بقيّة حياته يبلور تبعاتها. وكان الحفاظ على استقلاليّته أساسيًا لتطوّره المتواصل. ويرى فرويد في نفسه شخصًا يبني أفكاره على نحو مقبول وواضح، وبالتالي تبدو إسهامات الآخرين بالنسبة له أحيانًا «غريبة» أو غامضة، ولم يستفد من أفكار غيره ما لم يكن على استعداد لذلك. وكما كتب ذات مرّة: «لا أعتقد أنه من السهل أن أنسجم مع الأفكار الغريبة، وعمومًا عليّ أن أنتظر حتى أجد نقطة تصلني بها عبر طريقتي التي اعتمدها في مسالكي المعقّدة»[50]. يعتقد بعض الرجال العظام أنّ لا شيء يُعدّ حقيقيًا لو لم يتفكّروا فيه. لم يُرحّب فرويد بالأفكار الأصيلة للآخرين، لأنه أراد أن يتفكّر في كل شيء لذاته هو كجزء من إعادة النظر في العالم، فكان في حاجة ماسّة إلى التوصّل إلى نقاط جديدة في عمله عبر التطوّر المتواصل لمفاهيم وقع تمثّلها سابقًا، ولمّا لم يكن يقبل أفكار الآخرين في صيغها الأصليّة، كان عليه أولًا أن ينقلها إلى طريقته الخاصّة في التفكير. لقد اكتسب التحليل النفسي حيويّة فكرية خالصة عبر جملة قضاياه المنظّمة والانسجام المحكم لأفكاره.

ثمّة في الواقع دافع داخلي في تطوّر أفكار فرويد، ورغم غرابتها وتفاهتها، ابتكر فرويد شيئًا يمكن أن يطوّره ويستعمله الآخرون. لقد أنشأ عالمه الخاص الذي لم يكن ذاتيًا فقط ولكن كانت له كذلك قيمة موضوعية. من المهمّ التأكيد على إنجازات فرويد العلمية، ولهاجس التخوّف ممّا له علاقة بالعالم الطفولي، اندفع لإتقانه.

لم يكن فرويد راضيًا عن حالة الكفاف الفكري، ولقد منحت قوّة فكره التنفيذية عمله قوّة أكبر للسيطرة على السيكولوجيات المتصارعة. كما شكّلت حساسيّته للنقد الخارقة مكوّنًا أساسيًا لعمله، فلم يكن شيء عند الآخرين غير ذي قيمة بالنسبة لفرويد حيث كان يجمع المؤشرات الأكثر دقة التي يُعبّر بها الناس عن ذواتهم ويمنح هذه الجوانب التافهة المرتبطة بالسلوك اهتمامه الكبير. وبالتالي، قد أنشأ بيقظته الدائمة نظريّة مميّزة لعلم النفس البشري. إنّ الرجل الذي كان عُرضة لأنواع شتّى من المعارضة والذي يمكن أن

يخطئ أحيانًا في تفسيره للنقد المشروع أو أن يُبالغ في معارضته العدائية، كان قادرًا كذلك على أن ينظر بشجاعة إلى بعض ضلالاته الذاتية.

4 - النزعة التعديلية

يمكن تشبيه الخلافات التي دامت ستّين سنة بالنزاعات الثيولوجية القديمة التي تثار اليوم. ويعدّ المصطلح الخاص بعصر التحليل النفسي غريب الأطوار بالنسبة للمتقبّل المعاصر إلى درجة أنه يعتّم القضايا المتنازع عليها، ومع مرور الوقت، أصبح من السهل توهّمًا قراءة التطوّرات النظرية والإكلينيكية من وجهات نظر تبنّاها كل من أدلر وفرويد، والأخطر من ذلك هو أنّ الأمر قد يبدو إلى حدّ كبير صراع دلالة، وكما أشارت لو أندرياس سالومي «قد يدفع بالمرء ليتوهّم أنّ نتيجة الصراع حول المفردات تظهر عندما تكون القضيّة الحقيقية أعمق من ذلك بكثير وليست اصطلاحيّة على الاطلاق»[1].

وبصفة عامّة، أكّد أدلر درجة تسبّب الصراعات القائمة وعدم التناغم الثقافي عوضًا عن ماضي الطفولة الذي عاشه المريض في ظهور المشكلات التي تمسّ المشاعر. «لم يكن أدلر مهتمًّا بأسباب العُصاب ولكن بغاياته، وهذا مرتبط بالنسبة لفرويد ذي التوجّه البيولوجي بمبدأ الغائية». وقد فسّر أدلر «كل عرض من الأعراض يعدّ سلاحًا لإثبات الذات، فللقلق غايات لا واعية لاستمالة الانتباه، إنّه طلب نجدة»[2]. قد فسّر أدلر، مستعينًا بنظرية هانس فانغر في الوهم، «العُصاب ليس باعتباره كبتًا لا واعي ولكن باعتباره خدعة مقصودة يتهرّب من خلالها المرء من مهمة جارفة»[3]. بالإضافة إلى ذلك، ميّز فرويد بين ما سمّاه «المكسب الأوّلي» من المرض، وهو الميزة التي يكتسبها الأنا من العُصاب عوضًا عن مواجهة شيء مؤلم، و«المكسب الثانوي» وهو المكسب الذي يتحصّل عليه الشخص لاحقًا عبر استغلال مرض العُصاب بمجرّد حدوثه. وفقًا لرأي أدلر، إنّ المكسب الثانوي هو الذي استرعى الانتباه، وبالتالي، كان العلاج العملي يكمن في التدخّل الفعال للطبيب والتشجيع والمساندة قصيرة المدى. وبالرغم من أنّ هذا كان تتمّة قيّمة لمقاربة فرويد، فإن حكم أدلر بأنّ مرض الفُصام يمكن أن يُعتبر نتيجة لتثبيط العزم[4] يُشير إلى آرائه المهزوزة نسبيًّا.

وخلافًا لتحليل المشكلات، وفقًا للطريقة الفرويدية الكلاسيكية، أكّد أدلر ضرورة القدرات التأليفية للمريض، وحسب رأي لو أندرياس سالومي، تحدّث أدلر «عمّا تقوم به النفس تجاههم» بينما وضع فرويد نصب عينيه ما الذي يقومون به تجاه النفس»[5].

أكد أدلر دائمًا على أن «وحدة» المريض ككل هي الحل للأعراض البادية عليه، وبالتالي لا نتحصّل عن أيّ قيمة للأعراض دون الشخصية الفردية»[6]. أكّد أدلر هذا الجانب من تفكيره في الاسم الذي اختاره لمدرسته ألا وهو علم النفس الفردي، فبالنسبة له، كان الفرد يمثّل «وحدة متكاملة تتداعى أعضاؤه كلّها إلى هدف مشترك»[7].

قدّم أدلر اقتراحًا مفاده مساعدة المرضى على ما أصابهم من مشاعر النقص وإخراجهم من قوقعتهم وإدماجهم في الجماعة، ومن خلال العمل على الشعور الاجتماعي وتقديم خدمات اجتماعية، يمكن للمرء قهر الأنانية. اعترض أدلر على ما اعتبره المقاربة الذاتية المتعالية لفرويد تجاه العالم، لذلك، كان علم النفس الفرويدي حسب أدلر بمنزلة علم «الطفل المدلّل» الذي لا يفهم أنّ ما تعطي أفضل ممّا تأخذ، كما اعتبر أدلر أنّ «عقدة أوديب هي نتيجة تربية مهتزّة انغرست في طفل مدلّل»[8]. فكّر أدلر في الفرد باعتباره منجزًا لأشياء عظيمة عندما يكون وحيدًا واعتبر الثقافة بما هي نتيجة لخيبة فطريّة، وأكّد أنّ الجنسية المثلية المتسامية تلعب دورًا في تشكيل الروابط الاجتماعية: «الميول للجنسية المثلية... تتضمّن جوانب من غرائز الأنا، تؤلّف مع بعضها عاملًا شهوانيًا للصداقة والرفقة، لروح الجسد ولحبّ الإنسانية بشكل عام»[9]. لمّا كان أدلر عضوًا في جماعة فرويد، قدّم مقالًا حول موضوعه المفضّل الماركسية. في تلك الأثناء، قال فرويد أنّ «موقفه إزاء مثل هذه الدروس التي توسّع أفق معارفنا لا يكون إلا موقفًا منفتحًا»[10]. وبعد الانفصال، لمّح إلى «التاريخ الاشتراكي»[11] لأدلر باعتباره أساس المشكل.

كانت تقنية أدلر في العلاج أقلّ وضوحًا ودقّة من تقنية فرويد، ولكنّ كان أدلر يقابل المرضى وجهًا لوجه آخذًا بعين الاعتبار فترات أوسع بين الحصص، وكانت مدّة العلاج نفسها قصيرة، وفي مقارنة لو أندرياس سالومي بين المقاربتين، أشارت إلى ما يلي: «يختلف فرويد وأدلر على مستوى طريقة العلاج كما يختلف السكّين عن المرهم»[12].

كانت أهداف فرويد كمعالج محتشمة، وكما قال عن أتباع أدلر «بانسحابهم من التحليل النفسي، يبدو أنّ فريقًا من المحلّلين في فيينا قد توصّل إلى نوع من الجمع بين الطب والتعليم»[13]. عوضًا عن البيداغوجيا، اقترح فرويد طريقة معيّنة في العلاج سعت إلى إثراء المريض من الداخل، هذا واعتبر فرويد مقاربة أدلر شبيهة بمقاربة رجل الدّين:

«لكلّ من هذين الإجراءين، اللذين يستمدان قوتهما من التحليل، مكانه في العلاج النفسي. وعلينا أن نضع نصب أعيننا، نحن المحلّلون، وهذا هدفنا، التحليل الأكمل

والأعمق لمرضانا مهما كانت حالاتهم، فنحن لا نسعى إلى تحقيق الراحة النفسية للمريض بدمجه في جماعة كاثوليكية أو بروتستنتية أو اشتراكية، بل بالأحرى نرمي إلى إغنائه من مصادر نابعة من داخله بوضع تحت تصرّف الأنا تلك الطاقات التي تظل حبيسة اللاوعي نتيجة الكبت، بالإضافة إلى تلك الطاقات الأخرى التي يبقيها الأنا ضرورةً في نشاط عديم الجدوى للحفاظ على تلك الأنواع من الكبت»[14].

كان الموقف الفرويدي يتمثّل في أنّ المحلّلين «لا يمكن أن يقودوا المرضى إلى «التوليف»، وما يمكن أن نقوم به من خلال العمل التحليلي هو إعدادهم له»[15]. لقد وضع فرويد حدًّا قاطعًا بين علم الأخلاق والعلم، وعارضه أتباع أدلر على ذلك ووصفوه بـ«المهرّج الذي يؤلّف الكتب في معنى الحياة!...»[16]، واعتقد فرويد أنه عندما يبحث المرء عن معنى أو قيمة للحياة فإنه يُعدُّ بذلك مريضًا، بما أنّ لا أحد منهما بصفة موضوعية له وجود، وبقيامه بذلك، يسمح بقيمة زائدة للرغبة الجنسية غير المشبعة...»[17]. كان تلقين المرضى إشارة على التراجع إلى أشكال من العلاج ما قبل التحليل النفسي ويتداخل مع التقدّم الحاصل على مستوى الفهم العلمي.

كان أدلر، حسب رأي جونز، «متمكنًا في الملاحظة السيكولوجية السطحية، حيث لم يكن يمتلك مهارة النفاذ العميق»[18]. ويبدو أنّ أدلر في واقع الأمر كان له فهم عملي للطبيعة البشرية قائم على الحدس، فيما يعترف كل شخص أنّ فرويد «كان حكمًا ضعيفًا في حكمه على الرجال»[19]. وعلاوة على ذلك، كان لأدلر أكثر من مجرّد المعرفة المشتركة عن الإنسانية، رغم أنّ مثل هذه المهارة قد لا تكون ضمانًا للمختصّ في علم النفس، لذا لم تكن إسهاماته متواضعة على الاطلاق.

إذا ما طُلب من المحلّلين المعاصرين الدفاع عن نقد فرويد لأدلر، لوجدوا أنفسهم في موقف مُحرج. نادرًا ما يظهر مفهوم فرويد «الليبيدو» في الأدبيات المهنية اليوم. مع حلول عام 1954، أكّد محلّل نفسيّ عريق أن «نراعي الآن مقارنة بالماضي انتباهًا متزايدًا ليس للطفولة المبكّرة فقط، بل للأحداث والصراعات التي تحدث في حياة المريض المتقدّمة وفي الحاضر كذلك»[20]. يؤكّد إريك إريكسون على ما يسمّيه «الجوانب المحتملة في مسار الحياة». وفي الفترة المبكّرة من التحليل النفسي «يتمّ التركيز على دوافع النقص أكثر ممّا يجذب الطفل من الماضي والعائلة إلى تجارب أوسع»[21]، فلم يعد من البدعة للمحلّلين النفسيين أن يمارسوا علاجًا نفسيًّا مساندًا قصير المدى.

يمكن للحركة الناجحة استثمار المفاهيم من كل الجوانب. أبعد تلامذة فرويد أفكار أدلر دون وعي منهم ربما، وفي هذا الإطار كان أدلر مهتمًّا بما يُعرف اليوم بـ«مشكلات الطباع». كان «فرويد عام 1914 لا يزال يعتقد أنّ التحليل النفسي لا يمكن أن يُفسّر شيئًا إلا أعراض العُصاب، وليس كل جوانب الشخصيّة»[22]. على الرغم من أنّ فرويد كان يقدّم أفكاره باندفاع ويعتقد أنه قد أتى «الحقيقة»، فما انفكّ ينكر بكلّ تواضع إنشاءه لـ«نظام كامل»، فهو لم يكن مفكّرًا جامعًا ولكنّه بالأحرى ركّز على «الثغرات» التي قد تغافل عنها الآخرون[23]. وكما كتب ذات مرّة في الدفاع عن نفسه:

«لا تسقط النظريات المتكاملة جاهزة من السماء، ولو قدّم لكم شخص ما نظرية متكاملة لا عيب فيها بداية عهده بالملاحظة لكان لكم أفضل المجالات للشكّ، فمثل هذه النظرية لا تكون إلا شبيهة بتصوّرات طفل غير ناضج ولا يمكن أن تكون ثمرة فحص للحقائق خال من الأحكام المسبقة»[24].

على عكس ذلك، كانت نظرية أدلر «منذ البداية «نسقًا»، وهو ما كان التحليل النفسي حريصًا على تجنّبه»[25]. وفي هذا الإطار، انتقد فرويد أدلر لاهتمامه بشكل كبير بعلم النفس العادي: «لم يدّعِ التحليل النفسي البتّة أنه سيقدّم نظرية متكاملة للعقلية البشرية بصفة عامّة، ولكن توقّعَ فقط أنّ ما قدّمه لا بدّ أن يُطبّق لدعم وتصحيح المعرفة المكتسبة من مصادر أخرى، ومع ذلك، تتجاوز نظرية أدلر هذه النقطة إلى نطاق أبعد بحيث ترمي إلى تفسير سلوك الإنسان وطبعه بالإضافة إلى أمراض العصاب والذُهان التي يعاني منها»[26].

ما كان بدعة في ذلك العصر أصبح المبدأ اليوم، ومن أهمّ مزاعم علم نفس الأنا المعاصر اعتقاده بأنه يمكن الاستفادة من عمل فرويد أكثر لتفسير التكيّف الناجح والخلل الوظيفي الذي يظهر في الممارسة الإكلينيكية.

كان أدلر السبّاق في اهتمامه بالأنا باعتبارها سلطة العقل واعتقد متنبّئًا أنّ هذا المفهوم يساعد على إزالة الهوّة بين المريض والسليم، وحسب ما جاء على لسان لو أندرياس سالومي، تحدّث أدلر عن «رموز الأنا» عوضًا عن فقط الرموز الجنسية المتنكّرة تحت قناع الأنا[27]. يبدو طرح أدلر الآن معاصرًا في مختلف النتائج التي استخلصها من علم نفس الأنا لأجل فهم سلوك الأطفال، ومثل أنّا فرويد قبل سنوات عديدة، استنتج أنّ الأمر كان «شديد الصعوبة للتمييز بين عيوب الطفولة وأعراض العُصاب»[28]. كان أدلر، حاله حال علماء النفس المتخصّصين في الأحلام اليوم، مهتمًّا بوظيفة الحلم المبدّدة للصراع[29].

وليس بغريب عندما أصبح علم نفس الأنا فرعًا رسميًّا من فروع التحليل النفسي، شعر تلامذة فرويد بإمكانية اتّهامهم بكونهم «أصبحوا متأثّرين بفكر أدلر»[30].

ليس أدلر رقمًا سهلًا في تاريخ العلاج النفسي، فلقد ركّز جهوده عام 1920 لإقامة حصص علاج مع أساتذة جامعيين، وكان شديد الاهتمام بعلم نفس العائلة «مفضّلًا معالجة الأطفال بالمنزل، وبصفة عامة، يعدّ تركيزه على العوامل الاجتماعية طليعة اهتمام الطب النفسي الجماعي اليوم. (كان الفرويديون الجدد أمثال هاري س. سوليفان وكارن هورني وإريك فروم وكلارا تومسون جميعهم يتّبعون نفس النمط في التفكير)»[31]. وفي إطار عمله الأخير حول «غرائز الأنا» الذي تغافل عنه فرويد، قدّم أدلر «غريزة العدائية» قبل أن يناقش فرويد مثل هذا المفهوم بفترة طويلة[32] (رغم أنّ أدلر قد تخلّى عن نظريّته الأخيرة في ثلاثينيات القرن العشرين).

وبإعادة النظر في الخلاف بين فرويد وأدلر، يبدو الأمر كما وصفه فرويد بمثابة نرجسية الفروقات، فهو صراع بين رجُلين قريبين جدًّا من بعضهما البعض وهو ما يدفعهما إلى مقارنة أحدهما بالآخر، ولكنّهما يعتبران تلك الاختلافات كمأخذ مبطن أو نقد. ولاحقًا، ساعدت أسطورة تلامذة فرويد القاصرين على توحيد الحركة. كما كان يعلم فرويد ذاته:

«إنّه من الممكن دائمًا ضمّ عدد محترم من الناس المتحابّين إلى بعضهم البعض، طالما أن ثمّة أشخاصًا آخرين منسيين يتقبّلون كل أشكال العدائية، إنّها بحقّ جماعات متجاورة ترتبط كل جماعة بالأخرى بطرق مختلفة، وهي تنغمس في المشاحنات الدائمة وفي انتقاد بعضها بعضًا....»[33].

كان أدلر تحت أنظار فرويد بكلّ ما في نفسه من غل، وينظر إلى أدلر بسخرية كخائن ومرتدّ، وسواء كان أدلر انصرف عن التحليل النفسي أو طرد، فبين الأمريْن اختلاف ضئيل لأنّ كلا المعطييْن قد لعبا دورًا في ما حدث.

في ثلاثينيات القرن العشرين، أتى تلامذة فرويد أساسًا من الخارج، وكانت سمعته أكثر ثباتًا في العالم ككلّ منه في بلدته الأصل. (قيل أنّ جمعية التحليل النفسي بفيينا لا تزال غير قادرة بمفردها على استقطاب الشباب)[34]. أما في فيينا، فقد أصبح أدلر شخصيّة مهمّة وسط الطبقة العاملة في حين كان فرويد مشهورًا كعالم نفس جلب أنظار المفكّرين البورجوازيين اليهود. بالإضافة إلى ذلك، كان أدلر مهتمًّا بالتعليم، وقد لقيت مدرسة أدلر للأطفال إعجاب الكثيرين باعتبارها الأفضل في فيينا، وكان نجاح أدلر في فيينا يعني أنّ

مجموعته كانت أكثر تعرّضًا لما قام به النازيون من أعمال تخريب، بينما كانت حركة التحليل النفسي القومية قادرة وهذا أفضل على إبقاء الهولوكوست الأوروبي في الذاكرة.

لم يصفح فرويد البتّة عن أعضاء جمعيته الذين التحقوا بأدلر، فقد قال بول كلامبر أنّ فرويد لم يكن ينظر إليه حتى في الطريق، وهذا يتوافق مع سلوك فرويد تجاه بريور[35]. (عندما يذكر جونز «هول المعارضة» الذي كان على فرويد تحمّله، و«كونه منبوذ ومنسيّ»[36]، لا يسع المرء إلا أن يتساءل ما هي حقيقة الأمر). لقد ذهب كلامبر إلى أميركا وعاد إلى فيينا بعد الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من أنّ أحد أقربائه يدعى بول فيديرن كان وفيًّا لفرويد وواسطة للصلح نيابة عن كلامبر، رفض فرويد استقباله[37]. في نظر فرويد، كان أدلر مخادعًا وكلامبر عدّوا، وكما أشار ساكس «كان كل قطع للعلاقة مع صديق قديم في حياة فرويد يعدّ قطع نهائيًّا»[38].

مع ذلك، لم يُهمل فرويد حليفًا سابقًا بالكامل. فمباشرة بعد الخلاف عام 1911، بدأ فرويد بذكر من يستحقّ في التوضيحات الخاصّة بالهوامش. كان إرنست أوبنهايم عضوًا آخر في الجمعية شارك في النزاع مع أدلر، وظهرت إحالة إلى أوبنهايم في هامش التوضيحات مرّة واحدة في طبعة كتاب تفسير الأحلام لعام 1911، ولم تظهر مرة أخرى. وكما كان يعلم جيمس ستراتشي «يرجع سبب هذا الحذف بلا شكّ إلى الحقيقة القائلة بأنّ أوبنهايم سرعان ما أصبح بعد ذلك تابعًا لأدلر...»[39]. لم يكن هذا بالأمر الهيّن بالنسبة لفرويد لأنه كان ينتقي مراجعه في كتاباته بكلّ جدّية. لقد شارك إوبنهايم فرويد في كتابة مقال قصير بعنوان «الأحلام في المخيّلة الشعبية» الذي اختفى عن الأنظار ونُشر في الأخير فقط عام 1958.

على قدر ما كان فرويد رصينًا منصفًا في السابق، كان صارمًا قاسيًا تجاه أدلر، فعلى سبيل المثال، أشار فرويد في هامش لمسألة في التاريخ صدرت أصلًا عام 1909، إلى «زميلي الدكتور ألفريد أدلر»، ولكن في إصدار لاحق لهذه المسألة عام 1913، قام بتغيير دقيق ألا وهو: «الدكتور ألفريد أدلر الذي كان سابقًا محلّلًا نفسيًّا في السابق»[40]. كما حذف بعض الشواهد المأخوذة من عمل أدلر[41]. وليس هذا إلا دليلًا بسيطًا على تزايد الاستهتار بأدلر. ففي رسالة كتبها عام 1912، وجدنا فرويد يقول فيها أنه «عليّ باستمرار أن أهدّئ من روعي ويجب أن أحمي نفسي من تلك الاستفزازات التي أثيرها في الآخرين». وبعدها تابع فرويد في الإشارة إلى «عيب أدلر المنبوذ، إنّه مفكّر موهوب ولكنّه شخص ناقم مصاب بالزَوَر...»[42].

كان فرويد مُغتاظًا ولكنّه متحكّم في ذاته، وفي مقال كتبه عام 1914 بعنوان «في النرجسيّة»، توقّف قائلًا (كنقد لأدلر) بأنّ حالات العُصاب وُجدت «حيث لا يلعب الاحتجاج الذكوري أو ما نعتبره عقدة الخصاء أيّ دور مرضي جينيّ بل لا يظهر إطلاقًا». عندما سئل عن تفسير لهذه الجملة عام 1926 بعد فترة طويلة من الصراع الذي دار بينه وبين أدلر، قال فرويد أنه وجد نفسه في «موقف حرج» في ما يتعلّق بسؤال «ما إذا كان هناك أنواع من العُصاب لا تلعب فيها عقدة الخصاء أيّ دور....». وعلى الرغم من أنّ الأمر، كما كان واضحًا، جزء من جدله ضد أدلر، لم يعد بإمكان فرويد «أن يجمع ما كان في ذهني في ذلك الوقت، فاليوم، صحيح أنّني لا أستطيع أن أذكر أي نوع من العُصاب الذي لا تلتقي معه فيه هذه العقدة....»[43].

يمكن أن تُفهم كل مقالات فرويد وكتبه بعد 1911 كجزء من تفاعل متبادل مع عدد من الخصوم، ولكنه انتقد صراحة آراء أدلر. شعر أنه مضطرّ لتنبيه الآخرين ضدّ هذه الانطلاقة الخطيرة من التحليل النفسي بالإضافة إلى عرض موقفه. على سبيل المثال، ناقش فرويد موقف أدلر (ومعه يونغ) باعتباره (أي أدلر) يَقود حركات «انحراف عن التحليل النفسي»، «بهدف تلطيف خصائصها المنفّرة». وفي نفس الوقت، ذكر فرويد مرّة أخرى أنّ أدلر قد «أعاد فقط إنتاج العديد من العوامل من التحليل النفسي بأسماء أخرى....». وحسب رأي فرويد، «سرعان ما أصبح الأمر واضحًا أنّ نظريات أدلر ليس لها ما يربطها بالتحليل النفسي سوى القليل، وما وُضعت هذه النظريات إلا لتعوّض سابقاتها»، وعلاوة على ذلك، لم يكن لحركة أدلر «تأثيرًا دائمًا على التحليل النفسي»[44].

كانت هناك أمثلة أخرى دالّة على عدم قدرة فرويد ليسمح لأدلر بالرحيل[45]. واصل انتقاداته له، ولم يكن ثمّة إضافة جديدة جديرة بالذكر في عمله[46].

لم تكن دوافع الأنانية بالأهميّة الكبرى كما اعتقد أدلر، وكانت النرجسية، ليس الشعور بالنقص، الحالة الأصلية الرئيسة للطفولة[47]. فحص فرويد في أحد الهوامش عام 1925 «لبّ الحقيقة» في تصوّر أدلر:

«لم يكن لتلك النظرية أدنى تردّد في تفسيرها العالم ككلّ بالاستناد إلى هذه النقطة («الشعور بالنقص»، «الاحتجاج الذكوري»، «الابتعاد من الحدّ الأنثوي»)، وتغترّ بسلبها في هذا الاتّجاه للأنوثة ووضع مكانها الرغبة في القوّة، ومن جهة أخرى، يسمع المرء عن المحلّلين الذين يتفاخرون بأنهم، على الرغم من أنهم يعملون

لعشرات السنين، لم يجدوا البتة أيّ علامة على وجود عقدة الخصاء. يجب أن ننحني احترامًا واعترافًا لعظمة هذا الإنجاز، ولو كان إنجازًا سلبيًّا، وهو ضرب من ضروب الولع بفنّ التغافل والتجاهل. تشكّل النظريّتان زوجًا من المتضادات في غاية الأهميّة: ففي الأخير لا أثر لعقدة الخصاء، وفي الأوّل لا شيء غير نتائجها»[48].

كتب فرويد في رسالة عام 1924 أنّ تلميذًا قد أظهر «احترامًا لافتًا للضيق الذي عانى منه أدلر، فقط إسأل نفسك ما الفرق الذي يمكن أن يصبح عليه عملك إذا لم تسمع عن نظرية أدلر»[49]. ومع ذلك، كان فرويد مطالبًا بإثبات أولويّته على أدلر: «أنّك تحمّل أدلر مسؤولية الربط بين الطموح والشهوانية، حسنًا، أعتقد دائمًا أنه اكتشافي»[50].

أعاد فرويد عام 1932 الاعتبار لأفكار أدلر على نحو ملحوظ «حتى وإن كان لعلم النفس الفردي ارتباطًا ضئيلًا بالتحليل النفسي، ونتيجة لظروف تاريخية معيّنة، فإنّ له وجودًا هامشيًّا، إنّ تسميّته ذاتها غير مناسبة وتبدو أنها نتيجة لشعور بالإحراج»[51]. ولأنّ عقدة النقص قد أصبحت أكثر انتشارًا، حينها انطلق فرويد في نقاش آخر حولها. كتب فرويد «إنّ الشعور بالنقص الذي يُفترض أنه يُميّز علم العصاب... يُلازم صفحات ما يُعرف بالرسائل الجميلة» عوضًا عن الكتابات العلمية، ويمكن أن تُفسّر أفكار أدلر حول النقص وهدف التميّز الآن على أنها أكثر أناقة. واعتقد فرويد، من خلال مفهومه الجديد الأنا الأعلى، أنه يمكن أن يُعتبر الضمير والشعور بالذنب كنتيجة لعدائية ارتدادية من الداخل.

«للشعور بالنقص جذور متعلّقة بالجانب الحسّي، فالطفل يشعر بالنقص إذا لاحظ أنه غير محبوب، وكذلك يفعل الكهل... ولكن ينحدر الجزء المهمّ من الشعور بالنقص من علاقة الأنا بالأنا الأعلى، كالشعور بالذنب الذي يُعدّ تعبيرًا عن التوتّر الحاصل بينهما، فمن الصعب الفصل بين الشعور بالنقص والشعور بالذنب، وقد يكون من الصواب أن نعتبر الأوّل مكمّل حسّي شهواني للشعور بالنقص من حيث هو أخلاقي بالأساس»[52].

وفي محادثة في نفس العام، نُقل عن فرويد كونه قد ذهب بعيدًا في إبعاد عمل أدلر: «لم تكن مغادرة أدلر بمثابة الخسارة، فلم يكن لفرويد أيّ شعور بالندم في اعتباره أنه لم يكن محلّلًا البتّة»[53].

حتى عند وفاة أدلر عام 1937، وبعد مرور ربع قرن على تلك الخلافات في الجمعيّة، بقي فرويد عنيدًا غير عفوّ. لقد توفّي أدلر وهو في رحلته إلى أبردين، وذكر أرنولد زويغ في

رسالة أرسلها إلى فرويد أنه تأثّر تأثّرًا بليغًا بالخبر. ردّ فرويد قائلًا:

«لا أفهم تعاطفك مع أدلر، فالموت الذي يأتي لفتى يهوديّ خارج ضواحي فيينا لا يعدّ شيئًا في ذاته، فهو دليل على مدى بعده عن عالمنا، فالكون قد كافأه بما فيه الكفاية لما ارتكب من عمل عارَضَ فيه التحليل النفسي»[54].

(لقد اعتنق أدلر البروتستانتية عام 1904، ونُقل عنه أنه «استاء حقيقة أنّ الدين اليهودي يحصر ذاته في مجموعة إثنيّة واحدة، وكان يتمنّى أن ينتمي إلى مجموعة كونية»)[55]. وعلى الرغم من أنّ جونز قد ضمّن تعليق فرويد على موت أدلر في سيرته، إلا أن ابن فرويد إرنست قصَّ المقطع في كتاب محاورة فرويد مع أرنولد زويغ الصادر عام 1970 دون دليل على الحذف.

شارك تلاميذ فرويد الآخرين عداءه لأدلر، وبادل أدلر وأصدقاؤه فضاضة فرويد، وعلى مدى السنوات، هاجم أدلر، وهو يقدّم مفاهيمه، مفاهيم فرويد. شعر أدلر بالفخر لـ«وضعه لخطّ فاصل، وكان ذلك أدقّ من فرويد، بين علم النفس الفردي والتحليل النفسي»[56]. وقبل أن يتوفّى أدلر بسنة أو اثنتيْن، اعتبر أدلر أنّ علم نفس فرويد «مسألة دونية لا طائل وراءها»[57]. وفي حوالي نفس الفترة، كان لأحد المعجبين بأدلر وهو ابراهام ماسلو لقاء مع أدلر أثيرت فيه نقطة شملت تتلمذ أدلر على يد فرويد، فـ«غضب أدلر واحمرّ وجهه وتكلّم بصوت عال جدًّا إلى درجة أنه أثار انتباه من حوله. قال إنّ هذا كذب وخداع لام عليه فرويد بالكامل وأطلق عليه نعوتًا من قبيل خدّاع ومراوغ ومتآمر....»[58].

لم يشعر اليوم من وسط التحليل النفسي بالارتياح لتعرّفهم بعقيدة أدلر إلا عدد قليل[59]. فقد ميّز الأشخاص الأكثر تأصّلًا علم نفس الأنا الفرويدي عن أيّ شيء ينحدر من أدلر[60]. كان عالم نفس الأنا الأميركي ايفز هندريك متميّزًا في الاعتراف بأنّ فكرته «غريزة التمكّن» «كانت أساسًا شبيهة بمفهوم إرادة القوّة لأدلر». كان أدلر المعارض الكبير قد وضع منظورًا ثابتًا في علم النفس البشري. كان شديد الرأفة على ضحايا الظلم الاجتماعي وأولى لهذا الظلم أهميّة قصوى للمساعدة على الإعلاء من الكرامة البشرية، ومثله مثل جان بول سارتر بعد سنوات عدّة، فهم أدلر كيف يكون بإمكان البشر، من تلقاء عدم كفاءتهم وقلّة شهامتهم، أن يشدّ بعضهم بعضًا بالحطّ من قيمة الآخرين. وفهم أيضًا كيف تُعامل مجموعة أو طبقة اجتماعية كدونية، فتشتدّ هذه المشاعر وقد تضفي إلى تدابير تعويضية لإثارة الشكوك. كان أدلر يمضي قُدمًا في فهم بعض الأسس الاجتماعية لظاهرة الهدم، إذ يعترف مَن كان له

اهتمام بالعرق كدافع نفسي في العالم الحديث ـ وهم رجال مختلفون باختلاف كنيث كلارك[62] وفرانز فانون[63] ـ بفضل أدلر عليهم في فهم مثل هذه الظواهر.

5 - غريزة الموت (التاناتوس)

ظهرت الخلافات بين فرويد وفيلهالم ستيكل بعد عام ونصف من القطيعة مع أدلر. قد يكون من الخطأ إذا ما اعتبرنا الخلاف مع ستيكل شبيه بذلك الخلاف مع أدلر، فرغم الحفاظ على نفس المواضيع إلا أنّ قضايا معيّنة ودافع الذاتية يختلف اختلافًا واضحًا.

كان فيلهالم ستيكل (1868 ـ 1940)، وهو طبيب ممارس في فيينا، أقلّ الناس انضباطًا ممن التحقوا بمجموعة فرويد الأخيرة. وفي ذلك الوقت، قد يكون الاهتمام بعمل فرويد سمة من سمات عدم الاتزان لأنّ التحليل النفسي كان نشاطًا خارقًا غير مألوف. كان ستيكل كاتبًا موهوبًا بالإضافة إلى كونه شاعرًا وموسيقيًّا بارعًا، وكان لبعض إسهاماته الإكلينيكية فضلًا عظيمًا، وقد غلب على عمله الطابع الصحفي وظلّ اهتمامه بالجنسانيّة شبه إباحي، وحسب رأي البعض المنتمين للحركة، كان على ما يبدو ذا شخصيّة غامضة، وطغى على اهتمامه بهذا الجانب التصوّر الدنيء لمثل هذه الموضوعات.

كتب فرويد عام 1914 «على ضوء الشجاعة الظاهرة على مدى التزامهم بموضوع غالبًا ما يتّسم بالغموض وضعف المآل، كنتُ أميل إلى أن أعفو عن كثير من الأعضاء الذين كان عليّ الاعتراض على ما يفعلون»[1]. وفي الوقت الذي كانت فيه مساندة فرويد ضعيفة، كان ذا غرّة في مدح التحليل النفسي، وقد يعجب فورًا بكلّ شخص أبدى اهتمامًا بأفكاره[2]. هذا وكان سريع التأثّر بالإطراء والمديح ـ وإن لم يكن بدرجة كبيرة ـ وبالتالي كان أحيانًا يُسيء الحكم على الأشخاص. ومن جهة، كان فرويد لا يحبّ من يفتقر إلى حميد الأخلاق، ومع ذلك فهو سريع التأثّر بالرضا والإعجاب، خاصّة من أناس يتميّزون بسعة الخيال، وهو ما جعله فريسة سهلة.

سبق وأن كان ستيكل أحد مرضى فرويد، قد عانى ممّا وصفه جونز في مناسبات متفرّقة بـ«الشكوى العصابية المملّة» وبـ«حالة جدّ خطيرة»[3]. وقد بيّن جونز أنّ فرويد كان متهوّرًا جدًّا إلى درجة أنه حدّثه عن الانحراف الجنسي الذي عانى منه ستيكل، رغم أنّ جونز رأى أنه كان على فرويد ألّا يفعل ذلك، ومع ذلك كلّه، احتفظ كاتب السيرة بالمعطيات الإكلينيكية[4].

لم يكن من الواضح طبيعة العلّة التي كان يعاني منها ستيكل، وقد صرّح فرويد في محاورة له مع أحد تلامذته بأنّ ذلك قد يكون المثلية الجنسية[5]. وفي رسالة صادرة لفرويد ثمّة على الأقلّ إشارة دالّة على أنّ ما أشار إليه جونز قد يكون الاستمناء. «أعلم أنّ يومًا من الأيّام سيدخل حسن التقدير معي قبري، وسيكون ظاهرًا للعيان أنّ تأكيد ستيكل على انعدام الضرر من وراء الاستمناء العشوائي هو بمثابة أكذوبة. إنّ الأمر مدعاة إلى الشفقة-هذا كاف»[6]. يبدو أنّ فرويد قد انتهك سريّة من كان مريضه بالسابق والذي أصبح بعد ذلك عدوًّا له. (لكن أخفى ابنه إرنست في نشره لمجموعة رسائل فرويد هذا التهوّر بتجاهل، وبزلّة قلم، أدخل جملة على الرسالة غيّرت معناها، وبالتالي تُقرأ كما يلي «تأكيد ستيكل على [زعمي] انعدام الضرر من وراء الاستمناء العشوائي»... إلخ. ولكن كان ستيكل الوحيد من بين أعضاء مجموعة فرويد الذي أكّد على انعدام الضرر من الاستمناء، وليس فرويد نفسه، ولم يكن بإمكان فرويد أن يعتقد أنّ ستيكل قد أنسب إليه موقفًا من قضيّة كانت مدار اهتمام علنيّ بينهما. لمّا يقع حذف الجملة الدخيلة، يصبح المعنى الذي ضمّره فرويد أكثر وضوحًا).

مهما كانت طبيعة المشاكل التي عانى منها ستيكل(*)، فقد خفّفت حصص قصيرة من التحليل النفسي تحت إشراف فرويد من وطأتها، وأصبح، كما أشار إلى ذلك، «التابع لفرويد الذي كان بمثابة نبيّ»[8]. وقد كان اقتراح ستيكل بدء أوّل نقاش جماعي أمسية الأربعاء[9]. ومع ذلك، وبعد سنوات، يمكن أن تجد ستيكل في محاضر الجلسات بجمعية فيينا يقدّم الأولويات حسب وجهة نظره، بالإضافة إلى الإشارة إلى بوادر فرويد[10]. وقد أشاد أحد أتباع فرويد بـ«النظرة الأحادية الجانب» لستيكل بوصفها «مثمرة جدًّا» مشيرًا في الوقت نفسه إلى مقطع توقّع فيه فرويد محتوى المقال الذي سيقدّمه ستيكل[11].

أصبح ستيكل معروفًا بفهمه الحدسي للمشاعر اللاواعية خاصّة رمزية الحلم، وحسب رأي فرويد، كان ستيكل يملك «حاسّة» يتطرّق فيها إلى اللّاوعي[12]. اعتقد ستراتشي «أنّ الأمر كان متأخّرًا نسبيًّا أن أدرك فرويد الأهميّة الكاملة لرمزية الحلم تحت تأثير فيلهالم ستيكل. لم يكن حتى الطبعة الرابعة لكتاب تفسير الأحلام (1914) أن خُصّص جزء خاص للموضوع»[13]. لقد اعترف فرويد بمهارة ستيكل في الجوانب النفسية، ويبدو لطيفًا ذكره

(*) وقد كتب في وقت لاحق بأنه واجه صعوبات في القدرة على امتداد ستتين[7].

لإسهام ستيكل في تطوّر عمله، باعتبار تردده في أن يضع نفسه تحت مزيّة أتباعه:

«كانت الرمزية في لغة الأحلام تقريبًا آخر شيء سهل المنال بالنسبة إليّ لأنّ ارتباطات الحالم لا تساعد إلا قليلًا لفهم الرموز... كنتُ قادرًا على إنشاء رمزية للأحلام خاصّة بي قبل أن يوصلني عمل شارنر إلى ذلك، توصّلتُ إلى إدراك أهميّة طريقة التعبير هذه في الأحلام، وكان ذلك متأخّرًا، وكان هذا جزئيًا من خلال تأثير أعمال ستيكل الذي قام أولًا بمثل هذا العمل الرائع ولكن بعد ذلك، أصبح تائهًا»[14].

قيل أنّ فرويد أثنى على ستيكل ثناء عطرًا بعد الصراع مع أدلر: «جعلتُ من لا شيء شيئًا عظيمًا ولكن لا أكترث بما يبدو ذا شأن كبير»[15].

لقد نوقشت الآثار النفسية والفيزيولوجية للاستمناء أثناء سلسلة من اللقاءات عقدتها جمعية فيينا عام 1911 وعام 1912. وكان جزء من جهد فرويد أن «تُعرض في الأخير مشكلات الحياة الجنسية التي يعيشها الرجل للفحص العلمي»[16]. كان هذا النقاش جزءًا من جدل طويل حول الموضوع بين فرويد وستيكل، ونُقل عن فرويد عام 1908 أنه قال:

«في ما يتعلّق بالخلاف الطويل مع ستيكل حول موضوع الاستمناء، لا يزال موقف فرويد مختلفًا عن موقف ستيكل. قد يسبّب الاستمناء ضعفًا كبيرًا على المستوى العصبي، وهو ما يُعرف بالنهك العصبي. صحيح أنّ الاستمناء يخلّف ضررًا على المستوى النفسي: تغيّر الطبع الذي يتسبّب فيه هذا التأرجح بين الرغبة والإشباع عبر تجاوز العالم الخارجي وخاصّة من خلال تركيز نموذج أوّلي للحياة الجنسية المستقبلية»[17].

اعتبر فرويد الاستمناء كـ«فعل مناهض لما هو اجتماعي» متسبّبًا في «إضعاف الحياة الجنسية بشكل عام»[18]. وبالإضافة إلى ذلك، اعتقد فرويد أنّ صنفًا مميّزًا من الأعصاب («الأعصاب الأصلية» مقابل «الأعصاب النفسية») قد وُجد حيث كانت الأعراض الخطيرة نتيجة لتسمّم حاصل على مستوى الممارسات الجنسية غير المشبعة. وفي هذه الحالات، بحث ستيكل عن المعنى النفسي لهذه الأعراض التي «تُثقل المصادر نفسية المنشأ»[19].

صرّح فرويد بإسهامه في لقاء عُقد عام 1912 حول الاستمناء بروح من التسامح بعد أدلر:

«لم يكن الهدف من النقاشات في جمعية التحليل النفسي بفيينا إزالة الفروقات أو

التوصّل إلى استنتاجات، فقد سمح مختلف المتدخّلين، الذين اجتمعوا باتّخاذهم الرأي الأساس نفسه للمعطيات نفسها، بمنح التعبير الأقوى لتنوّع الآراء الفردية دون اعتبار إمكانية التأثير في الجمهور الذي قد يفكّر عكس ذلك، قد يوجد العديد من النقاط في هذه النقاشات التي من الممكن أنه قد أسيء طرحها أو فهمها، ولكن تتمثّل النتيجة النهائية في أنّ كل فرد قد لاقى الانطباع الأوضح لآراء تختلف عن آرائه، وقد عبّر عن آرائه المختلفة لبقية الأشخاص»[20].

كان يستسلم للنقد الموجّه لطريقة تفكيره (التي تبدو غائية، وبالتالي شبيهة جدًّا بأدلر)، وكان قادرًا ليؤكّد «اليوم ما لم أكن قادرًا على التفكير فيه في السابق...»[21].

«في ما يتعلّق بنقاط الخلاف بيننا، علينا أن نشكر الانتقادات المثيرة لزميلنا فيلهالم ستيكل على ضوء تجربته الرائعة، ودون شكّ أنّنا تركنا مجالًا للعديد من النقاط التي يمكن أن تُثار وتُوضّح من قبل فريق من الملاحظين والمكتشفين في المستقبل، ولكن يمكننا الاستناد إلى المعرفة التي أنتجناها بإخلاص وبصدر رحب، وبالقيام بذلك فنحن نفتح مسالك بالتوازي معها يمكن أن نخوض بها غمار بحث لاحق»[22].

لقد عُرف عن فرويد أنه كثير التردّد إذا كانت شخصية ستيكل وعمله يبديان عدم احترام للتحليل النفسي، وقد تذمّر من اعتماد ستيكل «حصريًّا على إلهاماته عوضًا عن اخضاعها لرقابة التفكير الواعي»[23]. عبّر فرويد عام 1909 عن موافقته مع بعض التحفّظات على أفكار جونز في ما يخص كتاب ستيكل: «لقد أصبت كبد الحقيقة، إنّه ضعيف نظريًّا وفكريًّا ولكنّه يمتاز بالدقّة في الكشف عن معنى الباطن واللاوعي. لا يمكن لهذا الكتاب أن يكسب رضاي شخصيًّا ولكن سيكسب رضا الآخرين الغرباء عن هذا الميدان، فمستوى صاحبه يضاهي بشكل كبير مستواهم». وبعد سنوات قليلة كتب فرويد عن كتاب آخر لستيكل أنه «كان مخيّبًا للآمال رغم الإسهامات التي أضافها». وقد أشار فرويد في موطن آخر إلى أنّ «التقويم الواعي والنظري للأشياء ليس بالسهل بالنسبة لستيكل كما هو حال التنقيب عن الرموز اللاواعية حيث يمثّل اللاوعي سلطة مقدّسة»[24].

كان فرويد دائمًا يُعجب بالقدرات الثريّة المبدعة ولكن، على ما يبدو، يرى ستيكل نفسه حرًا لاختلاق التصوّرات متى افتُقدت المادّة اللازمة[25]. لقد أصدر ستيكل كذلك تقارير لنقاشات المجموعة بمجلّة في فيينا طالما أثارت عدم ارتياح فرويد رغم أنها كانت تخدم أهدافه الدعائية.

مع مرور الأيام، تطوّر نقاش المجموعة الذي بدأ أولًا في قاعة انتظار فرويد إلى محور لحركة عالمية. وذهب ستيكل بالاعتقاد إلى أنّ التوتّرات التي حصلت بين فرويد وأدلر ويونغ وستيكل نفسه نتجت جزئيًا عن نيّة فرويد لتحويل التحليل النفسي إلى جمعيّة متماسكة. وكما قال: «لقد انقضى ما كان بين الفرويديين من انسجام، فكان ثمّة نيّة وصراع خفيّ للخلافة بين التلاميذ»[26]. قال ستيكل أنّ فرويد «يبدو أنه يُكنّ كرهًا بليغًا لفيينا»[27] ومن تبعه هناك.

لقد شهدنا أنّ تفضيل فرويد ليونغ أثار استياءً وسط تلامذة فرويد بفيينا، وأكّد سلوك أدلر قلق فرويد إزاء مجموعته، كما قال ستيكل «كان لفرويد عقدة الهرم، إنّه الرجل الكبير، المتخوّف من تلامذته»[28]. (الصورة مقتبسة من كتاب الطوطم والتابو لفرويد). إنّ نجاح ستيكل «في مجال الرمزية جعله يشعر بأنه تجاوز فرويد»، كما يتلخّص في نادرة أصبحت أسطورية.

كان ستيكل مولعًا بتثمين ما قدّمه بالقول أنّ قزم على ظهر عملاق يمكن أن يرى أكثر مّما يراه العملاق نفسه، لمّا سمع فرويد هذا الكلام، علّق بشدّة: «قد يكون ذلك صحيحًا، ولكن لا تستطيع قملة على رأس فلكي القيام بذلك»[29].

كانت تختلط تذمّرات فرويد من أدلر في بعض الأحيان بمآخذ عن ستيكل، وكتب فرويد في رسالة في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1910 لتلميذ أجنبي قائلًا بأنّ «عدم اللباقة والسلوك غير السويّ لأدلر وستيكل يجعل الأمر أنه من الصعب جدًّا أن ينسجما مع بعضهما البعض، كنتُ أغضب لِما كانا يُبديان من سلوك». وبتحكّمه في كل من أدلر وستيكل، كانت لديه قدرة ضئيلة على الكتابة: «كان التعامل معهما شاقًا، وكان كلّي أمل لأن يتوصّلا إلى فراق ودّي، ولكن سيستمرّ ذلك، ورغم موقفي بأنّ لا شيء يمكن فعله، فإنّ ما عليّ سوى الصبر»[30].

إنّ نشر مثل هذه الملاحظات بالخارج لم يؤكد فقط أنّ الحركة ككلّ ستجمع قوّاها ضد أدلر وستيكل، ولكن في الوقت نفسه قوّى اتّفاق الأتباع الملتزمين بأنهم قد شكّلوا أكثر من أيّ وقت مضى أقليّة محاصرة. لقد كتب فرويد في شهر شباط/ فبراير من عام 1910 أنه لم يعد بإمكانه التمتّع بما لدى المجموعة بفيينا من أفكار. «إنّني أشعر بضيق ملأ صدري ولم أعد أتحمّله مع الجيل القديم. سيشعر ستيكل وأدلر وسادغر بأنّني مشكلة وسيتعاملون معي بوصفي كذلك، ولكن لا يمكنني الاعتقاد بأنّ لديهم شخص أفضل لتعويضي». كما كتب

فرويد عن تجافيه للمحلّلين في فيينا[31]. في نيسان/ أبريل من عام 1911، أطلق فرويد على أدلر وستيكل اسميّ «ماكس ومورتز» الصبيّان الشقيّان في كتاب للمؤلف والكاريكاتوري فيلهالم بوش، كما اعتقد فرويد أنّ أدلر وستيكل كانا يتراجعان فكريًّا إلى الوراء وسرعان ما سينتهي بهما المطاف بإنكار وجود اللاوعي». «إنّ أدلر بمثابة فليس الصغير عاد إلى الحياة مجدّدًا، وعلى الأقل يُطلق على الملحق الزائد ستيكل اسم فيلهالم»[32].

عندما تنحّى فرويد عن منصب رئيس «جمعية فيينا» لصالح أدلر، كان يشكّ إذا ما كانت مجموعته «عبّرت عن أسفها» لتنحّيه، «كنتُ أتقلّد أدوارًا مضنية، أدوار رجل غير راض وغير مرغوب فيه»[33]. وعندما استقال أدلر كرئيس في الثاني والعشرين من شباط/ فبراير عام 1911، غادر ستيكل منصبه كنائب رئيس في الوقت نفسه، وقال ستيكل أنه لم يكن هناك اختلاف جوهري بين آراء فرويد وآراء أدلر، وكان ستيكل كذلك يتقاسم مع أدلر بعض المواقف النظرية، فعلى سبيل المثال، كان كل منهما يحبّذ تفسير الأحلام بالجنسيْن. وكان فهم فرويد لهذه الصعوبات يتمثّل في أنّ «الأب لا يقدّم لهم ما يجب القيام به تجاههم. إنّه نقد الأب العنين. وفي حقيقة الأمر، تراجعت قدرتي على تأطير المرضى بشكل ملحوظ في هذ العام الذي عرفتُ فيه اضطرابًا متواصلًا، ومن الممكن أن تتمّ المصالحة مع ستيكل، ولكنّه عنيد رغم أنه جدير بالاحترام، وقدّم الكثير للتحليل النفسي»[34].

تمّت القطيعة نهائيًا مع ستيكل عندما انحاز فرويد مع فيكتور توسك بعد «مشهد وضيع» لشجار دار بين ستيكل وتوسك في الجمعية[35]. أراد فرويد أن يقوم توسك بالإشراف على الكتب في إطار المجلّة المركزية للتحليل النفسي التي عمل فيها ستيكل كمحرّر (صحبة أدلر)، وقاوم ستيكل هذا التعدّي على سلطة التحرير بكل حدّة، فكتب فرويد للناشر مطالبًا بإبعاد ستيكل كمحرّر غير أنّ ستيكل لم يتزحزح، وبلّغ موقفه إلى الناشر، وأخيرًا، قد رتّب فرويد لكلّ فرد له صلة بالمجلّة للاستقالة، تاركًا ستيكل دون منصب يُذكر، ثمّ أسّست المجلّة العالمية لتعوّض المجلّة المركزية.

قبل مغادرة جمعية فرويد نهائيًا، التزم ستيكل ببعض الأعمال مع أدلر، وهو حليفه السابق في ما سمّاه فرويد بـ«معارضة» مفكّري فيينا لمعاملته التفضيلية ليونغ وللسويسريين. استقال ستيكل أخيرًا من جمعية فيينا في السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1912، ولكن بعد شهر، أنكر بإصرار لـ(لو أندرياس سالومي) أنه «متمسّك بآراء أدلر...». وسجّل لو تَذمّر أدلر من «خيانة»[36] ستيكل له.

في الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر 1912، كتب فرويد عن ارتياحه لمغادرة ستيكل الوشيكة من الجمعية:

«ذهب ستيكل إلى حال سبيله، (كنتُ مسرورًا لذلك، لا يمكن أن تدرك كم عانيْتُ بسبب التزامي بالدفاع عنه أمام العالم بأسره، إنّه شخص عديم الرحمة) لم تكن القطيعة على أساس علمي، كان لديه شك ضدّ عضو آخر من الجمعية والذي يُرجى حذفه من المراجع الموجودة «في مقاله»، إنّ الأمر لجليل أن نتخلّص من مثل هذا الشخص الشكاك...»[37].

يبدو أنّ المحلّلين في سويسرا كانوا مرتابين حول ما يتعلّق بعمل ستيكل، ومع ذلك، كان فرويد يستعمل ألفاظ العظمة («واجبه للدفاع» عن ستيكل ضدّ «العالم بأسره») لوصف ما كان يعنيه ذلك النزاع. هل كان الشكّ ضدّ توسك أم أنه كان ضدّ فرويد؟ كتب فرويد يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر لأحد أتباعه أنّ «التخلّص من ستيكل نعمة تستحق التضحية»، وفي الأسبوع الموالي حدّث فرويد شخصًا آخر عن «خيانة» ستيكل[38]. وبعد مدّة قصيرة كتب فرويد أنّ «خسارة ستيكل تُقدّر عالميًّا كمكسب عظيم»[39].

وبعد ذلك تناول فرويد قضيّة ستيكل بطرق تعدّ مألوفة الآن، وعلى الرغم من أنه أبقى على القليل من بحث ستيكل في أثر الباثولوجيا النفسية في الحياة اليومية والتي ضمّنها أصلًا في هذا الأثر، حذف فرويد في إصدارات لاحقة عبارة «زميلي»[40] عندما أشار إلى ستيكل، وقد حُذفت بعض الأقوال لستيكل من كتابات فرويد. وفي عام 1909، كتب فرويد عن ستيكل قوله «لا بدّ أن أشكر زميلًا مميّزًا على التفسير الصحيح للأحلام». ولكن بعد انفصالهما، أدخل فرويد عبارة «تفسيرًا آخر» عوضًا عن عبارة «التفسير الصحيح»[41]. وبدوره، حذف ستيكل توطئة كتبها فرويد لأحد كتبه من طبعات لاحقة للكتاب[42].

حاول فرويد قدر استطاعته أن يدفع ديونه الفكرية، ولكن كما لاحظنا، فإن أي شيء لا يقع ضمن مسار أفكاره سيبدو «غير قابل للفهم» و«لا يمكن تفهّمه» أو «غامض» بالنسبة له. وحسب ما جاء على لسان ستيكل، «اعترف فرويد» لي مرّة (في لحظة «ضعف») أنّ كل تصوّر جديد يقدّمه آخرون يجده مقاومًا وغير متقبّل، ويحتاج إلى أسبوعين ليتجاوز مثل هذه المقاومة»[43]. كان جونز صائبًا في تفكيره بأنه عندما يتعلّق الأمر بمواقف الآخرين، تجد فرويد «يُصغي إليهم بكلّ لباقة ويُظهر اهتمامًا بهم، وغالبًا ما يقوم بملاحظات ذكيّة، وقد يشعر أحدهم بأنها لا تضيف شيئًا لأفكاره»[44]. ومع حلول

عام 1924، قدّم فرويد خاصيّة من بين خصائصه تتمثّل في أنه «مضطرّ لأسلك طريقي، ولا أستطيع الاستفادة من الأفكار المقدّمة لي عندما لا أكون مستعدًا لتقبّلها». ومع ذلك، كان يرجى أن يكون الأمر «سوء تصوّر بأنّني أنكر الأشياء فقط لأنّني لا أستطيع الحكم عليها أو هضمها بعد»[45].

كان ستيكل أوّل من استعمل لفظ «التاناتوس» كتعبير عن غريزة الموت، وعلى الرغم من أنّ فرويد تزايدت كتاباته حول سيكولوجيا الموت، مقدّمًا في الأخير «غريزة» الموت، ولكن غضبه على ستيكل حال دون استخدامه للفظ «التاناتوس» في كتاباته[46]. وقد أشار جونز إلى أنه من «الغرابة» ألّا يستخدم فرويد، بدوره، للتعبير عن غريزة الموت لفظ التاناتوس إلا شفهيًا[47].

ركّز ستيكل منذ البداية على موضوع الموت تركيزًا كبيرًا، وحسب ما جاء في إحدى كتاباته عام 1910، كان يُنظر إلى القلق على أنه «ردّة فعل على تقدّم غريزة الموت، الناتجة عن كبح غريزة الجنس»[48]. لقد كان ستيكل أوّل من اختبر رمزية الموت في عالم الحلم، رغم أنّ فرويد عارض الالتباس الذي يبدو كامنًا وراء «تأكيد القول بأنّ فكرة الموت توجد وراء كل حلم». وفي هذا الإطار عبّر فرويد عن تحفّظاته بالشكل المعتاد: «لم أفهم بالضبط ما المقصود بهذه القاعدة، ولكن أعتقد أنها تُزيل اللبس بين الحلم وشخصية الحالم»[49]. وفي وصفه لأصل الفضيلة عام 1913 باعتبارها نقيض الكراهية، فيما يعتبر علم الأخلاق وسيلة للحفاظ على حبّ الشخص من العدائية، أدرك فرويد أنّ «هذا يبدو المعنى المراد من تأكيد ستيكل، الذي تبيّن لي سابقًا أنه غير قابل للفهم، إلى درجة أنّ الكراهية وليس الحب هي العلاقة الشعورية الأوّلية بين البشر»[50]. ومع حلول عام 1929، لم يعد بإمكان فرويد «أن يدرك كيف نتجاهل العدوان بكلّيته ومظاهر التدمير ونخفق في إعطائها مكانتها التي تستحق في إطار تفسيرنا للحياة»[51].

رغم هذه الدرجة من الوعي، لا يمكن لفرويد أن يتراجع عن الكشف على ما اتّخذه فرصة لتأكيد أنّ إسهام ستيكل لم يكن له أساس علميّ، وبعد التكريم الذي ناله ستيكل عام 1922، باعتباره الأوّل الذي قدّم وصفًا لرمزية الموت، أضاف فرويد بين علامَتيّ تنصيص: «لا يجب أن نتغافل عن شيء للقيام بواجب تقديم اعترافات أدبيّة، رغم أنّ ذلك غير مناسب»[52]. لقد عرض ستيكل غريزة الموت عندما تذمّر من تبنّي فرويد «لبعض اكتشافاتي في وقت لاحق دون أن يذكر اسمي...»[53].

بعد الصراع مع ستيكل، أصبح فرويد أكثر لطفًا، ووصف عام 1914 تفسيرات ستيكل بـ«المندفعة»، وأضاف واصفًا «إنّ نقص القدرة النقدية للكاتب وميله للتعميم يثير شكوك الآخرين حول تفسيراته أو يجعلها غير قابلة للاستخدام....»[54]. كان فرويد دائمًا ما يعترف بمهارة ستيكل في الكشف عن اللاوعي رغم أنه ميّز نوعيًا عمله عن عمل ستيكل، وبالإضافة إلى تفسير الأحلام، كتب فرويد:

«يعدّ تحليل الحلم الأخير دليلًا واضحًا على أنّني اعترفتُ بوجود الرمزية في الأحلام منذ البداية، ولكن دائمًا بدرجات، وبتطوّر تجربتي، توصّلتُ إلى تقديري الكامل لنطاقها ودلالتها، وقمتُ بذلك تحت تأثير إسهامات فيلهالم ستيكل... لقد قدّم ذلك الكاتب، الذي قد أضرّ بالتحليل النفسي بقدر ما أضاف له الكثير، عددًا كبيرًا من الترجمات للرموز. لقد قوبلت بالشك أولًا (لعلّه من قبل فرويد) ولكن بعد ذلك وقع تأكيدها ويجب أن يقع القبول بها... توصّل ستيكل إلى تفسيراته للرموز عن طريق الحدس، بفضل موهبة خاصّة لفهم مباشر، ولكن لا يمكن الاعتماد كليّةً على مثل هذه الموهبة، وفاعليّتها غير خاضعة للنقد وبالتالي، لا تخضع نتائجها إلى المصداقية»[55].

كانت هذه التصريحات العلنية منسجمة كليًا مع مواقف فرويد المبطنة، وفي عام 1923، أعاد فرويد آرائه حول ستيكل قائلًا:

«رغم طُرقه التي لا تُحتمل ومقاربته الفاقدة للقواعد العلمية، لقد ساندتُه لمدّة طويلة أمام الاعتداءات من كل ناحيّة، وتغلّبتُ على نفسي لتجاهل عجزه عن النقد الذاتي والصدق - الخارجي والداخلي - إلى أن ظهرت خيانته وعدم وفائه أخيرًا في إحدى المناسبات وهو الشيء الذي يندى له الجبين»[56].

وبالمقارنة مع قصور كل من أدلر ويونغ، قد يكون من العدل أن نتوافق مع ساكس أنّ «مغادرة ستيكل لم تُثر أيّ عواطف، ولم يأخذ فرويد مغادرته مأخذ الجدّ رغم أنه كان يُدرك مواهبه العدّة»[57] ولكن اعتبره فرويد شخصيّة خسيسة. كتب فرويد عام 1924 أنّ ستيكل كان حالة من «الجنون الأخلاقي»[58]. وصنّفه فرويد ضمن هؤلاء الذين كانوا يُعانون من القصور، دون التركيز عليه بشكل علني كما فعل مع يونغ وأدلر. لم يدّعِ ستيكل أنه كاتب مذهب شامل جامع على الرغم من أنّ فرويد اعتقد أنّ ستيكل يمكن أن يتّخذ «موقفًا» تجاه سيّده السابق[59].

كان فرويد مع أواخر عام 1927 يكنّ قدرًا من الاحترام لقدرات ستيكل وكان مهتمًا بدرجة أو بأخرى بما إذا كان هو وستيكل من الممكن أن يتقاسما أفكارًا معيّنة. لقد أجّل إصدار مقال له يتعلّق بموقفه من «الفتيشيّة» إلى أن «يتبيّن له ما إذا توصّل ستيكل إلى حلّ هو بصدد تقديمه في كتاب خصّصه ستيكل مؤخّرًا لهذا الموضوع»[60]. لم يجد فرويد الرغبة لقراءة كتاب ستيكل، ففوّض ويتلز (الذي عاد إلى المجموعة الأولى بعدما كان من أتباع ستيكل لبعض الوقت) لقراءته له.

خلال تلك السنوات، بحث ستيكل بشكل متواتر على صلح، ولكن فرويد ظلّ ضيّق الصدر، وبعد أن أصيب فرويد بالسرطان، كتب ستيكل له في أواخر عام 1923 معبّرًا عن تمنّياته الخالصة باستعادة صحّته. وفي ردّ على ما كتبه ستيكل عن علاقتهما السابقة، أجاب فرويد ولكن لا أستطيع التراجع عن معارضتك في بعض النقاط القليلة المهمّة:

«إنـك مخطئ إذا اعتقدت أنّني أكرهك أو كرهتُك، والحقيقة هي أنه بعد فترة الانسجام التي عشناها، لعلّك ما زلت تتذكّر كيف بدأت علاقتنا، كان ثمّة داع لعدّة سنوات جعلني ساخطًا عليك وفي الوقت نفسه كنتُ أدافع عنك وأتصدّى لكلّ اعتداء صادر عن كل فرد من حولي. وقاطعتُك بعد خيانتك لي بكيفية مهينة في مناسبة من المناسبات. (لم تذكر في رسائلك إطلاقًا هذه المناسبة وهي المجلّة التي أسسّتها). وفقدتُ الثقة فيك في ذلك الوقت ومنذ ذلك الحين لم تقدّم لي أيّ تجربة من شأنها أن تُعيد الأمور إلى ما كانت عليه في السابق».

وقد عارضتُ أيضًا تأكيدك أنّني أقصيتُك على أساس اختلافات علمية بيننا، وقد يبدو الأمر جيّدًا للغاية على المستوى العلني، ولكن لا ينسجم ذلك مع الحقيقة. كانت خصائصك الشخصية، عـادةً توصف على أساس الطبع والسلوك، وهو ما جعل التعاون معي مستحيلًا من أجل الأصدقاء ومن أجلنا جميعًا وبما أنّك لن تتغيّر وهذا مؤكّد، ولست في حاجة إلى ذلك، لأنّ الطبيعة قد وهبتك درجة كبيرة من الرضا عن النفس، وليس لعلاقتنا أيّ فرصة لكي نصبح مختلفين عمّا كنّا عليه خلال السنوات الحادية عشرة الماضية. ولن يحزنني أن علمتُ أنّ نشاطاتك الطبّية والأدبيّة قد جلبت لك النجاح، وأعترف أنّك تظلّ وفيًّا للتحليل النفسي وتستفيد منه رغم ما ألحقته به من ضرر.

من السهل على الأصدقاء والتلاميذ أن يقيّموا إصداراتك بموضوعية عندما تصدر انتقاداتك وجدالاتك بصفة أكثر لطفًا»[61].

لقد عبّر ستيكل عن العديد من الآراء الخاصّة به، وهو يعتبر خارج عن المجموعة، ولكن، مثل حال أدلر ويونغ، استعمل أفكار فرويد كخلفيّة لأفكاره، واختلافاته عن فرويد عُبّر عنها بشكل أقلّ حدّة. وقد يكون متفائلًا عندما حاول أن يستغلّ مرض فرويد كواسطة للصُلح. وفي رسالة أخرى، قدّم ستيكل اقتراحًا بأن تندمج المجموعة التي كوّنها مع «جمعية التحليل النفسي بفيينا» وأن تُمّحى كل الخلافات السابقة. (كان ستيكل يقلّد فرويد بشكل هزلي حيث كانت تُؤخذ الصور وهو يتوسّط أتباعه لمّا كانوا يلتقون في «الاجتماعات»)، وحسب ملخّص لجونز، فسّر ستيكل أنّ «الأمور كان لها أن تكون مختلفة فقط لو اعترف فرويد في الوقت المناسب أنّ النزاعات ما بعد الحرب قد أثيرت بسبب غيرة متبادلة في إطار مطالبته لكسب الودّ أكثر منه تظاهرًا بفكره»[62]. اعتقد جونز أنّ فرويد من المحتمل أنه لم يردّ إطلاقًا على هذه الرسالة.

طالما اعتبر فرويد ستيكل محلّلًا ونظرته تحليلية[63]. وحسب رواية جوزف ورتيس (كان خاضعًا للتحليل وتوتّرت علاقته بفرويد)، اعتقد فرويد أنّ توسك قد برهن أنّ ستيكل كان كاذبًا. «قلتُ أنّ ستيكل وصف فرويد لي كـ«واحد من أعظم العباقرة»، ولكن امتنع فرويد عن الثناء بالقول أنّ المراد هو بلوغ ذلك إلى مسمعه... (أوّلًا قالوا إنّني عبقري ولكنّهم أرادوا حذف كل آرائي)». كان إعجاب ستيكل بفرويد «إعجابًا مصطنعًا، إنّه يلعب دور التلميذ المحترم وفي الأثناء يؤكّد على مزايا مَن يعلوه رتبةً، إنّه يسامحني على كل ما صدر عنه لإيذائي». ويحدّث ورتيس أنّ فرويد قال: «يُعرف عن ستيكل ثلاثة أشياء: رجل لا يراوده الشكّ، لا يهتمّ بغيره، صاحب طموح عاديّ، لم تُعرف عنه مظاهر العظمة حتى أنه يوصف «بحجم حبّة حمّص»...كان هذا سلوكه بحيث يستحيل أن تستمرّ علاقتك به». اعتقد فرويد أنّ هافلوك إليس كان عليه أن يخجل من نفسه لما قال لورتيس حديثًا حسنًا عن ستيكل[64]. ينسجم هذا مع ملاحظة ساقها فرويد في رسالة عام 1923 ذكر فيها أنّ «إعجابًا مريضًا بستيكل هو علامة على ضعف الحكم وتدني الذوق...»[65].

تابع ستيكل كتابته لرسائل الودّ لفرويد، وفي ذكرى عيد ميلاد فرويد الخامس والسبعين عام 1931، أرسل ستيكل ما وصفه جونز بـ«رسالة حميمية تصحبها تأمّلات حزينة في تلك الأيّام الخوالي الجميلة عندما كان ستيكل التلميذ الأكبر لفرويد وهو الذي ساعد هذا الأخير في بناء صرح التحليل النفسي»[66]. وعندما وجد فرويد عام 1938 ملاذًا في لندن من النازيين، بعث ستيكل، الذي كان قد سبقه إلى إنكلترا، برسالة ترحيب[67]. لقد

عانى ستيكل من مرض السكّري، وأصبح مهووسًا بالنازيين الذين اضطهدوه، إلى أن فارق الحياة في الخامس والعشرين من حزيران/ يونيو 1940.

الهوامش

1 ـ التعاون

(1) Interview with Richard Wagner, Mar. 25, 1966.

(2) Reich Speaks of Freud, p. 73.

(3) Letter from Franz Bienenfeld to Ernest Jones, Oct. 9, 1955 (Jones archives).

(4) «Character and Anal Eroticism», Standard Edition, Vol. 9, p. 173.

(5) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 93.

(6) A notable recent exception is Ellenberger's The Discovery of the Unconscious.

(7) Minutes, Vol. II, P. 66.

(8) Phyllis Bottome, Alfred Adler (New York: Vanguard; 1957), p. 69. CF. also Heinz Ansbacher, «Was Adler a Disciple of Freud? A Reply», Journal of Individual Psychology, Vol. 18, (Nov. 1962), pp. 126-35.

(9) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 454.

(10) Puner, Freud, p. 30.

(11) «On Dreams», Standard Edition, Vol. 5, p. 635.

(12) Sachs, Freud, p. 185.

(13) Reik, from Twenty Years with Freud, p. 15.

(14) Wittels, Sigmund Freud, p. 134.

(15) Interview with Mrs. Alexander Freud, May 12, 1966. Cf. also Letter from Harry Freud to Ernest Jones, Jan. 25, 1956 (Jones archives).

(16) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 71.

(17) «Freud's Psychoanalytic Procedure», pp. 249, 251.

(18) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 386.

(19) Carl Furtmuller, «Alfred Adler», in Alfred Adler: Superiority and Social Interest, ed. Heinz and Rowena Ansbacher (Evanston III.: Northwestern University Press; 1964), p. 346.

(20) Nigel Dennis, «Alfred Adler and the Style of Life», Encounter, Vol. 35 (1970), p. 7.

(21) Jones, Free Associations, p. 169. Interview with Abram Kardiner, Oct. 17, 1964.

(22) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, pp. 599-603.

(23) Minutes, Vol. II, P. 260.

(24)يقول جونز على لسان زوجة أدلر، رايسا «أن تروتسكي وجوفي غالبًا ما تردّدا على منزلها». غير أن ألكسندر يعترض على هذا الطرح. لعل جونز اعتمد على مقابلة إسلر لكلمبرير.
Sigmund Freud, Vol. II, P. 134 Alexandra Adler, Oct. 19, 1965.

(25) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 71.

(26) «On the History», p. 51.

(27) وفقًا لفيليس بوتوم «عملية التحليل النفسي برمتها تناقض منفعة الإنسان. هذا هو (الظل)».
Alfred Adler, p. 77. Cf. also Ansbacher, «Was Adler a Disciple of Freud? A Reply», pp. 126, 131.

(28) Sachs, Freud, p. 126. Cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 408.

(29) Max Graf, «Reminiscences of professor Sigmund Freud», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 11, No.4 (1942), pp. 474-75.

(30) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 62.

(31) «Letter to Fritz Wittels», p. 287.

(32) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 142.

(33) Puner, Freud, p. 253.

(34) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 121.

(35) «New Introductory Lectures», p. 139.

(36) «Civilization and its discontents», p. 110.

(37) «On the History», pp. 38-39.

2 ـ إرادة القوة

(1) Sachs, Freud, p. 57.

(2) «On the History», p. 44.

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, pp. 69-70.

(4) Wilhelm Stekel, Autobiography, ed. Emil A. Gutheil (New York: Live-right; 1950), p. 129.

(5) «On the History», pp. 44-45.

(6) «Two Encyclopedia Articles», p. 248; Minutes, Vol. II, P. 464.

(7) Minutes, Vol. II, pp. 539, 538, 540.

(8) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 132.

(9) «On the History», p. 59.

(10) Minutes, Vol. II, P. 63.

(11) Interviews with Richard Wagner, Dec. 17, 1965, Feb. 11, 1966, and March 25, 1966. Cf. Kurt Eissler's interview with Paul Klemperer (Jones archives).

(12) Sachs, Freud, p. 473.

(13) Eissler's interview with Klimperer.

(14) Graf, «Reminiscences of Professor Sigmund Freud», p. 473.

(15) «On The History», p. 51; Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 133.

(16) Sachs, Freud, p. 51.

(17) Letters of Freud and Pfister, p. 48. But cf. Weigert, «Dissent in the Early History of Psychoanalysis», p. 353.

(18) Letters of Freud and Abraham, pp. 103,105,110. Freud/Jung Letters, pp. 447,373,403.

(19) Interview with Mrs. Hanns Sachs, Dec. 22, 1965.

(20) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», pp. 80-81.

(21) Erik Erikson, Dialogue with Erik Erikson, ed. Richard I. Evans (New York: Harper & Row; 1967), p. 16.

(22) Sachs, Freud, p. 114.

(23) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 304.

(24) «On the History», p. 66.

(25) Ibid., p. 25.

(26) Ibid., pp. 49-50.

(27) Ibid., p. 7.

(28) Ibid., p. 52.

(29) Ibid., p. 51.

(30) Wittels, Sigmund Freud, p. 225.

(31) Letters of Freud and Abraham, p. 182.

(32) Sigmund Freud and Lou Andreas-Salomé: Letters, ed. Ernst Pfeiffer, translated by William and Elaine Robson-Scott (hereafter cited as letters of freud and Andreas-Salomé) (London: Hogarth; 1972), p. 19.

(33) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 127, 129, 128, 130.

(34) Jones, Free Associations, p. 218.

(35) Sachs, Freud, pp. 95-96, 115, 42.

(36) Letters, p. 312.

(37) «On the History», pp. 54-55, 57-58.

(38) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 346. Cf. also Heinz Hartmann, Ernst Kris, and Rudolph Loewenstein, «The Function of Theory in Psychoanalysis», in Drives, Affects, Behavior, ed. Rudolph Loewenstein (New York: International Universities Press; 1953), p. 28.

(39) «On the History», p. 52.

(40) «The Question of Lay Analysis», p. 208.

(41) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 237.

(42) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 611. But cf. Johnston, The Austrian Mind, p. 257.

(43) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 397.

(44) «Analysis Terminable and Interminable», pp. 252-53.

3 - الأولويات

(1) Minutes, Vol. II, P. 433.

(2) «On the History», p. 53.

(3) Ibid., pp. 56, 57, 16.

(4) Interviews with Helene Deutsch, May 22, 1965, Aug. 6, 1966, and April 8, 1967. Cf. also letter from Louis S. London to Ernest Jones, May 15, 1956 (Jones archives), Reich Speaks of Freud, pp. 59-60, and interview with Richard Sterba.

(5) «On the History», p. 51. Cf. Freud/Jung Letters, p. 373.

(6) Quoted in Andreas-Salomé, The Freud Journal, p. 33.

(7) Ibid., p. 127.

(8) Quoted in ibid., pp. 160-61.

(9) Minutes, Vol. II, pp. 251, 580, 510, 579.

(10) «Two Encyclopedia Articles», p. 255.

(11) Letter from Sigmund Freud to Max Marcuse, Aug. 17, 1908.

(12) Minutes, Vol. II, PP. 43-52. For an examination of the climate of ideas in which Freud wrote, cf. Stephen Kern, «Freud and the Discovery of Child Sexuality», History of childhood Quarterly, Vol. I, No. 1, (Summer 1973), pp. 117-141.

(13) Letters of Freud and Abraham, pp. 58, 73-74.

(14) Ibid., p. 448.

(15) The Freud/Jung Letters, p. 223.

(16) Letters of Freud and Abraham, p. 171.

(17) Letter from Sigmund Freud to Max Marcuse, Sept. 26, 1926.

(18) Ellenberger, The Discovery of the unconscious, p. 849.

(19) Ibid., p. 448.

(20) Graf, «Reminiscences of Professor Sigmund Freud», p. 469.

(21) «An Autobiographical Study», p. 50.

(22) Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, p. 144.

(23) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 189-90.

(24) Letters of Freud and Abraham, p. 352; Binswanger, Freud, p. 30; Letters of Freud and Abraham, p. 64.

(25) Puner, Freud, p. 212.

(26) Letters of Freud and Zweig, pp. 122-23.

(27) Ibid., p. 130.

(28) «On The History», p. 8.

(29) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 110-11.

(30) Quoted in ibid., p. 45, Cf. Freud/Jung Letters, p. 178.

(31) Minutes, Vol. II, PP. 516, 461-62.

(32) «A Disturbance of Memory on the Acropolis», p. 245.

(33) Minutes, Vol. II, P. 536.

(34) «Analysis Terminable and Interminable», p. 245.

(35) «Josef Popper-Lynkeus and the Theory of Dreams», p. 261.

(36) «A difficulty in the Path of Psychoanalysis», pp. 143-44.

(37) «On the History», pp. 15-16.

(38) «Notes upon a Case of Obsessional Neurosis», p. 184.; Interview with Heinz Hartmann, Oct. 18, 1965.

(39) Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society, ed. Hermann Nunberg and Ernst Federn, Vol. I, (New York: International Universities Press; 1962) (cited hereafter as Minutes), pp. 359-60.

(40) Ibid., Vol. II, PP. 31-32.

(41) «An Autobiographical Study», pp. 59-60.

(42) Interview with Irmarita Putnam.

(43) The Origins of Psychoanalysis, p. 126.

(44) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 443.

(45) Interviews with Helene Deutsch, June 11, 1966, and Jan. 21, 1967.

(46) Cf. Roazen, Brother Animal, Ch. 3.

(47) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 285; «A Difficulty in the Path of Psychoanalysis», pp. 139-41.

(48) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 131.

(49) Quoted in ibid., Vol. II, P. 415.

(50) Letters of Freud and Abraham, p. 345.

4 ـ المراجعات

(1) Andreas-Salomé, The Freud Journal, p. 43.

(2) Weigert, «Dissent in the Early History of Psychoanalysis», p. 351.

(3) Johnston, The Austrian Mind, p. 256.

(4) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 617.

(5) Andreas-Salomé, The Freud Journal, p. 88.

(6) Bottome, Alfred Adler, p. 72.

(7) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 606.

(8) Ibid., p. 613.

(9) «Psychoanalytic Notes on an Autobiographical Account», p. 61.

(10) Minutes, Vol. II, p. 174.

(11) «On the History», p. 61.

(12) Andreas- Salome, The Freud Journal, p. 62.

(13) «On the History», p. 38.

(14) «The Question of Lay Analysis», p. 256.

(15) Ernst Kris, «Some Vicissitudes of Insight in Psychoanalysis», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 37, Part 6 (Nov-Dec. 1956), p. 453.

(16) Letters, p. 401.

(17) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 465.

(18) Jones, Free Association, p. 217.

(19) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 412.

(20) Rudolph Loewenstein, «Some Remarks on Defenses, Autonomous Ego and Psychoanalytic Technique», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 35, Part 2 (1954), p. 189.

(21) Evans, Dialogue with Erik Erikson, pp. 100, 27.

(22) Weigert, «Dissent in the Early History of Psychoanalysis», p. 350.

(23) Minutes, Vol. II. P. 441.

(24) «Five Lectures on Psychoanalysis», p. 20.

(25) «On the History», p. 52.

(26) Ibid., p. 50.

(27) Andreas-Salomé, The Freud Journal, p. 35.

(28) Minutes, Vol. II, p. 321.

(29) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 579-80.

(30) Ernst Kris, «Book Review of Anna Freud's The Ego and The Mechanisms of Defence», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 19, (1938), p. 142.

(31) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, pp. 638-39.

(32) Minutes, Vol. II, PP. 260,266,321.

(33) «Civilization and Its Discontents», p. 114.

(34) Interview with Willy Hoffer, June 29, 1965.

(35) Cf. Kurt Eissler's interview with Paul Klemperer.

(36) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 107.

(37) Interview with Ernst Federn.

(38) Sachs, Freud, pp. 120-21.

(39) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 621; «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 12, p. 178.

(40) «Notes upon a Case of Obsessional Neurosis», p. 160.

(41) Cf. «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 184; «The Psychoanalytic view of Psychogenic Disturbance of Vision», Standard Edition, Vol. 11, p. 218.

(42) Quoted in Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 146. Cf. also Freud/Jung Letters, pp. 373, 376, 387, 422, 428.

(43) «On Narcissism», Standard Edition, Vol. 14, pp. 92-93.

(44) «Two Encyclopedia Articles», p. 248.

(45)اعترض فرويد على استخدام هيلين ديتشيز مصطلحًا «كما لو أن» في عملها عن السايكوباثيين. هي تجهل أن أدلر غالبا ما اقتبس مصطلح فيلهينغر الذي اتخذ منه فرويد استثناءً للمصطلح في مقالة لطالب صاحب ولاء.

(46) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 507.

(47) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 53; «Totem and Taboo», Standard Edition, Vol. 13, p. 90.

(48) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the Sexes», pp. 253-54.

(49) Letters of Freud and Pfister, p. 95.

(50) Letters of Freud and Abraham, p. 364.

(51) «New Introductory Lectures», p. 140.

(52) Ibid., pp. 65-66.

(53) E. A. Bennet, C. G. Jung (New York: E. P. Dutton; 1962), p. 56.

(54) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 208.

(55) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 595.

(56) Alfred Adler, Social Interest: A challenge to Mankind, translated by John Linton and Richard Vaughan (New York: Capricorn Books; 1964) p. 253.

(57) Interview with Emmanuel Miller, Aug. 27, 1965.

(58) A. H. Maslow, «Was Adler a Disciple of Freud? A Note», Journal of Individual Psychology, Vol. 18 (Nov. 1963), p. 125.

(59) CF. Kurt Eissler's criticism of Franz Alexander's concepts as Adlerian. «The Chicago Institut of Psychoanalysis», The Journal of General Psychology, Vol. 42, First Half (Jan. 1950), p. 115.

(60) Robert Waelder, «Present Trends in Psychoanalytic Theory and Practice», The Yearbook of Psychoanalysis, Vol. I (New York: International Universities Press; 1945), p. 87.

(61) Ives Hendrick, «The Discussion of the 'Instinct to Master'», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 12, No. 4 (1943), p. 563.

(62) Kenneth Clark, «Implications of Adlerian Theory for an Understanding of Civil Rights Problem and Action», Journal of Individual Psychology, Vol. 23 (Nov. 1967), pp. 181-90.

(63) Frantz Fancon, Black Skin, White Masks, translated by Charles Lam Markmann (New York: Grove Press; 1967).

5 ـ غريزة الموت (التاناتوس)

(1) «On the History», p. 26.

(2) Cf. Kurt Eissler's interview with Edoardo Weiss.

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 7; Jones Free Associations, p. 219.

(4) Letter from Ernest Jones to Max Schur, Oct. 4, 1955, (Jones archives); Jones, Free Associations, p. 220.

(5) Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, p. 147.

(6) Letters, p. 352.

(7) Stekel, Autobiography, p. 123.

(8) Ibid., p. 106.

(9) «On the History», p. 25; Stekel, Autobiography, pp. 115-16.

(10) Minutes, Vol. II, PP. 112, 248, 551, 560.

(11) Ibid., pp. 111-12.

(12) Ibid., p. 273.

(13) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 149.

(14) «On the History», p. 19.

(15) Wittels, Freud, p. 225.

(16) «Contributions to a Discussion on Masturbation», p. 243.

(17) Minutes, Vol. II, P61.

(18) Ibid., p. 562.

(19) «Contributions to a Discussion on Masturbation», p. 248.

(20) Ibid., p. 243.

(21) Ibid., p. 249.

(22) Ibid., p. 246.

(23) Minutes, Vol. II, P. 10.

(24) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 62, 135; Minutes, Vol. II, P. 401. Cf. Freud/Jung Letters, p. 259.

(25) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 136.

(26) Stekel, Autobiography, p. 125.

(27) Minutes, Vol. II, P. 466.

(28) Wittels, Freud, pp. 192-93.

(29) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 136.
مقولة فرويد هذه ما هي إلا إعادة صياغة لواحدة من الأقوال الشائعة لهاين والذي غالبًا ما اقتبس منه فرويد بإعجاب

(30) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 130.

(31) Quoted in ibid., p. 71.

(32) Quoted in ibid., p. 130. Cf. also Freud/Jung Letters, pp. 376, 382.

(33) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 71.

(34) Letters of Freud and pfister, p. 49.

(35) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 136.

(36) Andreas-Salomé, The Freud Journal, pp. 53. 67.

(37) Letters of Freud and Abraham, p. 125.

(38) Ibid., p. 127; cf. also Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 150.

(39) Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 151.

(40) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 120.

(41) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 274.

(42) «Preface to Wilhelm Stekel's Nervous Anxiety States and Their Treatment», Standard Edition, Vol. 9, p. 250.

(43) Stekel, Autobiography, p. 134.

(44) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 428.

(45) Letters, p. 346.

(46) Letter from Edoardo Weiss to Ernest Jones, Aug. 22, 1956 (Jones archives).

(47) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 273.

(48) Minutes, Vol. II, P. 395.
(49) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 237.
(50) «The Disposition to Obsessional Neurosis», Standard Edition, Vol. 12, p. 325.
(51) «Civilization and Its Discontents», p. 120.
(52) «Dreams and Telepathy», Standard Edition, Vol. 18, p. 197.
(53) Stekel, Autobiography, p. 138.
(54) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 353, 357.
(55) Ibid., p. 350.
(56) Letters, p. 346.
(57) Sachs, Freud, p. 115.
(58) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 137.
(59) «Letter to Fritz Wittels», p. 286.
(60) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 138.
(61) Letters, pp. 347-48.
(62) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 102.
(63) Bennet, C.G. Jung, p. 56.
(64) Wortis, Fragments of an analysis with Freud, pp. 142, 163, 30, 41.
(65) Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 39. Cf. also Reich Speaks of Freud, p. 90.
(66) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 158.
(67) Ibid., p. 234.

الفصل السادس

كارل غوستاف يونغ: «ولي العهد»

1 - علم الطب النفسي

قاد كارل غوستاف يونغ (1875-1961) حسب وجهة نظر فرويد أكثر «الانشقاقات» المؤلمة في التحليل النفسي، كما لعب الدور الفكري الأكثر أهميّة في حياة فرويد من بين جميع تلاميذه. لقد اعتبره فرويد «مهرطقًا» لا سيما بعد ما عاناه من أدلر وستيكل، وحتى الآن فإن المساجلات بين ثلاثتهم كانت مترابطة تاريخيًا. فهؤلاء الرجال هم من كانوا وراء التقليد الثوري في التحليل النفسي. وكل المحللين النفسيين التاليين قد فتنوا وفزعوا في ذات الوقت من مشهد التمرّد المتواصل: فحتى عشرينيات القرن العشرين كان ذلك ممكنًا، كما في حالة أوتو رانك، في حمله التلاميذ على دفع أحدهم الآخر لـ«الانحراف». ولقد كانت هناك استراتيجيات للتهرّب من شأنها أن تمكّن المحلل النفسي من أن يُعبّر عن شخصيته وعن فرويديته أيضًا.

من بين جميع الاتهامات الممكنة يظل «اليونغيون» الأكثر تدميرًا من بين أصلاب فرويد فكريًّا. فكل ثقافة فرعية لها أشرارها، ويُعدّ يونغ شخصًا بغيضًا بشكل خاص إذ علّق فرويد عليه آمالًا كبيرة. وختم اتصاله الأخير بالنازيين (التابعين للحزب النازي الألماني) نهائيًا عدم الرضا على شخص اعتاد تلامذة فرويد على كراهيته. وحتى اليوم فإن يونغ ما زال منبوذًا، يقتفي أثر فرويد[1] كشخص «صوفيّ» أو يُفترض أنه فاقد للعلمية شأنه في ذلك شأن الاشتراكي أدلر.

يمكن أن نستدل على مدى شعور فرويد بالمرارة تجاه يونغ بالصعوبات التي واجهها المكلفون بأرشيفات يونغ في النفاذ إلى الجزء الخاص بمراسلات يونغ مع فرويد. وبعد فترة طويلة من وفاة فرويد وحين كان يونغ لا يزال على قيد الحياة، ولما عرض المكلفون

بأرشيفات يونغ تبادل نصف الرسائل التي تبادلها الرجلين مع نظرائهم من المكلفين بأرشيفات فرويد، لم تعثر آنا فرويد على رسائل يونغ إلى أبيها. بعد ذلك أرسل المكلفون بأرشيفات يونغ إليها نسخًا من رسائل فرويد دون مبادلة. ورغم ذلك، بمجرد أن احتاج جونز رسائل يونغ للاستفادة منها في كتابة سيرة فرويد الذاتية، تمنّع المكلفون بأرشيفات فرويد بداعي أن الوقت غير مناسب[2].

ومن أجل فهم مدى محورية مكانة مسيرة يونغ المهنية في حياة فرويد وأعماله، فإنّه لا بد من تقدير شعور فرويد بالاغتراب تجاه العلوم الطبية آنذاك. فأثناء تدريبه على التخصص في الأمراض العصبية، اعتبر الطب النفسي في أيامه أن لا أهمية له في مجال العمليات النفسية، وبالكاد «سمّى مختلف الهواجس ولكن... (كما يقول) لا شيء أكثر من ذلك»[3]. ولقد تذكر لاحقًا أحد تلاميذ فرويد المتدربين في الطب النفسي أن التدخلات كما جاءت في سجلات المرضى فترة ما قبل فرويد كانت نمطية و«مبتذلة من قبيل: «المريض لا يتكلم»، «المريض يقول أشياء لا معنى لها»، «المريض ليس واضحًا»... إلخ»[4].

شغل يوليوس فاغنر فون ياورغ أحد الأصدقاء القدماء لفرويد الكرسي الأكثر عظمة في علم الطب النفسي في جامعة فيينا خلال حكم الإمبراطورية النمساوية المجرية. وبنوع من السخرية اللاذعة والضحك المثبط بدأ فاغنر في توجيه المزاحات الساخرة إلى أعمال فرويد. ورغم أن فاغنر كان معجبًا بفرويد شخصيًّا، وكانت بينهما رسائل شخصية، فإنّ فاغنر كرائد في علم الطب النفسي كان يتحتّم عليه اتخاذ موقف في مواجهة التحليل النفسي. فالأمور التي بدت بالنسبة لفرويد اكتشافات عظيمة لم تكن سوى تفاهات بالنسبة له. لا لأن فاغنر تعوزه العلمية، فقد كان لاحقًا الطبيب النفسي الوحيد الحائز على جائزة نوبل، وذلك لمعالجته الحمى في حالات الشلل الكلي. ولا لأن فاغنر لم يكن يهتم بالعلاج، فبالرغم أنه كان قاسيًا ووقحًا في بعض الأحيان، ونمطيًّا، فقد كان شخصًا عطوفًا ولا أحد يشك في اهتمامه بمرضاه.

كان فاغنر يسخر من أفكار فرويد أكثر منه معاديًا لها بشدّة، ولكنه بالمقابل كان نزيهًا، وسمح لمساعديه بأن يتعاملوا كيفما شاءوا تجاه فرويد، ولم يكونوا على أيّة حال يكنّون لفرويد الاحترام الخاص ذاته الذي يكنه له فاغنر وسلكوا سبيل معاداة التحليل النفسي. ففرويد يعلم أن العيادة الموجودة في جامعة فيينا في أيدي الأعداء، وأن أي شخص يدرس تحت إشراف فاغنر لا يُسمح له بأن يثني على ابتكارات فرويد.

أما فرويد فقد كان لديه أكثر من سبب لأن يكون مسرورًا، ففي ربيع عام 1906 كتب يونغ إليه يثني على جهوده في البورغلزلي (زيوريخ/ سويسرا) أحد أعظم المراكز الأوروبية للتدريب على الطب النفسي. (ومع ذلك كانت تلك علامة تؤشر على تدنّي منزلة الطب النفسي آنذاك. عندما قرّر يونغ أن يتخصص فيه، حذره أصدقاءه من ذوي المكانة المرموقة من أنه قد يهدد مسيرته المهنية). فقد كان يونغ موظفًا في البورغلزلي منذ أواخر عام 1900، ثم ما لبث أن طُلب منه أن يُعدّ تقريرًا حول كتاب فرويد تفسير الأحلام.

حقق يونغ بحلول عام 1906 مكانة مرموقة في الأوساط العلمية. فبالإضافة إلى أطروحته في الدكتوراه حول سيكولوجية الخبرات الغامضة فقد عمل على تحسين تقنية المساعدة اللفظية. فالقائمين على التجارب يطلقون الكلمة ثم يقومون بحساب توقيت ردّة الفعل اللفظية تجاه المثير: في هذه العملية كان هدف يونغ هو اكتشاف الصراعات العاطفية المكبوتة، أو ما كان يسميها بـ«التعقيدات» من خلال استجابات غير متوازنة وسلاسل من الارتباطات. كلّما فسّر يونغ هذه الارتباطات عند المصابين عبر التحليل النفسي كلّما بدا سهلًا إيجاد معنى لأعراض الذهان التي كانت بدورها تبدو آنذاك شيئًا غريبًا. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1906 قام يونغ بنشر ردٍ على نقد نظرية فرويد في الهستيريا، وفي شباط/ فبراير عام 1907 زار فرويد في فيينا. وفي تلك المقابلة الأولى بينهما، قيل إنهما قضيا أكثر من ثلاث عشرة ساعة متتالية في الحديث. وبما أن فرويد يعتبر دخيلًا على الطب النفسي في فيينا، ودون ذكر النقص العام في المعرفة الشعبية لأعماله، فليس صعبًا أن نفهم كيف أنه استسلم إلى نزوعه العرضي للمغالاة في قيمة الاعتراف الرسمي.

كان يونغ في ذلك الوقت المساعد الرئيس ليوجين بلولر، رئيس مركز البورغلزلي وأحد خبراء الشيزوفرانيا في العالم الذي يعرف الآن خاصة من خلال مفهومه عن «الازدواجية». اهتم بلولر بعلم النفس ونجح في إنشاء مركز عالمي للتدريب على الطب النفسي. ولقد أنجز محلّلو المستقبل من أمثال إرنست جونز، ساندور فرينشيزي، وكارل أبراهام وأبراهام بريل بحوثًا هناك، وحتى بعد الانفصال النهائي عن يونغ، كان لدى فرويد الشجاعة الكافية لكي يعترف في عام 1914 كما جاء على لسانه بأن «معظم أتباعي وكذلك العاملين معي في الوقت الحالي تكوّنوا في زيوريخ، وحتى أولئك الذين كانوا أقرب جغرافيًا إلى فيينا أكثر من سويسرا»[5].

مثّل بلولر ويونغ النموذجين الأكاديميين الأفضل للطب النفسي آنذاك. وكانت الفترة

من 1906 إلى 1909 بالنسبة لفرويد بمثابة قطيعة مع ماضيه، حيث خرج من الفضاء الضيّق في فيينا إلى علم الطب النفسي الأوروبي برمته. وكان بلولر يكبر فرويد بعام واحد، وكان حذرًا من الطابع الطائفي للتحليل النفسي. وأما فرويد فقد وثق بكل من يونغ وبلولر «لينشأ بذلك أول جسر يصل علم النفس التجريبي بالتحليل النفسي» من خلال استخدامها لساعة الإيقاف كأداة لدراسة التداعيات[6]. وقد رافق بلولر يونغ إلى المؤتمر الأول للمحللين النفسيين في سالزبورغ عام 1908، وبعد ذلك كتب فرويد أن بلولر «ترك في نفسي انطباعًا غريبًا في سالزبورغ، وهذا الموقف ليس مناسبًا له»[7]. وعلى حد قول يونغ «لقد غمرت فرويد الفرحة» عندما تقاعد يونغ من عيادة بلولر ليكرِّس نفسه بشكل كامل للتحليل النفسي[8].

نشر يونغ في عام 1907 كتابًا حول علم نفس العته المبكر، حاول أن يُبيّن فيه إمكانية تفسير هذا الضرب من الجنون من خلال مصطلحات نظرية فرويد في العصاب. لقد «سعى يونغ جاهدًا من أجل أن ينفذ إلى المعاني العميقة للأوهام ولكي يفسر الشيزوفرانيا التي تتصف بغزارة الرموز، وبذلك أصبح أحد أبطال نهج العلاج النفسي للشيزوفرانيا»[9]. وبالتوازي مع قيام بلولر ويونغ بدراسة آلية الدافع الديناميكي الذي يقود إلى السلوك الذهاني، حاولا بشكل طبيعي توظيف هذه المعرفة في العلاج.

منذ أن شعر فرويد بالاستياء من تواضع مستوى جماعته في فيينا راودته الرغبة في نقل مركز التحليل النفسي إلى زيوريخ. ويعود ذلك جزئيًا إلى نفوره من فيينا. وعلى الرغم من صعوبة تقييم إصرار فرويد المتكرر على كراهية فيينا - مهما تبنى ببساطة تكلفًا رومانسيًا، بما أنه اختار أن يعيش حياة الكهولة هناك - فقد كتب ذات مرة في تسعينيات القرن التاسع عشر في قصة مبهمة في سيرته الذاتية «أنه لم يشعر بالارتياح أبدًا في المدينة»[10].

وعندما أبدى تلميذ فرويد الأثير الهنغاري ساندور فرينشيزي في مجلس نورمبيرغ عام 1910 «بعض الملاحظات التي لا تخلو من انتقاص شديد لقيمة المحللين النفسيين في فيينا، واقترح أن يُدار المركز مستقبلًا من زيوريخ، وبرئاسة يونغ»[11]، أعلن عن مواجهة مجموعة فرويد في فيينا سنوات عسيرة. ولم يكن تفضيل فرويد للسويسريين لمجرد غاية تنظيمية تتطلب أشخاصًا ألمعيين من أجل المضي قدمًا في التحليل النفسي، بل يرجع إلى مجهوده الشخصي المكثف من أجل تحقيق كيان أكثر شمولًا، والانتماء إلى رابطة علمية أكثر اتساعًا مما كان متاحًا له في السابق.

شعر فرويد كيهودي بحاجته الملحة إلى مساعدة يونغ غير اليهودي. رغم أن مجموعة فيينا للتحليل النفسي تكونت بشكل كامل من اليهود، ولكن فرويد لم يرد أن يكون التحليل النفسي حكرًا على الطائفة اليهودية. وللمرة الأولى اعتبر فرويد يونغ بمنزلة «الابن الأكبر الذي تبناه رسميًا» وأعلنه «وريثًا ووليًّا للعهد»[12]، وكان على فرويد أن يُدافع عن السويسريين ضد غيرة الأتباع الآخرين. وكما كتب فرويد إلى أبراهام ذات مرة:

«من فضلك كن متسامحًا ولا تنس أنه من السهل عليك حقًّا اتّباع أفكاري أكثر من يونغ، لأنك أولًا مستقل تمامًا ثم أنك أكثر قربًا إلى معتقداتي وتفكيري نظرًا إلى القرابة العرقية بيننا، فبالرغم من كونه مسيحيًّا وابن قس فقد وجد طريقه إليّ متجاوزًا جميع الضغوطات الدّاخلية. لذلك فإنّ ارتباطه بنا هو الأكثر قيمة. فما أن ظهر على الساحة حتى أعلنت بأن التحليل النفسي قد بدأ يتحرر من خطر أن يصبح شأنًا يهوديًّا قوميًّا»[13].

لقد شعر فرويد بأن أبراهام «مرتاب جدًّا» من يونغ، بسبب «أثر عقدة الاضطهاد»[14]. فلم يأمل فرويد في النجاح على امتداد سعيه لتحقيق حلمه المبكر في تأسيس حركة فكرية عظيمة قبل أن ينجح في اكتساب عديد الأتباع من غير المنتمين إلى الطائفة اليهودية، وكان عليه كيهودي أن يتحرر من الحدود المكبّلة للدوائر اليهودية في فيينا من أجل التغلب على المعايير الأخلاقية المسيحية ونسفها.

أنكر تلاميذ يونغ (وكذلك فعل مؤيدو أدلر) بعد انفصاله عن فرويد أن قائدهم كان تابعًا لفرويد البتة[15]. وفي كل الأحوال فقد كانت لغة فرويد واضحة في هذا الشأن بحيث لا تدع أيًّا من أتباعه في حيرة من أمره، فقد كانت الابتسامة تعلو محيّاه كلما ذكر يونغ مرددًا «إنه ابني العزيز الذي يسرني كثيرًا وجوده معي»[16]. ولطالما شبّه فرويد نفسه بموسى، إذ كان مرشدًا لقوم لم يلقَ منهم إلا السخط والعصيان. «أما يونغ فهو بمثابة يوشع الذي قدّر له أن يكتشف أرض الميعاد للطب النفسي التي ما كان لفرويد أن يراها إلا عن بُعد تمامًا مثل موسى»[17]. وكان فرويد يلقب يونغ بـ«ابنه ووريثه»: «وعندما تصبح الإمبراطورية التي أسستها يتيمة، فإنه لا يحق لأحد أن يرث كل شيء إلا يونغ»[18]، فقد كانت فكرة التوريث مسألة ذات أهمية حاسمة بالنسبة إلى شخص بطريركي مثل فرويد. وبعد أن انشق عنه يونغ، قال فرويد «أتوقع أنني حصلت من يونغ على ذلك التأمين الذي من أجله يُنجب الأطفال، وهو بالنسبة لأب يهودي مسألة حياة أو موت»[19].

لقد كان فرويد القائد الذي لا يُقهر لحركة فكرية نامية وكان يكبر يونغ بتسعة عشر عامًا، فيونغ لم يحاول أن يقوم بدور المنظم الذي كان فرويد يقوم به، ولم يكن حقيقة يفضل المنظمات سواء أكانت تابعة له أم لشخص آخر. وبعد مرور بضع سنوات تأسست ما يشبه الحركة اليونغية رغم ذلك لم يأخذها على محمل الجد. وبالتالي فإنه لم يكن متوقعًا بأن يونغ شخصيًا كان يمكن أن يطمح في ريادة حركة فرويد. فكثيرًا ما كان يشعر بعبء المتطلبات التنظيمية التي ألقاها فرويد على كاهله، إذ إن فرويد كان يوبّخه كلما قصّر في تأدية مهامه كقائد على أتمّ وجه، ولقد استخلص يونغ في نهاية المطاف أن عليه أن يُسبّق عمله على مجهوداته في الجمعية العالمية للتحليل النفسي[20].

ورغم أن فرويد لم يكن يُميّز بين المؤيدين الجدد، إلا أنه كان يعلم، في حالة يونغ، أنه أمام شاب ذي موهبة خارقة للعادة. وقد وصف أحد أبناء فرويد كيف كان حضور يونغ على طاولة عشاء الأسرة استثنائيًا حيث يقول «لم يسعَ أبدًا إلى التحاور المؤدب لا مع أمي ولا معنا نحن الأبناء ولكنه كان يتابع المناقشة مع والدي التي قطعتها الدعوة إلى العشاء. ففي تلك المناسبات كان يونغ يتحدث دون توقف ووالدنا ينصت إليه بانبهار لا يمكن إخفاؤه. ونادرًا ما كان أحد منا يستوعب ما يقول، ولكن أعلم أني وجدت، مثل والدي، أن أكثر شيء رائع فيه هي طريقته في تحديد ملامح حالة ما... أعتقد بأن معظم صفاته الشهيرة هي حيويته ورشاقته وقدرته على فرض شخصيته وشدّ انتباه المستمعين إليه. لقد كان ليونغ حضور قيادي. وكان طويلًا وعريض المنكبين....»[21].

لقد ناهز طول فرويد خمسة أقدام وسبع بوصات (1.70 متر) في حين كان طول يونغ ستة أقدام وبوصتين (1.87 متر)، لطالما انزعج فرويد بشأن قصر قامته، على الأقل مقارنة بيونغ[22]. وقد التقطت لهما صورة وهما جالسان سويًا أثناء لقائهما في الولايات المتحدة في عام 1909 بدا فيها يونغ أضخم من فرويد. وفي صورة جماعية التقطت في مؤتمر فيمر عام 1911، بدا فرويد كما لو كان الأطول بين الاثنين، وليس ذلك لأن فرويد استعمل شيئًا ليقف عليه حتى يبدو أطول، ولكن يونغ آثر أن ينحني إلى الأمام بكل وفاء من أجل أن يظهر فرويد في هيئة قائد هذه الحركة.

كان فرويد في أوائل الخمسينيات من عمره عندما التقيا لأول مرة، وكان لا يمتلك مجموعة راسخة من النظريات فحسب وإنما شعورًا متماسكًا من الثقة بالنفس، أما يونغ فقد كان عندها في الثلاثينيات من عمره وما زال يتحسّس طريقه. وفي عام 1909 اعترف

يونغ في رسالة أرسلها إلى فرويد «عمومًا لم أبلغ بعد ما بلغته من أمان وصفاء....»[23]. وقد علّق فرويد بإعجاب على ما بينهما من اختلافات قائلًا:

«لقد وجدت شيئًا في نفسي لا يمكن أن يتبدّل، وهو أنه في حين تقع عباراتي وأفكاري على الناس وقع الغريب، فإنك تتقبّلها برحابة صدر. فلو أنك كشخص سويّ يعتبر نفسه من النوع الهستيري، فإنه يجب عليّ أن أدّعي أني «المهووس» في طبقة كل أعضائها يعيشون في عالم منغلق على ذاته»[24].

وكما احتاج فرويد في البداية إلى فليس Fliess نصيرًا له، فإنه الآن يعتمد على يونغ بشكل حصري: «إن الهدوء الذي بلغته في نهاية المطاف يفرض عليّ الانتظار حتى يهتف بي صوت من ورائي، إنه صوتك أنت»[25]. (وفي السنوات الأخيرة كان على فرويد أن يكتب باللغة ذاتها تقريبًا لأكثر من تلميذ عن مدى حاجته ليسمع أصواتهم «من المجهول»).

جمعت بين فرويد ويونغ ميّزة رئيسة في شخصيتهما لمدة من الزمن، ولكن في النهاية أصبح استمرار التعاون بينهما أمرًا مستحيلًا لتمردهما المتبادل. فقد بالغ يونغ في انجذابه الطبيعي إلى الهرطقة، كما مثّل تحدي فرويد للحكمة النفسية السائدة آنذاك مصدرًا للجاذبية التي سحره التحليل النفسي عبرها. كتب فرويد في أكثر من مناسبة «أمّا عن نفسي فأنا مهرطق». وقبل اللقاء الأول بينهما كتب فرويد إلى يونغ بأن «الأسماء العظيمة في الطب النفسي لا تعني شيئًا؛ وأن المستقبل سيكون لنا ولأفكارنا، وسيلتف الشباب حولنا من كل حدب وصوب»[27]. وأثناء رحلتهما إلى أميركا في عام 1909، تفاجأ يونغ بتعليق فرويد حينما كانا يبحران إلى ميناء نيويورك، ففي حين كان يونغ ذاهلًا لمشهد الأفق، قال له فرويد «ألن تكون دهشتهم عظيمة عندما يسمعون ما سنخبرهم به من نتائج؟...»، تعجّب يونغ قائلًا: «يا لك من شخص طموح» فرد فرويد «أنا؟»، «أنا الأكثر تواضعًا بين الرجال والرجل الوحيد الذي يفتقد للطموح». وكما يذكر يونغ، بأنه أشار إلى فرويد حينها قائلًا «ذلك هو الشيء الوحيد الذي سيكون له شأن عظيم»[28].

لقد اعترف فرويد بأن الاختلافات في الطباع هي التي أدت في نهاية المطاف إلى افتراقهما المحتوم وإضفاء الشرعية في ذات الوقت على تناقض نهجيهما في العمل. على سبيل المثال عندما تعلق الأمر بدراسة تكوين الشخصيّة اعتقد فرويد أن «بإمكان يونغ أن يفعل ذلك على نحو أفضل، فبينما ينطلق في دراسة الأشخاص من السطح إلى الأعماق، كنت أبدأ من الاتجاه المعاكس»[29]. وفي أواخر كانون الأول/ ديسمبر 1910 لاحظ فرويد

في لقاء بينه وبين يونغ «لقد كان رائعًا وغمرني بطاقة خيّرة. فتحت له قلبي بشأن أدلر الذي كان سبب صعوباتي وقلقي بشأن مسألة التخاطر». ولمّح فرويد إلى شكوكه بشأن اهتمامات يونغ بعلم الأساطير (الميثولوجيا) وقال له: «أدعوك إلى توجيه اهتمامك من جديد في أقرب وقت إلى العصاب فذلك موطننا الأصلي حيث علينا أولًا أن نعزز هيمنتنا في مواجهة أي شيء وأي شخص»[30].

لم يكن فرويد يقطع صداقاته الحميمية عنوة وهذا أمر يُحسب له حتى أنه كلما سمح لنفسه بأن يعتمد على شخص آخر، غالبًا ما تتواصل علاقتهما الحميمية عبر الرسائل المكتوبة. (احتفظ فرويد بسجل للرسائل المرسلة والمستلمة لسنين)[31]. وإذ اعتبر يونغ أن المراسلات بينه وبين فرويد لم تكن حاسمة، اعتبر فرويد أنه في تبادل الرسائل تكون العلاقة تحت سيطرته بوصفه هو من يكتب.

لا شيء من ذلك كله يمكن أن يحجب حماسة فرويد تجاه صديقه الصغير. فقد كتب فرويد مقالًا «من أجل إسعاد يونغ بصفة خاصة»[32] عن رواية معاصرة أحضرها له يونغ وإن كانت هزيلة قياسًا لمعايير الأدب العالمي فإنّها تندرج ضمن اهتمامات أي شخص منغمس في علم النفس الفرويدي. وبخلاف فرويد الذي نشأ في مدينة صاخبة، فقد كان يونغ يذهب إلى المدرسة مع أطفال الفلاحين، وقد كان الأكثر فظاظة من بين الاثنين، وعندما علّق أحد تلاميذ فرويد حول طريقة مزاح يونغ قائلًا «مزاحه فظ جدًّا»، أجاب فرويد بسرعة «إنها فظاظة مفيدة»[33].

لقد كانت حياة يونغ الخاصة تختلف عن حياة فرويد تمامًا في العديد من النواحي الجوهرية. ولقد تفهمت إيما يونغ عمل زوجها وباركته، خلافًا لمارتا فرويد، ومارست هي بدورها العلاج. وأسّس يونغ وزوجته وأبناؤهما الخمسة عائلة كبيرة جدًّا، وتفرعت حتى صارت أكثر امتدادًا من عائلة فرويد. وظل يونغ، مقارنة مع المظاهر الخارجية، ممثلًا محافظًا للسلوك العائلي التقليدي. وبالرغم من هذا التماسك العائلي فإنّ علاقة غرامية نشأت بين يونغ وأنتونيا وولف وهي طبيبة نفسية ومريضة سابقة عنده، وحتى بعد نهاية هذه العلاقة الغرامية، فقد استمرت علاقتهما ودّية وحميمية، وتحفل مؤلفات يونغ بالكثير من الإحالات على أعمالها.

لا نعرف شيئًا بعد عن تواريخ علاقة يونغ الغرامية، وعلى غير العادة لم يناقش يونغ

قصته مع هاتين المرأتين في حياته مع فرويد. ولكن يونغ كان قد ألمح إليه بشأن ميوله «لتعدد الزوجات»، ثم استدرك قائلًا بأن «الشرط الأساسي للزواج السعيد هو... ألا تكون مخلصًا»[34].

في المقابل، ناقشت إيما يونغ مع فرويد على الأقل عددًا من مشاكلها الزوجية (فقد حاولت أن تميّز منزلتها في حياة فرويد عن زوجة فليس، «لا تعتبرني مثل النساء اللائي تخبرني عنهن ممن كن يفسدن صداقاتك»)[35].

كان فرويد حميميًا وغير متحفظ مع يونغ خلافًا لعلاقته مع باقي تلاميذه حيث يكون صارمًا ومتحفظًا. ولقد أسرّ إلى زوجة يونغ بأنه الانطفاء التدريجي في علاقته الجنسية مع زوجته مارتا، وفي عام 1910 كتب إلى يونغ: «لقد ذبل الصيف الإيروتيكي الذي قضيته في الهند مع مارتا والذي تحدثنا عنه في جولتنا تحت ضغط العمل بشكل بائس»[36]. وهو تعليل بدا سخيفًا بالنسبة ليونغ في السنوات الأخيرة - وتحديدًا عندما وبّخ فرويد وتلاميذه يونغ «لجبنه» في مواجهة «حقائق» الجنسانية الطفولية - وللمفارقة عاش، في الواقع، حياة جنسية أقل إحباطًا بكثير من تلك التي عاشها فرويد، ولا شك في ذلك. ورغم هذا الرفض لأفكار فرويد حول الجنسانية فلم يعد الجنس لاحقًا بالنسبة ليونغ أهم شيء.

2 - العالم الخفي

كانت لكل من فرويد ويونغ الاهتمامات نفسها بالعالم الخفيّ. فقد كتب فرويد مرة بأن أحد الموضوعين اللذين «دائمًا ما يربكانني»[1] الاعتقاد في القوى الخفية والروحانية وسيكولوجية التخاطر التي ترأست لفترة طويلة اهتمامات يونغ. فقد كان فرويد قلقًا من أن اهتمامه الشخصي بالتخاطر («انتقال الأفكار» كما فضل أن يسمّيها) سيمكّن من انتشار الاتهام بالروحانية إلى أعماله الأخرى. رغم ذلك كانت لفرويد وليونغ مبرراتهما في الاستمرار على هذا النهج في البحث.

أثارت دراسات فرويد عن عالم الأحلام في السابق الريبة لأنها بدت غير علمية إن لم تكن صوفية، ولكن فقط لأن فرويد اختار أن يتجاهل الحكمة العلمية السهلة ذلك أنه كان قادرًا على أن يثبت بعضًا من المعتقدات الشعبية حول رمزية الحلم. فكل من التخاطر والحلم قد «عانى من غطرسة وازدراء العلوم الرسمية»[2] التي دفعت فرويد إلى تأكيد شرعية تلك التفسيرات (بالنسبة إليه) فيما لم يحدد بعد في كلا المجالين، ألا وهو التخاطر.

عاد فرويد أدراجه إلى اكتشافاته الأولى عن الحلم ليبرر اهتمامه بالعالم الخفيّ:

«على الشخص أن يظهر طباعه ويحتاج إلى أن ينزعج من الفضيحة في هذا الوقت قليلًا مثلما في الوقت السابق، ربما ما زالت مناسبات أكثر أهمية... وبدرجة أقل عليّ أن أكرر تجربة حياتي العظيمة: بمعنى أن أصرح بالإدانة دون أن آخذ في الاعتبار صدى ذلك في العالم الخارجي»[3].

وبقدر ما كتب فرويد عن حاجته إلى «جمهور» بقدر ما أراد أيضًا أن يكون وحده. فقد آمن فرويد بأنه استعاد الحقل الفكري للأحلام من مستنقع التصوّف، ففي الجهد الذي بذله من أجل فهم العصاب (شعر فرويد ـ بما أنّ الأحلام ارتبطت طويلًا بالجنون ـ أنّ بمقدوره أن يكتشف المنطقة الأكثر ضبابية في العالم الخفي.

لقد استمد فرويد قدرًا لا بأس به من الاهتمام الرئيس في أفكاره من المعنيين بشكل رئيس بظاهرة علم نفس التخاطر. وفي محاولاته لفهم علم التنجيم ودراسة الخط (باعتباره يعكس شخصية صاحبه)، وحتى الخيمياء، كان يونغ من بين تلاميذ فرويد الذين قطعوا أشواطًا كبيرة في مجالهم وحتى في السنوات الأخيرة سعى إلى معرفة الأطباق الطائرة. فيونغ لم يحترم فقط التصوّف الديني ولكنه كان يؤمن أيضًا بإمكانية التواصل بين الأحياء والأموات. تلك بعض العناصر في أعمال يونغ التي مكّنت خصمًا مثل جونز من أن يطرده معتبرًا إياه «شخصية مهرجة» إذ «يفتقر إلى الوضوح والاستقرار في التفكير»، وظل جونز متمسكًا بأنّ يونغ كان يتمتع «بتفكير مرتبك» ويتصف بنزعته الصوفية الغامضة»[4].

استمتع جونز بهذا الحكم القاسي على شخصية يونغ وأعماله لأن جونز، لوقت ما، كان يخشى قوة تأثير يونغ على فرويد، إذ حاول في السنوات الأخيرة أن يحذّر فرويد من الاهتمام بالتخاطر بجدية. ولم يكن هو الوحيد فقد شاركه آخرون قلقه، خاصة كارل أبراهام الذي لم يكن «مقتنعًا بما كان يسميه الإيمان بالقوى الخفيّة، وعلم التنجيم، والتصوّف في زيوريخ...»[5]. أما فرويد فقد طمأن أبراهام بأن التحليل النفسي لم يؤسس علميًّا فقط من أجل رغبة يونغ، بل إنه «عمومًا من السهل علينا نحن كيهود أن نتخلّى عن العنصر الصوفي»[6].

وعلى الرغم من أن جونز حاول أن يعرّج إلى اهتمام فرويد بالعالم الخفي ووصفه، فإنّ ريبته حملته على أن يستثني كل ما لم يستطع أن يفهمه. وبإلقاء نظرة خاطفة على أعمال بعض من تلامذة فرويد الآخرين نرى مدى أهمية الدور الذي لعبته مشاكل التخاطر في

حياة فرويد. على سبيل المثال كان ساندور فرينشيزي أحد المحللين الهنغاريين وصديق حميم لفرويد متحمسًا إلى تأييد واقعية التخاطر: فلقد شدد فرويد مرّة على أهمية دراسات فرينشيزي حول العالم الخفي كدليل على أنه كان قادرًا على أن يتطوّر بشكل مستقل في مجال التحليل النفسي غير خاضع لأي تمرّد ولا طائع بلا داع[7].

لقد بدا فرينشيزي وكأنه يؤيّد فرضية قوة النبوءة، وأحضر ذات مرة قبل الحرب العالمية الأولى متخاطرًا نفسيًا لاجتماع جمعية فيينا للتحليل النفسي. وطُلب من شخص أن يكتب شيئًا وعلى الوسيط أن يتنبأ بذلك[8]. أما بالنسبة لفرويد فإنه كلما أحضر أحد أتباعه تقريرًا عن حلم يحتوي على تخاطر، أو روى قصة عن شخص ذي موهبة خاصة قادر على فعل شيء ما خارق للعادة ـ وبدون أن ينكر وجود مثل هذه الظواهر ـ كان يوصيهم بأن يكونوا حذرين. هذا وقد جاء في محاضر جلسات جمعية فيينا عام 1910 تقرير عن «مناقشة عفوية مستفيضة» «بشأن الظواهر الروحانية، والاعتقاد في القوى الخفيّة، والاستبصار...»[9].

ولأنه ما زال مبكرًا جدًّا أن يقبل التحليل النفسي بالتخاطر كاستثناء في الحالات المرضية في الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى بقي فرويد ريبيًّا في العلن على الأقل. وفي أواخر عام 1910 صرّح فرويد خلال مؤتمر للجمعية عن «الروحانيات، والاعتقاد في القوى الخفية، والاستبصار» والتي تمّت مناقشتها بشكل تلقائي؛ «لو أن أشياء كتلك وجدت فإنها لن تكون سيكوَلوجية بل فيزيولوجية. وبكل موضوعية فإنه يبدو بالإضافة إلى ذلك، أن الدافع للغش حاضر دائمًا»[10]. وإن استمر أتباع فرويد المخلصين في الكتابة حول التخاطر والعالم الخفي، فذلك دليل على استمرار اهتمام فرويد شخصيًّا بهذا الموضوع[11].

رغم أن فرويد كان منفتحًا على فرضية التخاطر و«مرتبكًا» بشأن موضوع الاعتقاد في القوى الخفيّة، فإنه كان أيضًا حازمًا في ما يخص عالم القوى الخفيّة والمعجزات. إذ هدف من خلال إشارته بأن «النزعة العامة للبشرية تتجه نحو السذاجة والاعتقاد في القوى الخفية والمعجزات»[12] إلى بيان الموضوعات التي أُسس التحليل النفسي لقهرها. وبالقدر الذي كان مهتمًا بهذا الموضوع فإنّ «شكّه في أن الاهتمام بالقوى الخفيّة في الأصل اهتمام ديني»[13] يشير إلى الأصل السيئ الذي يمكن ينحدر منه الموضوع. وقد أعرب عن ندمه لاحقًا قائلًا «عندما يتصادم التحليل النفسي مع الاعتقاد في القوى الخفيّة، نوجّه، إذا جاز التعبير، كل غرائزنا العقلية ضد الأول (التحليل النفسي)، في حين أن الثاني

(الاعتقاد في القوى الخفية) يُستقبل بحفاوة وبعواطف شديدة وخارقة»[14]. وتدل هذه المعارضة، حسب فرويد، على أن الشخص يكاد يُصدم بحقيقة عميقة، وأن يستقبل شيئًا ما بهذه الحفاوة فإن ذلك يعني أن الشخص يذعن، عن قصد أو عن غير قصد، لما يريد أن يصدقه الناس عن طريق الخداع الذاتي.

ومنذ أن أعلن فرويد أن «حاجة البشر الملحة إلى التصوّف يتعذّر استئصالها... وتبذل مجهودات بلا كلل من أجل أن يستعيد التصوّف المجال الذي حرم منه عن طريق تفسير الأحلام» (15)، توجّب عليه أن يحاول على الأقل تفسير الوجد الصوفي. ووصل في النهاية إلى اعتبار أن التصوف يعني «التصوّر الذاتي الغامض للهوية وللعالم خارج الأنا»[16]. ولقدر ما، اعتبر فرويد أن المشاعر الإنسانية ترتبط بما وراء المعتقدات الصوفية بانفعالات أخرى ما زال يجد صعوبة في فهمها وقبولها. إذ لم يستسغ تصوّر فرويد للمثل الأعلى العقلاني على حد السواء المشاعر «الظرفية» و«المشاعر الفياضة»، ذلك أنه يبدو أنّ كل نشوة مشكوك في تدخلها في التحكم العقلي الذي يحظى بأهمية بالغة بالنسبة إليه.

يتمثل جوهر هذا العلم بالنسبة لفرويد في «مدى قدرة نشاطنا العقلي على الإنكار التام لمبدأ اللذة»[17]. فهو كان يفاخر بأن لديه القدرة على أن يبحث عن السببية العقلية حيث يعجز الحس المشترك حتى عن إدراك وجود شيء ملتبس. كما تبرّأ من الرأي القائل بأنه «تحديدًا في ما يتعلق بالقرارات الثانوية وغير المبالية التي كان بمقدورنا أيضًا اتخاذها بشكل مختلف: نكون قد تصرفنا بكامل حريتنا – أو بإرادة خالية من الدوافع والميول»[18]. وإذا ما كان لفرويد ليرضى أن يجلب بعلمه حقائق غير مرغوب فيها إلى بلاده، فإنه يعترف بذلك عرضيًا إذ جاء على لسانه: «أؤمن بالصدفة الخارجية (المادية)، ولكن لا أؤمن بالأحداث التصادفية الباطنية (النفسية). وأما مع من يؤمن بالخرافة فالأمر يختلف تمامًا»[19]. تفترض عقلانية تفكير فرويد الحصيفة أن رد كل شيء إلى السببية لا يعدو أن يكون سوى ضربًا من الخرافة. فهو ضد «الاعتبار المبالغ فيه «للاوعي الغامض». فقط من السهل على المرء أن ينسى بأن الحلم كقاعدة مجرد فكرة مثل أي فكرة أخرى»[20].

لقد وصل الأمر بفرويد إلى إنكار شرعية الحدس في علم النفس:

«ليس هناك من مصادر لمعرفة الكون سوى العمل الفكري القائم على الملاحظات الدقيقة للغاية – وبلغة أخرى ما نسميه البحث – وإلى جانب ذلك لا وجود لمعرفة

مستمدة من الوحي، الحدس، أو الكهانة... قد يكون الحدس والكهانة [طريقتين في البحث] متى وُجدا، ولكن قد يُنظر إليهما على أنهما مجرد أوهام، أو تحقيق للدوافع المفعمة بالرغبة»[21].

إن ربط «الحدس» بـ«الوحي» و«الكهانة» أدى إلى نبذه بوصفه ضربًا من الشعوذة. لذلك فإن فرويد كتب في موضع آخر: «يلعب «التعاطف» الدور الأكبر في إدراكنا لما هو غريب بالفطرة على أننا في غيرنا من الناس»[22]. ولقد كان عقلانيًا جدًّا، حتى أنه عندما كان يكتب عن عمليات بناء النظريات كان يعلّق قائلًا: «لا أعتقد أن للحدس الدور الأكبر في عمل من هذا النوع». و«يبدو لي انطلاقًا مما لاحظته بخصوص الحدس أنه نتاج لنوع معين من الحيادية الفكرية»[23].

وقد لاحظ أحد مدوّني السيرة الذاتية، أن في شخصية فرويد وجهين متباينين:

«الأول يبدو غامضًا وانفعاليًا وشغوفًا بنفسه وبالخرافة وأحيانًا حسّاسًا بشكل مفرط ولطيفًا ومحبًّا للدعابة... وأما الثاني فيظهر من خلاله عقلانيًا ومجادلًا إلى حد ما، ومستعد دائمًا للاعتراف بأخطائه متى ثبت فعلًا أنه أخطأ، كما كان يميل إلى الامتثال للقانون واستخلاص العبر من أيّ شيء»[24].

وكلّما تقدّم فرويد في السن كلّما أصبح هذان الوجهان أكثر بروزًا: إحساس رومانسي بالمجهول وعلم عقلاني بما هو ملاحظ، وأصبحت خصاله التي اعتبرها تلاميذه في السابق غريبة الأطوار تتجه نحو التساوق مع دفاعه عن التخاطر. وقد اهتم فرويد بهذا التحوّل إلى الاعتقاد بفكرة انتقال الأفكار لفترة من حياته في عشرينيات القرن العشرين على نحو غريب جدًّا، وذلك عندما كان يركز أكثر فأكثر على الدراسة العلمية الخالصة مقابل الجانب الفني للتحليل النفسي. ولأنّ كثيرًا من هذه الاتجاهات في تفكير فرويد استمرت طويلًا بعدما انفصل يونغ عن حلقته، فإنه يتعيّن على المرء أن يدرس مسيرة فرويد المهنية في مختلف مراحلها من أجل فهم ما الذي جمع الرجلين معًا وما الذي فرق بينهما.

دوّن فرويد في عام 1901 عن فترة خطبته لمارتا قائلًا:

«وخلال الأيام التي أقمت فيها وحيدًا في مدينة غريبة (باريس) - وكنت شابًّا آنذاك - غالبًا ما كنت أسمع فجأة صوتًا محبوبًا لا يمكن أن أخطئه يناديني باسمي، عندها تبيّن لي أن الأمر يتعلق بلحظة هلوسة حقيقية وبحثت بما كان يحدث في المنزل أحيانًا وقد استبدت بي الحيرة. وتوصلت إلى أنه لم يحدث شيء».

على أية حال، بدأ موقف فرويد يتغيّر بحلول عام 1924 تجاه التخاطر إلى الحد الذي جعله يضيف جملة جديدة إلى التقرير الذي أعدّه حول «الهلوسة»؛ «عليّ أن أعترف أنني عشت تجارب مثيرة في السنوات الأخيرة تمكنت من خلالها من أن أشرح أطروحة انتقال الأفكار عبر التخاطر»[25].

شارك فرويد في جلسة واحدة على الأقل من جلسات التخاطر[26]، كان خلالها منفتحًا على العالم الخفي بالقدر نفسه الذي كان عليه السيكولوجي ويليام جيمس العالم العظيم والساذج أحيانًا. لم يرقَ إلى ذهن فرويد أنه يمكن أن يوجد تواصل مع الموتى وإنما أقصى ما هنالك تواصل صامت ما بين الأحياء. ولقد افتتن ورفض في الآن ذاته إمكانية أن يتواصل العقلان دون وساطة الوعي. مثّل التخاطر مفهومًا جذابًا بالنسبة له لأنه اعتقد أن بإمكانه أن يوطّد قيمة اللاوعي. ولكنه خشي أن «نصبح خرافيين من جديد بعد التحوّل الذي شهده العلم»[27]. ولم يتردد ذات مرة في إنكار حالة تخاطر ظاهرة ما بين أم وطفلها، مبيّنًا أن الأمر لا يعدو أن يكون سوى حالة اتصال وطيدة بين عقليهما اللاواعيين ولا يتعلق الأمر بانتقال أفكار تحتاج إلى شرح.

أشار فرويد على الأقل في أوائل 1889 في كتاباته إلى «المشاكل الغامضة التي تحيط بالتنويم المغناطيسي (انتقال الأفكار... إلخ)...»[28]. وبالقدر الذي اعتمد فيه على تقنية التنويم المغناطيسي في بداياته في العلاج النفسي، لم ينكر فرويد حساسيات النفس البشرية شبه السحرية. إذ اعتقد أن «حالة النوم تبدو بشكل خاص كاستعداد لاستقبال رسائل التخاطر»[29]، ولذلك فإن دراسة انتقال الأفكار تبدو مسترسلة بشكل منطقي في كتاباته الأولى حول الأحلام. فهو لم يُشر فقط إلى «الحقيقة التي لا تقبل الشك بأن النوم يخلق ظروفًا ملاءمة للتخاطر»، ولكن ربما أيضًا إلى التفكير في النوم كموت مؤقت، فقد اعتقد «بأنّ أغلب إيحاءات الخاطر تتعلق بالموت أو بإمكانية الموت»[30].

وبغض النظر عن مدى حيادية فرويد في دراسة التخاطر، فقد شغل الموت باله بشكل خرافي. فما التقى شخصًا يشبهه، إلا واستحضر المثل الشعبي الذي يقول بأن رؤية الشبيه تنبىء بدنو المنية[31]. ولقد عبّر عن ذلك صراحة في قوله: «لقد تبيّن لي من خلال عمليات الفكر اللاشعورية في الأرقام أني أميل إلى الأسطورة...». ولقد تعلقت تلك الأرقام دائمًا بتاريخ وفاته: «لقد توصلت من خلال بعض التأملات إلى معرفة مدة حياتي وحيوات المقرّبين مني...»[32]. وكتب جونز أنه عندما كان فرويد في الستين من عمره «اعتقد بشكل

خرافي بأنه لم يتبق له من عمره إلا بضع سنين»[33]، وأثناء رحلته إلى إيطاليا أرّقه الرقم 62. وفي عديد من المناسبات اعتقد بأنه سيموت في سنّ بعينها وهي سن الواحدة والثمانين وكانت تسلّيه فكرة أنه سيعيش العمر ذاته الذي عاشه أبوه.

كانت مشكلة الفناء على صلة وثيقة بالضيق الذي سببته فكرة التخاطر لفرويد. فلو أن «شبيهه» كان «ملك الموت» «لضمن لنفسه الخلود...»[34]. اعتقد أن «الإيمان بفكرة «الشبيه» تعني بالأساس ضمانة في مواجهة تحطيم الأنا، و«إنكار فعّال لقدرة الموت»، كما يقول بذلك رانك، وقد تكون الروح «الخالدة» الشبيه الأول للجسد»[35].

وكلما تجلّت فكرة ما لفرويد في حقيقة خارجية تحديدًا، كلما تزايدت مخاوفه من الخرافة. أهدى له أتباعه بمناسبة الاحتفال عيد ميلاده الستين عام 1906، ميدالية عليها شعار مسرحية أوديب راكس لسوفوكليس «التي تروي اللغز المشهور [لإنسان بارع] يتمتع بقوة خارقة». كما جعلت هذه الكلمات من فرويد شخصًا غريبًا بعدما تبيّن أنها تتطابق مع النقوش التي نقشها من وحي خياله قبل ذلك بسنوات على تمثاله النصفي في جامعة فيينا. ولما رأى فرويد رسالة الميدالية «شحب واهتاج وراح يتساءل بصوت مختنق عمن كان وراء تلك المبادرة»[36].

عززت حساسية فرويد الذكية للذاكرة عبر انتقاءاتها وتحريفاتها بشكل منطقي اهتمامه بالمشاعر «المشهودة». ولكن بحثه عن مثل هذه الأوهام قد تعزز أيضًا بمشاعر خاصة متناقضة، لا سيما ردة فعله الحزينة إن لم تكن المشمئزة تجاه ما ناقشه تحت عنوان الخارق للطبيعة. لقد كان الخارق للطبيعة يعني بالنسبة لفرويد المثير للاشمئزاز، وفي مقال له ربطه «بما هو مخيف - بما يثير الفزع والرعب»[37]. ولكن لم يكن الاهتمام بالخارق للطبيعة بالنسبة لفرويد مصدر قلق أبدًا وإن اهتم فرويد بمعضلة الشبيه، فقد كان على بيّنة من أمر أولئك الذين يخوضون في الماوراء. وقد قدّم فرويد مساهمته في فهم الخارق للطبيعة دون تقيّد بالأصالة. وبمجرد أن نشر مقاله خلال العزلة التي فرضتها عليه الظروف في فيينا خلال الحرب العالمية الأولى كتب يقول:

«لم أقم بفحص شامل للمنشور في مساهمتي المتواضعة هذه وخاصة المنشورات الأجنبية، لأسباب تتعلق بالأزمنة التي نعيش فيها، وهذا لا يخفى على أحد، ولذلك فإني قدّمت ورقتي البحثية هذه إلى القارئ دون ادعاء بأفضليتها»[38].

وبالنظر لِما تعرّض له فرويد من صعوبات في علاقته بأدلر وستيكل، فلن يعوزنا

أن نستنتج أنه على الرغم من شرعية اهتمام فرويد فإنه تجاوز الأولويات، ليطال أيضًا الصعوبات والاختناقات الخاصة. لذلك من الطريف أن يظهر لنا من خلال هذه العلاقة أن الخلاف حول المؤلف الحقيقي المفترض لمسرحيات شكسبير كان المشكلة الثانية التي أربكت فرويد بالإضافة إلى مشكلة الاعتقاد في القوى الخفيّة[39].

لقد اختار فرويد أن ينظر إلى الجانب السلبي من مشاعر الشخص الخارق للطبيعة. إذ اعتقد بأن مثل هذه التجارب يمكن «اقتفاء أثرها دون استثناء أي فعل عادي وقع كبحه»، على اعتبار أن الخارق للطبيعة مثّل بالنسبة له «تلك الدرجة من الفزع التي تعود بنا إلى ما هو معروف منذ القدم والمألوف جدًّا»[40]. وإذ ترك بلولر أستاذ يونغ انطباعًا «خارقًا للطبيعة» في نفس فرويد في مجلس سالزبورغ، فلأن هذا الحدث الخاص ربما كان سيشرح من خلال مبدأ الأكثر عمومية الذي يقول «في مقدورنا أن نتحدث عن شخص حيّ وكأنه خارق للطبيعة، وإننا نفعل ذلك عندما ننسب له النوايا الشريرة»[41]. (استطاع فرويد أن يفوز بإبعاد يونغ جانبًا اعتمادًا على بلولر الذي كان قائدًا منافسًا).

وجد فرويد نفسه مع يونغ في مواجهة المشاكل ذاتها التي واجهها مبكرًا مع فليس Fliess وأدلر، على الأقل أثناء الجدل حول من كان الأوّل في ابتكار أي فكرة من الأفكار. فمعالجة التحليل النفسي توقفت على انتقال الأفكار من المريض إلى المحلل على حد سواء عن وعي أو عن غير وعي، وبالتالي لا غرابة أن يحاول فرويد فهم وتقديم تفسير عقلاني للتواصل عبر التخاطر. وربما يرى المحلّل المعاصر أن في «عذاب»[42] فرويد من فكرة التخاطر (كما في تقلقاته الأخرى) ترسبًا من ماضي طفولته: الخوف المؤلم من أن يفتك شخص ما شيئًا منه، والتأكيد من جديد على أنه كان بكر أمه الذكر إن لم يكن الوحيد.

تُعد مثل هذه التوضيحات ضرورية على الأقل لتبين أن عالمًا منضبطًا مثل فرويد انتهى به الأمر إلى حد القبول بحقيقة التخاطر. وقد ذكر فرويد إلى أتباعه قبل الحرب العالمية الأولى، في وقت متأخر من الليل لمّا كانوا مجتمعين في أحد المقاهي عن اعتقاده في شيء صوفي لم يرغب في التحدث عنه. وعلى أية حال، فإن جرأته ازدادت مع مرور الوقت إذ أطلع مجموعة صغيرة من المنخرطين في جمعية التحليل النفسي عام 1921 على دراسة حول «التحليل النفسي والتخاطر» لم تنشر إلا بعد وفاته. ورغم ادعائه بأنّ ذلك «هو موقفه الشخصي من الموضوع» الذي ظل «فاترًا ومترددًا» فإنه مع مرور السنين أصبح أكثر صراحة[43].

وفي عام 1923 كتب حول مشاكل العالم الخفيّ «لقد شعرت بفزع من التهديد ضد رؤيتنا العلمية للعالم عندما بدأت في الظهور في مجال اهتماماتي منذ أكثر من عشر سنوات، وأشدّ ما كان يثير خوفي هو أن يفسح المجال للروحانية والصوفية لو أن بعضًا من الاعتقاد في القوى الخفيّة ثبت صحته. وأما اليوم فأنا أفكّر بشكل مغاير»[44]. لقد وصل الأمر بفرويد إلى الاعتقاد بأن لديه معلومات كافية عن التخاطر من خلال تجاربه الإكلينيكية حتى يستنتج أن «كفّة الميزان ترجح انتقال الأفكار»[45]. أصرّ فرويد على اعتبار إسهاماته واقعية أكثر منها تصوّرية على غرار ما فعل مع أفكاره الأولى: وكما عبّر عن ذلك «تبقى إمكانية انتقال الأفكار حقيقة راجحة جدًّا»[46]. وجاء في رسالة في العام ذاته قوله «يكمن وراء كل ما يسمى بالظواهر الغامضة شيء جديد وهام هو حقيقة انتقال الأفكار، أي انتقال العمليات النفسية من أشخاص إلى أشخاص آخرين عبر الفضاء»[47]. ومثلها مثل الأحلام تخفي الظواهر الغامضة معناها السري وراء المحتوى الظاهر.

وقد لا يكون غريبًا أنه كان ينبغي على فرويد أن يؤمن في بعض الأحيان بالتخاطر بالقدر الذي كان عليه يونغ. ففي شرحه لجذور الخرافة كتب ملاحظة يقول فيها إن «النزوع الذي يشعر به المصابون بمرض العصاب الهوسي إلى عدم اليقين والشك» يقودهم إلى «توجيه أفكارهم إراديًا نحو الموضوعات التي يعتبرها الناس كافة أشياء غير يقينية، وتسلّط الضوء على ما يتعيّن على معرفتنا وأحكامنا بشأنه أن تظل قابلة للشك»، وهاهنا يذكر فرويد الموت والذكريات جنبًا إلى جنب مع أصل الوجود والخلود[48]. ومهما كان السبب الذي حمل يونغ على أن يهتمّ بالعالم الخفيّ، فإن هواجس فرويد الشخصية هي التي أمدَّته بالدوافع الكافية.

والثابت أن فرويد يعتقد، كما يقول، بأن «خرافة يونغ الخاصة لها جذورها في الطموح المكبوت (في الخلود) وأما بالنسبة لحالتي فتتعلق بالقلق من الموت والذي ينبثق بدوره من الطابع غير اليقيني للحياة»[49]. لقد كان فرويد وكذلك يونغ يتوقان للخلود، ومثلت المساجلة بينهما بمثابة شرح رائع لمبدأ فرويد القائل بأنه أحيانًا يقوم الشخص بتفسير الدوافع اللاشعورية للآخرين حتى لا ينشغل بدوافعه الخاصة. مالت طريقة فرويد في العلاج إلى المغالاة في تقدير الحقيقة الجسدية واعترف بأن نزعته تلك كانت مصدر الخرافة.

وفي عام 1901 كتب يقول عن الأشخاص الذين يتمتعون «بذكاء حاد»:

«الخرافة مستقاة من العدوانية والدوافع القاسية المكبوتة. إذ تكمن في جزئها

الأكبر من توقع الضراء، وأن الشخص الذي يضمر دائمًا نوايا خبيثة تجاه الآخرين، ولكنه نشأ على الطيبة وبالتالي اضطر إلى أن يكبح مثل تلك الرغبات في اللاوعي، فإنه يتوقع أن يكون عقابه عن هذا الخبث اللاواعي في شكل ضراء تتهدده من الخارج»[50].

يتناسب هذا التشخيص مع فرويد بشكل وثيق إلى حد ما. وبحسب وجهة نظره، فإن أولئك الذين يعانون من نزعات هوسية يواجهون مصادفات غير مألوفة - كأن يقعون على الرقم اثنان وستين تكرارًا ومرارًا - وهو ما يعني في الواقع إسقاطًا لمشاعرهم الذاتية، وهذا أيضًا يساعد على فهم الاعتقاد الخرافي المصاحب بأن الأفكار يمكن أن تتحقق في العالم الخارجي. ورغم أن فرويد ادعى مرة كما يقول «لست من المحظوظين حيث يتعطل نشاط الأرواح وتختفي القوى الفائقة للطبيعة في حضوري، لذلك لم أعش أبدًا تجربة من هذا القبيل بحيث يمكن أن تفرض عليّ الاعتقاد في المعجزة»[51].

ولا شك في أن فرويد تورّط في الاعتقاد بالعالم الخفي، فقد كتب ذات مرة «لو كُتب لي أن أحيا حياة ثانية لأكرسنّ حياتي في الاهتمام بالجسدي أكثر من التحليل النفسي»[52]. قد يكون هناك تناقض ظاهر في توجه العلماء إلى أبعد من ذلك الاتجاه كما فعل فرويد. لقد ابتكر فرويد تقنية علاجية ونسقًا نظريًا، تدفعه في ذلك حاجاته الذاتية، ومن خلال معالجته للمرضى ابتكر طريقة تساعد على العلاج الذاتي. ومهما حاول أحدهم أن يبني بدقة شخصية فرويد، فسيجد صعوبة، لا محالة، على صعيد الحياة الواقعية. ولكن، على الأقل، علينا أن نتعرّف أن بعض تناقضات فرويد الذاتية، حتى وإن تسنى لنا فهمًا جزئيًا، قد تكون غامضة بالنسبة لفرويد نفسه، وقد تكون أفسدت بعض علاقاته الإنسانية الرئيسة. إذ ساهمت أشواق فرويد الصوفية وكذلك اهتمامه المفرط بالعالم الخفي، فضلًا عن الاختلافات العلمية الموضوعية، في تعميق الفجوة بينه وبين خلفائه المختارين.

3 - أوديب

هيّأت المساجلة مع يونغ إلى نموذج معد جيّدًا في حياة فرويد. فقد كان أحيانًا يتّجه نحو الأشخاص الأكثر حماسة وكان يميل إلى أن يجعلهم مثاليين. ثم بعد ذلك يلومهم لعدم امتلاكهم للصفات التي نسبها هو نفسه إليهم، وكذلك لفشلهم في أن يعيشوا وفق الصورة الوهمية التي ارتآها.

وبالنظر إلى علاقة فرويد مع تلاميذه المفضلين، وكذلك أيضًا مع معلّميه، يمكن للمرء أن يتذكر ما كتبه فرويد في تفسير الأحلام عن علاقة طفولته بابن أخيه جون:

«أيّ من أصدقائي كان سيجسّد هذه الشخصية الأولى ضمن بعض الوجوه.... فحياتي العاطفية تفرض دائمًا أن يكون لي خلّ ودود وعدو لدود. وكان بإمكاني دائمًا أن أكون هذا أو ذاك، وليس بالنادر أن الحالة المثالية للطفولة أعيد إنتاجها تمامًا وقد يجتمع الخل والعدو في فرد واحد بطبيعة الحال، إن لم يجتمعا الاثنين معًا في وقت واحد فبشكل متذبذب على نحو متواصل، كما كان عليه الحال في طفولتي المبكرة»[1].

حافظ فرويد طوال حياته على عدد من الصداقات (على سبيل المثال مع أوسكار راي وليوبولد كوينشتاين) وهي صداقات تجاوزت مستوى العلاقة بين العم وابن الأخ على أن هؤلاء الأشخاص لم يعلموا عن أعماله إلا ما ندر. أما تلاميذه المخلصون فقد نشروا بعض الأعمال مثل «الجبن» و«المقاومة» و«رحلة من اللاشعور» للزملاء السابقين الذين خذلوا فرويد. ورغم أنه قد يكون عنصرًا من الحقيقة في تلك المهام، فإن على المرء أن يهتم بالمشكلة في الوقت ذاته من منظور أتباع فرويد الأكثر موهبة. فبالنسبة ليونغ تمامًا مثل أدلر من قبله، ليس مقبولًا أن تكون العبقرية حاجزًا في طريقه، ومن أجل أن يلطّف من إحباطه ويستمر في إبداعه، اضطر يونغ إلى أن ينهمك في عمله الخاص.

ولقد أجّجت سمات خاصة طبعت حلقة فرويد الخلافات بين أعضائها. فالتحليل النفسي «علم» أساسه برهان موضوعية، وقد أشار فرويد في بعض الأحيان إلى أن اكتشافاته من طبيعة سيرته الذاتية وتقترن بها اقترانًا يعسر فكّه. أنى لتابع أن يُميّز أي الأجزاء من أعمال فرويد يمثل إسهامًا في علم يدّعي أنه موضوعي وأيها ببساطة يعكس سماته الشخصية؟ وفي هذا الصدد، أنى لفرويد نفسه أن يثبت أن إحدى أفكاره بشأن قضية ما مهددة بالتشويه من قبل أحد أتباعه، أو أن إحدى عقده الشخصية فعّلها تابع منافس وطموح؟ زعم فرويد أنه يتمتع بحقوق ملكية خاصة في مجاله، وفي الآن ذاته اعتبر التحليل النفسي إرادة إنسانية مستقلة وفرع من العلوم الغربية.

وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن الخلافات في حلقات التحليل النفسي منذ البداية كثيرة، غير أن هذا الأمر قد يكون واقعيًا الآن قياسًا لما كان عليه الحال قبل الحرب العالمية الأولى. وفي ضوء الانقسامات التي شهدها التحليل النفسي، فإن هذا التقييم يبدو غريبًا.

فوّت عدم التشجيع على الاختلاف في الرأي وتعزيز تماثل إرادة المجموعة (إذا لم تكن تنتسب إلى فرويد) على التحليل النفسي فرصًا كثيرة لتجاوز المظالم الفكرية التي تعرَّض لها وتسوية الاختلافات في الرأي بشأنه، ومن ثم اتخذت مظاهر الفشل اتجاهًا غير مناسب تمامًا. وباعتراف فرويد نفسه حين يشير إلى طبيعة البرهان في التحليل النفسي، أن هذا البرهان لا يمكن أن يبلغ نفس درجة اليقين التي بلغتها المجالات العلمية الأخرى[2]. لقد صار الاستبعاد بعد ذلك الطريقة الأكثر استخدامًا في حل النزاعات.

اعتقد يونغ في أوج صعوباته مع فرويد في الفترة من 1912 إلى 1913، أن طريقة فرويد في القيادة هي السبب في مظاهر التمرد عليه. ففي رسالة لم ترسل إلى يونغ جاء فيها: «إن لومك لي على أني أسأت استخدام التحليل النفسي لغرض الحفاظ على تبعية تلاميذي لي كالأطفال وبالتالي فإني المسؤول عن سلوكهم الطفولي تجاهي...»[3]. وبالحفاظ على تلاميذ تابعين إلى أن يضطروا إلى التعبير عن فرديتهم فقط عبر التمرد، وبجعل مهمة المحلِّل مسألة إما / أو، وجد فرويد نفسه أمام ردود فعل أوديبية. لقد اعتقد ويتلز أن فرويد «يعامل تلاميذه، يقينًا، مثل الأطفال ثوابًا وعقابًا، وعن طريق إبعادهم عن رفاق السوء»[4]. وكتب يونغ في رسالة له في آذار/ مارس عام 1913 بأن «عددًا لا يستهان به من العصابيين لا يحتاجون إلى تذكيرهم بالتزاماتهم وواجباتهم الاجتماعية، ولكنهم شاءت الظروف أن يكون مولدهم وقدرهم أن يحملوا مُثُلًا ثقافية جديدة».

«وما دمنا ننظر إلى الحياة بأثر رجعي فقط، كما هو الشأن في كتابات التحليل النفسي في مدرسة فيينا، فلن ننصف هؤلاء أبدًا ولن نحقق لهم الخلاص الذي ينشدونه. وبهذه الطريقة إنما نروضهم حتى يكونوا أطفالًا مطيعين فقط فندفعهم بكل ما أوتينا من قوة إلى المرض - تخلفهم المحافظ وخضوعهم إلى السلطة... الدافع الذي يقودهم بعيدًا عن العلاقات الأبوية المحافظة التي لا تعني بأي شكل من الأشكال محاولة الطفولة للعصيان إنما هو حافز قوي من أجل تطوير شخصياتهم، ويعتبر النضال من أجل ذلك واجبًا إلزاميًا. وقد أنصفت سيكولوجيا أدلر هذا الوضع أكثر مما فعل فرويد»[5].

وبعد تصدّع العلاقة بينهما، وصف فرويد يونغ كـ«شخص غير قادر على قبول سلطة الآخرين، وإن يظل لديه القليل من القدرة على أن يتدبّر أمره بنفسه، ويكرّس طاقاته بلا هوادة من أجل مصلحته الشخصية»[6].

أما جونز فقد عانى لكي يتحرّر من وهم ذيوع سمعة التعصب التي أضرت بفرويد، وقد انتقد بشدة وبصفة خاصة المماثلة بين التحليل النفسي وبين الطائفة الدينية حيث يكون فرويد بابا جديدًا. وحسب رواية يونغ لمثل سوء الفهم هذا:

«بطبيعة الحال، فرويد هو بابا هذه الطائفة الجديدة، إن لم يكن دائمًا الشخصية الأعظم مكانة حيث ينبغي على الجميع طاعته، وكانت كتاباته نصًا مقدسًا، والتصديق إجباري على من يفترض أنهم لم يفشلوا ممن أرغموا على التحوّل، وكان هناك عدد لا بأس به من المهرطقين الذين طردوا من الكنيسة. إنها لصورة كاريكاتورية جميلة على نحو صارخ، ولكن ذلك، إنما وُظف في حقيقة الأمر، للتعتيم على الحقيقة «[7].

رغم أن جونز لم يعتقد في «الفكرة العامة للبابوية»[8] على أهميتها في فهم فرويد، فقد كانت صدقية هذا الأخير بمنزلة تقويض لمحاولات جونز الأخيرة لتوضيح منزلة الأستاذ. وكما يذكر لودفيغ بينسوانغر «سألت... [فرويد] عما إذا كان بإمكانه أن يُبيّن لي بدقة كيف انشق عنه أتباعه الأكبر سنًا والأكثر موهبة، أمثال يونغ وأدلر. فرد عليّ قائلًا بنبرة لا تخلو من سخرية من الذات: «لأنهم، بدقة، أرادوا أن يكونوا هم أيضًا باباوات»[9]. وفي عام 1924 عاد فرويد من جديد إلى استخدام الاستعارات الدينية في كتاباته عن يونغ وأدلر فقد وصفهما «بالمهرطقَيْن»[10].

وبعد فترة قصيرة من مقدمة يونغ لفرويد عن موضوع مسرحية أوديب الفظيع. وبعد يوم من زيارة يونغ الأولى له في شباط/ فبراير عام 1907، سأله فرويد (وكان بمعية زميله بينسوانغر وهو طبيب نفسي سويسري) عن أحلامهما، وكما ذكر ذلك رفيق يونغ «لا أستحضر حلم يونغ، ولكنني أستحضر دائمًا تفسير فرويد له بوصفه تعبيرًا عن رغبة يونغ في أن يخلعه من عرشه ويأخذ مكانه»[11](*)، فمما لا شك فيه أن يونغ كان يأمل في أن ينجز على الأقل قدر ما أنجزه فرويد، ولما انتهت علاقتهما قد يكون تمنى الموت لفرويد. ولكن الأسطورة الكلاسيكية التي تمثلها فرويد ظلت تتطوّر دائمًا حتى صارت موضوعًا واعيًا دفينًا في أعماق ذواتنا، وتخص، بالإضافة إلى جريمة أوديب، قتل والده المتعمّد لأطفاله، وتخبر أيضًا عن الآباء الآخرين الذين يفعلون الشيء ذاته بأبنائهم: مثل كرونوس الذي أهلك كل أبنائه ولم يحتفظ منهم إلا بواحد وكان زيوس.

(*) كتبت زوجة يونغ إلى فرويد ذات مرة حول «عقدة يونغ-الأبوية»: «لا تعبأ بمشاعر كارل الأبوية: «فهو بقدر ما يكبر، أصغر»، وإنما بالأحرى كإنسان يفكر في غيره، فهو، مثلك، له منهجه الخاص في التفكير»[12].

لم تخلُ علاقة فرويد ويونغ حتى في ذروة حميميتها من الشد والتوتر. فقد كان يونغ «يبجّل» فرويد حتى أنه جعل من حلقته بمنزلة «الكنيسة الدينية»، ولمّا كان يونغ طفلًا تعرَّض لاعتداء جنسي من رجل كان يجلّه أيما إجلال في ما مضى، ولذلك أزعجته مشاعره تجاه فرويد[13]. أما فرويد من ناحيته فقد اعتقد كما يقول بأن «التحويل على أساس ديني قد يفاجئني بشيء أكثر كارثية ولن ينتهي إلا إلى الردّة»[14].

دُعي فرويد ويونغ إلى إلقاء محاضرة في الاحتفال بمرور عشرين سنة على تأسيس جامعة كلارك في 1909، وقد عبرا المحيط الأطلنطي يصحبهما فرينشيزي. وأثناء رحلتهم تبادلوا الأحلام. وكان فرويد يُمنّي النفس بأن يكون يونغ وفرينشيزي وريثيه في التحليل النفسي، وقد أخبرا جونز في ما بعد بأن «أكثر ما كان يشغل فرويد في أحلامه هو مستقبل أطفاله ومستقبل التحليل النفسي»[15]. وفيما يذكر يونغ أن رفض فرويد ضمن مستويات معينة أن يفصح عن تداعياته بشأن موضوع أحلامه، خشية أن تزعزع سلطته كزعيم لحركة التحليل النفسي بحيث تكون أكثر انفتاحًا، ورفضه الحميمية، هو ما جعل مكانة فرويد عنده تتراجع[16]. وتتعلق مشكلة أحلام فرويد، في تقدير يونغ، بـ«الثلاثي»، فرويد وزوجته وأختها الصغرى. ولا يعلم فرويد شيئًا عن علمي بهذا الثلاثي أو عن علاقته الحميمة بأخت زوجته. ولذلك عندما أخبرني فرويد عن الحلم الذي كان لزوجته وأختها دور مهم فيه، طلبتُ منه أن يخبرني عن بعض من تداعياته الشخصية بشأن هذا الحلم. فنظر إليّ بحرقة وقال «بإمكاني أن أخبرك بأكثر من ذلك، لكني لا يمكن لي أجازف بنفوذي»، وعليه، بطبيعة الحال، خيّرت أن أضع حدًا للتعامل مع أحلامه[17].

ومن أكثر العلامات الدالة على توتر فرويد أن فقد وعيه مرتين، الأولى في بيرمن قبل رحلتهما (هو ويونغ) إلى الولايات المتحدة في عام 1909. فقد نجح فرويد في إقناع يونغ أن يتخلى عن الامتناع عن الخمر رغم تشبث بلولر بذلك، واللافت أن فرويد الذي كان يكره «الإغماء مهما يكن محدودًا تحت تأثير الشرب وإن يكن قليلًا»[18] هو الذي تعهد بتغيير موقف يونغ تجاه الكحول. ولكن موقف يونغ من شرب الخمر ليس سوى جزء من تقليد البورغلزلي، وإن تناول يونغ بعض النبيذ مع فرويد وفرينشيزي يعني تحوّل في ولاءات الأطباء السويسريين الشبان.

تحدث يونغ في مناقشتهم حول الكحول عن افتتانه ببعض الاكتشافات الأخيرة المتعلقة بـ«الجثث الملقية في مستنقعات الخُنث» في مقابر كوبنهاغن التي ترجع إلى ما قبل التاريخ.

فقد خلط يونغ ما بين هذه الجثث ومومياوات القرن السابع عشر الموجودة في أقبية الرصاص في بيرمن، وهو أمر صححه فرويد، ولكن اهتمام يونغ المتزايد بموضوع الجثث «أثار غضب فرويد». تذكّر يونغ تحقيق فرويد معه:

«سألني في مناسبات عديدة «لماذا تهتم بهذه الجثث؟» لقد كان الحديث في أمر هذه الجثث يثير غضبه بشكل غير عادي دائمًا، حتى أنه، أثناء هذه المناقشة، أغمي عليه فجأة بينما كنّا نتناول العشاء سويًّا. وفي ما بعد قال لي إنه مقتنع بأن هذه الثرثرة عن الجثث تعني بأنني أتمنى له الموت. ولقد أدهشني جدًّا هذا التفسير، وقد هالتني تلك الأوهام وبديهي جدًّا أن تفقده الأوهام وعيه»[19].

وأما الثانية، فكانت أثناء مقابلة في ميونيخ في عام 1912، عندما احتدمت الصراعات بين فرويد ويونغ بشكل صارخ، ونقلًا عن فرويد في ردّه على هذه ذكر جونز:

«لقد قدّم السويسريان يونغ وريكلين، في كتابتهما شروحًا عن التحليل النفسي في الدوريات العلمية السويسرية دون أن يذكر اسمه. وقد جاء رد يونغ بأنه ما من ضرورة تستدعي ذلك. وهذا معروف جيّدًا، ولكن فرويد شعر بأن تلك أولى علامات الانشقاق الذي ما لبث أن حصل في غضون عام. ولقد أصر على ذلك وأتذكر أنه كان يعتبر الموضوع أكثر من شخصي... وفجأة سقط على الأرض مغشيًّا عليه كالميّت».

حمل يونغ فرويد إلى الحجرة التالية، وفي الأثناء علّق فرويد قائلًا «إنه لأفضل للمرء أن يموت»[20].

لم تكن مسألة الأولويات تشغل بال فرويد ولا هو أخذها على محمل الجد قط، وإنما طفت على السطح منذ أن اقترن اسم يونغ بالتحليل النفسي. ذكر يونغ مناسبة أثيرت فيها هذه المسألة وكانت في عام 1908 حيث يقول:

«كانت واحدة من المناقشات الغبية حول الأولويات التي غالبًا ما شابت الأوراق العلمية... لقد أثيرت بسبب إغفال أبراهام لذكر بلولر ويونغ أو الاعتراف بفضلهما في ورقته التي قرأها في المؤتمر حول اكتشافاتهما السيكولوجية حول العته المبكر الذي نحى فيه يونغ أحيانًا منحى خاطئًا»[21].

عادة ما حاول فرويد أن يُهدّئ من روع أتباعه و«حساسيتهم حيال الأولوية»[22]، وقد نجح في ذلك. ولم يقلل انهمامه الخاص بهذه المشكلة، رغم ذلك، من انهمام أتباعه بها.

وعندما كانت علاقة فرويد مع يونغ على أحسن ما يرام مازح يونغ مشيرًا إلى أن اعتماده على أعمال أحد تلاميذه الرائدين يعد ضربًا من الانتحال[23].

اقترنت حالة الإغماء التي تعرّض لها فرويد في ميونيخ ـ وتلك التي تعرّض لها أيضًا في بيرمن ـ برغبة يونغ في وفاة فرويد. وقبل أن يتعرّض فرويد إلى حالة الإغماء، دار نقاش بين فرويد ويونغ حول دراسة أبراهام الأخيرة عن أحد الفراعنة القدامى: أمينوفيس الرابع (أخناتون)، فقد كان أبراهام منهمكًا في «التأكيد المستمر على حقيقة تعاليمه الأخلاقية». وقد ذكر أيضًا أن أمينوفيس كان مصابًا بالصرع وكطفل عانى من «الدوار»[24] وحسب رواية يونغ:

«يعزى ذلك إلى موقفه السلبي تجاه أبيه فقد أفسد الزخارف المنقوشة على الجدران، وأن إبداعه العظيم لعقيدة التوحيد يعود إلى عقدته الأبوية. هذا النوع من الإيعاز ينرفزني، حاولت أن أبيّن أن أمينوفيس كان شخصًا مبدعًا وذا حس ديني عميق، بحيث لا يمكن تفسير أفعاله من خلال مقاومته الشخصية لأبيه. وفي المقابل قلت إنه كان يحتفظ بذكرى أبيه بشرف، وإن حماسه للتدمير وجّه فقط ضد الإله آمون حيث سعى جاهدًا على محقه في كل مكان، فقد أزال كل النقوش عن الآثار التي تحمل اسم أبيه أمنحوتب. كما استبدل الفراعنة الآخرين أسماءهم الأصلية أو الأسماء المقدسة لآبائهم المنحوتة على الآثار أو التماثيل بأسماء لهم، معتبرين أن ذلك هو عين الصواب لأنها كانت تجسيدات للإله ذاته. وإلى ذلك الحين، كما أشرت، لم يبدعوا أسلوبًا جديدًا أو ديانة جديدة. وفي الأثناء وقع فرويد من كرسيه مغشيًّا عليه»[25].

وفي سنواته الأخيرة عاد فرويد إلى مشكلة أصول التوحيد لدى المصريين، في كتابه موسى والتوحيد، كما أثار فرويد مشكلة الأولويات من جديد، حيث اعتبر أن موسى اقتبس من المصريين ديانتهم ثم نقلها إلى العبرانيين (•).

إلا أنه في عام 1912، اشتعل الصراع بين فرويد ويونغ. قلق الأستاذ على مستقبل أفكاره بين يديّ أحد أتباعه المجتبيين. وقد عبّر فرويد عمّا يختلج في نفسه من خلال المعاني الدراماتيكية للإغماء. ذكر يونغ أنه بعد أن حمل فرويد إلى الغرفة الأخرى: «كان هذا الأخير في حال يرثى لها، ولن أنسى أبدًا نظرته إليّ وقد أعياه الإغماء كما لو كنت أباه»[26].

(•) أنظر، أواخر الفقرة 6 من هذا الفصل (السادس)، وأواخر الفقرة 4 من الفصل العاشر.

لقد شعر فرويد بأنه يثق في يونغ، وأن تفسير يونغ لحالة أمينوفيس ـ الذي لم يكن مجرّد رجل أزال النقوش عن الآثار التي تحمل اسم أبيه، إذ من الصعب أن ينسى لأنه شرع ديانة عظيمة ـ زعزع إيمان فرويد بأنه الرجل المناسب الذي عُهد إليه أمر التحليل النفسي.

ولو كان فرويد في تلكما النوبتين من الإغماء في حالة من الغضب الشديد لما استطاع أن يتحكّم في عواطفه. فربما حاول عن طريق الإغماء أيضًا أن يظهر ليونغ ما كان يعتبره هذا الأخير الدافع الأساس، أي رغبته في اختفاء فرويد. وربما يكون إغماء فرويد تعبيرًا عن لفتة استرضاء من لدنه، أو محاولة للفوز لاحقًا بما كان يتوقع أنه مهدد بخطر الضياع. ورغم ذلك فقد فسّر يونغ إغماء فرويد على أنه نوع من التجنب أو الاستسلام، فمن ناحية كان فرويد حساسًا تجاه أي نقد أو تحدٍ لنفوذه، ومن ناحية أخرى، لم يكن يرغب في الانخراط في صراع وجهًا لوجه مع يونغ. وكما قال يونغ مستحضرًا تلك الأحداث «لم يكن فرويد يحتمل أي نقد. تمامًا مثل المرأة. كلما واجهتها بالحقيقة المرة: أغمي عليها»[27].

كان يونغ هو الطفل الذي تعرّض لنوبات من الإغماء. وأما فرويد فكان بالغًا حين تعرّض على الأقل لنوبتين من هذا النوع، وكانتا كليهما تتعلقان بفليس. ففي أوائل عام 1890 أجرى عملية جراحية على أنف إحدى مريضات فرويد، «إرما» (إيما ايكشتين)، وقد تعرضت لاحقًا، من حين لآخر، إلى نزيف حاد في الأنف في حضور فرويد الذي أغمي عليه بسبب رؤيته الدم[28]. ولما رأته وهو في «لحظة ضعف»، كما نقل عنها، لاحظت ساخرة منه: «ذلك هو الجنس القوي»[29]. ربما حاول فرويد أن يتهرّب من الموقف عن طريق الإغماء حتى لا يعالج المريضة التي تعاني من النزيف أو يعترف بأن صديقه أخطأ بوجه من الوجوه. والثانية عام 1890، عندما شعر فرويد بتسارع خفقان القلب لطارئ غير عضوي في الأصل، والذي حصل في حضرة فليس «الأعراض ذاتها في الغرفة ذاتها ولكنها أقل حدة»[30] في ميونيخ حيث أغمي عليه لاحقًا في حضور يونغ من جديد. اعتقد جونز أن «التشابه بين الحالتين»، سواء لمّا كان بمعيّة فليس أو بمعيّة يونغ، «لا تخطئه العين» وقد ألقى «الضوء على تجنب فرويد عامة للخلاف، فلو تولدت مشاعره أكثر لفاقت حدّها، وكان لا بد له من التحكم فيها بعزيمة لا تلين كما تعوّد على ذلك دائما»[31].

في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1912 كتب فرويد إلى فرينشيزي يقول: «لقد تعرّضت إلى نوبة مقلقة وأنا على الطاولة» في ميونيخ «تمامًا مثل تلك التي تعرضت لها سابقًا

في... بيرمن»[32]. وفي الشهر التالي كتب فرويد إلى بينسوانغر: «أمّا وقد مرّت النوبة التي تعرضت لها في ميونيخ بسلام فأنا المؤهل الوحيد للخلود». وقد كتب ستيكل مؤخرًا بأن سلوكي «مرائي». جميعهم لا يتمنون لي الخلود، ولكنني أجيبهم كما فعل مارك تيوان في ظروف مماثلة: «إن التقارير التي تنبئ بدنو منيتي مبالغ فيها إلى حد كبير»[33]. لم يدخر فرويد جهدًا في التدقيق الذاتي في حالته الصحية بعد نوبات الإغماء التي تعرّض لها:

«تُرد نوبة الإغماء التي تعرضت لها في ميونيخ، يقينًا، إلى عوامل نفسية المنشأ، عززتها عوامل جسدية (أسبوع عصيب، ليلة بدون نوم، الشقيقة (ألم نصف الرأس)، والمهام اليومية). فقد واجهت مثل هذه النوبات نتيجة أسباب متشابهة، وغالبًا ما يكون أهمها الخمر الذي أمقته. ومن بين العوامل النفسية تعرضي في الحقيقة للنوبة نفسها في المكان نفسه، ميونيخ، في مناسبتين سابقتين منذ أربع أو ست سنوات خلت. وفي ضوء التشخيصات الأكثر دقة، لا يمكن رد نوباتي إلى سبب خطير، كضعف القلب مثلًا. لقد كانت تلك مشاعري المكبوتة آنذاك موجهة ضد يونغ، كما وجهت سابقًا ضد أسلافه الذين لا يقلون أهمية عنه»[34].

وما كتبه فرويد في عام 1927 عن نوبات دوستوفسكي (كما اعتقد فرويد «كثيرًا قبل حادثة الصرع») قد يوضح جزئيًا فهمه الناضج لنوبات الإغماء التي تعرض لها في السابق:

«كانت تلك النوبات أشبه بالموت... وإننا نعلم أهمية مثل هذه النوبات الشبيهة بالموت وما تضمره. إنها تجعل الشخص أشبه بالميّت، بل ميّت في الواقع أو ما زال على قيد الحياة ولكن التابع يتمنى له الموت. وهذا الموقف الأخير هو الأكثر أهمية. لقد كانت هذه النوبة بمنزلة عقاب. فمن يتمنى الموت للآخر، يجد نفسه في هذه الحالة في موقع الآخر الذي تمنى له الموت، فيكون هو إذن الميت نفسه»[35].

قد يكون في إغماء فرويد في حضور يونغ، تعويضًا عن كراهيته القاتلة له، وردة فعل عن رغبات الكثير من أتباعه في موته.

وعن طريق الإغماء اتخذ فرويد موقفًا غاضبًا من هذه الحالة غير المرغوب بها، إنه من الأفضل للإنسان أن يموت ولو موتًا وهميًا من أن يتحمل مثل هذه العدوانية. وفي الآن ذاته فقد تخلى فرويد عن هذه المحاجة، ومع ذلك تبقى هذه القضايا الخلافية بالنسبة ليونغ ذات أهمية بالغة.

لقد تعاظم تعلق فرويد العاطفي بيونغ بفضل طبيعة اختياره السياسي. ولما كان فرويد

يفضل الخارج، فقد غادر محل إقامته في فيينا إلى العالم الرحب. وقد رأى آخرون في الحركة أن اعتماد فرويد على يونغ بمثابة همزة الوصل بينه وبين العالم غير اليهودي.

كتب فرويد لاحقًا في عام 1912 أن «باكورة أعمالي حول التحليل النفسي» أثبتت أن القطيعة بين فرويد ويونغ بالغة الأهمية. وقد اعتبر أن يونغ كان باردًا إذ لم يرد على إحدى رسائله على الفور. وقد كان فرويدا غيورًا بطبعه حتى أنه كان يسيء الظن بمراسله على عدم رده على رسائله. بقدر ما يعود حب فرويد لكتابة الرسائل إلى حاجته للتعبير عن أفكاره في ما بينه وبين نفسه، بقدر ما تمثل وسيلة لتبليغها للآخرين، وبقدر ما كان فرويد متعلقًا بشكل غير عادي بمظاهر الحياة اليومية، فقد كان يونغ مهملًا، وكان فرويد يميّز بسرعة مقومات الخيانة اللاشعورية. وعندما لفت جونز انتباه فرويد لعثرة يونغ، رد قائلًا «لا ينبغي لشخص لطيف أن يفعل مثل هذه الأشياء حتى عن غير وعي منه»[36].

يختلف منظورَيّ فرويد ويونغ حول سيكولوجية النفس البشرية بحسب تطوّر خبراتهما، ذلك أن وجهتي نظرهما المتنافستين حتمًا غير منسجمتين. فعلى سبيل المثال يعتبر فرويد المعتقدات الدينية ككومة من الأضاليل فرضت على الجماهير الغبيّة. وفي معالجته للحالات يقدر فرويد الدور الأساس الذي يمكن أن يلعبه الدين، ولكنه عندما يكتب بعبارات عامة، يصطف إلى جانب وجهة النظر القديمة التي ترى أن وظيفة الحاكم هي القتل ووظيفة الكاهن التحايل.

كان مفهوم فرويد للدين بطريركيًا أساسًا: «المشاعر المزدوجة تجاه الأب... هي العامل الكامن في كل الأديان...»[37]. تجاهل فرويد شخصية السيدة مريم العذراء، فهو يعتبر الدافع إلى الدين سلبيّ تمامًا وناتج عن الخوف، أساسه الشعور بالذنب لا الحب، والحاجة إلى التكفير عن الذنوب لا الإيمان، وسلام قلق مع شخصية مكروهة لا شراكة مع شخصية محبوبة[38]. وتنسجم معارضته للأفكار الدينية مع رفضه العام للتبعية والسلبية اللتين يلحقهما بالأنوثة. وكلما بدا فرويد متعصبًا، فمن الراجح أن شيئًا في نفسه كان مهددًا أو ربما كان منهمكًا أكثر في مشاكل العقيدة أكثر من اهتمامه بالمعرفة. إذ يرفض الدين كطريقة لسيطرة الإنسان على مخاوفه وسندًا لطموحاته، فلأنه اتبع مشاعره الشخصية ضد الدين الناتجة عن المعنى السلبي لليهودية الذي ترسخ في ذهنه.

إن الموقف الذي تبناه فرويد من الدين هو ذاته في بقية أعماله. وقد ارتبط انهمام

التحليل النفسي «بالعالم السفلي» للحياة الغريزية البشرية، وليس بالمعايير الدينية التقليدية للايتيقا. وقد كان لدى فرويد تصورٌ بيولوجي محدود نسبيًا مما قد يكون مكنّه من أن يصنفه على أنه غريزي:

> **«إنه لمن الصعب... على كثير منا، أن يتخلى عن الاعتقاد بأن هناك نزوعًا نحو الكمال في السلوك البشري، والتي تجعله في الوقت الحالي في مستوى عال من التطور الفكري والسمو الأخلاقي الذي يُفترض أن يحوّل هذا الكمال إلى شيء مقدس. على الرغم من أنه ليس لي أي اعتقاد في وجود أي من مثل هذه الغرائز الداخلية ولا أستطيع أن أرى كيف يمكن الحفاظ على هذا الوهم الخيري. فإن التطور الحالي للبشر يتطلب، من وجهة نظري، توضيحًا لا يختلف كثيرًا عن ذلك بالنسبة للحيوانات»**[39].

وبقدر ما انشدّ فرويد في شبابه وشيخوخته، للتفكير الفلسفي، بقدر ما ركز يونغ على ضرورة كبح النزعات التأملية، ولكنه مثله مثل يونغ كان قلقًا على الأقل من أن يقترب التحليل النفسي أكثر من الصوفية.

في حين أيّد يونغ بقوة الأديان القائمة واحترم فلسفات الدين، وقد أنجز لاحقًا في حياته دراسة مقارنة حول أديان العالم. وقد اجتهد في أن يمنع العلاج النفسي من ركود طموحه قبل الأوان، فهو يعتبر أن احترام الدين إحدى الطرق للحفاظ على الطابع الإنساني للتحليل النفسي.

وإذا كان فرويد يرى أن أيّ تشديد على الوظائف الإيجابية للدين بغيض، ولو أنه استنتج أن الدين انعكاس لعصاب جمعي، فإن يونغ ذهب عكس ذلك تمامًا عندما أكد على أن العصاب هو انعكاس لفقدان الشخص لقدرته على التحمّل. «فالعصابي مريض لا لأنه فقد إيمانه القديم، ولكن لأنه لم يجد بعد الصيغة الجديدة لطموحاته الأرقى»[40].

كان يونغ، بطبيعة الحال، ابنًا لقس - وهو ما جعل فرويد يتعلق به في المقام الأول - ولكن فرويد شدّد لاحقًا على أن «الطابع اللاهوتي الماقبل تاريخي للكثير من السويسريين»[41] هو مصدر للخلاف بينه وبين يونغ. ولم يكن هيّنًا على فرويد أن يشك إطلاقًا بأن يونغ معاديًا للسامية بشكل مُقنّع. وبينما ناشد، فرويد، بوصفه يهوديًا، يونغ بأن يغادر الوسط البنيوي اليهودي في فيينا، اختار يونغ أن يؤكد على اختلاف الطريقة التي تطوّر بها مجموعات ثقافية أنظمة سيكولوجية مختلفة، وتختلف الطريقة السيكولوجية

«الآرية» بشكل خاص عن السيكولوجية اليهودية. وأما فرويد فلن يرضى بأقل من الاعتراف بالتحليل النفسي كحقيقة كونية للبشر كافة مهما بدت الفوارق السطحية ذات الطابع القومي شبيهة بالعنصرية.

لقد شعر فرويد برعب ملحوظ خلال القطيعة بينه وبين يونغ، حتى أنه علق قائلًا «في الأعمال الأخيرة لمدرسة بزيوريخ...وجدنا أن التحليل النفسي يتجاوب مع الأفكار الدينية أكثر من النتيجة المضادة التي يفترض أن ينتهي إليها»[42]. لقد أشاد فرويد بقدرة التحليل النفسي على تحطيم «العديد من المثل العليا التقليدية» التي يبدو أنها بطريقة أو بأخرى لا تتفق مع أهداف يونغ. وفي عام 1907 كتب بشجاعة إلى يونغ: «إذا كنّا لا نستطيع تجنّب المقاومات، فلماذا لا نتحدّاها إذن؟ ففي رأيي، الهجوم أفضل طريقة للدفاع»[43].

زعم فرويد في عام 1912 أن يونغ «تباهى في رسالة من أميركا(*) بأن تعديلاته للتحليل النفسي قد تغلبت على مقاومات كثير من الناس الذين ما زالوا حتى الآن يرفضون أن يفعلوا أي شيء فيه». استاء فرويد من أي «دفع بخلفية العامل الجنسي إلى نظرية التحليل النفسي»[45]. ولاحقًا، في عام 1919 ما زال التأكيد على أن «موضوع الجنسانية... عفى عليه الدهر»[46]. وفي قمة توتر علاقة فرويد مع يونغ كتب مؤسس التحليل النفسي مقدمة لموقفه المناهض تمامًا يقول فيها: «إننا نمتلك الحقيقة، وأنا واثق منها منذ خمسة عشرة عاما مضت»[47]. وقد أجبرت المساجلة مع يونغ فرويد على إعادة صياغة الملامح الأساسية لنسق أفكاره: «نظرية الإخضاع والمقاومة، الاعتراف بالجنسانية الطفولية وتفسير واستخدام الأحلام كمصدر لمعرفة اللاوعي»[48]، ولأجل ذلك نصح فرويد أتباعه بشأن كيفية نشر معتقداتهم يقول: «على المرء أن يعامل الأطباء مثلما نعامل مرضانا، لا من خلال الإيحاء ولكن عبر إثارة مقاوماتهم ونوازعهم... وعلى المرء أن يقنع بأن يقرر وجهة نظره وأن يصوغ تجاربه بطريقة أكثر وضوحًا وتميّزًا قدر المستطاع وألا ينزعج لرد فعل الجمهور»[49].

(*) الرسالة كانت قد أرسلت في الحقيقة بعد رحلة يونغ إلى أميركا، ولكن من الواضح أن فرويد كان ينحي باللائمة على أميركا إذ أيقظت ما كان يسميه «رغبة يونغ في جمع الأموال». وقد كتب يونغ قائلا: «اكتشفت أن نسختي للتحليل النفسي قد انتصرت على كثير من الناس الذين تجنبوا حتى الآن مشكلة الجنسانية في العصاب»[44].

4 - الأب الأول

قد يكون استقبال يونغ في أميركا ساهم في تأكد يونغ من بعض الشكوك التي راودته بشأن أفكار فرويد. ولقد استحسن فرويد رحلة يونغ إلى العالم الجديد، بيد أن اجتماع المحللين المزمع عقده في عام 1912 تأجل بسبب غياب يونغ. وفي أيلول/ سبتمبر من العام نفسه أرسل يونغ سلسلة من المحاضرات إلى جامعة فوردهام بمدينة نيويورك، وقد اعتبرت خطوة مهمة بعيدًا عن تأييد فرويد. لم يكن يونغ راغبًا بجدّية، فيما يبدو، في القطيعة مع فرويد(*)، وبعد الانفصال النهائي بينهما أرسل نسخة من أحد كتبه إلى فرويد مع نقش متواضع. تؤكد وجهة نظر يونغ من فلسفة العلم، مثل فرويد، على أنه يمكن التمييز بصرامة بين «الوقائع» و«النظريات»، وطالما أن يونغ يعترف بـ«الوقائع» التحليلية النفسية، فله أن يعتقد بأنه لم يكن خائنًا لأهداف فرويد الجوهرية.

اعتبر يونغ نفسه في فوردهام متحدثًا من موقع المدافع عن فرويد، ولكن من الصعب أن نصدّق أن يونغ قد توقع أن يقبل فرويد، خاصة بعد المساجلة الأخيرة مع أدلر، هذا النوع من الأفكار التي يقترحها (يونغ) آنذاك. من ذلك مثلًا أن يونغ أكد على أن «وهم زنا المحارم ليس سببًا مهمًّا وأن أهميته ثانوية إذ السبب الرئيس يتمثل في مقاومة الطبيعة البشرية لأي نوع من الإجهاد»[2].

> **«أعتقد أنه ليس أمامنا عندئذ إلا أن نتخلى عن المفهوم الجنسي لليبيدو، أو أن نفقد كل ما له قيمة في نظرية الليبيدو، أي وجهة نظر الطاقية... فالمؤيدون لفرويد لا بد أن يكونوا مخطئين ليس لاستماعهم إلى أولئك النقّاد الذين يتّهمون نظريتنا لليبيدو بالصوفية وعدم الوضوح... يبدو لي أنه من المستحيل أن نحوِّل ببساطة نظرية الليبيدو إلى نوع من العته المبكر، لأن هذا المرض يكشف عن نقص في الواقعية الذي لا يمكن أن نرده فقط إلى نقص الإثارة الجنسية»[3].**

كتب يونغ في 1912 إلى فرويد أن «زنا المحارم ممنوع ليس لأنه مرغوب فيه ولكن لأن القلق غير المستقر يعيد تنشيط موضوعات الطفولة... إن أهمية السبب الكامن وراء منع زنا المحارم لا بد أن يقارن مباشرة بما يُسمّى الصدمة الجنسية، والتي عادة ما تضمر السبب فقط من أجل إعادة التنشيط»[4].

(*) كما يذكر ذلك بريل، «لأني أنتمي إلى حركة جسورة أستطيع أن أؤكد أن يونغ آثر ألا يغادر التحليل النفسي، إلا أن أفكاره اختلفت كثيرًا عن أفكار فرويد، وبالتالي كان لا بد لهما من أن ينفصلا»[1].

أشاد يونغ في فوردهام بعزم فرويد وإصراره منذ البداية قائلًا: «يجب أن نكون مسرورين بأن هناك أشخاصًا لديهم الشجاعة الكافية للتطرّف والتفرّد»، ولكن يونغ أشار إلى أن «الحصول على المتعة لا يعني التطابق مع الجنسانية»[5]. وبالتالي كان معترضًا على «الاصطلاح الخاطئ والحضور المكثف والمفرط لمفهوم الجنسانية» في أعمال فرويد: «ما يسميه اختفاء ليس شيئًا آخر سوى البداية الحقيقية للجنسانية، فأي شيء يسبقها لا يعني سوى مرحلة تمهيدية لا يمكن أن ينسب إليها أي طابع جنسي حقيقي». وبالنسبة ليونغ «الخطأ في مفهوم الجنسانية الطفولية»، «ليس خطأ في الملاحظة... وإنما خطأ في المفهوم ذاته»[6].

يختلف توجّه يونغ نحو ماضي المرضى عن توجه فرويد أيضًا: فقد اعتبر يونغ أن توجّه فرويد «يثير الشكوك حوله...إذ إن المرضى غالبًا ما يكون لديهم ميل ظاهر إلى تفسير وعكاتهم عن طريق بعض الخبرات الطويلة السابقة، وتحويل انتباه المحلل بشكل إبداعي بعيدًا عن الحاضر إلى بعض المسارات الخاطئة في الماضي»[7]. ولاحظ يقول «يميل مرضانا لغوايتنا بعيدًا قدر المستطاع عن الحاضر المحرج»، واستنتج أن «السبب في الصراع المرضي يكمن أساسًا في اللحظة الحاضرة»[8]. وفي الوقت نفسه اعتبر يونغ النكوص «الشرط الأساسي لفعل الإبداع . ويعتقد: «إننا ننقاد إلى خوف سخيف بشكل كبير لأننا في الأصل كائنات لا مثيل لها البتة، فلو ظهر كل شخص على حقيقته، فلا مفر لنا عندئذ من كارثة اجتماعية مرعبة»[9]. لقد قدّم وجهات النظر هذه على أنها إسهامات «مدرسة زيوريخ»[10].

كان بعض نقاد فرويد يرفضون دائمًا أعماله اعتبارًا لتشديده المبالغ فيه على دور الجنسانية. يقول يونغ: «إن عبارة «الشذوذ متعدد الأشكال» التي اقتبست من سيكولوجية العصاب ثم أسقطت على سيكولوجية الطفل، لم تكن في محلها البتة»[11]. فقد وسّع فرويد من المعنى المتداول للجنسانية ليشمل تنوُّع المجالات، من الطفولة إلى المرض العقلي، حيث لم تعترف العلوم بشكل أشمل بدور إثارة الشهوة الجنسية، وهو ما تتبرّأ منه يونغ. فمنذ البداية حاول يونغ أن يُقنع فرويد بأن يستخدم بعض الكلمات الأخرى غير كلمة «جنسي»[*] إلا أن فرويد تمسّك بما قطعه على نفسه منذ البداية. وبالنسبة ليونغ يبدو

(*) كتب يونغ «إن عبارة الليبيدو... ومختلف المصطلحات (لا شك أنها تجد تبريرها في ذاتها) التي تحمل على مفهوم أكثر شمولًا للجنسانية يمكن أن يُساء فهمها أو على الأقل ليست لها قيمة تعلمية (ديتاكتيكية). إنها تستحضر فعلًا الموانع العاطفية...»[12].

فرويد اختزاليًا بشكل غير ضروري، ولكن من وجهة نظر فرويد، إنما صيغت حجج يونغ عن دور نزوات زنا المحارم، على سبيل المثال للإطاحة بأدلر.

كان يونغ مقتنعًا بأن المرضى غالبًا ما يفتعلون صدمات جنسية طفولية كطريقة للتهرّب من مهام الحياة اليومية، وهي طريقة وجدت سبيلها إلى التحليل النفسي الأرثوذوكسي منذ أكثر من نصف قرن. فالصراع الطفولي الماضي أصبح يُعرف الآن كإحدى أهم الصراعات الباطنة لتجاهل أهمية المشكلة الحالية[13]. على الرغم من أن معظم الإكلينيكيين، وكثير من المحللين، يتفقون مع قناعة يونغ بأنه غالبًا ما يكون من المريح أن تعيش في الماضي من أن تواجه المستقبل، كما أن عدم تلقي أفكار فرويد قبولًا كبيرًا أحيانًا عزّز مخاوفه من أن يقبر كل ما ناضل من أجله قبل أوانه تحت وطأة تعديلات يونغ.

بمجرد أن شرع يونغ في إعادة تفسير معنى عقدة أوديب لفرويد، صار الطريق مفتوحًا أمام إنكار النتائج التي توصّل إليها فرويد تمامًا. فقد حاول فرويد أن يُجبر الإنسان على أن يواجه الجانب الغريزي في طبيعته. أما يونغ، الذي حذا حذو أدلر في التأكيد على الأنا «أنشق» عن فرويد منذ أكد على الأهمية الإكلينيكية للمهمة «الأسمى» لتحقيق الذات التي أمكن للمرضى أن يؤسسوها. وقد رأى فرويد في انشقاق يونغ من جديد «مقاومة» للاوعي، ورغبة في تدمير الأب. وكما كتب يونغ إلى فرويد في تشرين الثاني/ نوفمبر 1912 «أنا آسف جدًّا إذ تعتقد بأني قمت ببعض التغييرات لأجل المعارضة ليس إلا»[14].

اعتقد يونغ أن مقاربة فرويد الحرفية لعقدة أوديب أهملت أكثر الوجوه رقة في السيكولوجية البشرية، من ذلك مثلًا أنه لا ينبغي الحديث عن استبدال الرباط الجنسي بين الولد الصغير وأمه بالاعتراف بتبعية الولد الشرعية لأمه. وفي أعمال يونغ «تكمن صورة شخصية الأم في الحماية والتغذية، وليست موضوع رغبات جنسية محرمة»[15]. فقد استطاع يونغ أن يثير الانتباه إلى علاقة فرويد المبهمة في تبعيته إلى أمه. وكما أشار إريك فروم وآخرون آنذاك إلى تفسير العلاقة بين الولد وأمه من خلال المصطلحات الجنسية لتكون في مستوى عال من العقلانية ولكي نتجنّب المجال الأقل عقلانية في نقص قدرة الطفل على التمييز باكرًا بين الذات والعالم الخارجي. فبينما كان يونغ يبلور أفكاره ويجتهد في صياغتها، وجد نفسه غير قادر على أن ينهي الثلث الأخير من كتابه «رموز التحوّل»، وفي النهاية نجح فرويد في إقناعه ألا ينشره، واستنتج يونغ بأن ما حال دون إتمام هذه المخطوطة يكمن في ما سبّبه له تخلّيه عن بعض أفكار فرويد من كرب.

عاد يونغ من أميركا أكثر تصميمًا على استقلاله. فقد انحرفت ابتكاراته كما اعترف بذلك «عن الأفكار الموجودة حتى الآن»، ولكنه رفض أن يعترف بأن أفكاره تقود إلى أن «يعامل معاملة الأحمق المعقد»[16]، وبدلًا من ذلك دافع عن السياسة «الليبرالية»:

«لا بد للتسامح أن يسود في المجلة السنوية بحيث يمكن لأي شخص أن يطوّر أفكاره بطريقته الخاصة. لا يمكن للناس أن يقدموا أفضل ما عندهم إلا في كنف الحرية. لا ينبغي أن يفوتنا أن تاريخ الحقائق البشرية هو أيضًا تاريخ الأخطاء البشرية. لذلك لنضع الخطأ الصادر عن حسن نية في مكانه الصحيح»[17].

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر في عام 1912، التقى يونغ فرويد في مؤتمر علم النفس التحليلي في ميونيخ، ورغم أنهما كانا على أحسن ما يرام، فقد تعرض فرويد لنوبة الإغماء التي تعرض لها سابقًا. وفي رسالته الأولى إلى يونغ بعد مقابلتهما، اعترف فرويد بأن «أكثر ما يستفز المرء أن يُصرّ الآخر على أن تكون له وجهة نظره الخاصة». وقد عزى فرويد نوبات إغمائه، كما يقول «إلى بعض العصاب الذي يتعيَّن عليّ حقًا أن آخذه في عين الاعتبار»[18].

استغل يونغ هذه الفرصة ليفترض مخاطبًا فرويد: «بعض عصابك ينبغي، في نظري، أن يأخذ في الواقع على محمل الجد... لقد عانيت من ذلك في تعاملاتي معك...»، حاول يونغ أن يتحدث كصديق إلا أنه مضى في الاعتراض «الغالبية من المحللين النفسيين يسيئون استخدام التحليل النفسي بغرض التقليل من قيمة الآخرين وتطورهم عن طريق التلميح عن العقد...». وفي النهاية قدّم يونغ اعتراضه المتمثل في أن «المحللين النفسيين إنما يتكلون على التحليل النفسي لكسلهم كما في اعتقاد خصومنا في السلطة. فأي شيء يحفّزهم على التفكير يُشطب بوصفه عقدة. هذه الوظيفة الوقائية للتحليل النفسي في حاجة ماسة إلى أن يُماط عنها اللثام»[19].

حافظ فرويد على هدوئه. وفي رده على يونغ، اقترح عليه «علاجًا منزليًا: «يا ليت كلانا يهتم بما أصابه أكثر من اهتمامه بعصاب جاره»، ثم ما لبث أن اعترض عليه قائلًا: «لم يصبك، كما تفترض، العصاب الذي أصابني»[20]. ووفقًا لجونز، فقد علّق فرويد على نوبة الإغماء التي تعرّض لها في ميونيخ بأن هناك «مشاعر جنسية مثلية جامحة متجذرة في هذه المسألة»[21] ثم اعتبر فرويد أن ما عجّل بتصدّع علاقته مع يونغ كان زلة قلم وردت في إحدى رسائل يونغ. وفي الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر عام 1912، صمم يونغ

على أن يكتب مدافعًا عن نفسه «حتى رفاق أدلر لم يعتبروني واحدًا منهم» أخطأت في رسم كلمة «منهم» بالأحرف الكبيرة فصارت «منكم»[22].

كتب فرويد مؤخرًا إليه يقول له: «أعتقد أن أي شكل من الصراحة في العلاقات ما بين المحللين كما في التحليل ذاته مباح»[23]. ولكن يونغ الذي ألزم نفسه في الرسائل بتفسير نوبات الإغماء عند فرويد، رد بشكل غير متوقع وبحدّة على تلقفه زلة القلم تلك:

«هل لي أن أقول لك بضع كلمات بجدية؟ أعترف بازدواجية مشاعري تجاهك، ولكني سأكون أمينًا وصادقًا تمامًا في ما سأقول. وإذا كنت تشكّك في ذلك، فقد تسيء لنفسك. أود أن أشير إلى أن تقنية معاملة التلاميذ مثل المرضى خطأ فاضح. إذ أنك بهذه الطريقة إنما تجعل منهم إما أبناء مستعبدين أو جِراء وقحة (أدلر-ستيكل والجماعة المتغطرسة بأكملها تلقي بثقلها الآن بشأن ذلك في فيينا). ولأني موضوعي بما يكفي فقد تسنى لي أن أتبيّن حيلتك الصغيرة. إنك لا تفعل شيئًا آخر سوى تحسس الأعراض لدى المحيطين بك ومن ثمة اختزال علاقتك بأيّ منهم إلى علاقة الأب بأبنائه وبناته الذين يضطرون إلى الاعتراف خجلًا واستحياءً بأخطائهم في حين تتبوأ أنت صدارة المشهد بوصفك الأب، تنعم بالسلام. الكل يذعن لمشيئتك إذعانًا خالصًا بحيث لا أحد يجرؤ على التطاول على النبي عبر الاستفسار ولو مرة واحدة عما يمكن أن تقوله للمريض مع ميل لتحليل المحلل بدلًا من أن يحلل نفسه. إنك، بالتأكيد، تسأله: «من الذي يعاني من العصاب؟».

كما ترى، يا عزيزي البروفيسور، طالما لديك هذه الأشياء، أني لا ألعن أعراضي، فهي تتقلص حتى تصبح لا شيء مقارنة بالشعاع الهائل المنبعث من عينيّ أخي فرويد. لا أعاني من عصاب أقل - لسوء الحظ! وبكل تواضع لقد خضعت لتعاليم التحليل ولن أدّخر جهدًا في سبيل ذلك. وأنت تعلم بالطبع أيّ غنم يغنمه المريض من التحليل الذاتي: لا بمعزل عن عصابه - على غرارك أنت. كان عليك أن تتخلص تمامًا من العُقد وتتوقف عن لعب دور الأب تجاه أبنائه، وألا تجعل نصب عينيك دائمًا أن تزيّن نقاط ضعفهم بداعي التغيير، ثم أنني سأعدّل طريقتي مرة واحدة وإلى الأبد لأقتلع ازدواجية تفكيري ناحيتك من جذورها. أتحب العصابيين حتى تكون دائمًا منسجمًا مع ذاتك؟ ولكن ربما تكره العصابيين. وإذا كان كذلك، أنى لك أن تتوقع أن مجهوداتك في معالجة مرضاك برأفة وحب لا تتخللها مشاعر مختلطة؟ لقد انخدع أدلر وستيكل بهذه الحيل الصغيرة فردّا الفعل بوقاحة صبيانية. وسأستمر في الوقوف إلى جانبك عمومًا بينما أقوم بتنقيح وجهات نظري الخاصة، ولكن بشكل

خاص سأبدأ في إخبارك في رسائلي عما أحمله عنك من أفكار حقًا. وإني اعتبر إجراءً كهذا لائقًا. ومما لا شك فيه أن هذه الصداقة المميزة في خصوصيتها ستثير سخطك، ولكنها قد تكون أفضل لك لا محالة».

لقد ذاق فرويد الأمرّين من أجل أن يصوغ ردًا تأخر على «اتهامات يونغ المضادة» لينتهي إلى أن «الشخص الذي يتصرّف بشكل غير سويّ ولا يكف عن الصراخ بأنه سويّ ما يفتأ يبرّر شكه، ذلك أنه يفتقر إلى نظرة ثاقبة لمرضه» ويقترح أن «نقطع علاقاتنا الشخصية بشكل كامل»[24].

شهدت هذه المرحلة بداية المواجهة العلنية بين فرويد ويونغ في مؤتمر المحللين النفسيين الذي عقد في ميونيخ في أوائل أيلول/ سبتمبر عام 1913. وكان اللقاء الأخير بين الرجلين. وقبل ذلك وعلى امتداد ربيع عام 1913، كان فرويد يُفكِّر في ظهور القطيعة المرتقبة مع يونغ إلى العلن، فلم يعد لهذا الأخير «أيّ فائدة ترجى» بالنسبة إلى فرويد، ذلك أنه «نادرًا ما تخيّل نفسه يحمل الأفكار نفسها التي كانا يتقاسمانها سويًا بشكل رسمي»[25] وترد مغالاة مجموعة زيوريخ في تقدير أهمية قضية فرويد في المقام الأول إلى تفضيل هذا الأخير لمجموعة زيوريخ منذ البداية. وفي السابع والعشرين من آذار/ مارس عام 1913 كتب فرويد يقول «من الطبيعي ألا أكون غير مبال بتشويه التحليل النفسي»[26]. كما حاول أن يفصل بين أعمال يونغ الأخيرة وأعماله. وفي نفس اليوم كتب فرويد إلى تلميذ آخر وهو كارل أبراهام يخبره بأن «يونغ في أميركا، ولكن لمدة خمسة أسابيع فقط، ولذلك سيعود سريعًا. وعلى أي حال فإنه يبذل الكثير من أجل نفسه أكثر مما يبذله من أجل التحليل النفسي. لقد تراجعت عنه بجدية، ولم يعد بيننا أي ودّ. فنظرياته السيئة ليست أقل فظاظة من طبعه البغيض. فهو يتعقب أثر أدلر كالإمّعة، مثله في ذلك مثل المخلوق الخبيث»[27].

أكمل فرويد مخطوطة الطوطم والتابو في ذلك الربيع ورأى أنه من المفيد أن يتعاون من أجل دق إسفين بينه وبين يونغ. وتوقع نشر هذا الكتاب قبل لقائهما في ميونيخ، وهو كتاب كما يقول «لا بد أن يؤدي إلى انفصال بات بيننا وبين التدّين الآري في كل وجوهه»[28]. ولا تتعلق أطروحات فرويد في هذا الكتاب بشيء آخر غير أصول المجتمع الإنساني، فقد استنتج أن عقدة أوديب ألقت «الضوء على الأهمية الخارقة لتاريخ الجنس البشري وتطوّر الدين والأخلاق»[29].

ومنذ أيلول/ سبتمبر عام 1913، كان فرويد ويونغ منهمكين في الموضوع ذاته وهو

أصل الدين. مفتونين بالمعنى الخارق للشبيه، فقد اعترف فرويد بانزعاجه من أن يكون له توأم فكري:

«ليس أشق عليّ من أن أفكر، عندما أتصوّر فكرة بين الفينة والأخرى، بأني قد أخذت شيئًا منك أو أن أستولي على شيء هو لك... فما الذي يدعوني بحق الله إلى أن اقتفي أثرك في هذا المجال؟»[30].

قاوم فرويد مجهودات أدلر وأتباعه للبقاء في جمعية فيينا على أساس أنهم فعلوا ذلك «للتطفّل على الأفكار وتحريف المواضيع»[31]، كان يونغ مدركًا جدًّا لحساسية فرويد تجاه المشاكل المتعلقة بالانتحال والأولويات ذات الصلة. فعلى سبيل المثال في عام 1908، أحال فرويد مريضًا إلى يونغ يدعى أوتو غروس، أحد المحللين النفسيين المدمنين على المخدرات.

«أعتقد في البداية أن بإمكانك أن تهتم به أثناء فترة توقفي عن التحليل فقط لأني سأبدأ العلاج التحليلي في فصل الخريف. إنها لأنانية مخزية، ولكنني يجب أن اعترف بأن تلك هي الطريقة المثلى بالنسبة لي، فلست مضطرًا لإهدار وقتي ومخزوني من الطاقة بما لا يعني. ولكن بكل جدية تكمن الصعوبة في أن الخط الفاصل بين حقوق ملكيتنا الاعتبارية في الأفكار الإبداعية أصبح أثرًا بعد عين: قد لا نكون قادرين على أن نميّزها بعقل غير متحيّز. ومنذ أن عالجت الفيلسوف سوبودا، فزعت من أن ننقاد إلى مثل هذه الوضعيات الصعبة»[32].

وإذا ساعد موضوع كتاب الطوطم والتابو فرويد على أن يقوّض مشاعره تجاه وريثه، فإن يونغ لم يهدأ له بال بشأن ذلك أبدًا: «إذا تعمقت في سيكولوجية الدين، فسينتظرني مستقبل قاتم جدًّا. إنك منافس خطير»[33]. ففي الطوطم والتابو، افترض فرويد أن الإنسان يعيش أولًا في عشيرة أو قبيلة بدائية يهيمن عليها الأب الذي يستأثر بكل النساء، فيتعاضد الأبناء ضده ويتمردون عليه ثم يذبحونه ويفترسونه. لقد مثّل قتلُ الأب الجريمة الأولى. إنّ الشعور بالذنب بسبب هذه الجريمة جعل الأبناء يستعيدون التحريم الذي أرادوا في الأصل أن يتحرّروا منه، فأحلّوا الحيوان الطوطم مكان الأب الأصليّ وعبدوه، وامتنعوا عن قتل الحيوان الطوطم، وحرّموا الارتباط غير الشرعيّ بنساء القبيلة الطوطميّة، ولأجل ذلك تصوّر فرويد بأن ذلك «كان الشرارة الأولى لانبعاث الحضارة»[34].

ومن خلال تتبُّع بداية المجتمع منذ القدم بالعودة إلى تلك الجريمة الأولى ـ أو كما

افترض البعض، إلى سلسلة جرائم القتل ـ عظّم فرويد من أهمية عقدة أوديب، رغم أن يونغ حاول أن يتناولها من منظور مختلف. ومن خلال تفسير معنى الديانة الطوطمية انطلاقًا من تفسير رغبات أوديب، وبدلًا من أوهام زنا المحارم التي آلمت المرضى العصبيين، اعتقد فرويد أن «بدايات الدين، والأخلاق، والحياة الاجتماعية، والفن تلتقي جميعها في عقدة أوديب»[35].

لم يتمكن علماء الأنثروبولوجيا أبدًا من إثبات وجود مثل هذه القبائل البدائية، ففي مثل هذه العشائر ما يمكن إثباته هو أن النزعة الاستحواذية التي ذكرها فرويد تكاد تكون منعدمة، أو الغيرة، أو أي شيء يشبه العرف بأن يستأثر ذكر واحد بكل الإناث[36]. اعتمد فرويد في مصادره على أنثروبولوجيا فضفاضة تفتقد للتجربة العملية أو المباشرة لموضوع أو نشاط بعينه وهي أنثروبولوجيا لم يعد لها محل مع تنامي العمل الميداني الحديث. ولكن كان مألوفًا في الحياة الفكرية للقرن التاسع عشر المماهاة بين الفكر البدائي وفكر «المتوحشين». وفي كل الأحوال يثير تشديد فرويد على تطوّر الجنس للبشري الشكوك حوله، فقد أثبت أن الصفات المكتسبة – الشعور بالذنب عن ذبح الأب الأول – يمكن أن تورث.

ومن اللافت للنظر أنه «قبل عام 1910، كان يصعب أن تجد أي إشارة إلى تطوّر السلالات في التعاليم الفرويدية»[37]، الذي يعترف كما جاء على لسانه: «في عام 1912... قادتني إشارة قوية من يونغ إلى التماثل الكبير جدًّا بين الانتاج الفكري للعصابيين وتلك الشعوب البدائية إلى الاهتمام بهذا الموضوع»[38].

إذا كان يونغ أول من أثار اهتمامًا صريحًا إلى التشابه الواضح بين الأوهام المشوشة لدى أولئك الذين يعانون من العته المبكر وإلى أساطير الشعوب القديمة، فإن الكاتب المعاصر يشير إلى أن الرغبتين اللتين تتشابكان لتكوّنا عقدة أوديب تتقفان تمامًا مع مَظهريّ التحريم الأساسيين المفروضَين من الطوطمية (لا يمكن قتل الجد الأول ولا يمكن الزواج من امرأة تنتمي لنفس الطوطم)، وقد توصل إلى استنتاجات مهمة جدًّا من هذه الحقيقة[39].

لقد كان يونغ أكثر إحالة على التفسيرات العرقية من فرويد نفسه مع أن هذا الأخير يبدو أنه تبنّى جزئيًا منهج مقاربة يونغ بعد تصدّع العلاقة بينهما. ومع أن فرويد اعتقد بأن

يونغ وقع في «خطأ منهجي إذ تمسك بتطوّر السلالات قبل استنفاد كل إمكانيات تطوّر الفرد» فهو لم يتحدّث فقط عن «الوراثة العضوية»، ولكنه استنتج أيضًا، كما قال جونز، أن «الأوهام البدائية خاصة تلك التي تتعلق بالمضاجعة والإخصاء انتقلت عبر الوراثة بشكل أو بآخر...»[40].

وفي ذلك الحين وجد فرويد أن أفكار يونغ غاية في الالتباس، فهي إن لم تكن غامضة فمجنونة. وفي أول حزيران/ يونيو عام 1913 كتب فرويد إلى أبراهام يقول: «يونغ مخبول، ولكن ليس لدي أية رغبة في الانفصال، فليحطم نفسه أولًا. وربما عن طريق دراستي عن الطوطم قد تستعجل انتهاك إرادتي»[41]. ولقد ظل أبراهام تلميذ فرويد المخلص أبدًا، وقد اعترف له فرويد بالجميل على تعليقاته حول كتاب الطوطم والتابو، وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على ما كان ينتظره فرويد من تلاميذه. وفي ذلك كتب فرويد يقول «إن أيّ محاولة يُقدم عليها أيًا منكم ليبيّن لي قيمة الكتاب عبر إضافة شيء ما أو استنتاج، محاولة لا محالة مذهلة»[42]. فما اعترض عليه فرويد تكرارًا ومرارًا هو «التباس يونغ»[43]. ولم يكن فرويد مختلفًا بشكل كبير مع يونغ كما كان مع «المنشقين» الآخرين عن التحليل النفسي، كل ما في الأمر أنه وجد أن أعماله يكتنفها الغموض. لقد كان فرويد «دائمًا حريصًا على أن يفهم بشكل لا لبس فيه»، حتى أن «الموسيقى لم تكن تثير اهتمامه، لأنه يعتبرها خطابًا مبهمًا»[44].

لم يكن فرويد شخصًا كئيبًا، وبالتالي لم يكن يميل إلى محاسبة نفسه عما يفعله للآخرين، بينما كان يعنيه كثيرًا ما يفعله له الآخرون[*]. ولكن في حزيران/ يونيو من عام 1913، وبعد نشر كتاب الطوطم والتابو وقبل لقائه الأخير مع يونغ، شعر فرويد بكثير من الإحباط مما حدا به إلى الاعتراف بأن فشل علاقته معه كانت لأسباب شخصية[46]. ومع حلول الشتاء التالي، كتب فرويد مشدّدًا على سلوك يونغ كرئيس:

> **«لقد أساء يونغ إدارة المؤتمر، فلقد طغت النقاشات على المقالات وقيّدت المداخلات بحيز زمني قصير... لقد كانت الإجراءات التي انتهت بإعادة انتخاب يونغ كرئيس للجمعية العالمية للتحليل النفسي مضنية وغير نزيهة، وقد قبله، رغم أن خُمسيّ الحاضرين رفضوا أن يقدّموا له الدعم»[47].**

(*) كما كتب فرويد في عام 1915، «أنا لم آت أبدًا شيئًا مخجلًا أو خبيثًا، أو لم يُغرني شيء من أجل فعل ذلك... أما الآخرون فمتوحشون وليسوا أهلًا للثقة...»[45].

وقد كتب جونز أن يونغ قال له في نهاية المؤتمر، في إشارة إلى أنهما أصبحا في شقّين متعارضين، «ظننت أنك كنت مسيحيًا»[48]، ولأن يونغ كان واحدًا من غير اليهود الموجودين في المؤتمر، يبدو أنه قد توقع، أنه لهذا السبب أراد أن يضمه إلى صفه: ولكن في سيرته الذاتية التي لم تكتمل حتى وفاته. قدّم جونز رواية مغايرة ومضخمةً جدًّا. «قال لي باستهزاء وهو يودّعني: «اعتقدت أن لديك مبادئ أخلاقية» (وهي عبارة كان شغوفًا بها)، وقد فسر أصدقائي عبارة «أخلاقي» على أنها تعني «مسيحي»، وبالتالي معادٍ للسامية»[49]. وسواء كان جونز أو «أصدقائه» من مؤيدي أنّ فرويد من أوحى بهذا التفسير، فقد أورده في سيرته عن فرويد على أنه تعليق حرفي ليونغ، والذي تجلّى لاحقًا بأنه لم يكن كذلك.

بيد أنه لا يوجد شخص يُعيد قراءة ورقة يونغ في المؤتمر إلا ويساوره الشك في أن فرويد يرى في موقف يونغ إهانة لا تطاق. حملت مداخلة يونغ عنوان «مساهمة في النماذج السيكولوجية»، وقد كانت مداخلة متألقة حيث قدّم فيها يونغ مفاهيمه عن «الانطواء» و«الانبساط» التي تبلورت مؤخرًا على نطاق واسع كتوجهات متناقضة للعالم. ولم تُتح الفرصة لفرويد، الذي لا يزال آنذاك منشغلًا أساسًا بفهم الأعراض ومعالجتها، للنظر في مثل هذه النماذج من الطباع. ولكن ربما أكثر ما أزعج فرويد تلك الفقرة التي وردت في نهاية ورقة يونغ والتي تعرّض فيها لعمل أدلر، وكذلك لعمل فرويد بوصفه معارضًا للمقاربات التي تتوافق مع نموذجيّ يونغ السيكولوجيين. فقد جاء في جملة يونغ الختامية قوله «يتعيّن جعل المهمة الصعبة لخلق علم نفسٍ عادل في حق كلا النموذجين مهمة مستقبلية» تبدو غير مقبولة، في الواقع، في ضوء المساجلة بين فرويد وأدلر في فيينا[50].

ولقد توقف تبادل الرسائل بين فرويد ويونغ نهائيًا في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1913، بعدما دامت أكثر من سبع سنوات(*). في هذا الشهر استقال يونغ من منصبه كمحرر للمجلة السنوية، وجاء في رسالة كتبها فرويد: «لقد أثار انتباهي التماثل التام الذي يمكن أن نستشفه بين تهرّب بروير أولًا ثم يونغ ثانيًا من اكتشاف أن الجنسانية هي سبب العصاب. وهذا ما يجعل منها، بلا ريب، نواة التحليل النفسي»[51].

سينزعج بعض من الرموز المسؤولة في التحليل النفسي اليوم لو أن أحد المحللين قدّم وجهات نظر متطابقة مع تلك التي قدّمها يونغ في عام 1913، على سبيل المثال. سنوات

(*) في عام 1923 بعث يونغ رسالة إلى فرويد يستشيره في أن يحيل إليه مريضًا، ولكنه لم يردّ عليه[54].

قبل ظهور سيكولوجية الأنا كان يونغ مقتنعًا «بأن حقيقة أن العصاب يتأثر بشكل ملحوظ بالصراعات الطفولية تبيّن أنه يتعلق بشكل أقل بتركيز الرغبة الجنسية منه باستخدام مخصوص للماضي الطفولي»[52].

رغم أن فرويد تحدث لاحقًا عن الشعور «بالعزلة» الذي راوده[53]، إلا أنه لا يعترف، فيما يبدو، بأنه هو نفسه مستعد لتحمّل هذه الوضعية. فليس عليه كما يقول إلا: «أن أحمي نفسي ضد أولئك الذين يدَّعون أنهم تلاميذي لسنوات عديدة والذين لا يضمرون لي إلا ما يثيرني. لقد آن الأوان لأن أتهمهم وأرفضهم. لست ميالًا للسجال، ولا أشارك وجهة النظر واسعة الانتشار التي تقول بأن السجالات العلمية تساهم في توضيح النظريات وتطورها. لن أقبل التسويات القذرة، ولن أضحّي بأي شيء من أجل مصالحة لا فائدة ترجى منها»[55].

إذا أراد فرويد لحركته أن تستمر، وأن يفرض إرادته على التاريخ، فإن عليه، وهنا عين المفارقة، التقليص من المنتمين إلى التحليل النفسي موهبة وعددًا أيضًا.

في عام 1913 دُعي يونغ إلى إلقاء محاضرة في لندن «كممثل لحركة التحليل النفسي»[56]، وخشية أن ينطق بكلمة «إن التحليل النفسي قد تغيّر»، كتب فرويد يقول: «لقد رأيت في مؤتمر ميونيخ أنه من الضروري أن نزيل هذا اللبس، وفعلت ذلك عن طريق الإعلان بأنني لم اعترف بإبداعات السويسريين كاستمرار شرعي أو تقدم متزايد للتحليل النفسي الذي أنشأته»[57]. فبدلًا من الكتابة باستخدام مصطلحاته، آثر فرويد استعمال عبارة غير شخصية تمامًا، «التعليم التحليلي النفسي» والتي استلهمها من المنشقين. وسيكتب فرويد في السنوات التالية «تقريرًا يجمع عليه كل المحللين النفسيين»[58] «يحظى بموافقة المحللين على أوسع نطاق....»[59] ويكون طريقة مقنعة للمضي قدمًا في طرح القضية.

في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير من عام 1914 كتب فرويد مقالًا بعنوان «حول تاريخ حركة التحليل النفسي» إلى قراء المجلة السنوية اعتبر فيه يونغ «منسحبًا تمامًا من التحليل النفسي»[60]. بيّن فرويد أن أعمال أدلر ويونغ تمثل ارتدادًا علميًا، وما دخوله معهما في سجال إلا ليظهر للرأي العام أنه على حق، إذ اعتبرهما «تخليًا» عن التحليل النفسي و«انسحابا» منه. ولكنه في كل الحالات هو المؤهَّل لأن يبادر بفصلهما. فقد كان على يونغ أن يدرك أن فرويد عقد العزم على ألا تكون «الجمعية العالمية للتحليل النفسي» مجرد

كيان مرخص له شرعيًا(*) وإنما أكثر من ذلك؛ منظمة سياسية أيضًا. لم يستقل يونغ من رئاسة الجمعية إلا في نيسان/ أبريل عام 1914 (وقد خلفه كارل أبراهام بشكل مؤقت).

عندما ظهر انتقاد فرويد اللاذع ليونغ في الطبعة التي نشرت في تموز/ يوليو من عام 1914، انسحب هذا الأخير من «الجمعية العالمية للتحليل النفسي» وكذلك فعل جلّ المحللين السويسريين تقريبًا. وكما مع استقالات أدلر «كانت أحد الأسباب المطروحة.... حسب الزيوريخيين (الخطر الذي يتربّص بكل بحث مستقل)»[62]. ورغم موقفه النقدي المتزايد تجاه أعمال فرويد، فقد كان يونغ يُمنّي النفس بالتوافق مع فرويد، لكن الأخير بدا أكثر عزمًا على طرده. وكما كتب فرويد في نهاية تموز/ يوليو من عام 1914 «أتلهف شوقًا لأخبار رسمية تعلن تخلصنا من (المستقلين)»[63]، كتب فرويد عن التحليل النفسي كما كتب من قبل عن حالته الذهنية في رسائله إلى فليس «لقد تقاذفته الأمواج، ولكنه لن يغرق» (مستحضرًا صورة المعطف فوق الذراعين من مدينة باريس). وقد حافظ فرويد، على الأقل، على ما استوعبه حتى يكون متكاملًا في نظرياته، وعندما يحين الوقت، فإن إسهاماته الأصيلة ستحظى بالاعتراف.

5 - علم النفس التحليلي

من وجهة النظر التحليلية النفسية ذات النزعة الأرثوذوكسية، يبدو أن يونغ «لا يعدو أن يكون من أتباع فرويد السابقين الذي انخرط منذ البداية في تفكير فرويد لأنه سعى جاهدًا دائمًا من أجل أن ينسجم مع علم نفس الواعي». فالخطر الذي بات يهدد مكانة فرويد يتمثل في استخدام يونغ «المصطلحات فرويد استخدامًا يجرّدها من معناها الأصلي وبالتالي يخدع القارئ غير الناضج»[1]. افتقرت كتابات يونغ إلى وضوح فرويد الفريد. ففي عام 1914 كتب فرويد أن:

«تعديل يونغ... [للتحليل النفسي] يضعف من الارتباط بين الظواهر والحياة الغريزية، وإضافة إلى ذلك، كما أشار نقاده (أمثال أبراهام وفرينشيزي وجونز) فقد كان تعديلًا مبهمًا وغامضًا وملتبسًا بحيث يصعب أن تتخذ بشأنه أيّ موقف»[2].

ومع ذلك لم يخفِ فرويد إعجابه بمفهوم «العقدة» الذي يقول به يونغ من حيث هو

(*) مع بداية ارتباطه بفرويد، كان يونغ قد «دافع عن سياسة الإقصاء من حضور الاجتماعات التي شملت كل الذين لم يساهموا بأي شيء في مذهب التحليل النفسي»[61].

مفهوم مغمور في معجم التحليل النفسي. وقد أشار فرويد وجيمس ستراتشي المكلف بنشر أعمال فرويد إلى أن «أول ظهور لمصطلح «العقدة»[3] المتداول في زيوريخ، في كتابات فرويد المنشورة «كان عام 1906. وكان فرويد قد فك ارتباطه بيونغ لفترة في عام 1912، سعيًا منه للتقليل من شأن هذا المصطلح حتى يبدو وكأنه عديم الجدوى بالنسبة للتحليل النفسي، ولكنه تأخر جدًّا»[4]. كما حاول جونز في السنوات الأخيرة أن يحرم يونغ من شرف إبداع هذا المصطلح عن طريق الإشارة إلى طبيب نفسي من برلين «اهتم بلفظ «عقدة» وأنه هو أول من قال به...»[5].

ركّز التحليل النفسي في بداياته على الصراع. ومنذ وفاة فرويد اهتم مفكرو التحليل النفسي أكثر بالمناطق «الخالية من الصراع» في النفس البشرية. فقد كان يونغ يزدري أعمال هاينز هارتمان عن «استقلالية» الأنا أو النفس البشرية إذ كان مقتنعًا بأن أفكار فرويد كانت سلبية على نحو مفرط. وبالنسبة ليونغ فإن التحليل النفسي الأرثوذوكسي ظل مجرّد نظرية إمتاعية من الألغاز البشرية. وبرغم كل اختلافات يونغ مع موقف أدلر، فإنه يتفق معه على أن «نظرية أوديب تُكونن التجارب المخيبة للآمال عند الطفل المدلل تمامًا مثلما تُوكنن نظرية الليبيدو نزعات السعي وراء المتعة»[6]. ومثل أدلر، فإن يونغ حاول أن يبتعد عن تركيز فرويد على الأسباب في الماضي: «لا توجد حقيقة سيكولوجية يمكن أن توضح تمامًا من خلال مصطلحات السببية فقط، وكظاهرة حيّة، فإنها دائمًا ما تكون مقيّدة بشكل غير قابل للحل مع استمرار العملية الحيوية، وبالتالي فهي ليست مجرد شيء متطوّر ولكنها أيضًا في تطور وإبداع مستمرين»[7].

ولعل في اهتمام فرويد بالشرط الإنساني للصراع الداخلي، وتعاطفه مع المعاناة، وتقديره لحتميتها، ما يبرّر الثنائية الحاضرة أبدًا في أفكاره. ففي كتاباته الأولى كان يعتقد بشروط الدوافع الليبيدية مقابل معايير الوعي. وفي سنواته الأخيرة افترض الغريزة الحيّة مقابل الغريزة الميتة، رغم الإحالات على وحدة النفس أحيانًا، الأمر يتعلق بثنائية العواطف الإنسانية التي أطلق عليها بلولر «الازدواجية»، وقد صارت اهتمام فرويد الأكبر. كتب جونز قائلًا إن «فرويد...أخبر يونغ أنه [فرويد] لطالما عانى من العصاب. وقد يكون عصابًا من النوع الهوسي... وهذا معناه ازدواجية عميقة بين عواطف الحب والكراهية...»[8]. وقد كان جونز يعلم أن فرويد «يكاد يكون حريصًا بهوس على أن يقتصر تركيزه على غريزتين فقط»[9].

تخلى يونغ عن نظرية فرويد عبر افتراض أن الليبيدو قوة سيكولوجية أوسع نطاقًا وأشمل ممّا تصوره فرويد. فنظرية فرويد لليبيدو تفترض أن الإعلاء هو نتيجة كبح جماح الغريزة الجنسية. وبالنسبة ليونغ فإن اعتبار الإبداعية كنتيجة لإنكار القدرات البشرية الأخرى ليس سوى مجرد تعبير عن الموانع الجنسية التي يقول بها فرويد[10].

كانت نظرة فرويد إلى الليبيدو أكثر التصاقًا بالجنسانية، رغم أن الجنسانية تضمنت بالنسبة إليه دائمًا العواطف المرتبطة بالجنسانية الطفولية. ويعترض يونغ قائلًا بأن «فكرة فرويد عن الجنسانية مرنة جدًّا وغاية في الشمول لتبدو كما لو كانت لا تستثني أيّ شيء»[11] ويرى فرويد أن الليبيدو يخص الرجل كما يخص المرأة على حد سواء وإن يكن متأصلًا في طبع الذكر، وقد استخدم مصطلحات حربية ليصف مراحل تطور الليبيدو، من ذلك مثلًا أن العقل يترك القوات في حصون متنوعة على طول طريق النمو. حاول فرويد أن يجعل من الأنانية مشكلة ليبيدية، ويعتبر مقاله «عن النرجسية» بمثابة محاولة سعى من خلالها أن يؤسس نظرية أخرى بديلة عن نظرية يونغ عن الليبيدو الجنسي (شأنه في ذلك شأن فكرة أدلر عن الاحتجاج الذكوري)[12] ولكن لم تخلُ أفكار فرويد في معظمها من النرجسية بحيث قد يستعصي على القارئ الحديث فهم كيف أن فرويد لم يكن ذا نزعة أحادية كما يتهمه بذلك يونغ.

يوجد بين وجهات نظر فرويد ويونغ تباين صارخ لا يمكن إنكاره في نهاية المطاف. فعلى سبيل المثال، شكك فرويد باستمرار في القدرة البشرية على تحمّل الكبت، في حين مال يونغ إلى اعتبار ما ليس عقلانيًا على أنه جزء عميق من الرؤية البشرية. كان فرويد يتحدث أحيانًا بأسلوب رومانسي من ذلك مثلًا أنه امتدح ذات مرة رواية قصيرة لأحد المرضى قائلًا: «حسنًا، كل ما يأتيه اللاوعي، عادة ما يأتيه بشكل جيّد»[13]. ولكن في كل أعماله كمعالج نفسي وبحكم توجهه العقلاني لم يكن فرويد يصدّق ما لا يمكن أن يكون مبررًا عقليًا، ففي علاقته بمرضاه كما في حياته الشخصية كان فرويد حذرًا من زلات النضج أو التحكم. فقد جاء عن يونغ أن فرويد قال له في إحدى المرات «أتساءل فقط عما سيفعله العصاب في المستقبل عندما تنكشف كل رموزه. إنه من المستحيل آنذاك أن يكون لدينا عصاب. فقد توقع أن يتكفل التنوير بكل شيء»[14]. وبناء على النظرية التي طوّرها يونغ في عام 1934:

«يتعين علينا ألا نحاول «التخلص» من العصاب ولكن الأفضل لنا أن نحاول فهم

ما يعنيه، وماذا يمكن لنا أن نتعلم منه، وما غرضه. ينبغي أن نكون ممنونين له، وإلا سنفوّت على أنفسنا فرصة فهم ذواتنا بما هي كذلك حقًا. يزول العصاب فقط عندما تزول مواقف الأنا الوهمية. لن نعالجه، بل هو الذي سيعالجنا. فالإنسان مريض ولكن المرض هو محاولة من الطبيعة من أجل شفائه»[15].

واعتقد يونغ أن «التفكير الواعي شيطاني وشاذ أكثر من طبيعية اللاوعي» فقد تبرّأ من «الافتراض الخاطئ كليًا بأن اللاوعي وحش كاسر»[16].

وفي تقدير يونغ يمكن أن تكون للكبت وظائف إيجابية وليس فقط عصابية، وهذه النظرة ستندمج في النهاية في أعمال التحليل النفسي ذي النزعة الأرثوذوكسية، أساسًا من خلال كتابات إرنست كريس[17]. وقد ذهب المحلل دي رونالد لاينغ، مؤخرًا إلى أبعد من ذلك ليؤكد على المظاهر الإيجابية في الذهان أيضًا، والطريقة التي يمكن بموجبها للمريض العقلي أن يكون أكثر وعيًا مما نسميهم الأسوياء.

يمتد الاختلاف بين مواقف يونغ وفرويد بشأن الكبت إلى حد تصورهما لوظيفة اللاوعي نفسه. ففرويد يعتبر أن وظيفة اللاوعي كبتية بالأساس، ولمّا تحدّى يونغ هذه النظرية، ذهب ظن فرويد أن يونغ يقبل بفكرة اللاوعي بالمطلق. يمكن القول ببساطة بأن تصوّر يونغ للاوعي يختلف عن تصور فرويد، ذلك أن يونغ يُكبر في اللاوعي قدراته الإبداعية، ويعتقد في أن المجهول، على الأقل، بمثابة قوى ترتبط بالحياة أخرى بالموت. وينعكس الاختلاف بين وجهات نظر فرويد ويونغ بشأن اللاوعي في مواقفهما المتناقضة تجاه الخيال. اعتقد فرويد «أن الشخص السعيد هو الذي لا يتأثر بالأوهام حتى وإن يكن شقيًا»[18]. في حين كتب يونغ «لا رأي لي مهما يكن محدودًا في الخيال. إلا أنه، في تقديري، يظل وجه الإبداع الأمومي في الرجل الذكر... وكما قال شيللر، لا يدرك الرجل إنسانيته تمامًا إلا أثناء اللعب»[19].

أكد يونغ بأنه «تكمن بين الوعي واللاوعي علاقة تكافؤية، وأن اللاوعي دائمًا يحاول أن يكون الجزء الواعي الكامل للنفس البشرية عن طريق إضافة الأجزاء المفقودة، وكذلك منع فقدان التوازن الخطير»[20]. وتعني النفس بالنسبة ليونغ «نظامًا منتظمًا ذاتيًا يحفظ على توازنه تمامًا مثلما يفعل الجسد... فقد كانت النتائج قليلة في ناحية وكثيرة في ناحية أخرى»[21].

لقد أدرك يونغ أن فرويد لم يكن مقتنعًا باللاوعي في نظريته في الأحلام. إذ يعتقد

فرويد «أنه قد لا يكون صحيحًا أن ننسب ذلك إلى أي طابع (إبداعي)»[22] للعقل في «مجال الأحلام». قادت خبرة يونغ إلى «الاعتقاد بأن... [الأحلام] بحكم وظائفها التعويضية» تعوّض تحقيق الرغبة[23]. ويركّز تحقيق الرغبة على الإشباع الذي يتحقق من خلال تحرير الدوافع الغريزية. وأيًا كان التعويض الذي تفترضه الأحلام فإن المريض يسلك في ذلك منحى أخلاقيًا. وحسب يونغ «كان فرويد ينسب دورًا تعويضيًا للأحلام إلى حد اعتبارها حارسة النوم»[24]. رفض يونغ تمييز فرويد بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي للأحلام، معتبرًا أن الأول الذي يعتبره فرويد مجرد سطح للأحلام، لا يخلو هو أيضًا من رسالة:

> **«لن أوافق فرويد أبدًا على أن الحلم ليس سوى «واجهة» يكمن خلفها المعنى - المعنى المعروف أصلًا ولكنه خبيث، ولذلك يخشى الوعي الإفصاح عنه. وبالنسبة لي الأحلام جزء من الطبيعة، وليست لها نيّة الخداع، ولكن تعبّر عن شيء ما على أتمّ وجه، تمامًا مثل نبات ينمو أو حيوان يبحث عن غذائه على أتمّ وجه»[25].**

اعتقد يونغ بأن «اعتبار فرويد أن الحلم يعني شيئًا ما غير ما يفصح عنه يظل تفسيرًا «مثيرًا للجدل» إذ يتعارض مع الحلم في طبيعته وتلقائيته، وبالتالي لا معنى له»[26]، وأن «الأحلام ربما تحتوي على حقائق لا تقاوم، تلفظ فلسفي، أوهام، تخيّلات موحشة، ذكريات، خطط، توقعات، تجارب غير عقلانية، وحتى رؤية تخاطرية، وأشياء أخرى السماء أعلم بها»[27].

وقد ناقش أحد أتباع يونغ السويسريين ويدعى ألفونس ميدير «النزوع إلى التوقع في الأحلام» الذي، شأنه شأن فكرة أدلر حول العناصر الذكرية والأنثوية في الأحلام، خالف نظرية فرويد الأولى عن إشباع الرغبة. ولقد اعتقد فرويد أن نظريات الأحلام المنافسة عديمة الجدوى. وإذ رأى فرويد في اعتبار الجامعة ما يسمى بـ«الاكتشافات» محض زعم إنما أراد من وراء ذلك دحضها (وهو ما كان يونغ حذرًا منه): «فالسبب وراء ما ذكرته هو أن هذه الاكتشافات للخصائص الحالية الكونية للأحلام إنما من أجل أن أحذرك منها أو لأتركك على الأقل في شك من موقفي منها»[28].

قام يونغ على الأقل بإبداع آخر في مجال سيكولوجية الحلم لقي قبول المحللين عمومًا اليوم، ويتمثل في الافتراض بأن الشخص يستطيع على الأقل أن يتأوّل الشخصيات في الأحلام كما تبدو ملامحها بالنسبة إليّ أنا صاحب الحلم. فالشخص الذي يحلم بفتاة

تشعر بالحزن الشديد إنما يعبّر عن حزنه هو أيضًا، وبالنسبة ليونغ فإنه من الأجدى أن يتخلّص الرجل من «أنوثته» (أنيما)، وبالمثل تشعر كثير من النساء بنقص من النفاذ إلى الجانب الذكري فيهن (أنيموس). «فلا وعي يحمل في الرجل خصائص أنثوية، وفي النساء خصائص ذكرية...»[29].

أما بالنسبة لفرويد، فإن شخصيات الناس الذين تعرّف إليهم الحالم في الماضي تتجلّى في الحلم عندما تفسر معانيها الكامنة. وإذ يتفق كثير من علماء النفس اليوم مع يونغ، حتى أن إريكسون على سبيل المثل يتحدّث عن «رموز الأنا» في الحلم. إلا أن فرويد كان عنيدًا في رفضه هذا الجزء، معتبرًا أن يونغ سلك في ذلك الطريق الخطأ: «ينبغي لي أن أرفضه لأنه جزء غير ذي معني وغير مبرر في علاقة بفكرة أن كل الشخصيات التي تظهر في الحلم بمثابة بعض من أنا الحالم وتمثلات لها»[30].

لقد أكد يونغ على الحاجة إلى فهم «مهمّة الحياة» لدى صاحب الحلم، واهتم بالأحداث الجارية (أكثر من الصراعات الخفيّة والمتنكرة) لدى المرضى، وقد يرد ذلك إلى خصوصية ممارسته العلاجية الأصيلة. ولأجل ذلك صار «واحدًا من المبادئ الرئيسة لمدرسة يونغ في العلاج النفسي» استعادة المريض إلى الواقعية[31]، بدلًا من تشجيع فرويد على العودة إلى الماضي من أجل فهم الحاضر. هذا ما جعل من يونغ أكثر ألفة من فرويد مع معظم المرضى الذين يعانون من اضطرابات عقلية بمختلف أنواعها. ويأخذ فرويد في اعتباره أن أناوات مرضاه إما أن يكونوا أكثر سلامة أو أقل، حيث أن المرضى الأكثر اضطرابًا غالبًا ما يسقطون بعضًا من ذواتهم على الآخرين. لاحظ يونغ اعتبارًا لعمله في المستشفى في سويسرا بعض الحالات التي لم تتح الفرصة لفرويد لمعاينتها، وقد كان يونغ أكثر تفهمًا من فرويد تجاه الذهان(*). ففي سنواته الأخيرة عالج يونغ حالات الذهان، وكان مفتونًا كثيرًا بموضوع الشيزوفرانيا، فضلًا عن أنواع مختلفة من الهوس العصابي مثلًا.

كان يونغ أقل امتناعًا من فرويد تجاه الذهان وهو ما ينعكس في مظاهر كثيرة من اختلافاتهما. وليس بوسع المحلّل النفسي في تعامله مع الشخص المصاب بالشيزوفرانيا

(*) كان يونغ يوكد على أنه «لم يتسامح بشكل قطعي مع الذكور المثليين». ولم يكتب، إلا قليلًا عن الوجه الإيجابي «للأنيموس» لدى النساء: وكان من بين أكثر الموضوعات المتداولة... وكان له أثر كارثي في الجامعات خاصة الجامعات الأميركية منها ـ شخصية النساء. فقد أطلق عليهن اسم «حاضنات الأنيموس»[32].

أن يضع في اعتباره متابعة إحساس المريض بالواقع يومًا بيوم وقد يضطر إلى التدخل من أجل ضمان أداء المهام اليومية العادية (مثل الاغتسال ولبس الثياب، وما إلى ذلك). بالإضافة إلى ذلك، فإن أولئك الذين يتعاملون مع ذوي الأمراض العقلية الحادة أكثر حساسية إزاء ما قد يترتب عن ذلك من اضطرابات بيوكيميائية محتملة، لذلك ترى هؤلاء هم الأكثر اهتمامًا من قبل الأطباء الأكفاء المتخصصين في مجال العلاج النفسي. رغم أن يونغ لم يكن معارضًا لممارسة التحليلات غير المختصة، فقد قادته مخاوفه من وجود ذهان كامن لدى المرضى إلى التأكيد على «أن على المحلّل غير المختص... أن يعمل مع الطبيب»[33]. وعندما كان في حلقة فرويد، قبل يونغ اعتبار فرويد المحلل النفسي بمثابة جرّاح فكري، وكتب في عام 1913 يقول «إنما أخادع نفسي لو اعتقدت بأنني طبيب ممارس. إني فوق ذلك كله باحث...»[34]. ولكن بحلول عام 1942 اعتقد يونغ أن «ما هو أشدّ أهمية ليس العصاب بقدر ما هو الشخص المصاب بالعصاب. علينا أن ننطلق من دراسة الكائن البشري، وأن نتعامل معه بما هو كذلك كائن بشري»[35].

لقد أبدى فرويد معارضته بشكل متكرر لأولئك الذين يبالغون في اهتمامهم بالحالات الذهانية. وبسبب ارتباطه بيونغ كتب فرويد تقريرًا طبيًّا عن سكريبر (ذهاني)، رغم أن فرويد يشتغل على كتاب الذكريات أكثر من اشتغاله على المواد الإكلينيكية التي تخصّه. وتوقع فرويد أن يكسب من مقاله «الضحك الساخر أو الخلود أو كلاهما»[36]. ولعل «مساهمة يونغ الأكثر جدّية» في مجال التحليل النفسي تتمثل في اعتبار «فرويد فشل في التمييز بين أعراض العصاب وأعراض الذهان في حالة سكريبر»[37]. فقد اعترف فرويد بـ«الضوء الباهر الذي يخترق الأعراض الأكثر غموضًا، الذي يُعرف لدى يونغ بالعته المبكر»، إلا أنه أضاف بأن هذا الأمر تبلور بشكل نهائي «منذ أن كان [يونغ] مجرد محلل نفسي ولم يكن يتطلّع بعد لأن يكون نبيًّا...»[38]. ورغم أن لدى فرويد جانبه النبويّ الخاص، كما يتجلى في رفضه للإيمان الديني وانتقاده للأخلاق الدينية التقليدية، إلا أن الدراسات الحديثة في مجال علم النفس الأعماق تجاهلت في الغالب ما أتاه يونغ كمعالج نفسي من إنجازات عظيمة.

لم تكن تخلو تجربة يونغ واهتمامه بالذهان في بدايته من تناقض ظاهر ومن افتتانه بكل ما هو خارق وما يأخذ الألباب. وكان موضوع البطولة محوريًّا في تفكير يونغ، ومن أجل مزيد من التمكن من فهمه للأسطورة، تحوّل يونغ إلى دراسة الدين المقارن. وفي

عام 1912 اعتقد فرويد أن يونغ «على حق تمامًا في التأكيد على أنه لا سبيل لاندثار القوى البشرية الأسطورية، إلا أنها تساهم إلى حدّ الآن في ظهور حالات العصاب شأنها في ذلك شأن الانتاجات المادية كما كان يحدث في الأزمنة السحيقة»[39].

ولكن بحلول عام 1914 عبّر فرويد عن تذمره من نظريات يونغ الحديثة، ذلك أن «البحث في الأفراد يتركز حول الأعماق ويستبدل بالاستنتاجات المبنية على أساس البرهان الأنثروبولوجي»[40]. وبينما استفاد فرويد من حقبة ما قبل التاريخ في مؤلفه الطوطم والتابو من أجل التأكيد من جديد على أهمية عقدة أوديب، وجد يونغ سبيلًا في الأنثروبولوجيا للاستفادة من الدين الأميّ، والرمزية، والميثولوجيا لتطوير اهتماماته. ففي السنوات الأخيرة زار الهنود في أميركا الجنوبية وسافر إلى الهند، ومصر، وشمال أفريقيا، والصحراء من أجل تنمية معرفته حول الإنسان.

وفي تناغم مع توجهه الديني، اعتبر يونغ «الحياة بمثابة تغيّرات متتابعة، يكون «تغيّرها الأهم» في حدود سن الخامسة والثلاثين»[41]. وفي مسار التغيّرات الفردية ـ بحسب يونغ ـ يُعد النصف الأخير من حياة الشخص، إلا في بعض الاستثناءات، «فترة مواجهة الروح والذات في نموذجيهما الأصلي»[42]. فمفهوم يونغ عن النموذج الأصلي «لا يستطيع أن يفعل أي شيء مع الأفكار المتوارثة، بل ومع أنماط السلوك»[43](•). ميّز فرويد جوهريًّا بين الطفولة والكهولة وفسّر الأخيرة استنادًا إلى مميزات الأولى حصرًا. إذ كان يحذّر من تحليل المرضى كبار السن، في حين بدا يونغ أكثر اهتمامًا بمشاكلهم. فالمصاعب التي تواجه كبار السن تختلف عن تلك التي تعترض سبيل صغار السن، فهم أقل اهتمامًا بالتقلبات الجنسية وأكثر اهتمامًا بمشاكل المعنى.

وقد أصَّلَ يونغ مناقشة مواقف الشخص الأساسية تجاه الوجود في المجال الديني، وهو مجال عمل فرويد على استبعاده. ولقد أقر فرويد بشرعية الاتجاه الفكري الذي تبناه يونغ، على الأقل عندما أشار إلى «وهم البعث الذي أثار اهتمام يونغ مؤخرًا، وقد اعتبره بمثابة الحالة المهينة في الحياة الوهمية للعصابيين». إلا أنه أضاف منتقدًا «ذلك ما يجب أن يكون لو كان ذلك كل ما في الأمر»[45]. إلا أنه وبعد مرور نصف قرن لم يكن المحللون

(•) افترض أنطوني سطور مؤخرا أن لدى يونغ بعض الميول المتوارثة، من ذلك مثلًا «أن الشخص قد يأخذ في اعتباره صور «النموذج الأصلي» للأم الطيبة أو السيئة... التي يمكن أن تتخذ في الأم الحقيقية نوعًا من القداسة أو من السحر»[44].

يعالجون فقط المرضى كبار السن أكثر من أولئك الذين اعتبرهم فرويد ممن يستفيدون من العلاج، ولكن اقتفوا في ذلك أثر يونغ (غالبًا دون علمهم بذلك) من خلال مناقشة سيكولوجية مراحل الحياة أكثر من تلك التي اهتم بها فرويد بصفة خاصة.

من بين أهم أسباب عدم الانسجام بين فرويد ويونغ، انهمام هذا الأخير بالاعتبارات الفلسفية حتى النخاع، حتى أنه يؤكد أن على الطبيب النفسي أن يستعد لمقابلة المريض على جميع المستويات، بما في ذلك الأخلاقية. ومع أن فرويد ملتزم بالعادات والتقاليد في الحياة اليومية في عديد من مظاهرها، إلا أنه لا يفتأ يسخر من الأخلاق التقليدية، وقد قال في أواخر عام 1921 «لقد رفضنا منذ زمن طويل الادعاء بأن «القلق الاجتماعي» هو جوهر ما يسمّى الوعي»[46]. إذ اعتقد بأننا نتحكم في دوافعنا الغريزية اللاواعية «حيث يكون كل شر في العقل البشري بمثابة استعداد للخوف من العالم الخارجي»[47]. وبحلول عام 1930 قدّم فرويد تصوّره الأكثر شمولًا لأصول الوعي في مؤلفه الحضارة وكروبها، ولكنه دحض منذ البداية فكرة «أن لدى الكائنات البشرية ميل غريزي للكمال» حيث اعتبرها «وهم خيّر».

حاول يونغ أن يتعامل مباشرة مع الأبعاد الفلسفية في علم نفس الأعماق، وقد كان يميل أكثر من فرويد إلى مناقشة تبعات هذه الأفكار انطلاقًا من المفهوم الحديث للفردانية. فلكل أمرئ، كما اعتقد يونغ «قناعه» ووسائله التي يقدم بها نفسه إلى العالم الخارجي. فبالنسبة إلى يونغ «قد تؤدي وجهة النظر التي تقول بأن الشخصية مهيّئة جيّدًا إلى ما يشبه القناع»[48]، وإذا ما أراد مريض أن يتغلب على ما يحول دونه وإرضاء الآخرين، يعتقد يونغ أن عليه أن يتواصل مع «ظله»، الكامن خلف القناع. ويعني هذا «الظل» في تقدير يونغ «الوجه «السلبي» في الشخصية، أي مجمل الصفات التي نحاول دائمًا إخفائها، والوظائف التي تنمو فينا بشكل غير مقبول ومحتوى اللاوعي الشخصي»[49].

كانت مفاهيم يونغ عن القناع والظل ذات طابع فرويدي أكثر من فرويد نفسه، مع أن تلاميذ فرويد المتأخرين لم يجدوا حرجًا في التميّز عن يونغ. ودون استخدام مصطلحات يونغ، عبّر دونالد فينيكوت عن الكينونات الفلسفية نفسها (وكذلك العلاجية)، وذلك عندما ميّز بين «الذات الحقيقية والذات المزيفة»، وتنشأ هذه الأخيرة عن «ردود الأفعال تجاه المثيرات الخارجية». وتتمثل الوظيفة الدفاعية «للذات المزيفة» بحسب فينيكوت «في إخفاء وحماية الذات الحقيقية أيًا كانت»[50].

يعتقد يونغ أيضًا أن شكوك المحلِّل غير العقلانية تلعب دورًا هامًا في طريقة العلاج النفسي. وقد يكون اهتمامه بأهمية عصاب المحلّل بدأ منذ تفطنه لحدود فرويد، وفي عام 1912 توصل إلى أن التحليل الذاتي مستحيل، وبالتالي يتعيّن على كل محلِّل أن يخضع إلى تحليل شخصيّ[51].

قال يونغ في عام 1912 «قد يتعذر حتى على المحلّل الأكثر تمكنًا وبراعة أن يمنع المريض من أن يتبنّى غريزيًّا الطريق الذي يسلكه في مواجهة مصاعب الحياة»، ومن أجل تجنب «مطالب المحلّل الطفولية غير المعترف بها» التي لا تختلف «عن مطالب المريض» فإنه يتعيّن على المحلّل أن يخضع إلى «تحليل قاسٍ علي يد محلّل آخر»[52]. وفي العام ذاته كتب فرويد «إنه لأمر مميّز من بين أمور أخرى مميّزة كثيرة تحسب لفائدة مدرسة زيوريخ في التحليل، أنها تحث منتسبيها دائمًا على هذا المتطلب المتمثل في أن على كل شخص يرغب في أن يمارس التحليل على الآخرين، أن يخضع هو نفسه أولًا للتحليل من قبل شخص متضلع في الاختصاص»[53]. وفي حدود عام 1918 شجع فرويد أحد تلاميذه وهو هيرمان ننبرغ على أن يعلن القاعدة التي تفترض بأن على كل محلِّل أن يخضع للتحليل، وهو اقتراح تبنته في نهاية المطاف «الجمعية العالمية للتحليل النفسي» في عام 1926 رسميًّا كأحد أركان سياستها[54]. ورغم ذلك فإن يونغ يعتبر، أكثر من فرويد، أن «شخصية الطبيب» هي مَن «تلعب دورًا في الشفاء»[55]. وفي عام 1934 عبّر عن استنكاره للتصلب المتصنع في تقنية العلاج النفسي، وكتب عن تحليل المحلِّل:

> **«لقد اعتبر فرويد هذا المتطلب ثانويًّا، ومن الجليّ أنه ما كان له أن يتهرّب من الاقتناع بأن المريض ينبغي أن يواجه الطبيب لا تقنية العلاج. من المفيد أن يكون الطبيب محايدًا، وأن يتجنب آراءه الشخصية قدر الإمكان، وأن يُحجم عن التطفل على سيكولوجية مريضه كمنقذ شديد الحماسة. ولكن إذا نحا هذا الأمر منحى مزيفًا فستكون له عواقب وخيمة، إذ إن الطبيب سيجد نفسه عاجزًا عن تخطي حدود العفوية دون حصانة. وبشكل آخر سيكون مثالًا سيئًا لمريضه الذي لم يكن، قطعًا، مريضًا بسبب العفوية المفرطة. بالإضافة إلى أنه من الخطر بمكان أن نقلّل من شأن المرضى إذا خيّل لشخص أنهم أغبياء إلى درجة أنهم لا يمكن لهم أن يلاحظوا حيل الطبيب وتدابيره الحمائية وتظاهره بالاحترام من حين لآخر»[56].**

لقد كان اهتمام يونغ الأول منصبًّا حول تداخل لاوعي المحللين مع تحسن مرضاهم،

وهذا ما ميّز طريقته في العلاج النفسي عن تلك الطريقة المثالية التي وردت في توصيات فرويد المكتوبة عن التقنية التحليلية(*). وكما كتب يونغ في عام 1935 عن رد فعل المحلِّل تجاه مريضه (في كلمات ما كان لأحد أن يتخيّل أن تنال رضا فرويد): «لو تمنيت أن أعالج سيكولوجيًّا شخصًا آخر على الإطلاق، فليس من الأفضل أو من الأسوأ لي أن أدّعي أنني الأعلم والأقدر والأكثر رغبة في التأثير. إني مضطر لتبني إجراءات جدلية تقوم على مقارنة استنتاجاتنا المتبادلة»[58].

وإذ يولي يونغ عناية خاصة بحياة المريض الحالية، فإنه بذلك يؤكد على أهمية العلاقة المباشرة بين الطبيب والمريض[59]. فبالنسبة ليونغ «لم يعد الطبيب النفسي فاعلًا في العلاج وإنما متابع يساهم في عملية تطوير الشخص لذاته»[60]. وعن طريق عملية «التفرّد»، «يصبح المريض هو ذاته حقًّا»، ويمكن أن يتم هذا «عن طريق تحقيق المصالحة بين العوامل المتناقضة داخل الذات»[61]. «ولكن لا ينبغي للمعالج النفسي أن يستمر طويلًا في إيهام نفسه بأن علاج العصاب لا يتطلب شيئًا سوى معرفة التقنية، فما عليه إلا أن يكون واضحًا تمامًا في ذهنه أن العلاج النفسي للمريض يكمن في علاقة يكون المحلّل طرفًا فيها تمامًا شأنها في ذلك شأن المريض نفسه»[62].

وقد بدت طريقة فرويد في العلاج وكأنها تشجع الرغبة العصابية على العودة إلى الماضي، وهو ما رأى فيه يونغ بمثابة مراوغة للحاضر: «وفي ذلك اختلاف هائل في الممارسة سواء قمنا بتفسير شيء ما ارتداديًّا أو اطراديًّا»[63]. وقد اعتقد يونغ «أن الأمر يتعلق في بعض وجوهه، حتى في أيامنا هذه، بوجهة النظر السائدة في كثير من الأوساط التي تقول بأن التحليل يتمثل بشكل رئيس في «التنقيب» في عقد الطفولة الأولى من أجل اقتلاع الشر من جذوره. وهذا على ما يبدو لا يعدو أن يكون سوى إحدى تداعيات نظرية الصدمة القديمة»[64]. ويعتبر يونغ أنه «لا يمكننا ببساطة أن نخلّصه من مرضه (يقصد المريض) كما لو كان جسمًا غريبًا، خشية أن نستبعد شيئًا جوهريًّا له أهميته بالنسبة لحياة المريض. فمهمتنا هي ألا نستبعد ذلك، ولكن أن نرعى ونحوّل تطوّر هذا الأمر بحيث يكون له دور في النفس برمتها»[65].

(*) في عام 1911 عارض فرويد تقنية يونغ وبفيستر. يقول «لا زلتما تشاركان المريض وتمنحانه قدرًا كبيرًا من اهتمامكما وتتوقعان أن يقدّم لكما في المقابل شيئًا... وهذا غير منصوح به دائمًا... من الأفضل أن نكون متحفظين ونحسن الإصغاء بحيادية»[57].

وقد اعترض فرويد على مقاربة يونغ، حيث اعتبرها انتكاسة علمية مثلها في ذلك مثل مقاربة أدلر «لاهتمامها بالصراع الحالي... والأهم من ذلك لا تأخذ في عين الاعتبار ما هو شخصي وعرضي بل تكتفي بما هو عام ـ في الواقع، الفشل في إنجاز مهمة الحياة»[66]. ورغم تأكيد يونغ على أهمية «الصراع الآني»، إلا أنه ما فتئ يؤكد على أن ما يعنيه ليس «حالة الغضب المحدودة الآنية» وإنما «مشكلة التكيّف»[67]. بيد أن فرويد، يعتبر ذلك «الجزء الأهم من الحقيقة التي يتعيّن على المريض أن يتعامل معها أثناء مرضه. إن المجهودات التي تُبذل من أجل استثناء المريض من هذه المهمة إنما تعكس عجز الطبيب عن مساعدة المريض في التغلّب على مقاومته، أو أيضًا فزع الطبيب من عواقب ذلك»[68].

ينبع الخلاف بين فرويد ويونغ بحسب فرويد حول التقنية المعتمدة في التحليل من عدم قدرته على تبنّي المعمول به آنذاك في حقل التحليل النفسي. وقد عبّر فرويد عن تضمّره من ذلك ليونغ:

«يظل معنى عقدة أوديب مجرّد «معنىً رمزيًا» ليس إلا: فالأم فيها تعني ما لا يمكن بلوغه، وهو ما يتعيّن إنكاره في اهتمامات الحضارة، والأب الذي قُتل في أسطورة أوديب هو الأب «الباطن»، وعلى كل من أراد أن يكون مستقلًا أن يتخلى عنه»[69].

استنتج فرويد أن نظريات يونغ عن الاستقلالية كانت تجد صداها في سيرته الذاتية في مستوى حاجة يونغ إلى التحرّر من فرويد.

انتهى يونغ إلى الاعتقاد بأن المرضى ليسوا بحاجة فقط إلى التحليل ولكن إلى التأليف، وهذا على صلة ضمن بعض الوجوه بالمذاهب الدينية والفلسفية. ولكن بالنسبة لفرويد يقود التحليل آليًا إلى التأليف، وقد أخذ في اعتباره قدرة المريض على أن يقرر بنفسه أسلوب الحياة الذي سيتبعه. وتؤكد وجهة النظر التحليلية النفسية أن «أيًا كان يغامر من أجل أن يعلّم أو أن يرشد مرضاه، سواء عن علم بذلك أم لا، إنما ينتزع بذلك امتيازات الواعظ الديني»[70]. وكلما اقترب يونغ من الدين التقليدي، كلما تراجع إلى الوراء أكثر، وفي ذلك كتب في عام 1935: «لقد كنت مضطرًا إلى أن أفعل ذلك مع الناس الذين لم أستطع أن أغرس فيهم أيّ قيم أو قناعات... فليس طبيعيًا أن يحتل القس المعني بصلاح النفوس موقع الحاكم وإنما يجد نفسه مضطرًا إلى أن يفعل ذلك مع الأشخاص الذين هم في حاجة ملحة إلى بناء روحيّ كامل»[71]. وفي كل الحالات، ركّز يونغ على أهمية

مساعدة المرضى العصابيين في المشاكل ذات الطابع الفلسفي، واستطاع أن يخفّض من حدّة حماس أتباعه: «إن رغبتك في المساعدة فيها تَعدٍ على إرادة الآخرين. يجب أن يكون موقفك مجرد إمكانية من بين إمكانيات ويمكن أن يؤخذ به أو يُرفض»[72].

وعلى غرار أدلر، تخلّى يونغ عن استخدام الأريكة التحليلية، ولم يعتمد على حيادية المحلل في استحضار التحويلات. في الواقع، ارتاب يونغ إزاء إتاحة الفرصة لردود الأفعال التحويلية رغم أن فرويد يعتبرها جوهر العلاج النفسي. وفي عام 1935 اكتفى يونغ «بعيادةِ المرضى أربع مرات في الأسبوع كحد أقصى. ولئن ساهم العلاج التأليفي في البداية في تكثيف عيادات المرضى. فإني سرعان ما خفضت منها إلى حدود ساعة أو ساعتين في الأسبوع، وعلى المريض أن يختار طريقه بمفرده»[73]. وبحسب مبدئه الأول القائل بأن «التحليل النفسي ليس سوى وسيلة لإزالة العقبات أمام التطور...»[74]، يعتقد يونغ بـ«ضرورة قطع العلاج كل عشرة أسابيع أو حوالي ذلك، من أجل إعادة... [المريض] مرة أخرى إلى محيطه الطبيعي وعندئذ لن يكون مغتربًا عن عالمه ـ فقد كان يعاني حقًّا من نزوعه إلى العيش في فضاء آخر. وفي مثل هذا الإجراء يكون للوقت تأثير باعتباره عاملًا علاجيًّا، دون أن يهتم المريض بوقت الطبيب»[75].

ومن أجل إثبات أهمية التعجيل في العلاج النفسي، قياسًا للتحليلات الشاملة، لا يجب أن نستعجل في تغيير المرضى، تلك هي أفضل وسيلة للعلاج.

* * *

يُعتبر أعظم إنجاز لفرويد تطويره لتقنيته في التداعي الحر، لأنها لم تتوقف عنده، وقد كان عنيدًا بلا داع في استبعاد بعض الحالات التي تتطلب علاجًا، ولكن على الأقل استطاع أتباعه لاحقًا أن يكيّفوا منهجه ليلائم قطاعًا عريضًا من المرضى. كان يونغ مُعترفًا به أكثر كمعالج وكان أكثر ميلًا إلى التعامل مع بعض الحالات التي اعتبرها فرويد «لا تستحق» التحليل، كما كان أكثر مرونة مع اعتبار أن بعض أشكال التدخل في حياة المريض قد تكون مقبولة ومحبّذة. ولأجل ذلك كان يونغ مهتمًا بالتفاعل بينه وبين مريضه الذي لا يتطوّر بشكل جدّي، بما يتوافق مع المبادئ العلاجية كما هو الحال بالنسبة لفرويد، وبالتالي لم يُدرِّب عليها الكثير من أتباعه. وبالنتيجة، فقد تميزت حلقات يونغ بعدم انضباطها. وفي النهاية، ساهمت صلابة فرويد في نجاح حركته. ومع أن «هناك إجماعًا على أن يونغ كان

طبيبًا نفسيًّا بارعًا بشكل فائق حيث كان يتبنّى منهجًا مختلفًا مع كل مريض يعالجه طبقًا لشخصيته وحاجاته»[76]، فإن نموذجه هذا لم يكن كافيًا للتغلب على زخم أتباع فرويد.

ومن منظور تاريخي، سيكتشف معظم الملاحظين اليوم في الكثير من المقالات عن التقنية أن يونغ كان أكثر صوابًا من فرويد. بينما اتهم فرويد يونغ بالجبن أمام الجنسانية، فقد ثبت أن بعض المحللين الأوائل لم يجدوا أي موانع في تأييدهم لإباحة الجنس. وفي حالة أوتو غروس الذي مات لاحقًا بسبب الجوع، كان يونغ متيقنًا من ذلك لمّا كتب في عام 1909 «إن الموقف المتطرف الذي يمثله غروس خاطئ بشكل مؤكد ويهدد الحركة بأكملها... مع الطلاب كما مع المرضى، نجحتُ في المضي به قدمًا لأنني لم أجعل الجنسانية الموضوع الأهم»[77].

أما فرويد وأتباعه الأوائل فقد كانوا ميّالين أكثر إلى البحث عن التفسيرات العميقة، متجاهلين الصراعات الحالية، ولا يمكن القول ببساطة أن يونغ يشكك في الفائدة الجانبية من المرض (في إهمال مهمة الحياة) مع المصدر الرئيس (آلام الحياة الغريزية)[78].

ولقد كان أتباع يونغ على صواب في اعتقادهم بأن فرويد كان ينظر إلى «الأساسي» بطريقة أو بأخرى على أنه أكثر واقعية من «الثانوي»، بينما يعتبر معظم الأطباء النفسيين الآن التفسيرات العميقة بمثابة تخمينات وليس لها أهمية علاجية تُذكر.

لقد صرف فرويد نظره عن مساهمة يونغ، كما فعل مع مساهمة أدلر، بشيء من الكبر: «لقد تلقيّنا مؤخرًا نصيحة، ممن يزعم أن ما جاء به يمثل أحد آخر التطورات التي عرفها التحليل النفسي، مفادها أنه يجب أن يضع المحلل الصراع الحالي وسبب المرض في صدارة اهتماماته. ومن أجل ذلك تحديدًا استخدمنا أنا وبروير في بدايتنا الطريقة التطهيرية»[79].

رمى كل من فرويد وبروير إلى القضاء على الأعراض الحالية من خلال إحياء الماضي عن طريق التنويم المغناطيسي، في حين استخدم يونغ الماضي في التحليل لأغراض دفاعية، ما لم يبادر الطبيب النفسي إلى اختبار ظروف حياة المريض.

خشي فرويد من أن يؤدي هذا المنهج إلى ضروب من التساؤلات «الفلسفية» التي كان يرغب في أن يستثنيها من التحليل النفسي. وفي عام 1932 أعاد فرويد كتابة اعتراضاته على يونغ:

«عندما تتخطى الاختلافات في الرأي مستوى معينًا، فليس لنا إلا أن نتجاوز

اختلافاتنا في الأساليب، خاصة عندما يؤدي الاختلاف النظري إلى اختلاف في الإجراءات العملية. ولنفترض، على سبيل المثال أن المحلِّل لا يولي أهمية كبيرة إلى الماضي الشخصي للمريض وينظر إلى سبب المرض حصرًا في الدوافع الحالية وفي التوقعات المستقبلية. وفي هذه الحالة سيرفض تحليل الطفولة أيضًا وسيضطر إلى أن يتبنّى تقنية مختلفة تمامًا وإلى الاستعاضة عن إهمال الأحداث من تحليل الطفولة بالرفع من مستوى تأثيره الديتاكتيكي وبالإشارة مباشرة إلى أهداف بعينها في الحياة. ومن ناحيتنا يمكن أن نقول عندئذ: «إننا إزاء مدرسة الحكمة وليس أبدًا إزاء التحليل النفسي»[80].

إن رغبة فرويد في أن يسمح لمرضاه بأن يحددوا أهدافهم في الحياة تدعو للإعجاب. من المفيد والمحبذ التأكيد على أنه يتعين على المرضى أن يتحمّلوا مسؤوليتهم تجاه حياتهم في أدق تفاصيلها، وبدلًا من تصيّد أخطاء الآخرين عليهم أن يوجّهوا اهتمامهم إلى نقد ذواتهم. وقد أكد فرويد أنه، حتى لو أن شخصًا آخر وقع في الخطأ، فما يعنيه هو ما عسى أن يأتيه المريض في ذلك الوضع.

ولكن في بعض الحالات الخطيرة (أو في علاج الأطفال) لا يمكن تحليل مشاكل المريض ببساطة وتركه ليحلّ مشاكله بنفسه. قد يحتاج المريض إلى دعم المحلّل المتواصل عاطفيًا وإلى توجيهه. وحتى في عام 1930، قيل إن تلاميذ فرويد كانوا يثقلون كاهل الأطفال أثناء علاجهم[81]. ورغم أن محللي الأطفال قد غيّروا في أيامنا هذه في تقنيتهم إلا أنهم في بداياتهم كانوا يهملون الظروف العائلية. في حين استخدم يونغ مفهوم اللاوعي الجمعي للتأكيد على وجود الفرد دائمًا في وسط اجتماعي ما. ويعتقد أن «سيكولوجية الفرد لا يمكن أن تُفسّر البتة انطلاقًا من ذاته فقط، وعلينا أن نعترف صراحة بأنها مشروطة بالظروف التاريخية والاجتماعية»[82]. ويعتبر أن «العصاب ظاهرة نفسية - اجتماعية أكثر منه مرض بمعناه الصارم»، ويفترض أن ننظر «للعصاب كمرض ناتج عن نظام العلاقات الاجتماعية»[83]. تناقضت هذه الأفكار مع مقاربة فرويد الأولى في معالجة الأطفال، كما ألقى يونغ مسؤولية سعادة الأطفال على عاتق الوالدين أو من ينوبهما. أجمع الأطباء النفسيون مؤخرًا على أنه ليس بإمكان الشخص أن يأخذ في اعتباره قدرة المريض على دمج وجهات النظر الجديدة فحسب، وإنما عليه أن يأخذ بالاعتبار الوسط الاجتماعي الذي لا يمكن إهماله سواء في تحليل البالغين أو تحليل الأطفال.

6 - فيما بعد

كان يونغ صلبًا ولم يكظم غيظه ضد أيّ كان لمدة طويلة. امتعض من أتباع فرويد بعد انفصاله عن التحليل النفسي، مدّعيًا أنهم أفسدوا عليه مهنته لسنوات، وقد أشاع كثيرًا من الروايات عن عصاب فرويد(*). ولكن عندما كان إرنست جونز يؤلف سيرة فرويد الذاتية، وكتب إلى يونغ يسأله عن موقفه في المساجلة، أجاب أنه منذ سنوات خلت، وبعدما مضى زمن طويل على وفاة فرويد، ما عاد يحمل في قلبه شيئًا على فرويد. (ويبدو أن يونغ نسي هذا الطلب للمساعدة، إذ اطلع على سيرة فرويد الذاتية لجونز وألقى باللوم عليه لأنه لم يراجع هذه السيرة معه بشكل مناسب). وأما فرويد فكان شخصًا ذا قدرة عالية على كظم غيظه أكثر من يونغ، ولكن إذا ما أثير غضبه فلن يُطاق. وفي خضم المساجلة كتب فرويد ضد أدلر ويونغ في عام 1914، وأشار إلى أنه أصبح «سيئًا وساخطًا مثل أي شخص آخر...»[2].

لم يُخفِ فرويد شعوره بالمرارة منهما أبدًا، ولئن احتفظ بالعديد من الإحالات في كتاباته إلى أعمال يونغ، فقد أزال إحالة سابقة إليه[3]. وقد افترض ويتلز أن عداء فرويد لستيكل يمكن أن يكون له أيضًا علاقة بكراهيته ليونغ وأدلر: فلقد «أراد (فرويد) أن يتخلص من جزء من أناه، وقد نجح في ذلك منذ أن أعلن كراهيته لستيكل. ويفسر الإسقاط كراهية فرويد له حتى أنه ظل لسنوات طويلة يعتبره تابعه السابق»[4].

ولمّا سرد فرويد تاريخ التحليل النفسي، وجد نفسه مضطرًا إلى الإشارة لِما يعتبره الحركات الانفصالية الرئيسة التي تخلّت عنه. فقد أكد فرويد أن كل المنشقين عن التحليل النفسي (كان يشير إليهم أحيانًا بنوع من السخرية كـ«مستقلين») «سواء اتخذوا لأنفسهم منهجًا خاصًا، أو اصطفوا في المعارضة يمثلون على ما يبدو تهديدًا لتطوّر التحليل النفسي»[5]، وقد انتظمت مختلف هذه المجموعات حول قائدها المبجل وأفكاره ورؤاه، وقد ساهم الاستبداد بالرأي، حسب فرويد، في تشويه أفكارها المعنية:

«من بين مجموعة، على درجة عالية التركيب من العوامل الإجرائية، ثمّة بعض العوامل المتميزة التي تفرض نفسها فرضًا لا سبيل لإنكاره، ومن حسن الحظ أن البعض الآخر يتناقض تمامًا مع مجموعة العوامل برمتها. ولو دققنا النظر عسى أن

(*) في عام 1941 كتب يونغ في رسالة: «لقد كان فرويد نفسه يعاني من العصاب طوال حياته. وقد حللته بنفسي من أجل بعض الأعراض المثيرة جدًا حتى شُفي منها بفضل العلاج»[1].

نتبيّن أيّ مجموعة من العوامل يمكن أن تعطى الأفضلية، فسندرك أنها تلك التي تحتوي على مواد معروفة فعلًا من مصادر أخرى أو أن لها بكل بساطة علاقة بتلك المواد. وبالتالي فقد اختار يونغ الوضع الحالي والنكوص، وكذلك دوافع أدلر الأنانية. ومع ذلك فإن ما يمكن أن يُترك جانبًا ويُرفض على أنه خاطئ، هو تحديدًا ما هو جديد على التحليل النفسي وغريب عنه. وهذه الطريقة الأسهل في صد كل تطور ثوري ومزعج في مجال التحليل النفسي»[6].

عزا فرويد شعوره بالمرارة البالغ إلى يونغ، لأن هذا الأخير مثل بقية تلاميذ فرويد، كسب الكثير بسبب انتسابه إلى التحليل النفسي أكثر مما كسبه فرويد نفسه. وبوجه عام أحسن فرويد حَبك تلك القضية، وفي عام 1914 ادعى يقول: «لا أنا ممن ينتظرون الاعتراف بالجميل ولا أنا من المنتقمين...»[7]. بيد أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون محض صدفة البتة، فلقد ألمح فرويد في عام 1913 في مقال له إلى «المأساة التي قد يخلفها إنكار الجميل»[8]. وفي عام 1920 عندما بدأ فرويد في مناقشة مفهومه عن الإكراه المتكرر، وانطباعه «بأننا لا نولي اهتمامًا للأشخاص الذين تنتهي علاقاتهم الإنسانية إلى نفس النتيجة»، كان مثاله الأول «فاعل الخير الذي تركه أشياعه بعد مدة يتخبّط في غضبه، ولكنهم سيتذوقون جميعهم مرارة نكران الجميل وإن بدرجات متفاوتة...»[9].

كانت تلك «خيبة الأمل» التي خلفها يونغ وأدلر في نفس فرويد في تقديره، وفي ذلك كتب «كان بإمكاني تفاديها لو أني أعطيت كثيرًا من الاهتمام إلى ردود أفعال المرضى أثناء العلاج التحليلي. أعرف جيّدًا، بطبيعة الحال، أن أيّ شخص قد يحلّق بعيدًا في منهجه التحليلي عن الحقائق غير المرغوب فيها في التحليل، ولكني لا أتوقع أن أي شخص بلغ هذا المستوى من الفهم العميق أن يتخلى عنه أو يخسره... والأمر ذاته يمكن أن يحدث مع المحللين النفسيين ومع المرضى على حد سواء أثناء التحليل»[10].

تخفي إجابة فرويد الفورية بشأن خسارته ليونغ في جزء منها محاولة لتقليل أهمية الدعم السويسري: «لم يكن دعمًا من مدرسة زيوريخ في التحليل النفسي التي توجهت أولًا إلى الاهتمام بالجمعية العلمية للتحليل النفسي آنذاك... وما حدث هو أن فترة الكمون انتهت...»[11]. وقد كان فرويد واثقًا من ذلك الحدث إلى درجة أن عواطفه اضطربت بسبب خسارة يونغ ولا غرابة في ذلك، ولكن حتى اليوم حرفت روايات أتباعه الأرثوذوكسيين القصة برمتها حتى بدت قاتمة ومصطنعة. لو صدقت رواية كهذه، «فليس للمرء إلا أن يلوم فرويد على الاستمرار في شغفه بأتباعه غير الجديرين»[12].

إن تحفّظ فرويد المتكرر ضد «العامل في الحقل التحليلي [الذي]... يحاول أن يؤكد على أحد الاستنتاجات الفردية أو وجهات النظر في التحليل النفسي على حساب البقية»[13] لا يعدو أن يكون سوى توبيخًا مقنعًا للانتحال. وفي مناسبات أخرى ذهب فرويد إلى أبعد من ذلك ليلمح إلى أن يونغ سرق اسم التحليل فقط:

«قد يقال أن يونغ، من خلال «تعديله» للتحليل النفسي، قدّم لنا نظيرًا لسكّين ليشتنبرج الشهير. فقد غيّر في مقبض السكين، ووضع فيه شفرة جديدة، واحتفظ بالاسم ذاته الذي نُقش عليه، فقد خيّل إلينا أن الأمر يتعلق بالأداة الأصلية»[14].

يتناسب «السكين» مع تصوّر فرويد للتحليل النفسي كشكل من الجراحة العقلية.

استاء فرويد من يونغ وأدلر لأنهما استعارا مفاهيم التحليل النفسي واكتفيا بتسميتها بمسميات جديدة. من ذلك مثلًا أن فرويد قدّر أن «مصطلح «القصور النفسي» الذي جاء به يونغ ليس سوى مصطلحًا آخر، ومن الصعب اعتباره الأفضل، لما ندعوه عادة في التحليل النفسي، التثبيت»[15]، وقد أشار فرويد ذات مرة إلى وجهة النظر هذه (ولم يذكر يونغ بالاسم) قائلًا: «لم تتبوّأ فترة الطفولة مرتبة الصدارة في التحليل إلا تحت أنظارنا اعتبارًا لميل العصابيين للتعبير عن اهتماماتهم الحالية في ذكريات ورموز الماضي البعيد، وفي مشاهد الطفولة الأولى، وكمنتجات للخيال الذي يجدون فيه ما يحثهم على الحياة الناضجة، والذي يهدف إلى خدمة بعض الأنواع من التمثل الرمزي للرغبات الواقعية والاهتمامات، والذي يدين له أصلهم في النزوع إلى النكوص، والتنصل من المهام المناطة بعهدتهم في الحاضر»[16].

ومن أجل مكافحة هذا الوضع، كتب فرويد تقريرًا طبيًّا مطولًا حول حالة الرجل- الذئب، وقد حاول أن يعرض فيه الأثر القوي للتجارب الطفولية على عصاب الأطفال. فقد اعتقد بأنه استطاع أن يُنصف مزايا وجهة نظر يونغ، ذلك أنه كما يقول عن نفسه: «لقد كنت الأول ـ وهي نقطة لم يُشر إليها أيّ من خصومي ـ الذي اعترف بالدور الذي تلعبه كل من الأوهام في تكوُّن الأعراض، وأيضًا «الخيال الاستبطاني» للانطباعات الأخيرة في سن الطفولة والنشاط الجنسي بعد ذلك الحدث»[17]. ويشارك يونغ اهتمام فرويد بالأولويات، حيث ذكر أن تلميذة يونغ سابينا سبيرلن (وهي محللة جون بياجي) طوّرت «فكرتها عن

غريزة الموت، وقد استعارها فرويد في ما بعد»[18](*).

ومن بين الحركتين، حركة يونغ وحركة أدلر، اعتقد فرويد في عام 1914 أن حركة أدلر كانت «بلا ريب الأكثر أهمية، ورغم أنها كانت خاطئة بشكل جذري، فقد اتصفت بالثبات والتماسك. وعلاوة على ذلك، ورغم كل شيء، فإنها تجد أساسها في نظرية الغرائز»[20]. وقد اشتكى فرويد من غموض أفكار يونغ: «كلما وضع المرء ثقته في أيّ شيء، فعليه أن يكون مستعدًا لسماع أن امرئ ما قد أخطأ فهم ذلك، وأنه لا يمكن أن يفهمه فهمًا صائبًا»[21].

اعترف يونغ بالكثير من الحقائق حول وجهات نظر فرويد وأدلر، وكما كتب في أحد المرات «كل هذه الطرق والنظريات مبررة إلى حد ما، ولها أن تفاخر ليس بالنجاحات التي حققتها فحسب ولكن بالمعطيات السيكولوجية التي أُثبت بشكل كبير افتراضها الخاص»[22]. ولكن فرويد لم يكن يفضل الحلول الوسط ولم يكن يرغب في المؤيدين غير المتحمسين. وقد اعترض على أفكار يونغ لأنها: «كانت بطريقة متذبذبة بشكل غريب. أولًا، بمثابة انحراف ناعم إلى حد ما ولكنه لا يبرّر الاحتجاج الذي واجهته (يونغ)، وثانيًا بمثابة رسالة جديدة للخلاص تدشن حقبة جديدة للتحليل النفسي، وفي الواقع، فإن لكل شخص فلسفته العلمية الخاصة»[23].

لا يعلم فرويد ما إذا كان ما يعتبره تناقضًا في فكر يونغ يعود إلى أن أتباع يونغ «يتخالفون حول أمور كانوا هم أنفسهم يؤيدونها في السابق، وهم إذ يفعلون ذلك، لا يفعلونه على أساس الملاحظة النقية...»[24].

وقد اتهم فرويد أدلر ويونغ بأنهما لم يقدّما سوى ما كان يسميه أحيانًا «تفسيرات مستحدثة»، وأحيانًا أخرى «تفسيرات ضالة»، فلا جدوى بالنسبة إليه مما يسمّيه «تفسيرات جديدة لما توصل إليه التحليل النفسي من حقائق»[25]. ولمّا تبيّن لفرويد أن أدلر يتمتع «بقدرة خارقة تعضدها نزعة تأملية مميزة»[26]، أثنى عليه من وراء ظهره، وأما التأمل فهو بالنسبة لفرويد في صدارة الآثام الفكرية. وأما يونغ، بالنسبة لفرويد، فيعاني من نفس العيب: فقد «صاغ أولًا تصورًا لطبيعة الغريزة الجنسية ثم سعى إلى توضيح حياة الأطفال على

(*) في «ما وراء مبدأ اللذة» ذكر فرويد أن «جزءًا لا بأس به من هذه التأملات التي توقعتها سابينا سبيرلن بصفة حدسية (1912) من خلال دراسة محكمة ومهمة إلا أنها لسوء الحظ لم تكن واضحة تمامًا بالنسبة لي»[19].

ذلك الأساس... ولكن لا يمكن التخلص من هذه المشاكل عن طريق التأمل، بل تحتاج في حلها إلى أن تنتظر ملاحظات أخرى ملاحظات في مجالات أخرى»[27]. وعندما قدّم فرويد أفكاره الخاصة، أراد أن يؤكد على أنه لا ينبغي تضليل القارئ في ما يتعلق بالقضايا التحليلية: «ينبغي ألا تفترض للحظة أن ما عرضته عليك سابقًا كرؤية سيكولوجية تحليلية كان نظامًا تأمليًا وإنما هو، على النقيض من ذلك، تجريبي...»[28].

اعتقد فرويد أن يونغ كان عرضة لـ«تنوير» غير عقلاني[29] في سعيه للإجابة. ومن وجهة نظر فرويد شكلت الانحرافات التي قادها أدلر ويونغ مقاومة عاطفية جديدة لأفكاره: «وقد تبنّاها الناس الآن»، وكتب في شتاء 1914 ـ 1915 يقول: «هناك مخطط آخر من أجل الاعتراف بهذه الحقائق، ولكن مع إقصاء تبعاتها، عن طريق التفسيرات الضالة، حتى يتمكن النقاد من درء المستجدات التي لا يمكن الاعتراض عليها باقتدار غير مسبوق أبدًا»[30]. حاول يونغ أن «يفسّر حقائق التحليل تفسيرًا نقيًا ذا طابع مجرد وغير شخصي وغير تاريخي...»[31]. وفي الحقيقة يعتبر فرويد أنَّ أعمال يونغ «ابتدعت نظامًا دينيًا وأخلاقيًا جديدًا شبيه بنظام أدلر، وكان همّه إعادة تفسير وتحريف أو نبذ الاستنتاجات الواقعية للتحليل. والحقيقة أن هؤلاء الناس اختاروا بعض النغمات الثقافية من سيمفونية الحياة وفشلوا مرة أخرى في سماع لحن الغرائز الصاخب والأصلي»[32].

اعتقد فرويد أن يونغ أجرم في حق التحليل النفسي، إذ ساهم في تمييعه لأسباب واهية «في سعيه من أجل التطابق مع المعايير الأخلاقية، جرّد يونغ عقدة أوديب من معناها الحقيقي بأن أكد فقط على قيمتها الرمزية، وفي ممارسته أغفل كشف المنسيّ، وما نسميه «فترة ما قبل التاريخ» الطفولة»[33]. ومثله مثل أدلر قبله، استسلم يونغ إلى إغراء «المجتمع البشري المتحرر» بديلًا عمّا اعتبره فرويد في عام 1926 «مجتمع نير الجنسانية»:

> **«قليل ممن كانوا أتباعي آنذاك يلحون على الحاجة إلى مجتمع إنساني متحرر من نير الجنسانية الذي يسعى التحليل النفسي إلى أن يفرضه عليه. وقد أعلن أحدهم أن الحياة الجنسية ليست سوى واحدة من الفضاءات التي تسعى خلالها الكائنات البشرية لتكريس حاجتهم الغريزية لممارسة الهيمنة والسلطة. وقد لاقى ذلك استحسانًا منقطع النظير في هذا الوقت على الأقل»[34].**

يعود جزء من شعور فرويد بالمرارة في عام 1914 إلى اقتناعه بأن أدلر ويونغ مضيا قدمًا في معارضة نجحا في إثارتها: «إن كلتا الحركتين الرجعيتين تغازلان رأيًا تعتبرانه

مناسبًا عن طريق التركيز على بعض الأفكار النبيلة، ترى الأشياء، إن جاز لنا القول، في أبديتها»[35]. وتكمن قوة يونغ وأدلر «لا فقط في قناعتهما ولكن أيضًا في تحررهما مما كنا نعتبره من النتائج المنفرة للتحليل النفسي حتى وإن كانت مادته الواقعية لم تعد مرفوضة، وهذا في حدّ ذاته يعتبر مصدر إغراء»[36].

اكتسب يونغ شهرته الواسعة بفضل مؤلَفه الأنماط السيكولوجية (1921)، وفي عام 1931 ردّ فرويد على كتاب يونغ الضخم حول موضوع الانطواء والانبساط بمقال موجز. تحت عنوان «الأنماط الليبيدية»، حيث أشار فرويد إلى المسألة التي ليس لأحد أن يعترض عليها في نظرية الليبيدو، كما فعل يونغ، في اتجاه تأسيس علم نماذج الشخصية. وبحلول عام 1923 شعر فرويد أنه صار أكثر اطمئنانًا مما مكّنه من أن يكتب بشأن مساجلاته مع أدلر ويونغ في (1911 ـ 1913): «سيظهر للعلن قريبًا أن الأثر السلبي لهذه الانشقاقات عابر» بالنسبة للتحليل النفسي[37]. وفي عام 1932 لاحظ فرويد قائلًا:

> **«إن الناس يميلون إلى اتهامنا نحن المحللين بالتعصب. ويتمثل التجلي الوحيد لهذه الخصلة الذميمة تحديدًا في فراقنا لأولئك الذين يختلفون معنا في الرأي. وما كان لهم أيّ ضرر آخر. بل في مقابل ذلك، حالفهم الحظ، وصاروا أفضل مما كانوا عليه من ذي قبل. وغالبًا ما حررهم انفصالهم من أحد تلك الأعباء التي كانت تثقل كاهلنا ـ إنكار الجنسانية الطفولية، ربما، أو غموض الرمزية ـ وهي أمور يُنظر إليها من خلال محيطها على أنها محترمة إلى حد ما، وهو عبء يظل غير ذي معنى بالنسبة للبعض منا ممن تخلفوا عنا»[38].**

ورغم أن أدلر ويونغ «يمثلان، في ضوء العداء العام للتحليل النفسي، خير من أيّده ودافع عنه» إلا أنهما، حسب رأي فرويد، «ظلا عقيمين من الناحية العلمية»[39]. مع هذا تفوّق يونغ في فترة وجيزة في مجال العلاج النفسي، وفي استخدام اختبارات الإسقاط فضلًا عن مؤسسات المساعدة الذاتية ويمكن لمؤسسة مثل مؤسسة «مناهضي الكحوليات» أن تقتفي أثره وتستلهم طرائقه. ولقد «تبنى محللو الأطفال تقنيات يونغ في العلاج النفسي عبر الرسم والتلوين»[40].

ومع نهاية عام 1913، أكمل فرويد مقاله بعنوان «تمثال موسى لمايكل أنجلو». وتعكس دراسته عن تمثال موسى وهو يمسك في يده الألواح الطينية التي كتبت عليها الوصايا العشر مشاعره تجاه يونغ. ويرى فرويد في نفسه مثل موسى كقائد خلّص شعبه من

الاضطهاد. ورغم أن فرويد لم يعد إلى قصة موسى حتى ثلاثينيات القرن العشرين، فإن المقال المذكور كان مهمًّا في ذاته. ومع مرور الوقت ذاع صيت القطيعة بين يونغ وفرويد، وإن لم ينشر المقال للعموم في البداية، إلا أنه يكشف عن الاهتمامات ذات العلاقة بالسيرة الذاتية من خلال موضوع عزيز على قلب فرويد.

أُعجب فرويد بهذا التمثال لسنوات حتى أنه كتب في ذلك يقول: «لم تثر إعجابي الشديد أي قطعة نحت مثل ما فعلت هذه القطعة»، وقد لفت انتباه القارئ إلى «الازدراء الساخط في نظرة البطل». وبطبيعة الحال، فرويد نفسه كان غاضبًا من انسحاب يونغ، ومن الواضح أنه عندما ألقى بصره على «الغوغاء الذين يتبنون سريعًا أيّ اعتقادات كانت، والذين يفتقدون للإيمان والصبر، والذين يبتهجون عندما يستعيدون معبوديهم الوهميين»[41]، كان حاضرًا في ذهنه أتباعه غير المخلصين ممن صاروا أقل وفاء مما توقّع. وقد شبّه فرويد نفسه بموسى عندما هبط من جبل سيناء «في اللحظة التي أدرك فيها أن قومه في تلك الأثناء صنعوا لأنفسهم عجلًا ذهبيًّا وراحوا يرقصون حوله مبتهجين»[42].

قدّر فرويد «حنق» موسى وكذلك «الصراع الذي نشأ بين مثل ذلك العبقري المصلح وبقية البشرية». واعتقد فرويد أن «السر الكبير وراء تأثير موسى يكمن في التناقض الفني في تحمله بين النار المتأججة بداخله والهدوء الذي يظهره»[43]. ومن عادة فرويد تفحص التفاصيل التي تبدو غير مهمة، وحجته في ذلك أن التمثال يمثل موسى وهو يتغلب على الإغراء من أجل تحطيم ألواح الوصايا، «ولازال ثابتًا على حنقه الذي لا يلين وألمه الممتزج بالاحتقار»[44]. فقد تفحص موسى عاطفته «فتذكّر رسالته التي لأجلها تخلّى عن الانغماس في مشاعره»[45].

ويحسب فرويد فإن «موسى في الأسطورة وفي التقليد كان متسرعًا كما كان يشكو من اضطرابات عاطفية». ولكن مايكل أنجلو نحت شخصية مختلفة لموسى تتفوّق على موسى التاريخي. وقد شيّد التمثال في مقبرة الأب يوليوس الثاني: «لذلك ليس الإطار العملاق بالإضافة إلى قدرته البدنية الهائلة سوى تعبير مادي عن أعظم إنجاز عقلي يمكن أن يأتيه رجل وهو يكافح العواطف الباطنية من أجل قضية نذر نفسه في سبيلها»[46]. وعلى ما يبدو ليس من الشجاعة بمكان أن يتشبه فرويد، وهو النحيل القصير، بالشخصية البطولية العظيمة للرجل الذي نحته مايكل أنجلو. ولأجل ذلك اختار فرويد يونغ، الرجل الطويل

والضخم، خليفة له، ولهذا السبب، ربما كان التمثال أداة مناسبة للتعبير عن مشاعره لخسارته تلميذه.

كان فرويد واثقًا أكثر من ذي قبل بأنه محارب روحاني؛ ومن خلال ما كتب عن علاقة مايكل أنجلو بالبابا التي استفاد منها في تفسير طبيعة التمثال، استطاع أن يتخطى عواطفه الشخصية. ويمكن أن ينطبق ما كتبه فرويد عن شخصيتيّ مايكل أنجلو والبابا يوليوس على فرويد نفسه:

«فيوليوس الثاني كان قريبًا من مايكل أنجلو في ذلك، فلقد حاول أن يدرك النهايات العظيمة والجبارة، والتي صممت خصيصًا على درجة عالية. وقد كان رجلًا عمليًّا ولديه هدف محدد، وهو أن يوحّد إيطاليا تحت السيادة البابوية. وقد أراد أن يأتي بما لم يأتِ به من سبقه خلال قرون عديدة، ولن يتسنى له ذلك إلا إذا تعاضدت معه قوى خارجية عديدة، إلا أنه أبى إلا أن يُقدم على ذلك بمفرده، باندفاع، وفي فترة قصيرة من السيادة سمحت له باستخدام وسائل عنيفة. وقدّر مايكل أنجلو كرجل من طينته، ولكن غالبًا ما كان يعتبره أكثر ذكاء أثناء غضبه المفاجئ وعدم اكتراثه التام بالآخرين. فالفنان يشعر بنفس القوة العنيفة للإرادة في أعماق ذاته، وبما أنه كان مفكرًا استبطانيًا، فقد كان لديه هاجس بالفشل الذي كان يسيطر عليهما. وبالتالي فقد شيّد تمثال موسى في مقبرة البابا على ما في ذلك من عار على البابا الميت، ومن ثمة كتحذير لنفسه، عبر النقد الذاتي، من أن يتخطى طبيعته الخاصة»[47].

لا بدّ أن تمثل صدمة لفرويد أن يكتشف أنه يميل إلى تقويض مجهوده الذاتي. ومع أن فترة القطيعة بينه وبين يونغ هي التي جعلت فرويد يشعر بأنه متأكد من هويته. فقد رأى أن من حقه أن يدافع عن دوره التاريخي في مواجهة أعداءهَ مثل أدلر ويونغ، وهو ما لم يُقدم عليه إلى ذلك الحين.

وقد جاء في تبرير فرويد العلني لاختياره في البداية ليونغ: «لقد تمنيت أن أعتزل نفسي والمدينة التي ظهر فيها التحليل النفسي إلى النور أول مرة»[48]. ولمّا فشل فرويد في ذلك تحوّل إلى جوهر القضية، ورغم بعض التأخير في الدفاع عن أحقيته في إبداع التحليل النفسي (بدلًا من بروير) ـ لم يكتب حتى عام 1914، كما جاء على لسانه، أن «التحليل النفسي من إبداعي» - فقد كان فرويد واثقًا تمامًا في قدرته على الاضطلاع بأفكاره. وفي إطار سعيه للتعريف بأفكاره هو، كان على فرويد أن يثبت بدقة ما لم يصدر عنه، وبالتالي

فقد كان مضطرًا إلى أن يتبرّأ من يونغ وأدلر. وفي الآن ذاته، كان فرويد يجري مناقشاته بطريقة غير شخصية: «عندما كنت أنتهي إلى مسائل تثير الخلاف، يتوجب عليّ الدفاع عن حقوق التحليل النفسي العادلة مع بعض الإشارات ذات الطابع النقدي الصرف»[49].

كتب فرويد إلى جونز بعد الحرب العالمية الأولى يقول له إن «سعيك لتطهير جمعية لندن من أعضاء جماعة يونغ، عمل ممتاز»[50]. إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد حقد شخصي وإنما أكثر من ذلك، هو سياسة دولة. كان لفرويد طريقته الخاصة في إدارة المساجلات. إذ كلما انعدم التفاهم بينه وبين تلميذ، مال إلى البحث عن الدافع الكامن وراء ذلك، تصوره لـ«المقاومة» يتّجه إلى تحويل المناقشة بعيدًا عن استحقاقات القضية. وفي ما يتعلق بأدلر وستيكل، على سبيل المثال، كتب فرويد في إحدى المرات أنه «مهما كان تعليقي التحليلي بشأن هذين الرجلين، فقد تحدثت عنهما بوضوح إلى الآخرين، وفي الوقت الذي لم يكونا على اتصال بي أساسًا»[51]. ولكن لم يستطع مريض أثناء التدريب على التحليل بعد الحرب العالمية الأولى أن يجرّ فرويد إلى مناقشة القطيعة مع يونغ، إذ رد فرويد أن أسباب ذلك «شخصية وعلمية»[52]. وقد قيل إنه في عام 1930 «بعد مرور عشرين عامًا على هذا الحدث، تفاجأ أحد الزوار الطارئين من شعور فرويد بالمرارة تجاه يونغ، وهي مرارة لا يتوقف سببها عند شخص [يونغ] بل يتعداه على ما يبدو إلى مواطنيه»[53].

ومع أن يونغ حاول في حلقة فرويد أن يحد من تمدد إبداعاته، إلا أنه أكد لاحقًا أنه تعلّم الكثير بصفة فردية وأنه لم يتعلم من فرويد إلا القليل. وفي عام 1933 كتب يونغ في إحدى الرسائل: «من الأفضل أن أنتهز هذه الفرصة لكي أصحح خطأ مفاده أني خريج مدرسة فرويد. أنا تلميذ مدرسة بلولر...»[54]. وفي أوائل عام 1908 امتعض فرويد من «حس التوافق الذي عطّل» يونغ. وقد رد يونغ على ذلك بالقول: «لست دعائيًا حقًا... أنا قادر دائمًا على أن أكون أكثر من مجرد تابع مخلص. أنت لم تخسر هؤلاء بأي حال. ولكنهم لم يدفعوا بالقضية قدمًا لأنه بالإيمان وحده لا يمكن أن يزدهر أيّ شيء على المدى البعيد»[55]. ولكن في مناسبات أخرى أيّد يونغ أهمية الفهم العميق للاشعور، وقد اتخذ في ذلك كما يقول: «طريقًا أبعد مدى من ذاك الذي سلكه فرويد...»[56]. ولكن لا بد أن تكون انتكاساته جليّة له لا سيما كلما شعر بالحاجة إلى أن يحذف بعض الفقرات من مقالاته الأولى[57]. لم يكن ذلك هيّنًا على يونغ بعد انفصاله عن فرويد. ولنا أن نتذكر قصص أولئك الذين انفصلوا عن الحزب الشيوعي، وقد صاغها جان بول سارتر بشكل مميز في قوله:

«من الصعب الانفصال عن الحزب. يجب أن تحرف كل قوانينه قبل أن تُخترق. إن كل هؤلاء الرجال المحبوبين، والوجوه المألوفة ستصبح وجوهًا قذرة في عيون الأعداء، وهذا الحشد البائس والحرون سيواصل المسيرة حتى يدرك نهايته».

ولكن إذا كان بالإمكان «خسارة أحد الشيوعيين» حسب عبارة سارتر[58]، فإن ذلك مستحيل إذا تعلق الأمر بأحد الفرويديين الأوائل. وأمام تمجيد فرويد لعزلته وقد بالغ في ذلك في الواقع، في تسعينيات القرن التاسع عشر، ورغبته في التقليل من حجم حركته من أجل التطهير، ظل واحدًا من تلاميذه في تطابق معه دائمًا وإن سلك مسارًا مستقلًا تمامًا.

كان بإمكان يونغ هو أيضًا أن يكون ديكتاتوريًا: «إن أولئك الذين يعرفون يونغ يتذكرون نبرة الثقة المطلقة التي كان يتحدث بها عن الأنيما والذات، والنماذج الأصلية، واللاوعي الجمعي»[59]. غالبًا ما انتقد يونغ نظرية فرويد عن الليبيدو لأنها أحادية وبيولوجية المنشأ. ومع أنه كتب في بداية عام 1906، مدافعًا عن فرويد يقول «نادرًا ما ظهرت حقائق عظيمة دون أغلفة رائعة»[60]. وبحلول عام 1948 آمن يونغ بأن فرويد «وجَّه اهتمامه بشكل رئيس إلى الرغبة القاسية للذة». كما اضطر أدلر إلى «سيكولوجية الهيبة»[61]. ويعتقد يونغ كما يقول «لقد اكتفى فرويد في البداية بالجنسانية بوصفها القوة النفسية الدافعة الوحيدة، ولم يأخذ في عين الاعتبار العوامل الأخرى إلا بعد انفصالي عنه». ولكن بالنسبة ليونغ «لم يكن غرضه [فرويد] تنقيح بعض الوجوه الأكثر سوءًا في نظرياته في السنوات الأخيرة. ومن وجهة نظر العامة فقد صُنِّف من خلال تصريحاته الأولى»[62]. وقد شعر يونغ بأن إصراره على أهمية طبيعة الإنسان السامية تأصلت من جديد في مفهوم فرويد الأخير عن الأنا الأعلى.

في عام 1929 أنكر يونغ أن يكون «خصمًا» لفرويد: «ما كان لي أن أرى النور لولا قصر نظره وقصر نظر تلاميذه»[63]. وكما تحدّث منذ البداية عن علاقته بفرويد قائلًا:

> «وإذ... ركزت على نفس الآليات السيكولوجية التي قال بها فرويد، فمن الطبيعي عندئذ أن أكون تلميذه ومعاونه طيلة سنوات عديدة. ولكن بينما اعترفت دائمًا بصدق نتائجه في ما يتعلق بالوقائع، كنت أخفي شكوكي إزاء صلاحية نظرياته. وكانت دغمائيته الفظة السبب الرئيس وراء إحساسي بأنني مجبر على أن أتخلى عن شراكتي معه»[64].

في عام 1923، رغم شعوره بأن «تطلعات» علم نفس فرويد كانت دون المأمول، فقد

اعترف يونغ أن فرويد «كان مُحطمًا عظيمًا حيث أنه حطم أغلال الماضي. وحررنا من الضغط المؤذي لعالم مليء بالعادات العفنة... ومثل رسول العهد القديم، فقد أطاح بالأصنام المزيفة وبدون شفقة عرّى تعفن النفس في الزمن المعاصر»[65].

ولم يكن ليونغ أيّ ارتباط بالصحف ومعاهد التدريب إلا في نهاية حياته. وكان أكثر أتباعه من النساء، على الأقل في سويسرا، ولم يكونوا مؤهلين تقريبًا. فيونغ لم يكن المفكر أو المعلّم كما كان فرويد، وكان يسخر من تلاميذه المتأخرين (على سبيل المثال، كبتهم الجنسي). وفي هذا الاتجاه طوّر معبدًا أكثر منه مدرسة. بيد أن تلاميذ يونغ لم يتعوّدوا على هذا النوع من المساجلات التي أرهقت أتباع فرويد. وطبقًا لوجهة نظر يونغ من الأضداد ولمفهومه عن الظل، لو أن شخصًا كان ضد أي شيء بشكل متزايد فقد يكون مرد ذلك المشاعر الإيجابية الكامنة، وعليه من المستحيل تقريبًا أن يجدّ خلافًا حقيقيًّا في حلقات يونغ كما كانت مشاكلها تمر في الخفاء.

ففي العشرين عامًا الأخيرة من حياته، كرّس يونغ اهتماماته، مثله في ذلك مثل فرويد في نهاية حياته، إلى تجاوز توجهه الطبي الأول والتوجه إلى البشرية بأسرها. «ومع أن يونغ كان عطوفًا ولطيفًا، إلا أنه كرّس اهتمامه دائمًا إلى الأفكار أكثر من الأشخاص...»[66]. ورغم أن يونغ كان أكثر طموحًا في البداية بشأن العلاج النفسي أكثر من فرويد نفسه، فقد كان اهتمام فرويد بالمرضى، في النهاية، أكثر من يونغ. فقد استمر فرويد، على الأقل، في ممارسته التحليلية إلى شهور قليلة قبل وفاته، بينما توقف يونغ عن ذلك في سن مبكرة. فبعض من أفكار يونغ حول المجتمع والفن تكاد تتفق تمامًا مع أفكار فرويد: على سبيل المثال، نظرة يونغ المحتقرة للجماهير وعدائه إلى الفن المعاصر. وفي الدين، فقد كانا على طرفي نقيض مع الشبح، ولم يكن نشر مؤلّف فرويد «مستقبل وهم» إلا تأكيدًا على عدم ثقة يونغ في تكريس فرويد لما كان يبدو إليه تصورًا ماديًّا للعلم.

ولأن فرويد كان يميل إلى تضخيم المعارضة، فمن الصعب، جزئيًّا، أن يقدّر قيمة معاداة السامية التي كان يشتكي منها، وخاصة مدى مساهمة موقف يونغ تجاه اليهود في توتر علاقته بفرويد. وقد ذكر فرويد علنًا قرار يونغ «التخلي من أجلي عن بعض التحيّزات العرقية...»[67]. ولكن في المجالس الخاصة كان فرويد يتذمر من «أكاذيب يونغ وهمجيته، والمكابرة بمعاداة السامية أمامي»[68]. والمثير في الأمر، أنه رغم ذلك، لا أثر لهذه الإدانة في مراسلات فرويد ويونغ.

وأثناء صعود الحزب النازي في أوروبا، لم يساعد يونغ اللاجئين اليهود في سويسرا ولكنه ساعد اليهود للوصول إلى إنكلترا. ولقد وضع النازيون اسمه «على القائمة السوداء»، و«حُظرت أعماله من قبل النازيين في ألمانيا والبلدان المحتلة»[69]. وفي ضمن بعض الوجوه كان فرويد وأتباعه يعتبرون يونغ معاديًا للسامية، لأن حماس فرويد تجاه يونغ كان في المقام الأول قائمًا على أساس أنه معاد للسامية بطبعه. ولا شيء في شخصية يونغ أو نظرياته يدل على أن الرجل اتخذ موقفًا سلبيًا من كل قلبه تجاه أي جماعة بشرية كانت. وإن صدرت عنه بعض الإشارات المعادية في بعض المناسبات تجاه الإنكليز والسويسريين، على سبيل المثال، فإنه أراد أن يؤكد على أنه ما من شيء إلا ويحتمل وجهًا سلبيًا وآخر إيجابيًا.

سواء بسبب مفهومه للظل أو بسبب موقفه الساذج من هتلر (الذي يشترك فيه مع آخرين)، أساء يونغ، في البداية، تقدير الطبيعة الحقيقية لظاهرة الحزب النازي في ألمانيا. فقد كان يونغ يعتقد دائمًا أن لكل جماعة ثقافية سيكولوجيتها التي تتناسب معها، وبصفة خاصة ميّز بين علاج نفسي لليهود وآخر لـ«الآريين». وفي تقدير يونغ يستحق فرويد وأدلر «التوبيخ لتأكيدهما المبالغ فيه على الوجه الباثولوجي ولتفسيرهما الإنسان بشكل حصري في ضوء عيوبه»[70]. (رغم أن يونغ كان يميل إلى تأثيم الاتجاه المقابل). انسجم ما كتبه يونغ في عام 1934 تمامًا مع فهمه لشخصية فرويد حيث يقول:

«ما من طبيب نفسي ينبغي له أن يفوّت الفرصة في دراسة نفسه دراسة نقدية في ضوء تلك السيكولوجيات السلبية. ففرويد وأدلر نظرا بوضوح إلى الجانب المظلم الذي يلازمنا. وهذه خصوصية يشترك فيها اليهود مع النساء، ولأنهم ضعاف جسديًا، فقد كانوا يتصيّدون مواطن الضعف في قوات عدوهم المدرعة، وبفضل هذه التقنية التي فرضت عليهم عبر القرون، تحصن اليهود كأفضل ما يكون، بينما كان غيرهم أكثر عرضة للأخطار. ومرة أخرى لأن حضارتهم أقدم من حضارتنا مرتين أو أكثر، أدركوا أكثر منّا موطن الضعف في الإنسان، والجانب الخفي للأشياء، ومن ثم فهم أقل عرضة للخطر منا. وبفضل خبرتهم كأصحاب ثقافة عريقة، فهم قادرون، وقد وعوا تمامًا موطن ضعفهم، على التعايش معها، في حين أننا ما زلنا صغارًا حتى أننا نعجز عن أن تكون لنا «أوهام» حول أنفسنا. ومع ذلك فقد عهدت إلينا مهمة إبداع الحضارة... وفي سبيل تحقيق هذه «الأوهـام» التي تتخذ شكل مُثلٍ عليا أحادية الجانب لا غنى عن القناعات والخطط... إلخ، وباعتباره منحدر من سلالة تمتد

حضارتها إلى ثلاثة آلاف عام، فاليهود مثلهم مثل الصيني المتحضر، مجال وعيه السيكولوجي أوسع نطاقًا من مجال وعينا. وبالتالي ليس ثمة ما يخشاه اليهودي إن أعطى قيمة سلبية للاوعي. ومن ناحية أخرى، فإن اللاوعي «الآري» يحمل في طياته قوى ناسفة وبذور مستقبل لم يحن أوانه بعد، وهذه الأمور لا يمكن التقليل من شأنها كما لو كانت رومانسية حضانة دون خطر نفسي. إن اليهودي الهائم على وجهه، لم يُنشئ أبدًا أي نموذج ثقافي خاص به. وبقدر ما نرى أنه لن يتسنى له ذلك، بما أن كل غرائزه ومواهبه تتطلب أمة أكثر أو أقل تحضرًا حتى تواكب تطورها، فللاوعي «الآري» طاقة كامنة أكثر من اللاوعي اليهودي، تلك هي مزايا ومساوئ الحداثة التي لم تتخلص نهائيًا من البربرية بعد. وفي رأيي كان خطأ جسيمًا تطبيق الأصناف اليهودية في علم النفس الطبي حتى الآن - بل إنها لا تجمع كل اليهود - دون تمييزهم عن الألمان ومسيحيّ العالم السلافي. وبسبب هذا اتضح أن السر النفيس للشعوب الألمانية - إبداعية وحدسية روحهم العميقة - أنه مستنقع من التفاهة الصبيانية، بينما شُكّك فيما عبرّت عنه على سبيل التحذير كنوع من معاداة للسامية لعقود طويلة. وقد صدر هذا الشك عن فرويد. فهو لم يفهم النفس الألمانية أكثر من أتباعه الألمان. أفلم يستخلص الدرس جيّدًا من ظاهرة الاشتراكية القومية الهائلة التي يتابعها العالم بأسره بعيون شاخصة ومندهشة؟... ولهذا السبب فإني أرى أن اللاوعي الألماني ينطوي على الكثير من التوترات والقوى الكامنة، والتي لا بد أن يأخذها علم النفس الطبي في الاعتبار عند تقييمه للاشعور»[71].

كان يونغ شديد الإعجاب بالثقافة الصينية، كما احتج في رسالة يقول «بمجرد حديثي عن الاختلاف بين علم النفس اليهودي وعلم النفس المسيحي، سوّلت للبعض أنفسهم باتهامي بمعاداة للسامية، أو أنه، حسب رأي صحيفة «السويس إسرائيليتا» الأسبوعية، من خلال تأكيدي على أني لست معاديًا للسامية ولا للثقافة الصينية إنما أبغي من وراء ذلك مقارنة اليهود بالسلالة المنغولية»[72]. ولأنه مثل يونغ يشاطر التمييز على أساس الجنس تجاه النساء، فليس غريبًا أن يتبنّى الكثير من القوالب النمطية التقليدية عن اليهود، ولقد سمح يونغ بتدوين تعليقاته حول الاختلافات بين علم النفس اليهودي وعلم النفس «الآري» في مقال نشر في ألمانيا، وأما محدودية تمييز يونغ بين «العلم اليهودي» و«العلم الألماني» وبين العلم النازي فتقشعر لها الأبدان.

في عام 1934 وبعد وصول الحزب النازي إلى السلطة بقليل، استنتج يونغ في «فوتن

Wotan» «أنه يتعيّن علينا ألا نخوض في الأمور التي لا يمكن لنا أن نتخيّلها في الوقت الحالي، ولكن قد نتوقع ظهورها في غضون السنوات أو العقود القليلة القادمة. ولكن بالنسبة ليونغ «فإن ما يثير الإعجاب بشأن الظاهرة الألمانية هو أن رجلًا، «مشغوف» فعلًا أفسد أمة بأكملها، بحيث صار كل شيء فيها يتحوّل ويسير نحو الهلاك»[73]. وفي عام 1934 امتعض يونغ، بشكل مثير للجدل، من أن «يُنظر للانطواء كحالة غير سويّة ومرضية، أو حتى بغيضة». وأما فرويد فقد ماثل بين الشبق الذاتي أو «النرجسية» في التفكير. فهو يشاطره موقفه السلبي من الفلسفة الاشتراكية القومية لألمانيا الحديثة، والتي ترى في الانطواء تهجمًا على مشاعر الجماعة[74].

ولسوء حظ سمعة يونغ لاحقًا أنه قبل منصب رئيس «الجمعية الألمانية للطب النفسي» بعدما استقال رئيسها، وهي جمعية اعترف بها الحزب النازي في حزيران/ يونيو عام 1933 كعضو في الجمعية الطبية الدولية العامة للعلاج النفسي[75]. وهو اختيار شجبه مباشرة المحلِّل النفسي السويسري غوستاف بالي. ثم أصبح يونغ محرر مجلة هذه الجمعية، وفي عام 1936 عيّن الطبيب النفسي ابن عم غورنغ محررًا مساعدًا معه. وفي حدود عام 1940 قطع يونغ علاقاته مع هذه الجمعية النازية. وكتب يونغ ردًّا على شجب بالي له[76]، وقد شعر وكأنه مطالب طيلة ما تبقى من حياته بأن يشرح أسباب تعاونه مع النازيين. وفي رسالة بتاريخ 1951 حول موضوع «الإشاعة المغرضة» كتب يقول:

«عندما أسّست الجمعية الطبية الدولية للعلاج النفسي كان كل زملائي الألمان متخوفين من أن يقضي النازيون على العلاج النفسي تمامًا في ألمانيا، وترقبوا أن تساعدهم المنظمات الألمانية غير الحكومية. ولقد تخطيت ذلك وجعلته أمرًا ممكنًا حتى يصبح الأطباء اليهود المهمشين أعضاء مباشرين في الجمعية الدولية. وأما في ما يخص مجلة هذه الجمعية التي ظهرت في ألمانيا، فهي مرتبطة بعقد مبرم بيني وبين الناشر ولا أستطع تغييره. ولما كان الرئيس يصبح آليًا محرر هذه المجلة، فقد كنت مطالبًا بالإمضاء عليه. ومباشرة بعدما اعتقل النازيون غورنغ، أردت الانسحاب لكن زملائي أصروا على بقائي، على أمل أن أفعل شيئًا لأجلهم. وفي نهاية المطاف فقد نجحت في أن أخفي العلاج النفسي في قسم بعيد لا يمكن للإطار الطبي النازي الوصول إليه. ومنذ بداية عام 1937 وأنا أحاول الانسحاب إلا أن ممثلي الجمعية الهولندية والمجموعة البريطانية التي أسست حديثًا ترجّوني الا أنسحب وأن أظل على اتصال بهم، فلم أرغب في التنصل من المسؤولية تجاه

أصدقائي وزملائي. وبالتالي اضطررت إلى لعب هذا الدور وأن أتعامل برفق (خلافًا لطبعي بكثير) لأني كنت أعلم جيّدًا بأني الخروف الأسود بسبب مقالي حول فوتن الذي يمكن أن يسيء فهمه، فيرى فيه تعبيرًا عن تأييدي للحزب النازي إلا حمارًا. لم أغير رأيي في النازيين قط، ولم أكن معاديًا للسامية، ولكني مقتنع بأن هناك اختلافات سيكولوجية بين اليهود والوثنيين تمامًا مثلما هناك اختلافات بين الإنكليز والفرنسيين وهكذا»[77].

تكثفت الكتابات حول دور يونغ كمبايع للحزب النازي، وقد بدا بالنسبة للبعض أن مبايعته تلك إنما كانت من أجل حفظ هيبة الطب النفسي بعد يونغ، ولم تكن روايته الأخيرة سوى محاولة لتبرير ما يفترض أن يكون مشينًا على الأقل. ولقد كان الأشخاص المسؤولون مقتنعين بأن المحرر المساعد ليونغ، وابن عم نائب هتلر حاول دائمًا بإخلاص أن يحمي الأطباء النفسيين في ألمانيا. وآوت الجمعية الجديدة التي ترأسها يونغ الأطباء النفسيين الذين استبعدوا من المنظمة السابقة. وقد كان لإرنست جونز تعاملات مع م. هـ. غورنغ، وقد قال عنه جونز وهو يذكره: «لقد كان ودودًا وطيّعًا»[78]. ولمّا كان جونز يحاول حماية المحللين النفسيين في ألمانيا، وجد غورنغ لينًا بالقدر الكافي[79]. ورغم ذلك، حين رفض في عام 1935 أن يستضيف الأعضاء الهولنديين في المنظمة الجديدة للمؤتمر، كان يونغ قد تراجع عن «مبدأ» الحياد:

«لا بد لي من التأكيد على أن زملاءنا الألمان لم يقوموا بالثورة النازية، ولكن عاشوا في دولة تتطلب موقفًا سياسيًّا محددًا. وإذا اعتبرنا الارتباط مع ألمانيا الآن مدعاة للخطر لأسباب سياسية، فإننا بذلك نقع في الخطأ ذاته الذي نتهم به الآخرين: إنه ببساطة صراع السياسات»[80].

وليس لدينا دليل حول تصوّر فرويد عن أنشطة يونغ وارتباطه بالحزب النازي. فقد استمر في التحليل والكتابة طوال عام 1930، وانشغل مرة ثانية بموضوع موسى. وكان كتابه «موسى والتوحيد» بمثابة إحياء لأسطورة التوراة. فقد اعتقد فرويد بأن هناك، في الحقيقة، مُوسَيين، الأول وهو أحد النبلاء المصريين ويُعد المؤسس الحقيقي لعقيدة التوحيد، والثاني هو موسى الذي استطاع أن يتحكّم في ديانة التوحيد بفضل شعور اليهود بالذنب لأنهم ذبحوا موسى الأول، وضد قسوتهم التي ثاروا من أجلها. ففي جداله عام 1914 ضد أدلر ويونغ، ذكر فرويد توقعه بأنه في عام 1890 «سيتجاهلني العلم بشكل كامل

طوال فترة حياتي، ولكن بعد، عقود طويلة، سيتوصل شخص آخر بطريقة لا يشوبها خطأ إلى الأشياء ذاتها التي توصلت إليها - التي لم يحن أوانها بعد - وسيفرض الاعتراف بها وسيثني عليّ بوصفي رائدًا في هذا المجال الذي كان فشله محتومًا»[81].

ومع أن كتاب «موسى والتوحيد» ليس له سند تاريخي موضوعي (فرويد نفسه يعتبره مجرّد رواية) فإنه يعكس بدقة الموضوعات التي لها أهميتها بالنسبة لفرويد. فأثناء حالة الإغماء التي تعرّض لها في ميونيخ عندما كان بصحبة يونغ، كان فرويد يربط بين غموض الأساطير المصرية القديمة وبين منطقة اللاوعي غير المعروفة، وقد كان قلقًا من أن يكون خليفته المختار على صواب في ما أبدعه من أفكار وأنه نجح في أن يعززها على غرار موسى الأول. وإذ يجعل فرويد من موسى الأول مصريًا - وبالتالي حرمان اليهود من رمزهم العظيم - إلا أنه يرمي، من وراء ذلك، التعبير عن عدم ارتياحه من يهوديته بصفة لا واعية، وتحوّله إلى وثني في الخيال، مما ساعده بالتالي في أن يضمن ما أمل من يونغ أن ينجزه، أي حماية التحليل النفسي من اتهامه بأنه مجرد علم نفس يهودي؟

وقد كان لفرويد أن يتشبّه بذلك البطل الأسطوري الغريب الذي لا ينتمي إلى شعبه، رغم عدم الاستقرار، كما افترض أحد الكتّاب. فقد أحس «بالاستياء لأن عليه أن يعمل في نطاق السرية فضلًا عن عدم الاعتراف به لأنه يهودي، ولأنه فرض عليه أن يشعر بالدونية بينما كان مقتنعًا بأنه يتمتع بمواهب متميزة»[82](±). وفي تناغم مع الافتراض الذي ورد في كتاب موسى والتوحيد الذي يعود بنا إلى علاقة فرويد ويونغ، وإلى مخاوف فرويد حول مستقبل التحليل النفسي بعد وفاته، فإن جزءًا منه على علاقة وطيدة بمذهب يونغ في اللاوعي الجمعي. ففي كتاب موسى والتوحيد كما في كتاب الطوطم والتابو، اعتبر فرويد أن الإحساس بالذنب المكتسب يمكن أن يورث، وتعكس عقدة أوديب في نهاية المطاف صورة فرويد النموذجية. مع أن فرويد كتب «لا أعتقد أننا سنجني أي شيء من خلال مفهوم اللاوعي الجمعي»[84]. تجد نظرية النماذج الأصلية أساسها في نظرية فرويد عن الرمز، ويعتقد فرويد أن الرموز بمثابة إرث متطوّر. وأما يونغ فيرى أن مفهوم «الأنا الأعلى»، الذي يقول به فرويد، يرمز إلى اللاوعي الجمعي «حيث يكون الفرد واعيًا جزئيًا ولا واعيًا جزئيًا (لأنه مكبوت)»[85].

(±)في عام 1933 كتب فرويد عن نفسه قائلًا «هنا يوجد جزء من المعارضة إلى الشخص اليهودي الذي ما زال يخفي يهوديته بمكر. فقد كان سيدنا العظيم موسى، فوق كل ذلك، يعادي السامية بشدة، ولم يكن يخفي ذلك»[83].

وفي عام 1936 أعلنت جامعة هارفارد عن عزمها الاحتفال بمرور ثلاثة قرون على تأسيسها، وصار أحد خريجيها، فرانكلين روزفلت، رئيسًا للولايات المتحدة الأميركية، وتمت الترتيبات لهذا الاحتفال. وبهذه المناسبة قررت لجنة التنظيم بالإجماع منح شهادة فخرية لفرويد. ولم يخطر ببال أعضائها أنه قد يرفض ذلك. وبعد أيام قليلة أعلمهم إريك إريكسون أن حظوظ قبول فرويد الدعوة منعدمة تمامًا[86]. فرأت اللجنة أنها قد تعدل عن الأمر خشية أن يعتذر فرويد عن الدعوة بسبب شيخوخته ومرضه. وبالتالي إذا ما رفض الاقتراح قد يُنقل القرار إلى لجنة أخرى، فكان على علماء النفس أن يرشحوا أحدهم لنيل الجائزة خشية أن تذهب، مثلًا، إلى عالم اقتصاد. فوقع الاختيار على يونغ الذي حصل على الشهادة الفخرية عوضًا عن فرويد. وقد دُعي بيير جانيه أيضًا للمشاركة في هذا الاحتفال ولإلقاء محاضرة.

وأقام يونغ في منزل ستانلي كوب أخصائي طب الأعصاب المميز في جامعة هارفارد. وكانت تجمع كوب علاقات صداقة مع عديد من المحللين الذين تجمعهم علاقات طيبة مع فرويد. وعلى الطريقة الأوروبية، وضع يونغ حذاءه خارج باب الغرفة في الليل، وقد أجبر كوب على تنظيفه. وكان لكوب تأتأة مزعجة، ولا يكاد ينطق بكلمة وهو يقدم يونغ في مدرج جامعة ماساشوستس الطبية العامة، إلا وقاطعه الحاضرون بسبب تلعثمه. وفي نهاية ملاحظاته ارتكب كوب واحدة من أكثر زلات اللسان الكلاسيكية في تاريخ التحليل النفسي، حيث قال وهو يقدم يونغ: «الدكتور فرويد». وقد تساءلت التقارير الصحفية في اليوم التالي لماذا لم يُستدعَ الأستاذ شخصيًّا إن كان يونغ تلميذ فرويد؟

زار هنري موراي، وهو عالم نفس من جامعة هارفارد، فرويد في فيينا لاحقًا. ورغم تقدّمه في السن، ما زال فرويد آنذاك يعنيه اعتراف العالم، وكان أول شيء أثار حفيظته هو لماذا حصل يونغ على الشهادة الفخرية من جامعة هارفارد وليس هو. وقد أخبره موراي بما جرى أثناء التصويت وعن الأسباب التي حالت دون دعوته. وحتى أثناء احتدام الصراع بينه وبين يونغ، كان فرويد مقتنعًا بأنه على حق، إذ توقع أن من سيحظى بالشعبية والشهرة هم أولئك الذين قدّموا التحليل النفسي في صورة أكثر قبولًا من تلك التي قدَّمها هو. وفي عام 1938 حصل يونغ على الدكتوراه الفخرية من جامعة أوكسفورد.

الهوامش

1 ـ علم الطب النفسي

(1) Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, p. 146.

(2) Letter from Kurt Eissler to Anna Freud, Sept. 17, 1954 (Jones archives).

(3) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 260.

(4) Nunberg, Memoirs, p. 12.

(5) «On the History», p. 27.

(6) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 109.

(7) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 138. Cf. also Freud/Jung Letters, p. 158.

(8) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 50.

(9) Jolande Jacobi, «C. G. Jung», International Encyclopedia of the Social Science, Vol. 8 (New York: Macmillan- The Free Press; 1968), p. 328.

(10) «Screen Memories», p. 312.

(11) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 69.

(12) Quoted in C. G. Jung, Memories, Dreams, Reflections, Recorded and edited by Aniela Jaffé, translated by Richard and Clara Winston (New York: Vintage Books; 1965), p. 361.

(13) Letters of Freud and Abraham, p. 34.

(14) Ibid., p. 62.

(15) Jacobi, «C. G. Jung», p. 327; E. A. Bennet, C.G. Jung, p. 41.

(16) Wittels, Freud, p. 138.

(17) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 33. Cf. Freud/Jung Letters, pp. 196-97.

(18) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 33; quoted in Binswanger, Freud, p. 31.

(19) Letters, p. 302.

(20) Freud/Jung Letters, pp. 343, 364, 370.

(21) Martin Freud, Glory Reflected, pp. 108-09.

(22) Interview with Theodor Reik, Apr. 4, 1967. Cf. also Freeman, Insights, p. 116.

(23) Quoted in Jolande Jacobi, «Freud and Jund-Meeting and Parting», Swiss Review of World Affairs, Vol. 6, No. 5 (Aug. 1956), p. 18.

(24) Letters, p. 256. Cf. Freud/Jung Letters, p. 82.

(25) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 112.

(26) Quoted in Carl and Sylvia Grossman, The Wild Analyst, p. 102; Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 46.

(27) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 399.

(28) Bennet, C. G. Jung, p. 41.

(29) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 65.

(30) Quoted in ibid., p. 140.

(31) Sachs, Freud, p. 92.

(32) «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 9, p. 4; Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 341.

(33) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 86.

(34) Freud/Jung Letters, pp. 207, 289.

(35) Ibid., pp. 467, 452.

(36) Ibid., p. 292.

2 ـ العالم الخفي

(1) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 391.

(2) «Dreams and Telepathy», p. 178.

(3) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 394-95.

(4) Jones, Free Associations, p. 165.

(5) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 138.

(6) Letters of Freud and Abraham, p. 46

(7) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 166-67.

(8) Interview with Edoardo Weiss, May 13, 1965.

(9) Minutes, Vol. II, P. 422.

(10) Ibid.

(11) Cf. for example, Helene Deutsch, «Occult Process Occurring During Psychoanalysis», in Psychoanalysis and the Occult, ed. Georges Devereux (New York: International Universities Press; 1953), pp. 133-46; and Edward Hitschmann, «Telepathy and Psychoanalysis», in Heirs to Freud, ed. Hendrik M. Ruitenbeek (New York: Grove Press; 1966), pp. 101-20.

(12) «New Introductory Lectures», p. 33.

(13) Ibid., p. 34.

(14) «Dreams and Telepathy», p. 204.

(15) «The Psychogenesis of a case of Homosexuality in a Woman», Standard Edition, Vol. 18, p. 165.

(16) «Shorter Writings», Standard Edition, Vol. 23, p. 300.

(17) «A Special Type of Object Choice Made by Men», Standard Edition, Vol. 11, p. 165.

(18) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 254.

(19) Ibid., p. 257.

(20) «Remarks on the Theory and Practice of Dream Interpretation» Standard Edition, Vol. 19, p. 112.

(21) «New Introductory Lectures», p. 159.

(22) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», 108.

(23) «Beyond the Pleasure Principle», p. 59.

(24) Robert, The Psychoanalytic Revolution, pp. 63-64.

(25) «The Psychopathology of Everyday Life», pp. 261-62.

(26) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 65.

(27) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 59.

(28) «Review of August Forel's Hypnotism», p. 91.

(29) «New Introductory Lectures», p. 37; cf. also «Dreams and Telepathy», p. 208.

(30) «Dreams and Telepathy», pp. 218-19.

(31) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 21; Letters, pp. 339-40.

(32) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 250.

(33) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 184.

(34) «The 'Uncanny'», p. 235.

(35) Ibid.

(36) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 13-14.

(37) «The 'Uncanny'», p. 219.

(38) Ibid., pp. 219-20.

(39) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 391.

(40) «The 'Uncanny'», pp. 247, 220.

(41) Ibid., p. 243. Cf. Roazen, Brother Animal, pp. 77-78.

(42) Andreas-Salomé, The Freud Journal, p. 169.

(43) «Psychoanalysis and Telepathy», Standard Edition, Vol. 18, p. 181.

(44) «New Introductory Lectures», p. 54.

(45) Ibid., p. 54. Cf. also ibid., p. 47.

(46) Ibid., p. 43.

(47) Quoted in Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 69.

(48) «Notes upon a case of Obsessional Neurosis», p. 233.

(49) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 260.

(50) Ibid.

(51) Ibid., p. 261.

(52) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 392.

3 ـ أوديب

(1) «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, p. 483.

(2) Interview with Edoardo Weiss, June 26, 1966.

(3) Letters, p. 296.

(4) Wittels, Freud, p. 176.

(5) Carl G. Jung, Freud and Psychoanalysis, collected Works, Vol. IV, ed. Herbert Read, Michael Fordham, and Gerhard Adler, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1961), pp. 284-85.

(6) «On The History», p. 43.

(7) Jones, Free Associations, p. 205.

(8) Ibid., p. 206.

(9) Binswanger, Freud, p. 9.

(10) «An Autobiographical Study», p. 53. Cf. also Freud/Jung Letters, pp. 42, 301, 400.

(11) Binswanger, Freud, p. 2.

(12) Freud/Jung Letters, p. 457.

(13) Ibid., p. 95.

(14) Ibid., p. 98.

(15) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 44; Cf. also ibid., Vol. II, P. 55.

(16) Jung, Memories, Dreams, Reflections, p. 158. Cf. Freud/Jung Letters, p. 526.

(17) Bilinsky, «Jung and Freud», p. 42.

(18) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 386.

(19) Jung, Memories, Dreams, Reflections, p. 156; cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 146; Letter from Lester Bernstein to Ernest Jones, Nov. 26, 1954 (Jones archives).

(20) Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 317.

(21) Ibid., Vol. II, P. 47, In 1905 Jung had published an article on «cryptomnesia». Cf. also Freud/Jung Letters, p. 149.

(22) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 48.

(23) Ibid., p. 312.

(24) Karl Abraham, Clinical Papers and Essays in Psychoanalysis (London: Hogarth; 1955), pp. 273, 265.

(25) Jung, Memories, Dreams, Reflections, p. 157.

(26) Ibid.

(27) Letter from Lester Bernstein to Ernst Jones (Jones archives).

(28) Interview with Albert Hirst, Jan. 21, 1966. Cf. Schur, Freud, pp. 80-82.

(29) Schur, «Some Additional 'Day Residues' of 'The Specimen Dream of Psychoanalysis'», pp. 55, 77.

(30) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. I, P. 317.

(31) Jones, Free, Associations, p. 222.

(32) Quoted in Schur, Freud, p. 266.

(33) Quoted in Binswanger, Freud, pp. 48-49.

(34) Quoted in Ibid., p. 49.

(35) «Dostoevsky and Parricide», pp. 182- 83.

(36) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 145. Cf. also Jones, Free Associations, p. 221.

(37) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 65.

(38) Puner, Freud, p. 239.

(39) «Beyond the pleasure principle», p. 42.

(40) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 289.

(41) «On the History», p. 61.

(42) Ibid., p. 37.

(43) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 436.

(44) Freud/Jung Letters, pp. 436, 515.

(45) «On the History», p. 58.

(46) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 15.

(47) Quoted in ibid., Vol. II, P. 148.

(48) «On the History», p. 15.

(49) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 124.

4 ـ الأب الأول

(1) A. A. Brill, «A Psychoanalyst Scans His Past», The Journal of Nervous and Mental Disease, Vol. 95, No. 5 (May 1942), p. 547.

(2) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 208.

(3) Ibid., pp. 118-22.

(4) Freud/Jung Letters, pp. 505-06.

(5) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 107.
(6) Ibid., pp. 164-65.
(7) Ibid., p. 132.
(8) Ibid., p. 166.
(9) Ibid., pp. 180, 197.
(10) Ibid., p. 202.
(11) Ibid., p. 128.
(12) Freud/Jung Letters, p. 25.
(13) Schur, Freud, pp. 167, 170.
(14) Quoted in Jacobi, «Freud and Jung», p. 19. Cf. Freud/Jung Letters, p. 515.
(15) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 698.
(16) Freud/Jung Letters, p. 516.
(17) Ibid., p. 521.
(18) Ibid., pp. 523-24.
(19) Ibid., pp. 525-27.
(20) Ibid., pp. 529-30.
(21) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. I, p. 317.
(22) Freud/Jung Letters, p. 533.
(23) Ibid., p. 529.
(24) Ibid., pp. 534-35, 538-39.
(25) Binswanger, Freud, p. 53.
(26) Quoted in Ibid.
(27) Letters of Freud and Abraham, p. 137.
(28) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P.353.
(29) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 263.
(30) Freud/Jung Letters, p. 459.
(31) Ibid., p. 447.
(32) Ibid., p. 152. Cf. also ibid., pp. 157, 414.
(33) Ibid., p. 460.
(34) Cf. Roazen, Freud: Political and Social Thought, Ch. 3.
(35) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 360; quoted in ibid., Vol. III, P. 329.
(36) Letter from Geoffrey Gorer to Ernest Jones, Dec. 14, 1955 (Jones archives).
(37) Wittels, Freud, p. 168.

(38) «An Autobiographical Study», p. 66.

(39) «Two Encyclopedia Articles», p. 253.

(40) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 97; «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 225; Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 308.

(41) Letters of Freud and Abraham, p. 141.

(42) Ibid., p. 142.

(43) Letters of Freud and Pfister, p. 107.

(44) Edward Hitschmann, «Freud in Life and Death», American Imago, Vol. 2, No.2 (July 1941), p. 127.

(45) Quoted in Hale, ed. James Jackson Putnam and Psychoanalysis, pp. 189-90.

(46) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, June 16, 1954 (Jones archives).

(47) «On the History», p. 45.

(48) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 102.

(49) Jones, Free Associations, p. 224.

(50) Jung, Psychological Types, Collected Works, Vol. VI, a revision by R. F. C. Hull of the translation by H. G. Baynes (Princeton: Princeton University Press; 1971), p. 509.

(51) Letters of Freud and Abraham, p. 151.

(52) Jung, Freud and Psychoanalysis, pp. 246-47.

(53) Quoted in hale, ed. James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 200.

(54) Freud/Jung Letters, p. 553.

(55) Quoted in Hale, ed. James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 176.

(56) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 243.

(57) «On the History», p. 60.

(58) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 165; «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 298.

(59) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 72.

(60) «On the History», p. 60.

(61) Franz Alexander and Sheldon Selesnick, «Freud-Bleuler Correspondence», Archives of General Psychiatry, Vol. 12 (Jan. 1965), pp. 1-9. Cf. Freud/Jung Letters, pp. 329, 352.

(62) Binswanger, Freud, p. 55.

(63) Quoted in ibid.

(64) «On the History», p. 7.

5 ـ علم النفس التحليلي

(1) Edward Glover, Freud or Jung? (New York: Meridian Books; 1957), pp. 33, 45.

(2) «On the History», p. 60.

(3) «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 9, p. 100.

(4) Andreas-Salomé, The Freud Journal, pp. 38-39.

(5) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 113.

(6) Lewis Way, Adler's Place in Psychology (New York: Collier; 1962), p. 291.

(7) Jung, Psychological Types, p. 431.

(8) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 423.

(9) Ibid., Vol. III, P. 306.

(10) Cf. Anthony Storr, The Dynamics of Creation (New York: Atheneum; 1972), pp. 9-12, 172.

(11) Jung, The Practice of Psychotherapy, Collected Works, Vol. XVI, translated by R. F. C. Hull (2nd ed.; New York; Pantheon; 1966), p. 156.

(12) «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 14, p. 70.

(13) Interview with Albert Hirst.

(14) Jung, The Spirit in Man, Art and Literature, Collected Works, Vol. XV, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1966), p. 48.

(15) Jung, Civilization in Transition, Collected Works, Vol. X, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1964), p. 170.

(16) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 152.

(17) Ernst Kris, Psychoanalytic Explorations in Art (New York: International Universities Press; 1952).

(18) «Creative Writers and Day-Dreaming», p. 146.

(19) Jung, The Practice of Psychotherapy, pp. 45-46.

(20) Ibid., p. 123.

(21) Ibid., p. 153.

(22) «Two Encyclopedia Articles», p. 241.

(23) Jung, The Development of Personality, Collected Works, Vol. XVII, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1954), p. 110.

(24) Jung, The Structure and Dynamics of the Psyche, Collected Works, Vol. VIII, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1960), p. 251.

(25) Jung, Memories, Dreams, Reflections, pp. 161-62.

(26) Jung, The Development of Personality, p. 88.

(27) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 147.

(28) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 237.

(29) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 15. Cf. Anthony Storr, C. G. Jung (New York: Viking; 1973), pp. 44-45.

(30) «Remarks on the Theory and Practice of Dream-Interpretation», pp. 120-21.

(31) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 664.

(32) Storr, Jung, p. 48.

(33) Jung, Psychology and Religion: West and East, collected Works, Vol. XI, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1959), p. 351.

(34) Jung, Freud and Psychoanalysis, pp. 147, 264.

(35) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 83.

(36) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 268.

(37) Sheldon T. Selesnick, «Carl G. Jung», in Psychoanalytic Pioneers, p. 76.

(38) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 269.

(39) «Psychoanalytic Notes on an Autobiographical Account», p. 82.

(40) «On The History», p. 63.

(41) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 686.

(42) Ibid., p. 711.

(43) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 124.

(44) Storr, Jung, p. 41.

(45) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 100.

(46) Psychology and The Analysis of the Ego», pp. 74-75.

(47) Ibid., p. 74.

(48) Weigert, «Dissent in the Early History of Psychoanalysis», p. 356.

(49) Jung, Two Essays on Analytical Psychology, translated by R. F. C. Hull (New York: Meridian Books; 1956), p. 313.

(50) Donald W. Winnicott, The Maturational Process and the Facilitating Environment (London: Hogarth; 1965), pp. 34, 142.

(51) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 719.

(52) Jung, Freud and Psychoanalysis, pp. 198-99.

(53) «Recommendations to Physicians Practising Psychoanalysis», p. 116.

(54) Nunberg, Memoirs, p. 35.

(55) Jung, the practice of psychotherapy, p. 88.

(56) Jung, Civilization in Transition, pp. 159-60.

(57) Freud/Jung Letters, p. 476.

(58) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 5.

(59) Clara Thompson, Psychoanalysis: Evolution and Development (New York: Grove Press; 1950), p. 15.

(60) Jung, The practice of Psychotherapy, p. 8.

(61) Ibid., p. 10; Storr, The Dynamics of Creation, p. 230.

(62) Jung, Civilization in Transition, p. 164.

(63) Jung, the Practice of Psychotherapy, p. 9.

(64) Ibid., p. 133.

(65) Ibid., p. 138.

(66) «on The History», p. 63.

(67) Freud/Jung Letters, p. 548.

(68) «On the History», p. 66.

(69) Ibid., p. 62.

(70) Glover, Freud or Jung?, p. 141.

(71) Jung, Letters, Vol. I, selected and edited by Gerhard Adler in collaboration with Aniela Jaffé, translated by R. F. C Hull (Princeton: Princeton Universities Press; 1972), p. 196.

(72) Ibid., pp. 83-84.

(73) Jung, The practice of Psychotherapy, p. 20.

(74) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 278.

(75) Jung, The practice of Psychotherapy, p. 27.

(76) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 681.

(77) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 139. On Otto Gross, cf. Arthur Mitzman, The Iron Cage: An Historical Interpretation of Max Webèr (New York: Knopf; 1970), pp. 280-82.

(78) Glover, Freud or Jung?, p. 124.

(79) «On The History», p. 10.

(80) «New Introductory Lectures», p. 143.

(81) Interview with Irmarita Putnam.

(82) Jung, Psychological Types, p. 431.

(83) Jung, The Practice of psychotherapy, p. 24.

6 ـ فيما بعد

(1) Jung, Letters, Vol. 1, p. 302.

(2) «On the History», p. 39.

(3) For example, cf. «Leonardo da Vinci», p. 79.

(4) Wittels, Freud, p. 233.

(5) «A short Account of Psychoanalysis», p. 202.

(6) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 53.

(7) «on the History», p. 49.

(8) «The Themes of three Caskets», Standard Edition, Vol. 12, pp. 300-01.

(9) «Beyond the pleasure principle», p. 22.

(10) «on the History», pp. 48-49.

(11) Ibid., p. 27.

(12) Kurt Eissler, «Mankind at Its Best», Journal of the American psychoanalytic Association, Vol, 12, No. 1 (Jan. 1964), p. 212.

(13) «An Autobiographical Study», p. 74.

(14) «On the History», p. 66.

(15) «A Case of Paranoia Running Counter to the Psychoanalytic theory of the Disease», p. 272.

(16) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 49.

(17) Ibid., p. 103.

(18) Jung, Symbols of Transformation, collected Works, Vol. V, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1956), p. 328. Cf. also Jung, Letters, Vol. I, p. 73.

(19) «Beyond The pleasure principle», p. 55.

(20) «On the History», p. 60.

(21) Ibid.

(22) Jung, The practice of psychotherapy, p. 4.

(23) «on the History», p. 60.

(24) Ibid.

(25) Ibid.; «Introductory Lectures», Vol. 15, pp. 207-08; «A short Account of psychoanalysis», p. 202.

(26) «On the History», p. 50.

(27) Ibid., p. 19.

(28) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 244.

(29) «On the history», p. 65.

(30) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 9.

(31) «An Autobiographical Study», pp. 52-53.

(32) «On The History», p. 62.

(33) «Two Encyclopaedia Articles», p. 248.

(34) «The Question of Lay Analysis», p. 208.

(35) «On the History», p. 58.

(36) «An Autobiographical Study», p. 52.

(37) «A Short Account of Psychoanalysis», p. 202.

(38) «New Introductory Lectures», p. 144.

(39) «Psychoanalysis», p. 270.

(40) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 732.

(41) «The Moses of Michelangelo», Standard Edition, Vol. 13, p. 213.

(42) Ibid., p. 216

(43) Ibid., p. 221.

(44) Ibid., p. 229.

(45) Ibid., p. 230.

(46) Ibid., p. 233.

(47) Ibid., pp. 233-34.

(48) «On the History», p. 43.

(49) Ibid., p. 50.

(50) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 254. Cf. also Freud/Jung Letters, p. 372.

(51) Letters, p. 296.

(52) Interview with Abram kardiner, Apr. 1, 1967.

(53) Punter, Freud, p. 181. Cf. also Roy Grinker, «Reminiscences of a Personal Contact with Freud», p. 852.

(54) Jung, Letters, Vol. I, P. 122.

(55) Freud/Jung Letters, pp. 137, 139, 144.

(56) Jung, The Practice of Psychotherapy, p. 123.

(57) Cf., for example, Jung, Freud and Psychoanalysis, pp. 306, 317, 320.

(58) Jean-Paul Sartre, «Paul Nizan», in situations (New York: Fawcett; 1969), p. 119.

(59) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 673.

(60) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 9.

(61) Jung, The Structure and Dynamics of the Psyche, p. 50.

(62) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 337; The Practice of Psychotherapy, p. 30.

(63) Jung, Freud adnd Psychoanalysis, p. 334.

(64) Jung, the Development of personality, p. 67.

(65) Jung, The Spirit in Man, Art and Literature, p. 36.

(66) Storr, Jung, p. 10.

(67) «On the History», p. 43.

(68) Quoted in Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 189. This passage had previously been omitted from the rest of the letter. CF Letters, p. 308.

(69) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 678.

(70) Jung, Freud and Psychoanalysis, p. 335.

(71) Jung, Civilization in Transition, pp. 165-66.

(72) Quoted in Ernest Harms, «Carl Gustav Jung- Defender of Freud and the Jews», The Psychiatric Quarterly, Vol. 20 (1946), pp. 228-29.

(73) Jung, Civilization in Transition, pp. 192, 185.

(74) Jung, Psychology and Religion: West and East, p. 481.

(75) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 186.

(76) Jung, Civilization in Transition, pp. 535-44.

(77) Letter from Jung to Parelhoff, Dec. 17, 1951.

(78) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 187.

(79) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, July 20, 1936 (Jones archives).

(80) Jung, Letters, Vol. I, P. 205. Cf. also pp. 152-53.

(81) «On The History», p. 22. Cf. also letter quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 400.

(82) Puner, Freud, p. 61.

(83) Quoted in Schur, Freud, p. 468.

(84) «Moses and Monotheism», Standard Edition, Vol. 23, p. 132.

(85) Jung, The Archetypes and the collective Unconscious, collected Works, Vol. IX, part 1, translated by R. F. C. Hull (New York: Pantheon; 1959), p. 3.

(86) Letter from Henry Murray to the author, Sept. 1972.

الفصل السابع

حركة سمتها الإخلاص

1 - الأتباع الأكثر خبرة والأكبر سنًا

إن كان فرويد يُفضّل ألا يُقحم نفسه في مناقشة مع أيّ من تلاميذه، فقد استفزت العديد من المناقشات (البعض منها شرعي والآخر دون ذلك) دافعيته، فهو يعرف عادة الكثير عن حياتهم الخاصة وعن المشاكلِ الشخصية التي تعيق عملهم مع الأب البديل. وقد ظل فرويد يجمع تلامذة جدًا باطّراد وبشكل خفيّ، وإذا ما استبعد أحدهم، فإنه على يقين بأنه سيستبدلونه بغيره. وفي كتاباته في عام 1914 عن الحلقة التي بدأ أعضاؤها يتزايدون من حوله علّق فرويد قائلًا: «في المجمل تبيّن لي أنه من الصعب عليّ أن أكون أدنى في الثروة وتنوع المواهب من أيّ طاقم إكلينيكي من الأساتذة أو ممن يعتقد في هذا»[1]. وفي دفاعه عن نفسه في عام 1924 ضد اتهامه بالتعصب، نبّه فرويد إلى كثرة التلاميذ الموهوبين الذين لم ينفصلوا عنه:

> «لقد كان للانفصال عن أحد التلاميذ القدامى أثرًا عكسيًّا بالنسبة لي حيث كنت اعتبره بمثابة علامة على تعصبي، أو دليلًا على أن مصيبة ما حلّت بي. إنها إجابة كافية لاستنتاج أن مقارنة أولئك الذين هجروني مثل يونغ وأدلر وستيكل، بالإضافة إلى آخرين، فقد تعاون معي عدد هائل من الأشخاص مثل أبراهام، ايتنغون، فرينشيزي، رانك، جونز، بريل، ساكس، بفيستر، فان ايمدن، ورايك وغيرهم، لمدّة تناهز الخمسة عشر عامًا بإخلاص ولم تنقطع صداقتنا في معظم الأحيان. وقد اكتفيت بذكر تلاميذي الأكبر سنًّا الذين تميّزوا في أدبيات التحليل النفسي، وإذا لم أذكر غيرهم، فلا يعني ذلك أني أتجاهلهم، وفي الواقع من بين صغار السن الذين التحقوا بي مؤخرًا يوجد موهوبون عظام يمكن لنا أن نعقد عليهم آمالًا عريضة. ولكن اعتقد أنه بإمكاني القول في دفاعي أن ذلك الشخص المتعصّب الذي يتوهّم أنه لا يخطئ،

لا يمكن أبدًا أن يكون قادرًا على أن يحافظ على تميّزه بين عدد كبير من الأشخاص البارزين فكريًّا، لا سيما إذا كان أمره محل تجاذبات كتلك التي يثيرها أمري هذا»[2].

وبحلول عام 1924، أصبح علم التحليل النفسي طريقة ناجحة لتطوير أسلوب للعيش، ومن السهل غض الطرف عن العوامل الاقتصادية في تاريخ التحليل النفسي. فمعظم الذين تدرّبوا في بدايتهم على يد فرويد كمحللين لم يحققوا نجاحًا كبيرًا في مجالاتهم السابقة. فتغيير مجال العمل يُعبّر عن عدم الرضا وشك في الذات، ويتطلب الانضمام إلى حركة جديدة مستقبلها غير مؤكد شجاعة لما ينطوي عليه من مجازفة. فحتى عام 1924 كانت خلفية التحليل النفسي بمثابة مهلكة في الطب النفسي الأكاديمي في كل مكان تقريبًا.

إنّ لعدم الاستقرار في المسيرة المهنية جوانب أقلّ التزامًا وأكثر مادية. ولما وُضع بيضهم كافة في سلة جديدة بنجاح، ومع ذيوع صيت فرويد عالميًّا في عام 1924، أفرط المحلّلون الأوائل في ثقتهم بأنفسهم، مقابل (وربما في التعويض عن ذلك) خيبات أملهم السابقة. وقد يكون دفاع المحلّلين عن فرويد هو في ذات الوقت دفاع عن طرق عيشهم، وفي عام 1924 تعهد المحللون بالدفاع عن مصالحهم، وقد أضرّ اقتفاء أثر يونغ، وأدلر، وستيكل في تمردهم بالكثير منهم لأنهم كانوا يحيلون المرضى على فرويد نفسه أو على أتباعه المنتشرين في العالم الغربي. ورغم أن التحليل النفسي اعتبر في بداياته مهنة لا تخلو من مجازفة ومخاطرة، فقد بدأ يشق طريقه بثبات نسبيًّا. وأما اليوم، وهنا عين المفارقة، لو كان هناك خمسون من الزملاء في مدينة لكان دخل المحلّل النفسي مضمونًا أكثر مما لو كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

وفي عشرينيات القرن العشرين، لم تحرز حلقة فرويد فقط نجاحًا مكينًا، وإنما أيضًا أمانًا نسبيًّا وقد توقفت السجالات الأيديولوجية الكبيرة في سنوات ما قبل الحرب، ورغم بعض القلاقل التي كانت تحدث حتى وفاة فرويد في عام 1939، فلم تحدث خصومات جديدة من أي نوع كان كما في «محاكمة» أدلر مثلًا. لقد هيمن فرويد تمامًا على المشهد في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، ثم ظل على رأس تلك الخلافات في معظمها لاحقًا، وقد سمع أحد تلاميذ فرويد الموهوبين، وهو فرانز ألكسندر، من أحد المحلّلين النفسيين القدامى في فيينا، أن فرويد أشار في إحدى المناسبات إلى عضو صغير السنّ من مجموعة فيينا قائلًا: «لا يمكن لي أن أتمنى أو أن أكون في موقف قاتل الأب في عينيه»[3]. ففي أيام ألكسندر كان فرويد شخصًا طاعنًا في السن مبجّلًا، فوق كل الشبهات.

في حين أنه في حالة يونغ، على سبيل المثال، شجّع فرويد هذا المؤيد المتلهف اللامع

وسعى إليه، وما زال تلاميذه يتوددون إليه حتى الآن، فهم لم يشاركوا في حركته الفكرية لأسباب علمية بحتة، لقد أجلوه مثل الملك، وقد كان محاطًا بحاشية أعضاؤها يؤيدونها في أيّ شيء، ويذكر إريك إريكسون عن أحد أتباع المهاتما غاندي قوله: «لن يكون لي حماس غاندي لتحقيق ما حققه من نجاح. ولكن يكفيني أن أكون مثل ظلّه...»[4]. وقد كان لكثير من أتباع فرويد الشعور ذاته تجاه أستاذهم في ذلك تذكر هيلين دويتش قائلة:

«كل هذا خلق الجو ذاته حول الأستاذ، جو السلطة المطلقة التي لا تخطئ. ففرويد لم يكن يخطئ أبدًا في دوره ذاك في تقديرهم. فقد أضحوا، كما أشيع، مجرد «أشخاص مطيعين»، وفي المقابل لم يبدِ فرويد أية عاطفة حب ناحية «الأشخاص المطيعين»، وبالتالي يحدث ألا يكون الأتباع الأكثر إخلاصًا وثقة هم الذين يحوزون عطف فرويد»[5].

ساعد فرويد، من الناحية الواقعية، تلاميذه في عملهم بمجرد وجوده بينهم، وأي كاتب يحتاج إلى مستمعين، وذلك ما كان لفرويد، فقد كتبوا عنه جميعهم. وفي الوقت ذاته، فقد أرهبت رفعة مكانة فرويد بعضًا من تلاميذه حتى أنهم أحسوا «بالأسى» إزاء ردّة فعل فرويد بشأن تقديمهم لبحوث لم يعدّوها للنشر[6].

تميّزت العلاقات داخل حلقة فرويد بالمتانة، ولقد كان البعض من تلاميذه على قدر عال من الذكاء ولم يكونوا أكثر انصياعًا من غيرهم. لماذا كانوا سلبيين تجاه فرويد إذن؟ إنهم كانوا كذلك لأن تفانيهم في التحليل النفسي عززته مخاوفهم من العزل الكنسي. وكان فرويد يحب أن يهمين وأن يكون هو الأستاذ وكان تلاميذه يخشون أن يُقصون من جماعته.

ومهما كان فرويد يرى الثورات والتمرد من خلال منظوره الخاص فإن تلاميذه نظروا إلى هذا الموقف من جانب آخر. فبالنسبة لهم يكمن الخطر (والإغراء) في أن تتحدى وتعدّل. وما يثير القلق هو «أن تنعزل وتصبح مرفوضًا بسبب تبني أفكار ومشاعر لا يشاركك فيها أي شخص»[7] تكون كافية لتحث على التوافق. ففي أي فترة ما قد يتسنى للتلاميذ الأرثوذوكسيين (المتشددين) التحقق مما إذا كان أعضاء هذه الحلقة قد وقعوا في الأخطاء ذاتها التي وقع فيها المنبوذون الأوائل. فإذا أردت أن تُنبذ، يكفي أن تجازف بأن تنسحب أو أن تُطرد من الحركة، وبالتالي مصادرة مكانتك في التاريخ (وهذه مخاطرة حقيقية، لأنه إذا ما أقدم أحدهم على ذلك اعتبر هرطقة لا يُعتد بها). ومثلهم في ذلك مثل الماركسيين الأوائل، اعتقد أتباع فرويد أن المستقبل سينصفهم.

زعم فرويد أنه يكره أن يترك انطباعًا بأنّ المحللين كانوا «أعضاء بجمعية سرية ويمارسون العلوم الصوفية»[8]. ولكنهم كانوا جيشه في المسيرة الذي يربك أيّ «حل وسط» قد يضعف القضية. «أحب ألا أتنازل وألا أضعف. ليس للمرء أن يقول إلى أين يمكن أن يقوده طريقه البتة، إنه يُعبّر عن الطريقة أولًا في كلمات، ثم شيئًا فشيئًا يُجسّدها... وهو الذي يعلم أهمية عدم التنازل»[9]. جمع فرويد أتباعه من خلال روح المنافسة التي حثهم عليها، وكما جاء في رسالة كتبها إلى أحد التلاميذ عام 1927:

«هناك طريقة لتمثل قضية ما وفي التعامل مع الجمهور بطريقة جافة وباردة إلى حد الاعتقاد بأن الشخص لم يفعل ذلك لإسعادهم. ينبغي أن يكون المبدأ دائمًا ألا نقدم تنازلات لصالح أولئك الذين لا يقدمون شيئًا، وإنما لأولئك الذين يحصلون على كل شيء منّا. علينا أن ننتظر إلى أن يتوسّلوا منا ذلك وإن استغرق ذلك طويلًا»[10].

وهكذا قد تكون عجرفة أتباع فرويد التي لا تصدق غيرة على التحليل النفسي لا دفاعًا عن مصلحتهم.

اتّخذ البروفيسور خطوات عملية كثيرة لكي يجمع فريقه معًا، وقد اتخذت بعض صوره كبطاقة عضويّة وهو ما اعتبره فرويد عربون ترحيب وامتنان. فأن يكتب فرويد مقدمة لكتاب لأحد تلاميذه فذلك علامة على الاعتراف به. ووصف فرويد ذات مرة كيف كانت تلك المجموعة مترابطة في ما بينها من خلال «وهم الزعامة، بحيث يحبّ الزعيم كل عضو من أعضاء هذه المجموعة بشكل متساو»[11]. وكان الرابط الذي يربط كل الأعضاء بفرويد هو ذاته مصدر ترابطهم في ما بينهم. وأمّا في ما يتعلق بعلاقته بالتلاميذ المتمردين، فقد منحهم فرويد عطفه وإخلاصه مما ساهم في استمرار صداقته لهم على حساب كراهيته لهم. كما كانت أيضًا مصدر لا يُستهان به لسيطرته على أتباعه، فكلما شعروا باضطراب (هم أو أي شخص كانوا يعتنون به)، لجأوا إليه بوصفه طبيبًا معالجًا.

قد يهزأ أكثر أتباع فرويد حماسة بشكل خاص من الآخرين الذين يكتفون بالاعتقاد بأن فرويد قد أعطى لحياتهم معنى. لقد هجر المحللون الأوائل أسرهم الخاصة فقط من أجل الاستقرار في محيط ضيّق شبيه بالأسرة. «فقد كانوا مفكرين ينتمون إلى الحاضرة ولهم شوق عميق لمثل أعلى، ولزعيم ولحركة، ودون أن يكون لهم مثل أعلى ديني أو فلسفي أو سياسي ودون أن تكون لهم قناعات...»[12]. وتظل الدعوة إلى الإيمان والتضحية بالنسبة للبعض مقبولة.

جاء على لسان هيلين دويتش، وهي أكثر أتباع فرويد إخلاصًا: «أن تلاميذه أرقى من السامعين عديمي الفهم السلبيين، لقد كان يسقط الموضوعات من خلال مراجعة أفكاره الخاصة أحيانًا إما عبر تصحيحها أو التراجع عنها»[13]. وفي عشرينيات القرن العشرين سُرّ فرويد بمقالة روبرت وايلدر التي نسق فيها بعض المفاهيم الأساسية دون افتراض صيغ جديدة. وقد أشاد فرويد بذلك بقوله: «أشعر وكأنّ رسامًا جسّد صورتي في لوحة، كلما أنظر إليها، أشعر أنها أفضل من الأصل» وقد كان ذلك أقصى إطراء فرويدي ممكن، وكان يرغب في أن يستعيد أفكاره الخاصة دون أن يضيف إليها أي شيء يثير القلق. ولقد انخرط أبناء فرويد وبناته المثاليين (لقد حباهم وخصَّهم من بين كثير من الأشخاص بصفة «الأبناء») في ضمان خلوده العلمي. وتفرض جودة وعمومية أفكاره أن على أيّ من أتباعه أن يُغيّر في معتقداته من أجل توظيفها في عالم فرويد. ولم يكن أيّ واحد من مؤيديه ناضجًا وألمعيًّا بشكل خاص، ومن ثم يمكن لأي منهم، مهما يكن متواضعًا، أن يساعد فرويد على استعادة أفكاره بعد أن يقع تطويرها بشكل مختلف قليلًا، أو عن طريق دفع ممارسة التحليل النفسي ذاته إلى الأمام.

ليس من الواضح تقدير مدى فساد هذه المداهنة، سواء بالنسبة لفرويد نفسه أو لتلاميذه(*)، ومع أنهم ربما شجعوا إحساسه بالفخامة عن غير قصد، إلا أنه حافظ على مسافة بينه وبينهم رغم حاجته إليهم. «لقد كان كل من حول فرويد يطمح إلى أن ينال حبّه، ولكن همَّه تعلق أساسًا بإنجازاته الفكرية أكثر من الأشخاص المحيطين به، ولما كان مكتشفًا ورائدًا ملهمًا، فقد كان يعتقد بأنّ مساعديه ليسوا إلا مطيّة لتحقيق ما حقّقه من إنجازات موضوعية وغير شخصيّة»[14]. اعتبر فرويد تلاميذه الشباب في طوره الأخير بمثابة «مستعمرين» حلّوا مقام «الروّاد» من الرعيل الأول[15]. ولاستخدام صورة أخرى من صور فرويد، كان كل شخص قادرًا على إضافة «دعامات» إلى صرح التحليل النفسي.

توقّع فرويد إخلاصًا هائلًا من أتباعه وأشياعه. فليس صدفة أن المثالين اللذين ناقشهما في دراسته له حول سيكولوجية الجماعة، «الكنائس - جماعات المؤمنين - والجيوش»[16]. فلقد اعتقد فرويد أنه «لو تسنى لشخص فهم النزر اليسير من التحليل النفسي لتمكّن من فهمه برمته بشكل سريع»[17].

(*) على سبيل المثال لم يدرك فرويد أبدًا حجم تأثيره على أتباعه، وعليه ربما اعتقد أن استنتاجاته قد أكّدها أصلًا مراقبون مستقلون.

«تشترط عملية التحليل النفسي طبيبًا متمكنًا وإما فلا، فهؤلاء الأطباء النفسيين الذين استفادوا من طريقة التحليل النفسي من بين طرق أخرى، لا يستندون أحيانًا حسب معرفتي على أساس تحليلي متين، فهم إن لم يقبلوا التحليل النفسي برمّته، فقد أساءوا إليه، لذلك لا يمكن اعتبارهم كمحلّلين»[18].

لقد ميّز بشكل دقيق بين من أصابوا وبين من أساءوا التقدير، وإن من بينهم محلّلين متفرغين طوال الوقت حتى وإن كانت وجهة نظره أن «التعاون في مجال الممارسة الطبية بين المحلل النفسي والطبيب النفسي الذي يقتصر على التقنيات الأخرى سيخدم غاية مفيدة»[19]. لقد استحوذ فرويد على منتسبي فريقه تمامًا حتى اعتبر ذلك في فيينا، على سبيل المثال، تدخّلًا في تدريب المترشّح على ممارسة العلاج النفسي مع التحليل التقليدي.

لقد تألّفت الجماعات التحليلية المتنوعة من أكثر الأشخاص قناعة بالتحليل النفسي وتحمسًا له. وعلى المستوى التطبيقي لم تكن تقنياتهم المميّزة مألوفة إلا بالنسبة إليهم، وكانوا يتبادلون ضمن حلقتهم التعليقات بشأن تجاربهم العلاجية بثقة كما كانوا يتبادلون النصائح العملية. وقد حذرهم فرويد من «الانتقائيين» الذين لا يؤيدون أعمالهم بشكل كامل، «فعددهم يناهز نصف أو ربع الأشياع» ومع أنهم كانوا معذورين، يقينًا، إذ كرّسوا وقتهم واهتمامهم لأشياء أخرى...»[20]. أما الدخلاء فهم بمرتبة غير المؤمنين دينيًّا، وفي ذلك كتب فرويد يقول: «يظل الدين، حتى لو أطلق على نفسه دين الحب، صعبًا وغير محبوب بالنسبة لأولئك الذين لا ينتمون إليه. وكل دين هو بهذا المعنى، في الواقع، دين حب بالنسبة لمعتنقيه، بينما يكون التعصّب كما القسوة تجاه الذين لا ينتمون له أمرًا طبيعيًّا بالنسبة لكل دين».

ولقد توقع دائمًا أن الروابط الأخرى، مثل الروابط السياسية، يمكن أن تقوم مقام الروابط الدينية و«من ثم هي بدورها يمكن لها أن تمارس التعصب ذاته تجاه الذين لا ينتسبون إليها على غرار ما كان عليه الوضع إبان الحروب الدّينية، ولو استطاعت الاختلافات بين وجهات النظر العلمية أن تكون على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة للمجموعات، لانتهينا إلى النتيجة ذاتها مع هذه الحماسة الجديدة»[21].

اتّخذ فرويد موقفًا علنيًّا جريئًا من التمرّدات العلمية التي صدّعت التحليل النفسي، فلقد كان واضحًا في حلقة فرويد عمق الألم الذي أحسّه جرّاء تلك «الانشقاقات». كان فرويد معجبًا بالتألق والأصالة، ويكره أن يعتمد عليه شخص ما (خاصة إذا كان من

الرجال) بشكل كبير، وقد كان يكنّ قليلًا من الاحترام تجاه بعض الأتباع الذين ظلّوا معه حتى النهاية. وكما لخص فرويد معضلته لمريض في أواخر عشرينيات القرن العشرين في قوله «ما كل الأشياء الجميلة جيدة، وكل الأشياء القبيحة إلى زوال»[22]. وحتى في القائمة التي أعدها في عام 1924 عن أتباعه ممن هجروه أو لم يفعلوا، استثنى فرويد أتباعه الأكثر شهرة. ومع أنه حصّن نفسه عندما قال «لم يكن تجاهل الآخرين أمرًا هيّنًا»، فقد شاع عن حلقة فرويد أن أكثر المسائل إثارة للجدل تلك التي تتعلق بمن يعتدّ به أم لا. ولقد احتفظ فرويد ببعضهم حوله ممن برعوا في تأدية مهام خاصة أو أظهروا مواهب في اختصاصات معينة، وإذا لم يُخلص له آخرون البتة، فقد غفر لهم اعترافًا بجميل خدماتهم دعمًا لقضيته في بداياتها.

* * *

لم يكن بول فيديرن (1871 ـ 1950)، على سبيل المثال، من تلاميذ فرويد الأثيرين رغم أنه لعب دورًا بارزًا في التحليل النفسي. لقد التحق لأول مرة بحلقة فرويد في عام 1903، وكان عندها من أكبر أشياع فرويد، وقد ضمّت زوجة البروفيسور فيديرن إلى أولئك الذين كانوا يدعون رسميًا مرة في كل عام. كان فيديرن الملتحي بطريركًا لجيل من المحلّلين الذين انضموا إلى فرويد في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وقد كان بمرتبة القدّيس بيتر في الحركة، فلقد حلل أوتو فنيشل وفيلهالم رايش وإدوارد بيرنغ وإيدواردو ويس وأنريك منغ وسميث إيلي جليف وأوغست ايكورن. وكان فيديرن إذا انتهى من وجبة الأكل، عرض على المريض بعض الطعام. وقد عالج رايش دون مقابل، وحضر إليه الشاعر راينر ماريا ريلكه لفترة قصيرة، وكذلك فعل الروائي هيرمان بروش. ومثل غيره من الجيل الأول من المحللين، لم يخضع فيديرن إلى التحليل. وغالبًا ما عبّر بحزن شديد عن ندمه واستيائه إذ لم يخضعه فرويد للتحليل، ولأن فرويد وحده كان يتمتع عن بقية أعضاء المجموعة بالأقدمية التي تؤهله لمعالجة فيديرن.

احترم فرويد فيديرن دائمًا لأنه من الأتباع الأوائل وأكبر تلاميذه سنًا الذي لم يهجره حتى عندما احتل النازيون فيينا. وقد عهد فرويد آنذاك إلى فيديرن، الذي اعتبره بمثابة هدية له، محاضر جلسات اجتماعات جمعية فيينا (نشر المجلد الأول في عام 1962، والمجلد الثاني في عام 1967، والمجلد الثالث في عام 1974، والمجلد الرابع في عام 1975). وفي

عام 1931م، بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد فرويد الخامس والسبعين في فرايبورغ، مورافيا، فوَّض فرويد فيديرن ليرافق آنا ابنة فرويد وأن يلقي خطابًا. وفي عام 1930م، عندما تفاقم مرض والدة فرويد قبيل وفاتها بقليل عن عمر يناهز الخامسة والتسعين، رافقها فيديرن في عودتها من منتجعها الصيفي إلى فيينا.

وبعدما أصيب فرويد للمرة الأولى بمرض السرطان في عام 1923، عين فيديرن نائبًا لرئيس جمعية فيينا. وقد اعتبره فرويد بديله الشخصي، وكان يوعز له التكفل بالمرضى الذين يقصدون فرويد للعلاج[23]. ومثل بقية الأوروبيين في ذلك الوقت، لم يكن فرويد مستعدًا لاستخدام الهاتف، لذلك كان يتواصل مع فيديرن عبر الرسائل (وكذلك مع باقي التلاميذ) بشأن المرضى والمرشّحين للتدريب، وعندما طلب فرويد من فيديرن أن يقوم مقامه شخصيًا في عام 1924 خُيّل له وكأن فرويد يرشحه لوراثته، ومن ثم اعتبر نفسه خلف فرويد الحقيقي.

مع بداية مرضه، توقف فرويد عن حضور الاجتماعات العامة لجمعية التحليل النفسي، وكان يكتفي بدلًا من ذلك بدعوة مجموعة مختارة من المحللين إلى شقته لاجتماعات مساء الأربعاء على مدى أسابيع قليلة. وكان يحضر إلى تلك الاجتماعات مشاركون منتظمون وآخرون عرضيون، وقد كلّف فرويد فيديرن بمهمة استدعاء من يريد لحضور مثل هذه الاجتماعات الخاصة. وفي عام 1938، لما حُلّت جمعية فيينا، كلف فرويد فيديرن كتابيًا «بأن يقوم مقامه رسميًا في قيادة مجموعة التحليل النفسي في فيينا بوصفه أكثر الأعضاء بروزًا، فضلًا عن تميّزه بمنجزه العلمي، وخبرته كمدرّس ونجاحه في العلاج النفسي»[24].

وعلى الرغم من ذلك، فقد ساورت فرويد بعض الشكوك في قدرات فيديرن، فقد جاء في رسالة في شأنه، على سبيل المثال، قوله أنه «لم يكن يعتمد عليه بشكل كامل»[25]، فالرجلان كانا مختلفين تمامًا. فقد كان فيديرن مرتبكًا في كتاباته وحياته اليومية، ومع أنه حاول جادًّا أن يتغلب على هذه المصاعب التي أرهقته في خطاباته. فأخطاؤه الكلامية أصبحت مشهورة بين أعضاء مجموعة فيينا، وكان هو نفسه يتندر بها، فقد كان يدعو زوجين إلى العشاء ثم يحييهم عند الباب ببعض العبارات المرتبكة، ولا يتذكر الدعوة. ولكن النوادر الكثيرة التي تروى عن فيديرن كانت تروى عن حسن نية.

«كان فيديرن حالمًا ورومانسيًّا وكانت تعترضه عراقيلُ هائلة أحيانًا، وكان مفرطًا في التفاؤل أحيانًا أخرى... كانت تنقصه واقعية فرويد وريبته»[26]، فإن كان فرويد عالمًا وباحثًا، فقد كان فيديرن طبيبًا ومُصلحًا. أما سياسيًّا فكان فرويد معتدلًا ومؤيدًا للنظام حتى أيد في ثلاثينيات القرن العشرين النظام الرجعي في النمسا. أما فيديرن فكان مثاليًّا ومناضلًا اشتراكيًّا، وفي حين كان فرويد من أكثر المؤمنين بأفكارهم الخاصة حذرًا، اعتقد فيديرن أن التحليل النفسي هو الرسالة الأخيرة لتحرير البشرية في حين مال فرويد إلى الاعتقاد بأنه لا يساعد بشكل كبير في تحسين البشرية. شارك فيديرن في تأليف كتيّب حول التحليل النفسي «للناس» والذي لا يزال يطبع حتى الآن، وفي نسخة جديدة من هذا الكتاب كتب فقرة عن التحليل النفسي والمجتمع كان فرويد نصحه بعدم نشرها لأنه كان متفائلًا جدًّا (وبالتالي لم ينشر حتى بعد وفاة فيديرن).

قد يرجع انعدام الوضوح الذي طبع كتابات فيدرين في جزء منه إلى احترامه لفرويد، ومع أن أفكاره سلكت تقريبًا اتجاهًا مغايرًا لأفكار فرويد، فقد أراد أن يتجنّب الانزلاق في الانحراف والتمرّد، وعلى علمه بحدوده فقد فتّق معظم مواهبه. نجح فيديرن حيث أخفق الآخرون مستمدًا قوته من فرويد وحركة التحليل النفسي، ومن انغماسه في أخلاقيات الرجل القوي.

وقال إن فيديرن شعر بأنه خان أبيه، الطبيب الباطني المشهور، إذ لم يقتفِ أثره في مسيرته المهنية، لذلك لا يخلو إخلاصه لفرويد من تقديس حتى أنه سمى ابنته آنا، وتكفّل برسم لوحة تجسّد صورة فرويد، أنجزت خلال فترة قصيرة في أواخر 1908م عندما كان فرويد غير ملتح. (فقد صممت هذه اللوحة كهدية بمناسبة زفاف ابنة فرويد ماتيلدا ولكن، لأنها لم تُعجب بها، فقد احتفظ بها فيديرن لنفسه)، وقد رتّب فيديرن لنحت تمثال نصفي لفرويد على يد أوسكار نيمون الذي نحت لاحقًا تمثال لونستون تشرشل في مجلس العموم. لاحظ فرويد أن عليه أن ينصح الآخرين ألاّ يقتربوا منه عندما يكون وحيدًا ولا ينغمسوا في أفكاره، لأن تعكير صفو تلك الوحدة من شأنه أن يستفزّ فرويد بالدرجة الأولى رغم أنه سرعان ما يصبح ودودًا بعد دقائق قليلة[27].

كان فيديرن، كمعالج، أكثر تعاطفًا وإنسانية من فرويد، ولكنه لم يكن يهتم بالبحث العلمي إلا قليلًا. فقد انخرط فيديرن اليهودي في الأعمال الخيرية المثالية المسيحية، وكان دائمًا قريبًا جدًّا من التحوّل إلى البروتستانتية (كما فعل أخواه، وكانت زوجته

بروتستانتية وكذلك نشأ أولاده على ذلك)، «وكمعالجين، كان فيديرن طبيبًا أكثر، وكان يناضل بصعوبة ضد النزعات الغريبة لمساعدة المرضى أكثر من فرويد الذي سيطرت عليه نزعة العالم أكثر من نزعة المعالج»[28]. ولقد كان فيديرن يعالج المرضى النفسيين أكثر مما يفعل غيره من أعضاء حلقة فرويد. وقد كان لديه الكثير من حالات الانتحار (من بينها إحدى بنات أخت فرويد)، ولقد أصبحت لديه قناعة بأنّ «الاضطرابات العقلية لا تشفى إلا عبر سلامة الجسد، رغم ارتباطها بالعلاج النفسي...»[29]. ومثله مثل فرويد ذاته، ألهم فيديرن تلاميذه ومرضاه القدامى معاني الإخلاص والوفاء.

خلافًا لفرويد، كان فيديرن مكتئبًا، تؤرقه مشاعر الذنب، فقد كان يُحسن التعامل مع سخرية المرضى الكامنة وعدوانيتهم بفيض من معاني النبل والتضحية من أجل الآخرين. وعن عمر ناهز الثمانين قرر أن يستكمل حياته الشخصية. كانت زوجته قد توفيت، وقد أصيب ثانية بسرطان المثانة. وكان منذ وقت قصير قبل ذلك خضع لعملية جراحية لاستئصال السرطان فشلت في تحقيق غرضها، فخلّفت له ذهانًا مؤقتًا، ويعتبر الاضطراب العقلي الذي يعقب عملية جراحية خطيرة شائعًا رغم عدم شهرته شعبيًا، ويمكن أن يكون عضويًّا، أو قد يمثل صراعًا من أجل الحياة. وما أن التأمت جراحه واستعاد عافيته بالكامل، حتى اضطر فيديرن لإجراء عملية أخرى، ولم يكن بمستطاعه أن يواجه مزيدًا من الانهيار الذي يعقب العملية الجراحية حتى أنه حوّل مرضاه إلى معالجين آخرين قبل أن يطلق على نفسه النار (وهو يجلس على كُرسيه التحليلي) في صباح اليوم الذي كان سيُرسَل فيه إلى المستشفى. وفي مذكرة الانتحار التي تركها لأبنائه استحضر صورته الرومانسية عندما كان جنديًّا «برتبة رقيب في التحليل النفسي للجيش». وقد أوصى أبناءه في هذه المذكرة بأن يكونوا حذرين من المسدس الذي ما زال بداخله طلقة واحدة. كان حتى النهاية معنيًّا بالآخرين.

ومع أن «إخلاص فيديرن الثابت لفرويد أعاق تعبيره عن اختلافاته معه في أي طريقة وخاصة الغامضة منها»، فقد كان واحدًا من روّاد علم النفس الأنا في العصر الحديث. وفي ذلك الوقت، «لم يُعر فرويد اهتمامًا إلى استنتاجات فيديرن أو يتبيّن أهميتها»[30]. ويكمن عطف فيديرن تجاه المرضى وراء اهتمامه الخاص بعلاج المرضى النفسيين وقد طوّر أفكاره طبقًا لذلك. وبناء على مفهوم «الهوية»، الذي أدخله إلى التحليل النفسي أول مرة صديقه الحميم ومنافسه فيكتور توسك، افترض فيديرن أنّ يكون الخلل الهيكلي في القدرة يؤدي إلى عجز المريض على مواجهة الدوافع الغريزية.

اعتقد فرويد في البداية بأن الوعي بغريزة ما يقلل من حدتها. ولكن الهدف من استبعاد الخداع الذاتي يفترض أن بمستطاع أنا المريض أن يندمج مع وجهات النظر الجديدة المقدمة له. ومن ناحية أخرى فإن التحليل النفسي ببساطة قد يستبعد دفاعات المريض فيجعله في وضع أصعب ممّا كان عليه من قبل. وبدلًا من إثبات علامات الذهانيين النرجسيين، أو الغرام بالذات كذلك، كما كان يفعل فرويد، يرى فيديرن، شأنه في ذلك شأن توسك، أنهم يعانون من اختلال في قوة الأنا. وقد اعتبرت الاضطرابات الذهانية بعد ذلك ضعفًا أكثر منها انغماسًا. وهي أساس الاضطراب الذي يعرفه الأنا أكثر من الحياة الغريزية الكامنة للجنس أو العدوان. وإن تعززت قدرات المريض المندمجة فإن الحدود بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي أصبحت واقعية.

وكالعادة، اعتبر فرويد ذلك «غير واضح» ما دام يختلف عن كشفه، وبالإضافة إلى ذلك اعتبر فيديرن الأكثر وضوحًا من بين المفكرين والمتحدثين. وفي اجتماع لجمعية فيينا سأل فرويد هيلين دويتش مازحًا، بينما كان فيديرن يعرض بحثًا، قائلًا: «هل تعلمين عمّا يتحدث؟»، فأجابت: «لا أعلم»[31]. اعتبر فرويد أعمال فيديرن حول علم النفس الأنا لا تقدم أيّ جديد، كل ما في الأمر أنه عبَّر عن أفكاره بطريقة مختلفة نوعًا ما. ومع أنه لم يكن سعيدًا لصمت فرويد عن ريادته في مجال العلاج النفسي للمرضى الميؤوس منهم، فإن فرويد، على الأقل، لم يأمره بأن يتوقف عن عمله هذا أو يتركه، وقد كانت رغبة فيديرن أن يظل وفيًّا ومخلصًا لأصالة أفكاره على غموضها حتى بالنسبة إليه هو. وقبل شهر من وفاته تبيّن له أن هناك اختلافات كثيرة بينه وبين فرويد حول ما يتعلق بعلم نفس الأنا أكثر مما كان يتصوّر[32].

لقد أصبح علم نفس الأنا مع بداية الثلاثينيات من القرن العشرين أكثر أهميّة بالنسبة لكتّاب التحليل النفسي الذين غيّروا اهتمامهم من التقلّبات في الغريزة الجنسية، وفحصوا بشكل أدقّ آليات الانسجام (سواء كانت دفاعية أو تكييفية) التي يطوّرها الأنا من أجل إدارة الصراعات. وفي فترة الخمسينيات والستّينيات من القرن ذاته، أصبح هذا العمل محوريًّا بالنسبة للتحليل النفسي، ورغم أن علماء منطق نظرية التحليل النفسي اعتبروا أن هذا الاتجاه الجديد يمثل عودة إلى صياغات فرويد عام 1890 بشأن الدفاعات، فإن التوجه العام لهذا العمل كان جديدًا، أو هو في الواقع توجه تعديلي شمل الجوهر وليس الشكل، ومنذ ثلاثينيات القرن العشرين، اكتسبت طرق العلاج الذاتي أهميّة تضاهي بالنسبة لنظرية التحليل النفسي أهميّة آليات الخداع الذاتي.

في الثلاثينيات من القرن العشرين، شعر فيديرن بأن أعماله الأولى لم يُعترف بها. ولذلك استاء من عدم الاستشهاد بها بشكل جيّد، خاصّة في كتابات آنا فرويد، «وبعد 1930 نشر بعض المحللين النفسيين المقربين من فرويد، ممن حضروا مناقشات فيديرن، سلسلة من الكتب والمقالات عن علم نفس الأنا بدون ذكر إسهامات فيديرن في ذلك. وهو ما أصاب فيديرن بخيبة أمل وعمّق شعوره بالمرارة»[33]. ولكن فكرة «حدود الأنا» التي صممت للتأكيد على أنّ دفاعات الأنا تكمن وراء الشيزوفرانيا، هي الصيغة الأصلية التي اقترحها فيكتور توسك. ولنا أن نتساءل إن كان تردد فيديرن شخصيًّا في السنوات الأخيرة في الاعتراف بأولوية إسهام توسك، في جزء منه نتيجة صدمته بسبب الظروف التي أحاطت بوفاة توسك[34].

تطابق موقف فيديرن تمامًا مع موقف فرويد تجاه الأولويات، وفي مقال نشر في عام 1930، أثار فيديرن مسألة الانتحال اللاشعوري، «انعدام الضمير الهائل في ما يتعلق بسرقة أفكار الآخرين». وإذ اشترك فرويد وبوليت في ما بعد بتأليف كتابهما عن وودرو ويلسون، فقد لمّح فيديرن إلى كتاب هايل عن ويلسون الذي قرأه فرويد قائلًا: «لقد شعر هالي سكرتير ويلسون، بأن من حقه الانتقام من رئيسه بسبب اختلاس أفكاره»، وفي ملاحظات تصف أسلوب فرويد الشخصي ككاتب، أشار فيديرن إلى أنه «من المتعارف عليه أن تبدأ مقالًا علميًّا بذكر استنتاجات المؤلفين الآخرين وتوضيحاتهم ونظرياتهم»، وقد صدق فرويد في ذلك أيضًا، «إن كان اللاوعي هو سبب المقاومة، فلن يستطيع المرء أن يفهم ما يقرأه»[35].

أشار تيودور رايك ذات مرة إلى أنّ فيديرن كان هادئًا مع النزعة العدوانية. (وقد سخر فرويد من هذا التوصيف). وبطبيعة الحال اصطف فيديرن إلى جانب فرويد في سجالاته مع أدلر ويونغ وإن لم يلعب في ذلك دورًا بارزًا. وعندما غادر إلى أميركا، رغم أنه كان أكبر أتباع فرويد سنًّا من ذوي النزعة الأرثوذوكسية، أصبح واحدًا من زعماء «جمعية نيويورك للتحليل النفسي» ممن شدّدوا على التنبيه إلى الثغرات الهرطقية للمحلل الألمعي المجري ساندور رادو. وكما أشار فيديرن في اجتماع عام إلى صنفين من الفنانين في إيطاليا، أحدهما يبيع ما ينتجه والآخر يحفر على الأشياء القديمة ويبيعها على أنها إنتاجه الخاص وكان يجني لقاء ذلك الكثير من المال، وختم فيديرن قائلًا: «ولكم أن تقرروا من أيّ الصنفين يكون الدكتور رادو»[36].

كان إدوارد هيتشمان (1871 ـ 1957) محللًا آخر من المحللين الأوائل الذين ضايقوا فرويد، ولما هاجر إلى أميركا، حظي هيتشمان ببعض الاهتمام، وكما امتاز فرويد بقدرته على جذب الأتباع، امتاز بموهبته أيضًا على المحافظة على أولئك الذين لم يكن لهم الإعجاب بشكل خاص. ومع أنّ هيتشمان كان فكاهيًا بارعًا، فقد بدا لفرويد متهكمًا وقاسيًا ومبتذلًا. وقد أحبّ فرويد شخصيًا الشخص الذي تكون له مخيلة فيدرين كثيرًا. ومع ذلك كان فيدرين وهيتشمان محللين نموذجيين من المحللين الذين وفدوا إلى فرويد في وقت كانت فرص الاختيار بينهم قليلة.

وقبل الحرب العالمية الأولى بقليل بدأ فرويد يكافئ الأثيرين من أتباعه بإهدائهم الأحجار الأثرية الكريمة لصناعة الخواتم، ومع أن ذلك كان في البداية تعبيرًا عن الاعتراف بهؤلاء المجتهدين الموهوبين، فقد مثلت في أواخر حياته تعبيرًا عن العرفان بالجميل لخدماتهم الجليلة أو للتعبير عن مودته لهم بكل بساطة، ويعني ذلك في كل الأوقات أن المتلقي هو جزء من حركة التحليل النفسي مثله في ذلك مثل عائلة فرويد بأسرها، على اعتبار أن هذين الفضاءين كانا دائمًا منفصلين، ولكن فرويد استخف بهيتشمان وفيديرن ـ إذ أهدى أحدهما خاتمًا دون الآخر ـ ومن الإهانة أن يهديهما الخاتم بشكل متأخر جدًّا، إلا إذا كان ذلك في إطار سعيه إلى كسب مزيد من المؤيدين الألمعيين.

تقدّم هيتشمان إلى مجموعة فرويد في عام 1905م عبر صديقه القديم فيديرن، وكان هيتشمان طبيبًا باطنيًا، وبالتالي كان مُرحبًا به من قبل المجموعة رغم أنها لم تكن طبية. وقد اتخذته عائلة فرويد آنذاك طبيبًا لها، بيد أن ذلك كان بمثابة العبء من وجهة نظر هيتشمان، وعلى شرف عيد ميلاد فرويد الستّين، كتب هيتشمان خطابًا إلى فرويد، تلهف فرويد للاستماع إليه طبقًا لرواية هيتشمان. وفي رده عليه لاحظ فرويد «أنه من أجل أن أعيش يتعيّن أن يقتنع بعض الناس بنجاحي»[37]، وعندما افتتحت عيادة التحليل النفسي المسماة «بالأمبلوتريوم» في فيينا عام 1922، عيّن فرويد هيتشمان رئيسًا لها.

لم يكن موقف فرويد، شبه المهين بعض الشيء من شخص مثل هيتشمان، في المقابلات التي أجريتها، موضوع يرغب المحللون النفسيون القدامى من السياسيين التطرّق إليه. ولكن بحلول ثلاثينيات القرن العشرين، لم يعد هيتشمان مقبولًا بصفة عامة، ولا يعود ذلك في جزء منه لأن هذا الأخير ليس متطابقًا مع فرويد ولكن يعود إلى نوعية ملاحظات هيتشمان التي تبعث على الضجر[38]. وبمجرد أن تزايد عدد أعضاء مجموعة

فيينا، بدا هيتشمان في تفكيره قديمًا جدًّا. ولكنه ظل مخلصًا لفرويد وغالبًا ما اتخذ منزلًا صيفيًّا قريبًا من الأستاذ. ومثلهم مثل غيرهم في الحلقة، كان الزوجان هيتشمان دائميّ الحضور في أعياد ميلاد فرويد: وكانا يرسلان بانتظام الأناناس، على ندرته في فيينا، إلى فرويد، وكان يحبّه كثيرًا. وكانا يرسلان في طلبه مسبقًا قبل شهر من مخازن متنوّعة ليكونا متأكدين تمامًا من الحصول عليه، ومثله مثل فيديرن لم يكن هيتشمان يتردد في الاعتماد على فرويد، ولا كان بالنسبة لفرويد الولد الجريء القادر على ذبح أبيه. وقد كان هيتشمان رسّامًا مسليًا حتى أنه رسم مرة درعًا يمثل التحليل النفسي الذي اكتسب سمعة في الوعي الجنسي في حلقات التحليل النفسي في ذلك الوقت، وقد أحيط بزهور الفاصوليا يتوسطها القول المأثور الشائع «كلما طالت المدة كلما كان أفضل».

لقد صنف فرويد هؤلاء الناس طبقًا لمعايير رفيعة. كان هيتشمان شخصًا مثقفًا ذا تعليم جيّد، وكان من الأوائل الذين اهتموا بالسير الذاتية في علم النفس التحليلي، وحتى إن كان تركيزه عادة على عقدة أوديب في حياة العظماء. وقد كتب أيضًا موجزًا رائعًا وشهيرًا عن استنتاجات علم النفس التحليلي، وهو من بين أوّل من كتب في هذا الصدد إلى جانب مؤلفات فرويد. وقبل التعهّد بهذا الجزء مما اعتبر في محاضر جلسات جمعية فيينا للتحليل النفسي كـ«دعاية مغرضة» موجهة «أساسًا لهيئة الأطباء»، حذّر فرويد من أن «هذا العمل قد يفرض على المؤلف الإحجام عن التعبير عن أيّ من أفكاره الشخصية». وأجاب هيتشمان بأنه «لم يدّع في هذا الكتاب أنه يعرض أفكاره الخاصة أبدًا، وأنه لم يفعل شيئًا سوى النسخ»[39]. وإجمالًا كان هذا انتصارًا للتحليل النفسي الذي منح هذا الشخص مجدًا تاريخيًّا، ولكن أن تقرأ أيّ من المقالات التي كتبها أحد أعضاء الحلقة عندما يكون قريبًا جدًّا من فرويد، فهذا يعني أن تقرأه وهو في أحسن حالاته وأيضًا أن تقرأ فرويد من منظور آخر. وقد استلهم فرويد كثيرًا من أتباعه أكثر ممّا أنجزوه وإن كان إبداعهم كثيرًا ما يتوقف على وجوده.

2 - فيكتور توسك ولو أندرياس-سالومي

كان فيكتور توسك (1879 ـ 1919) واحدًا من مؤيدي فرويد الأوائل وأكثرهم موهبة. ولكن رغم بروزه وتفوّقه على غيره من المحللين النفسيين في ما قبل الحرب العالمية الأولى، فقد صار نسيًا منسيًّا، وإذا كانت بعض من أعماله معروفة بين أولئك المهتمين

بدراسات علم النفس التحليلي بحكم اختصاصهم[1]، فقد اقترنت منزلته في التاريخ في الغالب وبشكل أساسي بعشقه للو أندرياس-سالومي (1861 ـ 1937).

فقد كانت بينهما علاقة لم تدم طويلًا أثناء إقامتها في فيينا ما بين 1912 و1913. وكان نيتشه قد طلب يدها قبل ذلك. ثم كانت بينها وبين ريلكه علاقة حميمية. ولما انضمت إلى حلقة فرويد لكي تتعلم التحليل النفسي، فإنها لم تستطع الوصول إلى فرويد شخصيًّا، لكنها تمكنت من توسك ذي الموهبة الخارقة، والذي كان يحظى بمكانة خاصة عند فرويد بوصفه ثاني أفضل الخيارات بالنسبة إليها بعد فرويد. ونعثر في يومياتها التي كتبتها عن فرويد على تعليقات في شأن طبع وشخصية توسك هي الأكثر تبصرًا ودقة.

كتب فرويد بنفسه النعي الرسمي لتوسك، وجاء فيه «لا أحد يمكنه أن يتجنّب الانطباع بأن هذا الرجل ذو أهمية». وأما رأي فرويد النهائي من توسك فيتمثل في أن الرجل قد ترك وراءه «بكل تأكيد ذكرى مشرقة في تاريخ التحليل النفسي والنضالات التي عرفها في بداياته»[2]. ولكن رغم حقيقة الصعوبات التي شهدتها علاقة فرويد بتوسك فإنها ظلت مخفيّة طيلة نصف قرن من الزمن قبل أن تظهر بتمامها إلى العلن. وعليه ليس غريبًا إن احتفظ أتباع فرويد في فيينا بهذه القصة لأنفسهم. وعلينا أن نتذكر مدى إجلالهم لفرويد في مقابل تأثيمهم للمنافس المخفق. وإذا كان الانتحار تحت أي ظرف كان يُعدّ أمرًا مفزعًا فإن انتحار توسك بعد صراعه العنيف مع فرويد ساعد على إضفاء مسحة من الواقعية على تلك الطاقات التي نسبها تلاميذ فرويد بشكل سحري إلى زعيمهم.

نشأ توسك في كرواتيا، وهي الآن جزء من يوغوسلافيا (قبل أن تستقل عنها لاحقًا)، وقد كانت آنذاك مقاطعة تقع على تخوم الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية. وقد كان ابنًا بارًّا بوالدته التي ضحَّت بنفسها تفانيًا في خدمة عائلتها وخاصة زوجها العدواني بل المتعجرف. وعلى جمالها، كما قيل عنها، إلا أن ما حاق بها من توتر متواصل وتزايد حاجات أطفالها أنهكها حتى استبد بها الحزن. كان زوجها وسيمًا وجذابًا، يثير إعجاب النساء، الأمر الذي جعله يخونها.

كانت علاقة توسك بأبيه متوترة وعدائية. فقد كتب لاحقًا أنه كان يشعر بحرج لا يلين على مرّ الأيام لأنه يحمل اسم أبيه. وقد أعجب به زملائه التلاميذ لما كان يتمتع به ذكاء وإحساس بالعدالة حتى أنهم جعلوه قائدهم. ويذكر أنه كثير الشجار مع أستاذ الدين

لتعارض مبادئه مع فكرة الإلحاد التي يتبناها حتى أنه قاد إضرابًا ضد الدين قبل تخرجه. ولما كانت عائلته عاجزة عن توفير تكاليف دراسة الطب التي كان يرغب فيها منذ البداية اضطر إلى تغيير وجهته نحو المحاماة بوصفها أقل تكلفة.

في عام 1897 ذهب توسك إلى جامعة فيينا، وفي السنة التالية التقى مارتا التي سيتزوجها لاحقًا وكانت علاقة العداء بين توسك وبين والد زوجته، الذي كان يعمل ناشرًا، لا تقل عدائية عن علاقته بأبيه، فقد كانا يتبادلان الكراهية إلا أن مارتا أحبّت فيكتور حبًّا جمًّا، وحملت منه، وتزوجا في عام 1900م وذهبا معًا إلى يوغوسلافيا، حيث توفي الطفل أثناء ولادته.

تابع توسك تدريه كمحام، في سراييفو ثم في موستار، بينما ولدت زوجته طفلين، وفي أواخر ربيع 1905 قررا الانفصال. وعلى إثر ذلك توجهت مارتا إلى فيينا مصحوبة بطفليها، فيما مكث فيكتور في برلين. ولأنه ظل لعدة سنوات في الأقاليم، فإن توسك البالغ من العمر ستة وعشرين سنة كان يحدوه طموح لا حدود له. نشر بعضًا من القصائد الشعبية الصربية التي ترجمها إلى الألمانية، وكتب قصصًا قصيرة وشعرًا، كما كتب بعض المسرحيات ونشر نقدًا أدبيًّا[3].

وفي برلين، كان توسك قادرًا على أن يشغل وظيفة أخرى حيث مارس العزف على الكمان، ورسم بالفحم، وأخرج مسرحيات. كما دفعته ضرورة العيش إلى الكتابة الصحافية رغم ما اقترن بذلك من مشاعر الذل والمهانة. ونجد في رسائله ما يدل على أنه بذل مجهودات كبيرة لكسب المال، ونزوعه للعمل الإبداعي فضلًا عن اهتمامه بأبنائه.

كانت دراسة القانون بالنسبة لتوسك مجرد دراسة أكاديمية هي الأقصر والأقل تكلفة تفضي في نهاية الأمر إلى لقب مهني. ولما أصبح محاميًا شعر بأنه قد خدع نفسه الحقيقية، مما انعكس على سلوكه سلبًا، حيث صار يتصرَّف بطريقة سيئة نتيجة إحساسه بالكراهية تجاه نفسه وهو ما ساهم في تفاقم مشاكله الزوجية. وبالإضافة إلى ذلك فإن توسك يبدو غير قادر على تحمُّل حب زوجته التابع. فلم تكن مكتفية ذاتيًا حتى تجعله يشعر بالارتياح معها. وقد كتب إليها في إحدى المرات «أحب فقط الأشخاص المتحررين أولئك المستقلين عني. فالطريقة التي أعيش بها الآن هي الطريقة المثلى حقًّا أتمتع فيها

باستقلاليتي حيث لا يوجد شخص يعتمد عليّ وتابع لي، فلا يوجد عبد حالم ولا يوجد سيّد». وستتضح أسباب فشل زواجه لاحقًا من خلال علاقته مع فرويد.

أدرك توسك العنصر المدمر في قدرته الهائلة على الحب. فكلما أحبّ أكثر، كلما أصبح أكثر تبعية، وبالتالي أصبح أكثر قسوة وفق المنطق الغريب الذي يميّز عواطفه. كان توسك طوال حياته سخيًّا وطيّب القلب ومتفانيًا ومخلصًا، ولكن عندما أدرك فجأة أنه أصبح مستعبدًا، عمل على قطع هذه العلاقة، وبدأ الحلقة بأكملها من جديد مع شخص آخر.

في برلين، بدأت صحة توسك تسوء شيئًا فشيئًا. فقد خاب أمله في كسب ودّ امرأة حتى أصيب باضطراب رئوي، وكان يشكو أيضًا من الإرهاق ونقص التركيز. وقد حصل على إقامة مجانية في مستشفى ألماني لقاء وعد بأن يكتب عنه مقالات مدحية، أما تشخيص حالته فكان إعياءً ذهنيًّا وجسديًّا. وبشكل غير متوقع، ساءت حالته بشكل لافت حيث انزلق إلى اكتئاب حاد. وقد كان همّه الأكبر الحصول على وظيفة ومنزل، إلا أنه فشل في بلوغ غايته. ورغم ذلك فقد شغل عمله ككاتب بشكل مثير للإعجاب وقد وصف في رسائله لزوجته ما يعنيه القُعاد بلا وظيفة. وكما كان انهيار توسك مفاجئًا كان شفاؤه كذلك سريعًا وتلقائيًّا، وقد تردّت عواطفه بسبب اكتئابه فعاودته الهموم والمعاناة دون أن تنهكه كثيرًا هذه المرة.

وعلى الرغم من هذا الانهيار المفزع، فقد استطاع توسك أن يتحامل على نفسه وحاول القيام بشيء جديد. فما أن تجاوز مأساته حتى توجّه إلى فرويد والتحليل النفسي. وقد وجد في فرويد ما افتقده من توجيه وإرشاد. ولما اطلع فرويد على رد توسك على إحدى مقالاته، اعتقد أن توسك طبيبًا، وشجّعه على المجيء إلى فيينا لدراسة التحليل النفسي. وفي خريف 1908 توجّه توسك إلى فيينا لدراسة الطب، وكان قد خطط من قبل أن يصبح محللًا. ولكن قبل أن يبدأ حياته من جديد قرر أن يضع نهاية لجزء من حياته السابقة، فعلى الرغم من أنه وزوجته قد انفصلا منذ 1908 فإنهما لم يتطلقا بشكل تام إلا عند عودته إلى فيينا في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1908.

حظي توسك بدعم فرويد شخصيًّا، وكذلك فعل بقية أفراد مجموعة المحللين النفسيين في فيينا كل ما في وسعهم لتمهيد الطريق أمامه لا سيما وقد تفطّنوا إلى قدراته

الفائقة. وإلى جانب ما يتميّز به توسك من نظر ثاقب في شأن ما يتعين فعله، فإن اختياره كمحلّل ربما يبدو محاولة لإنقاذ حياته. ولكنه كان أيضًا نتيجة لمواهبه واهتماماته.

ويخلاف فرويد ومعظم أتباعه في المجال الطبي، توسك هو من اختار أن يكون طبيبًا نفسيًّا، وقد كان أتباع فرويد من الأطباء النفسيين السويسريين مهمّين بالنسبة له لأنهم أتوا بأفكاره إلى مقاطعة جديدة تمامًا. وتعتبر أهم إنجازات توسك الأكثر أصالة دراساته الإكلينيكية حول الشيزوفرانيا والجنون الاكتئابي-الهوسي[4]. كما يُعتبر أول عضو في جمعية فيينا للتحليل النفسي يدرس حالات الذهان إكلينيكيًّا، في الوقت الذي لم يكن فيه فرويد نفسه مهتمًّا إلا بمعالجة الأشخاص الأقل اضطرابًا. وحقق توسك إسهامات خالدة في نظرية علم النفس التحليلي تقاطعت مع أعمال مفكرين معاصرين مثل برونو بتلهايم وإريك إريكسون[5]، لكنه لم يستطع أن يبقى في حلقة فرويد بسبب غلبة علاقته مع فرويد عليه.

يبقى المصدر الأفضل في علاقة توسك مع مجموعة فرويد قبل الحرب العالمية الأولى هو يوميات لو أندرياس-سالومي التي عملت على تقريب فرويد من أجواء الثقافة الأوروبية التي سادت في الماضي[6]. جاءت إلى فيينا وهي في سن الواحدة والخمسين عام 1912، وقد جهّزت نفسها مسبقًا بقراءة كل ما كتبه فرويد، وجعلت نصب عينيها منذ البداية انتزاع اهتمام فرويد بها، وهو ما كان لها فعلًا.

لقد برعت لو في جمع الرجال العظماء. ورغم ما كانت تتمتع به من جمال في ما مضى، إلا أنها اضطرت الآن إلى الاعتماد على قدراتها السيكولوجية في إثارة اهتمام أيّ من المغرمين المحتملين. ونظرًا لما تميّزت به من تذبذب في الاستجابة إلى الأفكار، فقد أبدت ميلًا وقدرة استثنائية على التماهي مع الرجال وخاصة المبدعين منهم ممن يفتقدون اليقين الداخلي. ولكن سرعان ما يكتشف أولئك الذين يقعون في حبها أنها في النهاية لم تكن صادقة. إنها تعكس شخصيتهم، تساعدهم في حاجتهم الإبداعية، ولكنها نأت بنفسها كشخص. فجميعهم كانوا يحتاجونها، ولكنهم أدركوا في النهاية أنها استعصت عليهم.

ولمّا كان فرويد يحب تلاميذه المبدعين ذوي الخيال الواسع، فقد مثلت لو أندرياس-سالومي كسبًا شخصيًّا له وكذلك للتحليل النفسي. وبعد مرور العديد من السنوات كتب فرويد أنه أُعجب بلو بشدة وانجذب إليها «بشكل غريب جدًّا دون أثر للانجذاب

الجنسي»[7]. ومن خلالها، كان فرويد على اتصال بأفضل ما في الحياة الثقافية الألمانية. وقد وضع فيها ثقته بدرجة غير عادية حتى أنه ناقش معها في رسائله، في سنواته الأخيرة، مشاكل ابنته آنا العاطفية.

وفي عام 1912 وصفت لو فيكتور توسك بأنه «الأكثر بروزًا»[8] من بين تلاميذ فرويد، وعملت بكل جهدها لإغوائه. كان توسك، ذا شعر أشقر وعينين زرقاوين وشارب جميل ويصغرها بثمانية عشر عامًا. وفي الفترة من 1912 – 1913 شكّل كل من فرويد ولو وتوسك ثلاثيًا استفاد منه جميعهم على نحو متبادل. حظيت لو في حياتها برجلين في الآن نفسه في معظم الأوقات. أما بالنسبة لفرويد فقد كان للوضع مساوئه ومحاسنه. فقد كان يغار من إمكانية إقامة علاقة بين لو وتوسك سيما وأن توسك هو الأشد شبابًا وفتوّة، والأكثر رجولة وحيوية وذي بنية جسدية قوية. ومن ناحية أخرى، كان بإمكان لو أن تعطي فرويد معلومات إضافية عن توسك لتساعده في المحافظة على هذا التلميذ الخاضع تحت السيطرة. لقد مثلت لو بالنسبة لتوسك وفرويد وقاءً يخفف عنهما حدّة الصدمات.

ولو، كامرأة، لم تثِر أبدًا مشاعر المنافسة لدى فرويد. فالنساء بالنسبة لمثل هذا الرجل العتيق، لسن منافسات. فقد كان باستطاعة لو أن تجامله ويصدقها في كل ما تقول كما كان بإمكانها أن تفصل إحساسها بذاتها بسهولة عن عملها المهني، وأن تعطي فرويد ما أراده بشكل يجنبها الفضيحة وسوء السمعة. ولكن مطالبة فرويد تلاميذه بأن يتماهوا معه ولّدت لدى الرجال منهم الرغبة في التمرد. عنى أن يكون الرجال يشبهونه أنه أصبح أخيرًا أصيلًا، غير أن هذه الأصالة انتهت الفائدة منها.

لقد أبدى توسك في نصرته لفرويد في نزاعه مع أدلر[9] حقدًا كبيرًا وخبثًا اعتبرته لو مفرطًا وغير عادل. وفي ذروة صراع فرويد المشهور مع يونغ، توعد توسك بالتصدي لهرطقة يونغ[10]. كان توسك في هذه المعارك اللفظية الشفوية في أفضل حالاته، كما كان شرسًا في مقالاته المكتوبة أيضًا. ولما سمعت لو إحدى محاضرات توسك عن التحليل النفسي، تكوّن لديها انطباع «ليس فقط عن نظرية فرويد الكلاسيكية ولكن أيضًا عن حب غير عادي ومقاربة محترمة لاكتشافات فرويد الأساسية...»، أما اعتراضها الوحيد على توسك فيتمثل في أنه كان «فرويديًا بدقة زائدة على الرغم من أنه ما كان أحدًا ليلومه لو كان عكس ذلك»[11].

ومع ذلك فقد تبيّنت للو بشكل جليّ أسباب التوتر بين هذين الرجلين. فقد تمنى فرويد أن يتجاوز كل حدود المعرفة السابقة. ولكنه على الرغم من ذلك اعتقد أن توسك تشبث بمشاكل سابقة لأوانها[12]. أثار عمل توسك فرويد كثيرًا وكانت أصالته جزءًا من المشكلة[13]. وقد تحدثت لو مع فرويد في ذلك مرارًا، رغم أن مشاعرها ما تزال تميل إلى توسك[14].

ظلّت استقلالية توسك شكلية. والأسوأ من كل ذلك أن توسك في تلك الفترة، في تقدير فرويد، كان شديد الارتباط باهتمامات فرويد الخاصة. وبطريقة خارقة بدا وكأن توسك قادر على توقع صياغات فرويد الخاصة[15]. وهكذا أصبح توسك يثير قلق فرويد، ليس فقط لأن لديه قوة تفكير تضاهي قوة تفكير فرويد، ولكن أيضًا لجرأته على استخدام هذه الموهبة في إشكاليات تهم فرويد شخصيًّا، وقد ساعد خوف فرويد بأن توسك ربما سرق بعضًا من أفكاره قبل أن يتمّها على فهم لماذا كانت لو مفيدة بالنسبة إلى فرويد في اهتمامها به[*]، وقد كان فرويد متأكدًا من أنها ستكون في النهاية إلى جانبه، وقد أراد أن يتيقن من أن توسك لا يملك فكرة قبل أن يملكها هو نفسه.

أدركت لو أن توسك مستغرق في ذاته ومستبطن لها وطموحه لا حدّ له ومع ذلك مخلص لفرويد حتى أن توسك ألقى باللوم على فرويد بسبب التوتر الذي ميّز علاقتهما. كان تعلّق توسك الشديد بفرويد ناتج في جزء منه عن نقص في موارده الذاتية[17]. وقد أحبّت لو في توسك تعاونه قبل كيانه الذاتي، وكفاحه الشديد لاستخدام فكره من أجل التحكم في عواطفه. وكان توسك متطلبًا ولكن قدرته على إنضاج أوهامه جعلته محبوبًا. بيد أن ذاته ظلت حبيسة ماضيه. «لقد أدركت منذ البداية أن ذلك الكفاح الشديد هو الذي أثار مشاعري العميقة ـ كفاح المخلوق البشري، الحيوان ـ الأخ. أنت»[18].

في فترة الحرب العالمية الأولى انهار كل شيء من حول توسك مرة أخرى. وبعدما أكمل دراسته الطبية بدأ حياة جديدة، إلا أن ندرة المرضى جعلت ممارسة التحليل النفسي تكاد تكون مستحيلة، وعندما دُعي للجيش استخدم توسك ببطولة وعبقرية التشخيص الطبي النفسي من أجل غايات إنسانية. وكتب مقالة بليغة عن سيكولوجية الهاربين من الجيش وقد مثّلت واحدة من أول التطبيقات في استخدام التحليل النفسي في القانون[19].

(*) زعمت لو أن «موضوع كتاب نيتشه أصل الأخلاق وفصلها بتمامه من إبداع بول ري، الذي تناقش في ذلك مع نيتشه في محادثة دارت بينهما، حيث أصغى نيتشه بانتباه شديد ودقة متناهية إلى ري، ومن ثم أخذ أفكاره قبل أن يصبح معاديًا له لاحقًا»[16].

كما عرّض نفسه ذات مرة للخطر بسبب عطفه وإيثاره مصلحة المرضى. ولا بد من القول أيضًا أنه كان يعزز فرصته في تحدي قادته.

مع نهاية الحرب، عاد توسك إلى فيينا ليستأنف نشاطه. وقد عمّت الفوضى الاقتصادية المدينة آنذاك. ورغم أنه قارب الأربعين من عمره إلا أن توسك ظل يعيش كطالب فقير عليه أن يتكفّل أمر عائلته. وقد استفاد من حظوته الشخصية وقبوله لدى فرويد. ورغم أن كثيرًا من أصدقائه والمرتبطين به شاركوه نفس المشاكل، إلا أن معظمهم لم يكونوا في هذا الوضع الحساس. على سبيل المثال، استطاع بول فيديرن بسهولة استغلال ممارسته الطبية بالمعنى الضيّق للكلمة.

ما قدّمه توسك من إنتاج في ميدان الكتابة في فترة الحرب لم يشجعه على التقدم بطلب للعمل كمحاضر في جامعة فيينا فقط، ولكن أيضًا شجعه ليطلب من فرويد التحليل، فقد كان حلمه العظيم أن يخضع للتحليل على يد فرويد. إلا أن توسك كان يعلم حق العلم بأن وجوده يزعج فرويد الذي رفض طلبه. ومع أن هذا الرفض قد زاد من حدة التوتر في علاقة فرويد بتوسك، فقد اعتقد فرويد بأنه يستطيع أن يحتفظ به ضمن حلقة أتباعه.

حاول فرويد التوصل إلى تسوية مع توسك. فقد أوصى أن يخضع للتحليل على يد هيلين دويتش، وهي طبيبة نفسية تصغره بخمس سنوات كان فرويد قد باشر تحليلها في بدايات ذلك الخريف[20]. كان قد مضى عليها مع فرويد ما يناهز الثلاثة أشهر تقريبًا عندما بدأ توسك في الذهاب إليها بغرض العلاج في كانون الثاني/ يناير عام 1919. وقد كان على فرويد أن يناقش الحالة مع هيلين دويتش ويشرح لها الأسباب التي منعته من تحليل توسك بنفسه[*]. وأخبرها أنه يشعر أنه يكون مثبطًا في وجود توسك. وقد كان فرويد متوجسًا ومنزعجًا من توسك، كما ذكرت لو من قبل. هذا وأن أفكار فرويد ما زالت تتدفق وتتغيّر باستمرار، وأبلغ هيلين دويتش أن انضمام توسك إلى الجمعية أذهله بشكل «غريب»، حيث استطاع أن يقتبس فكرة من فرويد وبدأ يطورها قبل أن ينتهي فرويد منها تمامًا[±].

(*) وهي ذات الأسباب التي منعته من أن يُحلّل أوتو غروس في عام 1908.

(±) من الغريب أن فرويد، في مقالة حول «الغريب» أنهاها في ربيع 1919، كتب أنه «أمضى وقتًا طويلًا في اختبار أو سماع أيّ شيء ترك في نفسه انطباعًا غريبًا...» وفي موضع آخر من ذات المقالة ألمح فرويد لدى مناقشته «مزدوج الشخصية» والتخاطر إلى مشكلة واجهته هو وتوسك: «حيث يتماهى الفاعل مع أيّ أحد آخر إلى حد يشك في نفسه أيهما تكون أو يستعيض عن ذاته بالذات الدخيلة» «مهما يكن من أمر ما يذكرنا بعودة الإكراه الداخلي فيُنظر إليه على أنه غريب...»[21] وقد افترض فرويد في وقت سابق «إننا نعتبر «غريبًا» كل الانطباعات التي تعمل على إثبات القدرة الخارقة للأفكار...»[22].

وإذا كانت إحالة توسك إلى هيلين دويتش إطراءً لها فقد كانت إهانة كبيرة له. فعلى الرغم من خبرتها الطبية النفسية لم يكن لها أيّة أهمية كمحللة. وقد كانا، هيلين دويتش وتوسك، على يقين بأنه سيحصل على تحليل مميز، إلا أنه رفض الإهانة. وقد تنبأت لو بعدم قدرته على الاستقلال بالكامل، كما أدرك هو أيضًا ولو جزئيًا بوجود عناصر هذا الضعف في علاقاته مع النساء. ولما كان توسك عاجزًا عن الاستقلال عن فرويد، فإنه لم يشأ أن يكون غيره تابعًا له. ومن الطبيعي أن ينجذب توسك إلى اكتفاء فرويد بذاته وكذلك إلى اكتفاء لو بذاتها أيضًا. وقد رفض فرويد انضمام توسك لبعض الوقت، وهو ما أعطى لتوسك تقريبًا فرصة أكبر لمزيد من الدعم والابتعاد الذي جعله يشعر بالارتياح.

تقبّل توسك الإهانة على مضض واتجه إلى التحليل مع هيلين دويتش التي استطاعت أن تكون جسرًا بينه وبين فرويد. كان توسك يسترخي على أريكتها ستة أيام في الأسبوع وهو يعلم أنها ستسترخي على أريكة فرويد آجلًا أم عاجلًا. وبالتالي بدا كما لو أنه خضع للتحليل على يد فرويد من خلالها، وفي الوقت نفسه تمكن من إعادة بناء علاقة ثلاثية الأطراف مع فرويد من خلال امرأة، وقد تكررت نفس القصة تقريبًا حيث كانت امرأة جذابة أخرى هي حلقة الوصل بين الرجلين. أدرك توسك أن تلك المرأة تحديدًا كانت أقل تهديدًا بالنسبة إلى فرويد، ومن خلالها استطاع أن ينطلق في الدفاع عن قضيته. أما بالنسبة إلى فرويد فهيلين دويتش مثّلت مصدرًا للمعلومات عن توسك، تمامًا مثلما مثّلت لو.

وفي جلساته التحليلية مع هيلين دويتش، كان توسك يتحدث دائمًا عن فرويد. وقد تركزت كل مصاعب توسك العميقة على فرويد. رغم ذلك لم يكن حانقًا عليه ولكن أحزنه موقف أستاذه تجاهه. واعتقد توسك أن ما بينهما من مشاكل إنما سببه مصاعب فرويد الخاصة. وشعر توسك كذلك بأنه قد توصل إلى بعض الأفكار قبل فرويد، لكن هذا الأخير لم يعترف بذلك. وممّا لا شك فيه أن توسك كان قادرًا على أن تكون له أفكاره الخاصة لكنها كانت في حقيقة الأمر منسجمة تمامًا مع ما يمكن أن يكون فرويد قد فكر فيه في نهاية المطاف. ولكن طريقة فرويد في العمل كانت تثير استياء توسك، إذ تحول بينه وبين الحصول على رصيد شخصي يؤكد من خلاله ذاته بطريقة أصلية.

ينبغي القول بأن اللوم ذاته تقريبًا يقع على فرويد وتوسك على حد سواء، فحدّة الصراع بينهما ناشئة في جزء منها عن التشابه في شخصيتهما. اعتقد كلاهما على نحو متبادل بأن الآخر يقتبس أفكاره دون أن يعترف بذلك ولا يفتقد أيّ منها الأسس المتينة لمثل هذا

الاعتقاد. فقد اعتقد فرويد بأن كل ما يفكر فيه تلاميذه هو ملكه في نهاية الأمر. وبالنسبة إلى توسك لا تتمثل المشكلة في مدى ما يتسع إليه مجال تفكيره، لأن بصمة فرويد الخاصة ستنعكس على إسهاماته في النهاية. اعتقد كلاهما بأنه لا مثيل له وأن عبقريته لا نظير لها وخشي أن يدمره الآخر، وذلك رغم أن توسك هو الذي سعى وراء العلاج. ورأت هيلين دويتش بعدما سمعت شكاوى واتهامات كلاهما بأن هناك بعضًا من الواقعية فيما فكّر فيه الاثنان وشعرا به.

مهما كانت دوافع فرويد في إرسال توسك إلى هيلين دويتش، أو دوافع توسك في قبول هذه الإهانة، فقد تبيّن أن ذلك لم يكن مجديًا بسبب ما اعتبرته هيلين دويتش عبقرية توسك، أصبح الحديث عن توسك هو السمة الغالبة على ساعات تحليلها مع فرويد. وهكذا بدأ توسك يتدخل في تحليلها الخاص مع فرويد. ومع قرب نهاية آذار/ مارس عام 1919م وبعد ثلاثة أشهر، وضع فرويد حدًا لوضع محرّم.

أخبر فرويد هيلين دويتش بأن توسك أصبح عبئًا على تحليلها الخاص، وأنه ما قبل بها كمحللة له إلا ليتصل به من خلالها. وقد أجبرها فرويد على الاختيار بين إنهاء تحليل توسك معها أو قطع تحليلها الخاص مع فرويد. وبالنسبة إلى دويتش لم يكن ذلك خيارًا واقعيًا وإنما أمر. وفورًا انتهت معالجة توسك.

في هذه المرحلة من حياته، لم يعد يطيق فرويد أن يضيع وقته مع أولئك الذين يعكرون صفو حياته. فقد احتاج منه توسك المزيد لكنه أصبح ينزعج بسرعة. ولما رأى فرويد أن توسك يعتمد عليه بشكل هستيري وعصابي، ارتأى أنه من الأسهل التخلص منه بدلًا من المخاطرة بنفسه. وبالطبع صار بإمكانه الاستغناء عن أحد المؤيدين الأوائل مثل توسك مع توافد الكثير من الطلاب الجدد من جميع أنحاء العالم.

حاول توسك ترتيب حياته الخاصة. ولكنه فشل في إنشاء علاقة حاسمة مع امرأة. ومع رفضه فرويد له وفشله في الخضوع للتحليل، حاول توسك أن يرتبطْ بامرأة جديدة في حياته، وهي هيلدا لوي، وهي عازفة بيانو، تصغره بستة عشر عامًا. قابلها كمريضة أتت إليه من أجل العلاج. ومن المتعارف عليه آنذاك أن زواج المحلل من مريضته يعتبر جريمة كبرى في حق مهنته. بيد أن فرحة توسك النابعة من حبها ربما حجبت ما يعتمل في أعماق ذاته من حزن وأسى، إذ عُرف عنه أنه يتأذى عاطفيًا كلما أنهت مريضة من مريضاته علاجها

بشكل فجائي. ويمكن لنا أن نتبيّن من خلال اختياره توسك لمريضة سابقة وميض استيائه المتزايد من فرويد.

كان رفض فرويد لتوسك أمرًا شخصيًّا للغاية بحيث يصعب استيعابه أو تبريره على أسس علمية. فلم يكن توسك على استعداد ليكون واحدًا من حواري فرويد، فبدون التمرّد على فرويد قد يحبط جانبه الإبداعي. ومن ثم كان عليه أن يتبيّن ما إذا كان قادرًا على أن يكون مبدعًا بدون فرويد. ومن المؤكد أن ترك فرويد هو الحل الأسلم بالنسبة إلى توسك، لكن لماذا لم يستطع العودة إلى برلين أو يوغوسلافيا؟

من السهل التحقق من مدى سهولة أن يكون المرء مهزومًا في أوروبا الوسطى منذ خمسين عامًا. لقد كان الطب النفسي مهنة توسك الثالثة، وبعد مهاجمته هذا الطب دفاعًا عن فرويد وجد نفسه فجأة يخسر فرويد أيضًا.

كان السبب الذي ساعد على التعجيل بانتحار توسك عجزه عن إتمام زواجه من هيلدا لوي. ففي الصباح التالي لانتحاره كان قد حصل على تصريح الزواج. وعلى الرغم من أنه وقع في حبها هروبًا من مشاكله إلى حد ما، فلا بد أنه أدرك أن تلك المشاكل لن تزول تمامًا. وكما هو الحال من قبل فقد وقع توسك في الحب بحماس ومن ثمة أخفى كل شيء. وها هو يواجه إكراهات الزواج فقد كان بحاجة لأن يستفيد كثيرًا من حب هيلدا لوي أكثر من أية مرة أخرى على الرغم من علمه بأن ذلك قد حدث معه من قبل ولكن هذه المرة بدون فرويد أيضًا.

في ساعات الصباح الأولى في الثالث من تموز/ يوليو 1919م، صمّم توسك على الانتحار. كتب وصية عدّد فيها بشكل مفصل كل ممتلكاته. وكان ذلك الجرد المفصّل والمطوّل هو كل ما أمكن له فعله في سبيل تخليد ذكراه. كما كتب رسالتين وختمهما وتركهما فوق مكتبه، واحدة لهيلدا، والثانية لفرويد. وجد توسك في قرار الانتحار مصالحة مع ذاته، ورغم كل مشاعره العدوانية الموجهة إلى الداخل، فارق توسك هذا العالم وهو يكنّ الحب للآخرين. وبينما كان يكتب وصاياه كان يحتسي السيلفوفيتر وهو المشروب القومي اليوغوسلافي. ثم طوّق عنقه بحبل ستارة، ووضع مسدسه الحربي على صدغه الأيمن، وضغط على الزناد فانفجر جزء من رأسه وسقط مشنوقًا.

كتب فرويد النعي الرسمي لتوسك مثنيًا على مساهماته الكثيرة في مجال التحليل

النفسي. ولكن في رسالة إلى لو أندرياس-سالومي كان أكثر صراحة حيال ارتياحه لرحيل توسك: «أعترف أني لم أفتقده حقًّا، فقد اعتبرت منذ مدة طويلة أن لا جدوى تُرجى منه، بل كان تهديدًا للمستقبل»(*)[23] ولعل أهم مزايا فرويد الصدق في مشاعره، والجرأة في الكتابة عن بعض صفاته السيئة، وهو ما جعله عُرضة للنقد في كثير من الأحيان. وبخلاف نعيه الرسمي لتوسك وما جاء فيه من ثناء علني، فإن فرويد لم يكن يشعر بداخله سوى بالشفقة عليه.

أما لو أندرياس-سالومي فقد تفاجأت برد فعل فرويد تجاه وفاة توسك. ولكن ردّها على رسالة فرويد جاء مع ذلك ديبلوماسيًّا غاية في الروعة والبراعة. فقد وافقت على تفسير فرويد لشخصية توسك وطبعه، لكنها نجحت في تغيير مركز الثقل من حدث ما بعد الوفاة إلى قدرة توسك على الحب. فقد كان توسك يثق في شخصيته أقل من ثقته في ذكائه. وكما أشارت لو إلى ذلك في تعليق هامشي في رسالتها: «حتى مثل هذه الشخصية القوية يمكن أن تصاب بالعجز والهوان عندما تواجه القوى العملاقة المتطرفة في الداخل». ووافقت لو أيضًا على أن توسك كان تهديدًا لمستقبل التحليل النفسي. كما قبلت تملق فرويد، إذ اعتبر إنما تحمل توسك كل هذا الوقت إكراما لصداقتها معه. وهكذا تخلت لو عن توسك بسهولة بالغة، ولم تُدافع عنه إلا قليلًا، ولذلك يبدو من الصعب ألا نستنتج أنها ربما استغلت توسك طوال هذه المدة من أجل توطيد علاقتها مع فرويد.

ولم تكتب لو، التي أصبحت محللة نفسية ممارسة، إلى فرويد أيّ كلمة ثانيةً عن توسك البتة. ولكنها أثناء عودتها إلى فيينا في 1921، إذ حضرت من جديد إلى اجتماعات جمعية فيينا، سجلت في مفكرتها أنها تذكرت غياب توسك وافتقدته: «فرويد لم يتغيّر، وكان هناك خمسون شخصًا، لكن أحدهم لم يكن حاضرًا (فيكتور توسك). بحثت عنه في كل مكان، وبدا لي كما لو أن كل الوجوه القديمة المألوفة لم تكن موجودة»[24].

ظلت وفاة توسك حدثًا مشينًا ينبغي طيّه في أدراج خزانة أسرة التحليل النفسي إلى الأبد. وترى هيلين دويتش أن انتحار توسك لم يكن مسؤوليتها بل مسؤولية فرويد لأن

(*) وقع حذف هذا المقطع من النسخة الأصلية، لكنه يظهر في الطبعة الإنكليزية.

دورها كان ثانويًا ويمكن إهمالها، فقد كانت مجرد وسيط بين فرويد وتوسك. ففي الظاهر لم تتكوّن بين المريض والمحللة النفسية سوى علاقة عاطفية واهية وسطحية. بيد أن توسك تودد بطريقة ذكية إلى هيلين دويتش عن طريق قصة صراعه مع أستاذه، وهي القوة الأكثر إغراءً لدى توسك. وهكذا زاد اهتمام هيلين دويتش بهذا التلميذ المتمرد دون أن تعترف في ما بينها وبين نفسها بأن لديها هي أيضًا مآخذ على فرويد. لقد كان بإمكانها عزل دوافعها السلبية تجاه فرويد وتجسيدها في شخص توسك. وقد تكون شجعت ضمنيًا اهتمام توسك بتحليلها الخاص وتعبيراته عن المنافسة. لم تدرك هيلين دويتش أبدًا أن توسك كان يتودّد إليها بما يرويه لها من حكايات، أو أنها ربما استفادت من ذلك في علاقتها مع فرويد.

رأى بول فيديرن في رسالة[25] إلى زوجته مباشرة بعد وفاة توسك، أن الدافع الذي يقف وراء الانتحار يتمثل في فشل توسك في أن يحظى باهتمام فرويد الإنساني. وقد أكد فيديرن صراحة بأن هذا الدافع يكمن في نبذ فرويد لتوسك.

في الواقع ما كان للمشاجرة بين فرويد وتوسك أن تظل طيّ الكتمان، إلا إذا كان في ذلك حفاظًا على مكانة فرويد القوية والمنيعة. وشأن فيديرن شأن غيره في تلك الجماعة الثقافية الفرعية الصغيرة، كان يعرف مسبقًا بأن تخلي فرويد عن شخص ما يمكن أن يؤدي إلى هلاك هذا الأخير شخصيًا، ذلك أن طرد شخص من جماعة ثورية هو بمثابة هلاك يفوق في شدّته الموت العادي.

كانت لو أندرياس-سالومي، تعلم أن عصاب توسك ممتد بحيث يمكن أن يشمل شخصيته بأكملها، وأن صراعه مع فرويد قد أتى عليه تمامًا. ولكنها كانت تعرف أيضًا أن القوة بقدر ما تصغّر من أولئك الذين يخضعون لها، تصغّر كذلك أولئك الذين يستخدمونها. ومع أنها ظلت مخلصة لفرويد حتى وفاته في عام 1937م، ساعدت ابنة فرويد آنا في مجال التحليل النفسي، وكان فرويد غالبًا ما يرسل إليها الأموال في فترات محنتها، فقد أمكن لها خلافًا للكثير من أتباع فرويد، أن تعترف إلى أي مدى كانت إنجازاته مرتبطة بحدوده. كما كتبت في إحدى المرات «حين نكون أمام شخص يشعرنا بأنه عظيم، أليس حري بنا أن نعتبر معرفتنا بأنه ربما لم يحقق عظمته إلا من خلال نقاط ضعفه حافزًا بدل أن نرتجف من الأمر؟»[26].

3 - الحواريون

كتب هانز ساكس (1881 ـ 1947) باعتباره شخصيّة فذّة عن الحياة الفكرية لليهود في فيينا. كان ماهرًا وذكيًا، ويحفظ عددًا لا يُحصى من أفضل النوادر اليهودية»[1]، كما كان مهذارًا متفائلًا ومفعمًا بالحيوية والحماس والفرح، ومع صراحته وقامته القصيرة كان البعض يشبهونه بالبومة. أحب الطعام الشهيّ والخمر والنساء الجميلات وكان يتردد على المقاهي ولم يكن زوجًا سعيدًا لفترة قصيرة، ولما كان لا يتحدث كثيرًا عن ذلك، فإن عددًا قليلًا من أتباعه كانوا يعلمون بذلك. كان أعزبًا سعيدًا مع النساء، ويستمتع أيضًا بمشاهدة الأفلام والعروض المسرحية الهزلية عندما أتى إلى أميركا.

ومنذ البدء لم يكن ساكس راضيًا عن حياته كمحام. انضم إلى حلقة فرويد لمدة تسع سنوات. وفي عام 1919، بعد ابتلائه بمرض السل، تركَ مهنة المحاماة نهائيًا وقرر أن يتفرّغ لممارسة التحليل النفسي كـ«محلّل عاميّ» (غير مؤهل طبيًا). فقد استقبل فرويد أشخاصًا من مجالات مختلفة، عسى أن يطبّقوا منجزه في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. أراد منهم أن يمارسوا التحليل حتى يفهموه تمامًا، غير أنهم ما لبثوا أن تخلّوا عن وظائفهم السابقة، ولا يعتقد فرويد بأن شخصًا ما يكون محلّلًا متخصصًا دون أن يتفرّغ لذلك طوال الوقت.

وجد ساكس في التحليل النفسي معنى لحياته: «لقد تبيّن لي من خلال قراءتي لتفسير الأحلام أنه الشيء الوحيد الذي يستحق أن أحيا من أجله، وبعد مرور سنوات عديدة (1919)، اكتشفت أنه كان أيضًا الشيء الوحيد الذي يمنحني الحياة»[2]. كانت اهتمامات ساكس منذ البدء متنوعة، ولكن بمجرّد أن ابتعد عن القانون وأصبح محلّلًا نفسيًا حتى صار عالم فرويد محور حياته، وكان رسولًا أكثر من عالم بحيث اعتبر التحليل النفسي بمثابة دين يُوحى.

اهتمّ فرويد اهتمامًا شخصيًا كبيرًا بساكس حتى أنه كان من الأوائل الذين حصلوا على الخاتم العزيز، وقد عُيّن ساكس إلى جانب أوتو رانك، وساندور فرينشيزي، وكارل أبراهام، وإرنست جونز، في اللجنة السرية التي أسسها فرويد قبل الحرب العالمية الأولى (بعد انفصال أدلر، ويونغ، وستيكل) من أجل دعم القضية. وقد تقدم جونز بفكرة إلى فرويد نالت إعجابه دون تردّد: «لا بدّ أن تكون هذه الجمعية في كنف السرية التامة في وجودها

وفي نشاطاتها». كان فرويد قلقًا على مستقبل التحليل النفسي، «أشعر بعدم الارتياح مما قد يفعله الرعاع بالتحليل النفسي عندما أفارق الحياة»[3]. لقد كانت الجمعية في بدايتها في أواخر ربيع 1913 بمنزلة مجموعة من الأفراد، و«في الخامس والعشرين من أيار/ مايو عام 1913، احتفل فرويد بهذا الحدث حيث أهدانا نقشًا يونانيًا غائرًا من مجموعته ثم في ما بعد أصبحت هداياه على شكل خاتم ذهبي كان فرويد نفسه يحمل مثله لفترة طويلة...»[4]. أشار فرويد مرة إلى أن الخاتم «قطعة ذات معنى رمزي...»، له صلة «برابطة جنسية»[5]. فإذا منح أحدهم هذا الخاتم كان معناه بصفة خاصة أنه اختير ليحمل رسالته.

وبدون الخبرات الطبية السّابقة، أصبح ساكس واحدًا من الأوائل الذين سخّروا أنفسهم بشكل رئيس لتحليل محللي المستقبل. وكما كتب ساكس عن الغرض من مثل التحليلات «التعليمية»:

> **«تتطلّب الأديان دائمًا فترة تدريب ورهبنة لأولئك المتعصّبين الذين يرغبون أن ينذروا حياتهم بتمامها لخدمة العالم العلوي والخارق للطبيعة، وبلغة أخرى أولئك الذين سيصبحون قسيسين ورهبانًا... يحتاج التحليل، على ما يبدو، إلى ما يشبه الرهبنة الكنسية»[6].**

انتقل إلى برلين عام 1920، حيث أنشأ أول مركز للتدريب على التحليل النفسي، ومن بين أكثر الأشياء جاذبية في التحليل النفسي كمهنة إمكانية ممارسته في أي مكان. وقد أكّد ساكس دائمًا على أهمية تعزيز الجانب الإيجابي في علاقة المريض بمحلّله النفسي، فمن بين الذين خضعوا للتحليل النفسي نجد إريك فروم، فرانز ألكسندر، وإيدوين بورينغ، غريغوري زيلبورغ، و كارن هورني، وجون دولار. وفي الوقت الذي كان فيه الاعتماد على تقنيّة العلاج النفسي ضيّق النطاق، ألقى ساكس محاضرات على نطاق واسع في هذا الموضوع. وفي فترات الصيف من تلك الأيام كان أمرًا عاديًا لساكس، ولثلة آخرين، أن يشرفوا على جحافل المتدرّبين (الذين أحضروا مرضاهم معهم أيضًا) أثناء العطلة، وهو ما وفّر لساكس المال، وكان ذلك مفيدًا بالنسبة للمتدربين أيضًا، خاصة أولئك القادمين من الخارج، بما أنّ التحليل كان متاحًا في العطلة المدعومة ماليًا.

كان اهتمام ساكس فنيًا (وليس ملمًّا بسياسة الحركة الفكرية) حيث عمل بشكل خاص على تطبيق التحليل النفسي على المشكلات الثقافية، وألّف دراسات وأعمالًا أدبية وكتابًا عن الإمبراطور الروماني كاليغولا، وكان ساكس إلى جانب أوتو رانك محرّرًا مؤسّسًا

«للإيماجو» (1912)، وهي صحيفة متخصصة في الجوانب غير الطبيّة للتحليل النفسي. وفي عام 1932 دُعي إلى بوسطن كمحلِّل نفسي مدرب تحتاجه المدينة بصفة ملحة. لكنه اشترط أن يكون نصيبه ثمانية مرضى قبل أن يوافق على الذهاب إلى هناك بيوم واحد، ولم يجد المحللون المحليون صعوبة في تلبية طلبه. ففي مدينة طبّية عتيقة مثل بوسطن، واجه ساكس بوصفه محللًا عاميًّا (غير مؤهل طبيًّا) بعض المشاكل قبل أن يُعيّن مدرسًا في جامعة هارفارد الطبية.

كانت سنواته الأخيرة حزينة: فبالإضافة إلى معاناته من أزمة قلبية، علم أن عددًا قليلًا فقط من أصدقائه وأقاربه نجوا من الهولوكوست النازي، وقد شعر أيضًا بخيبة أمل عندما خاب أمله في أن يُحوّل مريضة إنكليزية إلى تابعة مخلصة، وهي الكاتبة التي كانت تطلق على نفسها اسم براير Bryher، وقد آثرت الانسحاب إلى سويسرا. واجه ساكس مصاعبه الخاصّة مع المحللين المحليين الذين كانوا يحاولون أن يفرضوا إجراء تنظيميًّا لقبول المرشّحين للتدريب. وقد اتّفق ساكس مع فرويد في الكثير من الطرق الأكثر تعسفية في قبول المرشح للتدريب ووجوب إبلاغ مؤسسة التحليل النفسي المحلية بذلك.

لقد كانت علاقة ساكس بفرويد بمنزلة علاقة الابن بأبيه، فكان كتابه عن أستاذه، الذي كتب قبل وفاته بفترة ليست طويلة، عبارة عن قصيدة حب. وفي برلين «وضع تمثالًا نصفيًّا لفرويد منتصبًا على منصة خشبية مواجهة للأريكة التي يسترخي عليها المريض»[7]. كما سعى ساكس في عاداته إلى التشبّه بفرويد ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، كان أعضاء حلقة فرويد كافة يدخنون، ومعظمهم يتعاطى السيجار. علاوة على أنه اكتسب بعضهم سمات فرويد العصابية. من ذلك مثلًا أن فرويد كان دائم القلق أثناء السفر ويحضر إلى محطة القطار قبل الموعد المحدد، وكذلك ساكس تمامًا، كان يسير على طول رصيف محطة القطار قبل انطلاقه.

من بين الأتباع المخلصين لفرويد من مجموعة فيينا، كان تيودور رايك (1888ـ1969) وهو الأكثر شهرة لدى عموم القرّاء اليوم. وطوال حياة فرويد كانت كتابات رايك جادة، وأحيانًا أصيلة. وكان واسع الاطلاع على الدين، ولما كان محلّلًا عاديًّا، فقد شجعه فرويد. وألّف كتاب فرويد حول التحليل النفسي العادي نيابة عن رايك الذي واجه دعوى قضائية بموجب القانون الفييني ضد الدجل.

مارس رايك التحليل في برلين وهولندا. وفي ذلك الوقت، كان التنقل من جمعية للتحليل النفسي إلى أخرى متاحًا، بسبب القلاقل السياسية وعدم الاقتناع بهذه المجموعات. وحتى في فيينا، وبعد قدومه إلى أميركا بفترة طويلة، كان رايك شخصًا نشيطًا. وفي فيينا، كان شديد الاهتمام بإظهار إعجابه بكل كلمة يتلفظ بها أستاذه. وقد خصّصه فرويد للتحليل لفترة قصيرة، بعد وفاة زوجة رايك الأولى، وعندما غادر أوروبا إلى الولايات المتحدة، ركّز رايك على ارتباطه بفرويد.

لم يستطع رايك أن يستمر مع المحللين في نيويورك، على الرغم من أنه أسّس مجموعة التدريب الخاصّة به هناك. فقد عمل دائمًا على تقليد فرويد، في طريقة تدخينه وفي أسلوب كتابته، وحتى في طريقة كلامه، وقد أطلق لحيته في أميركا تشبّهًا بفرويد. كانت جدران مكتبه مغطاة بصورة فوتوغرافية تعكس مراحل حياة فرويد، ولقد أبدى إعجابه خاصة بفرويد التلميذ. وأصبحت كتابات رايك روائية البُنى رغم أنه بذل الكثير من أجل أن ينشر الأجزاء المحورية من علم النفس لفرويد، مثل أهمية المازوشية في نظرية علم النفس التحليلي.

أما هيرمان ننبرغ (1883 ـ 1970) فقد كان واحدًا من أكثر الأعضاء علميّة في «جمعية فيينا»، ولم يحظَ بمكانة متميزة لدى فرويد نتيجة مزاحه البغيض. في أواخر حياته تقريبًا، تزوّج من مارغريت راي، صديقة آنا فرويد وابنة صديق فرويد القديم أوسكار راي، ولما كانت خبرة ننبرغ مع بول فيديرن محدودة، فقد خضعت زوجته للتحليل لبعض الوقت لدى فرويد، وكانت أيضًا أخت المحلّلة ماريان كريس التي خضعت هي بدورها للتحليل على يدي فرويد، وكان زوجها إرنست كريس تلميذا بارزًا في آخر حياته. لقد أصبح ننبرغ عضوًا موثوقًا به في عائلة فرويد بفضل زواجه ومهنته كطبيب نفسي ومحلّل نفسي أيضًا.

كان ننبرغ واحدًا من أفضل المحلّلين الأرثوذوكسيين، حتى المناهضين لنظرية فرويد عن غريزة الموت، والتي رفضها الآخرون، وفي إحدى المرّات درّب لورنس كوبيه، غريت ببرنغ، وويلي هوفر. ونظرًا لإخلاصه وخضوعه لفرويد، كان ننبرغ من صُنف الأشخاص «المذعنين»، وقد كتبت عنه هيلين دويتش بلباقة «شائعة» أحاطت بفرويد في النهاية.

يعزى إسهام ننبرغ الرئيس في التحليل النفسي إلى قدرته على نَسقَنَةِ بعض تصورات فرويد غير المنتظمة نظريًا وبشكل لامع ومحترف. حاول ننبرغ (بعد ثورة أدلر ويونغ بسنوات عديدة ولكن بلباقة تختلف عن لباقتهما) في دراسة مشهورة في أواخر عشرينيات

القرن العشرين حول الوظيفة «التأليفية» للأنا، أن يعترف بدور عوامل التحليل النفسي التي لم تتضمنها نظرية فرويد الأولى حول الغريزة. وكان فرويد آنذاك مهتمًا بسيرورة الأنا. وحسب رواية نتبرغ عن مناقشة فرويد لهذه الدراسة التي عرضت في شقة فرويد، قال البروفيسور:

«يُذكّرنا مقالك بصورة قدّمها شويند (رسام نمساوي مشهور في نهاية القرن الثامن عشر). فهي بمثابة كنيسة صغيرة على قمة تل شديد الانحدار حيث يقوم القديس فولفغانغ، الأسقف الذي يقف أمامها، بإيماءة سحرية، بينما الشيطان يلهث ممدود اللسان وهو يدفع العربة المحملة بالأحجار الثقيلة من أسفل التل إلى أعلاه. أحسد الأسقف الذي يقوم بإيماءة سحرية لكي يُجبر الشيطان على هذا العمل الشاق نيابة عنه فتقع الأحجار في الأماكن المخصصة لها. يبدو لي أنّي الشيطان الذي يقوم بهذا العمل الشاق، في حين أنك من يعطي الإيماءة السحرية، وكل شيء يقع في مكانه»[8].

حسب رواية ساكس عن هذا الاجتماع نفسه، فإنّ المشكلة بالنسبة لفرويد لم تكن أكثر من تفضيله للشيطاني والسفلي مقارنة بالديني والعلوي، ولكن للطبيعة التأملية (بدلًا من الإكلينيكية) لعرض نتبرغ. وبالإضافة إلى ذلك، وحسب أسطورة القديس فولفغانغ، فإن الشيطان هو الذي أقام علاقة مع القديس ليمدّه بالأحجار لبناء الكنيسة، ولكن الشيطان يُخدع في مكافأته المستحقة. يقول فرويد:

«كان المنجم من نصيب الشيطان، وكان لا بدّ لي أن أحصل على الأحجار من المقلع ما استطعت إلى ذلك سبيلًا وكنت سعيدًا عندما نجحت في ترتيبها طواعية، كي تكوّن ما يشبه المبنى. كان عليّ أن أقوم بالعمل الشاق بطريقة شاقة. والآن دورك لتجلس وتتأمل مطمئنًا ومن ثم تصمّم خطة من أجل صرح متناغم، وهو ما لم تسنح لي الفرصة قط للقيام به»[9].

وبعد ذلك أعطى فرويد نتبرغ قطعة حجرية نقشت عليها صورة للشيطان والقديس العابد، مع ما في ذلك من بعض التحفّظ الساخر في تقديره لأعمال نتبرغ. وحيث تداخلت منزلة فرويد كإله مع نشأة شخصيات عظيمة وبعيدة النظر في هذه الحلقة، مثل يونغ وأدلر، فإن هذا الأمر مثلّ لشخص نتبرغ مشكلة بسيطة. وفي ذلك رضا عظيم كتابع، وأما كتلميذ فذلك يعني تطوير لمسيرته. وأي شخص في مكان فرويد كان سيتخيّل دائمًا أنه هو مكتشف كل شيء.

كان كارل أبراهام (1877 ـ 1925) من بين أولئك الذين أهدى لهم فرويد خاتمًا، وهو اليوم أكثر العلماء احترامًا، ولم يستقبل فرويد أبراهام بحماسة كما استقبل ساندور فرينشيزي، ومع أن فرويد فضل أشخاصًا أقل تكلّفًا وأكثر ألقًا، إلا أنه أشاد «بوضوح أبراهام، وتماسكه، وقدرته على الإقناع»، وفي فترة مبكّرة ندم فرويد على أنه لم يوفّق في «تسخير» كل من دقة أبراهام و«حماسة يونغ»[10]. عبّر فرويد عن تذمّره بأنّ أبراهام لم يكن «مقدامًا»[11]. إلا أنه كرّس نفسه بشكل كامل للتحليل النفسي، بيد أن تكريسه ذاك خلى من شعور الانغماس الشخصي. ففي رسائله المطوّلة لفرويد، بدا أبراهام شخصًا مستقيمًا مملًا، وقيل إنه اتخذ موقفًا «متعقّلًا» تجاه «الخصوم» (مثل أدلر، يونغ، ولاحقًا، رانك) أكثر من فرويد نفسه. لعل أبراهام جعل الموقف السيئ أكثر سوءًا، بعيدًا عن الغيرة، كما اعتقد ذلك فرويد أحيانًا آنذاك. حاز أبراهام ثقة فرويد مما مكّنه من أن يخلف يونغ في رئاسة «الجمعية العالمية للتحليل النفسي» في 1914.

مهما تكن عيوب أبراهام، فإنه يظل مفكرًا وإكلينيكيًا تميّز بقدرة معتبرة على التنظيم، إذ كان المسؤول الرئيس عن تطوير مركز برلين للتحليل النفسي على نحو ما هو عليه. وبعد الحرب العالمية الأولى بدأ المحلّلون في إنشاء مراكزهم الخاصّة لتدريب المجنّدين. وإذا لم تكن ذات صفة رسمية في ما مضى فقد أصبحت مثل هذه المعاهد اليوم أكثر تنظيمًا، وتتّصف بضوابط متينة، وجلسات للمناقشة ولجان، ورغم ذلك، كان متاحًا للمعاهد الأولى نشر تعاليم فرويد. ومن ذلك الحين أصبح بالإمكان الإشراف على المرشّحين للتدريب دون الاعتماد مباشرة على توصيات فرويد الشخصية.

في العشرينيات من القرن العشرين، قدّمت برلين أفضل أدوات التدريب، وقد ذهب ساكس إلى هناك بصفة خاصّة ليخفف أعباء التدريب عن أبراهام، ففي فيينا يوجد البروفيسور، وسرعان ما أصبح لبرلين هي أيضًا فرانز ألكسندر وساندور رادو، بالإضافة إلى أبراهام وساكس، ورغم المنافسة التي شهدتها تلك الفترة بين فيينا وبرلين. لم يكن في فيينا معهد يعمل إلى حدود 1925، ولم يكن معهد فيينا ناجحًا أبدًا مثل معهد برلين، سواء من حيث عدد المرشحين أو جودة التدريس أو الموارد المالية.

خُصّصت أموال ماكس ايتنغون (1881 ـ 1943) لتأسيس مستشفى برلين العام في 1920 وكذلك معهد برلين للتحليل النفسي. وقد كان طبيبًا روسيًا وله أفكاره المستقلة. خضع ايتنغون للتحليل على يدي فرويد أثناء الجولات المسائية في فيينا. وقد جاء على لسان

ايتنغون قوله: «سأكون مخلصًا بشكل كامل لفرويد»[12]. ومنذ البداية أضاف فرويد ستة أعضاء للجنته السريّة وكان من بينهم خاصة أنطون فون فرويند، وقد كان منتج جعة مجري ثري. وعندما توفي في 1920 (خصصت بعض أمواله لإنشاء معهد برلين)، وقد قرر فرويد أن يهب مكانه في اللجنة لإيتنغون. لا نعرف الشيء الكثير عن إيتنغون، فهو لم يكن مدرّسًا أو متحدثًا بارعًا (فقد كان يتلعثم في الكلام) ولم يعد ذلك يكتب شيئًا(•). وشأنه شأن بقية أعضاء اللجنة، كان شخصًا مثقفًا، ولكن أدناهم علمًا، وقد انشغل أساسًا بوضع مقاييس التدريب للرابطة العالمية للتحليل النفسي. ولم تقبل زوجته انضمامه لفرويد، ولكن موقف الزوجات من أعضاء حلقة فرويد لم يكن أمرًا هامًا. تعكس فقرة من إحدى الرسائل العديدة التي أرسلها فرويد إلى ايتنغون الذوق العام للجمعية عام 1922:

«اغتنم هذه الفرصة لأردّ على إشارتك إلى الذكرى الخامسة عشرة لبدء علاقتنا. فأنت على دراية بالدور الذي لعبته في حياتي وكذلك في أسرتي. أعلم أنني لم أكن في عجلة كي أخصّص ذلك لك. ولسنوات عديدة، كنت على بيّنة بما تبذله من جهود للتقرّب مني، وقد ظللت معك في الخليج. فقط بعد أن أعربت بهذه العبارات التي تفيض عطفًا عن الرغبة في الانضمام إلى عائلتي - بمعنى أقرب - علام استسلم للطرق الموثوقة السهلة في بداياتي، وأن أقبل بك وإلى الأبد منذ أن سمحت لك بأن تسدي لي أيّ خدمة فارضًا عليك أيّ مهمة.

أعترف اليوم أني لم أقدّر في البداية تضحياتك بشكل لائق مثلما فعلت مؤخرًا بعد الاعتراف بذلك - فلقد انشغلت بالزوجة الحبيبة والمحبوبة، التي لم تكن شغوفة بأن تشاركك مع الآخرين، وارتبطت بعائلة كانت متعاطفة تجاه مساعيك بشكل محدود - لقد أرهقتَ نفسك، في الواقع، من خلال تقديم هذا العرض. ولكن لا ينبغي أن تستنتج من هذه الإشارة أنني مستعدّ لأن أتخلى عنك. فتضحياتك صارت في مجملها أكثر قيمة بالنسبة لي، وإذا صارت كذلك بالنسبة إليك، عندها لك أن تخبرني. ولذلك اقترح أن تستمرّ علاقتنا التي تطوّرت من صداقة إلى علاقة أبوية حتى آخر يوم من حياتي»[14].

(•) افتتح إيتنغون مؤتمر التحليل النفسي في إنسبروك في 1927 بخطاب بلهجة لا تخلو من منافسة للمحللين الأوائل: "إن مؤتمرنا هذا العام هو للاحتفال بمرور عقد على مؤتمرنا هذا، ورغم أن هذه السنة هي العاشرة والأخيرة من هذا العقد حيث شهد المؤتمر تطورًا كبيرًا ورائعًا وإن بصمت، واستطاع أن يشق طريقه بشكل لا مثيل له في اتجاه فتح الإنسان والبشرية بأسرها، فإن لم تكن أسماء مثل نورمبرغ، فايمار، ميونيخ، بودابست، هاغ، برلين، سالزبورغ، هامبورغ وإنسبروك، ميادين بالفعل للمعارك التي خاضها فرويد والتحليل النفسي، فإنها على الأقل استطاعت أن تساهم في مراجعة ما أنجز واكتمل، كما أنها مثلت برق دعاية لتلك المسيرة التي لا بد أن نأخذها في عين الاعتبار دائمًا"[13].

ومهما فعل ايتنغون (الذي فقد أمواله في الانهيار العظيم عام 1930) من أجل معهد برلين، فإنّ أبراهام (وكذلك احترام فرويد له) هو الذي جذب الناس إليه من الخارج. ومن بين كل المحللين الأوائل، ما عدا فرويد نفسه، تدرّب على يدي أبراهام أكثر محللي المستقبل الأكثر بروزًا، وهم ساندور رادو، واليكس ستراتشي، وإدوارد وجيمس غلوفر، وهيلين دويتش، وتيودور رايك، و كارن هورني، وميلاني كلاين وإرنست سيميل، كانت تقنية أبراهام في العلاج النفسي تتصف بالسهُولة، والهدوء، والانضباط[15].

فرضت شخصيته وأعماله الاحترام والثناء، ليس من تلاميذه القدامى فحسب ولكن من صديقه إرنست جونز كذلك. فقد نسق أبراهام أفكار فرويد عن مراحل الليبيدو ونجح في بلورتها بشكل أكثر إقناعًا، ومثله مثل قلة آخرين في هذه الحركة ممن تلقوا تعليمهم في مدرسة سويسرا للطب النفسي انهمك أبراهام بفهم الذهان. وفي مجال يتّسم بقلّة النظام مثل التحليل النفسي، لسوء الحظ، من الممكن أن يكون ذلك إغراءً لبعض من المنظرين. إن من أحد مزايا أعمال رايك وساكس أنهما عارضا صراحة مقاربة أبراهام المفرطة ونسقها، «المقاربة المنظمة والمنهجية والتشريحية للوعي»[16].

اعتمد فرويد على أبراهام كنصير لا يلين حتى مرض هذا الأخير ثم فارق الحياة، من سرطان الرئة ربما، في أواخر عام 1925(*). أقضت وفاة أبرهام مضجع فرويد، خاصّة وأنها تصادفت مع مرضه. فالاجتماع التاريخي لجمعية فيينا أصبح أسطورة بين المحللين، إذ خشي فرويد من أن يضع حضوره حدًا لمناقشات هذه الاجتماعات، ومع بداية ظهور السرطان عليه لأول مرة (الذي أثّر على قدرته على الكلام) توقّف فرويد عن الذهاب إلى جمعية التحليل النفسي. كان الاجتماع الذي انعقد على شرف أبراهام الاستثناء الأول والأخير لقرار فرويد. وأصبح رايك آنذاك تابعه الأثير حيث كلّفه بتسليم التقريظ الذي كتبه فرويد بالمناسبة لكنّه تأخر عن الموعد بعض الدقائق مما أثار قلق فرويد. ترأس فيديرن الاجتماع، وفي الإشارة إلى زميلهم الراحل، استبدلوا اسم أبراهام باسم رايك (شعر فيديرن لاحقًا أن عليه المضي قدمًا في شرح زلّات لسان فرويد)(±)، وقد غضب فرويد من التجاذبات التي بدأت تدبّ بين التلاميذ، ولأن حضوره من عدمه لم يعد يعني شيئًا، لم يعد

(*) رغم آلام الرئة، أكّد أبراهام على إجراء عملية للمرارة، ومن الغريب أن يفكر ساندور رادو في أنّ أبراهام وضع حدًّا لحياته لتجنّب الصراع مع فرويد، بالاستئناس برأي فيدرين حول موت توسك.

(±) أنظر أعلاه، الفقرة 3 من الفصل 2.

إلى جمعية فيينا للتحليل النفسي مرة أخرى، ففي نعي فرويد لأبراهام الذي نشر، اعتبره قائلًا «لقد كان واحدًا من الآمال الصارمة لعلمنا هذا، وشابًا بأتم معنى الكلمة وظل لاذعًا في هجومه، وهو جزء من مستقبل هذا العلم الذي ربما لم يتحقق بعد»[17].

4 - المطاردة الوحشية

كان جورج غروديك (1866 ـ 1934) مختلفًا عن أبراهام فأفكاره تفتقد للنسقية والانتظام، ولكنه كان ملهمًا تمامًا مثل أبراهام الذي كان رجل علم منضبطًا. وكان غروديك، وهو ألماني أيضًا، قد أفزع الكثير من أتباع فرويد ممن يعتبرون التحليل النفسي على أنه كيان علمي في مجال المعرفة. كان غروديك رجلًا مبدعًا، ويتمتع بحدس سيكولوجي وموهبة أدبية. وبحسب غروديك يستعمل فرويد، ويعترف بذلك، «هو» في الألمانية dass Es أو it في البلدان الناطقة بالإنكليزية عوضًا عن الكلمة اللاتينية id «الهو» وتعني مجموع الدوافع الغريزية التي تصطرع داخلنا دون أن نعيها (اقتبس غروديك «هو» بدوره المصطلح من نيتشه، كما أشار إلى ذلك فرويد). وقد لخص فرويد موقف غروديك، قائلًا «لم يجد عناءً أبدًا في التأكيد على ما نسمّيه بالأنا الذي يتصرّف أساسًا بشكل سالب في الحياة، والذي كما أعرب عن ذلك، إننا «نعيش» من خلال قوى مجهولة وخارجة عن سيطرتنا»[1]. وبوصفه معالجًا، ركّز غروديك على الأعراض العضوية وعلى معانيها الرمزية. وهو أول من كتب عن الاضطرابات السيكوسوماتية، وقد كان أيضًا رائدًا في التأكيد على دور المرأة في نمو الطفل وكذلك على المزاجيات الأنثوية غير المعترف بها من قبل الرجال عمومًا مثل أوهام الحمل. وكان خيال غروديك واسعًا. وحتى إن لم يحترمه فرويد بشكل كامل، فقد نال حبّه من ذلك مثلًا أن فرويد دافع عنه ضد تضييق القس السويسري بفيستر، وبدوره بفيستر ادّعى مخاطبًا فرويد «إن الحالة الذهنية التي قادتك إلى تشجيع غروديك هي ذاتها تحديدًا التي جعلت منك مكتشفًا ورائدًا في علم النفس التحليلي»[2].

شعر فرويد بأنه أقرب إلى غروديك من أبراهام، وعن أحد مؤلفات غروديك، كتب فرويد يقول إنه «كتاب ثاقب يضاهي الرابيليه»[3]، وبقدر ما وهب فرويد غروديك عطفه، بقدر ما واجه التهديد ذاته من قبل بعض أتباعه المشهورين، وفي الخامس من حزيران/ يونيو عام 1917، وفي ردٍ على إعلان غروديك عن مساجلته المميزة، كتب فرويد:

«لقد مضى وقت طويل منذ أن استقبلت رسالة أسعدتني وأثارت اهتمامي كثيرًا،

وأغرتني أن أغيّر في إجابتي عليها بما تقتضيه الكياسة العادية لسبب غير معروف مع وضوح في التحليل».

سأبذل قصارى جهدي: «يبدو أنك تستحثني لأؤكد لك بصفة رسمية بأنك لست محلّلًا نفسيًّا، ذلك لأنك لا تنتمي إلى حشد الأتباع، ولكن يمكن أن يُسمح لك بأن تعتبر نفسك منعزلًا ومستقلًا، وبداهة يتعيّن عليّ أن أقدّم لك دعمًا كبيرًا بإقصائك حيث موضع يونغ وأدلر وآخرون، ولكن هيهات ذلك ما لا أستطيع الإقدام عليه، عليّ أن أزعم وأن أؤكد بأنّك محلّل من الطراز الأول الذي يفقه جوهر الأمور مرة واحدة وإلى الأبد، وأنك الشخص الذي اعترف بأنّ التحويل والمقاومة هما قطب الرحى لعلاج ينتمي بلا رجعة إلى «المطاردة الوحشية» وحتى إن أطلقت على اللاوعي اسم «الهو» فلن يختلف الأمر في شيء أيضًا».

مال فرويد إلى اعتبار أتباعه كحشد في «مطاردة وحشية» بما يتناسب مع صورته كفاتح لا يشق له غبار. وإذ وبّخ فرويد في السنوات الخمس الأولى توسك بسبب تعليقه على السيكوسوماتية، وعلى اعتبار أنه «من السابق لأوانه الحديث عن هذه الأشياء»، فإنه أصبح الآن ليس مستعدًا فحسب لأن يسلّي نفسه بمثل هذه المناقشات ولكن مصمّم أيضًا على تسوية مسألة الأصالة، بطريقة تذكّر بحادثة الكوكايين:

«دعني أبيّن لك أنّ فكرة اللاوعي تتطلّب عدم التمادي في التعتيم على تجاربك بالأمراض العضوية. وفي مقالي عن اللاوعي الذي ذكرتُه ستجد إحالة مبهمة: «امتياز إضافي للاوعي سيذكر في سياق آخر». سأفشي لك سرًا بشأن ما تشير إليه هذه الإحالة: التأكيد على أن اللاوعي يؤثر في العمليات الجسدية بشكل أكبر بكثير مما يقدر الفعل الواعي. لقد كتب صديقي فرينشيزي، الذي لا يستبعد هذه الفكرة، مقالًا عن الأمراض العصبية يُنتظر أن يُطبع في «الإنترناشيونال زايتشريفت»، وهي فكرة قريبة جدًّا من اكتشافاتك. وهي وجهة النظر ذاتها التي اضطرته ليبيّن لي من خلال التجربة البيولوجية مدى توافق استمرارية نظرية لامارك في التطوّر مع آخر ما توصل إليه التحليل النفسي. ثمة تناغم كبير بين ملاحظاتك الجديدة وبين منطقية هذا العمل الذي سنُسرّ له إذا ما استطعنا أن نعود إلى مقالتك المنشورة أصلًا عندما نكون جاهزين لطباعته».

أشارت رسالة غروديك إلى فرويد إلى حسده لما أفصح عنه فرويد، وبعد الترحيب بانضمام هذا الطالب الجديد إلى المجموعة، والتنويه في الوقت ذاته بأن أفكار غروديك

كانت منذ البداية متوقعة في جزء منها، ناقش فرويد اهتمامه الخاصّ بالقنوات الخفيّة واستخف باهتمام تلميذه بالأصالة والأولويات:

«فبينما ينبغي أن أرحّب كثيرًا بانضمامك بذراعين مفتوحتين فلا شيء يمكن أن يضايقني سوى: أنّك قد نجحت، بداهة، بشكل محدود جدًّا في أن تقهر ذلك الطموح المبتذل للتلهف للأصالة والأولوية. وإذا كنت تشعر بالثقة في استقلالية اكتشافاتك، فلماذا تدّعي الأصالة؟ ثم أنى لك أن تتأكد من ذلك؟ وفوق كل ذلك، يجب أن تكون في سنّ تتراوح بين العاشرة والخامسة عشرة، أي أنك ربما تصغرني بعشرين عامًا (1856)، ألم تستوعب الأفكار الرائدة في التحليل النفسي بطريقة مشفرة تساعد على تقوية الذاكرة شبيهة بالطريقة التي بيّنت من خلالها أصالتي؟ ومع ذلك أليس من المفيد أن نناضل من أجل أولويتنا قياسًا بالأجيال الماضية؟ آسف على طرح هذه المسألة في مداخلتك لأنّ التجربة بيّنت أنّ الرجل ذو الطموح الجامح يضيع، ويصيبه الهوس بفقدانه للعلم وتطوره الشخصي.

لقد أحببت بشكل كبير بعض ملاحظاتك، وأتمنى أن تحتفظ بخصوصيتها مهما تكن صرامة الانتقادات التي تواجهها. ومع أن المجال بأكمله لم يكن جديدًا بالنسبة لنا، فإن هذه الأمثلة عن الرجل الأعمى لم تُطرح قبلًا».

ولانزعاج فرويد ما يبرره، فلقد كان يخشى أن تنتهي حماسة غروديك إلى ضرب من التصوّف، وكان على حق لقلقه من يونغ وأخطار «النزعة الأحادية» و«الفلسفة». ويقينًا كان غروديك يميل إلى اعتبار اللاوعي في كل مكان، فتصادم قطارين، لا يحتاج بالضرورة إلى دافع خفيّ.

أما في ما يتعلق باعتراضي الثاني: «لماذا انغمست انطلاقًا من وجهة نظرك الرائعة في التصوّف وألغيت الفرق بين الظواهر النفسية والجسدية وألزمت نفسك بالنظريات الفلسفية التي لا حاجة لنا بها؟ وفوق ذلك لم تتوصل تجاربك إلى تبيّن أنّ العوامل السيكولوجية تلعب دورًا مهمًا بشكل غير متوقّع في أصل الأمراض العضوية، ولكن هل هذه العوامل السيكولوجية لوحدها مسؤولة عن هذه الأمراض، وهل تأخذ في عين الاعتبار الاختلاف بين ما هو نفسي وما هو جسدي؟ بالنسبة لي يبدو الأمر بقدر ما يكون اعتباطيًّا أن تهب للطبيعة بأكملها نفسًا، بقدر ما يمكن إنكار أنّ لها نفسًا بشكل راديكالي، فلنضمن للطبيعة تنوعها اللامتناهي الذي يتجلّى في الجمادات كما في الكائنات العضوية الحيّة، وفي الجسد الحيّ بما هو كذلك كما في الروح، وممّا

لا شكّ فيه أنّ اللاوعي يقوم وسيطًا لا غنى عنه بين الجسدي والعقلي، وربما يكون هو «الرابط المفقود» منذ أمد طويل. ولكن إذا لم نعترف بهذا إلا مؤخرًا، فهل ثمّة ما يمنع أن نبحث عن شيء آخر؟

أخشى أن تكون فيلسوفًا أيضًا ذا نزعة أحادية بحيث تستخف بما في الطبيعة من اختلافات رائعة تحت إغراء الوحدة، ولكن هل سيساعد ذلك على القضاء على الاختلافات؟

لن أقول بأني سأكون سعيدًا جدًّا بأن تردّ عليّ! لقد قلقت جدًّا عندما علمت أنك رحبت بتلك الرسالة التي بدت غير ودية أكثر من القصد من ورائها»[4].

ورغم تحفّظ فرويد على ميل غروديك لتمثل الاضطرابات العضوية فقط كتعبير عن صراعات نفسية، فقد أبدى تعاطفه معه. ومثله مثل الآخرين بالغ غروديك في طلب دعم فرويد وتشجيعه ومباركته، فكلّما كان فرويد أكثر قربًا من تلاميذه، كلما صاروا عبئًا ثقيلًا عليه وفي ذلك اختبار لمدى صبره.

كان بول شيلدر (1886 ـ 1940) طبيبًا نفسيًّا متألقًا برع في مهنته كما كان منظّرًا لعب دورًا مهمًّا في علم الطب النفسي في أوروبا بحكم موقعه في قسم الطب النفسي في جامعة فيينا. ومن منظور المستقبل، «بذل شيلدر جهدًا كبيرًا لنشر الاستنتاجات التحليلية بين الأطباء النفسيين في أوروبا أكثر من أيّ منتسب آخر للتحليل النفسي باستثناء فرويد نفسه»[5]. كان شيلدر رسميًّا عضوًا في جمعية فيينا للتحليل النفسي، وعرف كل عضو من أعضائها، واستوعب بدقة أعمال فرويد. ولكنّه رفض أن يكون مؤمنًا، ووجد تلك الجمعية واهنة، ولم يذعن لفرويد بشكل سلبي.

خلافًا ليونغ، لم يترك شيلدر العالم الأكاديمي للطب النفسي قط، فقد كرّس وقته لعمله بشكل كامل، وقد احتاج إلى أدوات عمل علاجية في مجال بحثه. ولمّا صار بروفسورًا في الجامعة عام 1925، استقل تمامًا. ومن الناحية العاطفية، احتفظ بموضوعيته تجاه فرويد، وحافظ على حسّه النقدي في التحليل النفسي، وقد أزعجت استقلالية شيلدر فرويد الذي كان في حاجة إلى ولائه المخلص.

إذا ما انطلقنا من هذه الخلفية، يمكن أن نتفهم عندئذ الاتهام الرسمي الموجّه ضد شيلدر على يد فيديرن في جمعية فيينا للتحليل النفسي في 1922، والمتمثل في أن شيلدر انتحل في كتابه عن الذهان أفكار فرينشيزي وفرويد، وكان أعضاء هذه الجمعية منقسمين

عادة إلى فريقين: المحلّلين الفعليين والدخلاء، وفي الحقيقة كانوا أعضاء شرفيين. فلا يمثّل شيلدر إلا نفسه، ولم يكن عضوًا في الحلقة الداخلية، وفي الوقت ذاته نادرًا ما اعتبر هاويًا.

أن نتهم بالانتحال الرجل الذي لم يتبن مواقف فرويد بشأن مسألة حساسة بالنسبة لفرويد، هو إشارة على الإخلاص للأستاذ، إن هذه الحادثة خير دليل على الأسلوب الذي تؤثر من خلاله الأرثوذوكسية على الأشخاص. كلما سنحت لتلاميذ فرويد الفرصة أبدوا إخلاصهم للأستاذ عبر مهاجمة أولئك الذين «لا يقبلون أفكاره بشكل كامل».

قد لا يبدو فيديرن التابع المناسب ليقود التحقيق، ففيديرن عطوف ورؤوف كمعالج، رومانسي، كل حلمه خدمة الآخرين، بل يبدو تافهًا بشكل فاضح، وفي الآن ذاته عاش في مستوى آخر يتّسم بالقسوة والعدوانية. وبالنسبة للمحللين الصغار في فيينا، يبدو أنّ مسألة الانتحال استحوذت على فيديرن، ربما حتى قبل أن تتوفر له أسباب الشك في أن كتّابًا نفسيين تحليليين آخرين لم يستشهدوا بمؤلفاته بشكل كاف. ولم يشكّل التأكيد المتكرر على الأولويات في هذه الحلقة مشكلًا (ادّعى نتبرغ في إحدى المرّات أن فرانز ألكسندر اتّهمه بالانتحال)[6]. وفي هذا الصدد، من الصعب أن ننكر أن فيديرن عرف من الذي سرّه اتّهام شيلدر في هذه الجمعية.

ترأس فرويد الاجتماع الذي أثيرت فيه القضيّة ضد شيلدر. فظهرت إحدى النقاط ذات الطابع الوجداني التي لا علاقة لها بالتبرير العقلي والمنطقي في المناقشة: لم يخضع شيلدر للتحليل فقط وإنما أيضًا لم يكن يعتقد أن «تعلّم» (التدريب) التحليل ضروريًّا وقد دافع شيلدر عن موقفه بشجاعة، واستطاع أن يحوّل إصبع الاتهام إلى أوتو رانك، الذي لم يخضع هو بدوره للتحليل. كانت محاكمة شيلدر تافهة، فقد كان لديه الكثير من الأفكار الخاصة فلم يكن يقتبس من غيره إلا نادرًا. ولكنه احتاج إلى مدافعين نظرًا لأنه كان تقريبًا مستقلًا عن التحليل النفسي (ولاحقًا، في أميركا، اضطر انعدام الأرثوذوكسية لديه، جمعية التحليل النفسي في نيويورك إلى إرغامه على الانسحاب من المنظمة).

رغم تباين وجهات نظر بشأن هذه الاجتماعات غير الحاسمة، فقد لازم فرويد الصمت تقريبًا طوال الوقت. وقد اعتقد أحد الأعضاء أن فرويد يتجنّى على شيلدر. فيما ذكر آخر، أن فرويد استشاط غضبًا في النهاية لأنه لم يُسأل عن رأيه في المسألة، وإذا أقدموا على

ذلك في حياته، فما عساهم أن يفعلوا بعد وفاته؟ وإذ يُفترض أن يكون فرويد مطلعًا على كل ما يدور حوله، لم يجرؤ أحد على أن يسأله عن آرائه. وإذا ما أقحم فرويد بشكل مباشر فسترتفع حدة المشاجرة أكثر مما هي عليه.

لم يتراجع فرويد عن الاعتراف بمواهب شيلدر في السنوات الأخيرة. كان استثناء للقاعدة إذ من المستحيل أن تبحر بنجاح رغم إنذارات فرويد، والاحتفاظ بالاستقلالية دون أن تغترب عنه بلا رجعة. وفي عام 1930 أشاد فرويد في حديثه مع جوزيف ورتيس بشيلدر، وأخبره، حسب روايته، بأنه: «تعلّم الكثير من شيلدر... وأن شيلدر يشاركنا معظم وجهات نظرنا. وفي بعض النواحي، رغم ذلك، كانت لديه آراؤه الخاصة به، وذلك يقين مخوّل لأي شخص على أن يكون من خارج مجموعة التحليل النفسي. إنه لا يعتقد في ضرورة تعلم التحليل من ذلك مثلًا أنه يحتفظ بالمرضى تحت العلاج لثلاثة أو أربعة شهور فقط»[7].

وبالإضافة إلى ذلك، تبنّى شيلدر موقفًا تجاه نظرية فرويد عن الغريزة وهي نظرية تبدو اليوم ثاقبة:

«اتّخذ شيلدر موقفًا من افتراض فرويد بأنّ الرغبات تنزع إلى تحقيق حالة من الشعور بالارتياح، ليؤكد شيلدر، في المقابل، على أن الدوافع والرغبات تتعدى مجرّد الإشباع، كما أنها لا تنزع فقط إلى أن يعود الفرد إلى حالة الشعور بالارتياح، إنها تدفعه إلى العالم الخارجي. فتلك الدوافع لا تملك نزعات ارتدادية فقط. فالمجهود البنّاء تجاه العالم موجود في إدراك وإبداع الأشياء. فقد كرر شيلدر في كثير من الصيغ هذا الموقف الإيجابي البنّاء للفرد تجاه العالم»[8].

وإذا ضربت لنا مسيرة شيلدر مثلًا عن مدى قدرة الشخص على تخطي كثرة الضغوطات في هذه الحلقة، فإن انتحار هيربرت سيلبيرر جاء نتيجة الإحباط والفشل في مجاوزة تلك الضغوطات. انضمّ سيلبيرر (1882 ـ 1923)، ابن لأحد أثرياء فيينا المشهورين، إلى جمعية فيينا في 1910. وهو إن لم يكن الوحيد من غير اليهود في الجمعية، فقد كان بارزًا بما فيه الكفاية ليذكر بما هو كذلك. ولم يتورّع المحلّلون لا سيما بعد انفصال يونغ، عن اعتبار مَن لم يكن يهوديًا في الجمعية كمعادٍ للسامية، وربما كانت تلك سمة جيل يهود فيينا.

لم يكن عمل سيلبيرر من البداية أرثوذوكسيًا، فقد قيل إنه سليل «وجهة نظر أخرى»، مع أنه ليس مؤكدًا إن كان هذا يعني أنه لا يوافق الحكمة المتّفق عليها أو أنه خطّ لنفسه توجهه الخاص منذ نقطة بدايته في مجال علم النفس الأكاديمي. كتب سيلبيرر عن الظواهر

التي تسبق الاستغراق في النوم مباشرة، والصور التي يراها الشخص في السير أثناء النوم أو قبل الاستغراق فيه. واعتقد فرويد أن لسيلبيرر «إسهامات مهمة في تفسير الأحلام عن طريق ملاحظة تحوّل تلك الأفكار إلى صور مرئية على نحو مباشر»[9]. وقد نشر سيلبيرر دراساته الأولى عن مثل هذه الرموز في «العملية البدئية» للتفكير (كمقابل للتفكير الواعي والمنطوق). وبالإضافة إلى ذلك، فسّر الأحلام تفسير أخلاقيًا يختلف عن تفسير فرويد (تفسيرات «روحانية») بأسلوب يقترب كثيرًا من صيغ يونغ. واستنتج سيلبيرر أنّ «بعض صور الأحلام تعبّر عن تمثلات ذاتية رمزية، وقد كان أول المحللين النفسيين الذي اهتم بالمعنى الرمزي للخيمياء في القرون الوسطى»[10].

أدرك فرويد، كما رأينا، أنه من الصعب تقييم العمل بعيدًا عن اتجاهه الخاص في التفكير، وقد آثر أن يُغيّر في طريقة تفكيره. ولم يكن سيلبيرر آنذاك متناغمًا مع مجموعة التحليل النفسي في فيينا لأسباب عديدة. وفي فترة قصيرة حرّر دورية مع ستيكل. وكانت المرة الأولى التي رأى فيها هيتشمان فرويد في حالة غضب شديد وشاحب الوجه إلى أبعد حد، عندما دعا سيلبيرر الأعضاء الآخرين من جمعية فيينا للمشاركة في «الزنترابلات» لستيكل[11].

ولكن فرويد أعجب بأعمال سيلبيرر. وإن كانت أفكاره بشأن فهم الأحلام ذات طابع «تأملي» و«فلسفي» مبالغ فيه، وقد أخذ دائمًا الكثير من الإسهامات في تفسير الأحلام على محمل الجد. فلقد اعتبر توضيح سيلبيرر عن الدور الذي لعبته الملاحظة في الأحلام من وجهة نظر فرويد «إضافة نوعية لنظرية الأحلام لا مثيل لها»[12]، وما فتئ فرويد يذكر إسهامات سيلبيرر باحترام، رغم أنه أشار أيضًا إلى أخطائه. وفي بداية العشرينيات من القرن العشرين استبعد فرويد سيلبيرر رسميًا من التحليل النفسي.

من الصعب تتبّع تلاحق هذه الأحداث التي بلغت ذروتها بانتحار سيلبيرر. فقد كان على الرغم من ذلك محبطًا من علاقته مع فرويد. وحسب رأي صديق له شعر سيلبيرر أنه مستهدف ومرفوض بسبب موقف فرويد تجاهه[13]. ولا أحد يعلم بالتأكيد لماذا لم يحب فرويد سيلرر، فقد كان مخلصًا لفرويد وأنجز عملًا عظيمًا، ولكن فرويد لم يعد يتعامل معه بود كما لم يعد يُكرم وفادته. ورغم أن سيلبيرر كان منفتحًا إلى أبعد حد إلا أنه لم يستسغ مشاعر فرويد تجاهه، ولذلك لم يمثل الانتحار مفاجأة، رغم أنه توقع دائمًا الكثير من فرويد.

لقد كانت إقالة فرويد لسيلبيرر باتة ورسمية(*). وفي رسالة قصيرة من فرويد إلى سيلبيرر بتاريخ السابع عشر من نيسان/ أبريل 1922 نتبيّن بشكل مختصر نسخة مسرفة من طرق فرويد في بداياته في التخلص من الطلبة المزعجين:

سيدي العزيز،

أطلب منك ألا تنوي زيارتي.

لم أعد أرغب في أي ارتباط شخصي بك اعتبارًا لملاحظات وانطباع السنوات الأخيرة.

المخلص فرويد

وبعد هذه الرسالة بتسعة أشهر وضع سيلبيرر حدًا لحياته بطريقة مفزعة، فقد شنق نفسه على قضبان نافذة، تاركًا الأضواء تسطع في وجهه وهو مخنوق حتى تراه زوجته حال عودتها إلى المنزل. وقد تركز نعي سيلبيرر الرسمي على مسيرته في التحليل النفسي:

في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير... [1923]، وضع هيربرت سيلبيرر نهاية لحياته في الأربعين من عمره. ولقد كان سيلبيرر لسنوات عديدة عضوًا في مجموعة فيينا، ولكن في السنوات الأخيرة كان نادرًا ما يحضر اجتماعاتها. وقد لاقت كتاباته العلمية، خاصة في موضوع سيكولوجية الحلم، اعترافًا في أوساط التحليل النفسي من أنحاء متعددة، إلا أن اعتراضاته النقدية استندت في مجملها على أكثر من تعميم غير مبرر.

وقد أشار فرويد إلى واحد من «تعميمات سيلبيرر غير المبررة» «استند إلى القليل من الأمثلة الجيّدة... والمضمنة في بيان أن كل حلم قابل لتفسيرين، الأول يتفق مع وجهة نظرنا، وهو التفسير «التحليلي النفسي»، والثاني «روحاني» ولا يُعير اهتمامًا للدوافع الغريزية ويهدف إلى تمثيل وظائف العقل السامية»[15]. فمن أجل تفسير الأحلام روحانيًا لا بدّ، كما أثبت فرويد، ألا نعير اهتمامًا لجذورها الغريزية»[16].

وفي محاضرة عام 1922، «لأسباب معيّنة»[17]، لم يقرأ فرويد أمام جمعية فيينا للتحليل النفسي، رغم أنه عبّر عن نيته في ذلك (فعلى الرغم من أنها نُشرت في العام نفسه)، وقد

(*) لا شك بأن مشاحنات أخرى شهدها فرويد في حياته لم يُفصح عنها بعد. وقد ذكر ويتلز، على سبيل المثال، أن علاقات فرويد بماكس كاهان كانت متشنجة[14].

انتقد «سطحية» سيلبيرر في اهتمامه بالأخلاق عوضًا عن «منطقة حياة الغرائز المكبوتة». لقد وضع سيلبيرر، الذي كان من بين الكتّاب الأوائل الذين حذّرونا من ألا نفقد الوجه النبيل في الروح الإنسانية، وجهة النظر القائلة بأن معظم الأحلام أو كلها تقريبًا «تسمح باتجاهين من التفسير، اتجاه طاهر، وروحاني واتجاه خسيس، تحليلي نفسي»، وتكمن المشكلة حسب فرويد في أن: «التناقض بين الموضوعين الذي ساد في المتتاليات نفسها من الأفكار ليس هو نفسه دائمًا بين الجانب الروحاني الشامخ والتحليلي النفسي الدنيء، ولكن خاصة بين الأفكار البذيئة والأفكار المحترمة أو غير المتحيزة. وفي مثالنا الحالي، ليس من باب الصدفة، طبعًا، أن يكون هناك تناقض حاد بين التفسيرات الروحانية والتفسيرات التحليلية النفسية رغم أن كليهما يتعلق بالموضوع نفسه، ولا يعدو أن يكون التيار الأخير سوى ردة فعل تكوينية ضد الدوافع الغريزية غير المعترف بها»[18].

وخلال سنوات قليلة، لم يتحدث المحللون النفسيون، بمن فيهم فرويد نفسه، عرضيًّا عن الأخلاق «الأخيرة» بما هي «ردة فعل تكوينية» ضد الحياة الغريزية، فصمّمت فكرة الأنا الأعلى خصيصًا لتأخذ بعين الاعتبار مثل معايير الوعي هذه في إطار نظرية فرويد في التحليل النفسي، ولكن في زمن سيلبيرر، كما جاء في خطاب نعيه «لم يكن لاهتمامه أي علاقة صريحة بميدان التحليل النفسي في خصوصيته». ورغم ذلك أشاد النعي بشيء من التردد بسيلبيرر، حيث جاء فيه أيضًا أن هذا الأخير «حقّق نجاحًا عظيمًا في اشتغاله على تصوّر علم النفس لما يسمّى بالظواهر الخفية في كتاب يُعدّ مؤلفه العمدة(*)[19]»، واعتبارًا لنزعته الإخفائية يصعب جدًّا انتسابه إلى التيار الرئيس في التحليل النفسي، وإنما حري به أن يكون على هامش مجموعة فيينا والحركة بأكملها. (ومع أن هذا النعي غير موقع، فإنه يبدو كتعبير عن موقف فرويد تجاه عمل سيلبيرر، وإن لم يكتبه فرويد بنفسه، فقد يكون هو من أوعز بفحواه إلى أوتو رانك).

نشر فيلهالم ستيكل أيضًا نعيًا لسيلبيرر جاء فيه: «عندما انفصلت عن فرويد كان الوحيد من بين أتباع فرويد كافة الذي ظل مخلصًا له. (فقد بذل الكثير من أجل هذه الصداقة)»[21]. وقد شعر ستيكل، منذ البدء، بأن فرويد، الذي اشتكى من سيلبيرر في رسائله على امتداد أكثر من عشر سنوات انقضت[22]، قد وضع حدًّا لعلاقته مع سيلبيرر لمّا اشترك مع ستيكل

(*) اعترف يونغ بعمل سيلبيرر في الخيمياء وعلّق عليه قائلًا: «لسوء الحظّ، أرهقت السيكولوجية العقلانية كاهله»[20].

في تحرير مجلتهما، ورغم ذلك هوجم سيلبيرر قبل وفاته، في مقال كُتب ضد التحليل النفسي، وقد استقال أيضًا من إدارة التحرير بسبب نشر تهجّم على فرويد. ورغم أن سيلبيرر قد تعرّض لتهجم لاذع عند تقديم دراسة في جمعية فيينا للتحليل النفسي[±]، وقد قيل إن فرويد برر سلوك أتباعه على أساس أنه «الرجل اليسوعي»[24] (أشار أوتو رانك إلى أن الأستاذ، كما جاء على لسانه، كان مجبرًا على «التخلّي نهائيًا عن سيلبيرر»)[25]. برّر ستيكل وفاة سيلبيرر ضمن سياق أوسع يتعلق بفشل طموحاته، وخاصة بسبب الكَرْب الذي أصابه من عدم نجاحه في نيل الدكتوراه الفخرية.

لا ريب في أن أي شخص مهتمّ بالتحليل النفسي في أيامه الأولى قد اعترضته مصاعب شخصية جمّة اضطرته إلى النظر إلى أبعد من الطرق الشائعة لرفض علم نفس الأعماق. (إلى اليوم ما زالت نسبة الانتحار بين الأطباء، على الأقل في أميركا، مرتفعة وقد تكون نسبة انتحار الأطباء النفسيين هي الأعلى قياسًا للجماعات المهنية الأخرى). بإمكان سيلبيرر أن يبالغ في تقدير القيمة التي منحها فرويد لعلاقتهما. وقد يكون فرويد مسرورًا بأن أحد أتباعه مهتم بالتحليل النفسي، ولكن لم يكن دائمًا سعيدًا بأن تشمله مثل هذه المشاعر شخصيًا حتى أنه لم يشعر بأنه مضطر إلى التخلي عن تلك الأحاسيس. وقد يكون فرويد نفسه راوده الإحساس بالرغبة في الانتحار، ولهذا السبب تراجع عن مواقفه.

5 - إرنست جونز: الرائد

كان إرنست جونز (1879 - 1958) - وهو من بين الخمسة الأوائل الذين أهداهم فرويد خواتم من أعضاء اللجنة السريّة - الوحيد الذي فقد خاتمه، إذ سُرق من صندوق في سيارته. ورغم أنه يمكن للمرء أن يخمّن مدى هذه الخسارة في اعتبار فرويد، رغم أنها حدثت بعد وفاته، فإنه يمكن القول بأنه لن يكون حتمًا مسرورًا بما كان سيعتبره زلة أعراضية من جانب جونز. كان صندوق السيارة المكان المألوف الذي يُودع فيه جونز وآخرين أمثاله، أشياءً سريّة. كانت لفرويد توقّعات كبيرة عن الجانب اللاواعي لذلك الرجل النبيل، وإذا يمكن أن نجد لهذا الصنيع تفسيرًا عقليًا بالنسبة للمريض، فإنه لا يُغتفر بالنسبة للمؤيد.

(±)صرّح جونز مرّة أنّ سيلبيرر «وضع حدًا لعلاقته بمجموعة فيينا لسنوات قبل وفاته»، وأنه انتهج «معارضة مفتوحة» [23].

التحق يونغ بحركة التحليل النفسي التي قال عنها في سيرته الذاتية إنها: «الشيء الأهمّ في حياتي على الإطلاق»[1] بعد أن ساء وضعه كطبيب للأمراض العصبية. كان اختصاص الأمراض العصبية من أمجد الاختصاصات في الطب الإنكليزي، تضلّع جونز في ميدانه ولكنه رغم ذلك فشل في الحصول على منصب أكاديمي لطالما شعر بأنه يستحقّه، ولمّا خاب أمله في ذلك تحوّل إلى تورنتو بكندا حيث أدرك ضالته هناك. وفي نعي صديقه العزيز كارل أبراهام، خص جونز «رغبة أبراهام الغريبة نوعًا ما» في الحصول على منصب في جامعة برلين بتعليق جاء فيه:

> **«وبشكل استثنائي فريد من نوعه، بحيث أن من شأن طبيعته أن تثبت تلك القاعدة، من المستحيل اكتشاف أيّ أثر لأيّ طموح شخصي أيًا كان، وهذا الاستثناء يتمثل في رغبة غريبة نوعًا ما في أن يصبح محاضرًا في جامعة برلين، وما لذلك من علاقة صريحة بهيبة التحليل النفسي»**[2].

بدا لاحقًا لإدوارد غلوفر أنّ هذا «التعليق المبتذل نوعًا ما صادر عن شخص عانى من صدمة عدم الاعتراف به أكاديميًا في رحاب الحياة الأكاديمية الإنكليزية»[3]، ورغم توق جونز إلى الهيبة الطبية المهنية، فإنه لم ينل هذا الشرف حتى أواخر حياته.

كان جونز شابًا يتّقد حماسة، ويتّصف بعدم الترابط وبأسلوبه الحربي وفي أسوأ حالاته حقود وغيور ومشاكس. وكان كما قال عنه أحد الأطباء النفسيين شاحب الوجه ولكنه لاذع مثل مرق التوابل، كانت عيناه حادّتين ولهجته قاسية. وتؤكّد وجهة نظر جونز عن نفسه «اللباقة»[4]، «قال فرويد عني ساخرًا بأن مؤهّلاتي الأكاديمية تفرض الاعتراف بي من طرف عصبة الأمم»[5]. فقد وصف نفسه بأنه شخص «يُهاجم بسهولة أقرب أصدقائه»[6] وقد يكون ذلك صحيحًا فهو لم يكوّن صداقاته بسهولة، وكان منبوذًا بشكل كبير.

لعل جونز أقل لباقة في الاجتماعات المهنية، فهو أحيانًا يمزّق مقالًا لأحد الحضور، وإذا تعلّق الأمر بالمريض الذي يأتي إليه للعلاج فعادة ما ينهي جونز المقابلة معه (بعد إحالته إلى محلّل آخر) بالقول إنك «وسم اقتلع من النار»، حتى وإن لم يشعر الرجل الذي يدافع عن نفسه بأنه سيعاني من التدخين. ولما بدأت «المجلة الفصلية للتحليل النفسي تنافس في أميركا المجلة العالمية للتحليل النفسي التي يشرف على تحريرها، اعتبرها جونز مغامرة أقدم عليها فريق صغير من الوافدين المندفعين والطموحين»[7]. وفي مؤتمر دولي، حثّ جونز أعضاء جمعيات التحليل النفسي في الولايات المتحدة للالتحاق بالمجلة

العالمية للتحليل النفسي: كانت بالأساس صحيفة بريطانية رغم أنّ معظم المنخرطين فيها أميركيين، ولكن جونز قد أبقى على مسمى «العالمي». وكما علق غلوفر لاحقًا بأنّ «جونز استطاع ببراعة أن يحافظ على الطابع العالمي لهذه المجلة وضمان استقرارها المالي عن طريق فرض أداء ضريبي على الأعضاء المتحدثين باللغة الإنكليزية لرابطة التحليل النفسي لإثبات ولائهم»[8].

كان جونز باحثًا ناجحًا عن مصادر القوّة. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، أراد أن يجعل الجمعية البريطانية الكيان المنظم لإمبراطورية التحليل النفسي، مع جمعيات أخرى صغيرة (مثل جنوب أفريقيا)[9]، ومن بين صفات جونز الأقل جاذبية أنه كان شغوفًا بإسراف للشهرة والثروة، فلق تميَّزت سيرته الذاتية وكتابه عن سيرة فرويد بالإحالة إلى الأسماء المشهورة.

ورغم أنه ضيّق الأفق وأكثر التزامًا من هانز ساكس، إلا أن جونز تميّز بسعة اطلاعه. تداخل تفكيره العلمي الكبير مع علاقاته الإنسانية، وكان في غاية الذكاء، رغم أنه كان عنيدًا ومتشبثًا برأيه، وكان صعب المراس رغم أن له أسلوبًا رائعًا في الكتابة. لم يدخل معه أحد في سجال إلا وغلبه، «كان جونز مجادلًا موهوبًا، ثاقب النظر، ذا لسان لاذع»[10]، وكان جونز على دراية كبيرة بأدوات عمله وكان غالمًا مثل فرويد. وقد تحدَّث عن نفسه مرة، وقد أصاب في ذلك، قائلًا: «أنا متعصّب بشكل مثير ضد الوهم»، وأحتاج إلى «إحساس بالأمان الذي لن يتحقق إلا عبر الانهمام على الحقيقة»[11]. على سبيل المثال، بقدر ما شعر جونز بالأسى لقراءته مخطوطة فرويد وبوليت حول وودرو ويلسون، بقدر ما لم يسأل أبدًا عن أصالة النص. وذكر لستراتشي أنّ الكتاب ربما ينتمي إلى الطبعة الأولى من أعمال فرويد، بما أنّ كتاب دراسات عن الهستيريا، الذي ألَّفه فرويد بمعيّة بروير، ظهر في الطبعة ذاتها منذ البداية»[12].

كان جونز شجاعًا أيضًا، حتى أنه هرع إلى فيينا لإنقاذ فرويد وجماعة المحللين فور اقتحامها من النازيين، وأنهى المجلد الأخير لسيرة فرويد الذاتية رغم ما أصابه من أمراض خطيرة، ولقد عانى لسنوات عديدة من التهاب المفاصل الروماتويدي، ومع ذلك كان يعالج عشرة أو أحد عشر مريضًا في اليوم. وكان جونز مجتهدًا أيّما اجتهاد كمدير متفانٍ في عمله وحقّق مبالغ طائلة، وقد سبّب له عزمه وصلابته بعض المصاعب مع الزملاء، ونظرًا لدقته وفعاليته، فقد صدمته وتيرة الحياة المهنية في فيينا في تباطئها الشديد. وقبل أن

يصبح جونز محللًا نفسيًّا، أغوته «المذاهب الاشتراكية، في دعوتها للانضباط والفاعلية أكثر من دعوتها للحد من الظلم الاجتماعي»[13].

يبدو أنّ حياة جونز الخاصة كانت سعيدة نسبيًّا، رغم أنّ زوجته الأولى قد توفيت مبكّرًا. عرّفه هانز ساكس لاحقًا بسيّدة من فيينا، وهي كاترين جوكل (كانت يهودية خلافًا لجونز) وقد ارتبطا خلال ثلاثة أيام وتزوّجا في غضون ثلاثة أسابيع. كان له ابن روائي مشهور، ويكتب في الصحافة أيضًا، وآخر موسيقي، وعند وفاته كان لجونز أربعة أحفاد. كرّست زوجته الثانية نفسها بالكامل من أجله وكانت سكرتيرته الخاصة أثناء كتابته سيرة فرويد، وعندما قدم فرويد إلى إنكلترا في 1938 أهداها حجرًا ليصنع منه خاتمًا عرفانًا بجميلها لترجمتها كتابه موسى وعقيدة التوحيد إلى الإنكليزية. وقد طلب منها أن ترسل له الفاتورة رغم أن الهدية لا تقدّر بثمن. كان فرويد في عجلة من أمره، فقد كان يعلم أنه سيكون كتابه الأخير.

كان جونز من بلاد الغال، وكان كل المحلّلين الإنكليز الأوائل تقريبًا من الدخلاء ومن غير اليهود، أمّا جيمس وإدوارد غلوفر فكانا من اسكتلندا، وفي سيرته الذاتية كتب جونز «لم يكن في إنكلترا سوى محللَين اثنين من اليهود (فضلًا عن المهاجرين اللاجئين)»[14]. ولم ينضم المحلّلون السويسريون إلا للمجموعة التحليلية النفسية الغربية لغياب اليهود عنها، ويظل موقف جونز الشخصي تجاه يهودية فرويد محدودًا بما هو موقف جيله في إنكلترا غير التقليدي من الدين الذي يعتبر الأديان نتاج الخرافة البشرية. كانت يهودية فرويد (بالنسبة لجيمس ستراتشي ربما حتى أكثر من جونز) انحرافًا مثيرًا للاهتمام أكثر منها عاملًا حيًّا (ومؤثرًا) في حياة فرويد، ويعتبر جونز أحد الأفراد غير اليهود القلائل في حركة فرويد.

تطوّر التحليل النفسي في إنكلترا بصفة مستقلّة عن الطب النفسي على عكس ما كان عليه الحال في أميركا. إذ أدار جونز الجمعية البريطانية بقبضة من حديد، وأشرف على مجموعة التحليل النفسي في لندن قبل الحرب العالمية الأولى، إلا أن الحرب ساعدت على تفكيكها «ومن بين الخمسة عشر عضوًا الأصليين أربعة منهم فقط حقّقوا الكثير في ممارستهم للتحليل النفسي فيما اكتفى البقية بالاهتمامات الأكاديمية»[15]. أكّد جونز على التركيز مطلقًا وحصرًا على التحليل النفسي، وسرّه تفكك المجموعة التي تكوّنت بشكل انتقائي قبل الحرب. وأعادت المجموعة الإنكليزية تنظيم صفوفها بعد الحرب كفرع من

فروع الجمعية العالمية للتحليل النفسي، مع بقاء جونز مشرفًا عليها. (وفي إحدى الرسائل أشار جونز إلى الخطأ الذي ارتكبوه في أول الأمر، بتعاملهم مع أعضاء غير معروفين، وقد نصح اليابانيين بعدم توسيع دائرة جمعيتهم قدر الإمكان)[16].

كانت الجمعية البريطانية في أوائل العشرينيات من القرن العشرين غير طيّبة بالأساس وهاوية إلى حد ما. مما دعا جونز إلى أن يدعو ميلاني كلاين من برلين من أجل إنشاء جمعيته ولتساعده على التغلّب على شعور الدونية الذي استبدّ بأعضائها، وطلب منها أيضًا معالجة أطفاله المرضى. إلا أن للجمعية صلات قوية بحلقات كمبريدج الفكرية، وكانت مجموعة بلومسبيري الشهيرة تفتخر بتحررها من الأحكام المسبقة. كان من بين المحللين النفسيين أعضاء كثر من النخبة الفكرية الإنكليزية على غرار جيمس ستراتشي (أخّ ليتون) وألكس ستراتشي وليونيل بينروز وجون ريكمان وكارن ستيفن (أخت سليف بيل وابنة أخت برتراند راسل) وأدريان ستيفن (ابن السير ليزيل ستيفن وأخ فرجينيا وولف).

بعد الحرب العالمية الأولى ذهب آل ستراتشي إلى فيينا من أجل التحليل على يدي فرويد، وقد أظهرا مواهب أدبية كمترجمين. كان جيمس وألكس ستراتشي من الأصدقاء القدامى لفيرجينيا وليونارد وولف، وعندما كان محللو لندن يتخبّطون في مغامرات النشر، قام جيمس ستراتشي بتحليل منهج ليونارد وولف الذي أسّس في ما بعد دار نشر هوغارث بريس، وتمّ الاتّفاق على كل الشروط، (أراد السير ألين يونوين من الجمعية البريطانية للتحليل النفسي أن تنشر أعمال فرويد بدعم مالي حكومي). بالإضافة إلى ذلك، كان المحللون البريطانيون رجال أعمال يفتقدون للخبرة، وبدافع جنون العظمة نشروا عشرة آلاف نسخة من أحد كتب فرويد بيع منها 500 نسخة في الاثني عشر شهرًا الأولى.

لم يكن فرويد رجل أعمال متمكنًا، فقد باع حقوق نشر المجلدات الأولى من مقالاته المجمّعة إلى معهد الطب النفسي في لندن، مقابل خمسين جنيهًا لكلّ مجلد منها، ولمّا تراجع ليونارد وولف عن هذه الخطوة، كتب إلى فرويد يعرض عليه عقد نشر مباشر بمقابل مجزٍ يعادل 10٪. ومع أن ليونارد وولف لعب دورًا بارزًا في نشر أفكار فرويد في العالم النّاطق بالإنكليزية، فإنه من الجدير بالملاحظة أنه لم يعرض زوجته أبدًا على العلاج السيكوديناميَ (أخوها أدريان كان محلّلًا) رغم تعرضها لانهيارات عقلية متكررة (وفي نهاية المطاف انتحرت)، ولكن حتى بعد سنوات، في علاقة بفحص مرضها، يبدو

أنه اتخذ وجهة نظر عقلانية وغير تحليلية نفسيه من اضطراباتها(*)[17].

وبعد حل جمعية فيينا عام 1938 وهجرة العديد من أعضائها إلى إنكلترا، أصبحت الجمعية البريطانية أكثر حرفيّة، ولكنها انعزلت أكثر في الآن ذاته عن الاتصال بالمفكرين في الخارج. وخلال تلك السنوات استعاد جونز سيادته. وفي فيينا، كانت تُعقد الاجتماعات الرسمية مساء كل أربعاء. وفي الأخير، أبعد جونز، مثلما كان يفعل فرويد، منافسيه من الرجال. وفي الوقت الذي تولى فيه الحزب النازي السلطة، تحفظ على مجيء تيودور رايك (الذي كان يمارس التحليل النفسي في هولندا) إلى إنكلترا، لأنه يُفترض أنه يمارس التحليل بلا ضمير، وأنه محلل عامي (غير مؤهل طبيًّا)، وليس لاجئًا ألمانيًّا بأتم معنى الكلمة، ولم يكن جونز نفسه يرغب فيه[19]. (كان موقفه تجاه رايك الأكثر إثارة للدهشة لأن جونز قدّم مساعدته لمحلّلين لاجئين آخرين للوصول إلى الولايات المتحدة وإلى بريطانيا أيضًا). ومنذ أن أنشأ جونز جمعيته، تعززت غيرته، إذ قاوم الاعتراف بالمتفوقين فكريًّا الذين بإمكانهم المشاركة الفعالة فيها. على سبيل المثال، كانت لديفيد فورسّيث ارتباطات واسعة بالطب الأكاديمي، وكان أول إنكليزي ذهب إلى لقاء فرويد بعد الحرب العالمية الأولى، وأقر بأنه ينبغي الاعتراف بالدور العظيم الذي لعبه في التحليل النفسي في إنكلترا، وهو طُموح يتعارض مع وجهة نظر جونز. أتى فورسيث من جمعيات طبية كان الطموح لرئاسة الجمعية فيها شيئًا عاديًّا، ولكن جونز تشبّث برئاسة الجمعية البريطانية إلى أن اضطر إلى تقاعد مبكر عام 1944.

غار جونز أيضًا من ديفيد إيدر، وتوترت علاقته مع برنارد هارت بسبب طرقه الاستبدادية، وفشل في الحصول على عضوية طبيب نفسي واعد مثل إيمانويل ميلر. ومثله مثل فرويد، اعتقد جونز أنّ المرء لا يمكن أن يكون محلّلًا إن لم يتفرغ لممارسة التحليل تمامًا، ولأجل ذلك اعتقد بأنّ لليونيل بينروز اهتمامات أخرى كثيرة (لم ينفِ بينروز ذلك). ومثله في ذلك مثل فرويد، جمع جونز في الأخير حوله مجموعة من المتخصصين الموهوبين وخاصة من النساء المتخصصات في التحليل النفسي. فضّل جونز أن يكون كل

(*) ذكرت اليكس ستراتشي أنّ زوجها جيمس «غالبًا ما تساءل لماذا لم يقنع ليونارد فيرجينيا بأن تقابل محللًا نفسيًّا للنظر في انهياراتها العقلية. وكان الكثير من المحللين لهم من المعرفة ما يكفي لفهم مرضها في تلك الأيام. ومع أن هذه المعرفة كانت متاحة، فإنّني لم أوافق جيمس بأنها كفيلة بمساعدة فرجينيا. وأعتقد أنّ ليونارد أخذ بعين الاعتبار الاقتراح وقرر ألا تخضع للتحليل النفسي... فخيال فرجينيا، فضلًا عن إبداعها الفني، متداخل مع خيالاتها ـ وفي الواقع مع جنونها ـ بحيث قد يترتب عن القضاء على الجنون القضاء على الإبداع أيضًا... وقد يكون خير للمرء أن يكون مجنونًا ومبدعًا من أن يُعالج بالتحليل ويصبح عاديًّا»[18].

طبيب مترشح لعضوية جمعيته امرأة، كما شجّع الأشخاص العاميين. كانت السيدة جون ريفيير، على سبيل المثال، شخصية لامعة تلقت تعليمها بجامعة كمبريدج، وخضعت للتحليل أولًا على يد فرويد ثم على يد ميلاني كلاين. وقد كانت امرأة أنيقة ذات عقل لطيف، واستمتعت بسلطتها وراء العرش وحاولت للمرة الأولى أن تعقد صفقة مع الرجل الثاني في الجمعية إدوارد غلوفر (طبيب ولكنه، من وجهة نظر جونز، اسكتلندي بسيط)، لتنفرد بتدبير شؤون الجمعية دون جونز، ولكن غلوفر رفض ذلك [20].

اعتبر جونز، الذي يقول عن الجمعية البريطانية إنها «جمعيتي الموعودة»[21]، منصبه كزعيم لرابطة المحللين البريطانيين بأنه أكثر إلحاحًا مما كان عليه الحال في بداية الحرب العالمية الأولى، ورغم ضغط الواجب الوطني الذي يفرض الخدمة العسكرية، إلا أنه قاوم في البداية لأنه شعر بأنه «خفير في مخفر»[22]. وأيّد فرويد وجهة نظر جونز بشأن منزلته في التحليل النفسي، وهنّأه عام 1913 على مكافحته لجانيه على الملأ قائلًا: «لا أجد كيف أعبّر عن شعوري بالامتنان لما جاء في تقرير المؤتمر حول انتصارك على جانيه على مرأى من أبناء بلده. الاهتمام بالتحليل النفسي وبشخصك في إنكلترا شيء واحد، وأنا على ثقة بأنك ستطرق الحديد وهو ساخن»[23].

وفي عيد ميلاد جونز الخمسين في 1929، أثنى فرويد على ما قدّم من أعمال على الملأ قائلًا:

«عمل جونز بلا كلل من أجل التحليل النفسي، حيث انتهى إلى استنتاجاته الحالية والمعروفة بصفة عامة من خلال المحاضرات، وتصدّى لانتقادات خصومه المغرضة وسوء فهمهم عبر انتقادات بارعة وصارمة ولكنها موضوعية، وحافظ على موقعه في إنكلترا رغم الصعوبات في مواجهة متطلّبات «المهنة» بلباقة واعتدال، وإلى جانب تلك الأنشطة الموجّهة إلى الخارج، حقق بتعاونه المخلص فضلًا عن مساهمته في تطوّر التحليل النفسي في القارة، إنجازًا علميًّا تشهد عليه، من بين مؤلفات أخرى، مقالاته في التحليل النفسي وفي التحليل النفسي التطبيقي».

لم يكن جونز من وجهة نظر فرويد «فقط الزعيم الذي لا يضاهيه أحد من بين المحللين الناطقين باللغة الإنكليزية، ولكن أيضًا يُشهد له بأنه واحد من بين أعظم ممثلي التحليل النفسي الأوائل على الاطلاق....». ولا يعتقد فرويد «أنّ إرنست جونز، حتى بعد عيد ميلاده الخمسين، يمكن أن يكون شخصًا على غير ما عهدناه: متحمّس ونشط ومولع

بالسجال ومخلص للقضية»[24]. وعلى غرار الماركسية والكالفينية، على ما يبدو، ثمّة نظام حتميّ للأفكار يسير جنبًا إلى جنب مع نشاط فردي عظيم. بعث فرويد إلى جونز برسالة خاصة بمناسبة عيد ميلاده جاء فيها:

«لقد اعتبرتك دائمًا واحدًا من دائرة أسرتي الضيّقة وسأستمر في ذلك»، وفي ذلك تأكيد (وراء كل الخلافات التي نادرًا ما تغيب في العائلة والتي طبعت علاقتنا دائمًا) على ينبوع المحبة الذي لا ينضب[25].

تعرّض جونز لأزمة قلبية عام 1944 اضطرّته إلى تقاعد مبكر ليغادر في اتجاه الريف الذي لجأ إليه أول مرة عام 1940 بسبب تهديد الغزو، وهناك أصبح أكثر لِينًا وتحفيزًا للشباب في أعمالهم. إلا أنه أصرّ مع ذلك على أن يحصل على أجر لقاء فحص المرضى الذين يُحللهم نفسيًّا (ولم تكن مهنته في الأصل)، إلا أن قلّة من تلاميذه تمنوا أن يصبحوا أثرياء. ووفقًا لمقاييس معيّنة كان منفتحًا ومتسامحًا، فهو لم يؤيد ميلاني كلاين ويحميها فحسب، التي اعتبرت انفصالية، وإنما أيضًا كتب مقدمة لمؤلف رونالد فاربايرن المحلّل الوحيد في اسكتلندا آنذاك. غير أن جونز لم يكن مناصرًا لعيادة تافيستوك المستقلّة في لندن، لأنها تنتهج سياسة انتقائية، وقد كان يعارض بشدة «تمييع» نظريات فرويد لأنها تناهض المذهب القديم المناوئ للمحللين النفسيين من المختصين في الأعصاب والأطباء النفسيين (حتى في ثلاثينيات القرن العشرين وقع فصل التحليل النفسي عن باقي الاختصاصات الأخرى في بريطانيا ووضعت له ضوابط، واعتبر جونز بأنه لا يحق لأي أحد من المحللين غير المؤهلين في أن يُلقي محاضرات عن التحليل النفسي لأيّ كان دون موافقته الصريحة، ولم تلتزم كارن ستيفن بهذا الإجراء حيث أجرت بعض المحادثات في تافيستوك، وقيل أنّ جونز وبّخها على ذلك).

ساهم جونز في نشر التحليل النفسي بشكل رائع، وكان عرضه لأفكار فرويد واضحًا وضوحًا لا مثيل له. فالقدرة على الكتابة الجيدة صفة نادرة، وأي شخص مهتم بحياة فرويد وأعماله لا بد أن يكون ممتنًّا لمساهمة جونز الذي يرى في علاقته بفرويد كعلاقة هاكسلي بداروين[26] لا يوجد شخص يصف التركيز التحليلي النفسي على الاختلالات العميقة التي تكمن في جوهر الطبيعة البشرية أفضل من فرويد، «فأسرار النفس البشرية كانت تُفهم فقط على أساس المعاناة: أن تكون تشعر بالمعاناة وبالتالي تتواصل مع معاناة الآخرين»[27].

ليس ذمًّا لجونز القول بأن كتاباته في التحليل النفسي تتركّز أساسًا على نشر أفكار

فرويد بين عموم الناس، فلقد كان فرويد صريحًا في التعبير عمّا يحتاجه، وفي رسالة إلى جونز في الأول من شباط/ فبراير 1927، كتب فرويد عمّا يريده «للقيام بما يتناسب مع أغراض دعائية». كان فرويد يحترم جونز كزعيم في إنكلترا، حيث أحال إليه المرضى وأذعن لحكمه (لو أنه لبعض الوقت كان فاتر القوة) في ميدان حقوق الترجمة والنشر المتشابك. ولقد كان فرويد بصفة عامة شهمًا (من وجهة نظر المترجم، وليس من وجهة نظره الشخصية) في ما يتعلق بالترجمة. على سبيل المثال، قد يمنح حقوق كتاب جديد لأميركي وإنكليزي في نفس الوقت، دون أن يكون كلاهما على علم بذلك، ومع الطبعتين باللغة نفسها إلا أنهما قد تتضاربا. ونتيجة لذلك صارت حقوق نشر مؤلفاته متشابكة (لا يختلف الأمر في شيء عن وضع مؤلفات فرويد في إيطاليا).

اعتمد جونز في كتاباته بشكل كبير على اقتراحات فرويد. فعلى سبيل المثال، قدّم جونز بأمانة هوامش كتاب فرويد «تفسير الأحلام» مركزًا أساسًا على المعاني المتعلقة بعقدة أوديب في مسرحية شكسبير، هاملت، في مقال بداية ثم في كتاب رائع. ولكن جونز شعر بأنّ فرويد قد أفسد عليه أحيانًا بتهوّر فرصة تأليف كتابه الخاص به. اشتغل جونز على كتاب عن نابليون، وتناقش فيه مع فرويد في مناسبات عديدة.

> «مرّر فرويد بعض الأفكار إلى لودفيغ جاكلز، الذي كان يمارس معه التحليل النفسي آنذاك، وقد حدث أن تنافسنا حول امرأة. انقضى كل شيء وانتهت الحرب والمشاغل الأخرى، ولم يُكتب كتابي أبدًا»[28].

وإن ذلك ليشبه بشكل كبير مرة أخرى، على ما يبدو، حادثة فليس ـ سوبودا ـ فيننغر.

ففي تأليهه لفرويد، بذل جونز قصارى جهده من أجل أن يُبطل أي شيء يمكن أن يُنشر عن فرويد والذي قد يتضمن نقدًا لاذعًا. وفي أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، أعدّ إسدور سادغر، وهو أحد تابعي فرويد من فيينا قبل الحرب العالمية الأولى، كتابًا عن فرويد، وكان جونز غاضبًا من بعض التفسيرات بحيث كتب بعض التوصيات في رسالة إلى فيديرن منها بأنّ سادغر (الذي كان يهوديًا) لا بدّ أن يُعتقل في المعسكر[29] إن تطلّب الأمر، لضمان عدم ظهور الكتاب أبدًا (لم يُنشر الكتاب أبدًا). ضمّن جونز لاحقًا في سيرته الذاتية وصفًا مقرفًا لسادغر (ولكنه ربما كان مستحقًا)(*)[30]. وكان لجونز أيضًا

(*) في 1908، كتب فرويد إلى يونغ أن سادغر كان «متعصبًا بالفطرة للمذهب الأرثوذكسي، ومن باب الصدفة أن يعتقد في التحليل النفسي أكثر من القانون الذي شرّعه الله على محراب سيناء»[31].

إحساس خارق متبصر بالتاريخ، وكان المنظور التاريخي حاضرًا على الدوام في ذهنه في جميع تقاريره الأولى ومراجعات الكتب ورسائل النعي.

كان جونز مؤهلًا بشكل متميّز ليصبح الكاتب الرسمي لسيرة فرويد، وكانت آنا فرويد المصدر الرئيس للمعلومات، وقد داومت على حراسة وثائق أبيها بغيرة، فقد كانت بحوزتها وثائق يمكن أن تغمر بالتفاصيل أيّ دراسات منافسة، ولكن نفاذ جونز إلى هذه المصادر يعني في ما يعنيه أنه كان يدوّن سيرة بطل عائلته تحت المراقبة وضمن إكراهات معينة. ولقد كان الإنكليز والأميركيون في هذه الحركة في منتهى السعادة لحصيلة مجهودات جونز، بينما كان المحللون القاريون مدركين تمامًا لحقيقة القيود المفروضة على جونز.

وفي الآن ذاته، ربما كان جونز على بيّنة بالجانب غير العقلاني في شخصية فرويد أكثر مما اعترف به في نسخته المنشورة. فعلى سبيل المثال، في مقالة نشرها جونز ذات مرّة تحت عنوان «عقدة الإله» عدّد بعض النزعات التي تتّسم بها العقدة والتي نسبها بعد ذلك إلى فرويد، على الرغم من أنه لم يجرؤ في مناقشته لأفكار فرويد على استخدام مثل هذا المصطلح أو تطوير أيّ من استنتاجاته: «النزوع إلى العزلة. ليس الإنسان مثل باقي المخلوقات الفانية، إنه مختلف، ولا بد أن تكون هناك مسافة بينه وبينها»، فمثل هؤلاء الناس «نادرًا ما يدعون أصدقائهم إلى منازلهم، حيث يتفرّدون بالسيادة المطلقة». «يتطلع الشخص إلى أن يلفّ نفسه في غيمة منيعة من الغموض والخصوصية. وحتى المعلومات الأقلّ قيمة والمرتبطة بشخصه، تلك التي لا يرى فيها الشخص العادي أيّة قيمة تُذكر، يتمّ استثمارها بشكل بالغ الأهمية وتُفصّل فقط تحت ضغط معيّن»، وأخيرًا، «عادة ما كانوا ملحدين بحيث لا مشكلة لديهم في وجود إله آخر»[32].

ولو أن جونز نأى بنفسه في مناقشة بعض الخصال التي تسم شخصية فرويد، لكان أكثر استقلالية وحريّة في التفكير من أتباع فرويد في فيينا، فلم يكن لهم أيّ اهتمام من أيّ نوع خارج حلقة التحليل النفسي. كان جونز لاعب شطرنج ماهرًا ومولعًا بالتزلّج، (وقد ألّف كتابًا عن التزلّج). فقد قال إنّ «مساهمتي في اللجنة تتمثل أساسًا في تقديم وجهة نظر أكثر شمولًا للعالم الخارجي، فيما كانت وجهة نظر أعضاء حلقة فيينا محدودة، بل كان أفقها بدلًا من ذلك ضيّقًا ضمن بعض الوجوه»[33]. ولما اتهم يونغ بمعاداة السامية، أحال جونز على «وجهة نظر يونغ الهجينة جدًّا» عن مجموعة فيينا المحيطة بفرويد:

«لقد أخبرني يونغ في زيوريخ عن مدى شعوره بالشفقة تجاه فرويد لافتقاد أتباعه في

فيينا لأي وزن يذكر، فقد أحيط «بحشد بوهيميّ ومنحط» لا فضل له عليه إلا قليلًا... وسرعان ما وجدت أنّ توصيف يونغ كان هجينًا جدًّا، وكان لي أن أتساءل عما إذا كان موقفه نتج عن شيء آخر أكثر من مجرّد معاداته للسامية....».

ومع ذلك، لم يكن توصيف جونز لجمعية فيينا عندما قدم إليها أوّل مرّة (فقط لصفحات قليلة بعد هذا الهجوم على يونغ) أكثر إطراء من الصورة التي نسبها إلى يونغ:

«لا شيء في هذه الجمعية يشدني إليها. أعضاؤها يفتقدون إلى الكفاءة التي تؤهلهم لمسايرة عبقرية فرويد، ولكنه تعرّض في فيينا في تلك الأيام، إلى تحامل كبير، فمن الصعب ضمان سمعة التلميذ من الضياع، وبالتالي كان مضطرًا لأن يقنع بما يستطيع أن يحصل عليه»[34].

كان جونز، كمحلل، صارمًا مع المرضى، تتّسم معاملته بشيء من القداسة، (ربما يكون ذلك ناتجًا عن الخوف)، فالرجل الذي اعتبر بشكل قاطع أن الحكمة من التحليل النفسي وليدة المعاناة من الاضطرابات العقلية، لا يعنيه إن كان الخاضعون للتحليل قد شعروا بقليل منها. كانت لجونز تقنية موضوعية عادية كمحلل، وفي سياق حديثه عن بداية مسيرته المهنية كطبيب مختص في الأعصاب، يقول:

«لم أعانِ من الهوس العلاجي - الاعتقاد بأنّ المعالجة هي بداية الطب ونهايته - الذي عانى منه الكثير من الأطباء غير الأكفّاء وعطّل تقدّم المعرفة الطبية. وخلافًا لذلك، أنا على قناعة - ولا أزال - أنّ مسألتيّ الوقاية والعلاج لا تطرحان أيّ إشكال على أن نفهم فقط فهمًا كافيًا طبيعة المرض والقوى المسببة له»[35].

رغم أنّ فرويد يتفق مع جونز بشأن ذلك، إلا أنه لم يكن متأكدًا أكثر من جونز حول تقنية العلاج النفسي المناسبة(*)، وعن مساجلته مع يونغ في ميونيخ، اعترف فرويد، كما جاء على لسانه: «لقد كانت اعتراضات محدّثنا - أعتقد أنّ المعنيّ بذلك أساسًا هو إرنست جونز - قاسية ومتشدّدة إلى أبعد حد»[37].

كانت وجهة نظر جمعية فيينا بخصوص العلاج بالتحليل النفسي أقلّ تشدّدًا من وجهة نظر جونز، فلا بدّ أن نساعد المريض للتغلب على مشاكل معيّنة فقط، وتُترك له حرية

(*) عبّر فرويد عن أولى انطباعات عنه في رسالة ليونغ حيث يقول: «يُعدّ جونز بلا شكّ رجلًا مهمًّا وجديرًا بالثقة، ولكنه يثير فيّ إحساسًا إلى حد القول بأن لديه ميولًا عنصرية غريبة. وكان متعصبًا وقليل الأكل. وكما يقول سيزار: «لا تتخذن من الرجال أكثرهم بدانة»، وما إلى ذلك. إنه كثيرًا ما يُذكّرني بكاسياس النحيل والجائع. إنّه ينكر كل الصفات الموروثة، ويعتقد أنني رجعيّ. فأنى لمن كان يتّصف بالاعتدال أن يتوافق معه؟»[36].

التخلص من البقيّة بنفسه. بحسب وجهة نظر فرويد، من الأفضل أن تُترك أعراض معينة وشأنها تمامًا. ناقش أحد جرّاحي الدماغ المشهورين ذات مرّة جونز: «أعراض حزن عصابي يصيبه كلما همّ بإجراء عملية كبيرة على الدماغ، فقد كان يتمنّى أن أقوم بتحليله بشأن هذا الحزن العصابي، ولكن دون جدوى، وأخبرتُ فرويد عن ذلك في ما بعد، ولكن دُهشت لقوله إنه لا ينصح بالعلاج في مثل هذه الحالة: قد يكون ذلك دليلًا على أن إنجازات الجراح الرائعة شديدة الارتباط بالأعراض العصابية - بمعنى لا نتيجة لها - بحيث أن إرباك هذه يترتب عنه بالضرورة إرباك تلك، والرأي عندي أن مثل هذه الحادثة ظرفية لا غير»[38].

ذهب جونز إلى أبعد من ذلك، حيث اعتبر أن حالة الروائي جيمس جويس حالة باثولوجية شديدة[39]، واعتبر أن «تحليل الأحلام هو محور العلاج العملي»، وقد ذُهل لـ«قيمة التحليل النفسي في مجال الوقاية إذ يمنع الحالات البسيطة من أن تتطوّر إلى الأسوأ»[40]. تتمثل الاختلافات العارضة بين جونز وفرويد عادة في خشية الأول من الدين المعادي للطبيعة، وتخوف الثاني المتزايد من مخاطر النزعة المادية العلمية في الطب[41].

قام جونز بعرض عظيم لمدى الاختلافات العقائدية بينه وبين فرويد، في محاولة لتسليط الضوء على مدى رحابة صدر فرويد. وقد بث انفتاح فرويد في نفس جونز الرعب أحيانًا، وهذا واقع لا سبيل لإنكاره، ولاحقًا استبدّ بفرويد، في أحد الليالي، مزاج «خرافي» حتى أنه انقاد إلى طرح مسألة إمكانية وجود الله عزّ وجلّ من عدمها. إجمالًا، لم يجد جونز نسبيًّا صعوبة في التعامل مع فرويد من لندن. إذ تبادل أعضاء اللجنة الرسائل في ما بينهم، ويذكر جونز أنّ فرويد قال له ذات مرة إنّ «أبسط طريقة لتعلّم التحليل النفسي هي الاعتقاد بأنّ كل ما كتبه كان صحيحًا ومتى تمكن المرء من فهمه تمامًا يصبح بإمكانه نقده بالطريقة التي يراها مناسبة...»[42]. تبين أنّ الأمر يصعب أن ينبثق من المنشأ الأول للاعتقاد ويمكن أن نجد في كتابات جونز فقرات تستعيد ما كتبه فرويد حرفيًّا تقريبًا.

قال جونز: «أختلف كليًّا عن فرويد في الكثير من المسائل...»، لكن إن أمعن المرء النظر في قائمة كتاباته سيكتشف أنه لا يختلف معه إلا في مسائل قليلة[43]. الاستثناء الوحيد هو دعم جونز لميلاني كلاين خصمة آنا فرويد. والمرة الوحيدة التي شهدت نبرة استياء في رواية جونز عن علاقته بفرويد كانت بعد وفاة ابن جونز الأول، وعندما بلغ فرويد خبر وفاة ابنه كتب إليه، كما يروي جونز، «يقترح المساهمة في بحث حول شكسبير عسى أن

يلهيني»[44]. (هذا التبلّد في المشاعر يذكّرنا بردّة فعل كارل ماركس على وفاة عشيقة أنغلز التي عاشرته طويلًا، حيث توترت علاقتهما بسبب اقتراح ماركس على أنغلز أن ينكب على ترجمات أخرى لقضيته).

نجح جونز، بوصفه متزعم الجمعية البريطانية، في مسألة عزيزة على قلب فرويد بشكل خاص، فقد أسّس، رغم الاحترازات، التحليل النفسي العامّي في إنكلترا، وخلافًا لما عليه الحال في أميركا، شهد التحليل الأرثوذوكسي في إنكلترا دائمًا نسبة عالية من المحللين العامّيين، وعرفت أواخر العشرينيات من القرن العشرين، بداية اتساع رقعة النقاش في التحليل النفسي حول ما إذا كان التكوين الطبي ضروريًا أو مستحسنًا للمحلّل النفسي. كان أربعون بالمائة من أعضاء الجمعية البريطانية غير مؤهلين طبيًّا ولكن جونز كتب «نحن لم نتبنَّ موقف فرويد المتطرّف لإقناع المترشّحين بالعدول عن دراسة الطب». ولم يثبت أن فرويد اتخذ هذا الموقف الذي نسبه إليه جونز، ولكن بالنسبة لجونز تمثل آراؤه في هذا الشأن كما يقول: «ذريعة لفرويد ليعتبرني خصمًا كما لو أنني كنت أناهض التحليل العامي تمامًا. لم يكن يتفهم المواقف المعتدلة البتة»[45].

ومنذ أن كان يعيش في تورنتو، سافر جونز في رحلة حول أميركا حيث كان يخطب في الاجتماعات حول التحليل النفسي ويترتب لدعمه، ومن ثم، بالإضافة إلى خدماته في بريطانيا، ساهم جونز بالتعريف بقضية التحليل النفسي وحشد الدعم لها في تلك البلاد التي أصبحت في النهاية أكبر مركز للمحللين النفسيين في العالم. ومع أن جونز يشاطر تحيّز الأوروبيين ضد الأميركيين في تلك الأيام، إلا أنه ساهم في الوقت ذاته في توطيد الحركة، وخلال العشرينيات من القرن العشرين كان هناك خطر حقيقي ينذر بالانشقاق بين أوروبا وأميركا حول مسألة التحليل العاميّ، واستمرّ الصراع، من مؤتمر لآخر، والأميركيون يكافحون ضد أي انتهاك للاحتكار الطبي للتحليل النفسي في بلدهم. كان جونز رئيسًا جيّدًا ومتفهّمًا للطلبات الخاصّة للجمعيات المنضوية تحت الجمعية العالمية للتحليل النفسي التي ترأسها لفترتين، من 1920 إلى 1924 ومن 1932 إلى 1949.

6 - ارنست جونز وساندور فرينشيزي: المنافسة

في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما كان لا يزال أعزبًا في كندا وقادرًا على السفر بحرية، كان جونز قريبًا جدًّا من فرويد. ومع بداية الحرب عاد جونز إلى إنكلترا،

وبعدما انتهت الحرب تزوّج وأصبح رئيسًا للجمعية البريطانية الناشئة، فلا أحد من روّاد التحليل النفسي الأوائل استطاع أن يعيش حياة هنيئة ولم يكن جونز استثناء. ففي تورنتو دفع جونز إلى أحد المبتزات ورقة بقيمة خمسمائة دولار ليمنعها من اتّهامها له بالاغتصاب. كان جونز بريئًا من التهمة، إلا أنه شعر بأنه لن يكون آمنًا في مهنته إذا لم يدفع المبلغ(*)[1].

وقبل الذهاب إلى كندا، التقى جونز لو كان Loe kann، وهي شابّة هولندية (يهودية) ولمدة سبع سنوات كانت «عشرتهما حميمية»، وقال عنها في سيرته الذاتية بأنها ذات شخصية لطيفة بشكل غير عادي، وقد «اعتاد على أن يشاركها شقّتها...»[3]. ولسوء الحظ، أصاب لو مرض في الكلى واحتاجت إلى عمليات جراحية «وللتخفيف من حدة الألم كانت تتناول المورفين مرتين يوميًا حتى أدمنت عليه بنهم، وفي تلك الأيام لم يكن بيع مثل هذه العقاقير للعموم ممنوعًا»[4]. وازدادت صحّتها العقلية والجسديّة سوءًا في كندا التي سافرت إليها برفقة جونز، «كما لم تكن تترك فراشها إلا نادرًا» لوقت محدود، و«لذلك قررت في 1912 أن تعود إلى فيينا وأن تضع نفسها تحت تصرف البروفيسور فرويد»[5].

ذهب جونز مع لو إلى فيينا وبقي معها لفترة قصيرة «ولمدّة ليلتين أو ثلاث ليال في الأسبوع كان يتسامر مع فرويد على انفراد». وفي ذلك كتب جونز يقول:

> **«توطدت علاقتي به، وأحسست أنه يرغب في أن يفتح قلبه لشخص من وسط يختلف عن وسطه، فكان متحدّثًا بارعًا وتطارحنا الآراء متنقّلين بين مختلف المواضيع في الفلسفة وعلم الاجتماع فضلًا عن علم النفس، كنتُ ألوم نفسي أكثر من مرّة على إجباره على السهر حتى الثالثة فجرًا، رغم أني كنتُ أعلم أنه سيلتقي أوّل مريض عند الساعة الثامنة، لقد كانت تلك الأيام مناسبة للتعرّف على فرويد عن كثب، جرأته الفكرية، رجاحة عقل وطبع لا يُوصفا وحسن معاملة تفرّد بها»[6].**

ومثل غيره ممن تحوّلوا إلى التحليل النفسي، لم يكن سبب انجذاب جونز الأول للحركة التأثير الشخصي لفرويد، وإذ التحق البعض إلى الحركة مثل ستيكل اعترافًا بالجميل بوصفه من مرضاه الأوائل، فإن ما دفع آخرين مثل جونز إلى ذلك في البداية هو ما منحته أفكار فرويد من معنى لتصورهم العلمي.

(*) في لندن، اتُّهم جونز بأنه «تصرف بشكل غير لائق أثناء الاختبار الشفهي الذي أجراه معهما...» من قبل طفلين صغيرين وقد حُبس لمدة ليلة، ولكن القاضي حفظ القضية في آخر الأمر. ولاحقًا رغم أن فتاة صغيرة في عمر العاشرة والتي قابلها جونز إكلينيكيًا «افتخرت للأطفال الآخرين بأن الطبيب قد كان يتحدث معها عن الموضوعات الجنسية....» وقد اضطر جونز إلى أن يتخلى عن منصبه[2] وقد ابتُلِيَت مسيرته المهنية بكثير من الفضائح.

حين عاد فرويد من العطلة في أيلول/ سبتمبر 1912، قرّر ألا يبقى جونز في فيينا أثناء تحليل لو لأن ذلك أفضل لها. (في سيرة جونز الذاتية، اكتفي بذكر اسمها فقط - لو - مع التكتم على لقبها العائلي، بينما أشير إليها في سيرة حياة فرويد باسمها ولقبها - لو كان - كإحدى مريضات فرويد وامرأة لها أهمية خاصة في حياته، دون ذكر علاقتها الحميمة مع جونز). عاد جونز إلى فيينا من كندا في أيار/ مايو عام 1913، مع نية ممارسة التحليل النفسي في لندن مرة أخرى. ونتيجة لمعالجة فرويد للو، «قرّر جونز ولو الرحيل ومن ثم تزوجا في سعادة غامرة»[7].

نصح فرويد في ذلك الوقت جونز بأن يغتنم فرصة تحرره الظرفي من الالتزامات المهنية وأن يُخضع نفسه للتحليل. وفي نظر جونز، لا علاقة لتلك النصيحة بما يبدو للملاحظ من الخارج-تحليل لو وعلاقة جونز بها، وباختصار، زادت الألفة بين فرويد وجونز بسبب لو. فبالنسبة لجونز، كان اقتراح فرويد مرتبطًا بقراره بأن يخلف جونز يونغ «وربما لهذا السبب، يقول جونز، نصحني بأن أخضع للتحليل التعليمي»[8].

أوصى فرويد شخصًا آخر أعزبًا، وهو ساندور فرينشيزي (1873 - 1933) من بودابست ليكون المحلِّل، يقول:

«أمارس التحليل، بوصفه جزءًا من حياتي، بإسراف، فكنتُ أمضي ساعة في التحليل مرتين في اليوم أثناء الصيف والخريف، وغنمت منه غنمًا عظيمًا من ذلك أني أصبحت أكثر انسجامًا مع نفسي، ومكنني من نظرة متبصرة لا غنى عنها من النوع الأكثر مباشرة بطرق العقل اللاواعي التي أصبح من المفيد جدًّا مقارنتها بما كان لديّ من معرفة عقلية بشأنها قبل ذلك»[9].

صرّح جونز أنه «كان المحلّل النفسي الأول» الذي خضع للتحليل لغرض التدريب، ولا يوجد فرق كبير بين التحليل العلاجي والتحليل التدريبي، خاصّة في ذلك الوقت، ويسعى هذا الأخير على المستوى النظري إلى إعداد المريض لممارسة مهنته في حين يهدف الأول إلى التخفيف من المعاناة النفسية. أصبح مرضى فرويد الأوائل (ستيكل ولودفيغ جاكلز) محلّلين نفسيين، ولم يُشهد لفرويد قبل الحرب العالمية الأولى أنه أوصى مترشّحين شبّانًا لدراسة الطب، كان لديهم اهتمام كبير بالتحليل النفسي، بأن يخضعوا للتحليل، بينما اقترح يونغ أن يخضع كل من يريد أن يكون محللًا نفسيًّا في المستقبل إلى التحليل النفسي.

يبدو أنّ جونز من المحلّلين الأوائل الأكثر شهرة الذين خضعوا للتحليل وإن خضع مع ساندور فرينشيزي إلى تحليل شكلي، رغم أنه حضر مع فرويد، لبعض الحصص على امتداد أسابيع معدودة، من سنتي 1914 و1916، وبعد أن أمضى أشهرًا قليلة مع فرينشيزي في بودابست، عاد جونز إلى لندن في خريف عام 1913. وفي حزيران/ يونيو من عام 1914، ذهب فرويد وأتّو رانك إلى بودابست لحضور حفل زفاف لو كان على رجل يُدعى هيربرت جونز، وحسب ما جاء على لسان إرنست جونز، كان حفل الزفاف هذا «واحدًا من حفلي الزفاف اللذين حضرهما فرويد خارج إطار عائلته»[10] (ومثله مثل زواج برونشفيك(•) انتهى هذا الزواج أيضًا بالطلاق).

انتهت فترة الأشهر الأربعة التي قضّاها جونز في التحليل مع فرينشيزي بنتائج مخيّبة للآمال كان لها انعكاس سيّئ على سمعة الهنغاري التاريخية في المستقبل، وقد لفّق جونز مثل هذا التقرير الرائع عن السنوات الأخيرة لفرينشيزي حيث كان يميل إلى الاتفاق مع جيمس ستراتشي وإدوارد غلوفر اللذين أفادا بأنّ جونز لن يغفر لفرينشيزي البتّة لأنه كان محلّله[11]. ربما امتزج استياء جونز من هذه العلاقة بغيرته من حميمية العلاقة التي كانت تربط فرينشيزي بفرويد، ولأن فرويد، في الحقيقة، هو من حلّل فرينشيزي وليس جونز قطعًا، إنما كان جونز يشيد بفرينشيزي، أحيانًا، فقط كي لا يناقض نفسه في ما يرويه عنه في مواضع أخرى. وعن تحوّل فرينشيزي إلى شخص مهم ومبجّل عند فرويد يقول جونز:

«كان مرحًا تمامًا وعلى قدر كبير من البساطة وخيال الطفولة، لم أعرف شخصًا على الإطلاق قادرًا على استحضار وجهات نظره زمن الطفولة تلفظًا وإيماءً أفضل منه... كان يتّسم بإدراك حدسي حاد ومباشر بما يتوافق مع المعيار السامي للصدق الأصيل... كانت أفكاره غزيرة على أن جزءًا بسيطًا منها فقط صالح للكتابة، إذن تلك سمة لا يمكن تقديرها إلا من خلال التحاور معه مرارًا وتكرارًا... لقد كان فتى محبوبًا ومفعمًا بالحيوية، وعاشقًا للحياة، بسيطًا وصريحًا وصادقًا حتى النخاع، سريع البديهة وثاقب النظر بحيث يمكن أن يميّز أفكار الناس ودوافعهم، تلك أهم خصاله عندما التقيته قبل انهياره المؤسف في العشرين سنة الأخيرة تقريبًا... وكما نعلم، عرف اضطرابًا عقليًّا حادًّا انتهى به إلى حالة من الإحباط الشديد قبل سنوات قليلة من وفاته رافقه مرض عضوي آلمه كثيرًا، وتغيّر طبعه في مستويات عديدة»[12].

(•) أنظر الفصل التاسع، الفقرة الأولى: روث ماك برونشفيك.

وبحسب كل من عرف فرينشيزي عن قرب خلال سنواته الأخيرة، وخلافًا لما كتبه جونز، فإن عبارات مثل: «كما نعلم»، و«انهيار مؤسف» و«اضطراب عقلي حاد»، محض خيال تمامًا.

يعتبر كثيرون أنّ فرينشيزي كان الأكثر رأفة وإنسانية وحساسيّة من بين أعضاء مجموعة التحليل النفسي الأولى، هذا واتّصف فرينشيزي بالإيجاز والبلاغة في طرح المواضيع كما كان ذا حسّ مرهف وينبذ الأنانية ويؤثر الآخرين من حوله ويجدّ في مساعدتهم، بالإضافة إلى كونه كيّسًا ومبدعًا، وكانت له القدرة على إبداع أفكار جديدة حتى وإن لم يكن مقتنعًا بها أصلًا. لم يتزوّج حتى آذار/ مارس 1919 عندما كان في منتصف العقد الخامس من عمره، وقد أشاد فرويد لبعض الوقت بزواج فرينشيزي بعروسه الذي توّج فترة حبّ دامت ثمانية عشر شهرًا، رغم أنها كانت أكبر منه سنًّا ومتزوّجة وأمّ لبنتين، وبعد ذلك، أهدى فرويد جيزيلا فرينشيزي خاتمًا، وقد وصفها مرّة ليونغ يقول: «كانت ضليعة في ميداننا وعونًا قويًّا لنا»[13]. كانت طيّبة وعطوفة مثل فرينشيزي رغم أنها طلّقت زوجها من أجل هذا الزواج الجديد، وكان زوجها الأول ناعمًا وحزينًا، ولسوء حظه أصمًّا، الشيء الذي صعب مهمته في التواصل مع الآخرين بشكل كبير.

في يوم زواج فرينشيزي وجيزيلا، توفّي زوجها الأول، (حسبه البعض منتحرًا، فيما قال آخرون أنه توفّي بسبب أزمة قلبيّة)[14]. وقد قرّرت ألا تطلّق حتى تتزوج ابنتاها، حيث تزوّجت إحدى البنتين (ماجدا) أخ فرينشيزي الأصغر، وتزوّجت الأخرى (إلما) رجلًا أميركيًّا. وفي عام 1907 أو 1908، رتّب فرينشيزي وهو عندئذ دكتور في الطب العام، لاصطحاب إلما إلى فرويد من أجل التحليل الذي دام ثلاثة أشهر. وتوطدت علاقة فرويد وإلما للغاية، إذ تذكر إلما بأن التحليل كان ممتعًا لا مزعجًا. وعند عودتها إلى هنغاريا شعرت بتغيّر في شخصيتها.

رتّب فرينشيزي تحليل إلما منذ بداية ارتباطه بفرويد، ولقد كان لها أهمية خاصة بالنسبة له يتجاوز كونها ابنة المرأة التي أحبّها. في رسالة كتبها عام 1957، أكّد جونز للمكلف بمؤلفات فرينشيزي، وهو مايكل بالنت، أنّ سيرة فرويد كانت حذرة جدًّا في تجنّب الحديث عن حياة فرينشيزي الخاصّة، وعلاقته بجيزيلا وحميمية علاقته بإلما[15]. يبدو أنّ جونز قد تجرّأ بقول ما شاء عن المرض المميت الذي ابتلي به فرينشيزي و«اضطرابه العقلي» خاصّة لأنّ بالنت (الذي ورث خاتم فرينشيزي) علم أنّ جونز كان مطّلعًا على

معلومات لم تُنشر عن السنوات الأخيرة من حياة فرينشيزي.

كتب فرويد رسائل كثيرة لفرينشيزي أكثر من أيّ شخص آخر، وقد ناهز عددها الألفين وخمسمائة رسالة (تلقّى جونز على سبيل المثال أربعمائة رسالة). لو كان فرينشيزي أحبّ ابنة زوجته حبًا جمًّا، لما تصرّف فرويد تجاهه مثل هذا التصرّف «غير المعهود». وفي رسالة إلى فرينشيزي، أثنى فرويد على «رسائل جونز الرائعة التي ضمّنها انتصارات ونضالات كثيرة»[16]. وما أكسب ثقة فرويد في فرينشيزي هو «شخصيته المحبوبة واللطيفة»[17]. ولا زالت وجوه أولئك الذين يعرفون فرينشيزي تشرق عندما يُذكر اسمه، وحسب فهم جونز، ربما بنوع من الغيرة، كان فرويد «معجبًا بتحمّس فرينشيزي والمنعطف التأملي في تفكيره...»[18]. وبالتالي، كان فرويد يفضّل الأشخاص الألمعيين ولكن ليس المنتظمين بشكل مفرط.

علم جونز أيضًا كم كان فرويد مفتونًا بعطف فرينشيزي الفياض: «لقد وجدنا فيه القائد والصديق الرائع، السمح والسخيّ والملهم... وبطبيعته المنفتحة واضطراباته الداخلية، وخيالاته المتزايدة، تمكّن فرينشيزي من جذب فرويد إليه. وكان، من عديد النواحي، الشخص الذي اختاره قلبه»[19]. كان فرينشيزي بالنسبة لفرويد أكثر أهميّة من العلماء الأكثر ثقة من بين أعضاء حركته مثل أبراهام كما كتب ذات مرّة: «لا يسعني إلا أن أتمنّى أنّ يمتزج وضوح أبراهام ودقّته بمواهب فرينشيزي وأن يلتقطها قلم جونز الذي لا يكلّ»[20].

قام فرينشيزي بنشر انتقادات عن هرطقة يونغ (وبعدها هرطقة أوتو رانك)، وأجزم وآخرون أنّ «معرفة الحقيقة يمكن أن تعوّض لنا الكثير ممّا حُرمنا منه أو عانينا منه»[21]. انحاز فرينشيزي إلى موقف فرويد الذي أراد أن يتحاشى النقاشات العامة غير المثمرة في التحليل النفسي[22]، وكانت طبيعته السخيّة وحدسه السيكولوجي وقدرته على خلق أفكار جديدة (ضمن عالم فرويد) مصدر عطف فرويد الجيّاش تجاهه، وفي تكريم لفرينشيزي بمناسبة عيد ميلاده الخمسين، أشاد فرويد بـ«أصالته وغزارة أفكاره وخياله العلمي المتمكن»، وأشار إلى أنّ «أصدقاءه يعلمون أنّ فرينشيزي امتنع لأنه لم يكن قادرًا على اتخاذ قرار بالتواصل»[23].

لعب فرينشيزي دورًا مهمًّا في ما سمّاه فرويد «الشؤون الخارجية»[24] للتحليل النفسي، وفي كتاب لفرويد بعنوان «في تاريخ حركة التحليل النفسي» ذكر واحدًا فقط من

أعضائه الهنغاريين وهو فرينشيزي «وقد كان له وزن كبير في الجمعية ككلّ»[25]. عُقد أوّل اجتماع للجمعية الهنغارية للتحليل النفسي عام 1913 بزعامة فرينشيزي، وقد أصبحت الجمعية تحت «قيادته» في رأي فرويد «مركز العمل الكثيف والخلّاق وامتازت بتراكم القدرات مثل التي تمّ عرضها دون أن يكون لذلك أيّ علاقة بأيّ فرع من الفروع الأخرى للجمعية»[26]. وفي مؤتمر عُقد في بودابست عام 1918، انتُخب فرينشيزي رئيسًا للجمعية العالمية للتحليل النفسي.

مثّل الاستقبال الذي أقامته مدينة بودابست للمحلّلين المنتظمين الحجر الأساس في تاريخ التحليل النفسي، وأثارت الحرب العالمية الأولى اهتمامًا بمفاهيم التحليل النفسي، لذلك أضحت المشكلات الشعورية التي امتزجت مع واجبات الجندي، وهي «عصاب الحرب» مسألة مثيرة للقلق لسلطات الجيش، كما مثّل مؤتمر بودابست نقلة نوعية لحركة فرويد. حظي فرينشيزي لفترة قصيرة (من آذار/ مارس إلى آب/ أغسطس من عام 1919) في بودابست بإلقاء أولى المحاضرات في الجامعة حول التحليل النفسي.

في بودابست عقد فرويد آماله على تحقيق ما فشل في تحقيقه في زيوزيخ، وهو تأسيس «عاصمة التحليل النفسي في أوروبا»[27] خارج أسوار فيينا، معلنًا بذلك عن استمرارية التحليل النفسي بعد وفاته، (لمّا كان يعيش في إنكلترا عام 1939، أثنى فرويد على ما قام به جونز إذ «أنّ أحداث السنوات الأخيرة جعلت من لندن موقع ومركز حركة التحليل النفسي») [28]. بالإضافة إلى هذا كلّه، لم تعزل المشاكل السياسية هنغاريا عن بقية العالم فحسب، (من هنا اعتزل فرينشيزي من منصبه كرئيس للجمعية العالمية للتحليل النفسي لفائدة جونز في لندن) ولكن كذلك فارق أنطون فون فروينّد الحياة في كانون الثاني/ يناير عام 1920، وهو الرجل الهنغاري الثري الذي اعتمد فرويد عليه للدعم المادي والذي عيّنه فرينشيزي عام 1918 أمينًا عامًّا للجمعية. إذ وهب فون فروينّد مدينة بودابست ما يعادل ثلاثمائة ألف دولار من أجل تأسيس معهد للتحليل النفسي أثناء الحرب: «يُمارس فيه التحليل النفسي ويُدرّس ويكون متاحًا لعامّة الناس، وكان الهدف من وراء هذا المعهد تكوين عدد محترم من الأطبّاء الذين يتحصّلون منه على شهادة لعلاج العصابيين الفقراء في عيادات خارجية، وكان المعهد كذلك مركزًا للبحث العلمي في مجال التحليل النفسي»[29].

من خلال مبلغ صغير نسبيًّا قدّمه فون فروينّد لفرويد، أُنشئت أخيرًا الدار العالمية للنشر الخاصّة بالتحليل النفسي في فيينا، ومع ذلك، لم يرتقِ هذا السخاء بالإضافة إلى ما قبله

إلى ما كان متوقّعًا، ويرجع ذلك إلى المشاكل السياسية في استخلاص المال من هنغاريا بالإضافة إلى التضخّم الاقتصادي.

مال فرويد في هذه الفترة بصفة خاصة إلى تحليل الهنغاريين (باعتبارهم أكثر انبساطًا من أعضاء فيينا)، وقد عالج، بالإضافة إلى فرينشيزي وفون فرويند، استيفان هولوس (عانى من الذهان في السنوات الخمس الأخيرة قبل وفاته) واليزابيث رادو-ريفيتش اللذين أصبحا محلّلين. كان فون فرويند صاحب مصنع بيرة ثري وله إسهامات في الأعمال الخيريّة، وكان كذلك أستاذًا في الفلسفة، ورغم أنه كان رجلًا كيّسًا ومحبوبًا، إلا أن حياته الخاصّة كانت لسوء الحظّ مضطربة للغاية (انتحرت زوجته الأولى، واضطربت ابنته، ولمّا تزوّج بزوجته الثانية، احتفظ بعشيقته التي أورثها بعض المال). أصاب فون فرويند مرض السرطان وتماثل للشفاء ثمّ غادر الحياة تقريبًا في الوقت نفسه الذي توفّيت فيه ابنة فرويد صوفي، وأمام هذا المصاب المزدوج، قال فرويد: «لستُ أدري من أبكي أكثر الآن، أنطون أو ابنتنا صوفي». وأعرب فرويد عن تعازيه لأخت فون فرويند كاتا ليفي التي قام بتحليلها لمدّة قصيرة (مجانا)[30]. كانت السيّدة ليفي زوجة لطبيب يُدعى لايوس ليفي، وكان من بين مؤسّسي الجمعية الهنغارية للتحليل النفسي الذين يرجع إليهم فرويد أحيانًا طلبًا للنصيحة، وقد خضعت للتحليل من طرف فرويد أثناء إقامته في بودابست وبعدها أصبحت محلّلة عامية، وفقدت مالها مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وانتقلت إلى لندن حيث عاشت في منزل مجاور لحديقة آنا فرويد، وأقنع فرويد إحدى زوجات أصهاره لتسمّي ابنها باسم أنطون أخ كاتا، وكذلك فعل زوجان من الأتباع المخلصين، إرنست وماريان كريس.

كانت بودابست تعني الكثير لفرويد بوصفها مركز التحليل النفسي، لذلك كان فرينشيزي هو الأكثر أهمية بالنسبة له، فمن الطبيعي أن يكون متمزّقًا بين رغبته في الاعتراف وحاجته للعزلة. كان فرينشيزي (إلى جانب مينا أخت زوجة فرويد) رفيقه الأثير في الرحلات، وكانا كثيرًا ما يقضيان الإجازات معًا في إيطاليا. ناقش فرويد صحّته بانتظام في العديد من رسائله إلى فرينشيزي، (كان فرينشيزي يخشى على نفسه بشدة من المرض)، وهو أمر تفرّد به عن بقية أعضاء اللجنة[31]. نادرًا ما استقبل فرويد ضيوفًا من الخارج خلافًا لفرينشيزي وقال فرويد مرّة أنه يتمنّى أن يتزوّج فرينشيزي ابنته الكبرى ماتيلدا[32]. اقترح فرينشيزي عام 1926 أن يأتي إلى فيينا لتحليل فرويد، وفي ذلك تثمين لمتانة العلاقة التي تربطهما وقد تأثر فرويد بهذا المقترح ولم يثر استياءه[33].

أرسل فرويد مخطوطاته الجديدة لفرينشيزي (كما فعل أحيانًا لأبراهام) للقراءة والتعليق عليها، وصنّف عمل فرينشيزي العلمي في مرتبة متقدّمة تضاهي مرتبة عمل أبراهام، وفي نعيه الخاص لأبراهام عام 1926، نوّه إلى مكانة فرينشيزي المرموقة قائلًا: «من بين هؤلاء الذين اتّبعوني في غياهب التحليل النفسي، اكتسب أبراهام مكانة جدّ متميّزة لا يضاهيه فيها غير اسم واحد فقط»[34]. وفي نعيه لفرينشيزي عام 1933، صرّح فرويد أنّ مؤلفات فرينشيزي «جعلت كل المحللين تلاميذه»[35].

7 - ساندور فرينشيزي، التقنية والضحية التاريخية

مهما كانت المنافسات بين فرينشيزي وأبراهام، أو فرينشيزي وجونز في تاريخ حركة التحليل النفسي، فإن سياستها البيزنطية يجب ألا تحجب إنجازاتها المحورية التي تتلخّص في تطوّر تصوّر جديد للعقل. فرينشيزي كان موهوبًا وعالمًا نظريًّا كأي من أتباع فرويد (فقد طوّر من «البيو-تحليل نفسي» حيث تلتقي البيولوجيا مع التحليل النفسي في الكشف عن خبايا الحياة الجنسية ونظرية التناسل في تلاسا Thalassa)[1] واهتمامه البالغ يكمن في تقنية العلاج النفسي، إلا أنه ليس ثمة أحد مقتنع تمامًا بنتائج هذا العلاج النفسي أو غيره. وكما جاء في نعي فرويد الرسمي لفرينشيزي قوله: «هي مشكلة واحدة التي شغلت باله. لقد صارت الحاجة إلى العلاج والمساعدة أمرًا أساسيًّا بالنسبة له». أوصى فرويد دائمًا بأن يركّز تلاميذه طاقاتهم، ولكن حسب وجهة نظر فرويد فإن فرينشيزي «ربما رسم لنفسه أهدافًا بعيدة المنال من خلال وسائلنا في العلاج النفسي في هذه الأيام»[2]. مال فرينشيزي إلى تجربة التقنية التحليلية النفسية «الكلاسيكية» والعمل على تحسينها حتى تتلاءم مع طبيعته الهنغارية الاندفاعية حيث كانت تحولاته في اتّجاه إضفاء «المرونة» و«الليونة» على وصايا فرويد المتشدّدة، وإذا كان فرويد في الغالب متعصبًا في كبحه للمرض أثناء العلاج، كان فرينشيزي قادرًا على أن يواجه المريض على الأقل في منتصف الطريق، لكي يجعل العلاقة العلاجية أثناء المقابلة علاقة بين ذاتية أصيلة.

كان فرينشيزي متلهفًا إلى استغلال طاقاته الشخصية لأغراض علاجية، فلقد اقتنع تدريجيًّا بأن مهمّة المحلل هي أن يصحّح أخطاء مرضاه الناتجة عن التنشئة القاسية. فلا يوجد أبناء سيّئون وإنما فقط آباء بائسون، بينما تخلى فرويد عن التركيز على البيئة التي يعيش فيها الطفل، (الاعتقاد في الإغواء الوالدي) لصالح وجهة النظر المتعلّقة بصراع

الطفل مع المشاكل الغريزية التي تقود في الأخير إلى الاضطرابات العصابية[3]. بغض النظر عن نزعته الطفولية، أكد فرينشيزي على أهمية دور الوالد الصالح[4] (لنا أن نتساءل عن هذا الدور الذي لعبته علاقة فرينشيزي بإلما ابنة جيزيلا)، كما استخلص فرويد موقف فرينشيزي النهائي، قبل وفاته عام 1933، «يمكن للمرء أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا في مرضاه إذا ما أمدّهم بالمحبّة الكافية التي يتوقون إليها مثل الأطفال»[5].

تطوّرت أفكار فرينشيزي في تقنية التحليل النفسي على مدى سنوات، وقد ظهرت فقط في نهاية حياته مشاكل جدّية بينه وبين فرويد. ففي 1923 نشر فرينشيزي كتابًا بعنوان تطوّر التحليل النفسي بالاشتراك مع أوتو رانك، أثير فرويد في فيينا والصديق المقرّب لفرينشيزي، فعلم فرويد بالنشر الوشيك لهذا الكتاب وكانت لديه فكرة عامّة حوله، في حين لم يكن للأعضاء الآخرين في اللجنة علم بذلك، واعتبارًا لدعم فرويد فإن فرينشيزي ورانك لا يعنيهما ما قد يظنه بقية أعضاء اللجنة. لم يكونا حذرين بشأن تبعات صنيعهما ذاك، ومع ذلك بالنسبة لجونز «كشف الكتاب عن بوادر اتجاهات متباينة»[6].

تطوّر التحليل النفسي حسب ما جاء في مؤلفات فرينشيزي ورانك «من علاج إلى علم وحتى إلى موقف تجاه الحياة»، وكانا متخوّفين من أن يظلّ «ثابتًا في هذا الطور أو ذاك» لأنه عندئذ سيفشل في أن يتطوّر بتطوّر التجارب[7]. أكّد فرينشيزي ورانك على أهميّة الوقائع الحالية في العلاج، فهما يهدفان إلى اختزال العلاج ويركّزان على التواصل المتبادل بين المريض والمحلّل. ومن أجل أن يكون العلاج النفسي ناجعًا، اقترحا أن يكون التحليل أكثر من مجرّد إعادة بناء ماضي طفولة المرضى في سنواتها الأولى، ولا بدّ أن يعيشها من جديد بشكل أصيل، فلسائل «أن يسأل ما إذا كانت التحاليل العلاجية لم تكن إلى ذلك الوقت «تعليمية» فيما كانت التحاليل التعليمية تلقّن أقلّ تحليل من النظرية...»[8]. لكن يقتضي أيّ تحسين في التقنية، كما يؤكّد فرينشيزي ذلك، «فعالية» أكثر، والتزامًا من جانب المحلّل أكثر ممّا وقع الإقرار به. شكّ أبراهام مثل جونز بالهرطقة، وحذّر فرويد من إحياء أفكار يونغ في ثوب جديد. أخبر فرويد رانك عن شكوك أبراهام، وبدوره أخبر رانك فرينشيزي و«أنه من الصعب القول أي من الاثنين كان أكثر غضبًا من الآخر»[9].

اعتبر فرويد أن هذا الكتاب غير متجانس تمامًا، وصُعق فرينشيزي لتحفّظات فرويد، ولكن كَتبَ فرويد ليطمئن فرينشيزي في الرابع من شباط/ فبراير 1924:

«اعتبر مسعاك لتحافظ على توافقك معي تعبيرًا على صداقتك، ولكن هذا الهدف

ليس ضروريًا وليس في المتناول. أعلم أنه لا يمكنني التراجع عما عزمت عليه لأنه من الصعب هضم الأفكار الغريبة التي لم تنسجم مع توجهي. فالأمر يحتاج إلى كثير من الوقت قبل أن أحكم عليها، وبالتالي، اضطررت إلى تعليق الحكم حتى لا يقضي انتظارك الطويل على إبداعك، ولكن ذلك لن يحدث على أي حال. وفي ما يتعلق بمسألة إن كان عليك أو على رانك أن يكون لكما توجهكما المستقل وأن تغادرا صرح التحليل النفسي فمفروغ منها، فلماذا لا يكون لك الحقّ في المحاولة إن كنت ترى الأمور على نحو مغاير لما أعتقد؟ وإذا ما ضللت الطريق، فستهتدي إليه خارج ذاتك إن آجلًا أم عاجلًا، أو سأمدّك بذلك في أقرب وقت حالما تأكدت أنا نفسي منه»[10].

وبما أنّ رانك قدّم أفكارًا جديدة حول صدمة الولادة، كتب فرويد رسالة رسمية لأعضاء اللجنة الآخرين، وليوضّح مطامح «الانحرافات» عن التحليل النفسي. واعترف فرويد مرّة أخرى بأنه «لم يكن من السهل تحسّس طريقي إلى الغريب من طرق التفكير وما كان لي سوى الانتظار حتى أجد صلة ما تربط بين طرقي المتعرّجة، لذلك لو أنك أردت الانتظار مع كل فكرة جديدة حتى أوافق على ذلك، لتقدمت بك السنّ دون أن تبلغ مرادك»[11]. اعتقد فرويد أن الاقتراحات التقنية لفرينشيزي ورانك كانت، مثل «التجارب»، مبرّرة بالكامل. فنحن سنكتشف ما قد يأتي منها. وعلى كل حال، لا بدّ أن نتجنّب منذ البداية انتقاد ما تكفّلنا به على أنه ضرب من الهرطقة، فأخطاء فرويد في الفهم كثيرة، خاصة أن نوع العلاج الفعال الذي اعتمده فرينشيزي، إذا ما استخدمه «المبتدئون الطموحون»، قد يؤدّي إلى فهم سطحي، وبالتالي فهو يمثل حاضرًا «إغراء خطيرا».

«ومع أن من الطبيعي أن أنحني للتجربة، ولكني شخصيًا سأستمر في اعتماد التحليلات الكلاسيكية، لأنه من النادر، في المقام الأول، أن أتخذ أي مريض، وإنما فقط التلاميذ الذين يكون مهمًا لهم أن يعيشوا من خلال أكبر قدر ممكن عملياتهم الباطنية، فالمرء لا يمكن أن يتناول تحاليل تدريبية بالطريقة نفسها التي يتناول بها التحاليل العلاجية. وفي المقام الثاني، أعتبر حسب رأيي، أنه ما زال أمامنا الكثير من البحث والتدقيق، ومع ذلك لا نستطيع الاعتماد فقط، كما كان ضروريًا في حال التحاليل الموجزة، الافتراضات التي قدّمناها»[12].

في الوقت الذي بدأ فيه أوتو رانك ينشقّ تدريجيًا عن حلقة فرويد، ظل فرينشيزي مخلصًا لفرويد. وفي عام 1926 دُعي فرينشيزي لإلقاء محاضرة في نيويورك في المدرسة الجديدة

للأبحاث الاجتماعية، ومكث هناك هو وزوجته لثمانية أشهر، وكان لدرسه في المدرسة الجديدة دورًا كبيرًا لتعزيز الاهتمام بالتحليل النفسي في أميركا، كما قدّم فرينشيزي أيضًا حلقات دراسية عن هذه التقنية لأعضاء جمعية نيويورك للتحليل النفسي ورابطة التحليل النفسي بأميركا، وأشرف على بعض التحاليل. ولم يكن العديد من المحلّلين المحلّيين سعداء بزيارة فرينشيزي، منذ أن شارك فرويد تمامًا في موقفه لصالح تدريب المحللين العاميين، ومع أن فرويد قد استحسن منزلة فرينشيزي في المدرسة الجديدة، فجونز قد نبّهه من الانسياق وراء «التشاؤم الحدسي»، وحسب تصوُّر جونز «لم يكن فرينشيزي الشخص نفسه بعد تلك الزيارة، مع أنها كانت قد مرّت أربع أو خمس سنوات قبل انهياره العقلي الذي أصبح ظاهرًا بالنسبة لفرويد»[13].

حاول فرويد للعديد من السنوات أن يحافظ على فرينشيزي تابعًا له، ولكن بعد عودة فرينشيزي من نيويورك، استاء فرويد من عدم قدوم فرينشيزي إليه فور عودته مباشرة، بدلًا من تمضية ثلاثة أشهر في أوروبا أولًا. ساوره الشك حول ما إذا كان ذلك يُنبئ بنزوع إلى الانفصال (عن فرويد أو عن التحليل النفسي، أو كما تشير الحادثة على ذلك، عن كليهما)، «وكلما تقدّم الشخص في السن كلما شعر بأنه في مواجهة الجميع»، فقد اكتشف أن فرينشيزي أصبح متحفظًا بشكل صريح منذ زيارته إلى أميركا[14].

رغم تصلّب فرويد ومقاومته «للتأثيرات» الخارجية، فقد كان لفرينشيزي تأثيرًا عظيمًا عليه، من ذلك مثلًا أنهما كانا مفتونين بإمكانية التخاطر وتحويل الأفكار. ولكن في 1930 عبّر فرينشيزي عن تذمّره إلى فرويد بأنّ في تحليله أثناء الحرب العالمية الأولى، لم يهتم فرويد بما إذا كانت في أعماق فرينشيزي عدوانية مكبوتة تجاه فرويد[15]. قد يعكس هذا التذمر تطفلًا من لدن فرينشيزي، إلا أنّ واقع الحال يؤكد أن فرويد أراد أن يقلّل قدر الإمكان من ازدواجية مواقف أتباعه تجاهه. كان فرينشيزي متمكّنًا بارعًا في تقنية التحليل، وقد أثار فرويد خصوصية مسألة هذه التقنية في مقال له بعد وفاة فرينشيزي. كما اعترف فرويد بأنه لا يمكن استبعاد «كلّ شيء»، «اعتبارًا لمحدودية أفق التحليل النفسي في تلك الأيام» ولم يولِ «اهتمامًا لاحتمالات التحويل السلبي». شكّ فرويد في أنه حتى «لو لم يفشل في ملاحظة بعض العلامات الباهتة جدًّا» للتحويل السلبي لفرينشيزي، «فقد كانت لديه القدرة على تفعيل الموضوع بمجرد لفت الانتباه إليه، باعتبار أنه لم يكن متواترًا لدى المريض في ذلك الوقت»[16].

لقد تعلقت المشكلة الرئيسة بين فرويد وفرينشيزي بمسألة فاعلية تقنية المحلّل النفسي، ورغم أننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن مراسلاتهما المنشورة، فإن مسألة الأولويات لم تعكّر صفو علاقتهما. اعترف فرويد بأنّ فرينشيزي تفوّق عليه في مسألة معيّنة، وقد أرجأ نشر إحدى مقالاته حتى يحصل فرينشيزي على الائتمان بشكل كامل[17]. وردد فرينشيزي موقف فرويد نفسه تجاه الطرق المختلفة التي كان «يُستولى» من خلالها على أفكاره دون إذنه. ففي مقال قدّمه خلال رحلته إلى أميركا عام 1926 قال:

«في أوروبا، أصبح عاديًا الاستيلاء على جزء كبير من مؤلفات فرويد من أجل صياغتها في شكل جديد وبلغة اصطلاحية جديدة، ونشرها كما لو كانت من إنتاجهم الخاص... وعلى صعيد آخر، يبدو، رغم أننا في أميركا أنّ الناس أكثر استعدادًا منّا نحن في أوروبا لقبول وجهات النظر المبتذلة والمتدنية لأتباع فرويد الأوائل»[18].

اعتقد فرينشيزي أنّ «الطريقة المعتادة والأكثر ازدراء لقبول نظريات فرويد تتمثّل في إعادة اكتشافها وإذاعتها تحت مسمّى جديد»[19].

لم يعانِ فرينشيزي كثيرًا في علاقته مع فرويد مثل غيره، ذلك أن ودَّه الفياض قاده إلى تطوير خبرته عبر تقنيته التحليل النفسي العادية. روى جونز بنوع من «الذهول» كيف دخل فرينشيزي «باندفاع» إلى الغرفة وقبّل جونز وفرويد بحرارة[20]. وبحلول 1931، أصبح فرينشيزي يقبّل المرضى ويسمح لهم بتقبيله، ظنًّا منه أنّ ذلك لا يقلّ أهميّة عن عطف الأمّ الرؤوم الذي كان يحتاجه المرضى، ولكن فرويد أعرب عن قلقه من أن تكون «المداعبة» ضمن جدول أعمال مناصري آراء فرينشيزي في المستقبل، ثم «اختلاس النظر والمشاهدة»، إلى أن ينتهي الأمر في آخر المطاف إلى الجنس. كانت «تقنية التقبيل» بالنسبة لفرويد تعبيرًا عن انسحاب هادئ لفرينشيزي: «يبدو لي أن حاجتك إلى الاستقلال صارت قطعية أكثر مما اعترفت به»[21].

والراجح أنّ فرينشيزي، مثل بول فيدرن، «ظلّت بذرة التمرد خامدة في أعماق ذاته دون أن يعرب عنها». وقد «عانى (فرينشيزي) من حاجته لأن يكون مقبولًا ومحبوبًا، وبسبب هذه الحاجة، كانت علاقته الشخصية بفرويد أكثر أهمية له من استقلالية تفكيره»[22]. لم تُقطع علاقة فرويد وفرينشيزي نهائيًا، إلا أن لقاءهما الأخير في الرابع عشر من آب/ أغسطس عام 1932 كان متوترًا. طلب فرويد من فرينشيزي ألاّ ينشر مقاله الأخير لمدّة عام «وهو مقال اعتبر فرويد أنه لن يضيف شيئًا لسمعة فرينشيزي، والتمس منه ألا يقرأه» في

مؤتمر التحليل النفسي ذلك العام. وبالقياس إلى واقع التحليل النفسي اليوم، يعتبر المقال مفعمًا بأفكار جديدة، ولكن ـ من وجهة نظر جونز ـ «اعتبر زعماء الحركة الآخرين أن قراءة هذا المقال قبل مؤتمر التحليل النفسي فضيحة»[23].

وبقدر المكانة المميزة التي أولاها فرويد لفرينشيزي في حركته لسنوات عديدة خلت وما بذله من أجل الاحتفاظ بعضويته فيها، بقدر ما كان رفض فرويد له لا يقل أهمية عن ذلك. فبحسب رأي فرينشيزي كان موقف فرويد من تجربة تقنيته قاسيًا»[24]، أما بالنسبة لفرويد فقد كان فرينشيزي يشبه عددًا كبيرًا من الأشخاص الآخرين، ولكن كما كتب، كان لتابعه الهنغاري دون دافع حقيقي: «كل أولئك الذين كانوا قريبين مني ثم هجروني كانت لهم أسبابهم الكثيرة لنقدي وكنت أقلّهم نقدًا لي من بين جميع الناس. (بما في ذلك رانك)»[25]. مثّل تقييم فرويد للأنشطة التحليلية، حسب رأي فرينشيزي، موقفًا شخصيًا، وليس مجرّد نتيجة لتناقض علمي. وفي آخر لقاء بينهما، نبّه فرويد فرينشيزي إلى أن تقنيته لا تخلو من مجازفة خطرة، وبمجرد أن انتهى اللقاء، أشار فرينشيزي إلى أنه قد رفع يده مودّعًا «وداع المحبّ، بينما أدار الأستاذ ظهره وخرج من الغرفة»[27]. استاء فرينشيزي من ذلك وشعر بالمرارة ولكن رغم تراجع توافقهما على غير العادة فقد ظل مخلصًا لفرويد وللتحليل النفسي.

توفّي فرينشيزي في الثاني والعشرين من أيار/ مايو 1933، فقد كان يعاني من أنيميا خبيثة، وبسبب شدّة خوفه من المرض، فإنه من الصعب أن نعلم مدّتها. وفي مؤتمر التحليل النفسي في 1932 أفصح عن مرضه (إلى جونز وآخرين)، كانت علامات مرضه الخارجية الخطير بادية للعيان بشكل واضح بالنسبة للأطباء الحاضرين. وفي رسائله بعد وفاة فرينشيزي وكذلك في نعيه، ذكر فرويد هذا المرض «لقد كانت العلامات التي تظهر عليه من حين لآخر تؤشر على عملية عضوية مدمّرة ألقت بظلالها على حياته لسنوات عديدة، وما أن بلغ الستين من عمره تقريبًا حتى تعرّض لأنيميا خبيثة»[28]. وإلى أن توفي، كان فرينشيزي يشعر بالمرارة، محبًّا للحياة، ولكن رغم صمته واكتئابه، لم يكن مرتبكًا أبدًا حتى وافته المنية[29].

حالت كل أنواع العوائق الداخلية وكذلك الخارجية بين تلاميذ فرويد المخلصين، دون منافسة الأستاذ، ولكن كان هناك ما يحفزهم للمنافسة في ما بينهم دفاعًا عن فرويد في حياته، وكذلك عن مكانة تاريخ التحليل النفسي بعد وفاته. وربما كان جونز خصمًا لا يرحم مع منافسيه. وقد وجهت عدائيته إلى زملائه عوضًا عن فرويد نفسه، ادّعى جونز

على الأقل في إحدى المناسبات أن فرينشيزي قد اتّهمه بالانتحال[30]. عالج جونز جميع مشكلاته مع فرينشيزي ورانك كمبشرين بمعارضة ضد فرويد نفسه اتّضحت معالمها لاحقًا[31].

كان المحلّلون النفسيون كثيرًا ما يسيئون استخدام علمهم من خلال الأسماء والادّعاءات التشخيصية. قد تكون معاملة جونز لفرينشيزي في السنوات الأخيرة على الأرجح المثال الأكثر شهرة في مدونة التحليل النفسي، فهو لم يسرد ما قام به فرينشيزي في السنوات الأخيرة كما لو كان المجري ينزلق نحو الجنون، ولكن قلّل أيضًا من دور المرض العضوي لفرينشيزي. وفي المجلد الثاني لسيرة فرويد الذاتية، أشار جونز ببساطة إلى «اضطراب خطير في أعماق» شخصية فرينشيزي، وكيف أن «استقرار فرينشيزي قد بدأ يتفكك»[32]. وفي المجلد الثالث، تعرّض فرينشيزي، طبقًا لرواية جونز إلى «انهيار عقلي»[33]. و«مع نهاية حياته، تطوّرت لدى فرينشيزي أعراض ذهانية تجلّت، من بين أمور أخرى، في تخليه عن فرويد ونظرياته، وفي النهاية ظهرت نتائج الذهان المدّمر الذي ظل متخفيًا لمدّة طويلة»[34]. ومع «تطور انهياره العقلي»، وبلوغ مرضه طوره الأخير، أثار اضطرابه الجسدي، كما جاء على لسان جونز: «ولا ريب في ذلك نزعاته الذهانية الكامنة»[35]، ويفترض أن فرينشيزي بلغ «حالة من التوهم التام» وأنه ارتكب «أخطاء انتكاسية نظرية»، وأن «أوهامًا راودته حول عداوة فرويد المفترضة»، وأنه تعرض قبيل وفاته بقليل «لنوبات جنون ارتياب عنيفة وقاتلة». تلك هي ملابسات وفاة «أشد أصدقاء فرويد قربًا إليه»، كما يرويها جونز[37].

ومع ذلك، لم يكن هناك أيّ اتصال حميمي مع فرينشيزي أثناء الفترة الأخيرة من حياته يؤكد أي من نظريات جونز[38]. في النهاية أوهنت الأنيميا قوى فرينشيزي كثيرًا حتى أنه ظل طريح الفراش ولأنه كان يخشى أن يؤدّي به حماسه الشخصي إلى كثير من الأخطاء التي قد تجعله يخسر احترام فرويد وزملائه له إلى الأبد، تحدّث فرينشيزي عن إعادة صياغة مقالاته الأخيرة لتوضيح سوءٍ الفهم[39]. وعندما نشرت مجلّدات جونز عن سيرة فرويد الذاتية لأول مرّة، بدت للمحلّلين، الذين ما زالوا على قيد الحياة، مثل المعجزة إذ أحيت تلك الأيام الخوالي من جديد (وكانت أيضًا ذات مردودية تجارية) وقلة منهم فقط كانوا متلهّفين لانتقاد ما أنجزه. بيد أنّ المكلف بمؤلفات فرينشيزي، مايكل بالنت، ناقش قصّة ذهان فرينشيزي في رسالة إلى المجلة العالمية للتحليل النفسي[40]. وردّ عليه

جونز برسالة كتبها بنفسه رغم اقتناعه سلفًا بأن بالنت حذف من رسالته كل إشارة إلى أنّ فرينشيزي حلّل كل منهما، وهو ما لا يمكن إنكاره، وزعم جونز أن لروايته عن وفاة فرينشيزي مصدرًا موثوقًا، مع أنه امتنع عن ذكر الأسماء. غير أن فحص رسائل جونز، مع تزامن وفاة فرينشيزي تقريبًا، أماط اللثام عن صور مختلفة عن تلك التي وردت في سيرة فرويد الذاتية. وفي رسالة بتاريخ 20 تموز/ يوليو 1933، ناقش فيها «المجانين» في التحليل النفسي الذين يسبّبون المتاعب أيضًا، أشار جونز إلى مرض فرينشيزي العضوي الأخير. زعم جونز أنّ فرينشيزي أصبح يعاني من الزَوَر، وناقش أيضًا المخاطر التي تسببت فيها الأنيميا الخبيثة على النخاع الشوكي لفرينشيزي، ولكن جونز لم يتطرّق إلى انفتاح فرينشيزي مقارنة مع غيره ممن يُفترض أنهم «مجانين» (مثل غريغوري زيلبورغ، فيكتور توسك، فيلهالم رايش، ويانو هارنك)[41].

يبدو أنّ فرويد نفسه أشار إلى «مرض» فرينشيزي وتألمه من تأثيرات غامضة. وبيّن أحد مرضى فرويد ذات مرّة أنّ فرينشيزي «استاء» من التناظر الوظيفي للاستخدام الأول للأشعة السينية لأن مخترعوها لم يُدركوا عواقبها الوخيمة[42]. وهو تفسير رائع في تقدير فرويد إذ يتوافق تمامًا مع طموحه في أن يظل التحليل النفسي علمًا لا تشوبه شائبة، وقد استخدمه هو نفسه في مناقشة «المخاطر» المحدقة بالمحلّل النفسي، (وهو في الواقع تناظر قديم، كان ستيكل قد أشار إليه في نعيه لسيلبيرر).

تشير رسائل جونز إلى أنّ مصدره بشأن روايته حول وفاة فرينشيزي كان الأستاذ نفسه. إذ فارق فرينشيزي الحياة بشكل مفاجئ تمامًا، ولما أراد جونز أن يعرف تفاصيل أكثر عن مرض فرينشيزي (أخبر المحلّل والأنثروبولوجي المجري غيزا روهايم جونز أن وفاة فرينشيزي كانت مفاجئة وغير متوقعة ودون أن تسبقها أيّ معاناة تُذكر)، اتّصل جونز هاتفيًا بفرويد في فيينا[43]، ثم كتب له رسالة أشار فيها إلى ما دار بينهما، وافترض جونز (وقد حذف لاحقًا من سيرة فرويد الذاتية) أنّ مرض فرينشيزي العضوي قد بلغ طوره الأخير وأصاب نخاعه الشوكي، ووعد جونز بأن يتكتم على واحد من تعليقات فرويد على فرينشيزي - شيء ما عن سيدة أميركية - ولكن جونز اعتقد أن الزَوَر («البارانويا») صار علنيًا ومفضوحًا بالنسبة لأيّ شخص قرأ أو سمع مقال فرينشيزي في المؤتمر الأخير[44].

ربما أجرى فرويد محادثة تليفونية استخدم فيها عبارة مثل «زوراني» بشأن فرينشيزي.

رغم أنّ فرينشيزي كان شخصًا معتدلًا وغير عدواني، فقد كانت بينه وبين فرويد مشاكل حقيقية، وكان فرويد (وكذلك بقية المحلّلين) أحيانًا يطبّق بشكل فضفاض المصطلح على الأطوار شديدة الحساسية أو الدفاعية في حياة الآخرين. فلو أن جونز كان يستند في أجزاء عن وفاة فرينشيزي إلى سلطة عليا، فعندئذ لنا أن نتخيّل بأنه ربما لا يريد أن يورِّط فرويد بالاسم، ورغم ذلك كان نعي فرويد لفرينشيزي منصفًا وموضوعيًا. ركّز على المرض الجسدي الذي أصاب فرينشيزي في آخر حياته، وكرجل نبيل لم يشأ فرويد أن يلجأ بشكل علني إلى «التبرير العاطفي» الذي اعتمده جونز لتفسير ابتعاد فرينشيزي عنه، وفي ذلك إشارة إلى «تعسّر فرينشيزي» (وحتى الآن ليس لدينا توضيح حول الإشارة إلى السيدة الأميركية، ويُفترض أن هناك علاقة شهوانية بين فرينشيزي وإحدى مريضاته أو تلاميذه، أو ربما في ذهنه ابنة زوجة فرينشيزي إلما التي لا تزال آنذاك أميركية. فقد يكون فرويد واعيًا بشيء لم نستطع أن نفهمه، ولكن في سياق تخوّفه من أن تؤدي اختراعات فرينشيزي التقنية إلى أخطاء مهنية، يبدو أن موقفه حبيس إشاعة لا غير).

يعترف الذين شاركوا في التحليل النفسي في بداياته بشكل كبير بأن رواية جونز بشأن فرينشيزي فيها تزييف للحقيقة، ذلك أن فرينشيزي لا يُذكر إلا بوصفه معلمًا ملهمًا، وكان حدثًا عظيمًا في جمعية فيينا لمّا ألقى محاضرة كزائر. ولم يكن متخصّصًا في تقنية التحليل النفسي فقط، ولكنه كان كذلك رائدًا في تحليل الشخصية، وكان لفرينشيزي عدد قليل من التلاميذ الألمعيين مقارنة بكارل أبراهام بسبب اختلاف في اللسان (لكن كلارا تومسون، التي خضعت للتحليل على يدي فرينشيزي، أصبحت واحدة من أعظم المؤلفين في التحليل النفسي)، فاللغة المجرية كانت لغة غير متداولة قياسًا للغة الألمانية، ورغم أن فرينشيزي كان قادرًا على أن يتحدث باللغة الإنكليزية أو اللغة الألمانية في تحليله للمرضى، فإن التوافد عليه للعلاج في بودابست يعني اصطحاب العائلة بتمامها، وعندئذ لن يكون بوسع الأطفال التحدث بمثل هذا اللسان الصعب، وعندما كتب فرويد في نعيه بأن فرينشيزي نجح في جعل «كل المحلّلين تلامذته»[45]، كان ذلك ثناء عظيم في الواقع. ولأجل ذلك يقول فرويد «يستحيل أن ينسى عِلْمَنا هذا فرينشيزي».

8 - الأميركيان: بوتنام وفرانك

لم يكن لفرويد شخص غير مجادل أو غير مؤهل في أميركا، وحتى الآن لم تكن لديه

نسخة من التحليل النفسي حقّقت نجاحًا على هذا النحو في أي مكان آخر. مثّل استقبال فرويد في أميركا[1] شأنًا مهمًّا في التاريخ المقارن. فعلى سبيل المثال، رغم أن تراجم كتب فرويد ظهرت تقريبًا في الوقت نفسه في أميركا وإيطاليا، وجد فرويد منذ الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى جمهورًا أكثر استجابة في الولايات المتحدة، وذلك ما كان يخشاه.

اطلع ويليام جيمس وهو فيلسوف أميركي عظيم. على كتابات فرويد بصفة مبكّرة منذ تسعينيات القرن التاسع عشر. رحب جيمس بإسهامات فرويد بادئ الأمر، سيما وأن عمله الخاص في علم النفس عن اللاعقلاني بدا مطولًا، (ربما كان جيمس أوّل مثقفي كامبريدج، وماساشوستس، الذين استفادوا شخصيًّا من استخدام الطب النفسي في مستشفى ماكلين). غير أن شكوك جيمس تنامت بشأن المحلّلين الأوائل وفرويد الذي التقاه عام 1909: «فهم لم يفشلوا في إلقاء الضوء على الطبيعة البشرية، ولكن أعترف أنه أذهلني شخصيًّا كرجل مهووس بأفكار راسخة»[2].

كان مورتن برانس، وهو تلميذ آخر في بوسطن، واحدًا من الرائدين المتميزين طبيًّا في حركة العلاج النفسي في أميركا، وقد بذل الكثير من أجل لفت عموم القرّاء للاهتمام بمفهوم اللاوعي وتقنية التنويم، وقد ألّف كتابًا مشهورًا عن حالة الشخصية المتعدّدة، ومع ذلك، اعتبره إرنست جونز عدوًّا لدودًا. حمّل جونز فرويد في السنوات الأخيرة المسؤولية حول الطريقة التي عالج بها برانس:

> **«نشأ بيننا خلاف بسيط حول شخصية مورتن برانس، وهو الرجل الذي تعرفت عليه من خلال الرسائل في لندن منذ سنوات خلت، وكنت آوي إليه دائمًا أثناء زيارتي إلى بوسطن. كان الرائد الأميركي الأول في السيكوباثولوجيا، وهذه حقيقة لا سبيل لإنكارها وليس لي إلا أن أنوّه بها، وبالإضافة إلى ذلك أتاحت دوريته العلمية الموسومة بمجلة علم النفس الشواذ، نشر بعض المقالات عن التحليل النفسي مجانًا، وكانت الوحيدة في الغالب التي تمنح هذه الفرصة».**

«لقد كان، كما اكتشفت ذلك من خلال تعاوني معه لبعض السنوات في تحرير هذه المجلة، نبيلًا ومتطورًا ومطلعًا على شؤون العالم والبشر وزميلًا مبهجًا، ولكن عيبه الوحيد والخطير أنه كان غبيًّا إلى حد ما، وهو عيب لا يغفره فرويد»[3].

لم يكن لبرانس، حسب فرويد، «أيّ موهبة على الإطلاق». «كان مولعًا بالدسائس»

و«أحمقًا متعجرفًا أمّا نقد جونز له فقد كان معتدلًا ومهذّبًا...»[4]. انتقد برانس بشكل لاذع ما اعتبره جونز محاولة لـ«تشويه سمعة» أعماله، ولقب جونز بـ«المتعصّب» للتحليل النفسي[5]. كما وصف رسالة من رسائل جونز: «ليست فقط لاذعة في لهجتها ولكنها عدوانية، إن لم نقل دنيئة» واستنتج بأن جونز كان «حاد المزاج ومتطرّفًا وتابعًا شابًا منغلقًا على ذاته وينتحل كل ما يقوله أي شخص آخر»[6].

يؤكد برانس «على أن الاضطرابات العصابية انحرافات لعملية التذكر الطبيعي، وأن أفضل الذكريات الدفينة تلك التي نستحضرها عن طريق التنويم». ولكن نظريته عن اللاوعي مختلفة عن نظرية فرويد:

«أرى أنّ اللاوعي ليس عقلًا باطنًا فاقدًا للوعي، جامحًا ومطلق العنان كما يعتقد بعض أتباع فرويد بأنه على استعداد لاغتنام فرصة غياب الرقابة للتهجم وللقتل كما لو كان جنيًّا شريرًا، ولكنه آلية عقلية عظيمة تمثل جزءًا من طريقة منطقية ومرتّبة في مسارات الحياة اليومية، ولكن ضمن بعض الظروف التي تتعلق بصفة خاصة بالغرائز العاطفية تصبح مضطربة وشاذة»[7].

عندما بدأ التحليل النفسي يشق طريقه في أميركا (استُقبل باستحسان في الدوائر الطبية قبل الرأي العام)، أصبحت المناقشات أكثر شراسة، واعتقد برانس أنّ المحلّلين أصبحوا أقرب إلى «الطائفة الدينية» من المجموعة العلمية، وناقشوا «أن علم فرويد قد اهتزّ منذ أن استعيض ببعض التعبيرات من قبيل «مؤكد» و«راسخ» و«معلوم جيّدًا» و«مقبول» عن تعبيرات ألفناها في العلم المتقدم مثل «النظرية» و«الإمكان» و«الاحتمال»[8].

بدا أسلوب فرويد في العلاج، مع أنه أصبح أكثر تفاؤلًا في صيغته في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى قياسًا للسنوات الأخيرة، أكثر تزمّتًا عند كثير من الأميركيين و«ميلهم إلى جعل اللاّشعور محلّ اختراق»[9]. ورغم تحليل الأحلام نفسيًّا، وتقنية التداعي الحر وإحياء الذكريات القديمة استجابة لرغبة الأميركيين في التغلّب على التكتّم المفرط[10]، كان الأميركيون متردّدين في الاعتراف بأنّ التحليل يمكن أن ينتج عنه آليًّا تأليفًا من جانب المريض. مالوا إلى الاعتقاد ليس إلى ما اقترحه يونغ في محاضراته في فوردهام، بأنّ اللاّشعور كان أقلّ خطرًا مما اعتقده فرويد فحسب، ولكن أيضًا بأنّ المحلّل لا ينبغي أن يقيّد أنشطته على نحو أضيق مما اقترح فرويد.

كان جيمس جاكسون بوتنام (1864 ـ 1918) أحد المؤيدين البارزين لوجهات النظر

هذه، وهو الذي أسس جمعية أطباء الأعصاب في أميركا، وكان أستاذًا متميزًا في مدرسة هارفارد الطبية التي تأسّست منذ 1890، وقد أجرى تجارب باعتماد التنويم المغناطيسي والعلاج النفسي. تخلّى بوتنام، على غرار برانس، عن اعتبار الوراثة عامل من العوامل المسبّبة للمرض، وعلى غرار طريقة يونغ، كانت طريقته في العلاج في جزء منها إلهامية. ولما كان بوتنام من أشياع أميرسون، فقد كان يجاهر بتفاؤله ودفاعه عن البيئة، وبما أنه من نيوإنغلاند وذو ضمير اجتماعي، فقد اعتقد على غرار أدلر، بأنه يتعين تهذيب «الغرائز الاجتماعية» لدى العصابيين. وحسب رأي بوتنام، أعطى التحليل النفسي الفرويدي للبشر دفعة جديدة من الأمل.

مثّل بوتنام، كما أشار إلى ذلك فرويد، «كسبًا رائعًا بجميع المقاييس»[11] لحركة التحليل النفسي. كان فرويد على استعداد للتغاضي عن الاختلافات المتعدّدة بين نظرياته ونظريات بوتنام باعتبار شخصيته الاستثنائية وكذلك من أجل التحليل النفسي في أميركا. أعجب فرويد ببوتنام «وبدماثة أخلاقه وحبّه للحقيقة الذي لا يلين». وبعد وفاة بوتنام كتب فرويد عنه يقول «لقد كان واحدًا من أولئك الذين يرحبون بمكافأة الأشخاص من النوع الاستحواذي الذين يعتبرون النبل قيمة ثانوية ولا سبيل البتة بالنسبة إليهم للتنازل وإن لم يكونوا أهلًا لذلك»[12]. إنه لشرف للمذهب الطهراني الأميركي أن تنتسب إليه جماعة سمتهم التعفف من البرهمنيين في نيوإنغلاند ممن تبنّوا أفكار فرويد في أميركا. فقد كانوا على بيّنة في المقام الأول بما كان فرويد يناضل من أجله، ولم يكن بوتنام فقط على علاقة اجتماعية وطيدة بالوثنيين بل كان أيضًا يهوديًا وممثلًا «للسلالة الإنكليزية» التي كان فرويد معجبًا بها.

من الصعب أن نقدّر ما يعنيه التحليل النفسي لبوتنام، فقد ناهز عمره الثلاثة والستين عندما حمل لواء قضية فرويد محاميًا عنها. ومثل غيره ممن تأثروا بفرويد وخضعوا لنفوذه، اعتبر بوتنام أنّ زيارة فرويد إلى الولايات المتحدة في 1909 كما يقول «أحدثت تغييرًا جذريًا في مسار حياتي وتفكيري برمته»[13]. أشار بوتنام مرّة إلى مريض له بأنه «تحوّل تمامًا» للتحليل النفسي[14]. عرف فرويد قيمة بوتنام إذ كتب نهاية 1910:

«لا أريد أن ننهي هذه السنة المليئة بالأحداث والمتاعب دون أن نشكرك على ما قمت به من أشياء جمّة، من مقالاتك القيمة ومن مساعدة لا تقدّر قدّمتها إلينا من أجل قضيتنا، من أجل السماح لاسمك بأن يُستخدم في أميركا كحماية ضد سوء

الفهم المحتمل وسوء الاستخدام الذي كنت عرضة له، ومن صميم فؤادي أتمنّى لك دوام الصحة والعافية».

لم تخلُ إشارة فرويد إلى أنانيته من تهكم بما أنّ إيثار بوتنام في نيوإنغلاند أقض مضجعه، ولكن من عادة فرويد أن يذكر كما في الرسالة ذاتها «أن قضيتنا تشهد الآن تقدمًا مهمًّا رغم أن المعارضة في أوج قوّتها»[15].

علّق أحد أقارب فرويد على رحلته إلى أميركا في 1909 قائلًا: «لم ينس فرويد أبدًا في فترة مبّكرة نسبيًّا من مسيرته أن الأميركيين منحوه الفرصة ليقدّم في خطاب علني نتائج أبحاثه، ومنحوه دكتوراه فخرية»[16]. (وطبقًا للأسطورة فإن مضيّف السفينة في غرفة فرويد في رحلته البحرية قرأ كتاب سيكولوجيا الحياة اليومية) ومكث فرويد في منتجع في أديرونداك على ملكية بوتنام وبعض من أصدقائه القدامى، كما رافقه إلى المنتجع يونغ وفرينشيزي. ليكتشف بأنه على شرف زيارة أطباء «ألمان» ـ واحد نمساوي، وآخر سويسري وثالث هنغاري ـ زيّنت المباني بشارات ألمانيا الاستعمارية، والشرف المقصود من ذلك علمهم شيئًا عن حالة فهم الأميركيين للمشاعر الأوروبية. وربما لم يكن هذا رسميًّا بما فيه الكفاية لفرويد، إذ أنه وجد أن العادات والتقاليد بربرية. لم ينعم فرويد بالراحة بسبب إسهال ألمّ به ومغص في المعدة، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لينقلب يونغ ضد أميركا[17]. وفي إطار تبادل الزيارة مع فرويد، ذهب بوتنام إلى فيمر لحضور مؤتمر المحللين النفسيين الذي انعقد في 1911 «وكان حضور بوتنام أهم ما ميّز هذا المؤتمر[18]». أمضى بوتنام أثناء رحلته إلى أوروبا ست ساعات في التحليل على يدي فرويد[19]. كان بينه وبين فرويد علاقة على غاية من الحميمية حتى أن بوتنام أسرّ له في رسالة يقول: «لم تكن علاقاتي الجنسية مع زوجتي منتظمة لسنوات عديدة، وفي السنوات الأخيرة صارت أقل انتظامًا إلى أبعد حد... لقد بتّ أخشاها...»[20].

وكمعالج بدا بوتنام بحسب فرويد «طموحًا» ومتلهّفًا لإيجاد وسائل المساعدة والعلاج، وعندما تزايدت المناقشات في حركة التحليل النفسي حول أفكار فرويد وأدلر وكارل يونغ وشخصياتهم، ظلّ بوتنام مخلصًا بشكل كامل لفرويد حتى أنه أمل في أن يوجد حل وسط مع المنشقّين، كان مهتمًّا بالمعالجة تقريبًا للحالات الأكثر خطورة من تلك التي آثر فرويد أن يفرض عليها تقنيته حصرًا.

ظهرت كاثوليكية بوتنام عبر دفاعه عن مورتن برانس في رسالة إلى جونز جاء فيها: «أعتقد

أنه قد يكون من سوء الحظ تمامًا أن يُقصى أولئك الذين يهتمّون حقًا بالسيكوباثولوجيا بمعناها الواسع أيًا كانت الاستفزازات»[21]. ومع أواخر خريف 1912، استغرب بوتنام الاحتجاج الصاخب على يونغ. قاد أحد مرضى بوتنام هذا الأخير إلى الهيغلية الأميركية حتى اقتنع بأن المرضى يحتاجون إلى مثل عليا تحفز تصعيداتهم، ولأجل ذلك تعاطف بوتنام مع وجهة نظر يونغ بأنّ المحلّل ينبغي أن يساعد المريض في حلّ مشاكله الحالية.

لم ينزعج فرويد لِما بينه وبين بوتنام من اختلافات في وجهات النظر على أهميتها، فبالنسبة لبوتنام، فإن تصور فرويد للاوعي «شديد السلبية بحيث يستحيل الاقتناع به تمامًا»[22]. ورغم أنّ بوتنام استحسن طرافة مقاربة فرويد، فقد نأى بنفسه عن تبعاتها: «لا أستطيع أن أقتنع بأنّ الحياة، مع كل ما فيها مما يجعلها جديرة بالإعجاب، يمكن أن تُفسّر على نحو مجرد وبسيط من خلال دراسة التناقضات... إننا نظن دائمًا أن تلك مقومات إيجابية في العالم أكثر منها سلبية»[23]. عبّر بوتنام، متوقعًا اهتمام المحللين اللاحقين بالأنا الأعلى، عن «توقه إلى الحصول على كل ما انتهى إليه الميتافيزيقيون»، وبالتالي يتجنّب اختزالية فرويد. أمل واعتقد بأن «بحوث فرويد وشروحاته السيكولوجية التي توصل إليها بشق الأنفس تتطابق فقط مع قطب واحد من الحياة الإنسانية، بينما هناك قطب آخر لا يوليه أي اهتمام»[24].

لم يقبل بوتنام بنظرية فرويد بأنّ الدين انعكاس لنمو متزايد للعجز الطفولي والحاجة إلى أب تفوق قدرته الجميع، فقد عارض، كما فعل يونغ بأنّ «اللاشعور» الواقعي الذي لا يتضمّن فقط الجانب «المظلم» للطبيعة البشرية، ولكن يعكس اعترافًا ضمنيًا بالجانب الخيري منها أيضًا[25]. وعليه يعتقد بوتنام بأنه «لا يمكن للمريض أن يشفى حقًا دون أن يصبح أفضل وأكثر انفتاحًا أخلاقيًا، فأنا أعتقد، خلافًا لما ذهب إليه فرويد، بأنّ إعادة إحياء الجانب الأخلاقي ستساعدنا على إزالة الأعراض»[26]. وفي رسالة إلى فرويد، أكّد بوتنام أنه «لا يمكن أن نعتبر الفرد منعزلًا، وإنما عنصرًا أساسيًا في الجماعة التي يعيش بينها»[27].

وفي ردّه على ذلك تهرّب فرويد من جوهر الموضوع الذي تثيره مناقشة بوتنام، وكتب يقول ببساطة «لا أشاركك احترامك الكبير لنظريات أدلر»[28]. فردّ عليه بوتنام ردًا مدويًا إلى حد ما وعد فيه بأن يتخذ إشارة فرويد إلى مخاطر هرطقة أدلر على محمل الجد. وخلافًا لبوتنام، عقد فرويد العزم على أن يجعل من التحليل النفسي متميزًا بشكل صريح

عن الفلسفة، من أجل تأسيس حقل جديد يكون مبنيًّا على أسس علمية مستقلة، وكما عبّر فرويد عن ذلك في قوله: «إن فلسفة بوتنام طاولة جميلة في وسط الفناء يعجب لها كل شخص لكن لا يجرؤ أحد على لمسها»[29]. كانت رسائل بوتنام مضجرة، رغم أن فرويد عادة ما كان يرد عليها فورًا، إلا أنه كان بطيئًا غالبًا في الرد عليها.

لم يدر بخلد فرويد قط أن على المحلّلين أن يكونوا مثاليين بشأن أنفسهم أو بشأن مرضاهم، وعليه فقد كتب فرويد إلى بوتنام يقول: «لست في حاجة لتوليفة أخلاقية عالية بالطريقة نفسها التي لا أكون فيها بحاجة لسماع الموسيقى»[30]. ساهمت مراسلات فرويد مع بوتنام في بلورة موقفه:

«إذ لم نكن مقتنعين بالقول «كن أخلاقيًّا ومتفلسفًا»، فلأن ذلك عديم القيمة وقد قيل بأن لا طائل من ورائه... مَن يكون قادرًا على التصعيد سيتحوّل إلى ذلك حتمًا بمجرد تحرّره من عُصابه، وسيصبح أولئك العاجزون عن ذلك، على الأقل، طبيعيين أكثر، وأكثر صدقًا»[31].

مهما كانت الاختلافات بين بوتنام وفرويد، ظلّ الأميركي ثابتًا في دفاعه عن التحليل النفسي. تقاسم المحللون الأوائل، ومنهم فرويد، شعورهم بالخوف من إغواء أطفالهم. كان بوتنام خائفًا من أن يضع بناته في حجره حتى أنه قام بتثبيت المقعد الموجود في دراجة ابنته خشية أن تثار بشكل غير لائق[32]. في الأيام الحالية يعتقد كثير من المحلّلين أنه بدون بعض من أشكال الإغواء الأبوي غير المباشر فإن الأطفال والصبية يعانون من الحرمان. أساء بوتنام بداهة لممارسته الطبية، إذ غلّب مصلحة فرويد، ويقينًا أزعج هذا زوجته حتى أنها اعتبرته مغفّلًا ويسهل خداعه، وذكرت ابنتهما تقول: «لقد أصبت جراء ذلك بحسرة كبيرة وشعرت بأنه سلك الطريق الخطأ الذي من شأنه يحطم مكانته المهنية»[33].

كانت وفاته في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 خيبة أمل كبيرة بالنسبة لفرويد لأنّ مستقبل الأميركيين صار من بعده أكثر ضبابية. وحتى قبل وفاة بوتنام المفاجئة بأشهر قليلة، أشار إلى أن أميركا صارت «أرضًا معادية لنا...»[34]، بسبب اهتمام الأميركيين بأدلر ويونغ.

اعتبر فرويد وفاة بوتنام «خسارة عظيمة» وقال لاحقًا «لقد شعرتُ بالحماية خلف شخصيته كالمختبىء وراء ستار»[35]. وبعد الحرب العالمية الأولى، كان لدى فرويد مجموعة خاصّة من الأميركيين الشبّان الذين جاءوا إلى أوروبا من أجل التدريب. كان هوراس فرانك الشاب الواعد (1883 ـ 1935) المعهم حسب فرويد[36]، وقد اعتبر كتابه

المدرسي عن التحليل النفسي، «المخاوف والدوافع التي لا تقاوم»، أفضل ما كُتب بالإنكليزية في ذلك الوقت. كان إكلينيكيًّا استثنائيًّا، وفاتنًا ومحاورًا لطيفًا وقد كان التناقض بين فرانك وزملائه الأميركيين حادًا بشكل خاص فلم يكن كثير منهم ناضج ومهذب. تيتّم فرانك باكرًا[37]، وكان غير يهودي مثل بوتنام، وخضع للتحليل على يد فرويد مرّتين. وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1921، قدّم فرانك خطابًا غير رسمي في جمعية نيويورك للتحليل النفسي حول تجربته مع فرويد[38].

خضع فرانك للتحليل بداية على يد بريل، ثم أصبح في ما بعد قائدًا للتحليل النفسي في أميركا. وبعد أن التقى فرويد بفرانك بفترة قصيرة عرض عليه أن يعوّض بريل كنائب له في الولايات المتحدة رغم توافقه التام مع بريل(•). ومن ثم انتُخب فرانك رئيسًا لجمعية التحليل النفسي في نيويورك بإيعاز من فرويد على ما يبدو، وقد ساهمت حماسة فرويد لفرانك وثقته في قدراته عن قصد في سقوط فرانك. لعل إعجاب محلّل صريح، والذي صادف أن يكون ذلك المحلل فرويد، جعل من الصعب على فرانك التعامل معه.

ترسّخت عقيدة فرويد في ذهن فرانك بلا قيود وعلى نحو ثابت رغم أنه تعرّض أثناء تحليله الثاني مع فرويد إلى نوبة من الذهان. كما عانى من تبدد شخصية حاد حتى اضطر إلى أن يرافقه رجل[40]. يبدو أنّ فرويد أساء تفسير الصعوبات التي عانى منها فرانك إذ اعتبرها كجزء بسيط من التحليل، فقد كشف فرويد لأحد مرضاه، وهو أبراهام كاردينر (والذي خضع للتحليل بداية على يدي فرانك)، عن صورتين لفرانك، الأولى التقطت له قبل أن يخضع للتحليل والثانية بعده، فقد فرانك أربعين رطلًا من وزنه، وفي ردِّه على شعور كاردينر بالصدمة علّق فرويد قائلًا: «ذلك ما يفعله التحليل».

خطط فرانك ليتزوج بعد عودته إلى الولايات المتحدة على إثر تحليله الثاني، وكانت زوجته المنتظرة سيدة يهودية ثريّة، ومريضة سابقة من بين مرضاه، استاء زوجها من ولعها بمحللها، وهدّدها بفضحها «ولقد بارك فرويد ما عزم عليه فرانك، وإن اعتبر وقوعه في الغرام كان خطأً، ولكن لا خيار سوى القبول بالأمر الواقع»[41]، وبينما كان فرانك في فيينا من أجل تحليله الثاني على يدي فرويد، توفّي زوج المرأة، فشعر فرانك ومريضته السابقة بالذنب، ولما عاد فرانك إلى نيويورك كان مهتزًا حتى أنه لم يستأنف ممارسة التحليل

(•) في مراجعة كتاب نشرت في 1913 أشار فرانك إلى بعض عيوب بريل وأهمها: «إغفال علامات الاقتباس فقرة تلو فقرة تُنسب موضوعاتها فعليًا كلمة بكلمة إلى فرويد، وهو ما ترك انطباعًا سيئًا وإن تم بوسائل مستحقة تمامًا»[39].

النفسي[42]. ذكر فرويد أنه عندما سأل فرانك عمن تكون عروس المستقبل، كان هذا الأخير قد عزم على الزواج، إلا أن هذا الزواج لم يدم طويلًا، ولم يكن فرانك في مستوى توقّعات فرويد. وفي اجتماع التحليل النفسي، قرأ بريل رسالة من فرويد إلى محلّل آخر في نيويورك، جاء فيها صراحة بأن فرانك لم ينفّذ المهمّة التي كلّفه بها فرويد لأنه كان يعاني من اضطراب عقلي، ورغم أن فرانك لم يكن حاضرًا في هذا الاجتماع، فإن هذه الرسالة مثلت ضربة قاصمة له.

ذهب فرانك لاحقًا إلى جونز هوبكنز ليخضع للعلاج على يدي طبيب نفسي مشهور يدعى أدولف ماير. هناك باثوس خاص بالنسبة لمحلل يفقد عقله ولا يعلم ماذا دهاه. وكما شرح فرانك لكاردينر الذي زاره ومعه مخطوطة لكتاب جديد «ليس لدي أيّ شعور بجسدي، باستثناء شفتيّ»[43]. انقلب فرانك على التحليل، دون أن ينحى باللائمة في أقصى الحالات على فرويد على ما أصابه. تحسّنت حاله حتى أنه سعى إلى الزواج ثانية عام 1935، ثم توفّي في العام نفسه بمستشفى الأمراض العقلية في تشابل هيل في حالة من «الإثارة الجنونية»[44]. ولم تكن وفاته في أوانها وكانت مسيرته تراجيدية، وفي علاقة بخسارة بوتنام، شجّعت هذه المحنة فرويد على التحدث بصراحة كبيرة عن خيبة أمله في أميركا.

9 - الأميركيون: بريل ومستقبل القضية

بعد وفاة فرانك، استمرّ أبراهام بريل (1884 ـ 1948) لسنوات عديدة رائدًا للتحليل النفسي في أميركا، وألّف عددًا كبيرًا من المقالات والكتب للتعريف بالتحليل النفسي، وقد عُرف بشكل كبير بتراجمه الأولى والمثيرة للجدل لأعمال فرويد إلى الإنكليزية. هاجر بريل، وهو من أصول هنغارية، إلى أميركا في سن الخامسة عشرة، وبالتالي لم يكن في الأصل إنكليزي اللسان ولا حتى ألمانيًا، وفي ترجمة مؤلفات فرويد من الألمانية إلى الإنكليزية، لا سيما كلما تعلّق الأمر بتوضيحات وتفسيرات الأحلام وزلّات اللسان استبدل بريل ببساطة أمثلة فرويد بأمثلته. برر فرويد ذات مرّة موافقته على مثل هذا الإجراء، وفي انتقاده لترجمة أخرى:

«أتفهّم الصعوبات التي تفترضها ترجمة الزلات والأحلام في لغات أخرى، ولكن لا أعتبر اللجوء إلى ابتكار أمثلة مشابهة الطريقة الصحيحة... وليس لنا من بديل في مواجهة صعوبة ترجمة الأمثلة غير قابلة للترجمة من زلات اللسان والتلاعب

بالألفاظ في الأحلام، غير استخدام أمثلة أخرى مستمدة من تجاربنا التحليلية الشخصية مع الإحالة في الهامش على المثال كما ورد في اللغة الألمانية»[1].

لقد تأذّت سمعة بريل كثيرًا بسبب تراجمه. وربما توجّب على فرويد أن يشيد ببريل كمترجم[2]، ذلك أن بريل اعتبر مهمّته تعريفًا بفرويد لدى الجمهور وليس إنتاجًا لمخطوطاته المقدّسة في صيغتها النهائية (لم يكن فرويد يميل إلى الاهتمام بموضوع التراجم وإن كان مهتمًّا بالقراء البريطانيين أكثر من نظرائهم الأميركيين)[3]. وعند تجميع نسخة من مكتبة فرويد الحديثة، عمد بريل إلى حذف فقرات من كتب فرويد كي لا تتداخل المجموعة مع مبيعات أعمال فرويد الفردية. من المؤكد أن فرويد أعطى المترجمين للغات الأخرى الحق في «أن يغيّروا مثل تلك الأمثلة» متى عنّ لهم ذلك طالما اعتبرت ضرورية[4]. كان حري ببريل أن يؤشر في النصوص إلى المواضع التي قدّم فيها بدائله الخاصة، ولكن عندما حاول جونز أن يتطارح مع فرويد موضوع ترجمات بريل، انزعج فرويد وعزى موقف جونز إلى غيرته من بريل[5].

أحسن بريل ترتيب الأمور بشكل جيّد. فعندما أسّس جمعية نيويورك للتحليل النفسي في 1911، قابله جونز (الذي كان آنذاك في تورنتو) في أيار/ مايو 1911 بتأسيس الجمعية الأميركية للتحليل النفسي التي ضمّت كل المحلّلين في الولايات المتحدة الذين كانوا يعيشون خارج مدينة نيويورك (وفي نهاية المطاف صارت المنظمة الثانية تتوحد في صلبها الجمعيات المنضوية تحتها بما في ذلك جمعية نيويورك) ومع أن هاتين المجموعتين الأولتين كانتا إلى حدّ ما متنافستين في البداية، فقد انضمّ بريل إلى رابطة جونز في غضون سنة، ثم ما لبث جونز أن أقفل راجعًا إلى أوروبا. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، كان بريل القائد المعترف به للتحليل النفسي في أميركا، وغالبًا ما كان يحضر مقابلات مع الصحفيين[6]. ومع أنّ فرويد أحبّ بريل شخصيًّا، فقد كان منزعجًا منه، وفي ذلك قال «لقد تأمرك كليًّا، رغم أنه لا يزال فتى طيّب السجية»[7].

رغم مجهودات فرويد لفرض فرانك كبديل له، ظلّ بريل مخلصًا لفرويد ولكثير من المحلّلين الأوائل بشكل ملحوظ. كان فرويد صورة للأب الناجح لبريل فكما يقول: «لقد خصصت كتابي الأول إلى أستاذي المحترم، البروفيسور الدكتور سيغموند فرويد الذي أعيدت صياغة أفكاره بشكل ملتبس»[8]. كما سمّى ابنته جوايا (جوي) وهو المعنى الحرفي لاسم فرويد في اللغة الألمانية، «فرح»، وقد حاول، مثل فرويد، أن يحلّل أحد

أطفاله. عندما زار فرويد نيويورك في عام 1909، حيث كان بريل يعيش في السنترال بارك ويست وهو المكان الذي افتتن به فرويد قال: «امكث هنا، ولا تغادر هذا المكان، فإنّه أفضل مكان في المدينة رأيته حتى الآن»[9]. لقد آثر الكثير من المحلّلين في نيويورك، اليوم، الإقامة في هذه المنطقة».

على العموم، كان بريل بمنأى عن أعين المؤرخين، فمكانته الحقيقية لن تظهر، على غرار بوتنام، حتى تُتاح مقالاته للباحثين والدّارسين وحتى للنشر. إن رسائل بريل المتاحة أثارت اهتمام القراء وكشفت عن روح مفعمة بحيوية غير متوقعة، وكان فرويد نفسه قاسيًا بشكل خاص تجاه مراسلات بريل لأنه يجد صعوبة في الرد عليه[10]. كما قال جونز، كان لبريل «قلب من ذهب»[11]. لكن دعواته جونز للاستقالة من منصبه بدت صبيانية إلى أبعد حد، وكما كان حال المحلّلين الأوائل، كان سهل الانقياد عندما قدم أول مرة إلى الولايات المتحدة «فلقد نأى بنفسه عن الحانات وكرّس وقته للتدريس ولإلقاء دروس حول العزف على آلة المندولين الموسيقية»[12]. كان بريل طيّب القلب ولا يتوانى في بذل ما في وسعه أضعافًا مضاعفة لفائدة التحليل النفسي، بينما لم يكن جونز يتحمّل، لا سيما عندما اهتم بالقضايا السياسية للجمعية العالمية للتحليل النفسي.

لم يكن بريل ضامنًا لمنصبه، لأنه بالنسبة لتلميذ فرويد الأثير في فيينا أوتو رانك، ما زالت قيادة التحليل النفسي في الولايات المتحدة شاغرة. وعندما أتى رانك إلى أميركا في 1924 عمل على تنظيم المحلّلين الأميركيين تحت قيادته[13]. وبطبيعة الحال كان بريل لاذعًا تجاه أثير فرويد الذي أراد أن يقصيه، واحتج على فرويد. ولاحقًا في 1933، اعتقد جونز أنّ جمعية نيويورك صارت وكرًا للدسائس والضغائن الشخصية حتى أهمل التحليل النفسي ذاته[14].

واعترف جونز بأنّ بريل «قدّم الكثير من الخدمات للتحليل النفسي في أميركا أكثر من أي شخص آخر»[15]. اعتمد فرويد على بريل ليهتمّ بالصفقات المتّصلة بكتبه في الولايات المتحدة، وكان بريل يسحب شيكًا لفرويد كلما احتاج إلى ذلك. كان بريل ذكيًا وسريع البديهة، وبحلول عام 1930 أصبح مرجعًا محوريًا في التحليل النفسي في مدينة نيويورك (وكان بريل يعتمد على تأييد فرويد له ومعنى هذا أن فرويد كان يؤيد أتباعه كافة، بما أنه كان يمثل حجرة رحى في البنية الاقتصادية للحركة، وقد اتضح تأييد فرويد من خلال إشارات المرضى والإحالات الموجودة في المدونات والتوصيات الشفوية ويوجد

محلّلون يعتمدون على فرويد في جميع أنحاء العالم، غير أن ذلك قد يكون تأثيرًا مفسدًا).
كان بريل غليظًا ورغم دراسته لفترة قصيرة في البورغلزلي في زيوريخ وتبوّأ منصبًا مهمًا في علم الطب النفسي في كولومبيا إلا أن أسلوبه افتقر للتهذيب الذي يسمح لقبول التحليل النفسي في عالم ثبّت الطب فيه قواعده[16].

وحتى خريف عام 1922 كانت العضوية في جمعية نيويورك مفتوحة أمام الجميع، وبالتالي صارت التحليلات الشخصية ضرورية، إلا أن الممارسة ظلت حكرًا إلى ذلك الحين على المحللين الأقدم الذين يشرفون على التحليلات التي يقودها التلاميذ في التدريب. وفي عام 1930 تحصّل محلّلو نيويورك على مبلغ خمسين ألف دولار، فبادروا من خلاله إلى تأسيس معهد للتدريب على طراز معهد برلين، وذهب فريق منهم وهم (برترام لوين، مونرو ماير وأبراهام كاردينر) إلى بريل وطلبوا منه أن يُعيّن شخصًا على رأس هذا المعهد، حيث اعتبروا أن بريل لم يكن الشخص المؤهل لتلك الوظيفة. أجمعوا على دعوة ساندور رادو من برلين الذي أصبح في 1931 المدير الجديد بينما احتفظ بريل برئاسة الجمعية.

ومع أنه لم يكن هناك محلّل في أميركا لا يحظى بمباركة فرويد غير المشروطة ولم تكن الديمقراطية قد ازدهرت بين المحلّلين، عبّر رادو عن استيائه من الأرثوذوكسية والنزعة التقليدية التي تتبّناها أقلية في مجموعة نيويورك، واستمرّ تعصب معظم الأرثوذوكسيين رغم الانتقادات غير المعلنة[17]. وإلى اليوم لا يزال الكثير من المحللين الأميركيين يشارك فرويد بعض عداواتهم تجاه العالم الخارجي، كما لو أنهم لم يكونوا الآن جزءًا من هذا التقليد. خدم نموذج فرويد كثيرًا من الأغراض واستطاع أن يعزز الادّعاء بأنه جريء ومبدع حتى لدى أولئك الذين كانوا، في الواقع، محافظين. قبل أن يغادر رادو جمعية نيويورك للتحليل النفسي في 1944 لرئاسة جامعة كولومبيا وكلية الطب والجراحة لتدريب المحللين، كانت كارن هورني (وهي غير يهودية) قد صنفت على أنها خائنة. وفي أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، لمّا أقام عدد كبير من المحللين اللاجئين الجدد في نيويورك، واجه بريل معارضة كبيرة، لا بسبب أرثوذوكسيته ولكن لأن انتهاجه التفرد بالقيادة أصبح من الماضي.

تمثلت الفكرة القديمة في أنّ جمعيات التحليل النفسي في أميركا أصبحت مجموعات انتقائية اقتصرت على أولئك الذين يجتمعون من أجل مناقشة مقالات ذات الاهتمام المتبادل. ولكن أفضت نزعة الجمعيات إلى الاحتراف واكتسبت معاهد التدريب تنظيمًا

خاصًا بها. ففي البداية كان يكفي الشخص أن يحضر اجتماعات الجمعية حتى يصير عضوًا فيها. وبحلول أواخر 1930، أضحت المعاهد كبيرة واستطاعت أن تصمد أمام تحديات تقاليد المبتدئين التي تعوّد عليها المحللون الأوروبيون. ساعد ارتفاع عدد المعاهد التقبّل الاجتماعي للمؤسسات الجديدة في أميركا، حيث كان من السهل لتلك المعاهد أن تكتسب مكانة مميزة أكثر مما كان عليه الوضع في العالم القديم.

أشار كثير من المتابعين للحياة الأميركية أنه برغم شيوع الخطاب الفرداني فإن سلوك الأفراد في الحياة الفعلية يميل أكثر إلى أن يكون محافظًا. وفي الحقيقة، يمكن أن نربط بين هذين النقيضين في تفسير تقبّل أميركا لفرويد، إن مجتمعًا خال من التراتبية ودون معايير ثابتة لمنزلة الشخص يفترض أن يكون كل فرد معتمدًا بشكل كبير على رضا المجموعة. كان للتحليل النفسي جاذبيته لذوي النزعة الجماعاتية ولذوي النزعة الفردانية على حد السواء، وتلك إحدى ميزات الشخصية القومية الأميركية. لعل الخوف من تفرد التحليل النفسي واختلافه هو ما عزز غالبًا الاهتمام به من حيث هو يركز على ما هو استثنائي وغير عادي.

لم يحقّق فرويد أبدًا المكانة المميّزة في الحياة الثقافية الإنكليزية بسبب إقامته لفترة طويلة في الولايات المتحدة، وحتى على مستوى النفقات، فمن الأفضل للمحلل أن يقيم في أي مكان في أميركا الشمالية على أن يقيم في لندن. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كان علم الأعصاب في إنكلترا الأكثر تطورًا في العالم، وهو ما حال، بلا شكّ، دون ظهور حركة عتيدة في العلاج النفسي. بالإضافة إلى ذلك، كانت لإنكلترا، خلافًا للولايات المتحدة، ثقافتها القديمة وماضيها اللذين تعتز بهما. ولم يدرك الأميركيون أن مستقبلهم محكوم بحدود التاريخ إلا مع نهاية القرن التاسع عشر عندما أغلقت الحدود.

وحتى مقارنة بموقف فرويد المحتشم تجاه الجنس، بدا أميركيو مطلع القرن أكثر طهرانية وظل خيط من هذا الاهتمام الطهراني بالجنس قائمًا في أميركا اليوم. على الرغم من ذلك ذهبت أميركا بعيدًا في تصورها للأخلاق الجنسية. على سبيل المثال «صارت الصورة النمطية عن المرأة تدريجيًا بالنسبة للطبيب «طاهرة» من 1870 إلى حدود 1912»[18]، وهي صورة تفترض أنّ النساء وصمة عار، وأن الشذوذ الجنسي ضار بالصحة، وأن الإفراط في الاستمناء والجماع المتكرر لا يخلوان من خطر يتهدد الصحة، ولو أن فرويد تساءل في قرارة نفسه عما إذا كان الاستمناء يؤدي إلى فقدان الرجولة، لكان بذلك الرجل الوحيد في زمانه.

رغم ما حظي به فرويد من تقدير في أميركا، ما فتئ يُعرب هذا الأخير عن استيائه واحتقاره لنمط الحياة الأميركية. يعود ذلك في جزء منه إلى كرهه للتبعية، رغم أنه غنم من مرضاه الأميركيين في سنواته الأخيرة ما لم يغنمه من غيرهم. بحسب جونز، الذي يتفق تمامًا مع رأي فرويد بشأن هذه النقطة، كان لدى فرويد «شعور بأنّ النجاح التجاري هيمن على معيار القيم في الولايات المتحدة، وأنّ الدراسة والبحث والتفكير العميق تراجعت قيمتهم... ولاحقًا قدّم الولايات المتحدة في موقف ساخر كبلد همّه الوحيد جمع الأموال من أجل دعم الثقافة الأوروبية...»[19].

كلّما تعلقت ممارسة فرويد بالأميركيين أكثر من المرضى المحليين، كلما استوجبت حاجته للمعارضة أن تغيّر من مركز اهتمامها. احتاج فرويد مبكّرًا «إلى معارضة فيينا من الناحية السيكولوجية ولم يكن يريد أن يفوّت الفرصة للتهكّم على الفييّنيين»[20].

وبحلول 1920، اعتبر فرويد أن إبعاده أحد المرضى الأميركيين أمر تافه ولا قيمة له، وبرر ذلك بأنّ التّابع «ليس له وعي». وحسب رأي أميركي آخر، تعجّب فرويد لرواية حلم خاص غريب، «هذا هو حلم واقعي». ونظرًا لعشقه للتدخين فقد اعتبر كما جاء على لسانه «أن اكتشاف التبغ هو العذر الوحيد الذي يشفع لكولومبوس في ما اقترفه من إثم»[21]. كما قال مازحًا ذات مرة: «إنّ أميركا خطأ بل خطأ عظيم، وهذا أكيد، ولكنه مع ذلك خطأ»[22]. ورغم ذلك فقد أنكر «كراهيته» لأميركا بعد ذلك وقد يكون ببساطة ندم على ذلك[23].

وفي رحلته التي لا تُنسى إلى أميركا عام 1909، تعددت أسباب مصاعب فرويد في التأقلم مع عادات السكان المحليين من غياب الحمّامات العامّة، ونوعيّة الطعام والشراب إلى التذمّر الأكثر شيوعًا من الولايات المتحدة: انعدام احترام الخصوصية والعادات والنفاق الجنسي والنقص العام للثقافة وشرب الكحول ونسق الحياة المحموم. قدّر فرويد ذات مرة إمكانية كتابة بعض المقالات الشعبية للصحافة الأميركية، ولكنه سرعان ما تراجع عن ذلك لظروف خاصّة:

«لو أن مؤلفًا محترمًا اقترح عقدًا على ناشر ألماني، فسيسعد إن قبله، ولن يدع ذلك يتوقف على نجاح المقال الأول، سواء تعلّق الأمر بمقال ثان أم لا، إن هذا الإذعان المطلق لناشريك إلى الذوق المنحط للجمهور غير المثقف هو سبب تدني مستوى المؤلفات الأميركية، ومن المؤكّد أن القلق بشأن العائدات المالية هو أساس هذا

الإذعان، فالناشر الألماني لن يجرؤ على أن يقترح عليّ الموضوعات التي يجب أن أكتب في شأنها»[24].

مقت فرويد المثل العليا الأميركية في المساواة وبصفة خاصة المساواة بين الجنسين، فقد أحال هذا بازدراء إلى «حكومة المعطف النسائي» في الولايات المتحدة، وأخبر المرضى الأميركيين بأنّ «المرأة الأميركية ظاهرة مناهضة للثقافة... أمّا الرجال الأميركيون فلا يعرفون كيف يقيمون علاقات حب... وهذا دليل قاطع على انعدام المساواة، إلا أن عُلوية الرجل أخف الضررين»[25]. عزى كراهيته لأميركا إلى مثل هذا التنوّع المتغيّر في الأسباب التي تعكس ضربًا من التنافر لا سبيل لإنكاره. وكما بغض ماركس روسيا، بغض فرويد البلد الذي اختاره لنشر رسالته، وبحلول 1952 صار 64% من أعضاء الجمعية العالمية للتحليل النفسي موجودين في أميركا [26].

أُعجب فرويد بحس أميركا للاستقلال مع أنه ذهب إلى أنّ معظم مفكّريها المتحرّرين كانوا يهودًا، وقد احتفظ بنسخة من الإعلان الأميركي للاستقلال على حائط حجرته[27]. كان تعليقه الأثير عن أميركا قد ظهر في رسالة إلى أرنولد زويغ في 1939 بعد أن انتقل فرويد إلى لندن:

«أعتقد أنّك على صواب لاختيارك أميركا بدلًا من إنكلترا، وعلى جميع المستويات، تعدّ إنكلترا هي الأفضل، ولكن من الصعب أن يتأقلم المرء هنا، تبدو أميركا جحيمًا بالنسبة لي ولكن - رغم ذلك - فضاءها رحب وإمكاناتها وفيرة ولا يسع المرء في نهاية المطاف إلا أن يستقر هناك»[28].

رغم أن ذلك يعكس تطوّر حركة التحليل النفسي، إلا أن فرويد خشي من أن يتعجل الأميركيون في توحيد التحليل النفسي مع الطب النفسي، ويتمثل «جوهر تعليقه» على مارتن بيك قبل وفاته بفترة قصيرة، في «أن التطبيق الطبي في أميركا هو القاعدة والإسهامات في تكوينه هي الاستثناء»[29].

يعكس تاريخ حركة التحليل النفسي قانون روبرت مايكل «الصلب عن الأوليغارشية» الذي يفترض أن ينتهي الأمر بكلّ حركات الإصلاح ضرورة إلى البيروقراطية والتراتبية، فتغدو غريبة عن الفكر الذي انبثقت عنه. أصبح من الجليّ قبل وفاة فرويد أن هناك صراعًا بين العبقرية المبدعة والضرورات التنظيمية. مثل حرص فرويد على أن يكون له طلاب أجانب تدرّبوا في فيينا، مهما كانت رغبات جمعيات التحليل النفسي المحلية تهديدًا

لتحوّل الحركة نحو البيروقراطية. كان لموقفه الخاص تجاه أميركا دور في ذلك، إذ لمّا سأل فرويد تيودور رايك «أتراني أخطأت أني أحببت أن أدرّب طبيبًا نفسيًّا أميركيًّا لفترة قصيرة فقط في فيينا، وأعربت عن شكّي الكبير حول ما إذا كانت تلك الفترة القصيرة للتدريب كافية؟ فقال، رافعًا كتفيه، إنها «مجرّد سلعة للتصدير»[30].

تركّزت مخاوف فرويد حول مستقبل التحليل النفسي على رمزية أميركا وورثيه غير المرغوب فيه. صدمه التوجُّه نحو تسويق والاستفادة من أفكاره في إثارة القرّاء، وكان مقتنعًا بأنّ الأميركيين يفتقرون إلى الإبداع الفكري: «كانت إسهامات هذا البلد المترامي الأطراف في علمنا هزيلة ولم تُضف شيئًا جديدًا يُذكر»[31]. اعتقد فرويد أنّ «الأطبّاء النفسيين وأطباء الأعصاب في أميركا دأبوا على استخدام التحليل النفسي كطريقة للعلاج، ولكن بصفة عامة لم يهتموا بمشكلاتها العلمية وقيمتها الثقافية إلا قليلًا»[32]. أعرب عن قلقه الشخصي من أنّ تقبّل الأميركيين لأفكاره لن يكون قويًّا فكريًّا بما يكفي «فالمراكز القديمة للثقافة حيث تتجلى المقاومة الكبيرة، مثّلت مسرحًا للصراعات الحاسمة بشأن التحليل النفسي»[33]. ومهما كان الترحيب الذي لقيته أفكاره في أميركا، فإنها يمكن أن تندثر وتصير أثرًا بعد عين، فالتلهف لأي شيء جديد جزء من الثقافة المنحطة أساسًا.

نزع الأميركيون، في تقدير فرويد، إلى «اختزال فترة الدراسة والتدريب والمرور إلى التطبيق العملي بأسرع ما يمكن»[34]. اعتبر أولًا مع يونغ ثم مع أوتو رانك أن الغاية من السفر إلى أميركا تبدو كإغراء لأتباعه بالتخلي عن بعض من منظومة التحليل النفسي. تبنى الوافدون الجدد إلى أميركا، في تقدير فرويد، مزاجًا ثوريًا، وتحدّث بسخرية عن الاهتمام الأميركي بأعمال أدلر[35]. ردّد جونز موقف فرويد من مخاطر التقهقر العلمي الناتج عن وهن المحيط في أميركا[36]. كان يعسر تمامًا من الناحية الوجدانية تمامًا التعارض مع فرويد في حضوره، ولقد أدرك مدى تأثير بُعد المسافة على علاقته بأتباعه. جاء في عبارة لفرويد في فراق فرانز ألكسندر، لمّا سافر إلى الولايات المتحدة قوله: «أتمنّى أن تترك أميركا شيئًا ملموسًا عن ألكسندر الحقيقي»[37](*).

إن عدم ثقة فرويد في الاستجابة الأميركية لأفكاره عزّزها الفشل الأميركي بالترحيب

(*) كانت عبارات فرويد الأخيرة إلى هانز ساكس: «أعلم بأن لي صديقًا واحدًا على الأقل في أميركا»[38].

بالتحليل العاميّ، وقد أظهر عُدوانيّة مفرطة إلى مهنة الطب، واعتبر أن مجالات أخرى خلافًا للطب يمكن أن تكون خلفيتها مناسبة للمحللين الملهمين. أدرك أنّ «مناهضي التحليل النفسي، ليس علم الطب النفسي، بل الأطباء النفسيّون». كان منصفًا في تفكيره حتى أنه اعترف، كما جاء على لسانه، بأن «أطباءنا النفسيين لم يكونوا تلاميذ للتحليل النفسي، ولم نشهد نحن المحللين النفسيين من الحالات الطبية النفسية إلا القليل جدًا». وحسب وجهة نظره «لا بد أن ينمو جيل من الأطباء النفسيين ممن تتلمذوا في مدرسة التحليل النفسي كعلم تحضيري». واعترف بأنّ «هذا الاتجاه بدأ في التشكّل في أميركا الآن»[39].

يتمثل هدف فرويد الأساسي في تمكين المحللين من مهنة جديدة تمامًا لا علاقة لها بكل ما هو طبيّ وعن كل ما هو كنسي. كان أفضل ما قام الأميركيون قبولهم المحلّلين القدامى دون مؤهلات طبية، إلا أنهم لم يفعلوا الشيء ذاته مع المترشحين الشبان حيث مُنع عليهم التدريب من المستوى الأول ما لم يكملوا تعليمهم كأطباء أولًا. اتخذ فرويد من موقف الأميركيين من التحليل العامي موقفًا شخصيًا، كما كتب ذات مرة: «إنه ليؤلمني سلوك المحللين الأميركيين في ما يتعلق بالتحليل العاميّ. فهم، على ما يبدو، لا يحبّونني كثيرًا»[40]. واعتقد بأنّ «الاحتجاج على التحليل العاميّ ليس سوى صورة أخرى من صور المعارضة القديمة ضد التحليل بشكل عام»[41]. وإذا فشل المحللون الأميركيون، من وجهة نظر فرويد، في إنتاج عمل ذي أهمية جوهرية، فإنهم أيضًا، بمعارضتهم للتحليل العاميّ، ينسفون أحد أهم مصادر الإسهامات المستقبلية لمذهب التحليل النفسي.

في دراسة لوودرو ولسن اشترك فيها فرويد مع ويليام بوليت، يمكن أن نعثر على دليل إضافي حول طبيعة مشاعر فرويد تجاه أميركا. دافع ولسن عن المفاخرة بالقومية إلى حد التقديس الذي لاحظه الآخرون في أميركا «بلاد الله»[42]. ورغم أنّ فرويد قبل وأعجب أحيانًا بالأميركيين، فقد توقّع فرويد بأن يتنكر المحلّلون الأميركيون لما أنجزه يومًا ما[43]. عارض المحلّلون الأميركيون بشكل كبير الاعتراف بأعضاء غير طبّيين حتى أصبح الانفصال الأميركي عن الجمعية العالمية للتحليل النفسي واردًا في أواخر العشرينيات من القرن العشرين[44]. وبفضل إرنست جونز، الذي قدّر استياء الأميركيين من العلاج المتعجرف للفيينّيين، أوجد مؤتمر أوكسفورد عام 1929 حلًا وسطًا أجمع بموجبه الأوروبيون على عدم قبول أيّ شخص للتدريب سواء أكان شخصًا عاديًّا أم طبيبًا دون موافقة جمعية التحليل

النفسي المحليّة أولا[45]. وحتى أواخر عام 1938، ما زال فرويد يؤكد على أن «المجموعة الأميركية قد تنسحب من الجمعية العالمية للتحليل النفسي في أي لحظة»[46].

لقد صدقت تنبؤات فرويد بما سيحدث لأفكاره في أميركا على مستويات معينة. فعلى سبيل المثال، أصبحت أريكة التحليل أكثر بروزًا في غرف التحليل في بريطانيا في أيامنا هذه، حتى أنها توضع أحيانًا في وسط الغرفة تمامًا، وإذا ما عبر المرء الأطلسي في اتجاه نيوإنغلاند يلاحظ أن أريكة التحليل لا تزال تحافظ على وضعها المميز في مواجهة الجدار حتى لا تكاد ترى. أما في شيكاغو فقد استخدمت أريكة التحليل من أجل أغراض اجتماعية، فضلًا عن أغراضها العلاجية، وفي الساحل الغربي يكون أثاث غرفة العلاج - بما في ذلك ما يكفي من الكراسي للعلاج الجماعي على الأرجح - باديًا للعيان بشكلٍ واضح تمامًا، وهو ما كان يخشاه فرويد. لقد أصبحت ممارسة التحليل بالنسبة للمحلِّل كأيّ تقنية من بين تقنيات أخرى كثيرة.

وخلافًا لرغبات فرويد، أصبحت حركة التحليل النفسي في أميركا جزءًا لا يتجزّأ من الطبّ النفسي. وفي هذا الاتجاه لاحظ فرويد قائلًا: «إنه ليحزنني في كل الأحوال أن أرى التحليل النفسي خادمًا للطب النفسي لا غير في أميركا»[47]. وخلافًا للإنكليز، دعم الأطباء النفسيون الأميركيون عمل فرويد، ولكن كما في مجالات أخرى في الحياة الأميركية يظل التنظير ثانويًّا لذلك انتصرت البراغماتية في التحليل النفسي[48]. فالانحراف الأميركي، حتى في مجال الاستبطان كمجال من مجالات التحليل النفسي، يعكس تركيزًا على التغيّرات السلوكية في العلاج أكثر من التأكيد على التغيرات الباطنية في الشخصية كما يصرّ على ذلك فرويد.

إن ممارسة فرويد للتحليل النفسي في سنوات عمره الأخيرة عندما تعرَّف عليه معظم أتباعه من الأميركيين تكاد تكون مختلفة عمّا كان عليه التحليل النفسي قبل الحرب العالمية الأولى. وفي وقت لاحق وافت المنية فرويد الذي درّب معظم المعالجين الذين نقلوا تقنيته إلى الولايات المتحدة، وقد تماهوا، رغم ذلك، مع الرجل الذي اعتزل العلاقات البشرية التي يؤلمه الخوض فيها. ولأنهم كانوا أكثر سذاجة من زملائهم الأوروبيين بشأن ما يمكن أن يتوقع معرفته الخبراء، فقد ذهب ظن الأميركيين بعزلة فرويد المتنامية، بأنّ علم التحليل النفسي الذي دفع به فرويد أكثر فأكثر لدائرة الضوء يمتلك تقنية تخدم في نهاية المطاف أهدافهم الذاتية الخاصّة.

ولذلك فإن الأميركيين، المتفائلون بشكل أسطوري، هم من قبروا دراسة فرويد. ولما انفصل الأجانب مؤقتًا عن الولايات المتحدة، كان ماضيهم مشرقًا، ذلك أن حياتهم في فيينا كانت مقيّدة ومعزولة. أما بالنسبة للأميركي، فقد كان التحليل مع فرويد معزولًا بشكل خاص، ثم بعد ذلك صار على المريض أن يذهب إلى المنزل مرة أخرى. حتى لو كره فرويد معالجة الأميركيين، فقد احتاج إلى أموالهم وهو أمر لم يُخفه، ولكن كان عليه أن يعلم أنه باختياره تحليل المرضى الأميركيين قد فوّت فرصة ازدهار التحليل النفسي في فيينا.

التزم المنخرطون الأوائل في التحليل النفسي بحماس لهذه القضية: فقد قاد حملة الدفاع الأولى على نهج فرويد عدد أكبر من الممارسين خلافًا لما عليه الحال تمامًا في أيامنا هذه. وحتى الآن، فإن دوائر التحليل النفسي الأميركية أقلّ إصرارًا على الوضوح النظري مما عليه الوضع في أوروبا. كان لدى بعض المحلّلين اللاجئين في أوروبا إصرار على الأرثوذوكسية بالتوازي مع التطوّر العلمي للتحليل النفسي في أميركا وقد نجحوا في المحافظة على ضيق أفق التحليل النفسي أكثر من اللازم. قد تكون حماستهم عاملًا خفيًّا لا غنى عنه من العوامل التي ساعدت انتصار التحليل النفسي في أميركا.

الهوامش

1 - إدلر ستيتسمان

(1) «On the History», p. 25.

(2) «An Autobiographical Study», p. 53.

(3) Franz Alexander, «Recollections of Berggasse 19», p. 200.

(4) Erik H. Erikson, Gandhi's Truth (New York: Norton; 1969), p. 314.
إن رواية توماس مان عن غوته طبعت بمعرفة فرويد.
Cf. The Beloved Returns: Lotte in Weimar (New York: Knopf; 1940), p. 75.

(5) Helene Deutsch, «Freud and His Pupils», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 9, No. 1, (1940), p. 189.

(6) For example, cf. Nunberg, Memoirs, p. 23.

(7) Fromm, Sigmund Freud's mission, p. 110.

(8) «New Introductory Lectures», p. 69.

(9) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», p. 91.

(10) «Freud's letters to Simmel», pp. 102-03.

(11) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», p. 94.

(12) Fromm, Sigmund Freud's mission, p. 105.

(13) Deutsch, «Freud and His Pupils», pp. 188-89.

(14) Ibid., p. 191.

(15) «New Introductory Lectures», pp. 145-46.

(16) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», p. 93.

(17) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 193.

(18) «New Introductory Lectures», p. 153.

(19) Ibid.

(20) Ibid., p. 138.

(21) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», pp. 98-99.

(22) Interviews with Eva Rosenfeld, Sept. 3, 1965, and Nov. 3, 1966.

(23) Edòardo Weiss, The Structure and Dynamics of the Human Mind (New York: Grune& Stratton; 1960), p. xii.

(24) Quoted in Ernst Federn, «Thirty-Five Years with Freud», Journal of the History of the Behavioral Sciences, Vol. 8, No. 1 (Jan. 1972), p. 18.

(25) Quoted in Edward Bernays, Biography of an Idea (New York: Simon & Schuster; 1965), p. 272.

(26) Weiss, The structure and Dynamics of the Human Mind, p. xiii.

(27) Interview WithEdoardo Weiss, June 26, 1966.

(28) Weiss, The structure and Dynamics of the Human Mind, p. xiv.

(29) Heinrich Meng, in «Thirty-Five Years with Freud», p. 35.

(30) Weiss, The structure and Dynamics of the Human Mind, p. xiv.

(31) Interviews with Helene Deutsch, Nov. 28, 1964, and June 18, 1966.

(32) Edoardo Weiss, «Federn's Concepts and their Applicability to the Understanding and Treatment of Schizophrenia», The Journal of the Nervous and Mental Diseases, Vol. 133, No. 2 (Aug. 1961), p. 155.

(33) Weiss, The structure and Dynamics of the Human Mind, p. xvii.

(34) Cf. p. 322.

(35) Paul Federn, «The Neurotic Style», Psychiatric Quarterly, Vol. 31, (Oct. 1957), pp. 689, 684, 688, 682.

(36) Interview with Ernst Federn.

(37) «Freud Correspondence», Psychanalytic Quarterly. Vol. 25, (1956), p. 361.

(38) Interview with Edith Jackson.

(39) Minutes, Vol. II, PP. 208, 210, 213.

2 ـ فيكتور توسك ولو أندرياس سالومي

(1) Cf. for instance, Henry Brosin, «Contributions of Psychoanalysis to the Study of the Psychoses», in The Impact of Freudin Psychiatry, ed. Franz Alexander and Helene Ross (Chicago: University of Chicago Press; 1961), pp. 178-99, Gregory Zilboorg, A History of Medical Psychology (New York: Norton; 1941), p. 502.

(2) «Victor Tausk», Standard Edition, Vol. 17, p. 275. For a much more extensive discussion of Tausk, the reader is referred to Roazen, Brother Animal, and Roazen, «Reflections on Ethos and Authenticity in Psychoanalysis».

(3) For example, cf. Victor Tausk, Paraphrase als Kommentar und Kritik zu Gerbart Hauptmanns «Und Pippa Tanzt» (Berlin: Siegfried Cronbach; 1906).

(4) Victor Tausk, «On the Origin of the 'Influencing Machine' in Schizophrenia», in The Psychoanalytic Reader, ed. Robert Fliess (New York: International Universities Press; 1948), pp. 31-64. Cf. also Paul Roazen, «Victor Tausk's Contribution to Psychoanalysis», The Psychoanalytic Quarterly, Vol. 38, No. 3 (1969), pp. 349-53.

(5) Bruno Bettelheim, The Empty Fortress (New York: The Free Press; 1967), pp 233-339; Edith Jacobson, The Self and the Object World (New York: International Universities Press; 1964), p. xi; Erik H. Erikson, Identity: Youth and Crisis (New York: Norton; 1968), p. 9; and Bertram Lewin's obituary of Federn, The Psychoanalytic Quarterly, Vol. 19 (1950), p. 296.

(6) H. F. Peters, My Sister, My Spouse: A Biography of Lou Andreas-Salomé (New York: Norton; 1962), and Rudolph Binion, Frau Lou: Nietzsche's Wayward Disciple (Princeton: Princeton University Press; 1968).

(7) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 213.

(8) Andreas- Salome, The Freud Journal, p. 57.

(9) Ibid., p. 51.

(10) Ibid., p. 169. Cf. Carl G. Jung, «A Comment on Tausk's Criticism of Nelken», in Spring: An Annual (1973), pp. 183-87.

(11) Andreas-Salomé, The Freud Journal, pp. 51,56.

(12) Ibid., p. 51; «Victor Tausk», p. 274.

(13) Andreas-Salomé, The Freud Journal, pp. 97-98.

(14) Ibid., pp. 97, 114; cf. also Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 215.

(15) Andreas-Salomé, The Freud Journal, p. 114.

(16) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 170.

(17) Andreas-Salomé, The Freud Journal, pp. 166-67.

(18) Ibid., pp. 167-68.

(19) «On the Psychology of the War Deserter», The Psychoanalytic Quarterly, Vol, 38, No. 3 (1969), pp. 354-81.

(20) Helene Deutsch, Confrontations With Myself (New York: Norton; 1973), p. 135.

(21) «The 'Uncanny'», pp. 220, 234, 238.

(22) «Totem and Taboo», p. 86.

(23) Compare Sigmund Freud and Lou Andreas-Salomé, Briefwechsel (Frankfurt: Fischer; 1966), p. 108, with Letters of Freud and Andreas-Salomé, pp. 98-99. Cf. also Binion, Frau Lou, pp. 402-03.

(24) Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 229.

(25) Roazen, Brother Animal, pp. 153-54.

(26) Andreas-Salomé, Freud Journal, p. 163.

3 ـ الحواريون

(1) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 161.

(2) Sachs, Freud, pp. 1-2.

(3) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 153; quoted in Sidney Pomer, «Max Eitingon», in Psychoanalytic Pioneers, p. 53.

(4) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 154.

(5) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 205.

(6) Ten Years of the Berlin Psychoanalytic Institute, p. 45.

(7) Fritz Moellenhoff, «Hanns Sachs», in Psychoanalytic Pioneers, p. 188.

(8) Nunberg, Memoirs, p. 54.

(9) Sachs, Freud, p. 168.

(10) Letters of Freud and Abraham, pp. 91, 47.

(11) Freud/Jung Letters, pp. 105, 140.

(12) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 161.

(13) «Bulletin of the International Psychoanalytical Association», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 9 (1928), p. 133.

(14) Letters, pp. 337-38.

(15) Interview with Edward Glover, Aug. 25, 1965.

(16) Joseph M. Natterson, «Theodor Reik», in Psychoanalytic Pioneers, p. 257. Cf. also Ann Leslie Moore and Merrill Moore, «Notes on Re-Reading Dr. Hanns Sachs's Last Book», The American Imago, Vol. 11, No. 1 (Spring 1954), pp. 6-7.

(17) «Karl Abraham», Standard Edition, Vol. 20, p. 277.

4 ـ «المطاردة الوحشية»

(1) «The Ego and the Id», Standard Edition, Vol. 19, p. 23.

(2) Letters of Freud and Pfister, p. 81.

(3) Quoted in Schur, Freud, p. 312.

(4) Letters, pp. 316-18.

(5) Heinz Hartmann, «The Psychiatric world of Paul Schilder», Psychoanalytic Review, Vol. 31 (1944), p. 296.

(6) Nunberg, Memoirs, pp. 61-62.

(7) Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, pp. 131-32.

(8) IsidoreZiferstein, «Paul Schilder», in Psychoanalytic Pioneers, p. 465.

(9) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 102.

(10) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 728.

(11) Memorandum of Edward Hitschmann (Jones archives).

(12) «On Narcissim», p. 97.

(13) Interviews with Robert Jokl, Dec. 28 and 30, 1965.

(14) Wittels, Freud, p. 216.

(15) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 237.

(16) «The Intrepretation Dreams», Vol. 5, p. 524.

(17) «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 18, p. 196.

(18) Dreams and Telepathy», p. 216.

(19) «Obituary of Herbert Silberer», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 4 (1923), p. 399.

(20) Jung, Letters, Vol. I, P. 206.

(21) Wilhelm Stekel, «In Memoriam Herbert Silberer», Fortschritte der Sexualwissenschaft und Psychoanalyse, Vol. I (1924), P. 411. I am indebted to Prof. William M. Johnston for lending me a copy of this obituary.

(22) Binswanger, Sigmund Freud, p. 40.

(23) Ernest Jones, «Book Review of Wittels's Freud», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 5, (1924), p. 482.

(24) Stekel, «In Memoriam Herbert Silberer», p. 415.

(25) Martin Grotjahn, «Notes on Reading the 'Rundgriefe'», Journal of the Otto Rank Association, Vol. 8, No. 2 (Winter 1973-74), p. 50.

5 - إرنست جونز: الرائد

(1) Jones, Free Associations, p. 201.

(2) Ernest Jones, «Introductory Memoir», in Karl Abraham, selected Papers on Psychoanalysis, translated by Douglas Bryan and Alix Strachey (London: Hogarth; 1926), p. 38.

(3) Edward Glover, «Karl Abraham» (manuscript), p. 25.

(4) Jones, Free Associations, p. 195.

(5) Ibid., p. 176.

(6) Ibid., p. 172.

(7) Letter from Ernest Jones to A. A. Brill, July 15, 1932 (Jones archives).

(8) Edward Glover, «In Praise of ourselves», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 50, Part 4 (1969), p. 499.

(9) Letters from Ernest Jones To Johann van Ophuijsen, March 26 and 28, 1933 (Jones archives). Jones did not want Heinz Hartmann to edit a commemorative volume for Freud's one hundredth birthday; it would have taken the spotlight away from Jones's own work on Freud. Cf. letter from Ernest Jones to Heinz Hartmann, Feb. 15, 1955. (Jones archives).

(10) Edward Glover, «Ernest Jones», The British Journal of Medical Psychology, Vol. 31 (1958), p. 72.

(11) Jones, Free Associations, p. 63.

(12) Letter from Ernest Jones to William C. Bullitt, June 7, 1956 (Jones archives).

(13) Jones, Free Associations, p. 62.

(14) Ibid., p. 209.

(15) Ibid., p. 229.

(16) Letter from Ernest Jones to Max Eitingon, Sept. 26, 1929 (Jones archives).

(17) Leonardo Woolf, Beginning Again (London: Hogarth; 1964), pp. 75-82.

(18) Recollections of Virginia Woolf, ed. Joan Russell Noble (London: Peter Owen; 1972), pp. 116-17.

(19) Letter from Ernest Jones to A. A. Brill, Dec. 2, 1933 (Jones archives).

(20) Interview with Edward Glover, Aug. 25, 1965.

(21) Jones, Free Associations, p. 240.

(22) Ibid., p. 244.

(23) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 100.

(24) «Dr. Ernest Jones», Standard Edition, Vol. 21, pp. 249-50.

(25) Letters, p. 385.

(26) Jones, Free Associations, p. 60.

(27) Ibid., p. 154.

(28) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, p. 191.

(29) Letter fro Ernest Jones to Paul Federn, Oct. 10, 1933. Cf. also letter from Ernest Jones to Max Eitingon, Dec. 19, 1932, and letter from Anna Freud to Ernest Jones, Dec. 31, 1932 (Jones archives).

(30) Jones, Free Associations, p. 169.

(31) Freud/Jung Letters, p. 130.

(32) Ernest Jones, Essays in Applied Psychoanalysis, Vol. II, (New York: International Universities Press; 1964), pp. 244-60. Cf. Rudolf Blomeyer, «Der Gottmensch-Komplexbei Freud und seine Darstellung bei Jones», Zeitschrift fur Analytische Psychologie und ibre Grenzgebiete (July 1973), pp. 247-70.

(33) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 162.

(34) Jones, Free Associations, pp. 166-67, 169-70.

(35) Ibid., p. 98.

(36) Freud/Jung Letters, p. 145.

(37) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 165. Freud may have been confusing Jones's role with that of Tausk. Cf. Andreas-Salomé, The Freud Journal, pp. 168-70.

(38) Jones, Free Associations, p. 190.

(39) Letter from Ernest Jones to Leonard Albert, n.d. (Jones archives).

(40) Quoted in Hale, ed. James Jackson Putnam and Psychoanalysis, pp. 215, 251.

(41) Letter from Ernest Jones to Freud, Jan. 10, 1933 (Jones archives).

(42) Jones, Free Associations, p. 204.

(43) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. xii. Cf. also pp. 196-97.

(44) Ibid., p.140.

(45) Ibid., pp. 293-95.

6 - إرنست جونز وساندور فرينشيزي: المنافسة

(1) Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 253.

(2) Jones, Free Associations, pp. 145, 150-51.

(3) Ibid., p. 140

(4) Ibid.

(5) Ibid., p. 197.

(6) Ibid.

(7) Ibid.

(8) Ibid., p. 224.

(9) Ibid., p. 199.

(10) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, p. 106.

(11) Interview with James Strachey, June 28, 1965. Interview with Edward Glover, July 29, 1965.

(12) Jones, Free Associations, pp. 199-200.

(13) Freud/Jung Letters, p. 271.

(14) Interview with Elma Laurvik, Apr. 3, 1967; interview with Kata Levy, July 2, 1965.

(15) Letter from Ernest Jones to Michael Balint, Dec. 16, 1957, and letter from Michael Balint to Ernest Jones, Dec. 19, 1957 (Jones archives).

(16) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 75.

(17) «Sandor Ferenczi», Standard Edition, Vol. 22, p. 227.

(18) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, PP. 34-35.

(19) Ibid.,pp. 157-58.

(20) Quoted in Jessie Taft, Otto Rank (New York: Julian; 1958), p. 78.

(21) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 7. Cf. also Martin Grotjahn, «Notes on Reading the 'Rundbriefe'», p. 59.

(22) Letter of Sandor Ferenczi, Runde-briefe, Dec. 15, 1924 (Jones archives).

(23) «Dr. Sandor Ferenczi», Standard Edition, Vol. 19, p. 269.

(24) Ibid., p. 267.

(25) «On the History»,.p. 33.

(26) «Dr. Sandor Ferenczi», p. 268.

(27) Ibid., p. 267.

(28) Letters, p. 458.

(29) «Dr. Anton von Freund», Standard Edition, Vol. 18, p. 268.

(30) Letter from Kata Levy to me.

(31) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 89.

(32) Ibid.,Vol.II, PP. 55, 156.

(33) Ibid., Vol. III, P. 120.

(34) «Karl Abraham», p. 277.

(35) «Sandor Ferenczi», p. 228.

7- ساندور فرينشيزي، التقنية والضحية التاريخية

(1) SandorFrenczi, Thalassa, translated by Henri Alden Bunker, (New York: Psychoanalytic Quarterly; 1938).

(2) «Sandor Ferenczi», p. 229.

(3) Clara Thompson, Interpersonal Psychoanalysis, ed. Maurice R. Green (New York: Basic Books; 1964), p. 74.

(4) Sandor Lorand, «Sandor Ferenczi», in Psychoanalytic Pioneers, p. 32.
(5) «Sandor Ferenczi», p. 229.
(6) Jones, Free Associations, p. 228.
(7) Sandor Ferenczi and Otto Rank, The Development of Psychoanalysis, authorized translation by Caroline Newton (New York: Dover Books; 1956), pp. 50, 53.
(8) Ibid., pp. 60-61.
(9) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 65.
(10) Quoted in ibid., pp. 57-58.
(11) Quoted in ibid., p. 60.
(12) Quoted in ibid., p. 61.
(13) Ibid., p. 127.
(14) Ibid., p. 135.
(15) Ibid., p. 149.
(16) «Analysis Terminable and Interminable», pp. 221-22.
(17) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 330; Vol. II, P. 231.
(18) Sandor Ferenczi, Final Contributions to the problems and Methods of Psychoanalysis, ed. Michael Balint, translated by Eric Mosbacher and others (London: Hogarth; 1955), p. 42.
(19) Ibid., p. 305.
(20) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 16.
(21) Ibid., pp. 164-65.
(22) Thompson, Interpersonal Psychoanalysis, pp. 74, 73.
(23) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 173. Cf. Sandor Ferenczi, «Confusion of Tongues Between Adults and the Child», in Final Contributions to the Problems and Methods of Psychoanalysis, pp. 156-67.
(24) Letter from Izette de Forest to Ernest Jones, Dec. 8, 1854 (Jones archives). Cf. also Izette de Forest, The Leaven of love (New York: Harper & Row, 1954).
(25) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, p. 173.
(26) Letter from Michael Balint to Ernest Jones, Jan. 22, 1954 (Jones archives).
(27) Quoted in Fromm, Sigmund Freud's Mission, p. 65.
(28) «SandorFrenczi», p. 229.
(29) Interview with Elma Laurvik.
(30) Vincent Brome, Freud and His Early Circle (London: Heinemann; 1967), p. 165.
(31) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 129.
(32) Ibid., Vol. II, PP. 82, 84.
(33) Ibid., Vol. III, P. 127.

(34) Ibid., p. 45.

(35) Ibid., pp. 166, 176.

(36) Ibid., pp. 176, 178.

(37) Ibid., p. 178.

(38) Cf. Sandor Lorand, «Sandor Ferenczi», pp. 14-34. Erich Fromm, «Psychoanalysis-Science or Party Line?», in The Dogma of Christ (New York: Holt, Rinehart & Winston; 1963), pp. 131-44. Letter from Michael Balint to Ernest Jones, May 31, 1957 (Jones archives). Interview with Elma Laurvik.

(39) Letter from Michael Balint to Ernest Jones, Jan. 22, 1954 (Jones archives).

(40) Cf. International Journal of Psychoanalysis, Vol. 34 (1958), p. 68.

(41) Letter from Ernest Jones to A. A. Brill, June 20, 1933 (Jones archives).

(42) Interview with Mark Brunswick, Jan. 25, 1966.

(43) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, June 1, 1933 (Jones archives).

(44) Letter from Ernest Jones to Sigmund Freud, June 3, 1933 (Jones archives).

(45) «Sandor Ferenczi», p. 229.

8 ـ الأميركيان: ج.ج. بوتنام و هـ. و. فرانك

(1) Cf. John C. Burnham, Psychoanalysis and American Medicine, 1894-1918 (New York: International Universities Press; 1967); David Shakow and David Rapaport, The Influence of Freud on American Psychology (New York: International Universities Press; 1964); Marie Jahoda, «The Migration of Psychoanalysis: Its Impact on American Psychology», Perspectives on American History, Vol. 2 (1968), pp. 420-45; and F. H. Mattews, «The Americanization of Sigmund Freud: Adaptations of Psychoanalysis Before 1917», Journal of American Studies, Vol. 1 (Apr. 1967), pp. 39-62.

(2) Quoted in Nathan G. Hale, Freud and The Americans, Vol. I (New York: Oxford University Press; 1971), p. 19. Cf. also Jones, Free Associations, p. 191.

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, pp. 61-62.

(4) Freud/Jung Letters, pp. 398-99.

(5) Hale, ed. James Jackson Puntnam and Psychoanalysis, pp. 329, 332.

(6) Ibid., pp. 328-29.

(7) Hale, Freud and The Americans, pp. 305, 307.

(8) Ibid., pp. 285, 283.

(9) Ibid., p. 408.

(10) Ibid., p. 463.

(11) Quoted in Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 43.

(12) «On the History», p. 31; «James Jackson Puntnam», Standard Edition, Vol. 17, p. 271.

(13) Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 147.

(14) Ibid., p. 140.

(15) Ibid., p. 110.

(16) Ernest Waldinger, «My Uncle Sigmund Freud», Books Abroad, Vol. 15, No. 1, (Jan. 1941), p. 5.

(17) C. G. Jung, Memories, Dreams, Reflections, p. 336.

(18) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 85.

(19) Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 39.

(20) Ibid., p. 127.

(21) Ibid., p. 259.

(22) Ibid., p. 94.

(23) Ibid., pp. 185-86.

(24) Ibid., p. 79.

(25) Ibid., p. 54.

(26) Ibid., p. 118.

(27) Ibid., p. 172.

(28) Ibid., p. 173.

(29) Jones, Free Associations, p. 189.

(30) Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, p. 105.

(31) Ibid., pp. 121-22.

(32) Interview with Marian C. Putnam, Sept. 22, 1966.

(33) Hale, ed., James Jackson Putnam and Psychoanalysis, pp. xii-xiii.

(34) «Lines of Advance in Psychoanalytic Therapy», p. 165.

(35) Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, p. 50.

(36) Hale, Freud and the Americans, p. 348. Cf. Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 85, 105-06, and Clarence p. Oberndorf, A History of Psychoanalysis in America (New York: Grune & Stratton; 1953), p. 148

(37) Hale, Freud and The Americans, p. 323.

(38) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 85, 105-06, 111.

(39) Horace Frink, «Review of Psychoanalysis by Brill», Mental Hygiene, Vol. 7 (1923), p. 400.

(40) Interview with Abram Kardiner, Oct. 12, 1965.

(41) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 85.

(42) Letter from Clarence Oberndorf to Ernest Jones, Dec. 23, 1953 (Jones archives).

(43) Interview with Abram Kardiner, Apr. 1, 1967.

(44) Letter from Clarence Oberndorf to Ernest Jones, Dec. 23, 1953 (Jones archives). Cf. also the obituary in Psychoanalytic Quarterly, Vol. 5, (1936), pp. 601-03.

9 ـ الأميركيون: أ.أ بريل ومستقبل القضية

(1) Quoted in Bernays, Biography of an Idea, p. 259.

(2) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. xxxii.

(3) Jones, Free Associations, p. 232.

(4) Weiss, Sigmund Freud as a Consultant, p. 24.

(5) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 45.

(6) Hale, Freud and the Americans, pp. 394-96.

(7) Martin Grotjahn, «Collector's Items from the Correspondence Between Sigmund Freud and Otto Rank», Journal of the Otto Rank Association, Vol. 6, No.1 (June 1971), p. 27.

(8) Hale, Freud and the Americans, p. 391.

(9) Fritz Wittels, «Brill», Psychoanalytic Review, Vol. 35 (1948), p. 398.

(10) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 37; Jones, Free Associations, p. 231.

(11) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 46.

(12) Hale, Freud and the Americans, p. 202.

(13) Interviews with George Wilbur, Sept. 24-25, 1965.

(14) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, Oct. 25, 1933 (Jones archives).

(15) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 111.

(16) Paula Fass, «A. A. Brill-Pioneer and Prophet», M.A. dissertation, Dept. of History, Columbia University, June 1968, p. 29.

(17) Interview with Sandor Rado, Jan. 29, 1966.

(18) Hale, Freud and the Americans, p. 39.

(19) Jones, Free Associations, pp. 190-91. When a Viennese physician living in the United States exhibited unreliable traits, Jones referred to him as «an American Osychoanalyst». Sigmund Freud: Four Centenary Addresses (New York: Basic Books; 1956), p. 52.

(20) Reik, «Years of Maturity», p. 70.

(21) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 183.

(22) Ibid., p. 60.

(23) Max Eastman, «Differing with Sigmund Freud», in Einstein, Trotsky, Hemingway, Freud and other Great Companions (New York: Collier Books; 1962), p. 129.

(24) Bernays, Biography of an Idea, p. 263.

(25) «Civilization and Its Discontents», p. 49; Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, p. 98. Cf. Oberndorf, A History of Psychoanalysis in America, pp. 148-49.

(26) Robert P. Knight, «The Present Status of Organized Psychoanalysis in the United States», Journal of the American psychoanalytic Association, Vol. 1, No. 2 (Apr. 1953), p. 209.

(27) Interview with MathildaHollitscher, Nov.5, 1966.

(28) The Letters of Freud and Zweig, p. 178.

(29) Martin Peck, «A Brief Visit with Freud», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 9, No. 2 (1940), p. 206.

(30) Reik, «Years of Maturity», p. 72. Cf. also letter from Ernest Jones to Johann van Ophuijsen, Dec. 14, 1927 (Jones archives).

(31) «Introduction to the Special Psychopathology Number of The Medical Review of Reviews», Standard Edition, Vol. 21, p. 254.

(32) Ibid.

(33) «On the History», p. 32.

(34) «Introduction to the Special Psychopathology Number of The Medical Review of Reviews», p. 255.

(35) «New Introductory Lectures», p. 140.

(36) Letter from Ernest Jones to Max Eitingon, Feb. 24, 1937 (Jones archives); Jones, Free Associations, pp. 218, 221; Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 135.

(37) Franz Alexander, The Western Mind in Transition (New York: Random House; 1960), p. 101.

(38) Sachs, Freud, p. 187.

(39) «Introductory Lectures», Vol. 16, pp. 254, 423.

(40) Quoted in Nolan D. C. Lewis, «Smith Ely Jelliffe», in psychoanalytic pioneers, p. 227.

(41) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 292; cf. also ibid., p. 298.

(42) «The Future of an Illusion», p. 19.

(43) Interview with Irmarita Putnam.

(44) Letter from Johann van Ophuijsen to Ernest Jones, Oct. 31, 1927 (Jones archives).

(45) Letters From Ernest Jones to Johann van Ophuijsen, Dec. 14, 1927, and Nov. 28, 1928 (Jones archives).

(46) Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, p. 108.

(47) Quoted in Lewis, «Smith Ely Jelliffe», p. 228. Cf. also letter from Freud to Jacques Schneir, July 5, 1938 (Jones archives).

(48) Oberndorf, A History of Psychoanalysis in America, p. 2.

الفصل الثامن

أوتو رانك: الآباء والأبناء

1 - صدمة الولادة

احتل أوتو رانك (1884 ـ 1939) مكانة استثنائية في حياة فرويد، إذ كان شخصًا مهمًّا بشكل خاص جدًّا بالنسبة له، ولم يستطع أحد غيره أن يكون في مثل حظوته. وإنه لمن الصعب في هذا المضمار بالذات أن تبيّن إلى أي حدّ أدى حقد إرنست جونز على حميمية علاقة رانك بفرويد على التركيز على تراجع منزلة رانك تلك بمجرد أن اقتفى أثر أدلر ويونغ اللذين انحرفا عن نهج فرويد. استفاد جونز إلى حدّ كبير من الحكمة السائدة في أوساط المحللين النفسانيين، والوثائق غير المنشورة في صياغة نسخة رسمية مكتملة لما حدث بين فرويد ورانك. قادته توقعات، بحسب هذه الرواية، إلى أن يُعلي من شأن إسهامات موهبة رانك وقدراته في التحليل النفسي. وبمجرد أن تخلّى رانك عن النتائج الرئيسة التي توصّل إليها التحليل النفسي، وليس فقط بنياته النظرية تخلى عنه فرويد.

تناول جونز التوترات بين فرويد ورانك بعناية فائقة قائلًا: «اهتممت بشكل مستفيض بفترة انفصال أوتو رانك عن فرويد لأنها تدحض تمامًا أسطورة لا تزال قائمة تقول بأنه لما كان فرويد ديكتاتوريًّا فإنه لم يكن ليتقبّل أي انحراف لأتباعه عن أفكاره، حتى أنه كان يُقصي من حلقته فورًا كل من تسوّل له نفسه ذلك»[1].

وفي إطار مكافحته لهذا التبسيط المفرط، اعتبر جونز أن ما دفع رانك إلى الانفصال عن فرويد ذهان متخمر في أعماقه. بيد أنه يمكن لنا أن نؤسس لتفسير أكثر إقناعًا بكثير لما دار بين فرويد ورانك والذي يؤكد على الجوانب المأساوية للصراع بين الرجلين دون الرجوع إلى الصدامات القديمة بينهما، سواء تلك المتعلقة بمقاومة التلميذ أو باستبدادية الأستاذ. ورغم أن رواية جونز تتضمن بعض الحقيقة، ومهما حاولنا الاقتناع

بأن المجادلة التي تضمنتها معقولة من الناحية الإنسانية إلا أنها على ما أعتقد تظل أسطورية.

كان رانك الذي وُلد في فيينا من أصول اجتماعية فقيرة نسبيًا، وكان أبوه عربيدًا وعديم المسؤولية و«يبدو أنه سبب الشقاء لعائلته نتيجة لامبالاته أكثر منه نتيجة وحشيته»[2] وما لبث كذلك حتى تفككت العائلة. وفي سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة تخلّص رانك وأخوه مطلقًا من تسلط أبيهما[3]. كان لقب العائلة روزنفيلد إلا أن أوتو قرّر أن يتخلّص من عبء اسم أبيه. فاتخذ لقب رانك ربما من مسرحية أبسن «بيت الدمية» مكتفيًا بحرف الراء الأول وحده كجزء من ماضيه (ولم يكن أوتو رانك الوحيد الذي أقدم على ذلك، بل كان هناك، على الأقل، محلل نفسي آخر، وهو إريك هـ. إريكسون، الذي ابتدع لقبه الأخير أيضًا).

انطلق رانك إلى العمل في سن مبكرة ليساعد أمه. وحسب إحدى الروايات فقد عمل في مصنع للزجاج، ولكن بلا شك، لم يكن عمله ذاك الوحيد. ورغم ذلك وجد رانك الوقت والجهد للقراءة وافتتن بكتابات فرويد، وذات مرة بينما كان رانك في عيادة ألفريد أدلر ليفحصه، وكان طبيب عائلته، تجرّأ رانك على مناقشة فرويد في حضرته فعرض عليه أدلر أن يقدمه له. وفي عام 1906 قدّم رانك نفسه لفرويد، كان حينها في الثانية والعشرين من عمره، بمقال كتبه بعنوان: «الفنان».

وسرعان ما أصبح فرويد معلّمًا لرانك وعرّابًا له. فقد كانت لديه أحاسيس متصارعة تجاه الحماة في شبابه. جاء في توصيف فرويد لهذا الأمر عام 1914 قوله: «ذات يوم قدّم شخص نفسه بمخطوطة أظهرت فهمًا غير عادي إلى أبعد حد، وكان هذا الشخص قد تخرّج من مدرسة تدريب تقني. وقد أقنعناه بأن يلتحق بالجمنازيوم وبالجامعة، وأن يكرّس كل اهتمامه للجانب غير الطبيّ من التحليل النفسي. اكتسب المجتمع الصغير شخصًا متحمّسًا وأمينًا يُعتمد عليه، ووجدت في أوتو رانك مساعدًا وشريكًا مخلصًا»[4].

ضُمّنت «محاضر جلسات» جمعية فيينا للتحليل النفسي في مخطوطات رانك. من الواضح أن رانك كان يتمتع بكفاءة عالية وقد كانت علاقته بفرويد حميمية، حتى أن فرويد كلفه بطبعات تفسير الأحلام المنقحة، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة (وذلك من عام 1914 إلى 1922) وكان مسؤولًا بشكل تام عن المصادر والمراجع حتى أصبح «مكلّف فرويد بالبحث ومدققه اللغوي وابنه بالتبني»[5].

كان فرويد أعظم مَن آمن بمزايا احتفاظ المعلم بمسافة معينة بينه وبين التلاميذ، فهو حتمًا أكثر أهمية بالنسبة لهم مما قد يكون أيّ منهم بالنسبة له. ومع ذلك نجح فرويد مع رانك في أن يكون أعظم كفيل له سخاءً وعطاءً. عززت ثقة فرويد طموحات رانك الخلّاقة. وبقدر ما دعم فرويد هذا الشاب الموهوب ماليًا، بقدر ما عزز فرويد ثقته في قدراته وآماله العريضة وحفّزه. ساعدت المصطلحات النفسية التحليلية الضرورية في بلورة أفكاره معززة بإلهام فرويد في بروز رانك الكاتب والمفكّر والأكاديمي.

ما قدّمه فرويد لرانك ما كان لشيخ طاعن في السن مثل فرويد أن يقدمه لشاب مثله على الإطلاق، ولا يمكن أن نتصوّر ما كان يعنيه فرويد بالنسبة لرانك. عندما قدِم رانك إلى فرويد، لم يملك خبرة غير تلك التي تلقاها من تدريب في مدرسة تقنية. استطاع بمساعدة فرويد أن يحصل على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم من جامعة فيينا عام 1912. كان فرويد بالنسبة لرانك أبًا بديلًا مثاليًا.

تخصص رانك في الميثولوجيا (علم الأساطير) الذي «تضّلع فيه بشكل كبير»[6] بحسب جونز. وتتمثل مقاربة رانك في علم نفس الأساطير، كما لخّصها فرويد نفسه في بيان، كيف أن الميثولوجيا «ارتقت إلى السماء بعدما نشأت من مكان آخرَ ضمن شروط إنسانية خالصة»[7]. كما استمر في تنمية اهتمامه بالإبداع وعلم نفس الفنان. تفسّر مقالة مهمة لرانك دور«الشبيه» في الأدب. كما ساهم فرويد بمقالة في كتاب رانك **أسطورة مولد البطل**. الأدهى من ذلك، ومما يمكن أن تتخيّل تأثيره على تلاميذ فرويد الآخرين، سماحه بنشر مقالتين من مقالات رانك في الطبعات الجديدة من تفسير الأحلام (وقد تم التخلي عنها لاحقًا بعد ثبوت فشلها). وقد نجد بعض الإحالات على مواقف أو تعليقات لرانك المبعثرة عبر مؤلفات فرويد من قبيل: «كتبت ما يلي في خصوص هذه المسألة تحت تأثير تبادل أفكار مع أوتو رانك» أو «كما أشار أوتو رانك...»[8].

أصبح رانك، ومعه هانز ساكس، عام 1912 محررًا مؤسسًا للإيماجو (الصورة). وسرعان ما جعل فرويد من رانك أهم محرر في زايتشريفت، وهي الدورية الرئيسة في أدب التحليل النفسي التي تصدر في ألمانيا. كما كان رانك العضو القائد رغم حداثة سنه للجنة السرية التي تأسست بعد خسارة أدلر ويونغ وذلك لتخفيف بعض أعباء الحكم عن فرويد في ما يشبه الدولة. تظهر صورة فوتوغرافية جماعية التقطت في عام 1922 فرويد ومقربيه من المؤيدين (رانك وفرينشيزي وأبراهام وجونز وساكس وإيتنغون)، تظهر

الصورة رانك خلف فرويد مباشرة كما يشبه مَن يقف خلف كرسي العرش. وفي أوائل العشرينيات من القرن العشرين اكتفى فرويد في جمعية فيينا بتقديم المقالات فقط، مما ترتب عنه فراغ، فخلفه رانك في ترؤس الاجتماعات.

كان التلاميذ الآخرون كما هو مفهوم يغارون من رانك، وربما وقفت غيرتهم تلك في نهاية المطاف وراء إساءة جونز تفسير مصدر الصدامات التي حدثت بين فرويد ورانك في ما بعد، والتقليل من شأن حميميتهما في ما مضى. «لازم رانك فرويد حتى كاد لا يفارقه يومًا واحدًا»، بينما يزعم جونز «أن لا أحد منهما كان قريبًا من الآخر. فلم يكن رانك جذّابًا، فضلًا أن عن صفات أخرى كثيرة لم تكن تعني الكثير لفرويد»[9]. بيد أن كل القرائن تفنّد هذا التفسير، ذلك أن فرويد وجد في رانك كل الصفات التي قادتهما إلى نوع من الحميمية التلقائية»[10].

ما حظي أحد من تلاميذه الآخرين بمثل هذا قط، فقد كان رانك أكثرهم قربًا إلى فرويد، فلم يكن مجرَّد تلميذ. ولما مرضت آنا فرويد بالسعال الديكي ذات صيف، وجد فرويد في رانك خير بديل عنها في رحلاته. يعكس تشجيع فرويد لرانك في جزء منه عدم رضاه عن العديد من تلاميذه الفيينّيين الآخرين، ونتيجة معرفته بمواهب رانك أيضًا، وبشكل شخصي اغترابه عن أبنائه. (الأمر الذي أثار غضب وغيرة ابن فرويد الأكبر مارتن إلى حد ما من إدارة رانك لأعمال أبيه، ولم ينتزع منه التصرّف في الشؤون المالية إلا بعدما انفصلا).

اعتبر فرويد رانك الأنسب ليكون خلفه المثالي لا أولاده من صلبه، فافتقادهم للإبداع يحول دون أن يخلّدوا أثره. لم يكن تلاميذه الآخرون، بدورهم، مؤهّلين لذلك، لأنهم قدموا إلى فرويد ومعهم على الأقل بعض ما أنجزوه مما يشعرهم باستقلاليتهم. أما رانك فجاء إلى حلقة فرويد ولا شيء معه غير قدراته الذاتية فكانت انطلاقته مع فرويد بمنزلة ميلاد جديد. تفجّرت طاقته الإبداعية والعبقرية التي لا يمكن ردّها إلى ماض اجتماعي أو عائلي معروف. وبذلك استطاع فرويد أن يجد في رانك أفضل من يستحق أن يخلفه، فهو معلمه الذي صنعه تحت عينيه سخاء وتشجيعًا وإلهامًا.

أدى امتنان رانك لفرويد ضمن بعض المعاني إلى تراجع منزلته قياسًا بمعلمه. عزى جونز احترام رانك المطلق لفرويد «لانحداره من مستوى اجتماعي مختلف عن الآخرين

وربما هذا ما يفسر خجله الملحوظ بل وربما سحنته المختلفة أحيانا»[11]. وفيما يبدو لفظ «الاختلاف» لا يستوفي حقيقة وضع رانك وقد لا يكفي لفظ «العبودية» للتعبير عن تلهف رانك للتعاون. عُرف رانك قبل الحرب العالمية الأولى بخنوعه في وقت كان الاحترام للآباء والقادة بوجه عام ثقافة روتينية. ولا غرابة أن نرى رانك في الاجتماعات أن يحضر كوبًا من الماء لفرويد أو يشعل له سيجاره.

أُرسل رانك في أوائل 1916 لكراكوف لتحرير صحيفة رسمية عن الجيش النمساوي تحت اسم مجلة كراكوفر. وكانت تلك هي المرة الأولى التي انفصل فيها عن فرويد وكان بإمكانه أن يقوم برحلات قصيرة إلى فيينا حتى نهاية الحرب. وقد استمر في تحرير الإيماجو من كراكوفر، ودائمًا ما كان يُرتّب عملية إرسال السيجار إلى فرويد.

واعتقد جونز أن سنوات رانك في كراكوف كانت «مصيرية بالنسبة لبقية حياته... فقد ظهر بوجهين مختلفين تمامًا أحدهما قبل الحرب العظيمة والآخر بعدها، فلم أعرف أبدًا شخصًا تغيّر تغيّرًا كبيرًا هكذا»[12]. طبقًا لرواية جونز، تداخلت الحرب مع خطط رانك ليأتي لجونز من أجل تحليل. وللمرة الأولى تحمّل رانك مسؤوليته كاملة في عمل بشكل منفصل عن فرويد. اضطر أن يسافر في عمله ويبدو أنه تأقلم تمامًا على نحو يثير الإعجاب. وفي نهاية الحرب وفي احتفال عسكري مقتضب في السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1913 تزوّج رانك وبعدها بيومين أحضر عروسه للقاء فرويد في فيينا.

كانت بيتا تولا منسر في بدايات العشرين من عمرها عندما وقعت في غرام رانك، وكان تقديم هذه الفتاة البولندية الخجولة والبسيطة أشبه بالمثول أمام هيئة محكمة. «فلقد صار فرويد إمبراطورًا، نُسجت حوله الأساطير، سطوته مطلقة في مملكته وإن تكن مستنيرة...»[13]. وبينما كانت تولا رانك جميلة وفاتنة وتحتفظ بأنوثة القرن التاسع عشر، كان زوجها رجلًا ذميمًا ولكن شكّلا سويًّا زوجين رائعين.

سرعان ما أصبحت تولا عضوًا في أسرة فرويد، أو بالأحرى زوجة ابنه بالتبني. ولما كانت في سن ابنة فرويد آنا فقد كانت موضع ترحيب فرويد في فلكه. في هامش في مقالة كتبها في ربيع 1919 شكر فرويد «السيدة د. رانك» على اقتراح قدمته[14]. لم يدع أتباع فرويد هذا الاستشهاد يمرّ، فمن الواضح أن زوجة أوتو رانك حظيت بمنزلة عاطفية خاصة عند فرويد. وعندما أنجبت ابنتها استقبلت كما لو كانت حفيدة فرويد من صُلبه، وأسهمت أسرة

فرويد في توفير عربة أطفال للمولودة واهتمت مينا أخت زوجة فرويد بشؤون الأمومة. ولما لم يُنجب أبناء فرويد إلا ذكورًا، فقد كانت هذه البنت، إن جاز التعبير، أول حفيدة لفرويد.

بالمحصلة، قد يكون زواج آل رانك قاد رانك إلى اهتمامات أبعد من فرويد، ولكن في تلك الفترة، كان الزوجان يتعاملان ببشاشة ضمن عالم فرويد. نادرًا ما كانت زوجة فرويد تستقبل الضيوف فلم تكن تستهويها التسلية، لذا فقد كانت تولا رانك تقوم مقامها في هذا الشأن حتى أنها أقامت حفل عشاء لديفيد فورسيث، وهو مريض إنكليزي مهم بالنسبة لفرويد. وأقامت كذلك حفل عشاء للو أندرياس سالومي، وبالإضافة لضيوف فرويد وزوجته، فقد كان رانك وزوجته يستضيفان هيلين وفليكس دويتش. ورغم أن شقتهما تتكوّن من أربع غرف، فقد كان بإمكانها التسلية مع ضيوفهما في منزل فرويد. وقد أقاما على الأقل حفلة كريسماس واحدة دعي إليها مرضى فرويد الأجانب.

كانت تولا تساعد في تحرير الإيماجو، كما كانت تفعل في كراكوف، وكانت تدقق الكتابات لغويًا، كما شُرّفت بالحضور، جنبًا إلى جنب مع آنا فرويد، إلى إملاء فرويد للرسائل التي كان يوجهها لأعضاء اللجان وحملت توقيع فرويد ورانك «دائما ما كان الاثنين معًا وعادة ما كانا يشيران لنفسيهما بـ«نحن». وإذا كان النص، على ما يبدو، يقترحه فرويد انطلاقًا من محادثة مع رانك، فإن هذا الأخير هو الذي كان يتكفّل آنذاك بصياغة الرسالة بناءً على ملاحظاته. وكان فرويد عادة ما يتحمَّل مسؤوليته كاملة»[15]. (ونادرًا ما كانت رسائل فرويد الأخرى تُرقن، لأنه كان يحب أن يكتب كل شيء بنفسه بالخط الألماني المميّز لكنه صعب جدًا). وفي العام التالي لالتحاق آنا فرويد بجمعية فيينا، عرض فرويد على تولا أن تلتحق هي أيضًا بها(*). لم تكن العضوية آنذاك تتطلب تدريبًا معيّنًا ولكن كان عليها أن تقدّم مقالًا هو شرط التحاق بالجمعية. وفي 30 أيار/ مايو 1923، تحدثت تولا في مقالها عن «دور المرأة في تطور المجتمع الإنساني» وبه انتخبت عضوة في الجمعية.

لما بدأت فيينا تستعيد هدوءها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، باشر رانك ممارسة التحليل النفسي بالتزامن مع مهامه الأسرية الجديدة. واتخذ رانك لنفسه مكتبًا مجاورًا لشقته مثل فرويد، وإن كان مكتبه أصغر. كان رانك واحدًا من أوائل المحلّلين النفسيين العاميين (غير المؤهلين طبيًا)، وشرع في تحليل المرضى بداية من عام 1920 وذلك بدعم

(*) يذكر أحد أصدقاء تولا أنه دعاها في ذلك الوقت إلى حفلة تنكّرية، وكان فرويد عندها في بيت رانك فانزعج من تولا كما لو كانت ابنته.

كامل من فرويد. وبالإضافة إلى ذلك تحمّل مسؤولية إدارة دار فرويد الجديدة للنشر «باقتدار وطاقة مذهلين، على المستويين الإداري والتحريري»[16].

دأب رانك على العشاء في بيت فرويد مساء كل أربعاء بانتظام، ومن ثم انطلقا سويًا لحضور اجتماعات الجمعية حيث يُلقيان كلمة هناك. ناقش فرويد كل ما يكتبه مع رانك، واستمع إلى ما ينبغي على تلميذه أن يقوله. أُشيع في أوائل العشرينيات من القرن العشرين أن رانك حلّل فرويد شخصيًا ولكن لفترة قصيرة، ورغم أن هذا يبدو مستبعدًا تمامًا، وإن كانا ربما تبادلا رواية بعض من أحلامهما فقط، فإنه لم يحل قط آنذاك دون تنامي وشائج القربى بين الرجلين. فمهما تكن منزلة تلاميذه الآخرين عنده مما كان معجبًا بهم، فإن أوتو رانك لم يكن مجرّد شخص يفضله على الجميع فقط بل كان عنده أيضًا بمرتبة أمير ويلز.

يعزو جونز في تفسير سبب فشل خطط فرويد في ما بعد إلى بدعتين لرانك، إحداهما نظرية صدمة الولادة، والأخرى مقاربة إكلينيكية مختلفة في العلاج. من وجهة نظر رانك فإن نظريته كانت في جزء منها نتاج خبرته العلاجية كمحلل نفسي، وكما يشير إلى ذلك مفهومه عن صدمة الولادة فإن لها آثارًا إكلينيكية محددة. مثّلت هاتان الهرطقتان فعلًا أصل الصراع الفلسفي الذي نشأ في النهاية بين فرويد ورانك.

ينقل لنا جونز أن رانك توصّل بالفعل في آذار/ مارس من عام 1919 إلى أن جوهر الحياة يكمن في العلاقة بين الأم والطفل، «الشريكان المتزوجان». وما فتئ رانك يؤكد «تكرارًا ومرارًا تلك [العلاقات] بين الأم والطفل...»[17]. ورغم ذلك لم يكن التحليل النفسي في 1919 يهتم بدور الأم في نمو الطفل أو بالحاجات الأمومية للمرضى في علاجاتهم إلا قليلًا جدًا. إذ رأى فرويد في الأم هدفًا للرغبة الجنسية أو أداة للمتعة الجنسية، ولكنه لم يركز على الوظائف الحمائية لها، ولم يذكر أن تبعية الطفل في مراحله المبكرة لأمه تبعية مشروعة. (وقد يعكس هذا تردد فرويد في شرح تبعيته لأمه المتسلطة والمستبدة).

وعلى العموم، سلّم فرويد بالوظائف التربوية للأم وإن كان تركيزه المطلق على تفسير علاقة الطفل بأبيه لا بأمه. يتحدث فرويد في سجل طبي لحالة نُشرت لاحقًا في عام 1918 عن أب مريض ذكر عن «اختياره الموضوعي الأول الذي يتوافق مع نرجسية الطفل الصغير، احتل حيزًا في مسار التماهي»[18]. اعتقد فرويد آنذاك بأن الرابطة الإنسانية «الأولى الأكثر فطرية» بالنسبة للطفل الصغير هي رابطته بأبيه لا بأمه. وإن لم يستثنِ فرويد من ذلك جانب

الأم في علم النفس الباثولوجي لمرضاه، فإنه يعتبر الأم أساسًا كغاوية ضمن حالة أوديبية أو كمصدر للصراعات المثلية الجنسية لدى البالغين.

وكما أشار جونز، فإن الاستتباع العملي لمفهوم رانك صدمة الولادة يتمثل في أنه «من الناحية العيادية تتعلق تلك الصراعات العقلية بعلاقة الطفل بأمه....»[19]. وينظر إلى هذا حاليًا على أنه تبسيط مبالغ فيه. أصبح هذا التحليل النفسي يركز أكثر فأكثر على دور الأم في النمو الطبيعي والباثولوجي على حد سواء، من ذلك مثلًا أن عمل دونالد فينيكوت في إنكلترا وإريك إريكسون في أميركا ركّزا اهتمامهما على تحديد الإسهام الأساسي للأم في صحة الطفل أثناء نموه. ولقد شهد توتر الانفصال ورد فعل الطفل الذي يخاف أن يفقد مساعدة أمه حتى الآن اهتمامًا متزايدًا، ولو أن يونغ توقع ذلك، إلا أن جلّ هذا العمل لم يظهر قبل عشرينيات القرن العشرين، حيث ما زال تهديد الأب بالخصي يُعتبر أمرًا محوريًا بالنسبة للمحللين النفسيين.

عندما قدّم رانك مفاهيمه تلك للمرة الأولى، علّق فرويد ساخرًا «بفكرة كتلك يمكن لأي شخص آخر أن ينطلق»[20]. أنهى رانك مخطوطة «صدمة الولادة» في نيسان/ أبريل من عام 1923، وضمّنها إهداءً إلى فرويد في عيد ميلاده في السادس من أيار/ مايو. رحّب فرويد بذلك، وصدر الكتاب مطبوعًا في كانون الأول/ ديسمبر 1923 حيث تفاعل بداية بشكل ودي مع مفاهيم رانك الجديدة. وفي شباط/ فبراير 1924، كتب فرويد أنه لم «يتسن له معرفة ما إذا كان 66٪ منه أم 33٪ صحيحًا، ولكن، على أية حال فإنه يُعدّ الإنجاز الأهم منذ اكتشاف علم التحليل النفسي»[21].

ليس منصفًا أن نعتبر أن رانك هو المحلّل النفسي الوحيد في ذلك الوقت الذي ركز على الدور المهمل للأم. ويبدو أن جورج غروديك توصل أيضًا إلى هذه النتيجة، وكان ساندور فرينشيزي يميل إلى وجهة النظر ذاتها. إلا أن أوتو رانك هو الذي جعل الأم ما قبل الأوديبية محور نسقه. تبدو الفكرة التي تقول بأن القلق ينشأ عن صدمة الولادة وتلك التي تقول بأنه لا بد من إعادة اختبار تلك الصدمة بالعلاج متطرفة، إلا أنه حسب تصوّر رانك إنما ابتكرت تلك الفكرة أساسًا لتبيّن الأهمية السيكولوجية المحورية للأم(*) وحسب

(*) لم يكن لمفهوم صدمة الولادة الذي ابتدعه رانك أي دور يُذكر في ممارسته التحليلية من الناحية الإكلينيكية. فلم يسمع أبدًا أي مريض، على الأقل، أثناء تحليله مع رانك بصدمة الولادة. ويذكر أحدهم عن كارن هورني قولها مهما تكن المستويات التي بلغتها قناعاتها النظرية، فإن تقنيتها كمحللة لم تتغيّر قط.

أحد المحللين، أشرف عليه رانك آنذاك، «ما وضعت وجهة النظر التقليدية الأب في قلب الصراعات العاطفية إلا واستبدله رانك بالأم».

«يمثل كتاب رانك صيغة مبالغة شبه كاريكاتورية لمنهجية عمل فرويد، مركزًا على مشكلة واحدة في الآن ذاته. وباكتشافه الأم الحامية للتحليل النفسي، حاول رانك بلورة تبعات رؤيته هذه. كان يقصد من وراء استخدام فكرة صدمة الولادة أن نقتفي بشكل معين وبإخلاص أثر فرويد، إذ أشار فرويد في بدايات 1908، مرة على الأقل، إلى حدث الولادة كمصدر للتوتر»[22]. وفي موضع آخر كتب يقول:

«تُعدّ الولادة في الوقت نفسه أولى كل المخاطر التي تواجهها الحياة، ونموذج جميع المخاطر اللاحقة التي تسبب لنا الشعور بالقلق، وربما تركت فينا الولادة أثرًا نُعبِّر عنه بما نسميه القلق. لذلك فإن ماكدوف في الأسطورة الأسكتلندية الذي لم تلده أمه مزّق رحمها ولأجل ذلك لم يحط بالقلق خبرًا»[23].

يرى رانك أن بناء نظريته على فكرة من أفكار فرويد أمرًا مستساغًا تمامًا، وتلك الطريقة التي كان فرويد يتوقع من تلاميذه أن يتّبعوها بحيث عليهم أن يتمّوا إسهاماته غير المكتملة. اعتبر رانك أن استخدام هذه النظرية كما لو كانت نتاجًا مستقلًا قد يعرّضه لتهمة الانتحال[24]. ومن جديد ربما يثار جدل بشأن أحد تلاميذ فرويد ركز على مكوّن معين من التحليل النفسي، ليبني نسقًا انطلاقًا من إحدى أفكار فرويد.

تناقضت النتائج الإكلينيكية التي انتهى إليها رانك، والتي كانت في جزء منها أساسًا لنظريته في المقام الأول، بشدة مع مقومات التحليل النفسي في ذلك العصر. ولنا أن نتبين بكل سهولة عند فحص مقالات فرويد في زمننا الحاضر لنقرأ فيها رؤى تتعلق بفهمنا المعاصر. في الوقت الذي كان رانك يكتب فيه، كان فرويد يؤكد وبشدة على فاعلية الرؤية العقلية المتبصرة العلاجية.

قبل أن يكتب رانك «صدمة الولادة»، اشترك مع فرينشيزي في تأليف كتاب «تطوّر التحليل النفسي»، وصمّم للخروج على العهد المبكر الأكثر عقلانية لأعمال فرويد. ورغم أن جونز اعتبر هذا الكتاب في خمسينيات القرن العشرين «مشؤومًا»[25]، فإن فكرته العامة أصبحت جزءًا من الوعي اليومي للمحللين النفسيين. أكد رانك وفرينشيزي على أهمية الحفاظ على الحقائق الجارية بالتركيز عليها عبر التحليل، وكانت تلك طريقة لجلب اهتمام أكثر لعلاقة المحلّل بالمريض في العملية العلاجية. عمومًا، امتعض فرويد لميل

المرضى إلى حل المشكلات بدلًا من استحضارها من الذاكرة. وعلى النقيض، أشار رانك وفرينشيزي إلى الاستخدامات العلاجية الممكنة لحل المشكلات كجزء من التحليل الذي ينبغي أن يُفضي بنا إلى أن نعيش الماضي بدلًا من الاكتفاء بتعقله. رغم أن فرينشيزي لازم فرويد لمدة تزيد عن عقد عن رانك، فإن كتابهما خلق حزازيات كثيرة بين فرويد وبين أتباعه الذين اجتباهم لخلافته. وتضمنت مقاربة رانك، مثله مثل المنشقين الآخرين في التحليل النفسي، أن يكون الدعم وليس الرؤية فقط مفيدًا للمريض. تصدّى أوتو رانك كغيره ضد مزيد التساهل في العلاج النفسي وأهدافه. وتتمثل أهم ميزة جوهرية لمفهوم رانك عن صدمة الولادة في «أن الأم تظهر للطفل في علاقة الحب، ويتمثل فيها ما عليه بالفعل حالته الطبيعية، بينما يظهر الأب في علاقة الفضيلة، ويتمثل فيها ما ينبغي أن يكون عليه الطفل»[26].

2 - حزن سابق لأوانه

تفجّرت التوترات التي كانت بين فرويد ورانك عبر التلاميذ الآخرين، خصوصًا جونز وأبراهام. أحب فرويد من كل قلبه أن يحتفظ برانك. ولكن حتى فرويد نفسه صار حبيس الأحداث وأسير عظمته عندما أنشأ حركته التحليل النفسي وروّج لهرطقات أدلر ويونغ. ونرى الآن كيف أن أولئك الذين وجدوا الأعذار لغيرتهم من مكانة رانك، كما يذكرنا بذلك أحد المحللين، «ينهشون في رانك كالكلاب».

حفزت الخصال التي جعلت رانك الأنسب ليكون ابنًا لفرويد بالتبني، وكل ذلك التفضيل الذي حباه فرويد به البقية للتهجّم على رانك. يذكر بعض تلاميذ فرويد أن فرويد كان أكثر اعتدالًا من كثير من أتباعه: «إن تلاميذي أكثر تعصبًا مني»[1]. وهذا يذكرنا بقول فرويد بأن ماركس لم يكن ماركسيًا. ربما أراد فرويد مؤقتًا أن يمنح فرصة لرانك ليطوِّر أفكاره. استفاد فرويد من صراعاته السابقة مع تلاميذه الذكور، وبسبب حبّه لرانك جعل الأمر استثناء.

ربما أراد فرويد الإنسان أن يحافظ على علاقة سلمية مع رانك. ولكن كل أعضاء الحركة، أو على الأقل بعض قادتها، تدخلوا في موقف فرويد الشخصي منه. كان للتحليل النفسي آنذاك حياته الخاصة، ونجح في النهاية في أن يصالح بين فرويد ورانك. ولأن التلاميذ ما كان لهم لينجحوا في معارضة فرويد فقد فعلوا ذلك في ما بينهم. ولقد تقرّب

كل منهم إليه عسى أن يكون ابنه الأثير. فاجأ كتاب رانك عن «صدمة الولادة» الجميع، وتهيّأت الظروف لمعارضة العديد من محتوياته. إلا أنه لم يتبادر لذهن رانك أنه «أنكر» شيئًا من التحليل النفسي. ولكن أكثر ما حزّ في نفسه هو عداوات وأحقاد تلاميذ فرويد الآخرين المكبوتة.

كان كارل أبراهام في برلين أحد أبرز متصيّدي الهرطقات. ومثله مثل جونز فقد كان موقفه من رانك حصيفًا ومتوازنًا. يُفترض أنه خدعته علامات الارتداد العلمي لرانك تلك التي تشبه علامات ارتداد يونغ على مر عقد مضى قبله. ولكن ببساطة لو أخذنا رسائل فرويد لأبراهام على ظاهرها، فإنه يمكننا أن نقدِّم تفسيرًا آخر ألا وهو أن أبراهام قدَّم الوضع بشكل أسوأ بكثير مما هو عليه. وكما كتب إليه فرويد في عام 1924، بشأن نظرية رانك الجديدة قائلًا: «أنا على قناعة أنها ستذهب جفاء كالزبد لا محالة وإن لم ينتقدها أحد بشدّة، ثم أن رانك، الذي كنت أقدّره لمواهبه والخدمات الجليلة التي أسداها لي، عليه أن يستخلص من ذلك عبرة»[2].

دافع فرويد مرارًا عن رانك ضد أبراهام، محاولًا صدّ تهجمه عليه. وقد كان أبراهام حسب رواية جونز، «جريئًا بما فيه الكفاية بما يجعله يرد موقف فرويد المتغيّر ذلك... (بالنسبة إلى أبراهام) إلى استيائه لمّا علم بالحقيقة المؤلمة»[3]. أخبر فرويد رانك بشكوك أبراهام وإثارته للمشاكل مع يونغ، لذا ثمة ما يدعو رانك ليستاء من عدم أمانة صديقه القديم. وأيد فرينشيزي موقف رانك من أبراهام، وتوقفت اللجنة عن عملها لأغراض عملية. وظل فرويد، حتى بعد موت أبراهام عام 1925، حاملًا على البرلينيين المتعصّبين على رانك لمعارضتهم له. «ويقينًا سرّع تشخيص أبراهام السابق لأوانه في وتيرة الأحداث وهيّأ لها الظروف المواتية»[4].

لم يُعلن جونز فقط عن روايته الخاصة عن هذه الأحداث في سيرة فرويد، بل لعب هو نفسه دورًا في إقصاء رانك. لم تكن القلقلات بين جونز وأبراهام ورانك ظاهرة للعلن بالنسبة لبقية أعضاء حركة التحليل النفسي، حتى نشرت أجزاء من مراسلاتهم بعدها بسنوات. ويعترف جونز بأنه كان رجلًا له أفكاره المميزة والحاسمة، ولأنه كان المحرر لمجلة التحليل النفسي العالمية في لندن، فكان لا بد أن تنشأ العداوات بينه وبين رانك بوصفه محرر مجلة زايتشريفت ومدير المطبعة في فيينا. وإن تكن نيّة جونز صافية، فإن روايته لانفصال رانك عن فرويد مقصودة وأحادية.

ورّط جونز نفسه لاحقًا بشكل متنام في الانشغال باهتمامات فرويد حصرًا. زعم جونز قائلًا «لقد خشيت لمدة ثلاث سنوات أن تنقلب عدائية رانك للأخ إلى عدائية أعمق للأب، وأملت ألّا يحدث ذلك في حياة فرويد»[5]. ورغم ذلك كان جونز صادقًا إذ أنه اعترف بأن فرويد كان أحيانًا يلوم كلًا من جونز وأبراهام على ما يحدث لرانك، ورغم ذلك، بعد خسارته الأخيرة لرانك، اعتقد فرويد أنهما ربما كانا على حق وكان فرويد يدافع عن رانك ضد «تشكيكنا العصابي المفترض (تشكيك أبراهام وجونز) وكان كلانا يختلف بالطبع مع وجهة نظر فرويد»[6]. تعكس لنا رسالة لفرويد عام 1924 لهجة لا تخلو من مرارة إذ يعاني من عدم وجود مخرج من الفوضى التي تردى فيها، حيث يقول:

«ببساطة، لم أعد أفهم رانك... لقد عرفته على مدار 15 سنة كرجل شغوف جدًا باهتماماته، ودائمًا ما يكون مستعدًا لإسداء أية خدمة، وهو أهل للثقة الكاملة، وعلى استعداد لأن يأخذ بالاقتراحات الجديدة، كما لو لم يكن يعنيه تطوير أفكاره الخاصة، وكان غالبًا ما يصطف إلى جانبي في أي صراع بدون أي دافع داخلي يضطره لفعل ذلك. فيما أعتقد... أيهما هو رانك حقًا، الذي عرفته لخمس عشرة سنة أو الذي قدّمه جونز في السنوات القلائل الماضية؟»[7].

لمّا وجد فرويد نفسه ممزقًا بين موقفه الوجداني من رانك وبين ضرورة خسارته التي باتت تتأكد يومًا بعد يوم، ارتفعت وتيرة الشجن في قصته الشخصية. تتفق كل الروايات على أن «الانفصال عن رانك... ربما يكون الأصعب [على الإطلاق] على فرويد، فلقد كان مولعًا برانك بشكل مبالغ فيه وكان يثق بشكل كبير جدًا في قدراته... ورأى فيه الخلف الذي سَيطوِّر أفكاره إلى أبعد حد»[8]. رغم أننا قد أشرنا إلى بعض أسباب الخلاف بينهما حول المسائل الفكرية والعلاجية، وقدّمنا صورة عن الطرق التي عمل من خلالها أبراهام وجونز على وجه الخصوص من أجل رأب صدع بدا صعبًا للغاية، فقد زاد حدث آخر ـ وهو إصابة فرويد بسرطان الفك ـ في حدة الخلاف. رغم أن جونز اعترف بأن فرويد اعتقد دائمًا بأن مرضه لعب دورًا رئيسًا في الصراع، فإن هذه الفكرة لم تنتشر بين بقية تلاميذ فرويد[9]. وحينما يقدّم لنا جونز وجهة نظر فرويد من هذه المسألة، فإنه «دائمًا ما يخلص بشكل متأخر إلى أن هذه الأخبار [عن مرضه بالسرطان] كان لها أثر مصيري على رانك الذي كان يعتمد عليه بشكل كامل في حياته، وأن هذا ما حفّز رانك على أن ينتهج مسارًا مستقلًا»[10].

وأيًا كان ما تعلمه رانك من التحليل النفسي آنذاك عن ضرورة تجاوز الابن لأبيه،

فإنه لم يع أنّ لديه ميولًا لمنافسة أو مناهضة فرويد قبل مرضه. أصيب فرويد بالسرطان في نيسان/ أبريل من عام 1933، وهو الشهر الذي ألّف فيه رانك «صدمة الولادة». تعني إمكانية خسارة فرويد بالنسبة لرانك الحرمان المفاجئ لأبيه البديل المثالي. أما بالنسبة لفرويد، فقد مثّل مرضه نقطة تحوّل في حياته: فمنذ ذلك الحين عانى ويلات العذاب بسبب آلامه الجسدية.

رانك الوحيد من بين جميع أعضاء اللجنة يعلم تمامًا بخطورة مرض فرويد. واعتقد حينذاك بأن فرويد لن يعيش[11]. ويزعم جونز أنه، عندما جُلب اسم فرويد ذات عشاء، «انفجر رانك بالضحك بشكل هستيري يعصب التحكم فيه»[12]. ربما تكون ردّة فعل رانك المباشرة لمّا علم بمرض فرويد جنونية، وقد تحجب الغبطة فجأة حدادًا أو حزنًا دفينًا، ومن ثم فلا غرابة أن يوقظ موت فرويد في نفس رانك مشاعره الحميمية الدفينة. ورغم أن رانك كان يعتمد بشكل كامل على الحالات التي كان يُرسلها فرويد إليه، فإنه عانى كثيرًا من فقده من الناحية الإنسانية. تزامن حزنه الشديد لموت فرويد الوشيك مع انفصال طبيعي عن طاقاته العاطفية. ولما كان فرويد ميّتًا لا محالة، فقد كان على رانك أن يُعد نفسه لما ينتظره.

لا شيء من ذلك كان واضحًا في ذهن رانك، كما لم يكن من السهل آنذاك فك خصلة المشاعر المعقدة كما هو الحال الآن بفضل مزايا تطور الفكر، ولكن كان هناك عامل غير متوقع مثير للانتباه آنذاك قياسًا لما عليه الحال الآن. لم يمت فرويد بل تعافى وظل على قيد الحياة بعد إصابته بالسرطان طيلة ست عشرة سنة أخرى. ويشي انفجار رانك الجنوني ذاك بأنه رد فعل أولي على موت فرويد الواقع لا محالة تعبيرًا منه عن رفضه له. تزايد خوف رانك بشأن ما ينتظره بعد موت فرويد، وكما تكشف عن ذلك جميع دروس التحليل النفسي، إنه خوف لا ينفصل عن رغبة. لا بد أن يكون هذا الشعور بالقلق على فقد عرّابه قد امتزج بتحقق جزئي لرغبته في اختفاء فرويد وما قد يتصل بذلك من شعور بالذنب، وليس سهلًا تحمّل مثل هذا الحزن. ولكن في النهاية، وبعدما بدأ رانك يستوعب أن عليه أن يرتّب لحياته كما لو أن فرويد لم يعد موجودًا، استعاد فرويد عافيته فجأة. وكأننا برانك قد عاش تجربة تحمل موت فرويد، ومن ثم كانت استعادته لعافيته بمثابة بعث جديد[13].

اقترن مرض فرويد بتجدد موقفه من رانك. وبعدما أصابه المرض بقليل «وقع على قصاصة من جريدة من شيكاغو أُعلن فيها أنه «في حالة موت بطيء»، وأنه أقلع عن العمل وحوّل تلاميذه لرانك»[14]. تناهى إلى مسمع فرويد أن رانك كان على استعداد لذلك، وبذلك أصبح رانك بالنسبة لفرويد مرشّحًا لذبح أبيه.

يصف فرويد نفسه في أوائل عام 1924 «بعديم الجدوى، ذي القدرات الذهنية المنهكة والمتهالكة»[15]. وبمجرّد أن أصابه السرطان، ذاك الموت الساكن في فكه، أصبح لا يتورّع في أن يعتقد بأن الجميع مغتالوه. سبّبت له صدمته من إصابته بمرض السرطان في موت جزء منه. كان رانك كل شيء في حياة فرويد التي كانت مصدر الإلهام والعطاء والمشاركة، أما الآن فلم يعد ممكنًا لفرويد أن يستمر كذلك. تعطلت المصالحة بين الرجلين بحيث لم يعد حضور رانك في حياة فرويد يعني شيئًا.

تميّزت السنوات ما بين 1923 و1926 بالجزء المستبعد من «هجر» رانك لفرويد. ويقينًا أن رانك تمرّد، وحاد عن مسار فرويد واتخذ لنفسه مساره الخاص به. ولكن غلب على الدوافع والوقائع التي أدت به إلى هجر عالم فرويد الطابع الشخصي، لذا فإن التتابع التاريخي كان مزدحمًا بالانفصالات والمصالحات بينهما.

قبل رانك بعد كثير من التشاحن، الذي كان سببه في جزء منه أبراهام، دعوة لزيارة أميركا لمدة ستة أشهر. وأبحر رانك في نيسان/ أبريل من عام 1924، قبل عيد ميلاده الأربعين بأيام قليلة فقط وقد كان لانفصاله حين سافر دور في هجره عالم فرويد. «ولقد كان من الصعب أن يبالغ في أهمية الانفصال في المكان بالنسبة لأولئك الذين تركهم [رانك] وراء ظهره وكذلك بالنسبة له هو نفسه»[16].

وفي إطار سعيه للتأقلم مع مشاعره المختلطة حيال فرويد، على الأقل في جزء منه، كان خلال السنوات القليلة التالية كثيرًا ما يسافر بين فيينا وباريس ونيويورك. ولمّا وصل إلى نيويورك في ربيع 1924 باشر مهامه هناك. لقد سعى إلى أن ينتظم المحللون النفسيون الأميركيون تحت قيادته، الأمر الذي لم يرُق للشخصيات البارزة المؤسسة هناك. وهنا وجد فرويد نفسه يدافع من جديد عن رانك، فبالنسبة لابن أخ فرويد في أميركا، إدوارد بيرنايس، على سبيل المثال، رانك لا يمكن تحمّله بتاتًا[17].

وكان المحللون النفسيون الأميركيون الذين تركز جميعهم تقريبًا في مدينة نيويورك، في أمسّ الحاجة إلى التدريب فتوافدوا على رانك ليحللهم، لكي يتعلموا بشكل أفضل كيف يتعاملون مع قواعد التحليل في ممارساتهم، فهم يعلمون حق العلم أن رانك هو أكثر مساعد لفرويد موثوق به. تعاطى رانك مع عدد هائل من المرضى لفترة قصيرة بمقابل أعلى بكثير مما يحصل عليه المحللون الأميركيون، وقد استغل الفرصة لنشر أفكاره. ولمّا

كان المحللون الأميركيون يستشيرون رانك في تفسير نظريات فرويد، فإنه لم يكن يتورّع هو نفسه في نقد بعضها.

بذل فرويد قصارى جهده لأن يكسب رانك من جديد. وتروي لنا الرسائل التي كانا يتبادلانها عبر الأطلنطي قصة معاناتهما. أصبحت فكرة رانك عن صدمة الولادة بالنسبة لفرويد طريقة أخرى إضافية للتهرّب من حقيقة عقدة أوديب. يشير فرويد، وهو محق في ذلك تمامًا، إلى سبب تركيز رانك على الأم قائلًا: «يكشف إقصاء الأب في نظريتك بشكل كبير جدًّا، على ما يبدو، عن وقع التأثيرات الشخصية في حياتك.....»[18]. إلا أن رانك واجهه قائلًا «أنت تعرف مثلما أعرف أن اتهامي بأن هناك رؤية مستمدة من العقدة ليس لها قيمة تذكر... و... لا تخبرنا شيئًا عن حقيقة أو قيمة تلك الرؤية»[19]. وهو ما اضطر فرويد إلى أن يكون متفهمًا ومتسامحًا:

> **«افترض أنك كنت أخبرتني يومًا ما أنك لا تستطيع أن تصدق بأن الأساس القبلي والأساس الأبوي لم يكن موجودًا، أو أنك كنت تعتقد أن الفصل بين الأنا والآخر أخرق، فهل تصدق حقًا أني ما كنت لأدعوك للعشاء أو الغداء ثانية أو أقصيك عن حلقتي؟... أؤكد لك أنه ليس هيّنًا عليّ أن أنتهج مسارًا في التفكير لا يتناسب مع طريقتي، أو لم يقدني تفكيري إليه بعد»[20].**

وفي أواخر صيف وبداية خريف 1924، صنف فرويد رانك (من أجل تأكيد تسامحه) كواحد من تابعيه المخلصين، في مقابل أولئك المنشقين المشهورين مثل أدلر ويونغ[21].

اعترف فرويد بأن على رانك أن يتطوّر، وحتى يتسنّى له ذلك يتعيّن عليه أن ينفصل عن بيته الروحي. وفي ذلك كتب فرويد يقول: «لقد سرّني كثيرًا أن ما أقدم عليه من إنجاز أصيل تمامًا في مجال التحليل النفسي حتى أني كنت على استعداد لأن أحكم على ذلك بكل صدق وودية»[22]. غير أن فرويد لم يتخلص بعد من ذكرى الخيانات السابقة. «لقد أخذ رانك باكتشافه، تمامًا مثل أدلر، إلا أنه لو أصبح مستقلًا عن قوة الاكتشاف فلن يلقى المصير ذاته...»[23]. بل إن فرويد ذهب إلى أبعد من ذلك حتى أنه أخبر رانك في رسالة إليه بأن المشكلة تكمن في عصاب رانك وعدم خضوعه للتحليل. «رد رانك في غضب يقول: إنه من خلال ما رأى من المحللين الذين درّبهم فرويد، اعتقد أنه محظوظ إذ لم يخضع للتحليل مطلقًا»[24].

وأيًّا كانت المشاكل بينهما، فإن فرويد ظل يغرس وعلى مدى حوالي عشرين سنة

في رانك حاجة عميقة «لشخص ينبض حيوية يمكنه أن يتمثّل من خلاله نموذج الذات المثالية»[25]. وعاد رانك إلى فيينا في تشرين الأول/ أكتوبر 1924، مثقلًا بالمشاكل من المحللين الأميركيين، وقلقًا شاعرًا بالذنب إذ خيّب أمل فرويد (وليس بوصفه مجرد تلميذ). واضطر رانك لمغادرة جمعية فيينا جراء ما يحدث آنذاك. لقد كان نائب الرئيس، وكان على وشك أن يصبح الرئيس على إثر مرض فرويد، وفي غياب رانك عُيّن فرويد بول فيديرن نائبًا للرئيس، فيما عُيّن رانك سكرتيرًا للجمعية. قرر رانك أن ينتقل إلى الولايات المتحدة ليدرس ويمارس التحليل النفسي لفترة من السنة على الأقل، ولذلك استقال من رئاسة تحرير زايتشريفت، وفي إعلان الاستقالة أشاد فرويد كثيرًا بـ«تفانيه وإخلاصه المنقطع النظير في العمل»[*][26]. تعيَّن على فرويد كذلك أن يجد مديرًا مشرفًا على دار نشره، وكما يشير فرويد بعد عودة رانك إلى فيينا بشهر، «لقد تم صرف النظر عن المهلة المفتوحة، فجميع العلاقات الحميمية معه انتهت...»[28].

غادر رانك مرة أخرى فيينا في أواخر خريف 1924 إلى باريس، ثم عاد لفرويد بعدما استبدّ به القنوط والإحباط آملا في أن يتصالح معه. ومن وجهة نظر فرويد فإن رانك كان قد تعافى من حالة نفسية[29]. وليس واضحًا ما إذا كانت بينهما علاقة علاجية بشكل رسمي آنذاك. ولكن وفي النهاية وبعد قضاء ساعات عديدة مع رانك، كتب فرويد لأبراهام أنه «يثق بأن رانك قد تعافى من عصابه بفضل تجربته تلك، تمامًا كما لو خضع لتحليل نفسي مناسب»[30].

حاول رانك في رسالة عبَّر فيها عن توبته بعث بها إلى أعضاء اللجنة الآخرين، تبرئة نفسه من أية نية سيئة تجاه فرويد أو أي من المحللين النفسيين الآخرين، ويقسم قائلًا:

> **«أعترف أن السبب الحقيقي للأزمة التي خلفتها الصدمة الناتجة عن المرض الخطير الذي أصاب البروفيسور... هوس أصابني... كردة فعل مباشرة عندما علمت بمرضه... عسى أن أتخلص من ألم فقده... وبطبيعة الحال يعلم البروفيسور القصة بكل تفاصيلها، وآمل أن يكون ذلك كافيًا بالنسبة إليكم أيضًا»[31].**

تم التصالح مع فرويد في الظاهر، وعاد رانك إلى أميركا في كانون الثاني/ يناير 1925.

(*) ورغم ذلك، فقد كتب فرويد بشأن تلك الفترة إلى لو أندرياس-سالومي في رسالة خاصة يُخبرها أن رانك «شعر بأن حيويته بات يهددها مرضي وما قد ترتب عنه من مخاطر، باحثًا فيما حوله عن ملاذ آمن يلجأ إليه، فخطرت له فكرة الذهاب إلى أميركا عسى أن ينجح هناك. إنه حقًا وضع أشبه بوضع فأر يقفز من سفينة غارقة»[27].

لكن ما أن بدأ تقاربهما ينتقض حتى استمر كل منهما يطوّر نفسه في استقلال عن الآخر. وقبل نهاية شباط/ فبراير، عاد رانك إلى فيينا، ومكث فيها حتى أيلول/ سبتمبر. ثم غادرها مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، ليعود إلى فيينا في ربيع 1926. وفي نيسان/ أبريل، وقبل الاحتفال بعيد ميلاد فرويد السبعين بثلاثة أسابيع، قدّم له رانك آخر تشكراته، ثم غادر للأبد إلى باريس. وفي العام نفسه أبلغ رانك جمعية فيينا أنه «سيستقر نهائيًا» في باريس. وفي عام 1929 استقال بهدوء دون أن يحمل محللين آخرين على الانشقاق معه خلافًا لأدلر ويونغ.

في أثناء هذه الفترة من التوتر، كانت لدى رانك مبررات قوية ليشتكي من تلاميذ فرويد الآخرين فقد كانوا «صاخبين مزعجين... لهم غيرة طفولية». برّر تمامًا اعتباره بأن «برلين التي تدبّر وتُحيك... غير جديرة بحركة علمية...»[32]. ورغم ذلك توسطت هيلين دويتش لدى فرويد من أجل تفعيل تلك المصالحة أثناء وجود رانك في أميركا، كانت صديقته وزميلته الوحيدة على الأقل من بين أصدقائه وزملائه الآخرين في جمعية فيينا التي أقدمت على ذلك.

أقدمت هيلين على ذلك لأجل فرويد ولأجل رانك أيضًا، ذلك أن فرويد أصيب في كبريائه بشكل كبير. شرحت هيلين لفرويد أن قرب رانك الشديد منه وشدّة وطأته على الفتى وهو ما يفترض التحلي بالصبر والتفاهم. وذكرته بتعلق رانك به، وما عاناه من دنو منيّة فرويد المرتقبة. إلا أن فرويد رمى عرض الحائط مسعاها ذاك مستشهدًا بالجملة الأخيرة من قصة يهودية تقول «إذنِ لماذا لا يقبّل الموقد الساخن!». ولتوضيح ما يعنيه، استحضر فرويد نوادر معلم يهودي، قائلًا: «كان للحاخام زوجة شابة جميلة وكان يعيش معه في منزله تلاميذ كثيرون. وذات يوم عاد الحاخام لمنزله فوجد تلميذه الأثير يقبّل زوجته. فاتهم الحاخام زوجته بخيانته فدافعت عن نفسها بحجة أن التلميذ مريض ولا يعي ماذا يفعل. فرد المعلم: «إذن لماذا لا يقبّل الموقد الساخن!»[33].

غضب فرويد، ليس فقط من توسط هيلين دويتش، ولكن من رانك أيضًا، ولما كانت توقعات فرويد هي التي ألهمت رانك، فإن فرويد شعر وكأن رانك خانه. لقد كان وقته ثمينًا وكان يتنقل من مكان لآخر. ورغم أن فرويد أقر بأن ذلك قد يكون متعلقًا بحزنه السابق لأوانه، إلا أنه اعتقد أيضًا بأن المسألة لها علاقة بالمال ولا يحتاج ذلك إلى عناء كثير لإثباته ولا حاجة كذلك، في تقدير فرويد، لمزيد من التعمّق أكثر، ورغم ذلك أبلى رانك في أميركا بلاءً حسنًا بفضل نظرياته[34].

3 - الإرادة والفنّان

كان موضوع المال جديدًا في حياة رانك. إذ عاش في فيينا في أكثر الظروف المادية تواضعًا، إلا أن الأميركيين كانوا يرحّبون بالمحللين النفسيين الوافدين من أوروبا الوسطى بحفاوة باعتبار شهرتهم. ولم يكن الأميركيون مجرّد أثرياء شغوفين بالعلاج فقط، بل كان رانك مرحَبًا به أيضًا لأنه يقدّم تحليلات مختصرة مقارنة مع غيره حتى إنهم كانوا مستعدين للدفع أكثر لقاء جلسة واحدة (رغم أنه على المدى البعيد ربما أصبحت طريقة جمع المال، بجهد أقل من جانب المعالج، متعلقة بتحليلات تستغرق مدة أطول). وقبل أن ينتقل آل رانك إلى باريس كانا يعيشان في مسكن مترف إلى حد الإسراف، به كبير خدم وطباخ وخادمة تهتم بترتيب الغرف. ورغم أنه لم يرَ فرويد ثانية، وأنه لم يكن ممكنًا التراجع عن تلك المهلة، على ما يبدو، فإن رانك لم يستقل رسميًّا من جمعية فيينا إلا بعد مدة استغرقت سنوات كثيرة. كان من الأفضل لرانك كمحلل في باريس ونيويورك أن يحتفظ بعضويته ضمن جماعة فرويد حتى بعد انقطاع علاقتهما الشخصية.

يعرض جونز للشأن المالي بطريقة غير مباشرة: «كانِ رانك حريصًا على الجوانب العملية، وكان سينجح لا محالة لو دخل عالم المال، وقد أُشيع أنه استغل قدرته هذه بأثر جيّد في سنواته الأخيرة في باريس»[1]. حتى فرويد الذي كان يكبر في رانك «أمانته منقطعة النظير»، أصبح ينعته بأبشع الصفات، من قبيل «محتال» و«دجّال»، «إنه أكثر تلاميذي موهبة، لكنه أنذلهم»[2].

> **«يبدو الآن وكأن لديه منذ البداية نيّة في أن يكون له نهجه الخاص اعتمادًا على إجراءات براءة الاختراع... وهو يبدو لي الآن أشبه بالموظف في رواية فيكتور هيغو، عمّال البحر، الذي نال ثقة هائلة على مدى سنوات من الاستقامة ليختلس في النهاية مبلغًا من المال»[3].**

اقتفى رانك أثر يونغ حيث أصبح الانشقاق شغله الشاغل وهو في أميركا التي لطالما أساءت إلى فرويد بسبب مزاعم تفوقها الرقمي، وإيمانها بالحسابات والإحصاءات، وعبادتها للثروة المتهورة.

لا بد أن شعور فرويد بالمرارة كان الأشد آنذاك لأن رانك بدا من خلال نظريته عن صدمة الولادة، وكأنه يسخر منه بمعنى ما. ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح المرضى يتوافدون من أميركا على فيينا، وبطبيعة الحال كان فرويد المحلل النفسي

الرئيس والصيدلي المستفيد من ثروات العالم الجديد. كان يجلس مضطجعًا على أريكته منتظرًا توافد الأميركيين عليه لزيارته. أسدى إليه رانك معروفًا بسفره إلى أميركا، استجابة للدعوات لإلقاء المحاضرات وبحثًا عن المرضى، كتب فرويد إلى رانك في أيار/ مايو 1924 «سرّني كثيرًا أنك وجدت الطريقة العقلانية الوحيدة للتأقلم مع العيش بين هؤلاء الرعاع: أن تبيعهم حياة رجل الشخصية بأغلى ثمن ممكن»[4]. نجح رانك في استقطاب المرضى الأميركيين المتجهين إلى فيينا حين انتقل إلى باريس. ومثلما كان الأمر في البداية عندما سافر رانك إلى أميركا كان لا يزال يُعتبر أكثر تلاميذ فرويد إخلاصًا ووفاءً. وحتى بعدما استقر به المقام في باريس استغرق اكتشاف خصومته مع فرويد بعض الوقت.

لم يكن لتولا زوجة رانك أيّ دور في أيّ من الروايات المعلنة عن تردي العلاقة بين فرويد وزوجها. ومن المعروف أن علاقة تولا وأتو رانك لم تكن على ما يرام، ولم تكن تصاحبه دائمًا في سفره لأميركا. وفي عام 1935 ظلت في باريس في حين سافر هو ليقيم بشكل دائم في الولايات المتحدة الأميركية. وقبل وفاته في 1939 بقليل تطلقا، وتزوج أخرى. ولما دعتها هيلين دويتش إلى بوسطن في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، كانت تولا من بين آخر من تأهّل للتحليل النفسي من غير الأطباء في أميركا.

ألقى فرويد بعض اللوم على تولا، رغم أنها قد لا تكون على بيّنة بما حدث بينه وبين زوجها. «إنها تتحمَّل مسؤولية حاجته المتزايدة للمال وللحظوة»[5]. كما اعتقدت آنا فرويد كذلك أن تولا تتحمّل مسؤولية ذلك، رغم أنها اعترفت لاحقًا بأنها كانت الضحية[6]. وفي أسوأ الاحتمالات لا أحد غيرها، فيما يبدو، يمكنه أن يتدخّل بين فرويد ورانك. نذرت تولا نفسها لفرويد، وبوصفها زوجة لأوتو، لم تكن تلعب دورًا محايدًا بين المقرّبين المحيطين بفرويد. لم تقدّم تولا آنذاك نظريات أو تقنيات جديدة للتحليل النفسي. حضرت سمينارًا لآنا فرويد عن التحليل النفسي للطفل في فيينا، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1925 كانت تقرض مطبعة التحليل النفسي المال[7].

«أصاب» تصدّع العلاقة بين فرويد ورانك تولا «بصدمة شديدة»[8]. لم تكن تفهم قط حقيقة الاختلافات النظرية والإكلينيكية بينهما، ووجدت صعوبة في التعامل مع الانشطارات المؤلمة بداخلها نتيجة هذا الخلاف. ولما بلغت تلك الخلافات ذروتها عبّر لها فرويد عن امتعاضه من نكران أوتو للجميل. انتقلت مع زوجها إلى باريس 1926م على ما بينهما من نفور. ولم يكن واضحًا حتى ذلك الوقت أنها ستنتصر في النهاية لـ«الأب»

على حساب الزوج، ولكنها مع ذلك حافظت على علاقاتها بفرويد. وعلى عكس زوجها فهي لم تستقل البتة من جمعية فيينا. كانت تعود في كل عام إلى فيينا للقاء فرويد وأصدقائها الشخصيين الحميمين. سألها فرويد ذات مرة سؤالًا شخصيًّا وقحًا عن أوتو، فدافعت عن نفسها بلباقة: «لماذا تسألني هذا السؤال، أنت تعرف كيف أفكر وأشعر، لماذا تصعّب عليّ الأمر؟»، وذكرت بأن لها طفلة صغيرة، آثرت أن تظل مخلصة لرفقتها في ظل الزواج[9].

تنقل لنا تولا في ما بعد أنها طالما كانت تذكر رانك بما فعله فرويد من أجله وكيف تأذّى فرويد لهجره له. إلا أنها لم تتحدّث مع زوجها عن المشكلة مع البروفيسور فرويد أو عن المرارة إلا قليلًا. كانت تولا كما كان رانك متكتمين ومتحفظين في ما بينهما. لم تستطع أن تنتصر لفرويد بشكل مباشر وهي لا تزال تعيش مع رانك. إلا أنها، في نهاية المطاف، أعلنت صراحة تبعيتها لفرويد عندما فضلت عملها كمحللة نفسية وعندما أوشكت على الطلاق من رانك.

انصدم البعض بإخلاص تولا لفرويد في مواجهة زوجها واعتبروها انتهازية. ولم تظهر ميول فرويد العاطفية نحو تولا إلا بعد زواجها برانك. كانت لها مواهبها السيكولوجية الخاصة بها. كانت امرأة ذات حدس وخيال واسع من النوع الذي يعزه فرويد، ولكن ذلك لم يكن يعني بالنسبة لفرويد أكثر من كونها زوجة رانك.

قد يكون تعلق تولا الشديد بفرويد، والذي صمد أمام صراع رانك من أجل استقلاليته، هو ما عزز مساعي رانك منذ البداية ليتحرر من فرويد. ولما كان فرويد من النوع الذي كانت زوجته تسعى إليه وتتودد، فإن رانك سعى إلى التشبّه به أكثر فأكثر. بالإضافة إلى ذلك، كانت تولا مسرفة في تبذير المال. لم يكن المال في ذاته هو المهم بالنسبة لها ـ فهي لم تسعَ إليه ـ وإنما كانت تنفقه بإسراف.

أسس رانك في باريس حركة من أجل مفهومه الجديد ومن أجل زوجته، وشملت حلقتهم هنري ميلر وأناييس نين والأثرياء من المرضى الأميركيين. أصبحت تولا عرّابة الفنانين وما كان رانك يكسب ما يكفي لسداد نفقاتهم المسرفة أبدًا. فكتب في 1931 «أشعر أني مُجبر تحت ضغط تزايد النفقات المالية للذهاب إلى أميركا لأني لا أستطيع أن أعيش في أي مكان آخر»[10]، وذلك ما يشهد عليه أصدقاؤه المقرّبون، فقد جاء في شهادة أحدهم أن «رانك تحدث عن يأسه. فلم يعد قادرًا على كسب قوت يومه في فرنسا. وقد

يكون اضطر لأن يقبل عرضًا من أميركا دون أن تكون له رغبة في الذهاب... ضغط الواقع رهيب، زوجته وابنته ومستقبله»[11].

في باريس، كانت تولا تقاوم تشجيع رانك لها لأن تلحق به في أميركا حيث كان يساعد على إنشاء مدرسة للعمل الاجتماعي في جامعة بنسلفانيا. ولم يستطع أوتو أن يكتم حزنه بشأن ما آلت إليه علاقتهما. بدأت تولا بتحليل الأطفال نفسيًّا في باريس بعدما كانت حتى أواخر عام 1934 تهتم بشكل أساسي بشؤون المنزل. مارست التحليل النفسي أيضًا مع ميرا أوبرهولتسر، إحدى مريضات فرويد القديمات. ورغم ذلك، بمجرد أن استقر بها المقام في بوسطن 1939، بدأت تدريجيًّا بإجراء تحليلات خاصة بها. لم يكن غريبًا آنذاك أن تقبل أرامل المحللين كمحللات هن أيضًا. برزت تولا في نهجها، كمتخصصة في الإشراف على تحليل الأطفال وفي تدريب محللي المستقبل. كانت رائدة في علاج الأطفال «غير النمطيين» في مركز جيمس جاكسون بوتنام للأطفال. ونجحت في أميركا نجاحًا باهرًا، مقارنة مع افتقادها لمكانة رسمية في أوروبا، بعد فشل زواجها، ووافتها المنية في 1967.

بينما استمرت تولا في مجال التحليل النفسي، كافح رانك ليتحرّر من تأثير فرويد. وبعد مغادرته فيينا في 1926 مباشرة، أرسل رانك لفرويد بنسخة أنيقة وفاخرة من أعمال نيتشه كهدية في عيد ميلاده السبعين؛ وعرضها فرويد على تلاميذه عندما اجتمعوا للاحتفال بالمناسبة. ورغم ذلك أزعجت الهدية المترفة فرويد. لام رانك على «الطبعة المسرفة، ذات التجليد المكلف» للأعمال الكاملة لفرويد[12]. تعمّد فرويد تكرار تعليقه حول الإنفاق المالي المسرف على هدية رانك إليه بمناسبة عيد ميلاده. إن اختيار رانك لأعمال نيتشه تحديدًا كهدية عيد ميلاد لم يكن بريئًا. فالهدية في ظاهرها إخلاص وتواضع، ولكنها تعني أيضًا أن رانك أراد من ورائها أن يؤكد أنه سيكون خليفة فرويد المنتظر. وكأن لسان حاله يقول من خلال هذه الهدية: «إن كنت تتهمني بأني قد أخذت أفكاري عنك فلتنظر في كتب نيتشه فيما أخذت عنه»[13].

إن عملية الانفصال عن المعلم الذي لطالما كان ذاتًا مثالية، عن شخص أصبح مكوّنًا مستبطنًا من مكونات ذات المرء، مؤلمة ومملّة ومؤذية. وقد كان الافتتان الهائل بأعمال فرويد يُعبّر عن تمزّق بين قبولها كليًّا أو رفضها تمامًا. وعرف رانك مثل هذا التمزق في صراعه ليتحرر من فرويد.

من بين الطرق التي استخدمها رانك للانفصال عن فرويد هو أن يتماهى مع معلمه المفقود، أي أن يصبح هو نفسه معلّمًا له تلاميذ ينفذون أعماله. لما التقى رانك أناييس نين الفنانة والكاتبة في باريس، وكان أدب رانك طنانًا مستغلقًا على الفهم، طلب منها أن تعيد صياغة كتبه عبر تكثيفها وتوضيحها. وقد حللها، ثم بعد ذلك هي نفسها مارست التحليل النفسي، وعملت كسكرتيرة خاصة له.

كانت مذكّراتها أبلغ تعبير عن شخصية رانك الزاهدة. فهو لا يؤمن إلا بالأفكار: «إنه فيلسوف وليس فنانًا. إنه شاعر العشق، إنه عاشق. الفيلسوف يعلق... رانك يسعى مباشرة إلى استخلاص المعنى أو الجوهر... يتّخذ حياته موضوعًا لتفكيره. وقد تكون حياته الحقيقية في تحليلها». وناقضت رانك مع صديقهما هنري ميلر قائلة:

«تنقص (رانك) التجربة في الحياة. ولا فائدة ترجى منه. فهو لا يبالي بتفاصيل الحياة التي كان افتتن بها هنري جدًّا. الوجه الكوميدي لشخص مار، لون منزل، نكهة أشياء صغيرة. الحياة الحسية والمرئية. إنه لا يبالي بالمظهر، واللون، والتفاصيل. لقد نذر حياته للمجردات».

وحسب تولا، كان رانك، «قاتمًا وثقيل الظل. ويفتقد لبهجة الحياة. ولا ملذات له سوى ملذات العقل». ولقد كان في تقديرها «الشخص الميتافيزيقي الوحيد في مجال التحليل النفسي»[14].

تنامت أصالة مسار رانك في باريس. أوصى بتحليلات قصيرة المدى مع تحديد المهل الزمنية مسبقًا، بينما كان فرويد كلما تقدّم وصار أكثر خبرة (وأيضًا أكثر مرضًا)، نصح بعلاجات مطوّلة أكثر. أصبح رانك عدائيًا تجاه ما كان يعتبره تجفيف العلاج الفرويدي من منابعه العلمية، وقد يكون ذلك نابعًا، بدون شك، من نقده الذاتي، وفي ذلك يقول:

«لقد أصبح التحليل النفسي أكبر عدو للروح. فقد قتل ما كان عليه أن يحلله. وأعتقد أن التحليل النفسي مع فرويد وتلاميذه صار بابويًا ودغمائيًا إلى أبعد حد. ذلك هو سبب إقصائي عن جماعة فرويد الأولى. لقد أصبحت مهتمًا بالفنان وبالأدب وبسحر اللغة. لقد بت أضيق ذرعًا باللغة الطبّية العقيمة»[15].

وكما تعلمت أناييس نين من رانك أنه: «من يضل في متاهة المشاعر، يضل أيضًا في متاهة التحليل النفسي... فالموضوعية يمكن أن تفشل مثلها في ذلك مثل الغرائز تمامًا ومثل تضليل الذات»[16]. تستشهد بقول رانك:

«يكمن نصف فعالية التحليل النفسي في رغبة المحلل في أن يعالج المريض ويساعده، ولدى كل محلِّل تلك الرغبة في البداية إلا أنه يفقدها تدريجيًا ولو أصبح التحليل النفسي ميكانيكيًا، فسيعاني... لقد بدأ فرويد يحلّلني. وكان يؤمن بأن كل محلّل ينبغي أن يحلّل نفسه. ولكننا توقفنا عن التحليل. فلم يكن موضوعيًا أو على الأقل، شعرت أنه لم يكن كذلك. ولقد منعني الإفراط في الحكمة من أن أكون على طبيعتي»[17].

لم يعتبر رانك العصاب مرضًا وإنما عمل فني فاشل، وعليه فإن العصابي يجب أن يُعامل «كفنان فاشل»[18]. ويكمن مفتاح الحل بشكل كامل في سيكولوجية الإبداع. أصبح رانك، مثله مثل العديد من الكتّاب ما بعد الفرويديين المتأخرين، مقتنعًا بأن الصيغ التحليلية النفسية الأقدم حطّت من دور الأنا الفردي في مواجهة الحياة الغريزية، بينما تمثلت القدرة على تكامل الصراعات بشكل خلاق في الفارق الأساس بين النجاح والفشل العاطفي. «ويخلص رانك إلى أن مشكلة المريض تتعلق في الحقيقة بمدى قدرته على تعزيز إرادته... وكان رانك في حدود عام 1925 يدافع عن شكل من العلاج أكثر فاعلية صُمِّم لتشجيع المريض على تأكيد ذاته وفرديته»[19]. فبدلًا من أن يشكك المعالج في «المقاومات»، ينبغي أن تكون مهمته مساعدة المريض لتأكيد إرادته (أي قدراته الخلاقة)، مهما تكن ذنوبه أو مخاوفه، ومهما تكن وحدته أو استقلاليته.

اعترض رانك على ما كان يعتبره العقلانية المفرطة لتوجه فرويد حيث يهدف إلى استبعاد الأوهام والإفصاح عن «الحقيقة»:

«لقد أثبت العلم أنه فشل فشلًا تامًا في مجال علم النفس... ويكمن الخطأ في التمجيد العلمي للوعي وللمعرفة العقلية، وكان التحليل النفسي يقدسهما إلى حد التأليه رغم أنه يدعو نفسه علم نفس اللاوعي... إن الفهم العقلي شيء والعمل الفعلي على مشكلاتنا الشعورية العاطفية شيء آخر...»[20].

يعتبر فرويد أن إعادة بناء ماضي المريض مهمّة العلاج النفسي والبحث العلمي على حد سواء، ومال إلى أن يجعل الفهم العقلي اختبارًا للصحة، معتبرًا كل ما ليس عقلي عصاب. وحسب أناييس نين كان رانك معارضًا لتركيز التحليل النفسي على «التشابه بين الناس؛ بينما ركزتُ على التباين بينهم»، «لم يكن رانك يمارس جراحة عقلية. بل كان يعتمد على حدسه، ونيته في اكتشاف امرأة (داخلها) لا يعرفها أيّ منّا»[21]. تاق رانك إلى أن يتخلى

عن وصية فرويد عبر التغلب على الذات «أرغب في التقاعد وأن أعيش ما تبقى من حياتي بسلام. لقد حصلت من العالم على «ما يكفيني»، ولدي عوالم وعوالم في أعماق ذاتي»[22]. مشكلة التحليل النفسي أنه لا «يعترف بالطبيعة البشرية»[23]. تعتقد أناييس نين أن رانك لم يتخلَ عن وجهة نظر فرويد تمامًا:

«أشعر أحيانًا أن رانك يركز كثيرًا على ما ينبغي أن يكون عما هو كائن، إنه لا يعترف البتة بالتجربة كبديل للحكمة. وأحيانًا أشعر أن تسريع وتيرة الحكمة طريقًا مختصرًا خطيرًا. إنها تستبعد الخوف والألم. أعتقد أنه لا ينبغي استخدامها إلا في الحالات القصوى»[24].

ومع ذلك يظل رانك تلميذ فرويد رغمًا عنه، فمن ناحية فرويد هو من صنعه، واجتهد هو ليصنع آخرين:

«إن أولئك الذين أنقذهم رانك صاروا من صنعه. وقد كان مضطرًا لأن يحافظ على صورة المنقذ الحكيم المثالي الذي ليس من حقه أن يكون إنسانًا، ولا حتى أن يحبهم. إن حياة المحلل النفسي مأساوية. فالطبيب في الريف والطبيب في المشفى، يمكنه أن يكون إنسانًا، ويمكنه أن يُخطئ. بينما المحلل النفسي لا يمكنه أن يكون في ذهن مريضه إلا واحدًا من مكونات مأساته»[25].

من وجهة نظرها، كان «دغمائيًا في ما يتعلق بالحياة» إلى حد كبير جدًا. اعتبر أن «التحليل والعلاج النفسيين فصلاه عن الحياة أكثر من تلبية حاجاته الشخصية. لقد خلق التحليل النفسي ارتباطات وهميّة»[26]. وفيما تتطلب الحياة توافقًا وحدودًا، كان رانك في مجال الإبداع أوتوقراطيًا ومتسلطًا.

لم يتعمّد جونز حجب النسيج المميز لحياة رانك مقارنة مع يونغ فقط، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك ليتّهم رانك بالذهان. كان رانك «يعاني من دورية المزاج (أعني ذهانًا هوسيًا اكتئابيًا)»[27]. تحدّث كتّاب آخرون، يؤيدون رواية جونز، عن «تحوُّل أوتو رانك البطيء إلى الجنون»[28]. وبات واضحًا أن فرويد هو أول من وضع وبشكل خاص تشخيص الهوس-الاكتئابي انطلاقًا من حالة هذا التلميذ الذي أعجزه (رغم أنه كان عصابيًا أكثر منه ذهانيًا). ففي 1934، على سبيل المثال، علّق فرويد شفويًا على رانك قائلًا إنه «كان سكرتيري لخمس عشرة سنة، وكان مرتبطًا بي ارتباطًا وثيقًا كان عمله قيّمًا جدًا حيث مارس التحليل النفسي كما ينبغي أن يكون. ثم سلك طريقًا آخر ومنذ

ذلك الحين انقطعت علاقتنا. ولا أستطيع أن أخوض في السبب الكامن وراء ذلك لأنه ليس لي الحق في أن أكشف عن حياته الخاصة، ولكن أستطيع أن أقول شيئًا واحدًا، لأنه صار معروفًا عمومًا ألا وهو: منذ أن هجرني رانك، عرف أطوارًا من الاكتئاب، وفي ما بين النوبة والنوبة، أطوارًا من الهوس-نوبات يُنجز فيها أعمالًا كثيرة، وأخرى لا يستطيع خلالها أن يقوم بأي شيء على الإطلاق. وذلك دأبه في ما مضى، أما الآن فيمكن أن نعتبره مريضًا»[29].

ولكن، كما لاحظ مؤخرًا طبيب نفسي: «من المهم أن نميّز بوضوح بين المرض وبنية الشخصية. يكون لدى الشخص هوس اكتئابي سيكولوجيًا-باثولوجيًا دون أن يكون مريضًا أو أن يكون لديه أي نوع من الانهيار إكلينيكيًا»[30].

لمّح جونز إلى أن رانك عرف تغيّرات «مذهلة» و«ملحوظة»[31] (كثيرًا ما استخدم جونز مثل هذه الصفات التي تحبس الأنفاس مثل «مذهل»، «خارق للعادة»، «راديكالي» (وغالبًا ما يأتي هذا التلميح البريطاني المشهور في صيغة المبالغة). إلا أن أيًا من الأشخاص القريبين من رانك - عائلته وأصدقاؤه ومرضاه - لم يلاحظ عليه أي علامة من علامات «الانهيار العقلي»[32] التي حاول جونز أن يوثقها بشأنه. كان لرانك نصيبه من المشاكل الإنسانية، ولكنه ظل صلبًا إذ استطاع دائمًا أن يُسيّطر على نوبات اكتئابه.

شعر رانك بالمرارة التي شعر بها فرويد، رغم أن ما وثّقه جونز في كتبه في هذا الشأن أكثر بكثير مما كان بين الرجلين. امتعض رانك كثيرًا من معاملة زملائه السابقين في التحليل النفسي. وبحسب صديقه القديم هانز ساكس (لقد كان كل طرف يعتقد أن الطرف الآخر قاطعه بعد الخلاف بين رانك وفرويد) فإن فرويد فصل القول في أمر رانك: «بشكل حاسم: (ها أنا ذا أتواصل معه بعد أن غفرت له كل شيء)»[33]. غالبًا ما أكد فرويد في كتاباته على مدى صعوبة أن ينسحب شخص ما من وجدانك، ومثل بقية الأفكار في التحليل النفسي، هذا ما حدث مع فرويد في الواقع.

قاد رفض فرويد لبلورة رانك لصدمة الولادة، أصل كل هذا القلق، إلى إعادة الاعتبار إلى مكانته الشخصية، وقد كان كتاب الموانع والأعراض والقلق 1926 نتاجًا لذلك.

ورغم أن فرويد كان يعتبر إنشاءات رانك صعبة المنال ولا يمكن التحقق من مدى صحتها، فقد كتب «ليس عدلًا أن نساوي بين محاولته ومحاولة أدلر...»[34]. ومع هذا،

مثله في ذلك مثل أدلر ويونغ، رفض رانك تشديد فرويد على ماضي الطفولة، وأكد بدل ذلك على التجارب الحياتية الحاضرة للمريض في إطار الوضع التحليلي نفسه. لقد كان رانك يطوّر نظرية وتقنية سيكولوجيتين تتعارضان صراحة مع نظريات وتقنيات فرويد. لم يكن فرويد قبل عام 1932 يشكك تمامًا في نظرية رانك فقط، وإنما اعتبره أيضًا يسير على خطى أشهر اثنين ممن انشقا عنه. لم يتوقف فرويد عن نقد أدلر ويونغ حتى أنه انتقص آنذاك من قيمة العملية التي قد يصل بواسطتها «شخص آخر»:

«إلى وجهة النظر التي تقول بأن تجربة القلق عند الولادة هي أصل كل الاضطرابات العصابية اللاحقة. وعليه يبدو التحليل النفسي بالنسبة إليه اقتصر على نتائج هذا الانطباع المفرد والوعد بنجاح التحليل النفسي خلال مدة علاج من ثلاثة إلى أربعة أشهر»[35].

في عام 1937، قبل وفاتهما بعامين، لم يوفّق فرويد في تصريح بشأن موقفه من صديقه القديم جاء فيه:

«لقد كانت محاولة رانك للتقصير من مدة العلاج جريئة وفذة، ولكنها لم تصمد أمام الانتقادات الدقيقة. وعلاوة على ذلك، فقد كان ابن عصره، تحمّل ضغط التناقض بين بؤس أوروبا ما بعد الحرب العالمية و«رخاء» أميركا، واستطاع أن يضبط إيقاع العلاج التحليلي النفسي على سرعة إيقاع الحياة الأميركية. إننا لم نسمع كثيرًا عن أثر تنفيذ خطة رانك على حالات المرض. ربما لا يزيد دور تلك الخطة عن دور فرقة مطافئ استدعيت لإطفاء حريق شب بمنزل بسبب مصباح زيتي انقلب على عاقبه، فاكتفوا بسحب المصباح من الغرفة التي اندلع منها الحريق. ولا شك أن طريقة كهذه تكشف عن قصور ملحوظ في أداء تلك الفرقة لضعف في وسائلها. والآن تعد نظريته كما تطبيقاته في تجربة رانك من الماضي شأنهما في ذلك شأن «الرخاء» الأميركي ذاته»[36].

ظل فرويد لسنوات يطلب من رانك أن يطبق النظريات التحليلية النفسية على أسطورة أوليس ـ سعي الأب للابن، وسعي الابن للأب. ولما يأس فرويد من إقناع تلاميذه بتفسير الأسطورة، التزم فرويد نفسه في ثلاثينيات القرن العشرين بالاشتغال على أسطورة من خلال أسطورة موسى. وعند بداية مناقشته، توقف فرويد ليذكر أن «رانك نشر في عام 1909، وكان آنذاك لا يزال تحت نفوذي وباقتراح مني، كتابًا يحمل عنوان أسطورة ولادة البطل» (وقد عقب على تعليقه هذا في هامش يقول فيه: «لم تكن لديّ نية انتقاص

قيمة إسهامات رانك المستقلة»)[37]. يذكر فرويد في أسطورة «موسى والتوحيد» المثال الإكلينيكي عن شاب نشأ إلى جانب أب تافه، (الذي) بدأ يطوّر نفسه، في تحدٍ له، إلى شخص قادر وأهل للثقة وشريف. وانقلبت حياته في ربيع عمره، ومنذ ذلك الحين صار يتصرّف كما لو أنه اتخذ من هذا الأب ذاته نموذجًا له. وفي بداية سيرورة أحداث كهذه، دائمًا ما يكون هناك تماهٍ مع الأب في بدايات مرحلة الطفولة. وهو ما سيتبرّأ منه في ما بعد، وسيسرف في التعويض عن ذلك، ولكن في نهاية المطاف يقوم بذاته مرة أخرى»[38].

رأى ساكس في هذه الفقرة صديقه القديم رانك الذي وجد، حسب تبرير فرويد، تعويضًا مثاليًا عن أب لا يصلح لأي شيء، ولكنه انكفأ في ما بعد ليتماهى مع ذلك الأب التافه. وفي رحلة للقاء فرويد، قبل أن يتوفى بقليل، أكد ساكس أن فرويد كان يقصد هاهنا رانك فعلًا[39].

بعدما توفي فرويد بشهر فقط، عن عمر يناهز الثالثة والثمانين، مات رانك فجأة في تشرين الأول/ أكتوبر من ذات العام 1939، في منتصف الخمسينيات من عمره، وبعد شهرين من زيجته الثانية بستيلا بول، سكرتيرته الأميركية. وبينما ظل فرويد يُعاني من سرطانه ستة عشر عامًا حتى وافته المنية، لم يبقَ رانك بعد إصابته بتعفن فيروسي في الحلق إلا بضعة أيام نتيجة حساسية لعقار كبريتي. صُعقت أنابيس نين لفقد رجل ما فتئت تذكر حيويته الفائقة. كان لوفاته أثر بالغ في نفسها، وعبّرت عن حسرتها لموته:

«لقد كان على وشك تحقيق رغبته في الإقامة في كاليفورنيا. حيث تمتلك زوجته مزرعة هناك. لقد لبّت حاجته للمساعدة، وترجمت كتاباته، وكانت تعاونه. لقد كان سعيدًا وأوشك أن يتخلى عن العلاج النفسي الفردي. لقد فرغ من تأليف كتاب جديد».

أحسّت أنابيس بعد فقده بالفراغ، وفي ذلك تقول:

«سيذكر التاريخ هذا الرجل بسبب حيويته المنقطعة النظير وعينيه الناعمتين والثاقبتين وحب إطلاعه واهتمامه وغزارة أفكاره وخصوبته. ورغم أحزانه واكتئاباته العميقة وخيبات أمله وإحباطاته، إلا أنه لم يكن لدودًا ولا عيَّابًا قط. ولم يفقد إيمانه، ولا إحساسه بالتواصل، ولم يكن صعب المراس ولا قاسي القلب قط»[40].

الهوامش

1 ـ صدمة الولادة

(1) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, p. xii.

(2) Jack Jones, «Otto Rank: A Forgotten Heresy», Commentary, Vol. 30, No. 3 (Sept. 1960), p. 219.

(3) Ibid.

(4) «On the History», p. 25.

(5) The Diary of Anaïs Nin, Vol. I, ed. Gunther Stuhlmann (New York: Harcourt, Brace & World; 1966), p. 279.

(6) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 160.

(7) «The Theme of Three Caskets», p. 292.

(8) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», p. 135; «Mourning and Melancholia», p. 249. Cf. also «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 160.

(9) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 160. Cf. also ibid., p. 155.

(10) Cf., for example, Felix Deutsch, «Hanns Sachs», The American Imago, Vol.4, No. 2 (Apr. 1947), p. 4. Cf. also Sachs, Freud, p. 12.

(11) Jones, Sigmund Freud, Vol.II, P. 160.

(12) Ibid., pp. 187, 160.

(13) Wittels, Freud, p. 18.

(14) «The 'Uncanny'», p. 230.

(15) Grotjahn, «Collector's Items from the correspondence between Sigmund Freud and Otto Rank», p. 26.

(16) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 31.

(17) Ibid., p. 58.

(18) «From The History of an Infantile Neurosis», p. 27.

(19) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 58.

(20) Letters of Freud and Abraham, p. 352.

(21) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 59.

(22) Minutes, Vol. II, PP. 71-71, 323.

(23) «A Special Type of Choice of Object Made by Men», p. 173. Cf. also «The Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 400-01 and «Introductory Lectures», Vol. 16, pp. 396-97, 407.

(24) Deutsch, Confrontations with Myself, p. 146.

(25) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 55.

(26) Jones, «Otto Rank: A Forgotten Heresy», p. 228.

2 ـ حزن سابق لأوانه

(1) Letters from Rudolf Urbantschitsh to Ernest Jones, Feb. 29, 1956, and Sept. 30, 1956 (Jones archives).

(2) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 68.

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 66.

(4) Quoted in ibid., p. 76.

(5) Ibid., p. 47.

(6) Ibid., p. 54.

(7) Quoted in ibid., p. 69.

(8) Nunberg, «Introduction», Minutes, Vol. I, p. xxvi.

(9) An exception is Schur, Freud, pp. 386, 467.

(10) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 55.

(11) Cf. Sachs, Freud, p. 158; Siegfried Bernfeld, «On Psychoanalytic Training», p. 467.

(12) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 93.

(13) Bernfeld, «On Psychoanalytic Training», p. 467.

(14) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 94.

(15) Quoted in ibid., p. 65.

(16) Taft, Otto Rank, p. 94.

(17) Bernays, Biography of an Idea, pp. 270-71.

(18) Quoted in Taft, Otto Rank, p. 99.

(19) Quoted in ibid., p. 101.

(20) Quoted in ibid., p. 107. Cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 60, and «Letter to Fritz Wittels», p. 287.

(21) «An Autobiographical Study», p. 53.

(22) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 65.

(23) Quoted in ibid., p. 70.

(24) Ibid., pp. 69-70. According to Nunberg, in 1918 Rank had joined Tausk in rejecting the proposal that future analysts should have to undergo analyses themselves. «Introduction», Minutes, Vol. I, P. 22.

(25) Taft, Otto Rank, p. 98.

(26) «Editorial Changes in the Zeitschrift», Standard Edition, Vol. 19, p. 293.

(27) Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 143.

(28) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 71.

(29) Ibid., p. 72.

(30) Letters of Freud and Abraham, p. 379.

(31) Quoted in Taft, Otto Rank, pp.110, 113, 114.

(32) Quoted in ibid., p. 102.

(33) Interviews with Helene Deutsch, Sept. 8, 1965, and Feb. 26, 1966.

(34) Cf. Letters of Freud and Andreas-Salomé, p.144.

3 ـ الإرادة والفنان

1- Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 160.

2- Freud/Jung Letters, p. 28. Taft, Otto Rank, p. 180; Letters of Freud and Zweig, p. 107; Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 76; Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Nov. 7, 1955 (Jones archives); interview with Mrs. Hitschmann, Feb. 28, 1966.

3- Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 70.

4- Quoted in Grotjahn, «Collector's Items from the Correspondence Between Sigmund Freud and Otto Rank», p. 22.

5- Interview with Helene Deutsch, Nov. 18, 1967.

6- Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Feb. 8, 1955 (Jones archives).

7- Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 113.

8- Interview with Beata Rank, Aug. 22, 1966.

9- Interview with Beata Rank, Feb. 12, 1966.

10- Quoted in Taft, Otto Rank, pp. 159-60.

11- The Diary of Anaïs Nin, Vol. I, p. 334.

12- Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 113.

(13) أشار طلبة فرويد لأكثر بحثًا إلى المقاطع المخصوصة في نيتشه.

For Freud's relation to Nietzsche, cf. Roazen, Freud: Political and Social Thought, pp. 84-85, and Brother Animal, pp. 33, 43, 92. Cf. also Letters of Freud and Zweig, p. 78.

(14) The Diary of Anaïs Nin, Vol. II, ed. Gunther Stuhlmann (New York: Harcourt, Brace & World; 1967), p. 16; Vol. I, p. 327; Vol. II, PP. 26, 157.

(15) Ibid., Vol. I, p. 277.

(16) Ibid., Vol. III, ed. Gunther SStuhlmann (New York: Harcourt, Brace & World; 1969), p. 228.

(17) Ibid., Vol. II, P. 37.

(18) Ibid., Vol. I, p. 270.

(19) Thompson, Psychoanalysis, p. 177. Cf. also Ruth Monore, Schools of Psychoanalytic Thought (New York: Dryden Press; 1955), p. 581.

(20) Quoted in Taft, Otto Rank, PP. 149-50.

(21) The Diary of Anaïs Nin, Vol. I, pp. 271, 276.

(22) Quoted in Taft, Otto Rank, p. 223.

(23) Quoted in Jones, «Otto Rank», p. 227.

(24) The Diary of Anaïs Nin, Vol. II, p. 34.

(25) Ibid., pp. 15-16.

(26) Ibid., Vol. III, P. 21.

(27) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 73. Cf. also pp. 45, 47, and Vol. II, P. 187. Elsewhere Jones was more cautious about the meaning of «Cyclothymia». Cf. Papers on Psychoanalysis, p. 497.

(28) Robert, The Psychoanalytic Revolution, p. 241.

(29) Wortis, Fragments of an Analysis with Freud, p. 121. Cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 74.

(30) Storr, The Dynamics of Creation, pp. 204-05.

(31) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 187.

(32) Ibid., Vol. III, P. 32.

(33) Sachs, Freud, p. 148.

(34) «Inhibitions, Symptoms, and Anxiety», Standard Edition, Vol. 20, p. 150.

(35) «New Introductory Lectures», p. 143.

(36) «Analysis Terminable and Interminable», pp. 216-17.

(37) «Moses and Monotheism», p. 10.

(38) Ibid., p. 125.

(39) Interview with George Wilbur. Sachs mentions this only obliquely. Cf. his Freud, p. 115.

(40) The Diary of Anaïs Nin, Vol. III, PP. 20-21.

الفصل التاسع

النساء

1 - روث ماك برونشفيك: «ما يجوز للحاخام»

لم «يتبنَّ» فرويد بعد أوتو رانك ابنًا آخر. وعلى الرغم من أن قائمة فرويد لعام 1924 لتلاميذه الذين ظلوا على ولاء له لا تشمل أية أسماء نسائية، فإن تلاميذ فرويد من النساء تبوّأن الصدارة وتعاظم دورهن منذ ذلك الوقت بالنسبة له، ولقد أدرك فرويد أن تلميذاته الإناث أقل عنادًا ومنافسة. والحق أن تلميذاته يمثّلن صفًّا طويلًا من البنات بالتبني: ميرا أوبرهولزر، أيوجينيا سوكولنيكا (المحلّلة النفسية للروائي البولندي «أندريه جيد» والتي أوردها في روايته «مزيفو النقود» The Counterfeiters والتي انتحرت بالغاز عام 1934، مع العلم أن فرويد هو من قام بتحليلها بنفسه)، هيرمين فون هوغ-هيلموث، هيلين دويتش، ماري بونابرت، روث ماك برونشفيك، وجيان لامبل-دي غرو، وكذلك النساء اللاتي قدمن إليه من خلال صداقتهن لابنته آنا فرويد بالدرجة الأولى، مثل دوروثي بيرلنغهام، إيفا روزنفيلد، آني كاتان، وماريان كريس.

لم يكن فرويد استثناءً من بين المشاهير، الذين كانوا يجذبون إليهم النساء المعجبات، على الرغم من شيخوخته واعتلال صحته، فألبرت شفاتيزر الذي كان يكن له فرويد احترامًا بالغًا سلك النهج ذاته. وللإنصاف فإن فرويد لم يجهد نفسه بالتِماس تزلّف هؤلاء النسوة، ولم يكن يبحث جديًّا عن تملُّكهن، ولا كان يختار معجباته بشكل خاص. وبصورة عامة فقد كان يقبل النساء كعضوات في دائرته المقربة دون أن يبذل في ذلك أيّ جهد مخصوص، ولم ينزعج أبدًا لوجود ما يشبه الحاشية الملَكيَّة من حوله. وإلى جانب انشغال فرويد المجهد بعمله وعدوانيته تجاه العالم الخارجي، وجد نفسه مذعنًا بشكل سلبي، ليس لامرأة واحدة، بل لمجموعة كبيرة من النساء. لم يشأ فرويد لسفاسف الحياة اليومية

أن تقلقه. وكانت تشكل النساء في آخر سنواته ما أطلق عليه البعض «بطانة: Camarilla»، كن يحجبنه عن الزوار غير المرغوبين، ويرتبن له عطلاته، ويشرفن على صحته. وبهذا فإن فرويد الذي كان خجولًا ومنكمشًا تجاه النساء عندما كان طفلًا وصبيًا، ختم حياته محاطًا بهن، وربما أعاد هذا إلى الأذهان ظروف نشأته كطفل بين خمس أخوات.

مضت هؤلاء النسوة في ترسيخ أقدامهن في مهنة تستقيم كثيرًا مع المواهب النسائية. وبالرغم من أن المكانة التي احتلتها روث ماك برونشفيك في حياة فرويد لم تتضح كل أبعادها بعد، فإن سيرتها تلقي المزيد من الضوء على العقد الأخير من عمر فرويد وعلى ما يناهز نصف سني شيخوخته. ويمكن الجزم أنه منذ عام 1930 كانت روث ماك برونشفيك (1897 ـ 1946) أثيرة فرويد بلا منافس فقد لازمته بشكل استثنائي طوال حقبة فيينا[1]. وحظيت بمكانة خاصة إذ كانت منفتحة عليه بشكل كبير، كانت تأتي لتناول العشاء في بيته وتزوره في كل الأصياف، واتسمت علاقتها بأطفاله بالدفء حتى تكاد تكون، في الحقيقة، واحدة من بين أفراد عائلته. وحدها هيني فرويد التي كانت تحبّها وتغار منها في الوقت ذاته باعتبارها منافسة لها. تعتبر روث برونشفيك الأكثر أهمية قياسًا للأخريات ممن تبناهن فرويد[2].

كما لعبت روث برونشفيك دورًا مهمًا في التوسط بين حلقة المحللين الأميركيين الناشئة وحلقة فرويد الضيّقة في فيينا. ساعدها في ذلك كونها محللة نفسية أميركية بالإضافة إلى ثقة فرويد التي حظيت بها، فضلًا عن كونها عضوة في جمعيتي نيويورك وفيينا للتحليل النفسي في الآن ذاته، وهو ما أهّلها أيضًا لتلطيف حدة التنافر الطبيعي بين عالمين متباينين إلى حد بعيد جدًا. وفوق هذا ساعدت روث برونشفيك فرويد في اجتذاب الأثرياء الأميركيين إلى عيادته الخاصة في فيينا على امتداد عقود حتى إغلاقها على إثر هجرته إلى لندن. علاوة على رعايتها مرضى التحليل النفسي الأميركيين أثناء إقامتهم في فيينا.

قد يستعصي على الشخص الغريب معرفة من هو «المقرّب» من فرويد ومن هو ليس كذلك. إلا أن مكانة برونشفيك يمكن ملاحظتها بشكل جليّ بالنسبة لكل من كان له اتصال بفرويد ولو لوقت قصير. وقد امتدت هذه الحظوة الخاصة لتشمل ابنتها التي كانت أثيرة فرويد وزوجته. ولعل الغيرة أو اللباقة هي التي منعت إرنست جونز كاتب سيرة فرويد من الإشارة إلى مكانة برونشفيك. وكما أسلفنا كانت روث برونشفيك واحدة من النساء

القلائل اللاتي كن تسلمن خواتم من فرويد كتعبير عن معزته الخاصة لهن وهو ما لم يذكره جونز في سيرة فرويد(*).

كانت روث برونشفيك ذكية وجذابة، وما كان لديها، وهي الأميركية النمطية، المزيد من حالات الكف والتقيّد وكانت صريحة ومتفجرة الانفعالات، ومسرفة في التعبير عن عاطفتها، ودافئة. كما كانت أيضًا أنيقة وودودة ومهذبة، فضلًا عن كونها مفعمة بالحيوية. ومع ذلك لم تكن – كامرأة – جذابة ولا منفرة على نحو خاص بالنسبة لفرويد.

لقد حاول فرويد أن يكرر مع برونشفيك ذات التقليد الذي سلكه مع مينا شقيقة زوجته، إذ أنه كان يروق له أن يستخدم النساء كدريئة لأفكاره، بيد أن روث، خلافًا لمينا، كان لديها نزوع للهيمنة، لا أن تكتفي بدور الأم المسالمة التي يقف طموحها عند فهم أفكار فرويد. كانت مثقفة وواسعة الاطلاع، ثاقبة النظر ومدققة، وهي واحدة من الأميركيين القلائل غير الموصومين كأميركيين عند فرويد.

تميَّزت روث برونشفيك بجرأة تفكيرها، وربما كانت تلك هي مناط الحكم في الأمر بالنسبة إلى فرويد، لم تكن ضيّقة الأفق ولا محدودة التفكير، جسورة ومجازفة، لا تعبأ بالمخاطر وذات مرونة ذهنية متميزة حتى أنها قد تتبنى فكرة وسرعان ما تتخلى عنها لاحقًا متى اقتنعت بذلك. هذه المرونة الذهنية لم يتميّز بها إلا قلة ممن قصدوه. وقد كانت برونشفيك فخورة بعلاقتها بأستاذها فرويد، تلك العلاقة التي كانت مبعث بهجة للطرفين.

كانت روث برونشفيك – روث بلومغارت حينها – في سن الخامسة والعشرين عندما جاءت إلى فرويد، وقد غشت عالمه بحماس وحرارة. وأصبح فرويد الشخص المثالي بالنسبة لها، والمعلم الناصح والمخلص، فضلًا عن كونه يقوم بالنسبة إليها مقام الأب. كان والدها القاضي جوليان ماك، رجل قانون متميز ومحسن يهودي ذائع الصيت، غير أن علاقتها به لم تكن وثيقة، الأمر الذي جعل من فرويد، على ما يبدو، حلًا مثاليًا لها. وقد أدركت برونشفيك أن فرويد – بعد وفاة فرانك – كان يعتبرها حلقة الوصل التي تربطه بالأميركيين، وأنه كان يثق بها في نقل وشرح أعماله بشكل صحيح في الأوساط الأميركية.

(*) حسب إرنست جونز[1] فإن النساء اللاتي تسلمن خواتم من فرويد هن زوجته كاثرين، آنا فرويد، لو أندرياس-سالومي، وماري بونابرت وفي الحقيقة فإن جيزلا فرنزي، جيان لامبل-دي غرو، روث ماك برونشفيك، إديث جاكسون، هيني فرويد وإيفا روزنفيلد، أهداهن فرويد خواتم.

ظلت روث برونشفيك، لفترة طويلة، أكثر قربًا من فرويد من ابنته آنا[4]، من ذلك مثلًا أنه أعطاها بعض صفحات من مخطوطة كتابه عن وودرو ويلسون، والتي لم تحظَ بها آنا حتى عام 1965. ولم يفتأ فرويد يُظهر حفاوته وتكريمه وصداقته الحميمة لبرونشفيك مما أثار غيرة البقية ممن هم أقل حظوة منها، حتى أن بعض زملائها الذكور يعتبرونها بغيضة وعدوانية.

ولم يتوقف دور برونشفيك عند ذلك الحد، بل كان لها دور خاص في العناية بصحة فرويد، فمن خلال نفوذ والدها لدى مجلس المشرفين في جامعة هارفارد، رتبت عام 1931 مع بروفسور في الطب بهذه الجامعة[5] لجراحة تجميل شملت تعويض جزء من فم فرويد، وقد دفعت هي وماري بونابرت فاتورة تكاليفها الباهظة وهو أمر امتعض له فرويد. ولكن رغم ما بُذل من جهد في سبيل ذلك، لم تكن تلك الجراحة ناجحة. ومما زاد حسرة فرويد، شعوره بأنه أصبح عبئًا ماليًا على غيره، لكن هذا لم يُؤثّر على تعهد برونشفيك لأستاذها بالرعاية إذ ظلت تحيط به وامتدت رعايتها له في مرضه لتشمل نظامه الغذائي وحميته.

وصلت روث برونشفيك إلى فيينا لأول مرة قبل ما يناهز العقد من هذه الجراحة التي أجريت على فرويد في مستشفى هارفارد، عام 1922 تحديدًا. كانت حينها متزوجة من هيرمان بلومغارت الذي كان طالبًا في كلية الطب في هارفارد، ومقربًا جدًا من إ. ب. هولت الذي لم يكن أول من قدّموا مقررًا دراسيًا في هارفارد عن فرويد فحسب، بل ألّف واحدًا من أول الكتب المدرسية في التحليل النفسي. أما روث برونشفيك في المقابل، فكانت قد تأهلت من كلية «رادكليف» لتلتحق بكلية الطب في جامعة توفتس المجاورة لهارفارد في بوسطن. وقد استطاعت روث أن ترتب سفرها بمفردها إلى فيينا بواسطة ليونارد، شقيق هيرمان، وهو محلّل نفسي سبق أن زار فيينا بغرض التحليل النفسي لدى فرويد لفترة قصيرة. ولم يكن زواجها حينذاك على ما يرام. بيد أن روث آثرت أن تكمل تدريبها الطبي في تخصص الطب النفسي، ومن ثمّ سافرت إلى فيينا ليس لتجاوز مشاكلها الشخصية فحسب، وإنما أيضًا من أجل أن تتخصّص. وقد خاب مسعى زوجها بلومغارت الذي لحق بها إلى فيينا في محاولة لثنيها عما عزمت عليه والعودة معه. وفيما عقد زوجها عزمه على أن يواصل في ميدان الطب (جراحة القلب)، أصرّت روث على أن تتخصّص في مجال التحليل النفسي، رغم أن الزوج هيرمان بلومغارت تحدث إلى فرويد في الأمر سعيًا لإصلاح ذات البين بين الزوجين، لكن دون جدوى. وهكذا عاد هيرمان بلومغارت

إلى أميركا مخلّفًا وراءه زوجته هناك لينحت اسمه كاختصاصيّ بارز في أمراض القلب على امتداد حياته المهنيّة.

كان ثمة رجل آخر بالفعل امتلك وجدان روث التي طالما حلمت به زوجًا لها، والذي كان فرويد هو أيضًا يرى فيه الزوج المناسب لها، إنه مارك برونشفيك الذي يصغرها بخمس سنوات إلا أنه كان متيّمًا بحبها منذ صغره، ولقد عقد العزم على أن يتزوجها منذ أن حضر حفل زفافها عندما كان في سن المراهقة بوصفه قريبًا لهيرمان لجهة أمه، فزوج روث الأول هو ابن عم والدة مارك برونشفيك. وأهم ما يُميّز هذه المجموعة من الأميركيين تشابك العلاقات في ما بينها وتعقّدها، فقد تزوّجت أم مارك برونشفيك في ما بعد من القاضي جوليان ماك (والد روث) في السنوات الأخيرة من حياته.

رتّبت روث لتحليل مارك، بالإضافة إلى تحليلها - هي بدورها - على يد فرويد. وفي عام 1924، عندما كان مارك في الثانية والعشرين من عمره أصبح عضوًا في حلقة فرويد. وكان فرويد آنذاك في الثامنة والستين من عمره. يتذكّر مارك تعليق فرويد في أول لقاء بينهما: «هل يمكن للمرء أن يكون فتيًا إلى هذا الحد؟». كان نصيب مارك من التعليم الرسمي محدودًا، وكانت السنة التي قضاها في أكاديمية اكستر هي آخر عهده بالتعليم النظامي. وعلى الرغم من كونه خجولًا، وحييًا وجبانًا، ولم تكن انفعالاته قد نضجت بعد، إلا أنه كان في منتهى البراعة في مجال الموسيقى حتى أنه أصبح لاحقًا بروفيسورًا في الموسيقى ورئيسًا لقسمه في كلية المدينة بنيويورك من 1946 إلى 1965. لقد كان منفتحًا، وواسع الخيال، وفنانًا موهوبًا. وقد تعهد فرويد رعايته بجدّية. ولا عجب ألا يعرف مارك شيئًا عن العلم ولا الطب، فلم يكن يعنيه غير التلحين وأصدقائه الموسيقيين بفيينا[6]. تعهد فرويد بتحليل مارك نفسيًا باعتباره صهرًا محتملًا لابنته، إن جاز التعبير، إذ إن روث ومارك كانا عشيقين وقتها، ولذلك عمل فرويد على تأهيله وتهيئته لكي يتمكن من الزواج منها[7].

لقد مثّل زواجهما في 1928 حدثًا مهمًّا في حياة فرويد، لأنه نادرًا ما كان يخرج للعامة آنذاك. وقد أقيم حفل الزفاف في ملهى المدينة، وقد شهد فرويد على مراسم هذا الزواج، في حين كان الشاهد الثاني الدكتور أوسكار راي طبيب الأطفال الخاص بأحفاد فرويد ولابنة روث ومارك في ما بعد (وقد سُمّيت هذه الطفلة ماتيلدا تيمنًا باسم كبرى بنات فرويد والصديقة الحميمة للزوجين مارك وروث)، أما ابنة راي، ماريان كريس فكانت

صديقة روث الأقرب. ولقد تم صياغة أوراق زواج مارك وروث على يد المحامي مارتن ابن فرويد، كما حضر حفل الزواج ديفيد شقيق مارك (الذي اضطلع فرويد بتحليله أيضًا)، وحضرته كذلك شقيقته الصغرى (كان نتبرغ يضطلع بتحليلها).

قام فرويد بتحليل الزوجين مارك وروث بالتزامن، فضلًا عن ديفيد شقيق مارك أيضًا، وقد شغل الثلاثة في ما بينهم ستين بالمئة من وقت ودخل فرويد من التحليل النفسي (في هذه الأثناء كان فرويد يُجري بانتظام حوالي خمس حالات تحليل) ومن المعلوم أن المحللين النفسيين المعاصرين لا يميلون إلى تحليل الثنائي سواء أكانا زوجين أو غير متزوجين، ويعد هذا الأمر مضادًا للقواعد المتبعة للاستطباب، إذ إن المحلّل النفسي في حاجة إلى أن يكون قادرًا على التماهي مع المريض، فكلما تعلّق بمعالجة الأشخاص وثيقي الارتباط ازدادت الأمور صعوبة. غير أن فرويد كان يخالف النهج والقواعد التحليلية من باب أنه «يجوز للحاخام ما لا يجوز لغيره»، إذ يسمح للحاخام بكل الاستثناءات المتاحة[8].

ومن جهة أخرى، كان مارك برونشفيك يرى الكثير من جوانب شخصية فرويد في محيطه الأسري، فقد كان يتردد كثيرًا بصحبة روث على منزل فرويد في إطار زيارات ذات طابع اجتماعي. ولقد عبّر مارك في ما بعد عن شعوره بأن علاقته الشخصية بفرويد بقدر ما جلبت له الخير، بقدر ما ساهمت في تعزيز بعض السمات المرضية لديه. كان فرويد يعيش في عالمين مختلفين بينهما حاجز وقائي لحماية نفسه وأسرته من تداخل عالمه المهني والأسري، وبعيدًا عن مزاولته لمهنته يتجنّب أن يكون نفسانيًا. لقد كان فرويد في محيط أسرته سعيدًا وغير متحفظ، وذات مرة وبّخ صهره زوج ماتيلدا لأنه مازح روث بغزلية عبثية، عندما كانت هذه الأخيرة مريضة لدى فرويد.

لم يكن مارك يجرؤ على أن يُصارح فرويد بما لاحظه من تباين بين سلوكه في بيته وسلوكه في العمل، أو بالأحرى لم يفكّر أبدًا أنه ما كان ليجرؤ على فعل ذلك. وجدير بالذكر أن مارك قرأ كتاب فرويد الطوطم والتابو قبل سفره إلى فيينا وأعجب به، ولكن، ولأنه كان مهتمًا بالأنثروبولوجيا، فإنه لم يبدِ اهتمامًا بالطب، ولم يفكر إطلاقًا بأن يصبح هو نفسه محللًا بل ولم يذهب إلى اجتماعات جمعية فيينا للتحليل النفسي إلا مرة أو مرتين، وحينما فعل صدمته الكلمات التي كانت تُقال صراحة بحضور الجنسين معًا.

لقد تعرّف مارك كذلك على ويليام بوليت الذي كان فرويد يحلله، كما تعرّف على ماري بونابرت التي كانت تخضع لفترات متقطعة طيلة سنوات عديدة لتحليل فرويد النفسي شأنها في ذلك شأن روث. وتعرّف كذلك في عام 1930 على إديث جاكسون وكانت مريضة أخرى من مرضى فرويد. كان فرويد يتقاضى من مرضاه حتى عام 1930 عشرين دولارًا لقاء الساعة الواحدة، ثم قرروا، وبتوافق بينهم من تلقاء أنفسهم، أن يرفعوا الأجر إلى خمسة وعشرين دولارًا.

غير أن هذه الحميمية في العلاقات الشخصية لم تساعد مارك علاجيًا، كما أضرّت به حماقات فرويد، من ذلك مثلًا أن فرويد، بعد أن قضى مع ديفيد شقيق مارك بضعة أسابيع في التحليل النفسي، عبّر عن تذمره لمارك قائلًا: «ماذا فعلتما بي أنت وروث؟! إن أخاك مملّ جدًّا!». والحقيقة أن مارك وديفيد كانا يتوجّسان خيفة من فرويد ولكل منهما أسبابه. فقد كان ديفيد يظن أن فرويد متحامل عليه بإيعاز من مارك وروث لدرجة أن فرويد فاجأه في اليوم التالي من التحليل بطلبه أن يتعلّم اللغة الألمانية وأن يلتحق بكلية الطب، ويبدو أن فرويد توقع منه مقاومة شديدة كتلك التي يُبديها المثقفون عادة، إذ إن ديفيد كان آنذاك سيكولوجيًا متدربًا يستعد لمباشرة عمله. وقد فشل في مدرسة طبية في الولايات المتحدة، وفعل الشيء نفسه لاحقًا في فيينا. وافترض فرويد أن ديفيد، بوصفه أميركيًا، كان يحتاج إلى شهادة في الطب ليتأهل كمحلّل نفسي في الولايات المتحدة. وعندما باشر ديفيد ممارسة التحليل في أميركا، كتب إليه فرويد قائلًا: «لقد نلت أعدل عقاب تستحقه عندما أصبحت محللًا». وإن كانت هذه تعبيرًا عن إحدى دعابات فرويد، إلا أنها، بالنسبة إلى ديفيد، كانت تعبّر عن موقف فرويد منه.

أما الشاب مارك برونشفيك فكان يشكو من اضطرابات حادة في الطبع عندما قدم إلى فرويد. وحين تذكر مارك بتدبّر تلك الأيام، خلص إلى اعتقاد مفاده أنه لو أن فرويد رفض تحليله آنذاك على أساس أن روث كانت مريضته أيضًا لكان ذلك صادمًا له، ولكن ربما كان ذلك هو الأفضل على المدى البعيد. (شعر ديفيد هو الآخر في ما بعد بأنه ما كان ينبغي لفرويد أن يأخذه إلى عالم التحليل). وبالمحصلة فقد شرع فرويد في تحليل مارك أول مرة في أيلول/ سبتمبر عام 1924، وقد استمر في ذلك على امتداد ثلاث سنوات ونصف السنة، وعندها أخبره فرويد بأنه قد شفي، وأنهى مارك تحليله وتزوّج روث. وحسب مارك، فإنه لم يُشفَ من أيّ عارض، رغم تحسّن مشاعره نحو أبيه. وعلى الرغم من أن مارك أظهر في

ما بعد مشاعر سلبية تجاه فرويد، إلا أنه كان يوقّره، ولا ينسب إليه أي شيء تافه، وكثيرًا ما شعر أن أخطاءه نابعة من إرادة حسنة ولربما نتجت عن الودّ وعدم التحفظ.

وفي حزيران/ يونيو 1928 غادر الزوجان مارك وروث بروينشفيك فيينا إلى الولايات المتحدة، حيث أنجبت روث مولودهما؛ وعادا إلى أوروبا في 1929 ومكثا في فيينا حتى عام 1938. وفي حوالي نهاية 1933 وبداية 1934، أخبر مارك فرويد أنه لا يزال يعاني من كل الأعراض، وربما أصبح أسوأ حالًا، لأنه كان يحاول أن يرتقي إلى حياة ناضجة. وقد انزعج فرويد لذلك، وبادر بإخضاع مارك للتحليل من جديد.

خلال التحليل الأول لمارك (قبل السفر لأميركا)، عندما كان شابًا فتيًّا متيّمًا بحب امرأة متزوجة، كان فرويد وروث قد ناقشا حالته بتفصيل تام. وأصبحت روث بمثابة أم لمارك تقريبًا. لكن فرويد أوضح في هذه المرة (في التحليل الثاني) لمارك أنه لا ينبغي لروث أن تعلم عن تحليله شيئًا كما حصل من قبل، وأنه قد ارتكب خطأ خطيرًا بمناقشته أمر تحليل مارك معها في السابق. كان فرويد طبيعيًّا ومنفتحًا في الاعتراف بخطئه. (بينما لم يكن كذلك مع مرضاه الآخرين أمثال ديفيد).

وسرعان ما وقع مارك في غرام فتاة شابة وسأل فرويد ما إذا كان من المناسب أن ينقض قَسَم الزواج، وأخبره فرويد بنعم. وقد تطلق روث ومارك عام 1937، ولكنهما تزوّجا من جديد في غضون ستة أشهر، ولم يُسرّ فرويد لصنيعهما ذاك. حقّق مارك تقدمًا إيجابيًّا في العلاج حتى عام 1938. في ذلك الحين لم يكن في فيينا أي من أصدقاء مارك الموسيقيين. وفي تشرين الأول/ تشرين الأول/ أكتوبر 1937 غادر مارك فيينا ليعود إليها في كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته قبل أن يرحل عنها نهائيًّا في أواخر كانون الثاني/ يناير 1938. أما فرويد فقد بدأ كتابة حالة مارك المرضية في الشهر نفسه، لكنه توفي قبل أن يتمّها[9]. (وبعد ذلك بسنوات خضع مارك لتحليل أخير في نيويورك اعتقد أنه كان أكثر نجاحًا بكثير من التحليلين اللذين أجراهما مع فرويد).

لم تخلُ علاقة فرويد والزوجين برونشفيك من التوتر وكانت مسبباتها في الغالب خلافات في الرأي والموقف السياسي. ولقد خاب أمل كلٍّ من روث ومارك في فرويد عندما أيّد إسقاط الاشتراكيين بالقوة في فيينا في عام 1934. لقد غيّر فرويد آراءه السابقة رأسًا على عقب، وصار مؤيّدًا بقوة لرئيس الوزراء دولفوس، بل صار يمجّده ويُجادل

مناوئيه مما أثّر على مصداقية فرويد السياسية، فلم يكن من المنتظر من قبل مريديه أن يؤيد حاكمًا تسلطيًا ذا نزعة ديكتاتورية، وفوق هذا يُعادي الفكر والثقافة. لقد شارفت حياة فرويد على نهايتها فكان همّه الأكبر أن يظل في فيينا مهما كان الثمن. وفي شباط/ فبراير 1934 اتفق مارك وفرويد أن يفترقا لفترة نظرًا إلى المرارة التي عاناها مارك بسبب اتجاه فرويد السياسي. لقد كانت النمسا آنذاك في ظل حكومة سلطوية معادية للفكر، وتمثل القوى الاجتماعية التي لم تكن تحظى يومًا بمباركة فرويد، في حين كان الاشتراكيون أصدقاءه، وقد فشل فرويد في أن يتعامل مع هذا الأمر في التحليل، ربما بسبب إحساسه بالذنب.

وقد حث مارك وروث فرويد في كثير من الأحيان على مغادرة فيينا، إلا أنه كان ينفر من هذه الضغوط، لأنه كان يرى أن مخاوفهما لا مبرر لها. وقد كتب في عام 1932 في رسالة له: «لقد ظل روث ومارك يخبراني باستمرار دون ملل بأن هناك خطرًا يتهدد شخصي ببقائي، ولكن لا أستطيع أن أصدّق ذلك البتة. فما أنا بالشخص المعروف في فيينا، كما أن أفضل المطّلعين يعرفون فقط أن أية معالجة سيئة أقوم بها كانت ستثير جلبة عظيمة بالخارج»[10]. أما الآخرون في جماعة التحليل النفسي في فيينا فقد واجهوا مصاعب في المغادرة لأنهم كثيرًا ما عارضوا فرويد في هذا الشأن، رغم اقتناعهم بحتمية الهرب من سفينة غارقة لا محالة.

كانت روث قد وضعت بَصمتها الخاصة في عالم التحليل النفسي في الوقت الذي سيطر فيه النازيون على فيينا، ويرجع ذلك في معظمه لرعاية فرويد لها فقد أهداها هبة شخصية عظيمة تمثلت في منحها ثقته في مواصلة علاج مريضه السابق «الرجل الذئب»، وفي ذلك إطراء لها. غير أن روث في معالجتها «الرجل الذئب»، تعمّدت أن تغفل مشاعر المريض تجاهها رغم أن ذلك عماد العلاج النفسي التحليلي، معتقدة أن «هذا المريض ليس له إلا فرويد» وأن دورها كمعالجة كان «من الممكن إهماله تقريبًا، إذ إن دَوري الحقيقي لم يتجاوز كوني مجرد وسيطة بين المريض وفرويد»[11].

وقد شكلت الحالة والمقالة التي كتبتها روث عنها نقلة هائلة في تقييمها لذاتها والتي كتبتها بتعاون وثيق مع فرويد. إلا أن المرء كان يأمل ألا يصادق فرويد على هذا اللغو الذي ختمت به عرضها عن مستقبل صحة المريض «الرجل الذئب» إذ نصت «معتمدة وبشكل أساسي على درجة الإعلاء التي يثبت أنه قادر عليها»[12].

كانت روث تكتشف ذاتها في حضور فرويد. أما بدون فرويد فإن قلة محدودة من أتباعه هم من كانوا سيحظون بأهمية ما في تاريخ الفكر. فلقد كان فرويد يلهم ويشجع الكثيرين منهم أكثر ممّا أنجزوا طوال حياتهم من قبل على الإطلاق.

2 - روث ماك برونشفيك: التبعية والإدمان

اكتشف فرويد في روث برونشفيك مقدرة سيكولوجية طبيعية، إذ تميّزت بموهبة فطرية على «اشتمام» اللاوعي[1]. أما في ما يتعلق بتقنيتها التحليلية النفسية فهي لم تكن تقليدية بل محللة نشطة ومجدّدة نسبيًا وإن كانت في حدود التقاليد الأرثوذوكسية للتحليل النفسي. في المقابل، قد يندهش البعض من أن نشاطها لم يكن بقدر ما حظيت به من قبل فرويد الذي حللها بنفسه واصطفاها في مواضع كثيرة. شابهت روث أستاذها فرويد في الاهتمام بعلم التحليل النفسي أكثر من العلاج لذاته، إذ إن العلاج التحليلي هو أداة لكشوفات في علم النفس. أما مرضاها فقد كان جلّهم من الهولنديين، لأن فرويد كان يرسل إليها، في البداية، المرضى الهولنديين. (وقد يعزي ذلك إلى أن التحليل النفسي في بداياته حظي بتقدير كبير جدًّا في هولندا[2]، وقد كان مزدهرًا هناك. وربما لأن جُلَّ سكانها من الطبقة الوسطى، بل إنه في ستينيات القرن العشرين كانت هولندا هي البلد الوحيد الذي تذمّر فيه المحللون النفسيون من وجود عدد كبير من الطلبة قيد التدريب على التحليل النفسي).

لم تكن تأشيرة روث تسمح لها بالعمل، ولأجل ذلك كانت الشرطة كثيرًا ما تُضايقها. غير أن المحامي مارتن فرويد أوضح للسلطات، وبشكل منحاز لروث، أنها كانت تعمل تحت الإشراف، وللأغراض التدريبية فقط. وفي ما عدا ذلك فإن آل برونشفيك كانوا يمتلكون في فيينا سيارة وبيتًا فخمًا به خدم. وكانوا في أعين بقية جماعة التحليل النفسي يعيشون حياة المليونيرات.

لقد أعطى فرويد روث أفكارًا ومرضى بلا حدود، فخلافًا لبعض تلاميذه الذكور السابقين عليها، لم يكن يرى فيها منافسة له. وكان فرويد معجبًا باهتمامها بالذهانيين، حتى أنه خصّ زملاءها في جمعية فيينا بحلقة حول الذهان رغم أنها لم تكن جزءًا من المقرّر الدراسي المعتمد في الجمعية، وإنما كانت موجهة خصيصًا «للمتخرّجين»، وكان كل من ماري بونابرت وبول فيديرن من بين من حضروا إلى جلسات نظمتها في بيتها في فيينا. والغريب في الأمر أن فرويد شجّع عملها، فيما لم يُحرّك ساكنًا حيال عمل فيديرن.

صحيح أن أفكار فيدين كانت مرتبكة ومشوَّشة، إلا أن فرويد رغم بعض الشكوك التي كانت تساوره حول مشروعية استخدام التحليل النفسي لمعالجة حالات الذهان، فإن عاطفته نحو روث هي التي رجحت الكفة لصالحها.

تميّزت روث برونشفيك بقدرات ذهنية استثنائية مكّنتها من دمج اكتشافاتها ضمن اكتشافات فرويد، وفضلًا عن ذلك كانت تملك موهبة المناورة الذكية في التعامل مع مفاهيم فرويد النظرية وهو ما ساعدها على استخدام تلك المفاهيم في توليد مفاهيمها الخاصة، من ذلك مثلًا أنها شددت على أهمية الأمّ في نمو الطفل وقد فعلت ذلك بكل لباقة حتى أن فرويد لم يرَ في مساهمتها تلك ثورة على أفكاره الأساسية. وبعيد وفاة فرويد ركزت بعض الاتجاهات الرئيسة في التحليل النفسي على الاهتمام بالحالات التي «يرجع فيها سبب المرض إلى ما قبل عقدة أوديب ويشتمل على تشوّه يحصل أثناء مرحلة التبعية المطلقة»[3]، وهو ما أشار إليه يونغ في وقت مبكر إذ لاحظ أن فرويد قد أغفل أصلًا الدور غير الأوديبي لرابطة الأم ـ الطفل. إلا أن روث برونشفيك قد عبَّرت عن اكتشافاتها بحذر بالغ.

وبينما كان رانك قد أسَّس نظرية منافسة للأوديبية الكلاسيكية حول فكرته الجديدة التي تؤكد على أهمية العوامل غير الأوديبية، فإن روث كانت تشدّد على أن هناك أطوارًا «ما قبل أوديبية» في نمو الطفل. وعبّرت عن ذلك باحتراس، لأن من عادتها أن تُوَصِّل أفكارها في مفاهيم فرويد حيث قالت: «على حدّ علمي فإن مصطلح ما «قبل أوديبي» استخدمه فرويد أول مرة عام 1931، بينما استخدمته كاتبة هذه السطور عام 1929»[4]. وإذ قصرت استخدام هذا المصطلح، في البداية، على علم النفس النسائي، إلا أن نظريتها سرعان ما امتدت أكثر مع مرور الوقت حتى بلغت تطبيقاتها سيكولوجية الرجل أيضًا. وتعني روث بمصطلح ما قبل الأوديبي أن هناك علاقة عاطفية مبكرة تسبق النزاع المثلث الذي تُولع فيه الفتاة الصغيرة بحب أبيها وتشعر بالمنافسة تجاه أمها. وينطوي هذا الوضع المبكر الذي يأتي قبل عقدة أوديب، على حبّ الفتاة الصغيرة لأمها وتماهيها معها. وهذا التورّط العاطفي بدائي وغريزي جدًّا أكثر منه أوديبي، وتفترض روث أنه يكمن في جذر المشكلات الذهانية التي كانت تدرسها.

وهكذا نجحت روث في إدخال الظواهر المهملة ودمجها ضمن نظرية الليبيدو الفرويدية. وقد ألحّ تلامذة فرويد المرتدون على هذه الظواهر، وكان لعمل روث ثمنه الباهظ بالنسبة لفرويد. ولقد بيّنت روث أهمية مفاهيم فرويد النظرية ودعمتها فساعدت

على توسيعها في الآن ذاته، وذلك من خلال أعمالها في مجالها علم نفس النساء في الأصل (حيث اعترف فرويد أنه لم يكن يقدر على المضي قدمًا في هذا الشأن)، ومن خلال إبقائها على برج أوديب بحد ذاته (مهتدية في ذلك بفكرة فرويد التي تقول بأن هذا البرج متأصل منذ قبل التاريخ).

ومنذ بدايات عام 1925 دشّن فرويد هذا التحوّل في التفكير التحليل النفسي بافتراضه أن وجود طور من الحياة الانفعالية يسبق العقدة الأوديبية، يعني أن «العقدة الأوديبية تكوين ثانوي»[5] عند الفتيات. وكلما تبلور عمل روث في إطار نظرية العوامل ما قبل الأوديبية، كلما أصبحت العقدة الأوديبية، فيما يبدو، أكثر أهمية، إذ يصبح لها آنذاك تاريخها التطوّري الخاص بها. كتب فرويد في عام 1931 قائلًا «إن انتباهنا المبكر لهذا الطور ما قبل الأوديبي في الفتيات كان له وقع كبير لا يقل أهمية من اكتشاف الحضارة المينوية-المسينية في ما خلف الحضارة اليونانية مع اختلاف المجال»[6].

ولقد أقرّ فرويد عمل روث على النماذج ما قبل الأوديبية في النساء، حيث قال عنها: «كانت تدرس هذه المشكلات في الوقت نفسه الذي كنت أفعل ذلك»[7]. وقد زعم ننبرغ بعد وفاتها بأنها «أكدت في مقالتها بالغة الأهمية حول الطور الأوديبي أنها لا تستطيع أن تمّيز بدقة أفكارها الخاصة عن أفكار فرويد»[8]، وعلى الرغم من أن لا أثر لهذا التصريح في أوراق روث، غير أنه يبدو بأن ننبرغ سمع منها ذلك فضلًا عن أن هذا التعليق متّسق تمامًا مع تعاونها الوثيق مع فرويد. ويُسلّم فرويد بأن المحللات النساء كنّ الأقدر على اكتشاف هذا التعلق المبكر بالأم، فيما لم يكن هو نفسه قادرًا على تحديده «لأن النساء اللائي كان يقوم بتحليلهن عبّرن عن قدرتهن الكبيرة على التشبث بعلاقتهن بالأب لأنه يؤمّن لهن ملجأ من الطور المبكر قيد البحث»[9]. إلا أن فرويد ظل يؤمن بأن «طور التعلّق المقتصر على الأم، الذي يمكن أن نسميه الطور ما قبل الأوديبي له أهمية قصوى لدى النساء أكثر منه لدى الرجال»[10]. وساد اعتقاد بأن التثبيت ما قبل الأوديبي لدى النساء يؤدي إلى نقص في الليبيدو نحو الرجال، بينما تعني الرابطة ما قبل الأوديبية لدى الرجال تعلقًا سلبيًا بالأب. ولقد اعترف فرويد بأسبقية روث في هذه الناحية فقد كانت كما كتب في عام 1932: «أول من وصف حالة عصاب كانت ترجع إلى ثبات على المرحلة ما قبل الأوديبية لم يصل أبدًا للموقف الأوديبي على الإطلاق»[11].

وكانت روث تعمل بجد كطبيبة مباشرة وكانت تشارك في سياسات الحركة التحليلية

النفسية على جانبي الأطلنطي على حدّ سواء. ويزعم جونز أنها اصطفت إلى جانب زيلبورغ ضد بريل، في حين ظن بريل، إلى أن استقال من جمعية نيويورك للتحليل النفسي[12]، أنها كانت تعمل ضد شيلدر. وأما في فيينا فقد كانت روث على ذمة فرويد في التحليل بشكل أو بآخر كلما استدعى الأمر ذلك. كما كان كارل مينينغر تلميذها الأميركي ذائع الصيت، كما حللت روبرت فليس ابن صديق فرويد الأسبق.

ورغم غزارة إنتاجها العلمي وأدائها المميز كمحللة، فقد كانت صحتها متدهورة. وكانت تميل لأن ترجع المشكلات الانفعالية إلى الأعراض الجسدية، ولم يستطع أطباؤها أن يشخّصوا مرضها على أنه مرض عضوي بشكل قطعي. فقد اكتشفوا ذات مرة كمية كبيرة من الزرنيخ في دمها، ولم يكن واضحًا ما إذا كانت قد تسممت عن طريق الطعام والطبخ أو عن طريق ورق الحائط، ولكنها كانت قد غيّرت ورق حائط حجرات منزلها. (وكان جيمس جاكسون بوتنام قد صنَّف ورق الحائط من قبل كأهم عوامل التسمم بالزرنيخ)[13].

كانت روث تستخدم المورفين لتتغلب على الألم الفظيع لِما كانت تظن أنه نوبات الحويصلية المرارية. وكان الأطباء يتناوبون على فحصها مرارًا وتكرارًا إلا أن قلة فقط من حلقة فرويد المقربين يعرفون أنها كانت تعاني من أمراض غامضة. وقد خضعت روث لجراحة لم تكن ناجحة، ربما لأنها كانت تعاني ممّا هو أكبر من آلام الحويصلية المرارية. وفيما اعتقد طبيبها ماكس شور أنها لم تكن تتألم لوجود حصوات في المرارة، أنكر آخرون ذلك. (حللت روث كلًّا من شور وزوجته، وفي ذلك استعادة لما حصل لها وزوجها مع فرويد). وكانت تعاني كذلك من التهاب الأعصاب وتصف لنفسها الدواء بصفتها طبيبة، حيث كانت تأخذ حبّات منوّمة ومسكنة للألم. وفي الفترة ما بين 1933 و1934 أصبحت تدريجيًا مدمنة بشكل ينذر بالخطر. وأمام تفاقم حالتها النفسية والعضوية غدت مدمنة وذلك في عام 1937 أو نحو ذلك، إذ إن معظم أنواع الإدمان في تلك الأيام كانت ناجمة عن استخدام العقاقير للأغراض الطبية.

توقفت لفترة عن اعتمادها على العقاقير. وذهبت ذات مرة إلى المستشفى، نزولًا عند نصيحة فرويد، بينما كانت لا تزال في التحليل، في محاولة للتخلص من إدمانها. ولكن روث لم تكن قد أدمنت العقاقير فقط، فقد كانت كشخصية متشبثة وحريصة، ولعل ذلك يفسّر ولو جزئيًا نفور فرويد منها في نهاية الأمر. كانت نهاية حياتها مأساوية حيث باءت كل محاولاتها للتغلب على مرض، وصفه المحللون بأنه «قبل أوديبي»، بالفشل.

وفي فيينا، حين كان فرويد حيًّا، لم تبدُ على روث علامات الاضطراب أو المرض. وكانت تؤدّي عملها بشكل فعال حتى آخر أيام حياتها عندما أصبحت تعتمد بشكل كبير على العقاقير. وكان يُنظر إليها حتى موتها المفاجئ في بداية 1946، كمحللة نفسية رائدة، والمقرّبة جدًّا من فرويد في آخر سنوات حياته.

ولم يكن بؤس روث غير ذي معنى، سيّما وأنه في الكثير منه على صلة جد وثيقة بفرويد، فهذا الأخير لم يطق إدمان العقاقير. وكان فرويد في أواخر أيامه، رغم آلامه الناتجة عن إصابته بالسرطان، يرفض أن يأخذ حتى الأسبرين. ولم يكن يقبل أن يستخدم المسكنات لتخفيف الألم، فقد كان فخورًا بقدرته على التغلب على نفسه، ولأجل ذلك كان لاعتماد روث ومن ثم إدمانها عليها في نهاية المطاف، الأثر البالغ في نفس فرويد لحساسيته المفرطة إزاء هذا الأمر. ولم يتخلّص فرويد هو نفسه من إدمان النيكوتين، رغم أنه جاهد لسنوات ضد ما أسماه «عادتي أو رذيلتي». (فلم يرجع فرويد، وفي حرص كامل منه، مشكلة التدخين هذه لعلاقة «قبل أوديبية» بأمّه، ولكن في ما بعد وحتى عام 1929 أشار إلى تماثل مع أبيه كـ«مدخن شره»)[14]، ولقد أدرك فرويد أن إدمان روث بمنزلة مرض يتعيّن فهمه، والتعامل على أنه كذلك، وبالتالي محاولة علاجه بدل الاكتفاء بمجرد شجبه أو إدانته رغم أنه كان يضجر من هذه المشاكل. ولا يمكن أن تكون روث قد دبّرت إدمانها ذاك من منطلق تحدّيها اللاواعي لفرويد، كتعبير عن مشاعرها المتناقضة، فقد كان لديها شيء من هذه المشكلة على مرّ الزمن. أما بالنسبة لفرويد فإن أي مشكلة إدمان هي سيّئة بشكل خاص، وكانت إحدى العوامل الرئيسة لإحباطه وخيبة أمله منها في النهاية.

لما قدمت روث أول مرة لفيينا في عام 1922، لم يكن التدريب يرقى لأكثر من خضوع المتدرّب للتحليل، ويكون ذلك مثاليًّا إذا ما تمّ على يد فرويد شخصيًّا. ولأجل ذلك يحيط قدر كبير من الإيهام حول روّاد التحليل النفسي الأوائل. فمن وجهة نظر معاصرة، يبدو التدريب آنذاك مجرد إشارة، حتى قيل إن معظم «أتباع فرويد الأوائل لم يحظوا إلا... وعندما خضعوا للتحليل كان علاجهم محدودًا وسطحيًّا جدًّا إلى درجة أنه لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج نهائية»[15]. وكان بالإمكان التخفيض من حدّة مشكلاتهم لو أنهم خضعوا لتحليل أوفى.

ولكن تحليل روث طالت مدته إذ امتد لسنوات رغم بعض التقطعات من 1922 إلى 1938، حتى أصبح هذا التحليل المطول بمنزلة ضرب من الإدمان في حدّ ذاته وأعاد إلى

الأذهان ما خشيه فرويد قبل ذلك عند استخدام تقنية التنويم المغناطيسي[16]. وقد ساعدت معالجة فرويد لروث في تبيّن حقيقة التبعية التي كان ينبغي أن تكون مهمة حلها مناطة بعهدة التحليل النفسية.

ولا تتمثل السمة الأساسية للمرض المحزن لروث في أن خضوعها للتحليل على يد فرويد لم يجنبها اضطرابًا مضنيًا، وإنما في كونه كلما طال علاجه لها كلما أصبحا أكثر قربًا، وبالتالي أصبحت مساعدته لها للتغلب على مشكلة التبعية أقل فاعلية.

كان فرويد شغوفًا بالعمل مع روث إلى حد بعيد، حتى أصبحت مشاعره نحوها تعوّق جهودهما لتخطي مشكلاتها. ولقد كانت تستمتع بتبعيتها له وهو ما كان ينبغي معالجته كمشكلة وليس الانغماس فيه كمتعة[17]. ربما كان يتعيّن على فرويد أن يرسلها إلى محلِّل آخر، وكان على روث أن تفعل الشيء نفسه[18]، غير أنه لم يتسنَ لها ذلك إلا أثناء عودتها إلى أميركا حيث ذهبت إلى نبرغ قبل وفاتها مباشرة والذي أراد أن يحتفظ بها لنفسه شأنه في ذلك شأن فرويد، وهو ما تم فعلًا بسبب انسجامها عاطفيًا وفكريًا معه.

يمكن أن تكون للعبقرية قوة إغرائية. وذلك شأنِ فرويد إذ لم يكن الكثيرون قادرين على مقاومة إغراءات عبقريته، وذلك بالرغم من أن الرجل قد لا يكون أوحى متعمدًا إلى هؤلاء ما يثير تزلفهم. لم يكن فرويد يحب الإغراءات، ولكنه كان يثيرها إلى درجة فوق العادة. ورغم أن فرويد أراد تحرير المرضى، إلا أن الأمر انتهى به أحيانًا إلى استعبادهم، خاصة أولئك ذوي القلوب الضعيفة والدفاعات الذاتية المحدودة. وإذا كنّا لا نوافق ذلك المحلِّل النفسي الذي اعتبر أن فرويد قد «دمّر» روث، فلأنها هي نفسها كانت تفتقر إلى النرجسية الأساسية التي تمكنها من الانسحاب بعيدًا عن فرويد ووقاية نفسها.

وكما قال صديق لروث ملاطفًا، لقد كانت كثيرًا ما تجامل بروفيسورها. وكانت تتوقع مثلها في ذلك مثل غيرها من فرويد ما لا يقوى عليه أي إنسان. ولأجل ذلك لعب فرويد دورًا مركزيًا في حياتها كان له الأثر العميق في أطوارها المختلفة. فقد كان فرويد في البداية قريبًا جدًّا من روث، ثم بعد ذلك حاول أن يبتعد عنها أكثر[19]. كانت روث تنزع إلى أن تكون متسلطة ومستبدة إلى جانب تبعيتها لفرويد. يذكر مارك برونشفيك، في ما بعد، مراقبته لمحادثة بين روث وفرويد في شرفة منزلهما، حيث كانت تتكلم بثقة ولكن

بديكتاتورية أيضًا، ورغم أنه لم يتمكن من سماع ما دار بينهما بدقة إلا أنه لاحظ علامات التصلب على وجه فرويد.

كانت خيبة فرويد في روث تتزايد بتزايد مرضه ووهنه، وبتزايد قسوتها وغيرتها تجاه دور آنا فرويد في رعاية أبيها. وبدافع من الحقد، كانت روث تتصرّف بعدوانية. لقد استطاع فرويد أن يتخطى خيبته تلك دون أن يكون بعض المقرّبين جدًّا من كل من فرويد وروث على علم بهذا الأمر. وعلى الرغم من طول مدة التحليل معه، فإن روث أصبحت أكثر إدمانًا من ذي قبل. وفي عام 1937، حين تفاقم مرض فرويد، تطوّرت لديه مشاكل أكثر في التحكم في نزقه تجاهها، وذلك رغم أنها كانت تبدو في الظاهر لا تزال إحدى المقرّبات المفضلات لديه.

ومثلما تدهورت صحة فرويد، تدهورت علاقتهما. ورغم الغبطة التي غمرتها جراء تحليلها من جديد عندما زارته في صيف 1938، في لندن، إلا أنه بدأ يصدّها ويتهرّب منها مع حلول شتاء 1939 وكان ذلك آخر شتاء من حياته. وعندما أرادت أن تراه مرة أخرى، رفض حتى لا تشهد لحظات احتضاره. لقد كان يلومها على ما كان يعتبره الحاجة «الأنثوية الأبدية» لرؤية الأب يحتضر، وربما كانت فكرة فرويد القائلة بأن الاهتمام المفرط قد يخفي شعورًا معاكسًا مشروع تمامًا، ومع تفاقم مشكلاته أصبح أعنف نتيجة شعوره المتنامي بالمرارة. وفي كانون الثاني/ يناير 1939 لم يعد فرويد هو نفسه، وبدأ يتصرّف بشكل غريب نحوها، ورغم خيبة أمله في مارك وروث، ما كان ليعبّر عن خيبته تلك بهذه الطريقة لو كانت صحته أفضل حالًا مما هي عليه. وقد أهداه مارك في عيد ميلاده السبعين أول مجلد من سلسلة تاريخ كامبريدج القديم.

ولأنهما كانا يناقشان علم الآثار سويًّا، فقد حرص مارك على أن يقدم لفرويد نسخة عن كل مجلد يُنشر من هذه السلسلة. ولكن عندما ظهر آخر مجلد في عام 1938، طلبه فرويد لنفسه، وأراد أن يعرف في ما بعد مَن ينبغي له أن يدفع. وكان ألمه ووعيه بدنو أجله يؤثران على شخصيته. وقد قال ذات مرة عن ابنة روث، التي لم يُخفِ إعجابه بها، «أظنني قد سمعت عنها»[20].

عندما هاجر فرويد من فيينا إلى لندن لم تُصاحبه روث لأن أباها كان مريضًا في أميركا، وكثيرًا ما كان مارك يتصل بها هاتفيًّا عبر الأطلنطي، وكانت أمّه تقيم في فيينا مع روث

وابنتهما، وكان أبو روث يحتاج لابنته الوحيدة إلى جانبه، لتأثر بصره وذاكرته بمرضه. وكان النازيون على وشك اجتياح النمسا. ولقد كان لدى فرويد آخرون ليرعوه. وهكذا غادرت روث عائدة إلى الولايات المتحدة مكرهة ومضطرة.

ولبعدها عن فيينا، ساءت حال روث كثيرًا حتى أصابها المُراق فبدت حالها أشبه بمرض الرجل-الذئب في العشرينيات جرّاء تعلق شديد بفرويد تعذر الشفاء منه، وهكذا عانت من آلام رهيبة في عينيها، وطفقت تصف لنفسها العقاقير. ورغم معاناتها ظل فرويد ومحللون آخرون يرسلون لها المرضى على مرّ السنوات. لم تفقد القدرة على التحليل، على ما يبدو، حتى نهاية حياتها تقريبًا. كما حصلت على تصاريح خطية لأصدقائها المقرّبين في فيينا تُتيح لهم الذهاب مباشرة إلى أميركا إن اختاروا ذلك.

حين عادت روث إلى نيويورك من رحلتها الأخيرة إلى لندن كان فرويد يحتضر. وفي أميركا عرفت أسوأ فترة في إدمانها على العقاقير. في عام 1949 توفيت أمها، ولم تمضِ بعد ذلك ثلاث سنوات حتى توفي أبوها، فساء حالها وتعكّر صفو علاقتها بمارك بسببِ شدّة الضغط النفسي الذي عانته في تلك الفترة. والمفارقة أنها بالرغم من مشكلاتها الخاصة كانت ضد تعاطي مارك لشرب الخمر حتى السنتين الأخيرتين من زواجهما، وهو ما جعله يشرب خلسة، وذلك بالرغم من أنه لم يكن مسرفًا في شرب الخمر وفق المقاييس الأميركية. كانت متشبثة بمارك، وذلك دأبها مع أيّ كان ممن ارتبطت بهم. إلا أنها، من بين المحلّلين، كانت أول من احتفى بابن فرويد أوليفر عندما وصل إلى الولايات المتحدة مع زوجته في عام 1943. وبعد سنتين طلّقها مارك، وذهبت إلى ننبرغ أملًا في تحليل أكثر تقدمًا. لقد قالها مارك في ما بعد «لقد انهار كل شيء كانت تحبّه، لذلك فقد انهارت هي الأخرى».

اعترضت سبيل روث في آخر حياتها - وهي التي عانت الكبت في عملها دائمًا - عقبات حقيقية حتى إنها لم تنشر ما كان متوقعًا منها على خلاف حسن ظنها بنفسها وحسن ظن فرويد بها، وهو ما يفسّر جزئيًا محدودية شهرتها لدى جمهور القراء وقد ربط عالم نفس حديثًا العقبات الخلّاقة بمشكلة الهوية: «يتعيّن وجود حس بقيمة الهوية الشخصية منفصل تمامًا عن العمل حتى نضمن فعاليته»[21]. وربما بالغ فرويد في تقدير مواهبها، ولعل هذا يرجع، متى صّح ذلك، إلى جاذبيتها الهائلة التي تحتاج هي بدورها إلى بعض التفسير. وعلى أنه كان حساسًا بشأن الانتحال بالنسبة لتلاميذه الآخرين، إلا أنه قدّم مرّة

على الأقل لروث واحدة من أمهات أفكاره كـ«هدية». فقد قال إنه قد أهداها رؤية مفادها أن العلاقة بين الابن وثدي الأم بالنسبة إلى تطوّر الحس الجمالي(*) ذات أهمية استثنائية. لكن روث فشلت في تتبع إيحاء فرويد الذي عبّر في واحد من مقالاته الأخيرة في عام 1937 عن أمله في أن تنشر مادة مستفيضة عن الرجل-الذئب، الذي كان قد خضع مرة أخرى للعلاج معها[23].

لا نستطيع أن نتأكد ممّا إذا كانت روث ترى انفصالها عن فرويد نفورًا من جانبه، الأمر الذي قد يكون عزز حاجتها له. في الحقيقة، كان فرويد قبل نهاية حياته قد ضاق ذرعًا بها. لم تفقد روث بموت فرويد رجلًا مبجلًا في حياتها فقط، بل ومصدرًا لتعظيم تقديرها لذاتها. وربما تكون قد أدركت آنذاك أنها لم تكن مبدعة بالقدر الذي كانت تعتقد من قبل. وقد حال موتها المبكر دون أن تنشر ما كان متوقعًا منها قياسًا إلى معاصريها.

ولا يُصنَّف موت روث المبكر على أنه انتحار من الناحية التقنية، ولكنه بدا كذلك بوصفه جاء نتيجة سوء استخدام للعقاقير، والتي لم تكتف بذلك فحسب بل دفعها مرضها أيضًا في نهاية المطاف إلى تناول الأفيون بالطريقة التي ربما يشرب بها مدمنو الكحول الويسكي، كما كانت تتعاطى الباربيتورات، ومع طول مدة استخدام العقاقير ساءت حالها وتدهورت صحتها. وعلى الرغم من أنه لم تتعرّض لنوبات أو لم تظهر عليها أعراض أخرى للإدمان، فقد تلقى المكتب الفيدرالي لمكافحة المخدرات إخطارًا في شأنها. ثم ما لبثت أن أصيبت بذات الرئة، وهو مرض واسع الانتشار في صفوف المدمنين. وبعد وقت عصيب، بدت وكأنها تتحسّن، ولكن في الليلة التي سبقت وفاتها لم تكن قادرة على حضور حفل أقيم على شرف ماري بونابرت، وهي أثيرة فرويد أيضًا التي استطاعت في نهاية حياة فرويد أن تتخطّى منزلة روث في حلقته الضيّقة.

كان لموت روث في 25 كانون الثاني/ يناير 1946، وقعًا شديدًا على الجميع، لا سيما مارك الذي رآها قبل وفاتها بست ساعات. وأعلن أن سبب وفاتها «أزمة قلبية حادة ناتجة عن ذات الرئة»[24]، لكن ذلك كان ملفقًا فلقد ماتت بسبب تعاطيها جرعة كبيرة جدًا من الأفيون، وسقوطها في الحمّام حيث ارتطم رأسها بالجدار فتهشمت جمجمتها. ولقد أصيبت روث بإسهال حاد فأخذت المورفين عسى أن توقفه، لتسقط مغشيًا عليها على

(*) سبق إيراسموس داروين فرويد في التعبير عن هذه الفكرة[22].

أرضية الحمّام، ومن المرجح أن تكون في تلك الليلة الأخيرة من حياتها قد أخذت كمية كبيرة جدًّا من الحبّات المنومة ومن ثم وقعت فماتت.

ورغم منزلتها المتميزة بالنسبة لفرويد وللتحليل النفسي، فلم تُنعَ في المجلة الدولية للتحليل النفسي، ولم يكن أحد ليشعر بسعادة في الكتابة عن ذلك بسبب نهايتها المحزنة. واكتفى ننبرغ بكتابة نعي لمجلة فصلية أميركية، أكد فيه فقط على «وفاتها المأساوية الفجائية»[25].

من البديهي أن يكون هناك تعاطف مع حياة الناس التي تشقها أحداث وظروف مأساوية قاسية، إلا أن التأكيد على هذا الجانب دون سواه بشكل مبالغ فيه موقف خاطئ شأنه في ذلك الاستسلام لإغراء المديح. وحسب فرويد فإن الإنجازات لا تخلو من قيود، ولا يخلو أيّ إنجاز مهما كان عظيمًا من خسارة بشرية. ولكن الانتحار، أو تدمير النفس التدريجي، أمرٌ مختلف. فبالإضافة إلى موت كلٍّ من فيديرن، ستيكل، توسك، سيلبيرر، يمكن لنا أن نعثر على حالات انتحار أخرى شهدتها مجموعة المحللين النفسيين الأوائل أمثال كارن ستيفن، أيوجينيا سوكولنيكا، تاتيانا روزنسال، كارل شلوتر، مونرو ماير، مارتن بيك، ماكس كاهين ويوهان هونيغر.

سخر جونز من أسطورة «مخاطر التحليل النفسي التي كانت تقود الناس إما إلى الجنون أو إلى الموت»[26]، وبغض النظر عن الجدوى العلاجية المحدودة للتحليل النفسي، فإنه من المؤكد أن مثل هذه الجدالات المبالغ فيها في غير محلها. ولكن يبقى مدعاة للانزعاج أن ينتهي الأمر بهؤلاء المحللين الأوائل إلى الانتحار أو أن تسوء حالهم بشكل كارثي. عندما علم فرويد بموت هونيغر في 1911 كتب رسالة إلى يونغ عبَّر فيها عن انزعاجه من هذا الأمر قائلًا: «أتعلم، أعتقد أننا نتّجه نحو الفناء حتى لا يكاد يبقى منّا إلا نفر قليل جدًّا»[27]. إن السؤال الذي يطرح نفسه يتعلق بما إذا كانت هذه المجموعة أكثر انزعاجًا من أية مجموعة أخرى من الناس. يبدو أن انتصار أفكار فرويد لم يكن ليتحقق دون أن تبذل في سبيله بعض الأرواح. وذلك دأب كل الأفكار العظيمة التي عرفتها البشرية عبر التاريخ. ولعل تسليط الضوء بشكل مكثف ومجهري على جماعة التحليل النفسي هو ما جعلنا نتعرف عن كثب على العديد من خفاياها. فكلما تفحصنا أيّ حياة بشرية بعناية واهتمام كافيين فسنكتشف الكثير من الألم والمعاناة والعذاب الباطني، دون أن يعني ذلك أن المأساة هي التجربة الإنسانية الوحيدة. وبدل أن نختلق التفاهات والأعذار التي نعمد

إليها عادة لتبرير إخفاقاتنا ولتوصيف الجوانب المظلمة في حياتنا، سيكون أسهل علينا لو سعينا لإيجاد المفاهيم المناسبة لذلك.

3 - آنا فرويد: التحليل النفسي للطفل

تقف حياة آنا فرويد الصافية الهادئة في تناقض صارخ مع اضطراب حياة روث ماك برونشفيك وذلك رغم متانة وحميمية صدقاتهما. والطريف في الأمر أن المنافسة احتدمت بينهما في بعض الفترات من أجل نيل اهتمام فرويد. وكانت آنا تغار من النساء المقرّبات جدًّا من والدها، وكانت ذكريات مشاعر الغيرة لديها وسيلة لزعزعة أهمية النساء في حياة فرويد[1]. وفيما كانت معظم تلميذاته يرتجين حبّه، استفاد فرويد منهن في نشر التحليل النفسي وتوسيع مجاله. ولم تكن آنا تغار من أمها مارتا لأنها لم تكن تنافسها على أبيها أصلًا. ولأجل ذلك كانت آنا تفتخر بأبيها إذا أمسك نفسه عنهن جميعًا، ومثلها مثل أمها وجدتها لأبيها بوأت أباها منزلة عليّة، وكان موقفها منسجمًا ومتطابقًا تمامًا مع مارتا في مواجهة النساء الأخريات في حياة والدها. أما المنافسة التي عاشتها آنا فكانت بينها وبين نساء أخريات على غرار روث ماك برونشفيك. ويبدو أن تعلّق فرويد الشديد بابنة روث ومارك تيللي قد زاد في غيرة آنا من روث، فلقد اقتصر دورها على رعاية أبيها الذي لازمته على الدوام شأنها في ذلك شأن أيّة فتاة عزباء.

وكانت آنا المولودة في عام 1895 آخر ذرية فرويد، ويبدو أن أبويها لم يكونا راغبين في ولادتها ويعود ذلك لتخوّف فرويد من اضطرابات قلبية ألمت به قبل سنة من ذلك، وأما أمها فقد كانت منذ البداية منزعجة حيال حملها[2]. وقد سُمّيت البنت على اسم صديقة للعائلة، كما كان اسم آنا كذلك اسمًا لإحدى أخوات فرويد التي لم يكن يحبها كما يحب بقية إخوته. واللافت في كل ذلك أن ممارسة فرويد تحسنت بشكل إيجابي في فترة ولادة هذه الطفلة[3].

لم يكن فرويد أبًا نشيطًا في رعاية أطفاله بشكل يومي. فما أطعمهم البزازة قط أو غيّر لهم الحفاضة، ولم يستطيعوا الخروج مع «بابا» للتنزه قبل أن يكتمل تدريبهم على النظافة. ورغم ذلك، فمن آن لآخر كان يستغل في كتاباته «المادة التي يقدّمها أطفاله»، وقد أشار إلى أحد أحلام آنا في كتابه «تفسير الأحلام»[4]. ولقد كانت مارتا تضع حدودًا على استخدامه أطفالهما كموضوعات بحث، فيما كان يتمتع بحرية أكبر كلما تعلق الأمر بتربية

الأولاد الأكبر سنًا[5]. وكان فرويد واعيًا بمشكلاته ضد الأوديبية الخاصة. فما الذي يأتي في المقام الأول، مشاعر فرويد أم مشاعر طفلته الصغرى؟ ولكن حياة آنا فرويد انعكاس لمبدأ والدها القائل إن «العاطفة الأولى للبنت تكون لأبيها...»[6].

كبرت آنا فرويد حتى صارت امرأة شابة زاهدة في كل ما هو دنيوي وكانت تشبه في بنيتها الجسدية عائلة أبيها. وقد كتب لها فرويد على الأقل رسالة واحدة عندما كانت في سن المراهقة عبّر لها فيها عن شعوره بالتعاطف معها، حثها فيها على أن تكون ليّنة العريكة، لأنها كانت تضجر كثيرًا في وقت الفراغ. وقد طلب منها فرويد في تلك الرسالة ـ وهي في سن السابعة عشرة حيث كانت الفرصة مؤاتية لها للتمتع بأشعة الشمس في الشتاء البارد بعد مرض ألمّ بها ـ قائلًا:

> **«يُمكن لكِ بكل بساطة أن تؤجلي واجباتك المدرسية حتى تتعلمي كيف تنجزينها على نحو أقل صرامة، فلن تهرب منك. ومن الأفضل لك أن تنسيها قليلًا حتى لا تفوّتي على نفسك فرصة الاستمتاع بأشعة الشمس الدافئة في عزّ الشتاء. وأخبرك بأن رسائلك أسعدتنا جميعًا بشكل كبير جدًّا ولكن أخبرك أيضًا أننا ما كنا لننزعج أبدًا لو أنك لم تكتبِ إلينا فلا تشغلي بالك كثيرًا بأن تكتبي إلينا يوميًّا، لا تستعجلي الأمور فأمامك طريق طويل شاق، فما زالت صغيرة بنيّتي»**[*][7].

وشبّه فرويد تعلقه ببناته الثلاث بالملك لير، ويظهر موضوع هذا التعلق والولع في كتاباته[9]. فقد كان يشير إلى آنا صراحة في رسائله بأنتيجونا المخلصة، ابنة أوديب الضرير والعليل[10]. ولأنها لم تتزوج ولا تعلم شيئًا تقريبًا عمّا يجري خارج نطاق العائلة، فقد أصبحت آنا بطريقة ما ضحية لاستفحال شيخوخة أبيها.

وكان الناس يقولون عن أي عازب يظهر في حلقة المقرّبين من فرويد عندما كانت آنا فتاة شابة، أنه ينشد الزواج منها لأنها كانت جميلة وحيية. وفي هذا الصدد راجت شائعات عن زواجها من رانك على وجه الخصوص. وزعم فرويد مرارًا في تحليلاته لتلاميذه،

(*) ذكرت آنا فرويد في ما بعد موقفها في شأن ذلك تقول: «في السن التي تسبق القدرة على المطالعة في استقلال تام حيث يكتفي الأطفال بالاستماع إلى ما يُحكى لهم من القصص، كنت اهتم فقط بتلك التي تكون «أقرب إلى الحقيقة»، دون أن يعني ذلك أن تلك القصص حقيقية بالمعنى العادي للكلمة، وإنما يُفترض ألا تتضمّن عناصر تمنع إمكانية حدوثها في الواقع، كلما أصبحت القصص تعبّر عن حيوانات تتكلم أو عن ظهور جنيات وساحرات وأشباح. وباختصار كلما أصبح الحديث عن أيّ شيء غير واقعي أو غير طبعي، يتراجع اهتمامي ويتلاشى. والغريب في الأمر أني لم أتغيّر كثيرًا في هذا الصدد»[8]. وقد تكون خرافات أيسوب أو لافونتين عسيرة على أن يُدركها الأطفال في سن مبكرة.

بأن لديه رغبة في الزواج من إحدى بناته، وقد علق بينسوانغر على «تفسير فرويد لأحد الأحلام... وهو تفسير لم أجده مقنعًا وكان يشير إلى رغبته في الزواج من ابنته الكبرى، وفي الوقت نفسه، كان يشتمل على إنكاره لهذه الرغبة...»[11]، ولم يتورّع فرويد عن عرض مثل هذا التفسير على أحد مرضاه، وهو الرجل-الفأر.

كان يأتي كل خطّابي آنا عن طريق أبيها وإخوتها الأكبر سنًّا. ويقال إنها وقعت في غرام ثلاثة على الأقل من حلقة المقرّبين من أبيها وذلك على فترات متقطعة وهم سيغفريد بيرنفيلد، وهانز لامبل، وماكس إيتنغون، إلا أن ارتباطها بأبيها حال دون ذلك[12]. وقد عبّر فرويد في العام 1935عن «قلقه» بشأنها من بعده قائلًا: «إنها تأخذ الأمور بجدية بالغة. فماذا عساها أن تفعل بعدي؟ أتراها ستزهد في الحياة؟»[13].

وقد أصبحت مدرِّسة بمدرسة لتعليم الأطفال الصغار دون أن يكون لديها أيّ تأهيل علمي في ذلك (فهي لم تكمل حتى المرحلة الثانوية). وامتهنت التدريس لخمس سنوات[14] في مدرسة ابتدائية لقاء أجر زهيد. ولكنها واظبت على محاضرات أبيها في الجامعة، فكانت تخطّ كل ما يمليه عليها وتساعده في مهام السكرتارية. كما كانت تحضر الاجتماعات في جمعية فيينا، رغم أنها لم تكن عضوة فيها منذ أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. ولما أتيحت لها فرصة إلقاء محاضرة أمام الجمعية في 13حزيران/ يونيو 1922، حول «التغلّب على التخيّلات وأحلام اليقظة» Beating Phantasies and Day Dreams استطاعت أن تخطو أولى خطواتها في اتجاه الحصول على العضوية الكاملة في الجمعية. وقد تحدث دون أن تعتمد على نص جاهز لمحاضرتها شأنها في ذلك شأن والدها. واقتحمت ميدان ممارسة التحليل النفسي قبل أن يسقط أبوها مريضًا في 1923 مباشرة، من خلال تحليل الأطفال.

شاع اعتقاد راسخ بين تلامذة فرويد مفاده أن لو أندرياس-سالومي هي التي قامت بتحليل آنا[15]، ولا بدَّ أن فرويد متردد بشأن إرسال آنا إلى محلِّل من محلِّلي فيينا. وأصبحتا، لو وآنا، صديقتين حميمتين في ما بعد، وقد أفردت لها لو واحدًا من كتبها[16]. وإزاء ما حققته لو من نجاح باهر مع الرجال ذاع صيتها، فهي بلا شك كانت تمنع من تحليل آنا فرويد الحيية والمنطوية. وعلى الأرجح أن آنا ولو تنافستا على فرويد نفسه. ولكن كان هناك شاهد واحد على الأقل كان واثقًا من أن لو حللت آنا خلال إقامتها في شقة فرويد في فيينا[17].

على أية حال لم تكن لو أول من حلّل آنا، فقبل ذلك، رغم قواعد التقنية التحليلية التي كان فرويد قد وضعها للآخرين لكي يتبعوها، كان قد حلل ابنته بنفسه، وقضى فرويد بصحبة آنا شهرًا كاملًا في بودابست عام 1918 وكان قد باشر تحليلها من قبل[18]. ويتذكر أحد أبناء فرويد، وهو أوليفر، أنه في ربيع عام 1921[19] كانت أخته تتردّد على مكتب أبيها من أجل تحليلها. وقد كان لحقيقة تحليلها على يد أبيها دورًا كبيرًا في تحليلها لمريض واحد على الأقل من مرضاها[20]. ويبدو أن فرويد كان صريحًا بخصوص هذا التحليل، حتى أنه رد في رسالة على إيدواردو ويس عام 1935، وكان سأله آنفًا النصيحة بخصوص تحليله لابنه، بأن الأمور بما يتعلق بتحليل ابنته جرت على أحسن ما يرام بينما لم تكن كذلك مع الولد:

«بخصوص تحليل ابنك الواعد، فإن الأمر يبدو بلا شك حساسًا ودقيقًا ربما يكون أسهل لو أجري على أخيه الأصغر. لقد نجحت في ذلك مع ابنتي بشكل جيّد. ثمة صعوبات وشكوك خاصة كلما تعلّق الأمر بالولد. وفي الحقيقة، لا يعني ذلك أني أحذرك من خطر ما، فمن الواضح أن كل شيء يتوقف على الشخصين وعلاقتهما ببعضهما البعض. وأنت تعلم المصاعب. ولن أتفاجأ أن تتغلب عليها رغم ذلك. وإنه لمن الصعب لغريب أن يقرر. وعليه أنصحك ألا تفعل ذلك ولكن ليس من حقي أن أمنعك»[21].

فسّر ويس رسالة فرويد على أنها دعوة صريحة لثنيه عن هذا الأمر.

وفي ضوء اضطلاع فرويد بتحليل ابنته، تضاءلت كافة النزاعات بشأن مقومات التقنية التحليلية النفسية المناسبة حتى أصبحت مجرد تفاهات، كالتساؤل عمّا إذا كان على المحلل أن يعود المريض ثلاث أو أربع أو خمس مرات في الأسبوع، أو ما إذا كان يُسمح للمريض أن يقرأ الأدبيات التحليلية أم لا، أو ما إذا كان التحليل يتطلب استخدام أريكة، أو ما هو حجم النشاط المطلوب من المحلل. ولكن عندما كان جونز مسافرًا إلى أميركا للمشاركة في الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد فرويد، اقترحت آنا مناقشة العلاقة بين التحليل النفسي والعلاج النفسي، واضعة نصب عينيها أهمية الثاني بحيث يجب أن يُحذر منه بشكل جدي[22].

وبالنظر إلى ما طوّره أتباع فرويد من قواعد تقنية ملاءمة ووجيهة ودقيقة، فإن افتضاح تحليل فرويد لابنته يجعل وضعهم أكثر صعوبة، فلقد كان تحليل فرويد لابنته سرًّا لا يعلمه

إلا عدد محدود من حلقته الضيقة، فيما مثل ذلك بالنسبة إلى غيرهم من المهتمين بتاريخ الحركة صدمة، ولم يكن بعض المحللين القدامى في فيينا على علم بهذا التحليل أو أنهم لا يرغبون سماع الحديث عنه.

ومن وجهة نظر فرويد، فقد كانت هناك أسباب وجيهة لما أقدم عليه. فالقواعد التي أرساها في أبحاثه لم تكن معدّة له هو، كما لم يكن يتوقع أن يتبعها تلاميذه حرفيًا إطلاقًا، وقد تكون آنا فرويد هي التي رفضت الذهاب إلى محلّل آخر. وبالتأكيد ما كان لأيّ محلّل آخر أن يجرؤ على أن يفصل آنا عن أبيها، الأمر الذي يفترض أن يكون جزءًا من مهمة أيّ تحليل نفسي ملائم. ولا بدَّ أن فرويد كان يخشى عليها من أن يؤذيها محلل آخر. وربما فكر بأنه قد يجري هذا التحليل بشكل فضفاض، ولأهداف علاجية محدودة، بينما كان يعلمها أفضل ما كان يعرفه. فقد بلغ به الأمر حدّ اطلاع ابنته على كيفيه القيام بذلك دون أن يأمل في توضيح علاقتها به، لأن ذلك كان مستحيلًا من الناحية العملية.

وكان فرويد قد حلّل نفسه، ولعلّه لأجل ذلك قد يكون فكّر بأنه قادر على أن يحلّل ابنته. وفضلًا عن ذلك قد تكون لدى أيّ محلّل آخر سيذهب إليه علاقة وجدانية ما معها على نحو مسبق بوصفها ابنة معلمه، ولذلك ربما لم يكن واثقًا تمامًا بما يمكن أن يحققه أي شخص آخر. وإذا لم يكن فرويد يستطيع أن يقوم بالتحليل النفسي بكل حرية، فمن ذا الذي يستطيع أن يفعل ذلك؟ وفي الوقت نفسه تحليل آنا وخضوعها له قد بلغا حدّ الاتفاق المتبادل بينهما على أن تبقى معه. وقد كان التحليل النفسي مهمًا جدًا لكليهما لدرجة أن كل شيء آخر أصبح تافهًا. وربما كان الاعتبار الأساس بالنسبة لهما هو أن يساعد التحليل على إعدادها كمحللة مستقبلًا، ولكن آنا ربما كانت آنذاك أكثر خوفًا من أبيها ممّا كان يعرف أيٌّ منهما.

وربما كانت دوافع فرويد هي الأفضل على الاطلاق، لكن الوضع بدا غريبًا من الناحية الطبية والإنسانية. فحتمًا كان فرويد، كمحلل لآنا، سيثير مشاعر التقييم المفرط لديها بشكل لا يمكن تفاديه، في الوقت الذي يتدخل فيه في خصوصيتها. وهذا ما أضاف مشاعر تحويل جديدة لعلاقتهما، دون إمكانية حلها بشكل فعلي إطلاقًا ولما كان فرويد عبقريًا بارعًا بحيث كان من الطبيعي جدًا أن يحتل منزلة متميزة في مخيلة ابنته كشخصية فذة، فقد تعلقت به تعلقًا شديدًا بحيث يعسر عليها أن تنفصل عنه.

لقد كان فرويد يستطيع أن ينتقد تجاوزات المحللين الآخرين التقنية بشكل حاد. فقد

كتب مثلًا إلى ساندور فرينشيزي «إن على المرء أن يدافع بصراحة عمّا يفعله في تقنيته»[23]. أشبع تحليل فرويد لابنته عقدة أوديبية لديه بلا شك. وفي الآن ذاته سيكون من المفيد جدًّا أن تنضم آنا للحركة التحليلية النفسية كمحللة. فقد ساعد التحليل على تحديد وحصر احتمالات وإمكانات التعظيم الشخصي، رغم أنه كان لها دور في حياة أبيها بالإضافة إلى قيادتها للحركة في النهاية، وفي ذلك إثراء متبادل. وربما لم تكن علاقتها بمثل هذا الأب تراجيدية إلا وفق المعايير الطبيعية فقط.

وفي الحقيقة، في العشرينيات وحتى بعد موت أبيها، لا شيء كان ينبئ بأن آنا ستصبح رائدة التحليل النفسي. فلما كانت شابة بدون أوراق اعتماد رسمية، حظيت دائمًا بحماية ورعاية بعض تلاميذ فرويد القدامى.

وقد بدا دفاع فرويد عن التحليل العادي لغير المتخصصين من الأطباء، بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يهتّمون بوجود آنا في الحركة وما يعنيه ذلك بالنسبة إلى فرويد، كما لو كان أُخترع على الأقل في جزء منه من أجل ضمان مستقبل آنا. (قيل إن مدخرات فرويد طوال حياته قد استنفدت في فترة التضخم التي أعقبت الحرب). ولكن الأشخاص العاديين غير المتخصصين الذين لم يتلقوا تدريبًا علميًّا أكثر عرضة للتديّن، وكانت تميل متطلبات الدرجة العلمية الطبية على الأقل إلى أن تلفظ أولئك الذين يأتون للتحليل وقد شغلتهم مصاعبهم النفسية كثيرًا. وكان فرويد يشجع بعض تلاميذه على دراسة الطب، ليس لأنه مهم في ذاته ولكن لكي يسهل عليهم مهنتهم كمحللين[24].

وفي فترة الحرب العالمية الأولى كتب فرويد أن «التحليل النفسي إجراء لمعالجة مرضى العصاب طبيًا»[25]، حتى أنه في 1918 كان يُنظر للمحلِّل النفسي على أنه طبيب. ولكن منذ 1924 اعتقد فرويد أنه «لم يعد ممكنًا اقتصار ممارسة التحليل النفسي على الأطباء دون سواهم من المحللين العاديين غير المتخصصين من الأطباء»[26]. ولقد كان لدى فرويد مبرراته للاستياء من هذا الأمر: «ليس من حق الأطباء ادعاء احتكار التحليل، فعلى العكس من ذلك كانوا هم أول من استقبلوه بازدراء حتى فترة متأخرة بدءًا بالتهكّم المبتذل وانتهاءً بالافتراء الأشد خطورة[27].

وقد استطاع فرويد أن يتحمّل الصراع حول التحليل العادي، ويستشهد به كدليل على أن: «الاختلافات في الرأي متاحة حتى في معسكرنا»[28]. ولكن كان أشد ما يثير حفيظته أن ينكر عليه الآخرون حقّه في أن يعدّ ابنته الصغرى كمحللة، وكان يرى معارضة التحليل العادي

بمثابة هجمة ضد آنا وعلى أنه نقد ضمني له أيضًا. وكتب فرويد في 1926 أن «ابنتي آنا قد كرست نفسها للتحليل التربوي للأطفال والمراهقين. ولم أحوِّل إليها أبدًا حتى الآن حالة من حالات العصاب الشديد لدى البالغين». (وأضاف على الفور: «لقد تصادف، أن الحالة الوحيدة ذات الأعراض الحادة نوعًا ما القريبة من الأعراض الطبية-النفسية التي كانت تعالجها آنذاك، كوفئ عليها الطبيب الذي حولها إليها لنجاحها التام في معالجتها»[29]). لا يتطلب التعامل مع الأطفال الصغار كفاءة طبية معينة كما هو الحال مع البالغين، وذلك لأن الشخص ما إن أن يُنهي تدريبة يكون قد كبر بحيث يمتلك الصبر الكافي للتعامل مع الأطفال (لأن التحليل النفسي للأطفال يضاف إلى المهارات التحليلية الأساسية).

وقد اكتسبت آنا فرويد شهرة لها ما يبررها لقاء مراقبتها ومعالجتها للأطفال الصغار. وكانت هرمين فون هوغ-هيلموث (1871 - 1924) قد سبقتها في فيينا في هذا المجال، وقد طوّرت ميلاني كلاين في برلين ولندن تقنية مختلفة للتعامل مع الأطفال إضافة إلى تكوين شبكة من المفاهيم الوجيهة الخاصة بها. وفي فيينا كان أوغست إيكورن، مهتمًا بمعالجة الجانحين، في حين ركز كل من بفيستر (في زيوريخ) وبيرنفيلد (في فيينا) على المراهقين. ولكن آنا فرويد هي التي تخصصت في الأطفال الصغار، وحتمًا فقد أثارت غيرة هرمين فون هوغ-هيلموث.

لقد وافت المنية الدكتورة هرمين فون هوغ-هيلموث بعيد اقتحام آنا فرويد مجال التحليل النفسي رسميًا بقليل. وقد كانت هوغ-هيلموث تبدو في الظاهر كامرأة صغيرة، مقروصة وبدينة وغير أنيقة، فكان من السهل على الآخرين أن يتندروا بها، ولكن عملها كان أصيلًا. لقد كانت واحدة من القلة من غير اليهود وواحدة من القلة من النساء اللائي كنّ في جمعية فيينا. وقد أنشأت العلاج النفسي عبر اللعب كوسيلة للتواصل مع الأطفال الصغار. ويبدو أنها كانت واسعة الخيال حتى أنها اختلقت لنفسها مذكرات حول فترة شبابها، والتي لا تزال متوفرة في نسختها المترجمة إلى الإنكليزية تحت اسم «مذكرات فتاة شابة» قدّمه لها فرويد[30]. من المتفق عليه عمومًا أن هذا الكتاب كان مغشوشًا وخلق ظهوره فضيحة، وتم سحبه من النشر في ألمانيا، وفي أحسن الحالات يمكن اعتبار الكتاب استعادة لذكريات طفولتها في ضوء نظريات التحليل النفسي في العشرينيات. وبذلك عرض كتابها كل ما كان تعلمه الفرويديون آنذاك عن طبيعة الجنسية الأنثوية.

ولم تكن هوغ-هيلموث مقرّبة من فرويد بصفة خاصة إلا أنه كان معجبًا بها أيّما

إعجاب. وقبل سنة من وفاتها تقريبًا، بدأت آنا ممارسة التحليل النفسي. ومنذ أن باشرت آنا التحليل مع الأطفال خطفت الأضواء من هوغ-هيلموث التي أفل نجمها. وبداهة شعرت هذه الرائدة في ميدان التحليل النفسي للطفل بالغيرة تجاه منافستها الجديدة.

وبعد اجتماع سالزبورغ للمحللين النفسيين في 9 أيلول/ سبتمبر 1924 بفترة وجيزة، اغتيلت هوغ-هيلموث على يد ابن اختها غير الشرعي الذي ربّته بسبب خلاف حول مبلغ من المال على ما يبدو. وقد خلّفت حادثة اغتيالها صدمة هائلة في أوساط جماعة التحليل النفسي. ولقيت محاكمة ابن اختها ذي الثامنة عشرة عامًا تغطية صحفية واسعة، وتمّت إدانته وسجنه.

وقبل أسبوع من اغتيالها طلبت هوغ-هيلموث ألا تُنعى في أيّ من المنشورات التحليلية النفسية بعد موتها[31]. فهل يعني ذلك أنها كانت تتوقع موتها؟ يبدو أن علاقتها بابن اختها لم تكن مجرد علاقة خالة أو أم بديلة، بقدر ما كانت علاقة معالجة بمريض. فقد كانت «تراقبه وترصده» منذ كان صغيرًا، وكان يعمل في كل مرة على أن يشرح لها كل ما يكتبه. وهو ما حدا بأحد المحللين - مقتنعًا بأن قتل المعالج على يد مريضه يعبّر في الغالب عن نزوة تدميرية ذاتية كامنة في المعالج لا يمثل المريض سوى وسيلة لتحقيقها - إلى اعتبار موت هوغ-هيلموث بمثابة حالة انتحار.

قضى الفتى مدة عقوبته، وبعدما خرج راح يطالب جمعية التحليل النفسي في فيينا بتعويضه كضحية للتحليل النفسي. وأوصى هيتشمان بأن يذهب الفتى إلى هيلين دويتش للعلاج لأنه كان يعتقد أن من الأفضل له لحل مشكلاته أن تتم معالجته على يد امرأة. وكان الفتى يشعر بمرارة لأن خالته العانس قد استغلته كحالة مرضية، بدلًا من أن تمنحه حبها، فلم تكتفِ هوغ-هيلموث بمعاينة الوجه العرضي من سلوكه من أجل عملها، وإنما قامت بدراسة حالة الطفل بشكل مُمنهج ومُنظّم. وربما كان شجارهما حول المال مجرد ذريعة للقتل، بيد أن اقتراح هيلين دويتش كمحللة ثانية لهذا المريض الشاب الذي كان آنذاك يطالب مؤسسة التحليل النفسي بالتعويض المالي، أثار حفيظتها، مع العلم أن خالته الفقيدة كانت تمثل تلك المؤسسة. ولقد أدركت هيلين دويتش أن تحويل هذا الشاب إليها من هيتشمان مكيدة دُبّرت لها من زميلها بدافع الغيرة والعدائية. وكان زوجها مهتمًا جدًّا بشأن سلامة زوجته حتى أنه استأجر لها مخبرًا خاصًا ليراقب تصرف الفتى.

وكان لعمل آنا فرويد مع الأطفال وقع مميز منذ البداية، فقد عملت على تكييف التقنية الكلاسيكية في التحليل النفسي مع القدرات والقوى الخاصة للأطفال الصغار الذين ما كانت أفكارهم لتتداعى بشكل حر تمامًا عند استلقائهم على الأريكة. وقد ساعدها في ذلك خبراتها التربوية كمدرّسة، سيّما وأنها كانت تؤمن بأن الأطفال يحتاجون لأن يُنشئوا علاقة تربوية متينة مع المعالج قبل أن يقبلوا بالتفسيرات.

ويتمثل التميز الأساسي بين تحليل البالغين وتحليل الأطفال، حسب آنا فرويد، في أن الأطفال لا يزالون متعلقين بآبائهم في الحياة اليومية، وبالتالي ليست لهم القدرة على توطيد ذلك النوع من التحويل الذي يمكن للبالغين توطيده. هذا وأنه ليس في وسع المحلّل في التحليل النفسي للأطفال أن يجد غير ردود أفعال تحويلية لا ترقى إلى مرتبة العصاب التحويلي الحقيقي. وخلافًا للمحلّلة الأكثر نقاء من الناحية التحليلية ميلاني كلاين، افترضت آنا فرويد وجود طور ضروري قبل إمكانية الشروع في معالجة تحليلية للطفل. واقترحت أيضًا أن يتم العلاج بالعودة قدر المستطاع إلى والدَيّ الطفل. (وهو اتجاه في التبرير سبقه إليها طبيب أطفال في حلقة فرويد، وإن بشكل جزئي، ويدعى جوزيف فريدغانغ، الذي قال في 1909 إنه: «يكفي في العديد من الحالات أن نغيّر ببساطة الوسط أو التأثير الذي يمارسه المحيطون بالطفل حتى نتمكن من القضاء على الأعراض»[32]).

كان بعض المحللين النفسيين في فيينا يُخضعون أطفالهم للتحليل دون أن يستشيروا فرويد في ذلك ضرورة، وخلافًا لميلاني كلاين التي كانت تعتقد بأن تحليل الطفل كان يوفر أفضل وقاية للطفل ضد العصاب، لم يكن المحللون النفسيون للأطفال في فيينا، بصفة عامة، مقتنعين بأن كل طفل يحتاج إلى العلاج. ولم يكن من غير المعتاد أن يرفض محلّل نفسي معالجة طفل على أساس أنه طفل سويّ بما فيه الكفاية. ولكن حالة طفل في الثالثة من عمره، والذي أقدم على الانتحار في ما بعد في بداية بلوغه، من شأنها أن تميط اللثام عن محدودية معرفتنا في هذا المجال.

وقد كان فرويد فخورًا بأن المحللين قد انتقلوا من دراسة مرحلة الطفولة عبر استحضار ذكريات المرضى البالغين حول تلك المرحلة وصولًا إلى الملاحظة المباشرة لها: «كنّا قد بدأنا باستخلاص محتوى الطفولة الجنسي من تحليل البالغين... وفي ما بعد، أجرينا تحاليل على الأطفال أنفسهم...»[33]، ولكنه أصر على أنه رغم أن: «التحليل النفسي يمكن استدعاؤه بواسطة التعليم كوسيلة مساعدة للتعامل مع الطفل... فهو ليس بديلًا مناسبًا

للتعليم. ولا يجب أن ينخدع المرء بالقول إن التحليل النفسي لعصابي بالغ مكافئ للتربية البعدية، وإن بدا صادقًا أحيانًا»[34].

تخلّى فرويد عن التحليل النفسي للطفل بتمامه لآنا. وسلكت آنا طريقها الخاص بها. ورغم شكوك فرويد حول إمكانات العلاج بالنسبة للأطفال الصغار، فإنه كان يفضّل الاستكشاف من خلال المعاينة المباشرة للأطفال. وقد أشار فرويد إلى أنه لا وجود لبيداغوجيا تحليلية، ولم يكن يعطي مرضاه نصائح حول أطفالهم. وقد كان ذلك معروفًا جدًّا لدرجة أن العديد من مرضاه ما كانوا ليجرؤوا على طلب مثل هذه النصيحة. ويقينًا كان فرويد واعيًا بأهمية «تطبيق التحليل النفسي في ميدان التربية، وفي تنشئة الأجيال المقبلة»، وكتب قائلًا: «ليس لي إلا أن أعبّر عن سعادتي على الأقل لأن ابنتي، آنا فرويد، قد نذرت حياتها لهذه الدراسة حياتها فكفّرت بعملها ذاك عن إهمالي»[35]. عندما يفكّر شخص بعيادة جيمس جاكسون بوتنام في بوسطن، أو بجامعة برونو بتلهايم في شيكاغو لتحسين النسل، فإنه يتّضح كيف يمكن البناء على الجهود التي بذلتها آنا وزملاؤها منذ البداية، وتطويرها بحيث أمكن معالجة الأطفال ممن بدت معالجتهم بواسطة التحليل النفسي مستحيلة.

ورغم تنصّل فرويد من التحليل النفسي للطفل، فقد كانت لديه أفكار محددة عن تربية الطفل. فعلى سبيل المثال، نُقل عنه أنه يعتقد بأنه «المثليّة الجنسية غالبًا ما تتطور لدى الطفل الذي يحظى بعطف زائد من قبل أمه»[36]. وذات مرة حين كانت زوجة أحد أبناء فرويد تبالغ في احتضان طفلها الرضيع، غضب منها فرويد ووبّخها على ذلك[37]. ربما خشي من احتمال حدوث إغواء أوديبي، وبعد ذلك ببضع سنوات جادلت تلك الزوجة مدافعة عن نفسها قائلة بأن الأطباء في تلك الأيام يطلبون من المرأة أن تفعل العكس (وكان عمر طفلها الرضيع آنذاك ثلاثة أو أربعة أشهر بحيث لا يستطيع أن يقوى على النهوض بمفرده). وعلى ندرة نصحه في مجال تربية الطفل، فلم يكن يُعتدُّ به كثيرًا. وهنا تكمن المفارقة: فقد اعترف بنجامين سبوك إلى أي حدّ كان مدينًا للتحليل النفسي، وكانت كتيبات فرويد عملية وجيّدة.

وبقدر ما لم يكن فرويد يريد أن يخبر الناس كيف يعيشون، نراه وقد كان يصر على أهمية تنوير الأطفال جنسيًّا، وقد أرسل بأبنائه لطبيب عائلة حتى يتعلموا حقيقة الحياة، ولكنه اقترح بأن «يكون تنوير الأطفال تدريجيًّا ومنذ البداية. ولا بدَّ أن نتعامل مع الحياة

الجنسية، منذ البداية، دون تكتم في حضور الأطفال»[38]. يعتقد فرويد أن تعويد الطفل على مواجهة مصاعب الحياة يُعدّ من بين المسؤوليات المناطة بعهدة المدرسة، وتعد المشكلات الجنسيّة جزءًا مهمًّا من هذا التعوّد... وعلى التنوير، قبل كل شيء أن يوضح لهم أن تلك مسألة أفعال على صلة بالحنان»[39] لأن «الضرر الأساسي الذي يحدث عن طريق إهمال (تنوير) الأطفال يكمن في الحقيقة التي تقول بأنه بالنسبة إلى بقية حياة الطفل، تكون الجنسية مطبوعة بالتحريم ومبتلاة به...»[40].

4 - آنا فرويد: سيّدات بالخدمة

بعدما سقط فرويد مريضًا في 1923، تعاظم دور آنا تجاه والدها بشكل مطرد بوصفها حارسة ووصية على وقته وصحته. ورغم أنه كان يفضل كتابة رسائله كتابة عادية دون اختزال، فقد قامت في بعض المناسبات بدور سكرتيرته الخاصة. وكلما تزايد عجز والدها، كلما تأكدت حاجته إليها أكثر فأكثر بوصفها أشد الناس قربًا منه وملازمة له[1]. كما كانت النسوة الأخريات من دائرته حاضرات ليحجبوا عنه غير المرغوب في رؤيتهم من الدخلاء، ولكن آنا كانت حسّاسة بشكل خاص تجاه مظاهر الغيرة في جمعية فيينا، سيما وأنها أصبحت تتمركز بشكل متزايد حول أبيها[2]. وأي امرأة كانت تعرف فرويد قبل مرضه ربما تكون لديها الآن علاقة معه يمكن أن تلجأ إليها وستستفيد منها. ولكن الوافدات الجديدات إلى حلقة فرويد كن يملن إلى التقرّب منه من خلال ابنته آنا. وما يثير الاهتمام في كل ذلك هو أن تلك النسوة كن إمّا غير متزوجات أو منفصلات، أو ذوات أزواج غير مهمّين بشكل معيّن.

وعلى سبيل المثال، دخلت إيفا روزنفيلد عالم فرويد في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1924 كصديقة لآنا. ولأنها كانت كذلك ابنة أخت إيفيت جيلبرت مغنية فرويد المفضلة، فقد تبنّت العائلة إيفا، من ذلك مثلًا أن الأمر وصل بهم إلى حد الاحتفال بعيد ميلادها. وفي عام 1929 أخضعها فرويد للتحليل، بإيعاز من آنا دون يأخذ منها تكاليف العلاج. وظلت قيد التحليل لشهرين، وذلك لست مرات في الأسبوع. وبعد أن انتهى التحليل، وفي مساء يوم أحد، عندما كانت تخرج آنا في جولة بالسيارة مع صديقتها دوروثي بيرلنغهام، أعاد فرويد تحليل إيفا، وأثناء تحليلها أشار إليها ذات مرة إلى أن السيدة بيرلنغهام إحدى «غريماتها»، وبدا له أن جوهر التحليل هو التغلب على مظاهر الغيرة والمنافسة.

وكان فرويد يحلّل إيفا روزنفيلد أثناء العطل الصيفية يوميًّا، ولقاء ذلك كانت إيفا تساعد في ترتيب متاع عائلة فرويد خلال الصيف. وعلى ما يبدو لم يكن زوجها يضجر من اهتمامها بفرويد. ورغم أن إيفا أصبحت بعد سنوات محللة، فإن منزلتها في بلاط فرويد ظلت منزلة شخصيّة بالأساس. لقد كان معجبًا بالطريقة التي كانت تتغلب بها على مأساتها الخاصة بشجاعة. ولكن فرويد لم يبق مع إيفا إلا يومًا واحدًا فقط، وبالنسبة إليها كان ذهابها إلى ميلاني كلاين للتحليل بمثابة إهانة لصديقتها القديمة آنا فرويد.

وكانت جين لامبل-دي غرو محللة نفسية هولندية غنية ومثقفة (غير يهودية)، فسخت خطوبتها لعضو في هيئة التدريس في فاغنر جوريج لتتزوج هانز لامبل، الذي ظل في حلقة فرويد لسنوات عديدة كصديق لابنه مارتن. ولكن في النهاية تمرّد لامبل على ارتباط زوجته الحميم بفرويد، فقد كان يريد زوجة، بينما كانت ترى في فرويد مركز كل شيء. وعندما احتج لامبل بقوة على هذا الوضع، قررت الحلقة المحيطة بآنا فرويد أنه مصاب بالبارانويا ويجب أن يذهب لتحليل نفسه. ولكن المحلل انتهى إلى أنها غيرة عادية على زوجته، ورغم أنه لم يكن شخصًا لامعًا، فقد كان يعرف متى يؤكد ذاته، وإلا كان التفرغ لفرويد سيحرمه من زوجته.

وتمّ قبول ماريان كريس في حلقة فرويد بوصفها ابنة لأوسكار راي، بصفة عادية. وحال صغر سنها دون أن تمارس تأثيرًا على مسائل التحليل، لكن رتّبت لها آنا تحليلًا مجانيًّا مع فرويد. وظل يعالجها على امتداد أسابيع عديدة بمعدل مرة واحدة لعدة سنوات. وكان فرويد مغرمًا بها جدًّا، وحللت آنا فرويد زوجها (زوج ماريان) إرنست، وقد سمّيا ابنتهما آنا.

وكان أبوها كريس وهو طبيب أطفال يعالج أبناء فرويد دون مقابل، كما كان كذلك عضوًا دائمًا في رباعي فرويد للعب القمار، وقد ظلّت جلسات لعب الورق تنعقد لسنوات مساء كل سبت. وكان فرويد يكنّ معزّة خاصة لهؤلاء الأصحاب الذين لا علاقة لهم بالتحليل بحيث لا يمثلون عبئًا عليه خلافًا لمرضاه السابقين، وكان من بينهم لودفيغ روزنبرغ، وهو زوج إحدى أخوات أوسكار راي وكانت عائلته تقضي الصيف مع آل فرويد. وأصبحت آني كاتان ابنة روزنبرغ محللة نفسيّة، ولأجل ذلك لم ترتّب آنا لها لقاء مع أبيها ليحللها، بل قامت بتحليلها بنفسها، رغم أنهما كانتا صديقتين منذ الطفولة.

وأتت دوروثي بيرلنغهام هي الأخرى لفرويد وللتحليل النفسي كصديقة مقرّبة لآنا.

ولقد انتقلت إلى فيينا مع أطفالها الأربعة قادمة من أميركا، تاركة وراءها زوجها المضطرب. وقام تيودور رايك في البداية بتحليلها قبل أن يهتم بها فرويد. وقد اصطحبت معها قريبتها إلى فيينا مع أطفالها من أجل التحليل. ولأنها كانت من عائلتها فقد تحمّلت دوروثي كامل نفقات علاجها شأنها في ذلك شأن كافة أفراد العائلة. وكان أطفال دوروثي من بين أوائل مرضى آنا الذين حللتهم.

وقد سُرّ فرويد كثيرًا لصداقة دوروثي لابنته، لأنه بموجب تلك الصداقة اطمئن تمامًا عليها. وقد كتب في العام 1929: «لقد كانت علاقتنا مع عائلة أميركية (بلا زوج)، تكفّلت ابنتي بالسهر على أبنائها تحليليًّا بتمكن، تنمو بشكل قويّ ومطرد، حتى أصبحنا نتشارك حاجاتنا الخاصة معهم في فصل الصيف»[3].

وفي عام 1932 لاحظ فرويد أن آنا و«صاحبتها الأميركية (التي تمتلك سيارة) قد اشترتا كوخًا وأثثتاه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع»[4]. وكانت آنا تحب الكلاب، وكان فرويد في أواخر عمره يلهو «معهم كما اعتاد من قبل أن يلهو بخاتمه»[5]. وقد كان لدوروثي قريب يقيم في باريس يربي الكلاب الصينية الأصل ما ساعدها على أن تكون المصدر الأساسي ليس فقط لكلاب فرويد وإنما أيضًا للكلاب الصينية بالنسبة لمختلف أعضاء حلقته مثل آل لامبل، والهولنديين، وأديت جاكسون. وكانت علاقة دوروثي بيرلنغهام بفرويد وعائلته أكثر من تحليلية، لكن، على خلاف روث برونشفيك التي دخلت إلى حلقته مباشرة، دخلت دوروثي الحلقة من خلال صداقتها مع آنا فرويد. وأصبحت آنا أمًّا ثانية لأطفالها (تربّيهم وترعاهم تحليليًّا)، وكانت دوروثي إحدى اللائي تسلمن أحد خواتم فرويد.

ولم تكن أي من النساء اللائي يحطن بفرويد أنيقة على الإطلاق. فقد كان يبدو أن تفرغهن الكليّ للتحليل النفسي يستنفد كل طاقاتهن. وعندما يجتمعن سويًّا في المطاعم يظهرن غير «أنيقات اللباس» بشكل ملحوظ جدًّا حتى أن النُّدل كانوا يعرفون أنهن ينتمين إلى جماعة واحدة. وكان فرويد يميل إلى أن يعتمد على حكم آنا على هؤلاء النساء وكان ينأى بنفسه عنهن محاولًا ألا ينمّ عن واحدة منهن للأخرى.

وبقطع النظر عن آنا فرويد، فقد كانت الأميرة ماري بونابرت (1882-1962)، في أواخر حياة فرويد، أهم تلاميذه من النساء. وقد كان يعالج خمسة مرضى في التحليل بانتظام، ولكنه كان يظل مع الأميرة ماري بونابرت (مثلها مثل ماريان كريس وروث برونشفيك) ما

سمح وقته بذلك. وكانت ماري تعرف في حلقة فرويد ببساطة باسم «الأميرة»، فلقد كانت حفيدة مباشرة للوسيان شقيق نابليون. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تنتمي لإحدى أكثر العائلات الملكية الأوروبية احترامًا نسبة إلى زوجها الأمير جورج، الذي كان أخًا للملك الأخير لليونان وأحد أفراد العائلة الملكية في الدنمارك. وقد أرادت ماري منذ أن كانت شابة أن تصبح طبيبة، ولكن أبوها الذي كان عالما في الجغرافيا والأنثروبولوجيا، منعها من ذلك باعتباره لا يليق بفتاة من عائلة ملكية.

وكان زوجها، ذلك الرجل البسيط غير المثقف، يكبرها كثيرًا، وكان ينظر إلى انغماسها في التحليل النفسي كما لو أنه مجرد لهو أو مجالًا للتسلية. إلا أنه في الوقت نفسه كان يكن احترامًا بالغًا لفرويد. ورغم وشائج الغرام التي كانت تَسم علاقة ماري بزوجها، فقد كانا متباعدين وغالبًا ما كانا منفصلين. وعادة ما كان فرويد يسعى لصحبة من يعتبرهم من علية القوم وأعيانه وكان باقي أعضاء الحلقة يستطيبون عدم نجاحه في التعرّف التام على أولئك الذين قد يلتقونه في قصر الأميرة-ملك النرويج، ربما، أو أحد النبلاء. (وقد عرف التحليل النفسي أميرة أخرى ألا وهي زوجة غوسيب دي لامبيدوزا مؤلف «الفهد») ولو أن فرويد كان يكن احترامًا عظيمًا للمال والأثرياء، فقد كان اهتمامه بالحركة التي كان يقودها هو ما قاده إلى ذلك.

ولعل أهم ما ميّز شخصية ماري بونابرت العظيمة أخطاؤها التي تبعث على الإعجاب وكذلك فضائلها التي تثير هي أيضًا الإعجاب. وكانت قدمت إلى فرويد أول مرة في عام 1925؛ وهو ما أعلنت عنه صراحة حينما قالت «لقد ذهبت إلى فيينا في 1925م لأجري تحليلًا على يد البروفيسور فرويد... وقد مثّل ذلك بالنسبة لي فرصة مناسبة للتعرّف على عائلته»[6]. وخلال الأشهر الثلاثة الأولى كانت ماري توثّق ما يدور في حصص خضوعها للتحليل، إلا أن فرويد نهاها عن ذلك. لقد مثلت حالة ماري بالنسبة لفرويد فرصة جيّدة، إذ كان يُعيد بناء مشهد مبكر من حياتها لم تكن تستطيع تذكره ولكنها استطاعت أن إثباته والتأكد منه من خلال شهود عيان أحياء[7].

بادر فرويد من خلال ماري إلى تأسيس جمعية فرنسية للتحليل النفسي في عام 1926. وقد كان لها تأثير عظيم بوصفها من أشياع فرويد، إلا أنه رغم ذلك تعرضت هي نفسها إلى التهجم. ورغم كونها ثرية وأميرة، فهي امرأة لم تحصل على درجة طبية. وقد تضررت مكانتها المميزة كسفيرة لعالمها الخاص، عالم الأرستقراطية الدولية لأن جدّها لأمها

هو المؤسس (اليهودي) لكازينو مونت كارلو للعب القمار. ورغم زواجها، فقد حدث أن وقفت ذات مرة أمام محكمة أثينا بسبب أموال يفترض كونها ملوثة (في قضية غسيل أموال). وعلى شهرتها في المجتمع الباريسي، فقد كانت من المنبوذين إلى حدٍّ ما في الأرستقراطية الأوروبية. ومن ثمّ عقدت العزم على الالتحاق بحركة كاملة من المنبوذين، من المحللين النفسيين، الذين كانوا ينظرون إليها كامرأة ذات مكانة اجتماعية لا تُضاهى. وكانت تشعر بتقدير عالٍ لذاتها، شأنها في ذلك شأن مختلف المحللين النفسيين، بفضل انتسابها إلى التحليل النفسي[8].

لقد كان في فرنسا أطباء نفسيون ممتازون كما كان لها تقليد خاص بها في العلاج النفسي. وعليه فلم يكن لما بذلته من جهود تنظيمية تأثيرًا كبيرًا البتة. ورغم المنزلة التي يحظى بها فرويد، فلم يستطع الفرنسيون في البداية التخلص من النظر إليه بوصفه ألمانيًّا، وعليه فهو دخيل وعبء عليهم، وعلى عكس البريطانيين، فقد اهتموا في السنوات اللاحقة بالجانب الميتافيزيقي من تعاليم فرويد أكثر من اهتمامهم بالجانب الإكلينيكي. ولكن، على أية حال، لم يكن التحليل النفسي في فرنسا يؤخذ على محمل الجد بشكل كبير إلى حدود فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وقلة من المحللين النفسيين الأوائل في فرنسا كانوا من أصل فرنسي حقًّا، وقد عُرف عن فرنسا أنها تكون وطنية كلما تعلق الأمر بتقبل الأفكار الجديدة. ففي فرنسا (كما في إنكلترا) كان المحللون الأوائل أجانب، وكان معظمهم من السويسريين، أو البولنديين، أو الألزاسيين. وعلاوة على ذلك، فقد كانت عائلة الأميرة ماري تُعدّ دولية أكثر منها فرنسية بشكل خاص.

وأصبحت ماري مريدة لفرويد على غرار هانز ساكس، فنذرت نفسها كليًّا لذلك حتى أنها تخلت عن كل شيء من أجل التحليل النفسي - اهتمامها بالأدب، وحياتها كأميرة - وفي المقابل، فقد بوّأها ارتباطها بفرويد مكانة أعلى بكثير من مستواها الثقافي الطبيعي. ورغم أن انخراطها مع فرويد كان مقدمًا على أي اهتمام آخر، إلا أنه مكّنها في الوقت نفسه من فرصة فهم علم النفس.

لم تستطع ماري مجاراة نسق كتابة وتفكير بعض تلامذة فرويد الآخرين. لقد كان «واضحًا أنها غير قادرة على أن تؤدّي دورها العلمي»[9]. ورغم ذلك فقد كتبت دراسة مطوّلة عن إدغار آلن بو، قدّم لها فرويد. ولقد بقيت بالنسبة إلى فرويد بشكل أساسي «أميرتنا» المحسنة، فقد موّلت بعثة أنثروبولوجية قام بها غيزا روهايم إلى أستراليا، ولكن

فرويد كان محبطًا من نتائج ذلك العمل الميداني. كما كانت تساعد أيضًا الطباعة التحليلية النفسية كلما واجهت مشكلات مادية.

وقد كان فرويد يُشجِّع تحوُّل ماري نحوه. وكانت ماري من فئة النساء الجميلات والنرجسيات اللاتي بدا لهن فرويد ذو سحر أخّاذ على نحو خاص[10]. كما كانت ماري جذابة مغرية، مزاجها مفعم بالحياة وقد قيل إنها كانت عشيقة أرستيد برياياند. وقد كانت إحدى الشخصيات الرئيسة في حلقة المقرّبين من فرويد، بل كانت هي وروث الأقرب من فرويد. وعندما كانت ماري في فيينا، كانت تقيم في بيت روث، كما كانت روث تزورها بصحبة مارك في باريس. وغالبًا ما كانت ماري وروث تستأجران سويًا فيلّا خلال الصيف. وأثناء الصيف تُحيط بعض النساء أمثال ماري بونابرت وروث برونشفيك ودوروثي بيرلنغهام وإيفا روزنفيلد بفرويد فتشكلن حوله ما يشبه المستعمرة. واستأجرن ذات مرة خمسة منازل سويًا، توزّعت على كل من ماري وروث ودوروثي وإيفا وآل فرويد.

ودائمًا ما كان لآنا مكانتها الخاصة، بوصفها ابنة فرويد، رغم ما كان بينهما من تباين غريب في شأن العديد من النقاط. فعلى سبيل المثال، لم يناقش فرويد مع آنا أبدًا مسألة تحويل الأفكار أو توارد الخواطر. ولكن كان هناك ما يشبه المقايضة المتبادلة بين فرويد وابنته الصغرى، فيكفي لشخص ما أن يكون ذا مكانة متميزة لدى آنا مثل سيغفريد بيرنفيلد حتى يقيم علاقة مع فرويد.

كانت آنا فرويد معجبة ببيرنفيلد إعجابًا شديدًا. وعندما بدأت تحاضر لأول مرة، كانت تشجّعه وتشدّ من أزره. ورغم أنه كان متزوجًا ويكبر آنا كثيرًا، فقد ساعدت في إدخاله حلقة المقرّبين من فرويد. وأصبح بفضل تقديمها له عضوًا في عائلة فرويد الموسّعة. وكان بيرنفيلد، مثل هانز لامبل، بمثابة الأخ الأكبر لآنا. ولكنه وخلافًا للامبل، كانت عقليته من الدرجة الأولى، وقيل في وصف قسمات وجهه أنه كان يشبه وجه سافونا رولا في حدة ملامحه وقوّتها.

ولم يكن يبدو أن آنا تتعامل بسلاسة مع الرجال إلا في بيتها. ولكن أسلوبها المتكلّف والمهيب وإمعانها في مواقفها عادة ما كان يثيران انزعاج أي رجل تقريبًا. وكان بيرنفيلد، الذي طلّق زوجته، يفضل النوع المثير جنسيًا من النساء، وتزوّج من مريضة سابقة لدى فرويد. وإذا كان بيرنفيلد لم يشرع في ممارسة التحليل النفسي إلا في العام 1921، إلا انه

كان يواكب اجتماعات الجمعية منذ 1913. ورغم ذلك فقد نمت لدى فرويد خيبة أمل منه، وربما عكس هذا جزئيًا مشاعر آنا فرويد الخاصة. ولا شك في أن بيرنفيلد قدّم إسهامات تاريخية لافتة في ما يتعلق بفهمنا لمهنة فرويد في بدايتها[11].

ورغم أن آنا فرويد كانت قد دخلت ميدان التحليل النفسي متأخرة عن البعض، ورغم كثرة منافسيها، وخاصة من بين النساء في حلقة فرويد، فقد استطاعت أن تزيح الجميع في النهاية، وقد أصبحت محلّلة قبل أن يبدأ الصراع بين فرويد ورانك بقليل، حتى استطاعت أن تملأ الفراغ الذي تركه رانك ومن ثم تحمّلت مسؤولية كل الوظائف التي كان يقوم بها هذا الأخير، وكما كان غوته يستخدم ابنه ليمثله في المناسبات الرسمية، كذلك كان فرويد يرسل آنا لتُلقي كلماته نيابة عنه، حيث كانت محل ترحاب وحفاوة وتكريم. فلقد استعصى على فرويد الحديث أمام الجمهور بسبب مرضه، لذا لم تكن آنا تلقي كلماته في المراسم فقط، بل تكفّلَت أيضًا بقراءة مقالاته في مؤتمرات التحليل النفسي التي أقيمت في 1925 و1927 وأيضًا في عام 1938. ولما راود فرويد شعور بأن ابنته ستكون بحاجة لعمل تكسب به قوتها عمل على أن تحل مكانه، ولو جزئيًا، عسى أن تبلغ الذروة عن جدارة واستحقاق.

وكان من بين الأدوار التي قامت بها آنا أيضًا أن عملت ممرضة خاصة لأبيها. لقد خضع لعمليات جراحية متكررة وهو ما اضطرها إلى ملازمته من أجل رعايته، فكانت خير سندٍ له في محنته، ناهيك عن أنه استطاع أن يقاوم مرض السرطان لمدة ستة عشر عامًا. وقد كتب في آخر سنوات عمره يُثني على دورها ذاك قائلًا «لقد أصبحتُ اعتمد عليها أكثر فأكثر حتى قلّ اعتمادي على نفسي»[12].

وكانت آنا آنذاك تصحب فرويد في رحلاته، واستطاعت بذلك أن تحل مكان مينا أخت زوجته المعجبة به إلى درجة أنها كانت تصغي جيدًا إليه وتستمتع بأفكاره دون أن تبدي إزاءها أي تحفّظ حتى أنه لم يكن يتحرّج في مناقشة حالات مرضاه معها. ومن ثمة اضطلعت آنا بكل الخدمات التي كانت تسديها مينا لأبيها باستثناء مشاركته في لعب الورق. وما لبث أن تحوّل ما كانت تقبل به زوجة فرويد من أختها إلى مصدر عداء بين الأم وابنتها. وقد تعوّدت امرأة البروفيسور أن تقول عن آنا: «لقد كانت ابنة رحوم» ولكنها رغم ذلك كانت قاسية أحيانًا. وقد استاءت آنا من هذا الحمل الثقيل الذي ألقته أمها على عاتقها ولافتقارها القدرة للاضطلاع بطلبات فرويد واحتياجاته. وكلما أصبحت مارتا أكثر عجزًا،

تعززت مشاعر آنا بأنها أصبحت ابنة غير مرغوب بها لدى أمها، وبالتالي تزايدت أهمية أبوها بالنسبة إليها.

لقد كان فرويد فخورًا بعمل ابنته كمحللة نفسية للأطفال. وفي عام 1926 اعتقد فرويد أن تحليل الأطفال يوفر «إمكانيات ممتازة للوقاية من المرض»[13]. ولما اعتبر فرويد أنه أصبح من الضروري تكوين محللين نفسيين آخرين مختصين في الأطفال، بدأت آنا تتحوّل تدريجيًا نحو تحليل البالغين كذلك. ونوّه فرويد في عام 1935 في كلمة له قائلًا: «لقد مثل نجاح عمل ابنتي آنا إحدى أهم المحطات المضيئة في حياتي»[14]. وقد اضطلعت آنا، قبل سفر فرويد إلى لندن، بتدبير شؤون العائلة، لا سيما كلما تعلق الأمر بالمسائل العائلية الحساسة مثل سداد النفقات[*].

لقد كان عمل آنا فرويد متداخلًا، بمعنى ما، مع ما يمكن أن نعتبره حياتها الخاصة. ولأنها زهدت في الملابس الأنيقة، وجدت نفسها وقد تقدّمت بها السن ملفوفة داخل ملابس قديمة قاتمة وواسعة وطويلة تصل إلى الكاحلين. وكانت تحافظ على قص شعرها قصيرًا. وكانت رياضتها المفضلة ركوب الخيل. وقد حرمتها علاقتها بأبيها من التمتّع بحياتها كاملة، كما جرت عليه العادة. فقد كان يمكن لها أن تكون جذّابة جدًّا، إلا أن الاحتشام المفرط الذي تملّكها لم يكن يسمح لها البتة أن تتخطى العقبة الأخيرة من الخوف كلما التقت الرجال. وكانت لمشاركتها أبيها اهتماماته، متّحدة معه روحيًّا إلى أقصى حد. ورغم أنها عاشت حياتها على هذا النحو إلا أن أشد ما كان يسيئها أن ترى أباها مجرد رجل عادي. ويبدو أن السر الوحيد وراء ما أقدمت عليه آنا من تضحية من أجل أبيها يكمن في عبقريته.

5 - آنا فرويد: «سيكولوجية الأنا»

بدا واضحًا، منذ البداية، أن قرار فرويد بأن يهاجر إلى إنكلترا وليس أميركا عام 1938 أمر يرجع إلى قناعته هو، لا لقناعة آنا. وذلك لأن إنكلترا كانت معقل المدرسة الوحيدة المنافسة في التحليل النفسي للطفل، أي مدرسة ميلاني كلاين. ورغم أن آنا كانت مسالمة نسبيًّا بالمقارنة مع عدائية ميلاني كلاين، وقد هدّد العداء بين المرأتين لفترة من الزمن بتصدع جمعية التحليل النفسي البريطانية.

(*) لما تركت إيستي فرويد زوجها مارتن، كانت آنا تبعث لها بالنقود من لندن.

قبل أن يغادر فرويد فيينا في ربيع 1938، عبَّر عن أمله في أن آنا «ستكون قادرة في إنكلترا أيضًا على أن تفعل الكثير من أجل التحليل دون أن تتدخل في شأن أحد»[1]. وفعلًا فقد أسست بمعيّة دوروثي بيرلنغهام، بعد الحرب العالمية الثانية، عيادة هامستبد لعلاج الأطفال تتألف غالبيتها من مجموعة من العاملين غير المتحصّلين على تأهيل طبي، المشتغلين بمراقبة ومعالجة الأطفال. وإنه لمن العسير أن نتخيّل أن فرويد نفسه قد يُشرف على مثل هذه العيادة أو يتعاون معها، لأنه كان متفرغًا بشكل تام لممارسة العلاج الفردي. بينما استفادت آنا من خلفيتها كمدرِّسة في إضفاء طابع بيداغوجي على عيادتها ثبتت فاعليته. وظلت المؤتمرات تنعقد في مواعيدها تمامًا كما كان يفعل فرويد في اجتماعاته التي كان يعقدها في فيينا. وفي عام 1956، بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد فرويد، تضاعفت الأموال التي تم جمعها عن طريق التبرعات تكريمًا لفرويد، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، وقد تمّ توجيه هذه الأموال لعيادة آنا، مما أثار استياءً كبيرًا لدى القادة الآخرين من جمعية التحليل النفسي البريطانية.

ما كان أبدًا لآنا الحق بصفتها الشخصية في حياة فرويد أن تبلغ هذه الريادة في التحليل النفسي، لكنها الآن ورثت عرش أبيها. وقد استمدت أيضًا نفوذًا خاصًا بفضل حيازتها لرسائل ومخطوطات فرويد (وقد ساعدها في تدبّر ذلك أخيها إرنست، فضلًا عن نصح قادة التحليل النفسي لها). وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت آنا، كأبيها، معالجة يتّجه إليها المحللون النفسيون البارزون الآخرون عند أوقات أزماتهم الشخصية. ولم تكتفِ بتحليل أشخاص أمثال روبرت وايلدر فقط وإنما عالجت أيضًا أطفال بعض المحللين ذائعي الصيت.

يُحتمل أنها صُدمت بأحد أبحاث إريك إريكسون عن أبيها أو ازدرت تيودور رايك بشدّة، إلا أن مشاعرها[2] لم تنته بها إلى صراعات علنية جديدة في حركة نمت حتى بلغ عدد المحللين المنخرطين فيها ما يربو على الألفي محلل من المؤهلين تأهيلًا كاملًا. ولا شك أنها ظلت شأنها في ذلك شأن فرويد تكنّ مشاعر العداء للتلاميذ المرتدّين. فبدلًا من أن تعتبر انسحاب أدلر ويونغ من الحلقة خسارة كبيرة مثلت نوعًا من سوء الحظ أدى بالتحليل للأسوأ، وجدت متعة بالغة فيما اعتبرته شراسة «المقاومة» ضد أبيها، كما جاء في عرض جونز عن آنا في شأن تلك الصراعات التي شهدتها بدايات التحليل النفسي[3].

تبرّمت آنا من العديد من المحللين القدامى الذين كانت تربطهم بأبيها علاقات متينة لم

تمتد لتشملها هي شخصيًا وقد كان لدى الأجيال المتعاقبة من المحللين مواقف مختلفة تجاه آنا. وعمومًا، فإن أولئك الذين عرفوا فرويد قبل نهاية الحرب العالمية الأولى أقل ميلًا لإبداء الولاء ذاته تجاه آنا فرويد مقارنة مع أولئك الذين اقتحموا ميدان التحليل النفسي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

أدركت آنا، مثل فرويد نفسه، ما للتقليد من نفوذ، ولذلك رحلت إلى جامعة كلارك المحدودة الشهرة في ووركستر بماساشوستس، لتحصل على درجة فخرية، فقد كان لهذه الجامعة ذاتها الفضل قبل ذلك بنصف قرن في أن منحت هذا الشرف لأبيها (وقد تسلمت في ما بعد جائزة دوللي ماديسون التي يمنحها مركز هيلكريست للأطفال في البيت الأبيض عام 1965، بالإضافة إلى الدرجة الفخرية من جامعات يال وشيكاغو وفيينا). ومثل أبيها كانت تبدي موافقتها واستحسانها لتلاميذها المفضلين عبر كتابة مقدمات لمقالاتهم وكتبهم، وتهديهم صورًا فوتوغرافية شخصية حصرية لها كدليل على تقديرها لهم. وقد بلغ بها الأمر في شيخوختها حدّ اكتساب إيماءات فرويد المميزة.

ورغم أن آنا كانت تفتقر إلى عبقرية أبيها، فقد ورثت بعضًا من موهبته اللغوية، ووضوح تفكيره وتعبيره، وقدرته على الحديث بطلاقة وارتجال. وكان كلاهما مخلصًا ووفيًّا ويشعر بأنه حامل لرسالة، لأجل ذلك كان كل منهما يضرب عرض الحائط بكل شيء يقف في طريقه.

ونظرًا لحجم المسؤولية التي فرضتها مكانتها الريادية التي تبوّأتها في حركة التحليل النفسي تطورت آنا من فتاة خجولة لطيفة في شبابها إلى سيدة عظيمة ذائعة الصيت. وقد تمّ طبع نسخة من أعمالها الكاملة وكثر الاستشهاد بها، وخاصة من قبل المحلّلين الأميركيين، بطريقة تكاد تكون طقوسية مقدّسة. وكانت آنا فرويد أقل دفئًا من أبيها، وتُعبِّر عن نفسها بنبرة فيها تكلّف وتأنّق في البلاغة. ورغم جمال أسلوبها المسرف في العذوبة فإنها استطاعت أن تقود باقتدار وجسارة حركة محاصرة ومهددة بالتصدّع.

لقد كان عنوان مقر عمل آنا فرويد 20 ماريسفيلد غاردنز، هامبستيد، لندن، وهو ذاته البيت الذي توفي فيه أبوها. وعادة ما لا تحظى بيوت العظماء باهتمام كبير على أهميتها في حياتهم. أما هذا البيت فقد كانت له أهمية عظيمة وذلك بالرغم من أن فرويد لم يقم فيه إلا ما يناهز سنة واحدة تقريبًا. بينما لم تصنّف شقته في فيينا كمعلم تاريخي إلا مؤخرًا، وقبل

ذلك كان بعضها مؤجرًا للسكن وبعضها الآخر محلًا للخياطة. وفي تلك الأثناء جعلت آنا فرويد من بيت والدها، في ماريسفيلد، قبلة لإحياء ذكراه.

وقد حظيت إسهاماتها النظرية والإكلينيكية بأهمية خاصة. ورغم الشكوك التي ساورتها في البداية حيال مفاهيم هينز هارتمان وارتيابها الشديد حيال كتابات تلميذها السابق إريك إريكسون، فقد كانت بلا شك إحدى القوى المبكرة ضمن التحليل النفسي الأرثوذوكسي التي كان لها تأثيرها العميق، التي شددت على القدرات الدفاعية للأنا. ولقد أكد فرويد في البداية على الدوافع الغريزية، وفي العشرينيات من القرن العشرين بدأ يصف الآليات التي تستخدمها الذات لمقاومة، ليس فقط المخاطر الداخلية، ولكن أيضًا التهديدات الوافدة من الخارج.

ورغم أن فرويد وغيره من رواد التحليل النفسي، وخاصة رايش، كانوا قد سبقوها في الاشتغال على بنية الشخصية قبل إسهاماتها الخاصة في هذا الميدان، إلا أنها في أشهر كتبها «الأنا وآليات الدفاع»، الذي أهدته لأبيها في عيد ميلاده الثمانين عملت على تنظيم وتنسيق كل ما توصل إليه التحليل النفسي آنذاك من معارف حول سيكولوجية الأنا. وقد ناقشت فيه مثل تلك الظواهر كالنكوص، والكبت وتكوين رد الفعل والعزل والإلغاء الرجعي والإسقاط والاستدماج والتحوّل ضد الذات والإنكار والتماهي مع المعتدي، وكل ذلك من وجهة نظر كيف يمكن لأنا الشخص أن يلجأ لمثل هذه الآليات من أجل التحمّل.

وعمومًا فإن فرويد كان قد أخذ سيكولوجية الأنا كمسلَّمة، وحتى عندما كانت آنا تحاول أن تجمع معًا في شكل متّسق كل ما قيل حول الأنا غير الواعية، فقد صنفت الإعلاء ذاته كآلية من آليات العقل الدفاعية[4]. ومن منظور معاصر، فإن الدفاع آلية عصبية. وقد نفكّر بأن الإعلاء من حيث المبدأ يمكن أن يكون بديلًا للعصاب، إلا أن آنا ظلت متحفظة بشكل كبير من الاهتمام التحليلي المبكر بالشذوذ والمرض حتى أنها صًنفت الإعلاء ضمن الآليات الدفاعية.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، أشرفت آنا فرويد بمعية دوروثي بيرلنغهام على حضانة للأطفال الذين تعذّر على آبائهم أن يكونوا معهم. ولما كان هؤلاء الأطفال أسوياء، فقد شكلت حدود التفكير التحليلي النفسي تحديًا حقيقيًّا بالنسبة لآنا ودوروثي، كما كان الأمر بالنسبة لمن سبقوهما. وبمجرد أن ينفصل الأطفال عن أمهاتهم، كانت تطفو على السطح

معوقات النمو إذ كانوا ينكصون. وهذا مثال على أن للبيئة تأثير على الحياة الغريزية، من خلال تدخل أناوات الأطفال، لأنه بمجرد أن تقوم علاقة ثابتة مع الأم البديلة من تلك النساء في العاملات في العيادة، تبدأ العلامات الظاهرة الدالة على أعراض المرض في الاختفاء و«يبدأ الأطفال في النمو بشكل أسرع»[5]. وانتهت آنا في ما بعد إلى أنه «مع تنامي علاقات موضوعية جيّدة، تتراجع النزعة العدوانية وتتقلص تجلياتها حتى تستقر عند حدود مستوياتها العادية»[6]. وربما يبدو استخدام مصطلح مثل «العلاقات الموضوعية» بمثابة طريقة بادرة وفاقدة للإحساس في وصف التفاعلات الإنسانية الحميمة، ولكن التأكيد على مصطلح «العلاقات الموضوعية» الذي تم تطويره جزئيًا في عيادة تافيستوك في لندن، تقدّم خطوة كبيرة بعيدًا عن التركيز على المشكلات الأوديبية الكلاسيكية. وبفضل عملهما خلال الحرب العالمية الثانية، استنتجت آنا فرويد ودوروثي بيرلنغهام في النهاية، دون أن تفصحا عن تباينهما مع موقف فرويد الخاص، أن «علاقة الطفل العاطفية مع أبيه تبدأ في فترة متأخرة في حياته قياسًا لعلاقته بأمه...»[7].

انعكس اهتمام آنا فرويد بسيرورات الأنا على وجهة نظرها من تقنية التحليل النفسي حيث بدت أقل تشددًا من فرويد حول توصياته ما قبل الحرب العالمية الأولى لمحللي المستقبل، رغم أن آنا لم تتخلَ عن الممارسة الإكلينيكية السائدة في فيينا:

> **طالما ظل المريض محتفظًا بجانب سويّ في شخصيته، فإن علاقته الواقعية بمحلله لا تتوارى تمامًا. ورغم احترامي الشديد والواجب لإجراء التحليل الصارم والضروري، فلا زلت أشعر أنه ينبغي أن ندع مكانًا ما للتحقق من أن المحلّل والمريض هما أيضًا شخصان واقعيان، على المستوى نفسه من البلوغ، وتربط بينهما علاقة شخصية واقعية**[8].

وخلافًا لميلاني كلاين رفضت آنا الاعتماد حصريًا على اللعب كتقنية لمعالجة الأطفال. وكانت تعتقد أن اللعب مثله مثل التفسيرات الرمزية الأخرى للسلوك أصلب بكثير من أن يستوعب التنوّع الهائل الذي يميّز ذهن الطفل. ويعتبر وصفها للأنشطة الذهنية للأطفال الصغار رائعًا وبارعًا، وهو دليل على احترام سيكولوجية الإنسان الذي ترسّخ لديها من خلال تعاليم فرويد.

لقد حفّز عمل آنا فرويد آخرين من العاملين في علم النفس الإكلينيكي على التفكير في تلك الجوانب ـ النفس بوصفها ذات طابع تكيّفي أكثر منها مجرد أعراض مرضيّة. ورغم أن

تركيزها في مقاربتها للأنا على وظائفه الدفاعية، إلا أن عملها مع الأطفال قد جعلها في عام 1960 حسّاسة تجاه «التنوّع المثير في التجليات المرضية أو التي تبدو كذلك في الظاهر». والتي بدت بالنسبة لها كما لو كانت «تتطلب تصنيفات تشخيصية جديدة لا تقوم على الأعراض، وإنما على الاعتبارات المتعلقة بالنمو»[9]. وطفقت آنا تصر، على نحو متزايد، على فهم ما يحتمل أنه متلائم لدى الأطفال مع مستوى عمري معيّن، بحيث قد يصبح التمييز ممكنًا بين الاضطرابات التي لا يمكن اعتبارها سوى أطوار نمو عابرة والمشكلات العصابية الخطيرة[10].

كان عمل آنا فرويد، منسجمًا مع اتجاه أساسي في التحليل النفسي تدعّم منذ موت فرويد، وقد حاولت توسيع نطاق التفكير الإكلينيكي الذي كان سائدًا في بدايات التحليل النفسي، بحيث أمكن للعمل السيكولوجي العادي أن يلقى الاهتمام الذي يستحقه. وحتى في التعامل مع النزعة العدوانية، انتهت آنا إلى نتيجة مفادها «لو توحدت المساعي العدوانية بشكل عادي مع المساعي الليبيدية، لأحدثت تأثيرات اجتماعية، وليس العكس. فهي تمنح القوة والتماسك الداخليين الأوليين اللذين يمكّنان الطفل من الولوج إلى العالم الموضوعي والبقاء فيه». ورغم أنها حوّلت في عام 1965 التأكيد على أنه «ليس هناك تضارب بين النمو والدفاع...» وأن «كل الآليات الدفاعية تخدم في الآن ذاته كل من تقييدات الدافع الداخلي والتكيف الخارجي، من حيث أنهما ليسا إلا وجهين لعملة واحدة»[11]، إلا أنه كان هناك تحوّل في المزاج لا يمكن إنكاره في تحليل الأطفال منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتى الستينيات منه، وهو ما تجلّى بشكل واضح في توجّه آنا.

وإذا كان دور الخصائص الشخصية للأم في المرحلة الأولى يظل محدودًا في فهم الديناميكيات النفسية للطفل، فلم يمض وقت طويل حتى تبيّن أنه من المستحيل الاستمرار في الدفاع عن هذه التوجه. وفي حين أكد فرويد على خصي الأب، أكد المحللون الذين جاءوا بعده على نبذ الأم. وحذرت آنا فرويد من أنه «في مجال العمل الاجتماعي وُجدت مرحلة انتقالية، ولا تزال تُوجد بشكل جزئي، كان يُلقى فيها اللوم في الماضي البعيد (قبل التحليل النفسي) بشكل كليّ على الأطفال السيئين، يلقى فيها اللوم الآن على الأم السيئة»[12]. رغم ذلك، فقد عوّلت هي نفسها أكثر من أيّ كان قبلها، على مساعدة الطفل عبر تشجيع التغييرات في السلوك الأمومي. وكتبت في ذلك تقول في عام 1960:

«أرفض الاعتقاد بأن الأمهات يحتجن إلى تغيير شخصياتهن قبل تغيير معاملتهن

لأولادهـن... ولا توجّه الأمهات في تربية أولادهـن الغريزة وتضللهن التأثيرات الشخصية المشوهة فحسب، بل يعتمدن بشكل كبير أيضًا على التقليد والرأي العام، وكلاهما قابل للتغيير»[13].

وبينما يتعامل محلّل البالغين مع العالم الداخلي للمريض، فيكون بالتالي «مقتنعًا شديد القناعة بما هو ذاتي، بقدر اعتراضه على الواقع الخارجي»، فإنه «بالنسبة إلى محلّل الأطفال، على النقيض من ذلك، تشير كل المؤشرات إلى الاتجاه المعاكس تمامًا، إذ تؤكد على التأثير القوي للمحيط»[14].

وبالرغم من أن آنا اتخذت بعض الخطوات في اتجاه التعديلية الفرويدية الجديدة، فإنها تظل تجاهر بالدفاع عن التوجه الأرثوذوكسي في التحليل النفسي. فنراها تجادل بصراحة لم يكن أبوها ليتجرّأ عليها قائلة إن: «منهج العلاج متطابق مع منهج الاستفسار في التحليل النفسي»[15]، ولكنها كانت ملتزمة برغبة فرويد في عدم الاتجار بأفكار التحليل النفسي، وقد بلغت نزاهتها في هذا الشأن إلى حدٍّ كبير نزاهته. وكانت تعلق آمالًا كبيرة على ما يمكن أن يبلغه التحليل النفسي «إن لديهم (المحللون) الكثير ليقدموه ويتسم بالفرادة، أعني التغييرات الشخصية الشاملة مقارنة بالعلاجات التي تتوقف عند حدود الأعراض السطحية الظاهرة»[16]. وظلت تستحضر: «إلهامات التحليل النفسي» الأصيلة[17]. كانت قادرة على أن تصف بشكل أخلاقي لعصابي بالغ مندفع: «تحليلًا محضًا بمقدار ما قد تحتمل طبيعته، بينما قد يلجأ آخرون إلى اعتماد طريقة التحليل النفسي للأطفال، على اعتبار أن الشخصية الطفولية جدًّا لا تستحق أفضل من ذلك»[18].

ورغم إقامتها في لندن منذ عام 1938، فإنها لم تحظَ بالتقدير الذي تستحقه وهو أمر لم يسبقها فيه أحد إلا إرنست جونز. ومن المفارقات الغريبة أنه برغم مشاعرها الخاصة تجاه أميركا التي تلتقي فيها تمامًا مع أبيها، فقد كانت محل تأييد وحفاوة في الولايات المتحدة الأميركية لا مثيل لهما في أيّ مكان آخر في العالم. وقد كان من بين اهتماماتها الخاصة التحليل النفسي والقانون، وساعدت لعدة سنوات في الإشراف على حلقة دراسية في كلية الحقوق بجامعة يال. وفي استبيان أميركي أُجري آنذاك بين الأطباء النفسيين والمحللين النفسيين لتحديد من يكون أبرز ممارسٍ لمهنته ممن هم على قيد الحياة ترأست آنا فرويد قائمة المستجوبين في المجموعتين[19].

6 - هيلين دويتش: نادي القط الأسود للعب الورق

هيلين دويتش هي أيضًا واحدة من النساء الأخريات اللائي أصابتهن غيرة آنا فرويد. وكانت تكبر آنا بأحد عشر عامًا. وقد وفدت إلى التحليل النفسي من بوابة الطب النفسي الفييني، العالم الذي لم يكن لآنا فيه مكان، آنذاك. وتعود أقدم ذكرى لآنا فرويد عن هيلين دويتش إلى حضورها إلى إحدى محاضرات فرويد قادمة من عيادة فاغنر-جوريج مباشرة وهي ترتدي الميدعة الطبية البيضاء.

وكانت هيلين دويتش إحدى أوائل النساء التابعات لفرويد اللائي حللهن شخصيًا. وُلدت هيلين في 1884 في مدينة بولندية (برزيميسل) تقع ضمن حدود الجانب النمساوي من المجر، ونشأت في جزء ناءٍ من الإمبراطورية قبل انتقالها إلى فيينا من أجل متابعة مسيرتها المهنية، وكانت معروفة بين أصدقائها المقرّبين باسمها البولندي المختصر «هالا». وظل تمكّنها من اللغة الألمانية، شأنها في ذلك شأن اللغة الإنكليزية في السنوات اللاحقة في أميركا، ذا حساسية خاصة بالنسبة إليها إلا أن حدودها في كلتا اللغتين مكّنتها من تحقيق نوع من التأثير الشعري.

أرادت هيلين في البداية أن تصبح محامية كأبيها، حيث كانت تعتبر نفسها رائدة في مجال تحرير المرأة. وقد اختارت طريق الطب رغم أنه لا يزال آنذاك ميدانًا استثنائيًا بالنسبة للمرأة. وفي عام 1912، قبل أن تتخرّج كطبيبة بقليل، تزوّجت هيلين من فليكس دويتش، وهو طبيب مختص في الأمراض الباطنية. وفي أواخر عام 1917 أنجبت منه ولدًا أسمته مارتن تيمّنًا باسم ابن فرويد البكر[1] عسى أن يُسرُّ فرويد بذلك، رغم أنها لم تكن قد دخلت بعد حلقة فرويد رسميًا (وكان زوجها فليكس ينتمي إلى منظمة صهيونية مع مارتن فرويد).

لم يكن مألوفًا في تلك الأيام أن تعمل امرأة في مجال الطب النفسي، ولكن النساء لم يكنّ يفقدن مهنتهن بمجرد انضمامهن إلى حلقة فرويد، كما هو الحال بالنسبة لزملائهن من الرجال. لم يكن متوقعًا أن تحقق امرأة في مجال الطب النفسي الأكاديمي الكثير، بينما في مجال جديد كالتحليل النفسي لم تكن هناك حواجز كتلك التي نجدها في الطب المتعارف عليه تقليديًا. وفي ربيع عام 1918 حاولت هيلين أن ترتّب مع فرويد إمكانية تحليلها. وكانت قد قرأت، في عام 1911، كتاب فرويد «تفسير الأحلام»، وحضرت

محاضراته في جامعة فيينا، بل حتى إنها حضرت اجتماعات جمعية فيينا للتحليل النفسي. وكان من الواضح منذ البداية أنها ستكون مكسبًا لحركة فرويد بفضل ما تتمتع به من موهبة وعبقرية. وعلاوة على ذلك، كان زوجها أستاذًا محاضرًا في الجامعة. ومع ذلك فقد سأل فرويد هيلين ماذا كانت ستفعل لو أنه أشار عليها بأن تذهب للتحليل عند غيره، أجابت بأنها لن تفعل فقَبِل بأن يقوم بتحليلها في الخريف التالي.

وقد كان جو عيادة فاغنر-جوريج معاديًا جدًّا لفرويد، حتى أن هيلين دويتش كانت تشعر بأنه ليس أمامها أيّ خيار إلا أن تستقيل من منصبها بالعيادة، وذلك كتعبير عن انتسابها الكامل لحركة فرويد. وعلى الرغم من أن فرويد أراد أن تنفّذ تعاليمه إلى عيادة فاغنر-جوريج لتخترقها، إلا أنه كان يعتقد بأنه لا يمكن للمرء أن يخدم سيّدين في آن واحد. وقد نأى فرويد بنفسه عن الطب النفسي الفيينّي، تعبيرًا عن استيائه من رفض عيادة فاغنر-جوريج له. ولكنه كان يأمل في أن يتغيّر الموقف الرسمي من عمله. وأثناء تحليله لهيلين دويتش الذي انطلق في خريف 1918، واستمر حوالي عام، بدأت تُحاك بعض الدسائس ضد فرويد في العيادة. وكي لا تضطر هيلين دويتش إلى أن تُعيد على مسامع فرويد ملاحظات وتعليقات قيلت عن التحليل النفسي أثناء تحليله لها، أخبرت مسؤولي العيادة بأنها قد بدأت تحليلها مع فرويد. وعندما أشارت ذات مرة في إحدى جلسات تحليلها مع فرويد إلى حقيقة أنها لم تختلق أية روايات سيئة عنه على الإطلاق في تداعياتها الحرة، قال لها ببساطة: «ذلك لأنك مهذّبة جدًّا». وهكذا بدا فرويد مجاملًا، ولم يلجأ إلى ذلك النوع من التفسير الذي قد يكون محللون آخرون لجأوا إليه في ما بعد، كالقول بأن هيلين كانت عدوانية في لا وعيها إلى حدٍّ كبير لدرجة أنها لم تكن تطيق أن تكون في وعيها عدوانية تجاه فرويد.

وكان لهيلين دويتش تحوُّل عاطفي مفرط تجاه فرويد لدرجة أنها لم تمتعض من نعاسه مرتين أثناء جلسات تحليلها. وكانت علاقتهما ودّية وسلسة حتى أنهما كانا يستظرفان ذلك الأمر ويتندران به. (ولكن في عام 1937 نقل عن فرويد أنه أنكر أن يكون النعاس قد غلبه أثناء جلسات التحليل مطلقًا)[2]. تركت هيلين ذات مرّة حقيبتها على الأريكة، وعندما صافحها فرويد مودّعًا، كما كان يفعل دائمًا في نهاية كل جلسة تحليل، أطال المصافحة وحملق في عينيها، حتى أدركت أنها كانت قد ارتكبت ما كان ينظر إليه فرويد كفعل أعراضي. فبالنسبة إليه، يوحي نسيان حقيبة اليد بدعوة جنسية رمزية. وشعرت هيلين بأن

ثمة شيئًا ما في سلوك فرويد يملأ كيانه حيوية ويغمره شوقًا إليها. فلقد كان فرويد ذا ولع شديد بالنساء الجذّابات، أما هي فقد استجابت بكل إخلاص المريد العاشق.

وخلال السنوات القليلة التي أعقبت ذلك بلغت علاقة هيلين مع فرويد ذروتها، وقد اعتبرت لاحقًا أن العقد الأول الذي أعقب تحليلها بمنزلة أكثر فترات حياتها غزارة في المردود. وكانت تذكر منذ أوائل العشرينيات بوصفها هيلين طروادة، المشرقة الجميلة المتألقة وقرّة عين فرويد[3]. وكانت برلين تبدو بالنسبة إلى تلامذة التحليل النفسي من الشباب آنذاك وجهة أفضل من فيينا للتدريب والتكوين. وكان ذوو العقلية العلمية المحيطين بفرويد، مثل ننبرغ، أقرب إلى أن يكونوا مملين وسريعي الغضب، بينما كان أولئك الأكثر أهمية، أمثال ستيكل، متقلبين وغير أرثوذوكسيين.

وربما كان الزوجان هيلين وفليكس دويتش أكثر المنتسبين لحلقة فرويد للتحليل النفسي حيوية. ولا زال البعض يتذكر الحلقات الدراسية التي أشرفت عليها هيلين بوصفها تجارب لا تُنسى[4]. لقد كانت إحدى أفضل مدرّسي التحليل النفسي، وكانت فصولها تثير الفضول وتلفت الأنظار حقًّا حتى بلغ عددها أكثر من عدد الفصول في برلين. لقد كانت هيلين تستطيع الإصغاء، لعرض حالة ما، يمتد لساعات طويلة، ثم تستطيع أن تجمع خيوطها معًا متذكرة كل التفاصيل التي يُسجّلها المحلّل. وباستطاعتها بعد ممارسة التحليل على امتداد يوم كامل أن تشرف على حلقة دراسية حتى وقت متأخر من الليل، وكان لديها دائمًا الطاقة والقدرة على التحمّل حتى تنتقل من جديد إلى حالة أخرى.

واستطاعت هيلين أن تصقل جيلًا كاملًا من الشبان المحللين في العشرينيات مستفيدة من خبرتها التي اكتسبتها في طريقها لبلوغ ما بلغته في هذا الميدان. وأسست مجموعة أطلقت عليها اسم «نادي القط الأسود للعب الورق»، كانت تلتقي في بيتها كل سبت مساء. وضمت هذه المجموعة آل ببرنغ وآل هارتمان وآل هوفر وآل كريس وآل وايلدر، وكانوا جميعًا يصغرونها بحوالي عشر سنوات، قدّر لهم في ما بعد أن يقودوا المحلّلين الأرثوذوكسيين، وكانت تتمتع بسمعة ونفوذ راسخين لدى فرويد. ورغم أنها عاشت بعد أكثر من نصفهم، فإنها مَدينة بالكثير من منزلتها لما كان لها من أهمية في ما مضى في الحياة المهنية لكل الذين أشرفوا على مدرسة فرويد بعد وفاته.

كانت هيلين تدّخر مساء كل سبت للعشاء والمناقشات، وإذا كان رواد هذا النادي يجتمعون ظاهريًّا للعب الورق، فقد كان بإمكانهم أيضًا أن يخوضوا في مسائل التحليل

النفسي أثناء اللعب. وربما ما ميّز هذه المجموعة هو تخلّيها عن بعض المحللين كبار السن، أمثال هيتشمان وفيديرن. وذلك لأن علاقة هيلين مع كليهما كانت تتّسم بالفتور بقطع النظر عن موقف فرويد من قدراتهما. وكان فيديرن يفضّل النساء الأمهات ربات البيوت على النساء العاملات، فيما عبر هيتشمان أيضًا عن امتعاضه منها حتى أنه اتهمها في ما بعد في سيرته الذاتية بممارسة «الديكتاتورية»[5] على جمعية بوسطن للتحليل النفسي وبأنها المسؤولة عن استبعاده من اللجنة المشرفة عليها. ولم يكن المحللون الأصغر سنًّا في فيينا يريدون الالتقاء مع المحللين كبار السن، وكانوا يشعرون بأن فرويد قد تورَّط معهم لأنهم دعموه في بداياته.

وإذا لم يخفِ فرويد ابتهاجه بهيلين، فإن ذلك لم يحل دون ارتيابه تجاه واحد على الأقل من إسهاماتها. وكانت هيلين قد قدّمت في اجتماع للجمعية في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1921 «ملاحظة»، استمدّتها من اثنين من أبناء أختها وكانت بنيتهما الجسدية مختلفة تمامًا، وكان أكبرهما هو الأثير لدى أمه. وقد قُتل في الحرب فألمّ بأمه حزن شديد حتى كاد ينفطر قلبها. ثم ما لبث أن بدأت ملامح الولد الأصغر الجسدية في التغيّر، حسب هيلين، فقد تسارع نموه وبدأ لون بشرته يقتم حتى أصبح يشبه أخاه المتوفى. وقد نقل عن بعض ما جاء في سجلات جمعية فيينا في خصوص هذه الحالة ما يلي:

> **«شقيقان يختلفان عن بعضهما تمامًا، يموت أكبرهما فيصبح الأخ الأصغر بعد ذلك شبيهًا بالأخ المتوفى في بنيته الجسدية والذهنية بشكل لافت جدًّا: لقد تمنى أن يأخذ مكان الأخ الأكبر في تقدير أمه. ذلك هو الدافع الأوضح الذي يقف وراء تحوّله»[6].**

عبّر فرويد عن ارتيابه إزاء هذه الحالة بكل لياقة قائلًا: «لو لم تكن الدكتورة دويتش هي التي نقلت هذا، ما كنا لنصدقه»[7]. واسترسل فرويد يقول إنه كان من الممكن، على أيّة حال، أن يكون الولد الأكبر قد حجب ظله ضوء شمس أمه عن الأخ الأصغر لينتقل إليه بزوال شجرة وارفة الظل فأحدث فيه حب أمه تلك التغييرات. وهذا التعبير بمثل تلك الصورة المرئية للعملية السيكولوجية كان من خصال فرويد المميزة، شأنه في ذلك شأن أستاذه شاركو.

لم تبق هيلين دويتش أثيرة فرويد المقربة إلا لبضع سنوات فقط في مطلع العشرينيات، ذلك أن زوجها بدأ يحول بينها وبين المعلم. وعندما أصيب فرويد بمرض السرطان كان فليكس دويتش طبيبه الخاص وقد آثر أن يُخفي عنه طبيعة مرضه الخبيث. وقد لام فرويد

فليكس لعدم إخباره بالحقيقة كاملة، وانسحب فليكس من دوره كطبيبه الخاص.

وقد كان الجو المحيط بفرويد ممزوج بمشاعر التوتر والإعجاب في الآن نفسه، حتى أن هيلين شعرت أنها بحاجة إلى تحليل آخر. وقد نصحها فرويد في البداية بأن تذهب إلى فرينشيزي في بودابست، ولكنها لم تعمل بأمره لما قد يعترض ابنها مع المجريين من صعوبات في التواصل لعدم اتقانه للغتهم. فاقترح عليها فرويد أن تذهب إلى ساكس، إلا أنها خيارها استقر في النهاية على أبراهام بدلًا من ساكس.

ورغم أنها تركت زوجها في فيينا لتذهب إلى برلين بسبب المصاعب التي برزت بينها وبين فرويد أساسًا، فإن آل دويتش نادرًا ما كانوا يتحدثون عن هذا الأمر. فقد كان زواجهما، مثل آل رانك، من ذلك النوع من الزواج الذي لم يكن يطرح فيه الزوجان للنقاش أكثر الجوانب حساسية في حياة كل منهما، كما كانت هيلين تأمل في أن تعرف كيف أُنشئ معهد التحليل النفسي ببرلين، حتى تتعلم كيف تُحكم تنظيم حصص التكوين التي كانت ستتولى الإشراف عليها في فيينا.

وقد غضبت هيلين من فرويد بسبب حديثه المتكرر عن سلوك زوجها، إلا أنها كانت في الوقت نفسه حانقة على زوجها لأنه تسبب في التباعد بينها وبين فرويد. (وفي الواقع ساهمت هي نفسها إلى حد ما في قرار زوجها إخفاء حقيقة مرض فرويد). وقد أولى الزوجان هيلين وفليكس علاقتهما بفرويد عناية خاصة واهتمامًا شديدًا، ولكنها هي التي بادرت بالانخراط في التحليل النفسي، وكان فرويد مهمًّا بشكل مبالغ فيه بالنسبة إليها. ثم بدا لها وكأن زوجها تعمّد إفساد كل شيء بشكل أو بآخر. وقد تصالح فرويد في ما بعد مع فليكس دويتش وفعل كل ما بوسعه أن يفعله من أجلهما كزوجين. وقد كشف أبراهام أثناء تحليله لهيلين عن فحوى رسالة من فرويد يقول فيها بأن التحليل لا ينبغي أن يعكّر صفو زواجهما[8]. وقد مثّل الشقاق بين فرويد وفليكس عبئًا ثقيلًا على هذا الزواج، رغم أن هيلين كانت تقيم في برلين، من الناحية الرسمية، كضيفة مرموقة ومميزة بوصفها تحظى بثقة فرويد. وشعرت هيلين بأنه لم ينمُ لديها أيّ تحويل تجاه أبراهام، وأنه ما كان عليها أن تقوم بأيّ تحليل آخر بعد تحليل فرويد. ورغم ذلك كان للتوصية التي تلقاها أبراهام من فرويد، والتي يُفترض أن ترقى إلى مرتبة الأمر، الأثر الطيب في نفس هيلين، وظل الزوجان على زواجهما حتى وفاة فليكس في عام 1964.

وبينما كانت هيلين تقيم في برلين من أجل التحليل (سافر معها بعض المرضى من فيينا

بين عامي 1923 و1924)، كان زوجها يخضع للتحليل على يد بيرنفيلد في فيينا. ولم تبلغ شهرة فليكس دويتش شهرة زوجته التي ذاع صيتها آنذاك. وفيما اعتقد كثيرون من أعضاء حلقة فرويد أن هيلين دويتش استطاعت أن تلعب دورًا يشبه دور المغنية الأولى في الأوبرا بحيث أصبح من الصعب مضاهاتها، كان الجميع يعتبرون زوجها شخصًا لطيفًا وواقعيًا ورغم أنه كان رقيقًا وعاطفيًا، فقد كان أوتوقراطيًا كذلك، وكان فليكس يساعد مرضاه على الشفاء بسرعة أكثر مما تفعل هيلين، فقد كان الأكثر قدرة على استثمار قدراته الشخصية في اتجاه القيام بالكشوفات التشخيصية المناسبة ومن ثم التقدّم في العلاج وتحسينه. وكانت هيلين أكثر تماهيًا مع فرويد حتى كان يكفيها أن تكتب مقالًا لا يحمل أيّ جديد طالما أنه يعكس أفكار فرويد.

وتميّزت هيلين أكثر كمحللة، ولكنها أيضًا كانت كاتبة بارعة. أما فليكس فقد كان طبيبًا مختصًا في الأمراض الباطنية، اشتهر خاصة بتشخيصه لحالات طبّية معقدة، ولكنه لم يعرف عنه أنه كان مفكرًا ولا كاتبًا لامعًا في دوائر التحليل النفسي. وفي الحقيقة، فقد هيبته في الأوساط الطبّية في فيينا بسبب علاقاته مع جماعة فرويد. ولكن ذاع صيته كمحلل في ميدان الطب النفسي-الجسدي الجديد منذ أن برز كقائد لجمعية التحليل النفسي ببوسطن. وإذا كان يفتقر إلى التحكم في نفسه خلافًا لزوجته، فإنه ربما كان أكثر حلمًا لما يتميز به من مرونة وعاطفة مرهفة.

ورغم أن هيلين دويتش هجرت فرويد بعد الخلاف الذي جدّ بينه وبين زوجها، إلا أنها ظلت تشعر بالغيرة من أولئك الذين برزوا في أفق فرويد، وكانت روث برونشفيك في طليعة هؤلاء الذين لم يروقوا لها. وكان مريض فرويد الرجل-الذئب أحد أسباب النزاع بينهما. وفي عام 1919 كان فرويد قد وضع حدًّا لتحليل هيلين دويتش رغم اعتراضاتها، ليعلن بشكل مفاجئ أنه كان يحتاج إلى الوقت الذي كان يخصصه لتحليلها[9]. فقد رجع الرجل-الذئب إلى فيينا يطلب المساعدة، وأخبر فرويد هيلين دويتش بأنها تلقت تحليلًا كافيًا. وقد افتتن فرويد بالرجل-الذئب، وكان من الواضح أنه لم يكن مهتمًّا بشكل خاص بحالتها، رغم أنه ظل يقدّرها كواحدة من أعضاء حلقته. ولم تشعر هيلين رغم ذلك بالندم، فبعد تحليلها حصلت على بعض التعويضات حيث تنامت صلتها الاجتماعية بفرويد، فضلًا عن أنه كان يرسل لها مزيدًا من المرضى. ولكنها تعرضت في عام 1923 لأول مرة للاكتئاب نتيجة الاضطرابات التي شهدتها علاقتها مع فرويد.

وعندما كان الرجل-الذئب في سنة 1926 في حاجة إلى العلاج من جديد، ربما كان بإمكان فرويد إصلاح ذات البين بأن يرسله إلى هيلين دويتش سيما وأنها كانت ترى في إرسال فرويد لها بين الفينة والأخرى مريضًا بمنزلة إفصاح عن عاطفته نحوها. ولكن يبدو أنه عمّق جراحها وزاد في إهانتها عندما خص روث برونشفيك بهذا المريض.

وكانت هيلين دويتش تنظر إلى روث برونشفيك كخصمة تتنازعها إعجاب فرويد وحظوته. وفي حين كانت روث تقترب أكثر فأكثر من فرويد، كانت مكانة هيلين تتقهقر وتتراجع. وقد تكون عقلية هيلين أفضل مقارنة مع روث، كما كان زواجها أكثر استقرارًا. لقد كان يمكن الاعتراف بها بسهولة كمنافسة لنساء مثل لاو أندرياس-سالومي فائقة الجمال وكثيرة العشاق من المشاهير، أو ماري بونابرت، الأميرة ابنة الملوك، لكنها كانت تشعر بازدراء تجاه نساء أقل بروزًا مثل روث برونشفيك أو جيان لامبل-دي غرو، اللتين طوّرتا نحو فرويد، بوصفهما من حاشيته، ما كانت هيلين تنظر إليه كتحويلات تشبث عصابية. وربما كان ذلك على علاقة جزئية بتحفظها الذي ظل حاضرًا في ذهنها إلى حد ما، وعبّرت عنه عندما كتبت لاحقًا عن تلامذة فرويد:

«وفيما أظهر من هم أقل موهبة تضاربًا في تفاعلهم الذي لا يخلو من تبعية متزايدة وفي تقييم فيه إفراط للتحليل... أنكر الأكثر موهبة منهم هذه التبعية على نحو مباشر ولكنه علمي، واعتزلوا المجموعة إما بطريقة صاخبة وعدائية أو بطريقة مبطنة وغير معلنة»[10].

كانت هيلين تراقب عن بعد روث برونشفيك كيف كانت تتقرّب من فرويد بطريقة لا تختلف كثيرًا عن الطريقة التي توخاها فيكتور توسك قبلها. وإذا كانت هيلين دويتش تبدو فاترة ومتحفظة بالمقارنة مع زوجها، فإنها كانت في حضرة روث برونشفيك تبدو كمعالجة(*) أكثر منها مراقبة نفسية[11]. عرفت روث برونشفيك أن فرويد لم يكن مرتاحًا لمزاجية هيلين دويتش إلا أن عملها العلمي كان محترمًا جدًا ولعل ذلك من الأسباب التي تقف وراء غيرتهما المتبادلة. ولما كتبت هيلين دويتش مقالًا تحليليًا عن دون كيشوت، كان لذلك الوقع الطيّب في نفس فرويد الذي ابتهج وسُرّ كما لو أن أحدًا أعطاه هدية. وشدّ

(*) تذكّرت هيلين دويتش أنها شعرت بالضيق حينما لم يكترث نبرغ لمعاناة امرأة سوداوية في عيادة فاغنر-جوريج. فقد صرخ نبرغ، الذي كان منشغلًا بالنظرية أكثر من انشغاله بالواقع الإكلينيكي، متسائلًا بأعلى صوته: «لكن أين يكمن الليبيدو بالنسبة إليها؟».

انتباهه ذلك حتى أنه أراد أن يعرف كيف حصل أن اهتمت بهذا الأمر[12]. لكن روث هي من تسلمت منه خاتمًا، رغم أن هيلين ظلت بعدها أكثر من خمس وعشرين سنة كواحدة من أعظم أساتذة التحليل النفسي.

ويعود رفض هيلين لتولي رئاسة جمعية فيينا نيابة عن فرويد عندما أجبره المرض على التقاعد، جزئيًا، إلى عدائها لرجال أمثال فيديرن وهيتشمان، فذهب المنصب بدلًا منها إلى فيديرن. ورغم كبريائها وتحفظها، فقد كانت تشارك في الاحتفالات بأعياد ميلاد فرويد. وكانت وزوجها يرسلان الهدايا والتلغرافات في السادس من أيار/ مايو احتفاء بتلك المناسبة. (تُلقى محاضرات فرويد سنويًا في جمعية نيويورك للتحليل النفسي في مثل هذا التاريخ). وعندما غادر ابنهما الوحيد إلى مدرسة في سويسرا في عمر السابعة عشرة، رأى أنه من الأحرى أن يبادر أولًا بزيارة فرويد صحبة أبيه. وقد أعطاه فرويد منظارًا وكتب شيئًا ما على كتاب أهداه له[13]. نقل فرويد في ما بعد لهيلين عن نشاطات ابنها في سويسرا، استنادًا إلى ما سمعه أثناء أحد تحليلاته[14].

اعتبرت هيلين أن عدم الانزلاق في هذا النوع من العشق المفرط لفرويد الذي وقعت فيه روث برونشفيك مسألة شرف شخصي، إضافة إلى أن قدرتها على حفظ ذاتها حصّنتها ضد انكسار المشاعر. وبالرغم من أن هيلين نذرت نفسها خدمة لقضية فرويد ونصرتها، فإنها لم تكن تريد أن تكون مثل الآخرين. وهذا ما مكّنها من أن تدعم أواصر علاقتها الشخصية مع فرويد بشكل أكبر، لا سيما في سنواته الأخيرة، وذلك ما كانت ترغب فيه إلى أبعد حدّ.

7 - هيلين دويتش: نظرية الأنوثة

كانت مساهمة هيلين دويتش بشكل خاص في مجال علم النفس النسائي. وقد اعترف فرويد بأنها كانت، مثلها مثل روث برونشفيك، من بين أولئك المحلّلات من النساء اللائي تمكنّ من أن يكتشفن، من خلال دورهن كبديلات للأمهات في التحويلات التحليلية، التماهي الباكر للبنت الصغيرة مع أمها. فكانت دويتش، على سبيل المثال، تتعامل مع تصرفات الأمومة وتلقي الرعاية من الأم بوصفها جوهر العلاقة الجنسية المثليّة النسوية لدى البالغات، واعتبرت المثليّة الجنسية مشكلة متجذرة في العلاقة الفموية ما قبل الأوديبية بالأم[1]. وكان فرويد اعتبرها في السابق كنتيجة لتماهي الأنثى مع أبيها.

غير أن مسيرة هيلين دويتش المهنية كمحللة بدت متناقضة مع أفكارها عن الأنوثة. فطبقًا لنظريات فرويد، التي عملت هيلين الكثير على تشذيبها، تكون المرأة الأنثوية متشبثة بزوجها وتابعة له، على عكس الفاعل النشط والمستقل المثالي الذي دافعت عنه سيمون دي بوفوار بعد ذلك بكثير. وقد حققت هيلين دويتش نوعًا من الاكتفاء الذاتي في حياتها المهنية التي كانت تميل إلى مناقضة مفهومها عن الأنثوية، ويرجع ذلك في جزء منه إلى البروز التقليدي للنساء في العائلات اليهودية، ولكن أيضًا إلى المواهب الحدسية الخاصة لدى النساء عالمات النفس.

وقد تمّ انتقاد أفكارها على نطاق واسع، وذلك بسبب التأثير الذي أحدثته دراستها التي تقع في مجلدين، علم نفس النساء، والتي نشرت في الأصل في 1944 و1945 وأعيد طبعها بعد ذلك عديد المرات (وقد ترجمت إلى ثماني لغات ووزعت في العديد من البلدان). وبدا عملها بالنسبة للكثيرين كما لو كان تبريرًا لمكانة النساء الاجتماعية المتدنية في الماضي وقد استاء منها كثيرًا كتّاب تحرير المرأة[*][2]. وكان هدفها أن تُقنع الناس بأن «يتخلّوا عن وهم الاعتقاد بتكافؤ السلوك الجنسي لدى الجنسين»[3]. ومن البديهي جدًّا أن أثارت بعض الأمور المتخصصة في جدالها ذلك حفيظة النقّاد النسائيين. فعلى سبيل المثال، فقد بدا وكأنها تقلل من أهمية إنجازات النساء من قبل: «إن العديد من النساء المثقفات لسن فعليًا سوى مجرد آبقات، معدمة المشاعر... وباختصار هن مدّعيات ثقافة لا مثقفات»[4].

كانت قناعات هيلين منسجمة مع توجه فرويد، حيث اعتبر أن: «الغريزة الجنسية (الليبيدو) من طبيعة ذكرية بالضرورة وبشكل غير قابل للتنوع البتة، سواء أكان لدى الرجال أم النساء، وبصرف النظر عمّا إذا كان موضوعه رجلًا أو امرأة»[5]. عدّل فرويد لاحقًا موقفه هذا بقوله إن: «هناك ليبيدو واحد فقط، يخدم الوظائف الجنسية الذكورية والأنثوية. ولا نستطيع أن نحدد جنسه...». وأضاف ساحبًا تراجعه الصريح: «ومع ذلك ليس ثمّة ما يبرر هذا التجاور بين الليبيدو والأنوثة كما توحي بذلك عبارة (الليبيدو الأنثوي)»[6].

ويتعيّن تقييم مواقف فرويد من النساء في ضوء واقع عصره. فقد بسط يديه إلى النساء الرائدات في حركته. بينما كان آخرون، أمثال سادغر، يعارضون السماح للنساء بالالتحاق

(*) هل يمكن لنا أن نعزو نجاح النساء المحللات (وقد ثبت كما قيل إن الإقبال عليهن فاق بكثير الإقبال على نظرائهن من الرجال) إلى طبيعة المجتمع الرجعية كلما تعلق الأمر بالمسائل الجنسية والذي فرض على النساء نمط من التنشئة والتربية جعلتهن حسّاسات تجاه الفروق العاطفية الدقيقة، وجعل الرجال حسّاسين تجاه عالم السلطة الخارجي؟

بجمعية فيينا، فقد نقل عن فرويد إنه «يعتبر إقصاء النساء من حيث المبدأ... لا يعدو أن يكون إلا نوعًا من التناقض الفاضح»[7]. ورغم أن فرويد كان رجلًا محافظًا يعتقد بأن المكان الطبيعي للنساء هو البيت، فقد كان يجلّهن في مهنتهن، لما يتمتعن به من مشاعر أرقّ من مشاعر الرجال، ولمّا كنّ مخلوقات ضعيفة فهنّ في حاجة للحماية.

وكان فرويد شديد العجب بإخلاص النساء، ورغم أنه كان يستسيغ القصص التي تروى عن النساء الخائنات فإنه ما كان ليطيقهن في عائلته. كما لم يكن ليتصوَّر أن تكون امرأة منافسة أو ندًّا له. لقد وُفِّق أن يبقى النساء في علاقة تبعية له بشكل كبير، وكان معجبًا بتلميذاته. إلا أن رغبة تلك النسوة في التحرر، وفقًا للمعايير السائدة في تلك الفترة، تعتبر متقدمة جدًّا.

والحقيقة فإن هذا النوع من النرجسية الذكورية لا نعثر عليه فقط في نظريات فرويد عن النساء وإنما نجده أيضًا وبشكل واضح في كتابات غيره من المحللين الأوائل. وكانت الحضارة الغربية عمومًا عند مطلع القرن العشرين تحتقر النساء، وترى أن عليهن أن يكرّسن حياتهن من أجل إشباع رغبات الرجل في المقام الأول فيحملن بأطفاله ويرعين شؤون بيته. وعليه كان من السهل في مثل هذه البيئة الثقافية أن يقع الفصل بين الجنس والحب. ورغم ذلك فقد اتخذ بعض المحللين النفسيين، وخاصة كارن هورني وكلارا تومسون، تدريجيًّا توجهًا مختلفًا عن توجه فرويد. فحاولوا أن يفرّقوا بين المعطيات البيولوجية وأنماط السلوك المحرمة اجتماعيًّا، وقد بدا هذا التمييز بالنسبة للبعض مثل جونز، وكذلك بالنسبة إلى فرويد إحلال لعلم اجتماعي زائف محل التحليل النفسي[8].

ولقد انتشرت أفكار فرويد بشكل كبير فكان لها أثرها البالغ مما جعلها مرمى سهام النقد من كل حدب وصوب وخاصة من الاتجاه النسوي في أيامنا هذه. وقد تجسّدت تلك الأفكار خاصة في ما جمعه من نوادر[*]سمسار الزواج في الأوساط اليهودية التي

(*) نورد هنا مثالين من تلك النوادر:
المثال الأول: «كان السمسار يدافع عن الفتاة التي اقترحها على الشاب ردا على اعتراضاته حيث اعتبر الشاب «أن أمها سيئة الطبع وغبية». «وهل ستتزوج أمها؟ أنت فقط تريد ابنتها». «أجل، ولكنها مسنة، وذميمة أيضًا». «ليس مهمًّا، لأنها كلما كانت مسنة وذميمة، كانت أشد إخلاصًا ووفاء لك». «إنها لا تملك الكثير من المال». «وما دخل المال، هل تتزوج المال؟ فأقصى ما تريده في نهاية الأمر هو زوجة». «ولكنها نحيفة جدًّا أيضًا». «حسنًا، ما الذي تريده؟ ألا يكون فيها أيّ عيب؟».
المثال الثاني: «ذات مرة لما عُرضت عروس على العريس، صُعق المسكين لهول ما رأى وانتحى بالسمسار جانبًا وهمس له معترضًا: فسأله أولًا يلومه: «لماذا جئت بي إلى هنا؟ ثم قال له :«إنها ذميمة ومسنة، وحولاء وعمشاء =

تعكس المكانة الاجتماعية للمرأة اليهودية التقليدية التي تتسم بالتبعية المطلقة.

ورغم أن فرويد اعترف في أواخر حياته بأنه «يتعيّن علينا أن نحذر من الاستخفاف بالتقاليد الاجتماعية، التي تضطر النساء إلى وضعيات سلبية»[10]، وفيما يبدو أنه اعتبر دائمًا أن النساء أقل ممارسة للجنس من الرجال. كما كان يعتقد أن حاجة المرأة المتزوجة لممارسة الجنس لا تتعدى مدة عشرين سنة[11]، (وربما استفاد في استنتاجه هذا من تجربته مع زوجته مارتا).

وكان فرويد يعتقد أن النشاط الجنسي للمرأة «ذو طبيعة سلبية أساسًا»، فبالنسبة إليه عمومًا «ينطبق الفعل على ما هو ذكري، فيما تنطبق السلبية على ما هو أنثوي»[12]. وبمعرفتنا بمشاعر فرويد النافرة من الضعف والسلبية، فإنه يصعب ألاّ نجد أن نظرته إلى النساء نظرة إحسان وشفقة. وعلى الرغم من أن فرويد طور موقفه[13] لاحقًا، فإنه ظل مقتنعًا بأن المرأة بمنزلة رجل معيب وناقص. لقد مثّل «حسد القضيب» بالنسبة إليه مكونًا أساسيًا من مكونات علم النفس النسائي، مما يعني أن الفرج لم يشبع تمامًا. فقد كتب عن «حسد القضيب» على أنه المقابل الأنثوي لخوف الرجل من تضرر أعضائه الذكرية، (عقدة الخصي)[14]. وقد افترض أن الخطوة التطورية الحاسمة تحدث «عندما تكتشف البنت الصغيرة نقصها الخاص من خلال رؤيتها لعضو ذكري...»[15]. وعزى فرويد الوظيفة التناسلية للمرأة إلى البحث عن طفل كتعويض عن قضيب ينقصها.

لاحظ فرويد أن النساء يمتلكن «فهمًا أدق للمسارات النفسية اللاوعية». وأنهن ضحايا ميل الحضارة لتسفيه «كل التخلّف والتقزيم المصطنع للغريزة الجنسية النسوية»[16]. وكان يعتقد بأن النساء أكثر عرضة للعصاب من الرجال، وخاصة الهستيريا[17]، كما كان يعتبر النساء بشكل عام «كائنات أدنى ذهنيًا»[18]، وبافتقارهن إلى قوة الليبيدو التي لدى الرجال، فقد كانت قدرتهم على الإعلاء أضعف:

لا شك أن وجوب النظر إلى النساء بوصفهن أقل إحساسًا بالعدل مرتبطة بهيمنة الحسد على حياتهن النفسية، فالحسد يفترض السيطرة على الحسد وتحديد الشرط الذاتي الذي يدفع المرء إلى ترك الحسد. كما أننا نعتبر أيضًا أن غرائز النساء الاجتماعية أضعف من الرجال وأنهن أقل قدرة على تصعيد غرائزهن[19].

= وأسنانها مقرفة». فرد عليه السمسار: «لماذا تخفض صوتك؟ إنها صمّاء أيضًا»[9].

رأى فرويد أن «النساء لم يسهمن إلا بقسط قليل من الاكتشافات والاختراعات التي شهدها تاريخ الحضارة...»[20]، بل حتى إنه كتب أكثر من ذلك، أن «النساء أكثر إقبالًا على الفكاهة وإعجابًا مما يبديه الرجال بكثير»[21].

يقول فرويد إن حب الرجل للمرأة، أو ما كان يدعوه «التقييم المبالغ فيه للجنس»، «لا يتجلّى في أقصى مظاهره إلا في علاقة مع امرأة تتمنع وتنكر جنسيتها»[22]. كما أن التطوّر الأخلاقي أقل لدى النساء (إذ إن أناهن الأعلى واهن جدًّا، وليس شخصيًّا جدًّا، وغير مستقل إطلاقًا عن أصوله العاطفية على النحو الذي نريده أن يكون عليه لدى الرجال)[23]. وكتب فرويد عن الأطفال يقول إنهم: «يتصرفون بالطريقة نفسها التي تتصرف بها امرأة عادية غير مثقفة تتوفر لديها القابلية للانحراف متعدد الأشكال»[24].

وكانت وجهة نظر فرويد الضمنية إزاء هذا الأمر هي أن «المرأة من فصيلة أخرى وهي أقل شأنًا من الرجل»[25]. وكان أحد أسباب كراهيته لأميركا أن النساء هناك أقل تبعية، ولم يكن فرويد يحب التخلّي عن مفهوم العالم القديم للعلاقة بين الجنسين: لقد كان آخر المدافعين عن المعيار الجنسي المزدوج (ينبغي ألا يفوتنا أن وسائل منع الحمل لم تكن متاحة على أيامه).

لقد اعترضت فرويد العقبات نفسها في مسعاه لإيجاد حلّ لمعضلات الموسيقى، والدين والأنوثة، لأنها ميادين متحالفة جميعها، في تقديره، مع البدائية واللاعقلانية. وقد أعلن ذات مرة صراحة أن «الجانب الأنثوي» من المشكلة كان «مستغلقًا عليّ بشكل خارق». وقد كان يعتبر أن حياة المرأة الأيروسية، «يكتنفها الغموض وذلك بسبب تأثير الظروف الحضارية غير المواتية، من جهة، وميلهن المعتاد إلى التستر والتمويه من جهة أخرى»[26]. وبدا وكأنه يشكو[27] من تعذر توصل بحثه إلى الكشف عن سر الأنوثة. لأنه بالنسبة إلى فرويد «الحياة الجنسية للنساء البالغات» ظلت «قارة مبهمة» بالنسبة إلى علم النفس، و«لغزًا» تعذّر على فرويد حله[28]. وفي عام 1932 ختم فرويد إحدى مقالاته القليلة عن الأنثوية بحذر شديد:

> هذا كل ما تعيّن عليّ أن أقوله لكم عن الأنوثة. وهو بالتأكيد غير مكتمل وجزئي ولا يبدو دائمًا لطيفًا، ولكن لا تنسوا أني كنت أصف النساء فقط من خلال طبيعتهن من حيث هي محددة بوظيفتهن الجنسية. صحيح أن ذلك التأثير يمتد إلى أقصى حدّ، إلا أننا لا نتجاهل الحقيقة التي تقضي بأن المرأة كفرد هي كائن بشري في جوانب أخرى

كذلك. وإذا أردتم أن تعرفوا المزيد عن الأنوثة، تحرّوه وتبيّنوه في تجاربكم الحياتية الخاصة، أو اسألوا عنه الشعراء، أو انتظروا حتى يستطيع العلم أن يمدّكم في شأن ذلك بمعلومات أعمق وأكثر تماسكًا[29].

مال فرويد إلى اعتبار نفسه مستقلًا ومكتفيًا بذاته فكان لا يقبل بالتأثيرات الخارجية. ومن ناحية أخرى فقد كان فقد استاء لفقدان الاتجاه، كما في نقده لأبيه. ولكنه بقدر مقاومته لاختراعات تلاميذه الذكور، فقد كان يتأثر بأتباعه من النساء. وهكذا استوعب «ما قبل تاريخ عقدة أوديب»، واعترف بأن الأمّ هي الموضوع الأصلي بالنسبة للنساء والرجال على حد سواء[30]. وعليه أمكن تفسير نزوع امرأة للعصاب تبعًا للحقيقة التي تقضي بأنها كانت مضطرة لأن تتحوّل من أمها إلى أبيها لكي تنشأ عقدة أوديب.

ويعتقد فرويد بصورة أكثر تزمّتًا قائلًا إنه «للتحول إلى الأنوثة، ينبغي أن يتخلى البظر عن حساسيته كليًا أو جزئيًا، وكذلك عن أهميته في الوقت نفسه إلى المهبل، وتلك واحدة من المهمّتين التي على المرأة القيام بها خلال مسار نموها...»[31](•). نفت أبحاث ماسترز وجونسون حديثًا وجود تلك النشوة المهبلية المفترضة، ولكن فرويد قلّل من قيمة الإحساسات في البظر وآثر مفهوم النشوة المهبلية ليؤكد على تبعية المرأة الفريدة من نوعها للرجل، وكما عبّرت عنها هيلين دويتش قائلة «يعتمد المهبل في أدائه لوظيفته الجنسية كاملة على نشاط الرجل...»[33].

أمل فرويد بكشف سر غموض الأنوثة، وذلك من خلال «مرحلة الارتباط ما قبل-الأوديبي للنساء بأمهاتهن»[34]. كان النموذج الأصلي بالنسبة إليه ذكريًا دائمًا: «إن الفرق بين النمو الجنسي للذكور والنمو الجنسي للإناث... يتطابق مع الفرق بين خصي تم وآخر ظل في طور التهديد فحسب»[35]. فبينما يرفض صبي مكافحته الأوديبية تحت التهديد، فإن «عقدة أوديب لدى النساء هي النتيجة النهائية لنمو طويل نوعًا ما. فهي ليست محطِّمة، وإنما تظهر تحت تأثير الخصي...»[36]. ذلك أن البنات «يعتقدن بأن أمهاتهن هن المسؤولات عن افتقارهن إلى القضيب ولا يغفرن لهن مآلهن إلى هذا الوضع المعيب»، ولذا يتحولن إلى أبيهن بدلًا من أمهاتهن[37]. وبفضل أتباعه من النساء اعترف فرويد:

(•) لقد عبّر تيودور رايك عن هذا الضرب من التزمت في اتصاله بالرجال حينما سألهم في المقابلة الثانية أو الثالثة: «عندما يبلغ الرجل الرعشة، أين يكمن الإحساس؟ هل في أعلى القضيب أم قرب الخصيتين؟ لا بد أنه في أعلى القضيب»[32].

«يتعيّن علينا فيما يبدو أن نسحب صفة الكلية عن الأطروحة التي تقول بأن عقدة أوديب هي نواة العصاب. ولكن نستطيع أن نوسّع محتوى عقدة أوديب لتشمل جميع علاقات الطفل بأبويه... يمكننا أن نقول، آخذين في الاعتبار ما توصّلنا إليه حديثًا في هذا الشأن، بأن الأنثى لا تبلغ الوضع الأوديبي الإيجابي العادي إلا بعد أن تمر بمرحلة تسبق ذلك الوضع تحكمها العقدة السلبية»[38].

ويمكننا اعتبار نظريات فرويد عن النساء على أنها دفاع ضد خضوعه تجاههن. ويمكننا أن نعزو الكثير من قلقه إلى تبعيته الضمنية لأمه، والتي لم يحولها فقط إلى مارتا، بل وأيضًا لبعض تلامذته من النساء «فلو لم يكن فرويد كزوج يمتعض من غياب العزاء الأكثر نضجًا مما تسبغه الأم على ابنها، لما كان ليجرؤ أبدًا أن يقول في النساء ما قال فيهن في شيخوخته»[39]. يمكننا قراءة رعب فرويد وخوفه من الأعضاء التناسلية للمرأة في عرضه لما كان يحلم به في حياته. وكان يرى النساء شرهات بطبيعتهن. وكما قال ذات مرة لماري بونابرت: «إن السؤال الذي لم يُجب عنه أحد حتى الآن والذي لم أستطع أن أجيب عنه حتى الآن، رغم سنواتي الثلاثين من البحث في النفس الأنثوية، هو: ماذا تريد المرأة؟»[40] اعتقد فرويد أن النساء نجحن دائمًا في عدم إفشاء سرهن، وقد يكون ذلك سبب قلقه منهن.

تعامل فرويد مع أنوثته بشيء من الجفاء. وقد فصل في كتاباته بشكل قاطع وحاسم بين الرجال والنساء. وهو فصل يبدو اليوم مشروطًا ثقافيًا أكثر منه حقيقة سيكو-بيولوجية أزلية. وبصفة عامة كان فرويد يمقت السلبية إلى أبعد حد. وكان أشد ما يكره أن يفقد السيطرة على نفسه حتى أنه أحجم عن تناول الويسكي والأسبرين. بيد أنه استطاع في الوقت نفسه أن يربط في ممارسته الإكلينيكية بين الأنوثة والإبداع، إذ قال لأحد المرضى الذكور من ذوي الذوق الفني الرفيع «أنت أنثوي إلى أبعد حد حتى أنك لا تستطيع التخلص من ذلك»، وقد قصد فرويد من وراء ذلك التفسير الإطراء ليس إلا.

وفي آخر حصة تحليلية لهيلين دويتش مع فرويد، شجّعها على أن تواصل تماهيها مع أبيها لأن ذلك مفيد لها. وترد مهنتيها إلى مثل هذا التماهي أكثر منها إلى المفاهيم المتعلقة بثنائية الجنس أو الحسد. وحتى في شيخوختها ظلت هيلين تعتبر أمها امرأة مزعجة[41] (ثمة ما يدعو للشك بأن فرويد والمحللين الأوائل كانوا يعتقدون بأن عقدة أوديب لدى المرأة على أنها مجرد حب لأبيها وكره لأمها، على الرغم مما شهدته فكرتهم تلك لاحقًا

من تشذيب). كانت هيلين الأصغر من بين أربعة أطفال، ولكنها وُلدت بعد عشر سنوات تقريبًا من أختها الأكبر منها مباشرة، ولأنها ثالثة بنات أبيها وأصغرهن فقد كانت كطفل وحيد، قرّة عين أبيها.

وظلّت هيلين على قيد الحياة بعد وفاة العديد من رواد التحليل النفسي، وانتهى بها تماهيها مع فرويد إلى أن رأت في «روح فرويد». لقد حاولت أن تتماهى مع روح تعاليم فرويد أكثر منها مع التحليل النفسي كحركة بيروقراطية. وأصبحت في السنوات الأخيرة من عمرها تشكك في نجاعة معالجة التحليل النفسي المطوَّلة. وخاب أملها في التحليل النفسي كطريقة علاجية لأنه بدا في كثير من الأحيان وكأنه يخدم نكوص المرضى[42]. يبدو أن بعض أفضل تحليلاتها قد أثمر أسوأ النتائج العلاجية، في حين أعقبت بعضًا من أسوأ تحليلاتها أفضل التغييرات العلاجية، واستنجت هيلين، كما استنتج فرويد من قبل بخصوص تقنية التنويم المغناطيسي، أن عمق التحليل ليس له إلا علاقة واهية مع أثره العلاجي. ورغم ظهور الاتجاهات الحديثة في نظرية التحليل النفسي، فقد عبَّرت هيلين دويتش عن امتعاضها من الإصرار على سيكولوجية الأنا [43] ومالت إلى إنكار ما قال به هارتمان من وجود دوائر للصراع الحر.

رغم علاقتها الشخصية الممتازة مع فرويد، إلا أنه أثير بينهما جدل ذات مرة حول مسألة الأولويات. فقد أرسلت في منتصف العشرينيات مقالة للنشر، قبل أن يتناقشا في ما بعد في مكتبه حول عملها الأخير عن علم النفس النساء. وكانت مقالتها تطرح مشكلة تطوّرية خاصة لدى الفتيات الصغيرات، وهي اضطرارهن إلى فصل ليبيدوهن عن الموضوع الأولي (الأم) لكي يتوصلن إلى اختيار موضوع للحب من الجنس الآخر. وكشف لها فرويد أنه هو نفسه راودته مثل هذه الأفكار في السابق، قبل أن يطّلع على مقالتها التي حُدِّد موعد نشرها قبل نشر مقالته[44]. وقد اعتبرت هيلين فشلها في الإصرار على أنها كانت قد توصلت إلى أفكارها تلك، بشكل مستقل عنه، بمنزلة تنازل عن حقها.

أصيبت بخيبة أمل مريرة عندما قرأت آنا فرويد في 1925 مقالة أبيها، «بعض التوابع الجسدية للتمايز التشريحي بين الجنسين» دون أن يشير فيها إلى عملها السابق[45] رغم أن مقالتها قد ظهرت في موعدها، وقد أرجعت هيلين عدم الإشارة إليها إلى غيرة آنا فرويد[46]. وبالفعل، في آخر النسخة المنشورة من مقالة فرويد هذه اعترف هذا الأخير بمنجزات غيره في هذا الميدان. وكما نعلم كان فرويد قد عبّر منذ البداية عن قلقه إزاء

ما قد يقتبسه غيره عنه دون التنصيص على ذلك. ما لبثت تلك الصراعات المحتدمة أن خمدت وهو ما نلمسه بما ذكره فرويد حين قال:

«يوجد في الكثير من الدراسات القيّمة والشاملة عن عقدة الذكورة والخصي عند النساء التي تقدم بها أبراهام (1921) وهورني (1923) وهيلين دويتش (1925) ما يقترب كثيرًا مما كتبته دون أن يتطابق معه تمامًا، لذا أجدني مضطرًا لنشر هذه المقالة مرة أخرى»[47].

إنه لمن الصعب أن ندرك ما إذا كان استياء هيلين دويتش من فرويد في محله، كما أن عتابها لآنا فرويد لم يكن مبررًا، فقد تكون فقرة فرويد الأخيرة لم تكتب بعدُ، عندما قرأت آنا مقالته في إحدى المؤتمرات، وقد تبرّمت هيلين من أن يذكر اسمها مع اسمين آخرين رغم أنها كانت تحترمهما كندّين لها على الأقل. (كما استاءت من أن يستشهد بها فرويد بالتزامن مع جين لامبل-دي غرو وروث ماك برونشفيك)[48]. وقد كان هذا الحدث مشحونًا بالانفعال حتى أنه ساورها الشك بأن فرويد تجاهل إسهامها السابق الذي ناقشه معها من قبل في مكتبه[49]. شعر تلاميذ آخرون مثل إيدواردو ويس، أن فرويد، في سنواته الأخيرة، قد انتحل مفاهيمهم دون أن يعترف بذلك[50].

غير أن هؤلاء التلاميذ كانوا قريبين جدًا من فرويد بحيث كان من السهل جدًا أن تختلط عليهم أفكارهم بأفكاره. وختمت هيلين دويتش مقالًا لها نشر بعد وفاة فرويد بـ«طرفة حقيقية تمامًا» عن سيكولوجية الجراحة قائلة:

«ذات صباح صيف مبكر منذ سنوات عديدة، توصّل سكان مدينة جامعية ألمانية صغيرة إلى اكتشاف مذهل، وهو أن كل الكلاب التي كانت تجري طليقة أثناء الليل في جزء معين من المدينة قد فقدت أذيالها. وقد علموا أن طلاب كلية الطب كانوا قد أقاموا حفل شراب في تلك الليلة وأنهم أثناء مغادرتهم الحفل خطرت ببال أحدهم بدرجة فكرة هزلية جدًا بأن يقطع أذيال الكلاب. وقد أصبح هذا الشاب في ما بعد أحد أشهر الجراحين في العالم»[51].

نسيت أن فرويد استخدم هذه الطرفة ليشرح لتلاميذه مفهوم الإعلاء[52] (وقد روى هاين أيضًا الطرفة ذاتها التي يُفترض أن فرويد قد أعاد روايتها نقلًا عما سمعه في طفولته).

ظلّت هيلين دويتش سلبية ومتلقية تجاه فرويد ومفاهيمه، رغم مسيرتها المهنية الحافلة كطبيبة نفسية ومحللة نفسية. وعندما لخصت غرمين غرير وجهة نظر هيلين دويتش التي

تقول بأن «أهمية المرأة لا تقاس إلا بوجود رجل إلى جوارها تخضع له بشكل مطلق»[53]، لم تكن تدرك أن نموذج دويتش المتمثل في كيفية تحقيق المرأة لذاتها كان علاقتها بفرويد وليس بزوجها. وقد عبّرت هيلين دويتش عن ذلك بقولها:

«إن الشرط النرجسي الجوهري لهذا التماهي هو هذه الألفة السيكولوجية وتشابه أنا كلا الطرفين. ويقع النصيب الأكبر من العمل على تحقيق التوافق على عاتق المرأة: إذ عليها أن تترك زمام المبادرة للرجل وأن تلفظ الأصالة خارج حاجتها الخاصة، معبّرة عن نفسها من خلال التماهي. وتحتاج بعض أولئك النسوة إلى أن يُعلين من شأن موضوعاتهن، ويمكن التعبير عن طريقتهم النرجسية في إسعاد الرجل وفق الصيغة التالية «إنه رائع وأنا قطعة منه».

«هؤلاء النسوة لسن مجرد شريكات حياة مثاليات للرجال. فحينما يمتلكن درجة عالية من ملكة الحدس الأنثوية، يكن متعاونات مثاليات غالبًا ما يلهمن رجالهن فتغمرهن سعادة عظيمة لأدائهن هذا الدور. ويبدو أنه من السهل التأثير عليهن، ويتكيّفن مع شركاء حياتهن ويتفهمنهم. إنهن الرفيقات الأقرب إلى النفس والأكثر سلمية وهمّهن الحفاظ ذلك الدور. فتراهم لا يصررن على حقوقهن الخاصة، بل على العكس تمامًا. معاملتهن سلسة كيفما كانت السبل، فيكفي للمرء أن يُحبهن...

وإذا ما كنّا موهوبات في أي ميدان، فإنهن يحافظن على قدرتهن حتى يكنّ أصيلات ومنتجات. ولكن دون الدخول في صراعات تنافسية. وهن على استعداد دائم في أن يتنازلن عن إنجازاتهن دون الشعور بأنهن يضحين بأي شيء ويغتبطن لإنجازات شركائهن التي غالبًا ما كانت بإلهام منهن. وعادة ما يشعرن بحاجة فائقة للتشجيع عندما ينهمكن في أيّ نشاط موجه للخارج، ولكنهن مستقلات بشكل مطلق في كل تفكير أو إحساس يتعلق بحياتهن الجوانية، أعني بذلك، النشاط الموجه للداخل. وليست قدرتهن على التماهي مع تعبير عن فقر داخلي، بل عن ثراء داخلي»[54](*).

عندما يذهب فرويد إلى حفل موسيقي كانت هيلين دويتش تذهب إليه أيضًا، كانت تجلس إلى جانب زوجها بعيدًا عن النساء اللائي كن يجتمعن حول البروفيسور. ولذلك فلم تكن تتماهى مع فرويد إلى الحد الذي لا يمكن لها استخدام قدرتها الخاصة على الحكم. وذات مرة تمّ تحويل حالة صرع إلى هيلين، وكان فرويد يخشى أن يأخذ عليه خصومه أن التحليل

(*) يتعلق أهم إسهامات هيلين دويتش الإكلينيكية بتقلبات التماهي لدى الأفّاكين والمحتالين[55].

النفسي يدّعي أنه قادر على معالجة ما يتعدى الجانب العصابي في هذا المرض. ورغم علم هيلين دويتش بما قال فرويد عن هذا الأمر، إلا أنها قررت أن تقبل الحالة. وتزامنت الفترة الإبداعية الخلاقة التي عاشتها هيلين مع فترة قربها الشديد من فرويد، وعليه يمكن لنا أن نفترض أن وجود فرويد في حياة هيلين كان بمنزلة حافز ساعدها على انجاز ما أنجزته.

وعندما أصاب هيلين اكتئاب جراء علاقتها مع فرويد على إثر الخلاف الذي نشب بينه وبين زوجها، كتب إليها محلّلها الثاني أبراهام، في عام 1924 لما بالغت في رفض فرويد لها بدافع مشاعرها الأنثوية المازوشية نحو أبيها، ينصحها بأن تكون إيجابية أكثر تجاه فرويد سيما وأنه كان يمرّ آنذاك بفترة عصبية نتيجة فقدانه لأوتو رانك. وكان لديه، بحسب مصطلحات ذلك العصر، فائض من الليبيدو يمكن توجيهه نحو موضوعات أخرى في حياته. ورغم أنها ما كانت لتستطيع أبدًا أن تتغلب على صدمة سوء تفاهمها مع فرويد حول مرضه بالسرطان، فقد استطاعت أن تنافس قدرة فرويد على العمل الدؤوب. وكانت تبدأ عملها في السابعة صباحًا، تستقبل أحد عشر أو اثني عشر مريضًا يوميًا لما كانت في فيينا وذلك على مدار ستة أيام في الأسبوع، في وقت كان يأمل فيه المحلل النفسي أن يستقبل ولو عددًا محدودًا نسبيًا من الحالات طوال حياته، ولذا فقد كان يحتاج إلى التنويع، كما لم يكن واضحًا آنذاك أيضًا أن التحليل النفسي كان سيصمد ويستمر، لذا لم يكن أمام المحللين سوى القبول بالأمر الواقع.

وفي نهاية عام 1924 اختيرت هيلين دويتش مديرة لمعهد التكوين في جمعية فيينا للتحليل النفسي. ولم يكن ذلك اختيار فرويد شخصيًا بقدر ما كان اختيار الجمعية. وكانت وسيلة اتصالها الأساسية بفرويد الكتابة، ولم تتصل به عن طريق الهاتف أبدًا. وكانت بينهما لقاءات لترتيب أمور المرشحين والمرضى. وقد شغلت هيلين منصبها ذاك لعشر سنوات اعتمادًا على قدرتها الوظيفية دون أن تحتاج في ذلك لأي نوع من الدعم من أي عضو من أعضاء الجمعية. وعندما قدمت إلى الولايات المتحدة في 1934 كتب إليها خلفاؤها في فيينا يخبرونها بأنهم لم يجدوا السجلات، والحال أنه لم تكن هناك أية سجلات أصلًا. وقد جعلت منها سمعتها في فيينا محللة مكوّنة بارزة بالنسبة إلى الأميركيين الذين قدموا إليها (فيينا)، وكانت في نظر الكثيرين أفضل محللة مع افتراض أنه لا يمكن لأحد أن يبلغ مستوى فرويد نفسه.

وفي عام 1930 سافرت هيلين دويتش إلى أميركا لحضور مؤتمر حول الصحة العقلية.

وأعطاها فرويد مالًا من عنده لتشتري هدية لبريل تقدمها له باسمه هو شخصيًا فاشترت قطعة فضية وقدمتها له، وهي تدرك تمامًا أن تقديم هدية على يد شخص آخر يعني أن بريل لم يكن في الحقيقة يحظى بمكانة خاصة بالنسبة إلى فرويد. لقد استقلت هيلين في رحلتها إلى الولايات المتحدة مكانها في الدرجة الأولى من الطائرة، وعندما وصلت هناك، انبهرت بالحياة الأميركية بالقدر نفسه الذي تُحدثه هوليود في النفس من انبهار. وكتب ويتلز عنها مقالًا في صحيفة يصفها، كما تذكر هي، بالممشوقة، الشقراء الحسناء الألمانية (في حين كانت قصيرة، كستنائية الشعر، ويهودية بولندية)، وممثلة عن بلاط فرويد. ولما عادت إلى فيينا اصطحبت معها علبتي سيجار، واحدة لزوجها والأخرى لفرويد. وعندما سُرقت إحداهما وجدت نفسها في ورطة، لكن زوجها تنازل عن علبته لفائدة فرويد.

وفي الثلاثينيات كان ثلثا مرضى هيلين في فيينا من الأميركيين. وكانت الهجرة إلى الولايات المتحدة تغري تلاميذ فرويد، طلبًا للأمان السياسي فضلًا عن التأمين الاقتصادي. وفي عام 1934 دعاها لبوسطن ستانلي كوب الذي كان مهتمًا بالطب النفسي-الجسدي. وفي خريف 1934 وصلت كامبريدج، ماساشوستس، يرافقها عدد هائل من مرضاها. عبر الضفة الأخرى من الأطلنطي أمكن لهيلين دويتش أن تتبيّن حقيقة التهديد النازي بوضوح أكثر. ثم ما لبثت أن أقنعت زوجها في عام 1935 باللحاق بها. وكغيرها من الأطباء الوافدين، اضطرت هيلين لأن تجري اختباراتها الطبية من جديد. وبسبب عملها في ميدان النساء فقد اهتمت بالغدد الصماء، ولكن الأمر استغرق منها تحضيرًا دام عامين حتى تجتاز اختباراتها تلك.

وقبل أن تتخذ قرارها النهائي بمغادرة فيينا، كانت هيلين قد تشاورت في الأمر مع فرويد وكان زوجها فليكس قد ترك لها حرية اتخاذ القرار رغم أنه كان يفضل بقاءها، فقد كانت أمامه فرصة ترؤس عيادة طبّية مهمة. كما لم يكن فرويد يريدها أن تغادر دون أن يجعلها تحسّ بأن مسألة بقائها لغاية في نفسه حتى لا تشعر بأنه نوع من الالتماس طالما كانت تهفو نفسها إليه. وبدلًا من ذلك عزى المسألة إلى أمور مهنية خالصة مدعيًا أن جمعية التحليل النفسي في فيينا ستعاني من غيابها. ورغم أن ذلك بدا لها كما لو كان أمرًا منه بعدم السفر إلى أميركا، فقد غادرت مكتب فرويد مكسورة الوجدان وعازمة أكثر مما أي وقت مضى على الهجرة[56].

8 - ميلاني كلاين: «المدرسة الإنكليزية»

لقد كانت علاقة ميلاني كلاين (1882 ـ 1960)، التي تكوّنت في بودابست وبرلين قبل أن تنتقل إلى إنكلترا، مع فرويد علاقة سطحية على المستوى الشخصي، إلا أن أفكارها كانت تمثّل تحديًا لعمل ابنته آنا في ميدان التحليل النفسي للطفل، كما كان لها دور مميز في حلقات التحليل النفسي، وخاصة في إنكلترا وأميركا الجنوبية. وكانت ميلاني كلاين واحدة من بين مجموعة من الأشخاص المبدعين الذين استطاعوا أن يبرزوا عبر حركة فتيّة مغمورة وغير معترف بها. وقد تركت بصمتها الخاصة في فكر التحليل النفسي في عصرها دون تأهيل أكاديمي أو تكوين علمي.

تتمثل مساهمة كلاين الأساسية، شأنها في ذلك شأن العديد من المساهمين من المحللين النفسيين بعد فرويد، في التأكيد على أهمية الطبقات قبل-الأوديبية في نمو الشخصية. وكانت روث برونشفيك قد حاولت، بتوجيه من فرويد، صياغة الدور المبكر للأم، وهو ما أقدم عليه كارل يونغ وأوتو رانك تحديًا لفرويد. كما أوضح هاري ستاك سوليفان، ومنذ عهد غير بعيد، أن دونالد فينيكوت وإريك إريكسون الروابط الأكثر قدمًا للطفل بأمه.

لم يكن فرويد، كرجل من القرن التاسع عشر، الوحيد الذي أنكر دور الأم التربوي في نمو الطفل، ناهيك عن أن جون ستيوارت ميل، مثلًا، لم يضمّن أية إشارة لأمه في سيرته الذاتية، وهيمنت علاقة الابن بأبيه على كتاب صامويل بتلر «طريق جميع البشر» The Way of All Flesh وفي ما عدا بعض الاستثناءات، لم تكن الأمهات في القرن التاسع عشر موضوعًا مناسبًا للروائيين. كما أنهم لم يكونوا يقرّون بأن الأمومة موضوع ذو صلة من ناحية التحليل النفسي حتى العشرينيات من القرن العشرين، ونظرًا للتأكيد حديثًا على هذا الاتجاه فقد أصبح من السهل أن ننسى أنه لم يكن أمرًا جوهريًا بالنسبة للمحللين النفسيين.

وكان من أهم تبعات الدراسات المكثفة والعميقة التي قام بها المحللون النفسيون حول مسألة الأمومة، تقدير أهمية التواصل ما قبل اللغوي بين الطفل وأمه. ولا تشتمل المراحل المبكرة من اتصال الولد بأمه، أو بالأم البديلة، على كلمات. وتلعب وسائل التواصل غير اللغوية دورًا مهمًا في حياة البالغين، وإن بشكل غير واضح دائمًا. وكان فرويد نفسه يؤكد على قدرة الكلمات على تحريرنا ممّا استعصى علينا فهمه، فيما كان المعالجون، منذ

أيامه، أكثر حساسية تجاه أوجه القصور العقلانية التي انطوى عليها توجهه ضمنيًا.

وربما يكون تأكيد المواهب والقدرات التي يمتلكها المرضى أصلًا ودعمها مهمّة علاجية أساسية. وتكشف لنا تجربة المريضة التي خضعت للتحليل على يد فرويد وميلاني كلاين تباين توجههما. فقد قالت هذه المريضة إن تحليل فرويد قد غيَّر شكل حياتها، وحتى بعد مرور سنوات ظلت تفسيراته متغلغلة في أعماق ذاتها لما تحمله من معنى. وقد كان لتشجيع فرويد لها للإفصاح عما يختلج في صدرها الأثر العميق في نفسها. وعلى عكس ذكاء فرويد الحادّ، لم يكن ذكاء ميلاني كلاين مذهلًا، فليس في تفسيراتها الخاصة أيّ شيء مميز، إلا أنها كانت متعاونة بطريقة مرنة. وقد نجح تحليل كلاين في منح المريضة قدرًا أكبر من الإحساس بذاتها. إحساس كانت تعرف دائمًا أنه موجود، لكنها كانت تفتقر إلى القدرة على تحقيق ذلك بمفردها.

قدّمت ميلاني كلاين الكثير من أجل الكشف عن الطابع المثالي الذي أضفاه فرويد على النساء حيث كان يتجاهل دورهن الواقعي كأمهات. ويعكس موقف فرويد الذي كان يشعر بأمان أكثر مع النساء من الرجال، ما ميّز القرن التاسع عشر من كياسة بالغة نحو النساء. إلا أن هذا التوجه كان ينطوي ضمنيًا على حطّ من قدرهن لأنه يتجاهل الحد الذي يمكن أن تتحقق عنده المساواة بين الرجل والمرأة. كما أن التعبير عن علاقة الأم بابنها بمصطلحات مثالية كما كان يفعل فرويد يخفي في الآن ذاته إنكارًا لحق المرأة في بلوغ المتعة الجنسية القصوى مع زوجها.

كانت معظم أفكار ميلاني كلاين تلقى معارضة في عصرها، كما كانت تنشب صراعات شرسة حول مفاهيمها في إطار التحليل النفسي البريطاني. وبقطع النظر عمّا يمكن أن تكون شعرت بها من طموح كناقدة للطرق التحليلية النفسية الأرثوذوكسية في التفكير، إلا أنها عملت دائمًا على ألا تخرج أفكارها عن إطار فرويد. وبدلًا من أن تقول ميلاني كلاين بأن الكائنات البشرية في مرمى مشكلات أكثر من المشكلات التناسلية أو حتى الأوديبية ـ وهذا المثال عن الحس المشترك اعتبره المتمردون على فرويد اكتشافًا عظيمًا ـ ركزت (مثلها في ذلك مثل روث برونشفيك) على المراحل الأولى والأكثر بدائية للمؤشرات القبلية لعقدة أوديب.

ولقد أبدت ميلاني كلاين إصرارها على أن تكون أكثر ملكية من الملك، وقالت إن عقدة أوديب تبدأ في التكوّن لدى الطفل في عمر الستة أشهر، نتيجة إسقاط الأوهام

الطفلية المتصلة بالغضب والعدوان. وبينما لم يشكك أحد في جدوى تأكيدها على الأوهام ما قبل اللغوية لدى الأطفال، فقد كان تأريخها للسيرورات التي تتم في الطفولة المبكرة محل جدل ونقد لأنه غير قابل للإثبات. ولم تكن ميلاني كلاين تعتقد فقط بأن تقسيم فرويد للجهاز النفسي إلى ثلاث مناطق هي الأنا، والهو والأنا الأعلى، كان مجديًا، بل وأيضًا بأن كل مناطق الفكر تلك كانت منفصلة منذ الولادة تقريبًا. لقد استعادت مفهوم فرويد عن غريزة الموت حرفيًّا، وادَّعت أنها تتبعت نمو هذه الغريزة منذ مرحلة الطفولة المبكرة وما بعدها. وبدت فرضيتها عن وجود عواطف فطرية لدى الطفل، مثل الحسد، بالنسبة للبعض بمثابة نسخة مستحدثة من الخطيئة الأولى.

ورغم ما قيل عن ميلاني كلاين بأنها لم تُرضع أبنائها من ثدييها، فإن في تأكيدها على الأهمية المهملة لوظائف الأمومة، أسبغت على الثدي دلالة تكاد تكون ميتافيزيقية. وبينما كان إرنست جونز متزمّتًا جدًّا في قوله: «من المرجح أن تكون للعضو الذكري وحده رموز أكثر من جميع الرموز الأخرى مجتمعة»[1]، فإن ميلاني كلاين أشارت إلى أهمية «حسد الثدي» لدى الرجال، بالإضافة إلى الخوف من الخصي. وما كان فرويد ليعترف بأهمية أيّ من حسد الأم أو الشعور بالعدوانية تجاهها في سيكولوجية الطفل، لو لم تجلب ميلاني كلاين الأنظار مبكرًا إلى دور النزوعات الطفلية المدمرة وتنوع أشكال الدفاع ضدها.

وعلى النقيض من وجهة نظر آنا فرويد في التحليل النفسي للطفل، فقد كانت ميلاني كلاين تؤمن بأنه لا حاجة لتغيير التقنية لكي نهيّئ وضعًا تحليليًّا مع طفل صغير. ويرجع تاريخ الصراع بين ميلاني كلاين وآنا فرويد إلى عام 1927، وذلك عندما قدمتا كلتاهما مقالًا في مؤتمر إنسبروك حول طريقتيهما المختلفتين في معالجة الأطفال. وقد بدت ميلاني كلاين أكثر صراحة واستقامة، وكانت تعتمد التقنية نفسها بشكل متزمت مع الأطفال والبالغين. وبالنسبة إليها، تعادل خامات اللعب تمامًا التداعيات الحرة في تحليل الكبار، ويستطيع محلِّل الأطفال بجرأة أن يقوم بتفسيرات عميقة للحياة النفسية. وعندما عبّرت ميلاني كلاين ذات مرة عن أملها في أن «تحليل الأطفال سيصبح جزءًا أساسيًّا لا غنى عنه في تربية كل شخص على غرار التعليم المدرسي الآن»[2]، كانت تأمل أن سلالة داخل منظومة فرويد الفكرية ستستمر لآلاف السنين. وفي عام 1930، أمعنت أبعد من ذلك إلى حدّ الإقرار بأن «إحدى المهام الأساسية بالنسبة للمحلِّل النفسي للطفل هي اكتشاف

الذهان لدى الطفل ومعالجته»[3]. ودافعت لبعض الوقت عن تحليل يشمل كافة الأطفال في مقابل وجهة النظر التحليلية السائدة في فيينا التي لا ترى ضرورة في أن يخضع كل طفل للتحليل. ولكن كثر هُم المحللون الذين كانوا يرسلون أطفالهم للعلاج.

وربما كان توجّه ميلاني كلاين أكثر جدوى من الناحية العلاجية قياسًا للتوجّه الفرويدي الكلاسيكي، وذلك لأنها كانت تعتقد بأنه يتعيّن أن يخضع كل شيء في الشخصية للتحليل. وكانت تعتقد بأن إعادة الطمأنينة يمكن أن تكون صعبة وقاسية، ورأت أنه من الضروري أن يكشف المحلِّل عن الأسباب الكامنة وراء توتر المريض ويَتتبّعها بالتفسير. وأكدت على مدى معاناة الطفولة، بينما كان فرويد يميل إلى أن ينظر إلى الوجود الإنساني نظرة أكثر حلمًا ورصانة. فقد كان يتبنى وجهة نظر أكثر طبّية في التحليل، وكان مستعدًا لأن يترك دفاعات معينة دون تفسير، طالما أن المريض يستطيع أن يصل إلى تسوية ممكنة مع نفسه. وكانت ميلاني كلاين تحاول أن تساعد الشخص على مواجهة كل أسباب توتره، في أدق تفاصيلها، بما ذلك أقدم المشكلات.

تحدّث أتباع ميلاني كلاين في إنكلترا عن تحليلات ظلّت لعشر سنوات دون أن يتساءلوا عمّا يمكن أن يبرر مثل هذا التدخل الهائل في حياة إنسان آخر[4]. ولكن بمجرد أن تصبح الحقيقة مبررة، ويصبح البحث هو الهدف من تقنية التحليل النفسي، يتمّ وضع الأسس لنوع من الأخلاقيات التي قادت العديد من المحللين الأوائل إلى أن يزدروا أشكالًا «أقل» شأنًا من العلاج التحليلي النفسي.

وليس تشديد ميلاني كلاين على دور الأوهام القبلية إلا امتدادًا لموقف فرويد. أمّا بالنسبة لها، فقد صارت الأوهام غير الواعية (الموضوعات الداخلية) نقطة حيوية في حياة الإنسان، السويّة والمرضيّة على حد سواء(*). ولا يصبح النكوص في مسار العلاج عندئذ علامة خطر وإنما علامة على تعمق التحليل[6]. وبينما كان التحليل النفسي الأميركي يتّجه نحو التأكيد على الأنا وأوجه الصحة العقلية في أعمال فرويد، فقد كانت ميلاني كلاين في إنكلترا تُبدي تلك الحساسية البريطانية المميزة لدور النزوعات البدائية في الحياة. وبينما تلتقي وجهات النظر بشأن الحالة السويّة في حلقات التحليل النفسي الأميركي حاليًا حول مفهوم هينز هارتمان عن قدرة الأنا «المستقل ذاتيًا» على مقاومة مظاهر النكوص، فإن

(*) ربما جاز لنا القول بأن توصيف يونغ للنماذج الأصلية واللاوعي الجمعي قد استبق وجهة نظر المحللين النفسيين الذين كتبوا عن وجود عالم داخلي من «الموضوعات الداخلية»[5].

أتباع كلاين في إنكلترا كانوا يؤكدون على مدى ارتباط سيرورة النمو العادي بالطبقات الذهانية. ولم يكن عمل كلاين نسبيًا محل جدل باعتبار اقتصاره على الأطفال، ولكن في الثلاثينيات أصبحت أكثر اهتمامًا بسيكولوجية البالغين، بل وبمرضى الذهان أيضًا. وربما اعتقد البعض أنها لم تكن مؤهّلة طبيًا لأن تخوض في أمر مرضى الذهان بوصفها محلّلة نفسية، لكنها كانت مقتنعة بأن تصوراتها تتضمن إحالات تتعلق بكيفية فهم سلوك مرضى الذهان رغم أنها لم تعالج أيّ منهم.

كان فرويد نفسه يمقت الاتجاه الذي اتخذته ميلاني كلاين. ومرة أخرى، وكما هو الشأن مع مفهوم رانك عن صدمة الميلاد، بدت مفاهيمها وكأنها صياغة كاريكاتورية لأفكار فرويد، إلا أن عدائها كان منصبًا، هذه المرة، على آنا وليس على فرويد. ورغم أن فرويد أشار ذات مرة إلى «تحليل الطفل كطريقة ممتازة للوقاية من الأمراض»، سرعان ما أبدى شكوكًا متزايدة حول قدرة التحليل النفسي الوقائية[7]. ورغم ذلك كان فرويد معتدلًا في تصريحاته العلنية حول ميلاني كلاين. واقترح طباعة مساهماتها ومساهمات ابنته آنا معًا، وقد اعترف بأنه استفاد من عملها في صياغة مفهومه عن العدوان. وقد أبدى إعجابه خاصة بفكرة أن الأنا الأعلى لدى الطفل قد تعكس أوهامًا عدوانية مسقطة، بالإضافة إلى سلوك الأبوين الفعلي[8]. (ولقد قيل إن فرويد «عندما ناقش في أواخر حياته الأسباب التي أدّت به لسنوات إلى تجاهل أهمية النزوعات العدوانية في الإنسان، كان يميل إلى تحميل نزوعاته اللاواعية الخاصة هذا التأخير»[9]). تمثل موقف فرويد من ميلاني كلاين أساسًا في أن أفكارها «مبهمة وغير مفهومة»، مثل الانحرافات الأخرى في التحليل النفسي[10]. ولاحظ فرويد أنها المرة الأولى التي استطاع فيها التحليل النفسي أن يتحمَّل مثل هذا الانحراف داخل الحركة[11].

ومثلها مثل آنا فرويد، تلقت ميلاني كلاين تكوينًا خاصًا بالتدريس في رياض الأطفال. وبعد زواج فاشل انتهى بالطلاق خضعت للتحليل على يد فرينشيزي في بودابست أولًا، ثم على يد أبراهام في برلين ثانية. ورغم ما قيل حول افتتان أبراهام بأفكارها، فقد كانت تشعر بعزلة كمحللة أطفال في برلين، بالإضافة إلى أنها لم تكن تستطيع أن تنفذ إلى فرويد في فيينا. وكتب ألكس ستراتشي، الذي كان يخضع للتحليل آنذاك عند أبراهام في برلين، إلى زوجها جيمس، الذي نقل ذلك بدوره إلى جونز.

وبعد وفاة أبراهام، قبلت ميلاني دعوة جونز لها لتحاضر في لندن، وفي عام 1926

قرَّرت أن تقيم هناك. وكان جونز مدفوعًا إلى ذلك باعتبارين، أحدهما عام والآخر خاص. فقد أراد أن يطوّر الإمكانيات الفكرية لجمعية التحليل النفسي بلندن، وقد كان يرى بأن «السيدة كلاين»، كما أصبحت تُدعى منذ ذلك الحين، يمكن لها أن ترتقي بالمستوى العام لجمعية لندن، وقد نجحت في أن تنشئ مدرسة لتحليل الأطفال تنافس مدرسة آنا فرويد في فيينا. وفي الوقت نفسه فقد كانت ميلاني كلاين معروفة بحدسها الثاقب، حتى أن أحد زملائها لاحظ معجبًا بأنها كانت قادرة على خلق فضاء جيّد، وتوافق ذلك مع رغبة جونز في استقدام محلل أطفال ليساعد أطفاله(*).

يبدو أن فرويد كان على حق، ولو جزئيًا، بأن آنا تعرضت للهجوم من مؤيدي السيدة كلاين. وكان من بين المدافعين عن موقف السيدة كلاين أكاديميون بارزون ومجموعة محترمة من المحللين النفسيين. وقد روى جونز أن فرويد «أبدى تذمرًا شديدًا من الحملة المعلنة التي افترض أني أدرتها في إنكلترا ضد ابنته آنا، وربما كانت ضده أيضًا»[12]. بدا لجونز أن آنا فرويد هي التي بادرت بالهجوم على ميلاني كلاين[13]. وبسبب علاقة جونز بالسيدة كلاين، انقلبت ضده عائلة فرويد برمتها لمدة معيّنة. وأفضل ما استطاع فرويد أن يقوله آنذاك لجونز عن السيدة كلاين كان إن تحليل الأطفال يظل مجالًا غريبًا بالنسبة إليه:

> **«لا أعتبر اختلافاتنا النظرية غير ذات معنى، ولكن طالما أنها لا تنبع من شعور سيئ فيمكن ألاّ يكون لها نتائج مزعجة... وقد أخطأت ميلاني كلاين وابنتها في حق آنا. صحيح إني على الرأي الذي يقول بأن جمعيتك قد اقتفت أثر السيدة كلاين في طريق خاطئ، إلا أن المجال الذي استقت منه ملاحظاتها غريب عليّ ومن ثم ليس لدي الحق في توجيه أية إدانة مؤكدة»**[14].

وقد تبادلت جمعيتا فيينا ولندن المحاضرات في الثلاثينيات، بحيث أن وجهة نظر ميلاني كلاين كانت معروفة في فيينا، كما كان نقدها معروفًا في إنكلترا. ولولا انتقال المحللين الفيينّيين إلى إنكلترا بسبب الحرب والهجرة، لانتهى الأمر بالجمعية البريطانية إلى الانعزال وبالتالي انشقاقها تمامًا. وعندما اجتاح النازيون النمسا، اضطر فرويد وجونز إلى اتخاذ قرارهما فيمن سيرافقهما إلى إنكلترا من المحللين الفيينّيين، وكان من الواضح آنذاك أنّ قوة رأي كلاين تمنع، مثلًا، روبرت وايلدر، المحاضر الفيينّي بالتبادل مع إنكلترا من أن يدعى إلى لندن بشكل دائم[15].

(*) يوجد في المعهد البريطاني صندوق يحتوي على الألعاب التي استُخدمت في أول تحليل نفسي لأطفال في إنكلترا.

كانت الثلاثينيات فترة مثيرة وغزيرة الإنتاج بالنسبة إلى المحللين النفسيين البريطانيين، ولكن قدوم فرويد وحاشيته وضع حدًا لها بشكل عملي. وربما يكون ظهور آنا فرويد على الساحة الإنكليزية قد أجبر ميلاني كلاين على أن تنظّم أفكارها. وقد رأى المحللون التقليديون في تأكيد ميلاني كلاين على ما قبل التناسلي بأنها هروب من عقدة أوديب، شأن هروب المنشقين الأوائل في التحليل النفسي. وأنه لمن الصعب أن نجزم بأن آنا فرويد كانت تمثل تهديدًا حقيقيًا لميلاني كلاين من عدمه. ولكن لمّا كانت السيدة كلاين ترى في عملها الخاص بمنزلة تغيير جوهري في التحليل النفسي، فقد كان عليها أن تتوقع لومًا وتأنيبًا من الوافدين الأرثوذكسيين. وكان اللاجئون الأوروبيون يشعرون بأنهم قد أتوا إلى جماعة إقليمية، بينما كان الإنكليز في الثلاثينيات يعتبرون لندن مركز الإبداع في التحليل النفسي. فقد كانت جمعيتها هي الأكبر بعد جمعيتي فيينا وبرلين.

وبعد عام 1938 أصبحت ميلاني كلاين تنفر من النقاش الفكري الحر والمفتوح، وبدأت تنشئ نظامها الخاص بها مع أتباعها. وعندها بدأ إدوارد غلوفر يتصدى لأسوأ توقعاتها مهاجمًا مفاهيمها علنًا. وقد كان غلوفر الرجل الثاني بعد جونز لسنوات مقاتلًا شديد البأس. وكان جونز يرسله لحضور الاجتماعات العامة والمهنية التي يتعذّر عليه حضورها بنفسه. وعندما اعتزل جونز في الريف أثناء الحرب العالمية الثانية، تقلد غلوفر زمام الأمور في الجمعية. وفي البداية كان مهتمًّا بأفكار ميلاني كلاين، ولكن في ما بعد أصبح يعتبرها ضربًا من الهرطقة. وكان يشعر أن ما تردّت فيه الجمعية البريطانية من وضاعة ساعد على تقبّلها تأثير ميلاني كلاين، وكان يخشى من أن تعمل قوة التحويلات التي تنشأ في التحليلات التدريبية على توسيع نطاق أخطائها أكثر من ذلك مستقبلًا. وفي مقالة كتبها غلوفر بعد انتهاء المعركة، بدأنا نسمع هدير التنابذ بالألقاب ينبعث من التحليل النفسي:

> **«لقد اقتفت مجموعة كلاين أثر رانك في إرجاعه التطور العقلي، وجميع مظاهر الاضطراب العقلي، إلى صدمة تحدث، ليس في لحظة الولادة، وإنما بعدها مباشرة، كما اقتفت أثر يونغ، في إرجاعه القوة الديناميكية والتطوّرية إلى أوهام قديمة»**[16].

(وكان غلوفر قد ألّف كتابًا تضمّن هجومًا عنيفًا ضد يونغ، إلا أن استقلاله في الآن ذاته عن الأرثوذوكسية سمح له بأن يصوغ محاولة نقدية عن هارتمان).

بغض النظر عن ضعف السيدة كلاين كمنظرة، فقد تميزت كمحلله موهوبة وتتمتع بحدس ثاقب. ولكن أشدّ نقّادها كانوا يدّعون أنها كانت، بوصفها امرأة جميلة ومتكبرة،

تعتمد كثيرًا على إسباغ النظر إليها بمثالية عالية، وأنها كانت تتجاهل أثر الديناميكيات العائلية على الأطفال الذين كانت تعالجهم. وأن يكون اهتمام المرء الأساسي تحسين حالة المريض لا يعني بالضرورة أن يكون عالمًا. وقد أظهرت المواجهة العلنية مع الفرويديين التقليديين ميلاني كلاين في أضعف حالاتها، لأنها اضطرت إلى أن تعطي ما كان يعتبر في أقصى الحالات مهارة طبيعية في التحليل النفسي صبغة مفهومية. ولم تكن ميلاني كلاين، الأصيلة والمبعدة، شارحة جيّدة لأفكارها الخاصة. وبعد ما حققته من نجاح في لندن صارت مستبدة ومتسلطة جدًّا، وأصبحت تثق في كل كلمة كتبتها.

ورغم ذلك فقد كان إدوارد غلوفر آخر شخص قد نفكّر في أنه يمكن أن يشنّ هجومًا على السيدة كلاين. فإلى جانب اهتمامه بعملها في البداية، فقد كان من الناحية الشخصية لطيفًا، وكان غلوفر مفكرًا صافي الذهن وكاتبًا بارعًا، ويعتبر نفسه من أحفاد فرويد من الناحية الفكرية. وما كان لأحد أن يتنبأ أنه سيكون أداة في محاولة تحطيم الجمعية البريطانية.

وكانت ميليتا شميدبرغ ابنة السيدة كلاين شخصية أساسية في هذا الصدد. وقد اصطفت منذ البداية إلى جانب أمها ضد آنا فرويد بطريقة اعتبرها فرويد فجّة وبغيضة. وفي عام 1934 توفي أخوها في حادث أثناء ممارسة رياضة تسلق الجبال، الأمر الذي كان، وفقًا لطريقة أمها في التفكير، تعبيرًا عن رغبة في الانتحار. وكانت ميليتا طبيبة ومحللة نفسية (تكونت في البداية في برلين ثم خضعت للتحليل على يد إيلا شارب في إنكلترا)، وكان زوجها هو أيضًا محلّلًا نفسيًّا وانقلبت ضد أمها عندما كانت تعالج على يد إدوارد غلوفر. ومثلها مثل الأطفال الآخرين للآباء المطلقين، فقد ذهبت مع أمها إلا أنها ولا شك كانت مستاءة جدًّا. ولا بد أن غلوفر قد أدرك مدى تأثرها وفعل أقصى ما في وسعه من أجلها. ومن وجهة نظر شخصية فقد كان لديها دوافعها لتستقر مع أمها، وساعدها على ذلك دعم غلوفر وتشجيعه. وقد ظل غلوفر يكظم غيظه لسنوات بوصفه الرجل الثاني بعد جونز في القيادة، وأما الآن فقد شعر أنه مع آنا فرويد وزملائها في إنكلترا سيحظى بالتأييد اللازم ليفضح في النهاية هرطقة ميلاني كلاين. فقد كان غلوفر مقتنعًا، ربما بمساعدة ميليتا شميدبرج، بأن كلاين منحرفة على غرار أدلر ويونغ.

تبادلت الأم وابنتها النقد علانية بمساعدة حلفاء كل منهما. وقد كانت الأفكار بالنسبة إلى هؤلاء المحللين الأوائل مهمّة فعلًا، كما كان الخلاص الشخصي بالنسبة إليهم أيضًا

متصلًا بشكل لا فكاك منه بالالتزامات الفكرية. ولما كان غلوفر نصيرًا مواليًا لكلاين في السابق، فقد كان حجر عثرة أمام المصلحين وصنّاع السلام. وكان جونز يصطف إلى جانب السيدة كلاين أكثر، وكان يرى في آنا فرويد عدوة لدودة لا ينبغي التصالح معها[17]. وقد رفض الفرويديون التقليديون تركيز السيدة كلاين في أعمالها على مظاهر التوتر المتصلة بالدوافع ما قبل التناسلية. وقد عانت كلاين بشكل مرعب من شدة وطأة هذا الهجوم، وبشكل خاص من سلوك ابنتها. ولما كانت ميلاني كلاين تشعر بأنه قد أسيء فهمها فقد ازدادت حنقًا وقسوة. وفي السنوات اللاحقة أصبحت ابنتها أكثر بُعدًا عن التحليل النفسي الذي كانت قد أغضبت أمها على الملأ من أجله. ولا عجب أن تتنامى لدى السيدة كلاين في كتاباتها الحاجة إلى تبرير موقف الأم وإدانة الطفل. ولكنها كانت معجبة للغاية بتلاميذها، أمثال جون ريكمان وهيربرت روزنفيلد.

وكان مؤيدو كلاين قد شكلوا مجموعة متميزة قبل الحرب العالمية الثانية، ولكن الحرب قضت على الانقسامات بين المحللين البريطانيين عندما شتتت العديد من أعضاء الجمعية. وعندئذ ترأس غلوفر بشكل مؤقت الجمعية «المطهرة». ورغم ادعائه مؤخرًا أنه كان يعارض كلاين منذ الفترة بين عامي 1928 و1931، فإن الصراع العلني ضد كلاين لم يتفجّر إلا مع عودة المحللين إلى لندن بداية من عام 1943. وقد استمر الصراع حادًّا على امتداد ثمانية عشر شهرًا، رغم أن العديد من الأعضاء كانوا مترددين حول المشاركة فيه. وكان هناك أعضاء معيّنون يرغبون في تأليف عناصر من الأفكار من جميع المصادر، واعترض البعض على فضح الأسرار على الملأ، في حين عّبر آخرون عن رغبتهم في السلام وحسب.

وقد رأى أولئك الذين عبّروا عن مواقفهم بوضوح، في هذا الصراع جدلًا علميًّا يتطلب حلًّا، رغم أنه إذا ما استعدنا المشاعر المتعلقة بهذا الموضوع فسيبدو طابعها الديني أقوى من طابعها العلمي. وقد كان الذين أيّدوا كلاين أكثر عددًا من الذين ناصروا فرويد، فخشي غلوفر أن ينقلبوا على الجمعية. وبعد ذلك بسنوات أقر غلوفر بخطئه في تقدير قوة السيدة كلاين، ولكن اعترافه ذاك تزامن مع اتخاذه قرار استقالته من الجمعية البريطانية. وقد استقال معه واحد أو اثنان آخران. والتحق غلوفر بجمعية التحليل النفسي اليابانية (مبتعدًا عن لندن قدر المستطاع). ورغم ذلك ظل يمارس في لندن وأصبح في ما بعد عضوًا في الجمعية السويسرية باعتبار أن سويسرا مثلت دائمًا موطنًا تقليديًّا للاجئين.

هدأت الخلافات داخل الجمعية البريطانية ببساطة. فقد قاوم أتباع السيدة كلاين طردهم من الجمعية، في حين أصرّت آنا فرويد على الحصول على وضع إجراءات التكوين الخاص بها كي لا يلوّث فكر كلاين تلاميذها. وكانت سيلفيا باين هي التي تولت إعادة توحيد الجمعية وتماسكها عبر اقتراح نوع من التسوية التنظيمية، حيث أمكن لآنا فرويد أن تكون لها مجموعتها التكوينية الخاصة بها (المجموعة ب) في إطار جمعية التحليل النفسي الرسمية، في حين ينتمي باقي المحللين إلى معهد منفصل (المجموعةأ). وحتى الآن هناك في الجمعية مجموعة صغيرة من أتباع كلاين المتحمسين وأخرى أكبر عددًا نوعًا ما تتكوّن من أتباع آنا فرويد. بيد أن العدد الأكبر من المحللين، والبالغ حوالي نصف المحللين في الجمعية، لا ينتمي إلى أي من المجموعتين ويعرفون بـ«مجموعة الوسط» أو «المستقلين». وعمومًا فقد حافظ المحللون البريطانيون على التوازن بين المجموعتين القارتين المتصارعتين، وقد انبثق عن دعاة التسوية، أكثر فكر التحليل النفسي أصالة، وكان أشهر ممثلي هذا الاتجاه جون بولبي، ومايكل بالنت، ودونالد فينيكوت.

وقد أظهر أتباع السيدة كلاين قدرة على إنجاز أعمال شيّقة، في عديد من المجالات على غرار الاستيتيقا (علم الجمال) مثلًا. ولكن هؤلاء المهرطقين كانوا متشددين ومتعصبين كأسوأ المدافعين عن الأرثوذوكسية. وقد كانت أهداف كلاين العلاجية مثالية إن لم تكن طوباوية. وقد كان نزوع كلاين صليبيًا، وحتى لو كان هذا الاتجاه فرعًا أصيلًا من التحليل النفسي، فإنه يظل متناقضًا مع اتجاه فرويد الأكثر حلمًا ورصانة.

كان لدى ميلاني كلاين تقدير أعلى من فرويد لمشاعر دينية في أساسها، وكان فهمها لما دعته «حالة الاكتئاب» في نمو الطفل مصمّمًا بحيث يساعد على صياغة مفهومنا عن الكيفية التي تجعل الشخص يشعر بأنه يكون أفضل عندما يكون طيبًا أكثر ممّا يكون سيئًا. وقد كانت مهتمة بصفة خاصة بالمشكلات التي تواجه الشخص في تحمله تناقض المشاعر بحيث لا يشعر بالتوتر الشديد فتتغلب مشاعر الكراهية على مشاعر المحبة[18]. ورغم ذلك فقد كانت للسيدة كلاين اليد الطولى لدرجة أن الوضع في جمعية التحليل النفسي البريطانية ظل متوترًا وصعبًا حتى وفاتها في عام 1960. وإذا لم يكن التحليل النفسي في بريطانيا مقنعًا من الناحية الفكرية، فيعود ذلك، وإن جزئيًا، إلى ما كانت تتمتع به ميلاني كلاين من طاقة وانغماسها في الحياة.

الهوامش

1 ـ روث ماك برونشفيك: «ما يجوز للحاخام»

(1) For examples, interviews with Edith Jackson and Irmarita Putnam.

(2) Letter from Max Schur to Ernest Jones, Sept. 30, 1955 (Jones archives).

(3) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 18.

(4) Interview with Oliver Freud.

(5) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 167.

(6) For his Obituary, cf. The New York Times, May 28, 1971, p. 32.

(7) Interview with Mark Brunswick, Jan. 25, 1966.

(8) Letter from Max Schur to Ernest Jones, Sept. 30, 1955.

(9) «Splitting of the Ego in the Process of Defence», Standard Edition, Vol. 23, pp. 275-78. Jones thought the patient was Bullitt, but Ruth and Mark Brunswick thought otherwise. Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 239.

(10) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 456.

(11) The Wolf-Man, p. 306.

(12) Ibid., p. 307.

2 ـ روث ماك برونشفيك: التبعية والإدمان

(1) Interview with Anny Katan.

(2) «On the History», p. 33.

(3) D. W. Winnicott, The Maturational Process and the Facilitating Environment, p. 54.

(4) Ruth Mack Brunswick, «The Pre-oedipal Phase of the Libido Development», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 9, No. 2 (1940), p. 293.

(5) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the Sexes», p 256.

(6) «Female Sexuality», p. 226.

(7) Ibid., p. 238.

(8) Herman Nunberg, «In Memoriam: Ruth Mack Brunswick», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 15, No. 2 (1945), p. 142.

(9) «Female Sexuality», p. 226.

(10) Ibid., p. 230.

(11) «New Introductory Lectures», p. 130. Cf. Ruth Mack Brunswick, «The Analysis

of a case of Paranoia (Delusion of jealousy)», The Journal of Nervous and Mental Disease, Vol. 70 (1929), pp. 1-22, 155-78.

(12) Letter from Ernest Jones to A. A. Brill, Dec. 22, 1933, and letter from Jones to Clarence Oberndorf, Dec. 2, 1933 (Jones archives).

(13) Hale, Freud and the Americans, p. 371.

(14) Quoted in Schur, Freud, p. 62.

(15) Robert, The Psychoanalytic Revolution, p. 235.

(16) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 449.

(17) Interviews with David Brunswick.

(18) Interviews with Mark Brunswick.

(19) Ibid.

(20) Ibid.

(21) Storr, The Dynamics of Creation, p. 222.

(22) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 504.

(23) «Analysis Terminable and Interminable», p. 218. Strachey does not seem to have known that there was supposed to be a second paper by Ruth Brunswick on the Wolf-Man.

(24) The New York Times, Jan. 26, 1946, p. 13.

(25) Nunberg, «In Memoriam».

(26) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 127.

(27) Freud/Jung Letters, p. 413.

3 ـ آنا فرويد: التحليل النفسي للطفل

(1) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Feb. 14, 1954 (Jones archives). In addition to Truth Brunswick, Anna Freud also mentioned Jeanne Lamplde Groot and Joan Riviere.

(2) Interview with Eva Rosenfeld, Nov. 17, 1966,

(3) The Origins of Psychoanalysis, p. 136.

(4) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, pp. 127, 130. Cf. also «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 132.

(5) Interview with Kata Levy, July 6, 1965.

(6) «The Interpretation of Dreams», Vol. 4, p. 257.

(7) Letters, pp. 294-95.

(8) Anna Freud, Problems of Psychoanalytic Training, Diagnosis, and the technique of Therapy, Vol. VII of The Writings of Anna Freud, 1966-1970 (New York: International Universities Press; 1971), pp. 73-74.

(9) Letter from Freud to Bransom (Jones archives). «The Theme of Three Caskets», pp. 293, 296, 298, 301; Letters, p. 301.

(10) Letters, pp. 382, 424.

(11) Binswanger, Freud, p. 2.

(12) Interviews with Abram Kardiner, Oct. 12, 1965, Helene Deutsch, June 5, 1965, and Eva Rosenfeld, Nov. 3, 1966. Cf. dictation from Ernest Freud Nov. 27, 1953 (Jones archives).

(13) Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 204.

(14) ANNA Freud, «The Role of the Teacher», Harvard Educational Review, Vol. 22, No. 4 (Fall 1952), p. 229.

(15) Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 231.

(16) Ibid., p. 233.

(17) Interview with Beata Rank, Feb. 12, 1966. Cf. also Freeman Insights, p. 82.

(18) Interview with Kata Levy, July 13, 1965.

(19) Interview With Oliver Freud.

(20) Interview with Anny Katan.

(21) Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 81.

(22) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Oct. 20, 1955 (Jones archives).

(23) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 164.

(24) Interview with Anny Katan.

(25) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 15.

(26) «An Autobiographical Study», p. 70.

(27) «The Question of Lay Analysis», p. 229.

(28) Ibid., p. 239.

(29) «Dr. Reik and the Problem of Quachery», Standard Edition, Vol. 2, pp. 247-48.

(30) «Letter to Hermine von Hug-Hell-muth», Standard Edition, Vol. 14, p. 341.

(31) Interviews with George Wilbur. Cf. International Journal of Psychoanalysis, Vol. 6 (1925), p. 106.

(32) Minutes, Vol. II, p. 318.

(33) «The Question of Lay Analysis», p. 214.

(34) «Preface to Aichhorn's Wayward Youth», Standard Edition, Vol. 19, p. 274.

(35) «New Introductory Lectures», pp. 146-47.

(36) Blantom, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, p. 72.

(37) Interviews with Esti Freud.

(38) Minutes, Vol. II, P. 51.

(39) Ibid., p. 230.

(40) Ibid., p. 236.

4 ـ آنا فرويد: سيدات بالخدمة

(1) Schur, «The Medical History of Freud», p. 11.

(2) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, July 8, 1935 (Jones archives0.

(3) Quoted in Binswanger, Freud, p. 88.

(4) Letters of Freud and Zweig, p. 39.

(5) Sachs, Freud, p. 169.

(6) Marie Bonaparte, «Introduction», in Martin Freud, Glory Reflected, p. 6.

(7) Marie Bonaparte, «Notes on the Analytic Discovery of a Primal Scene», The Psychoanalytic Study of the Child, Vol. I, ed. Ruth Eissler (New York: International Universities, Press; 1945), pp. 119-25.

(8) Interview with Erich Fromm, Jan. 5, 1966.

(9) WladimirGranoff and Victor Smirnoff, «History of Psychoanalysis in France and of the French Psychoanalytic Movement», p. iii (manuscript).

(10) «On Narcissism», p. 89. Cf. letter from Max Schur to Ernest Jones, Sept. 30, 1955.

(11) Cf. «An Unknown Autobiographical Fragment by Freud», The American Imago, Vol. 4, No. 1 (Aug. 1946), pp. 3-19; «Freud's Earliest Theories and the School of Helmholtz», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 13, No. 3 (1944), pp. 341-62; with Suzanne Cassirer Bernfeld, «Freud's Early Childhood», Bulletin of the Menninger Clinic, Vol. 8, (1944), pp. 107-15; with Suzanne Cassirer Bernfeld, «Freud's First Year in Practice: 1886-87,» Bulletin of the Menninger Clinic, Vol. 16, (Mar. 1952), pp. 37-49; «Freud's Scientific Beginnings», in The Yearbook of Psychoanalysis, Vol. VI, ed. Sandor Lorand (New York: International Universities Press; 1951), pp. 24-50; «Freud's studies on cocaine 1884-87», Journal of the American Psychoanalytic Association, Vol. 1, No. 4 (Oct. 1953), pp. 581-613; «Sigmund Freud, M.D.», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 32 (1951), pp. 204-17.

(12) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 241.

(13) «The Question of Lay Analysis», p. 249.

(14) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P.195.

5 ـ آنا فرويد: سيكولوجية الأنا

(1) Letters, p. 444.

(2) Letters from Anna Freud to Ernest Jones, Dec. 25, 1952, April 5, 1955, and Jan. 10, 1956 (Jones archives).

(3) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, June 6, 1954 (Jones archives).

(4) Anna Freud, The Ego and The Mechanisms of Defence (London: Hogarth; 1954), p. 56.

(5) Anna Freud and Dorothy T. Burlingham, War and Children (New York: Foster Parents Plan for war Children; 1943), p. 160.

(6) Anna Freud, «Observations on Child Development», Psychoanalytic Study of the Child, Vol. VI, ed. Ruth Eissler (New York: International Universities Press; 1951), p. 24.

(7) Anna Freud and Dorothy Burlingham, Infants Without Families (New York: International Universities Press; 1944), p. 103.

(8) Anna Freud, «The Widening Scope of Indications for Psychoanalysis», Journal of the American Psychoanalytic Association, Vol. 2 (1954), p. 618.

(9) Anna Freud, «The Child Guidance Clinic as a Center of Prophylaxis and Enlightenment», in Recent Developments in Psychoanalytic Child Therapy, ed. Josef Weinreb (New York: International Universities Press; 1960), p. 37.

(10) Anna Freud, Normality and Pathology in Childhood (New York: International Universities Press; 1965), p. 119.

(11) Ibid., pp. 180, 177.

(12) Anna Freud, «The Pediatricians Questions and Answers», in Psychosomatic Aspects of Pediatrics, ed. Ronald Mckeith and Josef Sandler (London: Pergamon; 1961), p. 39.

(13) Anna Freud, «The Child Guidance Clinic», p. 37.

(14) Anna Freud, Normality and Pathology in Childhood, p. 50.

(15) Anna Freud, «Clinical Studies in Psychoanalysis», Psychoanalytic Study of the Child, Vol. XIV, ed. Ruth Eissler (New York: International Universities Press; 1959), p. 123.

(16) Anna Freud, Difficulties in the Path of Psychoanalysis (New York: International Universities Press; 1969), p. 17.

(17) Ibid., p. 21.

(18) Quoted in Robert Waelder, Basic Theory of Psychoanalysis (New York: International Universities Press; 1960), p. 232.

(19) Arnold Rogow, The Psychiatrists (New York: G. P. Putnam's Sons; 1970), p. 109.

6 ـ هيلين دويتش: نادي القط الأسود للعب الورق

1 ـ لعل مقالتها «يأتي حب الطفل ذي العامين الأول إلى الحزن»، والذي من المحتمل أن شجعها فرويد على كتابتها، قد كتبت عن ابنها.

Cf. Marie H. Briehl, «Helene Deutsch», in Psychoanalytic Pioneers, p. 286, and Helene Deutsch, Neuroses and Character Types (New York: International Universities Press; 1965), pp. 159-64. Also cf. confrontation with Myself, pp. 123-24.

(2) Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, p. 91.

(3) Interview with Abram Kardiner, Oct. 12, 1965.

(4) Interviews with Ives Hendrick, Richard Sterba, and Irmarita Putnam.

(5) Edward Hitschmann, «Autobiographical Notes».

(6) International Journal Of Psychoanalysis, Vol. 3 (1922), p. 135.

(7) Interviews with Helene Deutsch, May 22, 1965, and Nov. 18, 1967. Cf. also Deutsch, Confrontations With Myself, pp. 60-61, 140.

(8) Interview with Helene Deutsch, Sept. 23, 1967.

(9) Interview with Helene Deutsch, Sept. 30, 1967.

(10) Deutsch, «Freud and His Pupils», p. 192.

(11) Interview with Robert Jokl.

(12) Interview .with Helene Deutsch, Apr. 16, 1966. Cf. «Don Quixote and Don Quixotisms», in Deutsch, Neuroses and Character Types, pp. 218-25.

(13) Interview with Helene Deutsch, May 14, 1966.

(14) Interview with Helene Deutsch, March 30, 1965.

7 - هيلين دويتش: نظرية الأنوثة

(1) Cf. Helene Deutsch, in Neuroses and Character Types, pp. 165-89.

(2) Kate Millet, Sexual Politics (New York: Doubleday; 1970), pp. 176-228, and Germaine Greer, The Female Eunuch (New York: McGraw-Hill, 1971).

(3) Helene Deutsch, The Psychology of Women, Vol. II (New York: Grune & Stratton; 1945), 84.

(4) Ibid., p. 275. Cf. Deutsch, Confrontation With Myself, pp. 75, 209.

(5) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 219.

(6) «New Introductory Lectures», p. 131.

(7) Minutes, Vol. II, P. 477.

(8) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, Dec. 19, 1934 (Jones archives).

(9) «Jokes and Their Relation to the unconscious», pp. 61, 64.

(10) «New Introductory Lectures», p. 116.

(11) Letter from Edward Hitschmann to Ernest Jones, Mar. 26, 1954 (Jones archives).

(12) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 402; «From the History of an Infantile Neurosis», p. 47.

(13) «Civilization and Its Discontents», p. 106; «An Outline of Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 23, p. 188.

(14) «The Taboo of Virginity», p. 204.

(15) «Female Sexuality», p. 233.

(16) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 156; «civilization and Its Discontents», p. 103; «On the Grounds for Detaching a Particular Syndrome from Neurasthenia under the Description 'Anxiety Neurosis'», p. 109.

(17) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 221; «Inhibitions Symptoms and Anxiety», p. 143.

(18) «'Civilized' Sexual Morality and Modern Nervous Illness», p. 199.

(19) Ibid., pp. 195, 199; «New Introductory Lectures», p. 134.

(20) «New Introductory Lectures», p. 132.

(21) Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 172.

(22) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 221.

(23) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the Sexes», p. 257.

(24) «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 191.

(25) Puner, Freud, p. 285.

(26) Letters of Freud and Abraham, p. 376; «Three Essays on the Theory of Sexuality», p. 151.

(27) James Strachey, «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 19, p. 243.

(28) «The Question of Lay Analysis», p. 212; «New Introductory Lectures», p. 113.

(29) «New Introductory Lectures», p. 135.

(30) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the sexes», p. 251.

(31) «New Introductory Lectures», p. 118.

(32) Freeman, Insights, p. 47.

(33) Deutsch, The Psychology of Women, Vol. I, P. 233.

(34) «New Introductory Lectures», p. 119.

(35) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the sexes»,p. 257.

(36) «Female Sexuality», p. 230.

(37) «New Introductory Lectures», p. 124.

(38) «Female Sexuality», p. 226.

(39) Puner, Freud, p. 288.

(40) Quoted in «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 19, p. 244.

(41) Interview with Helene Deutsch, Sept. 30; 1967; Marie Briehl, «Helene Deutsch», in Psychoanalytic Pioneers, p. 283. Cf. Deutsh, Confrontations with Myself, pp. 62-69, 30-37.

(42) Interviews with Helene Deutsch, June 18 and July 2, 1966.

(43) Interview with Helene Deutsch, Feb. 19, 1966.

(44) Interviews with Helene Deutsch, Feb. 5 and May 14, 1966.

(45) Interview with Helene Deutsch, June 3, 1967.

(46) Interview with Helene Deutsch, Dec. 31, 1966.

(47) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the sexes», p. 258.

(48) «Female Sexuality», pp. 226-27; «New Introductory Lectures», pp. 130-31; Interview with Helene Deutsch, Nov. 13; 1965. Cf. Deutsch, Confrontations with Myself, p. 138.

(49) Helene Deutsch, «The Psychology of Women in Relation to the Function of Reproduction», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 6, Part 4 (Oct. 1925), pp. 405-18.

(50) Weiss, Agoraphobia in the Light of Ego Psychology, p. 119.

(51) Deutsch, Neuroses and Character Types, p. 304.

(52) Interview with Willy Hoffer.

(53) Greer, The Female Eunuch, pp. 94-95.

(54) Deutsch, The Psychology of Women, Vol. I, pp. 191-92.

(55) Deutsch, Neuroses and Character Types, pp. 262-81, 319-38.

(56) Interview with Helene Deutsch, Mar. 5, 1966.

8 ـ ميلاني كلاين: «المدرسة الإنكليزية»

(1) Jones, Papers on Psychoanalysis, p. 103.

(2) Melanie Klein, Contributions to Psychoanalysis (London: Hogarth; 1948), p. 276.

(3) Ibid., p. 253.

(4) Interview with Hannah Segal, Nov. 12, 1966, and interview with Elliott Jacques, Nov. 17, 1966.

(5) Storr, Jung, p. 55; cf. also p. 41.

(6) Elizabeth Zetzel, «Current Concepts of transference», pp. 372-73.

(7) Compare «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 365, with «The Question of Lay Analysis», p. 249. Cf. also «Editor's Note», Standard Edition, Vol. 23, p. 213.

(8) «An Autobiographical Study», p. 70; «Civilization and Its Discontents», pp. 130, 138.

(9) Ernst Kris, «The Development of Ego Psychology», samiksa, Vol. 5, No. 3 (1951), p. 159.

(10) Interview with Eva Rosenfeld, Nov. 17, 1966.

(11) Edward Glover, «Autobiographical Manuscript», p. 16. Cf. also letter from Mrs. Riviere to Ernest Jones over Ch. 2 of his manuscript for Vol. III of his biography of Freud (Jones archives).

(12) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 137.

(13) Letter from Johann van Ophuijsen to Ernest Jones, Oct. 13, 1927 (Jones archives).

(14) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 197.

(15) Interview with Willy Hoffer.

(16) Edward Glover, «The Position of Psychoanalysis in Great Britain», on the Early Development of the Mind (London: Imago; 1956), p. 358. Cf. also Edward Glover, An Examination of the Klein System of Child Psychology (London: The Southern Post Ltd; 1945); D. W. Winnicott, «A Personal View of the Kleinian contribution», The Maturational Processes and the Facilitating Environment, pp. 171-78; Hannah Segal, Introduction to the Work of Melanie Klein (London: Heinemann; 1964); J. O. Wisdom, «Freud and Melanie Klein», Psychoanalysis and Philosophy, ed. Charles Hanly and Morris Lazerowitz (New York: International Universities Press; 1970), pp. 327-62; Harry Guntrip, Personality and Human Interaction (London: Hogarth; 1961), Chs. 10-12.

(17) Letter from Ernest Jones To Max Eitingon, May 14, 1943 (Jones archives).

(18) Elizabeth Zetzel, «The Depressive Position», in Affective Disorders, ed. Phyllis Greenacre (New York: International Universities Press; 1953), pp. 109-10.

الفصل العاشر

أرذل العمر

1 - المرض

توفي فرويد في الثالثة والثمانين من عمره عام 1939، وقد عانى في السنة الأخيرة من حياته من عملية انكماش طبيعية تدريجية وانهيار جسدي. ورغم ذلك كان حضور فرويد قويًا. فقد كانت ترافقه أيدي جدّته الرقيقة فضلًا عن أسلوبه الأنثوي المحدود[1]. واصل مقابلة المرضى في المكتب ذاته وأثاثه القديمة التي عززت ثقل الأجواء. (بدت الزخارف في شقة عائلية مملة وتعكس ذوقًا عتيقًا إلى أبعد حدّ). كان في غرفة عيادة المرضى محاطًا بآلهة الحضارات البائدة، وكان قد جمعها على مر السنين.

كان فرويد يعود مرضاه مع عدد من أتباعه وزملائه لسنوات، وقد خيّم السرطان على آخر ستة عشرة سنة في حياته. وتُظهر صوره أخذت له في أيامه الأخيرة مخلّفات الألم الذي ألمّ به في فمه، فقد تقلّص حجم فكّه تحت تأثير العمليات المتتالية التي أُجريت له لإزالة الأنسجة ذات المظهر المشوّه. وكان يجد صعوبة كبيرة في التحدّث حتى اعتقد كثيرون بأنه كان يعاني من سرطان اللسان.

لما تضرر فم فرويد، صار كثيرًا ما يلمس بأصابعه الفك الاصطناعي حتى يعدّل موضعه. وكان من الطبيعي جدًّا أن ينشغل بفمه ثم ما لبث أن صعُب عليه التعبير عن أفكاره شفويًا حت اضطر إلى التعبير بيديه وبإيماءاته لكي يتغلّب على صعوباته في التحدث. وبالإضافة إلى ذلك، واجه صعوبات في الأكل. وفي عشائه، الوجبة الخفيفة في فيينا، كان يأكل بيضة مسلوقة، وكان أكثر انعزالًا، ولا يأكل مع الكثير من الناس. كان يأكل بسرعة وغالبًا ما كان يقرأ جريدة أثناء تناول وجبته.

أقر بعض المرضى ممن كانوا يخضعون للتحليل، حوالي عام 1939، بعد مقابلتهم

فرويد للمرة الأولى، بأنهم لم ينتبهوا إلى مرض فرويد. لكن أولئك الذين كانوا يعرفونه سلفًا، لاحظوا في سنواته الأخيرة أنه لا يتكلّم بحرية. ومع دنو نهايته، كانت كل كلمة ينطق بها تسبب له ألمًا وكان من الصعب فهمها.

خضع فرويد ـ دون احتساب خلع الأسنان ـ لإحدى وثلاثين عملية جراحية من 1923 حتى 1939[2]. بالإضافة إلى التدخل المستمر لتعديل الفك الاصطناعي حتى لا يزعجه، ذلك أنه لا يمكن الاحتفاظ به خارج الفم فترة طويلة خوفًا من انكماش الأنسجة، وبالتالي التدخّل لتعديله من جديد. وأمام تفاقم مشاكله، أجريت عليه عمليات على حباله الصوتية في شقه الأيمن. وعندما ذكر فرويد «أسبوع الآلام»[3] في رسالة بتاريخ 1939، كان معنى ذلك أن وضعه الصحي سيّئ للغاية. افتقد فرويد دائمًا للراحة وكان يعتمد على الأطباء، حتى باتت حياته مقيَّدة للغاية. وفي ذلك يقول إن: «الفزع الوحيد الذي يسببه لي السقام الطويل يتمثل في توقفي عن العمل: أو بعبارة أكثر وضوحًا، انعدام الكسب»[4].

بدأ حجم رأسه يتقلص، حتى صار أصغر وأنحف، من جانب من وجهه المصاب بالمرض. ووصف فرويد نفسه في 1939 بـ«العجوز، والضعيف، والمنهك». حتى أنه كما يقول: «على الأرجح أني لن أنشر أي شيء آخر إلا إذا تم الضغط عليّ لأفعل ذلك»[5]. ولقد كان قادرًا على مقابلة خمسة مرضى في اليوم. واحتفظ بحيويته المعهودة رغم سوء حالته الصحية، وكان يمشي بطريقة صارمة حتى أنها تثير فزع تلاميذه. وبعد وقت قصير من إصابته بالسرطان أعلن فرويد على الملأ:

> **«لقد طرأ تغيّر على وضعي بحكم الظروف. لم أكن في ما مضى واحدًا من أولئك الذين لا يقدرون على كبح ما يبدو اكتشافًا جديدًا إلى أن يتم تأكيده أو تصحيحه... لكن في تلك الأيام كان أمامه وقت كثير، أما الآن فقد تغيَّر كل شيء»[6].**

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1923، وافق على اقتراح فيديرن بأن يخضع لعملية جراحية على خصيتيه في محاولة غريبة لفحص السرطان[7]. كانت الفكرة للتغلب على قوى الموت بتعبئة غريزة الحياة، ورغم أن الطب الحديث يرى أن السرطان يتغذّى من بدن المريض، وبالتالي كلما زاد المريض صلابة كلما أصبح السرطان على الأرجح أكثر فتكًا. وافترض فرويد لفترة أن العملية والتعقيم الذي رافقها كان لهما نتائج العملية نفسها التي أجراها على الخصيتين، ولكن قد يعود ذلك إلى مجرد اعتبارات ذاتية، ذلك أنه لا يرى في ذلك أيّ جدوى على المدى البعيد.

وفي نيسان/ أبريل 1923 استشار فرويد أحد معارفه القديمين د. مزكوس هايك عن ورم في فمه، وقد لامه هذا الأخير على تعاطيه التدخين، ولكنه لاحظ أيضًا أنه: «لا يمكن للمرء أن يتوقع أنه سيعيش أبد الدهر»[8]. وكانت مقررة له عملية استئصال في عيادة خارجية، وطلب فرويد، قبل الجراحة بأيام قليلة، من فليكس دويتش، الخبير المختص في تشخيص الأورام أن يفحص ورمه، وقد تخصص فليكس لاحقًا (كما فعل غروديك وچليف) في تطبيق التحليل النفسي على المرضى عضويًا، وهو مجال الطب النفسي الجسدي الذي كان اهتمام فرويد به محدودًا[9].

قال فرويد أثناء اطلاع دويتش على الورم: «للأجل هذا أنا بحاجة لطبيب. إن تبيّن لك أنه ورم سرطاني، عليّ أن أجد وسيلة لائقة لأختفي من هذا العالم»[10][*]. كان الموت بالنسبة لفرويد أفضل من الحياة بدون كرامة، والسرطان ألم ومذلة ثم نهاية طال أمدها. لم يكن السرطان يمثل خطرًا بعينه، ولكن فليكس دويتش كطبيب أعرب عن قلقه من احتمال أن ينتحر فرويد. وكان فرويد قد لمّح إلى ذلك دون أن يكرر ذلك مرة أخرى بأي شكل من الأشكال.

وفقًا لماكس شور الذي أصبح الطبيب الشخصي لفرويد منذ عام 1929، كان فليكس دويتش يخضع للتحليل مع بيرنفيلد، وكان شور قد انتقد طريقة تصرف دويتش كعضو بجمعية فيينا، ورغم اعتراف شور في عام 1923 بأن سلوك فرويد تجاه مرضه كان قدريًا على نحو غير عادي، فقد تعزز لديه الشعور بأن «فكرة الانتحار لم تخطر على بال فرويد قط...»[12]. ولقد استاء شور من أن يكون دويتش قد أخبر أحدًا من عائلة فرويد حول إمكانية إصابة فرويد السرطان في فمه، ولقد أحزنهم كثيرًا أن أخفى عنهم فرويد عمليته الأولى. بالإضافة إلى ذلك اعتقد شور أن هايك ليس جرّاحًا ماهرًا، لكن فرويد هو من اختار هايك وليس دويتش.

ورغم أن دويتش توجّه مع فرويد إلى المستشفى، فلم يكن أحدًا بجانبه عند إجراء العملية، وهذا أمر مشين:

«تفاجأت العائلة بتلقيها مكالمة تليفونية من العيادة تطلب منهم إحضار بعض

(*) لئن ركز فرويد في البداية على أهمية أولوية التدمير الذاتي لغريزة الموت، فإنه تخلى عن ذلك لاحقًا وفي ذلك يقول: «يبدو حقًا كما لو كان من الضروري بالنسبة إلينا أن ندمّر شيئًا ما أو شخصًا حتى نتجنب تدمير أنفسنا وحتى نتحوّط من الدافع إلى التدمير الذاتي»[11].

الأغراض لفرويد لأنه يقضي ليلته في المستشفى. فأسرعت زوجته وكذلك ابنته إلى هناك ليجدوا فرويد جالسًا على كرسي المطبخ في قسم العيادات الخارجية وقد غطى الدم جميع ملابسه»[13].

كان الورم سرطانيًا، لكن لم يذكر أي من هايك أو دويتش ذلك أمام فرويد (منذ البداية اعتبره دويتش ورمًا سرطانيًا صريحًا في مستوى متقدّم). وقد تم فحص فرويد من أجل تشخيص مرضه عبر صورتين بالأشعة السينية حيث «تبيّن تعكر الحالة»[14]. وقد كانت لجرعات الراديوم المتتالية آثار سامة خطيرة على فرويد. وكان هايك يعالج فرويد «بغلظة حتى أنه لم يكن يتحوّط من تقلص الندب. إما لأنه كان لديه انطباع بأنه بذل كل ما في وسعه، أو أن الورم قد استؤصل نهائيًا، وإما أنه كان يعتبر الحالة منذ البداية ميؤوس منها»[15].

أمر هايك فرويد بأن يذهب في عطلة، ولكن فرويد لم يرغب في أن يقطع رحلته إلى إيطاليا للتداوي في نهاية تموز/ يوليو كما رغب في ذلك هايك. اعتقد الطبيب المحلي بأن فم فرويد على ما يرام، ولكن فرويد استاء كثيرًا من أن ابنته آنا أقنعته بأن يكتب لفليكس دويتش ليزورهما في إيطاليا لإجراء فحص. كما اكتأب فرويد إثر وفاة حفيده الحبيب في حزيران/ يونيو. وخطط فرويد لرحلة إلى روما مع آنا. ويعلم دويتش جيّدًا أهمية ذلك بالنسبة إليه. كان دويتش، الذي أصبح بعد ذلك طبيبًا لفرويد، الرجل الطيّب الذي لا يُخبر الناس بالأخبار السيئة، كان يؤمن بإخفاء المرض عن المرضى الميؤوس من شفائهم. وكان طلب فرويد منه أن يساعده على مغادرة الحياة بكرامة بمثابة أعظم عذر كان دويتش يحتاجه. وكان يتعامل معه أيضًا بديكتاتورية، متوهمًا أنه يعرف أفضل ما يتعيّن عليه فعله تجاه حالته. ومع ذلك فإنه يرى ضرورة إجراء عملية أكثر جذرية، أسرّ بها أولًا صديقه أوتو رانك ومن ثم لبقية الأعضاء في اللجنة، الذين عقدوا اجتماعًا للنظر في الأمر، ولم يُخبر دويتش فرويد بالحقيقة، وذلك رغم تأكيده لآنا ولأبيها على تمديد إقامتهما في إيطاليا، وقد خمّنت ما حدث[16].

في غياب فرويد التقى دويتش جراح الفم، هانز بيتشلر، الذي أجرى عمليات فرويد اللاحقة. وقد أكد هايك لفرويد أن العلاجات اللاحقة ستكون ذات طابع وقائي. وفي رحلة فرويد إلى روما، سال الدم من فمه بكثافة، واتسعت الأنسجة، وقد «خلّف ذلك، بلا شك، أسى في نفس آنا وفرويد»[17]. وفي الخريف كشفت الفحوصات عن وجود ورم خبيث مما استوجب عملية ثانية.

بعد سنوات عديدة أخبر جونز فرويد في لندن أن اجتماع الأعضاء في اللجنة في إيطاليا ناقش ما إذا كان يجب إبلاغ فرويد بالورم الخبيث. وبعيون محترقة سأل فرويد «بأي حق؟»[18]. كان فرويد أكثر المرضى ضبطًا للنفس، وقد صُعق عندما علم أن دويتش لم يخبره الحقيقة: إذ يعني ذلك أن فرويد تحت وصاية شخص آخر. وقد استشاط غضبًا من دويتش، ومهما كانت مبررات أعضاء اللجنة، وأيًّا كانت أسباب تحفظهم، فقد لام فرويد طبيبه على خداعه له. وفي ربيع 1939، قبل أشهر قليلة من موته، كان فرويد مستاءً «فالناس من حولي، كما يقول، يحاولون أن يحيطوني بجو من التفاؤل إذ ما فتئوا يؤكدون على أن السرطان في تقلص، وأن العلاج لن يطول. لا أثق في أي منهم، ولا أحب أن أنخدع»[19]. كانت الاستقلالية ثمينة بالنسبة لفرويد، و«أصر على دفع كامل الأجر لبيتشلر، كما فعل ذلك مع جميع أطبائه»[20].

وأما تصرّف دويتش، فقد رأى فيه فرويد تثبيطًا لعزيمته في مواجهة الحقيقة. ورغم أن دويتش زعم في السنوات اللاحقة بأنه كان سيأتي الشيء ذاته مرة ثانية، إلا أن فرويد أبى أن يصفح عنه. وانسحب دويتش كطبيب لفرويد، وذلك رغم أن علاقتهما ما لبثت أن صارت من جديد على ما يرام. وفي السادس من آب/ أغسطس عام 1924، كتب فرويد لفرينشيزي يخبره بأنه كان يعلم منذ البداية بأن الورم كان سرطانيًّا[21].

كان القرار صعبًا من وجهة نظر فليكس دويتش[22]. وفي سنوات لاحقة تذكرت هيلين دويتش، عندما كانا هي وفليكس يتنزهان على شاطئ البلطيق في ريغا، مدى قلقه من قراره الذي اتخذه في إيطاليا. لقد علم مسبقًا أن فرويد لن يكون سعيدًا بإخفاء الحقيقة عنه، وسأل زوجته لمساعدته في تأويل نوايا فرويد وكان كلاهما يخشى إمكانية الانتحار. وفي الوقت نفسه قدَّرا شوقه العظيم لروما، فقد كان الورم محدودًا للغاية ولا خوف من أيّ مضاعفات خطيرة بعينها قد تترتب عن السفر إليها.

خشي فليكس دويتش من أن فرويد قد يفضّل الموت على أن يُجري عملية مرة ثانية، ولذلك اعتقد أنه يجب أن تُتخذ الترتيبات الضرورية للعملية الجديدة دون علم فرويد[23]. ولاحقًا ادّعى شور أن «دويتش هو الذي لم يستطع «مواجهة الحقيقة» عندما رأى الآفة القبيحة في فم فرويد...»[24]. لكن بالنسبة لدويتش كان فرويد المكافح الذي لا يستطيع أن يتحمّل عجزه أكثر من عجز الآخرين[25]. وبالنسبة لدويتش تبيّن بعد

ذلك أن فرويد كان غاضبًا منه خاصة لأنه استغل عجزه(*)، ولقد رأى فيه الطبيب رجلًا يرهبه الناس العاديون وينبغي أن تؤخذ ردود أفعاله في الاعتبار. وفي 1901 كتب فرويد إلى فليس يقول: «إنك تذكرني بذلك الزمن الصعب والجميل عندما كنت على حق في الاعتقاد في دنو أجلي، ولكن كانت الثقة التي منحتها لي هي التي شجّعتني على البقاء. ومن ذلك الحين افتقدت الشجاعة والحكمة حقًّا»[27]. وكان هذا الحادث في عام 1923 علامة على حساسية فرويد، ولما استأنف حياته السابقة واستطاع أن يزاول مهنته ويكتب ثانية، استطاع أن يواصل حياته ببطولة رغم علمه بإصابته بالسرطان ومعاناته منه.

ظل فرويد يتذمّر من طبيبه السابق. وجاء في رسالة من فليكس إلى زوجته في آب/ أغسطس 1924 ما يلي:

«حتى قبل أن يتحدث البروفيسور عن إخفاء مرضه... مع الوقت، يجب أن يدرك أن انفصاله (عني) لا يمكن الدفاع عنه مهما حاول أن يدعمه بدوافع أخرى. لم يُثبت أثناء مرضه أنه أهل للحب ولا أنه قوي كما يتظاهر بذلك. ولمّا تعافى، شعر بجرح عميق، وما كان له تحقيق مهمة إنعاش الأنا في خضم الضرر العضوي العظيم الذي لحق به، إلا باستبعاد الليبيدو عمّن كان شاهدًا على عجزه. ولقد حاول أن يبرر تمنعه بحجة أن مرضه غير مؤكد. فلقد كان عليه أن يوجّه لومه إلى شخص ما»[28].

ومن خلال لومه المتكرر لدويتش قد يكون فرويد أدرك جيّدًا أن الشكوك الأوّلية جعلته يتحمّل آلامه بصعوبة. ومن وجهة نظر دويتش، حرّف فرويد الواقعة تمامًا. واعتقد دويتش أن فرويد أراد لاحقًا أن يطّلع على كل التوقعات في أدق تفاصيلها. وهكذا استخدم دويتش ككبش فداء، ليحمي نفسه من النقد الذاتي.

أشار دويتش في رسالته هذه إلى زوجته كيف أن فرويد أصبح يميل إلى اعتزال الناس أكثر فأكثر، وشارك في كتابة سيرته الذاتية ومقال لموسوعة بريطانيكا. وقد يكون أصيب بالاكتئاب، فكان يقضي وقته في المطالعة بمنظار، يتأمل التلال المحيطة بالنهار، والقمر والنجوم بالليل. وقد عانت عائلته من انعزاله. وبعد انسحاب دويتش كطبيب شخصي لفرويد كان يتشاور معه أحيانًا في أمور طبّية ودعاه للعب الورق معه. وقد احتفظت آنا به

(*) قبل سنوات «كان يونغ على يقين بأن فرويد لن يتقبّل حقيقة تعرضه إلى ما اعتبره عجزه»[26].

كطبيب شخصي لها. ولاحقًا أهدى فرويد فليكس خاتمًا، وأخبره كما جاء على لسانه بأن «لا شيء يمكنه أن يفصل بيننا». ومنذ مدة طويلة كتب فرويد لستيكل: «لا أعرف أبدًا ما الذي يمكن أن يفصل بيننا»[29].

أكد ماكس شور، وكذلك فعل جونز، شجاعة ردة فعل فرويد نحو السرطان، ومهما كانت ردة فعله الفورية عندما اكتشف ورمه التي شهد عليها دويتش، فإن تحمُّل فرويد لمثل هذا الألم كان بطوليًا. وبعد سنوات، بعيدًا عن استيائه من دويتش، ظل فرويد دون طبيب شخصي. وفي عام 1929، كان شور المختص في الطب الباطني، يوشك على الانتهاء من تحاليله الشخصية التي شرع فيها منذ 1925 مع روث برونشفيك[*] ومن أجل علاج ماري بونابرت، اتصل شور بفرويد بخصوص مرضها، وقد كانت هي (وربما روث برونشفيك) التي أقنعت فرويد بأن يتّخذه طبيبه الشخصي. ووضع فرويد «قاعدة أساسية» لعلاقتهما وهي ألا يخفي شور الحقيقة عن فرويد مهما تكن مثبطة. ولما قال فرويد إنه يستطيع تحمّل ألم أكثر وأقوى المهدئات غير المرغوبة، فقد كان يريد أن يتيّقن من أن شور لن يتركه، وإذا حان أجله فلن يكون للألم معنى. (ومع دنو أجله في 1939، ذكّر فرويد شور بوعده) وقد أخبر شور بأنه يتوقع أن يدفع ثمن كل العلاجات التي يتلقاها.

كان فرويد في تقدير شور مريضًا مرنًا، ولكن أمام مواجهة سرطان مثل الذي ألمّ به فإن كثرة تدخينه للسيجار هي التي كانت تقلق طبيبه أكثر. حاول فرويد أن يخفف مؤقتًا من التدخين لتفادي أيّ مضاعفات على القلب، وليس بسبب فمه. ولكنه لم يكن يستطيع الكتابة دون سيجاره، تتمثل مهمة شور الأساسية، وبمساعدة آنا، في إحداث تعديلات مستمرة على شريحة فرويد مشوّهة الخلقة، والتي يُفترض أن تفصل جوف الأنف عن فمه ومختلف الجيوب، يُضاف إلى ذلك مهمّة حسّاسة تتمثل في الكشف عن أورام جديدة يُحتمل أن تكون خبيثة، ورغم من أن فرويد تحمّل البلادونا من أجل علاج المقعد التشنجي، فقد كان قليلًا ما يستخدم أسبرين أو بيراموندن. وكان فرويد يكره التذمر، ولأجل ذلك أخلص له شور وأحبت آنا الاعتناء به.

* * *

(*) أشار فرويد في 1931 إلى شور وروث برونشفيك «بوصفهما طبيبيه الشخصيين leibärzte leibarzt» وهو المصطلح الذي كان يستخدمه الملوك للإشارة للطبيب الشخصي[30].

في أوائل مرض فرويد في نيسان/ أبريل 1923، كان حفيده هاينز رودولف «هينرلي» يعيش في فيينا. ولم يكن لماتيلدا ابنة فرويد البكر أولادًا فأرادت تبنّيه. وفجأة توفيت ابنة فرويد ووالدة الصبي صوفي بسبب أنفلونزا وبائية عام 1920. وكان الفتى قد أصيب في صغره بتعفن فيروسي في الأذن، سرعان ما تطوّر إلى مرض السل. كان فرويد كريمًا مع الأطفال الصغار حيث كان يبحث عن أي سبب لإهدائهم هدية، فما بالك بحفيده الوحيد القريب جدًا منه. والدته توفيت، وقد مثّل موته أثناء مرض فرويد صدمة قوية له.

وجال بخاطر فرويد أن الطفل قد يصمد فيكون خليفته، فلقد وهبته ابنته وريثًا. كان الطفل في غاية الذكاء حتى أنه يبدو مثل فرويد، وأيًا كان تقديره لأبنائه، فإنه يرى في حفيده هذا رمزًا يُعتّد به للمستقبل، وأثناء موت هينرلي اكتئب فرويد بشكل كبير لم يعرفه منذ تردي علاقته مع جونز 1913[31]. هينرلي «كان حقًا تابعًا ساحرًا، وأعلم أني لن أحب بشرًا ولا طفلًا يقينًا، أكثر منه أبدًا»[32].

ربما تجد مشاعر فرويد الكئيبة أساسها في اهتمامه بالماضي كما يتجلى في اعتزازه بتماثيله القديمة وآثار حضارات ميّتة(*). ومثّل حزنه الشديد على الحفيد منعطفًا في حياته. لقد كتب لبينسوانغر في عام 1926 يقول: «لقد فقدت ابنتي الحبيبة وهي في السابعة والعشرين من عمرها، ولكنني تحمّلت المصيبة، أما الطفل (هينرلي) فقد احتل مكان جميع أطفالي وأحفادي الآخرين، ومنذ ذلك الحين، منذ وفاة هينرلي، لم أهتم بأمر أحفادي الآخرين بتاتًا، وفقدت متعه الحياة»[33]. وفي عام 1929 فقد بينسوانغر ابنًا، فأبرق له فرويد رسالة تعزية كشفت أنه ما زال أستاذًا في علم النفس، جاء فيها:

> **«رغم أن كلينا يعلم أن بعد هذه المصيبة ستنتهي حالة الحداد الحادة، ويعلم كلانا أيضًا أنه لا شيء يعزينا أو يعوّض فقدهما. لا يهم ما الذي سيملأ الفراغ، حتى إذا تم ملؤه تمامًا، فسيظل هناك شيء آخر ناقص. وهذا ما ينبغي أن يكون فعلًا، وتلك هي الطريقة الوحيدة لتأبيد هذا الحب الذي لا سبيل للتنازل عنه»[34].**

وعمومًا كان فرويد مهتمًا بعائلته في التحليل النفسي أكثر من عائلته الطبيعية، ومن الصعب أن نعرف أيهما يكون في المقام الأول، خيبة أمله في أبنائه أو نقص موهبتهم نسبيًا. بينما رأى أبناء العظماء الآخرين في آبائهم عبئًا عليهم. وربما لم يكن فرويد استبداديًا كثيرًا

(*) كانت ابنته البكر صوفي بالنسبة له كدمية صينية: لقد كتب في قصاصة كتاب فتاته الصغيرة: «إلى الأصغر ولكن الأغلى في مجموعتي الصينية».

مع عائلته، رغم أن النفوذ والسلطة اللذين مارسهما أكثر مما يمكن أن نتصوّر أن أبًا قد يأتي بمثلهما في أيامنا هذه. ورغم العطاء، فقد كان مآله الاستبعاد وربما الإهمال، وكان فرويد يستغل مناسبة العطل للكتابة، في حين كان الآباء الآخرين يستغلونها للاهتمام بأطفالهم. وكان فرويد أبًا لتلاميذه أكثر من أبنائه. وكان بالنسبة لهؤلاء (أبناؤه) محللًا مراقبًا أكثر منه أبًا فعليًا. ونتيجة لذلك انتهى به المطاف إلى الابتعاد شيئًا ما عن أبنائه، والاقتراب أكثر من إرنست.

كان تلاميذ فرويد يستمتعون بتحقير أبناء فرويد. انطلق مارتن في العمل في دار نشر التحليل النفسي في 1931، وحلّ محل آي. جي. ستورفر كمدير في بداية عام 1932 الذي انسحب بسبب نقص في الأموال. وقد علّق فرويد على استقالة ستورفر قائلًا: «نشعر وكأننا رعايا أطردوا سيدهم أدركوا الآن فقط ما فعله لأجلهم». لكن بالنسبة لمارتن، تعيينه على رأس دار نشر يُعدّ مؤشرًا على أنه غير قادر على أن يسلك طريقه بنفسه. كان يقيم على مسافة قريبة من شقة فرويد، وحتى قبل أن يبدأ العمل بالصحافة كان يزوره مرتين في اليوم. وكمصرفي سابق، كان يطّلع على شؤون فرويد المالية وكذلك بعض شؤون تلاميذه، فقد كان الأجانب يحتاجون إلى تحويل العملة والفيينّيون يريدون تصفية شؤونهم أثناء هجرتهم.

يعكس مارتن مثالًا عن مصاعب ابن رجل عظيم. أنيق ووسيم، متزوج وأب لطفلين، اهتماماته كثيرة. بما في ذلك تلميذ يتدرّب على التحليل مع فرويد. جمع مارتن النساء كما جمع والده التماثيل القديمة. عندما وصل النازيون إلى فيينا في عام 1938، اختبأ مارتن في مسكنه المؤقت، وأدركت امرأته للمرة الأولى حقيقة ما يجري. انفصل الزوجان واقتسما كتبهما. ولسوء حظهما أن كتيبًا لصور نساء صديقات مارتن آل إلى زوجته، وهي صور التقطت في زوايا مختلفة من الشارع، لقد كانت بمنزلة مذكرة لفتوحات دون جوان عصره. ولما وصل فرويد إلى لندن، كانت زوجة مارتن قد تركته، والابن معاقب، واستبعد عن إدارة نشر التحليل النفسي ومنذ ذلك الحين تسلم إرنست مقاليدها.

كان الاحتفال بعيد ميلاد فرويد السبعين في عام 1926 أكثر عمومية، بالرغم من كراهيته الشخصية لمثل هذه الأمور، وكان بصفة عامة «متمردًا على عبارات التعاطف التقليدية...»[35]، وافق فرويد في النهاية - بسبب مرضه - على استمرار البيت مفتوحًا، قد تكون هذه المناسبة الأخيرة. لقد رحّب بالمهنئين واطلع على الهدايا التي وصلته. لقد

أحبّ الزهور، خصوصًا زهور الأوركيد والغاردينيا، وقد امتلأت شقته بمثل هذه الهدايا. ولم يكن فرويد يريد أن تُلتقط له صور، ولكن كان يجلس لتُتخذ له نسخًا منقوشة، نسخًا حُوِّلت لاحقًا إلى جمعية فيينا. اختيرت مجموعه صغيرة من تلاميذه الشباب لزيارة شقته ـ وكان فرويد كالوالد الذي يخاطب أولاده ـ كان ينصحهم بحرص كبير على أن يعضد بعضهم بعضًا. «أثناء الاحتفال، خاطب «أبناءه» كافة وحذرهم بأن عليهم من الآن فصاعدًا أن تكون لهم أفكارهم الخاصة»[36]. وإذا أرادوا أن يغيّروا شيئًا في التحليل النفسي، فلهم ذلك، على ألا يكون ذلك من أجل إرضاء العامة»[37].

كتب فرويد عام 1929 يقول: «إن أهم قرار حمائي يمكن أن يتخذه المرء في مواجهة المعاناة الناتجة عن العلاقات البشرية، هو العزلة الطوعية، أن يهتم المرء بنفسه بعيدًا عن الآخرين، ذلك هو طريق السعادة.... سعادة السكينة»[38]. لقد صار أكثر سكينة وشغل نفسه بالكلاب حتى استعاض بتعلقه بالكلاب عن علاقاته السابقة بالناس، وقد واجه صعوبة متزايدة في أن يبدأ من جديد. وقد كانت الكلاب الصينية أقل إزعاجًا لفرويد من الناس. لكنها كانت تزعج زوجته مارتا. وربما يعكس موقفها هذا نفور التقليد اليهودي من الحيوانات التي تقوم بدوريات على حدود الأحياء السكينة المخصصة لليهود بأوروبا الوسطى، وكانت تغضب عندما يعطي فرويد طعامه لهذه الكلاب.

كان لا يتورّع في المقارنة بين كلابه المفضلة وبين سخافة رجل «متحضّر» فاسد. ولئن كانت الكلاب، حسب فرويد، تفتقد للخصائص البشرية إلا أنها وفية وكان يثق بها. إذا أحب الكلب أظهر ذلك، وإذا كره فإنه يظهر ذلك بشدة. الكلاب لا تخدع بينما البشر يخدعون. وقد كتب لمُحِبَّة أخرى للحيوان، ماري بونابرت، عن سبب انجذابه للكلاب «محبّة دون أي ازدواجية، بساطة الحياة النقيّة من صراعات الحضارات التي يصعب تحملها. جمال الوجود الذي يجد اكتماله في ذاته»[39]. ويؤثر فرويد في الكلب جماله الذي لا يوصف وإن يكن حاد الطبع. وفي آخر عمره كان فرويد يقوم بالتحليل النفسي بانتظام بحضور كلب في غرفته التي يقابل فيها مرضاه وكذلك كان محللون آخرون يمارسون مهنتهم ترافقهم كلابهم.

رغم انسجام فرويد مع ذاته ورباطة جأشه، حتى في مواجهة آلامه، فما زالت تراوده مشاعر الاستياء القديمة. ورغم كل شيء، فقد صارت نظرته للطبيعة البشرية أكثر تجهمًا مع مرور السنين. لقد حافظ على «اعتقاده غير العلمي بأن نصف البشر أو معظمهم بؤساء

إلى حد كبير»، وقال إنه يشعر «بالمرارة بسبب خيبة أمله العميقة» بشأن مستقبل المحللين النفسيين[40]. على أنه يجب أن نردّ نكد فرويد إلى شعوره بالإحباط نتيجة عجزه، وإذا بدا فرويد استبداديًا أحيانًا، فذلك يعود إلى تقدمه في السن.

ولعل ما أثّر في فرويد أيضًا أن التحليل النفسي الذي أبدعه، كثيرًا ما «واجه انعدام الثقة وسوء النية»[41]. عندما فاز بجائزة غوته عن مدينة فرانكفورت عام 1930، كتب أرنولد زويغ مخاطبًا فرويد: «إن تشاؤمك العميق تجاه مستقبل المحللين في نهاية المطاف لا مبرّر له».

كتب فرويد ردًا جاء فيه: «إن التصالح مع معاصري جاء متأخرًا جدًا ولم أشك أبدًا بأنني سأفوز في النهاية بعد فترة طويلة من الأيام التي قضيتها في التحليل النفسي»[42]. وبصفة عامة كان موقفه من البشر منتقصًا دائمًا: «يظهر البشر نزعة فطرية من اللامبالاة وعدم الانتظام وعدم ثقتهم في عملهم...»[43]. وبصفة خاصة «لا يأخذ الناس مفكّريهم العظماء دائمًا على محمل الجدّ حتى عندما يعترفون بإعجابهم بهم»[44].

بعد إصابة فرويد بالسرطان، لم يكن لغضبه أي علاقة باستقالته. شيخ طاعن في السن ومريض، يرى العالم الخارجي عدائيًا أكثر مما هو عليه فعلًا. وكلما تقدم في العمر أصبح أكثر ليونة، وقد يعكس انسحابه وعيه بأنه لا يستطيع تحمل الضغط الذي تعرض له في ما مضى. وفي عام 1931، وفقًا لجونز، كتب فرويد لإيتنغون أنه «ألّف في وقت فراغه ما سماه «قائمة منبوذين» وتضم سبعة أو ثمانية أشخاص»[45]. وإن لم يكن يتضمن علم نفس فرويد رؤية للعالم خاصة به، فقد اعتقد بأنه يثأر من رؤى العالم الأخرى: «التحليل النفسي هو سندريلا الفقيرة، وليس له ما يعطيه لرؤى العالم الأخرى، ولا شيء لا يقيني. ولكن التحليل النفسي لديه فرصه للثأر بحيث يمكنه من فحص رؤى العالم الأخرى، ومن ثم يتوقف عن أن يكون غير ضار»[46].

2 - المنشقون

بغضّ النظر عمّا كتب فرويد عن معارضة أفكاره، فقد كان واثقًا في انتصاره في نهاية المطاف أثناء مرضه وتقدمه في العمر. ولقد ادعى النقّاد أن فرويد كان يُلقّن مرضاه. وأيًا كانت حقيقة هذا الادعاء، فقد كان فرويد ناجحًا كمعلم ولا شك في ذلك. ولقد قيل إن «فرويد كان واعيًا بأن التحليل النفسي يجب أن يخفّف»[1]. لكنه تمسك بالتحليل النفسي

الكلاسيكي لأنه شعر بأن نتائجه السابقة كانت مؤقتة وأنه لا بدّ من القيام بمزيد من البحوث في هذا الاتجاه. عندما كان محاطًا ببطانة كبيرة جدًّا من الأتباع والأقارب، ودار النشر تتطلب ضخ الأموال باستمرار، فقد ساعدته أمواله في آخر سنة في حياته في تحديد اختياره للقضية. وكما شرح لتلاميذه، ربما لم يعد الوقت يكفي للكسب وأن عليه أن يهتم بصحته.

سواء اعترف فرويد بهذا أو لم يعترف، فقد أصبح على رأس الطائفة. مجتمع يتبادل التهنئة الذاتية لا يمكن أن يتوقع أبدًا أن يُحرز تقدمًا قد يأتي من الساحة الفكرية القائمة على المنافسة الحرة والمفتوحة. ومن ناحية أخرى، إذا كان التحليل النفسي بمنزلة فرقة صلبة فسيعزز المحللون بعضهم بعضًا عبر إيمانهم المتبادل، وإذا رأى أحدهم في التحليل النفسي ظاهرة دينية، فليس غريبًا أن يتوحّد أتباع فرويد في عبادة فرويد واللاوعي. لكن من موقع المؤرخ الديني يمكن أن نلاحظ «أن عقائد الإيمان نادرًا ما تتحوّل إلى شكوك، لكنها تتحوّل إلى طقوس»[2].

إن الردود التي أثارها فرويد كافية لتوتير القارئ. ولمّا عزم فرويد على إهداء مؤلفاته التي تمّ جمعها. كتب أرنولد زويغ «إنها لهدية رائعة يمكن أن تكون حجر أساس لمكتبة وللحياة أيضًا»[3]. تابع تلاميذ فرويد الذين يقيمون في فيينا، تنقلاته غدوًا وإدبارًا بعناية. ولما أعلنت أوبرا فرويد المفضلة عن استعداداها لإحياء حفل في فيينا عبّر عدد من المحللين هناك عن رغبتهم في حضوره. وكان آخر ظهور علني لفرويد في حفلات جيلبرت إيفيت الموسيقية، وكان محاطًا بتلاميذه.

افترض البعض أنه أثناء عيد ميلاد فرويد السبعين في عام 1926 «ستطغى عبارات الإحسان أكثر من التقدير في حديثه عن أتباعه. وعلى العموم، يبدو أنه سئم من مدرسته ولم يعد في حاجة إليها»[4]. فلقد تطوّرت الجمعية بشكل كبير جدًّا، ومن الطبيعي أن تساوره بعض الشكوك تجاه بعض أعضائها، إلا أنه ظل على اتصال بأشخاص محددين. وفي الحقيقة لم ينسحب فرويد من الجمعية لأسباب صحيّة، وإنما لشعوره بأن المحللين الشباب ربما لم يعبأوا كثيرًا بالنسبة إليه بتسوية نزاعاتهم. وبقدر ما أراد أن يسيطر، بقدر ما كره بسط نفوذه حيث كان يقلقه أن يؤثر على الآخرين. كما كان يزعجه أن يتم التعامل مع كتاباته كنص مقدس[5].

ومع ذلك، وجد أن أتباعه نافعون. عندما اكتشف أن أنريكو مورسيلي، أستاذ الطب النفسي بجامعة تورينو (وهو رجل حساس ومتميز)[6]، نشر دراسة للتحليل النفسي من مجلدين، كتب فرويد إلى تلميذه الإيطالي وايس يقول له بأن عمل مورسيلي «فاقد للقيمة تمامًا، والقيمة الوحيدة الثابتة له، بلا شك، أنه شخص عنيد». طلب فرويد من وايس أن يكتب مراجعة مفصلة للكتاب: «طلبت منك ألا تدّخر له أية حقيقة غير سارة»[7](•). أراد فرويد أن يظهر نفسه كناقل للحقائق لا يخطئ، ولكن تعني لباقة الفيينّيين في ما تعنيه أن فرويد أراد أن يترك الجدل العام لوايس. وبحسب مورسيلي نفسه، كتب فرويد أن الكتب تمثل «عملًا مهمًّا»[8]. وبحسب وايس، مع ذلك، كتب فرويد كم كان سعيدًا بالمراجعة النقدية: «أنا سعيد أنك كنت شجاعًا ومخلصًا، كما هو الحال دائما....»[9]. وجاء في رسالة بعد ذلك بأشهر قليلة، ضمّنها فرويد ذمًا لمورسيلي حافلًا بالذكريات التي تعود إلى المعارك العظيمة في سنوات ما قبل الحرب: «قد يكون من المهم من الناحية الإنسانية أن نتبيّن إن كان دائمًا مشرّدًا أو أنه إنما سلك هذا الطريق فقط تحت تأثير الخرف»[10].

بحلول 1926 بدأت تلتئم اجتماعات صغيرة مرتين في الشهر في شقة فرويد، ثم صارت تلتئم مرة في الشهر. وكانت تضم بين عشرة أو اثني عشر محللًا يلتقون حول طاولة بيضاوية الشكل في غرفة الانتظار في شقة فرويد، من بينهم ستة مشاركين أساسيين والبقية تم اختيارهم من مجموعة فيينا الموسعة. وكانت بين فرويد وأتباعه هوّة واسعة تحول بينه وبينهم، بحيث استأثر لنفسه بالملاحظات التي لا تخلو من حكمة وإذن لها وزنها. ولكن الإجراء المتبع في هذه الاجتماعات الخاصة هو ذاته المتبع في جمعية فيينا للتحليل النفسي، وبعد تقديم ورقة تكون هناك استراحة قبل المناقشة. وهذا لم يكن غير معتاد، وفي فترة المناقشة لا يسمح لأحد أن يتكلم لأن على الجميع أن ينصت لفرويد، لذلك كان يهز كتفيه ثم يشرع في الحديث.

بعدما ينهي فرويد حديثه يخاطب الحضور قائلًا، «الآن دعوني أسمع بما تريدون أن تخبروني»[11]. لقد كان يعتقد بأنه قال ما يريد أن يقوله، وجاء دوره ليتعلم من الآخرين. كان واضحًا بالنسبة إليهم أنه يزخر بالأفكار لذلك لم يكونوا يصدّقون تمامًا تنازله. ولكن

(•) لقد خاب أمل وايس آنذاك في مورسيلي. لقد سأل مورسيلي وايس عن أعمال فرويد، ودعاه لتقديم وجهات نظر التحليل النفسي في تريست، وبعدها وجّه سهام نقده لفرويد، لم ينتظر وايس، الذي خاب ظنه في مورسيلي، أن يطلب منه فرويد مراجعة الدراسة، وكتب في شأنها نقدًا.

في ضوء اهتمامه في ما مضى بمسألة الأولويات، يمكن تفسير عدم رغبته في التحدث كثيرًا بطريقة أخرى، فلقد خبر قدرته على السيطرة على قلقه بشأن أفكار أخذت منه قبل نضجها. ولما كان ذا منزلة أرفع من تلاميذه فإنه صار في مأمن من كل خطر حقيقي. وما كان مصدر عذاب بالنسبة إليه صار مدعاة للتندر، وقد كتب أحد تلاميذه:

أتذكر مرة قابلت فرويد عندما كان يقرأ كتابًا لواحد من أشد معارضيه. أشار فرويد لفقرة في الكتاب وقال لي وهو يبتسم «انظر، هذا الرجل يصرّح بأني شرير... انتحال فاضح! لقد نشرت ذلك بنفسي منذ مدة طويلة»[12].

كان فرويد يعلم أن كل ما يقوله سيُقتبس وسيُستخدم. قد ينتقد بعض المقالات، لكنه كان متحضرًا في نقده، وكان يحاول ألا يجرح شعور أحد. ولم يكن يرفع صوته ليعبّر عن عدم رضاه، ولقد تذمر من محاولة بيرنفيلد لقياس كمية الغريزة الجنسية، ومن ثم تبيّن أن طريق بيرنفيلد غير طريق فرويد. ليس هناك سوى منخرطين مذعنين في هذه الحلقات الدراسية، ولا أحد كان يجرؤ على معارضته.

هناك ترسّب معزول من قلق فرويد السابق بشأن انتحال قد يكتشف أثناء شيخوخته، وفي مشاركته في الجدل الدائر حول أصل مؤلفات شكسبير. لقد أيد فرويد إيرل من أوكسفورد بدلًا من الشخص من ستراتفورد. ولقد كان فرويد، على ما يبدو، منزعجًا من فكرة أنه يتعيّن على أرنولد زويغ أن يعترف بأن شكسبير شخصية أصيلة. ولكن بعدما تحدث حول ذلك بإسهاب مع زويغ حول هذا الأخير: «...خلق شخصية شكسبير من النوع الذي صارع في الأسابيع الأخيرة من حياته مع الظل من أوكسفورد وتمنى دائمًا أن يعترف: «لم أؤلف مسرحياتي البتة، بل هو من كان يؤلفها»[13]. أعجب فرويد بكتاب لـ جي توماس لوني الذي «يُماهي» بين شكسبير وإيرل أوكسفورد القرن السابع عشر، وقد كان يُعير نسخة من الكتاب لواحد من مرضاه على الأقل (وهانز ساكس كذلك)، كما ذكر هذا الموضوع في الرسائل، وقد أضاف كذلك هامشًا في شأنه في طبعة منقحة عن سيرته الذاتية[14].

كان التلاميذ المزعجون بين الفينة والأخرى يسممون الأجواء في حلقة فرويد. وكان فيلهالم رايش (1897 ـ 1957) واحدًا من أكثر الموهوبين الشباب في تلاميذ فرويد، إلا أنه لم يكن منضبطًا تمامًا بشكل دائم (وأصيلًا) ضمن مدار التحليل النفسي. وقد اعتبر فرويد العصاب بوصفه مشكلًا يتعلق بالذاكرة في المقام الأول. ومثله مثل أدلر ويونغ من قبله،

حاول رايش أن يُبيّن أن القضية الحقيقية التي ينبغي أن تُدرس وتُعالج لا تتعلق بالأعراض وإنما بالشخصية بتمامها. وحتى في سنواته الأخيرة كان فرويد يميل لقصر مفهومه على بنية وديناميكية أعراض مثيرة للاهتمام، ولكن معزولة. ولقد نجح رايش في مؤلفه حول «تحليل الشخصية» في توسيع نطاق التصوّر السابق لما يتعين على المحلل أن يهتم به.

لئن ساعد رايش على تحوّل تركيز الانتباه على التعبيرات غير اللفظية، لقد فشل في إقناع المحللين بأهمية تشخيص الإشباع الجنسي الإرجازي، اعتقد رايش أن الصحة تعتمد على القوة الإرجازية، ولقد آمن بالإشباع الجنسي الحر والكامل. (لم ترُق هذه الأفكار لفرويد البتة). اهتم رايش بشكل خاص بالمراهقة بوصفها المرحلة التي تنمو فيها الشخصية. وكمُصلح عمليّ، فكر رايش بأن عددًا من مشاكل البالغين لن تتطور أبدًا إذا تم خنق التعبيرات الجنسية مبكرًا. وبفضل نزعته التحرريّة حافظ فرويد على شعبيته.

ما يسميه المحللون الأرثوذوكس الإعلاء بدا لرايش بمنزلة إضفاء طابع المعقولية على ما قد يترتب عن الموانع الجنسية البورجوازية. وقال إن فرويد قد خان موقفه الثوري لفائدة حقوق الليبيدو بغض النظر عن الضغوطات ذات الطابع المحافظ. وقد اعترض فرويد بدوره على محاولة رايش إعادة التحليل النفسي إلى مفهوم الجنسانية الذي كان سائدًا قبل فرويد. وعندما ذكر فرويد عام 1932 الحركات «الانشقاقية» التي لم تأخذ في عين الاعتبار سوى جزءٍ من الحقيقة مثل «اختيار غريزة السيادة (أدلر) أو الصراع الإيتيقي (يونغ)، أو الأم (رانك)، أو التناسلية (رايش)...»[15].

ورغم أن رايش كان حديث العهد نسبيًا بالتحليل النفسي في أوائل عشرينيات القرن العشرين. إلا أنه كان يبدو مفرط الثقة بنفسه، وعلى أي حال، لم يؤيّد فرويد غطرسته. وفي إحدى الاجتماعات الخاصة بمنزل فرويد قال لرايش «أنت الأصغر سنًا هنا، فهل أغلقت الباب؟». وقد حافظ فرويد على مسافة بينه وبين رايش وترك أمره للمحللين أصحاب الخبرة في جمعية التحليل النفسي. أصر رايش على أن المحللين لم يعيروا اهتمامًا للتحويلات السلبية، وأحدث تحولًا أساسيًا في التقنية التي بفضلها يمكن الكشف عن عداء المريض تجاه المحلِّل. ولقد كان إنشاء حلقة دراسية دائمة في جمعية فيينا للتحليل النفسي في جزء منه من أجل تضييق الخناق على رايش. وقد طلب منه أن يقدّم تقريرًا إكلينيكيًّا يكشف فيه ما أخطأت به التقنية المتعارف عليها.

كان رايش ماركسيًا وهو أحد المحللين القليلين في عصره ممن جسروا الهوّة بين التحليل النفسي وعلم الاجتماع. وكان يدعو إلى منع ظهور المشاكل الأوديبية بدلًا من الاكتفاء بدراستها وعلاجها بعد وقوعها. لقد اعتقد أن أهم شيء هو تخفيف معاناة البشر عبر إحداث تغييرات في بنية الأسرة الغربية التقليدية، وقد بدا بالنسبة لمعظم الفرويديين كما لو كان يعكر صفو مهمتهم التحليلية النفسية. ولقد افترض رايش أن تفكك الأسرة التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى فقط يقود إلى اختفاء عقدة أوديب (وقد أثبتت تجربة الكيبوتز الإسرائيلي لاحقًا صحة افتراضه).

وقد شكّك فرويد في أن تكون عقدة أوديب ناتجة عن الحاجيات البيولوجية للأسرة وقد كتب مؤلفه الحضارة وكروبها كرد على أطروحة رايش. ورأى فرويد أن العديد من المحاولات السابقة قللت من أهمية عقدة أوديب، ولم يكن يريد أن يبدو التحليل النفسي كتحرير للحياة الغريزية في الإنسان. لقد ساهمت رحلة رايش إلى روسيا البلشفية في أواخر 1920 لإلقاء محاضرة، حيث زعم أنه ما لم توجد ثورة جنسية شيوعية قد تتحوّل إلى دولة بيروقراطية، في إقناع السلطات السوفياتية بوجوب حظر التحليل النفسي إذا كان هذا شأنه[16]. لقد ازدهر التحليل النفسي في روسيا حتى ذلك الحين شأنه في ذلك شأن الحركات الثقافية الأخرى في تلك الأيام.

توقع رايش شيئًا ما من فرويد أنه لن يُعير اهتمامًا به: أراد أن يكون فرويد مُصلحًا اجتماعيًا. كما أنه تمنى أن يعترف به كابنه المفضّل الجديد. تم تحليل رايش أولًا من قبل سادغر وفيديرن، ثم لاحقًا من قبل ساندور رادو، لكن تمنى تحليلًا مع فرويد شخصيًا إلا أنه رفض. اعتقدت زوجته الأولى «أن رفض فرويد لتحليل رايش بنفسه أدى إلى قطيعة غير محمودة العواقب... فلقد صار فرويد الأب البديل لرايش. لم يستسغ رايش هذا الرفض حتى أنه أصيب بإحباط شديد»[17]. لقد تعلقت الاثنا عشر رسالة التي كتبها فرويد لرايش[18] بشكل رئيس بتعليقات حول مخطوطات رايش - حيث رأى أنها غزيرة جدًا وفي حاجه إلى وضوح - وبالصعوبات التي واجهها رايش مع المحللين الآخرين (خاصة فيديرن)، الذي اعتبره مشاكسًا. وقد غض فرويد الطرف عن تلك النزاعات كجزء من حياة الأسرة العادية. وفي عام 1931 رفض أن يكتب مقدّمة لأحد كتب رايش.

اعتقد رايش بأنه طُرد من الجمعية العالمية للتحليل النفسي (1934) في حين بدا الأمر بالنسبة لجونز استقالة[19]. ولقد انخرط أعضاء آخرون، وإن كان عددهم قليلًا من الحزب

الشيوعي، في التحليل النفسي (مثل أوتو فنيشل)، إلا أن جونز أصرّ على أنه يتعيّن على رايش أن يختار أيهما الأكثر أهمية بالنسبة إليه، السياسة أم التحليل النفسي[20]. ومن خلال محاولة فهم الحياة الغريزية للبشر في علاقة بأشكال الهيمنة الاجتماعية، عرض رايش نفسه للنقد من التوجهين الإيديولوجيين، على حد سواء، حيث اعتبره الماركسيون منخرطًا تمامًا في البنية الفوقية للعالم البورجوازي، وفي عام 1930 تخلّصت منه المنظمات الشيوعية.

الجزء الأخير من حياة رايش هو الأكثر إثارة للجدل. بعدما طلّق زوجته الأولى، التي كانت مريضة سابقة تخضع للتحليل، تحرك تدريجيًا بعيدًا عن تعميمات التحليل النفسي حتى القطيعة النهائية في عام 1934. وقد فقد الاتصال بالأصدقاء والزملاء وصار محاصرًا ووحيدًا. ورغم نفوذه المشروع على معهد آ. أس. نايل فقد نصب رايش نفسه قائدًا للمذهب الجديد. وصار بالنسبة للبعض «ديكتاتورًا يمنع على الآخرين أن ينجزوا عملًا مستقلًا»، وكان يخشى أن «يسرق الناس بعضًا من اكتشافاته...»[21]. ابتكر مصطلحًا جديدًا، اعتبره البعض مؤشرًا على التنظيم الديني للفكر. وقد ألّب ابتكاره لمخزنات طاقة الأرغون - حيث ادعى أنه اكتشف «طاقة الأرغون الجسدية» - واستخدامه لها في العلاج، الوكالة الأميركية للمنتوجات الغذائية والدوائية ضده. وإذا بدا، مضطربًا عقليًا أثناء محاكمته، فإن الحكم بسجنه مثال على الوحشية التي آل إليها المجتمع الحديث. وقد أتلفت الحكومة الأميركية كتاباته، ومات في السجن الفيدرالي عام 1957.

بينما حقق رايش موجة جديدة من الشهرة الشعبية وظلت كتابته تطبع لعقود، كان ساندور رادو (1890 - 1972) محللًا نفسيًا «خائنًا»، عرفت إسهاماته أساسًا في الطب. وفي عام 1938 ذكر فرويد متبرمًا أن «المجموعة الأميركية (في التحليل النفسي) يهودية إلى حد كبير، ويهيمن عليها رادو، بينما الأميركان - لا سيما غير اليهود - لم يكونوا أفضل بكثير»[22]. لم يحقق رادو مثل تلك السلطة. ولكنه ذكر في مذكرات نبرغ أن «رادو انزاح بعيدًا وبعيدًا جدًا عن التحليل النفسي، وتخلّى عن تعاليمه الأساسية ورغم ذلك ما زال يعتبر نفسه محللًا نفسيًا». صنّف نبرغ رادو تحديدًا على أنه أكثر المنشقّين شهرة في التحليل النفسي، من خلال الإشارة إلى «الأثر البالغ الذي خلّفه تخليه عن التحليل النفسي» (مثله في ذلك مثل، أدلر، يونغ، رادو وآخرين)[23].

كان رادو آنذاك واحدًا من أهم الألمعيين في التحليل النفسي. كان هنغاريًا صديقًا حميمًا لفرينشيزي، لديه ذاكرة فوتوغرافية تمكنه ليس فقط من اقتباس فقرات من كتابات

فرويد حرفيًّا وإنما أيضًا تذكّر أرقام الصفحات. خضع رادو للتحليل في برلين على يدي أبراهام. وحلل هو بدوره، منظّرين كثر مثل أوتو فنشيل، هاينز هارتمان، فيلهالم رايش، مما يدل على أنه من بين أهم المحللين النفسيين الأكثر اطلاعًا. وعندما انسحب أوتو رانك من رئاسة تحرير الزايتشريفت، خلفه رادو، مما جعله محل حسد وعداء من قبل العديد من المحللين. كان كاتبًا بارعًا، من ذلك مثلًا مقاله الشهير حول مشكلة السوداوية الذي برع فيه باحترافية عالية[24]. وقد حرّر مجلدين تشريفًا لفرويد بمناسبة عيد ميلاده السبعين عام 1926. من السهل أن نغفل مكانة رادو في حياة فرويد في خضم إسهامات الآخرين اللاحقة التي يكثر بها الاستشهاد بها عادة في أيامنا، سيما وأن الرجل لم يغادر الحركات الأرثوذوكسية، لكن فرويد كتب له في علاقة بعمله كمحرر: «أنت من قدّم أعظم عمل للتحليل النفسي بروح إيثارية منقطعة النظير». وقد تلقى رادو إجابات مَلكية من فرويد عندما كان يسأل دائمًا عن شيء ما له صلة بأنشطته بالصحيفة. وأثناء مناقشة قضية التحليل النفسي العامي، لزم رادو الصمت لأنه كان يدرك أنه لا يجب معارضة فرويد وإن كان يختلف معه في الرأي.

عندما أراد الأميركان مدرسًا مثيرًا ومدربًا بارعًا يُشرف على التدريب في معهد نيويورك، وقد عُرضت المهمة على رادو. وقد بارك فرويد مغادرة رادو إلى الولايات المتحدة عام 1931. ولأجل ذلك بدأ رادو يفقد علاقاته السابقة في برلين. فأن تكون من المحللين الأوائل فهذا يعني أن تكون عضوًا في مجموعة معزولة يعتمد فيها كل واحد على الآخر. وكان عمله في الولايات المتحدة أقرب إلى فرع من فروع الطب الحديث. وأثناء أول خمس سنوات في حياته في أميركا، كان يقضي رادو كل صيف في أوروبا، وكان يزور فرويد في كل مرة. لقد قاوم خطة فرويد لبناء معهد عالمي للتحليل النفسي في فيينا حتى بعد وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا، وقد خشي فرويد كثيرًا من أن يجد نفسه معزولًا هناك[25].

شهدت علاقة رادو بفرويد نقطة تحوّل في عام 1935، عندما نشرت جيان لامبل دي غرو مراجعة نقدية لواحد من كتب رادو، بعدما ناقشته في البداية مع فرويد[26]. بعد محاولة تفسير «قلق الإناث من الخصاء» غالى رادو في تقديرها، «في سعيه لتبسيط» عقد الروح البشرية على أساس «نظرية الصدمة غير قابلة للإثبات» التي تنطوي على صراع الأنا ضد السوداوية. ولقد ظهرت الحاجة لفهم جزء من الحقيقة فقط فهمًا تامًّا في الاتهامات

التي وجهت إلى «المنشقين» الأوائل عن التحليل النفسي، وقد استخدم أوتو رانك، سلف رادو في رئاسة تحرير الزايتشريفت، أيضًا «نظرية الصدمة». ولم تكتفِ لامبل دي غرو بالتعبير عن آرائها فقط بل كانت لها ملاحظات نقدية في اجتماع جمعية التحليل النفسي بفيينا. ولقد استاء رادو ممّا اعتبره إهانة عندما سمح لها فرويد بأن تكتب تلك المراجعة تحت رعايته. ورغم كل ما قام به رادو في مجال التحليل النفسي لم يشفع له، حيث عامل فرويد لامبل دي غرو بكل احترام. (من البديهي أن يكون رادو قد كتب لفرويد بشأن تلك المراجعة، وأن فرويد أطلعها على رسالته وعلى ردّه عليه أيضًا). كان رادو من أكثر التلاميذ المخلصين، لكنه شعر بأن فرويد ينبذه ويُعرض عن المحللين النفسيين التقليديين ولأنه أخذ كل كلمة يقولها فرويد على محمل الجد، فقد اكتشف رادو فجأة كم كان صغيرًا في عيني فرويد شخصيًا(*).

ورغم أن رادو هو من قاد الهجمة الشرسة ضد رانك التلميذ المفضل السابق للسيّد عندما غادر حلقة فرويد، وهو أمر كان فرويد يستحسنه من قبل أتباعه، إلا أنه لم يكن له أيّ دور مهم أبدًا في حياة فرويد مثلما كان لرانك، وكان فرويد قد تقدّم في السن بما يزيد عن عشر سنوات. استاء فرويد من سعي رادو إلى مساعدة بعض المحللين الأوروبيين وحثهم على المغادرة إلى أميركا. وعلاوة على ذلك، لم تقتنع آنا فرويد بحماسة عريضة المساندة التي نشرها رادو عام 1933[28]، وقد نشب خلاف بين آنا فرويد ورادو حول تقرير مؤتمر التحليل النفسي عام 1934[29]. وكآخرين، اعتقد رادو أن «بطانة» تحيط بفرويد، فالإخلاص وليس الغيرة، في تقديره، هو ما حال بينه وبين الخيانة. وكان يعتقد بأن مراجعة جيان لامبل دي غرو ساهمت في نهاية المطاف في انتصار مجموعة فيينا.

كانت لرادو مساهمته المهمة، فلقد أكد على أنه يتعيّن النظر إلى الهو والأنا والأنا الأعلى كوحدة. كان يطمح لأن يجعل من التحليل النفسي علمًا تجريبيًا. كما أراد أن يفهم الانفعالات التي تلعب دورًا في الدافعية، ولم يكن يحبّذ التجريد كما يتجلّى في كثير من التنظير التحليلي النفسي، وأكد دراسة علم الوراثة كمجال مشروع للتحقق من الديناميكية النفسية للطبيب النفسي. وكآخرين اعتقد رادو أن طريقة التحليل النفسي الكلاسيكي عقلانية جدًا، وأنها ضرورية لأغراض علاجية أكثر من التغلب على الكبت واستحضار

(*) صُدم فريدريك بارلز أيضًا وأحبط من علاقته الشخصية بفرويد وإن بدرجة أقل[27].

الماضي، ومن السهل جدًّا تقويض اعتماد المريض على ذاته عن غير علم. وكآراء أي منشق آخر في تاريخ التحليل النفسي، أظهرت العديد من آراء رادو عقلانية أكثر من أفكار أولئك الذين ظلوا مخلصين للأرثوذوكسية والذين أعربوا عن امتثالهم كأعضاء للمنظمة الرسمية.

في عام 1944 أنهت جمعية نيويورك للتحليل النفسي مهمة رادو كمحلِّل مدرب، وظل رغم ذلك عضوًا فيها. وقد واصل أبحاثه حتى عندما ترأس معهد التحليل النفسي بجامعة كولومبيا، والتحق بالعمل المستقل لأبراهام كاردينر. وبقطع النظر عن تمرده (وموهبته الفذة)، ابتكر كلمات جديدة لكل شيء في التحليل النفسي. وبعد انسحابه من كولومبيا في عام 1957 ساهم في تأسيس مدرسة نيويورك للطب النفسي بجامعة ولاية نيويورك.

كان فرانز ألكسندر (1964 ـ 1980)، وهو أيضًا هنغاري وكان زعيمًا آخر من زعماء اليسار الراديكالي في التحليل النفسي. وخلافًا لرادو، غادر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة دون إذن فرويد. وكان همّه الأساسي، كما يذكر ذلك، هو التحليل النفسي الفرويدي، «أن تتحوّل إلى التحليل النفسي، يعني أن تتخلى عن كل فكرة تكوّنت لديك في مسيرتك الأكاديمية، ولهذا فقد هيّأت نفسي منذ سنواتي السابقة بالمدرسة. وفي عام 1921 لم يكن لقراري بأن أصبح محللًا نفسيًا بدل أن أكون طبيبًا أي علاقة بالأخوّة الطبية»[30]. ولقاء ذلك يكون للمحلِّل الشاب ملاذ روحي، نوع من المواطنة في أدنى الحالات لكن مجموعة مخلصة... نادرًا ما يوجد مركز ثقافي في أوروبا لا يلقى فيه المحللون النفسيون الشبان حفاوة من قبل المحللين المحليين، بمجرد أن تعترف به جمعيته المحلية. ومنهم من لجأ إليه، وفي أعماقه إحساس بأنه ينتمي إلى القلة المختارة ممن استناروا بتعاليم فرويد حول طبيعة الإنسان والمجتمع ... وكلما زار زملاءه في فيينا، زيوريخ، برلين، ميونيخ، روما، أمستردام، باريس أو لندن، سرعان ما تتحوَّل المحادثة إلى عداء وتحامل تجاه المحللين المحليين من جانب الجمعيات الطبية والجامعات. وكلما سرد بحبكة نكتة عن زلة اللسان أو ملاحظة عن سلوك الأوديبي لابن صغير أو ابنة صغيرة، أو روى جزءًا من حلم مثير للاهتمام، خلق إحساسًا بالتضامن المطلق، إحساس نشاركه كلنا المعرفة الجديدة ذاتها التي رفضَنا لأجلها بقية العالم... وقد يشعر المرء أنه مهما كانت إسهاماته، فإنه يعيش من أجل قضية تستحق الدفاع عنها وأن ما يبذله من جهوده يجعله يستمر في الحياة[31].

وبالنظر إلى خلفيته الثقافية، فإن ألكسندر كان طالبًا ألمعيًا بشكل استثنائي في معهد برلين. وإذ لم يعبأ ألكسندر أبدًا بأوضاع رادو التحليلية النفسية في أوروبا، فلأنه كان في حاجه لأن ينزاح قليلًا عن اتجاه التمرّد في أميركا.

كان فرويد مهتمًا بألكسندر، وكانت بينهما مراسلات كثيرة ومهمة لكنها لم تنشر (وهذا يصح أيضًا مع رسائل فرويد إلى رادو)، ومن ثم من الصعب الحديث عن ألكسندر كتلميذ لفرويد باستثناء القول إنه كان من بين أحب تلاميذه إليه. منذ بدايته في بوسطن ثم لسنوات عديدة في شيكاغو ولوس أنجلوس، كان ألكسندر يبعث الحياة في كل مجموعة تحليل نفسي يشارك بها. وفي شأن اهتمام فرينشيزي التقليدي بالتقنية، كتب ألكسندر عن بعض العيوب في الوضع التحليلي النفسي كما أرسى قواعده فرويد، وبصفة خاصة عن مخاطر التبعية وانعدام البصيرة والعجز عن التفسير. إن تحليل التحويل الكامن للعواطف قد يجعل إحياء ذكريات الماضي أمرًا واردًا، وهي ذكريات اعتقد ألكسندر أنها مؤشر لتحسن العلاج أكثر من أي شيء آخر. لقد حلّل بترام لوين، وكانت ماريان كريس أول من حلّل بناء على مقترح فرويد، وقد قيل إن ألكسندر كان عالج أيضًا ابن فرويد إرنست[32]. ويعتقد ألكسندر أن البحث في العوامل المسببة للمرض اختلط في كثير من الأحيان مع ما فيه فائدة المريض. وفي الحقيقة كثير من ابتكاراته التقنية التي أبدعها لتحسين نتائج العلاج توقعها يونغ.

كان ألكسندر رائدًا في الطب النفسي-الجسدي (سيكوسوماتي)، وقد سعى إلى تطوير انعكاسات التحليل النفسي على الفلسفة الاجتماعية[33]. وضمن بعض الوجوه كانت نواياه ذات النزعة التعديلية مماثلة لنوايا كارن هورني (1885 ـ 1952)، وقد تلقّت تدريبها على التحليل النفسي هي أيضًا في برلين، ولكن لم تكن لها علاقة شخصية بفرويد. دعاها ألكسندر لشيكاغو ولكن لم تمضِ سنوات قليلة حتى عجزا عن مواصلة العمل سويًا بانسجام. وربما يكون مصير المنشقين الذي لا مفر منه أن يسلك كل منهم طريقه الخاص به[34]. لقد كتب ألكسندر، وهو المحلّل الليبرالي، ذات مرة مقالًا مفعمًا بمشاعر الودّ والتعاطف في شأن رادو، وكان رادو «واحدًا من (المصلحين) القلائل الذي ظل في كنف التحليل النفسي وحاول أن يمضي قدمًا بالتحليل النفسي في نطاق الأخوّة»[35]. لقد أعجب ألكسندر بما بذله رادو من جهود لفك عزلة معاهد التحليل النفسي وفرض التحليل النفسي داخل الجامعات. وإن اهتم ألكسندر، هو بدوره، بتاريخ الطب النفسي، فإنه وبكل لباقة لم يتجاسر على مناقشة خروج رادو عن صف فرويد. والحق أنه لا يمكن تصنيف

ألكسندر ضمن فئة المنشقين ولا ضمن فئة حواريي فرويد، وكخبير في الميتابسيكولوجيا، واصل عمله في كنف فرويد، دون أن يعني ذلك أن إسهاماته باتت بمنأى عن سهام نقد معظم الأرثوذوكسيين[36].

قد يكون المفكر المميز، إريك فروم ـ معروف شعبيًا كواحد من نقّاد فرويد الشرسين ـ لكن لم يكن له قط علاقة شخصية مع فرويد. تم تحليله من ساكس وتدرّب على التحليل النفسي في عشرينيات القرن العشرين في معهد برلين، مارس كمحلِّل أرثوذوكسي لمدة عشر سنوات. كانت زوجته الأولى فريدأ فروم رايشمان طبيبة نفسية، عملت لعدة سنوات في ويسر هيرش سانيتوريوم في دريسدن، وكانت قبل ذلك مساعدة لكارت غولدشتاين في كونيغسبرغ، وفي عشرينيات القرن العشرين لم يكن للتحليل النفسي الألماني نوع من الرقابة الصارمة على المنظمة التي تطورت لاحقًا. ودون أن يشارك الشعور السائد في جمعية برلين للتحليل النفسي التي اعتبرت غروديك أحمق، أعجب كل من إريك فروم وزوجته بأصالته وحرصه على الشفاء. وكانت فريدا فروم رايشمان بصفة خاصة رائدة في العلاج النفسي للذهانيين، لكن في أميركا، حيث كانت تعمل في كستن لودج، حضر مبعوث جمعية التحليل النفسي الأميركية لإحدى حلقاتها الدراسية بغرض معرفة إن كانت تدرِّس أفكارًا غير أرثوذوكسية ممّا أثار سخطها معتبرة ذلك تدخلًا غير مشروع[37].

تطوّر إريك فروم خارج ما صار بعد ذلك الاتجاهات السائدة بين المحلّلين. وقبل معظم زملائه، جزئيًا بفضل انتماءاته الماركسية، حاول فروم دمج التحليل النفسي مع الأفكار الاجتماعية المعاصرة. فقد حصل على دكتوراه في علم الاجتماع، وصار كتابه الهروب من الحرية معلمًا بارزًا في علم الاجتماع الحديث. وعلاوة على ذلك فقد كان فروم واحدًا من أوائل المحللين الذي واجه بشكل صريح التبعات الأخلاقية لأفكار التحليل النفسي[38].

قام فروم بتحليل الأميركيين البارزين مثل كلارا تومسون وديفيد ريزمان. (يتوافق مفهوم ريزمان «اتجاه-الآخر» مع مفهوم فروم «توجيه-السوق»). ومع ذلك، لم يكسب فروم من عمله الرائد سوى العداء الشديد من قبل معظم ممثلي مذهب التحليل النفسي. ورغم أن فروم أعظم مفكر اجتماعي في ميدانه، (مثل كارن هورني) فقد تركه بسبب انعدام اتصاله بفرويد شخصيًا.

3 - إريكسون وهارتمان

إن إريك إريكسون واحدًا من أكثر ورثة فرويد المفكرين أهمية، ومثله مثل رايش وفروم وكاردينر من قبله، اهتم إريكسون بدمج التحليل النفسي بالعلوم الاجتماعية، وقد استخلص عديد الاستتباعات من عمل فرويد، وقد نجح كل من فروم وإريكسون في كسب عددٍ كبيرٍ من المهتمين بديناميكية علم النفس، وشأنهما شأن برونو بتلهايم، فقد اعتبرا أن الخلافَ مع فرويد مرده الاعتقاد في إمكانية أن يساهم المحللون العاديون بشكل كبير في انتعاش التحليل النفسي.

كان لقاء إريكسون أول مرة مع حلقة التحليل النفسي بفيينا في عام 1927، عندما كان فنانًا يتنقل في جميع أنحاء أوروبا. كان صديقه القديم في الدراسة بيتر بلوس عندها مدرّسًا في مدرسة (في ساحة إيفا روزنفيلد الخلفية) خاصة بأبناء مرضى التحليل النفسي والمرضى الذين يتدربون على تحليل الطفل مع آنا فرويد. وقد تعلّم أطفال دوروثي بيرلنغهام هناك، والراجح أنه ما كان لهذه المدرسة أن ترى النور لولا دعمها المالي. توسّط بلوس لإريكسون لدى السيدة بيرلنغهام ليرسم لوحة لأطفالها. ولما سافر بلوس في عطلة حل إريكسون مكان بلوس في التدريس أيضًا. وفي نهاية الصيف سأل إريكسون عما إذا كان يرغب في أن يصبح محللًا مختصًّا في الأطفال، وهي مهنة لم يكن يعلم بوجودها من قبل.

كان إريكسون نحيفًا وخفيف الشعر، ومثله مثل آنا فرويد لم يحصل على أي شهادات أكاديمية رسمية، ولاحقًا كأستاذ جامعي كان حساسًا لأنه دخيل على الحياة الجامعية. كان بلوس وإريكسون استثنائيين في زمانهما لأن الرجال لم يتوقعوا آنذاك أن يفلحا مع الأطفال ببراعة، فرجال الطبقة الوسطى في أوروبا في تلك الأيام لم يتجرأوا حتى على دفع عربة أطفال. ومن منطلق حرصهما على جذب الرجال إلى تحاليل الأطفال، رصدت كل من آنا فرويد ودوروثي بيرلنغهام قدرات إريكسون الحدسية مع الأطفال الصغار. كابن زوجة لطبيب ألماني يهودي، وجد إريكسون في التحليل النفسي هوية حرّرته. لقد حمل لقب زوج والدته هامبورغر، ونشرت مقالاته الأولى تحت هذا الاسم. كان والداه الحقيقيان دانماركيين، وقد شعر في التحليل النفسي بأنه ألزم نفسه بما بدا له نسق تفكير ألماني، ولاحقًا في أميركا، حيث اكتفى بالاسم إريكسون، أراد أن يُركّز على مشكلة هوية التكوين.

في فيينا، قابل إريكسون جوان الفتاة التي ستكون زوجته في المستقبل، طالبة أميركية في أصول الرقص الحديث. وقد درست هي أيضًا في مدرسة دوروثي بيرلنغهام، خضعت للتحليل في فيينا على يدي لودفيغ جاكلز. وكان آل إريكسون يعانون من الفقر المدقع حيث كانوا ينامون على فراش على الأرض، ولما علمت دوروثي بيرلنغهام بأمرهم أعطتهم لحاف من الريش. وأثناء حملها، كانت جوان إريكسون تبسط اللحاف أرضًا وتتمدّد عليه. وقد حذرتها تانت مينا من أن تستلقي على اللحاف حتى لا تُتلف الريش.

كان إريكسون المدرِّب المحترف الوحيد في مجال تحليل الأطفال، وذلك ما ميّزه بشكل كبير عن بعض الأحيان. وفي حين وجد آخرون صعوبات في جعل عملهم متميّزًا عن عمل فرويد، نسب إريكسون أفكاره الخاصة إلى فرويد. وفي الغالب ما كان إريكسون يريد أن يعترف بأصالته على ما يبدو.

لقد تم تحليله من قبل آنا فرويد، وجلس بقاعة الانتظار نفسها كطالب لفرويد. وكانت تؤخر موعد مرضاها خمس دقائق عن مواعيد والدها مع مرضاه، لذلك أراد إريكسون من خلال انتظاره لفرويد أن ينحني إجلالًا لا فقط لمريضه الخاص ولكن لآنا فرويد أيضًا. وبعد برهة أتت مدبّرة المنزل بولا فيشتل لتعلن أن السيدة فرويد جاهزة. وكان إريكسون يحصل على سبعة دولارات في الشهر فقط لقاء تحليله. كان إريكسون يعلم أنه مَدينٌ لآنا، لكنه كان يعتقد أنها لن تغفر له أبدًا تخلّيه عن تحليل الأطفال الذي تدرَّب عليه. ومع ذلك كان مرحبًا به كعضو جديد في الحركة. وعندما ذهب فرويد إلى برلين لزرع فك اصطناعي جديد وأرادت آنا مرافقته، عرضت على مريضها الإقامة بمنزل أخيها إرنست ببرلين.

وكوالدها كانت آنا تميل لتحمي نفسها من عدواتها عبر اعتبار بعض الأفكار «غريبة»، وكانت غالبًا ما تردد بأن كثيرًا من أعمال إريكسون تستعصي على فهمها. ومع ذلك، أهداها إريكسون أحد كتبه.

في السنوات الأخيرة من حياته، تضاعف عدد تلاميذ فرويد الذين سخروا أنفسهم لخدمته من ذلك أن إريكسون اشتغل كسائق لفرويد في سيارة دوروثي بيرلنغهام لأربع ساعات، وذات مرة انهمرت الدموع من عيني فرويد على خدّيه ولم يكن ذلك بسب نحيب وإنما نتيجة ضغط الفك الاصطناعي على القنوات الدمعية[1].

وجد إريكسون جوّ جمعية فيينا خانقًا، وذلك لأن هيمنة النساء على مجال تحليل

الأطفال جعلت من الصعب على الرجل أن يجد غرفة ليختلي فيها بنفسه. تضمّنت ملاحظات إريكسون حول الأطفال نوعًا من الاعتراضات التي من شأنها أن تزعج أيّ باحث يحترم نفسه. وكتب مقالة عن لعب الأطفال قيل إنها، على ما يبدو، لم تخرج عن تصورات ميلاني كلاين. وعلّق لاحقًا على «المحافظة المتزايدة وخاصة الحظر واسع الانتشار لبعض الاتجاهات الفكرية. ويهم ذلك أساسًا أيّ فكرة قد تذكرنا بالانحرافات التي ارتكبها أشد مساعدي فرويد قربًا إليه وألمعهم...». أما بالنسبة لأولئك الذين يحيطون بآنا فرويد، فهم، على ما يبدو، مثل كلاين سيّئين على غرار أدلر أو يونغ. شجعت جوان إريكسون زوجها على مغادرة فيينا في أقرب فرصة «إن فكرة تغيير الأجواء والاستقلالية منعشة على ما يبدو»[2].

تخرَّج إريكسون من معهد فيينا في عام 1933، وأصبح عضوًا كاملًا في جمعيتها للتحليل النفسي، وعندما بات أمر مغادرته معروفًا، أوصت عليه آنا فرويد في الخارج في غضون ستة أشهر كمحلّل متدرِّب. لقد حاول أولًا ممارسة التحليل النفسي في الدنمارك، ولكن حصوله على الجنسية الدنماركية قد يحتاج إلى سنين بينما كان يتوجّب عليه آنذاك أن يفوز بلقمة عيشه[3]. ثم قرر أن يهاجر إلى الولايات المتحدة، وقد استاء الأميركان مع ذلك، إلى حد ما، من أن الفيينّيين أقرّوا بكفاءة إريكسون كمدرب تحليل بمجرد انتهائه من تدريبه[4]. وساد انطباع عندما قدم إلى هناك «لتصدير السلعة» بأن معايير الفيينّيين تختلف عن معايير جمعيتهم وأن الموقف «الجيّد بما فيه الكفاية من الأميركان» قد ميّز في الحقيقة منهج الفيينّيين. ورغم ذلك كان إريكسون حقًّا أفضل من أي أحد آخر بالنسبة للأميركان. التقى إريكسون بريل في نيويورك، لكن بريل لم يُعجب به كثيرًا[5]، شجّع هانز ساكس إريكسون على الاستقرار في بوسطن، حيث عمل أولًا بعيادة هنري موراي للتحليل النفسي في هارفارد.

كان صعود إريكسون صاروخيًّا، وبمجرد أن غادر فيينا صار حرًّا في اتخاذ ما يراه صالحًا بالنسبة إليه. ولا بد لكل تلميذ من تلاميذ فرويد، أو حتى بعيد مثل إريكسون، يترك فرويد ويعارضه، رغم صعوبة المهمة، أن يتحمّل وزر الشعور بالذنب. ويمكن لمحلّل نفسي لم ينخرط أبدًا في حلقة فيينا أن يتمتع بحرية أكثر في أن يسلك وفق طريقته الخاصة غير معني بالصراعات التي مزّقت منخرطيها حول مدى إخلاص هذا العضو أو ذاك من عدمه. وخلافا لألكسندر، لم يكن إريكسون مفكرًا مهمًّا بالنسبة لفرويد، وفي حين كان

لألكسندر أثر بالغ في الممارسة الإكلينيكية في أميركا الشمالية، كان لإريكسون تأثيره في عموم القراء.

وشأنه في ذلك شأن مفهوم أدلر للشعور بالنقص، منح مفهوم إريكسون للهوية، الناس اسمًا للإحساس بما هو مهم بالنسبة إليهم، اعتبر محللون آخرون، مثل توسك وفيديرن، الهوية كمكون من مكونات سيكولوجيا الأنا. وكان واضحًا من موقف فرويد من عملهما كم كانت الفكرة تبدو غريبة بالنسبة إليه. ومع ذلك، أراد إريكسون من خلال اعتماد هذا المفهوم في عمله أن يستشهد بشكل متكرر بخطاب فرويد لـ«بناي بريث» حيث تحدث فيه عن «هويته الذاتية» كيهودي. ولم تكن لهذا المقال أيّ أهمية تذكر في تشريع فرويد. وقد اعتبر أنه من الصعب تتبع معضلات الهوية كما صاغها إريكسون على الأقل كما فعلت ابنته. ومع ذلك كان إريكسون في حاجة ملحة إلى التركيز على عدم تمرده تجاه التحليل النفسي الأرثوذوكسي أثناء سعيه إلى التجديد، ورغم أنه شارك العديد أفكار المهرطقين الأوائل، فإن تنامي الحركة الكبير ونجاحها حالا دون حاجة أيّ من روّادها أن يشغل باله بنفيه. وإذ كان يغالي أحيانًا في تمجيد صورة فرويد العامة، فإن إريكسون كان يحاول أن يفرض النهج الذي اتخذه في التحليل النفسي فرضًا لا سبيل لإنكاره. لذلك عندما سئل لو «أن فرويد حيًا هذه الأيام أكان سيعيد صياغة نظريته في الليبيدو حتى تتطابق مع التحوّلات الراهنة في مجالات علم الأحياء والكيمياء الحيوية وعلم وظائف الأعضاء؟»، رد إريكسون «أنا على يقين من ذلك»[6]، أيًا كان إصرار فرويد على استقلاليته.

من بين الوسائل الأساسية التي اعتمدها إريكسون في تعديل نظرية فرويد، مفهوم «قوة الأنا» ورغم أن إريكسون وضع استخدام فرويد لاستعارات تحيل على مجال الطاقة في سياق تاريخي، فقد اضطر هو ذاته إلى الاعتماد على فكرة «القوة» ليبيّن مدى قدرة الأنا على توحيد النقيضين. وقد مكّنت هذه الطريقة إريكسون من قياس الصحة ليس من حيث الأعراض السلبية - على ما يقع فصله والتضحية به في الشخص - بل من خلال المقياس الإيجابي المتعلق بمدى قدرة الشخص على توحيد أكبر عدد ممكن من المتناقضات في ذاته في الوقت نفسه. بناءً على أهمية الوظائف «السامية»، التي تتعارض مع الدوافع الغريزية، شجع إريكسون الطبيب المعالج بأن يفرض عقوبات وأن يتقيّد بالضوابط وأن يدعم. وقد تصدى العديد من المعالجين لطريقة إريكسون هذه لأنه من المغري أن نفكر بأن النجاح العلاجي يتحقق بفضل مهارات وفهم المحلّل وليس بسبب صحة المريض الأصلية.

وفي أواخر عام 1922 كان التحليل النفسي في فيينا يهتم أساسًا بالجنسانية البشرية[7]. وبالرغم من مسؤولية فرويد في إقحام سيكولوجيا الأنا كجزء مشروع في التحليل النفسي وصار عمل ابنته كلاسيكيًا في هذا المجال، فقد ظل معظم المحللين التقليديين يهتمون في المقام الأول بالباثولوجيا، حتى عندما كتب عن سيرورات الأنا(*)، لم يكن إريكسون راضيًا على اعتبار الأنا كوسيط سلبي بين الهو والأنا الأعلى، والعالم الخارجي. كما صُوّر حتى في كتابات فريد اللاحقة. حاول إريكسون رسم دورة تطورية للأنا، تجد أسسها في القوة، مثل مفهوم الليبيدو عند فرويد. رأى البعض في نموذج إريكسون لتطور الشخصية صورة محافظة للإنسان، حتى أنه اعتقد أنه من الضروري لكل فرد أن يمر في حياته بتلك المراحل بحسب الهدف الذي يرسمه لنفسه. لكن المدافعين عن إريكسون رجّحوا أن «الفردية (في رأيه) لا تتطوّر بسلاسة، تراكم النضج والقوة دون انقطاع على صعيد التقدم، إن التطوّر يتم بالأحرى، من صراع إلى صراع، وكل صراع يركز على مشاكل حياتية مختلفة»[9].

وبحكم مزاجه المتناقض فقد نحا إريكسون في الحركة منحى «يساريًا» متطرفًا إلى أقصى حد ممكن ورغم ذلك ظل يُنصت إليه باحترام احتفظ بموقع مؤثر في أوساط المحللين. وقد قيل أيضًا إن إريكسون «يقترح، ويشار، ويلمح. ولأنه كان مهذبًا ولبقًا بشكل منقطع النظير، فقد كانت معظم انتقاداته همسًا بلطف». وخلافًا لفروم المتمرد، فقد كان «اختلاف إريكسون عن حركة التحليل النفسي يكتنفه الغموض»[10]، وكما وضّح موقفه من التقنية، يمكن للمحلّل «أن يتعلم حقًا طريقة واحدة تتناسب مع هويته... لذلك لا تتعلّق المسألة فقط بأيّ طريقة تكون الأنسب للمريض، ولكن أيضًا بأيّ طريقة يشعر المعالج بأنها طريقته هو وأنه قادر على أن يُبدع فيها»[11].

كان هناك متابعون رجّحوا أن إريكسون لم يعد محللًا إنما معالجًا فقط[12]. ورغم تأثير إريكسون الهائل في علم الاجتماع، وخاصة من خلال تطويره لـ«التاريخ النفسي»، لم يتطلّع لتدريب التلاميذ بطريقة ما على خلاف التراتبية التحليلية النفسية التقليدية، ومن ثم لم يلقَ كراهية كتلك التي لقيها إريك فروم، وقد يكون ذلك لأن أعمال إريكسون لم تعد تمثل وجهة نظر فرويد في التحليل النفسي، ولكن ما كتبه إريكسون لا يمكن تصوّره بمعزل عن خلفيته الفرويدية.

(*) أشار فرويد مرة لمؤلفات مجموعة «غوته»، ولاحظ أنه «استخدم كل ذلك كوسائل للإخفاء الذاتي»[8].

إذا كان كل من فروم وإريكسون اهتمّا بمساعدة العامة في التحليل النفسي، فقد كان هاينز هارتمان (1970 ـ 1984) ربما المنظر الرائد ضمن التحليل النفسي الأرثوذوكسي. ورغم أن هارتمان لم يكن يكبر إريكسون كثيرًا، فقد كان في الوقت الذي قدم فيه إريكسون إلى فيينا أكثر رسوخًا حتى أنه بدا بمنزلة أبيه. يمكن أن يكون «أحفاده» في التحليل النفسي، الذين لا صلة لهم به إطلاقًا، أكثر تحررًا من الناحية الفكرية من المحللين الطاعنين في السن.

ورغم أن فروم وهارتمان كانا على طرفي نقيض، وإن كان الأول يبدو ظاهريًا وفيًّا لتعاليم فرويد والثاني يبدو ممتهنًا لها، فإن أعمال كليهما تضمنت القليل جدًّا من التقارير الطبية. وليس في الأمر مفاجأة بالنسبة لفروم الذي يؤثر المنظور السياسي والاجتماعي على الطبي. لكن بالنسبة لمحلِّل يكتب بشكل صريح في تقليد فرويد مثل هارتمان، يبدو مثيرًا للدهشة أن تخلو مقالاته إلا ما ندر من الأمثلة الإكلينيكية، ولقد مضى زمن على موت فرويد الذي كان هارتمان على اتصال به، وقد تأتى تجريد الكثير مما يكتب في التحليل النفسي المعاصر الذي يبدو بعضه كصنف من الميتافيزيقا، من محللين متطابقين مع فرويد المنعزل الذي حاول في سنواته الأخيرة أن يوطد استنتاجاته للمستقبل. وكلما تهاوى فرويد جسديًّا، كلما وثق بأنه يمكنه استخلاص مجموعة من الاستنتاجات العلمية.

احتاج فرويد في أيامه الأولى إلى متابع لتأكيد أفكاره، إلا أن ذلك لم يعد ضروريًّا خلال عشرينيات القرن العشرين، وكان هارتمان قد التحق به عندها. غير أن ذلك كان متأخرًا جدًّا بما حال دون تصنيفه كابن وفق الصورة التي رسمها فرويد في ذهنه عندما «تبنّى» يونغ. ومع ذلك، كان هارتمان على غرار يونغ يمثل عالم الطب النفسي الأكاديمي، وقد استطاع فرويد الملحد أن يحول دون أن يكون التحليل النفسي شأنًا يهوديًّا خالصًا. (كان لهارتمان في الحقيقة حفيد يهودي) بسبب اشتراكه بعيادة الطب النفسي في جامعة فيينا، اشتبه هارتمان في البداية في فرويد، وكان الطاقم هناك في أحسن الأحوال ودودًا وعلى نحو متناقض فقط مع المحللين. وعلاوة على ذلك، كان تفكير هارتمان أكاديميًّا جدًّا بالنسبة لفرويد الذي عرض عليه تحليلًا تدريبيًّا مجانًا.

كان اهتمام هارتمان بالمنهجية أكثر شكلانية من فرويد. فقد أراد هارتمان أن يدرس وظائف تفكير الأنا في أدق تفاصيلها، ورغم أساليبهما المختلفة، يمكن القول إن كلًّا من هارتمان وإريكسون قد كيّفا التحليل النفسي مع «العديد من اكتشافات أعداء فرويد

القدامى، وأولئك الذين رفضوا تأكيدات فرويد على أن الطبيعة البشرية تهيمن عليها الرغبة»[13]. ورغم اعتبار الأنا كمتغير نفسي غير مستقل، تحدث هارتمان عن استقلالية سيرورة الأنا عن الصراع الداخلي للنفس. «وكما أن فكرة الصراع هي الفكرة المركزية في أعمال فرويد، فإن فكرة التكيّف هي الفكرة المركزية في أعمال هارتمان»[14].

حاول هارتمان مثل إريكسون أن يُثبت أن وجهة نظره حاضرة ضمنيًّا في طريقة نظره للأمور. قد يعتقد المرء، مع ذلك، أن التأكيد على خلو مجال الأنا من الصراعات، أو الأنا المستقلة، اختلاف برائي عن اهتمام فرويد بالتقسيم النفسي. وبيّن هارتمان أن ما حدث على مدار سنوات هو أن إحدى وظائف الأنا فقط، وظيفة الدفاع، صارت الأكثر أهمية على حساب بقية الوظائف كالإدراك والانتباه والحكم، وما شابه ذلك، وبالتالي فرض ضغط مصطنع وغير متوازن في التحليل النفسي على الباثولوجيا بوصفها على طرفي نقيض مع علم النفس العادي. ومع ذلك كتب فرويد في عام 1932: «من المستحيل بالنسبة لي أن أحتفظ بهذه البداية الأولى لسيكولوجيا الأنا التي استعدتها من جديد، وإذا احتفظت بها خمس عشرة سنة أخرى فيتحتّم عليّ عندئذ أن أنسبها إليك»[15]. وسواء كانت أعمال هارتمان أو لم تكن[16] «ثابتة»، كما افترض غلوفر، «حيث تتجه ممارسة الأريكة رأسًا نحو الامتداد النظري لتكيّف الأنا»[17]، فقد كان فرويد على حق، إذ توقّع أنه «سيكون من الصعب، بالنسبة لسيكولوجيا الأنا، التهرّب مما هو مُعترف به عالميًّا، ذلك أن المسألة ستتعلق بالأحرى بطرق جديدة للنظر للأمور وطرق جديدة لترتيبها لا باكتشافات جديدة»[18].

وبوصفه رئيس وزراء أميركا للتحليل النفسي، أدار هارتمان الأمور، تحت رعاية آنا فرويد، كما يعتقد أن التحليل النفسي سيظل أسرة، ونشر بالاشتراك مع إرنست كريس ورودولف لوينشتاين، وهذه الحكومة الثلاثية هي على الأرجح المصدر الأكثر موثوقية في خصوص الأفكار التحليلية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. ومن خلال أعمالهم صار التحليل النفسي جزءًا من الحياة الأكاديمية، لا فقط في المدارس الطبية ولكن أيضًا في أقسام علم النفس. وعلى الأرجح كان هارتمان يعلم إلى أيّ مدى قادت عبقرية فرويد تلاميذه المميزين، كما كان يدرك ما يعنيه ذلك بالنسبة لمستقبل الإبداع الفكري في التحليل النفسي. ولقد أشار إلى تأثير العبقرية المثبط للعزائم على الأشخاص المقربين منه، ويعتقد أن هذا أحد الوجوه الرئيسة في تاريخ التحليل النفسي[19].

يعود نجاح فرويد بقدر كبير إلى اعتناق أتباعه لمذهبه الجديد ولكتاباته. ومن البديهي أن يساعد بقاؤهم بالقرب من بعضهم البعض على أن يتبادلوا الاقتباس أكثر من اللازم، وكانوا يقبلون على أعمال فرويد مفعمين بروح التأويل، وبتقديرهم المبالغ فيه لتميز نهج فرويد عن نهج تلميذه المنشق ضيّقوا عليه الخناق. وبوجه عام فقد نجحوا في قطع الطريق أمام النزاعات المذهبية، وحتى لو أن التقنية العلاجية التي دعوا إليها قد لا تكون هي التي مارسها فرويد نفسه، فقد تمكنوا من توسيع نطاق الحالات التي كان يعتقد أنها في متناول العلاج التحليلي النفسي. فما زال مبكر جدًّا تقييم مدى غنى الإرث الفرويدي، لكن أن يكون مصدر إلهام لأشخاص كإريكسون أو فروم فذلك دَين أبديّ في عنقيهما، ومع ذلك، لا هذا ولا ذاك انطلق من فرضية أن المرء لا يصبح عالم نفس متمكنًا إلا إذا نهل من فرويد.

4 - هوية أوسع نطاقًا

أصبحت الكتابة حول فرويد في حد ذاتها صناعة صغيرة. لم يتوقف علم النفس الذي أبدعه عن التأثير، وقد يكون ساعد في تفسير هذا النوع من العُقد التي سيطرت على الأشخاص حتى في حياته. وظل واحد من أبناء أخيه يناديه بلقب «البروفيسور» بعد وفاته بسنين طويلة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مما ميّز علاقته بأعضاء أسرته الخاصة من رعب وتباعد.

وخلال 1914 «قورن فرويد بداروين وكبلر»، وفي عام 1924 أضيف إليهما اسم كولومبوس أيضًا[1]. كان «داروين العظيم»[2] مثلًا أعلى لفرويد لأمد طويل، وقد سعد إذ قورنت معارضة التحليل النفسي بالمجهودات العظيمة السابقة للبشرية للحفاظ على معنى أهمية الذات.

> **على مرّ القرون تعرّضت نرجسية البشر إلى صفعتين رئيسيتين عن طريق العلم. الأولى، عندما تبيّنوا أن أرضنا ليست مركز الكون، وإنما مجرد جزء صغير من النظام الكوني بالكاد نتخيّل اتساعه.**

وأما الثانية، عندما دمرت البحوث البيولوجية مكانة الإنسان المتميزة بالمفترضة بين المخلوقات وأثبتت أنه منحدر من مملكة الحيوان وطبيعته الحيوانية لا يمكن استئصالها. وتعزى هذه «الثورة» إلى داروين ووالاس و«أسلافهما».

لكن هوس البشرية بالعظمة سيشهد صفعة ثالثة وهي الأكثر خدشًا للكبرياء تلك التي أقدمت عليها البحوث النفسية في الزمن الحاضر حيث تسعى لإثبات أن الأنا ليس سيّدًا حتى في بيته، وأنه يجهل الكثير عما يجري في ذهنه بصفة لا واعية»[3].

بعد ذلك بوقت قصير، قارن فرويد عمله بعمل داروين وكوبرنيكوس، رغم أن الوقت الذي أعلن فيه هذه المماثلة (أثناء الحرب العالمية الأولى) لم يكن مناسبًا، إذ أن العديد من الملاحظين المستقلين اعتبروا أن ما أقدم عليها بمنزلة زلزال كما توقع[4].

بمناسبة واحد من أعياد ميلاد فرويد طلبت زوجة ابنه كعكة من خبّاز مشهور بفيينا الذي صوّر كُتبًا لفرويد لتُقرأ في مختلف البلدان حول العالم، وفي ذلك استحضار لغايات فرويد وإحساسه بنفسه. لقد استاء من عدم حصوله على جائزة نوبل، مخفيًا خيبة أمله الحقيقية بالتفكير بأن «ما كان يعنيه فقط هو المال...»[5]. وأثناء ذلك، كتب فرويد دراسة حول سيرته الذاتية عام 1924، وقد تماهت تمامًا في ذهنه حياته الخاصة والتحليل النفسي حتى أن سيرته الذاتية أصبحت بمنزلة تاريخ الحركة.

كان التزام فرويد نحو التحليل النفسي مطلقًا، وهذه الرهبة الملهمة لرؤية «رجل نذر حياته في سبيل فكرة»[6]. فمنذ أن اعتبر فرويد أن «قَدَرَه»[7] أن يكون محللًا نفسيًا، كان محظوظًا أن يتحدّث مع أحد أتباعه الموهوبين ما كان يريد أن يقوله دائمًا عن التحليل النفسي. وقد ارتفعت وتيرة هذا الافتتان، الذي سيطر على اهتمامات فرويد الأخرى، على مر السنين. لكن حتى في عام 1909 كان متفانيًا جدًّا في عمله كقضاء ليلة رأس السنة في كتابة رسائل لتلاميذه بالخارج. وجاء في ملحق لسيرته الذاتية عام 1935 قوله:

«سوف نتناول موضوعين خلال هذه الصفحات: قصة حياتي وقصة التحليل النفسي. إنهما يتشابكان تشابكًا وثيقًا. تظهر تلك الدراسة حول السيرة الذاتية كيف أن التحليل النفسي صار يشغل حياتي بأسرها ويفترض بحق ألا تكون تجارب شخصية في أيّ شأن آخر مقارنة بارتباطاتي بهذا العلم»[8].

كانت هوية فرويد منصهرة في التحليل النفسي حتى إن كل ما كان يقوم به تقريبًا كجزء من ممارسته صار، بطريقة ما، تحليليًّا نفسيًّا. لقد تنامى لديه الشعور بالعظمة شيئًا فشيئًا في ما يتعلق بطبيعة واستخدامات استنتاجاته. وكتب قبل وفاته ببضع سنين:

«يتراءى لي بوضوح أكثر من أي وقت مضى أن أحداث التاريخ البشري، التفاعلات بين الطبيعة البشرية والتطورات الحضارية ورواسب التجربة البدائية (أبرزها الدين)

ليست إلا انعكاسًا للصراعات الديناميكية بين الأنا والهو والأنا الأعلى حيث أثبتت الدراسات التحليلية النفسية للفرد أن العملية ذاتها تتكرر على نطاق واسع»[9].

كان يؤكد طموحاته العلمية أكثر وأكثر، حتى أنه أصر على أن «الإعداد الوحيد المناسب لمهمة المعلم يتم من خلال التدريب على التحليل النفسي»[10].

وقبيل أن تتوفر لفرويد الفرصة ليكتسب شهرة عالمية بعد الحرب العالمية الأولى، أصيب بالسرطان. ومنذ ذلك الحين لم تتراجع نشاطاته الجسدية فقط بل إنه لم يعد قادرًا حتى على الصعيد الفكري على تحمل أعباء مصادره كما كان يفعل سابقًا. عندما كان في أيام شبابه، حيث كان يقوى على العمل بشكل أفضل، لم يعترف العالم الخارجي بعمله بشكل مناسب، ولم تؤكد له تجربته بعد السرطان سوى ازدرائه للقبول الخارجي: كلما تراجعت قوته، أشاد العالم بعبقريته.

ومنذ وفاة فرويد تخلدت في ذهن رواد حركة التحليل النفسي بعض أقواله في أواخر أيام في حياته. عندما فر فرويد من فيينا في عام 1938 واستقر في حي جديد في لندن، كتب ببعض السخرية اللاذعة يقول «إن للمحيطين الجدد (الذين يضطرون المرء لأن يصرخ «يحيا هتلر!») سحرًا ....»[11]. عندما زاره النازيون في شقته في فيينا، على ما في ذلك من تهديد لسلامته، قال فرويد باقتضاب: «لم أحظَ أبدًا بمثل هذه الزيارة كثيرًا»[12]. وظل فرويد فكهًا، حتى في مواجهة هيجان النازية، فقد قال إنه لا ينبغي لإرنست كريس أن يكتب له بطريقة مشفرة، وإلا عليه أن يعطي رسائله للبوليس النازي السري حتى يفكوا تشفيرها[13]. وفي وقت سابق، عندما عرض الديمقراطيون الاجتماعيون، بالنيابة عن البلدية، التبرع بقطعة أرض على البرجاس لمعهد التحليل النفسي، لم يكن فرويد يملك المال الكافي لاستكمال المشروع، وقال إن كل همّه هو شراء زي ليديرهوسن، فكل ما يملك من ثوب لا يتجاوز الركبتين[14].

ما أراد أن يقوله فرويد في سنواته الأخيرة لم يكن بارزًا بالشكل المناسب من قبل، ولكن حتى ذلك الحين لم يكن يُعامل بشكل كبير كحكيم تستحق كل أفكاره أن نتدبرها بترو، كان وضع فرويد معترفًا به بطبيعة الحال داخل حلقته لفترة طويلة، لكن فرويد شعر بالتضييق والتقييد من بيئته فسعى للحصول على هوية في مجتمع أوسع. لم تكن بيئته بشكل عام تتسع له بما فيه الكفاية. لقد أراد أن يدفع التحليل النفسي في اتجاه استقلاليته في ترويج الأفكار، لكن المؤسسة لا توفر المال أبدًا، رغم أن كتاباته كانت مربحة. وكل

ما كان يكسبه من كتاباته كان يستثمر في دعم أعمال محللين آخرين، فعادة ما كان الكتّاب يطلبون مساعدة لتمويل كتبهم.

ومع نهاية حياته، كانت لفرويد علاقة شخصية بالشخصيات الأدبية مثل توماس مان وستيفان زويغ ورومان رولاند، وكان هو نفسه رجلًا أوروبيًا متخصصًا في الرسائل. لاحظ الروائي أرنولد زويغ في رسالة إلى فرويد يقول: «أن تعتقد إنك يجب أن تخلق جمهورًا لنفسك، أنت الذي سيكون عليه أن يختم هذه الحقبة بأسرها من خلال الحقيقة ذاتها التي عايشتها بنفسك»[15]. وكتب فرويد مفاخرًا إلى ستيفان زويغ «...في الحقيقة، إن ما قرأته في علم الآثار أكثر مما قرأته في علم النفس....»[16]. أعجب فرويد بتوماس مان، رغم إحساسه بأنه غريب عنه بسبب عادات الروائي الألمانية الشمالية[17]، كتب مان بعض المقالات يُشيد فيها بفرويد معتبرًا إياه جزءًا من الفكر الأوروبي، لكن كما أحب فرويد الفنانين والروائيين كثيرًا، فإنه كان يخشى من يُصنِّفون أعماله في مرتبة أقل من مرتبة العلوم الصحيحة.

في عام 1910 كتب فرويد مقالًا رائعًا عن ليوناردو، صوّر فيه الصراع بين الفنان والعالم في شخص عظيم، وحسب رواية فرويد، العالم هو الذي سينتصر في النهاية. ومع كل إعجابه بما يراه الفنان بشكل حدسي، شكك فرويد في ملكاته الخيالية. وفي دراسات حول الهستيريا توقف ليعلق: «إن ما يثيرني دائمًا أنا نفسي كشيء غريب هو أن التقارير الطبية التي كتبتها يجب أن تُقرأ مثل القصص القصيرة وذلك، كما قد يقال، ينقصها الطابع الجدي للعلم»[18]. وحين تقدّمت السن بفرويد، تغلب فيه العالم على الفنان، لذلك مع 1926 احتج قائلًا «لا تحاول أن تعطيني أدبًا عوضًا عن العلم»[19]. وبعد إصابة فرويد بالسرطان بدأت الطبيعة البشرية تموت بداخله، وقد حاول أن يتخذ موطئ قدم أكثر فأكثر على الأرض المحايدة للعلم.

لكن أتباع فرويد رأوا فيه إنسانًا بسيطًا خجولًا لا يتعمّد أن يُحيط نفسه بهالة من العظمة، فالإعجاب يحرجه أحيانًا، وبساطته الفريدة يمكن لمعارضيه أن يفهموها خطأ. وإذ يُضخّم من ذاته حيث يعتبر نفسه على خط كوبرنيكوس وداروين، فإنه بذلك قد يقلل من قيمة أفكاره. ولم تنتصر نظريته الثنائية حول غريزتي الحياة والموت على جميع المحللين، ولكن يقول فرويد:

«كنت الأسعد من بين الجميع منذ وقت ليس ببعيد عندما اكتشفت نظريتي هذه في

كتابات واحد من عظماء المفكرين اليونانيين القدامى. أنا على استعداد تمامًا لأن أتنازل عن أصالة ما توصل إليه على ما بلغه من شهرة في سبيل تأكيد ذلك....»[20].

ذكر تلاميذ فرويد بأنهم لاحظوا تواضعه في أوقات عديدة، لقد حاول تجنّب لعب دور العرّاف أو الساحر، ولقد تساءل بصوت عال ما عساه أن يتحمّل من أجل التحليل النفسي: «ما عساهم أن يفعلوا بنظريتي بعد موتي؟ هل تراها ستشبه أفكاري الأساسية؟»، ولكن كما لاحظت ماريز شوسي، «إن قلقًا من هذا النوع كان عادة من شأن عظماء الكتّاب والفنانين، وليس أبدًا من شأن العلماء»[21]. وفي بعض الأحيان، كان فرويد يبدو أكثر نكرانًا للذات وحذرًا بشأن أعماله بحيث يصعب التوفيق بين مزاجه ذاك وبين جدالاته ضد خصومه، وقد كتب في عام 1924:

«إذا عدنا إلى الوراء، ثم، على مدى مراحل حياتي وما بذلته فيها من جهود في أنحاء شتى، يمكنني القول بأنني هيأت لنفسي الكثير من البدايات وضربت عرض الحائط الكثير من المقترحات. سينكشف شيئًا منها في المستقبل، ولو أني أنا نفسي لا أستطيع أن أتوقع ما إذا كان ذلك كثيرًا أم قليلًا، ومع ذلك يمكنني أن أعبّر عن الأمل بأني فتحت الطريق أمام تقدّم مهم في مجال معرفتنا»[22].

حتى في السنوات الأخيرة من حياته ظل فرويد يتجوّل في اتجاهات غير متوقعة. وقطعًا أثّر مرضه سلبًا على توازنه الذهني، وما اجتمع فيه على نحو المخصوص من مهارة نظرية وملاحظة إكلينيكية، وقد كتب فرويد في عام 1935 عن تأثير مرضه عليه قائلًا:

«أعترف بأن تحولًا مهمًّا قد حصل. لقد كانت المواضيع التي أثرتها على امتداد مسار تطور أفكاري متشابكة في ما بينها، أما الآن فقد بدأت تنفصل، لقد تراجعت اهتماماتي السابقة في الجزء الأخير من حياتي، في حين أكّد كبار السن والأصيلين تميّزهم مرة أخرى»[23].

لقد احتج في وقت سابق «على أن يُتهم المؤمنون وحدهم، الذين يطالبون بأن على العلم أن يحلّ محل الدين المسيحي الذي تخلوا كل باحث يسعى إلى أن يطوّر آرائه أو حتى يُغيّرها»[24].

اتسعت اهتمامات فرويد الفكرية لتشمل تصورًا أوسع نطاقًا لسيكولوجيا الأنا ومعالجة أكثر شمولًا لدور القوى الاجتماعية. ويمكن أن نؤرّخ للمحلّلين انطلاقًا من الأفكار الموجودة أثناء قدومهم إلى التحليل النفسي، وليس غريبًا أن هذين الاتجاهين ـ الأنا

والمجتمع ـ اللذين شهدتهما السنوات الأخيرة من حياة فرويد قد هيمنا كثيرًا على أدب التحليل منذ وفاة فرويد. ومع بداية الحرب العالمية الأولى، تساءل فرويد عن المستقبل «عما إذا لم يكن بالإمكان أن نعطي الحق للدور الذي تلعبه الأنا في الحالات العصابية وفي تكوين الأعراض دون أن نهمل في الآن ذاته وعلى نحو فادح العوامل التي يُكشف عنها بواسطة التحليل النفسي»[25]. ورغم ذلك لم يقع الاهتمام بسيكولوجيا الأنا إلا في عشرينيات القرن العشرين مع المنشقين ـ أدلر على وجه الخصوص ـ بينما تمسّك فرويد بشدة بعملية الكبت والمكبوت.

تمثّل سيكولوجيا الأنا طريقة في تضمين نظرة فرويد للتلاميذ «المنشقّين» في التحليل النفسي، بينما كان يحاول الاحتفاظ بتأكيده على سلطة الحياة الغريزية البشرية. فمن الصعب في التحليل النفسي تقييم تغيّر المزاج الذي تسببه سيكولوجيا الأنا، بما أن إسهامات فرويد في هذا المجال تشي بذلك. ويرى فرويد أن القلق بمنزلة إشارة تدل على وجود خطر يتهدد الأنا، إنه حافز للدفاع، وليس كما في نظريته الأولى، ليبيدو ارتكاسي ومتحوّل.

لم يسعد فرويد تمامًا بشأن كتاباته الأخيرة، فقد وصفها مرة بأنها تُعبِّر عن «مرحلة من مراحل النكوص»[26]. وقال: «لاحظت لفترة وجيزة أن عليّ أن أغادر الملاذ الآمن للتجربة المباشرة للتأمل. وإني لنادم على ذلك كثيرًا، لأن تبعات ما أقدمت عليه لم تكن في ما يبدو الأفضل»[27]. لم يكتب فرويد أبدًا أي تقرير طبي آخر منذ أن أصيب بالسرطان أول مرة، بيد أنه اشترك في دراسة مع وودرو ويلسون وألّف كتابًا حول موسى كما جاء في التوراة. وما أسماه «الميتابسيكولوجيا» يُعبّر عن الجانب الفلسفي في كتاباته، وكان ذلك أعظم انتشار لأفكاره التي تخلى عنها هو نفسه في سنواته الأخيرة. وفي الآن ذاته عكست كتاباته بعد 1923 أيضًا انقطاعه عن العلاقات الإنسانية.

افترض فرويد أن ميّزة الأنا الفارقة تتمثل في «ميله إلى التأليف في مضامينه»[28]. ومهمة الأنا أن يتحكم في الطاقات الغريزية ويوجهها كما يفعل الفارس مع الحصان، وأن على الأنا أن يخدم ثلاثة «أسياد مستبدين في آن، هم العالم الخارجي والأنا الأعلى والهو»[29]، وخلافًا للأنا التي يقول بها علماء النفس لاحقًا مثل هارتمان وإريكسون، لم يذهب فرويد نفسه أبعد من الافتراض بأن لوظائف الأنا دور مستقل، وفي النهاية أكد على أهمية تقلّبات صراع الرغبات. «إن الأنا، بالنسبة لفرويد، شيء سطحي فعلًا بينما الهو شيء أعمق». لذلك افترض أن «الأجزاء الكبيرة للأنا يمكن أن تقبع دائمًا في اللاوعي»[30]. ولم يكن

مرتاحًا في مناقشته لمفهومه عن الأنا الأعلى:

«إذا كنا نمتلك تطبيقات أكثر من هذا النوع، قد تفقد فرضية الأنا الأعلى اللمسة الأخيرة لقوّتها بالنسبة إلينا، ويتعيّن علينا أن نتحرّر تمامًا من الإزعاج الذي ما زال يسيطر علينا عندما نتحوّل، وقد تعوّدنا على أجواء عالم الرذيلة والإجرام، إلى مستويات العقل العليا الأكثر سطحية. إننا لا نفترض، بالطبع، أنه بالانفصال عن الأنا الأعلى نكون قد قلنا كلمتنا الأخيرة في سيكولوجيا الأنا»[31].

وقد ذكر مرضى فرويد الأوائل أنه لم يكن يهتم البتة بالسياسة وعلم الأخلاق أو فلسفة الحياة. ورغم أنه استمر بممارساته الإكلينيكية حتى وقت قصير قبل وفاته، وانخرط في التأمل الاجتماعي (كما في الطوطم والتابو) قبل مرضه بمدة طويلة، فقد كان في سنواته الأخيرة يميل لاتخاذ وجهة نظر مجردة من الشخصية البشرية، كموضوع للفحص بدلًا من المعالجة، كما ولّى اهتمامه نحو الفلسفة الاجتماعية بدلًا من علم النفس. شعر فرويد بالحاجة إلى سدّ ثغرات أعماله السابقة، خاصة في ما يتعلق بالإيمان الديني. ورغم كل احتجاجاته على المغاير، كان يتمتع بحسّ فني وتأليفي بداخله، ولكن باسم الحقيقة العلمية رفض الدين بوصفه مجرد وهم.

لطالما اعتقد فرويد أن «المجتمع قام على مشاعر المثليّة الجنسيّة المتسامية»[32]، كما كتب ذات مرة، «لقد قامت حضارتنا برمتها على حساب الجنسانية...»[33]. فأن تكون متحضّرًا يعني أن تكون مكبوتًا وذا رغبة جنسية محدودة، إذن فالحضارة قامت على حساب الفرد. شارك فرويد حلم الآخرين الذين ينحدرون من الطبقات الدنيا، وغير المتعلمين، الذين يتمتعون بحرية التعبير الجنسي: «من بين الأجناس ذات المستوى المتدني من الحضارة، ومن بين أدنى الطبقات من الأجناس المتحضرة، تبدو جنسانية الأطفال قد حظيت بعهد حر»[34]. وفي نهاية حياته انغمس فرويد في العلوم الثقافية، لا على أساس أبحاثه الأصلية ولكن من خلال قراءته للآداب الجميلة. لم يتخل عن الطب تمامًا بشكل فجائي، ولكن تم ذلك بصفة تدريجية. وكما جاء على لسانه في عام 1935 «بعدما تنقلت طوال حياتي بين العلوم الطبيعية والطب والعلاج النفسي، عاودت الاهتمام بالمسائل الثقافية التي طالما استهوتني في ما مضى، قبل أن أبلغ سنًّا تسمح لي بالخوض فيها»[35].

اشتغل فرويد في كتاب «الطوطم والتابو» كما في كتاب «مستقبل الوهم»، على ما شغف

به بوصفه «حلًا لمشكلة الدين»[36]. كان تطبيق طريقته التحليلية النفسية «غير محدود بأي حال من الأحوال»، فقد استفاد منها «في مجال الاضطرابات النفسية، وكذلك في حل مشكلات الفن والفلسفة والدين»[37]، وقد اعتبر فرويد علم الاجتماع مجرد فرع من علم النفس: «بالنسبة لعلم الاجتماع، التعامل مع سلوك الناس في المجتمع كما يفعل، لا يمكن أن يكون شيئًا آخر غير علم النفس التطبيقي. وبالمعنى الحرفي للكلمة، لا يوجد سوى علمين: علم النفس، محض وتطبيقي، والعلم الطبيعي»[38]. وفي ذهن فرويد لن يرضى بأقل من «الجنس البشري برمته»[39] كمرضى عنده. ولنا أن نتذكر أنه هو الذي بخس طموحات يونغ المصيرية أثناء الحرب العالمية الأولى. لكن مع عام 1924 اعتبر فرويد:

«إن التحليل النفسي بوصفه «علم النفس الأعماق»، نظريةِ اللاوعي العقلي، وقد يصبح لا غنى عنه في كل العلوم التي تهتم بتقييم الحضارة البشرية ومؤسساته الأساسية مثل الفن والدين والنظام الاجتماعي، وليس استخدام التحليل النفسي لعلاج العصاب سوى واحد من بين تطبيقاته، وربما يكشف المستقبل أنه ليس الأهم»[40].

ورغم الأسس التي اختلف عليها فرويد سابقًا مع أدلر، فقد اعتقد في عام 1926 أنه «ليس ثمة ما يدعو للاستغراب بأن التحليل النفسي، من حيث هو في الأصل ليس أكثر من محاولة لتفسير الظواهر المرضية العقلية، أن يتطوّر إلى علم نفس يُعنى بالحياة العقلية السويّة»[41]. ولكن مع الحذر المتزايد بشأن الإنجازات العلاجية والجرأة في استخدام المعارف الإكلينيكية في النظرية الاجتماعية، كان فرويد تقريبًا ملتزمًا على نحو مبالغ فيه بالنهج العقلاني للعلم:

«تكشف ألغاز الكون عن نفسها شيئًا فشيئًا فقط في مجال بحثنا، هناك عدة أسئلة ليس في مقدور العلم اليوم أن يُجيب عنها. لكن التقصّي العلمي هو الطريق الوحيد الذي يمكنه أن يقودنا لمعرفة الحقيقة خارج ذواتنا. من الوهم توقّع أيّ شيء من الحدس والاستبطان، لا يمكن لهما أن يقدما لنا شيئًا سوى التفاصيل التي تتعلق بحياتنا العقلية، والتي يصعب تفسيرها، وليس بإمكانهما أبدًا أن يقدّما لنا أيّة معلومة عن الأسئلة التي لا تجد المذاهب الدينية عناءً في الإجابة عنها»[42].

إن الاعتماد على العلم هو أساس تفاؤل فرويد حول مستقبل الإنسان. وكان أرنولد زويغ على حق إذ تكهن بأهداف فرويد الحقيقية عندما كتب له «إن التحليل النفسي قلب

جميع القيم، لقد غزا المسيحية، بكشفه عن المسيح الدجّال الحقيقي، وحرَّر روح الحياة المتجددة من الزهد المثالي»[43]، وقد انتقد فرويد بشكل خاص المسيحية، لأنه يعتقد أنه «ليس كل الأشخاص يستحقون الحب»[44]. لقد أمل في «قادة متفوقين وأوفياء ونزهاء همّهم تعليم الأجيال القادمة»[45]. لقد قامت الحضارة على الصراع بين غريزتي الحياة والموت، وكان النظام مقوِّمًا جوهريًّا بالنسبة للإنسان بوصفه كائنًا اجتماعيًّا: كما جاء على لسان فرويد «القانون في الأصل عنف وحشي، وحتى أيامنا هذه لا يمكن له أن يسود دون عنف يسنده»[46].

إن كتاب «موسى والتوحيد» هو الكتاب الذي كرّس له فرويد سنواته الأخيرة، وقد ألّفه بين 1934 و1938. وصاغه على نحو مذهل، وحجة فرويد أنه جاء على غير مهارته البرهانية المعتادة. اعترف فرويد «بوهن قدرته على الإبداع كلما تقدم في السن...»، وكان يعلم أنه تحمّل عبء هذا الكتاب «بجرأة شخص ليس لديه ما يخسره»[47]. لقد خشي من أن نشر الكتاب «ربما يؤدي إلى حظر ممارسة التحليل النفسي»[48]، ولمعرفة مدى هشاشة الأطروحة التي يريد ترسيخها. ولكن ظهور هتلر دفع جيلًا بأكمله من اليهود المتحررين للجهر بيهوديتهم، وفي مرحلة فرويد التأملية سعى إلى (مع انشغاله بغريزة الموت وسيكولوجيا الأنا والفلسفة الاجتماعية) مواجهة أصول مميزات الحضارة اليهودية المتفردة. وخلال فترة الثلاثينيات، لم يستطع فرويد «التخلص من» مشكلة موسى، كما كتب في عام 1934 «هذا الشخص، ظل يلاحقني في كل مكان»[49]، وقد لاحظ فرويد في السنة الموالية: «يكفيني أني أثق في حل المشكلة تلك التي لا تفتأ تراودني طوال حياتي»[50].

في المرحلة الأخيرة من حياته تحوّل شغف فرويد بالأعمال الفنية من اليونانية ـ الرومانية إلى المصرية ـ الصينية ـ الهندية، إلا أن مصر القديمة هي التي شغلت باله طويلًا. فقد وجد فرويد أن «الحياة العقلية لأحد مرضاه تثير الإعجاب على غرار الدين في مصر القديمة، حيث تبدو مبهمة جدًّا بالنسبة إلينا لأنها تحتفظ بالمراحل السابقة لتطوراتها جنبًا إلى جنب مع منتجاتها النهائية...»[51]. ولقد افتتن برحلة نابليون إلى مصر، وحتى نتبيّن الأسباب المتعددة لتماهي فرويد مع شخصية نابليون(*) لا يسعنا إلا العودة إلى

(*) الفصل الثاني، الفقرة الأولى.

تعليقاته في هذا الصدد حيث يقول:

«لقد كان المارق الرائع نابليون، الذي وضع نصب عينيه تحقيق خيالات المراهقة، محظوظًا بشكل لا يُصدّق، وقد منع من أن يقيم أيّ علاقات مع من ليس من أفراد أسرته، ونحت طريقه في الحياة كالماشي أثناء النوم، حتى غرقت سفينته بسبب جنون العظمة، لم يكن عبقريًا أبدًا حتى أنه كان يفتقد القدرة على التمييز تمامًا، فهو رجل تقليدي معادٍ للنبلاء على نحو مطلق، لكنه كان معدمًا إلى أقصى حد»[52].

يتمثل خلاف فرويد المذهل في مؤلفه «موسى والتوحيد» في أن موسى في الأسطورة هو في الواقع يتعلق بشخصين تاريخيين لموسى، الأول، المؤسس الحقيقي للتوحيد، وهو ليس يهوديًا وإنما مصري ارستقراطي. وحسب تأويل فرويد فإن الأول، يفترض أنه زعيم مقتول، طموح و«غضوب»، وكان «غيورًا وصارمًا وقاسيًا» وبالإضافة إلى ذلك، صرح فرويد أن موسى هذا «بطيء في الكلام»[53]، وفي هذه النقطة بالذات يتفق تصوّر فرويد مع التقليد التوراتي، الذي يعتبر أن موسى كان ثقيل اللسان، ويتلعثم في الكلام، وبطبيعة الحال واجه فرويد صعوبات في الكلام بسبب سرطان الفك.

لمّا وجد فرويد نفسه رغمًا عنه من أسرة من بين الخالدين ـ أمثال ليوناردو وغوته ومايكل أنجلو، وآخرين ـ فقد اعتقد أن شكسبير يجب أن يكون ارستقراطيًا، وفي المقابل، لو اعتقد فرويد أن الأسطورة التي جعلت رومولوس «خليفة ووريث القصر الملكي» ثم «إن وُجد مثل هذا الشخص، يجب أن يكون مغامرًا، أصله غير معروف، انتهازي...»[54]. فالأشياء، بالنسبة لفرويد، ليست أبدًا ما تبدو عليه على السطح، وبالتالي فقد جعل من اليهودي موسى، ابن العبيد، لا فقط غير يهودي وإنما أيضًا ارستقراطيًا. ويقينًا «في عقود قليلة، يقول فرويد، سيُمحى اسمي وستُخلَّد آثارنا»، وكما قبل اليهود القانون الذي نقل إليهم بواسطة موسى، فسينصت الآخرون في المستقبل لعقائد فرويد»[55].

حسب إعادة نظر فرويد في أصول التوحيد، فإن أمينوفيس الرابع هو مؤسسه الحقيقي. هذا الفرعون «...قاوم بصلابة خارقة كل إغراءات الفكر السحري... وبحدس يبعث على الدهشة توقّع ما توصلت إليه الاكتشافات العلمية الأخيرة بأن طاقة الإشعاع الشمسي هي مصدر الحياة برمتها...». وإذا كان هذا «هو أول وربما النموذج الأكثر وضوحًا لديانة التوحيد في تاريخ البشرية....»، فإن شعبه آنذاك لم يكن مستعدًا لذلك، وبعد موته «حُظر الاحتفال بذكرى الملك المهرطق». وفي رأي فرويد، «كل رواية يجب أن يكون لها مقدماتها وشروطها المسبقة في ما يتعلق بشيء ما حدث في ما مضى»، لكن

أمينوفيس الرابع، في مذهب الموحدين «استطاع أن يأتي بشيء جديد»[56].

كان موسى الأول من أتباع فرعون المحظور (وبالمثل تحوّل فرويد نفسه إلى أتباعه السويسريين) و«نتيجة لخيبة الأمل والشعور بالوحدة، وجد نفسه مضطرًا للتحوّل إلى أولئك الأجانب (اليهود) حيث سعى معهم للتعويض عن خسائره. لقد اختارهم شعبًا له وحاول أن يحقق فيهم مثله العليا». وحسب يونغ، فإن فرويد المؤسس هو الذي اختار أتباعًا غير يهود، هنا فرويد جرّد اليهود من واحد من قادتهم العظماء عندما افترض أن موسى الذي لم يكن يهوديًا اختار اليهود حتى ينصرون مذهبه. وهذا يُذكّر بموضوع الأولويات القديم الذي لا تخطئه العين البتة:

> **«الفكرة الدينية العظيمة التي دافع عنها الرجل موسى لم تكن، في نظرنا، فكرته هو في الأصل، لقد أخذها عن الملك أخناتون (أمينوفيس). ولا أحد يشك في عظمته بوصفه مؤسسًا للدين، وقد يكون اهتدى إلى ذلك عبر تلميحات وصلت إليه ـ من أنحاء من آسيا قريبة أو نائية ـ بواسطة والدته أو بطرق أخرى، وبذلك يبدو من غير المجدي أن نعزو سمعة يكتسبها شخص إلى فكرة جديدة».**

افترض فرويد أن موسى، مثل فرعونه ـ ومثل الصورة التي يحملها فرويد عن نفسه ـ فشل، إذ «واجه نفس المصير الذي ينتظره جميع المستبدين المستنيرين»[57].

إن قناعته بأن موسى كان مصريًا، إذ تثير «مسألة قومية هذا الرجل العظيم»، حوّلت بطله إلى غريب. وعانى التحليل النفسي من الأنيموس المعادين للألمان في جميع أنحاء أوروبا، بينما لم تكن تعني شيئًا كثيرًا في فيينا إن كان فرويد من أصل يهودي.

ربما تحت تأثير مفكّرين مثل فيلهالم رايش، أصبحت العوامل الاجتماعية تثير حساسية فرويد في أواخر حياته. وقد تهجم في كتابه «موسى والتوحيد» على أولئك الذين يريدون تشويه فهمنا للمسارات التاريخية، وبصفة خاصة الماركسيين. وفي تحليل أسطورة موسى، تعجب فرويد «من استحالة الطعن في تأثير شخص عظيم بمفرده على تاريخ العالم، وأيّ استخفاف بالتنوع الرائع للحياة البشرية إذا اعترفنا فقط بتلك الدوافع التي تنشأ من الحاجات المادية...»، وكما «استطاع هذا الشخص الذي يدعى موسى أن ينشئ اليهود»، اعتقد فرويد أنه هو أيضًا مَن أنشأ التحليل النفسي. استطاع فرويد أن يتماهى مع ما يعتبره «استقلالية واستقلال الشخص العظيم، وعدم اكتراثه للألوهية الذي قد يتحوّل إلى قساوة مزاجه الحانق وعناده»[58].

كما في «جميع مثل هذه التطورات في الذهنية» على غرار التوحيد (يمكن أن نضيف أيضًا التحليل النفسي)، اعتقد فرويد أن المنتمي إليها «يشعر بالاستعلاء على الآخرين الذين يقبعون تحت نير الشهوانية». انبهر فرويد بدين موسى وذلك لأنه «يُدين، على وجه التحديد، السحر والشعوذة بصرامة شديدة». يرفض هذا الدين كل شيء تكرسه الأساطير والسحر والشعوذة، في «تناقض مع الدين الشعبي...». وإذ يحتفظ بموقفه الرصين تجاه الموت، إنما يثبت فرويد «زهد الدين اليهودي القديم في الخلود تمامًا...». ومع ذلك، استمر فرويد في البحث عن الأصول الأخلاقية لعلم النفس، واعتقد أن «أفكار التوحيد الأخلاقية لا يمكن أن تنكر أصولها المتجذرة في الشعور بالذنب الناتج عن العداء المكبوت تجاه الله». وفي هذا الاتجاه، يتفق فرويد مع وجهة نظره الدغمائية التي تعتبر أن «الظاهرة الدينية لا تُفهم إلا من خلال نمط أعراض عصاب الفرد المألوفة بالنسبة إلينا...»(59).

إن كان فرويد أنهى حياته برواية حول قائد سياسي مثل موسى بدلًا من تقرير طبي بشأن مريض أو مقال حول فنان مثل ليوناردو، فإن ذلك يعود في جزء منه إلى طموحه في بداية حياته في أن يكون محاميًا وسياسيًا، ولكن من الواضح أيضًا أنه أرادها ردة فعل على المؤشرات الدالة على دنو المحرقة التي تنتظر يهود أوروبا.

5 - منفى فرويد ووفاته

قاوم فرويد بشدة الاقتراحات بأن يغادر فيينا، بعدما أظهر الكثير من معاداة السامية في حياته، ومع ذلك أنكر خطر ذلك الحقيقي لمّا وقع. وخلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين هرب التلاميذ، الذين كانوا في حاجة ماسة إلى حماية أنفسهم، إلى الخارج بحثًا عن الأمان. وفي هذا الصدد يتذكر هرمان ننبرغ حالة فرويد الذي كان شديد الغضب أثناء غياب ننبرغ في الولايات المتحدة في عام 1932:

«تحدث فرويد لزوجتي، طلب منها أن تكتب لي من أجل العودة إن كنت في حاجة إلى ذلك، وأن أقنع بما عرضته فيينا عليّ. لم يكن يدرك خطورة الوضع. عندما زرت فيينا ثانية في عام 1934، وناشدت فرويد أن يغادر النمسا، لقد حاول بعد ذلك أن يقنعني بأنه لا وجود لخطر حقيقي، لأن الحكومة القائمة في النمسا ستحمي اليهود ولن تستسلم للنازيين. أما بالنسبة إليه كما قال، فرجل طاعن في السن ومريض وفيينا

موطنه الأصلي وفيها أطباؤه والأشخاص الذين يعرفونه والذين هم في حاجه إليه»[1].

عندما ذهب فليكس وهيلين دويتش لتوديع فرويد، قالت زوجة البروفيسور إن مغادرتهما تعكس «روحًا عالية النقاء». وما ميّز موقف الفيينّيين هو تمييزه بين الثقافة النمساوية والألمانية، وبحسب نظرة قديمة، إذا كان الوضع بالنسبة للألمان المتشددين «جدّي لكن محبط»، فإنه بالنسبة للفيينّيين الأكثر تنويرًا، «محبط لكن جدّي».

كان من السهل على فرويد أن يُصدِّق أن الاشتراكية القومية لن تؤثر على النمسا. وعمومًا، كان فرويد يرى نفسه غريبًا عن الألمان(•). وبوصفه يهوديًّا، قطع فرويد علاقاته بالأثرياء الألمان، لأنهم، برأيه، مواطنون يتميزون بالصرامة والقسوة. كان يعتقد أن هتلر «عار على ألمانيا»[3]، وكان ذلك كله عندما تأسّف مارك برونشفيك ذات مرة على غياب البرابرة الذين بثوا روحًا جديدة في حضارة متقهقرة، علق فرويد بأن ذلك يعود أساسًا إلى البروسيين (نسبة إلى سكان بروسيا). (حسب برونشفيك، اعتقد فرويد أن الحرب العالمية الأولى انتهت إلى طريق مسدود)[4]. لقد صار فرويد يكره الألمان، وفي عام 1932 كتب إلى أرنولد زويغ: «يمكنني أن أخفف عنك وطأة الوهم بأن على المرء أن يكون ألمانيًّا. أليس حريّ بنا أن نترك هذه الأمة المنبوذة لأهلها؟»[5]. ولم يمضِ وقت طويل على تولّي النازيين زمام الأمر حتى أُحرقت كتب فرويد في الساحات العامة في برلين.

كان فرويد ساذجًا سياسيًّا(±)، فقد نُقل عنه في ما مضى قوله عن الألمان أن «الأمة التي أنجبت غوته لا يمكن أن تنهار»[8] لكن من السهل، بالعودة إلى الوراء، أن نقلل من صعوبة التأقلم مع هذه الفكرة لا فقط لأن الثورة النازية اكتسحت ألمانيا تقريبًا، ولكن أيضًا لأنها باتت تهدد أوروبا كلها. وتزايد تخوّف فرويد من أن يُترك وحده في فيينا عندما بدأ المحللون يفرّون خوفًا من الخطر النازي. وبعد كل مشاحناته بشأن معاداة أفكاره في فيينا، لم يدرك عشقه لمدينته الأصلية إلا بعد وصوله إلى لندن وفي ذلك قال: «لطالما عشقت السجن الذي أطلق سراحي منه»[9] وحتى النهاية أمل فرويد أن بقاءه في فيينا يمكن أن ينقذ

(•) لكن جاء على لسان فرويد فيما أُقتبس عنه ذات مرة قوله: «لغتي هي الألمانية. ثقافتي وإنجازاتي ألمانية. أنا اعتبر نفسي ألمانيًّا فكريًّا، حتى لاحظت تنامي الآثار السلبية المترتبة عن معاداة السامية في ألمانيا والنمسا الألمانية، ومن ذلك الحين، لم أعد أعتبر نفسي ألمانيًّا، أفضل أن أعتبر نفسي يهوديًّا»[2].

(±) كدليل على سذاجة فرويد السياسية، ذكر مارك برونشفيك أن فرويد كان يصدق كل الروايات عن انحرافات هتلر الجنسية-وبشكل خاص، شعوره بالمتعة عندما تتبول عاهرة في فمه[6]. وقد اعتبرت دراسة نفسية لهتلر لاحقًا أن هذه الرواية حقيقة تاريخية[7].

بعضًا من التحليل النفسي، أو على الأقل مكتبة جمعية التحليل النفسي.

سياسيًّا، كان فرويد كما أشار إلى ذلك، «ليبيراليًّا من المدرسة القديمة»[10]، وهذا يعني أن تعاطفه غريب عن اليسار الشيوعي وعن الفاشية اليمينية في أيامه[±] وكان أخوه ألكسندر محافظًا إلى حدّ التطرف ويكره الاشتراكيين، وكان فرويد يحب سماعه حين يناقش مساوئ الاشتراكية وكانت ابتسامة التعبير عن اقتناعه التام بما يقول لا تغادر محيّاه[12]. وأثناء الحرب الأهلية الأولى في فيينا عام 1927، التزم آل فرويد الحياد، لكن «لما اندلعت الحرب الأهلية الثانية في صيف 1934، كانت أسرة فرويد أيّ شيء إلا محايدة... كل تعاطفنا»، كتب مارتن ابن فرويد، «كنّا في صف المستشار دولفوس وخليفته شوشنيغ»[13]. كان حكم دولفوس دينيًّا واستبداديًّا، «نوع من الحكم الفاشي إلى حد ما»[14] رغم مناهضة النازية. وحسب مارتن فرويد، الذي علّق صورة دولفوس على حائط دار النشر، «أصبح أغلبية سكان فيينا الاشتراكيين معادين لحكم دولفوس بعد هزيمتهم في الحرب الأهلية الأولى»[15]. لم يكن فرويد الشخص الوحيد الذي اصطف إلى جانب دولفوس. ولقد أيّد الساخر كارل كراوس الذي كان ينتقده في ما مضى، حكم دولفوس رغم أنه «يمثّل كل ما قاومه كراوس (مثل فرويد) بشراسة في سنواته الأولى»[16].

تملّق فرويد حتى لموسوليني. أحضر رائد حركة التحليل النفسي الإيطالية إيدواردو ويس مريضة لمقابلة فرويد، بعد فترة علاج ناجحة نسبيًّا[17]. وقد كانت مصحوبة بوالدها، مسؤول كبير في حكومة موسوليني، تبيّن لاحقًا حسب مؤرخ معاصر أنه لم يكن سوى «ناطق باسم» موسوليني، وإثر المقابلة طلب من فرويد أن يُهدي أحد كتبه لموسوليني. ورأى فرويد أنه إن رفض طلبه قد يلحق ضررًا ليس فقط بإيدواردو ويس ولكن أيضًا بالتحليل النفسي بإيطاليا، ولكن تصديره، في «لماذا الحرب؟» لرسالتين مفتوحتين له ولألبرت اينشتاين، ربما فيه إسراف في السخاء مبالغ فيه حيث جاء فيه: «بينيتو موسوليني، تحية واحترامًا من رجل طاعن في السن يعترف بالحاكم البطل المثقف»[18].

إن اهتمام فرويد بعلم الآثار قاده للاعتراف بحفريات موسوليني الجديدة في روما، ولكن لم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ. وربما، بسبب السذاجة اختار فرويد أن يُقدّر ارتباطات ويس السياسية في إيطاليا بشكل مبالغ فيه. وعلى هذا الأساس المتمثّل في أن

(±) في شباط/ فبراير عام 1918 كتب فرويد معبّرًا عن «أسفه» عن ثروة الروسية «لأنها فقدت مصداقيتها بسبب سياساتها الراديكالية... ما يحتاجه الوحش الآدمي قبل كل شيء هو الكبت. باختصار ينمو المرء رجعيًّا...»[11].

ويس عالج ابنة زعيم إيطالي، على ضعفه، كتب فرويد في عام 1934 أن «ويس نفذ مباشرة إلى موسوليني...»[19] وفي الواقع، كان فرويد مناهضًا للفاشية دون أي جاذبية سياسيَّة تُذكر تقريبًا، وحتى جونز (جزئيًّا بسبب التماهي مع فرويد) لم يبالغ فقط في تقدير اهتمام موسوليني بحماية التحليل النفسي في إيطاليا، ولكن تخيَّل أيضًا أن موسوليني ساعد فرويد فعلًا على الخروج من فيينا عام 1938[20]. هذا صحيح، ذلك أن موسوليني حاول حينها أن يمنع هتلر من اجتياح النمسا، ومن هنا نفهم إشارة فرويد المختصرة في كتابه «موسى والتوحيد» التي جاء فيها: «مع عنف شبيه» لذلك الذي استخدمه الشيوعيون الروس، اعتقد فرويد أنه «يجري تدريب الشعب الإيطالي حتى يدركوا النظام والشعور بالواجب». ولئن اعتقد فرويد بأن عِبَرًا إيجابية يمكن استخلاصها من «تجارب» الاتحاد السوفيتي وإيطاليا، فقد رأى في ذلك «تخفيفًا من وطأة الخوف القمعيّ حين نرى في حالة الشعب الألماني بأن عودة إلى همجية ما قبل التاريخ تقريبًا يمكن أن تحدث كذلك دون أن تصحبها أفكار تقدّمية»[21].

بعدما تولى النازيون السلطة في ألمانيا، حل فليكس بوهم (غير اليهودي) محل ايتنغون (البولندي اليهودي) رائدًا لجمعية برلين. وكان الوضع حرجًا آنذاك. زار بوهم فرويد في فيينا، وقال إنه يرغب في دعوة محاضر من جمعية فيينا إلى برلين. وقد اختار لهذه المهمة محللًا شابًّا، يدعى ريتشارد استربا، واحد من غير اليهود القليلين البارزين في مجموعة فيينا للتحليل النفسي. ولئن أبدى استربا موافقته على الدعوة إلا أنه اشترط أن يُستدعى زميل يهودي أولًا. ودُرس أدلر ويونغ عندما كان بوهم رائدًا لمعهد برلين للتحليل النفسي، أخبر فرويد بوهم أنه مستعد للتضحيات ولكن ليس للتنازلات، التي بلغت حدّ إدانة بوهم، في نظر فرويد، بالحط من التحليل النفسي[22].

عندما دخل النازيون فيينا تزايدت مصاعب أعضاء حلقة فرويد نفسه. وبعد الاجتياح، لاحظ فرويد في آخر اجتماع لمجلس إدارة جمعية فيينا للتحليل النفسي، «لقد تعوّدنا جميعًا على الاضطهاد، من تاريخنا، من تقاليدنا، وبعضنا من تجربتهم الشخصية». ثم أضاف ما عدا استربا. وفي جملة وردت لاحقًا في «موسى والتوحيد»، قال فرويد لتلاميذه: «طلب الحاخام جوشنان بن زاكي مباشرة بعدما دمّر تيتوس الهيكل في القدس، إذنًا ليفتح أول مدرسة للتوراة في مدينة يبنا»[23]. وبالنسبة لفرويد تعلن نهاية التحليل النفسي في فيينا عن بداية شتات جديد. ورغم أن محللًا واحدًا فقط من فيينا، سادغر، الذي لم تكن علاقته

في ما مضى على ما يرام مع فرويد، لقي حتفه على أيدي النازيين، ويعود ذلك بشكل كبير إلى شجاعة أشخاص أمثال جونز وماري بونابرت، وتأثيرهما منذ أن وصلا مباشرة إلى فيينا لحماية فرويد فور اجتياح النازيين للمدينة. فبفضل مساعدتهما وأموالهما، بالإضافة إلى مساعدة ويليام بوليت، الذي صار بعد ذلك سفير أميركا في فرنسا، أمكن افتداء فرويد، ورغم أن المحللين في فيينا استاءوا من بقاء فرويد طويلًا جدًّا دون حماية رغم هيبته، فإن الأمر لم يكن أقل سوءًا بالنسبة لآخرين في حلقته.

من منظور زمننا الحاضر، يبدو فرويد كشخص من بلد غريب في قرن آخر، ورغم أنه عاش مدة لا يستهان بها في القرن العشرين، فقد كان حقًا ممثلًا للقرن الذي سبقه. ومن بين الخصال التافهة ولكنها ميَّزت حياته اليومية في رتابتها «أن حلاقًا كان يتردد عليه كل صباح ليشذّب لحيته وشعره متى كان ذلك ضروريًا»[24]. وبالنسبة لأتباعه القاريين، كان يظهر رغم تقدمه في السن كما لو كان ذلك المدرّس الجامعي النموذجي في تسعينيات القرن التاسع عشر، وأما حلقات فيينا الطبية فما زالت تستمد شموخها من أمجاد ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، عندما كانت مدرستهم الطبية الأفضل في أوروبا.

يجب أن يتفهم المرء تلك الجوانب الثقافية في شخصية فرويد إذا أراد أن يأخذ في عين الاعتبار صفاته العصابية. وقد صارت بعض تلك الصفات، مثل وسواسه القهري ووضوحه وكذلك صلابته في التفكير، أكثر بروزًا كلما تقدّم في السن. وفي توافق مع ثقافة عصره، كان فرويد كثير الطقوس، وتلك غريزة، قادت، يقينًا، أحد أعضاء جمعيته، ويدعى رودولف فون اربنتشيتش، عندما سعى من أجل أن يترأس فرويد رسميًا المركب الصحي الجديد في البلاد، إلى أن يعرض عليه أن يبني له مكتبًا في بيته الجديد بمواصفات مكتبه القديم نفسها[25].

اعتبر فرويد مرة وسواسه كطريقة في «التعبير عن المشاعر الشديدة، التي أصبحت مع ذلك لا واعية بسبب الكبت، تحولت إلى أفعال تافهة بل حتى حمقاء»[26]. وفي سنواته الأخيرة كان كل شيء غير متوقع أو لا يمكن التحوّط منه يثير قلق فرويد ويقض مضجعه. وذات مرة طرق باب تانت مينا لأنها تركت عنده قلمًا طلبه منها لكتابة دراسته من أجل أن يُعيده لها. وإذا أخذنا في عين الاعتبار صرامة هذه الحاجات، فلا غرابة إذن فيما يبدو أن يصبح فرويد جامع طوابع وإن كان نشاطه في هذا المضمار متوسطًا، وعادة ما كان مكتبه يعج بالطوابع وأحيانًا كان يُرتّبها مساءً في صحائف[27].

دائمًا ما مثلت السيطرة الفكرية بالنسبة لفرويد شأنًا عظيمًا، وهذه الحاجة حفزته لدراسة الأحلام، حتى وإن منعته من فهم بعض الانفعالات مثل «سرعة الزوال» أو «الشعور المحيطي». ولقد استخدم فرويد كلمة «خارق للطبيعة» بدل فضفاض، لذلك أحيانًا يبدو أن أي شيء غير عقلاني خالص، غامض بالنسبة له. وكلما تقدم فرويد في السن ضاقت شخصيته.

يمكن أن نستخلص درسًا هاهنا بشأن فكرتنا عما يكون سويًا. ما هو خاطئ حقًّا حول صورة فرويد التي أخذناها عن أغلب أتباعه الأرثوذوكس تلك التي تقود إلى تصوّر بورجوازي خاطئ ولا طائل من ورائه لنطاق السلوك السويّ. كما أصبح فرويد ضمن بعض الوجوه عظيمًا من خلال قدرته على التحمّل والصبر وضبط النفس، فقد تحمّل طيلة سنوات عديدة الألم الجسدي الحاد حتى تراجعت قدراته. إن لضبط النفس ثمنه بالنسبة للانفتاح الإنساني، فمهما كانت مزايا مثل هذه السيطرة فإن لها أيضًا قيودها التي لا فكاك منها.

لقد يسّر انضباط فرويد وانتظامه حياته اليومية، فقد ساعده في تنظيم أفكاره وتأليف كتبه، وكان يسخط على المعرفة غير المحايدة، ومع ذلك يدّعي أن «في تقييد أهدافك»، «براعة». ولكن إذا وجد فرويد نفسه معزولًا جدًّا في شيخوخته، فذلك يعود في جزء منه لأن شيء ما فيه قد مات بالفعل. عندما أشاد تلميذ شاب في عام 1928 بكتاب «مستقبل وهم» رد فرويد عليه: «إنه أسوأ كتبي!... هذا ليس كتابًا لفرويد... هذا كتاب لرجل طاعن في السن!... علاوة على ذلك ففرويد قد مات، وصدقني، فرويد الحقيقي كان فعلًا رجلًا عظيمًا. آسف لأنك لم تعرفه جيّدًا»[28].

إنه فرويد الطاعن في السن الذي أصبح حكيمًا في سنواته الأخيرة. لقد حقق سكينته النهائية بعد صراع مرير مع المرض والأم. عندما زاره ستيفان زويغ في لندن، اعتقد كما يقول «لقد علمتني تجربتي الأولى كحكيم حقيقي، متعالٍ عن نفسه، أنه لم يعد لا الألم ولا الموت يعتبران كتجربة شخصية وإنما كمسألة فوق شخصية تتعلق بالملاحظة والتأمل، لم يكن موته أخلاقيا أقل حقيقة من حياته»[29]. وكانت استقالة فرويد الأولمبية وفاءً لرصانته، وجاء في شاهد نصي سيئ يُفضله[30]: «كلنا مدينون للطبيعة بالموت» (كتب شكسبير: «أنت مدين لله بالموت»). وفي صورة أخذت له في لندن، تُظهر آثار الألم على وجهه، بدا فرويد كالمسيح كما يظهر في تمثيلات كثيرة.

لقد اقتنع بأن يغادر إلى لندن[*] بعد أن احتجز الغستابو (البوليس السري النازي) ابنته آنا بصفة وقتية. وبعد إطلاق سراحها أخبرت فرويد أن عليها، في مقابل ذلك، أن تحضر إلى مركز الشرطة يوميًّا. فقال لي «وبطبيعة الحال رفضتي الامتثال لذلك الأمر المهين»[31]. ولقد تفشت ظاهرة الانتحار آنذاك، خاصة بين النمساويين غير القادرين على تحمل أعباء الحياة أو غير الراغبين في مواجهتها. وبطبيعة الحال شدّ فرويد من أزر ابنته آنا في مواجهة هذا التيار.

في باريس، توسط بوليت، المريض السابق لفرويد، لدى الرئيس روزفلت من أجل فرويد، لكن بوليت لم يثق في أن يقدِّم روزفلت أي شيء في هذا الاتجاه. كان القنصل الأميركي يرسل ممثلًا عنه كل يوم للتوسط لدى الغستابو في شأن فرويد. وقد سعى السفير الألماني في فرنسا هو أيضًا، بحسب بوليت، من أجل إطلاق سراح فرويد. ولما وافق فرويد على المغادرة، توجب عليه أن يتخذ خطوات ضرورية مع السلطات السياسية الجديدة في النمسا، ولم يغادر حتى 4 حزيران/ يونيو 1938. وكانت كل من ماري بونابرت وآنا فرويد تقضيان جزءًا من وقتيهما في تصنيف رسائل فرويد، وكانت تحرقان في المساء بعضًا من مقالاته. رغم أنه من الضروري أن يحتفظ بالكثير من مكتبة فرويد بعده، لكن النقود التي دعمت بها ماري بونابرت (ما يناهز خمسة آلاف دولار، أعادها إليها فرويد في لندن) ساهمت في إحراز تقدم مهم في علاجه.

رغم أن أقارب فرويد والمحللين نجحوا في المغادرة، فقد تخلّفت عن ذلك شقيقاته الأربع اللائي ما زلن آنذاك على قيد الحياة. ترك فرويد وأخيه ألكسندر أموال شقيقاتهما، لأنه كان من المستحيل على ما يبدو (حسب جونز) أن يحضرانها إلى إنكلترا وأن يستثمرانها. لم يدرك كثيرون حتى ذلك الحين مدى التهديد النازي. ورغم ذلك حاولت ماري بونابرت، لاحقًا في العام ذاته، أن تصطحب معها شقيقات فرويد إلى فرنسا، ولكن البيروقراطية حالت دون ذلك. وقد قُتلت شقيقات فرويد جميعهن في معسكرات الاعتقال أثناء الحرب.

لقد كشف فرويد عن مجموعته الفنية المتكوِّنة من الآثار القديمة التي أحاط بها نفسه، لكل منها قصتها الخاصة، أين ومتى وجدها، أو من أهداها له. كان فرويد يحرص دائمًا

(*) ربما لم تكن صحة فرويد تسمح له بالذهاب إلى أميركا.

بدقة على الحفاظ على الترتيب ذاته لرموز الآلهة الصغيرة على مكتبه، وفي بيته في 20 مارسفيلد في لندن استطاعت خادمته مستفيدة من ذاكرتها «أن تُعيد ترتيب أغراضه تلك على تنوعها على مكتبه حسب ترتيبها الدقيق، حتى أنه شعر كأنه في منزله منذ وصوله إلى هناك»[32].

لقد زار فرويد إنكلترا أول مرة عندما كان في التاسعة عشر من عمره، وبالنسبة له تظل دائمًا موطن الاضطهاد. لقد شارك في نشاطات التحليل النفسي في بريطانيا من ذلك أنه حضر اجتماعين تحريريين للمجلة العالمية للتحليل النفسي، كان يصغي ويترك لكل شخص أن يبدي رأيه، ثم في الأخير يُعبّر عن رأيه، الذي يُقبل. ولكن كان فرويد آنذاك، أساسًا، في انسحاب تام، ضيف في بلد أجنبي. عقله ما زال نشطًا، لكنه لم يكن حقيقيًا قادرًا على إنجاز أي عمل جديد، وبدا بالنسبة لأولئك الذين لم يرونه منذ مدة وكأنه منكمش. لم يكن يتكلم بطلاقة، لكن أعدّ تسجيلًا صوتيًا تنبأ فيه بأن النضال من أجل التحليل النفسي لم ينته بعد.

زاره آرثر كوستلر وغادره وقد جالت في خاطره فكرة أنه «رغم أنه ضعيف ووهن... إلا أن الانطباع السائد أنه لم يكن ذلك المريض في الثمانين من عمره، ولكنها حيوية البطاركة العبريين التي لا تذوي»[33]. وقد دفع ليونارد وولف، ناشر فرويد بلندن، ثمن مكالمة مع زوجته الروائية فيرجينيا، كان فرويد كيّسًا للغاية في البروتوكولات الرسمية، كما كان تقليديًا، من ذلك مثلًا أنه «قدَّم فرجينيا وبيده زهرة بطريقة احتفالية تقريبًا». ويعتقد وولف أنه «رجل لطيف بشكل خارق» يتمتع بهالة ليست من الشهرة ولكن من العظمة... كأن شيئًا ما في أعماق ذاته يشبه بركانًا يكاد ينفجر، شيئًا مبهمًا، مكبوتًا، يحتفظ به ... إنه رجل هائل»[34].

استعاد فرويد الإحساس بالدعابة. أحضر وولف قصاصة جريدة من لندن حول صدى المحاكم جاء فيها أن شخصًا سرق واحدًا من كتب فرويد من أكبر خزانة كتب بالمدينة، وأثناء إصدار الحكم عليه بثلاثة أشهر سجنًا، أضاف القاضي: «كنت أتمنى أن أحكم عليك فقط بقراءة كل كتب فرويد». فضحك فرويد[35]. وزاره أيضًا أشخاص آخرون، مثل أشعيا برلين، الذي اعتبر مقابلة فرويد فرصة جيدة. وخلال السنة الأخيرة من حياته، قدم إلى زيارته والاحتفاء به أتباعه ممن غادروا القارة، أو من أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة. عندما التقته إيفا روزنفيلد في عام 1939، لاحظت كيف أعيد ترتيب مكتبه بشكل

يكاد يكون متطابقًا مع مكتبه بجناحه القديم بفيينا. «كل شيء هنا»، لاحظ فرويد، «أنا فقط لست هنا».

واصل فرويد كتابة رسالته مشفوعة «بتعليق مختصر حول معاداة السامية»، جاء فيه أن وجهة نظر «غير اليهودي» من طريقة نقد الكثيرون لمعاداة السامية هي في الحقيقة مناصرة غاية في الإسراف لليهود:

«ليس لنا الحق بأن ننظر لهم نظرة دونية. ففي الواقع هم أعلى شأنًا منّا ضمن بعض الوجوه، إنهم لا يحتاجون الكثير من الكحول كما نفعل نحن من أجل تحمل أعباء الحياة، الجرائم الوحشية والقتل والسرقة والعنف الجنسي، مظاهر تكاد تكون منعدمة في أوساطهم، إنهم يُعلّون من شأن المنجزات والاهتمامات الفكرية، حياتهم الأسرية حميمية بشكل كبير، يعتنون بالفقراء، الصدقة واجب مقدّس بالنسبة إليهم... لذا حريّ بنا في نهاية المطاف أن نتوقف عن محاباتهم عندما يطالبون بالعدالة»[36].

لم يتمكن فرويد من تذكّر مصدره، وقد اعتقد إرنست جونز وكذلك آنا فرويد أن فرويد انخرط في الاقتباس الذاتي، وهو ما سيكون تحديًا آخر غريبًا لاهتمام فرويد طويل الأمد بالأولويات، أكد فرويد استقلاليته وأهدى أفكاره الخاصة لمجهول غير يهودي. ويعتقد جونز أنه لو أن فرويد ابتدع هذه الفقرات للمناسبة بدلًا من اقتباسها من شخص آخر، فقد «صاغ في كلمات ما الذي يتعيّن على غير اليهودي فعله، وتصريحه بتمنع العثور على الأصل يُشكّل تبكيتًا أخرق»[37].

ومن بين الأسباب الرئيسة لتردد فرويد حول مغادرة فيينا هو أن يكون معتمدًا على أطباء لم يتعوّدوا على حالته وهذا احتمال غير سار. ولقد تبين أن أطباءه بلندن استغرقوا وقتًا طويلًا في تشخيص ظهور الأورام الخبيثة من جديد. واعتقدت ماري بونابرت أن أطباءه بلندن كانوا يخشونه. وكانت للجراح الفيينّي، بيتشلر، طريقة قاسية حيث أجرى عليه عملية جراحية منذ ظهور علامات المرض أول مرة. ومع نهاية شهر شباط/ فبراير 1939 تبيّن لأول مرة أن سرطانه غير قابل للجراحة ولا يمكن أن يُشفى منه. وبقطع النظر عمّا إذا كان العلاج متاحًا، فقد عانى في السادس من أيار/ مايو، آخر عيد ميلاد له، من ألم مفزع. ورغم ذلك كان يستقبل باستمرار أربعة مرضى حتى نهاية تموز/ يوليو. وفي حزيران/ يونيو كتب «عالمي هو ذاته ما كان عليه من قبل... جزيرة صغيرة من الألم عائمة

في بحر اللامبالاة»[38]. عندما كان قام طبيبه الشخصي شور برحلة خاطفة إلى الولايات المتحدة كخطوة أولى للحصول على الجنسية، شعر فرويد حينها وكأن شور قد تركه، شأنه في ذلك شأن بقية عالم فرويد.

إنه لمؤلم بالنسبة لأولئك الذين أحبّوا فرويد أن ينظروا إليه، وكانت بداية النهاية عندما توقف عن استقبال المرضى. وفي الشهرين الأخيرين من حياته لم يعد يقوى على مزاولة مهنته البتة[39]. ومع ذلك لم يتوقف عن المطالعة، ودار نقاش بين جونز وشور حول أهمية طباعة آخر كتاب قرأه فرويد وقد كان رواية «الجلد المسحور» لبلزاك. وقد افتتن فرويد بها لأن كل شيء بالنسبة إليه ينكمش ويتقلص كما في الرواية، وهو يعلم أن النهاية ليست بعيدة. (ولكن جونز أُحبط لمّا سمع من آنا عن عشق فرويد للقصص البوليسية وخاصة عمليات الملاحقة، وكان يعشق أغاثا كريستي ودوروثي سيارز بشكل خاص[40]).

وتتمثل الأسطورة الرائجة بين تلاميذ فرويد في أن عقل فرويد كان مبيَّنًا تمامًا حتى النهاية. ويأتي الدليل على ذلك من ماكس شور وآنا فرويد أساسًا. ورأى فيه آخرون مثل زوجة البروفيسور شخصًا غريبًا ومختلفًا[41]. وعندما توقفت الدكتورة أندرا المحامية الفيينّية الودودة في أيار/ مايو لترى فرويد في رحلة عودتها لفيينا من أميركا، قال لها فرويد: «الآن أنت تعودين إلى... ما اسم المكان؟» (فسر جونز ذلك على أنه ليس نسيانًا كما تبادر إلى ذهن أندرا وإنما «كتظاهر بفقدان الذاكرة للتعبير عن نضاله من أجل نسيان فيينا»)[42].

ومع ذلك، لا يعني هذا بالضرورة تناقضًا بالنسبة لآنا ولشور بين أن يكون فرويد قد تحوّل جزئيًا وبين أن يكون سويًا. فالمهم بالنسبة إليهما أن يستمر في الحياة حيث تخلى عنه باقي العالم. وكان حذرًا قدر المستطاع في علاقته بآنا وشور، وقد نقلا ما شهدوه بدقة. بيد أن فرويد كان يميل إلى أن تكون ردود أفعاله منفردة، وعلينا أن نأخذ في عين الاعتبار الإطار الخاص الذي كان آنا وشور يراقبانه فيه.

ظل فرويد يكتب الرسائل حتى الأيام القليلة الأخيرة قبل وفاته بشكل واضح. ويعتبر مختصر التحليل النفسي المخطوطة الأهم التي لم ينهيها، وقد تخلى عنه فرويد في أيلول/ سبتمبر عام 1938، لذلك لا يُخبرنا بشيء عن حالته الذهنية في النهاية. وليس غريبًا أن يكون قد تعرّض للتسمم، وإذا كان أحد قد مات موتًا حقيقيًا في ما مضى فهو فرويد.

لقد توفي بعد معاناة مريرة، فقد تقدمت به السن وأعياه المرض حتى كان الموت

خلاصًا له في النهاية. كانت وجنته مثقوبة من الخارج من أجل توفير أفضل الضمانات لمعالجة طبية للسرطان. وبدأ جرحه يفرز رائحة تعفن مفزعة، حتى أن كلبه المدلل امتنع عن الاقتراب منه في آب/ أغسطس. ومن ثم بدأ يواجه مشاكل في التغذية حتى افتقد شهية الأكل، وكان يستيقظ عند منتصف الليل، وكانت آنا تسأله إن كان بإمكانه أن يتناول أي طعام، لقد كان كطفل يحتاج إلى الرعاية، ورغم ذلك كيّسًا كعادته مع الخادمة، بولا، التي تعد طعامه. وكان بين الفينة والأخرى مُهددًا بخطر الجوع، على مدى سنوات وأما حينها فقد صار الأمر واقعًا.

وفي خضم ذلك كله قبل فرويد تدخلًا طبيًا محدودًا جدًّا. فقد كان يتناول أحيانًا الأسبرين فقط. «أفضّل أن أفكّر وأنا أتعذب على ألا أكون قادرًا على أن أفكّر بوضوح»[43]. ولما قربت نهايته، تناول مستحضرًا مستخلصًا من الكوكايين خفف عنه وطأة بؤسه.

لقد مدّد اعتناء آنا فرويد وتمريضها لوالدها، وكذلك تيقظها الوقائي في مواجهة تطور الأورام السرطانية على مر سنين، في أنفاسه. ولكن في صيف عام 1939 بدأ مرضه يسمح بقتله. ولو كان الأمر بيد شور لكان وضع حدًّا لمعاناته على الأقل قبل أسابيع[44]. لقد كان مؤلمًا بالنسبة لشور أن يرى فرويد في ما تبقى من عمره في غرفة تمريض، ثقب مفتوح في وجنته، وقد بسطت عليه ناموسية تحميه من الذباب. لكن آنا فرويد لم تتحمّل أن تسمح لشور أن يفعل ذلك. (لم تؤخذ وجهات نظر زوجة البروفيسور في هذه المرحلة في عين الاعتبار على الإطلاق). لم يرغب فرويد في تناول المورفين أو هو لم يقوَ على ذلك.

حتى ثلاثة أيام قبل وفاته لم يتوقف فرويد عن القراءة والانهمام بالأشياء، لكن كان تخلّيه عن آخر كتاب دليلًا واضحًا على دنو أجله. في 21 أيلول/ سبتمبر 1939، قال لطبيبه: «عزيزي شور، هل تتذكر أول حديث بيننا حيث وعدتني آنذاك بأنك ستساعدني عندما لا أقوى على التحمّل. إنه الآن مجرد عذاب ولم يعد له أي معنى». وعد شور بتخدير فرويد ومنحه حق القتل الرحيم. لقد كان ضعيفًا جدًّا ولا يمكن أن يستجيب للمواد المخدرة بحيث كان يمكن للجرعة الصغيرة من المورفين التي أعطاه إياها شور في الصباح التالي أن تساعده على النوم. لقد مات في 23 أيلول/ سبتمبر. وعلاوة على ما أوصى به إلى مارتن وإرنست، ترك فرويد ممتلكات (عشرين ألف جنيه إنكليزي) لكل الأسرة، يمكن لمارتا أن تسحب منها ما تشاء. وأوصى بالمكتبة التحليلية ومجموعة الآثار القديمة تخصيصًا لآنا[45]. وخلافًا للعادات اليهودية، تم إحراق فرويد بغولدر غرين في لندن في 26 أيلول/

سبتمبر. وألقى إرنست جونز وستيفان زويغ كلمة بالمناسبة ثم وُضع رماد فرويد في جرّة إغريقية مميزة تحفظه كانت قد أهدتها له ماري بونابرت. ومنذ وفاته دأب نفر من أتباعه على التجمع في ذكرى عيد ميلاده وذكرى وفاته في محرق الجثث.

الهوامش

1 ـ المرض

(1) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 43; Robert, The Psychoanalytic Revolution, pp. 222-23; interview with Smiley Blanton.

(2) Schur, «The Medical Case History of Sigmund Freud», p. 12.

(3) Letters of Freud and Zweig, p. 143.

(4) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 121.

(5) Letters of Freud and Zweig, pp. 5-6.

(6) «Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction Between the sexes», pp. 248-49.

(7) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 98-99. Cf. also manuscript by Rudolf Urbantschitsch (Jones archives), as well as letters from Urbantschitsch to Ernest Jones, June 12 and July 31, 1956 (Jones archives).

(8) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 89-90.

(9) Felix Deutsch, ed., On the Mysterious Leap from the Mind to the Body (New York: International Universities Press; 1959), p. 28.

(10) Interviews with Helene Deutsch, Aug. 20 and Aug. 27, 1956. Felix Deutsch, «Reflections on the Tenth Anniversary of Freud's Death». Letter from Felix Deutsch to Ernest Jones, Jan. 31, 1956 (Jones archives).

(11) «New Introductory Lectures», p. 105.

(12) Schur, Freud, pp. 353, 187, 38. Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 90.

(13) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 90

(14) Ibid., p. 91.

(15) Ibid.

(16) Ibid., p. 93.

(17) Ibid., p. 94. Cf. letter from Anna Freud to Ernest Jones, Mar. 7, 1955 (Jones archives).

(18) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 93.

(19) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 241.

(20) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 99.

(21) Ibid., p. 93.

(22) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Jan. 4, 1956 (Jones archives).

(23) Letter from Felix Deutsch to Ernest Jones, Feb. 13, 1956 (Jones archives).
إلا أن هيلين دويتش في كتابها مواجهات مع نفسي طرحت فرضية جديدة أن زوجها «أخفى التشخيص مخافة الإصابة بنوبة قلبية...». Cf. p. 169.
بيد أن فليكس دويتش نفسه في «تأملات في الذكرى العاشرة لوفاة فرويد» وفي رسائل إلى جونز، ناقش احتمالية الانتحار والقتل الرحيم دون ذكر خطر النوبة القلبية.
Cf. also Jones, Sigmund Freud, Vol. III, pp. 90, 92-93.

(24) Schur, Freud, p. 354.

(25) Deutsch, «Reflections on the Tenth Anniversary of Freud's Death», p. 7.

(26) Bennet, C. G. Jung, p. 40.

(27) Quoted in Schur, Freud, p. 214.

(28) Interview with Helene Deutsch, Aug. 27, 1966.

(29) Quoted in Stekel, Autobiography, p. 142.

(30) Schur, Freud, pp. 426, 287.

(31) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, June 16, 1954 (Jones archives).

(32) Letters, p. 344.

(33) Quoted in Binswanger, Freud, pp. 78-79.

(34) Letters, p. 386.

(35) «The Psychopathology of Everyday Life», p. 155.

(36) Schur, Freud, p. 394.

(37) Interview With Oliver Freud.

(38) «Civilization and Its Discontents», p. 77.

(39) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 211.

(40) Letters of Freud and Zweig, pp. 3, 10.

(41) «The Future of an Illusion», p. 36.

(42) Letters of Freud and Zweig, pp. 8-9.

(43) «Civilization and Its Discontents», p. 93.

(44) «Group Psychology and the Analysis of the Ego», p. 91.

(45) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 159.

(46) Interview with Richard Sterba.

2 ـ المنشقون

(1) Deutsch, «Freud and his Pupils», p. 194.

(2) Herbert W. Schneider, The Puritan Mind (Ann Arbor: University of Michigan Press; 1958), p. 98.

(3) Letters of Freud and Zweig, p. 72.

(4) Von Weizaecker, «Reminiscences of Freud and Jung», p. 66.

(5) Bernfeld, «Freud's Earliest Theories and the School of Helmholtz», p. 359.

(6) Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, p. 755.

(7) Weiss, Sgmund Freud as a consultant, p. 52.

(8) Letters, p. 365.

(9) Weiss, Sgmund Freud as a consultant, p. 53.

(10) Ibid., p. 58.

(11) Deutsch, «Freud and his pupils», p. 193.

(12) Ernst Simmel, «Sigmund Freud», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 9, No. 1 (1940), p. 172.

(13) Letters of Freud and Zweig, p. 144.

(14) Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, p. 37; Sachs, Freud, pp. 106-07; «An Autobiographical Study», pp. 63-64; «Address Delivered in the Goethe House at Frankfurt», p. 211; Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 457-58.

(15) «New Introductory Lectures», p. 144.

(16) Interview with Harold Lasswell.

(17) IlseOllendorf Reich, Wilhelm Reich (New York: St. Martin's Press; 1969), p. 14. Interview with Annie Reich.

(18) Copies of these are in the Jones archives.

(19) Reich Speaks of Freud, p. 8.

(20) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, May 2, 1933 (Jones archives).

(21) Reich, Wilhelm Reich, p. 46.

(22) Blanton, Diary of My Analysis with Sigmund Freud, p. 117.

(23) Nunberg, Memoirs, pp. 65, 46.

(24) SandorRado, «The Problem of Melancholia», International Journal of Psychoanalysis, Vol. 9, Part 4 (Oct. 1928), pp. 420-38.

(25) Interview with Sandor Rado, Apr. 4, 1967.

(26) Jeanne Lampl-de Groot, «Review of Rado's Die Kastrationangst des Weibes», Internationale Zeitschrift fur Psychoanalyse, Vol. 25 (1935), pp. 598-605.

(27) Frederick S. Perls, In and Out the Garbage Pail (New York: Bantam; 1972), p. 56.

(28) Sandor Rado, «Sandor Ferenczi», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 2 (1933), pp. 356-58.

(29) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, Dec. 19, 1934 (Jones archives).

(30) Alexander, The Western Mind in Transition, pp. 55, 81.

(31) Franz Alexander, The Scope of Psychoanalysis (New York: Basic Books; 1961), p. 539.

(32) Interviews with Robert Jokl and Martin Grotjahn.

(33) Cf. Martin Birnbach, Neo-Freudian Social Philosophy (Stanford: Stanford University Press; 1961).

(34) Cf. Alexander's critique of Horney's New Ways in Psychoanalysis, in The Scope of Psychoanalysis, pp. 137-64.

(35) Alexander, «Sandor Rado», in Psychoanalytic Pioneers, p. 240.

(36) Eissler, «The Chicago Institute of Psychoanalysis and the Sixth Period of the Development of Psychoanalytic Technique», pp. 103-57. Cf. also Edward Glover, «Freudian or Neo-Freudian?», The Psychoanalytic Quarterly, Vol. 33, No. 1 (1964), pp. 97-109.

(37) Letter to me from Erich Fromm, Aug. 27, 1970.

(38) Cf. Roazen, «Introduction», Sigmund Freud (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall; 1973).

3 - إريكسون وهارتمان

(1) Interview with Erik Erickson, Oct. 31, 1966.

(2) Erik Erickson, «Autobiographical Notes on the Identity Crisis», Daedalus, Vol. 99, No. 4 (Fall 1970), p. 740.

(3) Letter from Ernest Jones to Anna Freud, Sept. 19, 1933 (Jones archives).

(4) Interview with Ives Hendrick.

(5) Letter from Abraham Brill to Ernest Jones, Nov. 17, 1933 (Jones archives).

(6) Evans, ed., Dialogue with Erik Erikson, p. 85.

(7) Interview with Willy Hoffer.

(8) Quoted in Sachs, Freud, p. 103.

(9) Yankelovich and Brrett, Ego and Instinct, p. 138.

(10) Ibid., p. 151.

(11) Evants, ed., Dialogue with Erik Erikson, p. 95.

(12) Kurt Eissler, Discourse on Hamlet and «Hamlet» (New York: International

Universities Press; 1971), p. 518.

(13) Yankelovich and Brrett, Ego and Instinct, p. xi.

(14) Ibid., p. 97.

(15) «New Introductory Lectures», p. 112.

(16) Cf. Heinz Hartmann, Essays in Ego Psychology (New York: International Universities Press; 1964).

(17) Edward Glover, «Some Recent Trends in Psychoanalytic Theory», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 30, No.1 (1961), pp. 90, 87.

(18) «New Introductory Lectures», p. 60.

(19) Letter from Heinz Hartmann to Ernest Jones, Nov. 11, 1955 (Jones archives).

4 ـ هوية أوسع نطاقًا

(1) «On the History», p. 43.

(2) «Introductory Lectures», Vol. 15, p. 76.

(3) Ibid., Vol. 16, pp. 284-85.

(4) «A Difficulty in the Path of Psychoanalysis», pp. 139-41.

(5) Letter from Rudolf von Urbantschitsch to Ernest Jones, May 29, 1956 (Jones archives). Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 189; cf. ibid., Vol. III, P. 234, and Letters of Freud and Zweig, p. 163.

(6) Henry A. Murray, «Sigmund Freud», American Journal of Psychology, Vol. 53 (1940), p. 135.

(7) Letters of Freud and Zweig, p. 6.

(8) «An Autobiographical Study», p. 71.

(9) Ibid., p. 72.

(10) «New Introductory Lectures», p. 150.

(11) Letters, p. 446.

(12) Quoted in Martin Freud, Glory Reflected, p. 211.

(13) Interview with Richard Hoffman, June 2, 1965.

(14) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Apr. 8, 1954 (Jones archives).

(15) Letters of Freud and Zweig, p. 51.

(16) Letters, p. 403.

(17) Schur, «Medical History», p. 28.

(18) «Studies on Hysteria», p. 160.

(19) «The Question of Lay Analysis», p. 198.

(20) «Analysis Terminable and Interminable», pp. 244-45.

(21) Choisy, Freud, p. 5.
(22) «An Autobiographical Study», p. 70.
(23) Ibid., p. 71.
(24) «Beyond the Pleasure Principle», p. 64.
(25) «Introductory Lectures», Vol. 16, p. 381.
(26) «An Autobiographical Study», p. 72.
(27) Deutsch, «Freud and His Pupils», p. 193.
(28) «New Introductory Lectures», p. 76.
(29) Ibid., p. 77.
(30) «The Question of Lay Analysis», pp. 196, 198.
(31) «New Introductory Lectures», p. 68.
(32) Minutes, Vol. II, P. 100.
(33) «The Question of Lay Analysis», p. 209.
(34) Ibid., p. 217.
(35) «An Autobiographical Study», p. 72.
(36) «The Future of an Illusion», p. 23.
(37) «On the Teaching of Psychoanalysis in the Universities» Standard Edition, Vol. 17, p. 173.
(38) «New Introductory Lectures», p. 179.
(39) «The Resistances of Psychoanalysis», Standard Edition, Vol. 19, p. 221.
(40) «The Question of Lay Analysis», p. 248.
(41) «Psychoanalysis», pp. 266-67.
(42) «The Future of an Illusion», pp. 31-32.
(43) Letters of Freud and Zweig, p. 23.
(44) «Civilization and Its Discontents», p. 102.
(45) «The Future of an Ilusion», p. 8.
(46) «Why War?», p. 209.
(47) «Moses and Monotheism, p. 54.
(48) Ibid., p. 55.
(49) Letters of Freud and Zweig, p. 98.
(50) Cf. Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 205.
(51) «From the History of an Infantile Neurosis», p. 119.
(52) Letters of Freud and Zweig, p. 85.

(53) «Moses and Monotheism», pp. 32-33.

(54) Ibid., p. 13.

(55) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 21.

(56) «Moses and Monotheism», pp. 59, 20, 21-22.

(57) Ibid., pp. 60, 110, 47.

(58) Ibid., pp. 52, 106, 109-10.

(59) Ibid., pp. 115, 19, 24, 20, 134, 58

5 - منفى فرويد ووفاته

(1) Nunberg, Memoirs, p. 60.

(2) George S. Viereck, Glimpses of the Great (London: Duckworth; 1930), p. 34.

(3) William G. Niederland and Jacob Shatzky, «Four Unpublished Letters of Freud», Psychoanalytic Quarterly, Vol. 25 (1956), p. 154.

(4) Interview with Mark Brunswick, Jan. 25, 1966.

(5) Letters of Freud and Zweig, p. 45.

(6) Interviews with Mark Brunswick.

(7) Walter C. Langer, The Mind of Adolf Hitler (New York: Basic Books; 1972), p. 134.

(8) Quoted in Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 151.

(9) Quoted in ibid., p. 230.

(10) Letters of Freud and Zweig, p. 21.

(11) Letters of Freud and Andreas-Salomé, p. 75. For Freuid's feelings about the French Revolution, cf. «Interpretation of Dreams», Vol. 5, pp. 495-96.

(12) Letter from Mthilda Hollitscher to Ernest Jones, Feb. 16, 1956, and letter from Ernst Waldinger to Ernest Jones, Jan 11, 1956 (Jones archives).

(13) Martin Freud, Glory reflected, p. 196.

(14) Schur, Freud, p. 450.

(15) Martin Freud, Glory reflected, p. 197.

(16) Minutes, Vol. II, P. 383.

(17) Jones got his details wrong here. Cf. Sigmund Freud, Vol. III, P. 180. Interviews with Edoardo Weiss, Apr. 5 and May 8, 1965.

(18) Weiss, Sigmund Freud as a consultant, p. 20.

(19) Letters of Freud and Zweig, p. 92.

(20) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, PP. 192, 220-21. Interview Edoardo Weiss, May 10, 1965.

(21) «Moses and Monotheism», p. 54.

(22) Interview with Richard Sterba.

(23) «Moses and Monotheism», p. 115.

(24) Jones, Sigmund Freud, Vol. II, P. 382.

(25) Letter from Rudolf von Urbantschitsch to Ernest Jones, May 29, 1956 (Jones archives).

(26) «Leonardo da Vinci», p. 105.

(27) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, Jan. 16, 1956 (Jones archives).

(28) Quoted in Choisy, Freud, p. 84.

(29) Stefan Zweig, The World of Yesterday (London: Cassell; 1953), p. 422.

(30) «Thoughts for the Times on War and Death», Standard Edition, Vol. 14, p. 289.

(31) Martin Freud, Glory reflected, p. 217.

(32) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 232.

(33) Arthur Koestler, The Invisible Writing (Boston: Beacon; 1955), p. 408.

(34) Leonard Woolf, Downhill All the Way (London: Hogarth; 1967), pp. 168, 166, 197.

(35) Interview with Leonard Woolf, Aug. 17, 1965.

(36) «A Comment on Anti-Semitism», p. 292.

(37) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 240.

(38) Quoted in ibid., p. 242.

(39) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, May 15, 1955 (Jones archives).

(40) Letter from Anna Freud to Ernest Jones, June 16, 1954 (Jones archives).

(41) Interview with Mark Brunswick, Nov. 22, 1967.

(42) Jones, Sigmund Freud, Vol. III, P. 230.

(43) Quoted in ibid., p. 245.

(44) Interview with Max Schur.

(45) Letters from Anna Freud to Ernest Jones, Mar. 18, 1954, and Jan. 21, 1955 (Jones archives); Harry Freud, «My uncle Sigmund», in Freud As we Knew Him, ed. Ruitenbeek, p. 312.

قائمة بأسماء من قابلتهم

Dr. Hilda Abraham
Mrs. Karl Abraham
Dr. Alexandra Adler
Dr. Michael Balint
Dr. Therese Benedek
Dr. E. A. Bennet
Sir Isaiah Berlin
Mr. Edward Bernays
Miss. HellaBernays
Dr. Bruno Bettelheim
Dr. Carl Binger
Dr. Smiley Blanton
Miss. Berta Bornstein
Dr. John Bowlby
Dr. David Brunswick
Prof. Mark Brunswick
Mrs. Stephanie Dabo
Dr. Helene Deutsch
Dr. H. V. Dicks
Dr. Kurt Etissler
Prof. and Mrs. Erik Erikson
Mr. Ernst Federn
Dr. Michael Fordham
Dr. Thomas French
Mrs. Alexander Freud
Miss. Anna Freud
Dr. Esti Freud
Mr. and Mrs. Oliver Freud
Dr.and Mrs. Erich Fromm
Dr. William Gillespie
Dr. Edward Glover
Mr. Geoffrey Gorer
Dr. Roy Grinker Sr.
Dr. and Mrs. Martin Grotjahn
Dr. Heinz Hartmann
Dr. Leston Havens
Dr. Paula Heimann
Mrs. Judith Bernays Heller
Dr. Ives Hendrick
Mr. Albert Hirst
Mrs. Edward Histschman
Dr. Willi Hoffer
Dr. and Mrs. Richard Hoffmann
Mrs. Mathilda Freud Hollitscher
Dr. Otto Isakower
Dr. Edith Jackson
Dr. Jolandi Jacobi
Dr. Elliott Jacques
Dr. Robert Jokl
Mrs. Ernest Jones

Dr. Abram Kardiner
Dr. Anny Katan
Prof. Hans Kelsen
Mr. M. Masud Khan
Dr. Marianne Kris
Dr. Edward Kronold
Dr. Lawrence Kubie
Dr. Jeanne Lampl_de Groot
Prof. Harold Lasswell
Mrs. Elma Laurvik
Prof. Nathan Leites
Mrs. Kata Levy
Dr. John Mack
Mrs. Nada Mascherano_ Tausk
Prof. Heinrich Meng
Dr. Emmanuel Miller
Dr. Fritz Moellenhoff
Dr. Roger Money_Kyrle
Mrs. Merrill Moore
Prof. Henry Murray
Dr. Herman Nunberg
Mrs. Ochsner
Prof. Talcott Parsons
Dr. Sylvia Payne
Prof. Lionel Penrose
Dr. Irmarita Putnam
Dr. Marian Putnam
Dr. sandorRado
Mrs. Beata Rank
Dr. J. R. Rees
Dr. Annie Reich
Dr. Theodor Reik
Prof. David Riesman
Mrs. Eva Rosenfeld
Dr. Charles Rycroft
Mrs. Hanns Sachs
Dr. Philip Sarasin
Dr. and Mrs. Raymond Saussure
Dr. MelittaSchmideberg
Dr. Max Schur
Dr. Hannah Segal
Dr. René Spitz
Dr. Richard Sterba
Dr. Anthony Storr
Mr. and Mrs. James Strachey
Dr. John Sutherland
Dr. Marius Tausk
Dr. Victor Hugo Tausk
Dr. Alan Tyson
Mrs. Helene Veltfort
Dr. Robert Waelder
Dr. Richard Wagner
Dr. Edoard Weiss
Dr. Allen Wheelis
Prof. Robert White
Dr. and Mrs. George Wilbur
Dr. Donald Winnicott
Dr. Martha Wolfenstein
Mr. Leonard Woolf
Dr. Elizabeth Zetzel

تثبيت المصطلحات

1 ـ التحليل النفسي ـ Psychoanalysis
2 ـ غريزة الموت ـ Thanatos
3 ـ معالج ـ Therapist
4 ـ علم النفس ـ Psychology
5 ـ عقدة أوديب ـ Oedipus Complex
6 ـ سيرة ذاتية ـ Biography
7 ـ الأنا ـ Ego
8 ـ الأنا الأعلى ـ Super Ego
9 ـ اكتئاب ـ Depression
10 ـ وعي ـ Conscious
11 ـ لا وعي ـ Unconscious
12 ـ نقد ـ Criticism
13 ـ جمعية ـ Society
14 ـ علاقة ـ Relationship
15 ـ عصاب ـ Neurosis
16 ـ مجلة ـ Journal
17 ـ الهو ـ Id
18 ـ السيكوسوماتية ـ Psychosomatics
19 ـ عضوي ـ Organic
20 ـ فلسفة ـ Philosophy
21 ـ التحويل ـ Transference
22 ـ المقاومة ـ Resistance
23 ـ الأصالة ـ Originality
24 ـ انتحار ـ Suicide
25 ـ غريزة ـ Instinct
26 ـ عقل ـ Mind
27 ـ روحاني ـ Anagogic
28 ـ عقدة الخصي ـ Castration Complex
29 ـ حسد القضيب ـ Penis Envy
30 ـ كبت ـ Repression
31 ـ عجز جنسي ـ Sexual Impotence
32 ـ خيالات ـ Fantasies

فهارس عامة

فهرس الأعلام

ك

فهرس البلدان والأماكن

الكتاب

«فرويد وأتباعه»، الذي نشرُف بتقديمه إلى المكتبة العربية، كنز من المعلومات الاستقصائية حول شخصية جدلية لطالما شغلت الباحثين المتخصصين والمهتمين بالتحليل النفسي إلى الحد الذي بات موضع سجال واحتراب وتراشق بمختلف لغات العالم، كل من زاويته يحاول الاقتراب من «المتن الفرويدي» وربما امتلاكه.

بول روزان، الأكاديمي المتخصص في فرويد تحديدًا، والذي نشر عدّة كتب عنه، يحاول في هذا الكتاب تقديم شيء خارج تلك الصراعات حول فرويد عبر الاقتراب من فرويد داخل أقواس حياته العملية، حيث أجرى 110 مقابلات شفهية ومسجّلة وموثّقة لعائلة فرويد وأصدقائه والدائرة المحيطة به، وصولًا إلى مَن تبقى من مرضاه الذين بلغوا من العمر عتيًا، إضافة إلى منهجية تتّسم بالصرامة في قراءة نصوص فرويد ليرسم سيرة علمية مشفوعة بالشهادات الحيّة التي اقتنصها من مقابلاته، محاولًا وضع القارئ أمام «المتن الفرويدي» من دون هوامشه التي تضخمت عبر التاريخ منذ وفاته الجدلية كأفكاره وحياته.



